

تاريخ البيهقي

أبو الفضل البيهقي
نائب رئيس ديوان الرسائل
في عهد السلطان محمد الغزنوي

ترجمه إلى العربية

بتكليف من الإدارة العامة للثقافة ، وزارة التربية والتعليم بمصر

صادق نشأت

أستاذ بكلية المعقول والمنقول
بجامعة طهران وبكلية الآداب
جامعة القاهرة

يحيى الخشاب

أستاذ الدراسات الشرقية
بكلية الآداب . جامعة القاهرة .
عميد كلية الآداب سابقا

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية

مقدمة

(١)

صاحب هذا الكتاب أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي . ولد في قرية بيهق ، في الجنوب الشرقي لخراسان ، حوالي سنة ٣٨٥ / ٩٩٥^(١) ، وتوفي في صفر سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧ . وقد كتب عنه ابن فندق وهو يتحدث عن أعيان بيهق في كتابه المعروف « بتاريخ بيهق » الذي ألف بعد وفاة البيهقي بحوالي ثلاث وتسعين سنة^(٢) . وقد عاش في مطلع حياته بنيسابور حيث تعلم علوم القرآن والحديث وقرأ الآداب العربية ، وعاشر أهل العلم والأدب . وهذا الكتاب الذي نقلناه إلى اللغة العربية وهو جزء من سفر كبير ، شاهد على سعة اطلاعه وعمق ثقافته وتمسكه من ناصية اللغتين الفارسية والعربية . ويقول ابن فندق إنه استمع إلى كثير من الأحاديث ورواها كما أن له أشعارا عربية . والتحق بالعمل في ديوان الرسائل كتليد لأبي نصر مشكان رئيس الديوان أيام محمود الغزنوي ومسعود وكان في السابعة والعشرين من عمرة حينذاك^(٣) . وقد حال صغر سنه دون ارتقائه إلى رياسة ديوان الرسائل بعد وفاة أستاذه فلبث في منصبه متعاوناً مع أبي سهل الزوزني . ولكن في رعاية تامة من السلطان والوزير أحمد عبد الصمد . ولعل البيهقي كان يؤثر هذا الوضع في

(١) ذلك لأن البيهقي يقول إنه كان في الخامسة عشرة من عمره سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩ (ص ٣٨٠) وأنه كان في السادسة عشرة سنة ٤٠٢ / ١٠١١ (ص ٢٢٥) .
(٢) كتب ابن فندق كتابه سنة ٥٦٣ / ١١٦٧ .
(٣) يقول في صفحة ٦٥٨ أنه عمل مع أبي نصر مشكان تسع عشرة سنة وقد مات هذا سنة ٤٣١ / ١٠٣٩ .

ذلك الوقت ، فإنه حين يتكلم عن أبي سهل أحمد على الذى كان من أقوى أركان ديوان العرض والذى لم يرق عن مرتبة النيابة أى لم يبلغ رئاسة هذا الديوان ، يقول « ولذلك فهو مستريح هادىء البال ويمضى حياته على الهامش لا يسأل إذا عزل عارض وولى غيره . والعامل من يسير سيرته » (ص ٥٣٦ — ٥٣٧) . وظل يعمل فى الديوان حتى أصبح رئيساً له فى عهد السلطان عبد الرشيد ، وأثناء ذلك ثار العبد طغرل ، من غبيد محمود ، وقتل السلطان وزج بأنصاره فى السجن ولبثت الفوضى أربعين يوماً . ثم استرد فرخ زاد الملك وقتل طغرل وأفرج عن المعتقلين وكان البيهقى واحداً منهم ، وحين خرج عكف فى بيته على القراءة والتأليف إلى أن مات .

وللبيهقى ، عدا سفر التاريخ ، الذى يعد تاريخ البيهقى الذى نقله إلى العربية جزءاً منه ، كتب أخرى . منها « زينة الكتاب » « ومقامات أبى نصر المشكان » . ويذكر الأستاذ فياض فى مقدمته أنه رأى فى مكتبة الحاج حسين آغا ملك فى طهران بضع صفحات فى أدب الإنشاء تنسب للبيهقى .

(٢)

وكتاب البيهقى على ضخامته جزء من سفر كبير كان فى ثلاثين جزء كما قلنا ، وهذا القسم الباقى هو الذى نقدمه اليوم للمكتبة العربية .

وقد لفت كتاب « تاريخ البيهقى » أنظار المشتغلين بالدراسات الشرقية منذ زمن بعيد ، فكانوا ينقلون عنه أخذاً من المخطوطات الكثيرة له فى الهند وفى إيران وفى أوروبا ، إلى أن أتاحت لهم أول طبعة لهذا الكتاب فى الهند سنة ١٨٦٢ . وكان مورلى^(١) قد هيا الكتاب للنشر ولكنه مات قبل إنجاز

(١) يشار إلى هذه النسخة بالرمز مو .

ذلك فقام بطبعه من بعده ناسوليس . ولكن لم يتح لهذه الطبعة الأولى الدقة التي ينبغي أن تتوفر لمثل هذا الكتاب ، ثم إنها جاءت خلواً من المقارنات والخواشي التي لا غنى عنها في النشر العلمي الحديث ، كما أنها خلت من الفهارس التي تعين على البحث وتبهيء الفائدة المرجوة من النشر .

وفي سنة ١٨٨٧ أخرج السيد محمد أديب البيشاوري^(٢) طبعة حجرية في طهران لأريخ البيهقي . وقد لاحظ علماء إيران والمشتغلون بالدراسات الشرقية أن هذه الطبعة الحجرية الجديدة لم تسد النقص الذي كانت عليه الطبعة الهندية السابقة عليها ، بل إن العيب الذي يلزم هذا النوع من الطباعة قد أساء إلى هذا الكتاب النجم ولم يتح للعلماء أن يفيدوا منه الفائدة المرجوة . ولكن هذا العيب لا يخفى الفضل العظيم الذي أضفاه السيد أديب البيشاوري على نص الكتاب من حيث التحقيق والشروح والخواشي فهذه من غير شك قد أضافت إلى الكتاب قيمة علمية جديدة . فإن البيشاوري قد رجع في حواشيه وشروحه إلى كتب لغوية معاصرة للبيهقي لكي يفسر ويوضح المصطلحات التاريخية التي استعملها . وكذلك أفاد البيشاوري من ثقافته الواسعة في تحقيق كثير من مواضع الغموض في الكتاب .

وفي السنوات الأخيرة ظهر لكتاب تاريخ البيهقي طبعتان فارسيتان . أما الأولى فقد قام بها الدكتور سعيد نفيسي وقد أخرجها في جزءين بغير كشف وأصدر بعد ذلك جزءاً ثالثاً يحوي الخواشي التي تبدأ من صفحة ٩٦٩ وتنتهي في صفحة ١٥٩٥ والتي تتناول تسعاً وسبعين صحيفة من نص البيهقي . وهذه الخواشي الطويلة التي تصلح كل حاشية منها أن تكون كتاباً أو رسالة

(٢) يشار إلى هذه النسخة بالرمز يب .

على حدة تشهد بدقة الأستاذ نفيسى وسعة اطلاعه وجلده على البحث والتحري وقد أفدنا منها كثيرا ولكننا لم نستطع أن ننقلها إلى العربية مع جدارة الكثير منها بهذا النقل .

أما الطبعة الحديثة الثانية فقد قام بها الدكتور قاسم غنى والدكتور على أكبر فياض . ولم يكن قصد الأستاذين أن ينشرا النص كاملا ، ولكنهما رأيا ذلك بعد دراسة لطبعتي كلكتا وأديب ، ولم يكن الأستاذ نفيسى قد فرغ من طبعته . ولوزارة المعارف في طهران اتجاه محمود في تقريب أمهات الكتب الفارسية إلى عقول الطلاب في المدارس والجامعة وذلك بأخذ أهم ما في هذه الكتب وعرضه عرضاً مشوقاً ميسوراً على الطلاب . وقد عهدت الوزارة إلى الأستاذين « غنى وفياض » بأن يقرأ هذا الكتاب وأن يلخصاه وأن يعرضاه عرضاً يسيراً مشوقاً ، وذلك ليكون من مطبوعات هذه الوزارة . ولكن الأستاذين رأيا أن هذا الكتاب القيم لم يظفر بعد بطبعة كاملة مقارنة ذات كشف كامل وأن الأولى للمكتبة الفارسية أن تظفر بهذه الطبعة قبل أن يختصر هذا الكتاب ويعد ليعرض على التلاميذ والطلاب . وعكف الأستاذان سنوات عدة حتى أخرجوا سوياً الطبعة الرابعة لهذا الكتاب وهي الطبعة التي نقلنا عنها هذه الترجمة العربية والتي اتخذناها أصلاً والتي أثبتنا صفحاتها مع صفحات ترجمتنا العربية . وعنى الأستاذان بتصحيح النص والمقارنة مع النسخ الخطية في طهران وفي الهند^(١) كما عنيا عناية شديدة بالحواشي التي يبدو منها حرصهما الشديد على الإفادة من حواشي السيد البيشاوري وكذلك ألحق بهذه الطبعة كشف مفصل للأعلام بذل فيه من العناية والدقة ما يجعل لهذه الطبعة الأخيرة

(١) رجعا في طهران إلى نسخة خطية في المكتبة الفاضلية أشير إليها برمز فا . وإلى نسخة في مكتبة المجلس أشير إليها برمز مح .

مكانة بين الكتب التي ينمخر المستشرقون في أوروبا بنشرها وتيسير الاطلاع عليها بالكشافات الدقيقة المدروسة . هذا وقد أفدنا من طبعة الأستاذ « نفيسى » التي ظهرت كاملة فيما بعد وقد أثبتنا ما أخذنا عن مقارنة نسخة « غنى و فياض » بنسخة نفيسى في ترجمتنا العربية . والكتاب يعتبر من ناحيه أسلوبه الفارسي من أحسن ما كتب بهذه اللغة . ويكفي أن نذكر هنا رأى الدكتور فياض وهو حجة في أسلوب البيهقي فهو يقول : « إنه بلغ الأوج في الكتابة الفارسية وإن إنشاءه يعتبر أبرع مثال لما كتبه الرعيل الأول من كتاب اللغة الفارسية ، فقد كان يتحرى الجمال والبساطة وتمكن لاتصاله بطبيعة اللغة الفارسية من الإتيان بتعابير تلائم جمال الطبيعة وحيويتها وبساطتها وإبداعها وإن في كتابه هذا نماذج للإنشاء تعد صوراً رائعة للنثر الفارسي كما أن كتابته في التاريخ تعتبر مثالا رائعا في تدوين هذا العلم » .

والمستشرق « كازى ميرسكى » في مقدمته لديوان « منو جهرى » يبدى ثناءه وإعجابه بأسلوب البيهقي ويذكر وهو يتحدث عن النصوص العربية التي ترجمها إلى الفارسية أن هذه الترجمة قد خلت من عيب الالتواء في التعبير كما خلت من التكرار وجاءت صورة صحيحة كاملة للنص العربى الذى كتبت به أصلا . والبيهقي في كتابه الذى كتبه فى التاريخ رجل سياسى مؤرخ أديب . فهو قد اشتغل تلميذاً « لأبى نصر مشكان » رئيس ديوان الرسائل والتليذ هنا تعنى الوكيل والنائب وهى فى الاصطلاح الديوانى فى ذلك الوقت كانت العمل الذى يسبق المنصب الأعلى فى أى منصب من المناصب . وقد اشتغل مع أبى نصر تسعة عشر عاما أيام السلطانين « محمود الغزنوى » و « مسعود » وكان « أبونصر مشكان » هذا آية - كما يقول البيهقي - فى كتابة الرسائل السياسية التى كانت توجه من السلطان إلى الخليفة أو من السلطان إلى الملوك الآخرين أو منه إلى حكامه فى الأطراف . وقد أتيج للبيهقي أن يعمل فى وقت واحد مع « أبى نصر مشكان » .

ومع « أبي الحسن الميمنى » الذى كان وزيراً « لمحمود » ثم وزيراً « لمسعود » ومع « أحمد عبد الصمد » الذى يعتبر - كما يصوره البيهقى - أكبر عقل فى عهد « السلطان مسعود ». أتيح للبيهقى أن يكون زميلاً لهؤلاء جميعاً وأن يكون واحداً منهم فى تصريف شئون الدولة .

هذا الاتصال المباشر بسياسة الدولة ، وهذه المشاركة فى تسيير هذه السياسة بالرأى والكتابة وبالمسعى الجميل ، كل هذا أتاح للبيهقى أن يكون رجل سياسة من الطراز الأول يحكم تحرير الرسائل ويحسن فهم معانيها ما ظهر منها وما بطن .

فهو حين أخذ على نفسه أن يكتب التاريخ لم يكن كعظم المؤرخين بعيداً عن مجرى الحوادث التى يؤرخ لها ولم يكن درسه لهذه الحوادث دراسة بعيدة عن البيئة التى جرت فيها وعن الأشخاص الذين سيروا هذه الحوادث . ولم يكتف البيهقى بسرد التاريخ سرداً ولكنه كان يقف حيناً يجب التوقف ليبدى رأيه ورأى الوزير ورئيس الديوان ولا يغفل صدق التصرفات التى تصدر فى موضوع معين عند الرأى العام . وأتيح له أن يضمن كتابه الوثائق الرسمية التى كانت تدخل فى حوزته بوصفه الكاتب المسئول عن نسخها ثم عن حفظها . وهكذا ذكرت الرسائل السياسية ، التى تعتبر من أهم الرسائل السياسية الإسلامية كما يقول كازيميرسكى ، بنصها فى كتابه . ثم إنه أخذ عن أستاذه رئيس الديوان رسائل كثيرة وضمنها كتابه ، وهو ينقل عن هذا الرئيس كثيراً وقد عمد إلى تدوين ما كان يسمع منه أو من الوزير فى حينه حتى لا يأتى السياف على ما يسمع وحتى يجعل تاريخه كاهلاً بقدر الطاقة .

ويرى بارتولد ، صاحب مقال البيهقى فى دائرة المعارف الإسلامية ، وأسبق العلماء إفادة من كتاب البيهقى ، أن تاريخه ليس تاريخاً لدولة أو لبلد بالمعنى المعروف إنما هو حديث رجل سياسى عن حياة الملوك الذين عمل معهم وعما

كان يجرى فى الشؤون الداخلية والخارجية . وبهذا قال البيهقى نفسه ، ثم يقول بارتولد : « وإذا فلدينا صورة قوية عما جرى فى البلاط الفزنوى أيام السلطان مسعود وعن طرائق الحكم فى الدولة التى أنشأها سبكتكين ومحمود ، صورة ليس لدينا ، إيمانها عن أى عصر آخر فى القرون الوسطى الإسلامية . » فالبيهقى صادق حين يقول إن هذا التفصيل الذى يتصف به كتابه لا يتوفر فى كتب التاريخ الأخرى التى اقتصر أصحابها على نذ وجيزة من أن « كما فتح بلدًا يوم كذا وأن حربًا أو صلحًا قد تم وهكذا ، يقول : « أما أنا وقد تعرضت لهذا العمل فإني أود أن أؤدى حق التاريخ كاملاً وأن أبحث عن احتفايا حتى لا يخفى شيء من الحوادث . وإذا طال هذا الكتاب فإني طامع فى ألا أثبت على القراء ، فليس من حادث إلا وهو جدير بأن يقرأ ولا تخلو قصة من عبرة » (ص ١١) .

ويذكر البيهقى أن بعض هذه الوثائق التى كتبها بخطه والتى كان يحتفظ بصور منها قد أ تلفوها عمدا وأنه آسف أشد الأسف لضاع تلك الرياض الرضوانية (الرسائل) فقد كانت تجعل من هذا التاريخ سجلا فريداً . ثم يقول إنه ليس يائساً من العشور عليها يوماً ما (ص ٣٢٣) .

والظاهر أن البيهقى قد بدأ تاريخه من سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ وهى السنة التى انتهى إليها محمود الوراق فى كتابه الذى أتمه سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨ (ص ٢٨٧) ، وأنه كان قد فرغ من ستة أجزاء من كتابه وبدأ فى المجلد السابع متحدثاً عن سنة ٤٢٤ / ١٠٣٢ - ٣٣ (ص ٤١٠) فكان ذلك فى سنة ٤٥١ / ١٠٥٩ حين وصل بالتاريخ إلى عصر أبى المظفر إبراهيم بعد وفاة فرخ زاد ، وأنه انتهى من المجلد التاسع قبيل سفر مسعود إلى الهند (ص ٧٣٠) ، وأنه يبدأ قبل المجلد العاشر بهذه الرحلة ثم يتحدث فى بابين عن خوارزم والجبال (ص ٧٣٠) ، وأنه وصل بالتاريخ إلى عهد أبى المظفر إبراهيم بن ناصر دين الله فى سنة ٤٥١ / ١٠٥٩

أيضا (ص ٤٠١)، وأنه يأمل أن يفرغ من عصر إبراهيم » ليطرز هذه الديباجة
لخسروانية باسمه الكريم بطراز من ذهب » (ص ٤١٠) .

ويبدو أن المجلدات الثلاثين قد طالت ، فهو يعتذر عن هذه الإطالة بأنه
دون حوادث خمسين عاما وأنه تناول الحديث عن كثير من العظماء والسادة
من شتى الطبقات (ص ٢١٤) .

وفيما عدا التاريخ الذي يستمد مصادره من الوثائق التي كانت في حوزته
أو مما رآه أو سمعه من الوزير أو رئيس الديوان أو غيرهما يتحدث البيهقي عن
أخبار الماضي والوسيلة التي يصل بها المؤرخ إلى تدوينها . وهو يرى أن « هذه
الأخبار قسما ليس لها ثالث ، إما أن تسمعها من رجل أو تقرأها في كتاب .
ويشترط في السماع أن يكون المتحدث ثقة صادقا ويشهد على صحة قوله العقل
ويؤيده كلام الله تعالى ، فقد قيل : « لا تصدق من الأخبار ما لا يستقيم فيه الرأي » .
وكذلك يكون حكم الكتاب فتكون الأخبار التي فيه على صورة لا يردها العقل
ويؤمن بها السامع ويستمع إليها العقلاء ويقبلونها » (ص ٧٣٣) .

ويتحدث البيهقي في عدة مواضع من كتابه عن روايات استقاها من جماعة
يثق في أقوالهم (ص ٧٦ ، ٤٣٧ ، ٧٥٧) ، كما أنه يذكر كتباً أخذ عنها
مثل كتاب محمود الوراق (ص ٢٨٧) . وكتاب المسامرة في أخبار خوارزم
للبيروني (ص ٧٣٤) ، ومقامة الخواجة عبد الغفار في معنى ولاية عمه الأمير
مسعود (ص ١١٥) .

ومن رأيه أن التاريخ يزdan بالقصص . والحق أن حسن اختياره لما يروى
من هذه القصص والاستشهاد به في المواضع التي اختارها يشهد بدقة ذوقه
وحسن فهمه للتاريخ كما يشهد بدقة فهمه للأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة
حينذاك . والمعروف أن استخدام القصص في كتب السياسة كان شائعا في ذلك

الوقت لما في هذا القصص من العبر التي يقصد بها الكاتب توجيه القارىء ، وهو غالبا السلطان ، إلى نواحي الخير والاستقامة ، وكتاب السياسة لنظام الملك ، الذي ألف بعد وفاة البيهقي بخمسة عشر عاما خير دليل على شيوع القصص الموجه في كتب ذلك الزمان . والبيهقي يقرر ، أن هذه الأقاصيص ولو أنها بعيدة عن التاريخ ، فإنه جرى على ذكر أن فلانا السلطان قد بعث القائد فلانا للحرب وإن يوم كذا جرت المعركة أو تم الصلح . . . ولكنى أكتب ما أراه واجب التدوين » (ص ٣٧٥) .

ويأخص البيهقي الميزة التي يتصف بها تاريخه فيقول : إنه يذكر هذه الأخبار بهذا التفصيل لأنه كان معتمدا في تلك الأيام « ولم يكن أحد من الكتاب واقفا على هذه الأحوال سوى أستاذى أبي نصر الذى كان يعد المسودة وأقوم بنسخها . وكانت هذه هي القاعدة طوال حياة أبي نصر فيما يختص بكتب ملوك الأطراف والخليفة وخانات تركستان وبكل ما هو هام من أعمال الديوان . . . والشاهد العدل على ما قلت هو ما لدى من التقاويم فكلمها ناطق بهذه الأخبار ولكل من لا يعتقد في صحة قولى أن يحضر أمام قاض عدل لتعرض عليه الحوليات فتكون شاهد صدق على قولى (ص ٦٠٥) . »

ورغم الصلة الوثيقة التي ربطت البيهقي بالسلطان وبالوزيرين الميمندى وعبد الصمد وبرئيسه أبي نصر مشكان فإنه لم يستح من الحق وهو يتحدث عن التاريخ . فهو مؤرخ بعيد عن الهوى ، وليست له ميول خاصة تؤثر في رواياته أو تشي تفكيره وهو يبدى رأيه إلى اتجاه معين . لقد حماه السلطان من أبي سهل الزوزنى حين اضطره هذا إلى طلب إعفائه من منصبه ، وخصه السلطان بثقته وطلب منه النصيح في مواقف عدة ، ومع هذا فإنه لم يتردد في انتقاد السلطان في كل موقف كان خطأ السلطان فيه واضحا . فهو يأخذ عليه

انسياقه وراء أبى سهل الزوزنى فى مطالبة الناس بما خلع عليهم الأمير محمد من صلات وأنه قد نتج من ذلك أن باغ سوء السمعة إلى مالا يمكن وصفه ، وأن الوزير الميمسدى كان يبرأ من إساد هذا الأمر إلى نصحه وكان يقول إن مسؤولية هذا الظلم ترجع للسلطان وللعارض الزوزنى ؛ ويتقد البيهقى السلطان لأنه كان بدوره يبرأ من هذا التصرف ويحيل المسؤولية إلى الوزير والعارض . ثم يقول فى صراحة إن الناس « قد يئست قلوبهم وخمدت فى نفوسهم كل تلك الميول والعواطف الباغية التى كانوا يبدونها للسلطان » . وحين يذكر ما تقرر من مال يحبى من أهل آمل ، يذكر رأى الوزير الذى يقول إنه يتمنى أن تمتلئ خزانة السلطان بالمال ولكن ما طلب من الأميين فوق طاقتهم ، ويذكر إصرار السلطان على رأيه ويقول بعد أن أنصف الوزير : « إنه لعزير على أن يجرى قلبى بمثل هذا النقد للسلطان ولكن ما حيلتى فى ذلك والتاريخ لا يعرف المحاباة » (ص ٤٩٤) . وحين قدم سورى ، صاحب ديوان خراسان ، هدية هذا الإقليم للسلطان ، لم يتردد البيهقى فى أن يروى ما قصه عليه أبو منصور المستوفى من أن السلطان ، حباً للمال ، قد أوعز بأن تقوم هذه الهدية سرأ فكانت ألف ألف درهم مرات وأنه قال عن سورى « ياله من خادم طيب لو كان لنا مثله خادمان أو ثلاثة لحصلنا على فوائد عظيمة » ، وكان أبو منصور يود أن يقول للسلطان : أولى بنا أن نسأل رعايا خراسان كم من العنت والإرهاق وقع عليهم حتى اكتملت هذه الهدية . (ص ٤٣٧) ويعاق البيهقى المؤرخ على هذا التصرف بقوله إن أعيان خراسان كتبوا الرسائل إلى ما وراء النهر وأوفدوا رسالهم شاكين لأمرائى الترك كي يغروا التركان بالغزنويين ، وأما الضعفاء من أهل خراسان فقد بشوا الله آلامهم . ولكي يؤكد البيهقى انتقاده لسلوك السلطان فى حبه للمال وتقريبه الرؤساء الذين يرهقون الناس بجمع هذا المال ظلماً وعدواناً يذكر قصة يحيى البرمكى مع هرون الرشيد حين بعث هذا على بن عيسى إلى

خراسان وما وراء النهر ، فجمع منها الأموال واشترى هدية لم يقدم أحد مثلها؛
للرشيد (ص ٤٤٢)، وأن الفضل بن يحيى بالذات لم يقدم مثلها حين كان مكان علي
ابن عيسى . يقول البيهقي « والتفت هرون الرشيد إلى يحيى وسأله أين كانت
هذه الأشياء ، أيام ابنك الفضل ؟ فقال يحيى : « لقد كانت هذه الأشياء أيام ولاية
ابني الفضل في بيوت أهلها في مدن العراق وخراسان » . ويذكر البيهقي ويكرر
خوف يحيى البرمكي من أن يستعين أهل خراسان بالترك . وبعد أن يفرغ من
سرد قصة الرشيد والبراكمة يقول إني أذكرها ومثيلاتها فإنها ذات فوائد .

وكم من مرة سجل البيهقي انتقاده للسلطان لانصرافه إلى اللهو والعبث في ساعات
العسرة . ولم يتردد في أن يسجل أنه خسر معركة مرو لأنه تعاطى الأفيون
فنام ولم يجرؤ أحد على إيقاظه في الوقت المناسب (ص ٦٦٤) . ولم تخل
كتابه عن الوزيرين وعن رئيسه من النقد إذا رأى خطأ منهم أو إذا قدر أنهم
عدلوا عما هو أولى .

ومع جسارته في إبداء رأيه في أخطاء حكام زمنه فإنه لم يغمط من ينقده .
منهم حقه إذا كانت له محاسن جديرة بالتعويض ، فهو قد بين ، كما سبق ، أن
خراسان ضاعت بسبب ظلم سوري وعدوانه ولكنه لا يلبث أن يذكر أن
سوري هذا كان كريما في الصدقات مؤديا للصلوات وأن له آثارا طيبة في
طوس منها التحسينات التي أدخلها على قبر الإمام علي بن موسى الرضا ؛ وأنه
قد بنى في نيسابور مصلى لم يبن مثله أحد من الأمراء قبله . ويقرر بعد ذلك أن
هذا في تقديره ليس شيئا بجانب ظلم الضعفاء . وليس حلالا سرقة الخبز من
الجار والتصدق به على الجار الآخر ولا أجر على ذلك (ص ٤٣٨) .

وفضلاً عن حوادث التاريخ السياسي فإن الباحث يرى في كتاب البيهقي
بيانا عن العادات والنظم التي كانت شائعة في العصر الغزنوي . فمن ذلك ما نص

عليه من الاحتفال بالأعياد الإسلامية كعيدى الفطر والأضحى وبالأعياد الفارسية التى كانوا يعيدونها حتى ذلك الوقت . ومن ذلك عيد المهرجان ، ففيه يجلس السلطان للمعايدة ، وتدور كؤوس الشراب وتقدم الهدايا وفيه يأكلون الدجاج المشوى على السفود والخصى والبيض المسلوق وما يلزم فى المهرجان من المحمرات والسميط ، ويتناولون الطعام على طريقة الاستلات (أى بأصابعهم) ، ثم يعزف العازفون على القيثارة ويغنى المطربون (ص ٥٤١) . وكذلك كانوا يعيدون عيد السدق ، وهو من الأعياد الفارسية القديمة ، يقول عنه البيرونى^(١) إنه فى العاشر من شهر بهمن (يناير — فبراير) وإنه أهم أعياد النار وإن الفرس فى مسائه يتبخرون لطرد سوء حتى صار فى كل رسوم الملوك فى ليلته إبقاء النيران وتأجيجه وإرسال الوحوش فيها وتطير الطيور فى لهاها والشرب والتلهى حولها . ويصف البيهقي هذا العيد فيقول (ص ٤٧٠ — ٤٧١) « وكان عيد سده قد اقترب فساقوا إلى الصحراء جمال السلطان وكل جمال الجيش وأخذوا فى جمع حطب الطرفاء ليوم سده ، ثم ساروا وأحضروا عيدان الحطب وألقوها فى صحراء بها نهر كبير مملوء بالثلج فتراكت وأصبحت كالقلعة وأقاموا عرائس من الخشب وملئوها بالطرفاء ثم جمعوا أكواما أخرى كثيرة حتى صارت كالجبل ارتفاعا ، وأتوا بكثير من المعدات والطيور وما يلزم ليلة هذا العيد من الحاجيات . ولما حل العيد جلس السلطان فى الليلة الأولى فى مخيم أعد له على شاطئ النهر ، وجاء الندماء والمطربون ، وأشعلوا النار . وسمعت بعد ذلك أن ضياء هذه النار كان يرى على بعد عشرة فراسخ تقريبا وأطلقوا الطيور المبلة بالنفط ، وأطلقت الوحوش التى أحاط

(١) الآثار الباقية ص ٢٢٦ — ٢٢٧ . وانظر الترجمة العربية لكتاب كريستفلس « إيران أيام الساسانيين » ليجى الخشاب ص ١٦٦ .

بها الثلج فكانت تجرى وقد علقت بها النار . ومن هذه الأعياد عيد «كلوخ انداز»^(١) وكان يحتفل به قبل حلول شهر رمضان (ص ٥٣٨) .

ومن العادات التي يذكرها البيهقي ما سماه « هدية تعب الأسنان » فقد كانوا يقدمون للضيف بعد الأكل مالا باسم « مزد دندان » أى مكافأة تعب الأسنان على ما تجشمت من المشقة أثناء الأكل (ص ٣٢٠) . ومن ذلك أيضا « هدية الحمام » (ص ٤٤) .

ويتحدث البيهقي عن نظام السخرة وينص على أنه كان متبعاً ، فالعمال يسخرون لإزالة الثلوج من الطريق (ص ٥٨٠) وكذلك استخدمت السخرة في بناء الجوسق المسعودي (ص ٥٣٧) .

وكان نظام الجاسوسية دقيقاً في الدولة الغزنوية ، وحين نصح نظام الملك السلاطين الساجوقية باتباع نظام التجسس والمنهين لم يكن عجباً أن ينهج نهج الغزنويين في ذلك (الفصلين ١٠ و ١٣ من سياستنامه نشر عباس إقبال) ، فإن البيهقي يبين في طبقات كتابه إلى أى حد كان نظام الجواسيس والمنهين دقيقاً أيام مسعود . وهو يحدثنا أن السلطان مسعود قد بث بين الرجال والسواس الذين صحبوا رسول الخليفة رجلاً من العيون يسير متكرراً لينهى كل ما يرى قل أو كثر إلى الحضرة السلطانية ثم يقول : وكان السلطان مسعود آية في مثل هذه الأمور (ص ٣٢٤) . وحين يذكر البيهقي قصة الغاشية التي منحها الأمير نصر أخو السلطان محمود أبا القاسم الرازي وكيف أمر البرغشى بإلقاء غاشيته بعد أن هار أبو القاسم من أصحابها ، يقول إن على المنهين والجواسيس مراعاة ذلك وعليهم ألا يخفوا مثل هذه الأخبار (٣٨١) . وكانوا يستخدمون المنهى المتكرر (ص ٣٨٢) .

(١) يقول Steingass في قاموسه « كلوخ اندازان » عيد في آخر شهر شعبان .

ويوضح البيهقي أصناف الخلع التي كانت تمنح لكبار رجال الدولة . نخاعة الولاية تتكون من عمامة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة برسم الغزنويين وسرج وكمر من ذهب وثلاثين ثوباً غير مخيطة ، وقد منحت هذه الخلعة للسلالة الكبار الثلاثة، داود وطغرل وبيغو (ص ٥٢٨)، وخلعة الوزير الكمر والمهد وعشرة غلمان من فرسان الترك ومائة ألف درهم ومائة ثوب (ص ٤١٣) وفي خلعة الوزير فيلان ، ذكر وأنثى، والبغل والصقر (ص ٦٥١)، وخلعة كبير الحجاب العلم واللواء والطبل والكوس والألبسة وحقائب وخرائط الفضة وغيرها (ص ٥٣٤) (١) .

كما أنه يعطى تفصيلاً عن الألقاب ، وقد أفاد من فكرة الألقاب التي شاعت عند الغزنويين نظام الملك في الفصل الذي عقده لها في سياستنامه (فصل ٤١ ، ص ١٨٥-١٩٧) ، والبيهقي حريص على هذه الألقاب التي تميز أصحابها وتبين مكانتهم وفضلهم ؛ فأحمد عبد الصمد ، حين كان وزيراً لالتوننتاش ، لقب بالشيخ وبالعמיד وبالمعتمد ، وحين أصبح وزيراً لمسعود لقبه بشيخي ومعتمد (ص ٣٧٦ و ٤١٣) ولقب أبو نصر مشكان بالشيخ الجليل السيد (٣٩٦) . ولقب ابن علي تكين بالأمير الفاضل الولد (ص ٤٩٦) ؛ ولقب أبو سهل الحمدوى بالشيخ العميد (ص ٤١٣) ؛ ولقب أمراء السلالة بلقب دهقان (ص ٥٢٨) ؛ وخو طبهر و بن التوننتاش بولدى ومعتمد (ص ٣٧٦) . وحين عرف مسعود أنهم بايعوه بالسلطنة خاطب كبير الحجاب على قريب

(١) وخلعة الحجابة فاء أسود وقبعة داب ركنين ومطقة من ذهب (ص ٣١٢) ، وخاعة العارض كان منها المطقة ذاب سعمائة مثقال (ص ٣٥٧) ، وخلعة إمارة الحج منها المهد وعدة من ذهب وعاشية (ص ٣٧٨) ، وخلعة رياسة نيسابور فيها طيلسان ودراعة (ص ٦٧٢) ، وخاعة سالارية الكرد والعرب كمر من الذهب (ص ٥٣٤) ، وخلعة سالارية الهند طوق مرصع بالجواهر (ص ٥٣٤) .

بالآخ الفاضل الحاجب (ص ٧) ؛ وخاطب التونتاش خوارزمشاه بالعم
(ص ٩٠) .

ومن العادات التي يذكرها البيهقي أن البياض كان رسم العزاء
وأن الأمير مسعود حين عرف خبر موت أبيه جالس للعزاء مرتديا قباء ورداء
وعمامة بيضاء كلها ، وحضر الأعيان والمقدمون وأصناف الجند للعزاء مرتدين
البياض ، وقد استمر العزاء ثلاثة أيام (ص ١٤) .

وكذلك يتحدث البيهقي عن طريقة عد الجند ويقول إنهم كانوا يعدونهم
بضربات السياط (ص ٥١٦)

ويحدثنا البيهقي عن تقليد حسن كان يسير عليه السلطان محمود ذلك أنه
كان يربي رجاله بحيث يستخدمون كتلاميذ قبل أن يلوا مناصب الأستاذية في
المناصب الكبرى (ص ٤٨٤) . ويحدثنا البيهقي أن السلطان مسعود ووزيره أحمد
حسن الميمندي كانا في نزاع من أجل تطبيق هذا المبدأ ، فحين خلت وظيفة قائد
الهند أشار الوزير باختيار رجل جدير بهذا المنصب الخطير من تمرسوا بمثل هذا
العمل ومرنوا عليه ، ولكن السلطان كان يميل إلى اختيار أحمد ينالتيكين
فأشار بأن سابق خدمته مع السلطان محمود ولأنه كان خازنا له ورافقه في جميع
أسفاره يشفع له بأن يشغل المنصب الشاغر (ص ٢٩٣) . وكان الوزير يتشدد في
أن يكون التلميذ الذي يراد رفع مرتبته نابها ، ولكن السلطان حين يميل إلى رفع
مرتبة أحد التلاميذ كان يقول إن من التلاميذ من يكون خامل الرأي ضعيفا ولكنه
حين يصبح أستاذا ويلى المناصب الرفيعة يتغير سلوكه ويصبح جديرا بما أوليه
من الثقة (ص ٣٥٦) . والبيهقي ينبه لهذه القاعدة التي يجب احتذاء سياسة

محمود فيها ويقول : إني أذكر هذه النقاط في معنى رعاية الرعية عسى أن تفيد .
(ص ٤٨٤) . والذي يبدو من كتاب البيهقي أن النزاع بين المحموديين
والمسعوديين كان قد بلغ إلى درجة إفساد أمر الدولة ، فإن الأدوات التي يحكم
بها السلطان هذا الملك الواسع ينبغي أن يحسن اختيارها وعلى هذا الاختيار
يتوقف حسن سير السياسة في الداخل وفي الخارج وقد بلغت الدولة الغزنوية
الذروة في عهد محمود الغزنوي لأنه أحسن اختيار الأدوات التي أدار بها
الدولة . والبيهقي في مواضع عدة من كتابه يندد بالمحدثين والمتملقين الذين اختارهم
مسعود ، ويبرز المحاولات التي يبذلها الوزير ورئيس ديوان الرسائل
ليحملا السلطان على العناية باختيار هذه الأدوات التي هي عماد الدولة .

ويستفاد من البيهقي مدى ما كان من صلات المجاملة بين السلطان والخليفة
ومدى حرص السلطان على هذه المجاملات في الجمعة التي خطب فيها باسم الخليفة
الجديد القائم بأمر الله . جلس السلطان ومعه رسول الخليفة بعد الصلاة ، فجاء
خزنة السلطان ووضعوا تحت المنبر عشرة آلاف دينار في خمسة أكياس من
الحرير نثارا من السلطان للخليفة ، ثم أخذ النثار يتوالى بعد ذلك من الأمراء
وأئجال السلطان والأستاذ الرئيس وكبير الحجاب وغيرهم ، وكان المؤكلون
بجمع النثار يضعون كل هدية في مكان معد لها وكانوا ينادون باسم المهدين ،
أو كان يتجمع من هذا هدايا عظيمة . وبعد ذلك تجمع هذه الهدايا وتحمل إلى
الخزانة مارة في طريقها بالسوق فكان أهله ينثرون كثيراً من الدنانير والدراهم
والطرائف المختلفة وكان هذا كله يضم إلى نثار الخليفة . ثم يبين البيهقي الرسم
المتبع في هدية الدولة للخليفة ، وقد سأل السلطان وزيره عن ذلك فقال
إن الرسم جرى على أن يرسل للخليفة عشرون ألف من من النبلج ، وكل ما جمع
من النثار في يوم الخطبة ، ثم يضاف إلى هذا ما يأمر به السلطان . وكان مسعود
يطلب تفويضاً من الخليفة لحكم خراسان وخوارزم وغيرهما ، كما كان .

يطلب إليه أن يقطع صلته بخانات تركستان ، ولذلك سخا في هدية الخليفة ، فأمر بأن يضاف إليها مائة حلة ثمينة من شتى الأنواع بينها عشر منسوجة بالذهب ، وخمسون حقة من المسك ، ومائة شامة من الكافور ، ومائتا شارة مقصبة ، وخمسون سيفاً هندياً ، وكأس من ذهب يزن ألف مثقال مملوء باللؤلؤ ، وعشر قطع من الياقوت ، وعشرون قطعة نفيسة من لعل بدخشان وعشرة خيول ختلية بسروج وبراقع من ديباج ، وخمسة غلمان أتراك . وأهدوا إلى رسول الخليفة خلعة مما يخلع على الفقهاء . كما أهداه الوزير هدية قيمة ومنحوه فوق ذلك مائة ألف درهم (ص ٣٢٢ وما بعدها) .

وكما كان السلطان يبعث إلى الخليفة بجميع ما قدم إليه من الهدايا يوم الخطبة ، فكذلك كان الوزير يبعث إلى السلطان بجميع ما يهديه إليه الأفراد حين يلي الوزارة .

ومن الطريف أن البيهقي يتحدث عن رجلين كان لهما شأن في الدولة الغزنوية ، هما حسنك وبكتغدي ويقول إنهما كانا أمينين لا يقرآن ولا يكتبان ، وكان أولهما وزيراً لمحمود وكان الثاني من أعظم قواد مسعود (ص ٣٢٢) . ونكتفي بهذا القدر من التقاليد السياسية والاجتماعية التي تستفاد من نص البيهقي .

(٣)

ويصور لنا البيهقي الأمير مسعود ثم السلطان مسعود فيما بعد صورة كاملة قل أن نظفر بها عن حاكم من حكام المسلمين . كان لمحمود الغزنوي ولدان في سن واحدة ، مما يبين أنهما من أمين ، وهما مسعود ومحمد . وكان يؤثر ولده الأول واختاره ولياً لعهده . وينقل البيهقي مقامة عبد الغفار في معنى ولاية العهد ، وفيها يبين كيف كانت تربية الأمراء عامة وتربية ولي العهد منهم خاصة .

وقد ترك محمود ولديه ومعهما أخوه الصغير يوسف في رعاية جد الخواجة عبد الغفار ومعهم ريحان الخادم وحاشية بمن يوثق بهم في القيام بخدمة أبناء السلطان ، وقد شاركت زوج جد عبد الغفار في تنشئة هؤلاء الأمراء الثلاثة وهي سيدة تعرف القراءة والكتابة وتحفظ القرآن وتلم بعلم الحديث وتعتبر الرؤى. وكانت مع هذا كله تجيد الطهى وتختص بألوان منه مما حببها إلى الأمراء الثلاثة . وكان سالمى ، من المؤدبين ، يقوم بتعليمهم . وقد حظى مسعود ، لأنه ولى عهد أبيه ، بمكانة خاصة في هذه الفترة ، وكان عمره أربعة عشر عاماً . فقد كان أولاد ريحان الخادم يقدمون الأمير في الاجتماعات ، ففي مباريات ألعاب الصولجان كانوا يجلسون مسعود في الصدر ثم يحضرون محمداً ويجلسونه إلى يمينه على أن تكون ركبتاه في خارج الصدر ويأتون بالأمير يوسف ويجلسونه خارج الصدر إلى اليسار ^(١) . وهكذا كان مسعود يشعر منذ صباه بأنه أفضل من أخيه وأكثر حظوة عند أبيه وأنه يعد إعداداً خاصاً ليكون سلطاناً على هذا الملك الواسع الذى تظله الدولة الغزنوية . وحين شب مسعود وأصبح قادراً على أن يقوم بحملات في الغزو اختاره أبوه لكثير من هذه الحملات فكان له فضل كبير وأثر ملموس في ازدياد الرقعة التى تحكمها الدولة . وبدأت الشيخوخة تدب في جسد محمود وبدأ يحس بأن ابنه مسعود يزداد مكانة بفضل ما يديه من الشجاعة والجرأة في غزواته ، وأخذ عملاء سوء يبذرون بذور الفتنة بين الوالد وولده ، فأخذ محمود يتتبع عثراته ويبعث إليه الجواسيس والعيون ليعرف هذه السقطات ويلومه عليها عسى أن تكون سبباً فى أن يعلن غضبه عليه وعزله عن ولاية العهد . وكان مسعود كثير العبث فى صباه ، فقد أعد لنفسه ملهى فى الجوسق العدناني يلهو فيه مع ندمائه وقيانه ، وعبثاً حاول الجاسوس

(١) البيهقى ، ص ١١٥ — ١١٦

الذى كان يعد عليه أنفاسه من قبل أبيه أن يعرف مكان هذا الملهى من القصر، ولكن عيون السلطان محمود المنبشين بين خدم الأمير قد نقلوا إلى السلطان ما يجرى فى هذا الملهى وما على جدرانه من صور. فبادر هذا بإرسال فارس يفاجىء مسعود وهو فى لهُوه ويتحقق من حقيقة ما نقل إليه عن سلوكه. ولكن مسعود كان حذرا، وكان له بين حاشية أبيه وخدمه، عيون تنقل إليه كل ما يحول فى القصر من دسائس تحاك له، وكانت أخت محمود، الحرة الختلية، تحب مسعود وتبعث له بكل ما يصل إلى عليها بما ينبغى أن يعرفه.

وهكذا عرف مسعود بتدبير أمر الفارس فأمر بمحو ما على جدران الملهى من الصور وما فيه من أدوات اللهُو والطرب، وجاء الفارس ودخل إلى حيث أمر أن يدخل فلم يجد شيئا. وعاد إلى محمود مقررأ كذب ما قال أهل السوء عن ولده، فأدرك أنه أخطأ وقال إنهم يلفقون ضد ولدى الأكاذيب، وكف بعد ذلك عن النظر أو البحث فى مثل هذه الأمور^(١). ولكن محمود رغب عن ولده مسعود فى آخر حياته وأساء الظن به، ومسعود نفسه يقول: ولم تكن هذه الظاهرة خاصة به وحده بل هى تظهر عادة فى أواخر أيام الملوك بالنسبة إلى ولاية العهد ليقينهم أن هؤلاء سيحلون محلهم^(٢). وحاول غلبان مسعود وأعوانه أن يعزلوا أباه وأن ينصبوا أميرهم ولكن هذا رنض أن يمس أحد أباه بسوء وطلب إلى المخلصين من أعوانه أن يفوا بعهدهم له بعد أن يموت أبوه^(٣).

ويشتد غضب أبيه عليه ويتمادى فى الإساءة إليه ويعمد إلى إثارة محمد إلى حد أن يغير خطبة ابنة الأمير يوسف التى كانت باسم مسعود ويجعلها باسم محمد بعد أن توفيت أختها التى كانت خطيبته.

(١) البيهقى، ص ١٢٦ وما بعدها. (٢) ص ٨٠ (٣) ص ١٤٢

ويمر مسعود على هذا مرور الكرام ولكن نفسه كانت مليئة بالحقد وبشهوة الانتقام لا من أبيه الشيخ المريض ولكن من هؤلاء الذين زينوا لأبيه هذا التصرف وأمثاله . وقد كظم غيظه إلى أن وافته الفرصة بعد موت أبيه فلم يتوان عن الانتقام من المحموديين ، وآثر هذا الانتقام على مصلحة الدولة نفسها .

وبعد موت محمود وتولية مسعود كشف هذا أمر الرقاع التي بعثها أبوه إلى الملوك والحكام والتي تضمنت عزل ولده عن ولاية العهد لأنه ولد عاق . وحين طلب الزوزني حفظ هذه الرقاع ليطلع عليها الناس وليقتص من كاتبها رفض مسعود طلبه وقال إنه إذا جفانا مرة في آخر حياته لغاية في نفسه فينبغي أن ننظر إلى آلاف من النعم أحاطنا بها ، وإلى زلات كثيرة لنا تجاوز عنها ، وصاح في وجه الزوزني أن « عقلت النساء أن يلدن مثل محمود » ، وأما كاتب الرقاع فمعدور لأنه مأمور ولا حيلة للأمور سوى الطاعة . ثم أمر بالرقاع فألقيت في الكظام^(١) .

وقد مارس مسعود في صباه أنواع الرياضة وشغف منها بالصيد وقد أفاده هذا كثيرا في تسامحه مع من هم أضعف منه وصبره على الشدائد وتجلده في ساعة العسرة ، كما أنها أكسبته اعتزازاً شديداً بقوته وثقته في أن النصر سيكون له في كل معركة يخوضها . ويروى عنه البيهقي ، نقلا عن الخواجة عبد الغفار ، أنه مارس أيام صباه وصدر شبابه المصارعة وحمل الأحجار الثقيلة والمبارزة . وأنه كان يمارس الصيد في البرد القارص وعلى الثلج متحملا في هذا من المشقة ما لا يحتمله غير الحجر الصلب ، وكان يقول : ينبغي أن يتعود المرء على مثل هذا حتى لا يعجز إذا ما قابلته صعاب أو ساعات شداد . ويصف عبد الغفار

(١) الكظام هي الكلمة العربية لكهربر .

صيده للأسود ومغالبته لهايديه ومصارعته إياها وهو على ظهر الفيل. ويروى
قصة قتله لثمانية أسود دفعة واحدة ، الأمر الذى دعا أبوسهل الزوزنى أن يكتب
القصيدة التى يقول فيها :

من كان يصطاد فى ركض ثمانية من الضراغم هانت عنده البشر^(١)

وبجانب هذا كان مسعود صاحب فن رفيع ، وإن رسمه للجوسق المسعودى
وإشرافه على بنائه ثم الصفة التى شيدت فى هذا القصر ، مما حمل البيهقى على
القول بأنه كان آية فى الفن المعمارى ، كل هذا يبين ما كان عليه هذا السلطان
من الذوق الرفيع والإحساس الفنى (٥٣٧ ، ٥٨٧) .

والحق أن هذه الرياضة وهذا الذوق أكسبا مسعود كثيراً من المزايا
ولو صاحب هذه ثقة فى ناصحيه ودقة فى اختيار أعوانه وتحرز قايلاً فى الاعتداد
بنفسه وترفق بالمحموديين المخلصين لاتخذ تاريخه لونا آخر ولا ستمر عهد أبيه
فى التوسع فى الفتح بدلا من النقصان الذى اعترى الدولة فى عهده .

اتصل أبوسهل الزوزنى بمسعود اتصالاً وثيقاً ، لأنه أودى من أجله إبان
ولايته للعهد ، فلما ولى مسعود السلطنة كافأه بأن عينه عارضاً ، وجعله فى مقام
الوزير ، فكان يأخذ رأيه فى شتى ما يعرض من أمور الدولة فى عهدهما الجديد .
وكان أبوسهل يوجه السلطان حينما يريد . وأبوسهل من رجال الدولة الذين
يضل تفكيرهم إذا ماتعاق الأمر بخصم له . وقد وضع نصب عينيه أن يقضى
على رجال السلطان محمود وأن ينكل بكل من يستطع التنكيل به منهم ، بل إنه
تمادى فى حقه على أقرانه فأساء إليهم جميعاً عدا الميمندى فقد كان يخشى بأسه

(١) ص ١٣٠ وما بعدها .

ويهابه . وسيطر هذا الميل إلى الانتقام من المحموديين على سياسة الدولة في العهد الأول لحكم مسعود .

وأهم مظاهر هذه السياسة تبدو في خمس حوادث : ١ — اعتقال على قريب وأخيه منكيتراك — ٢ — محاولة القبض على التونتاش — ٣ — قتل حسنك — ٤ — اعتقال عم السلطان — ٥ — استرداد مامنج من صلات في عهد السلطان محمد .

وقد بدأ هذا الطابع في معاملة على قريب وأخيه منكيتراك . وكان على هذا يعرف مصيره بعد استدعائه إلى هراة وقد قال لأبي نصر : يجب أن تعلم أن الأمور قد تحولت إلى وجهة أخرى ، فإنك عند بلوغك هراة سوف تعتريك الحيرة في أمرك ، ستشاهد عياناً قوماً حديثي النعمة قد آلت إليهم الأمور حتى أصبح أصحاب محمد — ود في حكم الخونة والغرباء ، ولا غرو فإن أباسهل الزورنى قد أصبح المرجع الأول في كل أمر . . وستسير الأحوال مع السلطان مسعود على هذا المنوال ما لم يستح وإلا فأنتم على شفا جرف هار^(١) .

وحين التقى على قريب بالسلطان وكان التونتاش في حضرته ، أراد هذا أن يسدى النصيح بعدما أحس بما يدبر للمحموديين فقال للسلطان : إن في الخدمة كثيرين من حديثي العهد الجديرين بالثقة وسيلحق بهم آخرون ، وفي الحضرة الآن كذلك نفر من المعمرين الذين شاخوا في خدمة السلطان محمود ، فإذا أبقاهم السلطان في خدمته فذلك أمر حكيم ، لكيلا يتشفي فيهم أعداؤهم ، فإن الشيوخ زينة الملك^(٢) . ولكن لم يكد التونتاش يخرج من الحضرة حتى قبضوا على على^(٣) ثم على أخيه منكيتراك . ولم يقدم السلطان على هذه الخطوة في قوة وصراحة ولكنه استخدم المكر والغدر . كان يتلذذ بهذا الأسلوب الخادع في

(١) ص ٥٢ — ٥٣ . (٢) ص ٥٥ — ٥٦ .

معاملة رجال أبيه ورجاله . يروى البيهقي أن منكيتراك استأذن السلطان في أن يستضيف أخاه ، فهش السلطان إلى سؤاله وأمر بأن يهيء خدمه وليمة على قريب في بيت أخيه . وخرج منكيتراك ليرى أخاه مصفدا بالأغلال ويرى نفسه وقد أخذته فغلوه وساروا بهما إلى حيث لا يعرف أحد .

وأدرك التونتاش أن البداية لا تبشر بالخير وأن القيم سينهار نظامها وأن الخير في أن يبادر بالسفر إلى خوارزم حيث يعيش كما يعيش السلطان مسعود نفسه وهناك يكون في مأمن من الغدر الذي حل بعلى قريب وأخيه . وقد أسر برأيه لرئيس ديوان الرسائل : إن السلطان رجل عظيم ولكن الذين أحاطوا به يعد كل واحد منهم نفسه وزيراً ، وهو يسمع لهم ويعمل بقولهم فيزينون له الباطل ويصدونه عن الحق ، وإنهم سيهدمون بدسائسهم هذا الصرح المشيد^(١) . وتوسط أبو نصر في توضيح السياسة التي يجب أن تتبع واستمع إليه السلطان وقال له إنهم لا يريدون أن تسير الأمور في مجراها السليم بوشاياتهم ، وأمر بكتابة رسالة إلى التونتاش حتى يعود ، ولكن هذا يدرك ما انطوت عليه نفس مسعود من الغدر فلا يذعن لطلبه ويسير كي يبقى آمناً في خوارزم ويتعهد ألا يخرج عليه ، وبأن يده بمن يشاء من الجند ، وأن ينفر للقتال حينما يوجهه . ولم تقف دسائس الزوزنى عند هذا الحد بالنسبة لالتونتاش فقد وجه المنجوق كتاباً بإمضاء السلطان لقتل التونتاش ، فملء المنجوق غروراً وتناول على التونتاش ولكن وزيره أحمد عبد الصمد فطن إلى القصد من هذا التناول فأمر بإقصائه ووكل به رجاله حتى قضوا عليه . وافتضح أمر كتاب السلطان . ولولا حرص الوزيرين ، الميمندى وزير مسعود وعبد الصمد وزير التونتاش ، وهما أعظم رجلين في العهد المسعودى ، لخرج التونتاش على الدولة ولفقدت الدولة بخروجه أخلص .

(١) ص ٨٦ وما بعدها .

الرجال لها . وبين الميمندى الوزير للسلطان سوء النصيح الذى أداه الزوزنى ومدى ما ترتب عليه من الحرج ، ولكن السلطان أسرع بالاعتذار بأنه كان مخمورا حين وقع الكتاب لمنجوق . ولم يتعظ من سياسة السير وراء الزوزنى .

لم يكن الزوزنى قد قنع بما حطم من قيم وما ظلم من رجال فإنه كان متعطشا لدم حسنك وزير محمود . وهو ينتهر فرصة شعور مسعود نحو هذا الوزير حين كان يحبذ غضب السلطان محمود عليه . وهو ينتهر فرصة وجود الميمندى الذى كان وزيرا لمحمود ثم عزل وحبس فى قلعة بالهند فى الوقت الذى رقى فيه حسنك إلى منصب الوزارة . ولكن الميمندى يعلن أنه قد عاهد الله وهو فى محبسه على ألا يتسبب فى إراقة دم أحد وأنه لا يعلم عن سلوك حسنك شيئا يستحق أن يعزر من أجله . والسلطان نفسه يعلن أنه يعفو عن هفوات حسنك وأنه لا يريد سفك دمه . فيلجأ الزوزنى إلى القول بأن حسنك قرمطى وأن الخليفة طلب رجمه وأنه قطع صلته بالسلطان محمود من أجله ، ويتأثر مسعود بهذه الدسيسة ويرضى سياسة الزوزنى قبل حسنك ، ويبعث لحسنك يذكره بقوله « حين تصبح سلطانا أصلبنى » ويبذل الوزير ويبذل رئيس ديوان الرسائل كل ما فى الوسع لإثراء الزوزنى عن قتل حسنك ولكن بلا جدوى . ويتجمع الناس حول المشنقة التى أعدت ليشد إليها ويطلب الزوزنى من الناس أن يرموه ولكنهم يصيحون باكين ساخطين ولا تجرؤ يد على الإمساك بحجر لتلقى به فى وجه حسنك ، ويخاف الزوزنى أن تفلت منه الفرصة فيوعز إلى جماعة من السوق برجم حسنك ولكن الجندى المكلف بالوقوف عليه يأبى أن يقتل الوزير رجما بالحجارة من السوق فيقتله شنقا . ويعلو نحيب الناس وصياحهم ويشتمون سخطهم وتبدو خيبة أملهم فى العهد المسعودى الجديد . ويعرف الوزير ورئيس ديوان الرسائل ما تم فى

الصباح فلا يتناولان إفطاريهما حزنا ، ويسير في الناس حديث أم حسنك حين رأت جثة ابنها ، قد قطعت رأسه فقالت : « ياله من رجل عظيم ولدى يمنحه ملك كمحمود عالم الدنيا فيمنحه ملك كمسعود عالم الآخرة » ، ويشيع بين الناس قول أسماء بنت أبي بكر حين رأت جثة ولدها عبد الله بن الزبير معلقة فوق المشنقة : « أما آن الوقت لينزل هذا الفارس عن جواده »^(١) . وأدرك مسعود حقيقة كل ما حدث ، وكان له غير الوزير ورئيس الديوان ، عيون تنقل إليه كل ما يجري في دولته ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من تأثير الزوزنى فيه ولم يستطع أن يوقف أطماع هذا الرجل ، في إشفاء غله من المحموديين .

ونالت هذه السياسة الهدامة أسرة السلطان نفسها ، فاعتقل عم السلطان وسيق إلى القلعة^(٢) . وقتل رجلان من أعظم قادة الدولة هما أريارق والغازى .

والحادثة الخامسة التى تميز هذه الفترة من حكم مسعود هى اتباع رأى الزوزنى فى استرداد مامنح للناس من أموال البيعة والصلوات إبان الفترة القصيرة التى حكمها السلطان محمد ، وذلك أنه من الحيف أن يبذل من أجل أمر لم يتم أكثر من ثمانين ألف درهم الأتراك والأعراب وأصناف الجند . وقد زين الزوزنى وأتباعه هذا الأمر للسلطان وقالوا : إن المحموديين لخداعهم وريائهم لا يرغبون أن يسترد السلطان هذه الأموال . وطلب أبو سهل من مسعود أن يطلب من القائمين على الخزائن قوائم بما أنفق من مصروفات وأن ترسل هذه القوائم إلى ديوان العرض ، الذى هو رئيسه ، كي يحيل مرتبات الجند بعضهم إلى بعض بطريقة التسبيب^(٣) ، وليوزع البراءات كي تستوفى هذه

(١) ص ١٩٢ وما بعدها . (٢) ٢٧٠ وما بعدها .

(٣) أنظر صفحة ٢٨٢ حاشية ١ الشرح هذا الاصطلاح .

الأموال على ألا تصرف نفقات الجند من الخزانة مدة عام حتى يتم ذلك . واعترض الوزير بشدة على هذا وشاركه رئيس ديوان الرسائل الذى رد كل ما أخذ أيام السلطان محمد . ووقع على الناس مظالم كثيرة وساءت سمعة السلطان ولكنه لم يرعو ، وكان لخلجه من هذا التصرف يلقى مسؤوليته على الوزير والبارض . والوزير من هذا الوزير برىء . وبعد أن أحسن أهل غزنة استقبال السلطان امتلأت قلوبهم حسرة وألما . وفي الفترة التى كان الجند يتقاضون مرتباتهم قهرا بجمع ما كان الناس قد أخذوه أيام محمد ، وبينما المظالم تقع على الصغير والكبير ، كان مسعود ، كعادته فى مثل هذه الحالات ، يمارس الصيد خارج المدينة^(١) .

(٤)

وأخذ مسعود بعد هذا يدبر شئون مملكته الواسعة، وعرضت أسماء بعض كبار المحموديين لشغل المناصب الكبيرة ولكن السلطان رفض اختيار أحدهم . وتحددت صلة الدولة بخان ماوراء النهر ، كما تم العهد مع خان كشغر . وبعد ذلك قر فى نفس السلطان وجوب التخلص من أبى سهل الزوزنى لما جره على الدولة وعليه من الولايات ، فأمر بمصادرة أمواله ثم قبض عليه وسيق إلى قلعة كوهتين . وكان لهذا التصرف أثره الحميد فى استرضاء التوتناش الذى كان يخشى أن ينضم إلى على تكين خان ماوراء النهر . وهكذا تخلص البلاط المسعودى من مستشار السوء . ويستشهد بعد ذلك التوتناش فى حربه مع على تكين بأمر مسعود . ولا يابث مسعود أن يفقد وزيره الخواجة أحمد حسن الميمندى . وكانت شخصية أحمد عبد الصمد وزير التوتناش فى خوارزم ماثلة فى أذهان رجال البلاط وعند السلطان نفسه ، فالرسائل التى كانت تصدر

باسم التونتاش والى تمثل الحنكة السياسية والدراية التامة بما يجرى فى الدولة والدقة فى التحرير والأسلوب ثم الاتجاه القويم الذى امتاز به عهد التونتاش والذى يرجع الفضل فيه إلى وزيره ، ثم ما كان من هذا فى الحرب التى قتل فيها التونتاش مما يدل على أنه رجل يجمع حقاً بين رأى والسيف ، كل هذا جعل اسم عبد الصمد يبرز بين الأسماء اللامعة الأخرى التى ذكرت حين فكر مسعود فى اختيار الوزير . وفى الفترة العصيبة التى اجتازها العهد المسعودى ، هذه الفترة التى بدأ السلاجقة فيها التفكير فى إقامة دولة ، كان دور عبد الصمد دور صاحب رأى السديد ، ولو أنه لا رأى لمن لا يطاع ، فقد طغى استبداد مسعود على سداد رأى وزيره .

فى هذه الفترة كانت الفتن قائمة فى أرجاء الدولة . فالخلاف على أشده بين أحمد بناتكين والقاضى فى الهند وكان بناتكين يعمل بوصية الميمندى منذ سار إلى هناك ، فقد كان الوزير حاقداً على القاضى لأن السلطان محمود كان يشيد بكفاءته وجدارته بالوزارة مما يهون شأن الميمندى ، وطغت الخصومة بين الرجلين على مصلحة الدولة . وسار القائد فى الغزو إلى بلاد لم يفتحها أحد من المسلمين من قبله . وأشيع عنه أنه ينزع إلى الاستقلال عن الدولة ، ولم يكن بد من حربه وهزيمته .

وفى خوارزم يقع النزاع بين هرون بن التونتاش وعبد الجبار ابن الوزير أحمد عبد الصمد ، ويعمل هرون ورجاله على إبعاد عبد الجبار ، وهو لا يفعل هذا كرهاً منه لعبد الجبار وحده إنما يضيق صدره بمسعود وبدولته أيضاً ولذلك فإنه يتفق مع السلاجقة على أن يسير معهم من مرو ويفتح معهم خراسان . ويدبر عبد الصمد الخطة مع ولده لى يغتال هرون ، ولكن عبد الجبار يقتل بعده بقليل ، ويلى خوارزم خندان بن التونتاش فيعلن خروجه على مسعود ويمنع اسمه

من الخطبة ثم يستقبل مبعوثين من قبل السلاجقة ليتفق معهم ضد الدولة الغزنوية .

وفيما وراء النهر كان على تـكـين خصما وبالرغم من أنه لم يكن شديد المراس إلا أنه خصم وليس بصديق . فقد كان يأمل أن يمكنه السلطان محمود من الاستيلاء على جزء من تركستان في مقابل ولائه له ، ولكن محمود لم يبلغه مأربه وجاء مسعود فلم يلتفت إلى زية على تـكـين وتسرع في الكتابة إليه كي يعينه في الاستئثار بالملك دون أخيه محمد ووعدته بأن يمنح أحد أبنائه إقليما عظيما إذا أعانه في حربه ضد أخيه . وكانت هذه زلة من مسعود فإن على تـكـين لم يعاونه في شيء وتم له عزل أخيه وارتقاؤه العرش دون قتال ومع هذا فإنه حمل مسعود على أن يبعث التونتاش لقتاله فهزمه ، ثم إنه ذهب سرا وفي خبث ، بعد وفاة التونتاش خوارز مشاه ، وأغار على الصغانيين وانهب منهم أموالا طائلة . وبموت على تـكـين يؤول أمر مملكة إلى ولديه وهما في سن الشباب ، وقد حاولا التمرد ولكنهما أدركا أن مقاتلة جند السلطان ليست هينة وبعثا يعتذران عن خطئهما ، وأدرك الوزير أحمد عبد الصمد أن من الخير استرضاءهما وأن على السلطان أن يقبل التصالح معهما وأن ماعمله شيء والنية شيء آخر . وانتهى الأمر معهما على أن تخطب أخت إيلك للأمير سعيد وأن تخطب بنت عم السلطان إلى إيلك وأن يكتب لأرسلان خان ، خان تركستان ، بأن الأسرتين الغزنوية والتـكـينية قد أصبحتا أسيرة واحدة . وحين آل الأمر لبورتـكـين بن إيلك خرج هذا على مسعود وانضم إلى السلاجقة ، وعبثا حاول مسعود أن يسترضيه .

وفي تركستان كانت الصلة مع قدرخان طيبة وكان مسعود يقدره ويرعى

صداقته ، ولكن الأمر فيها آلى إلى ولديه ولم يكونا متحابين . وكانت السلطة في الظاهر بيد أرسلان . وقد بدأ صديقين لهرون بن ألوننتاش الذى دفعهما إلى الاستيلاء على ترمذ ولكنهما غلبا . وسعى الوزير إلى إقامة الصلات الودية معهما ؛ وخطبت بنت قدرخان لمسعود ، وخطبت بنت أرسلان خان لمودود ابنه . ولكن الولد الثانى لقدرخان ، بغراتكين ، كان مغيضاً فإنه كان قد خطب زينب بنت السلطان محمود ولكن هذا تغاضى عن إتمام الزواج ، فأعاد طلبه لمسعود الذى كتب لأرسلان شاكياً تطاول أخيه فى أمر الميراث وفى لباقة رد الرسل الذين جاءوا لطلب زينب . ولم يكن بغراتكين هيناً ، فهو الذى ربي طغرل وهو الذى يستطيع نصحه وتوجيهه فحمله حقه على مسعود وحرصه على الانتقام منه على أن يكتب إلى طغرل بأنه سوف يمدد بعون من رجاله إذا هاجم السلطان . وضبطت رسالته ونصح أبو نصر مشكان بألا تفضح حفظاً للصلات الطيبة مع أرسلان خان . ولكن ضبط الرسالة لم يحل دون التأيد الذى لقيه السلاجقة من هذه الأسرة .

وفى طخارستان وختلان قامت فتنة ذهب أحمد عبد الصمد الوزير لإخمادها ونجح .

أما الرى والجبال فأهلها لا يحبون الخراسانيين ، والرى موضوع الدسائس والفتن ، وقد دبر ابن كاكو الأمر للاستيلاء عليها وقد نصح الحمدوى السلطان بأن يتوجه الأمير سعيد إلى إصفهان . وكان أول طلب للخليفة من مسعود قبل أن يلى العرش هو الشفاعة لتعاد إصفهان إلى ابن كاكو . التى تقطع لابن كاكو ، ولكنه قرر أنه لا يتحمل مسؤولية ذهاب الأمير إلى الرى . وكان ابن كاكو يستعين كثيراً بجند من التركمان ،

هذا ولم يكن أقارب السلطان مسعود والموتورون من المحموديين ومن يحقدون على مسعود من رجاله المعزولين ، كل هؤلاء لم يكونوا أقل خطرا من أعدائه ، وقد انضموا إلى السلاجقة وعملوا في طليعة جيوشهم إثباتا لإخلاصهم لهم .

(٥)

استعان السلطان محمود بالتركان ، كاستعانته بالطوائف الأخرى ، في جيشه . وفي غزواته للهند وللعراق العجمي كانت فرقة التركمان تحارب في قوة ضمن جيشه . وفي خوارزم كان التونتش يسمح للتركان بالإقامة فترة من السنة . والتركان قبائل تركية تتجمع حول رئيسها وتفعل مايمليه هذا الرئيس ، وهم جند مأجورون يحاربون في جيش من يدفع لهم الأجور . ولكنهم يمتازون عن سائر الجند المرتزقة بالجرأة في القتال والاعتزاز بالنفس وبالكبرياء والاستقلال في الفكر ، وهم كالبدو والرحل يميلون إلى النهب والسلب وليس من اليسير السيطرة عليهم ^(١) . اضطر السلطان محمود ، لما رأى من طغيانهم ، أن يلقي بهم بحمد السيف من باخان كوه . ولكن السلطان مسعود استعان بهم ليزيد عدد جنده ، فقدموا وعلى رأسهم ثلاثة من مقدميهم ، قزل وبوق وكوكتاش فأدوا بعض المهام ، ثم انقلبوا إلى سيرتهم الأولى من النهب والسلب ، وكانوا قد ذاقوا حلاوة غنائم خراسان . وآل الأمر إلى أن قبض على قائد عظيم كتاش فراش وضاعت نواحي الري والجبال بسعيهم ولم ينصرفوا عنها إلا بعد جهد عنيف ^(٢) . وفجأة عرف أهل بلاط السلطان مسعود في دهشة وحيرة وذعر أن هؤلاء الرعاة حداة الإبل الذين كانوا يستهينون بهم

(١) Kazimirsky ص ٩٨ مقدمة ديوان منوچهری

(٢) البيهقي ص ٦٨

كما كان الفرس يستهينون بالعرب أيام الساسانيين أصبحوا يكونون قوة واحدة تعترف بالقيادة لثلاثة من زعمائهم هم طغرل ويغور وداود^(١).

وقد اتبع السلطان سياسة غير رشيدة مع هؤلاء القوم ، فقد أمر بالقبض على تراكمة هراة وترحيلهم إلى غزنة ، ولم تكن هذه الخطة لترضى أحداً من أهل الرأي ، فلم يكن يسيرا أن يقبض على أكثر من ثلاثة آلاف رجل ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأمتعتهم . ولم يكن يسيرا إخفاء هذا الأمر على بقية التركمان في الدولة وعلى حدودها ، فتركمان الري سوف يشعرون وتركمان بلخانكوه سوف ينتصرون لإخوانهم ، وقد عرف التركمان ما يدبر لهم فذعروا وجاءوا من الري إلى خراسان وأفسدوا في الأرض كثيراً . وحاد رجال الدولة في نتيجة هذا التصرف ، ويتحدث أبو نصر مشكان عن هذا السلطان المستبد برأيه عن غير روية وعن المصير الذي لا يدري أحد ماذا يكون . واستمر طغیان السلاجقة وقاومتهم الدولة الغزنوية ، حسب تفكير سلطانها مسعود ، وبلغ الأمر إلى حد أن كتب السلاجقة رسالة إلى سوري يطلبون المزيد من البلاد برضا من السلطان وأصبحت الجماعة المأجورة قوة تملئ شروطها ، ولاكنهم استخدموا اللباقة في أسلوبهم ، ولو قبلت قوة السلاجقة حينذاك بقوة يسندها الرأي السليم لقضى عليهم ولكن شتان بين الفريقين في هذه الحرب . لقد كان السلاجقة خفافا لا تعوقهم مؤنهم عن الحركة ولا يرتبطون بهذه المؤن وكانوا مطيعين لقوادهم الثلاثة لا يخالفون لهم رأى ، وهؤلاء الثلاثة كانوا يتشاورون في كل ما يصدر من أمر . أما الغزنويون فكانوا مترفين فجنودهم ينفرون إلى الحرب

(١) مقدمة ديوان منوچهری ، ص ٩٨ .

وعليهم من الملابس والدروع ما يعوق حركاتهم بسرعة، وكانوا مرتبطين ارتباطاً شديداً بما معهم من المتاع، وأما قادتهم فقد كانوا مسيرين للحرب برأى السلطان لا بأرائهم، ولم تكن آراء السلطان تصدر عن روية وتدير إنما كان الاستبداد يسيطر عليها، ففى حرب بعث بكتغدى، القائد الشبىخ المجرى، وبعث معه عشرة من القادة، وبعثاً حاول أهل الرأى أن يدينوا للسلطان ما ينجم عن تعدد القادة من أضرار، وفى حرب أخرى تدخلت الدسائس ضد قائد آخر عظيم، سببشى، لى يحموه حملاً على شن حرب ضد السلاجقة، وحاول هذا القائد أن يبين أن الخير فى التريث؛ وسواء كان متردداً أو كان حذراً فإنه لم يقدم على الحرب إلا بعد أن كتب له السلطان بخط يده يأمره بذلك، ولم ينج هذا القائد من الهامين من رجال السلطان فاتهموه بالتهاون فى بدء الحرب لأنه يتاجر فى علف الجيش، واتهموه بأنه يعيش منغمساً فى اللوم مع الحسان التركيات وأنهن يشغلانه عن أداء واجبه، ولم يكن هذا كله إلا عن سوء التوفيق الذى حمل السلطان على أن يختار رجالاً متنافرين متحاسدين للمناصب العليا فى الدولة، وسببشى هذا الذى كان مغضوباً عليه من مسعود والذى كان يجرحه رجال البلاط هو الذى كان السلاجقة يخشون بأسه ويرهبون لقاءه وكانوا يسمونه سببشى الساحر. وكان مسعود شديد الاعتداد بنفسه، وفى الحروب التى خاضها ضد السلاجقة وهو على رأس جيشه كان يهزمهم لما له من الهيبة فى نفوس جنده ولما جبل عليه من الشجاعة والصبر، ولكنه مع هذه الميزة الهامة فى القائد لم يكن يعرف هدفاً واحداً يسير إليه، فكان بعد هزيمة العدو فى المعركة ينصرف دون أن يفكر فى إمكان عودة العدو. هزم جيش السلاجقة فى سرخس ولكنهم عادوا وكروا على الجيش السلطانى وكانت هزيمة نكراء لهذا الجيش. وبادر الوزير أحمد عبد الصمد بالكتابة إلى السلاجقة وكان يريد أن يجرب

السياسة معهم وأن يستغل اعتداد السلطان لقبول رأيه ومآثره إلى من عيونه من أن السلاجقة في رعب من جيش السلطان رغم أنهم غلبوه ، واستطاع أحمد عبد الصمد أن يهدىء القتال فترة ، ولكن السلطان لم يترك له حرية التصرف ولم يكن يميل إلى المهادنة .

في هذا الوقت مات أبو نصر مشكان رئيس ديوان الرسائل ، وقد سجل البيهقي مدى ما كان في نفسه من المرارة قبيل وفاته ومدى ما كان عليه من القاق للمستقبل المظلم لدولة مسعود . وأقام السلطان مكانه أبا سهل الزوزنى الذى كان قد عزله وجرده من أمواله واعتقله في قلعة كوهتيز . وعاد الزوزنى وعاد معه التطرف في خصومة المحموديين والانتقام منهم ، وقويت في نفس السلطان فكرة الاستبداد والاعتداد برأيه دون رأى النصحاء المخلصين . وجرت بعد ذلك موقعة دندانقان وهزم جيش السلطان وعلت كلمة السلاجقة . وأحاط المتملقون بمسعود وكثرت أحاديثهم عن الانتقام وعن الفرص المواتية الآتية وعن النهوين من شأن ما حدث ، وازداد نفورا من الذين يصارحونه بالحق والذين ينصحونه بما يجب أن يفعل ، وفي سورة من الغضب أمر بالقبض ، بالغدر الذى عرف به ، على ثلاثة من أكبر قادة الدولة هم سباشى وبكتغدى وعلى داية . وكانت إجابة هذا القائد كاشفة عن سياسة الانتقام من المحموديين في الوقت الذى كانت الدولة شديدة الحاجة إلى كفاءاتهم ، فهو يبدى عدم المبالاة بالأمر الصادر بتجريد سجنه ولكنه ينصح السلطان ألا يتبادى وراء الوشاة من أنصاره ويحذره من الزوزنى ، ومن سوري ، الذى ضيع خراسان ، كي لا يضيع غزنة .

واستولى الرعب على السلطان وأصبح حريصاً كل الحرص على خزائن

غزته ، فهو يريد أن يهرب بها إلى الهند . وحاولت عمته حرة الختلية وأمه أن
تثنيه عن عزمه ولكنه ردهما رداً عنيفاً فلم يستطع أحد معارضته بعد ذلك .
وينتشر البيهقي فرصة كتابة رسالة من السلطان للوزير فيكتب لهذا معماة يقول
فيها : « إن هذا السلطان قد ذهب من أمر لم يقع ولن يثنى العنان حتى يبلغ
لاهور . . . ويبدو أنه لا يلبث بها . . . ولم يبق أحد من الحرم في غزته وقد
أسقط في أيدي الأولياء والحشم المقيمين هنا وهم جميعاً في حيرة من أمرهم وكلهم
يعاق أمه على الوزير ، فالغوث الغوث ليتدارك سريعاً هذا التصرف الأخرق » .
وكتب الوزير للسلطان يهديء من روعه ويبين له ألا وجه لترك البلاد
والذهاب إلى الهند ، لأن الجيش قادر على رد السلاجقة وطردهم بعيداً عن بلخ ،
ولأن هيبة الدولة تزول ويزداد طمع الأعداء فيها لو عرف الناس أن السلطان
سائر مع الحرم والخزائن إلى الهند ، ولأن الهنود أنفسهم لا يجوز الاعتماد
عليهم وليس من الحكمة نقل هذه الخزائن إلى بلادهم ولم يكن الغزنويون
محسنين إليهم ، ولأن من الخطر المحقق اجتياز الصحراء بهذه الخزائن والغلمان
الحراس ليسوا أهلاً للثقة ؛ ويختتم الوزير رسالته للسلطان مذكراً إياه بأنه لا يزال
يعمل مستبداً برأيه بعد أن رأى مرات عاقبة هذه الخطة التي يأسف الجميع لها .
ولكن هذا لم يجد نفعا ، وسار السلطان مع الخزائن عبر الصحراء ، وهناك
طمع الغلمان فيما تحويه الخزائن وصرح الشرفانقضا وعلى رأسهم نوشتكين
على الخزائن ثم قبضوا على السلطان وزجوا به في قلعة ماريكاه . وتذكر كتب
التاريخ أنهم جاءوا بأخيه محمد فملكوه فقبل الملك بعد تردد ، وفي رواية أخرى
أن ابنه أحمد هو الذي ملك وأنه أمر بقتل مسعود . وهكذا كانت نهاية هذا
السلطان الذي استغرقت سيرته كتاب البيهقي .
وقد جاء في كتاب « سلطنت غزنويان ^(١) » ، أن أبا القاسم فرشته يقول

(١) استاد خلبلي ، انجمن تاريخ افغانستان ، ص ٢٣١ .

فى تاريخه إن السلطان مودود أمر بإقامة قبر أبيه مسعود فى غزنة . ويقول
أستاذ خايلى إنه يقال إن هذا القبر فى حديقة من حدائق غزنة اليوم وقد أقيم
عليه صندوق نفيس من المرمر الجلابى ليس عليه سوى آيات من القرآن وقد
أقاموا عليه قبة ؛ وهو يطالب بالمحافظة على هذا الأثر حتى لا يندرس .

وإنه ليسعدنى أن أختتم حديثى هذا منوهاً بالفرصة الطيبة التى أتاحت لى
أن أتعاون مع صديق وزميلى الأستاذ صادق نشأت ، هذا التعاون الذى أخرج
كتاب تاريخ البيهقى إلى العربية على هذا الوجه .

هذا وقد تعمدنا أن نترك الألفاظ العربية التى وردت فى الكتاب كما هى
لكى تعبر عن مدلولاتها فى العصر الذى كتبت فيه وكذلك تركنا عناوين
الفصول بالعربية كما جاءت فى النص الفارسى . ولا نزعـم أن الكتاب قد خلا
من الأخطاء ولكننا نشهد بأننا بذلنا جهدنا لـكى نجعله أقرب إلى الصحة ،
وإننا نرجو أن يتاح لمن بعدنا تدارك ما فاتنا ، وحسبنا أن نقدم اليوم هذا
السفر للمكتبة العربية ، شاهداً بالتعاون المحمود بين جامعتى القاهرة وطهران ،
شاهداً على ما بين الثقافتين العربية والفارسية من صلات يجب أن نرعاها ، رعايةً
للتراث الإسلامى العظيم .

يحيى الخشاب

جمادى الأولى ١٣٧٦

ديسمبر ١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(يروى صاحب هذا التاريخ « أبو الفضل البيهقي » الكاتب ، ما شاهده بنفسه من الحوادث فيقول : إن الأمير مسعود ، النجل الأكبر وولى عهد السلطان محمود الغازي بن سبكتكين رضى الله عنه ، كان بعيدا عن عاصمة الملك ، حينما توفي والده السلطان وأسلم روحه الطيبة لخالقها بغزنة ؛ فقد كان إذ ذاك فى إصفهان ، يريد الرحيل إلى همدان وبغداد ، فاتفق أمناء الملك ، وكبار رجال الدولة أمثال كبير الحجاب الأمير على قريب ، وأخى السلطان المتوفى ، عضد الدولة ، الأمير أبى يعقوب يوسف بن ناصر الدين سبكتكين وكان السبا هسالار ، والوزير الأمير حسن المشهور بحسنك ، وصاحب ديوان الرسائل أبى نصر مشكان ، وصاحب ديوان العرض أبى القاسم كثير ، وسالار غلمان السراى بكغدى ، وأبى النجم إياز ، وعلى دايه ، وهما من أقرباء السلطان المتوفى ، رأى هؤلاء وجماعة أخرى من العظماء والكبراء أن الخير فى أن ينتهزوا الفرصة السانحة ، وأن يدعو الأمير أبا أحمد محمد ، نجل السلطان محمود الأصغر ، وكان يقيم فى بلدة جوزجان^(١) على مقربة من العاصمة ، وأن يجلسوه على عرش والده العظيم ، على أن يتولى كبير الحجاب ، أعظم أمناء الدولة ، الأمير على قريب تدبير شئون الملك فى خدمته .

فلما انتهى إلى الأمير مسعود ، بإصفهان ، نبأ وفاة والده وخبر تنصيب أخيه تحول مسعود عن بغداد إلى غزنة ، فسار من إصفهان إلى الرى ، ومنها إلى

(١) من ولاية خراسان ، كانت أبام السلطان محمود تحت إمرة والده محمد .

نيسابور ، ثم إلى هراة ، ووصلت أنباء ذلك إلى أسماع الأمراء والقادة ، فاستصوب الأمير علي والعظماء الرأي باعتقال الأمير محمد بقاعة كوهتيز بتكينا باد^(١) ، على أن يرسلوا إلى الأمير مسعود كتاباً مع أخى كبير الحجاب ، منكيتراك ، وأبى بكر الحصري ، الذى كان نديماً للسلطان المتوفى ، يتضمن الاعتذار عما جرى لأنه كان لصالح الدولة^(٢) .

نص الكتاب الذى أرسله أركان الدولة المحمودية ٢

من تكينا باد إلى الأمير مسعود بهراة

« أطال الله حياة ملك الدنيا السلطان الأعظم ولى النعم ، فى العظمة والغنى والملك والنصر وبلوغ الأمانى والنعم فى الدنيا والآخرة . يعان جماعة العبيد من تكينا باد فى يوم الإثنين لثلاثة أيام خات من شوال ، عن أحوال العسكر المنصور الذى هو اليوم مقيم هنا ، وأنهم بعد هذا حين يصل أمر السلطان العالى يقصدون خدمة السلطان ملك العالم أطال الله بقاءه ونصر لواءه . هذا وقد خلصت النيات واجتمعت القلوب على الطاعة ، بزوال العوائق والموانع وتحول الأمور واستقامتها على النحو اللائق ، والحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين . أما قضاء الله تعالى فإنه يجرى كما يشاء سبحانه ، لا كما يبتغيه الإنسان ، والأمركاه إليه تعالى إذ بمشيئته تدور الأقدار ، له الأمر فى كل ما يأتى به من محنة ومنحة أو سعادة وقدرة ، وكله يصدر عنه جل شأنه ، وهو عين

(١) مدينة كانت بموضع قندهار الحالية فى أفغانستان .

(٢) هذه المقدمة ، التى وضعها غنى - فياض بين قوسين محل اختلاف فى النسخ . فهى غير موجودة فى بعضها ، كما هو الحال فى نسخة مورلى ، وفى البعض الآخر ذكرت مع تفاوت فى الرواية من هذه الناحية ، ومن ناحية الأسلوب أيضاً ، يرجح غنى - فياض أن هذه المقدمة ليست من عمل البيهقى ، بل هى مقدمة زادها الد. الخكى بوضوح مطالب الكتاب وقد آثر الناشر أن يقدم نسخة يب لأنها أوضح عبارة .

العدل والصواب ، وكذلك ينتقل الملك بأمره تعالى من هذا إلى ذاك ، ومن ذاك إلى هذا ، حتى يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

أما الأمير أبو أحمد ، أدام الله سلامته ، فإنه فرع من دوحة السلطان الراحل ، أنار الله بهانه ، وكل فرع من تلك الدوحة المباركة هو أجدر بالتبرك ٣ به ، ما دام أجدى وآكد ثمرا ، فإن خاض أحد الخدم في حق أحد أفراد تلك الأسرة العظيمة بما لا يليق ، فإنه ولا شك ينال بقوله من ذلك الأصل العريق أيضا ، وقد قدر له "بحكم الأزل أن يتربع مدة من الزمن على أريكة ملك غزنة وخراسان والهند ، مكان أبيه وجده من قبل ، رحمة الله عليهما ، فلم يكن من ذلك بد . فزين ذلك العرش ، وكان هذا لازما لذلك الوقت ، ولم يكن بد من أن يمارس الملك ويأمر في كل باب كسائر الملوك ، ولم يكن ثمة مناص من أن يأتمر بأمره من كان حاضرا إذ ذاك ، مراعاة لشروط الطاعة ، فأطاعه الجميع من شريف وحقير ، حتى إذا انقضت أيامه ، ووهب الله الناس الفرع الأكبر من الدوحة العظمى ، وأمد على الدولة ظله ، ولى العهد على الحقيقة والمعتبر بحق خليفة المصطفى عليه السلام ، فإنهم يسارعون اليوم إلى الحق ، ويدخلون في طاعته ، ويلزمون أنفسهم بالقيام على خدمته ، من وقت تحرير هذه الوثيقة المذيلة بأسماء العبيد جميعا .

هذا وامتثالا للأمر العالى المحرر بالخط الشريف ، قد بودر باعتقال الأمير محمد بقلعة كوهتيز . وبما يذكر ، أن جدالاجرى والأمير محمد في سرادقه ، والجند مصطفىون بأسلحتهم وعتادهم من قرب السرادق إلى مدى بعيد من الصحراء ، وكان رد الأمير على هذا الجدل أن طلب إعادته مع أهله إلى جوزجان ، أو أن يوفد إلى الحضرة العلية ، واستقر الرأى أخيرا على أن يعتقل

بالقلعة مع خاصته وتدمائه وأتباعه ، إلى أن يصدر الأمر الساطاني بما ينبغي في شأنه ، كما تقرر أن يقوم الحاجب بكتكين بحراسة القاعة في شارستان تلبيل^(١) مع فرسانه وخمسمائة من الخيالة ، كيلا يحدث ما لا تحمد عقباه أثناء سفر العبيد إلى الحضرة الساطانية وتغيبهم عن هنا . وقد اختير العبدان أبو بكر الحصيري ، ومنكيتراك من بين الأعيان ليتشرفا بالمثل لدى الحضرة ويشرحا ما حدث .

والمرجو من ولي النعم السلطان الأعظم ، أدام الله ساطانه ، أن يعفو عما سلف من عبيده ، فإنهم إذا كانوا قد قاموا بعمل لتسكين الأحوال ، فإنهم فعلوا هذا رعاية لعهد السلطان الراحل ، والآن وقد ظهر من هو أحق بالأمر وأولى ، وقد بلغهم أمره ، فقد قام الجميع بما توجبه عليهم العبودية وشروط الطاعة .

هذا وإنهم يستعجلون الجواب ، ليعرفوا ما يجب القيام به من أمور إزاء الأمير أبي أحمد ، وكذلك بالنسبة للشئون الأخرى ، حتى يقوموا بما ينبغي حسب الأوامر ، وقد أوفد الرسل من الفرسان بالبشائر إلى غزنة مسرعين ليحيطوا الناس علماً بما تم ، ولتسعد السيدة الملكة الوالدة وتطمئن وسائر الخاصة ، بوصول رايات النصر إلى هراة ، كما تقرر أن تذهب وفود أخرى إلى السند والهند ، لإعلام القوم بهذه البشرى ، حتى تستقيم الأمور في تلك الأنحاء ، بإذن الله تعالى جل شأنه .

* * *

وذهب أبو بكر الحصيري ومنكيتراك^(٢) للقيام بهذه المهمة ، وأرسل ثلاثة من الخيالة المسرعين من هذا الطراز إلى غزنة أيضا ، وتليت الخطبة في يوم الجمعة

(١) في هذه الكلمة اختلاف كبير : رتيل ، رتيل ، بيل ، وشارستان بمعنى داخل المدينة أى داخل أسوارها .

(٢) أبو بكر الحصيري نديم السلطان محمود وسيد كر كشيروا ومنكيتراك هو أخو على قريب منكيتراك الجباب وستأتي قصته .

بتكينا باد ، باسم السلطان مسعود ، وحضر يومها إلى مسجد الجمعة الخطيب السلطاني ، وكبير الحجاب ، وجميع الوجوه والأعيان . وأقيم حفل عظيم ، نثروا فيه على الناس أموالا طائلة من الدراهم والدنانير ، كما أبلغوا أهل بست لتتلى الخطبة لمسعود هنالك ، ونهض أهل بست بالأمر على خير وجه . وكان الحاجب على بن إيل أرسلان القريب ، يركب كل يوم ، في جماعة الأعيان من أرباب السيف والقلم ، إلى ظاهر البلدة ، حيث يظلون ممتطين خيولهم حتى الظهيرة ٥ ، وهم يتحدثون ، فإن أتاهم خبر جديد تناقلوه فيما بينهم ، وإذا جاء خبر بوقوع خلل في جهة ما تداركوه بالرسل والرسائل كما تقتضيه ظروف الحال والمشاهدة . ويعودون بعد ذلك إلى خيامهم .

وكانوا يسعون لراحة الأمير محمد ، إلا أن مقابلاته كانت مقصورة على خاصة ندمائه ، كما كان قوّالوه والمطربون والقائمون على أمور شرابه يحملون إليه أنواع الشراب والفاكهة والرياحين . وقد أخبرني عبد الرحمن القوّال أن الأمير محمد كان إبان بضعة أيام في حيرة وهمّ ، وكان يأذن لخاصته بالانصراف بعد الأكل (فلا يعقد مجلس الشراب) . وفي اليوم الثالث خاطبه أحمد أرسلان قائلاً : « أطال الله حياة مولانا ، إن قضاء الله لا مرد له ، ولا جدوى من الحزن ، فليعد الأمير إلى الشراب والطرب ، وإنا ، نحن العبيد ، نخشى أن تتغلب السوداء على مولانا ، فتورثه علة ، والعياذ بالله » . فترك الأمير رضى الله عنه بعدها ما كان عليه من الإعراض عن الطرب ، وأخذ يسمع مني شيئاً من الملاح والنكات ، وأخذ ينزع رويداً كل يوم إلى ما كان عليه من المرح ، وظل على هذا المنوال حتى إذا سار الجيش شطر هراة ، أخذ الأمير محمد يعود إلى الشراب ، ولكن في تكلف ومع تناول النقل ، فإن الشراب والطرب إنما يستساغان في أوقات الراحة وساعات الهناء ، أما ما يقال من أنه يجب على الحزوين احتساء الخمر حتى تخفف شدة الغم ، فإنه خطأ محض ، فالشراب ، ولو أنه يقلل الغم

ويخفف وطأة الهم في الحال، إلا أن الحزين إذا احتسى الخمر ونام، فإنه يهاب ٦ بخمار منكر بعد يقظته، ويظل على هذا الحال بضعة أيام .

... وعاد الفرسان الذين كانوا قد أوفدوا بالبشائر إلى غزنة، يذكرون أن جميع أهلها، شريفهم ووضيعهم، شيوخهم وشبابهم، قد أقاموا الأفراح، فور وصول الأنبياء السارة إليهم، فبحروا الذبائح ووزعوا الصدقات ابتهاجا باستقرار الأمور واتساق الأحوال، كما أوصى أبو على الكوتوال^(١) بأن تكتب الرسائل إلى سائر الجهات بهذه الأنباء، وذكر في رسالته أنه أمر بأن تنسخ صور من البشرى بعد وصولها من تكيناباد، لإرسالها إلى السند والهند وسائر نواحي غزنة وبلخ وطخارستان وجوزجان ليستبين أهل هذه البلاد الحقيقة، وتستتب الأمور فيها؛ وكذلك عاد الرسل الموفدون يذكرون أن الأعيان والفقهاء والخطباء والقضاة الذين كانوا قد اعتزلوا الناس بسبب تلك الأحوال، وأقاموا آسفين في رباط جرمق، قد استبشروا لدى وصولنا من تكيناباد وعادوا إلى غزنة فرحين مسرورين، وذكروا أيضا أنهم حين بلوغهم غزنة وتسليمهم رسالة الكوتوال، أمر أن تدق الطبول وأن تنفخ الأبواق في الحال على القلعة، إعلانا للأمر، وأن تذاع البشائر في كل مكان، كما أنهم قالوا إن السيدة الملكة والدة السلطان مسعود نزلت من القصر مع الحرائر^(٢)، وذهبن جميعا إلى قصر أبي العباس الإسفراييني، الذي كان مقاما للأمير مسعود في عهد أبيه السلطان محمود، وكذلك سار إلى هناك كافة الفقهاء والأعيان والعامة، لرفع التهاني، وجاء المغنون وأهل الموسيقى من شادي آباد (حي الملاهي) أفواجا إلى الحضرة. وأخذوا ٧ يدورون بنا (الرسل)؛ وقد حصلنا في ذلك اليوم على أكثر من خمسين ألف درهم من الذهب والفضة، وكثير من أنواع الملابس، وكان يوما مشهودا لم يخطر

(١) جاء في حاشية بب: الكوتوال بمعنى صاحب القلعة وفي البرهان: كوت بالهندي القلعة، واستعملناه كما هو.

(٢) الحرائر جمع حرة. ولقب بهذا نساء الاشراف والمطاء تميزا لهن عن الجوارى في القصور. وكانت هذه الكلمة متداولة في المصريين الأموي والعباسي (حاشية التاج ص ١٤٢ أحمد زكي)

مثله ببال أحد حتى ذلك الحين . هذا وكنا قد بلغنا غزنة صباحا وعدنا بأجوبة الرسائل بعد منتصف الليل . وسر كبير الحجاب على قريب بتلك الأنباء سرورا بالغا ، وكتب إلى السلطان مسعود رسالة شرح فيها تلك الأحوال ، وأرسلها مع ما وصل إليه من الرسائل من غزنة ، مع فارسين من قبله . ووصل رد السلطان مسعود في يوم السبت ، منتصف شوال مع اثنين من فرسانه ، أحدهما تركي والآخر عربي وكان معهما أربعة خيول . وقد استغرقت رحلتهما أربعة أيام ونصف يوم ، وكانت رسالة السلطان مسعود جوابا على الرسالة التي حملها إليه الفرسان والتي جاء فيها نبأ اعتقال الأمير محمد بقلعة كوهتيز . وما أن قرأ على الرسائل حتى ركب وخرج إلى ظاهر المدينة ، وأرسل في طلب الوجوه والأعيان ، فحضروا فوراً . وتلا أبو سعيد الكاتب الرسالة على الملأ ، وكان هذا الرد بخط الكاتب طاهر صاحب ديوان رسائل الأمير مسعود ، وهو ينطوي على كثير من العطف وعبارات التقدير والتلطف إلى القادة والجيش والأعيان ، ويزدان بالتوقيع الشريف ، كما أنه كان مذيلا ببضعة أسطر بخط الأمير مسعود إلى كبير الحجاب على قريب ، يخاطبه فيها بالأخ الفاضل الحاجب ويلطفه بما يفوق الحد والوصف من العبارات ، مجاملة الند للند . ولما تفوه أبو سعيد باسم السلطان مسعود ، ترجل الجميع إجلالا ثم ركبوا ثانيه ، واستمر في التلاوة حتى انتهت الرسالة ، وجاءت الجيوش بعد ذلك أفواجا لتستمع إلى ما جاء فيها ، ثم قبل الجميع الأرض وانصرفوا .

وكان الأمر السلطاني يشير في تلك الرسالة إلى أن عليا ينبغي أن يوجه ٨ الموالى والحشم والجيوش فوجا فوجا حسبما يراه صالحا ، ثم يسير بنفسه ومعه جيوش الهند والفيلة ومعدات القتال^(١) وخزائن المال سالمة إلى الحضرة ، كما أن

(١) زرادخانه وقد جاء في حاشيته يب : زراد خانه مكان يوضع فيه الأسلحة وأدوات الحرب .

عليه أن يعلم أنه سيكلف بالقيام على جميع شئون البلاد ، وأنه صاحب الحامة في كل أمر ، وأن يده هي العليا ، وأن ليس فوق يده يد أخرى . فقال كبير الحجاب للنقباء ينبغي أن تأمروا الجند بالعودة ، وأن ينزل الأعيان ، فإن لي اليوم مع المقدمين والأعيان أعمالا هامة يجب إنفاذها ، وندبر غدا إيفادهم أفواجا أفواجا حسب أمر السلطان . فسار إليه نقيب كل طائفة من طوائف الجيش . ورجع الجيش كله ونزل الجند . ومن ثمة عاد كبير الحجاب على مستصحبا جملة الأكابر والعظماء من قادة العرب والترك ، واجتمع بهم في ناحية ، وأخرج على رسالة بخط السلطان مسعود ، لم يكونوا قد علموا بها من قبل ، وأعطاهما إلى الكاتب سعيد ليقرأها عليهما ، وقد جاء فيها بخطه :

« لقد قدر علينا فقد أيدى السلطان الماضى ، فاستدعوا أخانا الأمير الجليل أبا أحمد ليرقى سرير الملك ، إذ كان فى ذلك وحده صلاح الحال وقتئذ ، وكنا حينذاك قد تم لنا فتح بلاد بعيدة كل البعد فأخذنا فى الاتجاه نحو همدان وبغداد ، حيث لم يكن لأمرنا الديالة شأن خطير ، وقد أرسلنا لأخينا كتابا مع الرسول العلوى^(١) يتضمن التعازى والتهانى والنصائح ، ولو أن أخانا أصغى إلينا وعمل بما جاء فيها ، وأرسل إلينا ما طلبنا منه إذ ذاك ، لصار خايفتنا ولما بخنا عليه بشئ ، ولما حدث ما يكدر صفوه ، ولكنا دعونا أصحاب الرأى من العظماء والقادة لنسير بهم إلى بغداد ، فستقر بلاد الإسلام بذلك ، تحت لوائنا وأنا وأخى ، ولكن الأخ لم يتبين طريق الرشاد ، وظن أن التدبير يغير التقدير ، والآن ٩ وقد بلغ الأمر هذا الحد ، والأخ يقيم فى قلعة كوهنيز منعما مع خاصته ، فلا نرى من الحكمة إمكان إرساله إلى جوزجان بأية حال ، ومن العار إحضاره معك وهو معتقل ، فإننا لا نستطيع أن نراه على تلك الحال حين يصل إلى هراة ؛ والأولى به فى رأينا ، أن يظل فى مقامه بالقلعة مع خاصته عزيزا مكرما ، هو

(١) سبرد اسم هذا الرسول فيما بعد وهو السيد عبد العزيز .

وكل من في خدمته ، فإننا لا نأذن بأن يعنفل أحد من خاصته . هذا والحاجب بكتكين جدير بما كلف به من الإقامة مع رجاله حول القاعة ، وفد فوضنا إليه ولاية تكيئاباد وشحنة مدينة بست ليعين فيها خليفة من قبله ، وسينال من صلاتنا بقدر ما يبدي من الإخلاص والاجتهاد في مهمته ، وسنتفل من هراة إلى بلخ حيث نفضى فصل الشتاء ، ثم نسير منها إلى غزنة ، بعد انقضاء النيروز ، فنفضى في أمر أخبنا بما ينبغى ، فليس لدينا من هو أعز علينا منه ، هذا ما لزم بمانه بعونه تعالى .

فقال الجميع ، بعد أن اسنمعوا إلى نص خطاب السلطان : لقد أبدى السلطان نحو أخيه غاية العدل والإنصاف حين بعث الرسول ، وهو الآن يزيد من إنصافه . فماذا يرى الحاجب في ذلك . فقال إذا كنتم تعنون هذا الكتاب فينبغى إرساله إلى الأمير محمد ، ليعرف أنه سيبقى في مقامه حيث هو بناء على الأمر السلطاني ، وقد حضر من يقوم على رعاية شئوننا ، وأنا جميعا قد أعفينا ١٠ من الاشتغال بأمره . فقالوا لا بد من إرسال الكتاب كي يعرف الأمير محمد حقيقة الموقف ، ويعرب عما يراه للحاجب بكتكين . ولما سألهم كبير الحجاب عن يرونة جديرا بأداء هذه المهمة فوضوا إليه أمر اختيار نبيه الفقيه ومظفر الحاكم وقال لهما : « إذهبا بهذه الرسالة إلى الأمير محمد فأقرأها عليه وأسديا إليه بعض النصيح ، ثم طيبا خاطره وبيننا له أن رأى السلطان فيه خير كله ، وبأنا نحن العبيد ، سنزيد من عطف السلطان ولطفه عليه ، حينما نصل إلى حضرته العالمة ، وأن الفوم سبغادرون المقام في هذه الأيام الفليلة ، وأن الحاجب بكتكين سيتولى وحده شئونك ، وهو رجل ذكى أريب يقدرك حق قدرك . وذلك حتى يحدثه الأمير بما يرى .

فذهب هذان الرسولان ، إلى الحاجب بكتكين وأبلغاه أمر مهمتهما ليأذن لهما بدخول القاعة ، إذ لم يكن ذلك ميسورا لأحد ، بغير إذنه ، فأوفد بكتكين

كتخذه معهما ، ودخل الجميع القلعة ، وقابلوا الأمير محمد ، وأدوا مراسم المحبة فسألهم الأمير قائلا : « ما أخبار أخى ومتى يتوجه الجيش إلى حضرته » فأجابوا : إن أخبار مولانا السلطان كلها خير ، وسيسير الجيش كله إلى حضرته فى هذه الأيام المعدودة ، وسيرحل فى أثر الجيش كبير الحجاب ، وأما نحن فقد جئنا ، نحن العبيد ، بهذه الرسالة : ثم قدماها إليه فقرأها ، فامتقع وجهه قليلا . فقال نبيه ، أطل الله حياة الأمير إن أخاك السلطان يرعى حقك ، وهو يعطف عليك كل العطف ، فلا تأس وارض بقضاء الله عز وجل . وأفاض فى الحديث فى هذا الباب ، وكان القصد من ذلك أن يعرف الأمير أن المقدر واقع لا محالة ، وأن يظل متمتعا باللهو والطرب . فقد قيل « إن المقدر كائن والهم فضل » فأحسن الأمير إليهما وقال : لا تنسيانى .

١١

ثم عاد الرسولان وقصا على كبير الحجاب على ما كان من أمر الأمير محمد . ومن ثم تفرق القوم استعدادا للرحيل إلى هراة ، استجابة لأمر كبير الحجاب ، كما أنه أمر بتصفية حسابات مرتبات عمال الأمير محمد ووظائفهم ، وأوعز لعمال تكينا بادكى يحتاط لى لا يحدث اضطراب ، كما استدعى الحاجب بكتكين وسلبه منشور^(١) توليته شحنة مدينة بست وولاية تكينا باد ، فوقف الحاجب بكتكين ثم ولى وجهه شطر الحضرة ، وقبل الأرض ، وأذن له كبير الحجاب بالانصراف وأثنى عليه ، وقال له « احتفظ بفرسانك ، وابعث ببقية الجند الذين معك حول القلعة إلى المعسكر ليسيروا معنا ، ولتكن حذرا يقظا لى لا يحدث اضطراب » فامثل الأمر وعاد من فوره إلى القلعة ، وأرسل من كان معه من الجند إلى المعسكر ، واسندعى كوتوال القلعة وقال له . « يجب أن تتخذ تدابير خاصة ، وأن نحذر كل الحذر ، لأن الجيش سيغادرنا ، كما يجب أن لا تسمح لأحد بالاقتراب من القلعة دون إذن منى » . وهكذا استقرت الأحوال وأخذ القوم يسرون إلى الحضرة فى هراة .

(١) المنشور ما كان غير محتوم من كتب السلطان (القاموس) .

ذكر ما جرى من الأمير مسعود

بعد وفاة والده السلطان محمود رضوان الله عليهما في مدة ملك أخيه بفرزته
إلى أن قبض عليه بتكينا باد وصفي الأمر له وجلوسه على سرير
الملك بهراة رحمة الله عليهم أجمعين

لم تذكر كتب التاريخ الأخرى هذه التفاصيل ، فقد أخذوا الأمور في يسر
ولم يذكروا إلا القليل . أما أنا وقد تعرضت لهذا العمل فإني أود أن أؤدى حق
التاريخ كاملا ، وأن أبحث عن الخفايا حتى لا يخفى شئ من الحوادث . وإذا طال
هذا الكتاب وزاد ملل القراء منه ، فإني طامع بفضلهم ألا يعدوني من الثقلاء ،
فليس من حادث إلا وهو جدير بأن يقرأ ، ولا تخلو قصة من عبرة . ١٢

وقد ذكرت في باب خاص ، كل ما جرى على يد الأمير مسعود ، في حياته
أبيه في الري وبلاد الجبل ، إلى أن استولى على مدينة إصفهان . ذكرت كل
ذلك كما هو معلوم في موضعه . كما شرحت ما حدث أيام حكم أخيه الأمير محمد ،
وما آلت إليه الأحوال من اعتقاله في قاعة كوهتيز ، وكذلك أشرت إلى جواب
الكتاب الذى أرسله أمناء الدولة إلى السلطان مسعود ، واستدعائه إياهم إلى
الحضرة من هراة ، وسيرهم إليها وكيفيه ذلك ووصولهم إلى الحضرة ، وقد كان
لزاما على ذكر ما تم على يد الأمير مسعود إبان حكم الأمير محمد حتى وقت
بلوغه نيسابور من الري ، ومنها إلى هراة ، ففي هذه الفترة مرت عجائب كثيرة
لامفر من ذكرها وذلك حتى يتم شرط التاريخ .

والآن أبدأ في ذكر ما عمل الأمير مسعود رضى الله عنه وما جرى على يديه
في الفترة التى لحقت وفاة أبيه ومجيء أخيه محمد إلى غزنة وجلوسه على العرش

إلى أن اعتقل في تسكينا باد ، حتى يعرف كل ذلك . وحين أفرغ من هذا أعود إلى ذكر مسير الجند من تسكينا باد إلى هراة . وكيفية سيرهم وسير الحاجب على أثرهم وكيف بلغوا هراة وما جرى بعد ذلك ، وإلى أى مدى بلغ حال الأمير محمد إلى أن سار به بكتكين الحاجب من قلعة تسكينا باد إلى قلعة منديش ، وسلمه إلى الكوتوال ثم عاد إلى غزنة ، وجلس مسعود على العرش ، وما حدث في عهده من حوادث بعد تلك المحن التى ألمت بأخيه الأمير محمد .

كان الأمير مسعود فى إصفهان حين استقر رأيه على أن يسير إلى ناحية همدان وبلاد الجبل ، بعد أن يترك السياهسالارتاش فراش فى إصفهان ، وقد نقل الخدم والحشم سراق الأمير إلى خارج إصفهان وكان إزماع الأمير الخروج منها يوافق يوم السبت من ذلك الأسبوع وذلك لعشرة أيام خلت من جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠) ، ففوجئ بخبر وفاة والده السلطان محمود رضى الله عنه ، وقيام كبير الحجاب على قريب بتدبير شئون المملكة ، وإرساله فرسانا مسرعين إلى جوزجان ، واستدعاء الأمير محمد لارتقاء العرش . فلما وقف الأمير مسعود رضى الله عنه على هذه الأخبار ١٣ ، تولته حيرة شديدة ، قضت على التدابير التى كان قد اتخذها .

وقد سمعت ، بعد مجئ الأمير مسعود إلى بلخ من هراة واستقرار الأمور ، طاهر الكاتب يقول : ما أن وصلت هذه الأنباء إلى الأمير مسعود بإصفهان حتى دعانى فى أضحية ذلك اليوم ، واختل بى ، ثم تحدث إلى قائلا : لقد توفى أبى وأجلسوا أخى على سرير الملك . فقلت « أدام الله مولاي » : وكان بيده ملطفة^(١) فألقاها إلى وأمرنى بقراءتها وفنحتها فرأيتها بخط عمته الحرة الختلية ، تقول فيها : « لقد توفى عميدنا السلطان محمود ، رحمه الله بعد صلاة عصر يوم الخميس لسبعة أيام خلت من ربيع الآخر فأنتهت بوفاته أيام عز عبيده ، وإنى الآن

(١) الملطفة اصطلاح يطلق على الكتب القصيرة التى تكتب فى الأمور المستعجلة .

وجماعة الحرم نقيم في قلعة غزة ، وسنديع خبر وفاته بعد غد . هذا وقد وُورى جثمانه في « باغ بيروزي » ^(١) بعد صلاة العشاء ، وإن حزننا لفراقه لشديد ، وخاصة ونحن لم نتمكن من رؤيته لسبعة أيام قبل الفاجعة الاليمية ، وتسير الأمور الآن بتدبير عليّ الحاجب ، كما أن الرسل أسرع بعد الدفن في الليلة نفسها ذاهبة إلى جوزجان لاستدعاء الأخ محمد للجلوس فور مجيئه على العرش . وقد كذبت عمتك هذا إليك تفيدك بما جرى في نفس الليلة بدافع الشفقة والعطف ، كما أني أمرت بإرساله مع الفارسين المسرعين اللذين كانا قد حضرا في بعض الأمور إلى غزة حتى يسرعا به إليك في سر وخفية ، والأمير يعلم أن أخاه لا يستطيع القيام بهذا العبء الثقيل ، وأن لأسرتنا أعداء كثيرين ، وأننا قد هربنا نحن الحرار وكذلك خزائن المال بذلك هدفا للأغراض ، فالواجب على الأمير أن لا يشتغل بما استولى عليه من البلاد وبما يمكن الاستيلاء عليه ، وأن ينهض للأمر كله لأنه ولي لعهد أبيه ، هذا والأمور سارت إلى اليوم بهيبة السلطان الوالد ، إلا أنها بعد إذاعة خبر الوفاة ستسير على نحو آخر ، ويجب أن تعلم أن غزة هي الأصل ومن ثم خراسان ، وبقية البلاد ، فإنها فروع لها فلتأمل جيدا في كل ما كتبتك إليك ولتستعد للعودة بأسرع ما تستطيع حتى لا تضيع وتفقد هذا العرض ، ولترجعن الرسل فورا فإن عمتك تترقب قدومهم وستوالى إطلاعك على كل ما يجد من أحداث هنا ، فقلت بعد أن وقفت كل شيء ، أطال الله حياة ولي النعم ، لا حاجة إلى أية مشورة ، فيجب أن يعمل بكل ما أشارت به فكله نصيح خالص ولا يتأتى من أحد الزيادة عليه . فقال الأمير : « إنه كذلك والصواب ما ارتأت وسأفعل كذلك إن شاء الله تعالى ، ولكن لا بد من المشورة . فلتقم الآن ولتبعث في طلب السباهسالا رتاش والتون تاش كبير الحجاب وكذلك

(١) باغ بيروزي معنى حديقة النصر .

بقية الأعيان والمقدمين لتكلم معهم أيضا ونقف على رأيهم ثم نعمل بما يستقر عليه الرأي . فذهبت ودعوت القوم فحضروا ، فلما اجتمعنا عند الأمير واستقر بنا المقام أفضى الأمير إليهم بالأمر ، وناولني الكتاب لأقرأه عليهم . فلما فرغت من القراءة ، هتفوا أطال الله حياة الأمير ثم قالوا : « لقد قامت الملكة بأداء النصيحة في الوقت المناسب تماما ، وإن الخير كل الخير في وصول هذا النبأ هنا ، فلو أن الركاب العالى تحرك بالسعادة وألقى ظله على جانب آخر قبل أن يتم أمر ووصل الخبر هناك ، لكان من غير اللائق أن يغير الأمير وجهة سيره ، وأن يحجم بعد إقدام . والآن ماذا يرى ولى النعم فى الأمر » .

فسأل الأمير ماذا تقولون وما هو الصواب فقالوا : « نحن لا نرى صوابا فى غير المسارعة بالعودة » فقال : « وأنا أيضا أرى ذلك ، ولكننا سنأمر بإعلان خبر وفاة أبنينا غدا ، ثم نوفد بعد انتهاء العزاء رسولا إلى ابن كاكو لاستمالة إلينا ، وليس من شك فى أن خبر الوفاة سيكون قد وصله قبل أن يصل إليه رسولنا ، وأراه سيقر عينا بعودتنا ويقبل القيام بكل ما نحكم عليه فى مال الضمان ولا يماطل فى شيء ، بأن يتأخر فى تقديم ما تقرر عليه ، فإنه يعلم أنا سنواجه عند عودتنا مهام كثيرة ، لن نفرغ منها لوقت طويل ، ولكن سيكون لنا على ١٥ أى حال عذر فى العودة . فقالوا جميعا « عين الصواب وأجمل الرأي وليس شيء أصوب منه ، وكلما يسرع الركاب العالى نحو خراسان يكون ذلك أصلىح وأقرب إلى الخير ، إذ الطريق طويل وقد يفتر القوم فى غزاة فيطول بنا الأمر » . فقال الأمير : « اذهبوا الآن حتى أزيد إمعانا فى التفكير فى هذا ، ثم أمر بما يجب » فانصرف القوم . وفى اليوم التالى أذن الأمير للناس مرتديا قباء ورداء وعمامة بيضاء كلها ، وحضر كل الأعيان والمقدمين وأصناف الجند إلى الخدمة مرتدين البياض وكان الجزع شاملا واستمر العزاء السلطاني على الرسم ثلاثة أيام . وأعجب الجميع بوفاء الأمير لأبيه ، ثم أرسل الأمير بعد انقضاء أيام العزاء رسولا

إلى علاء الدولة أبي جعفر كاكو ، وكانت المسافة قصيرة إليه ، وقبل إنبائه بهذا النبأ كان خطاب أمير المؤمنين قد كتب بالشفاعة لتعاد إصفهان إليه ، وأن يكون « نائبا لكم فيها ، ويقدم كل ما يوضع عليه من مال الضمان » . ولبت حامل الخطاب هناك في انتظار ما يكون من الإجابة له غير أن الأمير مسعود اغتم الفرصة التي سنحت فعلا من هذا الحال فأوفد رسولا وكتابا ومشافهة بهذا المعنى :

« إننا تقبلنا شفاعة أمير المؤمنين بالسمع والطاعة ، إذ من حق السادات أن يأمروا العبيد لا أن يشفعوا ، ولذا نحن الآن بصدد مهمة أعظم شأننا من إصفهان ، فليس من أحد أجدر من علاء الدولة ليكون خليفة لنا فيها ، ولو لم يتخذ في بادئ الأمر ، عندما قصدنا هذه الديار وأرسلنا وأقمنا عليه حجتنا ، طريق العناد والمقاومة ، لما حدثت تلك الكارثة ، ولكن ما الحيلة والمقدر كائن . أما الآن وقد تغير وجه الأمور ، فإننا نترك الحبل على الغارب إذ أمامنا عمل هام وإننا سائر ونشطر خراسان ، فقد لقي السلطان الأعظم ربه وتعرضت بعده شئون ١٦ الملك إلى الإهمال الشديد الفاحش ، وتقديم الأضل أولى وأهم من الاشتغال بالفرع ، خاصة والشقة بعيدة ، وقد تفوت الفرصة ، وسيعين حكام لتدبير شئون الري وطارم وسائر ما استولينا عليه من البلاد ، كيلا يحدث اضطراب في غيبتنا بأية حال ، فإن حلم أحد كان ذلك الحلم وتلك الخيالات التي يراها منتهية بجلو سنا على عرش أيننا ، ولا نهمل بعد ذلك شأن هذه الديار فإننا قد أحطنا بما في هذه الديار من حسن وردى ، وشاهدناه وسنتخذ ، ونحن على عرش أيننا ، لتدبير أمرها لو نأخر ، فهناك بحمد الله لدينا الكفاية التامة من الرجال والعدة والعتاد . فالواجب أن ينهى الأمير هذه المهمة بأسرع ما يكون ولا يجعلها موضع الأخذ والرد ، حتى نعود من هنا وقد دُبر أمر . ويجب أن لا ينخدع بتقرير أحد بأن يلقى في روعه أن يتساهل الآن لأن مسعود على سفر ولن يستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك ، فيجب ألا ينخدع أو يستمع لمثل هذا الكلام ، لأن سطوتنا

عظيمة ونحن إذا ما عدنا بالسطوة غاضبين سيكون تلافى هذا الأمر بلون آخر والسلام . »

وذهب الرسول وبلغ الرسالة فسمعها ابن كاكو جيداً واغتنمها فرصة سانحة ، وردردا حسناً ، وبعد مفاوضات استمرت ثلاثة أيام استقر الرأي على أن يكون خليفة للأمير مسعود في إصفهان أثناء تغيبه عنها ، وأن يؤدي عن كل عام مائتي ألف دينار هروي^(١) وعشرة آلاف ثوب من منسوجات تلك البلاد ، ومن الخيول العربية والبغال المرسجة ، ومن كل نوع من معدات السفر ، وذلك فضلاً عن أنواع الهدايا في النوروز والمهرجان . وقد قبل الأمير رضى الله عنه ١٧ اعتذاره ، وأكرم الرسول وأمر بكتابة منشور التولية لأبي جعفر كاكو ، وإصفهان والنواحي ، وأعدوا خالعة فاخرة وبعثوا بها .

وغادر الأمير إصفهان إلى الري بعد إيفاد الرسول ، مظفراً مسروراً خمسة أيام بقين من جمادى الآخرة ، فلما قدم الري وتبين أن الناس قد عرفوا ذلك ووجد المدينة ، وقد زينوها بأبهى الزينات التي تفوق الحد والوصف ، ولسكه نزل بظاهر المدينة ، حيث أقاموا السراشق ، وقال إنه سيرحل . وخرج أهل الري خاصتهم وعامتهم ، وقدموا الهدايا الكثيرة ، وأرسل ثقاته إلى المدينة ليشهدوا ما قام به أهلها من الزينات ، فذهبوا ، ثم حدثوه عما شاهدوا فأثنى الأمير على أهل الري تقديراً لتلك العبودية . وهنا وصلته من كتب الثقة أخبار بوصول الأمير محمد إلى غزنة واستتباب الأمر له ، ودخول الجند في طاعته . وأهل الدنيا كما قيل « عيد للدينار والدرهم » ، فاشتغل بال الأمير لهذا الخبر كثيراً ، واستصوب إيفاد السيد عبد العزيز العلوى على الفور إلى غزنة ، وكان من دهاة زمانه ، برسالة تحمل التهاني والتعازي لأخيه الأمير محمد ، وقد أبلغه

(١) دينار هريوه — سكسر الأول والثاني — يقال إنه نسبة إلى هراة ورمال أنه يطلق على الذهب الخالص والرائج (برهان قاطع)

فيها أمورا في معنى الإرث والسلطنة ، يأتي شرحها عند التحدث عن عهد إمارة الأمير محمد ، وتكون فيها الكفاية .

وقد وصل منشور أمير المؤمنين القادر بالله ، بعد سفر هذا العلوى ، يتضمن النعازى والتهانى حسب الرسم فى مثله ، جوابا على الكتاب الذى كان قد أرسل بنعى السلطان محمود من إصفهان وإزماع السفر إلى خراسان وطاب اللواء والعهد وما يترتب على ذلك من نعوت وألقاب ، باعتباره ولى عهد السلطان محمود . وقد أبلغه أمير المؤمنين فى المنشور إقراره أياه على ما دخل فى حوزته من ولايات الرى والجبال وإصفهان ، وأمره بأن يعجل بالسير إلى خراسان كيلا يقع اضطراب فى ذلك الشجر العظيم ، كما وعده بأن يرسل إليه على الأثر ما طلبه من اللواء والعهد والكرامات مع رسوله .

اطمأن خاطر الأمير مسعود بهذه الرسالة واستبشر بها كثيرا ، وأمر بأن تقرأ على الملأ ، وبأن ينفخوا الأبواق ويدقوا الطبول استبشارا ، ونسخوا من تلك الرسالة صورة أرسلوها إلى إصفهان وطارم ونواحي الجبل وجرجان وطبرستان ونيسابور وهراة ، حتى يتأكد لدى الناس أنه خليفة أمير المؤمنين وولى عهد أبيه .

وفى تلك الأثناء وصل رسل مسرعون من غزنة ، يحملون رسائل من الأمير يوسف^(١) وكبير الحجاب على وأبى سهل الحمدوى والخواجة على ميكائيل والسرهنك أبى على الكوتوال ، يقدمون جميعا فروض الطاعة ويقولون ، إن الأمير محمد قد استدعى إلى غزنة منعا من وقوع الاضطرابات وتهدة الأحوال ، وإنه لن يستطيع القيام بهذا الأمر على أية حال ، لانصرافه تماما إلى اللهو والشراب ، وإن على مولانا ، الذى هو ولى عهد أبيه فى الحقيقة ، أن يسارع رابط الجأش قريب العين إلى قاعدة ملكه فورا ، والجميع سيسارعون إليه

(١) عم السلطان مسعود سبأني ذكره فيما بعد .

طائعين بمجرد أن يسمعوا باسمه العظيم من خراسان . وكذلك أيدت والدته الأمير محمود ، وعمته « الحرة الختلية » بكتابيهما وبيننا أنه ينبغي الاعتماد على ما قاله هؤلاء العبيد ، فإن الحق ما قالوا .

اطمأن الأمير رضى الله عنه بهذه الرسائل ، وعقد مجلسا دعا إليه أعيان قومه وتحدث إليهم فى هذه الأحوال وقال يخطابهم : لقد بلغت الأمور هذا الحد ، فها هو التدبير . فقالوا : الصواب هو ما يراه مولانا . فقال : إنى أرى أن الأمور قد تصعب علينا ، إن نحن تعلقنا بهذه الديار وقد استولينا على عدة أقطار عظيمة بحمد السيف ، لكنها فرع والتعلق بالفرع دون الأصل محال ، ويبدو لنا أن الصواب فى أن نعجل بالسير شطرنيسا بور وهرأة ونقصد الأصل ، فإذا انقادت لنا ، كما كتبوا دون قتال ، ورقينا العرش ولم يبق ثمة منازع لنا ، استطعنا حينئذ تدبير أمر هذه البلاد . فقالوا خير رأى ما رآه مولانا ، وكلها أسرعنا فى المسير كان الصواب أكثر ، فقال « لابد من تعيين شحنة هنا . فمن ترونها جديرا بهذا العمل . وكم من الفرسان ينبغي إبقاؤهم » قالوا : « أى عبد يختاره مولانا ، إذ كل شخص يبقى سيظل مكرها هنا ، كما أنه واضح مقدار ما يمكن إبقاؤه من الرجال ، وإذا أراد أهل الرى الوفاء ، سيأترون بأمر من يسميه مولانا عاملا عليهم ، وإن هم أرادوا العصيان فلن تنفع معهم كثرة الرجال . فقال : « حقا وكان يدور بذهنى أيضا قولكم هذا وسأترك حسن سليمان مع خمسمائة من الفرسان المسومين ، فادعوا غدا أعيان الرى حتى يبلغوا ما ينبغي فى هذا الشأن فإننا مز معون السير بعد غد على كل حال ، فلا وجه للبقاء . فقالوا : سمعنا وطاعة . وعادوا وأرسلوا رسلا لأعيان الرى وقالوا : إن الأمر العالى يقضى بأن يكون الجميع على باب السراشق . فقالوا سمعنا وطاعة . وخرج فى اليوم التالى فوج عظيم من الأعيان وبينهم العلويون والقضاة والأئمة والفقهاء والأكابر وكثير من عامة الناس من أتباعهم من كل صنف ، وكان الأمير رضى الله عنه قد أمر بأن

يعدوا موكبا عظيما للغاية ، فوقف غلمان كثيرون على باب السرادق في الصحراء مع كثير من الخيالة والمشاة المدججين بالأسلحة ، وأذن للناس ، وكان القادة والأعيان جلوسا بحضرته والباقون وقوف . ثم قدموا خمسين أو ستين من وجوه أعيان الري ، فأشار الأمير بإجلاسهم جميعا على بعد . ثم افتتح الكلام . وعندما كان ٢٠ هذا السلطان يتناول الحديث يخيل للناس أن الدر ينتشر والسكر ينتثر ، وينبغي أن نأتي في هذا التاريخ بما قاله وما كتبه ، ليتضح للقارئ أن ما قيل عن حديث الملوك لم يكن من قبيل المبالغة أو التهويل ، فقد قال الله تعالى وقوله الحق : « وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء ^(١) » .

ثم خاطب الأمير الأعيان يسألهم : « كيف كانت سيرتنا فيكم هذه المدة ، لا تخجلوا وأجيبوا دون خوف أو وجل » فقالوا : « أمد الله في حياة الأمير ، منذ نجونا من جور الديلمة وعسفهم وشمنا اسم هذه الدولة العظيمة أدامها الله ونحن ننام في أمن آمين على أرواحنا وأموالنا ونسائنا وأولادنا ، نأكل في أمن وننام في دعة ونعيش في سعة ، رافعين أكف الضراعة إلى المولى سبحانه ليديم ظل رحمة الأمير وعدله علينا إذ لم نكن في شئ من هذا على عهد الديلمة . فقال الأمير : « إنا سائرون ، إذ أماننا أمر عظيم هو الأصل ، فقد وصلتنا رسائل من مواليينا وعبيدنا ينعون فيها والدنا السلطان رضى الله عنه ، ويشيرون علينا بالمسارعة بالعودة ، حتى تنتظم شئون الملك ، نخراسان والهند والسند ونيمروز وخوارزم ليست بالولايات الصغيرة ، وليس من اليسير إهمال شأن تلك البلاد لأنها الأصل ، وبعد الفراغ من تلك نقوم بالواجب في تدبير هذه النواحي فنوفد أحد البارزين من أبنائنا ، أو قائدا من القواد المشهورين ، ومعه ما يلزم من عدد وآلات . والآن نترك فيكم عاملا من قبلنا مع ثلة من الرجال

لنبلو طاعتكم وانرى ما يحصل منكم ، فإذا آنسا منكم النصيح والطاعة دون رياء ، قابلنا ذلك منكم بالعدل والإحسان الشامل ، أما إذا استبان خلاف ذلك فستلقون جزاءً وفاقاً لا يؤاخذنا الله عليه لأن البادئ أظلم ، وفي إصفهان وأهل تلك البقاع عبرة لمن يعتبر ، فأجيبوني إجابة صدق لى ٢١ أطمئن إليها^(١) .

وأخذ أعيان الرى ، بعد انتهاء كلام الأمير ، يتبادلون النظرات فيما بينهم وبدوا كأنما استولت عليهم حيرة ودهشة جد كبيرة ، وأشاروا إلى خطيب المدينة وكان شيخاً كبيراً فاضلاً طاف العالم وخبر كثيراً من أحوال الأمم فنهض وقال : « أطال الله حياة ملك الإسلام ، إن هؤلاء الحضور فى هذا الحفل العظيم ، الذى تحفه المهابة والجلال عاجزون عن الإفصاح عما تكنه جواهرهم ، وهم يحجمون عن الجواب ، فإذا رأى السلطان ، أذن لأحد ثقاته ليذهب بهم إلى خارج السرادق حيث يحاس طاهر الكاتب فيسمع الجواب . فقال الأمير : « حسناً » . وذهبوا بأعيان الرى إلى الخيم الكبير حيث كان طاهر الكاتب ، وكان ، لتقدمه ، يقوم بتدبير كافة مهام الأمور . فجاء طاهر وجلس وحضر أمامه القوم . وكانوا قد اتفقوا فيما بينهم على ما ينبغى أن يكون عليه جوابهم . وقال طاهر : « قد سمعتم ما قال مولانا ، فما جوابكم . فقالوا : « أمد الله فى حياة الخواجة العميد ، لقد اتفق العبيد على رأى واحد ، أنهينا إلى الخطيب ليلغ الأمير ما سمعه منا . فقال طاهر : « نعم ما رأيتم وحتى لا يطول الكلام فما هو الجواب ؟ » فقال الخطيب : « إن هؤلاء الأعيان والمقدمين زمرة يعمل الناس فى المدينة ونواحيها ، ولو كانوا ألف ألف شخص مرتين بما يقولون ويرسمون ، ويمثلون أوامرهم ، وهم يقولون لقد مرّ على حكم الديالمة الظالمين ثلاثون عاما

(١) إشارة الى « الغارة الشعواء » على إصفهان التى شهها مسمود ٤٢١-١٠٣٠ والى أشار إليها صاحب محاسن إصفهان ص ٤٧ ، ١٠٧ . والى قال عنها صاحب شذرات الذهب (ج ٣ ص ٢٢٦) فعل ما لا يفعله الكفرة . فلا عن نسخة ب ، غنى - فياض حاشية (١) .

لم يراعوا خلاصنا إلا ولا ذمة، درست أثناءها سنن الإسلام، إذ انتقل الملك بعد رجل كفخر الدولة والصاحب بن عباد إلى يد امرأة وصي ٢٢ قاهر، فتضرعنا إلى الله تعالى فألهم ملك الإسلام محمود أن يأتي إلى هنا وأغاثنا وأنقذنا من القرامطة والمفسدين، واستأصل شأفة أولئك العجزة الذين لم يستطيعوا تدبير أمورنا، وترك هذه الولاية ومضى بعيدا، مفوضا أمرنا إلى أمير عادل عطوف حازم، ومنذ رحل ذلك الملك لم يسترح هذا الأمير يوما ولم تجف لبد سرجه، يفتح العالم، وبقطع دابر الخارجين والخاملين، ولو لم تقع هذه الحادثة العظمى، أي وفاة والده، لكان قد بلغ الآن بغداد واستأصل بقبة العاجزين والظالمين وأغاث رعايا تلك الأنحاء فذاقوا حلاوة العدل والإحسان والنصفة في ظل حكمه كما ذقنا، وإلى اليوم، وراياته ما تزال تتحقق على إصفهان، كان هذا في المدينة أما في نواحيها فكان حاجب شحنة بمشتين من الفرسان، ولم يجرؤ أحد من بقايا المفسدين على أن يحرك ساكنا، فلو أراد أحد أن يثير فسادا ويأتي إلى هنا ومعه الألف أو الألفان حتى العشرة آلاف من الجنود لحمل بلا شك شبابنا وأبطالنا الأساحة وانضموا إلى تحية السلطان وقطعوا دابر المفسدين وفازوا بنصر الله تعالى، ولو أن هذا السلطان امتد سيره إلى مصر لما تغير حالنا عن هذه الحال ولما عرفنا فرقا بين هاتين الشقتين، فإذا فرغ مولانا مما أمامه من المهام، وسرعان ما يفرغ منها فإنها ضئيلة إزاء همته، فسبعود إلينا بها بالسعادة واليمن، أو سيبعث قائدا، وكما نحن اليوم عبيد مطيعون، فإننا سنكون في الغد أكثر عبودية وطاعة، ولن نفرط يوما في هذه النعمة العظيمة التي نتمتع بها اليوم ٢٣ ولو أن السلطان نصب علينا يوم اعتزاه الرحيل سوطا^(١) لما تخلفنا عن الطاعة.

وانتهى الخطيب من الكلام قائلا: « هذا جوابنا الذي أجمعنا عليه »

(١) من باب المبالغة وعلي سبيل المثال . غنى - فياض حاشية ١ ص ٢٣ .

ثم النفث إلى القوم وقال : « هل تروننى أحسنت الإعراب عن رأيكم » فأجابوه جميعا « نعم وإنا لأكثر عبودية مما وصفت » . وقال طاهر : « نعم ما قلتم جزاكم الله خيرا ، فقد قتم بحق راعيكم العظيم » .

ثم نهض فمشى إلى الأمير وأخبره بما جرى ، فارتاح الأمير إلى ذلك وقال : « يظاهر إن السعادة حين تقبل تسايرها الأمور من كل الوجوه ، وهؤلاء القوم جديرون بكل إحسان ، فقد انطوى جوابهم على الحكمة . والآن لتباغ أوامرنا بأن يخضع فوراً على القاضى والرئيس والخطيب ونقيب العلويين وقائدهم وسالار المطوعة^(١) ، ولتكن خاضع الرئيس ونقيب العلويين والقاضى من الذهب ، وللباقين من الطرز الموشاة ، ولتقدموا إلينا بعد ارتداء هذه الخلع ليستمعوا إلى أوامرنا ، ثم أعدهم مع رجال الحاشية إلى المدينة بالتجلة والاحترام » .

فنهض طاهر وانتحى ناحية ودعى القائمين بأعمال الخزائن فأعدوا الخلع ، ثم عاد إلى أعيان الرى ، فقال لهم :

« لقد أبلغت السلطان جوابكم ، فأعجبه وسر منه كثيرا ، وأمر لسرا تكم والقائمين بالعمل فيكم بالخلع السنينة فلتكن عليكم مباركة ، هيا بنا باسم الله إلى خزانة الألبسة لتلبسوا الخلع هاتئين » .

وذهب العرفاء بخمسة من الأعيان إلى الخزانة وألبسوهم الخلع ، ثم عاد بهم طاهر ٢٤ إلى الأمير ، وقدموا جملة الأعيان فلاطفهم الأمير وخاطبهم بالحسنى ، فدعوا له كثيرا وعادوا يصحبهم رجال الحاشية إلى المدينة فى أبهة فائقة ، فسر بهم

(١) يقول فى النص ما يفيد أنهم ستة من الأعيان ولكنه يذكر فيما بعد أنهم خمسة . ورجح غنى — فياض ان كلمة (سالار علويان) زائدة وانها من سهو النساخ . وبؤيد هذا أن لقب (سالار علويان) لم يسبق ذكره . والمطوعة جماعة تجمع لقتال الكفار وكانوا يكونون جيشا له سالار خاص يسمى سالار غازيان أو سالار غازى ، وكان هذا النظام قائما أيام الغزنويين .

أهل المدينة كثيرا ونثروا عليهم الدراهم والدنانير الكثيرة ، تعبيرا عن سرورهم بذلك . وأعادوا أرباب الرتب بالحسنى والسرور .

وفي اليوم الثاني ، وقد انتهت المراسيم ، أقبل كافة أعيان الرى إلى الخدمة مع هؤلاء المقدمين بينما وقف أكثر من عشرة آلاف من نساء ورجال متفرجين ، وقد أجالسوا أعيان الرى فى المخيم (نيم ترك) ^(١) ودعا الأمير رضى الله عنه حسن سليمان أحد أعيان أمراء جبال هراة ولاطفه قائلا :

« إنا مزمعون على الرحيل غدا ، وقد رأينا أن نستعملك شحنة على هذا الإقليم ، وأنت قد سمعت مقالة أعيان الرى ، فلتكن كيسا يقظا كيلا يقع خلل فى غيابنا . ولتسر فى أهل هذا الإقليم سيرة حسنة ، وأعلم علم اليقين أنا سنعمل الفكر فى شئون هذه النواحي عندما تستقيم لنا الأحوال ونصل إلى قاعدة ملكنا ، وسنبعث قائدا كبيرا إلى هنا مع جيش عظيم بصحبته أحد الأكفاء الشقا من أرباب القلم ، ليتخذهم جميعا مثالا حسنا فى أعمالهم ، حتى يدخل باقى العراق فى طاعتنا لإنشاء الله ، وينبغى رضاء الأعيان والرعية عن سيرك فيهم ، وأن يكونوا شاكرين ، هذا وسيكون نصيبك من العطايا والأموال والمنزلة والجاه وفيرا بفضلنا . فنهض حسن سليمان ، وكان ممن له درجة للجلوس فى المجلس الساطاني ، وقبل الأرض ثم وقف وهو يقول :

« إني عبد مطيع ، ولست حقيقا بهذه المنزلة ، أما وقد شرفنى مولاي بهذا ، فسأبذل غاية الجهد فيه . » وأمر الأمير أن يذهبوا به إلى خزانة الملابس وألبسوه خلعة شحنة الرى الثمينة ، وهى قباء خاص بالأمير من الديباج الرومى ، ومنطقة ذهبية تقدر بخمسمائة مثقال وأشياء ٢٥ أخرى تناسبها ، فتقدم للأمير بالخلعة وأدى الخدمة . فتلقى الشاء من الحضرة العلية ، ثم رجع إلى مخيم طاهر ، فأثنى

(١) نيم ترك : نوع من الخيام وجاء فى حاشية يباب انه نوع من الخيام الصغيرة

عليه كثيرا . وأحضروا أعيان الرى هنالك ، وحدثهم طاهر بما تم فظهر سرورهم البالغ ولهجت ألسنتهم بالدعاء والثناء الكثير ، ومن ثمة أمر طاهر حسن سليمان بالسير إلى المدينة مرتديا الخلعة في جند كثيف تحف به الأعيان ، وكانت المدينة مزدانة بأبهى الزينات وأخذ أهالها يثرون الأموال الوفيرة ، وأنزلوه قصرا مشيدا وقدر الناس حقه أيما تقدير .

وفي اليوم التالي ، وكان يوافق الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠) ، ارتحل شهاب الدولة الأمير مسعود عن الرى في أهبة تامة وجند كثيف ، كامل العدة والعتاد ، يصحبه الين والإسعاد ، وقد صحب الموكب خلق كثير ، جاء والوداعه ومشاهدة الرحيل ، حتى مسيرة فرسخين بعيدا عن المدينة حيث نزل الأمير ووقف الركب . ولبت طيلة اليوم التالي في ذلك الموضع ، وأذن لحسن سليمان والمودعين بالعودة . وجد في المسير حتى وصل الموكب إلى ناحية خوار الرى ^(١) ومن ثم عهد بالأمر في تلك الناحية إلى زعيمها ، ثم غادرها بعد أن أصدر الأوامر اللازمة . وفي دامغان تقدم إليه الخواجة أبو سهل الزوزنى ، وكان قد فر من غزاة خفيفا كما مر شرحه سابقا ^(٢) فأكرمه الأمير غاية الإكرام ، وقدم له رجال الأمير مسعود من الزينة والآلة ما بلغ به الغاية ، واختل به الأمير خلوة دامت من صلاة العشاء حتى منتصف الليل .

وكان هذا الرجل في مقدمة حاشية الأمير شهاب الدولة ، أيام كان في هراة ، ولكنه كان يأخذ الناس بالشدة ويقسو عليهم ويسىء إليهم ، ولأن أمره كان معروفا وقد لقي ربه ، فلن أقول في حقه أكثر مما قلت ، والموت غاية كل حى ، والإحسان إلى الناس وحسن الخلق هما خير ذخيرة للإنسان في دنياه وآخرته ،

(١) اسم موضع قريب من مدينة الرى ، يقال له الآن خوارورامين

(٢) لا يوجد هذا الشرح في هذا الكتاب — ولعله مذكور في أحسن الأجزاء التي فهدت

انظر حاشية غني — فياض رقم ٤ .

٢٦ ولكنه استقدم في أيام السلطان محمود إلى غزنة وقتشد ، وسجن في القاعة لوشاية رجال الحاشية الذين كانوا ينفسون على الزوزنى مكانته من الأمير مسعود رضى الله عنه ، فكتبوا في حقه العرائض واتهموه بالخيانة ورموه بسوء المعتقد ، على النحو الذى جاء ذكره فى كتابنا المعروف تاريخ يمينى ، والآن وقد مات الزوزنى والجماعة التى كانت تحيك له تلك المكائد ، وقد آذنت شمس العمر بالمغيب ، فنحن فى أرهم سائرهم ، فلن أقول فى معتقده بغير الحسنى ، فقد عاشرتة قرابة ثلاثة عشر عاما أو أربعة عشر ، وخبرت أحواله فى الصحو والسكر ، فما سمعت قط منه كلاما يمكن أن يكون دليلا على سوء عقيدته . وهذا كل ما أعرفه عنه وأشهد به يوم القيامة وسيلقى من دبروا له تلك المكائد ربهم يوم الحشر أيضا ويجيبون عما يسألون ، والله يعصمنا وجميع المسلمين من الحسد وشراسة الطبع وسوء الخاق والخطأ والزلل بمنه وفضله . أقول ، عندما وصل الزوزنى إلى دامغان ، وحاله من المهابة على ما وصفنا ، شاهد رجال الحاشية إقبال الأمير البالغ عايه واختلاؤه به ، تلك الخلوة الطويلة ، فغيرت نظرتهم إليه وعظم فى نظرهم ، وتلاشت تلك الآمانى الخلوة التى طالما كانوا يمنون بها أنفسهم قبل قدومه إلى دامغان ، فقد قال الشاعر :

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

وبلغ الرجل لدى الأمير ما يشبه مرتبة الوزير ، حتى أصبح الرجل الوحيد الذى يخاطبه فى كل الشئون ، وهكذا ذهبت ريح طاهر وأبهة الآخرين وازداد الزوزنى رفعة وعظمة حتى آل إليه وحده تصريف الأمور . ولما وصل ركاب الأمير شهاب الدولة من دامغان إلى قرية فيها كهريز كبير^(١) ، تبعد فرسخا عن دامغان ، تقدم إليه هناك فارس ، بتوقيع عظيم^(٢) من قبل السلطان محمود

(١) كهريز ، قناة تمخر نحت الأرض ، لجلب المياه .

(٢) كتاب من السلطان .

رضى الله عنه ، جاء فيه عتاب بشأن أموال إصفهان وخزائنها ، ورقاع أخرى قصيرة إلى ابن كاكو ، ٢٧ ومقدمى الجيش وغيرهم مُصرحاً بأن ابنى ولد عاق ، كما ذكرت من قبل . وقد ترجل الفارس عن جواده ، وتقدم فقبل الأرض وأخرج ذلك الكتاب الهام من بطانة قبائه ، وقدمه لجذب الأمير عنان الجواد ، واستلم أحد الحجاب الكتاب ، وسلّمه للأمير فأخذ في قراءته ، حتى إذا انتهى وجه الحديث إلى الفارس ، قائلاً : « لقد حررت هذه الرسالة منذ خمسة أو ستة شهور ، فأين كنت يا هذا طوال تلك المدة ، وما دعاك إلى التأخر للآن ؟ فأجاب : « أطال الله حياة مولانا لقد اعترانى مرض ، عندما ذهبت من بقلان^(١) إلى بلخ فكثت هنالك مدة ، حتى إذا وصلت إلى سرخس ، وكان فيها الحاجب الغازى سباهسالار خراسان جاء الخبر بنعى الساطان محمود ، فسار إلى نيسابور واصطحبني معه ، ولم يتركني لأسير إلى الحضرة ، إذ قال لى « إن ولى النعم آخذ فى المسير باليمن والسعادة ، وليس فى سيرك إليه الآن فائدة ، لأن الطرق غير مأمونة ولا ينبغى أن تذهب منفردا ، كيلا يصادفك مكروه ، ولما بلغه خبر ارتحال مولانا من الرى ، سمح لى بالسفر ، فأخذت فى المسير بكل حيطة وحذر لأن الطريق بين نيسابور وهذا المكان مخوفة بالأخطار » .

فسأله الأمير : « أين الرقاع الصغيرة التى سلمك إياها أبو نصر مشكان ، وأوصاك بالمواظبة على إخفائها حتى تسلمها » . فأجاب : إنها . معى . ورفع السرج وأخرج من لبدته رقاعاً مقفلة بالشمع ، ثم رفعها . فقال الأمير رضى الله عنه لأبى سهل الزوزنى خذها واقراها لتعرف ما بها . فقال أبو سهل بعد قراءة رقعة منها ، إنها بذلك المضمون الذى قاله مولانا . ثم قرأ رقعة أخرى وقال : وهذه عين تلك ، فكلمها بمعنى واحد . وتناول الأمير واحدة من الرقاع وقرأها ، ثم أبدى تعجبه بقوله :

(١) هكذا فى سائر النسخ ورجح صاحب بب انبا بعلان (بالعين لا بالقاف) . قال عنها راقوت انها بلدة بنواحي بلخ . وقيل بين بقلان وبلخ ستة أيام . معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٦ ملاحظة مصر .

« سبحان الله العظيم ، هذا عين ما كتبوه لنا من باقلان . ملك بلغ غاية العمر من الحياة ، وتحققت له كل الرغبات ، وترك ولده في أرض الغربة بين أعداء أشداء وخصوم ألداء ، فإذا أغاث الله سبحانه ذلك الابن وأعانه وأيده ، فأجرى على يده الفتوح الكثيرة ٢٨ والأعمال الباهرة العظيمة ، كان الأولى به أن يظهر السرور والفرح ؛ فما معنى كل هذا الغضب .

فقال أبو سهل والذين كانوا مع الأمير : « لقد أراد أمرا وأراد الله تعالى أمرا آخر ، فترك عرشه والأموال والخزائن وكل ما يملكه لمولانا ، أما هذه الرقاع فينبغي أن تحفظ حتى يطلع عليها الناس ، ليعرفوا ما كان يصبو إليه السلطان الماضي وما قضى به القدر ، ويعرفوا قلب الكاتب ورأيه . فقال الأمير : « ما هذا الكلام ، إنه إذا جفانا في آخر حياته مرة كهذه وكانت له فيها غاية ، فينبغي أن ننظر ألف مصلحة رعاها لنا ، وأنه قد تجاوز عن زلات لنا كثيرة ، وسأفيد اليوم من ذلك اللوم ، تغمدته الله برحمته ورضوانه ، فقد عقلت النساء أن يلدن مثل محمود ، أما كاتبوها فإنهم معذورون لأنهم مأمورون ، ولا حيلة للأمور سوى الطاعة ، خاصة مع السلطان ، ونحن مثلاً إذا أمرنا كاتبنا بتدوين شيء ولو أدى إلى هلاكه ، فهل له جرأة على أن لا يكتب . »

ومن ثم أشار الأمير بإلقاء تلك الخطابات بعد تمزيقها في الكهريز الكبير الذي مر ذكره ، وتحرك الركاب بعد أن أكرم الرسول بهبة قدرها خمسة آلاف درهم .

والعقلاء حينما يقرأون هذا الفصل سيصبحون أكثر علماً بأحوال وعادات هذا السلطان العظيم ، ويتقرر لديهم أنه كان نسيج وحده ، وإني ، أبو الفضل ، تذكرت ههنا نادرتين : أولاهما عن أثر قصة الخواجة أبي سهل في قلوب خدام الأمير مسعود الذين وجب عليهم عند رؤيته ٢٩ تعظيمه ، أرادوا

أو لم يريدوا ، لأن الرجال ينبغي أن يذلوا جهدهم ليكونوا ولو لمرة واحدة كبارا ومشهورين ، فإذا تحقق هذا فإنهم يلقون حقهم من الرعاية ، سواء كانوا في النعمة أو في النقمة ، وتظل لهم الشهرة والعظمة ما داموا على قيد الحياة ؛ والثانية حديث تلك الرقاع وتمزيقها وإلقاؤها في الماء ، ففي هذا العمل طمأنينة وراحة لنفوس من دبجوا تلك الرقاع ومن كان يراد خطابهم بها على السواء ، إذ أدركوا أنه لن يأخذهم بها . فكأنما الملوك ، في مثل هذه الأحوال ، يلقون إلهاما من المولى عز وجل .

وأما حديث العظمة فقد قرأت في أخبار الخلفاء أن أمير المؤمنين هرون الرشيد بعد أن ارتحل من بغداد إلى خراسان ، وتلك حكاية طويلة ذكرت في الكتب بواعثها وأسبابها ، اعتراه مرض شديد بعد بلوغه طوس ، وأشرف على الهلاك ، فاستدعى الفضل بن الربيع ، وكان الرشيد قد استوزره بعد البرامكة ، فلما أتى اختل به وقال :

« يا فضل . لقد دنت ساعتي وآذنت نهايتي ، فإذا ماتت فادفني هنا وابعث بعد الفراغ من دفني ومأتمتي ، بكل ما معي من الخزائن ومعدات الحرب وباقي الأشياء وبالعبيد والغلمان والخيول والدواب ، إلى ابني المأمون في مرو ، فإن محمدا في غنى عنها ، إذ له ولاية عهد بغداد ، ولديه هناك سرير الخلافة والجند وشتى أنواع الخزائن ، ولا تمنع أحدا من هنا من الجند والخدم من أن يسير إلى المأمون إذا رغب في ذلك ، ثم ارجع ، بعد أن تفرغ من كل هذا ، إلى بغداد ، عند ٣٠ محمد لئكن له وزيراً وناصحا ، ولتحافظ على ما خلفته لأولادى الثلاثة ، ولتعلم بأنك ، إن آثرت الغدر وسلكت طريق البغي ، أنت أو أى من خاصتي لكان عارا ، فإنكم بذلك تسخطون الله وتلقون عقابه » . فقال الفضل بن الربيع : « أعاهد الله تعالى وأمير المؤمنين على أنى سأحفظ هذه الوصية وأقوم بتنفيذها . » ومات الرشيد رحمة الله عليه في تلك الليلة ودفن في اليوم التالي ، وأقيم له مأتم

عظيم ، وأوعز الفضل إلى كافة الجند والحاشية بالشخص ، فساروا إلا قليلا منهم كانوا يميلون إلى المأمون فساروا سرا أو علانية إليه في مرو . وارتحل الفضل وبلغ بغداد وقام بأعباء الوزارة وانصرف محمد بن زبيدة إلى اللهو والمجون . ثم عمل الفضل حتى أسقطوا اسم المأمون من ولاية العهد ، وأوعز إلى الخطباء أن يذكروه بالسوء من فوق المنابر ، كما أمر الشعراء بهجائه ، وتلك قصة طويلة ونحن نهدف إلى أمر آخر . وبذل الفضل كل ما في وسعه للحط من شأن المأمون وتحقيره ، بيد أنه لم يستطع الوقوف في سبيل قضاء الله تعالى ، فقد سار طاهر ذو الينين إلى الرى حيث كان يعسكر على بن عيسى بن ماهان فغلبه واحتز رأسه وجاؤا به إلى المأمون في مرو ، ثم اتجهوا من الرى إلى بغداد من جهنبا ، فهاجمها من إحدى جهاتها طاهر بينما كان هرثمة بن أعين يهاجمها من جهة أخرى ، واستمرت الحرب بجبال هامة عامين ونصف عام ، إلى أن انتهت بوقوع ابن زبيدة بيد طاهر فقتلوه ، وأرسلوا برأسه أيضا إلى المأمون في مرو .

واستقامت الخلافة بعد ذلك له ، ولبت بمرو سنتين وقعت خلالها بعض الأحداث ، حتى قدم المأمون إلى بغداد ، فاشتد بذلك إزر الخلافة واستتبت أمورها وزالت كل أسباب النزاع والخلاف وانتهت الاضطرابات ، وتوارى الفضل بن الربيع عن الأنظار على أثر ذلك أكثر من ثلاث سنوات ثم وقع في يد المأمون ، وهذه قصة طويلة جاءت أخبارها في تاريخ الخلفاء .

وكان المأمون كما اشتهر عنه ، نسيج وحده حلما وعقلا وفضلا ومروءة ، مستجمعا لكل ما ينبغي أن يتحلى به العظماء والسراة ، فصنف عن الفضل وغفر له مع ٣١ كل ذلك الجفاء ، على أن يقيم في منزله وألا يتولى الخدمة . ومرت الأيام الطوال على الفضل في ذلك الحال ، حتى عزم جماعة من حاشية المأمون وخاصته ، على انتهاز الفرص المواتية ، فشففوا له عند المأمون لما كان للفضل من المكاة والمنزلة والأيدى البيضاء التي لا تنسى ، وما زالوا بالخليفة يستعطفونه

حتى رُق قلبه له فعفا عنه ، وأمر بأن يعود الفضل إلى الخدمة ، وبعد أن صدر هذا الأمر أرسل الفضل رجلا إلى عبد الله بن طاهر ، كبير حجاب المأمون في ذلك الوقت وكانت بينهما صداقة قوية ليقول له : « لقد تجاوز أمير المؤمنين عن زلتى وأمر أن أعود إلى خدمة الدركاه ، وإنى أعرف أن هذا الأمر قد تم ، بعد فضل الله تعالى ، بعون منك ، فقد بذلت كل ما فى وسعك من جهد حتى حققت لى هذه الأمنية ، غير أنك تعلم ما كان لى وما كان لأبى من مكانة ، فما عسى أن يكون شأنى فى الخدمة ، ومنزلتى فى الدولة بعد الآن ، فأرجو أن تبذل جهدا آخر لأعلم ما ستكون عليه منزلتى وهى مهمة تستطيع القيام بها لأنها من جملة أعمالك فأنت كبير الحجاب ، وأرجو أن لا يعرف أمير المؤمنين صدور هذا الالتماس عنى . »

فقال عبد الله للرسول « سأبذل شاكرًا كل ما أستطيع لذلك » . وذهب عبد الله إلى الحضرة بعد صلاة العصر ، لكنه لم يجد إذنا ، فكتب رقعة إلى مجلس الخلافة قال فيها : « لقد أمر مولانا أمير المؤمنين كما هو منتظر من حله وكرمه بالعفو عن ذلك العبد المذنب ، الفضل بن الربيع ، فأحياه بذلك ، وأذن له بالعودة إلى الخدمة ، ففرح بهذه المنة العظيمة التى منّ بها على الخدم أجمعين ، وأطمأنت إليها نفوسهم ، والآن أسأل عما يكون الأمر العالى عن الدرجة التى يجب وضعه فيها إلى أن يتشرف بخدمة سدة الخلافة » . فلما أوصل الخادم الخاص الرقعة إلى الخليفة ، وكانت عادة عبد الله بن طاهر مع الخليفة المأمون عندما يحتجب عن الناس ، أن يرسل إليه أمثال تلك الرقعة ٣٢ كتب الخليفة ردا بخطه جاء فيه : « يا عبد الله بن طاهر ، لقد اطلع أمير المؤمنين على ما كتبتك بشأن الباغى الخادر الفضل بن الربيع ، أما وقد بقى حيا للآن فقد امتد به الطمع ، فأخذ يطلب لنفسه الجاه والرفعة وينبغى أن تجعله فى أخس الدرجات بحيث لا يرقى شأنه عن شأن فارس خامل الذكر والسلام » .

فلما قرأ ابن طاهر هذا الجواب ، أسف غاية الأسف ، وأرسله مع أحد تنقاته سرا ، وقد كتب على ظهر الجواب ، إلى الفضل بن الربيع ليقول له : « ها قد وصل الجواب على هذا النحو ، والصواب أن تأتي في الصباح الباكر ، فتجلس في المكان الذي أمرت بإعداده لك فإنه لا مجال للكلام واستطلاع الرأي خشية أن يحدث ما لا تحمد عقباه . ومولانا هذا ، شهم كريم ، واعله لو رآك لا يعجبه أن تكون على تلك الحال الوضيعة ، ويتم هذا الأمر على در الأيام . »

وبعد أن وصل المعتمد إلى الفضل وبلغه الرسالة واطلع على الرقعة والجواب . قال : سمعا وطاعة إني سأعمل بما يأمرني به ويرى فيه صلاحى : يا عبد الله بن طاهر ، سترى انى لن أحمده عما تأمر به قيد شعره .

وأمر عبد الله بن طاهر أن يشيدوا فى مدخل دار الخلافة مصاطب ، وأن يفرشوها بالبسط^(١) للجلوس ، ثم أوعز بأن يجلسوا الفضل على إحداها فى مدخل القصر ، على أن يكون العبور من هذه الضفة إلى السراى الآخر ، وكانت السرايات تختص بكل من له مرتبة من أرباب النوبة والجند إلى مقام الوزير وكبير الحجاب . وكأمر أمير المؤمنين ، جعل موضع الفضل فى السراى الخاص ، وأوعز إليه بالحضور وقت الغسق ، فجاء وجلس فى تلك الضفة تحت ٣٣ الشاذروان ، فلما طلع النهار وأخذ الناس فى الوفود إلى القصر الخارجى ، كانوا يتقدمون إلى الفضل ، بالضرورة عند رؤيته ، ويحيونه بتجلة واحترام ، لما كان له فى نفوسهم من علو المنزلة وسامى المكانة ، فقد كانت عيونهم ممتلئة من مهابته ، وكان هو ، بالتالى يحتفى بهم ويعتذر إليهم بكل لطف وتواضع حتى يجوزوه ،

(١) هنا يدبر بكلمة محفور . وجاء فى التاموس أن محفورة بلدة بشط بحر الروم وينسج بها السط . واستخدم البهوى المحفور عدة مرات بمعنى الساط المحفورى .

وكذلك كان الحجاب والأمراء والأعيان يعاملونه تلك المعاملة الطيبة ، وكانوا يحتفون به الحفاوة اللازمة ، أما كبير الحجاب عبد الله بن طاهر ، فقد كان أكثرهم تجلة واحتراما له معذرا عن إجلاسه في القصر الخارجى الذى تم امتثالا للأمر ، وأمله بالعمل على إصلاح الحال بأقصى ما يستطيع من الجهد . ثم تركه وذهب إلى مجاسه حتى حل وقت الاستقبال . وحينما أذن أمير المؤمنين دخل كل الأعيان كالوزير وأصحاب المناصب والأمراء والعظماء وأركان الدولة والحجاب والقواد والوضيع والشریف ، وحل كل منهم فى مكانه ، حسب رتبته واقفا أو جالسا ، واستقر بهم المقام ، تقدم عبد الله بن طاهر كبير الحجاب إلى أمير المؤمنين ، قائلا « لقد جاء العبد الفضل بن الربيع تنفيذاً للأمر ، وقد جمعت مكانه فى القصر الخارجى حسب الأمر وأنزلته المنزلة الوضيعة ، فما هو أمركم فى تقديمه ». ففكر أمير المؤمنين برهة ، ثم غلب عليه حلمه وكرمه فأذن له بالمثل ، فأوعز عبد الله بن طاهر إلى حاجب باستقدام الفضل بن الربيع ، وعندما وصل إلى حضرة الخليفة أدى فروض الطاعة والعبودية والولاء كما يجب واستعطف كثيرا أمير المؤمنين با كيا متضرعا حتى يعفو عما صدر عنه من الخطايا والذنوب ، فاستجيا الخليفة وعطف عليه وصفح عنه وأذن له بتقبيل يده . وعندما انتهى الاستقبال وعاد كل إلى موضعه أخذ كبير الحجاب عبد الله ابن طاهر الوزير معه شفيعا ، وبذلوا الجهد فى شأن الفضل بن الربيع حتى شمله الخليفة بالرضا ثانية ، وأمر أن يعينوا له مكانه فى السراى التى يجلس فيها الأعيان وأن يوعد بالعناية والإحسان .

وخرج عمدا لله بن طاهر من لدن الخليفة فى الحال وأبلغه هذا التشريف ٣٤ الذى أمر به الخليفة ، ويّين منزلته وأمله بعنايات أخرى . فعادت الحياة إليه بذلك ، وهدأ خاطره إلى المسكنة التى عيّن لها طاهر . وحينما فرغ عبد الله بن طاهر من خدمة الخلافة وحان وقت العودة وركب من دار الخلافة ليسير إلى داره

كان الفضل بن الربيع بعد في دار الخلافة ، فلما عاد عبد الله بن طاهر بادر الفضل لمشايعته فلوى عبد الله العنان ، ووقف والتمس من الفضل أن يرجع ، ولكنه لم يعد بأية حال ، وسارا والعنان إلى العنان حتى باب قصره . وعندما وصل عبد الله إلى باب سرايه ، كان خجله من الفضل بن الربيع عظيما ، وبدا عليه ذلك واعتذر إليه يلتمس منه العودة . فقال له الفضل إنك قمت بحق من إحسان وعناية وسؤدد كما كان متوقعا من أصلك وفضلك ومروءتك وليس لي في الدنيا شيء أراه جديرا في مقابل صيغتك أعظم من أن أضع عناني إلى عنانك من عتبة الخلافة إلى عتبتك ، وأقسم بالله تعالى ، أني ما سقت عناني إلى عنان الخلفاء طيلة حياتي للآن ، وها أنذا قد ضمنت عناني إلى عنانك مكافأه لتلك المكرمة التي قدمتها لي . فقال عبد الله « إنه لكما تقول ، وها أنا قد تقبلت هذه العناية الكبرى بقلبي وناظري ، وعرفتها منة عظيمة وأدخر هذا الفضل لأسرتي » . ثم لوى الفضل عنان الجواد وعاد إلى الدار ، فوجد محلته وسرايه مشحوتتين بالعظماء وأفاضل الحضرة ، فجلس في مكانه وأخذ يعتذر للناس ، ويعيدهم ، واستمر حتى الليل . وجاء عبد الله بن طاهر بعد صلاة العصر ، وأدى مراسم التهئة وعاد .

انتهت هذه القصة ، وإن العاقل الذي يتأمل فيها يستطيع أن يرى على أي نحو كان عظماء العصر هؤلاء .

وأما حديث الرقاع ففي الوقت الذي كان فيه المأمون بمرو ، كان طاهر وهرثة ٣٥ بباب بغداد ، وضيقوا الخناق على محمد بن زبيدة ، واستمرت رحى تلك الحروب الطاحنة تدور زمانا وكان المقدمون والأكابر وأصناف الناس يتقربون إلى المأمون ويكتبون الرسائل ، فأمر أن تودع تلك الرسائل في بضعة أسفاط واحتفظوا بها ؛ وكذلك فعل محمد . فلما قتل محمد ، ووصل المأمون إلى بغداد ، أحضر الخزانة تلك الرقاع التي كان الأمين قد أمر بحفظها ، أمام المأمون ، وعرضوا أمر الرقاع التي كانت قد كتبت من مرو فاختلى المأمون (٣٢ — البقي)

بوزيره الحسن بن سهل وذكر حال أسفاطه وأسفاط أخيه ، وقال « ماذا ينبغي العمل به في هذا الباب » فقال الحسن « يجب إبعاد خونة الجانبين » فضحك المأمون وقال « فلن يبق إذا يا حسن أحد من الفريقين فيذهبون وينضمون إلى العدو ويدعوننا ، وكنا أخوين كلانا يستحق سرير الملك ولم يكن هؤلاء الناس يعلمون إلى أيننا تقول الأحوال ، فرأوا أن الأولى بهم رعاية أنفسهم ، ولو أن كل ما أتوه كان خطأ ، لأنه ينبغي للعبيد مراعاة الأمانة ولن يضار أحد من أجل الصدق .

وإذ أعطانا الله تعالى الخلافة ، فإننا ننسى هذا ولا تؤلم قلب أحد . فقال الحسن « إن مولانا على الحق في هذا الرأي العظيم الذي رأى وإنى على باطل ، فبعداً لعين السوء » . ثم أمر المأمون فأحضروا الأسفاط وألقيت في النار حتى احترقت تلك الرقاع . ويعلم العقلاء غور هاتين الحكايتين وقد انتهيتا . وأعود ثمة إلى التاريخ ، والغرض من ذكر ٣٦ تلك الحكايات هو أن يزدان بها التاريخ ، وأن كل ذى عقل ترافق المهمة عقله يجد العون من الأيام ويرفعه ما يتخذ من الحيلة حتى يزيد من منزلته بالتكليف والتدريج والترتيب ، ولا يعود طبعه على التفكير في أن تلك الدرجة التي بلغها فلان يصعب بلوغها فيتراخى ويتقاعس ، أو يقول كيف الوصول إلى ذلك العلم الذي لفلان ، بل يبذل المهمة حتى ينال تلك الدرجة وذلك العلم . فإن أكبر عيب للرجل الذي أعطاه الله عز وجل مهمة سامية وفهما ثاقبا ، دون عناء ، وهو يستطيع أن يحصل على منزلة أو يتعلم علما ، ألا يعنى به وأن يتراجع خائرا . وقد أتى أحد العظماء في هذا الباب بمعنى بليغ هو ، شعر :

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام^(١)

(١) من قصيدة له تنبئ معلما :

ملومكها يجهل عن الملام ووقع فماله فوق الكلام

وفائدة الكتب والحكايات وسير الماضين أن تطالع على مهل ، فيأخذون منها ما يهمهم ويفيدهم والله ولى التوفيق .

* * *

وحينما أراد الأمير شهاب الدولة ، رضى الله عنه ، الرحيل من دامغان أمر أن يكتب إلى الغازى الحاجب سبهبسالار خراسان وكذلك إلى القضاة والأعيان والرئيس والعمال بأنه قادم إليهم ، فيجب أن تنظم الشئون كما ينبغي في مثل هذه الأحوال ، وعلى الحاجب الغازى أن يتأهب للقاء الأمير ، وأن يكون معه جنوده القدماء ومن أعدهم حديثا ، وأن يكونوا جميعا مجهزين بأكمل عدة وسلاح ، هذا وسيجزي الحاجب الغازى خير الجزاء لقاء ما أدى لنا من الخدمات الخطيرة ، كما سينال الجند الجدد قسطا وافرا من الرعاية والإحسان ، ويجب أن نكون فى اطمئنان إلى ما أعده الرئيس والعمال من العلوقة ليستكمل الجميع كل نقص ويتلافوا كل عيب ، فإن قدومنا إليهم قد بات قاب قوسين أو أدنى .

٣٧ فلما بلغ الرسل المسرعون الأوامر إليهم ، أخذ الحاجب الغازى ومن معه فى القيام بكل ما يلزم من الأعمال بأسرع ما استطاع ، وقاموا دون توان أو إهمال ، بما طلب إليهم ، فلم يبق بعد ذلك ثمة نقص فى أى أمر من الأمور ، وتم كل ما كان يراد القيام به من الأعمال على يد أهل السلاح . ثم وصل ركاب الأمير مسعود بالين والسعادة إلى رستاق ييهق ، وسارع إلى استقباله سبهبسالار خراسان ، تصحبه الجيوش الجرارة بأبهة واحتشام ، ووقف الأمير على ربوة ، فسار إليه الغازى وقبل الأرض بين يديه ثلاث مرات ، فأمر الأمير أن يكرموه وأن يأخذوا بعضده حتى يقوم ، فاستوى واقفا وقبل ركاب الأمير ، فقال هذا :

« لقد أديت ما عليك حق الأداء ، فبقى أن نقوم نحن بما علينا أيضا ، ولقد منحناك السهيسالارية اليوم ، وسنضيف إليها الخلع الواجبة ريثما نصل سالمين إلى نيسابور » .

فقبل الغازى الأرض ثانية ثلاث مرات ، ثم أحضر مقدمو الجيش جواد السهيسالار وأركبوه إياه ، فوقف بعيدا عن الأمير واستدعى إليه النقباء وقال : « ينبغي أن يوعز إلى الجند ليتهيئوا للتعبئة ويسيروا ليراهم مولانا ، وعلى الطلائع والمقدمين أن يحسنوا الخدمة » . فأسرع النقباء وأبلغوا المقدمين فارتفعت أصوات الطبول وعلا نفيр الأبواق وشقت نداءات الرجال عنان السماء ، وبدأت الجناثب تسير بكامل أساحتها ودروعها والغلمان المحمزون بالعلامات والمطارد وخيل الخاصة بكثير من الفرسان والرجّالة ، وفى أثرهم أفواج خيالة كل مقدم ، بتمهيد حسن وعدة كاملة ، ومروا فوجا فوجا ، وعلى كل فوج قائده الذى كان يقبل الأرض ويقف ، وظل هذا العرض ممتدا من الضحى حتى المساء ، حتى مروا جميعا . ثم تعطف الأمير على الغازى السهيسالار والمقدمين ٣٨ ونزل من تلك الربوة .

وفى اليوم التالى ركب الأمير إلى المدينة ، وكانت المسافة إليها نحو ثلاثة فراسخ ، وكان قد تحرك ما بين الصلاتين ووصلها وقت العشاء ولم يبق فى مدينة نيسابور أحد إلا وخرج للاستقبال والمشاهدة ، تاهج ألسنتهم بالدعاء ، وكان القراء يرتلون آيات الذكر الحكيم ، والأمير رضى الله عنه يشئ على الأعيان جميعا ، ولا سيما على الإمام صاعد القاضى ، وقد كان أسناذه ، وكان الناس عطشى لرؤية هذا الملك ، وكان يوما لم يعهد أحد مثله . ولما وصل الأمير إلى حدود المدينة ، أمر أن يعيدوا الناس ، ثم سار شطر حديقة شادياخ فنزلها بالسعد واليمن فى العاشر من شعبان تلك السنة . وكانت الأبنية والعمارات المشيدة فى شادياخ مزدانة كلها بأنواع الرياش ، وقد فرشت بالفرش الثمينة التى أعدها الوزير حسنك

خاصة لهذه المباني بما لم يذكر أحد مثلها ، ويشهد من رأوا تلك الفصور بصحة ما أكتب هنا .

وفي اليوم التالي اعتلى العرش ، وكان في صفة التاج وسط الحديقة ، واستقبل في حفل مهيب ، إذ امتدت صفوف الغلمان مما يلي الصفة بعيدا ، والعرفاء وأهل الرتب لا يحصون عدا ، حتى باب الحديقة ، وفي الساحة وقف كثير من الفرسان والحشم للتحية وظلوا بين واقف وقاعد ، وأمر الأمير بإجلاس السهيسالار الغازي ، ثم دخل القضاة والفقهاء والعلماء وتكلموا في التهاني والتعازي ، وأثنوا على الأمير رضى الله تعالى عنه ، ولكنه لم يحتف بأحد احتفائه بالقاضى صاعد وأبى محمد على وأبى بكر اسحق مَحْمَشاد الكرامى ، ثم إلتفت إلى الجميع قائلا ٣٩ :

« إن هذه مدينة مباركة أحب أهلها ، وما قمت به في حبي لم أر له نظيرا في أى من بلاد خراسان ، وأمامنا عمل يبدو أنه سينتهى سريعا بفضل الله عز ذكره ، وسننظر بعد الفراغ منه في شئون أهل خراسان عامة ، وأهل هذه المدينة خاصة ، وسنأمر الآن بإلغاء ما استحدثته حسنك من النظم والمراسيم ، وبأن تكون قاعدة الأعمال في القضاء وغيرها بنيسابور على ما كان متبعاً من دى قبل ، وقد كنا نسمع ونحن في هراة بما يصيب الناس من عسف وجور على يد حسنك وأعوانه ، ولم نرض به ، بيد أن الأحوال وقتئذ لم تكن تساعد على الحيلولة دون ذلك ، وسيلقى هؤلاء جزاء ما اقترفوا من آثام في تلك الأيام ، ومنذ الآن ستنظر المظالم يومين في الأسبوع ، على أن تفتح أبواب دار الولاية للجميع دون تفريق بين شريف ووضيع ، فيعرض كل صاحب مظلة ظلامته ، ويطلب العدل فيها ، دون أن يتجتم أى عناء . وسيدقى الحاجب الغازي السهيسالار خارج مجالس المظالم مع بقية النواب ، وينبغى أن يقصدوا الديوان والدركاه وترفع إليهم الظلمات ليعملوا فيها بما يجب . وقد أمرنا بأن نستعرض

السجون اليوم ، وبأن تفك قيود المسجونين وأن يطلق سراحهم ، كي يتمتع الجميع ويهنأوا بقدومنا لهذه المدينة ، فإن اقترف أحد إثما بعد ذلك يعاقب عليه في حينه .

وسر الحضور بهذه البيانات الملكية سرورا كبيرا ، وأثنوا على السلطان ثناء عاطرا ، وقال ٤٠ القاضي صاعد : « أجل ، لقد أبدى الأمير في هذه الجلسة الواحدة من الكرم والشهامة ما لم يبق معه لأحد أى كلام ، وإن لى حاجة واحدة أعرضها إن أذن لى ، فاليوم يوم سعد ، والمجلس مجلس مبارك » . فقال الأمير : إن كل ما يقوله القاضي هو عين الرشد والصواب . فقال القاضي : يعلم السلطان أن الأسرة الميكائيلية أسرة قديمة وهم من خواص هذه المدينة وآثارهم ظاهرة وإنى لأعترف بحقهم على ، فقد نشأت فى ظل نعمتهم وبلغت هذه المرتبة من العلم بعد فضل الله برعايتهم ، ولهم حقوق فى عنقى ، وقد أصاب من بقى منهم من جور حسنك وغيره حيف كبير وضرر بالغ ، فصودرت أملاكهم ودرست أوقاف آبائهم وأجدادهم ، فتغيرت معالمها وطرقاتها ، فإن رأى الأمير أن يأمر بإرجاعها إليهم اليوم كما تقضى همته وديانته ، فتلك منة عظيمة ينتفع بها أفراد تلك الأسرة وجماعة آخرون اضطربت أحوالهم وتشتت شملهم ، فتحيا تلك الأوقاف ويصل ريعها أيضا إلى عابر السبيل . فقال الأمير رضى الله عنه : إن هذا رأى سديد . وأشار توال إلى القاضي مختار بن أبى سعد كي يستخلص أوقاف الميكائيلين من يد المغتصبين ويسلمها لمن يثق به حتى يقوم بتديرها ، فتعم الفائدة من غلاتها وينفق ريعها فى الوجوه الموقوفة عليها . ثم قال الأمير : أما أملاكهم الخاصة فلا علم لنا بها ، ولا نعرف ما دعا السلطان الماضى العظيم إلى اتخاذ تلك الطريقة بشأنها ، فليذهب أبو الفضل وأبو إبراهيم ابنا ميكائيل لمقابلة أبى سهل الزوزنى بالديوان ليخبراه بما يعلمان من أمر تلك الأملاك ، ليعرض الأمر علينا فنأمر فيه بما ينبغى ، وللقاضى أن يحيطنا علما بأمثال هذه الأمور لنجيبه إليها جميعا ، كما أن له أن يكتب

إلينا بعد سفرنا . فقال القاضي « سمعاً وطاعة » ولهجت السنة الجميع بالثناء الوافر ، ثم حضر آل ميكائيل وجماعتهم ٤١ ومن يتبعهم إلى الديوان ، وعرضوا أحوالهم ، فألقى القبض على كافة الدهاقين والوكلاء والمزارعين الأثرياء وغيرهم ممن ذكروا أسماءهم ، واستوفى منهم مال كثير وافر ، فأصبحوا أذلة بعد عزة . وأبلغ أبو سهل حقيقة الأمر للأمير ، فأعيدت إلى آل ميكائيل أملاكهم ، وأصبحت لهم المنزلة المرموقة ، وفي تلك الأيام وصلت من الري رسائل جاء فيها :

« إن جماعة من المغرورين يتزعمهم أحد الشاهنشاهية قصدوا إلى الري ، بعد أن غادرها الركاب العالي ، لإثارة الفتنة في البلاد ، وإن زعيمهم هذا ، الذي هو من أعقاب آل بويه ، أوفد إلى حسن سليمان رسولا ، وإن حسن سأل أعيان الري قائلاً : « ماذا ينبغي أن يكون الجواب وماذا يجب أن نعمل » فأجابوه قائلين « دع لنا هذا الأمر ونحن نريحك منه » . ثم أدخلوا الرسول إلى المدينة وأخذوا يعدون العدة ثلاثة أيام ويجمعون الناس ، وفي اليوم الرابع ذهبوا بالرسول إلى ظاهر المدينة حيث أوقفوه على ربوة ، وأقبل حسن سليمان بخيله المسومة ومربه ومن وراءه أهل المدينة ، أكثر من عشرة آلاف رجل ، بأتم سلاح ، أكثرهم من رجالة المدينة ونواحيها القريبة ، وبعد أن مر ذلك الموكب خاطب أعيان المدينة الرسول قائلين له :

« لقد رأيت ما رأيت ، ألا فاعلم أن ملكنا هو السلطان مسعود ابن السلطان محمود ، ونحن له ولرجاله مطيعون ، وليس لصاحبك أو لمن يأتي إلى هنا دون أمر سلطاننا جواب لدينا سوى حد السيف وطعن الرماح ، فعد ، وأخبر صاحبك بما سمعت وصف ما رأيت من غير نقصان ، ولا تخن ، وقل له ، إن السلطان أنقذنا من أيدي الديالة ، وإن أهل الري قد ذاقوا بعد خلاصهم منهم طعم الراحة والهناء » .

فوعدهم الرسول بتحقيق مطالبهم فأثابوه ، ومضى إلى سبيله فأخبر بما رأى . هذا وقد أكدت حفنة من المفسدين والغوغاء الذين اجتمعوا حول المغرور البويهى بأن « لا خطر من العامة فينبغى قصدهم حتى نسلك الرى فى يومين أو ثلاثة » . فنفخوا الأبواق وحشوا السير إلى الرى .

وما أن عرف حسن سليمان وأعيان الرى بمجىء المخالفين حتى أرسلوا الخطيب إلى الأمير الديلى المغرور ينصح له أن لا يطمع فى الحصول على مغنم على يد هؤلاء الحمقى الذين ٤٢ تجمهروا حوله ، وينبئه بأن أهل الرى لا يعترفون بغير السلطان مسعود ملكا عليهم ، فالأولى به أن يحقن دماء من حوله وإلا تسبب فى إهلاكهم عن بكرة أبيهم ، فتمتلئ المقابر بأجسادهم ، على أنه إن كان يريد شيئا من المال فالقوم مستعدون للبذل ، لأنه من أصل كريم معروف ، هذا وكل ما يقال فى هذا الشأن ليس إلا لكف الأذى ودفع الفتنة وإلا فقد أعذر من أنذر .

فذهب الخطيب وأبلغ الديلى ومن معه الأمر ، بيد أن الأمير المغرور وأصحابه من الغوغاء ثاروا جميعا ونفروا للقتال ، وعاد الخطيب إلى قومه يبلغهم : « أنه لم يلق من تلك الجماعة لقوله قبولا ، وأنتم الآن أعلم بما يجب عمله » .

فعبا حسن سليمان جيشه تعبئة رائعة ، وأعطى كل شىء حقه ، وكذلك جهز من لم يكن تسليحه كاملا ، هذا وقد خرج إلى باب المدينة أكثر من خمسين أو ستين ألفا من سكانها ، إلا أن حسن أوعز إلى الرئيس والأعيان كي يأمرؤا الناس بالتريث فى أماكنهم ، فلا يخرج أحد من المدينة ، بينما يذهب هو والجند لقتال الأعداء . فنفذ الرئيس والأعيان وصيته وأخذوا للأمر عدته ، وسار حسن ، متوكلا على الله عز ذكره ، نحو الأعداء بكل تؤدة وإحكام ، فوقف المشاة المدرعون إلى جانب الفرسان ، وبرز إليهم الخصوم فكانت معركة عنيفة

هائلة ، رجحت فيها كفة المخالفين أكثر من مرة ، يئس منهم لم يفيدوا شيئاً في النهاية ، فقد عبأ حسن جيشه بمنتهى المهارة والدقة والإحكام ، فما أن اشتدت حرارة النهار ، واستبد العطش بأولئك المخدولين وأنهمكهم التعب ، حتى أمر حسن قبيل الظهر بالتقدم بالراية الكبرى فحمل ومعه جماعة من الفرسان الممتازين على الأعداء حملة موفقة ودهموا قاب العدو فهزموه ٤٣ هزيمة منكراً ، واستولوا على راية الأمير البويهى المغرور ، فلاذ بفضل جواده العربى ومعه نفر على خيول سريعة بالفرار . أما مشاة الأوباش فقد عجزوا عن الفرار وأسقط في أيديهم ، وتفرقوا أيدي سبا بين الأنهار والوديان ، وصاح حسن برجاله : « عليكم بهم ، أثقفوهم حيث وجدتموهم ، وألقوا بالرعب في نفوسهم ، حتى لا يرجعوا ثانية ، ولا يحدثن أحد نفسه بعد هذا بالاستيلاء على الرى » . فسارع فرسان حسن بخيولهم وأعملوا السيف فيهم ، وخرج أهل المدينة وراءهم أيضاً يشجعون الأعداء ضرباً فقتلوا منهم خلقاً كبيراً وأسروا آخرين . وعند صلاة العصر أمر حسن رجاله بالكف عن القتل والأسر ، فكفوا ، وعادوا بعد مغيب الشمس إلى المدينة ، ولأذ من كان قد اختفى من بقية المخدولين بالفرار ، في سواد الليل البهيم .

وفي اليوم النالى ، أمر حسن بإحضار الأسرى ، ورءوس القتلى ، فكانوا أكثر من ثمانية آلاف وثمانمائة رأس وأكثر من ألف ومائتين من الأسرى ، فأوعز حسن بإقامة نصب تعلق عليها الرءوس ، فأقاموا مائة وعشرين مشنقة في الطريق الذى سار فيه الأعداء مولين ، وشنق الأقوياء والبارزون من بين الأسرى والمفسدين ، فروّع الجميع من هول ذلك ، ثم أطلق سراح بقية الأسرى ، وقيل لهم : اذهبوا فاذكروا كل ما رأيتم ، وليأتنا من يتمنى المشنقة والقتل . وذهب أولئك الأسرى لشأنهم ، وأما أهل الرى فقد وفوا بما عاهدوا الأمير ، أطال الله حياته ، عليه ، ولم ٤٤ يتوانوا في أداء حق الولاء

والإخلاص ، وهكذا تحققت بيمين طالع الدولة العظيمة هذه الهيبة العظمى ، بحيث لم يقصد بعد ذلك طامع هذه البلاد ، فإن استصوب مولانا أن يكافئ هؤلاء الأعيان لقاء ما بذلوا ، فإنهم يزدادون بذلك حرصا على الخدمة إن شاء الله .

وحينما اطلع الأمير مسعود قدس الله روحه على هذه الرسالة ، سر بها سرورا بالغا وأمر أن تدق الطبول وتنفخ الأبواق ، وأن يطاف بمن جاءوا بالبشرى . وأغدقوا عليهم الصلات ، وذهب أعيان نيسابور إلى المصلى شكرا على قدوم الأمير إلى بلدتهم ، وعلى هذا الفتح الجديد . ووزعت الصدقات وقربت القرابين الكثيرة ، وكانت البشائر تترى كل يوم على الأمير .

وفي هذا الأسبوع وصلت الأخبار بوصول رسول الخليفة القادر بالله رضى الله عنه قرب بيهق ، حاملا من الصلات والإنعامات السنية ما لا يذكر الناس أن سلطانا قد حظى بمثلها من قبل فطابت نفس الأمير ، رضى الله عنه ، بتلك الأخبار تماما ، وأمر من فوره بتهيئة ما يلزم من المعدات الكاملة لاستقباله . وجاء أهل المدينة إلى القاضي صاعد وقالوا إنهم سمعوا بوصول الأمير قرب نيسابور وهم يريدون إقامة أقواس النصر ومراسم الابتهاج . ولكن الرئيس قال : إن مثل هذه المظاهر لا تتناسب وما عليه الأمير الآن من الحزن لمصابه الكبير فى أبيه السلطان محمود ، أنار الله برهانه ، وإنه يقول هذا بأمر منه ، وينبغي إرجاء هذا لوقت آخر . وها قد انقضت مدة والأمور تزداد حسنا كل يوم ، والرسول آت الآن من بغداد بجميع الآمال ، فهلا يرى القاضي استئذان الأمير حتى يلقي فى قلوب الكثيرين من الخلق السرور ، ويأذن حتى يقيموا المهرجانات العظيمة ؟ فأجابهم القاضي : « نعم ، إن الفرصة تبدو الآن مواتية وهذا لعمرى رأى رشيد » .

وفي اليوم التالي التمس القاضي ٥؛ الإذن من الأمير فأذن له . ثم أبلغ القاضي الرئيس بما أذن به الأمير قائلاً : « أرى أن تكون تلك الزينات والمهرجانات غاية في العظمة والبهاء » . فعاد الرئيس إلى منزله واستدعى أعيان الأحياء والتجار وقال لهم : « لقد أجاب الأمير سؤالكم فعليكم أن تقيموا المهرجانات وأن تزينوا المدينة بصورة لم يسبق لها مثيل ، ليعلم رسول الخليفة حال هذا البلد ويزداد تعاق الساطان به ، إذ تمت له فيه هذه المفاخر » فقالوا : « سمعنا وطاعة » . وعادوا وقاموا بما لا يخطر على بال أحد ، واتصلت محافل الطرب وسراقات الأانس والمباهج من أبواب المدينة حتى السوق ، قوسا بعد قوس وقبة وراء قبة ، ومنه إلى مبنى مسجد الجمعة الذي أعد خصيصا لنزول الرسول . وبعد أن تمت هذه الترتيبات وجاء النبا بأن الرسول على مسيرة فرسخين من المدينة ، خرج رجال الحاشية لاستقباله ، ومعهم خمسون من الجنائب، وركب جميع العسكر وتقدموا في موكب عظيم ، وأبهة فائقة . وأمامهم السهسار ومن بعدهم جماعات القضاة والسادة والعلماء والفقهاء ، ثم موكب أعيان الدركاء من أرباب القلم ، وأنزلوا الرسول وهو من أقرباء الخليفة الأقربين ، وهو أبو محمد الهاشمي ، وكان ذلك يوم الإثنين لعشرة بقين من شعبان تلك السنة ، على أحسن صورة . أما الأعيان ومقدمو الجند فإنهم فارقوا الرسول عند أبواب المدينة وعادوا إلى منازلهم ، وجاء أصحاب الرتب إلى السوق ، وأنزلوا الضيف في البيت المعد لنزوله ، وكان الناس ينثرون على الموكب الدراهم والدنانير والسكر وغيرها ، في حين كان أهل الطرب والمجون يبدون العجائب من فنونهم، وكان يوما مشهودا لم يسبق لأحد أن رأى مثله .

وبعد أن استقر بالرسول المقام ، أمر الموكل بالضيافة بمد السماط وكان فيه ما تشتهيهِ الأنفس مما لذ وطاب ، وقد أثنى الرسول بالعربية أثناء تناول الطعام على أهل نيسابور ودعا لهذا الملك كثيرا وقال إنه لا يذكر أنه رأى

في حياته يوماً كهذا اليوم . وبعد الفراغ من الطعام جيء بما لا يحصى من
من النزل^(١) مع عشرين ألف درهم من الفضة برسم هدية الحمام^(٢) مما أدهش
الرسول، وأثنى الأمير على أهل نيسابور .

فلما انقضى على ذلك يومان أو ثلاثة ، أمر السلطان باستدعاء الرسول إلى
الحضرة على أن يكون موكبه حافلاً بكل مظاهر العظمة . فقال أبو سهل الزوزنى :
« إن كل ما هو خاص بالجيش والبلاط وديوان الإمارة والغلمان وأهل المناصب
وغيره مما يشبهه فهو مما يقوم بثبوت السهيسالار ، وليبين لي الأمير ما يريد من
الأمور لأقوم بها من جهتي حسب ما شاهدت وقرأت على عهد السلطان الماضي
رحمه الله ، حتى أوعز بإعداده وتنظيمه » .

فقال الأمير « حسناً » وأمر باستدعاء السهيسالار غازى . وقال له : نأمر
أن يقدم رسول الخليفة مع ما أتى به من منشور وخلعة وكرامات ونعوت، وأن
تصل أخبار هذه الحفلات وذلك التكريم إلى مسامع الناس في سائر البلاد . وينبغي
أن توعد للجيش ليجعل نفسه في هذه الليلة على أتم ما يمكن من الأبهة والنظام ،
على أن يحضروا جميعاً صابحاً في أهبة تامة للغاية وأن يكونوا في زينة ليس أتم منها
حتى نأمر بما ينبغي . فقال السهيسالار « سأفعل ذلك » وعاد فأصدر الأوامر
اللازمة في كل شأن ، وأصدر الأمير من جهة أخرى أوامر تتصل بالخدم وغلمان
الخاصة ، كما أصدر أوامر أخرى كلها ملكية قوية .

وفي اليوم الثاني جاء السهيسالار غازى إلى الدركاه يصحبه موكب الجيش ،
وأمر كافة المتقدمين أن يقفوا صفين بما يلي الدركاه بنحيتهم وأعلامهم ، وكانت

(١) نزل يضم الأول وسكون الثاني أو صم ، بمعنى الرزق (كتاب السامى) أو كل ما يقدم
للضيف (الصعاح والعماءوس) غنى - فاض حاشية (٢) .

(٢) كانوا يقدمون مبلعاً باسم (هدية الحمام) للضيف عند قدومه .

الأعلام تمتد إلى مسافة بعيدة من أبواب قصر شاديخ ، وقد وقف غلمان الخاصة والخدم في داخل الحديقة صفين من أمام صفة التاج حتى الدركاه ، في تمام أساحتهم وملابسهم المختلفة الألوان والأشكال ، وكان معهم أهل المراتب ، وكانت البغال قد سبقت لحمل الخلعة من نيسابور ومرت بقرب الرسول ، بينما أرسل أبو سهل رجلاً يطالب بالمنشور والأوامر سرا ، فطالعها وترجمها ثم أعادها في خرائط^(١) من الديباج الأسود إلى الرسول .

وعندما وصل الموكل بالضيافة إلى الرسول أركبه جنيبة وكان قد ارتدى السواد ، وأعطى ٤٧ اللواء لفارس ليسير به في أثر الرسول . ومن خلفهما بغال تحمل الصناديق المحتوية على خلع أمير المؤمنين ومعها عشرة خيول . وكان يئنها جوادان يزدانان بـسرجين ونعال ذهبية ، أما الثمانية الأخرى فكانت مسرجة بسروج من الديباج والأطلس ، وكان طريق الرسول مزداناً بأبهى الزينات وكان الناس ينثرون عليه الدراهم والدنانير إلى أن بلغ صفوف الفرسان فعلت أصوات الطبول والأبواق وهتاف الجماعات .

وكانوا يمرون بالرسول والأعيان بين صفى الجند ، والمقدمون من الجانبين ينثرون عليه النثار حتى بلغ السرير ، وكان الأمير متربعا عليه ، وقد أذن لهم . وكان الموالي والحشم بين واقف وقاعد . فأنزلوا الرسول في محل لائق ، ثم سار في هيئة مهيبة فتقدم إلى الأمير وقبل يده ، ثم أجلسوه قرب السرير . وبعد أن استقر به المقام بلغ سلام أمير المؤمنين وألحقه بالدعاء الجميل ، فأجابه الأمير مسعود بما يناسب مكانته الملكية . ثم قام الرسول ووضع المنشور والرسالة على السرير فقباهما الأمير ، ثم أشار إلى أبي سهل الزوزنى ليأخذهما فبدأ يقرأ ، وما أن جاء ذكر الأمير في المنشور حتى نهض واقفاً وقبل بساط السرير ثم

(١) في المعاموس الخريطة وعاء من آدم وغيره نخرج على ما فيها .

جلس ، ولما فرغ من قراءة المنشور والرسالة ترجم باختصار فصلين منها إلى الفارسية . ثم فتحوا الصناديق وأخرجوا الخلع منها ، وكانت تحتوى على أقشة مخيطة وغير مخيطة . فقام الرسول ورفع سبعة دواجات ^(١) ، كان أحدها أسود والبقية ديبقيات بغدادية ملكية نادرة . فنزل السلطان عن السرير ، وبسطوا السجادة التي كان قد صلى عليها يعقوب بن الليث في مثل هذه المناسبة ، وارتدى مسعود الخلعة وصلى ركعتين . وقد نم هذا بإيعاز من أبي سهل الزوزني ، إذ كان المعروف أن ارتداء هذه الخلع دليل على توريث الخليفة إياه ملك أبيه بتمامه ، وأحضروا تاجاً وطوقاً وجوادة وسيفاً وحمائل وكل ما كان متعارفاً ٤٨ عليه . وقد وضع الموالي والحشم التحف والهدايا الكثيرة التي لا تقدر ولا تحصى أمام السرير . ثم أعيد الرسول على أحسن ما يكون ونهض السلطان وذهب ^(٢) إلى الحمام فغتر ملابسه وأمر بتوزيع مائتي ألف درهم على الفقراء ، ثم جاء أهل البساط والسباط وكانوا قد أعدوا خواناً فخماً دعوا إليه الرسول وأجاسوه على مائدة السلطان . وبعد انتهاء الطعام ألبسوه خلعة فاخرة وأعادوه إلى منزله بالاحترام والإجلال ، وعند صلاة عصر ذلك اليوم ذهب الموكل بالضيافة بالصلوات السلطانية الخاصة بالرسول نفسه ، وكانت مائتي ألف درهم وجوادة بسرج من ذهب مع خمسين ثوباً من الثياب الفاخرة غير المخيطة ، وعدة خرائط من العود والمسك والكافور . وأذن له بالرحيل . وعاد الرسول في سلك شعبان . وأمر السلطان بأن يكتب إلى هراة وبوشنك وطوس وسرخس ونسا وبأورد وبادهيس وكنج روستاق بهذه البشائر التي منحها من مجلس الخلافة ، فنسخت صوراً من المنشور والرسالة أبرزوا فيها الألقاب التي يدعى بها هذا السلطان

(١) الدواج كرمان وغراب اللخاف الذي يلبس (القاموس) .

(٢) آثرنا أن نلقب مسعود من هنا بالسلطان بدلا من الأمير ، وذلك لوصول منشور الخليفة والخلعة التي تدل على ذلك . وأما البهق نفسه فيقول في ص ٩٥ إن مسعود ارتقى سرير الملك منه اليوم الذي قصوا فيه على أخيه في تكينا باد .

الجليل ويخطب بها على المنابر ، وكانت النعوت السلطانية كما يلي : ناصر دين الله ، حافظ عباد الله ، المنتقم من أعداء الله ، ظهير ٤٩ خليفة الله ، أمير المؤمنين .

كما كان المنشور ينطق بأن كل ما كان في حوزة أبيه « يمين الدولة ، وأمين الملة ، ونظام الدين ، وكهف الإسلام والمسلمين ، وولي أمير المؤمنين » قد فوض أمير المؤمنين أمرها إليك ، وأن يكون لك كل ما فتحت من الرى والجبال وإصفهان وطارم والنواحي الأخرى ، وكذلك كل ما تفتح بعد ذلك من بمالك المغرب والمشرق . وحمل الرسل هذه الرسائل ، وأقيمت الخطب في كافة البلاد التي ذكرتها باسم السلطان مسعود . وامتد سلطانه على كافة نواحي خراسان .

وقويت عزيمة السلطان مسعود بعد أن عاد هذا الرسول وأخذت الأمور لونا آخر . ثم أتى شهر الصيام فصاموا ، وتحرك ركاب السلطان من نيسابور في أواسط رمضان من هذه السنة إلى هراة ، بعد أن أمر بالخلع السلطانية للقاضي صاعد وأبنائه وللسيد أبي محمد العلوي وأبي بكر محمد حمشاد ولقاضي المدينة وخطيبها . وصادف يوم بلوغه هراة أن كان ليومين باقين من رمضان ، فنزل في الجوسق المبارك حيث أقيمت مراسم عيد الفطر وكان هذا العيد بحيث شهد الجميع بأنهم لم يروا ملك عيدا مثله . فقد مدوا سباطا للسلطان في المبنى الجديد الذي أنشأوه في الحديقة العدنانية ^(١) ، كما أعدوا موائد أخرى ، في البستان المذكور أجلسوا إليها قواد الأفواج المختلفة ومقدمي الفرسان

(١) الحديقة العدنانية تنسب إلى أبي عامر عدنان بن محمد الغبي الذي كان رئيسا لمدينة هراة في أواخر عهد السامانيين ، وقد أنشأ بديع الزمان الهمداني باسمه رسائل وقصائد ، وجاء في إحداها .

بادهرانك لاجالة زعمجى عن خطتى ولسكل دهرشان
فاعمد براحتى هراة فإنها عدت وإن رئيسها عدنان
عن - فياس حاشية (١) حيث أشار إلى التهمة الدهر ج ٤ ص ١٩٦ ، ٢٠١

بينما كان الشعراء ينشدون الأشعار ، وفي أثناء تناول الطعام نهض كبار رجال
الحاشية الذين كانوا على خوان السلطان وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا :
« ها قد انقضت خمسة شهور أو ستة لم يأمر السلطان خلالها بإعداد موائد
الشراب والطرب ، والأمور تسير اليوم على مايرام ولم يبق بعدوجه لدوام
الحزن والحداد ، فإذا شاءت إرادة مولانا العظيم يأمر بالشراب . »
فاستجاب لهم السلطان وطلب الشراب فأعدوه ومدت الموائد ، وأخذ
المطربون في الغناء والتوقيع ، وبلغ الطرب غايته ، وعم السرور الحاضرين
جميعاً ، ولكن السهيسالار ٥٠ لم يذق شيئاً من الشراب لأنه لم يكن
معتاداً عليه .

وكانت الرسائل تترى كل يوم من معسكر غزنة تعرب عما يقومون
به هنالك من أمور تنفيذها لأوامر السلطان .

وفي أضحية يوم الإثنين لعشر خلون من شوال وصل منكيتراك أخو
كبير الحجاب على قريب مع الفقيه نديم الحصري فجأة إلى الحضرة السلطانية ،
فأخبروا السلطان فوراً ، فأمر بإدخالهما ، فدخلوا وقبلوا الأرض وقالوا :
بورك لليلك فقد صار مستقراً ، وإن الأخ قد اعتقل . فأجلسهما السلطان
وشملهما بعطفه البالغ ، ثم قدما رسالة موالى تكيينا باد . فأمر السلطان بقراءتها
ثم قال بعد أن وقف على ما فيها :

« لقد أبدى الحاجب بحصافته وإخلاصه ما كنا نتوقع منه ، وقد عرف
الذين شايعوه حقنا عليهم أيضاً ، وسيكافأ المخلصون بإخلاصهم ، وحيث
أنكما وصلتما بهذه السرعة فاذها الآن لتستريحا بعض الوقت ، ثم عودا
بعد صلاة العصر ، لتشرحا لنا الأجوال وتفصليا بما عندكما من أنباء . »

فذهبا حيث أنزلا معافى قصر منيف وبعثوا إليهما بكثير من المأكولات والنزل فأكلا ثم ذهبا إلى الحمام .

وبعد أن أذن لهما السلطان بالذهاب ، استدعى أبا سهل والكاتب طاهر وبقية الأعيان واختلى بهم ، ثم أخذ يتجاذب معهم أطراف الحديث إلى أن قر الرأي على أن يمنح منكيراك عند الصلاة الأخيرة منصب الحجابة وأن يلبسوه السواد ويخلع عليه خلعة فاخرة ، وكذلك على الحصري . وعند الصلاة الأخيرة بعثوا بجنيبتين وأحضروا عليهما منكيراك والحصري فتقدما وجلسا مختليين ومعهما طاهر الكاتب وأبو سهل الزوزنى ولم يكن عند السلطان سواهما ، ثم أنهما إلى السلطان ما ليهما من الأبناء وبيننا ما عليه الحال .

وعندما أراد الانصراف أمر السلطان أن يذهبوا بمنكيراك إلى خزانة الملابس وألبسوه خلعة الحجابة ، ثم عاد إلى الحاضرة متشجعا بالقباء الأسود والعنوسة ذات الركنين ، فهناه السلطان وقال له « إن منزلتك هي أن تقف للحجابة مما يلي موضع أخيك كبير الحجاب على » . فقبل الأرض وقفل راجعا .

أما الفقيه أبو بكر الحصري ، فقد ألبسوه خلعة فاخرة للغاية بما ينعم به على ٥١ الندماء ، وقدموه أيضا فشملة السلطان بعطفه قائلا : « لقد احتملت من أجلنا في عهد أيدينا كثيرا من المتاعب والهوان ، فوجب الآن أداء حقك علينا لقاء ما أدبت لنا من خدمات ، وهذه الخلعة هي باكورة الإنعامات التي سنشملك بها مستقبلا » . فدعا للسلطان ثم انصرف .

وأوعز السلطان إلى الأعيان والخدم حتى ذهبوا إلى منزلهما للتهنئة ، فقدموا لهما الهدايا والإنعامات الكثيرة . وعند صلاة العشاء أمر السلطان بكتابة جواب رقيق على رسالة تكيينا باد ، كما كتبوا رسالة تتضمن عطفًا بالغًا على كبير

الحجاب ، وقد وقعها السلطان ثم كتب بخط يده فصلاً منها ، وكتبوا كذلك منشوراً ورقاعاً ، وعين لهما فارس ورجل عربي من خيالة السعاة المسرعين واتجهوا شطراً تكينا باد وقت صلاة العشاء . والله أعلم بالصواب

ذكر ما انقضى من هذه الأحوال والأخبار تذكراً

بعد هذا ورود العسكر من تكينا باد إلى هراة وما جرى في تلك المدة

وحيث أني شرحت فيما مضى في تلك المدة ما حدث في عهد الأمير محمد وكيف ٥٢ انتهى الأمر باعتقاله في قلعة كوهنيز ، باتفاق كبير الحجاب والرؤساء والأعيان وما أخبروا به السلطان مسعود عن إقدامهم على اعتقال أخيه ، وقد انتهت تلك الأحوال بموافقة السلطان عليها وإرساله رداً بذلك مع الرجلين اللذين أشرنا إليهما آنفاً ، وهما نحن الآن نعود إلى ذكر ما جرى بعد ذلك من سير أفواج الجيش واحداً بعد آخر إلى هراة .

فبعد وصول جواب الرسالة من السلطان ، أحضر كبير الحجاب الرؤساء وقال لهم : لقد تقرر أن تسير الأفواج جميعها اليوم أو غداً إلى هراة ، وأن يبقى معي جيش الهند لأسير به بعد ذلك ، وسأكون على ساقاة الجيش . فقالوا سمعاً وطاعة ، ثم رحلوا من فورهم . أما الأعيان والوجهاء من أهل خراسان ، فقد تركوا أثقالهم لينفروا خفافاً مع سائر الجند ، وأما حسنك الوزير فقد تقرر بأمر من السلطان أن يحمل ليلاً إلى هراة ، أي قبل مسير الجيش ، وكان هذا الأمر قد أتى به ثلاثة نفر من نخاسة فرسان أبي سهل الوزني ، الذي كان متحاملاً على حسنك هذا ؛ وكان أبو نصر مشكان صاحب ديوان الرسائل قد سارع بالمسير كذلك ولبكنه قابل كبير الحجاب علياً قبل رحيله ومكث معه فتجدثا ساعات ، وكان يرفقته أبو الحسن العقيلي ومظفر الحاكم وأبو الحسن الكرخي

٥٣ ونبيه الفقيه وجماعة الندماء وغيرهم من شتى الطبقات، وكانت تبدو على كبير الحجاب إمارات الخوف والارتباب . فقد سمعت أبا نصر مشكان يقول : « إنني عندما قصدت السفر إلى هراة سألت الحاجب هل تأمر بعمل أؤديه بهراة قبل وصولك إليها فاختلى بي ثم رد علي قائلاً :

«وداعاً أيها الصديق الوفي لقد قضينا مدة مديدة معاً ، في وفاق وإخلاص» .
فقلت له : « ماذا دها الحاجب حتى أراه على هذه الحال من اليأس والفنوط فيتكلّم هكذا ؟ » فقال : « على الصديق والوفاء ولم يحدث مني خيانة أو انحراف ، وأما قولي لك الآن سر في أمان الله ، فلم يكن لأنني أزمعت على التواني عن السفر إلى هراة ، ولكن سر في أمان الله ولتعلم أنك لن ترأني بعد أن تقع عين مسعود عليّ ، وأما هذه الرسائل اللطيفة والخطابات الرقيقة ، وما كتبه السلطان بخط يده ، وإنعامه بمنصب الحجابة على أخي ، فكل ذلك خداع لا يخفى شيء منه على رجل مثلي ، وهي كلها حبال لصيدى ، فإن على داية بهراة وكذلك الحاجب بلسكاتكين وجماعه آخرون لا يعدون من الرجال ولا يحسبون بين النساء ، وكل هؤلاء القوم سيلتحقون بالسلطان أيضاً ويحملونه على إقصاء الحاجب على من الميدان ، وقد أسندت السهبالارية إلى غازي الحاجب ويقال إنه صاحب الأمر كله فكيف يتحمل أن يرانى ، ومن السهل على أن أجمع هذه الخزان والفيلة وفوجاً قوياً من اليهود وأجهز كل شيء وما أملكه من الغلمان الكثيرين والأتباع والحاشية وأقصد بجمستان فإنه يمكن ضبط كرمان والأهواز حتى بغداد بهذا الجند، إذ ليس فيها إلا جماعة من الهمج والرعاع لا حول لهم ولا قوة ولا سند ولا عمد ، فأمن بذلك على نفسي ، وأما الوجشة المستولية على قلب هذه الأسر فلن تزول لأنى السبب فيها ، وملوك الأطراف يسندون هذه العيوب ٤٥ .
كلها إلى مولاي السلطان محمود فيقولون « ملك مثله عمر طويلا وقهر ملوك

الأرض جميعاً ، لم يفكر في تدبير شئون أسرته قبل حلول أجله ، حتى وقعت هذه الأحداث ، ، وإني أتمنى أن يعتقلوني في زاوية أعيش فيها في عزلة وانفراد فأدعو الله ليغفر لي ما ارتكبته من الخطايا والذنوب الكثيرة ، ولكنني على يقين من أن هؤلاء الصعاليك لن يتركوا ابن مولاي هذا ليبقى حياً لأنهم يخشونني وسيطمع هو أيضاً فيما لدى من هذا المال والحطام فيسيء إلى سمعته .

« ولقد ارتكبت بادی الأمر خطأ كبيراً عند وفاة سيدي وقد عرفت اليوم ، ولات حين مناص ، ماذا كان من إحضار محمد أخيه ، كان لزاماً عليّ ترك الحبل على الغارب حتى يحضر أولاد السلطان ويتفاوضوا ويتوسط الموالى والحشم بينهم ، وأنا واحد منهم ، فكانوا يرجعون غالباً إلى رأي ويستقر الأمر ، ولكني لم أفعل ذلك ، بل كنت كالظئر التي تدعى أنها أحرص على سلامة الوليد من أمه ، فشمرت للأمر وقد خذاني اليوم جميع الرفاق ، خذلوني ونجوا بأنفسهم ، وسموني عليا الأمير ، وجرى القدر بما شاء وأنا لا أتصل من حكم ربي ومشيتنه ولكني لن أقبل سوء السمعة لنفسي بأية حال . »

فقلت : « أطل الله حياة الأمير كبير الحجاب ، لن يكون غير الخير والبركة ، فماذا ترى أن أفعل والحالة هذه بعد وصولي إلى هراة . »

فقال « لا تذكر شيئاً عما حدثتك به لأنه سيتأكد إنني قد ارتبت فيه ، وأنني قد تكلمت معك في هذه الأبواب فتضاربها ولا ينالني خيراً منها ، فإذا جرى حديث ، وأظنه لن يجرى قبل أن أقع في قبضتهم ، فخذير بك أن ترعى حق الصحبة والخبز والملح حتى ترى ما يكون . وكذلك يجب أن تعلم أن الأمور قد تحولت إلى وجهة أخرى ، فإنك عند وصولك إلى هراة سوف تعثريك الخيرة في أمرك ، ستشاهد عياناً إذ ترى أن قوماً حديثي النعمة قد آلت إليهم الأمور حتى أصبح أصحاب محمود في حكم الخوثة والغرباء ، ولا غرو فإن أبا

سهل الزوزنى قد أصبح المرجع هـ الأول فى كل أمر ، فتحكم فى الرقاب ومالك ناصية الأمور ، وستسير الأحوال مع السلطان مسعود على هذا المنوال ، ما لم يستع ذلك السلطان وإلا فأنتم على شفا جرف هار .

قال هذا وبكى ثم احتضنى وودعنى وسرت . وأقول (أنا أبو الفضل) إنه قلما يوجد رجل كعلى . وكأن ما ذكره عن نفسه لاستاذى أبى نصر مشكان يدل على أنه كان يرى بشاقب نظره ما ستؤول إليه الأحوال .

فقد سمعت بعد أن قبضوا عليه فى هراة ، وانتهت أيامه ، بمدة طويلة أنه عند مسيره من تسكينا باد إلى السلطان مسعود بهراة ، كان قد كتب خطابا بواسطة كتخداه ومعتمده فى غزنة إلى رجل يدعى سبستى وإلى ابنه محسن ، وهو الآن حى يرزق ، وقد جاء فى هذا الخطاب بخط على « إننى ذاهب إلى هراة وأظن أن لقاءنا إياك وباقي الأسرة سيكون يوم القيامة ، ولذلك لا أجد الآن باعثا على توجيهك فى أى أمر من الأمور ، فإذا تم بفضل الله تعالى خلاف ما أتوقع فسأنبئك بما يجب العمل به فى كل شأن من الشؤون » . وقد سمعت هذا من كاتبه أبى سعيد بعد وفاة على رحمة الله عليهم أجمعين .

وعندما وصل الجيش إلى هراة خرج السلطان مسعود فى موكب عظيم حافل إلى ظاهر المدينة ، وتقدم الجند فوجا فوجا ، وكانت تبدو عليهم سيمااء الطاعة والإخلاص لشدة تعلقهم بالسلطان ، حتى كأنهم يرون أنفسهم اليوم فى الجنة يتمتعون بما وعدهم الله من روح وريحان .

وقد شمل السلطان الجميع بعطفه البالغ ولاطفهم بحديثه كثيرا ، وكان الحاجب غازى يصرف الأمور جميعا لأنه السهسالار ، كما كان على داية بأمر وينهى أيضا لأنه أعاد الغلمان من غزنة وذهب إلى نيسابور ، بيد أنه لم يكن مرعى الجانب كما كان الحاجب غازى ، وهذا ما كان يسبب امتعاضه دون

جذوني، وقد أبدى السلطان عطفه البالغ نحو أسنادى أبي نصر مشكان، غير أن أصحاب محمود كانوا كمن ارتكبوا إثماً كبيراً، وكأنهم غرباء بين المسعوديين، وكان أبو نصر يذهب كل يوم إلى الخدمة ولا ينظر إلى ديوان الرسائل، وكان الكاتب طاهر يتصدر الديوان في عظمة وكبر وخيلاء.

٥٦

ثم جاء الخبر بوصول كبير الحجاب على إلى إسفزار^(١) ومعه الفيلة والخزائن وجيش الهند والرجال، فسروا بذلك سروراً كبيراً. وقد سمعت أنهم لم يخطر ببالهم أن علماً سيأتى إلى هراة، فأخذوا يوفدون الرسل الشقاء بالهدايا تباعاً لاستقباله حتى يبرهنوا بذلك على صدق نواياهم نحوه، أما أخوه الحاجب منكيتراك فكان يجاس ويقول: ينبغي الإسراع فإن الأمور أصبحت على مايرام. ودخل على المدينة مبكراً في يوم الأربعاء لثلاثة من ذى القعدة من هذه السنة مع عشرين غلاماً، بينما كانت الرجال والجيش على بعد خمسة أو ستة فراسخ، وكان الظلام مايزال شديداً، فقصد البلاط فور وصوله وجلس في مدخل السراى العدناني الأول. وكان السلطان مسعود قد أنشأ فضلاً عن هذه السراى قصراً فسيحاً جميلاً آخر وحدائق وعمائر أخرى، وكان يجلس لاستقبال الوافدين عليه في السراى العدنانية الأولى تارة وفي المقصورة الثانية تارة أخرى، وكان كل من يصل إلى الدهليز حيث يجلس على يؤدي له من النجدة والتعظيم ما يؤدي للملوك، لأن القلوب والعيون كانت ملأى بعلو قدر هذا الرجل وجلال شأنه، كما كان هو يلقيهم، رغم الابتسامة الحزينة التي ترسم على شفثيه، بكل لطف وإكرام، وكان يابى الجزن والآسى، كأنه يعلم ما سيكون. ولم أره يضحك جهرًا في أى وقت إذ كان يكتفى بالابتسامة فقد كان رجلاً صعب المراس.

(١) جاء في حاشية يب: إسفزار بفتح الهمزة وسكون السين وكسر الفاء مدينة قرب هراة.

وأذن السلطان عند طلوع النهار للوافدين بالمشول في حضرته في تلك المباني المشيدة خارج الحديقة العدنانية ، ودخل على وبقية الأعيان إلى الحاضرة من باب هذه السراى ، وخوارزمشاه وقوم آخرون من الباب الذى يلى الشارستان ، وكان السلطان متربعا على أريكة نصبت له فى الرواق المتصل بقصر الربيع ، وقد أجلس التونتاش عن يمين الأريكة ، كما أجلس الجهم الأثير يوسف عضد الدولة أمامه ، وكان وبقية الأعيان والكبراء بين واقف وجالس ٥٧

وتقدم كبير الحجاب على وقبل الأرض فى ثلاثة مواضع ، فرفع السلطان يده إيدانا له بالتقدم ثم أعطاه يده ليقبلها ، فوضع أمام السلطان عفدا من الجوهر الثمين ، ونثر ألف دينار كانت معه ، ثم أشار السلطان إليه بالجلوس إلى اليسار ، فأمسك الحاجب مسكيتراك بساعده ، فقبل الأرض وجلس فى مقابل الدونناش خوارزمشاه ، وأعاد تقبيل الأرض مرة أخرى ، فقال له السلطان « مرحباً بك يا على » ، لقد لقيت فى حينا نصيباً » فقال « أطال الله حياة مولانا إني لم أقم بأمر جليل ، ولكن التشجيع الذى يتفضل به مولاي قد أنعشنى وزادنى قوة ومد فى حياتى » . فقال التونتاش :

« لقد كان السلطان بعيدا عن حاضرة ملكه ، وقد يصل إليها بعد أمد بعيد ، وكانت هناك مهام خطيرة ، ولا يمكن التفريط فيها لحفظ تلك البلاد العظيمة التى حصل عليها ، وكنا نحن العبيد نترقب هذا اليوم الذى حظينا فيه بالمشول فى الحاضرة ، كما قد تجشم العبد على متاعب جمّة ، حتى لا يقع أى مكروه ، وإني بالرغم من بعد المقام آليت على نفسى أن أكتب ما أراه لصالح الأمور ، والآن والحمد لله قد اتسقت الأحوال على نهج واحد ، دون أن يقع حادث ، فالملك قد تم له الأمر بالجلوس على عرش أبيه فى ريعان شبابه ، وسيكون أمامه أمد طويل للتمتع بالملك والشباب ، ولو أن

في الخدمة كثيرين من حديثي العهد الجديدين بالنقطة ، وسيلحق بهم آخرون ، إلا أنه في الحضرة الآن كذلك نفر من المعمرين الذين شاخوا في خدمة السلطان محمود ، فإذا شاء الرأي العالي إبقائهم في الخدمة فذلك أمر حكيم ، لكيلا يتشفي فيهم أعداؤهم ، فإن الشيوخ زينة الملك ، ولست أقول هذا مستعظفاً لنفسى ، فواضح أن أجلى قريب. ولكنها نصيحة أسديها ، ولو أن الملك أعظم من أن يحتاج إلى نصيح العبيد ، بيد أنى أرى من الواجب على أن أعرض أمثال هذه النصائح ماحيت .

فقال السلطان: « إن كلام خوارزمشاه هو بمثابة كلام الوالد وأنا نهضت إليه بالرضا ٥٨ وتتقبل نصحه الودى ، ولعمري متى كان خوارزمشاه لا يرعى جانبنا ، هذا ولا يخفى ماأداه في هذه الأيام من خدمات ، وكل شيء كتبه أو ذكره واضح وسنكافئه لذلك . »

فنهض خوارزمشاه وقبّل الأرض ، وعاد من نفس الباب الذى دخل منه ، ثم قام الحاجب على ليخرج ، ولكن السلطان أشار ليجلس ، فخرج القوم واختل به السلطان ، وكان هنالك أيضاً الحاجب منكيتراك وأبو سهل الروزنى والكاتب طاهر والكاتب العراقى وبدرحاجب السراى وكانا واقفين ، وحول الأريكة رجال مسلحون وكانوا وقوفا ومئة غلام من خاصة الخدم^(١) . فقال السلطان لكبيرالحجاب « يجب أن يظل أخونا محمد بقلعة كوهتيز حيث هو أو في مكان آخر ، إذ لا يسوغ الآن الإتيان به على الفور ، ونحن

(١) يعبر عنهم بكلمة وثاقيان . والوثاق بمعنى الحجر . وهي تبديل لكلمة أتاى كما قال السيد إقبال (مجلة ابران امروز السنة ٢ العدد ١٠) . وتطلق كلمة وثاق في هذا الكتاب على حجر الغلمان ، من الغلمان جماعة تتصل حجراتهم بباني السراى ويسمون خاصة الخدم أو « الوثاقيين » . غنى فياض ص ٥٨ حاشية ١ .

مزمعون السفر إلى بلخ في فصل الشتاء ؛ فإذا وصلنا في الربيع إلى غزنة سئرى فيه عند ذلك رأينا . فقال علي : الرأي اليوم لمولانا يأمر بما يشاء ، وقلعة كوهتيز من القلاع المنيعه كما أن الحاجب بكتكين يقيم خارج القلعة يترقب ما يصدر إليه من الأوامر . فقال السلطان : أجل ، وما هو أمر تلك الخزنة التي أرسلت مع كتخداه حسن إلى جوزجان . فأجاب علي : أطال الله حياة مولانا ، لقد أوصلها حسن إلى قلعة شادياخ^(١) وهو رجل ناضج بصير بالعواقب لا يفعل شيئاً لا يقدر عليه ، فإذا رأى مولانا فلعله من الصواب أن يبعث معتمداً ما يأتي بتلك الخزنة . فقال السلطان : لتذهب الآن على بركة الله فتستريح فإن لنا معك تدابير ومهام كثيرة ، فقبل على الأرض ثم نهض وخرج من نفس باب الحديقة الذي دخل منه بإرشاد أرباب الرتب ، وذهب ٥٩ .

وقال السلطان لعبدوس : اذهب في أثر الحاجب وأبلغه أن يترث ساعة في الصفة القريبة منا ، فقد تكون هنالك حاجة تستدعي حضوره . فذهب عبدوس . ثم قال السلطان لظاهر الكاتب : سل الحاجب عن المدة التي دفع عنها مرتبات الجند^(٢) ، وأيهم أحسن عدة وعتاداً وأصلحهم للرحيل ، لأنني عازم على إنفاذ حملة إلى مكران لتأديب عيسى المغرور جزاء عصيانه ، واستعمال أخيه أبي العسكر^(٣) الذي فر من وجهه ولاذ ببلاطنا بدلا منه .

(١) شادياخ - اسم يطلق على مدبنة تبساوور على قرية من ضواحي بلخ كما جاء بمعجم البلدان ؛ والغالب إن تكون المراد هنا الموضع الثاني .

(٢) يستكاني : وهي مرتبات الجند التي تدفع لهم أربع مرات في السنة وهذا هو رسم ديوان خراسان (مفاتيح العلوم ص ٤٢) ، وتعرف الكلمة في العربية (بالشرنية) ولها نقد بزن عشرين مثعلا . غنى - فياض حاشية (١) .

(٣) ذكره صاحب الكامل ج ٩ ص ١٥٤ بابي العساكر .

فذهب طاهر ثم عاد ليقول : إن كبير الحجاب يقول إن مراتب الجند قد دفعت إليهم حتى آخر العام ، وإنهم جميعاً مجهزون بأحسن عدة وأكمل سلاح ولا ينقصهم أى شئ ، وكل من يأمره مولانا يستطيع الذهاب فقال السلطان : حسن جداً ، فلبؤذن للحاجب بالعودة . ثم قبل منكيتراك الحاجب الأرض وقال : ليأذن مولاي بأن أستضيف علياً ومن معه اليوم ، فقد أوصيت بتهبئة حساء لهم . فأجابه السلطان هاشماً إلى سؤاله : حسن جداً ، وأضاف قائلاً : وإن كانت هناك حاجة أخرى فليقم بتهيئتها خدمنا . فقبل منكيتراك الأرض مرة ثانية وخرج مسروراً . وأى أنخ ياترى كان لمنكيتراك أن يستضيفه وقد قبضوا على علي ؟ فقد كان ماجرى على لسان السلطان طاهر ، وتلك المشافهة عن الجند ومكران « ريج فى الفقص »^(١) . فكانوا قد دبروا له تدبيراً ، إذ أمر السهيسالار غازى بأن يذهب من فوره حينما يدخل الحاجب علي عند السلطان مع جمع غفير من الفرسان فينهبوا كل ما يوجد برحله . وقام غازى بما طالب إليه أداؤه . وعندما خرج منكيتراك قيل له إن كبير الحجاب موجود الآن فى هذه الصفقة ، فلما وصل إلى الصفقة برز إليه ثلاثون ٦٠ غلاماً وقبضوا عليه وسلبوه قلانسوته وقبائه وخفيه كما فعلوا مع أخيه من قبل ، ثم ذهبوا به إلى حجرة مجاورة لتلك الصفقة ، فحمله الفراشون وأخاه على ظهورهم لأنهما كانا مصفدين بأغلال ثقيلة ، وكان هذا آخر العهد بهما .

هذا ما كان من أمر على وعنده وجماعته ونهايته ، والمخدوع من يغتر بهذه الدنيا الغدارة ويقيم وزناً لعزها وجانها وما لها ومناها ، والعقلاء لا يأبهون بها ولا يغترون بمظاهرها .

(١) من أمثال المولدين ، كناية عن الباطل الذى لا حقيقة فيه ، مجمع الأمثال ص ٢٧٩ انظر

طبعة غنى - فباض ص ٥٩ حاشية ٤ .

ولنعلم ما قال الشاعر العتابي في هذا الباب

ذريني تجتني ميتي مطمئنة ولم اتجهم هول تلك الموارد
فإن كريمات المعالي مشوبة بمستودعات في البطون الأساود^(١)

والعظيم بحق هو من يستطيع أن يكبح جماح الحرص وأن يعتز بالقناعة .
وقد أصاب ابن الرومي عين الغرض بقوله في هذا المعنى :

إذا ما كساك الله سربال صحة . . وأعطاك من قوت يحل ويعذب
فلا تغبطن المكثرين فإنما على قدر ما يعطيهم الدهر يسلب

كما أن الأستاذ الشاعر رودكي^{٦١} يعرف الزمان حق المعرفة وعرفه للآخرين
بقوله :

إن هذه الدنيا تنيم وتخدع ، ويعرفها من كان له قلب يفظ نفيرها شر ،
وسرورها غم ، فكيف تطمئن إليها وأنت تعلم أنها غداره ، باطنها قبيح
وظاهرها جميل ، سيئة السلوك ولكنها بديعة المنظر^(٢) .

أما قصة القبض على علي وما جرى له ، فإنها تشبه من وجوه قصة أبي
مسلم وأمثاله ، كما أفاضت في ذكره كتب التاريخ ، ولزبما قيل إن أسبابا أخرى
خفية دعت إلى ذلك ، ولكنها على كل حال ليست واضحة لدينا والله سبحانه

(٢) هكذا ورد البستان في البيان والتبيين . ولكنهما وردا في نسخ البيهقي كلها على النحو

التالي :

كفى محتى قلبي بها مطمئنة	ولم اتجهم حول تلك الموارد
فإن جسيمات الأمور منوطة	بمستودعات في بطون الأوارد
(٣) أين جهان بالك خواب کردار است	ان شنا سده دلش بيدار است
نیکی . او بجایگاه بد است	شادی او بجای : بیمار است
جه نشینی بدین جهان هموار	که همه کاراونه هموار است
دانس اونه خوب و نجرش خوب	زشت کردار و خوب دیدار است

أعلم بحقائق الأمور . وليس من شأنى الدخول فى ذلك إذ لا أتوخى غير سرد الحوادث ، فقد ذهب الكل لئأنهم وسيجتمعون فى صعيد واحد حيث تتكشف الأسرار وتظهر الحقائق ، وأقصى ما يمكن أن يأخذه العقلاء على هذا الرجل العظيم هو أن يتساءلوا عما دعاه إلى تنصيب أمير وخلع آخر ، والظاهر أنه كان قد قُدر أن تنتهى أيامه على هذه الصورة ، فكان ما كان ، ونعوذ بالله من القضاء الغالب بالسوء .

بعد الفراغ من أمر على الخطير ونهب رحله وخزائنه وكل ما فى يد خدمه وغلماينه عاد السهسلاز غازى وتبين أنه كان قد أخذ كل الحيلة حتى لا يسلب أحد من الحاشية والموالى الذين كانوا برفقة كبير الحجاب شيئا ، (كيلا يزعمهم ويضعف أمهم فى الساطان) . هذا وقد استولى الرعب على قلوب جماعة « المحموديين » من جراء القبض على على ، وقد أرسل الساطان عبدوس ليلبغ التونتاش خوارزمشاه « بأن عليا قام بما ليس من شأنه القيام به ، أفلم يكن الأولى به أن يقتدى بخوارزمشاه وأن يكون على شاكلته ؟ لقد كان عليه أن يصبر حتى نأتى ، فإنه واحد من الموالى والحشم ، فكان الأجدر به أن يفعل مثلها ٦٢ فعلوا وأن يسير كما ساروا ، ثم ما الذى حمه على الوقعة بأخى بعد أن عمل على تنصيبه ؟ ولماذا خالف أوامر الله تعالى وحنث بتلك الأيمان المغلظة . لقد كان يبطن الخيانة وهذا ما دعانا إلى اعتقاله ، لأن المصلحة كانت تدعو إلى ذلك ، وهو الآن يقيم فى مكان أمين لن يناله أذى أو مكروه ، حتى يحسن رأينا فيه » .

وأما غاية السلطان من ذكر ذلك لخوارزمشاه فهى دفع الريبة عن خاطره كيلا ينقلب على عقبيه ويتخذ سيرة أخرى . وكان جواب خوارزمشاه أن

ما تفعله الملوك في عبيدها هو عين الحق والصواب ، ومن ذا يستطيع أن يرى ما يراه مولانا ، والحق أني نصحت عليا بالأيتامى حينما كنت في خوارزم كناية آنا وشفاهما بطريق الرسل آنا آخر ، إلا أن أمرا جللا كان قد وقع فلم يستمع إليّ وجرى القضاء بما قدر ؛ بيد أنه رجل ذو منزلة وشهامة قل أمثاله ، ولا غرو فإن له أعداء وحسادا وهو من أقربائنا . فلا يأخذ السلطان بأقوال حاسديه ، فليس عنده مثله . وأرسل السلطان الإجابة بأنى هكذا سأفعل ، وسوف أفيد من عليّ في مهام خطيرة ، وإننا كان هذا تأديبا وتنبيها له .

سمعت من المسعدى وكيل الباب^(١) (البلاط) أن خوارزمشاه اشتد بأسه وأسقط في يده ، ولكنه تجلد لكيلا يعرفوا عما يدور في ضميره شيئا ، وأبلغ ، بواسطته ، أبا نصر مشكان وأبا الحسن العقيلي سرا عن خشيته من سير الأحوال على هذا المنوال : « ماذا كان ذنب عليّ حتى يعامل بهذه الطريقة وظاهر الأحوال يدل على أن هذه الزمرة الحديثة النعمة ان تدع أحدا حبا من خاصة محمود ، ٦٣ ، فلتدبروا بلطائف الحيل^(٢) من الوسائل ما أتمكن به من العودة إلى بلدى ، فأجاب أبو الحسن كعادته جوابا خشناً بقوله :

يا مسعدى لتتركنى وشأنى فإن السلطان يعدنى من المحموديين كذلك . ولما كان السلطان حسن الظن بى ، مقتنعا بجرمى على المصاحبة ، فسأشمر ساعدى لهذا الأمر وأبادر اليوم للقيام به حتى يتحقق الغرض ويعود خوارزمشاه كما يتمنى له المحبون ، وإن هذه الزمرة الحديثة ، ولو أن الأمر بيدها الآن ،

(١) جاء فى نسخة ميج : أن وكيل البلاط هو الموظف الذى بوفده الى البلاط حكام الأقاليم ليفهم به لينهى ما يخصهم من الأعمال ويراقب مصالحهم . غنى - قياض ، حاشية ٢ .

(*) : دست وبای مردن - كناية عن شدة الخوف . غنى - قياض ص ٦٢ حاشية ٣ .

(٢) فى النص سازند وبكار آرند والظاهر أنها سازند وبكار آرند . غنى - قياض ص ٦٢

حاشية ٨ .

إلا أن السلطان سيحدث في مثل هذه الأبواب مع أصحاب أبيه ، لأنه عرفهم وجربهم .

وقال أبو نصر مشكان : « إني فائم بما طلب إلى شاكرامتنا ، هذا وقد غمرني السلطان بعطفه وطمأنني بحميل الطاعة ، وقد سمعت من أئق بهم أنه لم يأذن لأحد بالخوض في شأني ، وقد يتحدث إلى بكل ماجري ، ولكنه إلى الآن لم يحدثني بشيء في هذا الباب ، فإذا استشارني في شيء فسأبدأ بحديث خوارزمشاه ليعود على الحال التي تمنهاها ، ولكن ليس من الحكمة المبادرة بالحديث قبل أوانه ، فإذا تحدثت بشيء عنه فالصواب القول بأنه قد شاخ ، وإن يستطيع القيام بشيء ، وغايته أن يعتزل الجندية وأن يقيم في جوار ضريح السلطان الماضي ، وأن يسير أحد أنجال مولانا ليقوم بالإمارة الخوارزمشاهية ليقف أبناء العبد ومن بيده في خدمته ، وإن هذا لأمر سديد إن تكلم به على هذا النحو فلن يشق على السلطان فيعيده سريعاً ، فإنه يعلم أن صيانة ذلك الشجر الهام والمحافظة عليه لا تتم إلا بهيئته » . فاطمان خاطر خوارزمشاه بهذين الجوابين وخاصة بكلام أبي نصر مشكان وهذا وطاب نفساً .

وقد أرسل السلطان منشورا بتولية السهالارغازي ولاية باخ وسمكان^(١) ، فأسرع أصحابه بذلك المشور إلى باخ حتى يخطب له فيها ، وأخذوا بيسير الأمور وكانت الكلمة لغازي ، كما أن المشاورات السرية للجيش اخصت به دون غيره ، فألم هذا أصحاب محمود ألما شديدا ، وجهلهم يتميزون غيظاً . فقبضوا عليه وأسقطوه أخيراً كما سيأتي بيانه ، ثم تألق بعذه نجم معتمده ٦٤ سعيد الضراف ، ولكل قوم يوم ، وإنه لم يكن مقصراً في عمله ولكنه ارتكب خطأ واحداً فقد خدعوه ليكون مشرفاً على سيده . وقد انخدع بالخلعة والذهب الكثير الذي

(١) مدینه فی طحارسات فيما وراء بلخ وبلات (معجم البلدان) غني - فياض ج ٦٣ ملحوظة ٧ .

حصل عليه . فقام بالإشراف ، فسقط سيده ، وسقط هو من بعده أيضاً .
والصدق خير مايزدان به خدام الملوك . وبعد سقوط غازي السهسالار ،
أخذ الفلك يدور بسعيد ولمع نجمه مدة ، ثم أفل . فكان يخدم تارة ويقال من الخدمة
تارة أخرى ، فصار كما قيل « بعد العز والرفعة صار حارس دجلة » ، وهو
الآن ، أى فى سنة خمسين ، بمولتان فى خدمة الخواجة العميد عبد الرازق (١) ،
وهو يعمل منذ سنوات نديما له منزويا قانعا بالقليل . وعندى لكم أخبار طويلة
سأوضحها إن شاء الله تعالى .

واختل شأن حسنك الوزير ، لأنه ارتكب فعلا غير جديرة أيام شبابه ،
ولم يحفظ لسانه وآلم قلب هذا الساطان العظيم شيئا فنيثا ، ولنعم ما يقول
الشاعر :

احفظ لسانك لا تقول فتتلى إن البلاء موكل بالناطق (٢)

وقال آخر فى منبة الأعمال التى يقوم بها الأحداث :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها . دون الشيوخ ترى فى بعضهما خلا

وسمعت أبا على إسحق يروى عن أبى محمد مبكائيل أنه قال : ما معنى البعض

والحق أن فى كلها خلا .

(١) هكذا فى النص ولكنه يصح الالام واللام قبل دجلة .

(٢) هو الأمير عبد الرازق بن أحمد ح. س الميمندى - غنى فياص حاشية ١ .

(٣) ان هذا البيت اصبح من الامثال السائرة منذ امد بعيد ، الا انه لم يعرف صاحبه ، وقد
ورد فى كتاب خاص الخاص وفى الجمهرة دون ذكر فائده . وجاء فى الجزء الثانى ص ٣٠٥ من
كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة أن عبيد بن شره الجرهمي هو أول من قال « البلاء موكل
بالقول » وكذلك جاء فى الجمهرة (ص ٥٥) أن مضمون البيت مأخوذ من الحديث النبوى ،
عنى - فياص ص ٦٤ حاشية ٢ .

هذا وقد كان الوزير أبو سهل الزوزنى خصما لدودا لحسنك الوزير أيام وزارته ، إذ كان يعمل على الخط من شأنه ويوغر صدر السلطان عليه ، فأذاقه ما أذاقه في بلخ ، ثم أمر أبو سهل بتسليم الوزير حسنك فورا إلى خادم أبي سهل الخاص على رايض فحمله إلى داره وأذاقه شتى ألوان الهوان . وأخذ الناس يأمون أبا سهل الزوزنى على ما جرى ويسلقونه بالسنة حداد ، فإن ٦٥ العظماء من الرجال لم يحصلوا على حسن السمعة إلا بعد العفو عن أعدائهم ، ومقابلتهم بالإحسان إليهم لأن الإحسان خير من الهوان ، والعفو عند المقدرة جد بمدوح وكذلك جاء في الأمثال « إذا ملكك فأصبح »^(١) . إلا أن أبا سهل لم يكن له مثل تلك المهمة ، فوجد في الانتقام سرورا لقلبه ؛ وقد طواهها الدهر فلم يبق أبو سهل ولا حسنك ، وقد دونت هذا الفصل لعله يفيد أحدا .

وأوفد الوزير أبو سهل الزوزنى بهرام النقيب بمنشور سلطاني إلى جنكشى^(٢) بباب كشمير ليفك أسر الخواجة الكبير أحمد حسن رضى الله عنه في الحال ، ويرسله عزيزا مكرما إلى بلخ ، لأن الدولة بحاجة إلى مثله ، كما تقرر أن يأتي بصحبته جنكشى نفسه لينال مكافأته إزاء الرعاية التي قام بها نحو هذا الخواجة وخدمته له وحفظه من أعدائه بعد وفاة السلطان الماضى .

وأما سبب اختياره بهرام^(٣) للقيام بهذه المهمة ، فهو أن بهرام كان قد قام برعاية شئون أولاده وتأديبهم حينما كان أبو سهل مضيئا عليه في الرزق ومضطهدا ورأى منه الإحسان فأراد أن يكافئه بهذه المهمة . وقد استولى الرعب الشديد على أعداء الخواجة حين سمعوا بذلك .

(١) في مجمع الأمثال للميداني « ملكك فأصبح » بدون إذا . واسجح فعل أمر من السجح والسجاجة وهي حسن الخلق .

(٢) كان كوتوال قلعة كالتجر والموكل بسجن أحمد حسن . — غنى فياض ٦٥٨ حاشية ١

(٣) هنا ثلاث روايات في نسخ ب ، مو ، فا ذكرها غنى — فياض في حاشيته ٤ .

وسأذكر قصة مجيء الخواجة إلى باخ وتاريخ إسناد الوزارة إليه .

وكان أستاذى أبو نصر مشكان فى تلك الأيام كثير القلق ولم يجلس فى الديوان ، وكان طاهر وحده فى الديوان يدير الأمور ، إلا أن السلطان مسعود استدعاه بعد مضى أسبوع وأجلسه وغمره بعطفه وسأله : « لماذا لا تجلس بديوان الرسائل ؟ » . فقال : « أطال الله حياة مولانا ، إن طاهرا هناك وهو كفء لذلك ، وقد بلغ حد الكمال فيه ، كما أنه يعرف جيدا رغبات مولانا السلطان وميوله ، وقد بلغت من الكبر عتيا ولم تبق لى قدرة على العمل ، فإذا رأيتم ٦٦ أن آتى إلى الحضرة وأودى خدمة فالأولى أن أشتغل بالدعاء لمولانا السلطان » . فقال السلطان « ما هذا الكلام ، إنى أعرفك حق المعرفة ، ولا أعرف طاهرا ، فينبغى أن تذهب إلى الديوان لأن مهام الملك كثيرة ، ولا غرو فإنك تعد بعشرة رجال ، وليس لنا غيرك ، فكيف يصح أن لا تجلس فى الديوان ، وفضلا عن ذلك كله ، فإن ثقتنا بك أكثر من ثقة والدنا عشر مرات فلتبادرن إلى العمل ولتعرض علينا تلك النصائح التى كنت تعرضها على والدنا ، فإننا مستعدون للعمل بها ، ولقد وثقتنا منذ أمد بعيد بنصحك وإخلاصك » .

فأدى أبو نصر فروض الخدمة ، ثم أرسل إلى الديوان فى رعاية وإكرام وبلغ منتهى العزة ، وأخذ يصرف الأمور فى الأعمال والخلوات ، ولكن أبا سهل الزوزنى سدّد نحوه سهم العصبية والغرض ، ولم يقف عند حد فى إيذائه حتى لقد قال إنه من المستطاع أن يؤخذ من أبى نصر ثلثمائة ألف دينار . فقال السلطان : « ليس لأبى نصر مثل هذا المال الطائل ومن أين حصل عليه ، وإذا كان لديه هذا المال فإنى أرى أن استحقاقه إياه خير من فائدته لنا فتجنب الكلام عنه لأنى لا أريد أن تخوض فى حقه » . وذكر ذلك لأبى العلاء الطيب وشكا من أبى سهل الزوزنى قائلا : « إنه يقول كذا فى حق أبى نصر وقد أجبناه بكذا » . فأنهى أبو العلاء هذا الحديث لأبى نصر .

وقد سمعت الخواجة أبا نصر يقول : « لقد استدعاني السلطان يوما في هذا الأسبوع واخني بي ثم قال : « لقد سارت الأمور في إتجاه واحد بحمد الله ومنه ، وإني أرى أن لانسير إلى غزنة بهذه السرعة ، وأن نرحل من هنا إلى بلخ ، فيشمل عطفنا البالغ خوارزمشاه الذي هو بمعيتنا ولا يزال على إخلاصه ، ويعد مثله غنيمة لنا في هذه الأيام وأن نعيده مكرما . ثم نراسل خانات ^(١) تركستان بعد ذلك ونفاوضهم في هذه الأمور ، ونوفد الرسل ونجدد العهود ثم نرحل إبان الربيع إلى غزنة ، فمارأيك في هذا » . فقلت : « إن الصواب ما رآه السلطان ولا ينبغي شيء غير هذا » . فقال : « نعم أريد أكثر من ذلك ، فينبغي أن تنصح دون وجل وأن تبين وجه الخطأ والصواب في هذه الأمور » ٦٧ فقلت : أطل الله بقاء مولانا ، إن لي بضع نصائح ولكني أخشى أن تكون ثقيلة ، والحق مر ، ولعل ما أقدمه من نصيح يذكره مولانا لخاصته فلا يستسيغونه ، ويقولون : لا ينبغي لأبي نصر أن يستمر على هذه الحال ، فقد امتدت يده إلى الوزارة والتدبير ، فالأولى بي أن أظل بديوان الرسائل مشغلا بمهنتي أي بالكتابة وحدها ، وإني لأرجو أن أعفى من المسائل الأخرى . فقال السلطان : « إنني لا أوافق مطلقا على ما تقول ، فليس لأحد جرأة على أن يفاتحنى في مثل هذه الأمور ، لأن منزلة كل شخص واضحة معروفة » . فقلت له : « أطل الله حياة مولانا ، فما دام مولانا يرغب في سماع نصيحتي ، فإني أبين بعض النقاط الدقيقة وفي بيانها وفاء مني لحق هذه الأسرة العظيمة على . ليعلم مولانا أن السلطان الماضي كان فريد عصره في كل الأمور ، وكانت الدنيا في زمانه كالعروس المزدانة بأبهى الزينة والجلال ، وقد عاش طويلا ^(٢) ، وعرك الأمور ظاهرها وباطنها ، واتخذ طريقته سويا ثم تركنا ومضى ، ويفضل العبد أن يكون السير على طريقته ، فلا

(١) يقول حايان يعني امراء خانية تركستان . غنى — فياض حاشية ٤ .

(٢) روزگار یافت ، يعني عمر دراز كرد . غنى — فياض حاشية ١ .

يفسح المجال لأحد ليقول له « لو عملت كذا لكان أصلح » وهذا كيلا يحدث خلل . والآن وقد انضوى الجيشان تحت لوائك وأصبحت الكلمة العليا لك ، فإنك تستطيع أن تستولى على وجه البسيطة ، وأن تحكم كل هذه الممالك الواسعة ، فينبغى أن يستمروا فى السير على هذه الحال ويبقوا كذلك ، وقد بينت هذا المقدار اليوم ، وما دام العبد فى الخدمة وكلامه موضع للاستماع ، فإنه لا يخل بما يرى فيه صلاحا ، وذلك جل غرضي . فقال السلطان : « نعم ما قلت وإنى لعامل بنصيحتك » ، فدعوت له وذهبت لشأني ، والحق أقول إنه لم يمض أسبوعان حتى رحلنا عن هراة وتغير ذلك الإعداد .

ومن جملة الأخطاء الفاحشة التى وقعت أن الأنباء التى تصل من غزنة ، قل أن يأتى السلطان مسعود من نيسابور إلى هراة ، كانت تفيد أن الجنود هالك قد أخذوا يعدون ويتأهبون للحرب ، فأدرك السلطان أن ثمة حاجة ماسة لمضاعفة جيوشه ، فأخذ يفكر فيما يجب أن يتخذه ٦٨ من شتى التدابير ، فأوفد رسولا قويا يدعى أبا القاسم الرخّال إلى على تكين وكتبوا رسالة جاء فيها : « إننا نتأهب للسفر نحو أخينا فإذا أعاننا الأمير ^(٣) فى هذه الحرب فحضر بنفسه إلينا أو أوفد أحد أبنائه مع جيش مجهز بالعدة والعتاد ، وانتهى ما نحن بصدده من الأمر فسنمنح أحد أولاد الأمير إقليما عظيما من هذه الناحية » . وكان ناصحوه قد بينوا له أن ما عزم عليه السلطان أمر خطير ، ولا يمكن أن يقنع على تكين بعد الفراغ من هذه المهمة بهذه الناحية الواحدة وسيطمع فى أماكن أخرى ، كما أنه حين لم يعط تلك الناحية التى أرادها ، ذهب سرا ، بعد وفاة ألتونتاش خوارزمشاه ، وأغار على الصغانيين وانتهب منهم أموالا طائلة يأتى ذكرها فيما بعد .

(٣) يقصد على تكين .

وكانت الغلطة الثانية أنهم استمالوا التركمان الذين كانوا قد ذاقوا حلاوة غنائم خراسان ، وكان السلطان الماضى قد ألقى بهم بحمد السيف من بلخان كوه^(١) فدعاهم ليزيدوا بهم عدد الجيش ، فقدم هؤلاء وعلى رأسهم قزل ، وبوقه ، وكوكتاش ومقدمون آخرون ، وقد قاموا بأداء بعض المهام ، ثم انقلبوا وعادوا سيرتهم الأولى من النهب والسلب ، كما سيأتى بيانه . وآل الأمر إلى أن قبض على قائد مثل تاش فراش وضاعت نواحي الرى والجبال بسببهم ، ولم ينصرفوا عنها إلا بعد الجهد العنيف الذى بذله أرسلان جاذب وغازى السهسالار فى إجلائهم عن خراسان ، ولا مرد لقضاء الله عن ذكره .

أجل ، إن هؤلاء التركمان حضروا إلى خدمة السلطان ونصب عليهم القائد خمار تاش سهسالار ، وفى أثناء هذا عزم السلطان على إيفاد جند إلى مكران مع قائد كبير ليصطحب معه أبا العسكر ، الذى كان قد فر من وجه أخيه المغرور والتجأ إلى نيسابور منذ عدة سنوات ، لينصبوه أميراً على ٦٩ مكران فتسأصل شأفة عيسى المغرور هذا ، وقد اختير اقتغمش^(٢) الجاه دار لقيادة جيش يتكون من أربعة آلاف فارس سلطاني وثلاثة آلاف راجل وذلك بعد مشورة التونتاش والسهسالار غازى ، وعلى أن يؤمر الحاجب خمار تاش ليذهب مع هؤلاء التركمان على أن يعملوا تحت إمرة الجاه دار لأنه القائد . فساروا إلى مكران مجهزين بكامل العدة من هراة بصحبة أبى العسكر .

وبعد إيفادهم قال السلطان لعمه الأمير عضد الدولة : « إنك يا عمى قد استرحمت طويلاً ويقال إن والى قصدار قد أخذه الغرور فى هذه الفترة ، فأرى أن تسير الآن إلى بست مع غلمانك وتقيم فى قصدار حتى يعود القصدارى إلى

(١) سلسلة جبال بين إيران وتركستان ، تعرف بهذا الاسم إلى اليوم .

(٢) ذكر هذا الاسم بصور أخرى فى النسخ المختلفة . فقل . قعمش . واقتغمش . وفى

مكان آخر من هذا الكتاب ذكر باسم باق تغمش وبارق تغمش . غنى — فياض ، حاشية ١

الصالح ويرسل ضرائب السنتين « إلينا ، ويكون في مقامك في نفس الوقت بقصدار
قوة كبيرة للجيش الموفد إلى مكران ». فقال الأمير عرضد الدولة يوسف : إن هذا
حسن جدا ، والأمر لمولانا في كل ما يأمر . فأبدى السلطان مسعود عطفه عليه
ومنحه خلعة غالية . وقال له : سر على بركة الله وسوف نستدعيك بعد أن
يصل ركابنا من بلخ إلى غزنة بعد انقضاء النوروز ، بحيث تصل معنا إلى غزنة .
ثم سار مع غلمانه وبصحبه سبعة من المفدمين السلطانية أو ثمانية وخمسمائة فارس
من هراة شطربست وزابلستان^(١) وقصدار^(٢) .

على أنني علمت يقينا أن السلطان مسعود كان قد أوصى سرا ، المفدمين
الذين أوفدهم مع الأمير يوسف أن يكونوا آذانا عليه حتى لا يرتحل إلى جهة
أخرى ، كما سمعت أنهم جعلوا حاجبه طغرل مشرفا عليه سرا يحصى عليه
أنفاسه ويبين كل ما يجري . وقد ضمن هذا الخائن ذلك الأمر رغم أن الأمير
يوسف كان يعده ولدا له ، بل كان لديه أعز من ٧٠ الولد^(٣) فبعثوا ببوسف
بهذه الذريعة لأنهم ظنوا أن غرور القيادة قد تمكن من رأسه ، وأن الجيش
اتجه إليه ، فيكون بهذا بعيدا مدة عن الدركاه .

(١) جاء في حاشية يب : « زابل اسم ولاية جنوبي بلخ وطخارستان . وهي تشمل على
هذا النجو غزنة وبلاد دوار وقندهار وسيدستان . وأما قصد صاحب السكتات فسيستان » . غنى
— فياض حاشية ٣ .

(٢) جاء في حاشية يب « قصدار أر قزدار . قال ياقوت أنها من نواحي السند . وعندى
أهلها جزء من بلوچستان الواقعة غربي السند » غنى — فياض ، ملحوظة ٢ .

(٣) تفسير غنى — فياض حاشية ٥ .

ذكر بقية أحوال الأمير محمد رضى الله عنه

بعد ما قبض عليه إلى أن حول من قلعة كوهتيز إلى قلعة منديش^(١)

بينت قبل ذلك ما اتخذته كبير الحجاب (على قريب) من احتياط بشأن الأمير محمد عند سفره من تسكينا باد إلى هراة، وذلك بناء على الأمر العالى الذى وصل من السلطان مسعود وتعيين الحاجب بكتكين. وما ترتب على ذلك من خير وشر بما سبب الوقعة بالحاجب المذكور فى هراة. والآن بعد أن انتهينا من سرد ما حدث من إيفاد الجيوش إلى هراة، وما نكب به الحاجب على قريب والأعمال الأخرى، ووصلنا إلى ذكر ما حدث بعد ذلك من ارتحال السلطان مسعود من هراة إلى بلخ، وقفنا بالتاريخ إلى هنا. وأذكر بقية أحوال هذا الأمير المعتقل وما حدث فى تلك الأيام من حركة الجند من تسكينا باد صوب هراة، ونقله من قلعة كوهتيز إلى قلعة منديش، سأذكر كل ذلك فىتم التاريخ، وبعد الفراغ منه نردفه بسفر السلطان مسعود من هراة إلى بلخ إن شاء الله.

سمعت من الأستاذ عبد الرحمن القوال^(٢) يقول إنه بعد أن سار الجيش من تسكينا باد إلى هراة بقيت أنا وباقي الخدم الخاصة بالأمير كأسماء أخرجت من الماء إلى اليابسة، وكنا كمن نهبوا وأصبحوا معوزين ولم يرض ضميرنا أن نبتعد عن قلعة كوهتيز، وكنا نؤمل أن يستدعى السلطان مسعود الأمير محمد إلى هراة فتكشف هذه الغمة. وكنا نذهب كل يوم حسب العادة، ٧١ أنا وزملائي من المطربين والقوالين ومن شاخ من الندماء إلى الخدمة، فنتناول شيئاً هناك ونعود

(١) منديش اسم ولاية فى غور وهذه القلعة بها.

(٢) براد هذه الكلمة «الغنى والطرب» وتستعمل الى الآن فى الفارسية بهذا المعنى فى بعض نواحي ايران.

وقت صلاة العشاء ، وكان الحاجب بكتكين رغم تشديده الحراسة القوية على القلعة لا يمنع أحدا منا ، بل كان يزداد عطفاً ورفقاً ، فكان يبذل قصارى جهده لإعداد كل ما يطلبه الأمير محمد في الحال ، ولو كان من قبيل ابن الدجاج مثلاً . وهذا ما أدى إلى تهدئة روع الأمير محمد فأخذ في الشراب بغير انقطاع .

وأذكر أننا جلسنا يوماً في أعلى مكان من القلعة الخضراء^(١) للشراب وكنا جلوساً في حضرة وكان المطربون يعزفون ، فترآى إلينا مشار تقع من بعيد ، فقال الأمير رضى الله عنه ماذا يمكن أن يكون وراء هذا الغبار ياترى . فقالوا « لا نستطيع أن نتبين حقيقة » . فقال لأحد ثقاته « إنزل على عجل وانظر ما هذا الغبار » . فسار مسرعاً وعاد بعد مدة ودنا من الأمير وهمس في أذنه شيئاً . فقال الأمير الحمد لله وسر سرورا بالغاً ، ظهرت آثاره على أساريه ، فظننا أن هنالك نبأ عظيماً لكسنا لم نجرؤ على السؤال . ولما دنا وقت صلاة العشاء عدنا فنادانى الأمير من بين الجماعة وأدنانى إليه كما لم يدنى يوماً وقال : « إن أبا بكر الكاتب قد سار بالسلامة إلى كرمسير^(٢) (مكران وسجستان) ليذهب عن طريق كرمان إلى العراق ومكة ، وقد ارتاح خاطرى من أجله لأنه نجح من حبائل هؤلاء الطغاة ، ولا سيما من أبى سهل الزوزنى الذى يتعطش لدمه . وكان هو سبب تلك الغيرة إذ يسير بجنايب الإبل مسروراً موفقاً . قالت : « الحمد لله الذى أراح قاب الأمير بهذه البشرى » فقال : « إن لى أمنية أخرى إذا تيسرت أكون قد حصلت على كل ما أتمناه فاذهب الآن واكتم هذا الحديث » . فعدت إلى مقامى .

(١) المفصود بالخضراء .

(٢) كرمسير — جاء في حاشية يب (المشهور إطلاق كرمسير على بواحي سيستان ومكران) ويقول ياقوت في مادة بست أنها تسمى كرمسير . غنى — فياض حاشية •

وبعد أيام وفد قرب صلاة العشاء نفر من الجميزة^(١) من هراة إلى بكتكين الحاجب فأخبروا ٧٢ بذلك الأمير رضى الله عنه ، فأرسل أبا نصر الطيب ، الذى كان من جملة الندماء ، إلى بكتكين ليقول سمعت بوصول مجمر من هراة فما خبره ؟ فأجاب بكتكين إنه خير ، إن السلطان قد أمر بالقيام بأمر أخرى . وعندما طلع النهار عزمنا على الذهاب إلى القلعة للخدمة فقال رجال بكتكين : لا تذهبوا اليوم فإن هناك أمرا واجبا مع الأمير ، فقد وصل أمر يعود بالخير والبركة ينبغى إنجازه وسوف تذهبون بعد هذا كعادتكم . فاضطربنا لذلك كثيرا . وعدنا وقد امتلأت قلوبنا غما . فقلق الأمير محمد بعد يومين من هذا فقال للسكرتير : ينبغى أن تسأل الحاجب عما دعى إلى ألا يحضر لدى أحد . فأرسل السكرتير رجالا يسأل . فأرسل الحاجب كتبخده ، ليقول له : وصل من هراة مجمر برسالة من السلطان تتضمن الخير والإحسان للأمير ، وسوف يأتى معتمد من هراة إلى الأمير ببعض المشافهات الهامة ولعله يصل اليوم ، ذكرت ذلك حتى لا يقلق الخاطر فليس ثمة سوى الخير والحسن . فقال الأمير رضى الله عنه « حسن جدا » . وهذا قليلا ولكن لا كما ينبغى .

وعند صلاة الظهر وفد المعتمد واسمه أحمد طشتدار^(٢) ، وكان من خاصة المقربين للسلطان مسعود ، فأرسله الحاجب بكتكين إلى القلعة فى الحال ، فمكث عند الأمير حتى صلاة المغرب ثم عاد ، وظهر بعد ذلك أن الرسول كان قد كلف بإبلاغ أوامر خاصة إلى الأمير من قبل السلطان مسعود يقول فيها : إتنا قد أقررنا صحة ما قد حصل حتى الآن . وسنصدر أوامرا بما ينبغى فى كل شأن . فعلى أخينا الأمير أن يطمئن خاطرا

(١) جز الإنسان والبعر وغيره يجمر جمزى وهو عدو ... وبجير جماز وناقة جمازة. والجماز اسم فارس هو أكرم خيول العرب . والمقصود بها هنا السعاة المسرعون . (الفاموس)
 (٢) طشت دار ومعناه الموكل بالمطشت

والأيسى الظن بشيء ، فإننا سنمكث هذا الشتاء في بلخ وعندما نأتي في الربيع إلى غزنة ، ندبر شأن استدعاء الأخ ، أما الآن فيجب أن تسلم القوائم الخاصة بالأموال التي أرسلت من الخزائن مع كتبخده إلى جوزجان لهذا المعتمد ، كما ينبغي أن تسلم كل ما أخذوه من الخزائن بأمره من الذهب والملابس والجواهر ٧٣ وكل ما أودع في أي مكان وما معه من سراي الحرم بحملته إلى الحاجب بكتكين ، حتى يرد إلى الخزانة ، وأن يعطى المعتمد نسخا من جميع القوائم التي سلمت إلى الحاجب بكتكين للاطلاع عليها . فأعطى الأمير رضى الله عنه القوائم للحاجب وسلم كل ما كان معه وما عند الحريم أيضا ، وقد استغرقت هذه الأعمال يومين تماما لم يؤذن لأحد فيهما بالاتصال بالأمير .

وفي اليوم الثالث ركب الحاجب وسار إلى أقرب موضع من القاعة ، مصطحبا معه فيلا عليه مهد ، وأبلغ أن الأمر يقضى بحمل الأمير إلى قلعة منديش حيث تكون أكثر راحة ، ولن يأتي الحاجب وجنده المقيمون حول القاعة ، لأنه مكلف بالسير مع جماعته لمهمة أخرى . فلما عرف الأمير جلال الدولة محمد ذلك اتضح له حقيقة الحال فاستعبر وبكى لأنه تأكد من أنه مرغى على الرحيل أراد أو لم يرد . وأنزل من القلعة وحده فارتفعت أصوات نساءه بالبكاء والعويل ، وبعد نزوله صاح الأمير في أحد حراسه أن اسأل الحاجب أهو مكلف بالرحيل وحده . فأجاب الحاجب : لا ، بل إن القوم جميعهم سيكونون معك وكذلك الأولاد كلهم يعدون للسفر ، إذ ليس من اللائق أن يسافروا الآن بصحبتك . وسأكون هنا لأبعث بهم مرتاحين هائنين في أثره ، وسيكونون سالمين عنده حين صلاة العصر .

فسار الأمير في حراسة ثلثائة فارس وثلثائة راجل مدججين بالسلاح ومعهم كوتوال قلعة كوهتيز ، وأركبوا النساء الهوادج وأركبوا الحاشية والخدم

البغال والحخير ، ولم يراعوا حرمة الأمير في تفتيش رحله عند سفره ، وهذا ما سبب لوم الناس وإستياءهم ، لأنه مهما يكن من شيء كان ابن محمود . وعندما سمع السلطان مسعود بذلك لام بكتكين ولكن بعد فوات الأوان .

ولنعم ما قال أسناذ الكلام ليثي الشاعر في هذا الباب : ٧٤

سارت القافلة من الرى إلى دسكرة

فصادفت ماء وازدحم الخلق جميعا على القنطرة

فشاهدتهم جماعات اللصوص من بعيد ، فسارع كل منهم للنهب كالليث الكاسر فأنهبوا ما وقع في أيديهم وساروا ، ولم يبق هناك أحد ، فقد ذهبوا بذهب اللصوص ، فاتفق أن مر عابر سبيل فوجد مالا غفل عن أخذه اللصوص فاغتشمه وكان كل جوابه « نهبت قافلة فسعدت جماعة » .

وصل الجماعة عند صلاة العصر إلى حيث نزل الأمير محمد فشكر الله على ذلك ، إذ وجدهم جميعا ولم يأبه بربح أو خسران ^(١) ، كما وصل الحاجب هنالك أيضا ونزل بعيدا عنه ، وأمر أن يسيروا بأحمد أرسلان مكبلا إلى غزنة ليرسله المقدم أبو على الكوتوال إلى مولتان حيث يبقى معتقلا . وأبلغوا سائر الخدم كالندماء والمطربين أن يذهب كل لشأنه ، إذ لم يؤذن لأحد منهم أن يكون معه .

قال عبد الرحمن القوّال فانفرط عقد الجمع في اليوم التالي ، وسرت أنا وصديقي الناصري البغوى ^(٢) متنكرين معه ، لأننا لم نستطيع صبرا على فراقه ،

(١) النص الفارسي بقول حديث سوزيان . وفسرها غنى - فياض « يعنى سود وزيان ، يعنى حساب نفع وضرر . حاشية ٦١ . وانظر تعليقات نفيسى ص ١١٥٥ (المجلد الثالث) .

(٢) في النص وناصرى وبغوى . قال نفيسى (ص ٧٦ حاشية ٢) والاسم لرجل واحد هو الناصري البغوى . وأحال إلى تعليقاته في آخر طبعة ، ولكنه لم يذكر شيئا عن صفحة ٧٦ في المجلد الثالث . وانظر حاشية ٨ غنى - فياض .

فقلت : إن الوفاء يدعوننا لأن نذهب معه إلى القلعة ثم نعود راجعين بعد وصوله إليهما ، وعندما ارتحلوا من جنكل آباد ^(١) وبلغوا كورة والشت ^(٢) ٧٥ ظهرت معالم قلعة منديش من بعيد على يسار الطريق فحثوا السير نحوها ، وظللت أنا وهذا الرجل الحر نسير مع الراكب حتى بلغنا القلعة فوجدناها حصنا منيعا على غاية من الضخامة والارتفاع ، وقد علق عليها سلم لا تحصى درجاته كثرة ، فترجل الأمير محمد وكان مقيدا ورأيته مرتديا قباء من ديباج أحمر وعلى رأسه قلنسوة وفي قدميه خف بسيط . فشاهدناه دون أن نستطيع خدمة أو إشارة ثم أجهشنا بالبكاء أنا والناصري البغوي وانهمرت دموعنا تجري جريان دجلة والفرات ، وكان هناك أحد ندماء ذلك الملك يقرض الشعر وينشده جيدا ، فبكي وقال أعلى البديهة :

« ماذا أدهاك أيها المليك حتى أصبح قبصك عدواً لك وصارت محتك
كبر المحن ، وأمسى نصيبك من ملك أليك قلعة منديش »

فرأيته يرتقي السلم بجهد وقد أخذ رجلان شديدان بساعديه ، وكلما ارتقى درجات يجلس ليستريح ثم يأخذ في الصعود . وعندما ارتقى عالياً السلم وجلس ليستريح مرة أخرى كانت العين ما تزال تستطيع رؤياه . وظهر جمّاز من بعيد في الطريق ولحظه الأمير محمد فتوقف عن الصعود ، ومكث ليسأل عن مجيء الجمّاز . وأرسل شخصاً من لدنه إلى بكتكين الحاجب . ووصل المجمر برسالة بخط السلطان مسعود إلى أخيه ، فأرسلها الحاجب بكتكتين فوراً إلى أعلى ، بينما كان

(١) هنا وفي نسخ أخرى جنكل اياز ، ويقال إنه خطأ والصحيح ما ذكرنا في الترجمة العربية .
غنى - فياض حاشية ٩ .

(٢) في النص كور والراجح أنها كورة . ووالشت نذكر أحيانا بالس (حدود العالم) وهي ناحية في حدود إقليم داور ورخذ وغور ، ووالشت قسمان عليا وسفلى ومجموعهما يسمى والشتان .
غنى - فياض حاشية ١٠ .

الأمير جالسا على تلك الدرجة من السلم ، فشاهدته وقد سجد بعد الفراغ من قراءتها ، ثم أعاد الكرة آخذا في الصعود إلى أن بلغ أعلى القلعة فغاب عن الأنظار. وأوصلوا القوم جميعهم ، مع نفر من رجال الخدم حسبما يقضى الأمر. وأنا الفضولي عبد الرحمن ، كما تقول عجائز نيسابور ، « أماتت الأم والدين درهمان » ، قد أدركت الرجلين الذين ٧٦ كانا يأخذان بساعدي الأمير وسألتهما « لماذا كانت سجدة الأمير تلك » فأجابا مالك ولهذا ألم تقرأ ما قاله الشاعر :

أيعود أيتها الخيام زماننا أم لا سبيل إليه بعد ذهابه
قلت : حقا إن هذا القول شديد ، ولكني تريثت لأعرف سرا آخر وأسير.
فقالا « كانت رسالة له بخط السلطان تقول : « إنا أمرنا باعتقال الحاجب علي قريب جزاء على إقدامه على اعتقال الأمير لكي لا يجرؤ فيما بعد خادما على الإساءة إلى مولاه ، وأردنا أن نطلع على ذلك أخانا الأمير لأننا نعلم أن هذا سيبعث في نفسه سرورا عظيما » . فسجد الأمير محمد وقال « رضيت الآن بما جرى على اليوم بعد ما عرفت أن ذلك اللثم لقي جزاءه وانتهت أيامه » . ثم ذهبت أنا وزميلي لشأننا .

وبعد مضي سبعة أعوام على تدوين هذا التاريخ ، سمعت يوم الأحد لأحد عشر خلون من رجب سنة خمس وخمسين وأربعمائة (١٠٦٣) حينما كنت أذكر حديث الملك محمد ، عبد الرحمن القوال يقول : « كان الأمير محمد يلح علي في أن أكرر هذا الصوت رغم أني أحفظ عدة أصوات نادرة وقل وندر مجلس أحضره ولا يكفني فيه بغنائه :

أما البيتان فهما :

وليس غدركم بدعا ولا عجبا^(١) لكن وفاءكم من أبدع البدع

(١) في النص بدع ولا عجب . وقد صححها غني - فياس ص ٧٦ خاشية ٢

ما الشأن في غدركم الشأن في طمعي وباعتدادي بقول الزور والخدع
على أن هذين البيتين مما يخاطب به العاشق معشوقه إلا أن العاقل البصير
إذا تأملهما يجدهما فألا جرى على لسان ذلك الملك رضى الله عنه ، إذ كان عمده
مليئا بالأحداث ٧٧ الجسم (١) على حين كان في غفلة عنها ، مع رفقته وحنانه
بالنسبة للجيش والرعية . وكأن هذا كان مغزى البيتين عنده والمقدر كأن
وما قضى الله عز وجل سيكون « نهينا الله عن نومة الغافلين بمنه » .

وسأذكر فيما بعد ما جرى لهذا الأمير المعتقل في مكانه . أما الحاجب
بكتكين فإنه بعد أن فرغ من تلك المهمة سار إلى غزنة بأمر من السلطان ،
كى يذهب منها إلى مدينة بلخ بصحبة والدته السلطان ونساء الحرم الآخرين
وعمته « الحرة اختلية » فباغوها حذرين .

وبعد أن تمت هذه المهام كلها في هراة قال السلطان « سعود لأسنادى أبى
نصر إن كل ما ينبغى القيام به من الأمور قد تم وسنرحل في غضون هذا
الأسبوع إلى بلخ لنقضى الشتاء هناك وننظر فيما يجب العمل به مع خانات
تركستان ، وندرس شئون تلك البلاد ويصل الخواجة أحمد حسن عند ذلك
فيتعهد شئون الوزارة ، ومن ثم نسير إلى غزنة . فأجاب أبو نصر : إن كل
ما يراه مولانا لازم وهو عين الصواب . فقال السلطان : يجب أن نرسل كتابا
إلى أمير المؤمنين يتضمن كل ما جرى من الأحوال ، حسب الرسم ، ليعلم أن
كل هذه الأمور قد تمت دون أن يراق دم . فقال أبو نصر : نعم هذا من
الواجبات ، ويجب أن يكتب أيضا إلى قدير خان ، ويمضى بهذه البشرى ركابدارى
(فارس) ويبلغها بأسرع وقت ، وبعد أن يصل الركاب العالى بالسعد والإقبال
إلى بلخ نقوم بتدبير إيفاء رسول من العظماء للتوسط في أمر العقد والعهد .

(١) في حاشية بب - خير خيراها يعنى الظلمة والسكورة .

فقال الساطان نعم يجب الإسراع في ذلك فإن رحيلنا إلى بلخ بات قريبا ، حتى يرسل هذان الكتابان قبل رحيلنا من هراة . وكتب أستاذي الرسالتين على أباغ ما يكون ، إحداهما بالعربية إلى الخليفة والأخرى بالفارسية إلى قَدَرخان . وقد ضاعت النسختان كما بينت ذلك في عدة مواضع . ومن الغريب أنهم كانوا قد أتوا بنفر من العراق من أمثال أبي القاسم حريش وغيره لينافسوا بهم ٧٨ أستاذي ويفضلوهم عليه . والحق يقال إنهم كانوا يجيدون قرض الشعر والكتابة إلا أن الأسلوب الذي يجب في الكتابة من ملك إلى ملك شيء آخر . وكل من يأخذ في كتابة هذه الرسائل يستطيع أن يسبر غورها ، فإن أستاذي فضلا عما كان عليه من عقل وعلم ، كان ممن تثقفوا على يد الساطان محمود تثقيفا وعد في ذلك نسيج وحده : أما هؤلاء فقد كتب كل واحد منهم نسخة ، حسداً منهم لأستاذي ؛ ولكنني أستحي من أن أبين ما كانت عليه . وقد تبين ذلك للساطان مسعود ، وبعد أن وصل الأستاذ الرئيس أحمد ازداد يقينا بهذه الحقيقة فذهبت ربحهم . وقد نسخت منها صورة ، كما فعات في مواطن أخرى ، وأدرجتها في هذا التاريخ ومن جعلتها الرسالة الخاصة بأمير المؤمنين وسأذكرها فيما بعد للاطلاع عليها إن شاء الله عز وجل .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الصدر والدعاء . يعلم الخان أن العظماء وملوك الدهر عند ما يتصادقون وتتوثق بينهم صلوات المودة ، تقوى بينهم رابطة الإخاء والوفاق ، ويعامل بعضهم بعضا بالود ، ويبلغ لطف تلك الأحوال بينهم إلى درجة تجعلهم

يقابلون^(١) بعضهم البعض مقابلات أخوية ، ويقومون فيها بشروط المماثلة^(٢) ، ويتعهدون — في آداب لا حد لها — بتنفيذ المواثيق والعقود التي أبرموها ، حتى يتقوى بين الأسرتين أواصر القربى وتزول عنهما جميع بواعث الغربة ، وهم يفعلون كل ذلك حتى إذا ما لبوا نداء الله وارتحلوا إلى الدار الآخرة وتركوا سرير الملك يكون أبنائهم المستحقون للملك من يخلفونهم ناعمى البال في أيامهم ، ولا يتسنى لأعدائهم أن ينتهزوا فرصة أو بقصدوا شيئاً أو يبلغوا مراداً .

وغير خاف على الخان كيف كانت سيرة والدنا السلطان الماضى ، فقد بلغت أبعد حد فيما ينبغى للملوك العظام ، إذ أن الحشمة والكمال والعظمة والجلال التي كان يزدان بها ٧٩ والدنا معروفة لا تحتاج إلى بيان ، كما أنه يعلم ما تحمله العاهلان الراحلان^(٣) من المتاعب الكثيرة حتى تمت مثل تلك الألفة والتوافق والصداقة والمشاركة وكيف تمت مقابلاتهما على باب سمرقند في ودّ وصفاء مما عرفه الداني والقاضي والعدو والصديق ، وسيخلد التاريخ كل ذلك ومن المؤكد أن القصد من كل تلك المتاعب التي احتملوها هو أن يسعد أبنائهم بهذه الألفة فيجوزوا ثمار تلك البذور التي زرعها آباؤهم . فاليوم وقد صار إلينا الملك ، وتم على يدنا ما لا يخفى على الجانبين ، فإن العقل يدعونا والتجارب تقتضينا أن نبذل الجهد حتى تصبح تلك الصداقة الأكيدة في الود أكثر رفعة مما كانت ، حتى تطيب بذلك نفوس الأصدقاء من الجانبين وتنتهى حباة الحاسدين والأعداء ، وتموت بها في عمى وخذلان ، ويتحقق للعالم أن

(١) يشير إلى المقابلة الودية التي تمت بين السلطان محمود وقد رحان على باب سمرقند ، وقد وصف السكردبزي في كتابه هذه المقابلة (زين الاخبار طبع طهران من ٦٥) غنى — فياض حاشية (٣)

(٢) يقصد بالمماثلة المشاركة في الحبز والمصالح .

(٣) يقصد ما كان بين السلطان محمود وطغان خان أخى قد رحان الذي كان مكا على التركستان

على أخيه ، غنى — فياض حاشية ١ .

الأسرتين كانتا واحدة وأنهما اليوم أحسن ودًا مما كانتا عليه . ونرجو التوفيق
الأصاح من الله تعالى في هذا الباب لأنه الموفق لعباده » وذلك بيده
والخير كله .

ولعل الختان أدام الله عزه قد عرف أننا عند وفاة والدنا كنا بعيدين عن
حاضرة الملك ، وقد استولينا على أراض فسيحة من العالم تبعد ستمائة فرسخ
أو سبعمائة . وكانت أماننا ولايات عظيمة تملأ أهلها أن تسمى بلادهم باسمنا
وتزدان بحكمنا ، وهم يدعون الله ليكونوا من رعايانا ، وأن أمير المؤمنين أعزنا
كثيرا بتأييده وولانا بالمكاتبة حتى نسارع فنذهب إلى مدينة السلام لنظهر
مركز الخلافة من فرقة الأذئاب^(١) ونزيل عنها هذا الإثم .

وكنا قد عقدنا النية على القيام بما يشير إليه الأمر العالى لكي نسعد بشرف
لفاء ٨٠ أمير المؤمنين ، بيد أنه بلغنا أن والدنا قد انتقل إلى جوار ربه ، وأن
الموالى والحشم قد انتهزوا فرصة غيابنا واستقدموا أخانا من جوزجان وأجاسوه
على سرير الملك ، وسلبوا عليه بسلام الإمارة وقصدوا بذلك تهدئة الحال لأننا
كنا بعيدين .

إن والدنا مع ما كان عليه من العظمة والرفعة رغب عنا في أواخر أيام
حياته ، وأساء الظن بنا ، ولم تكن هذه الظاهرة خاصة به بل هي تظهر عادة في
أواخر أيام الملوك بالنسبة إلى ولاية العهد ، ليقينهم أن هؤلاء سيحلون محلهم ،
فبقينا في الرى . وكان معلوما أن تلك البلاد تنهى من جهة بالروم ، ومن جهة
أخرى إلى دهر طولا وعرضا ، وكلها تزدان بحكمنا ، ونفوض أمر بقية البلاد
من غزنة إلى الهند وما حولها إلى أخينا ، ليكون خليفتنا عليها ، ولا يبقى للغير

(١) يعصد اسرة الديالة . وكانت الأمير الديلى في بغداد في هذه السنة : جلال الدولة
أو طاهر بن بهاء الدولة . (أبو الفدا ، ج ٢ ص ١٥٦) . غنى - فياض حاشية ٥ .

طريق للدخول يديننا . فأرسلنا من قبلنا رسولا ليبلغ أخانا النعزينة بوفاة الوالد والتهنئة بالجلوس على سرير الملك ، وحمانا الرسول مشافهات فيها إصلاح ذات يديننا ، ولتستقر أحوال آلاف الألوف من الناس الذين يعيشون في خراسان والعراق ، وقد صرحنا بأن أماننا بلادا مترامية الأطراف يجب الاستيلاء عليها وضبطها بأمر من أمير المؤمنين ، فينبغي الوفاق والتساند بين الأخوين ، وإزالة كل أسباب الفرقة والخلاف ، لكي يتم على أيدينا ما هو جدير بصلاح العالم . إلا أنه يشترط أن يرسل إلينا من مخازن الحرب خمسة آلاف من الإبل محملة بالأسلحة والمعدات الكاملة ، وعشرين ألفا من خيل الركوب مع ألفي غلام تركي ، وذلك بأسرع وقت مجهزين بكامل العدة ، ومعها خمسمائة من الفيلة المختارة الخفيفة الحركة ، وأن يعتبر الأخ نفسه خليفتنا ، فيذكر اسمنا في الخطبة أولا ويكون اسمه من بعدنا ، وكذلك الحال في النقود والأعلام وطرز الألبسة فينقش ٨١ عليها اسمنا أولا ومن بعده اسمه ، وأن يتم اختبار القضاة وأصحاب البريد الذين يهون الأخبار من جانبنا ، حتى تصدر ما ينبغي لصالح الإسلام من الأوامر اللازمة ، فنبادر إلى العراق وغزو الروم ؛ ويكون في حوزته الهند وغزنة ، حتى تؤدي ما علينا من فرائض لسنة نبينا صلوات الله عليه ، ونحافظ بذلك على سيرة آبائنا أيضا ، ونبقى مثلا صالحا يحتذيه أعقابنا ، كما صرحنا بأننا سنضطر إلى إهمال ما في أيدينا من البلاد وتركه والسير إليكم إذ ما تبين أنكم تقضون الأوقات في التسويف وأنكم لستم مستعدين للقيام بما طلبنا العمل بموجبه ، فنتجه إلى قاعدة الملك لأنها الأصل أما الباقي ففرع ، فإذا ثبت وجود الأصل تيسر لنا الاحتفاظ بالفرع كذلك . وأي خلاف يحدث يديننا والعياذ بالله سيؤدي إلى إراقة الدماء يقع وزره على مسببه ويعود عليه . وإنا لكوننا ولي عهد الوالد ونراعى هذه المجاملة سوف يعرف العالم أننا قد أدينا حق الانصاف تماما .

« ولكن بعد أن وصل رسولنا إلى غزنة وجد أخانا مأخوذا بعزة الملك

وأبهة السلطان ، ماداً يده إلى الخزائن يبدد ما فيها ، صارفاً ليله ونهاره في اللهو والشراب ، كما أن الذين استولوا عليه^(١) لم يرغبوا في استقرار الملك لمستحقه ، كيلا يعاملهم بما يستحقون فحملوا أخانا على أن يرد رسولنا ، وسيروا معه رسولاً بتضليلات وتقوليات : « بأنه وليّ للعهد وأن أبانا قد عهد إليك بملك الرى ليقصر كل منا على ما في حوزته بعد وفاة أيّنا ؛ ولو أن أخانا يقنع بما في يده^(٢) من البلاد فسنرسل له ما يطلب منا من الغلمان والفيلة والخيل والجمال والسلاح ، بشرط ألا يسير إلى خراسان ولا يحدث نفسه بأننا خليفة له . وأن لا يكون اختيار القضاة وأصحاب البريد بيده » .

« فلما وجدنا إجابته على هذا النحو تأكد لنا أنه ليس بمنصف^(٣) ، ولا يتبع الطريق السوى ، ٨٢ فسرنا في نفس اليوم من إصفهان ، في حين أننا كنا عازمين على الرحيل إلى همدان وحلوان وبغداد .

أما الحاجب غازى فقد أعان أمرنا في نيسابور وغير الخطبة ، فدخل في طاعتنا الرعية والأعيان من تلك النواحي . وجهز جيشاً كبيراً مزوداً بكامل العدة والسلاح . ثم أطلعنا أمير المؤمنين على عزمنا وطلبنا منه أن يرسل إلينا عهد خراسان وجملة مملكة أيّنا مع كل ما فتحناه من الرى والجبال وإصفهان وكل ما نوفق إلى فتحه بعد ذلك . ومع كوننا على الحق فقد طلبنا ذلك ليكون عمانا مطابقاً لما يأمر به الشرع .

وبعد أن بلغنا نيسابور بلغها رسول الخليفة يحمل إلينا العهد واللواء والنعوت والكرامات التي لم يكن لملك عهد بأمثالها . ومن المصادفات النادرة

(١) التعبير الفارسي : دت بررك وى مهاده بوردند بمعنى التسلط . ونظيره ما يقال اليوم : رك جواب كسى را پیدا كردن . غنى - فياض حاشية ٣

(٢) استخدم النص كلمة « نهاده » بقصد الاقرار والمواضعة . غنى - فياض حاشية ٤

(٣) النص الفارسي : انصافب نخواستند بود . غنى - فياض حاشية ٤

أن وفد في تلك الأثناء المقدم على عبد الله وأبو النعم إياز ونوشنكين الخادم الخاص من غزنة ، يصحبهم جمع كبير من خاصة الخدم . كما وصات إلينا رسائل سرية من غزنة تقول إن زعيم الحجاب على بن إيل أرسلان والحاجب بكتغدي^(١) أمير الغلسان قد دخلوا في الطاعة ، كما كتب أبو على الكوتوال وجماعة المقدمين يبدون الطاعة والعبودية ، وأضاف الكوتوال أبو على أن أخانا لم يستطع القيام بأعباء الملك ، وما أن تصل راياتنا حتى يبادر الجميع إلى إظهار العبودية .

وقد أمرنا أن يكرموا وفادة هؤلاء الجماعة الذين جاءوا من غزنة ، وكتبوا لأعيان غزنة ردودا لطيفة . ثم رحلنا من نيسابور . وبعد إثني عشر يوماً من حلول العيد جاءت الرسائل من الحاجب على قريب وأعيان الجند الذين كانوا في تسكيننا باد مع أخينا ، تفيد بأنهم اعتقلوه بقلعة كوهينز حينما بلغهم خبر مسيرنا من نيسابور .

وقد وصل منكيتراك أخو الحاجب على والفقير أبو بكر الحصيري إلى هراة وشرحا لنا كل الأحوال تماماً ، واستطلعا رأينا ليعملوا حسبما نصدر إليهم من الأوامر .

فأصدرنا الجواب وأملنا عليا وجميع الأعيان وكافة الجند ، وأمرنا أن يحافظوا على أخينا في القلعة على سبيل الاحتياط ، وأن يحضر على وكافة الجند إلى الحضرة .

ثم وصلت الأفواج تباعا إلى هراة ، وتوحد الجيشان وهدأت أحوال الرعية والجيش ، واستقرت على طاعتنا والعبودية لنا ، وسارت الرسائل إلى

(١) يضم الاء مكون من بك بمعنى كبير ، نهدى بمعنى ابن وذلك في التركية : غنى - فياض

الرى وإصقان وجميع أنحاء البلاد بما ٨٣ تم فى ذلك الوقت ، حتى يتأكد للجميع من قريب وبعيد أن الأمور استحالـت إلى وجه واحد قولا وعملا ، وزالت أسباب الفتن والخصومات ، كما أوفد رسول إلى حضرة الخلافة وكتب رسائل فى معنى هذه الأحوال ، واتمست الأوامر العالية فى كل باب . كما أبلغنا ابن كوكو وغيره من قواد الرى والجبال حتى عقبـة حلوان بكل ذلك ، وصرحنا بأننا عازمون فى التو على إيفاد قائد كبير يضبط ما استولينا عليه من البلاد ويفتح غيرها ، حتى لا تحدثهم أحلامهم بأننا سنهمل أمر تلك الديار .

وقد حضر لدينا الحاجب الفاضل العم آلتون تاش خوارزمشاه ، ذلك الناصح الذى لم يستمع القوم فى غزاة إلى نصحه الصادق إبان غيبتنا ، وقد أعيد ، وسوف يصل مصحوبا بالتجلة والاحترام كما تقتضيه أحواله ومنزلته وصدقه . وسنرحل فى غضون هذا الأسبوع . فإن جميع الأحوال قد استقرت ، وأذعن لطاعتنا العالم ، وقد أرسلت رسالة سلطانية ليأتى إلى بلخ الخواجة الفاضل أبو القاسم أحمد بن الحسن الذى كان معتقلا بقلعة جنكـى^(١) مصحوبا بالعناية والعطف البالغ ، وتقطع عنه يد المحنة وتزدان دولتنا بحسن تدبيره وصائب رأيه .

كما أمرنا أن يحضر أريارق الحاجب قائد الهند إلى بلخ . ثم وصلت إلينا رسالة أبى الكوتوال من غزاة تفيد بأنه قد سلم معتمدينا جميع الخزائن من دينار ودرهم وشتى أصناف النعم والألبسة والأساحة ، ولم يبق شىء من أسباب الخلاف التى تقاق البال والحمد لله ، واستقرت الأحوال على أحسن ما يرام .

وحيث أن الأمور تمت على هذا المنوال آثرنا أن نبشر الخان ليطلع على

(١) سبق هذا الاسم فى ص ٦٤ على أنه حارس القلعة التى اعتقل بها أحمد حسن ، وهنا نسبت إليه القلعة لأنه حارسها . والمقصود أن أحمد حسن كان معتقلا فى قلعة يهرسه بها جكي . وانظر غنى - فياض حاشية ٤ .

كل ماجرى وينال نصيبه من السرور ، وليقوم بإذاعتها وإعلانها إلى كل من حوله في تلك البلاد فيعرفها القاصي والداني . وليدرك أن مايسرنا يسركم ، لأن أسرتينا أسيرة واحدة ، وقد عين على أثر ذلك أبو القاسم الحصيري ، وهو من ٨٤ جملة ثقاتنا وأبو طاهر النباتي^(١) من أعيان القضاة لحل الرسالة ، ليأتيا إلى تلك الديار الكريمة حرسها الله لتجديد العهد . ونحن الآن في انتظار جواب هذه الرسالة بأسرع ما يمكن ، حتى نرتدى لباس الحبور بتجديد البشائر عن سلامة الأمور وسيرها على ما يرام ، فإن ذلك من أكبر المواهب عاليا بمشيئة الله عز وجل وبإذنه ،

* * *

وقد أرسلت هذه الرسالة مع فارس إلى قدرخان إذ ما يزال على قيد الحياة ، وقد توفي بعد عامين . كما أنه أرسل كتابا آخر بهذا المعنى مع فقيه شه^(٢) رسول إلى الخليفة رضى الله عنه . ثم ارتحل السلطان من هراة إلى بلخ عن طريق بادغيس^(٣) وكنج روستاق وبصحبتة كافة الجيوش بأبهة فائقة . وكان ذلك في يوم الإثنين الخامس عشر من شهر ذى القعدة من تلك السنة وكان في معيته خوارزمشاه آلتونتاش خائفا وجلا يفكر في مصيره . وقد تحدث أبو الحسن العقيلي غير مرة بشأنه مع السلطان فكان يذكره بالخير والحسن . ويبدى ارتياحه نحوه ويقول ينبغي أن يسير إلى خوارزم كي لا يحدث شيء . فأطلع أبو الحسن آلتونتاش على نوايا السلطان الطيبة ، وفضلا عن ذلك فإن أبا نصر مشكان أخبر كاتب آلتونتاش بما سمعه فسكن بذلك روع سيده .

(١) في حاشية ب : نقرأ كلمة باني بصم التاء وتخفيف الباء وهى نسبة إلى بلد في ماوراء النهر . ولكن السمعاني يقول إنها بفتح التاء وتشديد الباء ، بمعنى بائع التبغ . غنى - فياض حاشية ١ .
(٢) جون نيم رسول .

(٣) بلدة من أعمال هراة ، ولم تزل معروفة بهذا الاسم ويقول ياقوت إن اسمها مغرب باد خيز ومعناه قيام الريح ، لكثرة الرياح بها . غنى - فياض حاشية ٢ .

وسمعت من الخواجة أبي نصر أنه رغم أن أحوال التونتاش كانت على هذا المنوال ، وقد رضى عنه السلطان كل الرضا لتلك النصائح التي أسداها إليه ، فإنه اليوم وقد سمع باتساق الأمور سارع بالحضور إلى هراة ، وجاء بكثير من الهدايا والأموال ، ولكنهم كانوا قد عملوا على الإيقاع به . واختلى السلطان مع خاصته في الطريق وظهر منه شيء في هذا المعنى ، ولكننا نصحبناه كثيرا وقلنا : « إنه عبد مطيع ، وله أبناء وعبيد وخدم وأتباع وأموال كثيرون ، ولم تصدر منه زلة توجب القلق ، وخوارزم ثغر الأتراك ٨٥ وقد ظل مصونا^(١) . فأجاب السلطان : « نعم إنه كذلك وهو كما يقولون وإنا راضون عنه وأمرنا بعقاب من ذكره بالمحال ، وليس لشخص جرأة بعد هذا على أن يتكلم في حقه إلا بالحسنى . » وأمر السلطان أن يخلع عليه حتى يسر . واستدعى أبا الحسن العقيلي وحمله مشافهات لطيفة إلى التونتاش ، وقال له : « كنا قد عزمنا أن يكون بصحبتنا إلى بلخ وأن نمنحه الخلعة ونأذن له في الذهاب إلى خوارزم ، لكنني خشيت أن يتأخر هنالك ، وأخشى أن يقع خلل في تلك الديار ، وفضلا عن ذلك فإن طريق فارياب^(٢) إلى آندخوذ^(٣) قصير . فينبغي أن يأخذ أهبطه ليسير من فارياب . »

وبعد أن سمع التونتاش ذلك قام وقبّل الأرض وقال : « وددت لو أعتزل الجندية لأبقى في غزنة بجوار ضريح السلطان الماضي ، وقد بلغت من الكبر عتيا ، ولكن الأمر العالي مطاع وسأمتثل ما أمرني به مولاي . » وفي اليوم التالي ، حين وصل ركب السلطان إلى فارياب أمر بإحضار الخلعة التي كانت

(١) في هذه الجملة الأسيرة اختلاف بين النسخ ، ولم ترد في نسختي بب ، مع : ورجع قننى - فياض أنها روى بسبب است . بمعنى مصون . غنى - فياض حاشية ١ .

(٢) فارياب ، من أعمال جوزجان وبعد عن بلخ ستة مازل ، ومن المعلوم أن هذه البلدة ليست فارياب تركستان . غنى فياض - حاشية ٢ وقد رجعا إلى حاشية يب .

(٣) مدينة بين بلخ ومرو .

قد أعدت له وكانت فاخرة جدا وأعظم مما كان على عهد السلطان محمود ،
فخلعت عليه ثم تقدم وأبدى فروض الطاعة والعبودية ، فاحتضنه السلطان
وأبدى نحوه عطفًا بالغًا وعاد موفور الكرامة ، وسار إليه جميع الأعيان
وكبراء الحضرة وقدروا حقه كثيرا ثم أذن له بالسفر في اليوم التالي .

وقد أرسل التوتشاش كاتبه أبا منصور سرا إلى أنا ، أي أبي نصر ، في
الليل ، وكان هذا الرجل من أخص ثقاته يقول « أذن لي بالذهاب إلى
خوارزم ، وفي الليلة القادمة حين ٨٦ يعرف أني مسافر أكون قد غادرت
وابتعدت ، فلم تبقى ثمة حاجة لي أن أسألك عن شيء بعد هذا . لأنني أرى القاعدة
في اعوجاج . ولا غرو فإن السلطان كبير كريم وهو رجل عظيم ولكن الذين
أحاطوا به يعد كل واحد منهم نفسه وزيرا ، وهو يسمع لهم ويعمل بقولهم
فيزينون له الباطل ويصدونه عن الحق . فسيهدمون بدسائسهم هذا الصرح
المشيد ، إني ذاهب ولا أدري ما سيكون عليه حالكم ، فليس هنا ما يدل على
الخير أبدا . وأنت يا أبا نصر ينبغي أن تفكر بشأني كما فعلت حتى الآن ، مع أنه
من الممكن ألا تبقى أنت أيضا في عمالك ، لأن الأوضاع التي سادت من قبل قد
انقلبت رأسا على عقب . ولكني لا أخبرك الآن بشيء » .

فقلت نعم هو كذلك . لكنني بقيت مشتت البال أكثر مما كنت رغم علمي
بالعواقب أكثر منه .

وبعد انقضاء رده من الليل ركب التوتشاش مع خاصته وذهب ، وأمرهم
بأن لا تضرب الطبول والأبواق لكي لا يطلع على ذلك أحد . واتفق أنهم
أغروا السلطان على الإيقاع بالتوتشاش في تلك الليلة نفسها بحجة ألا تفوته هذه
الفرصة السانحة ، ولسكنهم عرفوا رحلته حين كان قد ابتعد عنهم مسافة اثني
عشر فرسخا أو عشرة فراسخ نحو بلاده . فأرسلوا في أثره عبدوش وقالوا
بقيت بعض الأمور التي لم تشافه بها ، وبعض المنح لم تشرف بها ، وكنا قد

أذنا لك بالذهاب ، فذهبت وتأخرت تلك المهام . ولكنهم بقوا مترددين لا يعرفون إن كان التونتاش سيعود أم لا يعود .

وعندما اتصل به عبدوس أجاب « إني قد أمرت بالرحيل ونفذت الأمر العالى ، ومن العيب أن أعود . فمن الممكن إبلاغ هذه الأوامر الباقية كتابة . وفضلا عن ذلك فقد وصلت إلى رسالة من أحمد عبد الصمد يقول فيها ، إن قبائل بكات وجفراق وخفجاق^(١) بدءوا يتحركون فأخشى أن يحدث لطول غيابي فتنة هنالك ، وسخا في إكرام عبدوس حتى يرعى حقه^(٢) ويظهر معاذيره . وركب التونتاش لساعته وصحب عبدوس لمسافة فرسخين متظاهرا بأنه يريد الكلام معه في بعض المهام ثم أسر إليه ببعض الكلام وأعاده .

وبعد ما عاد عبدوس إلى المعسكر ، وذكر ما سمعه من التونتاش ، تحقق لديهم أن الرجل ٨٧ قد خشى العاقبة . ودار في ذلك اليوم بينهم كثير من التقولات ، وقالوا إن العقيلي الذى كان وسيطا في المشافيات لالتونتاش قد ارتكب خيانات وتحيز له ، وقالوا إن جماعة المحموديين لن يدعوا مجالا للسلطان حتى يحصل على مراده ، أو يجنى مالا ، وكأنهم جميعا يتكلمون بلسان واحد ، أى أن كل ما يجرى على لسان أحدهم يجرى على ألسنة الآخرين . فصرخ السلطان فى وجههم وحقرهم ثم دعانى واختلى بى وقال يظهر أن التونتاش قد استولت عليه الوحشة وذهب خائفا . فقلت « أطل الله حياة السلطان ولاى سبب ؟ فإنه من الرجال المجريين وله خبرة بكل شئ » ، وفضلا عن ذلك فقد نال إنعاماتكم السنية فلم يبق حينئذ سبب لاستيحاشه وخشيته وقد شكركم كثيرا أمام عبديكم^(٣) . فقال :

(١) ثلاث قبائل من الترك . غنى — فياض حاشية ٢ عن تعليقات (رك) .

(٢) التعبير الفارسي « نوبت نيكو دارد » . غنى — فياض حاشية ٣ .

(٣) التعبير الفارسي « بابندكان » وقسرها غنى — فياض (نردما بندكان) . غنى — فياض

« نعم إنه كذلك نسمع أنه أساء الظن » . قلت وما السبب في ذلك ؟ فأخذ يقص أن هؤلاء الجماعة لن يدعوا الأمور تسير على مقتضاها ثم ذكر لي كل ما جرى . فقلت له « إن العبد ذكر كل هذا في هراة ، وتفضلتم بالقول بأن هؤلاء لن يستطيعوا ذلك ، والآن أرى وأسمع أن هؤلاء قدرة فائقة ، وقد تكلم معي التونتاش أثناء مسيرنا في الطريق وذكر لي بعض النقاط ، وبالرغم من أنه لم يشك من شيء إلا أنه كان يبدى أسفه على أحوال المملكة وشئون الدولة ويقول « إنها أصبحت لا تسير على مقتضى الحكمة والمصلحة » ، وكان يثنى على مولانا السلطان ويقول « إنه ملك عظيم النفس ^(١) لا نظير له ^(٢) وحليم ، وكريم ، ولكنه يصغى إلى قول هذا وذاك ، فصار لكل جرأة على الكلام فوق حده ، وهم لا يتركونه وشأنه ، لا يدعونه يعمل برأيه ، وإن يصدر عني ، أنا التونتاش ، أمر سوى الطاعة والعمودية ، وها أنذا ذاهب بأمر السلطان وأنا في غاية الهلع والخشية من أهل هذه الدولة العظيمة ، كما أني كباقي العبيد المخاضين لا أدري مآل هذه الأحوال » . هذا ما تكلم به معي ولا أظنه توهم سوءاً ، فهل سمع مولانا شيئاً آخر ؟ ثم إن السلطان قص عليّ كل ما بلغه من الحاشية بشأن التونتاش . فقلت له إني أنا العبد أبو نصر ضامن ٨٨ ألا يصدر عن التونتاش سوى الصدق والطاعة ،

فقال « ولو أن الأمر كذلك ، ولكن ينبغي استمالته ، فيجب أن تكتب رسالة أوقعها وأذيلها بفصل بخط يدي ، فإننا كنا قد بلغناه على لسان عبدوس بمشافهة تفيد أن لنا معه بعض المهام فأجاب بالنحو الذي سمعته ، فإذا لم نجبه بشيء فسيتبقي في وحشة ويظن بنا السوء .

(١) في ثلاث نسخ (نورك نفيس) وفي الرابعة برك ونفيس . والأغلب أنها نورك نفيس .

عنى — فياض حاشية ٣ .

(٢) التعبير الفارسي (نيست همنا) وهو صفة معناها (بي همنا) أي لا نظير له . واستخدمها

اليهقي أكثر من مرة . غنى — فياض حاشية ٤ .

قلتُ « فليأمر مولانا بما يراه جديراً بالكتابة إليه لأبادر به » . فقال
« أكتب له عن مصالح الملك ، وعمّا نحن بصدده من الأعمال وكل ما هو صواب
ويؤدي إلى ارتياح خاطره ، بحيث لا يبقى ما يسيء ظنه » فبادرت بالعمل وقلتُ
إنني فهمت كيف ينبغي أن أكتب الرسالة ولكن من الذي يختاره مولانا لحملها .
قال يجب أن يحملها نائبه بالبلاط ليذهب بها مع عبدوس . قلت سمعاً وطاعة ،
وحررت الرسالة على هذه الصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الصدر والدعاء ، إن للعم الفاضل الحاجب البونتش خوارزمشاه
في قلبنا منزلة تعادل تلك التي كانت لو الدنا السلطان الماضي ، ذلك لأنه قد
شمّلنا منذ طفولتنا إلى اليوم بعطف ورعاية تعادل عطف الآباء ورعايتهم
لأبنائهم ، وإنا لنذكر جميله حينما تشاور والدنا معه ومع أكابر الحضرة بشأن
من ينتخبه ولياً للعهد ، إذ رشّحنّا لتلك المرتبة وأيدنا وآزرنا حتى وافق الوالد
على رأيه ، وتقررت لنا ولاية العهد بحسن مؤازرته وتأييده . كما أننا لا ننسى
ذاك الموقف الذي وقفه عندما غير الكاشحون والأعداء قلب أيدنا علينا فأبعدنا
إلى مولتان ، وعزم على أن يغير رأيه الحسن فينا ، وأن يمنح خلعة ولاية العهد
للغير ، فلا ننسى كيف أن العم أخذ يترفق بالوالد وينلطف معه بشقي الحيل ،
حتى صرفه عن ذلك وأعادنا من مولتان ثم أوفدنا إلى هراة .

وعندما قصد الري كنا في معيته وتوجه الحاجب من جرجان إلى
جرجان^(١) ، ثم دار الحديث ٨٩ هنالك عدة مرات بشأننا نحن الإخوة عن

(١) قالت الدسخ الفارسية كلها (كرمان) ولاحظني - فباش انه خطأ لاشك فيه فإن البهقي
يدكر في كتابه في مناسبة أخرى أن هذه العصابة كانت في جرجان . وكنت التاريخ تقول إن
السلطان محمود ذهب من جرجان لاري وليس من كرماني . حاشية ١ . واطل أنيسى ص ٩١
حاشية ٣ .

تقسيم الولاية ، وأرسل إلينا سرا بأن « ليس اليوم مجال الكلام فينبغي الانقياد لكل ما يراه السلطان ويأمر به » ، فتقبلنا هذه النصيحة الأبوية وكانت نتيجتها ما ظهر اليوم . وحين توفي والدنا وجاءوا بأخينا إلى غزته ، كتب تلك الرسالة البليغة التي لا يكتبها سوى من كان قلبه قد جبل على الإخلاص والوفاء وتركهم وانحاز إلينا ، وقد أخبرونا بكل تلك الأحوال واتضحت لدينا .

فمن كان على هذه الدرجة يمكن معرفة مدى ما يكون عليه من الولد والإخلاص ، ونحن إذ شاهدنا منه هذا الوفاء والصدق ، يمكن معرفة مدى رأينا في الإحسان إليه وتمويض الولاية وتوسيع الملك له ورفع منزلته ، وترقية أنجاله وتلقيهم ورفع درجاتهم . وبعد بلوغنا هراة استدعينا لحضرتنا ، ليرى بعينه ثمرة إخلاصه ونتيجة وده ووفائه ، وقبل أن تصل إليه الرسالة كان قد تحرك وسار إلى الحضرة على أن يكون بصحبتنا في بلخ لنستضيء برأيه في مهام الملك المنعطة أمامنا ، كمكاتبه خانات تركستان ، وقطع العهود والمواثيق معهم أولا ، وإعادة جاركم على تكين الذي غلبه الغرور في هذه الفترات إلى الحد الذي كان عاياه ، ورعاية الموالى والحشم ، ومعاملة كل منهم على قدر منزلته ومرتبته ، وإبلاغهم إلى ما يأملون ؛ نعم كان هدفنا أن تجرى كل هذه الأحوال بحضرته ورأيه .

أما السبب الثاني لدعوته فهو لكي نعيده بأحسن وجه إلى بلده ؛ بيد أنه ، في خلال هذه الأحوال خشنا أن يحصل خلل من طول غيابه في خوارزم ، مع ما لها من الأهمية العظمى بين الثغور البعيدة ، فلذلك أوغزنا إليه بالسير إلى تلك الناحية ، ولعل الأعداء كانوا يتقولون أقاويل أخرى ، فأمرناه بالذهاب .

واتفق أن وصلت إليه ، كما قال عبدوس ، رسائل تفيد أن الانتهازين أخذوا يتحركون . وقد جاء أمر بالعودة ، فنعجل السير فوراً ، وجاء عبدوس بأمر

منا على أثره ، وشاهده وأبلغه غاية إكرامنا ، ويين أن هنالك مهمات أخرى ينبغي التحدث إليه عنها ، وأجيب : حيث أنه قد ذهب فلعلمه يكون من العيب طلبه للعودة ثانية ، والعمل والأمر الذي هنالك يمكن إنجازه برسالة .

فلما جاء عبدوس إلى الدرگاه وذكر ذلك ، وجدنا رأى الحاجب وجيها في هذا الباب ، ووجب علينا ما رآه ، نظراً لصحة لنا ولا شفاقة علينا وعلى الدولة ، فإنه حينما أدرك أنه سيحدث خلل بمن في ذلك الشجر ، كما كذب له ثقاته ، هرع حتى يصل سريعاً إلى عمله ، فإن هذه المهام التي ينبغي أن يؤخذ رأيها بالمشافهة فيها يمكن إتمامها بالمراسلة . ولكن شيئاً واحداً نخشاه ، ويسبب ضجرتنا ، ونرجو أن لا يكون^(١) ، هو أن حساد هذه الدولة الذين لا عمل لهم سوى بذل الجهد لفراره وهربه والذين يضيفون الوسوس والأكوام كالعقرب تلدغ ما يصادفها ، فهمهم بلوغ مأربهم^(٢) على أننا لا نعلم إن كان ما خالج ضميرنا حقاً أو باطلاً ، لكننا نرى لزماً أنه ينبغي الاهتمام بكل ما يؤدي إلى راحته واطمئنانه ، فأثرنا أن نأمر بهذه الرسالة ، وأكديها بتوقيعنا وفي آخرها فصل بخطنا . وصار الأمر لعبدوس ولأبي سعد المسعدي وكيل البلاط ومعتمده ، ليسارعا بحملها وتوصيلها إليه ، ويأتيا بالجواب حتى يعلم ذلك .

وهناك واجبنا سقوم بأدائهما بعد بلوغنا بلخ سالمين ، من قبيل المكاتبه مع خانات تركستان واستدعاء الخواجه الفاضل أبي القاسم أحمد بن الحسن أدام الله تأييده ، لتسند إليه الوزارة ، وكذلك مسألة الحاجب اسفتكين^(٣) الغازي الذي خدمنا تلك الخدمة العظيمة في ٩١ نيسابور فرفعناه جزاءً وفاقاً على حسن صنيعه إلى مرتبة السهمسالارية .

(١) كه نيايد بمعنى مبادا . حاشية ٢ .

(٢) خود رسیده باشند . حاشية ٣ .

(٣) تضاربت أقوال المؤرخين في اسم (اسفتكين) وقد وجع غنى - قياس س ٩٠ أن تكون اسفتكين . حاشية ٤ .

وعاينه (التونتاش) أن يستمع إلى تلك المعاني التي بلغناه إياها ويرد على ذلك كله رداً مستفيضاً لنقف عليه ، وليعلم أن في آرائه ، كما قال والدنا من قبل ، البركة والصواب . فينبغي أن يقوم هو أيضاً بما تتوقعه من إبداء رأيه الصائب ونظرة الناقد لأننا عازمون على العمل بما يراه ويشير به . »

وجاء في ذيل الرسالة عبارة بخط السلطان هي : « ليناً كد الحاجب الفاضل خوارزمشاه أدام الله عزه صحة هذا الخطاب وليطمئن قلبه وليعلم أنا نعطف عليه . والله المعين لقضاء حقوقه . »

* * *

وعاد الرسولان عبدوس وأبو سعد المسعدي بعد وصولنا إلى بلخ يحملان جواباً ينطوي على إظهار الطاعة ، وإبداء العبودية التامة ، والاعتذار عن الإسراع بالذهاب ، بعبارة بليغة جداً . واختلى السلطان بنا ، أنا وعبدوس ، وقال : نعم ما عملنا حتى أزلنا ما كان قد علق بخاطر التونتاش ، فإنهم كانوا قد أخافوه فتعجل بالذهاب ، فزالت وحشته واطمأن باله ومضى مسروراً .

وكان رده على الرسائل على هذا النحو :

« لا شك أن حديث خانات تركستان هو من الأهمية بمكان ، وسنتفاوض معكم بشأنه عند مجيئكم إلى بلخ بالسلامة والسعادة ، كما أن إيفاد الرسل لأمر العمود والعقود أمر لا بد منه ، إذ لا ينبغي ما تحمل السلطان الماضي من المشقة والنفقات حتى توطدت أقدام قدرخان في الحكم هنالك ، واستتب له الأمور في تلك الأنحاء ، فيجب أن تنمى اليوم هذه الصلات لتزداد بواسطتها تلك الألفة ، وهم ليسوا في الحقيقة أحياء ولكن مجاملتهم واجبة كيلا يركنوا إلى إلى الفساد . أما على تكين^(١) فإنه عدو لدود ، وهو كالشعبان الأبر ، لأن

(١) جاء في حاشية يب إن على إسكبن هذا هو أخو إيلك خان الذي اسمته مونه دولة آل سامان في تركستان . حاشية ٣ .

أخاه طغاخان حرم من حكومة بلاساغون^(١) بأمر من السلطان المايجى ،
ولإ يمكن أن يكون العدو صديقاً فى يوم من الأيام ، فىجب على أية حال أن
نعقد معه عهداً ولو بصورة شكلية ، ٩٢ فإذا أبرم العهد فىنبغى أن تحشد ثغور
بلخ وتخارستان وصغانيان وترمز^(٢) وقباديان^(٣) وختلان بالرجال والجند ،
فإن من عادته أن يهاجم كل ناحية يعرف أنها خالية من معدات الحرب
والدفاع ، فىنبغى أن يتركها .

وأما حديث السيد الخواجه أحمد فليس للعبد دخل فىه ، لأنه فى ناحية
أخرى ، وقد عرف الناس أن صلاتى مع السيد الفذ ليست على مايرام ،
وينبغى العمل بما يراه الرأى العالى أليق وأوفق . وأما حديث اسفتكين
الحاجب فإن السلطان الماضى كان قد أسند إليه عمل تلك الجهات بعد وفاة
أرسلان جاذب ، وقد اختاره من بين الكفاة الكثيرين الذين كانوا فى خدمته ،
وذلك بعد ما اختبره وعرف مقدرته ، فكان يرى الآخرين ويعرفهم ،
ولو لم يكن جديراً بذلك المنصب الخطير لما اختاره ، وقد خدم مولانا خدمات
جليلة ، فىنبغى أن لا يفام وزن لما ينقول به الناس . وأن يراعى ما فىه
صلاح الملك .

وإذا أمرنى السلطان فى كتابه بإظهار وجه الصواب بالمكاتبة فإنى أبين نقطة
واحدة مع هذا المعتمد ، والرأى لمولانا ، وإنه غنى عن قولى ، وقول سائر العبيد ،
فإن السلطان الماضى انتهى أجله بعد أن شيد ماكا متين الدعائم قوى البنيان ،

(١) بلاساغوت - مدينة كبيرة من ثغور الترك قرب (كاشغر) فى شمال (نهر سيجون) .

حاشية . .

(٢) رمذ تطلق بفتح التاء أو صمها أو كسرهما . والتداول على لسان أهل تلك المدينة
فتح التاء وكسر الميم ، والمعروف قديماً كسر التاء والميم جميعاً . والتألفوت بضموى التاء والميم .
معجم البلدان .

(٣) من نواحي بلخ وإليها ينسب ناصر خسرو .

فإذا اسنصوب الرأى العالى فليأمر بالآ يجرؤ أحد على تغيير قاعدة تتغير بسببها كل تلك الأعمال . هذا ما يرى فيه العبد الكفاية من القول .

فسر الساطان كثيرا بهذه الأجوبة . ثم عدنا . وفى اليوم التالى جاءنى المسحدى يقول عن لسان ألتوتناش إن الخصوم عملوا ما أرادوا وقال السلطان بأنى العبد المخلص الفريد الأمين وهذا ما يجدر بجلالته ، وإنى اعلى يقين من أنك وقفت على كل ذلك . وقد أصبحت أهدأ قليلا وسرت لثنائى ، ولكن يجب أن يعلم بأنى ان أحصر لبلاطه ولو كانت له ألف مهمة . ولينأكد ٩٣ أننى سوف لا أحضر بعد هذا إليه بنفسى البتة ، ولكننى سأوفد له الجيوش إذا ما دعت الحاجة ، كما أنى مستعد للقيام بالعمل فى أية ناحية يأمرنى بالسير إليها ، فأكون قائدا مقداما وأودى تلك الخدمة ولا أبخل عليه بنفسى ومالى ورجالى ، فإنى أحطت خبرا بحاله وتيقنت من أن هذه الزمرة لا يرضيها أن تسير الأمور سيرها المستقيم وتبقى ثابتة وليس بالسلطان عيب . وإن العيب كل العيب فى الذين يتزلفون إليه .

فذهبت أنا أبو نصر وقلت للسلطان كل ذلك رعاية للأمانة ، وطلبت إليه كتمانها واكنه لم بطل مكتوما . ثم إنهم دبروا مكيدة للإيقاع بالتوتناش لكنها كانت خطة واهية ولم تتم ، بل إنها زادت فى سوء ظن الرجل . وسوف أذكرها فى مكانها^(١) .

وفى أثناء الطريق . لحق بالموكب الساطانى ، بمرورود ، الخواجة حسن أدام الله سلامته وهو كتحدا الأمير محمد قادما من جوزجان ، وقد أودع خزائنه الأمير محمد فى شادياخ بأمر من الساطان مسعود ليحملها معتمده إلى غزنة . فأدى بذلك خدمة وإخلاصا عظيمين .

(١) يشير هنا إلى قصة القائد منجوق مع التوتناش وسنورد بعد ذلك فى هذا الكتاب .

وعندما مثل أمام السلطان أدى رسوم الخدمة ، وقدم النثرات الكثيرة والهدايا الوفيرة فأثنى عليه السلطان ، ولاطفه وامدح صدقه وأمانته ، وأعجب كافة أركان الدولة وأعيانها بذلك الإخلاص وتلك الأمانة والخدمة التي أداها بشأن هذه الخزائن العظيمة : فإنه حين عرف أنه يخدم مولاه لم يطمع في ذلك المال ، ولم يسلم نفسه للشيطان ، وسلك طريق الصدق والحق . فقد كان رجلا كامل العقل ، ذاق حلو الدنيا ومرها وطالع الكتب وتبصر العواقب ، فلا جرم أن ظلت منزلته ثابتة .

وكان أبو سهل الحمدوى يجلس أثناء الطريق في خيمة في الديوان ، ويتحدث في المعاملات لأنه كان أكثر الجميع خبرة بها ، وقد حسب نفسه في منزلة الوزارة ، وكان السلطان ينظر إليه بعين ٩٤ الرضا . كما أن الخواجة أبا القاسم كثير كان يجلس في ديوان العرض حيث يفوضه السلطان في أمور الجيش . وكان يجلس مع أبي سهل الحمدوى طاهر وأبو الفتح الرازى وغيرهم من سادات الدركاه والمستوفين . وكان يقوم بأعباء الوزارة آنذاك أبو الخير البلخي الذي كان عاملا على إقليم خالان على عهد السلطان الماضي . أما طاهر والعراقى وبغية الكتاب الذين كانوا قد حضروا من الرى ، فكانوا يجتمعون في مجلس أبي نصر مشكان ، وكان طاهر والعراقى أحلام واسعة . وكانت أغلب الخلوات بأبي سهل الزوزنى ، وكان وحده يصرف الأمور وينهى المعاملات ويقر المصادرات ، فهابه^(١) الناس وكانت الأوامر تصدر بواسطته ، وغالب شئون الملك رهن تصرفه . كما أن عبدوس أصبح أيضا من المقربين ، وكان ينظر في كل الأمور . وقد سار مؤذن ، أحد معتمدى عبدوس ، بكبير الحجاب على قريب إلى قاعة كرك^(٢) بجبال هراة وسلمه إلى كوتوالها الذي كان معينا من قبل عبدوس ،

(١) استخدم لفظ شكوهيدن بمعنى رسيدين (رهان فاعل) حاسية ٣ .

(٢) لم يرد ذكر كرك هذه في ياقوت . وهو بد كرك على أنها قلعة حصينة في طرف الشام ، ومرة كبيرة قرب بملك . وذكرها لسترنج في «بلدان الخلافة الشرقية» ص ٣٥٢ .

وكان السلطان يتكلم مع عبدوس في جميع شئون عليّ ، وكان هو الذي يعرض
للمسائل الواردة من كوتوال كرك عليه . ثم كان يرسلها إلى أستاذي وأقوم أنا
(أبو الفضل البيهقي) بكتابتها حسبما يوجهني .

هذا وسأذكر ما جرى بشأن عليّ قريب حتى آخر لحظة من حياته .
أما منكيتراك فقد ساروا به لقلعة غزنة وسلموه إلى عليّ الكوتوال واعتقلوه
بها ، كما قبضوا على سائر أخوته وقومه وصودرت أموالهم جميعا ، وأبعدوا
محسن المقدم نجل عليّ إلى مولتان ، ومع أنه كان شابا يافعا فقد كان يمتاز برجاحة
العقل وسعة التجربة ، فأطلق سراحه ونجا من المحنة وعاد إلى غزنة ، وهو اليوم
يعيش عزيزا مكرما بها وقد استشعر الإباء والقناعة ، ومارس الخدمة ولم يطلب
مزيذا ، أبقاه الله سالما .

أما السلطان مسعود رضى الله عنه ، فقد كان يسير مستمتعا مبهجا حتى
شَبُورقان^(١) حيث احتفل بعيد الأضحى ، واتجه بعد ذلك إلى بلخ فبلغها يوم
الاثنين السابع من شهر ذى الحجة ٩٥ سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠)
ونزل باليمن والسعادة في جوسق عبد الأعلى ، وصارت الدنيا كالعروس
المجلاة في عهده الميمون ، ولا سيما مدينة بلخ في تلك الأيام . وفي اليوم التالي
جلس للاستقبال في أبهة فائقة ، وعاد أعيان بلخ الذين حضروا مجاسه وقدموا
النشأ فرحين برعايته ، وقام كل بعمله ثم جلس للشراب .

وقد سقت أخبار هذا السلطان إلى هنا ، وكان الواجب يقضى أن أقول
إنه ارتقى سرير الملك منذ اليوم الذي قبضوا فيه على أخيه في تكينا باد ، ولكني
لم أذكر ذلك . لأن هذا الملك كان عندئذ متأهبا للنهوض^(٢) موليا وجهه

(١) بفتح الشين أو بضمها بلدة قرب بلخ . غني — فياض — حاشية ٧

(٢) مستوفزى . حاشية ٢ .

شطر باخ ، واليوم إذ وطأت قدم السلطان مدينه باخ فقد عادت المياه إلى مجاريها ،
فينبغي سرد التاريخ على منوال آخر ، وسأبدأ أولاً بتحرير خطبة ، أضم إليها
فصولاً من الكلام ثم أسوق الحديث إلى عهده المبارك ، فإن هذا الحديث سيكون
كتاباً مستقلاً ، وأطلب من الله عز وجل التوفيق الأصالح والمعونة في إنجاز هذا
التاريخ ، إنه سبحانه خير موفق ومعين بمثته وسعة رحمته وفضله وصلى الله على محمد
وآله أجمعين .

ابتداء تاريخ السلطان شهاب الدولة مسعود بن محمود

رحمة الله عليهما

يهول أبو الفضل البيهقي محمد بن الحسين رحمة الله عليه : ولو أن هذا
الفصل من التاريخ مسبق بالذكر مما تقدمه ، لكنه مقدم من حيث المرتبة .
يجب أن نعلم أولاً ، أن السلطان الراحل رحمة الله عليه ، كان برعم الشجرة التي
تفرع منها الملك وأينعت ثمارها ، وكيف وصل السلطان الشهيد مسعود إلى الملك ،
وتربع في مكان أبيه . وقد قام الأفاضل الذين دونوا تاريخ الأمير العادل سبكتكين
رضي الله عنه منذ نعومة أظفاره إلى أن دخل قصر البتكين كبير الحجاب
وسپهسالار السامانيين^(١) ، وما مر به ٩٦ من الحوادث الجسام إلى أن نال
إمارة غزنة ، ووفاته في العز ، ثم انتقال الملك إلى السلطان محمود حسبما دونوه
وشرحوه ، وقد كتبوا ذلك حتى آخر أيام حياته وقد أدوا واجبهم ، وكتبت
أنا بقدر معرفتي ، إلى أن وصلت إلى هذا السلطان العظيم . هذا ولست ذا فضل
ولا أباع درجتهم ، بل سرت « كالمجتاز »^(٢) حتى وصلت إلى هنا . وليس غرضي
أن أعرض أحوال السلطان مسعود ، أنار الله برهانه ، لأهل هذا العصر ،

(١) يقصد البتكين - غني - فياض حاشية ٣ .

(٢) هكذا في النص الفارسي وفيها غني - فياض بكلمتي رهبار و رهگذر . حاشية ٢ .

فقد رأوه بأعينهم وعرفوا جلال شأنه وتفردته في مناحي السياسة والرئاسة في الملك ، بل إن غايته أن أشيد للتاريخ ركنا ركيننا وأقيم له صرحا شامخا يخلد ما بقي الدهر ، وأرجو من الحضرة الصمدية التوفيق في إنجازها والله ولي التوفيق ، ولما كنت قد آليت على نفسي أن أكتب لجلوس كل ملك خطبة ، ثم أتابع المسير في تدوين التاريخ ، فسأقوم الآن بذلك بمشيئة الله وعونه .

فصل

أقول إن أعظم الملوك الماضين جميعا وأفضلهم إثنان . أولهما الإسكندر اليوناني والآخر أردشير الفارسي ، وبما أن ملوكنا قد تعالي شأنهم عن هذين المالكين في كل شيء ، فينبغي أن نعلم من ذلك أنهم كانوا أعظم ملوك العالم طرا ، فإن الإسكندر كان رجلا توهجت فيه شعلة بلغت أوجها أياما معدودة ، ثم مالبت أن استحال رمادا ، وأما ما فتحه من البلاد العظيمة ، وما دار فيه من معمورة الأرض ، فقد كان مثله فيها كمثل من يذهب إلى مكان بقصد السياحة ، وكذلك كان مثله مع من قهر من الملوك الذين قهرهم واضطروهم إلى الطاعة والرضوخ له ، كمثل من أقسم الأيمان المغالطة ليقوم بعمل وليحققه ، ففعل ما فعل كيلا يكون حائثا ، فما الفائدة من التجول في العالم ؟ إن الملك ينبغي أن يكون حكيما ، لأنه إذا استولى على بلد ، ثم تركه وشأنه ، ليشرع في فتح بلد آخر يتركه وشأنه كذلك ليسير إلى بقعة من الأرض ثالثة ، فإنه يفسح بذلك مجالا للومه ، ومكانا للقول بعجزه .

هذا وأعظم ما ذكروا للإسكندر من مآثر ، هو أنه استطاع قتل دارا ملك فارس وفور ٩٧ صاحب الهند ، بيد أنه كان له مع كل منهما زلة لا تغتفر ، فكانت زلته مع دارا أنه ذهب إلى معسكره بنيسابور منتكرا في زي رسول ، وليكنهم عرفوه وهموا بالقبض عليه فأفالت منهم ، وقتل دارا بيد ثقاته ، ومن

ثم انقلبت الأمور رأساً على عقب ؛ أما زلته مع فور فهي أن الحرب بينهما ظلت سجالاً ، وانتهى الأمر بأن دعا فور الإسكندر إلى المبارزة فساراً للإلتقاء . ولا يسوغ للبلك أن يقبل مثل هذه المخاطرة . وكان الإسكندر محتالاً ماكرًا ، فدبر حيلة لقتل فور قبل أن ينزل ، إلى الميدان وكانت الحيلة أن أوعز إلى نفر أن يصرخوا صراخاً عالياً خلف جيش فور ، فانشغل باله والتفت إلى تلك الناحية ، وسنحت بذلك الفرصة للإسكندر فحمل عليه وقتله . وكان الإسكندر رجلاً طويلاً عريضاً ذا صراخ ورعد وبرق وصاعقة ، كأنه سحابة الربيع أو الصيف . مرت على ملوك الأرض فأمطرتهم وانقشعت ، كما قيل ، سحابة صيف عن قليل تقشع ، . وإنما بقيت من بعده دولة اليونان وامتدت على وجه الأرض مدة خمسمائة سنة بفضل تدبير أرسطاطاليس الحكيم أستاذ الإسكندر ، حيث قال : « يجب أن تقسم البلاد بين الملوك ، حتى يشتغل بعضهم بعض ، فلا يتعرضون لملك الروم وقد عرف هؤلاء الملوك بملوك الطوائف »^(١) .

وأعظم ما يؤثر عن أردشير بابكان ، أنه جدد دولة الفرس المندرسية ، وأرسى سنن العدل بين الملوك ، وقد سار من بعده جماعة على هديه وسنته ، ولعمري ، لقد كان هذا أمراً عظيماً ، ولكن الله عز وجل ، كان قد أنهى بتقدير منه حكم ملوك الطوائف ، ففسر هذا لأردشير ذلك العمل الجليل .

هذا ويقال إن لهُذينَ الرجاينِ مثل ما كان للأنبياء من معجزات . وقد كان لأسرة هذه الدولة العظيمة^(٢) ، تلك المناقب والآثار التي لم تكن لغيرهم ، بما مر ذكره في هذا التاريخ وما سنذكره بعد ذلك . ولئن زعم كاشح أو قادح أن ٩٨ أصل هذه الأسرة العظيمة قد نبت من طفل حامل الذكر ، فالجواب على زعمه هو أن الله تعالى عز ذكره ، قدر بحكمته ، منذ أن خاق آدم ، أن ينتقل

(١) انظر في كتاب تنسير ، الترجمة العربية ليعقبي الحشابي ، ص ١٩-٢٣ ، نصيحة أرسطاطاليس في هذا الشأن .
(٢) أي الدولة الفارسية .

الملك من أمة إلى أخرى ومن جماعة إلى غيرها ، وكلام الله عز وجل حيث يقول :
 « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء
 وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير »^(١) ، هو أكبر برهان على
 ما أقول ، فينبغي أن نعلم أن انتزاع قبض الملك من طائفة وإلباسه لأخرى
 غيرها، إنما يكون لحكمة من الخالق وهو صلاح للخلق كافة ، مما يعجز عن إدراكه
 العباد ، هذا ولا يحق لأحد أن يتفكر في ذلك فكيف بالخوض فيه .

ولو أن هذه القاعدة صحيحة محكمة ، ولا بد من الرضاء بقضاء الله تعالى ،
 فإن العقلاء إذا وكلوا بالفكر هذا الأمر الخفي ، وأرادوا الاستقراء والاستنباط
 تطلعا إلى دليل واضح ، لتيقن لديهم أن الله جل جلاله عالم بما لم يكن ، وأنه
 قد مر بعلمه أن سيظهر رجل في بقعة « كذا » من الأرض تتم على يده الراحة
 والأمان لعباده ، فيهيئ لتلك البقعة الخير والبركات ويسن لها القواعد الأساسية ،
 بحيث إذا وصلت البذرة إلى يد ذلك الرجل زرعها فأنبتت نباتا حسنا يستظل به
 الوضيع والشريف ، فيطيعون جميعا أمره وينقادون إليه دون أن يداخلهم
 الخجل من الرضوخ إلى حكمه .

وحينما يقيم الله هذا الملك يهيئ له جماعة من الأعوان والخدم يليقون بشخصه
 بحيث يكون كل واحد منهم أفضل وأشجع وأكفا وأليق وأجود وأعلم من أخيه ،
 فتزدان تلك البقعة بوجود ذلك الملك وأعوانه طوال المدة التي قدرها الله تعالى
 تبارك الله أحسن الخالقين .

وقد سارت هذه القاعدة عينها كذلك بالنسبة إلى زمرة الأنبياء والمرسلين
 من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الرسل والأنبياء ، محمد المصطفى صلى الله عليه
 وسلم ، ولا بد أن ننظر كيف كان الصحابة الذين منح الله المصطفى عليه السلام

إياهم ، وقد كان فريدا على وجه البسيطة ، وماذا صنعوا وإلى أى درجة أبغضوا .
مقام الإسلام بعد وفاته . كما جاء ذلك فى السير والتواريخ . وسبقى نور هذه
الشريعة الغراء إلى قيام الساعة قويا ساطعا باهرا ولو كره المشركون . ٩٩ .

سارت الدولة اليمينية الحافظة الباصرة المعينية ^(١) على هذا النهج حتى ورثها
السلطان المعظم أبو شجاع فرخ زاد بن الناصر لدين الله ، أطال الله بقاءه ،
إرثا حلالا ، فعندما أراد الله تعالى لهذه الدولة العظيمة الظهور فى الأرض
أخرج الأمير العادل ، سبكتكين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ومن عليه
بالإسلام ، ورفع شأنه حتى نبتت من دوحه ذلك الأصل المبارك فروع صارت
أقوى وأمتن من أصلها ، ازدان بها الإسلام ، وشهد الله أزهرهم بقوة خلفاء النبى
عليه السلام . إذا تأملنا وجدنا أن محمود ومسعود كانا شمسين منيرتين سطع
نورهما بعد غسق الليل ومضى الفجر . وقد انبثق الآن من تلك الشمس كواكب
عظيمة وسيارات مضيئة لا تحصى ، دامت هذه الدولة العظيمة رغم كيد
الاعداء والحاسدين .

وأبدأ بعد الفراغ من هذا الفصل ، فصلا آخر ، أقرب إلى القلوب وأسرع
إلى الأسماع وأخف وقعا على العقول .

اعلم أن الله تعالى منح الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين قدرة ، كما
أيد الملوك والسلاطين بحوله وقوته ، وأوجب على أهل الأرض الإيمان بهاتين
القوتين ليعرفوا بهما الصراط المستقيم الإلهى ، ومن يعتقد فى غير ذلك أو يؤمن

(١) لعل هذه الأوصاف مأخوذة من ألقاب السلاطين الغزنوية ، الباصرة لدين الله ، يمين
الدولة ، حافظ عباد الله ، هذا وكلمة « معينية » ربما كانت مأخوذة من لقب المعين الخليفة الله .
غنى - فباض حاشية ١ .

بتأثير الفلك والكواكب والبروج في مثل هذه الأمور ، فهو دهرى أو معتزلى
سيحكم الله عليه بالفناء ويخلده في الجحيم أبداً ، نعوذ بالله من الخذلان .

فالفطرة التى خص الله تعالى بها الأنبياء عليهم السلام ، هى المعجزات التى
يعجز الخلق عن الإتيان بمثلاً ، وقوة الملوك فى التفكير الدقيق واليد الطولى
والانتصار على الأعداء والظفر بهم والعدل الذى يقيمونه وفقاً لأحكام الله
تعالى ، هى الفارق بين الملوك المؤيدين الموفقين وبين الخارجين المتغلبين فالملوك
إذا كانوا عادلين حسنى الأعمال والآثار والسيرة ، وجبت طاعتهم إذ تبين أنهم
... على الحق ، كما ينبغى أن نعتبر المتغلبين الظالمين الجائرين خارجين ، ويجب جهادهم .
هذا هو الميزان الذى يوزن به الصالح والطالح فيتميزان ويعرف بالضرورة
أيهما ينبغى أن نختار .

فليغفر الله سبحانه وتعالى للباضين من ملوكنا . وليحفظ من هو منهم على
قيد الحياة ، ولنتأمل سيرتهم لنرى كيف مشوا على سنن الحق والعدل والعفة
والديانة ، وكيف أدبوا العصاة والبقاع وقطعوا أيدي المتغلبين والمتعسفين ،
فيتحقق لنا أنهم كانوا مختارين من الله ، تفدست أسماؤه وجل جلاله وأن طاعتهم
كانت فريضة وماتزال . فإذا لحقت غضاضة حق هؤلاء الملوك فى تلك الأثناء
فقا سوا حرماناً ، أو وقعت نادرة سبقها كثير من أمثالها فى العالم ، فيجب على
العقلاء أن يتأملوها بعين العقل وألا يدعوا الخطأ يتطرق إلى نفوسهم ، ذلك
لأن تقدير الخالق جل جلاله الذى أجرى القلم به فى اللوح المحفوظ لا يتغير
ولا مرد لقضائه عز ذكره ، فينبغى أن نعتقد دائماً أن الحق حق والباطل
باطل ، وكما قالوا : الحق حق وإن جهله الورى ، والنهار نهار وإن لم يره الأعمى .
أسأل الله تعالى أن يعصمنا وجميع المسلمين من الزلل ويحببنا الخطأ بطوله
وجوده وسعة رحمته .

وحيث أني فرغت من الخطبة ، أرى لزماً أن أعقد فصلاً آخر يفيد منه الملوك ويستمتع بقراءته الآخرون ، فيأخذ منه كل نصيباً بقدر عليه ، وسأبادر بوصف العادل العاقل الخلق بلقب الفاضل ، كما وصف بالمثل الظالم الجائر الحقيق بأن يوسم بالجاهل . ليتقرر أن الأرجح عقلاً أجدر بالشأن وأن الأكثر جهلاً أكثر هواناً على الناس .

يقول أكبر الفلاسفة القدامى : إن الله تعالى قد أوصى الناس بواسطة أنبيائه أن يعرف كل فرد نفسه ، إذ المرء إن عرف نفسه يستطيع معرفة كنه الأشياء كافة ١٠١ . وقد قال نبينا عليه السلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . وهي كلمة وجيزة تستوعب معاني كثيرة ، إذ كيف يتسنى لمن لا يستطيع معرفة نفسه إدراك سائر الأشياء ومثل هذا كالأنعام بل أضل سبيلاً ، فالأنعام لا تملك الخدمة على التمييز وهو يملكها .

ونحن إذا أمعنا النظر وجدنا في طبيسات هذه الكلمة العظيمة اللطيفة والجملة القصيرة فوائد جمة ، فكل من عرف نفسه يعلم أنه حي لا يلبث في النهاية أن يموت وأنه سوف يبعث حياً كرة أخرى ، فيعرف ربه ويتحقق لديه أن الخالق ليس كالمخلوق ، فتحصل له الديانة الحقنة والاعتقاد الصحيح ، فيعلم أنه مركب من أربعة أشياء قائم عليها كيانه ، إن اختل شيء منها اختل القسطاس المستقيم ، وظهر النقص . ففي هذا الجسم قوى ثلاث : إحداها العقل والنطق وموضعها الرأس بمشاركة القلب ، ثم الغضب وموضعه القلب ، والقوة الثالثة هي الشهوة والأمانى ومقامها في الكبد . وقد عرف أن لكل من هذه القوى الثلاث نفساً خاصة بها رغم اجتماعها كلها في جسد واحد . والكلام في ذلك يطول ، بحيث لو أننا دينا فيه ضاع علينا القصد وابتعدنا عن الغرض . فأكتفي هنا بالإشارة توضيحاً للغاية .

أما قوة العقل والنطق فإياها في الرأس ثلاثة مواطن ، يسمى أحدها بالتخيل

وهو الأساس في إمكان رؤية الأشياء وسماعها ، والثاني هو الذي يميز بين الأشياء ويتذكرها ، وبهذه الوسيلة يمكن معرفة الحق والباطل والتمييز بين الحسن والقبيح والممكن وغير الممكن ، والثالث هو الذي يستطيع أن يفهم كل ما تراه العين وتحفظه . فنعرف من هذا بالضرورة أن القوة الوسطى التي تميز بين الحق والباطل ، أشرف من أختيها لأنها بمثابة الحاكم العاقل الذي يستنبط الحكم الحق بما يعرض عليه من الأمور . أما الأولى فإنها بمنزلة شاهد الصدق ، إذ تخبر الحاكم بما رأت حتى إذا ما طلبه تسليه .

هذه حقيقة حال النفس الناطقة . أما النفس الغاضبة فيطلب بها بعد الصيت ومحسن السمعة ولها إباء الضيم فتبادر إلى الانتقام إذا ووجهت بظلم . أما النفس الشهوانية ففيها ١٠٢ الميل إلى المآكل والمشارب والاستمتاع بسائر الملذات الأخرى .

فينبغي أن نعلم ضرورة أن النفس الناطقة هي الملك المتصرف الغالب القاهر وينبغي أن يكون له عدل وسياسة قوية تامة للغاية لا تبديد ولا تمحق ورقق لا يشوبه الضعف والهوان .

أما القوة الغاضبة فهي جيوش هذا الملك التي يتدارك بها الخلل وتحصن بها الثغور وتطرد بها الأعداء ، فيجب أن يكون الجيش عظيم الأهبة مستعداً لتنفيذ أوامر الملك .

والنفس الشهوانية رعية هذا الملك ، فعليها أن تخشى بأسه وبأس جنوده كل الخشية وأن تسير على الطاعة . وكل امرئ توازنت فيه هذه القوى الثلاث وتعادلت فلم يتطرق إلى إحداها نقص بالنسبة لأختيها ، يكون بلا شك جديراً بأن يلقب بالرجل الفاضل الكامل التام العقل ، أما إن كان في إحدى هذه القوى الثلاث عند امرئ زيادة بالنسبة إلى أختيها ، فمن الضروري أن يكون النقص بنسبة الغلبة . ولو أمعنا النظر في تركيب أجسام الناس ، لوجدنا أنها تساوى

البهائم من جميع الوجوه ، ولكن الإنسان الذى منحه الله هاتين النعمتين ، العلم والعمل لا جرم يمتاز عن البهائم ، ومن ثم ينال الثواب والعقاب . فيمكن أن نعلم بالضرورة الآن أن كل من بلغ هذه الدرجة وجب عليه أن يسوس نفسه حتى تسير على أفضل نهج ، ويعرف ما بين الحسن والقبيح من فرق فيهرع إلى الأفضل على أحسن وجه ويتعد عما هو الأسوأ ويتجنبه :

ويظهر أمامنا بعد ذكر هذا طريقان ، الخير والشر ولكل منهما إشارات وعلامات يمكن بواسطتها معرفة الحسن من القبيح ، فيجب على الناظر أن يتأمل في أحوال العباد فما رأى له منهم حسنا يعرف أنه حسن ثم يقارن أحواله بها فإن لم يرها مطابقة عرف أنها سيئة ، لأن المرء لا يستطيع معرفة عيوبه بنفسه ، وقد أشار أحد الحكماء إلى ذلك بقوله : **إب العين لا ترى عيوبها ، شعر :**

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذى هو فيه
وكل امرئ تخفى عليه عيوبه ويبدو له العيب الذى لاخيه

وعندما تتغلب على الرجل العاقل قوتا الشهوة والغضب تضعف فيه القوة العاقلة ١٠٣ وتهزم ، فيسقط ذلك الرجل فى الخطأ لا محالة . ويمكن أن يعلم أنه واقع بين خصمين قويين وأن كليهما أقوى من عقله ، فينبغى للعقل أن يدبر الحيل حتى يتغلب على هذين العدوين . وقد قيل « ويل للقوى بين الضعيفين » وإذا وقع ضعيف بين قويين أمكن معرفة ما سيكون عليه حاله . هنالك تبرز العيوب والمثالب وتختفى المزايا والمحسن ، وقد شبه الحكماء بدن المرء بدار يجتمع فيها رجل وأسد وخنزير ، أرادوا بالرجل العقل وبالأسد الغضب وبالخنزير الشهوة ، وقالوا إن من كان من هؤلاء الثلاثة أكثر قوة تكون الدار له . وتشاهد هذه الحالة بالعيان وتعرف بالعياس . فإذا وجدنا رجلا أمكنه أن يكبح جماح شهوته ويكسر سورة غضبه جاز أن يدعى بالرجل

العاقل والورع ، أما من نتغلب شهوته عليه وتنصرف إلى تحقيق ميوله ورغباته ، فإنه في حكم الخنزير الحريص ، كما أن من يتسلط عليه الغضب بحيث لا يبقى له مجال لرؤية الحق والعمل بالرحمة ، فمثله كمثل الأسد الكاسر . وينبغي زيادة توضيح هذه الحقيقة فقد يوجه أحد نقداً لها بقوله : إن قوتى الغضب والشهوة إذا كانتا تؤديان إلى الفساد والخسران فما هي الحكمة من خلقهما . وجوابنا على ذلك أن كل ما خلق الله تعالى له حكمة ظاهرة ومصلحة عامة ، فلولم تخلق الشهوة لما اعتنى أحد بالغذاء الذي به قوام البدن ، ولا التفت إلى الزوجة التي بها يكون بقاء النسل ولقى الناس واضمحل العالم ، ولولم يخاق الغضب ما استطاع أحد أن يدفع عن نفسه وأهله السوء وينتقم من عدوه ويدافع عن شرفه ويزود عن ماله ، فتقطع بسبب ذلك المصاحبة العامة في الخلق بالضرورة . بيد أن الواجب والأفضل أن تكون قوتى الغضب والشهوة مطيعتين لسلطان العقل ، فيجعلهما بمثابة دابتين يركبهما ويسوقهما ويصرفهما كما يريد ، ١٠٤ فإن لم تكونا منقادتين ذلولين ، أخافهما بسوطه في الحال ، وهو يضربهما عند الحاجة ، فالشهوة إذا أتت علفها ربطها بإحكام إلى المعلق بحيث لا تستطيع إفلاتاً فإنها إذا أفلتت أهلكت نفسها وأهلكت من عليها ، أى رآكها . فينبغى للمرء أن يعلم أن هذين العدوين اللذين معه ليس ثمة أقوى ولا أصعب منهما عداء ، وأن يكون دائماً على حذر كي لا يفتنانه يوماً ويظنرا أنهما صديقان له كما هو الشأن مع العقل ^(١) ، فقد يقترف عملاً سيئاً يظنه حسناً ويظلم نفسه ويزعم أنه يعدل . فينبغى والحالة هذه أن لا يقدم على أمر دون عرضه على العقل ، حتى يأمن مكر هذين العدوين ، وكل من وهبه الله تعالى عقلاً نيراً وعرض الأحوال على ذلك العقل الذي هو الصديق فعاد وانضم العلم إلى ذلك العقل وقرأ أخبار السلف وتأملها وراقب

(١) هكذا شرحها غنى - فياض حاشية ٢

أوضاع زمانه أيضا ، أمكنه أن يعرف الحسن والقيبح من الأعمال وعاقبة كل منها خيرا أم شرا ، وما يقول الناس وماذا يعجبهم وما خير ذكرى يخلفها الناس . وهناك كثير من العقلاء يدعون الناس للسير على محجة الصواب ولكنهم لا يسيرون في الطريق الذي يدعون إليه . وما أكثر من رأيت من العقلاء ممن يأمرون قائلين للناس اتركوا كذا ويرون أنفسهم في غنى عن ذلك ، ومثل هؤلاء كمثل كثير من الأطباء يقولون ينبغي عدم تناول كذا فإنه يحدث علة كذا وهم أنفسهم يكثر من تناوله ؛ كما أن هنالك فلاسفة ، يسمونهم أطباء الأخلاق ، ينهون عن الأعمال القبيحة المنكرة ، وحينما يخلو المكان يقتربون تلك الآثام نفسها . أما جماعة الجهلاء الذين لا يعرفون غور هذه الأعمال ونتائجها فإنهم معذورون لأنهم لا يعلمون ، ولكن العلماء العارفين ليسوا في أخطائهم معذورين . والعامل الحازم صاحب العزم هو من يكون بقلبه ١٠٥ وبرأيه المنير مع الناس واحدا ، ومن كفه الشهوة عن طلب المحال . وإذا لم يجد المرء مساعدة تامة من قواه ، وجب عليه أن يختار نفرا من أنصح الناس وأفضلهم ليدلوه على عيوبه ، لأنه إذ يجاهد الخصوم والأقوياء المتمكنين من نفسه وقلبه ، يستشير أولئك الناصحين إذا عجز عن دفعهم ، حتى يبينوا له وجه الصواب ، كما قال المصطفى صلوات الله عليه « المؤمن مرآة المؤمن » . وكذلك فإن جالينوس الحكيم ، أوجد أهل زمانه في الطب والحكمة ، معرفته الواسعة بطبائع الدم واللحم وخصائص الجسد ، بالإضافة إلى سداد في الرأي في معالجة الأخلاق ، له في ذلك رسائل جده مفيدة في تعريف الإنسان نفسه ، مما تفيد القراء فائدة كبيرة وهو خير مرجع في هذا الأمر ، يقول : « ينبغي لمن لا يستطيع معرفة عيوب نفسه من العقلاء أن يلجأ إلى نفر من أصدقائه يكونون أكبر عقلا وأكثر نصحا وأوضح فضلا فيكمل إليهم لخص عاداته وأخلاقه حتى يوقفوه على ما به ، دون محاباة ،

من حسن وقبيح ، والملوك أكثر من غيرهم حاجة إلى ما أقول ، لأن أوامرهم كالسيوف البتارة وليس لأحد جرأة على مخالفتهم ، وأخطاؤهم يصعب تلافيا .

وقد قرأت في أخبار ملوك الفرس ، ما نقله ابن المقفع ، أن أكبر ملوكهم كانوا قد اعتادوا أن يجالسوا أعقل عقلاء الزمان ، نهارا وليلا حتى وقت النوم ، وكان هؤلاء لهم كأصحاب الزمام^(١) ، يرشدونهم إلى كل ما يقع ، حسناً كان أو قبيحاً ، من أوامر وأحوال وعادات أولئك الطغاة أي الملوك ، فإذا مات تحولت في أحدهم شهوة تكون قبيحة ، وأراد أن يبدى هيئة ١٠٦ وسطوة فيهما هلاك الناس واستئصال البيوتات ، اعترضوه وبينوا له محاسن ذلك . القصد وقبائحهم ، وقصوا عليه سير الملوك الماضين وأخبارهم . ونبهوه وأنذروه عن طريق الشرع حتى يستنبط الأمر برأيه وعقله ، وتسكن فيه تلك السطوة وذلك الغضب ، لأنه حين يستولى عليه الغضب وتبدو عليه السطوة تتمكن من عقله في تلك الساعة آفة كبيرة فيحتاج حينئذ إلى طبيب يعالج تلك الآفة ، حتى يهدأ ذلك البلاء .

والناس ، سواء كانوا من الملوك أو من غير الملوك ، لكل منهم نفس ، يقال لها الروح وهي عظيمة قوية ، وجسم يقال له البدن وهو ضئيل ضعيف . وكما أنهم يختارون أطباء معالجين للبدن ليسارعوا إلى مداواة كل مرض يعثر به ويستحضروا له العقاقير والأغذية ليعود سليماً معافى ، فالأولى بالروح أن يختاروا لها أطباء ومعالجين كذلك لعلاج تلك الآفة أيضاً . فالعقل الذي لا يفعل ذلك يسيء الاختيار ، لأنه يكون قد ترك الأهم واشتغل بالمهم . وكما أن لأولئك

(١) الكلمة المستخدمة « زمامات » وجاء في الحاشية ٢ من غنى — فياض أن الزمام كلمة مريية بمعنى الناطر والمصرف .

الأطباء أدوية وعقاقير يأتون بها من الهد وغيرها فكذلك لهؤلاء أدوية هي العقل والتجارب الحميدة ، ممارأوا وطلعوأ في الكتب .

وكذلك قرأت في أخبار السامانيين أن نصر بن أحمد الساماني كان في الثامنة من عمره عند وفاة والده ، فأجلسوه وهو طفل على العرش ، غداة مقتل أبيه متصيذا ، فشأ ذلك الشبل منقطع النظير سديد الرأي حازما تتجلى فيه جميع محاسن الملوك ولكنه كانت فيه رعونة^(١) وسيطرة وحدة مفرطة خطيرة ، فكان يصدر الأوامر الشديدة عن غيظ وغضب ، ففر الناس منه ، ولكنه كان في نفس الوقت يراجع عقله ، فيعرف أن تلك الأخلاق غير حميدة . فاخلى يوما بالبلعمى ، أعظم وزرائه ، وأبى الطيب^(٢) المصعبي صاحب ديوان الرسائل ، وكانا من ١٠٧ نوادر عصرهما علما وفضلا ، وشرح لهما أحواله ، قائلا : وإننى أعلم أن كل ما يصدر عنى خطأ عظيم ، ولكنى لأستطيع كبح جماح غضبى ، وإننى ليسأورنى ، بعد أن تهدأ سورتى ، الندم ، ولكن ما الفائدة وقد أمرت بقتل الأبرياء ، فمحوت العائلات واستعملت غاية القسوة وهدمت البيوت ، فكيف يكون التدبير لهذا الأمر . فقالا لعل من الصواب أن يقيم مولانا لديه أعقل الندماء ممن يضمون إلى العقل الكامل رحمة ورأفة وحلما ، ويأذن لهم ، إذا ما شاهدوا الملك غاضبا ، أن يأجوا دون خشية بالشفاعة ويستعملوا لطائف الحيل حتى تهدأ سورة غضبه ، وأن يبينوا له ، إذا أقدم على أمر خلىق بالملوك ، محاسن هذا الأمر حتى يكون فى شوق إلى العمل بمثله دائما . فارتاح نصر بن أحمد لإشارتهم واستحسن مقالهم وامتدح كلامهم ، ثم قال : سأضيف إلى ما أشرتأ به عملا آخر يؤكدده وهو أن أقسم يمينا مغالطة ، أن لا ينفذوا أى أمر يصدر منى فى حالة الغضب إلا بعد ثلاثة أيام ، تكون قد هدأت سورة الغضب فيها

(١) فى النمس زعارت بمعنى سوء العلبع والميل إلى الشر والرعوبه . غنى - فباض ، ٢ .

(٢) فى معظم النسخ العلبب وصححها غنى - فباض . حاشية ١ .

وتكلم الشفعاء معي خلاها في تلك الأوامر ، ثم أنظر في الأمور عن روية ، فإن كان منشأ ذلك الغضب عن حق ضرب المذنب أقل من مئة عصى . وإن كان عن غير حق ، أسقط عنه العقاب ، وأرفع شأن من كنت قد أمرت بعفابه إن كان جديرا بذلك ، وإن كانت العفوية على مقتضى الشرع تجرى كما يأمر بها الفضاة . فقال البلعمي وأبو الطيب : أجل ، بذلك ينهى كل شيء وهذا عين الصلاح . ثم قال : اذهبا وابحثا عن أعقل الناس في بلادى واستقدا أى عدد تجدانه منهم إلى الدركاه حتى آمر بما ينبغي . فرجع هذان العظيمان مسرورين ، لأنهما كانا يتوقعان لنفسهما بلاء عظيما^(١) ، وبحثا عن العقلاء في طول البلاد ١٠٨٥ وعرضها حتى جمعا منهم أكثر من سبعين رجلا من أهل البسوت العريقة والأنساب الشريفة ، فجاءوا بهم إلى بخارى التي كانت إذ ذاك قاعدة الملك ، وأخبروا نصر بن أحمد بذلك ، فأمر أن يظل هؤلاء العقلاء سنة ثم ممتحنوا جميعاً لاختيار أرجحهم عقلا . فقاموا بتنفيذ أمره واختاروا ، في النهاية ، ثلاثة من الشيوخ كانوا أرجح الجميع عقلا وأكثرهم فضلا وأوسعهم تجربة ، ثم جرى بهم إلى نصر بن أحمد حيث ظل يختبرهم أسبوعا ، وعندما وجدهم أفذاذاً باح لهم بسرهم ، وكتب بخطه أيمانا مغاظة وأجراها على لسانه وأذن لهم بالتساعة في كل باب والتحدث إليه في غير محابة . وما أن انقضى على ذلك عام حتى أصبح نصر أحنف بن قيس^(٢) آخر وبلغ من الحلم ما صار به مضرب الأمثال ، وزالت عنه تماما الخصال السيئة .

* * *

(١) من غضب الأمير .

(٢) الأحنف بن قيس التميمي الذي عرف عند العرب بالحلم والحكمة . غنى — لياض .

حاشية ١ .

لقد فرغنا من كتابة هذا الفصل كذلك ، ونحن نعلم أن العقلاء سوف يطالعونه راضين عنه رغم إطنابنا فيه ، إذ لا يوجد شيء مكتوب لا يستحق القراءة ولو مرة واحدة ، وسوف تكون موضوعاته مرجعاً يطالعه من يأتي بعد هذا العصر ، وقد تأكد لدى اليوم وأنا أكتب هذا التاريخ أنه يوجد في هذه الحضرة العلية أدامها الله رجال عظماء ، لو أنهم قاموا بكتابة تاريخ هذا الملك لأصابوا الغرض وأثبتوا للناس أنهم الفرسان وأنى دونهم راجل ، أسير في ركابهم أعرج يعجزه النقرس . فكان لزاماً أن يكتبوا وأتعلّم وأن يتكلموا وأسمع . ولكن قد شغلهم الدولة حتى يعملوا الفكر في المهام العظيمة ، فشمروا عن ساعد الجد ليقوموا بما يجب كيلا يحصل خلل يفرح به العدو وطاعن وحاسد وينال مرامه ، فكيف ، مع كل ذلك ، تنهياً لهم الفرصة لكتابة التاريخ وجمع أمثال هذه الأحوال والأخبار وكيف يستطيعون لها تفرغاً . ففقت بهذا العمل نيابة عنهم إذ لو تريثت حتى يقوموا به لكان من الممكن أن لا يمارسوه ، ولا يصبح من الجائز أن تبتعد هذه الأخبار عن قلوب ١٠٩ الناس وعيونها لطول الزمن ، ولئن أراد أحد القيام بهذا العمل لما استطاع ، إذ أنه لا يملك الدابة التي أركبها ، ولا ندرست الآثار العظيمة التي لهذه الأسرة الشهيرة ، هذا وقد اطلعت على التواريخ الكثيرة التي دونها قبلي للملوك الماضين خدامهم وأنقصوا منها وزادوا فيها لتزدان بذلك . وسيرة ملوك هذه الأسرة رحم الله ماضيهم وأعن باقيهم ليست كذلك فإن معاليها بحمد الله تضيء كالشمس المنيرة ، وقد أغنانى الله جل ذكره بذلك عن التلبس والتويه فكل ماسقته للآن أو ماسأسوقه بعد هو برهان واضح .

وقد بادرت بعد الفراغ من تحرير هذه الخطبة ، إلى تدوين التاريخ راجياً

من الله تعالى التوفيق للموضوع بالأمر على القاعدة المتبعة فيه وقد حررت قبل هذا بابين تحدثت فيهما عن هذا الملك العظيم أنار الله برهانه ، فذكرت في الباب الأول ما جرى على يديه من جسام الأمور بعد إياب السلطان محمود من الري وإسناد ولايتها إليه ، وفي الباب الثاني ما تهيأ له من أسباب السعادة والرفعة بعد وفاة والده ، وأيام إمارة أخيه إلى أن بلغ هراة وما استقرت عليه الأمور من حال واحدة ، فأحرز ما كان يطلبه من نجاح في كافة الشؤون مما سيطالعه القراء . وكذلك ما وقع له من نوادر وعجائب في أيام أبيه ، عدة وقائع أوردتها جميعاً في مكانها من هذا التاريخ في أيام السلطان محمود ونكت أخرى جديرة بالعلم عن طفولته وقعت جميعها عند بلوغه سن الرشد حين اختاره أبوه ولياً للعهد بما وقفت على بعضه إبان وجودي في نيسابور قبل أن أسعد بخدمة هذه الدولة ثبثها الله .

وقد كانت أمنيته دائماً أن أسمع هذه الأخبار والنوادر عن شخص موثوق به رآها رأي العين ، ولم يتفق لي ذلك . والآن وأنا أعمد إلى تدوين هذا التاريخ يشدد حرصى على معرفتها ، إذ قد مضت سنين عدة وأنا مشغول بهذا العمل وأخشى أن لا تتم لي معرفة تلك النكات حين أصل إلى أيام هذا الملك المباركة فيكون ثمة غبن من تركها .

من خير ما اتفق لي في أوائل سنة خمسين وأربعمائة (١٠٥٨) ، أن تفقدني في عزلى وتجشم ١١ المتاعب لزيارتي الخواجة أبو سعيد عبدالغفار فاخر بن شريف ، حميد أمير المؤمنين أدام الله عزه ، فتنفضل على بما كنت أجد في طلبه ، وحرره بخطه وهو من الثقات المعروفين بالصدق ورجاحة العقل فلا يحتاج إلى شاهد فيما يسجله ، وقد دخل هذا السيد في خدمة هذا الملك ، منذ كان في الرابعة عشرة من عمره ، حيث قضى زمناً في خدمته فذاق حلو الدنيا ومرها واحتمل في سبيل ذلك المصائب الكثيرة وتعرض للمخاطر الكبيرة مع ملك مثل محمود

رضى الله عنه وحين ارتقى مولانا سرير الملك أبقاه على ما كان عليه من عز
ونفة تامة .

هذا وقد اتصلت بهذا الخواجة في أواخر سنة إحدى وعشرين (١٠٣٠) حين
وصلت رايات السلطان الشهيد رضى الله عنه إلى باخ ، فوجدته على درجة عظيمة
من الفضل ، وكان بجاس مع أسناذى فى ديوان الرسائل ويقضى جل يومه مع
السلطان فى خلوته الخاصة فوجب أن أرعى له جانب الحرمة فى الخطاب ، بل
إن ذلك كان فرضاً على . على أن التاريخ لا يحتتمل أكثر مما ذكرت ، وكل ليب
ينمنع بشيء من الفطنة يمكنه أن يدرك أن لقب « حميد أمين المؤمنين » من
الألقاب التى تصدر عن سدة الخلافة الجليلة ، وأى خطاب أعظم من هذا ، وقد
تم له هذا التشريف العظيم فى عهد السلطان مودود ، إذ أوفده فى مهمة خطيرة
إلى بغداد ، فقام بها خير قيام ، فإنه رجل خبر الدنيا وعرف أسرارها وعرك
تجارها . وسأوضح ذلك أثناء الكلام على السلطان مودود . وكذلك وقع عليه
الاختيار من بين جميع المعتمدين فى سفارة إلى خراسان فى عهد السلطان
عبد الرشيد تتعاقب بمهام عظيمة من عهود ومواثيق مع زمرة من الأكابر لهم
الآن ولاية خراسان ، وكنت آنذاك أدير ديوان الرسائل وسأشرح تلك
الأحوال فى موضعها . وقد مرت بهذا السيد أحوال مختلفة ، حلوة ومرة ،
إلى أن أسند إليه منصب الرئاسة فى مدينة بسط فى هذا العهد الميمون المقترن
بحكم السلطان السعيد أبى شجاع فرخ زاد بن مسعود أطال الله بقاءه ونصر لواءه
فلث هنالك مدة مديدة ، وخلف آثاراً جديدة . أما اليوم فهو يقيم فى داره
بغزنة عزيزاً مكرماً . وقد أشرت الآن إجمالاً إلى أحواله ، حتى أتطرق ١١١
إلى التفاصيل بصورة واضحة فى مواضعها إن شاء الله تعالى كما كتبت هذه الإشارات
الوجيزة عن السلطان مسعود ليطلع القارئ عليها ، وسوف أذكر قصة جلوس
هذا السلطان على أريكة الملك وأسوق الحديث عن تاريخ أيامه المباركة .

المقامة في معنى ولاية العهد للأمير شهاب الدولة مسعود

وما جرى من أحواله^(١)

أمر السلطان محمود في شهر سنة إحدى وأربعين (١٠١٠)، عند مسيرهم بالنزول إلى بلاد الغور عن طريق أرض داور من بلاست، ابنه الأمير بن مسعود ومحمد وكذلك أخاه الأمير يوسف رحمهم الله أجمعين، بالنزول في موضع داور، حيث يكثرون ومعهم الأحمال الثقيلة.

وكان ولداه إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمرهما، وكان الأمير يوسف في السابعة عشرة، وقد دعاه إلى إصدار ذلك الأمر اعتقاده بأن أرض داور هذه ميمونة مباركة، إذ هي أول ولاية أسندها إليه والده الأمير سيكتكين العادل رضى الله عنه، وأمر السلطان محمود جدي^(٢) بالقيام على خدمتهم وأداء ما يلزمهم من وظائف ورواتب حيث نزلوا في دار پايتكين بأرض داور وكان أميراً على تلك النواحي من قبل السلطان محمود، وكانت لي جدة ذات ورع وتفوى، تستطيع القراءة والكتابة وتحفظ القرآن وتحيط علماً بالتفسير والتعبير وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم إلى جانب مهارتها في تجهيز لذيذ الأطعمة ورائق الأشربة وكانت آية في ذلك، فعمات مع جدي في خدمة أولئك الأمراء حيث نزلوا هنالك، وكانت جدتي تلك العجوز، تتأنق في صنع ما يطلبون من شهي المآكل والحلوى فتأتى بأحسن ما يكون، وكان الأمراء يمتدحون بها دائماً فتقص عليهم السير والأخبار والحكايات المسلية، فزاد ذلك من ألفة الأمراء لها، وكنت ١١٢ إذ ذاك قد بلغت سن الرشد، أذهب إلى المدرسة وأتعلم القرآن وأودى ما يستطع الصبية أدائه من الخدمات وأعود، وكان أستاذي المدعو «سالمى»^(٣) يأتي معي

(١) هذه المقامة كلها من رواية الخراجة عبد الغفار .

(٢) أى جدي « السكات » عبد الغفار .

(٣) ذكر السكات جملة لا يفهم منها إلا ما ذكرناه .

إليهم أحياناً . وقال الأمير مسعود : ينبغي أن يحفظ عبد الغفار شيئاً من الشعر فعلمنى أستاذى هذا عدة قصائد من شعر المتنبي وأبياتاً من قفا نيك ، فازددت بفراءة تلك الأشعار عليهم جرأة فى الكلام . وكان ترتيب مجالسهم فى ذلك العهد أن يأتى أولاد ريحان ، وكان من خاصة خدم السلطان محمود كما كان له الإشراف على الأمراء ، بالأمير مسعود فيجلسونه فى صدر المجلس ثم يحضرون الأمير محمد ويجلسونه إلى يمينه على أن تكون ركبته فى خارج الصدر ويأتون بالأمير يوسف ويجلسونه خارج الصدر إلى اليسار ، وعندما يأخذون جلستهم يشاهدون ألعاب الصولجان والأميران محمد ويوسف فى خدمة الأمير مسعود ، ومعهم الحاجب الخاص بالمجلس وعند صلاة العصر حين يرجع المؤدب ، كان يبارح هذان الشخصان المجلس أولاً ويذهبان ثم يخرج الأمير مسعود بعدهم بساعة .

وكان ريحان الخادم يتعهدهم جميعاً بالتربية فينتهرهم ويصرخ فيهم إن لاحظ عليهم ما لا يليق ، وكانوا يركبون إلى الريف للتنزه مرتين فى الأسبوع . وقد اعتاد الأمير مسعود أن يحضره جدى وجدتى ، كلما هم بالركوب أنواع المأكولات وكثيراً ما كان يطلب منهما تهيئة اللذيذ من المآكل خفية دون علم أحد من عمال المطبخ ، وقد كان قراتكين الغلام الصغير يبلغ جدى وجدتى بما يطالبه الأمير مسعود ، ويقال إن قراتكين هذا كان فى مبدأ أمره غلاماً للأمير ثم بلغ إلى منصب النقابة فى هراة ثم صار حاجباً للأمير مسعود ، وكانوا يفاجئونهم بالمأكل فى الصحراء ، فيقيمون المآدب ، وكانت المآدب الكبيرة هى التى كان يدعى إليها الأمير حسن بن الأمير فرينغون أمير جوزجان وشبان آخرون من أقرانهم وكان يمنحهم شيئاً بعد الفراغ من الطعام .

وكذلك كان پايتكين حاكم ناحية داور من غلمان السلطان محمود ومجلا لرعايته وكانت له زوجة جد تقيّة صالحة ، فلما جلس السلطان مسعود بعد أبيه ، على أريكة الملك أبدى عطفاً ١١٣ بالغاً نحو هذه المرأة جزاء لخدماتها السابقة ،

فقد كان يحترمها احترامه للسيدة الوالدة ، وقد سمعها أثناء وجودى بمجلس الأمير مسعود بغزنة ، عدة مرات ، تقص الحكايات والأخبار عن سيرة هذا الأمير وأحواله فى تلك الأيام ، وكان يلذ للأمير سماع ذلك فىسأها كثيرا عن تلك النواحي والقرى والمآكل . وقد جاء بايتكين هذا ، حين استولى السلطان محمود على سيستان وأسقط خلف^(١) بمائة وثلاثين من طيور الطاووس بين ذكر وأنثى ، ويقال إن تلك الطيور كانت تربي كالدواجن ، فنشأت فى البيوت بناحية داور ، وكان أكثرها يبيض ويفرخ داخل القباب المنتشرة هنالك ، فشغف الأمير مسعود بها جدا وكان يذهب لرؤيتها إلى سطوح المنازل ، وقد باض بعضها وأفرخ فى مكانين أو ثلاثة من قبة كانت بدارنا . ونادى الأمير مسعود يوما جدتى من على السطح ، ودعاها وقال لها عندما اقتربت منه : رأيت نفسى فى المنام وكأني ببلاد الغور حيث شاهدت سورا يشبه السور الذى لدينا ، ورأيت هنالك عددا كبيرا من طيور الطاووس والديكة فكنت أمسكها وأضعها تحت ثيابي فتقاوم محاولة أن تطير ، ولما كنت تمرفين كل شيء فماذا يكون تعبير هذه الرؤيا . فأجابت العجوز « سوف يتسلط الأمير على أمراء الغور ، ويدين الغوريون بالطاعة » فقال : « إننى لم أبلغ بعد مكان أبى فى الملك فكيف أستطيع القبض عليهم » . فأجابت العجوز : « سيصبح ذلك مستطاعا إن شاء الله تعالى حين تكبر فإني أذكر أن والدك السلطان ، الذى كان أيام الطفولة وكانت هذه الولاية له ، استولى الآن على أكثر البلدان وما يزال يستولى ، وسوف تكون أنت أيضا كأبيك » . وقال الأمير : إن شاء الله .

وقد تحققت هذه الرؤيا بعد ذلك ودخلت فى طاعته بلاد الغور وله فى بلاد الغور آثار جليلة سيأتى ذكرها فى هذه المقامة .

وفى شهر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠) حين التحقت (عبد الغفار)

(١) خلف بن أحمد آخر الأمراء الصفاريين فى تلك البلاد .

بخدمته هذا الملك طالب من عدد من تلك الطواويس بين ذكر وأنثى فأتيته بستة أزواج منها فأمر بإيداعها البستان حيث أخذت تبيض وتفرخ ، ومن ثم تناسلت في هرة .

هذا وقد أتى أمراء الغور إلى الحضرة بين مطيع وكاره ، بعد أن رأوا من آثار سطوته العظيمة ما أخافهم وقطع أنفاسهم . ولم يتفق أن يحدث في عهد ما وكذلك لم أقرأ في كتاب أن الغوريين خافوا ١١٤ أو أطاعوا ملكاً مثل سجود من قبل .

وفي سنة خمس وأربعمائة (١٠١٤) زحف السلطان محمود من مدينة بست إلى خواين وهي ناحية من بلاد الغور تتصل بأراضي بست وداور ، حيث كان الكفار أعظم قوة وأكثر خبثاً إذ كانت لهم المعاقل القوية والحصون العديدة ، وقد صحبهم إلى تلك المواقع الأمير مسعود الذي أبدى خلال الزحف بالغ الجرأة وعظيم الشجاعة على مشهد من أبيه فكان يقتلع الفرسان من فوق ظهور الجياد ، ولما لاذ جمع من الأعداء بالمعاقل والحصون ، شوهد أحد قادتهم فوق برج حصن يستهزئ بالمسلمين بما يؤلم شعورهم فسدد نحوهم سهماً أصابه في حلقه فسقط عن الحصن ومات لساعته فانكسرت قلوب أصحابه وسلبوا الحصن ، وكل ذلك بفضل ضربه الأمير النادرة . وبعد أن فرغ السلطان محمود من الحرب وعاد إلى الخيمة ، أنزل ذلك الشبل فيها فتناول معه الطعام وتبلة بعطفه وحنانه البالغ ، وقد كانت هذه المآثر وأمثالها من أهم ما دعا السلطان لأن يختصه بولاية العهد صبيّاً ، إذ كان لا يرى ولا يعرف أحداً يستطيع النهوض بأعباء ذلك الملك الواسع العظم من بعده غير هذا الأمير ، وأثبتت الأيام صحة هذا الرأي ، فقد انقضت تسعة وعشرون سنة على وفاة السلطان الماضي رضي الله عنه وقعت أثناءها حوادث خطيرة ، لم يستطع أحد تدبيرها سوى مسعود لحافظ على كافة الرسوم والآداب الموروثة وأقر العدل على صورة لم يسبق لها مثيل

في بلاد الكفر والإسلام . فأتدم أيام هذه الأسرة الكريمة بنصر أوليائها وقهر أعدائها وليعيش مليكها العظيم السلطان فرخ زاد نجل ذلك السلطان الأعظم متمتعاً بدوام الملك وبهجة الشباب بمحمد وآله .

وفي سنة إحدى عشر وأربعمائة (١٠٢٠) ذهب السلطان إلى هراة ليرحل منها في تلك السنة إلى بلاد الغور فسار من هراة يوم السبت ، لعشرة خلون من جمادى الأولى وفي صحبته الفرسان وعدد كبير من الرجال ، ومعهم خمسة من الفيلة السريعة وكانت المرحلة الأولى باشان^(١) والثانية خيسار^(٢) والثالثة بريان^(٣) فمكث فيها يومين حتى ١١٥ وصلت جميع العسكر ومن ثم توجه إلى پار^(٤) وارتحل منها بعد يومين إلى پحث^(٥) ثم منها إلى موضع يدعى (باغ وزير بيرون) وهو أول موضع من حدود الغور . فما أن عرف الغور خبره حتى لجأوا إلى حصونهم ومعاقلة المنيعه وتأهبوا للقتال وكان السلطان رضى الله عنه قد تمكن من أن يستميل أبا الحسن بن خاف وكان من أبرز مقدمى الغور ، قبل مسيره إليهم وتواطأ معه ليحضر بجند مجهز حين تصل الجيوش المنصورة برايتنا إلى هذا الموضع ، فحضر أبو الحسن في هذا اليوم وفي معيته كما قالوا جيش قوامه ثلاثة آلاف من الرجال المجهزين بالقوى والعتاد ، وتقدم إلى السلطان وأدى الخدمة وقدموا النثار الكثير والهدايا من دروع ولامات وبما اختص بصنعه أهل الغور

(١) قرية في ناحية هراة . عنى - فياص

(٢) مدينة بين غزنة وهراة

(٣) في بعض النسخ يردان . والسكن حاشية بب تقول « نريان » كما بقول بالقوب ومن قريه في ناحية هراة .

(٤) اسم غير معروف . عنى - فياص حاشية ٤ .

(٥) لاحظ غنى - فياص أن هذه الكلمة تذكر بضيع مختلفة حسب النسخ والمث هنا

مطابق لنسخة يب التي تقول في الحاشية إنها موضع في جبال هراة به قبر السلطان مودود بن محمود حاشية ٥ . وذكره لسرنج خست ، أنظر بلدان الخلافة الشرقية ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ،

ترجمة بشير فرسيس وكوركيس عواد ، س ٣٠٣ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ .

وقد شبه الأمير بعطف بالغ وجاء على أثره شيروان في فرسان كثيرين ورجاله يحمل إلى السلطان الهدايا وثمار لا يحصى وكان هذا الرجل مقدم آخر من حدود الغور وجوزجان ممن أستمالهم ابن السلطان، وقد بذل الأمير محمد الكثير من المحاولات أيام حكمه ليسيير إليه هذا المقدم ويكون من أتباعه ذلك لأن ولايته كانت تتصل بجوزجان ولكن لم يجبه إلى ذلك فقد كان الناس جميعاً إلى جانب مسعود . وقوى شأن السلطان بحضور هذين المقدمين أبي الحسن بن خلف وشيروان ومن ثم نهض يوم الجمعة فصار بالمقدمة وكانت تصحبه جريدة مجهزة ومعها خمسون أوستون غلاماً ومائتان من الرجال إلا أكثر استعداداً من شتى الأصناف وبلغوا حصناً مكيناً يدعى برتر يضم زمرة من شجعان المقاتلين بسلاحهم، وطاف السلطان أولاً حول الحصن وتفقد الأهداف الحربية ولم يكن لهذا الحصن شيء من الأهمية إزاء همته القعساء فلم يتمهل ريثما تصل الجيوش بل يبادر بالقتال مع هذا النفر القليل وتقدم بنفسه الغالية مع الغلمان والرجال ، وثار ملاعين حصن الغور وضيخوا ضجة هائلة كادت لها الأرض تنشق وحسبوا أن عسكر السلطان ليس إلا تلك الفئة المجتمعة حول الحصن . وأمر السلطان الغلمان أن يبادروا برمي السهام وكانت تتقاطر بحيث لم يجرؤ العدو على النطلع من وراء الجدران وطفق المشاة يتسلقون جدران الحصن بحبال الأوهاق وقتلوا مقتلة عظيمة وهزموا أولئك اللثام وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا عدداً كبيراً واستولوا على أموال وغنائم مختلفة من كل شيء .

وبعد أن استسلم الحصن وصلت جيوش أخرى ، فتعالت أصوات الناس بالترحيب لذلك الحصن بهذا العدد القليل من الرجال .

وسار السلطان بعد ذلك إلى ناحية رزان^(١) وحين بلغ أهلها نبأ هذا الحصن

(١) في بعض النسخ رزان . حاشية ١ .

آثر أغابهم الفرار ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة توارت في الجواسق ، فأعطاهم السلطان الأمان حتى آب جميع الهاريين ، وقبلوا الجزية وقدموا له كثيرا من الهدايا من الذهب والفضة والسلاح ، وكانت المسافة إلى جروس^(١) ، مقر درميش بت^(٢) عشرة فراسخ فلم يجد في السير ولم يتجه إليها لأن حاكمها درميش بت هذا كان قد بعث إلى السلطان رسولا يعلن الطاعة والعبودية . ويعهد أنه سيحضر بنفسه للخدمة ، بعد أن يعود السلطان إلى هراة ، ويتقبل الخراج لذلك لوى السلطان عنان السير ميمما شطروى وهو موضع جد حصين من ناحية تمور وأهله أشجع وأقوى . وكانت وى هذه في الأيام الماضية قاعدة لبلاد الغور وهى من ١١٧ المنعسة والقوة بحيث كان من يتسلط عاها يستطيع أن يمد سلطانه على جميع تلك الأصقاع . فلما سار السلطان إليها أوفد من قبله فقيها برسالة وبصحبته رجلين من أتباع أبى الحسن خلف وشيروان ليهوما بالترجمة وكانت المشافهات بينهما قوية منطوية على الوعد والوعيد ، كما جرت العادة بذلك .

ذهب الرسل أولا والسااطان فى أثرهم ، ولكن القوم أخذوا لدى معايلة الرسل يولولون ويصرخون فى وجوههم قائلين إن السااطان على خطأ كبير ، إذ يظن أن هذه الناحية وأهلها على تلك الشاكلة التى رآها ومربها ، ألا^(٣) فليتقدم فإن هنا السيوف والحراى والحجارة .

وعاد الرسل وأبلغوا المشافهات ، وكان السااطان قد وصل متضايعا ، فنزل فى تلك الليلة بسفح الجبل ووزعوا السلاح على الجند ، ثم ركب السااطان

(١) بضم الجيم وسكون الراء وفتح الواو كذا فى معجم البلدان .

(٢) جاء فى تعليقات رك : درميش عنوان أو لقب شخصى .

(٣) تتردد النسخ بين "نباید وباید" وأكثرها على "باید" . فنى - فىاض حاشية ١ .

في طلعية الفجر ، فنهالت أصوات الطبول والأبواق وتأهب عسكره للتساق إلى أعلى الجبال ، وظهر الغور على رأس الجبل كالنمل والجراد المنتشر مدججين بالأسلحة بين فارس وراجل وسدوا المعازل والمضايق وعلا دوى صراخهم هائلا ، وطفقوا يقذفون الحجارة بالمقالع ، ولكن ذلك الجبل كان لحسن الحظ مكونا من الرمال والآتربة الناعمة يمكن تسلقه من جميع الجهات فوزع السلطان الجيش على المسالك ، وسار بنفسه إلى المقدمة ، حيث كانت نار الحرب أشد امتعارا ووضع أبا الحسن خاف على الميمنة ، وشيروان على الميسرة .

وحمل أولئك اللثام^(١) على جيش السلطان وأبلوا بلاء حسنا ولا سيما في القطاع الذي كان يواجه السلطان . فسدوا بذلك أغلب منافذ الجبل في أغلب مواضعه بسهامهم ولعنهم ، وقد شعروا بضيق الخناق عليهم ، تجمعوا بجمعهم في مواجهة السلطان فقامت هنالك حرب طاحنة . وتقدم ثلاثة من فرسانهم المبارزين أمام السلطان ، فرفع السلطان يده ، وضرب أحدهم على صدره بعمود زنته عشرين منا^(٢) فأقرش الأرض ولم تبق له قائمة . وأظهر الغلمان من النشاط في القتال ما ألقوا به الفارسيين الآخرين على الأرض . ولهذا السبب ١١٨ جفل الغور ، وانهزموا وتراجعوا وهم يكرون ويفرون إلى قرية في أسفل الجبل . وقد تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح وامر منهم عدد هائل .

بعد أن وصل المهزمون إلى تلك القرية اتخذوها معقلا وكانت جدد منيعة ذات جواسق شيدت على طراز الغور . وبادروا بالحرب وأرسلوا النساء والأطفال والآموال إلى حصن منيع آخر يقع من ورائهم . ودامت الحرب

(١) أي الغور .

(٢) أي ما مساهل عشرة أوطال من الوزن .

سجالات حتى صلاة المغرب فقتل عدد كبير من الملعونين واستشهد كثير من المسلمين . ولما أرخى الليل سدوله أخلى أولئك اللثام القرية وولوا هاربين فاشتغل الجيش المنصور طوال الليل بنهب أموال العدو فاستولوا على غنائم وفيرة .

وأمر السلطان في الفجر بضرب الكوسات وركب قاصدا حصونهم ، على مسيرة فرسخين من معسكره ، وكان يتخلل طريقها المضائق الوعرة ، فلما بلغوها قبيل صلاة الظهر ، وجدوا أمامهم قلعة منيعة النحسين بحيث لم يكن يوجد ، كما قيل ، في مثل تحصينها ومناعتها حصن آخر في سائر بلاد الغور ولم يذكر أحد أنها فتحت يوما عنوة ، فنزل السلطان هنالك وأمر أن ينزل الجيش حول جهاتها الأربع وظلوا طوال الليل يعملون وينصبون حولها المجانيق . فلما طلع النهار وركب السلطان وتقدم إلى العمل بنفسه . ثم بدأت المجانيق تدك المتحصنين بالحجارة دكا . وقاوم الغور على الأبراج مقاومة شديدة وحاربوا حربا لم يكن أشد منها ، وكان جند السلطان كلها وصلوا إلى برج تجمع فيه رجال كثيرون وحاربوا وجها لوجه^(١) ، ودامت الحرب هكذا سجالات أياما أربعة يشتد أوراها كل يوم عما قبله من أيام . وفي اليوم الخامس اشتدت الحرب كثيرا ودارت رحاها بين الجانبين على صورة لم يقع مثلهما . وأمر السلطان غلبان الخاصة أن يتقدموا الصفوف ويضربوا العدو بسهامهم ، فتمت لهم بذلك الغلبة على الغور . وآزرت ثلاثة من المنجنوقات ضرب النبال ، وكان السلطان يأمر أن تتقدم الراية شيئا فشيئا ويتابعها ، فيشتد بذلك بأس الغلبان ويتشجعون على الحرب ، وخارت عزائم الغور وأخذوا يهربون . وسقط عند الظهر الجدار الأعظم لذلك الحصن نتيجة لضرب المجانيق المتواصل .

(١) رينهارس . حاشية ٣ من غنى - فياض .

فتصاعد الغبار والتراب والدخان والنار إلى عنان السماء ١١٩ وأصيب السور بثلاثة أهاجت ثائرة الغور ، وتدفق الجيش على تلك الثلثة من الجوانب الأربعة ، فقاوم الغور باستماتة وأبلوا بلاء حسا ، وبأوا في النهاية بالهزيمة واستولى الجيش على الحصن بحد الحسام ، وقتلوا كثيرا من الغور ، وطلب عدد كبير منهم الأمان ، فأسروا ، وكانت الغنائم والرقيق لا حد لها ، فأمر السلطان أن ينادى ، لقد وهبنا المال والذهب والفضة والرقيق للجيش ، أما الأسلحة فيجب تسليمها . فأتوا بكثير من أنواع الأسلحة إلى باب الخيمة فأخذ الخاصة منها ما هو أحسن وأندر ، ثم وزعوا سائرهما بين رجال الجيش ، وأعطوا أبا الحسن خاف نصف الأسرى وشيروان نصفهم الآخر ، ليذهبا بهم إلى ولايتيهما . وأمر السلطان ، فذك الحصن حتى سوى بالأرض كيلا يغتر بعد ذلك مفسد بوجوده . وحين بلغ أمر الحصن أسماع الغور أعلنوا الطاعة جميعا خائفين . وخشى درميش بت العاقبة لأنه علم أن السلطان إن أراد قتاله قصى عليه في أسبوع لا محالة ، فأوفد من قبله رسولا يؤكد للسلطان عبوديته وطاعته ، وأضاف كثيرا إلى ما كان قد تعهد به من الخراج والهدايا . وتوسط أبو الحسن خلف وشيروان لدى السلطان وطلبوا العفو عن درميش بت وكان قد استشفع بهما وأرسل إليهما المشافعات ، فقبل السلطان الشفاعة ولم يقصده ، وأمر أن يصرف رسوله بالحسن ، بشرط أن يتنازل سيده عن جميع ما استولى عليه من القلاع في ناحية غرجستان ، فسلم درميش بت تلك البلاد جميعها لهال^(١) السلطان على رغبته^(٢) . وأرسل كل ما تعهد به من أموال الدركاه مع أن السلطان كان ما يزال بأرض الغور . فلما وصل سالما إلى هراة

(١) كونوالان — أى رجال العلام .

(٢) النص يقول بالعربية « بلا حمد ولا أجر » .

حضر إلى الخدمة درميش بت فعمل بالعطف والخلعة ثم عاد إلى ولايته مع هذين المقدمين .

فلما فرغ السلطان من حرب الغور ، اتجه إلى حصن تور^(١) وكان حصنا منيعا مشهورا ودامت الحرب هنالك سبعة أيام ، لجأوا فيها إلى الاستعانة بشجعان الغور واستولوا على ١٢٠ الحصن عنوة وقتل كثير من الغور وحصلوا على غنائم كثيرة . ثم قفل السلطان راجعا إلى هراة بعد أن أقام كوتواله هناك . وكانت الهدايا والغنائم التي تعهد الغور بتسليمها افتداءا لأنفسهم وما تعهد به درميش بت ، وقد تجمعت كلها في مارآباد^(٢) ، التي تبعد عن هراة عشرة فراسخ وفي خلال هذه الأحوال كان السلطان يذكرني ، أنا عبد الغفار ، بتلك الرؤيا التي رآها في أرض داور ويقول : لقد عبرت جدتك الرؤيا خير تعبير فجاء صحيحا . فكنت أبدى العبودية وأقول أن هذه بادرة سعد من أعمال السلطان .

أما ذكرى حكاية الغور وحربهم فللإشارة إلى أن ملكا لم يستطع التغلب عليهم ، وبسط اليد فيهم ، لا في عهد الكفر ولا في الإسلام كما تمكن من ذلك السلطان الشهيد مسعود رضي الله عنه ؛ وحتى في أوائل عهد الفتوح الإسلامية بخراسان عندما اقتضت المشيئة الإلهية أن يعاود شأن الدين على يد أولئك الأكابر في بدء الإسلام ، وعندما هزموا العجم وزحفوا من المدائن وهرب يزدجرد ومات أو قتل ، ووقعت تلك الوقائع العظيمة المشهورة ، لم يستطيعوا الدخول في أرض الغور ، أما السلطان محمود فقد طاف مرتين أو ثلاثا بأرض داور بأطراف بلاد الغور ولكنه لم يبلغ مضايقتها ، لأنه

(١) . يذكر الكلمة بأشكال مختلفة حسب النسخ ، وهي مشكوك فيها ولم تذكر مرة أخرى في هذا الكتاب . غني - فياض حاشية • .

(٢) قرية شرقي هراة تسمى اليوم مرو . بارتولد في « تذكرة جغرافية تاريخي إيران » ص ١٠٣ . غني - فياض حاشية ٢ .

لم يستطع إلى ذلك سبيلا ولكن خططه الحربية كانت تستهدف أمورا أخرى .
وفي عهد السامانيين قصد أحد أمراءهم ، ويدعى أبو جعفر الرمادي ، بلاد الغور .
وكان أبو جعفر يعد نفسه في القوة والعدة والأبهة والعظمة صنوا لابن الحسن
سيمجور ، وأمدده أمير هراة بالعسكر والرجال وولسكنه رغم ما أبداه من الهمة
ومضاء العزيمة لم يستطع الاستيلاء إلا على خيسار وقولك^(١) . فكأنه لم يتمكن أحد
من التوغل في مجاهل بلاد الغور سوى هذا السلطان العظيم . وقد قضى كلهم
رحمة الله عليهم أجمعين .

١٢١ وما يؤثر عن يقظة هذا الملك الجليل مسعود رضى الله عنه وحزمه
واحتياطه ، إنه كان يعمد سرا في شبابه ، إبان مقامه في هراة ، إلى تناول
الشراب ، وإقامة مجالس الطرب ، فيؤتى إليه خفية بالمطربين والمطربات في
غفلة من ریحان الخادم وكان قد أمر بتشيد بيت في جوسق البستان العداني
للراحة وقت القيلولة وكانت مجهزة بأنايب تجرى فيها المياه متصاعدة من الحوض
إلى أعلا السطح بتأثير الطاسمات فتدور في الصنابير وتبلل ستائر الخيش^(٢) وقد زينت
جدران هذا البيت من السقف إلى الأرض بصور الألفية البديعة لمختلف
أوضاع اجتماع الرجال بالنساء وكلهم عراة على غرار ماصور في ذلك الكتاب من
الصور والتقصص والكلام وكان يذهب إلى تلك الغرفة حيث يقضى وقت القيلولة
هذا وللشبان أن يفعلوا مثل ذلك وأن يتمتعوا بمثل هذه المتع . على أن أباه السلطان

(١) الأصح أنها قولك ، كما جاء في زين الأخبار ومكانت فامة في بلاد الغور على حدود
جبال هراة . عى - وياس حاشية ٨
(٢) هو ماش من السكتان السميك والمراد الستائر التي كانت معلقة حول الغرفة الخاصة
براحه القيلولة ، وكانت تبلل هكذا طلبا لتلطيف الهواء ، وتلفظ هذه الكلمة في العربية بفتح
الهاء كما قال عمر الوراق :

حبشي يقتل النبا س على قطعه حبش
مرد بالشمس راس بالمنى من كل عين

محمود كان قد عين مشرفاً على نجله الأمير حين يكون في الخارج مع الدماء ، وكان على هذا المشرف أن يهوى إلى السلطان أعمال الأمير ويحصى عليه أنفاسه ولكنه لم يصل إلى ما كان في الخلوة ، وهناك مشرفون يعرفهم الأمير من قبيل الغلمان والفراشين والعجائز والمطربين وغيرهم فكانوا ينهون إليه كل ما يقفون عليه من أحوال ذلك النجل حتى لا يخفى عليه شيء ، وكان السلطان بذلك يطلع على كل شيء ومن ثم كان يؤنب الأمير في رسائله وينبهه بنصائحه ١٢٢ فهو ولي عهد ويعرف أن سرير الملك سيكون له . وكما كان لأبيه عليه جواسيس في السير كذلك كان لمسعود هو الآخر على أبيه مثلهم لينهوا إليه كل ما يجري ، وكان من جملة أولئك نوشتكين الخاصة ، أقرب المقربين إلى السلطان محمود ، وعمته الأميرة الحرة الختلية . فانتقل إلى السلطان خبر هذا البيت المصور على غرار الألقبة وبينوا علامة عليه بقولهم : بعد المرور بالسراي العدناني يوجد بستان واسع وعلى يمينه حوض كبير وهذا البيت على حافة الحوض من الجهة اليسرى ، وهو مقفل الأبواب ليلاً ونهاراً بقفائين أحدهما من أعلى والآخر من أسفل ولا يفتح إلا حينما يذهب إليه الأمير مسعود للوم وفاتحتهما في يد غلام يدعى بشارت .

ولما وقف السلطان على هذا الخبر ، جاء إلى الحركاه وقت القيلولة ، وحدث نوشتكين الخاصة الخادم بهذا الحديث وأمره أن يدعو فلانا الفارس الذي كان فذا في ركوب الخيل والهدو ليستعد حتى يوفد في مهمة إلى جهة ما ويسرع في الذهاب ويعرف حال هذا البيت ، وينبغي أن لا يعلم بذلك أحد .

فقال نوشتكين « سماعاً وطاعة » ونام السلطان وعاد هذا إلى وثاقه فعمين فارساً من مهرة فرسانه ومعه ثلاثة خيول من نجائب سبله واتفق معه أن يذهب سرّاً في ستة أيام بلياليها إلى الأمير مسعود بهراة وكتب رقعة بخطه للأمير

يبين فيها الأحوال وقال سيصل بعد هذا يوم ونصف فارس من
لدى السلطان لي شاهد ذلك البيت ، وأن هذا الفارس لن يهاب أحداً ،
وسيزهد من فوره لي كسر الأقفال . فعلى الأمير أن يسار بتلافى كل ذلك
بما ينبغي .

سار ذلك المارد يعدو بفروسه حالا شطر هراة ، ثم أرسل نوشتكين يدعو
الفارس الذى عهد إليه من قبل السلطان بالسير إلى هراة فجاء فى أتم استعداد .

واستيقظ السلطان محمود بين الصلاتين وأدى صلاة الظهر ، ثم أرسل
يستدعى نوشتكين وسأله « هل حضر الفارس » فأجاب نوشتكين « إنه الآن
فى وثاقى » فقال « هات الدواة والقرطاس » فقدمهما نوشتكين ، وكتب السلطان
بيده الكتاب المفتوح^(١) ١٢٣ الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، يأمر محمود بن سبتكتكين ، هذا الفارس أن
يذهب فى ثمانية أيام إلى هراة ، على أن يذهب فور وصوله إليها إلى قصر ولدى
مسعود ولا يهاب أحداً ، وليسل سيفه ويضرب عنق كل من يحاول منعه من
الوصول إلى ذلك المكان ، كما يجب عليه أن يدخل القصر ولا يلتفت إلى ولدى ،
فيدخل من السراى العذنانى إلى البستان الداخلى فيجد إلى يمين البستان حوضا
على حافته اليسرى بيت فليلجى البيت ويمعن بدقة فى جدرانه ، وينظر له بدقة^(٢) ،
ثم يتقارب عائدا دون توان إلى غزته ولا يكلمن أحداً وعلى قتلغ تكين بهشتى
الحاجب^(٣) أن ينفذ هذا الأمر ، إن يريد حياته ، أما إن تمهل فى ذلك فستزهق

(١) كفاية نامه والمقصود به نامه سر كفاية مثل العزمانيات والمنشورات . عي . ميام
حاشية ٣ .

(٢) در جزى دیدى ای ينظر اليه بدقة . غي . فاض حاشية ٤ .

(٣) حاكم هراة من قبل السلطان محمود فى ذلك الحين .

روحه ، وعليه كذلك أن يمد الفارس بكل ما ينبغي له من العون والإمداد ، حتى يقع له ذلك موقع الرضى ، بمشيئة الله وعونه والسلام .

وبعد أن تم تحرير هذه الرسالة أدنى الفارس منه . وختمها بخاتمة ثم سلمها إليه وقال : « يجب عليك أن تصل إلى هرات في ثمانية أيام وأن تفعل كذا وكذا وأن تكتشف ما ذكر من الأجوال وأن تخفى هذا الحديث » فقل الفارس الأرض وهو يقول « سماعاً وطاعة » ورجع ثم قال السلطان لنوشتكين الخاصة يجب أن تعطى أحد الجياد السريعة لهذا الفارس من الاصطبل مع خمسة آلاف درهم . فخرج نوشتكين وأمضى النهار بطوله ^(١) بحجة انتفاء ^(٢) الجواد وتسليم الفضة إلى الليل وسلمها ليد الفارس ، فذهب مسرعاً .

وكان فارس نوشتكين المغوار قد وصل إلى هرات في الوقت الذى عين له بالضبط وقرأ الأمير مسعود الرقعة ، ثم أمر بإنزال الفارس فى مكان ما ، كما أمر فأحضروا ١٢٤ فوراً الجصاصين فبيضوا الجدار بالجنس الأبيض الناصع ، بحيث يظن أنه لم يكن قط أى نقش على هذا الجدار ، ثم أسدلت الستائر وأحكمت ، وأغلقوا الأبواب ، فلم يدر أحد شيئاً عن حقيقة ما كان .

وعقب وصول فارس نوشتكين . دخل المدينة فى وضوح النهار الساعى الموفد من قبل السلطان ، وقد وافق ذلك اليوم الثامن ، وكان الأمير مسعود مجتمعاً بالندماء فى صفة السراى العدنانى كما كان الحاجب قتلغ تكين هو وسائر الحجاب وأهل المراتب والحشم جميعاً على باب السراى ، وما أن وصل الساعى حتى ترجل عن حصانه واستل سيفه وتأبط دبوسه ، وترك الجواد ، فهض إليه فوراً قتلغ تكين وخاطبه قائلاً : ما شأنك ؟ فلم يجبه بشيء وسلمه

(١) فى النص روزراى سوخت نازاز شام را ، أى أمضى اليوم عبثاً ، حتى صلاة المغرب .

(٢) فى النص به كزين كردن .

الرسالة ثم دخل السراى . فقرأ قتلخ الرسالة ثم قدمها إلى الأمير مسعود قائلاً :
ماذا يجب أن نعمل ؟ فأجاب الأمير : ينبغي تنفيذ أى أمر . وانتشرت
الهزاهز^(١) فى القصر .

وسار الفارس إلى باب ذلك البيت ، فوضع الدبوس وحطم القفلين وفتح
الباب ودخل الغرفة ، فرآها نظيفة بيضاء وقد أسدات سنائرهما ، فخرج وقبل
الأرض بين يدى الأمير مسعود . وقال : ليس بد للعبيد من الطاعة فلم يكن
ما بدر منى تجاوزا عن الأدب إلا بأمر من السلطان محمود ، هذا وقد أمرت أن
أعود فى الوقت الذى أشاهد فيه هذا البيت ، وأنى الآن عائد . فقال الأمير
مسعود : لقد أتيت فى الوقت المقرر ، ونفذت أوامر السلطان الوالد فامكث
الآن يوما واحدا بأمر منا إذ من الممكن أن يكونوا قد أخطأوا فى ذكر مكان
البيت فيرشدونك إلى كافة القصور والبيوت والغرف . فقال : سأمثل هذا
الأمر ولو أنى لم أؤمر بذلك . ثم ركب الأمير وأمر أن يسير جميع سكان
القصور إلى بستان بيلاب وكان على فرسخين من هراة فى بقعة حصينة
يسكن فيها مع أتباعه ١٢٥ وذهب الخدم والغلمان ، وما أن أخابت الدور
والقصور حتى أخذ قتاغ تكين بهشتى والمشرى وصاحب البريد يطوفون
بالفارس فى كل مكان ، ومن ثم أقر بأنه لا توجد ثمة أى غرفة لها من الأوصاف
ما أنهوه إلى السلطان ، وحررت محاضر بواقع الحال وأعطوا الفارس عشرة
آلاف درهم ثم هرفوه ، وعاد الأمير مسعود رضى الله عنه إلى هراة .

وبعد أن رجع الفارس إلى غزنه ذكر كل ماجرى هنالك ، وقرئت
الرسائل . فقال السلطان محمود رحمة الله عليه : إنهم يلفقون ضد ولدى
الأكاذيب . وكف بعد ذلك عن النظر أو البحث فى أمثال هذه الأمور .

(١) الهززة والهزاهز تحريك البلايا للناس والحروب .

وقد مارس الأمير مسعود ، أيام صباه وصدر شبابه ، أنواع الرياضات المختلفة كالمصارعة وحمل الأحجار الثقيلة والمبارزة ، كما أوعز ببناء أماكن خاصة^(١) لإيواء الحواصل وغيرها من الطيور ، ولقد شاهده عدة مرات يركب في أيام باردة عصفية ، وقد بلغ الثأج غايته ، حيث يمارس الصيد هنالك ، ثم يترجل ويسير على الأرض ، وقد احتمل إلى وقت الصلاتين من المتاعب ما لا يحتمله غير الحجر الصلد ، فكان يابس الحف عارى القدمين في سورة برد الشتاء القارس وهو يردد قوله : ينبغي التعود على مثل ذلك ، حتى لا يعجز المرء إذا ما قابلته مهام صعاب أو ساعات شداد . وكذلك كان يذهب إلى ختن اسفزار وأدرشكن^(٢) ومنها إلى فراه وزيركاه وشيرنر^(٣) ، ثم يعود إلى بست وغزنة . وكان يبارز الأسد وحده ولا يأذن للعبيد أو الخدم في أن يساعده بشيء . وكان من قوة القلب ورباطة الجأش بحيث كان إذا ضرب أسدا ضربة ولم تؤثر فيه برز إلى الأسد برجولة ١٢٦ مكابرا حتى يقبض عليه ثم يقضى عليه فورا . وفي الأيام التي مرت عليه وهو يسير إلى ناحية مولتان ليقم فيها منفيا من قبل والده السلطان نتيجة لما حيك ضده من الدسائس ، وهي قصة طويلة في تلك الأيام بارز أسدا في حدود قيقان^(٤) رغم أنه كان مصابا بالحمى^(٥) وكان من عاداته في صيد الأسود أن يمسك بحربة^(٦) قصيرة مشبته

(١) آوارها . وقد ترجمناها بأماكن خاصة . وذهب غنى - فياض إلى ذكر ما جاء في حاشية ١ ب من أنها اسم آلة تستخدم لصيد الطيور . انظر الحاشية ١ .

(٢) مدينة شرق اسفزار .

(٣) كلمة شيرنر عامضة وذهب غنى - فياض إلى أنها خطأ . حاشية ٤ . وعندنا أن السمرقند بقصد مها صيد السباع .

(٤) يعني ولاية كيان بالفارسية ، والمقصود بها هنا ولاية في السند بجانب خراسان ، غنى - فياض حاشية ٢ .

(٥) تب جهارم . وهي حمى الربيع وهي قسم من حمى النوبة . اصطلاح طبي قديم . انظر جهار مقالته . بالعربية لعزام والحشاب ص ٧٥ .

(٦) خشقي - وخشت حربة قصيرة تشبه الرمح . انظر غنى - فياض حاشية ٤ .

إلى يد قوية ورمح حتى إذا لم يصب الأسد بالحرية القصيرة ، تلقاه بالرمح الآخر وأوقف الأسد في مكانه . وكان في كل ذلك يعتمد على قوة بأسه ومضاء عزمه ، فيدور مدة بالأسد حول الرمح حتى ينهكه تعباً ويسقطه ، وقد يكون الأسد قوياً ، شرساً ، فيأمر عند ذلك الغلمان بمساعدته ، فيحملون معه على الأسد ويضربونه بالسيوف والطبرزين^(١) . ولكن الأسد تزحزح عن مكانه في ذلك اليوم فلم يصب المضرب القصير رأسه ، فضربه الأمير في صدره ضربة مميتة بالرمح الآخر ، بيد أن الأمير لما كان فيه من ضعف الجنى لم يستطع تثبيت الرمح في موضعه ، وكان الأسد كبير الجسم خفيف الحركة عظيم القوة ، فكسر الرمح وقصد الأمير فأنزل الأمير الباسل القوى الشكيمة ضربة بكفى يديه على رأس الأسد ووجهه فحطم الأسد وسقط ، ثم أخذ الأمير يضغظ عليه وهو ينادى الغلمان فبادر إليه غلام سيف اسمه قماش ، ويدعوه أهل البلاط جازدار^(٢) ، فضرب الأسد بسيفه ضربة قوية أجهزت عليه . وقد أثار هذا دهشة الحاضرين وحيرتهم فصدقوا ما جاء في الكتب عن شدة بأس بهرام كور ورباطة جأشه .

أما بعد ذلك فقد بلغ الأمير من القوة والصلابة بحيث أخذ يمارس الصيد على ظهور الفيلة وقد شاهده مرة يصطاد في حدود الهند وهو راكب على فيل غتى وجهه بالحديد كما هي العادة وإذا بأسد هائل يخرج إليه من الاسكة ويهجم على الفيل ، فصبوب الأمير مضرباً أصاب صدر الأسد فجرحه جرحاً بالغاً جعله يحتاج من شدة الألم فوثب وثبة وقع ١٢٧ بها على ظهر الفيل ، فاضطرب الفيل ، ونهض الأمير على ركبتيه وضرب الأسد بسيفه ضربة أطاحت يديه فخر الأسد على ركبتيه ميتاً . واعترف كل من شهدوا هذا بأنهم لم يروا مثل تلك الشجاعة من أحد .

(١) ناخج - نوع من الطبرزين ، غر - فياض حاشية ه .

(٢) بمعنى الجري .

وقبل أن يتبوا سرير الملك وكان يقصد هراه ، سار يوما^(١) للتنزه ، فقتل في يوم واحد ثمانية من الأسود ، واصطاد واحدا بالوهق وعند ما نزل من الخيمة مال إلى الشراب ، وكنت أنا ، عبد الغفار ، إذ ذاك واقفا ، ودار الحديث حول تلك الأسود ، فأخذ كل يبدى الثناء وطلب الخواجة أبو سهل الزوزنى دواة وقرطاسا ونظم أبياتا من الشعر لطيفة للغاية كعادته فقد كان فريده عصره في اللغة من الشعر والأدب ، وراقت الأمير تلك الأبيات واستحسنها كما أعجب الجميع بها ونسخوها وكذلك نسختها أيضا ولكني فقدتها فلا أذكر منها الآن غير أبيات علقمت بذهني ورغم أنها غير متتالية^(٢) فسأذكرها لنتهي بها هذه القصة .

والأبيات للشيخ أبي سهل الزوزنى في مدح السلطان الأعظم مسعود ابن محمود رضي الله عنهما « شعر » :

السيف والرمح والنشاب والوتر	غنيت عنها وحاكي رأيك القدر
ما إن نهضت لأمر عز مطالبه	إلا اثنتيت وفي أظفارك الظفر
من كان يصطاد في ركض ثمانية	من الضراغم هانت عنده البشر
إذا طلعت فلا شمس ولا قمر	وإذا سمحت فلا بحر ولا مطر

وقد قال هذا السيد صدقا ، فلك الصفات بل أكثر منها ، كانت من مزايا هذا السلطان فجاء الشعر درا جميلا ، فلم يكن هذا الشعر مصداق ما يقولون « أحسن الشعر أكذبه » .

أما شجاعته وقوة قلبه وجراته فكانت كما قدمنا ، وأما سخاؤه فكان

(١) العبارة هنا في النص المارسي معها « ساريوما » وبرى المصححان الفارسيان أنها محمل تأمل ، ونرى أن المقصود « تصيد يوما » .

(٢) استخدم برولى - وفسرها غنى - فياس على التوالى . حاشية ٢ .

بحيث أعطى ١٢٨ ذات ليلة تاجرا يدعى أبو مطيع السجزي ستة عشر ألف دينار ، ولهذه الصلة حكاية فقد كان أبو مطيع هذا رجلا ذا مال ، عنده من كل شيء ، وكان أبوه يدعى أبو أحمد خليل ومن المصادفات الطيبة انه أتى إلى القصر ليلة ليقابل الحاجب في مهمة تخصه فمكث هنالك طويلا ، ولما أراد أن يعود إلى داره خشى أن يصادفه في الطريق مايزعج خاطره فبقى الليل في دهايز الخاصة ، ولما كان معروفا لدى فقد أكرموا وفادته واستقر هنالك ولطفه العرفاء ، وفي تلك الأثناء جاء خادم يطلب محدثاً وصادف أن لم يكن هنالك وقتئذ أحد من المحدثين ، فنهض ذلك الرجل البيل أي أبي أحمد وذهب مع الغلام وظن الخادم أنه المحدث فلما وصلا إلى سرادق السلطان ، بادر أبو أحمد بالحديث . واستغرب السلطان صوته ، فنظر خلسة فعرف الرجل ولكنه لم يقل شيئا ، حتى انتهى من حديثه الذي كان لطيفاً عذبا ، فسأله السلطان « من أنت » فأجاب « أنا العبد أبو أحمد خليل ، والد أبي مطيع نريك مولانا » فسأله السلطان « ما مقدار المحصولات التي سلمها المستوفون في هذه السنوات لابنك » فأجاب « تبلغ ستة عشر ألف دينار » فقال السلطان لقد وهبت المبلغ كله احتراماً لشيخوختك وتقديراً لنجلك » فدعا الشيخ له دعاء حارا ، ثم عاد إلى مقامه وكانوا قد أتوا بغلام تركي من غلمان ابنه ليشتريه السلطان . فقال السلطان : أعطوه هذا العبد أيضاً ، لأننا لا نريد ولا نحب أن يدخل شيء بماله في ملكنا . وليس اعظم من ذلك همة ومروءة . وقد أكرم بأكثر من هذا رجلا يدعى مانك علي ميمون ، وكان مانك هذا من أعيان غزنة وأثريائها وقد ترك بعد وفاته أموالا وأوقافا كثيرة ، منها الرباط الذي يقيم فيه الخواجة الإمام أبو صادق التباني أدام الله بقاءه ، وسبأني ذكر هذا الإمام بالتفصيل في موضعه إن شاء الله عز وجل .

أما قصة مانك مع الأمير فهي أنه كان يجهز كل عام صنوفا من شتى الأطعمة

والأدام^(١) اللذيد ويهديها إلى السلطان محمود رحمة الله عليه . فأول ما وصل الملك ١٢٩ السلطان مسعود ، وقدم من بلخ إلى غزنة أهداه أنواعا من الأطعمة المجهرة والأقشعة القطنية التي حاكمتها فضليات النساء . وسر السلطان بتلك الهدايا وعطف عليه وقال إن كل الأغنام التي عنده لأبي وهبتها له . كما ينبغي أن تسلم له أغنامنا الخاصة التي جاء بها من هراة ليرعاها . ويجب التساهل معه في حساب تلك الأغنام لتدر عليه فائدة تامة لأنه رجل صالح ومن يعول عليهم . وقد بادروا سريعا إلى تنفيذ هذه الأوامر . وفي السنة التالية سار السلطان إلى باخ للنظر في المهام التي سئدكرها بعد ، فأرسل مائك على ميمون جريا على عادته ، كثيرا من النقل والمأكولات بالإضافة إلى القديد^(٢) وغيره ، وطلب من صديقه ميكائيل البزاز أن يحملها إلى السلطان وأرسل معها قائمة الحساب مبينا بها أنه قد بقي في ذمته خمسون ألف دينار وستة عشر ألفا من الأغنام ، وقد التمس أن يعهد إلى شخص آخر بالأغنام السلطانية التي لديه ، لأنه أصبح شيخا هرما لا يستطيع الاستمرار في تعهدها على أن يمنح مهلة ثلاث سنوات يستطيع خلالها أداء ما في ذمته منجما . وقد كنت — أعني عبد الغفار — واقفا عندما تقدم ميكائيل البزاز بذلك النقل والأطعمة المجهزة ورفعوا أغطية الأواني وأخرجوا منها النقل ولطيف المأكولات ، فشاهدت ميكائيل يعرض القائمة مع القصة على السلطان فأشار السلطان إلى لا تسلمها منه وأقرأها فأخذتها وقرأتها ، فضحك وهو يقول « إن لمائك حقاً كبيرا على أسرتنا وقد وهبت له هذه الأغنام

(١) كامها وقد شرحها غنى بـ فياض وآثرنا ترجمتها على هذا النحو . حاشية ٧ .

(٢) أشار غنى بـ فياض إلى أن أهل تركستان وأفغانستان يكون الفديدي حتى اليوم . فهم يحفظون اللحم في أشهر الصيف حتى إذا حل الشتاء وأحاط بهم الثلج أكلوا ما اختزنوا منه . حاشية ١ .

وذلك الريع فليذهب عبد الغفار إلى ديوان الاستيفاء فيخبر المستوفين ليستقوا ما في ذمته من أموال ، فكتبت بهذا المعنى أمرا وقعه وقد ارتفع شأن مانك لهذا السبب . ولعمري لا تظهر أمثال هذه المواهب إلا من أصحاب الهمة العالية والصدور الواسعة ، ألا فليتعبدن الله ذلك الملك العظيم .

وهناك قصة أخرى ، أجل وأعظم من هذه ، مع أبي سعيد سهل الذي كان ١٣٠ يشغل منصب كتخدا وصاحب ديوان العرض فترة ما للأمير نصر أخى السلطان محمود تغمدهم الله برحمته . وقد عهد السلطان محمود إليه ، بعد أن توفي الأمير نصر ، بالقيام على شئون ضياع غزنة كلها ، وقد كان هذا العمل ، من حيث أهميته ، يعدل عمل صاحب الديوان في غزنة ، واستمر أبو سعيد في هذه الخدمة مدة طويلة ، إلى أن توفي السلطان محمود فأُسند إليه السلطان مسعود عمل صاحب الديوان بالإضافة إلى عمله في مباشرة الضياع السلطانية ، وقد ظل خمسة عشر عاما في مراقبة هذه الشؤون إلى أن أمر السلطان يوما بمحاسبته لحسابه المستوفون فبلغت الأموال سبعة عشر ألف ألف درهم ، ولم يكن لديه من أمواله الخاصة سوى ألف ألف درهم ، فأخذ الجميع يتساءلون عما ستؤول إليه حال أبي سعيد مع ما في ذمته من هذا المال الكثير ، وقد كان هذا لأنهم شاهدوا ما كان يتخذه السلطان محمود من الشدة ، كالضرب بالسياط وقطع الأيدي والأرجل والتعذيب أثناء محاسبة معد لدار عامل هرات وأبي سعيد الخاص صاحب غزنة وعامل كرديز^(١) . إلا أن السلطان مسعود كان واسع الرحمة كثير الحياء ، وفضلا عن ذلك فإن أبا سعيد كان قد أدى له خدمات خالصة أثناء مباشرته ضياعه الخاصة على عهد السلطان محمود ، فلما عرض عليه الأمر وعرف أن في ذمة أبي سعيد كل هذا المال العظيم أمر بإحضار طاهر المستوفي

(١) بلدة بين غزنة والهند (ياقوت) حاشية ٤ من غنى - فياض .

وأبي سعيد وقال ، ينبغي أن تدبنا إلى حقيقة هذه الحال . فأخذ طاهر يوضح الحساب للسلطان بابا بابا ، حتى ظهر من ذلك أن أبا سعيد لا يملك إلا ألف ألف درهم وما يبقى في ذمته وهو ستة عشر ألف ألف درهم لا يظهر لها أثر في أى مكان . ومن المسلم به أن أبا سعيد مكلف بدفع هذه المبالغ من أمواله الخاصة .

نخاطب السلطان أبا سعيد بقوله : ما تقول في هذا الأمر ؟ فقال : أدام الله حياة السلطان إن أعمال غزاة كبحر عميق لا حد لغوره ، وأقسم بالله وبحياة السلطان أنى لم أخنه فى شيء وهذا الباقي من عدة سنين وهذا الريع هو من حق مولاي على عمده ١٣١ . فقال السلطان « لقد وهبتك هذا المال ، لأن لك هذا الحق ، فقم واذهب إلى دارك سالما » فبكى أبو سعيد من شدة الفرح متوجعا . وقال له طاهر المستوفى « ليس هنا مكان للحزن والبكاء ، بل هنا مقام الشكر والسرور » فرد أبو سعيد قائلا « إننى أبكى لأننا نخدم ملكا على هذه المنزلة العظيمة من الحلم والصفح والعطف علينا ، ترى ماذا كانت أحوالنا تكون إذا لم يكن يشملنا بهذه العناية والرفقة » . فأثنى السلطان عليه وعاد . ليس لأحد همه أعلى من هذه . وقد ذهبوا جميعا رحمة الله عليهم أجمعين .

أما هبات السلطان وصلاته للشعراء فإنها لا تحصى ، فقد وهب فى ليلة للشاعر علوى الزينى ما يساوى فيل وار^(١) أى ألف ألف من الدراهم التى يبلغ عيار كل عشرة منها تسعة دراهم ونصف من خالص الفضة ، وأمر أن تحمل هذه الجائزة الكبيرة على فيل إلى دار العلوى المذكور . أما هباته التى كانت من ألف دينار أو خمسمائة دينار أو عشرة آلاف درهم أو أقل أو أكثر من ذلك فلم يكن لها عد أو حصر ، وكثيرا ما كان يهبها للشعراء والندماء والخدم إذ كان يتحين

(١) العنابر أن هذه الكلمة بدل على أكبر الأوزان المتعارفة فى ذلك العصر .

الفرص ليهم شيئاً . وقد كانت هباته في أول عهده بلا حساب ، ولكن تلك الرياح تراخت في آخر أيامه قليلاً ومن عادات الزمان أن شيئاً لا يبقى على حال واحدة ، إذ كل الأشياء عرضة للتغيير والتبديل والنقص والكمال .

وكذلك كان السلطان مسعود آية زمانه في الحلم والعفو ، فقد جاء مرة إلى غزنة وعلم أن الخدم قد صدرت منهم أخطاء كثيرة وذنوب لا يجوز الصفح عنها فقال السلطان لحاجب السراي « يجب أن يجلد هؤلاء العشرون فراشا عشرين جلدة » فظن الحاجب أن السلطان يأمر بعشرين جلدة لكل منهم ، وبدأوا يضربون أحدهم خارج الدار فأخذ يصبح مستغيثاً بعد جلدات ثلاث . فقال السلطان . لقد أمرنا أن يجلد كل منهم جلدة واحدة وقد صفحناعنهم فلا تضربوهم فنجوا جميعاً ، ولعمري إن هذا لغاية الحلم والكرم ، وما أحسن العفو عند المقدرة ١٣٢ .

وعندما قصد السلطان محمود الري من جرجان وأقر ما ينبغي لإقراره بين ولديه الأميرين محمد ومسعود ، وطلب في ذلك اليوم أن يؤتى للأمير محمد بالجواد الخاص بأمير خراسان على باب القصر ، فركبه عائداً إلى نيسابور وسار الأميران محمود ومسعود ، الوالد والولد ، إلى الري في اليوم التالي . فلما استقرت الأحوال هنالك وعقد السلطان محمودالنية على العودة خلع على مسعود ، وأرسل إليه أبا الحسن العقيلي يبلغه قوله « إني كما سمعت قد أمرت أن يحضروا لنجلنا « الأمير محمد » جواد أمير خراسان على باب قصرنا ، وأنت اليوم خليفتنا في هذه البلاد ، ولك بشئونها معرفة واسعة فأى شيء تختار لنفسك ، هل تفضل أن يوصف جوادك بجواد الشاهنشاه أو يعرف بجواد أمير العراق ؟ » فلما سمع الأمير مسعود مقالة والده قبل الأرض ثم جلس ، وهو يقول « قل لمولانا كيف يمكن أن أشكر رعايته الشاملة ، فإنه يمن علي كل يوم بمكرمه ويشرفني بمنحة لم تخطر بالبال . ولا يرجي من الملوك إلا أن يبذلوا لأبنائهم كل يوم عناية جليلة ، ويتكرموا

عليهم بالآلقاب السنية منذ ولادتهم هذا وينبغي على الأبناء أن يتهياؤوا للخدمة عندما يبلغون سن الرشد ليرتفع صيتهم . وقد من مولاي على بأعظم منة إذ سماني مسعود والأعظم من ذلك أنه على وزن اسمه محمود دامت حياته . واليوم إذ أبتعد عن خدمة مولاي ورؤيته أمثالا للأمر أرى لزما أن يبقى بهذا الاسم حتى يتفضل على كل يوم بمكرمة جديدة . وإذا أراد الله أن أدعى بذلك الاسم ، فسأبلغ بفضل مولاي ، وقد كنت أنا ، عبد الغفار ، حاضرا عندما رد الأمير بهذا الجواب ثم سمعت بعد ذلك أن السلطان محمود اعتراه الخجل عند سماعه هذا الجواب وتأثر به وقال ما معناه لقد أحسن القول أيما إحسان فالرجل كل الرجل من يشتهر بالفضل .

وحيثما سار السلطان ونجده رضى الله عنهما من جرجان إلى الري ، ١٣٣ كان في الخدمة نفر من غلمان السلطان محمود مثل قاي أغلن وأرسلان وحاجب جابك ممن نالوا بهد ذلك منصب الحجابة في عهد السلطان مسعود رضى الله عنه ، وقد اتفق نفر من السرهنكية ورؤساء الغلمان " سرا مع الأمير الطفل الذي كان على رأس غوغاه غلمان القصر فأخذوا يبدون له الخضوع والولاء ويبلغونه مشافهات بواسطة فراش يروح ويغدو ويبنهم ، وكان السلطان محمود قد استمع إلى قليل من تلك المشافهات ، لأن الأمير محمد كان لديه أناس يعملون خفية على التحري والتحقيق في أعمال أخيه وكانوا يعملون دائما على إساءة سمعة الأمير مسعود لدى والده .

وقد عزم السلطان الأب يوما على اعتقال الأمير مسعود في منزل من منازل الطريق يعرف به چاشت خواران وحضر الأمير مسعود عند صلاة العصر

(١) سر وثاقان ، مفردا سر وثاق أى رئيس عنبر من عنابر الغلمان أو رئيس الغلمان عامة وعبر عنه نظام الملك في سياستنامه بكلمة وثاقباشى (لا وشاقباشى) أنظر ص ١٢٩ من سياستنامه نشر إقبال طبعة طهران ، حاشية ٣ .

لزيارة والده ومكث ساعة وقام عائدا فأتاه أبو الحسن الكرخي^(١) يقول له إن مولانا يأمرك أن لا تعود ، وأن تمكث في خيمة النوبة هنا ، لأننا عازمون على الشراب ونحن نريد أن تشرب معنا ، لتنال هذه الخطوة . فجلس الأمير مسعود في خيمة النوبة مسرورا بهذا التشریف العظيم ، وجاء على التو ذلك الفراش العجوز برسالة الغلمان : ينبغي أن يكون الأمير يقظا ، إذ يبدو أن السلطان الأب يقصدك بشيء . ففلق الأمير مسعود لذلك قلقا شديدا ، وأوعز في الحال إلى خواص غلمانه أن كونوا يقظين وأسرجوا الجياد واحملوا السلاح لأن الأحوال تستدعي ذلك . فطفق هؤلاء يتحركون ، وأخذ غلمان السلطان محمود يلغطون ، وعم الذعر أركان المعسكر . وأطلعوا السلطان محمود في الحال على ما جرى فبهت لأنه عرف أن غرضه لن يتم وأن شرا يصعب تلافيه قد يقع . فأرسل أبا الحسن العقيلي إلى ولده قبيل المغرب يقول له : لقد كنا عازمين على أن نجلس اليوم للشراب على أن تشاركنا فيه ، ولكن أمامنا مهمة كبيرة والوقت غير مناسب ، فارجع الآن بالسعادة إلى مقامك ، ويرجأ هذا إلى حين وصولنا الرى وبعد الوصول ثمة سالمين إليها تنال هذا التشریف .

١٣٤٤ فقبل الأمير مسعود الأرض وعاد مسرورا ، وجاء الفراش العجوز مسرعا : سالة الغلمان يقولون ، انتهى الأمر بكل خير ، وكنا قد صممنا على أن نشير فتنة إذا قصدوا الأمير بسوء . فإن عددا كبيرا من الغلمان قد التحقوا بنا وهم رهن إشارتنا . فأبدى الأمير مسعود عليهم العطف ووعدهم بالحسن وانتهت الأحوال بسلام . وبعد ذلك جلس السلطان محمود عدة مرات للشراب في عرض الطريق وكذلك في الرى ولم يستطع إشراك هذا النجل في الشراب ، فحدث الأمير مسعود في الخلوة إلى عبيده وثقاته قائلا سرا : لقد أرادني أبي بسوء ولم يرد الله ذلك .

(١) هكذا في جميع النسخ . وذكره صاحب تنمية البنية بالجيم السرجي (ج ٢ ص ٦٧)

ونزل السلطان محمود ، عندما وصلوا إلى الري ، في موضع دولاب قرب المدينة على طريق طبرستان بينما أقام الأمير مسعود معسكره في « على آباد » على طريق قزوین فكانت المسافة بين المعسكرين نصف فرسخ ، واشتد الحر هناك وركد الهواء فقضى الأكابر والزعماء القيلولة في السراييب وأعدوا للأمير مسعود سردابا لطيفا واسعا قضى فيه الوقت من الضحى حتى صلاة العصر ينام ويلهو ويشرب سرا ويأمر بتدبير شئونه الخاصة ، فجاء ، في يوم^(١) قائظ غدا ان السلطان محمود ومقدموه أولئك مشاة منكرين في الثياب الكرباسية التي تستخدم أثناء المطر وعلى رؤوسهم العمام إلى حيث نزل الأمير مسعود وكان الوقت ظهرا وقد بلغ الحر أشده فاستقدمهم فيروز الوزير الخادم الخبير بهذه الأسرار إلى حضرة الأمير في السرداب فأدوا مراسم الخدمة فلاطفهم الأمير وأكرمهم ووعدهم بالحسنی ، فقالوا : أطال الله حياة مولانا إن السلطان الوالد يضرر لكم السوء ويبغى القبض عليك إلا أنه يخشى أن يفعل ذلك لعله بأن القوم قد ملوا حكمه ، وأن أقدامه على ذلك ربما يؤدي إلى مكروه عظيم فإن يأمر مولانا والعميد والغلمان كلهم على اتفاق في حبك قبضنا عليه فيفرغ فؤادك وتستريح من هذا الهم فإننا إذا ثرنا انضم إلينا الآخرون فأجاب الأمير : إني لا أطيق ١٣ التفكير في هذا الكلام ، فكيف بالعمل به ، ان للسلطان محمود أبي وأنا لا أتحمل أن تعصف ريح عاتية لتأنيبه وأنا مرتاح فإنه ملك لا نظير له في العالم ، ولو أن شيئا من هذا تم والعياذ بالله ، للحقنا عار لا تمحي آثاره إلى يوم القيامة ، ولعمري فقد شاخ وطعن في السن وأخذ منه الضعف مأخذا وإنى لأرجو من الله بقاءه ولا أتوقع منكم شيئا غير الوفاء ببيعتي عندما يأتيه الأجل المحتوم المقدر لكل ذي روح في هذا العالم ، ثم أمرني أنا عبد الغفار ، بأن أستحلفهم وأطلب إليهم أن يعودوا إلى حيث أتوا .

وكانت بين الأمير مسعود وأمير طبرستان منوچهر قابوس وإلى جرجان وطبرستان مراسلات متصلة سرية للغاية إبان وجوده في هراة وفي هذه الأيام أيضا ، وكان قد أرسل إلى حضرة الأمير مسعود رجلا يدعى حسن^(١) ليقوم بوظيفة المحدث ، ويسلم المشافعات والرسائل ويحملها بين آونة وأخرى ، وكلما أوفده إلى جرجان تذرع بحجة أنه ذاهب للإتيان ببذور الرياحين^(٢) والمواالح من الفاكهة^(٣) وغيرها . وقد ذهب هذا المحدث عندما كان السلطان محمود وابنه مسعود بجرجان وقد عزم على السفر منها إلى الري إلى مقر منوچهر قابوس بأسترآباد^(٤) ، فأرجعه منوچهر ومعه رجل من ثقافته يشبه الأعراب ويرتدي زيهم وكان جلدا منطيقا ، وقد أرسل معه الكثير من أنواع الطرف والهدايا من جرجان ودهستان^(٥) وجملة من الرسائل والكتب المرسلة سرا من منوچهر للأمير مسعود وذلك فضلا عما كان قد أرسله إلى السلطان محمود نفسه . وقد تردد معتمداه ، أى هذا المحدث وصاحبه ، مرة أو مرتين وانتهى الأمر بمنوچهر إلى أن طلب من الأمير مسعود عهدا وميثاقا كما هي العادة بين الملوك .

وفي أحد ليلى تلك الأيام السعيدة جاء بعد صلاة العشاء الموكل بالستار الذى ١٣٦ يشغل الآن ، أى فى عهد السلطان المعظم أبو شجاع فرخ زاد بن نادر دين الله منصب كوتوال قلعة سكاوند^(٥) ، يدعونى أنا عبد الغفار وقد أدركت أنه إنما أتى لمهمة فأعددت العدة لكل ما يقتضى ذلك ، وذهبت معه

(١) سهرغم وهو الربحان وكل حصرة ذكي، الرائحة ، غنى — فياض حاشية ٢ .

(٢) هكذا رحمتا قول السهوى ترنج وطبها .

(٣) فى النص ستار آباد وهو شكل آخر لكلمة اسر آباد ، عنى — فياض حاشية ٤ .

(٤) تطلق كلمة دهستان على أماكن عدة . والمقصود بها هنا الناحية المطلة على بحر الخزر والمتصلة بجرجان . وصبطها ياقوت بكسر الدال . والمستشرقون يسمونها إلى دها وهو اسم طائفة ، ويضبطونها لداك بالفتح . عنى — فياض حاشية ٥ .

(٥) كانت سكاوند بلدة صغيرة من أعمال باميان .

إلى الأمير فوجده جالسا وحده على سرير في السرادق وأمامه المحبرة والقرطاس . وقد وقف في حضرته كَوهر آئين الخازن الذي كان آتئذ من خواصه فأشار إلى بالجلوس بعد أن أدبت له التحية والاحترام فجاست ، وقال لسكوهر آئين : إعط عبد الغفار الدواة والقرطاس . فوضعهما أمامي وخرج من السرادق . ثم رمى الأمير إلى بصورة العهد وكان قد نسخه بنفسه في أسلوب بديع يعجز عن مثله أقدر الكتاب (وقد ذكر أبو الفضل صورا من أمثال هذه العهود في مواضع مختلفة من تاريخه ^(١) فتأملت النسخة وإذا هي « يقول مسعود بن محمود إني أقسم باليمين الذي يقسم بها في العهود ، أنه ما دام الأمير الجليل فلك المعالي أبو منصور منو جهر بن قابوس وفيا بالشروط (ثم يعدد الشروط كلها بأحسن أسلوب وترتيب) .

فلما أتممت اطلاعي على صورة العهد أحسست كأنما قد صبوا على طستامليثا بالنيران وارتعدت فرائضي خوفا من سطوة الساطان محمود ، وجمدت في مكاني . فأدرك الأمير مابى فقال « ماذا دهاك » فسكت ، قال : وكيف ترى هذه الوثيقة ؟ فقلت : أطال الله حياة مولانا لا يستطيع أى أستاذ كاتب كتابتها على النحو الذى حرره مولانا ولكن هناك مالا يستطيع التنويه به وأخشى أن لا يقع موفعا حسنا » إلا أن يأذن الأمير فقال « تكلم ، فقلت « لا يخفى على مولانا أن منو جهر ممن يخشون بأس السلطان الوالد الذى هو اليوم فى حال ظاهرة من الضعف يشعر بدنو أجله وقد بلغ هذا الأمر إلى مسامع الملوك ١٣٧ وعصاة الأطراف الذين يخشونه فهم الآن ينهزون الفرصة للانتقام ، وقد تأكد لديهم أن الأمير محمد لن يستطيع النهوض بأعباء الملك بعد وفاة السلطان ولن يكون لحكمه ثبات وهم يخشون بأسك فإن سطوتك وهيبتك متمكنة فى نفوسهم ،

(١) الطاهر أن هذه الجملة الاعراضية من كلام البيهقي نفسه ، ادجها فى مقاله عبد الغفار .

ولن ينالوا منك شيئا. وكيف يؤمن أن لا يرسل منو جهر هذا العهد الذي يزينه توقيكم إلى السلطان تزلفا فتشور بذلك فتنة يحصل بها على مراده ويأمن على نفسه. هذا ويدبر الملوك كثيرا من الحيل عندما يدركون أنهم لا يستطيعون نوال شيء بالعداء جهرا فيتذرعون بالحيل والدسائس تحقيقا لأغراضهم. وإن لم يأت منو جهر مثل هذه الخيانة فإن السلطان محمود ذكي يعد لكل أمر عدته وقد وكل بالأمير الجواسيس والعيون، ووضع المنهين والمخبرين في الطرق والمعابر فإذا قبضوا على حامل هذه الوثيقة واطلع السلطان عليها، فماذا ياترى يكون الجواب عنها؟ فقال الأمير مسعود إنك لعلي حق فيما تقول ومنو جهر إنما يسعى للحصول على هذا العهد لأنه يعلم أن شمس حياة أبي قد آذنت بالمغيب وهو يريد أن يوطد صلاته بنا، فإنه شيخ ذكي محنك، وإني لأسئحني من عدم إجابته إلى طلبته مع ما قدم إلى من أياد وخدمات. فقلت: لعل الصواب أن يكتب إليه مالا يؤدي إلى غضب السلطان محمود إذا ما وقع في يده. فقال وبأى أسلوب تفضل أن يكون تحريره. فقلت «أرى الصواب في أن يكتب له أن الأمير واصلنا بالرسائل وتشبث بنا وتقرب إلينا عارضا خدماته الصادقة وقد طلب أن يكون بيننا عهد، ونحن نرى أن نجيبه إلى ذلك لأننا لا نرى أن نرفض دعوة سيد يخطب ودنا ولكن حيث أنى ولي عهد السلطان محمود ونجمله المطيع فلا يمكنني أن أبرم عهدا دون علم أبي. ولو أنى فعلت غير ذلك لكنت ممن يعيبهم صديق الأمير أولا وكافة الناس من بعده وكيف لا ألبى طلبه وأتقاعس بينما هذا عهد واجب الوفاء، ثم كتبت العهد كما يلي:

« يقول مسعود بن محمود، أنه ما دام الأمير الجليل المنصور منو جهر بن فابوس مطيعا لمولانا السلطان المعظم أبي القاسم محمود ناصر دين الله أطال الله

بقائه منفذا أوامره مؤديا الخراج له مقيما على احترام شروط العهود التي بذمته والتي أكدها بالآيمان المغلظة وأشهد على نفسه أن يحافظ عليها وألا يغير منها شيئا إني أقسم لا كونن له في السر والعلانية خيلاً وفيّاً بقلبي ونيتي وعقيدتي فأصادق أصدقاءه وأعادى أعداءه وأخالفهم وأقدم له مؤازرتي ومعونتي وشرائط الوحدة وأرعى جميل النوبة في حضرة مولانا السلطان الوالد وأزيل كل خلاف أسمعته أو أراه في المجلس السلطاني بالنسبة اليه ، وأسير معه على هذا النهج فيما إذا أمر السلطان الوالد أن أقيم من قبله في الري ، فأوافق على كل ما يكون في صالح الولاية والأسرة ، وما يهم البلاد والعباد ، وأستمر معه على هذا العهد ما دام يعمل مطاوعا له مراعيًا إياه، ولا كونن بريثا من الله عز وجل خارجا من حوله وقوته ، داخلا في حولى وقوتي ، فيما إذا أخللت بالعهود ، أو حنثت بهذه الآيمان . كما أنى أكون بريثاً من ولاية النبيين والمرسلين إن خالفت ما أقول . وكتب بتاريخ كذا ومن هذا العهد على هذا المنوال ثم أرسله إلى منوجهر فتقبله بقبول حسن واطمأن إليه قلبه^(١) . فينبغى والحالة هذه أن تدبر ما كان عليه عبد الغفار من رعاية لمصالح هذا الأمير النجل وإخلاص له وولاء . وها أنذا وقد فرغت من سرد هذه القصص أعود إلى استئناف الحديث من أصل التاريخ .

ذكرت في المجلد الخامس أن الأمير مسعود رضى الله عنه وصل إلى بلخ في يوم الأحد من منتصف شهر ذى الحجة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (١٠٣٠) وقد بادر إلى الاشتغال بشئون الملك فصارت الدنيا وكأنها العروس المجلاة ١٣٩ وبادرت الأمور على نسق واحد وركن الأولياء والحشم والرعايا لطاعته ولم يبق ثمت خلاف في أمر من الأمور .

(١) الظاهر أن مقالة عبد الغفار الكاتب تنتهي هنا .

وأخذت شئون الديوان تسير بتدبير الحاجب غازى إذ كان سبب سلاله
 واه ولايتا بلخ وسمنجان وكان كتنخداه سعيد الصراف يراقبه سرّاً ويبلغ خفية
 كل ما يجرى على يده من أمور . وكان يحضر كل يوم إلى الدركاه للخدمة بالديانة
 الذين كانوا يمشون أمامه بما يقرب من ثلاثين من الدروع الفضية والذهبية
 يفدهم نفر من الحجاب متمنطقين بالمناطق وعلى رؤوسهم قبعات سود . وخلفه
 ثلاثون غلاماً يحمل كل منهم نوعاً خاصاً من المهمات . ولم أر خوارزمشاه
 أو أرسلان جاذب أو غيرهما من مقدمى الساطان محمود يأتون فى مثل هذا
 الموكب إلى الدركاه ، وكانوا يأتون بجواده إلى السراى الخارجى فى بلخ ،
 كالرسم مع الأمير مسعود ومحمد ويوسف من قبل ، ويظل فى الإيوان جالساً
 إلى أن يؤذن بالاستقبال بينما كان على دايه وأقارب السلطان وأكابر القادة
 يجلسون فى تلك الصفة المستطيلة فى السراى فبضطرون حين يمر بهم الغازى
 إلى القيام جميعاً لتحيته وإن كانوا يضيقون ذرعاً لرؤيته على تلك الحال ، فقد
 عرفوه من قبل وضعياً فكانوا يغارون منه ، وبتقولون عليه الأقاويل
 ولكن دون جدوى فإن العالم يدور حول الملوك فمن يرفعونه يرتفع ولا حق
 لغيرهم فى الاعتراض عليهم بشيء . وقد قال المأمون فى هذا المعنى : « نحن الدنيا
 من رفعناه ارتفع ومن وضعناه اتضع » وقد قرأت فى أخبار الرؤساء أن أشناس
 الذى كان يدعى بالأفشين عاد إلى بغداد بعد أن تم له الانتصار فى الحرب على
 بابك الخرمى فأمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أصحاب المراتب العالية كافة
 بالترجل عن خيولهم حينما يسودو لهم أشناس احتراماً وأن يظلوا هكذا
 مبرجلين إلى اللحظة التى يتم له فيها مقابلة الخليفة ، ولقد أذعن الحسن بن سهل
 مع ما كان له من رفيع المنزلة للأمر فترجل لأشناس ورآه حاجبه يمشى
 وخطوانه تتعثر أثناء سيره فبكى ، فرآه الحسن ولم يقل شيئاً . فلما عاد سأل
 الحاجب : « لماذا كنت تبكى ؟ » فأجاب : ما كنت لأحتمل أن أراك على هذا

الحال ١٤٠ ، فقال له الحسن : « أى بى ، لقد رفعنا هؤلاء الملوك ولم نرفعهم نحن فليس لنا معهم إلا الطاعة ما دمنا فى خدمتهم » . وكانت هذه الاعتراضات والأقوال تصل إلى الغازى فيضحك منها ولا يأبه بها إذ كانت نفحة السلطان محمود تلعب برأسه ، فقد أسند إليه عمل رجل كأرسلان جاذب لأنه رآه أليق من غيره لهذا العمل .

وقد أشرت إلى هذا الحديث فى تاريخ اليمى وذكرت حكاية نادرة آثرها بالذكر هنا للاطلاع عليها فإن التاريخ يزدان بأمثال هذه الحكايات .

حكاية الفضل بن سهل ذى الرياستين .

مع حسين بن مصعب

قيل إن الفضل بن سهل وزير الخليفة المأمون عاتب يوماً بمرء حسين ابن مصعب والد طاهر ذى اليمين فقال له : « لقد تغير أبك طاهر واغتر فنى نفسه » فأجاب حسين : « أيها الوزير ، إننى شيخ وعند مطيع لهذه الدولة ، وأعرف أنكم تعتقدون فى نصحتى وتقدرتون إخلاصى وولدى طاهر أكثر عبودية وطاعة منى ولى جواب بسيط فى شأنه بيد أنه لا يخلو من الغلظة وشدة التأثير ، فإن أذنت عرضته عليك » فقال : « قد أذنت » فرد حسين قائلاً : « أيد الله الوزير لقد اختاره أمير المؤمنين أحضر مواليه وخدمه وشق صدره وأخرج قلبه الضعيف ووضع بدله قلباً استطاع به أن يقتل أخا خليفة كـ محمد ابن زبيدة ، ومنحه فضلاً عن ذلك القلب الفوى والجنود والمعدات ، واليوم هل تتوقع أن يكون كما كان من قبل وقد بلغ هذه المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ؟ وإن يكون ذلك بأى حال إلى أن ترده إلى حيث كان . هذا كل ما أعلم والأمر إليك » . فسكت الفضل بن سهل وقد أخذته الحيرة فلم يدر ماذا يقول ، ثم بلغ

هذا الحديث مسامع المأمون فأعجبه جواب حسن بن مصعب أيما إعجاب وقال :
لعمرى لقد كان سرورى بهذا الجواب أكثر من سرورى لمساتم على يد ابنه
من فتح بغداد . وفوض إليه ولاية بوشنج^(١) إذ كان يعيش فيها .

هذا والحديث ذو شجون بشأن لقب ذى الرياستين الذى كان للفضل بن
سهل ، وذى ١٤١ اليمينين الذى كان يعرف به طاهر ، وذى القلبيين الذى كان
لصاحب ديوان رسائل المأمون ، وسأورد فى ذلك قصة طويلة حتى يعرف ذلك
كل من لا علم له : بعد أن قتل محمد بن زبيدة ووصات الخلافة إلى المأمون ،
ظل مقبلا بمرو أكثر من سنتين وتلك قصة طويلة ، فأراد الفضل بن سهل الوزير
أن يحوّل الخلافة عن العباسيين إلى العلويين ، فقال للمأمون إنك قد نذرت
بمشهد منى أن تختار أحد العلويين وليا للعهد إن كفاك الله تعالى أمر أخيك
وهزت خليفة ، وهى وإن كانت لن تستفر لهم فإنك إن وفيت بنذرك تبرئ
ذمتك . فقال المأمون : حسن جدا ، فمن الذى أختاره وليا للعهد . فقال الفضل :
ذاك على بن موسى الرضا إمام العصر الذى يقيم الآن بمدينة الرسول . فقال
المأمون : فينبغى أن يوفد شخص إلى طاهر سرا وأن يكتب إليه إننا مزمعون
كذا وكذا ليرسل هو شخصا يأتى بعلى من المدينة ، ثم يبایعه خفية ويوفده
مكرما إلى مرو ، حتى يعان هنا أمر البيعة وولاية العهد . فقال الفضل : ينبغى
أن يكتب أمير المؤمنين بخطه ماطفة إلى طاهر . فطلب من فوره دواة
وقرطاسا وكتب هذه الماطفة ودفعها إلى الفضل . وعاد الفضل إلى داره وجلس
مختليا حيث كتب كل ما ينبغى كتابته وأعد العدة ، وأرسل معتمدا إلى طاهر ،
مع هذه الأوامر . فسر طاهر بهذا الحديث سرورا بالغا . ولما كان من ميله إلى
العلويين فقد مهد الأمور على أحسن ما يكون وعين معتمدا من بطانته ليسير مع

(١) بوشنج مدينته كانت بالقرب من هراة .

معتمد المأمون. فذهب كلاهما إلى المدينة فاختليا بالرضا وعرضا عليه الرسالة وأبلغاه المشافهات . ولكن الرضا استكره قبول هذا الأمر لأنه كان يعلم أنه إن يتحقق ، يبد أنه وافق إذ لم يكن يستطيع لأمر المأمون رفضا . فسافر خفية متنكرا إلى بغداد حيث أنزلوه مقاما كريما وبعد أن استراح أسبوعا وافاه طاهر ليلا في غاية الخفاء وأدى له الخدمة وبالغ في احترامه والتواضع له ثم عرض عليه تلك الملقطة التي كانت بخط المأمون وهو يقول: إني أول من يبايعك بأمر من مولاي أمير المؤمنين وإذا أبايعك هذه البيعة يبايعك معي ١٤٢ مئة ألف فارس وراجل يأترون بأمرى . فمد الرضا روجه الله يده اليمنى ليتقبل البيعة كالاعتاد إلا أن طاهرا مد يده اليسرى فسأله الرضا : ما هذا ؟ فأجاب : إن يمتنى مشغولة ببيعة مولاي أمير المؤمنين ويسراى فارغة ولذلك قدمتها إليك . فأعجب الرضا بهذا الجواب وتقبل منه البيعة . وفي اليوم التالي أوفد الرضا في موكب حافل فأتى إلى مرو ، فلما زالت عنه وعشاء الطريق حضر المأمون لزيارته لبلا وبصحبه الفضل . وكان لقاؤهما حارا ، وأثنى الرضا على طاهر ثناء عاطرا . وذكر قصة البيعة واليد اليسرى .

فسر المأمون بذلك كثيرا وأعجب بما فعل طاهر أيما إعجاب ثم قال : أيها الإمام إن تلك اليد هي أول يد لمست يدك المباركة وأنا اعتبرها اليد اليمنى . ولهذا اشتهر طاهر بذي اليمينين وظهر بعد ذلك أمر الرضا واتخذة المأمون ولها لعمده ، وترك الأعلام السود واتخذ اللون الأخضر شعارا . ونقش اسم الرضا على الدينار والدرهم وطرز السكس وشاع الأمر . وقد قال المأمون للرضا : ينبغي أن تتخذ وزيرا وكاتباً يقومان بأعمالك . فقال : الرضا يا أمير المؤمنين إن الفضل بن سهل لجدير وترضيني كتخدائتيه ، وأختار علي بن سعيد صاحب ديوان رسائل الخليفة لكتابة رسائلي . وأعجب المأمون اختيار الإمام فأمر بإسناد

هذين المنصبين لهذين الرجلين ، ومن ثم لقب الفضل بذي الرياستين ، وعلى بن سعيد بهماحب القامين .

وقد كان غرضي مما ذكرت أن أورد سبب هذه الألقاب الثلاثة ، هذا وللحكاية تفاصيل طويلة أعرض عنها وقد ورد ذكرها في مختلف كتب التاريخ .

أصبح ظل الحاجب غازي ثقيلًا كالجبل على قلوب جماعة السلطان محمود إذ كان شأنه آخذًا في العلو فارتفعت مرتبته وازدادت هيئته يوما بعد يوم وغمره السلطان مسعود رضى الله عنه بعطفه فأصبح أنيسه وجليسه يتناول وإياه الطعام ويجالسه في مجال الشراب ويخلع عليه في جميع المناسبات سنى الخلع . ومع أن الغازي لم يكن حتى ذاك الحين قد ذاق طعم الشراب فإنه لم يكن بين الرجال من هو أدهى أو أعلم منه ، وكان محسدا من الجميع ١٤٣ وقد أعد لنفسه ألف فارس مجهزين بكامل العدة . غير أن المحموديين لم يكفوا عن تدبير الحيل والمكائد ، فما زالوا حتى أتوا به إلى غزته ، وسأذكر خبر ذلك في موضعه المناسب فليس الآن وقته .

وكان السلطان يتكلم معه في شئون الجيش جميعا وكان دون غيره يستطيع التوسط في شئون الجند . وهكذا أصبح الغازي قبلة للجميع فكان يعود من القصر كل يوم تحفه كوكبة عظيمة . وكانت أيدي المحموديين إذ ذاك لا تنفك عن العمل على الواقعة به فكانوا يحملون الناس على إنهاء الأخبار المافقة في شأنه ، ولكن السلطان لم يكن ليصغى إليها ولم يكن ليخفى عليه مثل هذه الأمور . هذا ولم يقرأ أحد عن ملك أو يرمكأ أكثر منه إدراكا وكرما وحلما ، إلى أن اتفق أن جلس يوما للشراب وكان قد أمضى الليلة عاكفا عليه ، وفي الصباح استقبل الوافدين في الإيوان الكبير فتقدم الحجاب كعادتهم يتبعهم الأعيان طبقا لترتيب الخاص ، وبينما هم بين جالس وقائم ، إذ دخل الغازي من باب القصر ،

وكانت المسافة طويلة بينه وبين الإيوان ، فأمر السلطان اثنين من الحجاب بقوله :
اذهبا واستقبلا السهسلا . ولم يكن ليخطر ببال أحد أن يكون لأى سهسلا
مثل هذه المنزلة . فذهب الحاجبان وقابلا الغازى وسط السراى ، وكان قد وصل
إليه نفر قبل الحاجبين وبشروه بذلك ، فلما وصل إليه الحاجبان نكس رأسه
وقبل الأرض ، فأخذا بساعديه وأجاساه مكرما والتفت إليه السلطان وهو
يقول : إن الفائد مما بمنزلة الأخ ، وإنا لن ننسى ما أداه ويؤديه من خدمات
منذ بلوغنا نيسابور حتى الآن ، ولئن أدينا بعض حقوقه علينا ، فقد بقي أكثرها ،
وستؤدى له على الأيام ، وإنا نسمع أن زمرة يضيقون بمقامك فى القيادة
ويدبرون لك المكائد ، فلو أنهم أرادوا أن يدسوا دسائسهم ليشغلوا خاطرنا
فلا تأبه بهم فإن مقامك لدينا ما تسمع وترى . فنهض الغازى من مكانه ١٤٤
منائرا وقبل الأرض وهو يقول : إني لا أخشى أحدا ما دمت مشغولا برعاية
السلطان . وأمر السلطان فأتوا بقبائه الخاص وألقوه على كنفه ، فنهض وارتداه ،
وأمر السلطان أن يأتوا بمنطقة للصيد مرصعة بالجواهر ، ثم أدناه إليه
وشدها إلى وسطه بيده الكريمة ، فقبل الأرض . ثم عاد فى أهبة لم يخطر على بال
أحد مثلها .

أما أستاذى أبو نصر فقد بقي فى هراة كسير القلب كما أشرت إلى ذلك
قبل . وكان السلطان قد استماله وطيب خاطره عدة مرات ليفوى قلبه ، وقد نال
فى هذه الأيام عطفًا كبيرا فى بلخ ، ومع ما بلغ طاهر من رفيع المنزلة فى
ديوان الرسائل فإن عناية الناس ظلت منصرفة إلى مراجعة أستاذى فى أكثر
المطالب ، فقد رأوا طاهرا يوما يقف بين يدي أبى نصر ، إبان نيابة
الأنخير فى عهد هذا السلطان فى وكالة البلاط وكان الطاهر أمام ديواننا أما
الأستاذ العميد أبو سهل أدام الله تأييده وكان صاحب ديوان الرسائل أيام

السلطان العظيم الناصر أدام الله تأييده لدين الله أبي شجاع فرخ زاد أدام الله دولته وأبو سهل الهمداني^(١) الذي خدم أبوه الوزراء العظام وهو لم يزل على قيد الحياة عزيزا مكرما وأخوه أبو القاسم النيسابوري^(٢) الأستاذ الكبير وأبو محمد الدرغاري^(٣) المدعو أدبيك صاحب اليد الطولى في الشعر والأدب وإن كان قصير الباع في الكتابة والإنشاء فقد كانوا جميعا يجلسون إلى الجانب الأيسر من مجلس طاهر وكانوا يضعون أمام طاهر محبرة كبيرة نفخة من الفضة المغلفة بالديباج الأسود .

وكان أبو الحسن الكاتب العراقي قلما يجلس في الديوان بل كان يقضى جل أوقاته ١٤٥٥ في الخدمة لدى السلطان ، ومع أنه يحمل لقب الكاتب^(٤) فقد كان له حظوة تامة لدى السلطان . وقد اتفق أن حضر هذا الكاتب إلى الإيوان في

(١) كذا في نسختي مو و فا وفي بب « حمدوى » وفي ميج حمدوني « وبعيد أن يكون المقصود هو أبو سهل الحمدوى ، فقد كان له حتى الأمل القريب شغل الوزارة ، ثم تولى عمل الإشراف على المملكة ، كما سيأتي بعد في الكتاب . فمن غير المحتمل أن يكون مثل هذا الشخص أحد الكتّاب الحاضرين لطاهر ، ولكن يحتمل عند غنى - فياض أن يكون هذا الاسم قد أتى في النصوص محرفا شأنه شأن غيره من الأسماء التي وردت محرفة ولعله « أبو الملاء الهمداني » الذي ورد ذكره في تنمة اليتيمية (ج ١ ص ١٠٧) وذلك لانطباق بعض الأوصاف المذكورة في الكتاب عليه حاشية ١ .

(٢) هذه العبارة وهذا الاسم مجهولان لدى غنى - فياض . فمن يسكون مرجع الضمير في « وأخوه » ومن « أبو سهل الهمداني » ، والمناسب ذكره هنا هو « أبو القاسم الطائي » (تنمة اليتيمية ج ١ ص ١٠٧) فقد قدم كما قدم الهمداني وطاهر من الري ، وعاد ثانية مع طاهر إلى الري . أو يسكون « أبو القاسم حريش » حاشية ٢ .

(٣) كذا في قا وفي مو « غازى » وبب « داود بيك أبو محمد غازى » ، ميج « أبو محمد » فقط ويفرب من اليقين لدى غنى - فياض أن « درغاري » و « غازى » كليهما محرف عن « دوغابادى » وأن « داود بيك » محرفة عن « أدبيك » هذا والمقصود هو أبو محمد دوغابادى المذكور في تنمة اليتيمية ج ٢ ص ١٨ . حاشية ٣ .

(٤) وردت « السكفانة » و « الكفانة » .

يوم ، كان الصدور فيه والكتاب يجاسون على تلك الهيئة التي وصفتها ، فجلس إلى يمين الخواجة أبي نصر في المقصورة فصار يجاسه بين هذين السيدين أمام الديوان وبدأ بالعمل وكان الآتون إلى الديوان من الأعيان أو غيرهم يسادرون بطبيعة الحال إلى الحديث مع أبي نصر حين يرونه ، وكذلك كانوا إذا أرادوا كتابا أو رقعة يطلبونها منه أيضا . وكان الندماء الذين يحملون مشافهة من السلطان في إحدى مهمات الملك يبلغونها لأبي نصر أيضا حتى استقام الأمر في هذه الناحية وبقي أهل تلك الناحية يرون الأمور على هذا النحو اللهم إلا بعض من كان قد رأى طاهرا بالعراق فكانوا يراجعونه أحيانا لشفاعته أو إجازة ، فكان طاهر يأمر أن يكتبوا له أو يتكلموا عنه . وبعد يومين أو ثلاثة من هذا الحال دعى السلطان أبا نصر في ضحى يوم وكان قد سمع عن مجلسه في الديوان ، فقال له : ينبغي تسجيل أسماء الكتاب ممن كانوا معك أو ممن أتى معنا من الرى حتى نأمر بما يجب . فعاد أستاذى إلى الديوان وسجلت أسماء الطائفتين ثم تقدم بالقائمة فقام السلطان فقال : أخرج إسمى عبيد الله سبط أبي العباس الأسفرايينى وأبى الفتح الحاتمى من هذه القائمة فإننا سوف نكل إليهما أعمالا أخرى .

فقال أبو نصر : أدام الله حياة مولانا لقد أمرنى الأمير محمد بإدخال عبيد الله إلى الديوان رعاية لسابقة جده ، وهو شاب لييب يكتب بخط جميل يفيد فى خدمة الديوان أما أبو الفتح الحاتمى فقد أمر مولانا بإدخاله إلى الديوان على عهد السلطان محمود لأنه نجل لعبدكم . فقال السلطان : « نعم إن الأمر كما تقول : ولكنهما كانا قد عينا من قبلنا للإشراف على ديوانك سابقا ، وهما لا يليقان اليوم بالديوان » فأجاب أبو نصر « يا للغبن العظيم من أن أعرف هذا اليوم » فسأله السلطان : وماذا كنت تفعل لو أنك عرفت قبل ذلك ؟

فأجاب : كنت أقصيهما عن الديوان فور علمي ، فإن الخائن لا يصلح للعمل فيه . فضحك السلطان وقال : ينبغي أن لا يعرفا بهذا الأمر ، كيلا يتأثرا بذلك .
١٤٦ ولعمري ما شاهدت في حياتي أكرم ولا أشفق منه ثم أضاف وسناً مر بما ينبغي ولكن ماذا كان يعمل عبيد الله . فقال أبو نصر : « صاحب برید سرخس » كما كان أبو الفتح صاحب برید طخارستان ، وأمر السلطان أبا نصر بالعودة فعاد ، وفي اليوم التالي كنا جميعاً وقوفاً بين يدي السلطان عندما أذن بالاستقبال فنادى السلطان عبيد الله فخرج من الصف فقال له : « أتعلم في ديوان الرسائل ؟ » فأجاب : « نعم » فسأله : ماذا كان عملك في عهد أبي ؟ فقال : كنت صاحب برید سرخس . فقال السلطان : إنا نعيدك إلى ذلك العمل ثانية ، فينبغي أن لا تجلس في الديوان لكثرة الرحام هنالك ، ولقد كان جدك وأبوك يزاولان هذه الخدمة من قبل ، وأنت تفيدنا فينبغي أن تكون مع القدماء فنفيد منك في الوقت المناسب^(١) . فقبل عبيد الله الأرض وعاد في مكانه إلى الصف ، ثم نادى أبا الفتح الحانمي ، فتقدم ، فقال السلطان : ينبغي أن يكون لبلغ وطخارستان مشرف كفء جدير^(٢) ، وقد اخترناك لذلك وسيلغك عبدوس بما ينبغي من أوامرنا . فقبل هو الآخر الأرض ، وعاد إلى مكانه من الصف . ثم قال السلطان لأبي نصر : ينبغي أن يكتب منشوران هذين حتى نوقعهما . فقال : « حسنا » . وانفض الاستقبال ، وعاد أستاذي إلى الديوان ، فخر المنشورين وازدانا بالتوقيع ، وانقطع كلا الرجلين عن العمل في الديوان دون أن يعرف أحد لذلك سببا ، أما أنا ، أبو الفضل ، فقد سمعت كل ذلك من أستاذي . هذا وقد توفوا جميعاً رحمة الله عليهم أجمعين . وصرفنا عن أعمال الكتابة ومهامها وفوض عمل البرید في سيستان إلى طاهر الكاتب ، وهذا العمل من المهام الكبيرة التي كان يفهم

(١) أي في الديوان .

(٢) في « داهي » .

بها الوزير حسنك من قبل وفوضت كتابة قهستان إلى أبي الحسن العراقي، ونظمت الحسابات فبلغت مرتباتهم سبعين ألف درهم في كل شهر، فأى همة أعلى من تلك الهمة. أما الكتاب الناشئون، وكانوا من قبل يخدمون دون أجر، فقد صرفت لهم مرتبات عن الأعمال أيضاً، ولكن طاهر الكاتب كان كالتردد لا اختلال أعماله واعتراه الخجل، فلم يكن يحضر إلى الديوان إلا نادراً وإذا هو حضر يوماً فسرعان ما كان يعود فيعكف على الشراب، إذ كان ذا خير ومال كثير ١٤٧ فهو يملك عدداً كبيراً من الغلمان الحسان وأبهة فائقة. واتفق أن أمر السلطان أن يختاروا أربعة من الرجال ويقوموا من قبله بأعمال الإشراف على المملكة كلها. وقال السلطان لطاهر ينبغي أن توعز من قبلنا إلى أبي نصر حتى يكتب المشورات لهم. فجاء طاهر إلى أبي نصر وأخبره بالامر، فقال هذا: حسناً سأعد السخ اللازمة. فانصرف طاهر مستاء وأرسل حاجب داره إلى يبلغنى قوله: أريد أن أحدثك عن أمر هام ورسالة إلى أبي نصر فخرج علينا عند عودتك من الديوان فأخبرت أسأتاذى بذلك فقال اذهب. فسرت إليه بعد عودته من الديوان. وكانت داره في حى سيمكران في شارستان بلخ، وإذا بى أرى داراً كالفر دوس الأعلى، مزدانة بأبهى زينة وأخفم رياش. وكان طاهر شهماً كريماً على الهمة فأجلسنى معه فى صدر الغرفة وصفوا أمامى ما لذ وطاب من شتى أنواع الطعام وأتى المطربون والندماء وأخذوا فى العزف والغناء، فأكلنا ثم انتقلنا إلى مجلس آخر كانوا قد أعدوه خصيصاً للشراب وهناك رأيت من الترف والزخرف ما يفوق الحد والوصف وبدأنا فى الشراب وساد اللهو والغناء فلما أديرت الأقداح تقدم خازنه ووضع أمامى خمسة من الحلل الثمينة وكيساً يحتوى على خمسة آلاف درهم ثم قاموا ووزعوا أثر ذلك ما لا كثيراً وثياباً على الندماء والمغنيين والغلمان. فكلمنى طاهر همساً أثناء ذلك قائلاً: إني لا أنكر عظمة الخواجة العميد أبي نصر وتقدمه والمساكنة التى نالها

من أمد بعيد ولكن الناس يتسابقون إلى حضرة السلطان بغية الحصول على الشهرة والجاه، وإن كان لكنا المقام الأول في هذا الديوان لأقدره وأجله، وموف يسند السلطان إلى عملا أكبر بما لي الآن فأتوقع من الأستاذ العميد أن يرعى جانبي كما أقر بفضلته وأعترف بعظيم قدره، وقد أمر السلطان اليوم بتحرير منشور المشرفين وتكلم في ذلك معي، ذلك لأنه والجميع يقرون بأنني أعرف من أبي نصر بالمعاملات والرسوم الديوانية وأعمالها وأموالها ولكني آثرت أن أفوض الأمر إليه فعرضت عليه حرمة له كتابتها وكان المتوقع أن يطلب إلى تحريرها فلما لم يفعل رجعت ١٤٨ متأثرا وإنما أتعبتك لأقول لك هذا كي تبلغه لو رأيت ذلك صوابا.

فطيت خاطره وأجبت بما يقتضيه الحال، ثم أديرت علينا الأقداح الكبيرة وانتهى اليوم، ففترقنا جميعا. وأرسل أستاذي يدعوني فجرا، فذهبت إليه وسأل عن الحال فقصصت عليه كل ماجرى، فضحك رضى الله عنه، وقال: سأطلعك اليوم على حقيقة المعاملات والجهل بها. وانصرفت من لدنه ثم ركب إلى الديوان وسرت في أثره. ومن عجيب ماجرى أنهم بعد أن أذنوا بالمشول التفت السلطان إلى أستاذي وقال: كنت قد أوعزت إلى طاهر أن يتكلم معك بشأن منشورات الإشراف فهل أعددت نسخها؟ فأجاب: «رتبت مسودة لأنسخها اليوم ليطلع عليها مولانا ومن ثم أحررها»، فقال: «حسنا»، وتغير وجه طاهر. وعدنا إلى الديوان فأخذ أبو نصر قلم الديوان وشرع يكتب وقد أجلسني أمامه لأنسخ ما يكتب وامتد بنا العمل حتى صلاة الظهر وظهر المنشور بصورة أقر الصدور والأعيان بأنه ما رأى ولن يرى مثلها أحد في معنى الإشراف أبدا، وبيضته أنا بخط دقيق على ثلاث ورقات فحمله إلى السلطان وقرأه عليه فأعجب به غاية الإعجاب، ونسخوا من ذلك المنشور نسخا عديدة وبعد ذلك أقر طاهر بفضل أستاذي وعرف منزلته تماما ولم يعد يتكلم في أمر

الكتابة أو يتدخل فيها إلى أن ذهب مع تاش فراش إلى العراق ورغم كل هذا فقد أرسلني إليه أستاذي لأبلغه رسالة طيبة فذهبت وأبلغته فطرب لذلك وسر للغاية . واتصلت بعد ذلك بينهما المراسلات والملاطفات واجتمع معاً وجلسا للشراب . وأستاذي ولو أنه كان كثير الانطواء عل نفسه إلا أنه وأيم الحق كان يعد فريد زمانه في مثل هذه الأبواب عليه رحمة الله ورضوانه .

ذكر تاريخ سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة

١٠٣٠ — ١٠٣١

كان غرة محرم هذا العام يوم الثلاثاء فذهب السلطان مسعود رضى الله عنه في هذا اليوم إلى الجوسق في حى عبد الأعلى وسار إلى الحديقة ليقوم هناك حيث ١٤٩ أعدت الدواوين وأضيفت المباني الكثيرة . وفي السنة التي ذهبت هناك وجدت معالم تلك المباني والدواوين والدهاليز قد تغيرت بأمر هذا السلطان فقد كانت معرفته في فن البناء بحيث لم يكن لمعمار قدر إزاهه . وإن القصر الحديث الذى يشاهد اليوم في غزنة لدليل كاف على ذلك ولم يكن بشادياخ نيسابور مدخل ولا ميدان نخططه بيده كما خطط قصرنا نفخا وعدة جواسق صغيرة وساحات ما تزال حتى الآن ماثلة للعيان وأضاف إلى معسكر والده السلطان في دشت جوكان بيست مباني كثيرة لم يزل بعضها باق للآن فكان هذا الملك آية في كل شيء رحمة الله عليه .

وأرسلت من هراة رسالة ساطانية مع رجال أبي سهل الزوزنى باستدعاء الخواجة أحمد حسن إلى الدرگاه .

وكان جنكى صاحب القاعة قد فك قيوده وكان ^(١) قد أفضى لأريارق

(١) أى الخواجة أحمد عني — فياض حاشية ٧ .

الحاجب قائد الهند بأنهم شو هوا سمعتك لدى هذا السلطان والأولى بك أن تسافر
معى ، فترى السلطان وأتكلّم فى شأنك بما ينبغى حتى تعود مكرما بالخلة
إلى هنا فإن الأمور أصبحت على نهج واحد وجلس سيد كريم حلیم كمسعود
على سرير الملك فأخذ «^(١)» أريارق بهذا الكلام وسافر مع الخواجة ، وأدى
له فى الطريق خدمات كثيرة لا تحصى ، فلم يكن أحد من الكتاب فى ذلك
العهد يرفى لمنزلته «^(٢)» فى الترسل والإنشاء وكان نجله الأكبر السيد الخواجة
عبد الرزاق معتقلا فى قلعة نندنه فأطلقه المدعو سارغ الشرابدار بأمر من
أبيه ، وأتى به إلى حضرته وأثنى الإبن لدى الوالد على سارغ فأجابه الخواجة
أجل وإنى لأكثر منك شكراً ثم قال للشرابدار فأتعودن الآن إلى نندنه إذ
لا ينبغى أن يترك ذلك الثغر شاغراً وسأذكر بعد أن أصل إلى الدركاه
حالك وستنال ما يزيد فى شأنك ويرفع منزلتك . فعاد سارغ وسار الأسناذ
الرئيس رويدا حتى إذا بلغ بلغ قدم لدى السلطان وأدى فروض ١٥٠
الطاعة والاحترام فأحتفى السلطان به ولطفه وحده بطيب ، الكلام
فأدى الخدمة وعاد إلى الدار التى أعدت لنزوله حيث استراح ثلاثة أيام
ثم جاء إلى القصر . وهنا يقول أبو الفضل البيهقي إنه بعد أن استراح
هذا الرجل العظيم ، دارت الأحاديث فى شأن الوزارة بالمشافهات ولكنه
لم يقبل ، وكان أبو سهل الزوزنى إذ ذاك ، هو الوسيط فى الأمر
والمرجع الأول فى كل شيء ، من أخذ وعطاء ومصائدات ومواصفات
وبيع وشراء وغير ذلك ، وكان السلطان أكثر ما يختلئ به وبعبدوس إذ
اختيرا من بين الجميع وإن كان كل منهما يبغض الآخر . أما أصحاب السلطان

(١) يعبر بهوله « جربك بحورد » وحرك هنا بمعنى الكذب الذى يشبه الصدق والبرهان
والكلمة بهذا المعنى مصدرة الأولى . أما حين تكون بفتح أولها فيقصد بها قطعة من الخبز .
عنى - فباس حاشية ٩ .

محمود فقد كان جل ما يصبون إليه هو أن تمر عليهم الأيام بسلام . ولم أرقط أستاذى أنا نصر فى يوم أكثر حيرة وتفكراً منه فى تلك الأيام . وقد أجاب الخواجة أحمد حسن أباسهل الزوزنى على مشافهاته إياه قائلاً إني قد كبرت ولا أستطيع القيام بهذا العمل أبداً وأبو سهل الحدوى رجل كفء خبير ينبغى اختياره للعرض وأن تكون لك الوزارة وأما أنا فسأراقب المصالح عن بعد وأشير بما ينبغى . فقال أبو سهل إني لا أتوقع من السلطان ذلك ولست أهلا لهذا العمل إذ لا قيمة لى . فرد عليه الخواجة بقوله : ياسبحان الله ، ألم تفهم بكل تلك الأعمال ، ودبرت شئون الملك منذ أن قابلت السلطان فى دامغان ؟ واليوم وقد اعنلى السلطان سرير الملك وأخذت الأمور تسير على نهج واحد فأنت جدير بأن تكون أقدر من ذى قبل . وقد أجاب أبو سهل : نعم لقد فهمت بكل ذلك إذا لم يكن أحد حاضرا للخدمة أما الآن وقد جاء سيد مناك فأنت لى أو لأمثالى الجرأة وأى شأى يكون للذرة مع الشمس وكلنا باطل وقد أتى سيد مثلك بالحقيقة وكفت الأيدى جميعاً . فأجاب الخواجة حسنا إنا سنفكر فى ذلك . ثم عاد إلى داره وقد أرسل الله خلال يومين أو ثلاثة بين الخمسين والستين من المشافهات فى هذا الباب ولكنه لم يستجب . وجاء يوما إلى الحضرة فلما هم بالانصراف ، استبقاه السلطان واختلى به وسأله : لماذا لم يتقبل الخواجة هذا العمل ؟ وهو يعلم أنه منا بمنزلة الوالد ١٥ وأن أمامنا مهاما عظيمة فلا ينبغى أن ييخل علينا بتدبيره وكفاينه . فأجاب الخواجة إني عبد مطيع وأنا مدين بالحياة بعد قضاء الله تعالى لفضل مولاي السلطان ولكننى أصبحت شيخا عاجزا عن العمل فضلا عن أنى قد نذرت وأقسمت أيمانا مغلظة ألا أقوم بأى عمل وقد أصابنى نصب كثير . فقال السلطان إنا سنكفر عن يمينك فلا تصرن على الامتناع أكثر من هذا . فقال إن كان ولا بد من القبول فليأذن مولاي ليجلس عنده بالإيوان ويرسل ما يعن له من

مشافهة على لسان ثقة إلى المجلس العالى ، ويسمع الجواب ، ثم أقوم بالأمر حسب الأمر العالى . فقال السلطان : حسنا وأى ثقة تختار ؟ فرد الخواجة : إن أبا سهل الزوزنى قائم الآن بالعمل ، فلعله من الصواب أن يتقدم أيضا أبو نصر مشكان فإنه رجل صدق ، فضلا عن أنه كان يحمل مشافهاتى فيما سبق . فقال السلطان حسنا جدا . وذهب الخواجة إلى ديوان الرسائل وجلسوا هنالك مختلين .

سمعت الخواجة أبا نصر مشكان يقول كنت قد هممت بالذهاب فأجلسنى قائلا لا تذهب ينبغى بقاؤك لحل مشافهة إلى السلطان فإنه لا يدعى حتى انتهى زاوية إذ أن ما بقى من أيام فى حياتى أيام إنابة إلى الله لا أوقات وزارة .

قلت : أدام الله حياة سيدنا ، إن ما رآه السلطان هو الأصوب ، ويستحسن ذلك العبيد ، ومن المسلم به أن قيام السيد بهذا الأمر يسبب له تعب ، ولكن المهام كثيرة وإنجازها لا يمكن بغير حسن تدبير الخواجة وسداد رأيه . فقال : إنه كذلك ولكنى أرى ثمت وزراء عديدين لا يخفى عليك أمرهم . فأجبت : نعم يوجد من على هذه المشاكلة ولكن لا مفر من الطاعة . ثم قلت له وما شأنى وهذه الأمور ؟ إن فى أبى سهل الكفاية وقد أتعبنى أمره وأعجزنى فأنا أفكر فى حيلة اعتزل بها . فأجبنى لا تفكر فى هذا ، فإنى أعتمد عليك . فأدبت له واجب الاحترام ، ثم جاء أبو سهل بمشافهة من السلطان يقول فيها ، لقد عانى الخواجة أيام أيننا شتى المحن والآلام واحتمل اللوم الكثير ومن العجيب أنهم أبقوه حيا ، فصار بقاؤه ذخيرة لعهدنا ، فينبغى أن يفوم بهذا الأمر فإن فى ذلك تقديرا لحقك وسوف ياتمر بأمرك الكتاب والأعوان فتستقر وتنظم الأمور . فقال الخواجة كنت قد نذرت أن لا أقوم بأى خدمة ولكن السلطان قد تفضل فقال سأ كفر عن اليمين ، وقد آثرت

الطاعة أيضاً ، إلا أن هنالك شروطاً لهذا العمل لو أن العبد طلبها جميعاً ، وأمر السلطان بها ، خرج على كل هؤلاء الخدم وعادوني وأخذوا في تلك الألاعيب التي حاكوها في عهد السلطان الماضي فيوقعوني بذلك في محنة خطيرة ، وأنا الآن أعيش هاتفاً فارغ القلب ، إذ ليس لي ثمة أى خصم أو عدو ، وإن غضضت النظر عن تلك الشروط وقمت بالعمل بدونها أمسى خائناً وينسب إليّ العجز وأكون مسئولاً أمام الله تعالى وأمام السلطان كذلك فإذا وجب على العمل فسألتس منه الموافقة على الشروط جميعاً ، فإن أقرها ومكنتني منها قمت بأداء الخدمة والنصح كما يقضى به الواجب . »

وذهب كلانا أبو نصر وأبو سهل لتبليغ السلطان قوله ، وقد قلت ونحن في الطريق لأبي سهل : بما أنك الواسطة في هذا الأمر فأى فائدة من وجودي ؟ فأجاب إن الحاجة هو الذى أرادك فلعلة لا يعتمد على . ولكنى رأيت ممتعضاً لوجودي وعند مثولنا لدى الحضرة راعيت جانب الأدب لبدأ أبو سهل في الحديث فلما أخذ فيه اتجه السلطان إلىّ وطلب منى الكلام فضاعت نفس أبي سهل حرجاً وشرحت المشافهة تماماً . فقال السلطان إنى سأعهد إليه بجميع الأمور عدا الله والشراب والصولجان والحرب ، هذا وستجرى الأعمال فى الأشياء الأخرى بأمره وتديره ، ولن يكون من قبلنا أى اعتراض على رأيه ونظره . فعدت وأبلغت الجواب بيد أن أبا سهل بقى متألماً رغم أنى كنت أقدمه فى كل شىء ولكن ما الحيلة وقد كان السلطان والحاجة كلاهما لا ينفكان عنى . وأجاب (١) بالسمع والطاعة قائلاً : سوف أرى رأيى وأكتب شروطاً لتعرض على الرأى العالى زاده الله علواً حتى يجيب عليها بخطه ويؤكد لها بتوقيعه فيدار هذا العمل كما كان فى عهد السلطان الماضي . وأنت تعلم كيف استقامت الأمور

(١) أى الحاجة أحمد (غنى - قياس حاشية ٤)

في ذلك العهد يا أبا نصر . فذهبنا إلى السلطان وبلغنا ١٥٣ مقالة الخواجة فقال :
« حسنا ، يجب أن ينتهى الخواجة غداً من تمهيد الأعمال حتى يرتدى الخلعة
بعد غد » . فأجبنا « نعم وسنبلغه ذلك وانصرفنا فننادانى السلطان أنا أبا نصر قائلاً :
عد إلينا بعد ذهاب الخواجة فإن لنا حديثاً معك . فقلت سمعاً وطاعة ودنوت
من الخواجة وأخبرته بما كان ، ثم ذهب أبو سهل وبقيت أنا والخواجة فقلت :
« أدام الله حياة مولاي ، لقد أبلغت أبا سهل أثناء الطريق فى أول مشافهة حملناها
أن ليس لى شأن فى هذه الأمور مع وساطتك بالفعل . فأجبنى إنما دعاك الخواجة
فلعله لا يثق بى . فقال الخواجة : نعم أردت أن يكون الواسطة بينى وبين السلطان
رجلا مسلماً لا يحرف الكلام ولا يكذب على عارفاً بما ينبغى ، وهذا المخرور
وزملاؤه يحسبون أنى إذا قت بأعباء الوزارة ستذهب عنهم وزارتهم تلك
المقنعة ، ولسوف أدق عنقه أولاً حتى ينخلع روحه وكبدته فيكف عن طلب
الوزارة ، وكذلك سأفعل بالآخرين وإنى لعل علم بأنه ان يستطيع صبراً وسيضيق
بهذا الأمر ولقد فتح هذا السلطان الطريق لعرشه أمام كثير من الأذئاب وزاد
فى جراتهم وسأقوم بما يجب من النصيح والإرشاد حتى أرى ماذا يكون . ثم
انصرف فذهبت إلى السلطان فسألنى ماذا يريد الخواجة أن يكتب ؟ فأجبت .
لقد جرت العادة إذا أرادوا أن يستوزروا عظيماً بأن يكتب ذلك الوزير شروط
عمله ، ويجب عليها السلطان بخطه ويوقعها ويطلب فى آخرها إلى الله عز ذكره
أن يرعى الوزير ، وأن يكون معها صورة القسم بشروطه التامة ليجرى على لسان
الوزير وليذيلها بخطه ويشهد على نفسه أنه سيعمل بموجبها . فقال إذا أكتب
ما ينبغى كتابته فى جواب تلك الشروط وكذلك صيغة القسم حتى يتم غداً هذا
الأمر ويرتدى الخواجة الخلعة بعد غد لأن الأمور كلها متوقفة . فقلت : سمعاً
وطاعة . ثم انصرفت وأعددت هذه النسخ واختلى السلطان عند صلاة العصر
ووقف عليها جميعاً فأعجبته . ثم جاء الخواجة فى اليوم التالى بعد الاستقبال وجلس

فى الإيوان مختللاً بعد أن انتهى الاستقبال . وقدم أبو نصر وأبو سهل للسلطان الشروط ، فطلب المحبرة والقرطاس وكتب بخطه جواب الشروط واحداً بعد آخر ثم وقعها وكتب تحتها اليمين وجاءوا بها إلى الخواجة فلما قرأ الأجوبة نهض وقبل الأرض ودنى من السرير وقبل يد السلطان ، ٥٤١ ثم عاد وجلس فى مكانه ، وقدم أبو نصر وأبو سهل صيغة القسم له وأجراها على لسانه ثم وقعها بخطه وأشهد أبا نصر وأبا سهل على نفسه ، وقد تلى السلطان معه إزاء ذلك القسم ووعدده بالحسنى وقبل الخواجة الأرض . فقال السلطان « عد إلينا غدا لنخاع عليك فإن الأمور متوفقة وأماننا مهم كبرى ينبغى إنجازها » فقال الخواجة « سمعاً وطاعة » وحملوا الشروط معه وأودعوا كتاب القسم الدوات خانة (١) . هذا وقد ذكرت صورة تلك الشروط وصيغة القسم فى كتاب المقامات المحمودية الذى ألفته ، ولذا عدلت عن ذكرها هنا خشية التطويل .

أيقن الجميع أن أمر الوزارة قد استتب فاستحوذ الخوف على القلوب إذ ليس القائم بأمر الوزارة رجلاً صغيراً ولا سيما قلوب من كانت لهم سوابق فى إيذاء الخواجة ، أما أبو سهل الزوزنى فقد غلبه هوى لم يكن أشد منه وكان يتظاهر أمام الناس بأن هذه الوزارة إنما كانت له وأنه هو الذى استقدم الخواجة ، وكان العقلاء يعرفون أن الأمر ليس كما يقول ، فإن السلطان مسعود كان أعظم وأدهى وأكثر إدراكاً من أن يرى الخواجة أحمد حسن أمامه ويقلد الوزارة غيره من الناس وهو الذى كان يعرف قدر كل شخص ومنزله ومدى اقتداره على العمل ، والدليل الواضح على قولى أن السلطان كان يقول بعد وفاة الخواجة أحمد فى هراة لا يليق لمنصب الوزارة إلا الخواجة أحمد عبد الصمد رغم وجود تلك الجماعة . وسأشرح ذلك كله فى موضعه من

التاريخ . ولعمري إن قولي في أبي سهل ، ليس لأنه آلمني وآذاني فإنه أي أبو سهل وكذلك كل القوم قد ذهبوا وقد أشرفت حياتي أنا الآخر على نهايتها ولكني أقول الصدق وأعلم أن العقلاء ممن عركوا الدنيا لن يعترضوا على قولي ، ولن يعدوه تحاملا على أبي سهل ، هذا وجميع ما ذكرت في هذه الأمور في ذمتي وإني لمستطيع أن أجيب عليه والله عز ذكره يعصمني وجميع المسلمين من الخطأ والزلل بمنه وفضله وسعة رحمته .

وحضر الخواجة في اليوم التالي لتسع خلون من شهر صفر من هذا العام ١٥٥ إلى الدركاه وتقدم نحو الحضرة يتبعه الوجوه والأعيان والمقدمون والأكابر والموالي والحشم وأدوا جميعا فروض الطاعة ثم التفت السلطان نحو الخواجة وقال له « يجب أن ترتدى . خاتمة الوزارة فإن أماننا مهمما كثيرة وكذلك ينبغي أن تعلم أن الخواجة خليفتنا في كل ما تؤول إليه مصالح البلاد وإشارته وأمره نافذان في كافة الشئون وليس لأحد أن يعترض على ما يراه » فقبل الخواجة الأرض وقال « سمعا وطاعة » ثم أشار السلطان إلى كبير الحجاب بلكاتكين^(١) ، ليذهب بالخواجة إلى خزانة الملابس حيث مكث حتى الضحى منتظرا حلول الساعة السعيدة التي حددها المنجم الفلكي^(٢) لارتداء الخلعة وكان الموالي والحشم جميعا حضورا^(٣) في انتظار عودته إلى البلاط وهم بين واقف وجالس . ارتدى الخواجة الخلعة وقد كنت أنا أعني أبا الفضل أشاهد آنذاك ما يجري فاست أقول الآن إلا ما رأيته وقتئذ بعيني أو من مذكراتي وتقويمى وكانت الخلعة مكونة من قباء

(١) بلكا ، بكسر الباء وسكون اللام في اللغة التركية بمعنى « حكيم وعالم » (عن ديوان لغات الترك) غنى — فياض حاشية ١ .

(٢) في قاميج جاسوس منجم الفلك .

(٣) كذا في بب ميج وفي فا « مصطحين » وفي مو « في الديوان » وكلها صحيح (غنى —

فياض حاشية ٣) .

سقلاطونى بغدادى ناصع البياض ، عليه نقوش دقيقة بديعة كبيرة مقصبة نادرة ولكنها لطيفة دقيقة الطراز مرتفعة القيمة وسلسلة نخمة ومنطقة وزن ألف مثقال ، مرصعة بالفيروز . وكان الحاجب بلكاتكين جالسا على باب خزانة الملابس فلما خرج الخواجة قام مهتئا إياه ، وقدم إليه دينارا ومنديلا وفصين من الفيروز الثمين ركبا فى خاتم وهم ليدنوا منه ، فخاطبه الخواجة قائلا : بحياة السلطان ورأسه تنح عنى ، ولتقل للحجاب أن يتنحوا عنى كذلك . فأجابه بلكاتكين لا ينبغي أن يطلب إلى الأستاذ الرئيس هذا الأمر ، وهو يعلم إخلاصى له وفضلا عن ذلك فإنه يرتدى خلعة سيدنا السلطان التى توجب عناينا رعايه حرمتها ، ثم تقدم إلى الخواجة ومعه حاجبان آخران وكثير من أصحاب الرتب . ولقب أحد غلمان الخواجة بلقب الحجابة وألبس قباء ملونا لأن الرسم يقضى أن يدخل حجاب الوزراء عليهم بالسواد . وعندما توسط الخواجة الدار ، استقبله بقيه الحجاب وذهبوا به إلى السلطان وأجاسوه ، فقال له « بورك للخواجة » فمض ١٥٦ الخواجة فقبل الأرض ودنى من السرير ثم وضع فى يد السلطان عقدا من الجواهر يباغ ثمنه على ما قيل عشرة آلاف دينار . وأعطى السلطان الخواجة خاتما من الفيروز ، نقش عليه اسمه وهو يقول : هذا خاتم ملكنا ، نسله إليك ، ليعلم الجميع أن أوامرك تالية لأوامرنا . فأخذه الخواجة وقبل يد السلطان ثم قبل الأرض وعاد إلى داره فى موكب عظيم لا يذكر أحد مثله ولم يبق على باب القصر سوى حراس النوبة ، ومر بباب عبد الأعلى ثم دلف إلى بيته وأخذ الأكابر والأعيان يفدون عليه ، مقدمين له من الغلمان والنصار والحلال مالم يره وزير من قبل . وكان بعضهم يتقرب إليه عن إخلاص والبعض عن خوف فأمر بتسجيل ما قدم إليه ، ثم أوعز بحمله إلى السلطان ، ولم يقبل لنفسه منها شيئا واحدا فكان فى هذا قدوة للجميع إذ كان أكثر أهل زمانه تهديبا وسوددا . وامتد به

الجلوس حتى صلاة الظهر ، فلم يفارق مجلسه إلا للصلاة ، وكان يوما مشهودا .
وحضر في اليوم التالي إلى الدركاء بغير الخلعة مرتديا كعادته قباء كرديا وعمامة
نيسابورية أوقائية وهي الملابس التي كان يشاهد بها هذا السيد رضي الله عنه دائما .
وقد سمعت من ثقاته مثل الكتبخدا أبي إبراهيم القائي وغيره أن الخواجة كان له
عشرون أو ثلاثون قباء من لون واحد يستعملها مدة سنة فكان الناس يظنون
أنه لا يمتلك إلا قباء واحدا فيقولون سبحان الله ، أما الآن لهذا القباء أن يخلق ؟
وعلى كل فقد كان رجلا نادرا لاحد لما أثره ونشاطه وسأشير إلى ذلك في موضعه
بعد ذلك . فلما انتهت السنة صنعوا عشرين أو ثلاثين قباء أودعوها خزانة
الملابس فلما أتى إلى الخدمة في هذا اليوم اختلى به السلطان مسعود رضي الله
عنه بعد أن انتهى الاستقبال وطالت الخلوة حتى صلاة الظهر فجمدت أطراف
جماعة من شدة الخوف . وجرت أمور من وراء ستار وارتفعت أصوات
متضاربة ولم أستطع أنا أو غيري معرفة ١٥٧ شيء مما تم في ذلك المجلس
ولكن عندما ظهرت أمارات من إسناد المناصب إلى جماعة ومنحهم الخلع
وضرب ومحق جماعة آخرين اتضحت الأمور وثبت للعقلاء أن كل هذه
الأحوال إنما كانت نتيجة لتلك الخلوة . وعندما دق طبل البلاط ، وقت صلاة
الظهر خرج الخواجة وطلبوا جواده فركب عائدا وأخذ كل من يخشى العقوبة
يأتي في ذلك اليوم حتى الليل ليقدم النثار ، واستدعى الخواجة أبا محمد الفارسي
الكاتب وكان من خواص كتابه وقد اشتغل بالكتابة لأبي القاسم كثير
بأمر من السلطان محمود ، أيام محنة الخواجة ، وكان قد انتقل بعد ذلك إلى
ديوان حسنك ، كما استدعى إبراهيم البيهقي الكاتب ، وكان من كتاب ديواننا ،
وقال لهما : لا بد للكتاب من إطاعة الأوامر ، وأنا أضع ثقتي فيكما فينبغي أن
تحضرا إلى الديوان غدا ، وتبادرا إلى العمل في الكتابة وكذلك ينبغي أن
يأتي النساخ والمساعدون ، فقالا سمعنا وطاعة .

وسُبل بعطفه الكاتب أبا نصر البستي الذي كان مشتهرا بجودة الخط والمهارة في الترسيل والإنشاء وخدم الخواجة بالهد أيام محنته ، وهو من رفقوا به وأشفقوا عليه في تلك الأيام وصحبه بعد خلاصه من السجن إلى بلخ . فأسند إليه عملا جليلا وذهب للاستحثاث^(١) فحصل على مال كثير ، وقد توفي أبو محمد وأبو إبراهيم رحمة الله عليهما ، أما أبو نصر فلم يزل حيا يقوم بأعماله في خدمة تلك الأسرة بغزنة وقد اختاره الخواجة عبد الرازق في عهد وزارته ليكون صاحب ديوانه ، كما سبل برعايته أبا عبد الله الفارسي الذي واصل العمل في خدمة الخواجة وكان أبو عبد الله الفارسي هذا صاحب بريد بلخ في عهد وزارة الخواجة وكان يتولى منصبا رفيعا ، إلا أنه قاسى عذابا كبيرا إبان محنته وقد سار أميرك البيهقي من غزنة ليعجل بعزله ، كما ذكرت سابقا وقد سلبوه أموالا طائلة .

وفي اليوم التالي وكان يصادف الثلاثاء حضر الوزير إلى البلاط وقابل السلطان ثم ١٥٨ انصرف إلى ديوانه وكانوا قد بسطوا مما يلي مجلسه سجادة فيروزية اللون ، فصلى ركعتين ثم جلس بعيدا عن صدر المجلس ، وطلب محبرة ، فجاءها مع مجموعة من الأوراق ودرجا خفيفا كما يقدم ويوضع للوزراء فأخذ ورقة وكتب فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله المصطفى محمد وآله أجمعين وحسبي الله ونعم الوكيل ، اللهم أعني لما تحب وترضى برحمتك يا أرحم الراحمين ، ليعط الفقراء والمساكين ، شكرا لله رب العالمين ، من الورق^(٢) عشرة آلاف درهم ومن الخبز عشرة آلاف ومن اللحم خمسة آلاف ومن السكر باس عشرة آلاف ذراع ، ثم رمى بها إلى الدوات

(١) المستحث جاني الحراج (كتاب السامى) غنى - فياض حاشية ٤ .

(٢) ورق بفتح الراء ، وكذا بكسرها بمعنى الدرهم المسكوك (عن الصحاح والقاموس)

غنى - فياض حاشية ١ .

دار فنفذهما في التوَّ ثم قال : « ادع المتظلمين وأرباب الحاجات » ، فقدم عدد منهم فاستمع إلى ظلاماتهم وأنصفهم ثم صرَّ فهم شاكرين وقال : « إن مجلس الديوان وباب السراى مفتوحان بلا حجاب وليتقدم كل من له حاجة ، فكثرت دعاء الناس له وأملوا أنفسهم . وكان المستوفون والكتاب قد حضروا وجلسوا في غاية النظام عن يمين المجلس وشماله فالتفت إليهم وخاطبهم قائلاً : « لتكونن غدا على استعداد ، للإجابة على أى سؤال أوجهه إليكم في الحال ودون إهمال أو تسويف ، فإن الأمور إلى اليوم كانت تسير على أسوأ ما يكون ، إذ كان كل يعمل على هواه حتى تدهورت بسبب ذلك مصالح الدولة ، هذا وأحمد حسن يعرفكم تماما ولن يرضى بما أنتم عليه حتى الآن فينبغى أن تغيروا سيركم وأن يشتغل كل منكم فيما يخصه . فلم ينبس أحدهم ببنت شفة وخافوا جميعا وتجمدوا في أماكنهم . ثم نهض الخواجة منصرفا إلى داره واستمرروا في تقديم النثار له في ذلك اليوم . وبعد صلاة العصر طلب الخواجة القوائم وقابلها بما سجله خازنو السلطان ومشرفو الدركاه وقدموها للسلطان صنفا صنفا وكانت أموالا كثيرة لا تحصى من الذهب والفضة والملابس غير المخيطة وغلبان الأتراك الممتازين والخيول والنجايب الغالية وكل شيء من أعظم ما تزدان به القصور ١٥٩ والدور السلطانية ، فأعجب السلطان بها أيما إعجاب وقال إن الخواجة رجل خالى الوفاض فلم لا يأخذ هذه الأموال لنفسه ؟ ثم أمر عبدوس أن يحمل إليه عشرة آلاف من الدينانير وخمسمائة ألف درهم وعشرة من خيرة الغلبان الأتراك وخمسة من الخيل الخاصة وبغلتين مسرجتين وعشرا من النجايب . فلما تقدم عبدوس إلى الوزير بتلك الهدايا ، نهض هذا من مكانه وقبل الأرض ودعا للسلطان كثيرا ، وعاد عبدوس . وجاء الوزير إلى البلاط غداة ذلك اليوم وكان يوافق يوم الأربعاء لسبع خلون من شهر صفر وجلس السلطان للظالم فكان يوما عظيما مشهودا ثم جاء الوزير بعد انتهاء الاستقبال إلى الديوان وبدأ يباشر أعماله في تدبير الأمور كما يتوقع من مثله

واستدعى الخواجة أبا نصر مشكان عند الضحى فجاء إلى الديوان وأرسله بمشافهة سرية إلى السلطان يقول له « إن أعمال العرض كما بين العبد لمولاه وإن لأبي سهل الزوزنى حرمة وقد صار وجيهاً فإن رأى مولانا فليأمر بإستدعائه ثم يخلع عليه ويكافئه بالقيام بهذا العمل فإنه من أهم الأعمال ، هذا وسيقدم العبد كل ما يعرف من المعونة والإرشاد حتى يسير أمر الجيش في نظام .

وذهب أبو نصر فبلغ المشافهة وأشار السلطان إلى أبي سهل بالتقدم وكان جالسا مع الندماء في المجلس فكلمه قليلا وقبل أبو سهل الأرض ثم انصرف فذهب به اثنان من الحجاب أحدهما من داخل السراى والآخر من خارجها إلى خزانة الملابس حيث ألبسوه خلعة فاخرة للغاية أعدت له ليلا ، من جملة منجملتها منطقة ذهبية بسبعمائة مثقال . فثل أمام السلطان وأدى التحية والاحترام ، فقال له السلطان : بورك لك ، اذهب إلى الوزير ولتعمل بمشورته في تنظيم أمور الجند ، فإنه من أهم الأعمال . فقال أبو سهل « سماعاً وطاعة » وقبل الأرض وذهب رأساً إلى ديوان الخواجة فأجلسه الوزير إلى جواره وتحدث إليه في لطف كثير ثم رجع إلى داره ، فسارع إليه جميع الأكابر والموالي والحشم وقاموا بحقه خير قيام وحملوا إليه مالا كثيراً ، فأمر كذلك بتسجيل جميع ما أحضروه وأرسله إلى الخزانة .

وفي اليوم التالي خلعوا على أبي سهل الحمدوى ، وكان قد عزل من الوزارة (١) ، خلعة جد فاخرة وفوضوا إليه عمل الإشراف من قبل السلطان على المملكة على أن ياتمر بأمره عامة ١٦٠ المشرفين ومنهم المشرفون الكبار الأربعة ، فثل بين

(١) كان وزيراً أيام الأمير محمد . غفر له فياض حاشية .

يبدى السلطان وأدى مراسم الاحترام وقال له السلطان : إن لك حق السابقة في الخدمة ، وقد ثبت إخلاصك وتفانيك لدولنا فينبغي أن تقوم بهذا العمل خير قيام . فقال « سماعاً وطاعة » ثم انصرف إلى الديوان ، فأجلسه الوزير إلى يساره كما يقتضى الرسم في غاية من الإكرام وأثنى عليه كثيراً وتقدموا إليه بالهدايا فأرسلها كلها إلى الخزانة . وانتظمت شئون الدواوين على صورة لا يذكر أحد لها مثيلاً من قبل وأيده السلطان كل التأييد . وبدأ الوزير من فوره يمهّد للانتقام فصدرت منه سرا ، أوامر في شأن السادة أبي القاسم كثير المعزول من إمارة العرض وأبي بكر الحصيرى وأبي الحسن العقيلي وقد كانا من جملة الندماء وكان هزلأه قد أقدموا على أمر أثرت إليه في هذا التاريخ أما الحصيرى فقد كان من الجبابرة في عهد السلطان محمود ، وقد جاوز حد الأدب مع هذا السلطان في مجلس الشراب وعنف مرتين ، واشتغل أبو القاسم كثير بالوزارة واشترى^(١) غلامه أبا الحسن ، وسأذكر بعد ما مر بكل منهم .

في يوم الأحد الحادى عشر من شهر صفر ، كانوا قد أعدوا خلعة فاخرة لكبير الحجاب وكان من جملة الكوس والرايات العريضة والشارات والغلمان وأكياس النقود والكساوى غير المخيطة وأشياء أخرى على النحو الذى منحه الحاجب على قريب في جرجان ، فلما انتهى الاستقبال ، أمر السلطان أن يذهبوا بالحاجب بلكاتكين إلى خزانة الملابس ويلبسوه الخلعة ، فوضعت الكوس على الجمل والأعلام على باب السراى ، وتركت الشارات وأكياس الدراهم والغلمان في وسط الحديقة ، وتقدم هو مرتديا الخلعة السوداء والقلنسوة ذات الركنين ومنطقة من ذهب فمثل بالخضراء حيث أدى فروض الطاعة ، فشمله السلطان برعايته وانصرف بلكاتكين إلى ديوان الخواجة فأثنى عليه هذا

(١) الصمير رجع إلى الخواجة أحمد حسن يقصد أن سبب هذه المواجهة على أنى الحسن العنيل إليه اشترى غلامه (وكان هذا حتماً عند عزل الخواجة) عى - فياض حاشية ٣ .

شاء عاطراً ، ثم ذهب إلى داره ، وقدم له الأكابر والأعيان هدايا كثيرة للغاية . وهكذا استقر منصب الحجابة الكبرى على هذا الرجل العظيم وقليل ما شاهدوا رجلاً في مثل هويته وشجاعته وسخائه وسعة سمائه ولكنه كان حاد الطبع مسمياً الخاق للغاية تغاب عاياه خفة وبساطة غير محودة . والمرء لا يخلو من العيب . ١٦١ والسكال لله عز وجل .

وقد وقعت لأبي بكر الحصيري الفقيه في تلك الأيام حادثة نادرة إذ صدرت عنه زلة في حال سكره استخدمها الوزير في التغلب عاياه والانتقام منه . ومع أن السلطان قد تداركه بذكائه المالكى ، إلا أن ربح الرجل ذهب في وقتها ، ولات حين مناص ، وسأحدث عن هذا في بابها ولا مرد لقضاء الله عز وجل .

اتفق أن ذهب الحصيري يوماً مع نجله أبى القاسم إلى بستان الخواجة على ميكائل وكان قريباً ، فتمادى في احتساء الخمر ، وأمسى وبات وأصبح هنالك على الشراب والصيوح غير لائق ولا يكتر منه العقلاء . وقد ظل عاكفاً على الشراب فامتدت به الحال إلى ما بين الصلاتين ، ثم ركب وأخذ يقطع الطريق إلى محلة عباد وهو يشرب فلما وصل وهو في مهذ على البغل مع نجله وثلاثين من غلمانة إلى السوق المعروفة بـ « بازار عاشقان » اعترض طريقهم صدقة عبد من خاصة الوزير ، وكان الطريق ضيقاً صعب العور للمارة ولعبت الخمر برأس الحصيري كما تفعل بالسكران فكأنه قال لنفسه : لم لم يترجل هذا المارس ولم يؤد الاحترام فسبه بأشنع الألفاظ . وقال له الرجل لماذا تسبى يا نديم السلطان إن لى سيداً مثلك ، بل هو أكبر منك ذلك هو الأستاذ الرئيس ، فسب الحصيري الوزير وصاح قائلاً اقضوا على هذا الكلب حتى أرى من ذا يجرؤ على تخليصه . وتمادى في سب الخواجة وإهائته وكذلك صرخ غلمان الحصيري في وجه الفارس ولطموه على قفاه وشقوا معطفه فصاح ابنه أبو القاسم في الغلمان وكان يقظاً عادلاً بصيراً بالعواقب ، ودليل ذلك ماله اليوم من منزلة عظمى وقد اعتزل

الخدمة بعد عودته من الحج ١٦٢ وانصرف في زاوية إلى أعمال البر والإحسان أدام الله حياة السيد وهذا الصديق الطيب ، فنتقدم نحو هذا الرجل معتنذا له مطيبا خاطره ملتصقا منه ألا يذكر شيئا عما جرى لسيدته ، واعداد إياه أن يتلافى ما حدث في غداة غد فإن كان قد تمزق له قباء واحد فإنه سيعوضه عنه بثلاثة ثم ذهبوا جميعا ، أما الرجل فقد أخذ يفكر ولسكنه لم يستطع أن يغيض النظر فإن عادة الغلمان المرتزقة أن يهولوا في الأمور دون ما نظر إلى العواقب .

كانت هذه الواقعة يوم الخميس الخامس عشر من شهر صفر فسارع الفارس إلى الخواجة أحمد وقص عليه الحكاية مبالغا فيها عشر أو خمس عشرة مرة وعرض عليه رأسه ووجهه المصفوع ومعطفه الممزق. وجاءت هذه الواقعة موالية لرغبة الخواجة الملاحه لأنه كان يريد انتهاز فرصة يثب بها على الحصيرى ، فرأى أن الفرصة قد سنحت وأن السلطان الذى خلع عليه خيلعة الوزارة بالأمس ان يتركه اليوم ويراعى جانب الحصيرى . وعلى كل فقد رأى السبب وأصاب الهدف وأراد السلطان أن يذهب فى اليوم التالى للصيد فى موضع ميخواران وكانوا قد حملوا السراشق وجميع آلات الطبخ وأدوات الطرب والشراب وغيرها إلى ظاهر المدينة ولم يركب الوزير فى ذلك اليوم وكتب رقعة بخطه وختمه وأرسلها إلى بسكاتكين يقول له إذا سأل السلطان لماذا لم يأت أحمد فسلم إليه هذه الرقعة ، وإن لم يسأل فسلبها له أيضا لأنها مهمة لاتحتمل التأخير . فقال بسكاتكين سمعاً وطاعة وكانت صلتها قوية جدا ، إلا أن السلطان لم يستقبل أحدا لأنه كان مزمعا الخروج وكانوا قد أخرجوا العلامة والمظلة والغلمان على خيولهم بكثرة فى انتظاره ، ونودى بأن يحضروا أننى الفيل بالمهد ، فأحضروها فاستقبل السلطان المهد وساقوا الفيلة . وكان الأعيان كلهم وقوا لتأدية الخدمة وما أن لاح لهم حتى أدوا فروض الولاء . وعندما وصل إلى باب الإيوان ولم ير الخواجة أحمد سأل

عنه قائلا : ألم يحضر الخواجة ؟ فقال أبو نصر مشكان : إن اليوم يوم جمعة ولعله عرف أن مولانا يريد الصيد فلم يحضر . فقدم الحاجب بلكاتكين الرقعة وهو يقول إن الوزير أرسلها إلى ليلا وقال لي ينبغي أن توصل الرقعة سأل مولانا لماذا لم يجيء أحمد أولم يسأل ، فأخذ السلطان الرقعة . وأوقفوا الفيلة حتى يقرأها ١٦٣ وكانت كما يلي :

« أطال الله حياة مولانا ، إن كان العبد يقول إنى لا أستطيع النهوض بأعباء الوزارة فلأنهم لم يدعوني أفعل ، وقد اغتركل منهم ، وما كنت أحب الوزارة فى مثل هذه السن المتقدمة لأرى الناس يدخلونك فى حرب معى ويعملون على إيدائى ، ولكن السلطان بنطقه الكريم وعدنى بالحسنى وتمت شروط ملكه وقد نجوت من الموت بعد فضل الله بدولته فذلك وافقت على القبول ، ورغم أنه لم يمض أكثر من عشرة أيام على عملى يبادر الحصىرى فيقضى على مهابة هذا العمل أثناء عودته من البستان وهو يحتسى الخمر أثناء ركوبه ، فقد أمر غلمانه بضرب رجل من ثقاتى فضربوه على ملاء من الناس فى سوق السعيدية ضربا مبرحا ومزقوا قباءه ، وعندما قال إنى من غلمان أحمد سب أحمد مئة ألف سبة على مسمع من الجمع . وإنى لن أحضر بعد هذا إلى الديوان ولن أذهب إلى الوزارة بأية حال من الأحوال ، فإن احتمال الإهانة من هؤلاء القوم عسير . فإن رأى مولانا إعفائى لأسكن فى رباط أو قلعة حسبما يرى رأى العالى وإلا فليأمر بعقاب الحصىرى عقابا يمس ماله وبدنه فإن هذا الرجل قد أخذته العزة وقد أصبح له ولنجله مال كثير أدى إلى اغترارهما ، وإنى مستعد لأن أقدم عنه وعن نجله ثلثمائة ألف دينار للخزانة العامة ، وهذه الرقعة التى حررتها بخط يدى هى الحجة على ما أقول والسلام . »

وطوى السلطان الرقعة بعد قراءتها وسلمها إلى الدوات دار وكان من خاصة الغلمان قائلاً : احتفظ بها . ثم ساق الفيلة . فأخذ الناس يظنون الظنون ويقولون ترى ما سيظهر من وراء الستار ، وأصدر أمراً في الصحراء ليعود الغازي السهسلا وأريارق قائد الهند وباقي الحشم إذ لم يكن لهم رخصة للصيد . وكان السلطان يسير مع خاصته فدعا إليه الحاجب بلكاتكين وتحدث معه باللغة التركية ثم عاد الحاجب وأرسل السلطان نقيبا يطلب أبا نصر مشكان وكان إذ ذاك في الديوان فأسرع إليه النقيب قائلاً : ان السلطان يدعوك . فركب مسرعاً ولحق به واستمر في السير معه . وكله السلطان في المقابلة طويلاً ثم أمره بالعودة ، ١٦٤ ولكنه لم يعد إلى الديوان بل ذهب إلى دار الأستاذ الرئيس بعد أن أمر أبا منصور حارس الديوان بأن يوعز إلى الكتاب ليعودوا إلى عمائم فعدنا ، أما أنا فقد سرت في أثر أستاذي إلى دار الأستاذ الرئيس رضى الله عنه ، حيث وجدت زحاما شديدا وعدداً لا يحصى من الناس وقوا ينظرون . فقلت لأحدهم كيف الحال ؟ فقال إن صاحب الشرطة أحضر أبا بكر الحصيري مع نجله خليفة المدينة بالجبة والخفين إلى دار الوزير وأوقفاهما وأحضروا العقابين ولا يعلم أحد ما هو الحال . وجاء نفر من الأعبان ممتطين خيولهم يريدون السلام على الوزير لأن اليوم يوم الجمعة ، فلم يأذن لأحد إلا للخواجة أبي نصر مشكان فقد جاء ودخل إلى الدار . وبعد أن سمعت أنا أبو الفضل بالقبض على ذلك السيد وابنه بهت لما للحصيري ونجله على من الأيادي البيضاء ، فترجأت عن جوادى ودخلت الساحة وبقيت هنالك حتى قبيل الظهر . ثم أحضروا المحبرة والورق ولم أسمع شيئاً سوى ما قاله أبو عبد الله الفارسي على الملأ من أن الأستاذ الرئيس يقول : ولو أن السلطان قد أمر بضربك ألف عصا وبمشلها لابنك لكنى أشفق عليك وأصفح عنك فادفع الآن خمسمائة ألف دينار واشتر بها ضرب العصا وإلا نفذنا الأمر حالا ، فلا تكون ممن يضرب بالعصا ويغرم المال . فقال الوالد

والولد : سمعا وطاعة لكل ما يأمر به الخواجة ولكن فليمن علينا بتخفيض الغرامة لأنه يعلم أن ليس في طاقتنا أن ندفع الآن عشر هذا المال . وكان أبو عبد الله الفارسي يروح ويغدو لتبليغ المشافعات إليهما إلى أن استقر الأمر على دفع ثلثمائة ألف دينار ، وسلبا صكاً بذلك . ثم صدر الأمر بنقلهما إلى الحرس ، فنفذ الأمر خليفة المدينة واعتقلهما هناك ، ثم انصرف الناس . وظل أستاذي أبو نصر هناك للشراب ، وعدت إلى داري وحضر عندي سنكوي وكيل الباب بعد ساعة وقال لي إن الأستاذ أبا نصر أرسلني إليك وهو يأمر أن تذهب إلى خدمة السلطان أنت يا أبا الفضل وتقول له : « إني ذهبت إلى الخواجة حسب الأمر العالي وصببت الماء على البار حتى كفوا عن ضرب الحصري ونجاة واكتفوا بأخذ ثلثمائة ألف دينار منهما ١٦٥ وأمروا بحبسهما ، وقد سر الأستاذ الرئيس سرورا بالغا بعطف السلطان عيله وأبقاني للشراب معه ، وقد كان من الخطل إهمال الأمر ، وهذا سبب تأخر العبد وإرسال العبد أبي الفضل حتى لا يكون عملي هذا مغائرا لمقتضى الآداب والعبودية » .

وذهبت فورا فوجدت السلطان ، وقد نزل في بستان قرب المدينة ، مصرفا إلى الشراب والسماع ، وكان الندماء جلوسا والمطربون يعزفون ، فقلت في نفسي ينبغي أن أكتب هذه المشافعة حتى إذا لم أجد مجالا للكلام قرأها بنفسه ويتم بذلك الغرض فكتبت رقعة شرحت فيها كل شيء ودنوت فنناداني قائلا ما شأنك ؟ فقلت له إن العبد أبا نصر أرسلني بمشافعة وأريته الرقعة فأمر الدوات دار أن يتسلبها فتسلبها وقدمها إليه ، وبعد أن طالعها دعاني وأعطانني الرقعة وقال لي سرا : إرجع إلى أبي نصر وقل له نعم ما صنعت وإننا نقدرك لذلك وسوف نأمر بما ينبغي حينما نعود بعد غد ولنعم ما عملت ببقائك عند الوزير لمؤانسته في الشراب . فعدت فوصلت عند صلاة العصر إلى المدينة ودعوت سنكوي وكتبت على ورقة : ذهب العبد وأدى المهمة . وسلبها سنكوي إلى أستاذي فاطلع

عليها . وقد مكث عند الوزير حتى صلاة العشاء وعاد من عنده ثملا للغاية . واستدعاني في مساء اليوم التالي فذهبت إليه وكان جالسا مختليا فقال لي : ماذا فعلت . فقصصت عليه كل ما جرى . فقال : حسنا ، لقد دخل هذا الخواجة في العمل وهو سيبالغ في الانتقام ويقضى على القوم إلا أن هذا الملك العظيم راع ويقدر الحقوق فإنه حين قرأ رقعة الوزير رأى أن المصلحة تقتضى بمراعاة جانبه إذ ليس من الخير الرضا عن التطاول على وزير لما يقض في الوزارة أكثر من أسبوع ورأى من الحكمة أن يرسل كبير حجابه إلى الدركاه مع صاحب الشرطة ليحملا الحصيرى ونجلاه إلى سراى الخواجة مع العقابين والجلاد وأن يضرب كل منهما ألف سوط حتى لا يجرؤ أحد بعد ذلك على ذكر اسم الوزير إلا بالحسنى ولما أصدر أمرا خطيرا كهذا لم يرد أن تزول حرمة الحصيرى مع أنه ١٦٦ كان قد ارتكب خطأ فاحشا ، وأسرع إلى يدعوني ، فلما حضرت خاطبني علانية : ألا ترغب في المجيء معنا للنزهة : فقلت : إن سعادة العبد أن يكون في خدمة مولاه ولكن السلطان أمره بكتابة عدة كتب مهمة إلى الرى وتلك النواحي وأمره ألا يحضر وأن يبعث إليه بكاتب ^(١) النوبة : فضحك وكان آية في اللطف في كل حال ، وقال : نعم أذكر ذلك لكننى قصدت المزاح ثم أضاف قائلا : وهناك مسائل أخرى ينبغى الإشارة إليها في تلك الرسائل وقد أردت أن نخبر بها عن طريق المشافهة لا بواسطة المراسلة . وأمر بإيقاف الفيل فترجل الفيال ومساعدته الذى كان فى المهد مع السلطان وابتعد القوم . أما أنا فقد وقفت قريبا من المهد ، فأخذ يتكلم أولا بشأن رقعة الوزير وقال : إن الحاجب قد ذهب ليستميل قلب الخواجة وذلك بأمر منى فإن السياسة تقتضى هذا لما صدر عن الحصيرى من خطأ

(١) أى الكاتب الذى عليه ملازمة السلطان في ركوبه . ففى - فياض حاشية ٢ ،

كيلا تذهب هيبة الوزير ، لكن الحصري له على من الحقوق ما ليس لأحد من خاصة أبي وقد عانى هو انا شديداً في الولاء لنا وإني لن أترك الوزير يستأصل شأفة أمثال هؤلاء الخدم انتقاما لشخصه ، وقد بينت لك الهدف ، فاكم ماقلته لك وتدارك الأمر ، وأعمل سواء برأيك أو بنسبة الأمر إلينا ، حتى لا يصل إليه وإلى ولده سوء ، وقد كلمنا الحاجب بالتركية لينخيفهم ويوقفهم حتى تصل وتخدم هذه البار . فقلت لقد فهمت الأمر وسأقوم بما يقتضيه الواجب . ثم عدت مسرعا وكان الحال على ما رأيناه ، فقلت للحاجب تمهل في تنفيذ أمر السلطان حتى أقابل الأستاذ الرئيس ثم خاطبت الحصري قائلاً : ألا تستحي من هذه الشبهة وتسبب بين آونة وأخرى تعباً لنفسك وتشغل خواطر أحبائك . فقال ليس هذا وقت العتاب فالتقدير واقع وينبغي أن تتخذوا لدروته ١٦٧ تدبيراً .

ثم طلبوا إلى الإذن فأذن لي في الحال ، فصادت في طريق أبي الفتح البستي مرتدياً ثوباً خلقاً وفي عنقه قرية صغيرة فاعترض طريقى قائلاً : لقد مر على عشرون يوماً اشتغل بحمل الماء إلى الإصطبل ، فاشفع لي ليصفح الأستاذ الرئيس عني و يقيني أن الشفاعة لا تؤثر عند الوزير إلا أن تكون من مثلك . فقلت له إني ذاهب الآن إلى مهمة خطيرة فإذا انتهيت منها أبذل الجهد في شأنك وأرجو أن أوفق . فلما قابلت الوزير وجدته يتميز غيظاً وغضباً فأديت التحية فالتفت إلي وخاطبني بلهفة قائلاً : سمعت أنك قد ذهبت بصحبة السلطان فما الذي دعاك للعودة ؟ فقلت أمرني السلطان بالعودة لإنجاز مهام الري التي لا تخفى على مولانا ويمكن كتابة تلك الرسائل غداً إذ ليس في تأخيرها عيب وأتيت لأشارك سيدي في الشراب فرحاً بما أبداه السلطان من العطف على مولاي في أمر الحصري . قال : نعم ما عملت وإني أشكرك على ذلك لكني لا أقبل البتة أن تشفع له فإني لن أوافق على ذلك وستغضب ، إن هؤلاء المغرورين قد نسوا أحمد حسن لأنهم رأوا أن الميدان خال أمامهم وحسبوا أنهم بإزاء وزير ضعيف واستخفوا به وإني أريهم نتيجة ماسوالت لهم أنفسهم حتى يستيقظوا من سباتهم .

ثم التفت إلى أبي عبد الله الفارسي وقال : ألم يربطوهما بالعقابين فقلت سير بطوئهما كما أمر سيدنا العظيم ولكنني طلبت من كبير الحجاب أن يتريث قليلا حتى أقابل السيد . فقال : إنك قابلتني ولن أقبل شفاعتك فلا بد أن يضربا بالعصى حتى يفيقا ، يا أبا عبد الله اذهب ومر بحملهما بالعقابين . فقلت : فإن كان ولا بد من ضربهما فأذن لي بخلوة حتى أتحدث إليك في شأنهما وليوقف ضربهما ثم يكون الأمر بعد ذلك لمولانا .

فنادى أبا عبد الله لينصرف وأخلوا المجلس فلم يبق غيرنا فعلت « أطال الله حباة الوزير ١٦٨ ، ليس من المستحسن المغالاة في الأمور وقد قال الأكاير العفو عند القدرة ، وكانوا يغتنمون فرصة العفو عندما يرون في أنفسهم القدرة على الانتقام ، وقد أظهر الله تعالى قدرته وأبدى عفوہ نحوك وأنقذك من السجن والمحنة ، فيجب الإحسان لمن أساء لك حتى يكون عقابه خبجله ، وإن أخبار المأمون وصفحه عن عمه إبراهيم ماثلة أمام نظر مولانا ومن المستحيل أن أخوض في أمثال هذه الأحاديث فأكون كحامل التمر إلى هجر ، ولما كان السلطان قد أبدى كرمه وراعى خاطر الخواجة وبعث بهذا الشيخ إلى هنا وعفّفه هذا التعيف فينبغى أن تقدر ما احتمله من الألم ، ذلك لأنه يحب هذا الرجل ويقدره لما عاناه من الذل والهوان لولائه له أيام أبيه ، هذا وقد تأكد لديه أن الوزير سيفعل فعل السادة والعظماء فلا يمسّه بأذى ، ويرى العبد أن الأفضل رعاية جانب السلطان فيأمر أن يوقفوا الرجل دون أن يضربوه ويأخذوا صكاً منه ومن نجمله بتسليم المال إلى الخزانة العامة ، وسوف يعرض حديث هذا المال على السلطان ليرى فيه رأيه ، وأغلب الظن أن يهديه له ، ولو أن الخواجة التمس إعفاءه من أداء المال لكان أفضل فيكون قد منّ عليه من قبله أيضاً ، هذا ويعلم مولاي أن ليس لي في هذه الأمور غاية سوى مراعاة صالح الجانبين ، وهذا ما أراه بقدر علمي والأمر لك » .

فلما سمع الوزير هذا الكلام أطرق برأسه مفكراً ، وأيقن أن لابد أن يكون لأقواله سبب ، فإنه لم يكن مما نخفى . أيهم أمثال هذه الأمور ، وقال : قد صنفحت عن ضربهما حرمة لك ولكن يجب أن يعطى للسلطان ما يبد الآب والإبن . فأديت له التحية . وأرسل أبا عبد الله الفارسي حتى انتهى الأمر إلى أخذ صك بأداء ثلثمائة ألف دينار منهما وأرسلا بعد ذلك إلى الحرس . ثم أمر بإحضار الطعام والشراب والندماء والمطربين وأخذنا في الشراب ، وبعد أن شربنا قد حين قلت : مد الله في حياة مولانا ، إنه يوم سعد وإن لي حاجة أخرى ١٦٩ . فقال اطلب فأجبتك خيراً . قلت شاهدت أبا الفتح بالقرب وليس حسناً أن يعمل مثله في الإصطبل ولو كان الواجب أن يعاقب فقد عوقب ، وإن له سابقة الخدمات الكثيرة عند مولانا ، وقد عرف السلطان قدره وهو يعطى عليه نظراً للقواعد المرعية من عهد السلطان محمود ، فإذا رأى الوزير عفا عنه . قال عفوت ، فليدعوه فدعوه ، ونقدم بتلك الكسوة الخلقة وقبل الأرض ثم وقف فقال له الوزير : هل تبت عن بث الأراجيف . قال يا مولاي إن القربة والإصطبل قد علماني التوبة . فضحك الوزير وأمر أن يذهبوا به إلى الحمام ويلبسوه حلة . وجاء وقبل الأرض فأجلسه وأمر له بالطعام ، فتناول منه شيئاً ثم أمره باحتساء عدة أقذاح فشرب ثم طيب خاطره وصرفه إلى داره . وتمادينا في الشراب مدة وعدنا . واعلم يا أبا الفضل أن أحمد حسن رجل عظيم ولكنه إنما جاء إلى الحكم لينتقم لنفسه ، وإنني لشديد الكره لما يرنو إليه ولكنه لن يستطيع السير طويلاً بهذه الطريقة مع السلطان ، ذلك لأن السلطان لن يدعه يقضى على وعلى خدمه ، فلعمري لا أدري ما ستؤول إليه هذه الأحوال ، فاكم هذا الحديث وأعد العدة لتذهب إلى السلطان . فرجعت وتأهب للسير ثم عدت إليه فسلمني رقعة مختومة وأخذتها وقصدت ساحة الصيد ، فوصلت هناك قبيل صلاة المغرب فوجدت السلطان قد قضى كل يومه في الشراب ثم ذهب إلى السرايق حيث

جلس مختللاً فسلمت الرقعة إلى آغا جى^(١) الخادم ونزلت بموضع قرب السراىق ،
 فجاء وقت السحر فراش يدعونى فذهبت وتقدم بى آغا جى ، وكان السلطان
 جالسا على سرير خاص بالسفر ، فأديت التحية ، فالتفت إلى قائلاً : قل لأبى نصر
 حسنا كل ما عملته بشأن الحصىرى ونحن سائرون إلى المدينة وسنأمر بما ينبغى .
 ورمى بتلك الرقعة نحوى فأخذتها وعدت . وصلى السلطان الصبح ثم يم شطر
 المدينة . ولكنى ١٧٠ سقت أسرع منه إليها ، فقابلت أستاذى وشاهدت الأستاذ
 الرئيس قد حضر للاستقبال مع كافة القادة وأعيان الدركاه ، ورأى أبى نصر
 ولكنه لم يقل شيئاً فوقفت فى مكانى ثم ظهرت راية السلطان ومظالته وكان
 بمتطيا جواده ، فتقدم القوم ولحق بى أستاذى وأشار إلى فدنوت منه فهمس
 فى أذنى : ماذا عملت وماذا جرى . فقصصت عليه الحال فقال : عرفت ذلك .
 وساقوا وقدم السلطان ثم ركبوا وكان الوزير يسير عن يمين السلطان وأبى نصر
 على مقربة منه ، يتقدمهم بقية الأكابر والأعيان ، حتى لا يكون زحام ، واستمر
 السلطان يتكلم مع الوزير حتى وصلوا إلى البستان .

فسأل السلطان ماذا فعلتم بهذا الرجل المخدوع . فأجاب الخواجة بعد أن
 ينزل مولانا بالسعادة يرسل العبد مشافهة على لسان أبى نصر بما جرى وبما ينبغى
 أن يكون . فقال حسنا . ثم ساقوا وقد سار السلطان نحو الخضرى وجلس
 الوزير فى إيوان الديوان مختللاً ودعا أستاذى ليقول له : إن السلطان قد بالغ
 فى رعاية جانبى فى أمر الحصىرى بما يقتضيه مقامه السامى وإنى لا أستطيع أداء
 شكره تجاه هذه الرعاية السامية ما دمت حياً ، وإن الحصىرى ، رغم أنه ممن
 يبالغون فى أقوالهم وأعمالهم ، شيخ كبير له حق السابقة فى الخدمة وهو ممن يشهد

(١) يظهر أن كلمة آغا جى كان يلعب بها الخادم الذى يتولى ابصال الرسائل والمشافهة إلى
 السلطان فى وقت الخلوة والراحة : يرجع إلى تعليقات الفزوينى على باب الألباب (ص ٢٩٧
 ج ١) غنى ب فىاض ٣

لهم بالإخلاص والوفاء في الولاء لمولانا وقد عانى بسبب هذا الحب والإخلاص
بلايا كثيرة كما عانى العبد ذلك أيضا ، هذا ونجمله أكثر كفاءة وأوسع دراية منه
وهو حقيق للقيام بكل عمل جليل وإذ يندر وجود أمثالهما بين الرجال وينبغي
أن يكون لمولاي اليوم كثير من العبيد والخدم الأكفاء فكيف يجوز لي أن
أرضى بإهلاك مثل هذين الرجلين ولقد كانت غايتي أن يعلم الخاص والعام
مبلغ مالي من العناية لدى الرأي العالي ، وقد تحقق ذلك وعرف الجميع أنهم
مكلفون برعاية حدودهم ، وكنت أعرف وجوب العدول عن ضربهما ولكني
بعثت بهما إلى الحرس حتى يزدادا يقظة ، وقد كتبنا صكاً طوعاً ورضاً على أن
يقدموا للخزانة العامة ثلثمائة ألف دينار وهما يستطيعان دفع هذا المال ولكن
سيصبحان فقيرين معدمين ، ويجب ألا يبقى الخادم فقيراً معدماً ، فلو أذن مولانا
بقبول شفاعته العبد في حقهما وإعفائهما عن أداء هذا المال وإرسالهما معززين
إلى دارهما فعل .

فذهب أبو نصر وبلغ هذه الرسالة النبيلة ، فسرّ السلطان سروراً بالغاً ١٧١
وأجاب : لقد قبلنا شفاعته الخواجة في حقهما ، وأمرهما موكل إلى رأييه ، فلو
رأى فليأمر بتسريحهما وبرد الصك إليهما . فعاد أبو نصر وبلغ الخواجة جواب
السلطان . ثم نهض السلطان من السرايق ودخل إلى السراي ، وعاد الخواجة
إلى داره أيضاً ، وأمر أن يحضروا جوادين من خاصة خيله إلى باب الحرس
وأركبوا الوالد والنجل وأتوا بهما مكرمين إلى الخواجة ، فلما تقدما قبلاً الأرض
وجلسا مؤدبين وأخذ الخواجة في عتاب الحصري بعبارات حلوة ومرة ،
وانطلق الحصري يقدم اعتذاره فقد كان شيخاً فصيحاً منطقياً وأبدى كثيراً من
التواضع ، فغضبه الخواجة إليه واعتذرله وأحسن إليه وقبل وجهه وقال : أرجو
أن تعود بزيتك هذا إلى المنزل لأنني أكره أن أغير زيتك وسيأمر السلطان غداً
بالخدمة لك . فقبل الحصري يد الخواجة وقبل الأرض وكذلك فعل نجله ، ثم

ركباً جوادى الخواجة وعادا إلى منزلها في حى علاء مع وافر الكرامة . واستقبلهما الناس فرحين مهئين ، فجلس الولد مع الوالد ، وكنت أنا أبو الفضل جاراً لهما فذهبت إليهما سرّاً قبل أى زائر ، فقال الحصىرى : إني لا أستطيع أداء الشكر للخواجة أبى نصر ما دمت حياً ولكنى سأدعو له بالخير شاكراً . فلم أذكر له شيئاً عما جرى إذ لم يكن الكلام جائزاً ، ثم دعوت له وعدت فقصصت على أستاذى ما كان ، ثم ركب أستاذى للتهنئة وسرت معه ، واستقبله الحصىرى ونجّله من مسافة بعيدة وجلسا وبالغا في شكره . وقال أبو نصر : واضح أن هملى لم يكن شيئاً فينبغى أن تشكرا السلطان والخواجة . قال هذا وقفل راجعاً . ثم سمعت أبا نصر بعد أسبوع أو أسبوعين يقول إن السلطان ذكر للحصىرى بخلوة في مجلس شرابه جميع ما جرى بشأنه ، وكان الحصىرى في ذلك اليوم يرتدى جبة صفراء زعفرانية اللون وارتدى نجّله جبة بندارية ثمينة ، وكانا قد قدما في هذه الملابس . وفي اليوم التالى قدما إلى السلطان فبالغ في إكرامهما والتمس الخواجة أن يذهبوا بهما إلى خزانة الملابس وأن يخلع عليهما بأمر من السلطان . ثم قدما إلى السلطان وبعد ذلك ذهبا إلى الخواجة ، ثم ساروا بهما بكثير من الاحترام إلى الدار ، وأبدى سكان المدينة تقديراً كبيراً لهما . وقد توفوا جميعاً رحمة الله عليهم أجمعين ولم يبق منهم إلا نجّله السيد أبو القاسم ، مد الله في حياته . وكل من يطالع هذه المقامة ينبغى أن يتأملها بعين العقل والعبرة ، لا بعين الأسطورة والقصة ١٧٢ حتى يتأكد لديه كيف كان هؤلاء الأكابر . وقد قرأت حكاية في أخبار الخلفاء جرت في أيام المعتصم تشبه تلك القصة قليلاً ، لكنها أعظم في مغزاها ومبناها . فرأيت أن أنقلها لأن الكتاب ، وخاصة كتاب التاريخ يزدان بأمثالها ذلك لأن الحديث ذو شجون ، وهذا مما يزيد في القراء النشاط فتزداد الرغبة في القراءة والمطالعة إن شاء الله تعالى .

ذكر قصة الأفشين ونجاة أبي دلف من شره

يقول إسماعيل بن شهاب سمعت أحمد بن أبي داود ، وكان يلى إلى جانب منصبه كقاضى القضاة ، منصب الوزارة فكان أعظم وزراء أيامه وقد خدم ثلاثة من الخلفاء يقول : أذكر أنى استيقظت فى منتصف ليلة من نومي إبان خدمتى للمعتصم ولم أجد إلى النوم سبيلا رغم كل محاولة لذلك واعتراى ضمير وسأم عظيمان لم أعرف لهما سببا فساءلت نفسى عما يمكن أن يكون ، ثم ناديت غلاما يدعى سلام كان يلازمى للخدمة دائما وقلت له مُر بأن يسرجوا الجواد . فقال أى سيدى نحن الآن فى منتصف الليل وليست نوبتك غدا وقد قال لك الخليفة إنه سيكون مشغولا بعمل كذا وإن يأذن لأحد ، فإذا كنت تقصد إلقاء شخص آخر فليس هذا الوقت مناسباً للركوب . فسكت إذ كنت أعلم أنه على حق ولكنى لم أتخذ فى الأمر قرارا ، فقد كان يحتاج نفسى أن أمرا قد حدث ، فنهضت أنادى الخدم ليضيئوا الشموع وذهبت إلى الحمام فغسلت وجهى ويدي فى عجلة ، ولم أسترح فعدت فارتديت ملابسى ، وكانوا قد أسرجوا حمارا ، فركبته وسقته دون أن يكون لى قصد البتة إلى جهة بعينها ، وأخيرا قلت لنفسى إن الذهاب إلى البلاط أرجح منه إلى أى مكان آخر ولو أن الوقت ما يزال مبكرا ، فإذا حصلت على الإذن فيها وإلا عدت حتى يزول هذا الوسواس عنى . وسقت حتى بلغت البلاط . وأخبرت حاجب النوبة بوصولى ، فقابلنى فى الحال وقال : ما الذى أنى بك فى مثل هذا الوقت ، وقد علمت من أمس أن أمير المؤمنين منصرف إلى الطرب وأن ليس لك مكان عنده . فأجبتة : إن الأمر كما تقول ، ولكن لتبلغ مولانا بقدومى ١٧٣ فإن تفضل بالإذن دخلت وإلا عدت . فقال : بكل سرور . فأخبر فى الحال وعاد فورا وقال : ادخل باسم الله فإن أمير المؤمنين قد أذن لك . فدخلت ورأيت المعتصم منفردا بنفسه

غارقا في التفكير ، وليس أمامه عمل قط . فسلمت فردّ على ثم قال : ولم تأخرت يا أبا عبد الله فقد كنت أتوقع قدومك منذ مدة . فلما سمعت هذا تحيرت وقلت : يا أمير المؤمنين لقد أتيت مبكرا جدا وكنت أظن أن سيدي يستريح فترددت بين أن أجد الإذن أو لا أجده . فقال : ألم تعلم بما قد وقع ؟ فقلت لا . فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون إجلس لتسمع . فجلست فقال إن هذا الكلب المغرور المنافق أبا الحسن الأفشين قد قام بخدمة جليلة بقضائه على فتنة بابك الخرمي واستمر في قتاله حتى أسره وكافأناه على هذه الخدمة مكافأة عظيمة ورفعناه مكانا عليا وكان دائم الإلحاح علينا لنطلق يده في أبي دلف القاسم بن عيسى الكرجي العجلى لكي يستحوذ على ما بيده من الولاية والنعمة ويقضى على حياته ، وأنت تعلم مدى ما بينهما من عداوة وعصية ، وما كنت مجيبا إياه إلى شيء مما ينبغي لما لأبي دلف من بيض الأيادي في خدمتنا ، وما هو عليه من جدارة واتزان إلى جانب ما بينكما من صداقة ، إلا أنه سهو وقع ليلة أمس لكثرة إلحاح الأفشين ولرفض طلبه عدة مرات ولكنه لم يكف فأجبتة إليه ، ثم بقيت أفكر ليقيني أنه سيبادر إلى القبض عليه عند طلوع الفجر والمسكين لا يعلم ، وسيحملونه إلى هذا الزنديق الذي سيقضى عليه بمجرد أن يتمكن منه . فقلت : الله الله يا أمير المؤمنين إن هذا دم يراق بغير حق والله عز اسمه لا يرضى به . وطفقت أتلو الآيات والأخبار تأييدا لقولي ، ثم قلت إن أبا دلف عبد مولانا وهو من فرسان العرب وقد علم ما أدى من خدمات وما ترك من آثار إبان ولايته في الجبال وكيف خاطر بحياته حتى استقرت الأحوال هنالك فإذا هلك هذا الرجل فإن قومه لن يسكتوا ولسوف يغضبون وتثور الفتن الكثيرة . فقال : يا أبا عبد الله ، إن الأمر كما تقول وهو غير خاف علينا ، ولكن الزمام ١٧٤ أفلت من يدنا ، لأن الأفشين أمسك يدي ليلة أمس وأخذ مني عهدا بآمان مغلظة على أن لا أسترده أبا دلف وأن لا آمر بتخليصه من يده . فقلت : يا أمير المؤمنين فما

الدواء لهذا الداء ؟ فقال : لا أعرف شيئا سوى أن تذهب الآن بنفسك إلى الأفشين وإن لم يأذن لك فلتأق بنفسك إليه وتتقدم نحوه في تضرع وخشوع ملتصقا صريره عن هذا الأمر على أن لا تبأغه من قبلي شيئا قل أو كثر ولا تفوهن بشيء قط فلعله يرعى حرمتك لأنه يعرف قدرك ، فيكف أذاه عن أبي دلف فلا يهلكه ويعهد به إليك ، فإذا رد شفاعتك فهذا أقصى ما يمكن العمل به وقد نفذ القضاء .

قال أحمد وعندما سمعت هذا من الخليفة طار صوابي ثم عدت وركبت ميمما شطر حتى الوزيرى وصحبت معى بعض من لحقونى من رجالى وأرسلت اثنين أو ثلاثة من الفرسان إلى دار أبى دلف وسقت حصانى مسرعا بحيث لم أعرف هل أنا على الأرض أم فى السماء ، ووقع الطيلسان منى دون أن أشعر فإن النهار قد أوشك وخشيت أن أصل متأخرا بعد أن يكونوا قد أتوا بأبى دلف فيقتل ولا ت حين مناص . وبعد وصولى إلى دهليز باب سراى الأفشين جرى نحوى حجابيه وخدمه كسابق عادتهم ولم يفكروا فى أن يتذرعوا بحجة لإعادتى لأن الأفشين يغناظ ويهوله أن أدخل عليه فى هذا الوقت ، بل رفعوا الستار وأدخلونى إلى الدار وأوعزت إلى رجالى أن يجالسوا فى الدهليز ويصغوا إلى صوتى وعندما توسطت الدار وجدت الأفشين جالسا فى صدر زاوية وقد فرشوا أمامه تحت الصفة نطعا^(١) وأقعدوا أبأ دلف بسر وال وأغمضوا عينيه والسياف واقف بسيفه المسلط والأفشين يناظر أبأ دلف والسياف ينتظر قوله « اضرب » ليطيع برأسه وما أن وقعت عين الأفشين على حتى أسقط فى يده واصفر واحمر غضبا وانتفخت أوداجه . وكانت عادتى معه ١٧٥ أن يقابلنى متى أذهب إليه وينحنى بحيث يلامس رأسه صدرى ، ولكنه لم يتحرك فى ذلك اليوم من مكانه بل أبدى استخفافا بشأنى ، أما أنا فلم أعبأ به ولم أخشه ، لأنى كنت ذاهبا فى مهمة خطيرة فقبّلت وجهه وجلست ولكنه لم يلتفت إلى فصبرت

(١) المطع ساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو يقطع الرأس

على ذلك وتحدثت إليه لأشغل خاطره كبلًا يقول للسيّاف « اضرب بالسيف » فلم يلتفت إلى فتوقفت ثم واصلت الكلام بلون آخر في مدح العجم فإن هذا الرجل كان منهم ، وغيرت مجرى الحديث ودخات معه في حديث عن بلاد الفرس وكان من أرض أشروسنه^(١) وفضلت في أثناء كلامي العجم على العرب رغم أني كنت أعرف ما في هذا من خطأ كبير ، لكنني فعلت ذلك كيلا يراق دم أبي دلف ، إلا أنه لم يصغ لي . فقلت له جعلت فداك يا أمير : إنني حضرت إليك من أجل القاسم بن عيسى لتعفو وتمن عليّ بحياته ولك على ذلك عدة أجور . فأجابني بغضب واستخفاف إنني لم أعف ولن أعفو عنه وقد سلمني أمير المؤمنين إياه وأقسم بالأمس أن لا يتكلم بئسائه وأن أفعل به ما أريد ، وهذا ما كنت أتمناه منذ أمد طويل . فقلت في نفسي يا أحمد أتحتمل مثل هذا الاستخفاف من مثل هذا الكلب وكلامك وتوقيعك نافذان في الشرق والغرب ؟ ولكني وطدت نفسي على الصبر على ما يلحقني من الاحتقار طلبا لسجاة أبي دلف ، ففتمت وقبلت رأسه وبادرت بالتفجع والاستعطاف . فلم يجد ذلك شيئا ، فقبلت كتفه مرة ثانية فلم يلتفت إلى ندنوت من يده وقبلتها ، وأدرك أنني قد دممت بتقبيل ركبتيه . فقال لي مغاضبا وإلى متى هذا ؟ والله لو قبلت الأرض أمامي ألف مرة فلن يؤثر ذلك في نفسي ولن أقبل منك أمرا . فاستولت على ثورة من الضيق والغضب ذهبت بصبري وقلت في نفسي أحتقرني هذا الجيفة المفاق إلى هذا الحد ، وإلى متى أحتمل منه هذا الهوان والاستخفاف ؟ لأخاطرن بحياتي من أجل هذا الرجل الحر أبي دلف وليكن ما يكون فإنني ليسعدني أن أنقذه ولو عرضني ذلك إلى أي بلاء . فقلت له : يا أيها الأمير لقد خاطبتك بما ١٧٦ يخاطب به الرجل الحر زميله فلم ترع حرمتي مع أنك تعلم

(٢) . بلدة قرب وراء النهر ، وألمها نفتح ونضم .

أن الخليفة وجميع عظماء الحضرة وكل من هو فوقك أو دونك من الأمراء
يحلون قدرى كما أن قولى نافذ فى الشرق والغرب ، وإنى لأشكر الله تعالى أن
لم تعلق عنق بمنة ، وقد انتهى حديثى فاستمع إلى مشافهة أمير المؤمنين ، فإنه يأمر
ويقول لا تقتل القاسم العجلى ولا تتعرض له وأرسله فوراً إلى داره فإن
يدك أقصر من أن تناله وإن قتله قتلت به . فلما سمع الأفشين هذا الكلام
ارتعدت فرائصه وتجمدت أطرافه وقال : أهذا قول أمير المؤمنين حقاً ؟ فأجبت
نعم . هل سمعت بأنى غيرت يوماً من أوامره ؟ ثم ناديت رجالى أن ادخلوا
فدخل بين الثلاثين والأربعين رجلاً كلهم مزكون عدول من كل صنف وقات
لهم : اشهدوا فإنى أبلغ رسالة أمير المؤمنين المعتصم لهذا الأمير أبى الحسن
الأفشين فإنه يقول لا تقتل أباً دلف القاسم ولا تتعرض له وأبعث به إلى داره
فإنك إن أقدمت على قتله قتلت به . ثم قلت يا قاسم فقال ليلىك ، قلت هل أنت
سليم معافى ، فقال : نعم . ثم سأله هل فيك جرح ؟ قال كلا فقلت لرجالى ثانية
اشهدوا بأنه فى صحة وعافية . فقالوا شهدنا وعدت غاضباً وعدوت بجوادى ،
كذاهل يخبول ، وكنت أقول لنفسى أثناء الطريق : لقد أكدت بهذا قتله فإن
الأفشين سيحضر الآن فى أثرى ويقابل أمير المؤمنين فيقول له إنى لم أبعث
بهذه الرسالة ، فيعود ويقتل القاسم . وعندما وصلت إلى الخادم كنت أنضح
عرقاً وقد صعد الدم إلى وجهى . فأذن لى ، فدخلت وجلست وما أن رآنى
أمير المؤمنين على تلك الحال حتى أمر خادماً بتجفيف العرق عن وجهى وخطبى
متلطفاً : ماذا لحق بك يا أبا عبد الله ؟ فقلت مد الله فى حياة أمير المؤمنين ؛
لا أذكر أنى رأيت فى حياتى ما شاهدته اليوم ، فوا أسفاً لمسلم يضطر إلى احتمال
الضيم من خبيث غير مسلم . فقال لى قل ما عندك فقصصت عليه ما جرى وعندما
وصات إلى قولى أنى قبلت رأس الأفشين وكتفه ويديه ثم هممت إلى قدمه
١٧٧ وأن الأفشين رد على بقوله كل هذا لن يجدى نفعا فإنى سأقتل القاسم وله قبلت

الأرض ألف مرة » ، رأيت الأفشين داخلا من الباب بمنطقته وقلنسوته فانكشيت وانقطعت عن الكلام وقلت في نفسي وا أسفا لأنى لم أتم الكلام لأمر المؤمنين بأننى أبلغت الأفشين رسالة عنك لم تقلها ، وهى أن لا يقتل القاسم . فإن الأفشين سيدك هذا النبأ لأمر المؤمنين فيجبه بأنى لم أقل شيئا من هذا فيفتضح أمرى ؛ ويقتل القاسم ، هذا ما كنت أفكر به ولكن الله أراد غير ذلك لأن الخليفة كان قد تألم للغاية لأننى قبلت رأس الأفشين وكتفه ويده وهممت بتقبيل قدمه ولأنه ردّ على قائلا لو قبلت الأرض ألف مرة لما أجدى نفعا . ولما جلس الأفشين مغضبا خاطب الخليفة قائلا : « إن مولاي قد أطلق ليلة أمس يدى فى القاسم ، فهل ما أخبرنى به اليوم أحمد من أن أتجنب قتل القاسم قول صحيح ؟ فقال المعتصم : نعم ، ذلك هو أمرى ومتى وأين سمعت أن أبا عبد الله يبلغ عنا أو بلغ عن آبائنا أمرا غير صحيح ، ونحن إذا كنا قد وافقنا على طلبك بعد إلحاحك ليلة الأمس بشأن القاسم فلتعلم أنه من ذرارى عبيد أسرتنا وكان الأصوب أن تدعوه وتمنّ عليه بحبائه ثم ترسله إلى داره بالخلة والإكرام ، والأسوأ من ذلك إزعاجك لأبى عبيد الله واحتقارك إياه ، ولكن كل يعمل على شاكلته وما ينضج به أصله ، وهل يمكن أن يحب أجمعى عربياً مع ما لحق آباءه من رماح العرب وسيوفهم ؟ فارجع وكن أكثر يقظة وأناة فى المستقبل .

فقام الأفشين محطما وقد جمدت أطرافه ، فلما رجع وانصرف قال لى المعتصم : يا أبا عبد الله كيف جازلك أن تبلغ رسالة لم أذكرها ؟ فأجبت ما كنت لأستحسن إراقة دم مسلم ١٧٨ وسوف يثيبنى الله ولا يؤاخذنى على هذا الكذب ، واستشهدت بآيات من القرآن وروايات عن النبى عليه السلام ، فتبسم الخليفة وقال : نعم ، إن ما قلته صحيح وإنى لأقسم بالله أن الأفشين سوف لا ينجو من يدى لأنه غير مسلم . فدعوت الله كثيرا وابتهجت لنجاة القاسم

وبكيت . وقال المعتصم : نادوا حاجبا فنادوه فأتى ، فقال له : اذهب إلى دار الأفسنين بجوادنا الخاص ، وأركب أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي ثم سر به عزيزا مكرما إلى دار أبي عبد الله . فذهب الحاجب وانصرفت أنا كذلك . وكنت أتمهل في السير حتى تأكدت أن القاسم والحاجب قد وصلا إلى داري ثم سرت إلى الدار ، فوجدت القاسم جالسا في الدهليز ، فأن رأني حتى انكب على يدي وقدمي ، فاحتضنته وقبلته وأدخلته الدار وأجلسته مكرما ، وكان يبكي ويشكرني فقلت له لا تشكرني بل اشكر الله وأمير المؤمنين لهذه الحياة الجديدة التي فزت بها . ثم ذهب به حاجب المعتصم إلى داره موفورا الكرامة .

وفي هذه الحكاية عبرة لمن يريد أن يعرف مقدار ما كان عليه هؤلاء الأكاير . والآن وقد ذهبوا جميعا لم يبق منهم إلا هذا الذكر الجليل ، وكل غرضي من سرد هذا القصص أن أفيد القراء ، وها أنذا بعد الفراغ أعود إلى كتابة التاريخ والله أعلم بالصواب .

قصة شئق الأمير حسنك الوزير « رحمة الله عليه »

سأعقد فصلا فيما يختص ببداية أمر شئق هذا الرجل ثم أعقبه بشرح ما جرى بعد ذلك .

إن هذا اليوم الذي أبدأ فيه بذكر هذه القصة يوافق شهر ذي الحجة من سنة أربعمائة وخمسين (١٠٥٩) في العهد المبارك للسلطان الأعظم أبي شجاع فرخ زاد ابن ناصر دين الله أطال الله بقاءه ، وهذا ولم يبق حيا من هؤلاء القوم الذين سوف أتكلم عنهم غير اثنين اعتزلا في زاوية . ولم تنطرق إلى ذكر الخواجة أبي سهل الزوزني إذ قد توفي منذ عدة أعوام وهو الآن مشغول بأداء الحساب عما قدمت يداه ، ورغم أني كنت أكره هذا الرجل فإنني لن أخوض في التحديث

عنه بأى حال لأنى أيضا نيفت على الخامسة والستين وسألحق به عما قريب ١٧٩
ولن أسوق فى التاريخ الذى أنا بصدد ما يستشف منه رائحة التعصب والخصومة
كيلا يقول قراء هذا الكتاب إنه كان من الأولى لهذا الشيخ أن يستحى ، بل
سأقول ما يوافقنى عليه القراء ولا يجدون فيه مطعنا على . وأبوسهل هذا علوى
النسب وقد كان عزيز النفس فاضلا أدبيا ، ولكنه كان فى نفس الوقت مجبولا
على الخبث واثوم الطبع ولا تبدل الخلق الله ، وكان لخبثه لا يرق لأحد
بل كان دائما يترصد غضب سلطان عظيم جبار على خادم فيضربه ويقبض عليه
فيخرج الرجل من زاويته وينتهزها فرصة ويكيد لهذا الخادم ويلحق به الضرر
الشديد ثم يفاخر قائلا : ها قد دبرت لفلان ، ولو كان حقا ما يقول فقد رأى
وذاق بدوره طعم ما عمل أيضا ، وكان للعقلاء يعلمون أن الحقيقة غير ذلك ،
فيهزون رؤوسهم ويضحكون منه سرا لأنهم كانوا يعرفون أنه يبالغ فى قوله .
ولكنه مع كل المكائد والحيل التى كانت يحيكها للإيقاع بأستاذى أبى نصر
ما استطاع أن يناله بسوء ، وذلك لأن مكائده لم تقترن بقضاء الله تعالى فى شأنه
ولأن أبى نصر كان بصيرا بعواقب الأمور أيضا ، فإنه أيام السلطان محمود كان
يرعى خاملر الأمير مسعود من غير خيانة لخدمته ذلك لأنه كان متأكدا من
أن سرير الملك سيكون له بعد أبيه . أما حسنك فلم تكن أحواله كذلك فإنه
أذى شعور مسعود لأن هواه كان مع الأمير محمد وراعى جانب السلطان
محمود ، ففعل ما فعل وقال ما لا يحتمله منه الاكفاء فكيف بملك ؟ مثله كمثل
جعفر البرمكى وهذه الطبقة التى وليت الوزارة على أيام هرون الرشيد فكانت
عاقبة أمرهم ما لحق بهذا الوزير ، وجدير بالعبيد والخدم أن يحفظوا ألسنتهم مع
سادتهم ، فمن المحال أن يكون للشعالب مجال مع الأسود . أجل إن أباسهل ، مع
كل ماله من نعمة وجاه وأتباع كان يعد بالنسبة إلى الأمير حسنك كقطرة من
بحر أما حديث الفضل والعلم فجعله غير هذا المكان .

وقد صدرت عن حسنك أخطاء تحدثت عنها قبل هذا في التاريخ ، وأحدها ١٨٠ أنه قال يوما لعبدوس قل لأميرك إننى أفعل كل ما أفعل بأمر من مولاي فإذا نلت يوما سرير الملك فرب بشنق حسنك ، فلا جرم أن أركبوه على المركب الخشبي عندما صار هذا الأمير ملكا ، وما شأن أبى سهل وغيره فى ذلك فإن حسنك ذاق عاقبة تهوره وتعديه ولم يكن السلطان ليغض النظر بأى حال من الأحوال عن أشياء ثلاثة : الخلل فى الملك وإفشاء السر والتعرض للعرض ونعوذ بالله من الخذلان .

وعندما جاؤا بحسنك من بُست إلى هراة سلمه أبو سهل الزوزنى لخدمته على رايض فأذاقه هذا من أنواع الذل والهوان ما أذاقه لأنه لم يكن وقتئذ يسأل عنه فقد جرى عليه ماجرى من التشقى والانتقام ، وأخذ الناس لذلك يسلقون أبا سهل بالسنة حداد ويقولون إنه من الممكن ضرب مسكين عاجز والرجل كل الرجل من عفا عند المقدرة فقد قال الله تعالى عز ذكره وقوله الحق والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ^(١) .

وحينما سار السلطان مسعود رضى الله عنه من هراة قاصدا بلخ ، كان على رايض يسوق حسنك مقيدا ويهينه انتقاما منه وتشفيا فيه وتعصبا عليه ، هذا مع أن عليا كان قد أسرى يوما بقوله لقد راعيت هذا الرجل كثيرا وما أنزلت به سوى عشر ما كان يأمرنى به أبو سهل من العذاب ، ولقد وقف فى بلخ وألقى فى روع الساطان أنه لابد من شنق حسنك وكان الساطان حليما كريما . وقد أخبرنى معتمد عبدوس أنه بعد قتل حسنك سمع أسناذه يوما يقول إن السلطان قال لأبى سهل لابد من حجة تميز قتل هذا الرجل . فأجاب أبو سهل أى حجة أكبر من كونه قرمطيا قبل خلعة المصريين (الفاطميين) مما أدى إلى

استيلاء أمير المؤمنين القادر بالله فانقطع عن مكاتبة السلطان محمود ، وما زال إلى الآن يذكر ذلك ، ويذكر مولانا أنه حين جاء رسول الخليفة إلى نيسابور باللواء والخاتمة كانت المشافهة في هذا الباب فيجب والحالة هذه رعاية جانب الخليفة في ذلك . فقال السلطان : سوف أفكر في هذا الأمر ١٨١

إن استاذي قص عليّ بعد ذلك قصة عن عبدوس الذي كان شديد الحقد على أبي سهل ؛ حيث أن أبا سهل تكلم كثيرا في هذا الشأن فقد قال السلطان يوما للخواجة أحمد حسن عند رجوعه من البلاط ، فليجلس الخواجة وحده في الطارم فإن له مشافهة على لسان عبدوس . فذهب الخواجة إلى الطارم ودعاني السلطان رضى الله عنه وقال : قل للخواجة أحمد إن حال حسنك غير خافية عليك فقد أنزل على قلبي آلاما عديدة وهو يعرف ما أبتغى تحقيقه من خطير المقاصد بعد وفاة والدي في زمن أخى ولكنه لم يستطع شيئا ، لأن الله تعالى منحنا الملك والسرير بغير عناء فالأفضل أن نتقبل أعذار المذنبين ولا نشغل بالماضي ، إلا أنهم يتكلمون في عقيدة هذا الرجل وعن قوله إنه قيل خلعه الفاطميون دون مرضاة الخليفة فتألم أمير المؤمنين وقطع المراسلات مع والدي ، كما قالوا إن الرسول الذي جاء إلى نيسابور يحمل العهد واللواء والخلعة أفضى بمشافهة فقال إن حسنك قرمطى ينبغى أن يشنق ، وكنا قد سمعنا ذلك في نيسابور ولكننا لا نتذكره جيدا ، فما رأى الخواجة في هذا الأمر وماذا يقول .

فلما بلغت مقالة السلطان للخواجة أحمد فكر مليا ثم قال : ماذا يدعو أبا سهل الزوزنى إلى المبالغة في الإصرار على قتل حسنك إلى هذا الحد ؟ فقلت لا أستطيع أن أعرف سبب ذلك تماما إلا أنى سمعت أن أبا سهل ذهب يوما راجلا وعليه دراعه إلى دار حسنك ، فأهانته أحد الحجاب وطرده . فقال ياسبحان الله وما خطر هذا الإيذاء حتى يكون سببا في مثل هذا الجزاء ، ثم مضى

يقول : قل للسلطان إنه في الوقت الذي كان العبد معتقلاً بقلعة كالنجر^(١) وقد هموا بقتلي وحفظني الله من كيدهم نذرت لله نذراً وأقسمت به أيماناً أن لا أخوض في دم إنسان بحق أو بغير حق ، وإنه في الوقت الذي جاء حسنك من الحج إلى بلخ ، وكنا متجهين شطر ما وراء النهر وقابلنا قدرخان أقصينا بعد العودة إلى غزنة ولا أعرف ما حدث بعد ذلك ، ولا أعرف ماجرى من حسنك ولا ما كان من شأن السلطان الماضي مع الخليفة من حديث في أمره فالأولى أن يُسأل ١٨٢ أبو نصر مشكان في هذا الباب لأنه عارف بحقيقة ما كان ومولانا السلطان ملك يأمر بما ينبغي ، وحتى إذا ثبت أنه قرمطي فإني لن أتكلم في دمه كيلا يقال إن له قصداً في ماله الذي أصبح اليوم لي ، فأنجو بذلك من أن يتكلموا بشأني معي فإني برىء من دم أهل العالم كله ، ومع هذا فإني لا أبخل بالصيحة على السلطان فأكون خائناً كيلا يراق دمه أو دم أي واحد من إراقة الدماء ليست لعباً . وقال عبدوس : بعد أن أبلغت السلطان هذا الجواب أطرق ملياً ثم قال : قل للخواجة إنا سنأمر بما ينبغي . فنهض الخواجة وسار نحو الديوان وخاطبني أثناء الطريق بقوله : يا عبدوس احرص ما استطعت على حمل السلطان على أن لا يريق دم حسنك لأن ذلك مما يورث سوء السمعة . فقلت سمعاً وطاعة وعدت إلى السلطان فتكلمت معه . إلا أن القضاء كان بالمرصاد يعمل عمله

ثم جلس السلطان مسعود بعد ذلك مع أستاذي وعاد فقصر علينا ما دار في تلك الخلوة من الحديث ، قال إن السلطان استفسر مني عن خبر حسنك ثم حكايته مع الخليفة وسألني : ما قولك في دين هذا الرجل ومعتقده وقبوله خلعة المصريين ؟ فأخذت أقص عليه أحوال حسنك وسفره إلى الحج وسيره من المدينة إلى

(١) جاء في حاشية يب : كالنجر كلمة هندية مركبة من لفطين ، كالن وكر . الأول بمعنى الأسود والثاني (وقد أصبح في العربية جر) بمعنى القلعة . فالكلمة معناها القلعة السوداء وكانت قلعة شمالي لاهور وجنوبي كشمير .

وادی القرى فی إیابه عن طریق الشام وأخذه خلعة المصریین وضرورة أخذها ثم خروجه من الموصل دون أن یخرج علی بغداد ، وتوهم الخلیفة إن کل ذلك بأمر السلطان محمود . وقد شرحت کل ذلك تماماً فقال السلطان مسعود : فإذا یكون ذنب حسنک بعد هذا فإنه لو سلك طریق البادية فی العودة لكان سبباً فی إراقة دماء کل ذلك الخلق . فقلت : هكذا كان واقع الأمر إلا أنهم أوغروا صدر الخلیفة من جهات عديدة حتی أركبوه مركب العناد ودعا حسنک بالقرمطی ، وجرت بهذا المعنی مکاتبات واتصالات عديدة ١٨٣ وقال السلطان الماضي یوما بطبعه الضجر اللجوج یجب أن یکتب لهذا الخلیفة الخرف بأنی قد أدخلت إصبعی ، من أجل العباسیین ، فی کل جهات العالم أبحث عن القرامطة واشتق کل من أجده وتثبت علیه القرمطیة ولو تحقق لنا أن حسنک قرمطی أيضاً لعرف أمیر المؤمنین ما أفعل به ، وإنی أنا الذی ریت حسنک وإنه لیتساوی عندی مع أبنائی وأخوتی ، فإذا كان حسنک قرمطياً فإنی قرمطی كذلك . ومع أن ذلك الکلام لم یکن جديراً بالملوک فإنی ذهبت إلى الدیوان وکتبت ما ینبغی أن یکتبه الرعايا للملوک ، وفی النهاية استقر الرأي بعد الغدو والرواح الطویل علی أن یرسلوا تلك الخلعة التي أخذها حسنک والطرائف التي أرساها المصریون إلى السلطان محمود مع رسول إلى الخلیفة ببغداد حتی یحرقوها . وبعد أن عاد الرسول سأله السلطان عن المكان الذی أحرقت فیه الخلع والطرف لأنه كان قد تألم لاتهام الخلیفة حسنک بالقرمطیة ومع کل ذلك أخذ الخلیفة یزداد حقدا وتعصبا إلى أن توفي السلطان محمود . هذا وقد بین العبد کل ما جرى تماماً . فقال أجل لقد أحطت بذلك .

بید أن أباسهل لم یکف عن المكائد حتی بعد هذه الجاسة ، وفی یوم الثلاثاء تسبع وعشرین خلون من صفر وقد انتهى الاستقبال قال السلطان للخواجة : یجب أن یعقد مجلس بالطارم وأن یؤتی هناك بحسنک ویحضر القضاة والمزکون

حتى يكتب باسمنا كل ما قد ابتاعه ويشهد على نفسه . فقال الخواجة : سأفعل ذلك . وذهب إلى الطارم واستدعى كل من يعتبر من السادة والأعيان وصاحب ديوان الرسائل والخواجة أبا القاسم مع أنه كان معزولا وأبا سهل الزوزنى وأبا سهل الحمدوني وأرسل السلطان نبيه الفقيه ونصر بن خلف قاضى العسكر إلى هناك وكذلك ذهب من كان حاضرا من قضاة بلخ وأشرافها وسراتها وعلماؤها وفقهاها وعدولها ومزكياتها من أصحاب الشهرة والوجاهة وحسن السمعة فاجتمعوا كلهم هنالك وجلسوا .

وبعد أن التأم هذا الجمع الكبير بقيت أنا أبو الفضل وجم غفير من شتى الناس خارج الإيوان منتظرين مجيء حسنك ساعة . وبدأ حسنك من بعيد ١٨٤ بلاقيود مرتديا جبة قديمة حبرية اللون تضرب إلى السواد ودراعة ورداء نظيفين للغاية وعمامة نيسابورية منسجمة وخفا ميكائيليا جديدا . وكان شعر رأسه مصففا ومختفيا تحت العمامة فيما عدا قليل منه . وكان يصحبه أمير الحرس وعلى رايض وكثيرون من الرجال من كل صنف فذهبوا به إلى الإيوان حيث مكث إلى قرب صلاة الظهر .

ثم أخرج وأعيد إلى الحرس وخرج فى أثره القضاة والفقهاء . وقد سمعت كلاما يدور بين اثنين عن ماذا دفع الخواجة أبا سهل إلى أن يعمل على فضيحة نفسه . وعلى الأثر خرج الخواجة أحمد مع الأعيان عائدا إلى داره . وقد سألت صديقى نصر بن خلف عما جرى ، فقال : عندما جاء حسنك نهض الوزير ومن أجل هذا التكريم الذى أبداه الخواجة نهض الجميع أرادوا أم لم يريدوا ، إلا أن أبا سهل الزوزنى وكان لا يتمالك نفسه من الغيظ تقاعس فى القيام ولم ينهض كل النهوض . فقال له الخواجة « أنقص فى كل الأمور يا أبا سهل ؟ »

فانفعل غاية الانفعال . ومع أن الأمير حسنك أصر على ألا يجلس بإزاء الخواجة إلا أن هذا لم يقبل ذلك فجلس إلى يميني وأجلس الخواجة أبا القاسم وأبا نصر مشكان عن يمينه ومع أن الخواجة أبا القاسم كثير كان إذ ذاك معزولا فإنه كان يحترم للغاية . واشتد غيظ أبي سهل لجلوسه عن يسار الخواجة . ثم أقبل الأستاذ الرئيس بوجهه على حسنك وسأله قائلاً « كيف حال السيد وكيف تمر الأوقات » فأجاب « شكرا لله » وقال الخواجة « ينبغي أن لا تحزن لأن الرجال عرضة لمثل هذه الأمور ، فينبغي الطاعة لكل ما يقتضى به مولانا ، وما دامت الروح في البدن فإنه يرتجى مائة ألف فرح وراحة » .

فلم يستطع أبو سهل صبرا وقال « كيف يسوغ لمولانا أن يخاطب مثل هذا الكلب القرمطي الذي سيدشيق بأمر أمير المؤمنين بهذا الكلام ؟ » فنظر الخواجة شذرا إلى أبي سهل . وقال حسنك « إنى لا أعرف من هو الكلب فإن العالم كله يعرف ما كان لي ولأسرتي من مجد وعظمة ومال ونوال . لقد حكمت الدنيا ودبرت شئونها ونهاية كل آدمى الموت ، فإذا قدر لي أن أشيق اليوم فليس باستطاعة أحد أن يمنع قتلى بالمشنقة أو بغيرها ، وأنا لست أعظم قدرا من الحسين . إن هذا السيد الذي يخاطبني بهذا الأسلوب قد مدحني بشعره ووقف على باب قصرى . أما حديث القرمطي فالأولى أن يوجه إليه لأنهم اعتقلوه ولم يعتقلوني من أجل ذلك وهذا شيء معروف ولا علم لي بهذه الأشياء » . فاعتاظ أبو سهل وصرخ في وجه حسنك رافعا صوته بالسباب فنهزه الخواجة قائلاً « ألا ينبغي أن تراعى ١٨٥ حرمة هذا المجلس السلطاني الذي اجتمعنا فيه ؟ لقد اجتمعنا اليوم للقيام بأمر فإذا انتهينا منه ، فإن هذا الرجل قد مضى عليه خمسة

أوستة شهور وهو تحت رحمتك لك أن تصنع به ما شئت « فكف أبو سهل ولم
يندس يذنت شفة حتى انتهى بهم المقام .

وكانوا قد كتبوا حجتين دونوا فيهما كل ما يملك حسنك من الأسباب
والضياع باسم السلطان ، فتليت عليه أسماء الضياع واحدة بعد أخرى وأقر من
جانبه بيعها إلى السلطان عن طوعية واختيار . وتسلم الورق الذي كانوا قد
عينوه ثمنها . وشهد على ذلك أولئك الرجال . وسجل الحاكم ذلك في المحضر
وعمل القضاة مثل ذلك على الرسم في أمثاله . وبعد أن فرغوا من كل ذلك قيل
لحسنك ينبغي العودة . فالتفت نحو الخواجة وخاطبه قائلاً « أطال الله بقاء
الأستاذ الرئيس إنني على عهد السلطان محمود قد تطاولت بأمر منه عليه ولم
أكن في ذلك مصيباً . ولكن لم يكن بد من الطاعة فقد أسندوا إلى الوزارة
كرها ، ولم أكن أهلاً لها . ولكني لم أقصد الخواجة بسوء وكنت أراعي حق
أهله . ثم قال « لقد أخطأت وإنني لمستحق أية عقوبة يأمر بها مولانا ولكن
المولى الكريم لم يتركني وشأني . والآن وقد قطعت الأمل في الحياة فإنني لا أهتم
إلا بأهلي وأولادي وأرجو أن يصفح الخواجة عني » ثم انفجر باكياً .

فرقت قلوب الحاضرين له ، وترقق الدمع في عين الخواجة وقال له « أنت
في حل مني ولا ينبغي أن يبلغ اليأس بك هذا الحد ، فالأمل أن تصالح الأمور
وقد دعوت الله وعاهدت نفسي أمامه تعالى على أن أراعي جانب أهلك وأولادك
إذا ما جرى القضاء » .

ثم نهض حسنك وقام الخواجة وكل من حضر وأخذ يلوم أباً سهل بعد
أن تفرق الجمع فاعتذر للخواجة كثيراً وقال « غلبت عليّ الصفراء فعجزت عن
كبح جماح نفسي » .

وقد أنهى كل من قاضي العسكر ونيه الفقيه إلى السلطان كل ما جرى

فى ذلك المجلس . فاستدعى السلطان أباسهل ، وأخذ يعنفه بشدة ويقول له
« لنفرض أنك متعطش لدم هذا الرجل ولكن كان ينبغى أن يكون لوزيرنا
مهابة وحرمة » . فقال أبوسهل « نعم ١٨٦ » . إننى ذكرت ذلك الجفاء الذى
ارتكبه فى حق مولاي فى هراة على عهد السلطان محمود فلم أتمالك نفسى . ولم
يقع منى أكثر من هذا السهو » . وقد سمعت من الخواجة العميد عبد الرازق
أن أباسهل حضر عند أبى فى عشية تلك الليلة التى شنى فى صباحها حسنك .
وسأله والدى فىم أتيت ؟ فقال « لا أبرح من عندك حتى ينام السلطان حتى
لا تكتب رقعة إلى السلطان بالشفاعة لحسنك فى هذه الآونة . »

فقال والدى « لقد كتبت ، ولكنك أتلفتها وهذا جد قبيح » وذهب
إلى مخدعه .

وفى ذلك اليوم وتلك الليلة دبوا خطة صلب حسنك . فألبسوا رجلين
ملايس السعاة وكأنهما آتيان من بغداد برسالة من الخليفة ، يقول فيها : « يجب
صلب حسنك القرمطى وقتله رمياً بالحجارة حتى لا يجرؤ أحد بعد ذلك على
ارتداء خلعة الفاطميين على رغم الخلفاء أو يمر بالحجاج خلال تلك الديار » .
وبعد أن مهدت الأمور ركب السلطان مسعود قاصداً الصيد واللهو لثلاثة أيام
ليطرب مع ندمائه وخاصته وجمع من المطربين ، وكان ذلك يوم الأربعاء
ليومين بقيا من شهر صفر . وأمر وهو فى المدينة صاحب شرطتها أن يقيم
مشنقة مما يلى مصلى بلخ بساحة شارستان . فأخذ الناس يسرون إلى ذلك المكان .
وجاء أبوسهل ممتطيا جواده إلى قرب المشنقة ، ثم وقف على ربوة عالية وكان
الخيالة والرجالة قد ذهبوا ليأتوا بحسنك . فلما أخرجوه من ناحية سوق العشاق ،
وتوسط ساحة شارستان ، كان ميكائيل قد وقف بجواده لاستقباله ، وأخذ
يسبه بأشنع الألفاظ ودعاه « يا خائن » . فلم يلتفت إليه حسنك ولم يُحر جواباً .
فلعنه عامة الناس لفعلته هذه الشنعاء ولتلك الشتائم التى جرت على لسانه . أما

خواص الناس فلا يمكن أن يقال ماذا أرادوا بميكائيل هذا . وكان ميكائيل هذا زوجاً لأخت أياز^(١) وقد تجرع غصصاً كثيرة وبلايا لا تحصى من بعد واقعة حسنك ، وهو اليوم حتى يقضى بقية عمره في العبادة وتلاوة القرآن . وإذا ارتكب صديق كبيرة فلا مناص من بيانها . وجاءوا بحسنك إلى المشنقة ونعوذ بالله من قضاء السوء . وكانوا قد أوقفوا الساعة ليثلوا دور الآتين من بغداد . وكان القراء يقرؤون القرآن وأمروا حسنك بخلع ملابسه فديده وأحكم رباط إزاره وعقد أسفل سراويله ، ثم خلع جيبته وقبضه وطرحهما مع عمامته وبقى عرياناً بالإزار واضعاً إحدى يديه على الأخرى .

وبداً جسمه أبيض كاللجين ووجهه في جمال مائة ألف حسناء فانفجر ١٨٧ الناس باكين من أجله بكاء مرا وجيء بخوذة من حديد لستر الوجه تعمّدوا أن تكون ضيقة بحيث لا تستر رأسه ووجهه ونادوا أن غطوا رأسه ووجهه حتى لا يتلفهما قذف الحجارة لأننا سنرسل رأسه إلى الخليفة ببغداد . وكان حسنك واقفاً في موضعه يحرك شفثيه كأنه يقرأ شيئاً ، حتى جاؤا بخوذة أوسع . وفي هذه الآونة جاء المدعو أحمد جامه دار راكبا وخاطب حسنك بقوله : « إن السلطان يقول إن هذه كانت أمينك التي كنت تطاها بقولك لنا (إذا ما تبوأت سرير الملك فاصلبني) وقد آثرنا الصفع عنك . بيد أن أمير المؤمنين كتب يقول إنك أصبحت قرمطياً وأمر أن يصلبوك » . فلم يحرك حسنك جواباً البتة . ثم غطوا رأسه ووجهه بالخوذة الواسعة ، التي كانوا قد أتوا بها ، وأمروه بالعدو ولكنه لم يأبه بهم ولم يخشهم . فقال كل من حضر « أما تستحيون ؟ مادمتم تريدون قتل الرجل فأصلبوه » . وكاد يظهر هياج شديد بين الناس لولا أن الفرسان حملوا عليهم وهدأوا ثورتهم ، وساقوا حسنك إلى المشنقة . وأركبوه

(١) أنظر عن أياز جبار مقاله الترجمة العربية عزام والختاب ص ٤٢ .

مركباً لم يركبه من قبل ، وربطه الجلاذ بإحكام وسحب الحبال ، ونادوا هلموا
 فارشفوه بالحجارة . فلم يمد أحد يداً إلى حجر بل أخذ الكل في البكاء والنحيب ،
 ولا سيما أهل نيسابور . فأعطوا الحفنة من الأوباش نقوداً ليغروهم بقذفه بالحجارة .
 ولكن الرجل كان قد مات لأن جلاده كان قد وضع الحبل في العنق وخنقه . فهذا
 هو حسنك وتلك هي أيامه . ولقد كان رحمه الله يقول دائماً « إن دعاء النيسابوريين
 يكفيني » ولكنه لم يكفه . وإذا كان قد استطاع أن يختصب أرض المسلمين وماءهم
 فما بقي له أرض ولا ماء . ولم يخنه شيئاً كل ممالك من غلمان وضياع وأسباب
 وذهب وفضة ونعمة . فمضى لشأنه ، وكذلك مضى كل من مكروا به رحمة الله
 عليهم أجمعين . وتنطوي هذه القصة على كثير من العبر . فهلم قد تركوا كل هذه
 المنازعات والخصومات التي أثاروها من أجل حطام الدنيا جانبا ، ورأينا كيف
 تؤول كل هذه الخصومات ^(١) والمنازعات إلى زوال . واللاحق كل الحق من
 يتعلق بأسباب هذه الدنيا فهي تعطيه نعمة ولكن سرعان ما تسلبها منه قسرا
 ويبقى في أسوأ حال .

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة إذا زال عن عين البصير غطاؤها
 وكيف بقاء الناس فيها وإنما يُنال بأسباب الفناء بقاؤها

ويقول رودكى ما معناه ١٨٨ :

« لا يسوغ للضيف أن يثق بهذه الدار الفانية دائماً . إذ لا بد أن تنام يوماً
 تحت التراب ولو كنت اليوم تنام فوق الديباج ، وما الفائدة من وجودك بين
 الآخرين في حين أنك ستلزم بالدخول إلى القبر وحدك ، وسيصاحبك في القبر
 الديدان والبعوض ، عوضاً عن الذوائب الحسنة . أن الذى زين شعرك وجمّله

(١) في النص « مكاوحت » بمعنى الخصامة والمنازعة . غنى — فياض حاشية ! .

بالرغم من أنه أخذ الدينار والدرهم ، إذا ما رآك ، مصفر الوجه اليوم ، فسيحس
قلبه وينفض الطرف عنك . »

وبعد أن فرغوا من هذا غادر أبو سهل والقوم وبقي حسنك وحيدا
كما جاء وحيدا من بطن أمه . ثم سمعت من أبي الحسن الخربلي ^(١) وقد كان صديقي
ومن خاتمة أبي سهل يقول كنت معه يوما في مجلس الشراب وكان حنلا تنتظم
فيه كل أنواع الطرب والمطربين والمغنيين وكثير من الخدم وكان أثناء
ذلك قد أوعز بأن يأتوا خفية برأس حسنك موضوعة في طبق عليه غطاء .
ثم خادلبنا قائلاً « لقد أحضروا لنا فاكهة في غير أوانها حتى نأكل منها » . فقال
الجميع « أجل فليتناولها » . فقال « أحضروها » . فجاء بطبق ورفعوا عنه الغطاء
بعيدا ، وإذا به رأس حسنك . فغلبتنا الحيرة جميعا . وفقدت الوعي . فضحك
أبو سهل . واتفق أن كان الكأس في يده فستط منه . ثم أعادوا الرأس . ولمنه
على هذه الفعلة في يوم آخر كنت فيه محتليا به فأجاب « أنت رجل ضعيف ، هذا
ما يجب فعله بالعدو » . ولما فشا الخبر بهذا الحديث لأمه الجميع . وفي اليوم الذي
صلبوا فيه حسنك لم يتناول أستاذي أبو نصر الإفطار ، وبدأت عليه سياء الحزن
والتفكير العميق بصورة لم أره عليها من قبل . وكان يقول متسائلا . أى أمل
لنا بعد هذا ؟ . وكان الخواجة أحمد حسن على هذه الشاكلة أيضا . ولم يجلس
في الديوان . وبقيت جثة حسنك معلقة بالمشنقة ما يقرب من سبع ١٨٩ سنوات .
حتى يبست وصارت أشلاء قديمة وتناثرت فلم يبق منها أثر . ومن ثم استأذنوا في
دفنها فدفنوها . بيد أن أحدا لم يعلم أين دفنت الجثة ، ولا أين طرخوا الرأس .
وكانت أم حسنك فيما أعلم امرأة ثابتة الجنان . وسمعت أنهم أخفوا عنها

(١) وردت في بعض النسخ حربلي أو جرملی أو جربلی . في يب ومع : خربلي ، مو :
جرملی ، وفي نسخة بدل مو : جربلي ولا يعلم أيهم أصح . غنى - فياض حاشية ٢ .

خبر ابنها لشهرين أو ثلاثة . فلما سمعت بالخبر لم تجزع كعادة النساء ، بل أخذت تبكي بحرقة وألم ، حتى بكى من حولها من الحضور دما ، ثم سكنت هنيهة وقالت : « يا لولدى من رجل عظيم ، يمنحه ملك كالسلطان محمود عالم الدنيا فيمنحه ملك . آخر كالسلطان مسعود عالم الآخرة » . فأعجبت تلك الكلمة كل عاقل سمعها . وأقامت له مأتما عظيما . وقد نظم شاعر من شعراء نيسابور قصيدة في رثائه أذكر منها هذين البيتين :

أقطعوا رأسه لأنه كان رأس الرؤوس وقد كان زينة الدهر وتاج الملك فإذا
كان قرمطيا أو يهوديا أو كافرا فقد كان صعوده من التخت إلى المشنقة عملا منكره
وقد حدث مثل هذا في التاريخ . وذلك عندما تولى الخلافة عبد الله
ابن الزبير^(١) رضى الله عنهما في مكة وخلا له الجو في الحجاز والعراق ،
واستولى أخوه مصعب من قبله على البصرة والكوفة والسواد . فسار إليه
عبد الملك بن مروان من الشام إلى العراق بجيش جرار ذى عدة وعدد عظيمين .
ووقعت بينهما حرب طاحنة قتل فيها مصعب وعاد بعدها عبد الملك إلى الشام ،
فأرسل الحجاج على رأس جيش كثيف إلى مكة . وقد جاء تفصيل تلك الأخبار
في كتب التاريخ . وقدم الحجاج بجيشه إلى مكة ودارت الحرب بينه وبين عبد الله
بن الزبير فحوصرت مكة ، والتجأ عبد الله إلى المسجد الحرام . ودامت الحرب
سجالا . ثم قذفت الكعبة بحجارة المنجنيق ، حتى انهار ركن من أركانها . ولما
ضاقت عبد الله بالأمر ذرعا كف عن القتال . فأرسل الحجاج إليه يقول « لم يكن
قد بقي على أسرك سوى يوم أو يومين وإني لعلى يقين من أنك لن تخرج بالأمان
الذى أقطعه لك . فأخرج على حكم عبد الملك ، حتى أبعث بك إلى الشام غير

(١) تروى هذه الحوادث في كتب التأريخ الإسلامى ، كالطبرى في حوادث عام ٧٣ باختلاف . يسير في الألفاظ وآثرنا ترجمة كلام المؤلف .

مقيد عزيزا مكرما ليرى رآيه فيك إذ ذاك ، وتحقن الدماء ولا يزداد الخراب .
بالمسجد الحرام . فقال عبد الله « سأنظر في ذلك » . ثم اجتمع في تلك الليلة .
بمن بقى من أصحابه وتداول معهم في الأمر ، فرأى جلهم الخروج حتى تهدأ ١٩٠
الفتنة ولا يصاب بمكروه . فذهب إلى أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، رضى
الله عنها ، وشرح لها الحال . فأطرقت أسماء هنيهة ، ثم سأله « أكان خروجك
هذا ياولدى على بنى أمية للدين أو للدنيا » ؟ فقال « والله ما كان إلا من أجل
الدين . ودليلي على ذلك أننى ما أقتنيت درهما من الدنيا وذلك معلوم لديك » .
فقالت « فحينئذ لتصبرن على الموت والقتل والمثلة كما صبر أخوك مصعب من
قبل . فان أباك الزبير بن العوام ، وجدك لأمك أبو بكر الصديق رضى الله
عنه . أنظر ما فعل الحسين بن على رضى الله عنهما ، لقد كان كريما ولم ينزل على
حكم عبيد الله بن زياد » . فقال « يا أمه وإنى لأرى ذلك أيضا ، ولكنى قصدت
أن أرى رأيك فى هذا الأمر ، فالآن وقد علمته طاب لى الموت شهيدا ، بيد أنى
أخشى أن يمثل القوم بى بعد قتلى » . فقالت الأم « إن الشاة المذبوحة لا يضيرها
السلخ وتقطيع أوصالها » .

وبات عبد الله يصلى الليلة طولها ويتلو القرآن . ثم اغتسل وقت السحر
وأدى صلاة الصبح جماعة . وتلا فى ركعتيه سورة « نون والقلم » وسورة
« هل أتى على الإنسان » . ولبس لامته وتمنطق بسلاحه ولم يحارب راجلا أحد
من العرب مثل ما حارب . ثم احتضن أمه مودعا إياها وكانت أمه فى ذلك
الحين تثبت درعه على قامته وتخييط أبطه وهى تقول « عض على النواجذ فى
حرب هؤلاء الفاسقين » .

وبدأت تلاطفه كأنما هى ترسله لتناول الفالوذج . ولم يظهر عليها جزع
النساء البتة ، وخرج عبد الله فرأى أن جيشه تركه وانصرف عنه وتفرق أيدي

سبأ ، إلا زمرة قليلة من أهله صمموا على الثبات معه ، وكانوا مدججين بالسلاح من دروع ولامات ومغافر على أتم أهبة . فنادى أن هلموا إلى فولوا جميعاً وجوهم شطره فأنشد عبد الله هذا البيت :

إني إذا أعرف يومى أصبر إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

ولما بلغوا ساحة الحرب وقفوا . وكان اليوم يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين (٦٩٢) وطلع الحجاج من الناحية الأخرى بجيش كثيف . وعبأ أهل حمص في مقابل الكعبة ، ورجال دمشق تجاه باب بنى شيبة ، وجند الأردن إزاء باب الصفا ١٩١ والمروة ، وجيش فلسطين أمام باب بنى جمح ، وعسكر قسرين أمام باب بنى سهم ، ووقف الحجاج مع طارق بن عمرو ومعظم الجيش في موضع المروة حيث نصبوا الراية الكبرى .

وعندما رأى عبد الله بن الزبير أن جيشاً يفوق الحصر والحد قد أحرق به من كل ناحية خاطب قومه قائلاً « يا آل الزبير لو طبتم لى نفساً عن أنفسكم . كنا أهل بيت من العرب اصطلمنا فى الله لم تصبنا زبابة . أما بعد يا آل الزبير فلا يرعكم وقع السيوف فإنى لم أحضر موطناً قط إلا ارتثت فيه من القتلى وما أجد من دواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها ، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم فإنى لا أعلم امرؤاً كسر سيفه واستبقى نفسه . فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل غصوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ قرنه ، ولا يلهينكم السؤال عنى ولا تقولن أين عبد الله بن الزبير إلا من كان سائلاً عنى » فإنى فى الرعيل الأول ، ثم قال :

أبى لابن سلهى أنه غير خالد ملاقى المنسايا أى صرف تيمها

فلست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتق من خشية الموت سلما

ثم قال على اسمه تعالى « هلموا أيها الأحرار واحملوا على الأعداء » . وبرز كالأسد الضارى يصول على الأعداء من كل جانب وفى كل ناحية . وكانوا

يفرون من وجهه كما تفر الثعالب من وجه الأسود رغم أنه لم يكن معه في كل صولة أكثر من عشرة رجال . فحاربوا في استماتة الأعداء الكثيرين ، وحمى وطيس القتال ، فأبدى عبد الله بأسا ورمى في وجه الحجاج بكافة الرجال المحتشدين تجاه الأبواب ، فأشرفوا على الهزيمة . وأمر الحجاج أن يتقدموا بالراية وبرز من كان في القلب بمن تتمتع بالراحة من الشجعان المبارزين واشتبكوا بعضهم ببعض وفي أثناء هذا الاشتباك أصيب عبد الله الزبير بحجر صلد أدمى وجهه فرفع صوته قائلاً :

فلسنا على الأعقاب تدمى كاومنا ولكن على أقدامنا يقطر الدما

وأصاب صدره حجر آخر أشد قوة فارتعشت منه يداه ، ورأى أحد مواليه الدماء تسيل فصرخ قائلاً « لقد قتل أمير المؤمنين » وكان الأعداء لا يعرفونه لأنه كان قد غطى وجهه . فلما سمعوا صياح الرجل ، وعرفوا أنه عبد الله ، أسرع إليه كثير من الرجال فاحتوه بسيوفهم وقبضوا عليه . ثم أخذوا رأسه وحملوه إلى الحجاج فسجد شكرا وارتفع صوت ينادى « لقد قتل عبد الله بن الزبير » أما أتباعه فقد صبروا وثأبوا حتى قتلوا عن آخرهم . وهدأت الفتنة ودخل الحجاج مكة وأمر بإصلاح الركن الذي انهار بفعل المنجنيق ، كما أمر بتشديد مباني أخرى ، وبعث برأس عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مروان كما أمر بصلب جثته . ونقلوا خبر مقتله إلى أمه فلم تجزع وقالت « إنا لله وإيا إليه راجعون ، لو لم يفعل ولدى هكذا ما كان جديراً أن يدعى بابن الزبير وسبط أبي بكر الصديق رضى الله عنهما » . وبعد مدة سأل الحجاج « مات عمل هذه العجوز ؟ » فأنبؤه بمقالها ، ومبلغ صبرها فقال « ياسبحان الله العظيم لو كانت عائشة أم المؤمنين وشقيقتها هذه من الرجال ما انتقلت هذه الخلافة إلى بنى أمية أبداً ، فاحمري لهذا هو الصبر ولهذا هو القلب . فاحتالوا حيلة لتمروا بها على جثة ولدها لكي نرى ما تقول » .

فكلفوا جماعة من النسوة بهذا الأمر فاحتلن عليها ومررن بها على جثة . ولدها المصلوب . فلما شاهدت المشنقة وعرفت جثة ابنها التفتت إلى امرأة ، وكانت من أشرف النساء ، قائلة « أما آن الوقت لينزل هذا الفارس عن جواده » . ولم تزد شيئاً على ذلك وذهبت .

واتصل هذا الخبر بالحجاج فغلبه العجب . وأمر بإزالة عبد الله ودفنه . وفي هذه القصة رغم طولها فوائد عديدة وفضلاً عن ذلك فقد سقت الحديث في . واقعيتين ليعلم ١٩٣ أن حسنك كان له أقران أعظم شأنًا فإذا لحقه شيء مما لحقهم . فليس ذلك بعجيب . كما أن أمه إذا كانت قد تمالكت نفسها ولم تجزع وفاهت يمثل ذلك القول الذي مر بنا في موضعه فلا يشك في ذلك أحد ويقول « هذا أمر ليس بالمستطاع لأن الفرق بين الرجال والنساء كبير » وربك يخلق ما يشاء ويختار .

وعندما أمر هرون الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكي أوعز بأن تقطع جثته إلى أربعة أوصال تعاق على أربعة مشائق وهذه الحكاية جد معروفة وإن أورها خشية أن يطول الكلام ويميل القراء وتلهيهم أحداث التاريخ فينسبون لأبي الفضل ما لا يليق نسبته . وكان هرون قد كلف سرا رجالا ليقبضوا على من يقربون مشائق جعفر ويبدون التأثير والتفجع ويترحمون عليه فيأتوا بهم إليه حتى يعاقبهم . وبعد مضي مدة على هذا الأمر ندم هرون على ما ارتكبه بالقضاء على البرامكة . واتفق أن بصريا^(١) كان يسير يوما فوقعت عيناه على إحدى مشائق جعفر فقال يخاطب نفسه :

(١) ينسب المؤلف هذين البيتين إلى رجل من البصرة وهي قطعة مشهورة في الجزء الخامس عشر من ٣٤ من الأغاني وقد نسبت مم بيتين آخرين للفضل ابن عبد الصمد الرقاشي وقد رواها ابن عبد ربه في العقد ج ٣ ص ٢٦٦ ضمن تلك القصيدة المعروفة :

هذا الخالون من شعجوى وناموا وعيني لا يلائمها منام

أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لاتنام
لطفنا حول جذعك واستلنا كما للناس بالحجر استلام

فوصل خبر هذا الرجل في الحال إلى الرشيد فتضبوا عليه وأحضره
إليه فقال له قد سمعت نداء منادينا ، فلم ارتكبت هذا الخطأ ؟ .

فقال « أجل لقد سمعت المنادى ، ولكن للبرامكة على يد بيضاء لم يسمع
أحد بمثلها فأحببت أن أؤدى حقها سرأ ، ١٩٤ وفعلت وقد أخطأت في التخلف عما
أمر به مولاي ، فإذا كان البرامكة جديرين بما هم عليه فإني جدير بكل ما يلحقني ،
فسأله هرون عن خبره ، فقص عليه الرجل قصته ، فبكى هرون وعفاه عنه .
وهذه الحكايات الطوال لا تخلو من العبرة والنادرة والنكتة .

هكذا قرأت في أخبار الخلفاء إذ يقول أحد الكتاب إن أبا الوزير^(١)
أقامني على ديوان الصدقات والنفقات على عهد هرون الرشيد ، وكنت أتصفح
بعد نكبة البرامكة^(٢) جريدة عتيقة فرأيت مكتوباً في ورقة : حملوا بأمر أمير
المؤمنين إلى الأمير أبي الفضل جعفر بن يحيى البرمكي أدامه الله من الذهب كذا
ومن الفضة كذا ومن الفرش كذا ومن الكسوة والطيب وأصناف النعيم كذا
ومن الجواهر كذا ومن النقود ثلاثين ألف ألف . ثم حانت مني التفاته إلى ورقة

== ونسبها الى سليمان الأعمى

على أن ابن خلكان في ج ١ ص ١٥٤ ذكر ألياتاً من أول تلك القصيدة ونسبها الى الرقائشي ،
ولكن صاحب العمدة حسب تحقيقه يرى أن شعر هذين الشاعرين احتلط وتعسر تمييز شعر
أحدهما من الآخر . غنى - فياض حاشية ١ .

(١) إذا كان المقصود بأبي الوزير هو وزير الخليفة المتوكل ، فينبغي أن تكون عبارة
« على عهد هرون الخ » . متعلقة بقوله « كنت أتصفح » أي كنت أتصفح جريدة عهد هرون
الخ (غنى - فياض) .

(٢) يظهر أن المراد بلفظ الجريدة في ذلك الزمن ما نسميه اليوم بالملف أو الدوسيه .

أخرى فوجدت مكتوباً فيها أنهم أنفقوا في هذا اليوم أربعة دراهم وأربعة دنانير،
ونصف لشراء البفط والحصير من السوق لإحراق جثة جعفر البرمكي وسبحان.
الله الذي لا يموت أبداً .

وقد طالعت أنا أبو الفضل كتباً كثيرة ، وخاصة ما اختص منها بالسيرة ،
فالتقطت منها الكثير . وقد ذكرت أمثال هذه الحكايات فيما ذكرت من أنواع
الكلام الذي أسوقه ضمن هذه الأخبار . حتى يستيقظ النيام والمفتتنون بالدنيا
والذين يعملون مالا ينفعهم اليوم ولا غداً .

وكذلك صلبوا ابن بقية الوزراء « في العهد الذي استولى فيه عضد الدولة
فما خسرو على بغداد وقتل ابن عمه ببختيار المعروف بعز الدولة في الحرب التي
وقعت بينهما ، وهي قصة طويلة جاءت في أخبار آل بويه في كتاب التاجي الذي
ألفه أبو إسحق الكاتب ^(١) وكان ابن بقية الوزراء هذا رجلاً فاضلاً ذا نعمة وآلة
وعدة ومكانة كبيرة إلا أنه كان متهوراً ^(٢) . وكان في نفس الوقت الذي يقوم
فيه بتدبير شئون الوزارة لبختيار ، يؤدي شئون الوزارة للخليفة الطائع لله .
١٩٥ ولقد أظهر أثناء نزاع كان قائماً بين ببختيار وعضد الدولة سوء الأدب والاعتداء
والتهور ، ولم يتبصر في العواقب . فقام بين رجل كعضد الدولة وآخر خامل
كمولاه بتلك الأفعال التي كان إتيانها خطأ كبيراً ، ولم يستطع مغالبة القضاء .
فلا جرم أن أمر عضد الدولة بعد الاستيلاء على بغداد ، بصلبه وقتله
بالسهام والحجارة .

(١) يقصد أبا إسحق الصابي المعروف . غنى — فباض ٢ .

(٢) يرجع في أخبار ابن بقية هذا إلى تجارب الأمم لابن مسكويه الجزء الثاني ، فله أكثر
المصادر في هذا الموضوع غنى وقيمة . غنى — فباض ٢ .

. وقد قيلت في رثائه هذه الأبيات^(١) :

علو في الحياة وفي الممات	لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نذاك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا	وكلهم قيام للصلاة
لعظمك في النفس تبيت ترعى	بحفاظ وحراس ثقات
مددت يديك نحوهم احتفالا	كدهما إليهم بالهبات
وتشعل حولك النيران ليلا	كذلك كنت أيام الحياة
ولما ضاق بطن الأرض عن أن	يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا	عن الأكفان ثوب السافيات
ركبت مطية من قبل زيد	علاها في السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأيس	تبعد عنك تعيير العادات
ولم أر قبل جذعك قط جذعا	تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت	فأنت قتل ثار النائبات
وكنت تجير من صرف الليالي	فعاد مطالبك بالترات
وصير دهرك الإحسان فيه	إلينا من عظيم السيئات
. وكنت لمعشر سعدا فلما	مضيت تمزقوا بالمنحنيات
غليل باطن لك في فؤادي	يخفف بالدموع الجاريات ١٩٦
ولو أني قدرت على قيام	لفرضك والحقوق الواجبات

(١) هذه القصيدة لأبي الحسن محمد بن عمر الأباري وهي جده معروفة وهي من دهر
أشعار الرثاء ، وقد صححنا هذه القصيدة على كتب أخرى ، وخاصة ابن خلكان طبع بولاق ،
(غنى - فياض حاشية ١)

ملأت الأرض من نظم القوافي ونحت بها خلال النائمات
وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نصب هطل الهاطلات
ولكني أصبر عنك نفسي مخافة أن أعد من الجنات
عليك تحية الرحمن ترى برحمات غواد رائحات

وهذه الأبيات الجميلة من نظم ابن الأنباري وهو يريد بيته « ركبت مطية
من قبل زيد » زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم
أجمعين . وكان زيد هذا قد ضاق بظلم بني أمية وعسفهم فخرج عليهم أيام خلافة
هشام بن عبد الملك . وكان نصر بن سيار إذ ذاك أمير خراسان وقصة هذا
الخروج طويلة موضحة في التواريخ . وكان آخر أمره أن شق وقتل رحمة الله
عليه وبقيت جثته معلقة على المشنقة مدة أربع سنوات ، حكم الله بينه وجميع آل
الرسول وبينهم . وقد حث سديف شاعر بني العباس أبا العباس السفاح على قتل
بني أمية في القصيدة التي من جملتها هذا البيت :

واذكرن مصرع الحسين وزيد قتيلا بجانب المهراس^(١)

هذا وقد انتهيت من سرد قصة صلب حسنك مشيرا خلاها إلى عدة
حكايات ونكت طويلة محكمة للغاية . فلعل القراء يصفحون عني ويقبلون
اعتذاري ويتلقون هذا مني بعناية . وها أنذا أعود إلى ذكر التاريخ فإن عجائب
كثيرة ما تزال وراء الستار سأذكرها إن شاء الله تعالى إن بقيت حيا .

ذكر إنفاذ الرسل في هذا الوقت الى قدرخان

لتجديد العقد والعهد بين الجانبين

١٩٧٠ عندما تقابل السلطان محمود رضى الله عنه مع قدر خان وتوثقت عرى الصداقة بينهما نتيجة للعقود والعهود التي ذكرناها فيما مضى بالتفصيل ، تم الاتفاق بينهما على أن تخطب الحرة زينب رحمة الله عليها لبغراتسكين ابن قدرخان الذي كان يعرف إذ ذاك باسم بغراخان ، وكان حياً يرزق إلى السنة الماضية أى عام أربع مائة وتسع وأربعين (١٠٥٧) ، وقد أظهر من الحرص والأثرة ما أدى إلى القضاء عليه بيد أرسلان خان ، فقتل ابن أخ له تلك المكانة ، ولكنه بعد أن استقر أمره مات وسوى بالتراب . وعجبا لأولاد آدم عليه السلام يقتلون ويهلكون بعضهم بعضاً دون وجل أو حياء من أجل هذا العرض الزائل الذي سرعان ما يزول فيضطرون إلى تركه عشية الحصول عليه أو ضحاها ، فلعمري ما هي الفائدة التي تعود عليهم من هذا ؟ وأى لبيب تحدثه نفسه بالإقدام على مثل هذا ؟ ولكن ما الحيلة وتلك سنة القدر التي لا يستطيع أحد التغلب عليها . ومن جهة أخرى فقد عقدوا للأمير محمد على ابنة قدرخان فقد كان السلطان محمود في تلك الحفبة من الزمن يحد ويحتهد في أن يرفع من شأن ابنه محمد في كل شيء وما كان يدري ما وراء ستار الغيب . فلما قبض على الأمير محمد ولم يتيسر الإتيان بتلك الفتاة تقرر الإقدام على عقد نكاح جديد عليها للسلطان مسعود رضى الله عنه فاختلى السلطان المذكور يوم الإثنين في الثالث من

(١) ورد في ابن الأثير ج ٩ ص ١١٢ أن أرسلان خان كان ابناً لبغراخان ، ولم يكن ابناً لأخيه ، وقد قضى بغراخان على هذا الأخ وختمت زوجة بغراخان بهذا الولد ، وتشير عبارة الكتاب إلى غير هذا .

ربيع الأول من هذا العام بالوزير الخواجة أحمد وأستاذى أبى نصر وتشاوروا
ملويلا فى هذا الأمر ، حتى اتفق رأيهم على إيفاد رسولين بخطاب وأن يكون
أحد الرسولين من جملة الندماء والآخر من جملة القضاة ليقوما بالعهد والعقد .

فأجمع رأيهم على اختيار أبى القاسم الحصىرى ، الذى ما يزال حيا إلى
الآن ، ١٩٨ أدامه الله ، وأبى طالب التبانى الذى كان من أعاضم التبانين فريدا
فى الفضل والعلم والورع ذا أناة ، إلى جانب ما كان عليه من بهاء الطلعه واعتدال
القامة ، وكان ذا خط جمبل وإنشاء أنيق لا يقلان جمالا عن طلعتيه وقليل ما وقع
نظرى على خط يشبه خطه حسنا فى خراسان . وقد مكث هذا الفقى فى ديار
الترك بعد وصوله إليها ثلاثة أعوام ، ثم عاد ناجحا ولكنه مات أثر وصوله
إلى پروان على مقربة من غزنة وسأسرد قصته فى مكانها . هذا وقد كتب أستاذى
رسالة فى هذا شفعا بمشافهتين . وتعد هذه الرسائل نادرة فى بابها . وقد نسختها
بخطى ليطلع عليها القارىء ، فإنها تكشف النقاب عن بعض دقائق الأمور .

وقد تلفت تلك النسخة فاضطرت إلى نسخها مرة ثانية كي تعرف لأنها
ذات أسرار . وسأبدأ بقصة التبانين لاتصالها بنكات تتعلق ببعض الملوك ، ثم
أتى بصور أخرى فى كل فصل من هذه الفصول ، ليتم بها الاطلاع على
الزوار والعجائب . وأنا أقوم بذلك وقد أطأت وأملى أن يعذرني القراء فى
زيادة التفصيل .

قصة التبانين

ويجدر بنا عند ذكر التبانين أن نذكر لمحة عن هذه الأسرة المعروفة فنقول
إن التبانين ينتمون إلى الإمام أبى العباس التبانى رضى الله عنه ، وهو جد
الإمام أبى صادق التبانى أدام الله سلامته ، ويعد من المعمرين فى عهدنا هذا ،

ويقيم في رباط مانك على ميمون ، وهو من العلم وسعة الفضل بحيث يجيب على ما يزيد على مئة فتوى كل يوم ويُعد إمام العصر في كل العلوم .

وسأتي في هذا الفصل بذكر أسباب اتصاله بالأسرة المحمودية . ثم أشير بمشيئة الله إلى ما كلفه به ملوك هذه الأسرة رضى الله عنهم أجمعين من الأعمال في الإمامة والقضاء والمناصب . وجد أبي العباس هذا كان تلميذا ببغداد لأبي يوسف يعقوب بن أيوب الأنصارى ، قاضى قضاة بغداد ، في أيام هرون الرشيد وتلميذ الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه إمام عصره بلا منازع .

وكان أبو العباس يعد من تلامذة الإمام أبي حنيفة أيضا . فلقد جاء في مختصر صاعد الذى ألفه الإمام القاضى صاعد رحمه الله وكان مؤدب السلطان مسعود والسلطان محمد أبى السلطان يمين الدولة رضى الله عنهم أجمعين عند الكلام عن أصول المسائل ، إن هذا رأى من قول أبى حنيفة وإنه هو ما ذهب إليه أبو يوسف ومحمد زفر وأبو العباس التبانى والقاضى أبو الهيثم .

وكان من هذه الأسرة رجل فقيه يدعى أبا صالح ، وهو خال والدته أبى صادق التبانى هذا ، وقد عينه السلطان محمود إبان وجوده بنيسابور سبها لارا للسامانيين ١٩٩ ليرسله إلى غزنة ليكون فيها إماما على مذهب أبى حنيفة رحمة الله عليه وكان ذلك فى عام خمس وثمانين وثلثمائة (٩٩٥) . وقد اشتغل بالتدريس فى باب بستان ، فى المدرسة التى هناك ، وتخرج على يده ، وأخذ العلم عنه ، قاضى القضاة أبو سليمان داود بن يونس أبقاه الله . وهو الآن من أبرز علماء تلك المدينة (غزنة) ولكنه بلغ من الكبر عتيا وساءت صحته . كما أن أخاه القاضى زكى محمود ، أبقاه الله ، أخذ العلم عن أبى صالح المذكور أيضا . وقد كانت منزلة أبى صالح هذا لدى السلطان محمود من الرفعة بحيث قال عند وفاته سنة أربع مائة (١٠٠٩) لوزيره الخواجه أبى العباس الإسفراينى :

« اذهب إلى مدرسة هذا الإمام لإقامة مأتمه ، إذ ليس له ولد يقوم بذلك . وكنت قد اعتزمت القيام بنفسى بهذا الواجب استجابة لضميرى ولكن نظرا لأن الناس قد يلومونى أو يرون فى هذا عيبا رأيت أن تقوم بذلك . وليس بين خدامنا من هو أجل وأعظم منك شأنًا لأنك وزيرنا وخليفتنا » .

وكان من جملة عظماء هذه الأسرة الإمام أبو بشر التبانى أيضا رحمه الله . وقد كان علما فى عصر السامانيين ذا ثراء عريض . وكان هذا التشريف عظيما فى ذلك الزمن لأنهم كانوا يضايقون فى الأعمال . ولو أن أحد المطالعين لذلك الكتاب سأل « ما هذا الإطناب الذى يعتمد إليه أبو الفضل فى الكلام » ، فالجواب هو أنى أدون فى هذا التاريخ حوادث وقعت خلال خمسين عاما تناولت فيها الحديث عن كثير من العظماء والسادة من شتى الطبقات ، فإن أدت حقا لأهل بلدتى وزدت فى تعريف أسرة على هذا القدر من العظمة فقد وجب أن يصفحواعنى .

والآن أعود إلى قصة سهيسالارية الساطان محمود عند السامانيين فأشير إلى بعض النقاط البسيطة من كل باب لما فيها من فوائد . كما أشير إلى إيفاد الإمام أبى طاهر التبانى هذا وقدم بغراخان والد قدرخان إلى بخارى وانهلال الدولة السامانية فى شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وثلثمائة (٩٩٠) . وهى قصة طويلة نكتفى منها بالحديث عن مجيء بغراخان إلى بخارى واستيلائه على الخزان العظيمة والذخائر النفيسة التى كانت للسامانيين ومرضه بداء البواسير ، ولما صحى عزيمته على العودة إلى كاشغر استدعى عبد العزيز بن نوح بن نصر السامانى وخلع عليه وقال له « سمعت أنهم اغتصبوا ولايتك وهاأنذا أعيدها إليك . ٢٠ لما أعده فيك من الشجاعة والعدالة وحسن السيرة . فلتكن على ثقة بأنى سأكون عوناً لك كلها . دعت الحاجة إلى العون والمساعدة » . وعاد الخان إلى سمرقند واشتد المرض عليه هنالك وقضى رحمه الله ولكل إمرئ فى الدنيا نفس معدود وأجل محدود .

يُريد أن الأمير الرضا^(١) "كر عائدا إلى بخارى في يوم الأربعاء من منتصف جمادى الآخرة سنة ثمانين وثلثمائة (٩٩٠) : حيث قبض على عمه عبد العزيز المذكور واعتقله ، ثم ملأ عينيه بالكافور حتى أعماه ، فيما روى ثقة الأمير الرضا أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي طاهر إذ يقول : كنت حاضرا في ذلك الوقت الذي كانوا يعمون فيه هذا المسكين ، فجزع وبكى كثيرا ، ودعا الله ليقتص من ظلمه يوم الفرع الأكبر . فلو لم يكن للظلمين يوم العدل هذا لتمزقت قلوبهم وأكبادهم حشرات في هذه الدنيا .

وبعد أن استقر الأمير الرضا ببخارى ، وجاوز أبو علي سيمجور الحد في الظلم والاستهتار ، كتب الأمير نوح رسالة إلى الأمير سبكتكين وبعث رسولا إليه ورجاه أن يتعب نفسه ويأتي إلى صحراء نخشب ليقابله ويدبر معه ذلك الأمر . فسار إليه الأمير سبكتكين بجيش ذا أهبة ومعه فيلة كثيرة واصطحب معه الأمير محمود لأنه كان قد أمر بالإتيان به ليفلده سبسالارية خراسان . فذهبوا والتقوا هناك ومنحوا الأمير محمود السبسالارية ولقب سيف الدولة ورجعوا جميعا إلى بلخ . وسار الأمير الرضا بعد ذلك من بخارى بجيش عظيم واتفقوا جميعا وزحفوا إلى هراة حيث كان أبو علي سيمجور يربط هناك ومعه أخوته والأمير فائق وجند كثيف وأخذت الرسل ترى بينهم وبين أبي علي سيمجور يومين أو ثلاثة للصلح الذي لم يتحقق ، لأن جيش أبي علي لم يرضخ ف وقعت بظاهر هراة معركة كبيرة في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان سنة أربعة وثمانين وثلثمائة (٩٩٤) وانتهت بانكسار أبي علي وتقهقره إلى نيسابور . وسار أمير خراسان إلى بخارى ، في حين أن حما السلطان محمود أمير جوزجان أبا الحارث فرينغون والأمير العادل سبكتكين سارا إلى نيسابور في سلخ شوال من هذا العام لمطاردة أبي علي سيمجور فاضطر إلى الانسحاب إلى جرجان .

(١) يقصد : نوح بن منصور .

والآن أدع هذه القصة لأذكرها فيما بعد . فإنها قصة تليق بالتعليق وهي ٢٠١
نادرة للغاية جديرة بالإحاطة تتعلق بسيرة الأمير سبكتكين .

قصة الأمير العادل سبكتكين رضى الله عنه

مع سيده الذى أتى به من التركستان والرؤيا التى رآها سبكتكين

قصّ عليّ الشريف أبو المظفر بن أحمد بن أبي القاسم الهاشمي الملقب
بالعلوى فى شوال من سنة خمسين وأربعمائة (١٠٥٨) وهو الحسيب النسيب
المعروف بالفضل وجودة النظم فقد نظم قرابة مائه ألف بيت من الشعر فى هذه
الدولة وفى الملوك السالفين رضى الله عنهم وأبى السلطان المعظم أباشجاع
فرخ زاد بن ناصر دين الله قوله : حين ذهب الأمير العادل إلى بخارى ليقابل
الأمير الرضا أوفد جدى أحمد بن أبي القاسم بن جعفر الهاشمي إلى أمير بخارى،
وسير أمير جوزجان معه باعتباره سبسالارا فأنجزا ما كلفا به سويا . وقد
تألف معه الأمير الرضا ووضع^(١) الخراج عن ضياعه التى كانت له فى ناحية
حايطى ، وحين توفى جدى كتب ناحية حايطى باسم أبي وأصدر الأمير محمود ،
الذى تمكن من الإمارة فى خراسان بعد انقراض دولة السامانيين إذ ذاك ،
منشورا بالأمر . وقال جدى : بعد أن فرغنا من حرب هراة وتوجهنّا شطر
بيسابور كانت العادة المتبعة أن يأتى أمير جوزجان كل يوم بعد الصلاة ومعه
أكابر القادة من الخراسانيين والسامانيين ثم يقفون بمطين جيادهم بباب خيمة
الأمير العادل سبكتكين ، وعندما يخرج الأمير من الخيمة يترجل الجميع كلهم
ويظلون هكذا حتى يركب جواده فيركبون ويسيرون حتى يصلوا إلى منزل آخر

(١) مو : بموضوع : وظاهر أنه مصدر ميمى بمعنى وضع ، وهو اصطلاح ديوانى قال
والخارزمى فى مفاتيح العلوم «الوضع أن يضاف على اسم فيوضع عن الجربذة» . غنى - فائض حاشية ٢

وعندما بلغ الركب إلى المنزل المعروف بخاكستر^(١) مكث الأمير يوماً هنالك وتصدق كثيراً على الفقراء ٢٠٢ وبعد صلاة العصر ركب وأخذ يطوف في تلك الصحارى ومعه جميع الأعيان . وكانت الأكلات وسطوح الجبال متفرقة هنا وهنالك فرأينا الأمير سبكتكين وقد وقف أمام جزء من جبل وقال : ها قد وجدت ، ووقف في موضعه ، ثم أمر خمسة أو ستة من الغلمان أن يترجلوا قائلاً : احفروا موضع كذا ، فأخذوا يحفرون وتعمقوا حتى طهر وتد ضخم من حديد يشبه ما يستخدم في ربط الدواب وقد انفصلت عنه الحلقة فاقتلعوه وبعد أن شاهده الأمير سبكتكين ترجل وشكر الله عز وجل وسجد وبكى كثيراً ثم طاب السجادة وصلى ركعتين ثم أمر أن يحملوا هذا الود ثم ركب وظل واقفاً في موضعه . فقال أولئك العظماء : ما هذا . فقال : هذه قصة نادرة فاسمعوها : قبل أن أقع في قعر الأمير البتكين كان السيد الذى كنت من ماله قد عبر بى وثلاثة عشر غلاماً نهر جيحون إلى شبرقان ومنها إلى جوزجان ، وكان والدهذا الأمير إذ ذاك ملكاً على جوزجان فحملونا إليه فاشتري سبعة سواى ورفضنى وخمسة آخرين ، فارتحل بنا السيد متجهاً نحو نيسابور ولما وصانا مرو والرود وسرخس باع أربعة منا وبقيت أنا وملك كان آخران وكنت أدعى سبكتكين الطويل ، وريشاء الله أن تنفق تحتى ثلاثة من خيل سيدى .

وعند وصولنا إلى هذا المنزل أى خاكستر ، كان قد نفق تحتى جواد راج فأشبعنى سيدى ضرباً ثم وضع السرج على عاتقى فتألمت كثيراً من سوء طالعى وقصور حظى حيث لم يقدم أحد على شرائى وكان السيد قد أقسم أيماناً أن يسوقنى راجلاً إلى نيسابور وقد تم ذلك فعلا فتمت ليلتى تلك فى غم وهم شديد . ورأيت

(١) لعله الموضع الذى يعرف بهذا الاسم اليوم فى الطريق من مشهد إلى مرو . غنى - فيام

الخضر في المنام، فتقدم مني وسألني ما سبب كل هذا الغم، فأجبتة لسوء طالعى . فقال لا تحزن وإنى أبشرك بأنك سوف تكون رجلا عظيما مشهورا وأنتك ستأتى يوما إلى هذه الصحراء على رأس جمع غفير من العظماء فطب نفساً وأحسن إلى الناس واعدل بينهم عندما تباع هذه المنزلة تطول حياتك ويدوم الملك في عقبك . فقلت شكرا . فقال مد إلى يدك وعاهدنى على ذلك . فسلّمت يدي وعاهدته فضغط يدي بقوة ٢٠٣ . واستيقظت من النوم . وها أرتلك الصغطة ظاهر في يدي ، فقممت في نصف الليل واغتسلت وصلّيت خمسين ركعة ثم دعوت الله كثيرا وأنا أبكى ووجدت نفسى أكثر قوة بما كنت فحملت هذا الوجد وخرجت إلى الصحراء وغرسته ليكون علامة . فلما أصبح الصباح وشددنا الرحال سأل مولاي عن الوجد فلم يجده فضربنى ضربا مبرحا بالسياط وأقسم أيمانا مغالطة أن يبيعنى بأبخس الأثمان ، وسرت منزلي راجلا حتى نيسابور وكان بها البتكين سمسالارا للسامانيين ، فكان عظيما ، فباعنى وزميلي إليه . والحكاية بعد ذلك طويلة إلى أن وصلت إلى هذه الدرجة التى ترونى عليها . والله أعلم بالصواب .

حكاية الأمير العادل سبكتكين مع أنى الغزال ووليدها ورفقه بهما

وما رآه في المنام

وقد سمعت أيضاً سنة خمسين وأربعمائة (١٠٥٨) في مدينة بُست من عبد الملك المستوفى، وكان هذا الرجل الشريف شهما يمارس الكتابة وهو مقبول القول كفاءه وكان آية في الاستيفاء عندما استولى الأمير سبكتكين رضى الله عنه على بُست وانقرضت السلالة الماتوزية^(١) أنه كان في ناجية طالقان زعيم يدعى أحمد

(١) كان باتوز واليا في بست ، وقد انتهى حكمه على يد سبكتكين . يرجع الى تاريخ القتيبي . غنى - فياض حاشية ١ .

أبا عمرو ، وكان رجلا طاعنا في السن شديد الرأي ذا ثروة طائلة ، وكان ممن أعجب بهم الأمير سبكتكين من أهل تلك الناحية فأخذ يتلطف معه ويقربه إليه حتى بلغت عنايته به أن كان يستدعيه كل ليلة ويخلى به ويحدثه في سروره وغمه ويفضو إليه بأسراره ويبقيـه لديه إلى وقت متأخر . وكان هذا الشيخ صديقا لوالدي أحمد أبي ناصر المستوفي فحكى يوما لأبي وكنت حاضرا هذا المجاس أن الأمير سبكتكين كان يتحدث إليه ذات ليلة ويعص عليه أحواله وأسرار حياته فقال : قبل أن أنتقل إلى غزوة ركبت يوما قبيل صلاة العصر وخرجت إلى الصحراء بيلخ وكان لي حصان واحد سريع العدو قوى بحيث لا يفوته أى صيد ٢٠٤ يقع أمامي ، فرأيت غزالة ومعهما وليدها ، فأهجت الحصان وواصلت العدو به فأنفصل الوليد عن أمه وبدا مغموما فأمسكته ووضعته أمامي على السرج وعدت وكان النهار قد قارب الغروب وبعد أن سقت قليلا سمعت صوتا فالتفت وإذا بالغزالة أم الوليد تن كائنها تلتمس الخلاص لوليدها . فأعدت الكرة لعل أمسكها ولكنها فرت كالريح من وجهي فعدت ثانية وتكرر هذا الحال مرتين أو ثلاث والغزالة المسكينة تتبعني بأنينها واسترحامها إلى أن كدت أصل إلى المدينة ففقت لنفسي ، وقد رق لها قلبي ، أى خير يعود علي من هذا الوليد الصغير ينبغى أن أرحم هذه الأم الشفوق فتركت الغزال الصغير بالصحراء فهرول نحو أمه وعلا صوتهما فرحين وأمعما في الصحراء ، ثم واصلت السير إلى الدار وقد أظلم الليل وليس لخصاني من شعير يأكله فتألمت كثيرا ونمت كالمهموم في فراشي ، فرأيت أثناء نومي شيخا طلق المحيا يتقدم نحوي وهو يقول : يا سبكتكين اعلم أنا سنعوضك عن العطف الذي شمت به الغزالة وردك طفلها إليها وتركك حصانك بدون علف . إن المدينة التي تدعى غزوة والقطر الذي يسمى زاولستان منحة لك ولأولادك من بعدك . وإن مبعوث الله جل جلاله إليك ، تقدست أسماؤه ولا إله غيره . فاستيقظت من النوم قوى الجنان مطمئن الخاطر أفكر

دائماً في هذه الرؤيا وما سيكون من تعبيرها إلى أن بلغت هذه الدرجة التي أنا الآن فيها وإني لعلّ يقين من أن الملك سيأتي في أسرتي وعقبى إلى ما شاء الله له أن يكون .

سكاية النبي موسى عليه السلام مع الحمل ورحمته به

وبعد أن قص الشيخ الطالقاني هذه الرؤيا قال أبي : إنها لرؤيا لطيفة رائعة فإن هذه الرحمة عظيمة في بابها ولا سيما في حق هذه العجاوات التي لا تملك حولا ولا طولاً كالقطط وأمثالها ، وقد قرأت في القصص أن موسى عليه السلام عندما كان يرعى الأغنام وكان ٢٠٥ وقت الصلاة والليل مظلمة والمطر يهطل بشدة فسافها إلى الحظيرة ولكن أحد الحملان نفر عندما قارب الحظيرة ، فتألم قلب موسى عليه السلام وجرى في أثره وكان قد هم أن يضربه بعصاة إن لحق به ولكنه بعد أن قبض عليه رقق له قلبه وضمه إليه ومسح بيده على رأسه وخاطبه قائلاً : أيها المسكين العاجز ، ليس وراءك خوف ولا أمامك أمل فلم هربت وتركت أمك . ومع أنه كان قد جرى في حكم الأزل أن قد قدر له أن يكون نبيا فقد تأكدت له النبوة لتلك الشفقة التي أبداهها على الحيوان الضعيف .

وما قصدت بذكر هاتين الرؤيتين وهاتين القصتين إلا ليعلم ويتأكد أن هذه الدولة ستدوم في هذه الأسيرة العظيمة آماداً طويلة . وأعود إلى الفصحة التي كنت قد بدأت بذكرها لآتمها .

بقية قصة التبانة

مكث الأمير سبكتكين مدة في نيسابور حتى استقام الأمر للأمير محمود ثم عاد راجعاً إلى هراة وكان أبو علي سيمجور يريد الزحف من جرجان إلى

فارس وكرمان للاستيلاء على تلك الأنحاء . فقد كان جو جرجان ردينا نخشى أن يلحق به ما لحق بتاش الذي توفي هناك ولكنه لم يستطع أن يفض الطرف عن خراسان ونيسابور ولات حين مناص ، وقد قيل في الأمثال يداك أوكتا وفوك نفخ^(١) . فلما باغاه أن الأمير سبكتكين رحل إلى هراة وأن ليس مع الأمير محمود سوى شزيمة قليلة من الرجال سولت له نفسه الاستيلاء على نيسابور ثانية . فسار من جرجان في غرة ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وثلثمائة (٩٩٥) وكان معه أخوته والمدعو فائق الخاصة وجند كفيف كامل العدة والعدد ، وعندما وصل خبر ذلك إلى الأمير محمود خرج من المدينة ونزل بيستان عمرو ابن الليث ، على فرسخ واحد من المدينة ، وقد لحق بأبي علي سيمجور أبو نصر محمود الحاجب جد الخواجة أبي نصر النوكي لأمه ، كان رئيسا لغزاة ، كما مشى عامة أهل المدينة فرحين باستقبال أبي علي سيمجور وقد حملوا أسلحتهم متأهبين للحرب ، وكانت حربا خاسرة ، وأبدى الأمير محمود مقاومة عنيفة ، ولأنهم لم يستطيعوا ثباتا فقد أدخلوا البستان وانتهت بخروج محمود من ذلك البستان وتراجعوا صوب هراة ، ثم جهز والده حملة من الفرسان وعبأ جيشا عظيما ، حشد فيه رجالا من الهند وخلق ومن كل مكان . وأقام أبو علي سيمجور في نيسابور وأمر بأن يخطب اسمه وما رؤى قط غالب أشبهه بمغلوب منه .

وسار الأميران سبكتكين ومحمود من هراة وتركوا والى سيستان وشأنه في يوشنك ولكنهم أخذوا نجلة وجيشا كاملا معهم ، ولما سمع أبو علي سيمجور بخبرهم رحل إلى طوس للقتال هناك ، وذهب الأعداء في أثره وأرسل إليه الأمير سبكتكين رسولا يقول إنك من بيت عريق لا أرغب أن يكون زوال نعمته على يدي فاقبل نصحي وتقدم للصالح حتى تعود إلى مرو وتكون

(١) يضرب لمن يجنى على نفسه الحين . جمع الأمثال للبدائي ، طبعة مصر الجزء ٢ صفحة ٣٣٥

خليفة لنجلى محمود بنيسابور وأتوسط بينكما وأشفع لك حتى يرضى عنك أمير خراسان وتستقر الأمور وتزول الوحشة ، بيد أنى أعرف أنك لن تستجيب لهذا ، ولكن إرجع إلى صوابك وحاسب نفسك جيدا يتضح لك صدق قولى وتعرف أن ما أعرضه عليك نصيحة أبوية ولتعلن يقينا أنى لست عاجزا ولا أسوق هذا الكلام عن ضعف فإنى بهذا الجيش العرمم الذى هو تحت إمرة أستطيع عمل المعجزات بإذن الله تعالى عز وجل ولكنى أريد الإصلاح ما أستطعت ولن أسلك طريق البغى . أما أبو على فكان يحس بآثار الإدبار فلم يستأمن لهذا العرض ، وتحدث بهذا مع خاصته فقالوا جميعا : ما هذا الكلام يجب أن نقاتل . إلا أن أبا الحسن بن كثير والد الخواجة أبى القاسم كان شديد الرغبة فى الصلح ، وقد بالغ فى النصيحة غير أن القدر كان واقفا بالمرصاد فذهبت نصائحه أدراج الرياح فإن الإدبار والعياذ بالله إذا حل يخطئ كل تدبير وقد قال الشاعر :

وإذا أراد الله رحلة نعمة . . عن دار قوم أخطأوا التدبيرا

ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى مساء الأحد لعشر بقين من جمادى الأخرى سنة خمس وثمانين وثمانمائة (٩٩٥) ، وأبلى الفريقان بلاء حسنا وضربوا ٢٠٧ معظم جيش الأمير سبكتكين ضربة قوية فأشرف على الهزيمة ، بيد أن الأمير محمود ومعه ابن خاف برزا فجأة من كمين على رأس جريدة قد تمنعت بالراحه من الفرسان الشجعان المختارين وأنزلوا الضربات القاضية بفائق وإيلينكو فالجأهما إلى الفرار ، ولما رأى أبو على ذلك انهزم وفر إلى در رود^(١) لينضى من هناك لشأنه . أما قومه من الأعيان والمتقدمين من أمثال الحاجب أبى على

(١) موضع بين ملوس وبنيسابور .

وبكتكين مرغابى وينالتكين ومحمد بن الحاجب طغان ومحمد شارتيكين ولشكرستان الديلى وأحمد أرسلان الخازن وأبى هلى بن نوشتيكين وأرسلان السمرقندى فقد أسروا جميعا . وكذلك اسردوا جميع الأسرى والفيلة التى كانت قد وقعت فى أيدي رجال أبى على أثناء المعركة الخاسرة التى انتهت بفرار محمد . وقد قال أبو الفتح البستى شعرا فى هذه الحرب :

ألم تر ما أتاه أبو على وكنت أراه ذا رأى وكيس
عصى السلطان فابتدرت إليه رجال يقلعون أبا قيس
وصير طوس معلقه فصار عليه الطوس أشام من طويس

وهكذا قضت دولة السيمجوريين بخطأ واحد ألم بها ولم تثبت قدمهم بعد ذلك فى أرض وانتهى أبو على إلى خوارزم فاعتقلوه هنالك ، إلا أن خادمه إيلينكو أقام القيامة على الخوارزميين حتى فكوا أسره ، وانطلقت على أبى على حيلة أمير خراسان^(١) واستخف بالأمر وجاء إلى بخارى وبعد أن مكث عدة أيام يتردد على بلاط الأمير الرضا قبض عليه وعلى من معه من الرجال وانزع مالديهم من سلاح وعتاد وخيل وماشية وسبق أبو على وخمسة عشر من أصحابه أسرى إلى قلعة قهندز حيث اعتقلوهم وكان ذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة (٩٩٣) وكان الأمير سبكتكين إذ ذاك يقيم ببلخ فأخذ يبعث الرسل والرسائل تباعا إلى بخارى يقول : إن أحوال خراسان لم تستقر وتهدأ ما دام أبو على فى بخارى ، فينبغى سوقه إلينا ليعتقل فى قلعة غزنة . إلا أن ثقات الأمير الرضا قالوا لا وجه لإرساله ومأطلوا فى الأمر بينما كان سبكتكين يلح عليهم ويهددهم . وكانت أيام السامانيين آخذة فى الزوال أرادوا

(١) أى السلطان الساماني .

أو لم يريدوا ، فأرسلوا أبا علي وإيلمنكو إلى بلخ في شعبان هذا العام . وقد حدثني ٢٠٨ أحد فقهاء بلخ فقال : رأيت هذين الرجلين يأتون بهما إلى بلخ وكان أبو علي راكبا على بغلة والقيد في قدميه وعليه جبة عتائية^(١) خضراء وعمامة من الخز فلما وصل إلى كجاجيان^(٢) سأل من حوله ما اسم هذا المكان فقيل له كذا فقال : أجل لقد أخبرني المنجمون بأنني سأصل إلى هذا المكان يوما ولكني ما كنت أعلم أن يكون مجيء علي هذه الصورة . أما الأمير الرضا فقد ندم على إرسال أبي علي وقال إن ملوك الأطراف أخذوا يلوموني ، وكتب رسالة طلب فيها إعادة أبي علي ، غير أن معتمد سبكتكين الذي كان يقيم من قله في بخارى كتب سرا رسالة بهذا المعنى وصلت إلى سبكتكين قبل وصول كتاب الأمير الرضا فسارع الأمير سبكتكين إلى إرسال أبي علي وإيلمنكو مع أحد رجاله إلى قلعة كرديز بغزنة قبل أن تصله رسالة الأمير الرضا ، فلما وصله الرسول أجابه بقوله إن خراسان الآن ثائرة وأنا منهمك في ضبطها وبعد الفراغ من هذه المهمة سأوجه إلى غزنة وأعيد أبا علي . وإتفق أن كان أبو الحسن نجل أبي علي سيمجور قد إلتجأ إلى بلاط نحر الدولة بالرى حيث أكرموا وفادته للغاية ورتبوا له كل شهر خمسة آلاف درهم ولكنه رجع إلى نيسابور مفتننا بحب امرأة أو غلام وعاش هناك متواريا عن الأنظار فجد الأمير محمود في طلبه فقبضوا عليه وساقوه إلى غزنة حيث أودع قلعة كرديز ، ونعوذ بالله من الإذبار . وهكذا انقرض السيمجوريون واستتب أمر السهسالارية لمحمود وعظم سلطانه ، وكان متعلقا بغزنة فقد أخذ يرسل إليهما كل من يجده من الرجال أو النساء ممن لهم خبرة أو معرفة بصناعة ، وكان

(١) العتائي نوع من التماس المروج ويسب إلى محله في بغداد . ديوان البسته مولانا قاري ،

ص ٢٢٢ .

(٢) بلدة قرب بنج .

أبو صالح النباني السابق الذكر رحمه الله واحدا من هؤلاء . هذا وقد انتهت هذه الحكاية التي لا تخلو من النوارد والعجائب الكثيرة . وهذا الإمام أبو صادق التبانى رحمه الله عليه الذى يقيم اليوم بغزنة ، والذى ذكرنا شيئا من أمر خاله أبى صالح ، كان يقيم بنيسابور مشغلا بالعلم ولما أبرم السلطان محمود رضى الله عنه العهد والعقد مع منوچهر والى جرجان ورشح إحدى الحرائر لتزف إليه وحين أراد الخواجة على ميكائيل الذهاب فى سنة اثنتين وأربعمائة (١٠١١) خاطبه محمود قائلا : إن التبانين وتلامذتهم هم من أصدق أتباع مذهب أبى حنيفة ٢٠٩ ولا يمكن الطعن فيهم بأى حال والآن وقد توفى أبو صالح فإذا بلغت نيسابور فاسأل عمن بقى من التبانين وأيهم يليق بغزنة وبمجالسنا فاتملمهم بعطفك وعدهم برعايتنا وحسن اصطناعنا ومعروفنا . فقال : سمعا وطاعة . وعندما جاءوا بتلك الفتاة الحرة إلى نيسابور كنت أنا (أبو الفضل) فى السادسة عشرة من عمرى فرأيت الخواجة المذكور عند قدومه إلى نيسابور فى أبهة وجلال وعظمة وقد أقيمت الزينات وأقواس النصر بحيث لم ير فى نيسابور مثلاً يوماً . وشمل على ميكائيل جماعة التبانين أمثال أبى صادق وأبى طاهر وغيرهم بالعناية ووعدهم بكل خير لدى السلطان ، ثم سار إلى جرجان وبصحبه الفتاة ، وكان معه أميرك البيهقى ليكتب إلى السلطان بما يتم من الأمور ، وكان عندئذ يشغل بالكتابة فى ديوان الإنشاء تحت إشراف عبد الله الكاتب فرأيته إذ ذاك شابا حدثا على أكمل ما يكون ، ثم عاد الخواجة على من جرجان وكان أهلها قد بالغوا فى الاحتفاء به وقدم إلى نيسابور ومنها إلى غزنة .

وفى سنة أربع عشرة وأربعمائة (١٠٢٤) كان السلطان قد أمر حسنك بالذهاب إلى الحج وقال له ابذل العناية فى حق أبى صادق والآخرين عندما تصل إلى نيسابور فلما وصلها احتفى بأبى صادق والآخرين احتفاء بالغاً ووعدهم بالحسنى ، ثم أدى الفريضة وعاد صوب بلخ . وكان السلطان محمود إذ ذاك يقيم

ببائع لإعداد العدة للرحيل إلى قدر خان بعد حلول النيروز ، واصطحب حسك معه الإمام أبا صادق وعددا من العلماء من نيسابور إلى باخ . وكان أبو صادق هذا آية في العلم والحكال ذا فضائل كثيرة بالإضافة إلى معرفته بالشريعة . واستفسر السلطان حسك عن حال التباينين فأجاب : إن أبا طاهر يتولى قضاء طوس ونسا ولم يكن مستطاعا الإتيان به دون الأمر العالى فأتيت بأبي صادق . فقال السلطان نعم ما فعلت . وكانت تشغاهم مهام كثيرة فأعادوا أبا صادق . وفضلاً عن ذلك فلم يكن حسك ليريد أن يذهب به إلى مجلس السلطان لأنه كان قد صمم في نفسه كما ذكر ذلك لأبي صادق بنيسابور أن يبني له مدرسة عظيمة في قمة جبل زنبيل بافان ويقيمه لتدريس العلوم فيها ، ولكن ينبغي أن يعلم أن الفضل مهما أريد إخفاؤه لا بد وأن يظهر يوماً ما هو كرائحة المسك لا استطاع إخفاؤها ، فاتفق أن اختلط أبو صادق ٢١٠ مع أبي العباس قاضى باخ والقاضى على الطبقاتي " وآخرين من علماء باخ وطرح على بساط البحث مسائل معقدة للغاية في الخلاف ، فبرز أبو صادق إلى هذه المسائل وحاز في حلها قصب السبق بحيث أقر هؤلاء العلماء بأنهم لم يروا قبل عالماً مثله وأبلغ أبو بكر الحصيري وأبو الحسن الكرخي هذا الأمر إلى السلطان محمود فسر بذلك سروراً بالغاً واستدعاه إليه وراه ، ثم أقيم في حضرته مجلس علم ، أعجب به السلطان أيما إعجاب ، ثم قال له : ينبغي أن تتأهب للرحيل إلى ما وراء النهر ومن هناك إلى غزنة . وانصرف من هذا المجلس . وقصد السلطان محمود عبور النهر (جيحون) ثم خلع على حسك وأمره بالعودة إلى نيسابور . فقال حسك لأبي صادق إن السلطان يعتزم القيام بأمر خطير فهو ذاهب إلى أرض غربية والأعداء كثيرون ولا يعرف أحد ما يكون وأنت رجل عالم ولم تعتد

(١) كذا ، وأما : الطبقاني . أو الطائفاني بإياء نسبة إلى قرية من قرى بلخ (باغوت)

على ... فياض حاشية ١ .

الأسفار فلتعد معى إلى نيسابور عزيزا مكرما كيلا تتعرض إلى الأخطار ،
فإذا ما أتم السلطان هذه المهمة وعاد إلى غزنة أذهب بك إليها ، فذهب أبو صادق
معه إلى نيسابور . واجتمع السلطان محمود بقدر خان وعاد فى الصيف إلى غزنة
واعتزم السفر إلى سومنات ، وأمر أن يكتب إلى حسنك بالبقاء فى نيسابور
لأننا عازمون على الغزو فى بلاد بعيدة على أن تحضر إلى غزنة بعد عودتنا
إليها سالمين . فذهب السلطان وغزا سومنات وعاد سالما مظفرا منصورا وأرسل
فى طريقه إلى حسنك ليسارع إلى الخدمة على أن يصحب معه أبا صادق التبانى
لحاجة مجلسنا إليه . فسار حسنك من نيسابور تصحبه كوكبة عظيمة من الفقهاء
والقضاة والأكابر والأعيان لتقديم التهانى إلى السلطان فوجدوا منه الرعاية
والخلع وحصل كل على قدر مرتبته ومنزلته . ومن ثم قفلوا راجعين إلى نيسابور .
وأمر السلطان بإبقاء أبى صادق وشمله بعطفه وعنايته وعين له ماهية ، وبعد مدة
وجيزة أسند إليه منصب قاضى قضاة ختلان حيث كانت هنالك بضع وعشرون
مدرسة مع أوقافها ، وعاش طوال أيامه هناك ملكا مهيبا مطاعا ، وبقى هنا ، أى
فى الحضرة العلية أدامها الله ، فليبقه الله كذلك لجزيل نفعه ، وسكن فى رباط
مانك على ميمون ، وعهد إليه الملوك بمهام جليلة وانتدب من قبلهم رسولا
مرات عديدة . وحينما أشرع ٢١١ فى بيان أحوال الملوك سأوضح ما قد
أمرؤنى به إنشاء الله تعالى وأخر فى الأجل .

وحينما قصد السلطان مسعود الرحيل من الرى إلى نيسابور كان أبو طاهر
التبانى يقيم هنالك واستقبل هو والقاضى أبو الحسن بن القاضى الإمام أبى العلا
السلطان على عدة مراحل من نيسابور وقد طلب هذا من السلطان أن يجعله قاضى
قضاة الرى وتلك النواحي فأجيب إلى طلبه ، ولكن السلطان بعد أن وصل إلى
نيسابور وحضر إليه القاضى أبو طاهر قال له : كنا قد عزمنا على إيفادك إلى

الرى لتكون قاضى القضاة فيها ولكننا قد استعمانا أبا الحسن فى هذا المنصب الآن
فيجب أن تكون معنا حتى نعهد إليك بمنصب قاضى قضاة نسا وطوس بعد أن
تستتب الأمور ويكون نوابك هنالك ، وسنضم إليها قضاء نيسابور ، وسوف
نبعث بك لمهمة خطيرة كبرى فى تركستان لأمر العهد والعقد . وبعد الفراغ من
هذه المهمة تهود إلى نيسابور بالخلعة والإكرام حيث تقيم بها فى منصب القضاء
ونوابك فى نسا وطوس فإن ثقتنا فىك كبيرة . فقام بالخدمة وعاد مع السلطان
إلى هراة واستقرت الأحوال . وارتحل السلطان إلى بلخ وانتهت الأمور إلى
ما ذكرته من قبل واختير هذا القاضى ، أبو طاهر ، رحمه الله للذهاب إلى
كاشغر بالتركستان مع الخواجة أبى القاسم الحصىرى سلمه الله لمقابلة قدرخان .
والآن وقد انتهينا من سرد قصة التبانين ، فسأذكر الرسائل والمشافهات
الاطلاع عاها إنشاء الله تعالى .

ذكر نسخة الكتاب والمشافهتين مع الرسولين

المذكورين الموفدين إلى تركستان

بسم الله الرحمن الرحيم . مد الله فى حياة الخان الجليل ، وبعد ، عقب
وصولنا إلى بلخ سالمين منتصرين واستقرار كل أسباب الملك أمرنا برسالة تتضمن
ما يسر الله لنا من فتوح وغزوات عظيمة لم تخطر ببال أحد ، وذلك منذ أن
بلغنا ٢١٢ إصفهان حتى الآن ، وقد أرسلت هذه الرسالة مع فارس مسرع
للقوف على مضمونها حتى يشاركنا الخان المسرة والمتعة نظراً للود والاتحاد
القائم بين الأسرتين ، وقد أشرنا إلى أننا سوف نرسل على الأثر رسلاً لعقد
العهود والمواثيق طلباً لزيادة قوة دعائم الصداقة التى تبشمننا من أجلها عناء
كبيراً . وقد أوفدنا إلى الخانب أخانا ومعتدنا أبا القاسم إبراهيم بن عبد الله

الحصيرى أدام الله عزه وهو من جملة ثقات مجلسنا وفي درجة خواص ندمائنا وقد كان موضعاً لعطف وتعمير أيدنا السلطان الماضى أنار الله برهانه الذى كان يشاوره فى شئون الملك ، وهو اليوم خير ذخيرة للقيام بأعمالنا وقد ظهرت لدينا كفايته وقدرته ، فأوفدناه ليبايع أزكى سلامنا وأطيب تحياتنا إلى الخان وليبدأ بما كلف به ، ثم يعود بعد أن يتم لإنجاز مهمته بصورة مرضية على أساس قويم وقاعدة صحيحة ، وضممنا إليه القاضى أبا طاهر عبد الله بن أحمد التبانى أدام الله توفيقه حتى إذا بدىء العمل فى إبرام العهد والعقد يعمل القاضى النظر فى النسخة التى مع الرسول بحيث تكون شروطها وفقاً لقواعد الشرع . وهذا القاضى من أعبان علماء الحضرة ، وقد شغل مناصب خطيرة وقام بسفارات جليلة وقد ظهر فى كل منها إخلاصه وتدينه . وقد حملنا الرسول أبا القاسم مشافهة أكثر وضوحاً وتفصيلاً ، على أن يعرضها عندما يؤذن له بذلك ، ومشافهة أخرى فى موضوع أكثر أهمية وسوف لا يعرضها إذا لم يجر حديث عنها ولكنه سيعرضها ضرورة إن جرى حديث بشأنها ، لتتم بذلك الأغراض جميعاً . وثقتنا بأبى القاسم قوية بحيث إذا دعى الأمر إلى التوسع فى السؤال والجواب يكون قوله بمثابة كلامنا . فقد تحدثنا معه عدة جلسات فى كل ما يمكن أن يدور الكلام حوله وتلقى منا الأجوبة القاطعة فى كل باب حتى لا يحتاج الأمر إلى أن يترىث لاستطلاع رأينا حتى يتم الأعمال كلها ويعود . وهو يحمل معه بعض الهدايا التى جرت الرسوم فى كل وقت بتبادلها والتهادى بها بين الجانبين فإذا لوحظت بعين الرضا استترت عيوبها ، والمأمول من كرم المقام الجليل أن لا يتأخر الرسل وأن يعادوا بالمراد ٢١٣ سريعاً ، فإن أهل البلدين العظيمين شاخصة أبصارهم نحونا ليروا توطيد دعائم الود بيننا . فإذا ما آب الرسل إلينا بالمراد فينبغى أن يكون معهم رسل ذلك الجانب المحروس ، وإنا عند وصولهم

إلى حضرثنا سوف نبذل كل ما التمسناه لديكم من الصداقة والاتحاد بإذن الله عز وجل .

المشافة الأولى

يا أخى ومعتمدى أبا القاسم إبراهيم بن عبدالله الحصرى أطال الله بقاءك، ينبغي بعد أن تصل إلى مجاس الخان أن تبلغه سلامنا بالتوقير والتعظيم، وأن تقدم الهدايا التى أرسلت معك كدليل على الحب والعهد وإن تعتذر عن تفاهتها بأبلغ تعبير، وقل إن هذا الشيء الحقير إنما أرسل مراعاة للآداب، وقدم الاعتذارات أثر ذلك، وستقدم الهدايا واللطائف الجديرة بالجانبين، ثم قل له: إن الخان يعلم أن الناس اليوم فى الإقليمين العظيمين اللذين هما تحت حكم كل منا نحن صاحبي الدولة وكذلك الجانب من قريب وبعيد شاخته أبصارهم من كل صوب ليروا ما حصل بيننا من صلوات الود والصفاء، حتى إذا ماتا كدت عرى الاتحاد والألفة بين أسرتينا اللتين هما فى الواقع بحمد الله بيت واحد فرح بذلك أصدقائنا والأخيار لأنهم سيقضون الأيام فى أمن ودعة وفراغ بال، واغتم الأعداء والمفسدون وانكسرت قلوبهم إذ يروا سوقهم نافقة وبضاعتهم كاسدة. فالأولى والأفضل أن يكون بيننا نحن الصديقين عهد وثيق يؤكد عهد من الجانبين، فإذا ما تحقق الامتزاج والتواصل بيننا انقطع القيل والقال ونفقت سوق المفسدين والمذبذبين وثلت أضراس أعداء الجانبين إذ يعملون تعاطف قلوبنا وتعاوننا فيعرفون أن لا مجال لهم بيننا ولن يبلغوا مرادهم بأى حال، ويعرفون حين تتأكد الصداقة بيننا أننا سیتسنى لنا بالمعاونة والموافقة من الجانبين الاستيلاء على ولايات جديدة والقيام بغزوات خطيرة بعبدة فتبتهج بذلك أرواح الملوك الماضين رضى الله عنهم أجمعين ويرضون عنا لإحيائنا سنتهم فى الغزوات وتشملنا وأولادنا بركاتهم وبعد أن تنتهى من تقرير هذا الفصل ويميل الخان إلى إقرار العهد تأ ٢١٤ خذ

منه وعدا يوم يراه مناسبا لإبرامه ثم تاتمس أن يحضر بمجلس الخان
الأعيان والمعتمد من حشم ذلك الجانب الكريم وكذلك أعمامه وإخوانه
وأولاده أدام الله تأييدهم كما يحضر ذلك المجلس أيضا أعيان القضاة والعلماء ،
ولتذهب أنت هناك ومعك أبو طاهر حتى تقرر الشروط ، ولتخير الخان أنه
عندما يتم هذا العهد ويصل بصحبتك الرسل الموفدون من قبل المقام الكريم إلى
حضرتنا وينالون لقاءنا فإننا أيضا سنوقع عهدا بماثلا لما عرضناه عليكم والذي هو
معكم حتى لا يقع فيه زيادة أو نقصان . ومن الضروري أن لا يحدث تغيير
أو تحريف في نصوص العهد ، لأن الغرض كله الصلاح ، وليس من العيب
الإلحاح في أعمال عظيمة كهذه ، لأن العهود كلها كانت أكثر إتقانا كانت أكثر
فائدة وإحكاما . وإذا تكلم أحد معتمدى ذلك الجانب في باب من تلك الأبواب
فأحسن الإصغاء إلى كلامه ثم أجبه بما يستحق ولتناظره فيما يجب دون محاباة ،
لأن حكم المشاهدة تمت في يدك . وسنرضى عن كل ما تصنعه ونوقع كل ما تراه
صوابا . ولكن يجب أن لا يكون فيما نوافق عليه إضرارا بمصاحبة الدولة وإذا
ما عرضت لك مسألة أكثر إشكالا ولم تكن قد تلقيت أمرا بشأنها وتحيرت
فيها فينبغى أن تستطلع رأينا وترسل الرسائل مع السعاة المسرعين حتى نُحل تلك
المسألة فإن المهمة التي تقوم بها عظيمة ويمكن أن لا ينتهى بحثها في جلسة أو اثنتين
أو أكثر ، ولا ضير في أن تتأخر في الوصول إلى الحاضرة لأن العبرة في أن
تصل وأنت منجز عملا ناضجا لا يستلزم المراجعة . وعند ما يتقرر العهد يطلب
القاضى أدام الله سلامته من الخان أن يجرى على لسانه تلك الشروط والأيمان
التي سجلت في نسخة العهد ، وأن يكون ذلك بمشهد من الحضور وليأخذ القاضى
الحيطة التامة ليكون ما بالعهد مطابقا لمقتضى الشرع وليسجل الأعيان شهادتهم ،
وبعد أن يتم إنجاز العهد بخطهم كالمرسوم قل للخان : حيث أنه قد تم بيننا عمل
على هذه الدرجة من الكمال وسينال أعقابنا بركاته فإننا نرى أن يكون لنا من

جانب الخان مصاهرتان ، إحداهما باسمنا والأخرى باسم نجلنا أبي الفتح ٢١٥
مودود دام تأييده أكبر أبنائنا وولى عهدنا في الملك وينبغي أن تكون الوديعة
التي تسمى باسمنا من كرائم بنات الخان المخدرات وأن تكون الأخرى
من كريمات ولى العهد الأمير بغراتكين . على أن تكون العقيلتان الكريمتان
كريمتي الطرفين . فإذا رأى الخان لكرم نفسه وسماحة أخلاقه إجابتنا إلى
هذا الطلب الذي لا تجيز المروءة والشهامة رده بأي حال ، فليعلم أننا سنستمع إلى
كل ما يطلبه منا ، وذلك لكي تتأكد بيننا هذه الصداقة بصورة لا تشوبها
أحداث الزمان ، فإذا استجاب ، ويقيني أنه يستجيب إذ ليس في الزمن عظيم مثله ،
فاطلب موعدا ليوم آخر يتم فيه باليمن والبركة هذان العقدان واصحب معك
العاضي أبا طاهر لإتمام العقدين وإنجاز كل ما من شأنه أن يتفق وأحكام الشرع
وفرائضه ، على أن يكون صداق وديعتنا خمسين ألف دينار هروى وصداق
تلك التي باسم نجلنا ثلاثين ألف دينار هروى كذلك ، وأوعز بعد عودتك من
مجلس العقد إلى القائمين على الخزائن معك ليحملوا الهدايا والصلات المرسلة
معكم ويسلموها فوديعتان لكل من الخان وولى العهد والخواتين (السبندات)
وأمهات الوديعتين ومثابها للأعمام والأقرباء والحشم أدام الله تأييدهم وحفظهم
جميعا ، وذلك كما في الثبت الذي معك . وقدم العذر بقولك إن ما قدمته اليوم
ليس أمرا جليلا وإنما هو من باب العمل بالآداب والرسوم . وعندما ترسل
المهود لحمل العقيلتين يصحبهما ما تقتضيه الرسوم والعادات المرعية وما يليق
بالجانبين الكريمين في مثل هذه الأحوال ، ولينظر الآن لهذه الهدايا بعين الرضا.
وبعد الانتهاء من جميع هذه الأمور وإقرار كل هذه الأحوال استأذن للعودة
واصحب رسل الخان إلينا حتى إذا وصل الجميع سالمين اقتدينا نحن أيضا بالخان
فنقوم بكل ما هو واجب وما من شأنه أن يوثق المودة والوفاق إن
شاء الله تعالى .

المشافة الثانية

٢١٦

يا أنخى ومعتدى أبا القاسم الحصىرى أطل الله بقاءك ، لعامهم يسألونك
 عن حكاية أخينا الأمير أبى محمد أدام الله سلامته فيقولون : فى الزمن الذى
 حصلت فيه المقابلات والمعاهدات فى سمرقند ، كان هناك عهود وصلات باسم
 أخينا وهى مما لا يخفى خبره والبوم ماذا ينبغى عمله من أجلها ؟ إذ أن الشرع
 لا يجوز بقاءها مهمة بأى حال من الأحوال . فإذا لم يذكروا عنها قليلا أو كثيرا
 وراعوا جانبنا فيها وتركوا الأمر لنا فلا تتحدث أنت أيضا بشيء عنها حتى
 يحضر إلى بلاطنا رسل الأمير الكريم بصحبته فإذا تكلموا ثمت فيها يرد
 عليهم حينئذ بما يليق . فإذا طلبوا منك جوابا فما قد بينا ذلك حتى يتبين لك
 أسلوب جوابك فى هذه المشافة ولا تحتاج إلى رأينا فى شيء منها ، فقل لهم
 لم يكن خافيا ما كان عليه السلطان الماضى أنار الله برهانه من إعزاز لنا ورعاية
 وتفضيل فى عهد طفولتنا على جميع أبنائه وأنه قد اختارنا فى عام ست وأربعمائة
 (١٠١٥) لولاية عهده بعد مدة من انتهائنا من المدرسة ، ثم أخذ العهد والميثاق
 والأيمان أولا من أخويه نصر ويوسف وبعد ذلك من الأقرباء والموالى
 والحشم على أن يكون العرش لنا بعد وفاته . واتخذ لهذا الأمر كل ما يجب من
 الحيلة والعهد فأسند إلينا ولاية هراة وإلى أخينا ولاية جوزجان بعد أن أخذ
 عليه العهد والأيمان بأن يكون تحت إمرتنا وأن يعمل بطاعتنا عند اعتلائنا
 سرير الملك ، كما أمرنا بكل ما جرت عليه العادة بالنسبة لأولياء العهود من
 الغلمان والأهبة والحشمة وكتخدا يشبه الوزير ومقدم وحجاب وخدم ، وأمرنا
 فى سنة ثمان وأربعمائة (١٠١٧) بالسير إلى هراة قاعدة خراسان فدخلناها
 وحضر لدينا بأمره الحشم والقضاة والعمال والأعيان والرعايا واستمعوا إلى
 حديثنا ، وكان غرضه من ذلك أن يعلم القريب والبعيد بأننا ولى عهده وخليفته

من بعده ، فلبثنا مدة في هراة وأتمر الناس جميعا بأمرنا في خراسان . ٢١٧ إلى أن أوغر الحاسدون والمساكرون قلب ذلك العاهل رضى الله عنه علينا فحاكوا من الدسائس ما لم يأت الله بشيء منه أبدا ، ولم يمر شيء منها بخاطرنا ، واحتالوا شتى الحيل حتى حولوا جميل رأيهم فينا فابتاع كل ما حاكوه لنا . ولعل الطبيعة البشرية التي لا تسطيع أن ترى الشخص الذي يليق بأن يحل محل صاحبها هي التي دفعت به إلى أن يجفونا ، فاستدعانا من هراة وبعث بنا إلى مولتان حيث بقينا هالك مدة كالسجين رغم أنه لم يكن سجننا بالاسم ؛ ورفع منزلة أخينا ، وغمره بإحسانه ومنحه صنوف المعهم خطأ من شأننا ، إلا أنه مع كل ذلك لم يسقط عنا ولاية العهد ولم ير في تغييرها وتبديلها رأيا فكان ينهر حسادنا وخصومنا الذين كانوا بشيرون في أحاديثهم من طرف خفي إلى هذا الغرض ، فصبرنا مفضيين أمرنا إلى الله تعالى حتى منّ علينا بفضله وعطف قلب السلطان رحمه الله علينا فأدرك يفينا كل ما دبروه ، وكنا أبرياء ولم نقترف ذنبا ، فقد حاكوا أمثال هذه المكائد في عهد جدنا الأمير العادل ، أدرك السلطان ذلك وجرى على لسانه : لقد لحق مسعودنا منا ظلم كما لحق بنا من أيدينا . فاستقدمنا من مولتان وأفاض علينا الكثير من عطفه وأرسلنا ثانية إلى هراة . على أنهم مع كل ذلك لم يرضوا ببقاء قلب السلطان راضيا عنا ، فأخذوا يتقولون مرة بأني أطلب البيعة من الجند لنفسى ويقولون أخرى بأني عازم على السير إلى كرمان والعراق ، ومن هذه الأقوال وأمثالها تغير قلب السلطان علينا ثانية فأخذ يتابع إرسال العتاب إلينا ، ويعيرنا بمحاسن أعمال أخينا ، وكنا نصبر على كل ذلك ، فإن الله تعالى لا يضيع أجر من استقام وصبر وتوكل عليه وأحسن عملا . وبلغ من شدة تدليسهم وتزويرهم أن ساوى السلطان بيني وبين أخى في كافة مراسيم القصر من ذهاب وجلس وإياب في الأوقات التي كان يستدعيني فيها إلى غزاة كل عام . بل لقد أمر أن أكون مقدما يوما على أخى وأن يتقدم أخى

على يوما آخر . وذلك في تلك ٢١٨ المدة التي كنا فيها في الدركاه ، كما كان يرسل إلى كل يوم قليلا أو كثيرا من اللوم والوبوخ بينما كان يبعث إلى أخى بالتقدير والثناء . وفضلا عن ذلك فإنه عندما طلب^(١) لى ولأخى ولعمى يوسف زيادة الألقاب من الخليفة أمر بتقديم اسم أخى على اسمى ، فلم اضطرب وقلت لا يسوغ غير هذا ، فسكت على ذلك حتى لا يذرعوا بحجة . وعندما بلغ السلطان جرجان في طريقة إلى الرى ووافاه الحاجب الفاضل العم خوارزمشاه هناك وكانت نيته تهدف إلى أن يتركنى فى الرى وأن يختص أخى بخراسان وقاعدة الملك استشار خوارزمشاه وأعيان الجيش فى ذلك ولمالم تسكن لهم الجرأة على إبداء رأيهم التمسوا أن يذهبوا ليتداولوا ويرسلوا إليه برأيهم فأجيبوا إلى ملتصمهم ، وطال الأخذ والرد فيما بينهم حتى استقر رأى على أن يبرم عهد بينى وبين أخى ، يقضى بالألا يقصد أحدا الآخر بعد وفاة والدنا ، فلم يجد مسوغا لإسقاط لقب ولايه العهد عنى بأى حال . ثم تقرر أن يؤدى أخى نصيبى بتمامه . فأوفد أخى إلى خراسان واصطحبني معه ، وضبط تلك النواحي وعهد بأمرها إلى ثم عاد بسبب ما اعتراه من مرض كان نديرا بقرب الأجل وتركنى فى الرى دون جند وعتاد حتى يطعم فىنا كل طامع ، وتسوء سمعتنا ونرجع عاجزين فتقطع بنا الأسباب ، ولكن الله تعالى أيدنى بفضله كالعادة فتحققت آمال كثيرة فى شتاء واحد كالقتال مع ابن جهان والقبض على قائد طارم ثم ضربى لابن كاكو والاستيلاء على إصفهان بما هو معروف راضح لدى الخان . وإن لم تكن هذه معروفة لديه تماما فسوف يقوم بشرحها أبو القاسم الحصيرى فإنه عارف بها . وكنا قد عقدنا النية على السير من هنالك إلى همدان

(١) يرجع فى هذا إلى « زين الأخبار » ص ٦٩ . وفى « سياست نامه » ص ١٠٧ حكاية

فى هذا الباب « غنى — فياض حاشية ١ .

وحلوان وكرمانشاهان وبغداد ، لولا أن بلغنا بإصفهان نعي والدنا السلطان العظيم والركن الفويم رضى الله عنه ، فتغيرت القواعد وكنا قد صممنا على أن نحفظ وصيته ولا نخالفها فى شيء ولـكـهـم حالوا دون ذلك فاضطررنا إلى أن نعود إلى خراسان فى عقر دارنا ، الأمر الذى بسطناه ٢١٩ تماما على يد فارس وأساط به الخان خبرا . واليوم وقد استقر أمر الملك علينا وجوبا واستسلم أخونا الذى كانت سيرته فى حياة والدنا كما شرحناه فى هذه المشافهة وجرى ما جرى بعد وفاة الوالد فتمكنت من رأسه شهوة الملك وطمع الحكم والجلوس على العرش وتبديد الأموال الطائلة ومنحها فكيف يصح أن يظل والحالة هذه طلبقا ، ذلك لأنه من المستحيل أن يستوعب غمد واحد سيفين فى آن واحد ، ومن صالحه وصالح الجيش والرعية أن يبقى بأمرنا فى مستقر أمين مشمولاً بأتم رعاية ، فإن إطلاق سراحه يؤدى إلى اضطرابات خطيرة ، وبعد أن تمضى مدة تستقر الأمور فيها على خير وجه ، سوف نتخذ بحكم المشاهدة وظروف الأحوال ما قدر الله عز وجل فى شأنه . ونحن بعد وقوف الخان على هذه المشافهة نعلم أنه بمقتضى العقل الراجح ومقومات الإمارة والحكم التى من الله بها عليه سوف يعذرنا فيما قلنا ولا يرى أن يذكر العقد الذى كان باسم أخى معه ، أدام الله نعمته عليه . فإن الخان يرعى اليوم مصالحنا رعايته لشئون نفسه ونسأل الله عز ذكره أن يوفقنا إلى دوام هذه الصداقة القائمة بيننا إنه خير موقع ومعين . وإذا لم تدع حاجة إلى ذكر هذه المشافهة التى أتى فيها ذكر العهد مع أخينا ولم ينظروا إليها فمن الأولى تركها . ولكن إذا جرى الحديث بشأن هذه الأحوال فإن فى هذه المشافهة الإجابات القاطعة فاشرحها حتى يقتنع بها ، وقل كل ما ترى واجبا بيانه فإنك المشاهد لكل الأحوال والخير الذى لا يخفى عليه شيء ، حتى لا يبقى باب الكلام فى هذا الأمر مفتوحا بعد ذلك إن شاء الله عز وجل .

هذه كانت صورة الرسالة والمشافهتين التي يتم بقراءتها وإمعان النظر فيها فوائد كثيرة إن شاء الله تعالى . ومن ثم اختلى السلطان مسعود رضى الله عنه ٢٢٠ بالوزير الخواجة أحمد حسن وأبى نصر مشكان صاحب ديوان الرسائل وامتدت الخلوة التي دعى إليها الرسولان حتى صلاة العصر وتكلموا فيما ينبغي الكلام بشأنه مع الرسولين وأصدروا الأوامر في كل باب وأحضروا قوائم الهدايا بما ينبغي أن يهدى في اليوم الأول لمقابلتهما الخان وما يجب تقديمه عند عقد الزواج . وكانت كلها من الهدايا الفاخرة الجليلة حسب الرسم تشتمل على كأسين من الذهب المرصع بالجواهر وعقود من اللؤلؤ وملابس نسجت بالذهب ، وأخرى من كل نوع ، رومية وبغدادية وإصفهانية ونيسابورية ، وقطع متنوعة من الأقمشة المقصبة وعلب من المسك والعنبر والعود وعقدين من الجواهر المسمى بالدر اليتيم . وكانت هذه الهدايا باسم الخان وابنه بغراتكين والأميرات والعروسين والأعمام والحجاب والحشم . وقد أحضر كل هذا حسب القوائم من الخزان وعرضت للعيان ثم سلمت بعد ذلك للرسولين . ثم ناد الرسولان بعد أن تقرر أن يذهب معهما بأمر السلطان خازن مع مساعديه وثلة من حمالي الخزينة . وأحضر أبو على القائم بشئون استضافة الوفود والرسل وسلكوه الخلعين الفاخرتين لهما مع الرسولين . وبعد أن تم إعداد كل شيء تحرك الركب من بلخ في يوم الخميس لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) .

وسأذكر حديث هذين الرسولين في موضعه وما جرى بعد وصولهما إلى كاشغر لدى قدرخان ؛ وحديثه معهما عن العهد وشئون الزواج والعقد المحمدي والفترة الطويلة التي بقيها ههناك وما جرى من المفاوضات ومجيء الرسل والسعاة الذين جاءوا يحملون الرسائل ثم عودتهم بالإجابة عنها إلى نهاية ما استقرت عليه الأمور إنشاء الله تعالى .

ذكر القبض على أريارق الحاجب صاحب جيش الهند

وكيف جرى ذلك إلى أن قتل بيلاد الغور

رحمة الله عليه

ذكرت قبل هذا كيف لعب الغرور برأس أريارق صاحب جيش الهند في عهد السلطان محمود رضى الله عنه وكيف ألقى القبض عليه وهو يتأهب لرفع راية العصيان ، كما ذكرنا ٢٢١ أنه لم يرضخ لحكم الأمير محمد ، وكيف استقدمه الأستاذ الرئيس أحمد حسن بالحيلة من الهند آنذاك وما قال الوزير عند مقابلته للسلطان : إذا كان هنالك حاجة للهند فيجب أن يبعد عنها أريارق . كما بينا كيف كان يحضر أريارق كل يوم إبان وجوده في غزنة إلى الحضرة بصحبة الغازى السهسالار ومعهما زمرة من المقدمين والجنود المدرعين ، وكيف كان خاصة السلطان محمود من رجال الحاشية يضايقهم أن يشاهدوا مظاهر التجلة والتعظيم التى يعامل بها هذان الرجلان اللذان لم يكن لهما شأن يذكر فى عهد السلطان محمود واللذان لم يكن لهما من يقوم بتدبير شئونهما من الكتاب المجربين ممن ذاقوا حلو الدهر ومره ، وأى خير ينتظر من أمثال سعيد الصراف وشرذمة الخدم الخاملين . هذا ومن شأن الأتراك أن يجمعوا حولهم أناسا من هذا الطراز لا تجربة لهم ولا رأى أو بصيرة ، فيورطون أنفسهم ومن ثم يبوئون بالندامة والخذلان ولات حين مناص مع أنهم بطبيعتهم أسخياء نشيطون لا يعوزهم شئ من أسباب الزينة والترف ومظاهر الحياة ، ولكنهم لم ياجأوا إلى ركن وثيق للكتابة والتدبير ولم يفرقوا بين يومهم وغدهم . وقصارى القول أن خاصة محمود حين وقفوا على جليلة الأمر وعرفوا مواطن ضعف هذين الرجلين أخذوا يحكيون البسائس ويكيدون للإيقاع بهما ، وكانت

نتيجة إحدى تلك الدسائس أن أوعز السلطان إلى عبدوس ليغرر بمقدمي
الأميرين المذكورين حتى جىء بهما سرا إلى حضرة السلطان فتسلماهما ببالغ
عطفه وكلفهما بأن يراقبا سيديهما وأن يعدا أنفاسهما ويخبرا عبدوس بكل
بكل ما يعرفانه أو يسمعهانه منهما كي يخبر به السلطان، فأنخدع الساذجان الخاملان
بما لقياه من عطف السلطان إذ لم يدر بخلد هما رؤية مثله حتى في المنام ولم يفكرا
في أنه إذا سقط سيدهما يوما فسيمسيان أذل من النعال وأخس من التراب، وأنى
لهما أن يفكرا في ذلك ولم يسبق لهما طلب العلم أو مطالعة الأسفار؛ فبادرا إلى
القيام بما طلب منهما وأخذوا يفضيان إلى عبدوس ٢٢٢ بكل ما يسمعهانه إن صدقا
وإن كذبا. وكان استيلاء السلطان يزداد ثما يسمعه عن أريارق كما أخذت مكانة
الغازي تتضاءل في نظره إلى حد ما، فازدادت بذلك جرأة أصحاب محمود
وأخذوا يخوضون في حقهما ويتكلمون عنهما في حضرة السلطان الذي كان
يصغى إليهم ويسمع منهم، وبهذا مجحت خطتهم والوا ما كانوا يأملون، واتفقوا
هيا بينهم على أن يبدوا بإسقاط أريارق، فإذا أسقطوه وبقي الغازي وحيدا،
أمكن إسقاطه هو الآخر أيضا. واتفق أن اطلع خاصة محمود على كلام فاه به
الكتخدايان المذكوران يفخران، وكانا ثماين، بأنهما من عبيد السلطان وتحقق
لدى المحمودين أنهما انخدعا فسارعا إلى استمالتهما وإكرامهما وإطعامهما
وإفهامهما بأنه لو زال يوما ظل الأميرين أريارق والغازي عنهما فإن السلطان
سيسند إليهما المناسب العالية.

وكانت المحنة الثانية أن السهسالار غازي مع أنه كان داهية لا يستطيع
إبليس لعنه الله أن يغرر به^(١) وكان لا يشرب الخمر فقال إليها بعد أن نال أمنيته

(١) استخدم العرب الفارسي عبارة ترجمتها الحرفية : لا يستطيع إبليس أن يقتل جباله .

وامتلاث جعبته^(١) وأفرط في تناولها . فلما علم السلطان بذلك سقاها شراباً كثيراً والشراب آفة خطيرة ولا سيما إذا جاوز حده ، ومن اليسير إنجاز كل أمر مع المدمنين على الشراب المفرطين في احتسائه . بدأ الغازي لأنه كان سهوئالاً راياً يظهر العطف على الجنود ، فأخذ يدعو كل يوم منهم فوجاً إلى داره ويكرمهم بالصلوات والشراب وكان أريارق في ضيافته ، وكان أكابر جند هذين القائدين يمتدحونهما بالتركية عندما تتمكن منهما سورة الشراب ويدعون الحاجب الأكبر بلكاتكين بالمخنث وعلى دايه بعلى مائه (أى الأنثى) وقائد غلمان الخاصة بكتغدى بالأعمى الأعرج كما كانوا يصمون الآخرين بغير ذلك من المذاب وسقط القول .

وقد سمعت بعد القضاء على هذين القائدين عبد الله ، كتحدا بكتغدى ، يقول : كان السلطان يلهو ذات يوم بالشراب ولم يستقبل أحداً وعاد الغازي وأريارق معاً يصحبان معهما جمعاً من الناس وبادروا إلى الشراب ، فأرسلنى الأمير بكتغدى سرا إلى بلكاتكين وعلى لأقول لهما لقد تجاوز هذان الخاملان حدهما فإذا رأيا أن يركبا بحجة الصيد مع عشرين من الغلمان حتى يوافيهما هو مع أبى عبد الله وشرذمة من الخدم ليدبروا لهذا الأمر حلاً ، فقالا هذا رأى جد صواب لنذهب إلى جانب ميخواران حتى ٢٢٣ يحضر القائد ، ومن ثم ركبوا ومضوا وركب بكتغدى أيضاً وأخذنى معه وذهبوا بالصقور والفهود وشتى أنواع الجوارح ، وبعد مسيرة فرسخين وقف هؤلاء الثلاثة على ربوة مع ثلاثة من الكتخدائية هم أنا وأبى أحمد تكلى كتحدا كبير الحجاب والمدعو أميرك معتمد على ، وأرسلوا الغلمان وحاملى الصقور والصيادين للصيد وبقينا نحن الستة . أما السادة فقد بدأوا الحديث بإظهار يأسهم من السلطان ومن تسلط هذين

(١) فى المص نغبر وهو كيل ووزن وقال إنه معرب كوير أى كوز . غنى - فهاش
حاشية ٣ .

القائدين عليه فقال بكتغدى ومن السجيب أنه لم يكن فى قصور السلطان محمود أحد وقتئذ أحط منزلة من هذين الرجلين . فتنبأ بلخ من انحطاطهما أن قبلا الأرض أمامى ألف مرة ، ولكنهما تشجعا وظهرتا بمظهر الرجولة وكان الغازى متملقا من المتملقين بينما كان أريارق حماراً من الحمير ، إلى أن رفعهما السلطان محمود مقاماً عليا ، فصارا وجيهين ، أما الغازى فقد أدى خدمات جلى للسلطان الحالى إبان وجوده فى نيسابور فتمت له بذلك هذه المنزلة الرفيعة ، ومع أن السلطان يكره أريارق ويحب الغازى فإنه من الممكن أن يتغير على الغازى بعد تورطه فى اللهو والشراب ، إلا أنه لا يمكن العمل على إسقاط هذا مالم يسقط أريارق قبله ، فإذا بقى أحدهما فكأنما سقط كلاهما واسترحنا من شرهما . فقال كبير الحجاب وعلى : التدبير أن نهىء شرابا أو أن يغتال رجل أريارق علنا . فرد القائد بكتغدى : لا فائدة فى هذين التدبيرين وليس من المستطاع تنفيذهما بل سنذهب ريحنا ويؤدى ذلك إلى ارتفاع شأنهما والرأى عندي أن يؤجل هذا ونُصادقهما فى الظاهر على أن نكل بهما أشخاصا يدسون الدسائس ويهولون فى كل ما يقوله الأتراك وهذان القائدان ويعرض ذلك على السلطان ونرى إلى أين تنتهى الأحوال . فتواطئوا على ذلك وعاد الغلمان وعمال الصيد وكان اليوم ضحى وفتحوا الحقائق الممدة لوسائل السفر وأكل السادة والحاشية والغلمان والأتباع ثم عادوا وساروا للإيقاع بالرجلين حسب التدابير التى كانوا قد أعدوها ، ومرت بضعة أيام على هذه القصة فتغير قاب السلطان على أريارق واعتزم الإيقاع به ، فاختلف بالوزير وأخذ يعدد أخطائه قائلا : ٢٢٤ سوف يصل الأمر إلى حالة تؤدى بالغازى إلى التهلكة فإن السلطان لا يحتمل مثل هذه الأمور وليس من الجدير أن يتنكب القادة سواء السبيل وإن أبناء السلاطين أنفسهم ينبغى أن لا يروا من حقهم أن يفعلوا مثل هذا ، فمن الواجب اعتقال أريارق حتى يسلك الغازى سبيل الصلاح فإذا يرى الحاجة

في هذا؟ فأطرق الوزير يفكر برهة ثم قال : أطال الله حياة ملك العالم ، إن في ذمتي يمينا ألا أفرط في أى شىء يمس مصلحة السلطان والحديث في أمر القواد والجيوش أمر دقيق يعود الرأى فيه للسلطان وحده ، فإذا رأى الرأى العالى فليعفى من هذه المسألة وحدها وليأمر بما يراه صوابا فإني أخشى أن أخوض فيها بما لا يوافق رأى السلطان فيتغير قلبه على . فقال السلطان : إن الوزير خليفتنا وموضع ثقتنا من بين جميع خدمنا فلا بد من أن نتشاور معه في أمثال هذه الأمور حتى يعرض علينا ما يراه صالحا فنستمع إليه ثم نراجع بذلك رأينا ونأمر بما يكون صوابا . فقال الوزير : نعم يا مولاي الآن يستطيع العبد الكلام ، أمد الله في حياة السلطان ، إن كل ما قيل في حق أريارق سابقا كان في وقته من باب إبداء الرأى وإسداء النصيحة بشأن الحالة في هندوستان ، ذلك لأن هذا الرجل الذى حاز مكانة كبيرة في تلك الأصقاع أخذه الغرور وبدا منه التهور والطيش بما أدى إلى الخط من شأنه ، فقد استقدمه السلطان الراحل ، إلا أنه تمهل وماطل في ذلك وتعلل بشتى الأعذار ، كما أنه لم يذهب أيضا عندما دعاه الأمير محمد وأجاب قائلا : إن ولي عهد السلطان حقا هو الأمير مسعود ، فإذا ما رضى ببقاء أخيه محمد في الحالة الراهنة ولم يسر من العراق إلى غزنة فسوف أكون عند ذلك رهن إشارتك . ثم إنه عندما سمع باسم مولانا وذكرت له كل ما يجب أن يعرفه جاء معي ، هذا ولم أسمع عنه طول مدة إقامته بيننا أمرا يدل على التهور أو العصيان من ناحيته ، وأما هذا التبسط في العيش والظهور بالعظمة والآبهة وتناوله الشراب مع الغازى والآتراك دون أن يبادر بالاستئذان فإنه أمر يسير جدا ، وإنى أستطيع تقويمه في جلسة واحدة معه ، وأرى أنه ليس من اللازم التحدث في مثل هذه الأمور لاسيما وقد اتسعت البلاد في عهد السلطان وأصبحت بحاجة إلى رجال قديرين ، والحصول على أمثال أريارق أمر عسير . هذا ما أراه والامر لمولانا .

فقال السلطان : أجل فهمنا ذلك والأمر كما تقول ويجب كتمان هذا الحديث حتى نتأمله طويلاً . فقال الخواجة : سمعنا وطاعة ، ثم مضى لشأنه .

ولكن أصحاب محمود لم يكفوا عن السكيد والدس بحيث ألقوا في روع ٢٢٥ السلطان ، أن أريارق يسيء الظن ويخشى على نفسه ويتآمر مع الغازي لإثارة فتنة ، أو يعودا من حيث أتيا إذا لم ينجحا في ذلك وفضلا عن هذا فإن الجند في طاعته وهم يأتمرون بأمره . واتفق يوما أن أذن السلطان إذنا عاما فاجتمع الناس كلهم في حضرته وبعد أن انتهى الاجتماع قال السلطان : لا تذهبوا فإننا عازمون على الشراب . وحضر الحفل أيضاً الأستاذ الرئيس والأمير العارض وصاحب ديوان الرسائل ثم طفق الخدم يأتون بالموائد واحدة تلو الأخرى فوضعت مائدة على السرير أمام السلطان وأخرى أمام أريارق والغازي ووضعت واحدة لأبي سهل الزوزني وأبي نصر مشكان معا كما خص كل نديمين بمائدة ، وكان أبو القاسم كثير يجلس في زمرة الندماء ، وقد أعدوا بأمر السلطان الكثير من الحساء المعروف باسم لا كشته^(١) ورشته ولما فرغ هؤلاء العظاماء من الطعام نهضوا وعادوا إلى الإيوان حيث جاسوا وقد غسلوا أيديهم ، وأثنى الأستاذ الرئيس على القائدين خير ثناء . فأجابا : إنا نحس بكامل عطف السلطان علينا ونحن فداء له ولكنهم يقلقون بالنال ولا ندري ماذا نفعل . فقال الأستاذ الرئيس : هذه سوداء وهم باطل سآزيله الآن عنكما فترثا برهة حتى أفرغ ويدعوكما . وتقدم وحده إلى السلطان وطلب الخلوة ثم أفضى إليه بذلك والتمس منه أن يهديه من روعهما ويطيب خاطرهما ويرى بعد ذلك رأيه فيهما . فأجاب السلطان : نعم

(١) لا كشته : جاء في حاشية يب لا كشته ولاخشته نوع من الحساء يطبخ من السماق . وجاء في برهان قاطع أن لاخشته ولاخشه بمعنى تهاج . والتمهاج في ديوان لغات الترك بمعنى حساء من الدقيق . ويقول غنى - فياض - حاشية ١ ، أنه قد يكون الحساء المعروف اليوم باسم الحشك في خراسان .

وأما الرشته فنوع من الحساء . ديوان أعلامه مولانا ص ١٧٥ .

فهمتُ ذلك . ثم أحضر القوم جميعاً وجاء المطربون وبادروا بالغناء والتأحين وبلغ السرور مداه ، وأخذ القوم يتكلمون فيما بينهم شتى الأحاديث حتى حانت ساعة صلاة الظهر ، فأشار السلطان إلى المطربين بالسكوت ، ثم أقبل على الوزير قائلاً : قد أمرنا بتقدير حق هذين الأميرين حتى هذه اللحظة فإننا لو نظرنا إلى الغازي لرأينا أنه قام بأداء أعمال لم ينهض للقيام بمثلها أحد من العبيد وذلك أثناء وجودنا بإصفهان إذ جاء من غزنة إلى نيسابور ، وأما أريارق فإنه عندما سمع بفدومنا إلى بلخ بادر بالحضور إلينا بصحبة الأستاذ الرئيس ، وقد اتصل بنا أن نفرأ من الناس يخوضون في حقهما حسداً فيقاتون بذلك خاطريهما فيجب أن لا يفكرا في ذلك وأن يثقا بقولنا هذا ، فإننا سوف لا نسمع لأحد في حقهم ٢٢٦ قولاً . فقال الخواجة : أجل لم يبق بعد محل للكلام ، وأى رعاية أعظم من هذا الحديث الذي يجري على لسان مولانا . فقَبِلَ القائدان الأرض وقامتا السرير ثم عادا إلى مجلسيهما حيث جلسا في سرور بالغ . ومن ثم أمر السلطان فأتوا بقباءين خاصين مزركشين بالذهب وسيفين بحمائل مرصعة بالجواهر يبلغ ثمنهما كما قيل خمسين ألف دينار ، ثم دعا أريارق والغازي للمرة الثانية وأمر بإلباسهما القباءين ثم وضع بيده حمائل السيفين في عنقهما فقَبِلَا يد الساطان وسريره والأرض أمامه ثم نهضا واستأذنا وركبا وعادا . وسار كل أرباب المناصب في البلاط معهما حتى مقرهما . واتفق أن كانت النوبة لى ، أنا أبو الفضل ، في ذلك اليوم فشاهدت كل ماجرى وعلقت عليه في تقويم تلك السنة . ثم أمر السلطان بعد العودة أن يحضروا كأسين ذهبيين مع الأواني الملائى بالشراب ، وأن يعدوا صحاف النقل وزهريات النرجس للقائدين وقال لأبى الحسن الكرخى النديم : إذهب إلى السهسبالار غازى وستأتى هذه الأشياء فى أثرك ولتأخذ معك ثلاثة من المطربين وقل له : « لقد رجعت من مجلسنا دون أن تتم شرابك فلتتناول الشراب مع الندماء على غناء المطربين . وذهب أبو الحسن للقيام بما .

أمر به ومعه المطربون الثلاثة وحمل الفراشون الهدايا . كما أمر السلطان مظفر النديم أن يذهب إلى أريارق مع ثلاثة من المطربين كذلك وأن يحمل معه مثل تلك الهدايا التي أهديت إلى الغازي .

وذكر الخواجة الوزير فصولاً في هذا المعنى بما كان يحسن القول فيه ، ثم عاد قبيل صلاة العصر وتفرق الباقيون عابدين معنا ، ولبت السلطان في مجلسه إلى قبيل صلاة المغرب ثم نهض ودخل من فوره إلى الحرم ، واشتد حزن أصحاب محمود لما رأوا من هذه الأحوال ، بيد أنهم أو غيرهم لم يكونوا ليعرفوا ما يخبئه القدر ، فقد كان الزمان ينادى بلسان فصيح ولكن لم يسمع نداه أحد :

ياراقد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسجارا
لا تفرحن بليل طاب أوله قرب آخر ليل أجمع النارا

وذهب هذان النديمان إلى القائدين مع كل تلك الهدايا يصحبهما المطربون . فأدى القائدان مراسم التحية ، وبعد أن بلغتهما رسالة السلطان أخذوا في تناول الشراب فرحين مغتبطين ولما أشرفا على السكر قدما للنديمين الخيل المطهمة المألجمة بالسيور المذهبة وغلبانا من الأتراك وأعاداهما مكرمين كما منحوا المطربين ثياباً وفضة وأعاداهم أيضاً . ثم نام الغازي . وكان من عادة أريارق أنه إذا جلس ٢٢٧ للشراب يعكف عليه ثلاثة أيام أو أربعة بلياليها فبات يشرب الليل كله حتى الصباح مغتبطاً بذلك التكريم الذي غمره به السلطان .

وجلس السلطان في اليوم التالي وأذن بالدخول وحضر السهسالار غازي شامخاً بأنفه في موكب عظيم . فلما استقر به المقام سأله السلطان : ولم لم يحضر أريارق فقال الغازي : إن أريارق معتاد على الاستمرار في الشراب ثلاثة

أيام أو أربعة ، ولا سيما بعد ما لقي أمس من عطف مولانا السلطان . فضحك السلطان وقال : لنشرب اليوم نحن أيضاً ولنرسل لأريارق نصيبه . فقبل الغازي الأرض ليعود فقال له السلطان تمهل . وبدأوا في الشراب ثم أمر السلطان باستدعاء أميرك السهيدار الخمار وكان له كلف كبير بالخمر وهو بمن يأنس إليهم أريارق ، وكان السلطان محمود قد أرسله إليه بالهند ليأتي معه إلى الدركاه ثم يعود إلى عمله وكان ذلك في نفس الشهر الذي توفي فيه السلطان محمود كما قدمنا فتقدم أميرك وقال السلطان : سيحمل إليك خمسون من القوارير المملأة بالشراب لتذهب بها إلى الحاجب أريارق وتمتكت عنده حتى يشمل وينام لأنه يحب صحبتك وقل له إنا أذننا أن لا تأتي إلى الحضرة وأن تواصل الشراب كعادتك . فذهب أميرك فوجد أريارق يتدحرج ثملاً كالكرة في البستان وهو يشرب على غناء المطربين فبلغه رسالة السلطان فقبل الأرض وبكى كثيراً وأعطى أميرك والخدم والفراشين مالا وفيرا ، ثم عاد الخدم وظل أميرك عنده . أما السهسالار غازي فقد لبث لدى السلطان بالحضرة حتى الضحى ، ثم عاد ومعه الحاجب ونفر من المقسدين وجلس للشراب ووزع في ذلك اليوم الدنانير والدرام والخل والغلمان والثياب . واستمر أريارق كعادته ينام ويستيقظ ويتناول حساء الرشته ويتبعها بالشراب إذ لم يكن يدرى ما ستفعل به الخمر فلم ينقطع قط عن تناولها في ذلك اليوم وتلك الليلة واليوم التالي .

وفي غد ذلك اليوم جلس السلطان في الحضراء إزاء إيوان ديوان الرماثل ولم يأذن بالمشول . وكان الاستعداد قد تم للقبض على أريارق ونحن إذ ذاك حضور في الديوان ، وكنا نبحث بأحدنا سرا ليستطلع أخبار أريارق ، وفي منتصف النهار وقد حانت صلاة الظهر ، جاء عبدوس وهمس بشيء في أذن أبي نصر مشكان وقال للكتاب : لتذهبوا الآن إذ يراد إخلاء البستان . فنهضوا جميعاً وذهبوا ما عداى فقال ٢٢٨ لي همسا إبعث بالجواد إلى الدار واجلس أنت

ففي ردهة الديوان فهناك أمر هام يجب القيام به ولتكن يقظا لتسجل كل مايجرى
ثم لنأت إلى بعد ذلك . فقلت سأفعل ذلك . وذهب هو وعاد الوزير والحاجب
والسارض وجماعة آخرون أيضا ثم حضر بكتكين الحاجب صهر أبي علي دايه
إلى الدهايز وذهب إلى السلطان ومكث هناك ساعة عاد بعدها ونادى محتاج
أمير الحرس وأسر إليه كلاما فذهب هذا وأتى بخمسمائة من الرجال المدججين
بالأسلحة من كل صنف وأرسلهم إلى البستان حيث جلسوا مستخفين ، ثم جاء
نقباء الهنود ومعهم ثلثمائة رجل هندي وجلسوا كذلك في البستان ، ثم ذهب
البرده دار^(١) والسپدار إلى أريارق فقال له : إن السلطان يزعم الشراب وقد
بعث من يدعو السپسالار غازی إليه ، كما أنه يدعوك أيضا . بيد أن أريارق كان
من السكر بحيث لا يستطيع تحريك يديه ورجليه فقال : كيف الوصول إلى
الحضرة مع ما أنا عليه الآن وأى عمل أستطيعه ؟ . فقال السپدار أميرك ،
وكان السلطان قد أوقفه على الأمر ، أدام الله حياة السپسالار يجب رعاية أمر
السلطان والذهاب إلى الحضرة فإنه إذا رآك على هذا الحال فسوف يعذرك
ومن ثم تعود إلى مقامك ، أما التخلف فإنه عمل قبيح يتأوله المؤولون . وأشرك
أميرك التونتكين صاحب أريارق معه في الرأي ليؤكد لسيده وجوب الذهاب .
فارتدى أريارق ملابسه وخفيه وقلنسوته وأراد أن يصحبه جم غفير من الاتباع
بينهم مائتان من الغلمان والرجالة فقال أميرك لحاجبه : إن هذا أمر غير لائق
فإنه ذاهب للشراب وعشرة من الغلمان المدرعين مع مئة من الرجالة تكفي .
فأرجع الحاجب ذلك الجمع الكبير دون أن يعلم أريارق نفسه شيئا ، فلما بلغوا
المقصر تقدم نحوه بكتكين الحاجب وأنزله بمساعدة أمير الحرس وسارا به إلى
الإيوان حيث أجلساه ، فنهض أريارق بعد لحظة وهو يقول : إني ثمل

(١) انوكل بالستار .

ولا أستطيع البقاء فلاعودن . فقال له بكتكين : لا يليق بك أن تعود بشير
استئذان واصبر حتى نخبر السلطان . فجلس بالدهليز ، وكنت أنا أبو الفضل
أنظر إليه ، ونادى الحاجى سقا فجاءه بكور ماء ، وأخذ أريارق يدخل يده فيه
ويخرج منه الثلج ويلتهمه فقال له بكتكين . هذا عمل لا يليق بك يا أخى فإنك
سپهسالار فكيف تأكل الثلج فى الدهليز ؟ ، إذهب إلى الإيوان وافعل ما تشاء
فرجع أريارق ثانية إلى الإيوان . ولو أنهم أرادوا القبض عليه ولم يكن ثملا
لطال بهم الأمر ، فما أن استقر به المقام فى الإيوان حتى أحرق به فى التوخمسون
من المقدمين الأشداء المتحمسين وجاء بكتكين نحوه وأحاط به جميع المقدمين
من يمين وشمال وأمسكوه بحيث لم يستطع أن يحرك ٢٢٩ ساكنا . فنادى
بكتكين قائلا : يا أخى الغادر لقد أوقعتنى فى الشرك . وتقدم غلمان آخرون
نحاعوا نعايه ، وكان بكل منهما مديتان ، وحضر محتاج^(١) وجىء بحبل قوى
ربطوا به قدميه ونزعوا عنه قباءه فوجدوا فى طيأته سماء وتماويذ نزعوها كلها .
وأحاط به خمسون راجلا من كل جانب كما سارع رجاله آخرون إلى القبض على
حصانه وجهازه وغلمانه ، ولكن حاجبه فر من وجههم مع ثلاثة من الغلمان .
أما غلمانه فقد حملوا السلاح وصعدوا إلى السطح وعات ضجة هائلة ، وكان السلطان
مع بكتكين عند القبض على أريارق فأوعز إلى نفر ليسارعوا بالخبر إلى بكتغدى
وبلغاتكين كبير الحجاب وأمراء الجند بأن عليه إنهاء هذا الأمر ، حتى يمتطوا
جياذهم وكانوا جميعا قد ركبوا على أتم استعداد ، وبعد أن قيدوا أريارق وثار غلمانه
ذهب هذا الجمع مسلحين إلى دار أريارق وتبعهم فرسان آخرون من كل صنف فوقعت
حرب هائلة فأوفد السلطان عبدوس ليقول لرجال أريارق : إن أريارق كان رجلا
لا يعرف الجليل ، وقد كنتم منه فى محنة ، وقد دعت المصلحة إلى القبض عليه اليوم

ونحن أولياؤكم فلا تكونوا كالصبيان واتركوا التتال فإنكم عدد قليل يمكن القضاء عليه في ساعة وإن يستفيد أريارق من عملكم هذا ، فإن عدتم إلى صوابكم فسوف نعطف عليكم ونحسن إليكم . كما أرسل السلطان إلى حاجب أريارق يميده بعطف بالغ عليه . وبعد أن أدى عبدوس هذه الرسالة هدأت الحال كأنما انصب الماء على النار ، فقبل الحاجب والغلمان الأرض ونامت الفتنة في الحال واستحوذ الجند على الدار وختموا أبوابها . وما أن مالت الشمس إلى المغيب حتى تراءت تلك الدار كأنما لم يكن فيها ديار قط ، وعدت فرويت لأستاذي كل ما شاهدته . وذهبوا بأريارق بعد صلاة العشاء إلى قلعة قهندز ^(١) وساقوه بعد عشرة أيام إلى غزنة حيث سلموه إلى المقدم أبي علي الكوتوال الذي أبقاه هنالك حسب الأوامر مدة لم يعرف أحد خلالها أن الرجل معتقل عنده ، ومن ثم بعثوا به إلى بلاد الغور لدى أبي الحسن خاف ليمتقله في مكان ما ، وانتهت حكايته عند هذا الحد وسوف أبين مصير حالة ومقتله في موضعه وصادف إلهاء القمض عليه في بلخ يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر ربيع ٢٣٠ الأول سنة اثنتين وعشرين واربعمائة (١٠٣١) كما ألقى القبض غداة ذلك اليوم على الأمير فيروز الوزير الخادم روعلى أبي سعيد المشرف الذي لم يزل حياً للآن . مفهما برباط الكندي ولم يسندوا حتى ذلك الوقت رتبة الإشراف إليه إذ الإشراف في البلاط كان خاصاً بالقاضي خسرو ، وأرسل السلطان أبا الحسن عبد الجليل وأبا نصر المستوفي إلى دار أريارق فأحضرا مستوفي أريارق ومقدمه المعتقلين وفتحت الأبواب وجمعت أموال طائلة ودونت قوائم بشأن أمواله الكثيرة في الهند واستمروا في ثبوت ممتلكات أريارق وحملها إلى البلاط ثلاثة أيام وحشروا الممتازين من غلمانه في البيوتات ووهبوا الشيوخ منهم إلى الغازي

(١) أي القلعة أو الحصن القديم والمراد به « حصن المدينة » .

والحجاب ، كما أوفد السلطان أبا الحسن عبد الجليل وأبا سعيد المشرف كذلك إلى الهند ليأتيا بما يملك أريارق من الأموال فذهبا مسرعين . وقبل أن يلقوا القبض على أريارق كانوا قد أرسلوا الخيالة المسرعين إلى الهند برسائل لاعتقال أتباعه على سبيل الاحتياط . وفي اليوم التالي حضر الغازي إلى البلاط حيث كانوا قد اجلسوا أريارق وكان في حاله شديدة من الفزع والآلم وبعد أن انتهى المجلس اختلى السلطان بالوزير والغازي وقال : إن أحوال هذا الرجل تختلف عن أحوال باقي الخدم فقد كان رجلا عاصياً جباراً في عهد والدنا وأراق هنالك دماء بريئة ولم تكن للعون وأصحاب البريد جرأة على إهملها . حقيقة أحواله كما يجب خوفاً منه على حياتهم فقد كان عماله لا يأذنون لأحد بالسير في الطرق دون إذن منه ، وكذلك لم يستجب لطلب والدنا بالحضور من الهند ، فلم يأت ولو أنهم قصدوه لآثار فساداً كبيراً وقد تعب الخواجة في التدبير حتى تمكن من استقدامه إلى هنا ، فلا جدوى في مثل هذا العبد ، وأقول هذا حتى لا يشغل السهيسالار غازي قلبه بما جرى فحاله ليست كذلك ، فإننا لانسى تلك الخدمة التي أداها لنا ونحن في إصفهان حين كنا نريد السفر إلى خراسان . فقبل غازي الأرض وقال : إنني عبد مطيع ولو أن مولاي أقامني لتعهد الدواب لسكفاني بهذا فخراً فإن الأمر لمولاي وهو أدري بأحوال رعيته . وتكلم الأستاذ كلاماً لطيفاً مما كان يحسن قوله في هذا المعنى يناسب ما ٢٣١ كان عليه أريارق ويطمئن خاطر الغازي في وقت واحد . ثم خرج الوزير مع الغازي وجلسا في الإيوان ودعا الوزير أستاذي أبا نصر فأخذ يشرح ما كان عليه أريارق من الظلم والثور والطغيان حسبما يتكلم به الخصوم ويبدونه فنعجب الغازي لذلك وقال : إذا لم يكن جائزاً تركه وشأنه على أي حال . فذهب أبو نصر وأبلغ ما سمعه للسلطان ثم عاد بجواب حسن . وأخذ هذان السبدان يكلمان الغازي بما يطيب خاطره ويزيد في اطمئنانه حتى سر قلبه وعاد . وقد سمعت من الخواجة أبي نصر يروي عن

الخواجة أحمد الوزير أن هذا التركي أى الغازى قد أساء الظن وهو من أشد الدهاة فلا تنطلي عليه أمثال هذه الأمور . ولقد كان من الحيف أن يقضى على رجل كأريارق يستطيع ضبط إقليم عظيم كالحند لاسيا وقد كنت متعبدا أعماله ، ولكن هذا السلطان استمع لتخرصات الوشاة الذين لا يدعونه وشأنه ولا تفر عيونهم إلا بقلب الأوضاع رأسا على عقب وسوف يقضى على الغازى أيضاً فاحفظ عني هذا الكلام . ثم قال أبو نصر : وسار إلى الديوان وهو شديد الوجوم غارقا فى التفكير ، وأذكر أن هذا الذئب العجوز قال لى : إن شردمة من أصحاب محمود وأتباع هذا السلطان منصرفون إلى تنفيذ مآربهم بكل ما يستطيعون فنسأل الله حسن العاقبة .

ذكر القبض على صاحب الجيش أشفتكين الغازى

وكيف جرى ذلك إلى أن أنفذ إلى قلعة كرديز وتوفى بها رحمة الله عليه

إنه لمن المحال أن أكتب غير الحق ، وقد توفى القوم الذين أذكر حديثهم منذ سنوات وتأجلت بذلك خصوماتهم إلى يوم الحساب . ويجب أن نعرف حقاً أن السلطان مسعود لم يكن يضمّر فى قلبه أية خصومة للغازى حين أمر بإلقاء القبض عليه ، ولم يعاملة بحفاء قط وقد أسند إليه سبباً لاربه العراق التى أعطوها « لتاش » ويجب أن نعلم أنه قد وقعت هنا نادران اقترنتا بالقدر الغالب وأدتا إلى القضاء على قائد كهذا ، ولا مرد لقضاء الله . فأولاهما أن أصحاب محمود لم يكفوا عن الدس لهذا الرجل ، واستمروا فى تدبير المكائد والحيل حتى أوغروا صدر السلطان عليه من كثرة ما سمع فنالوا فى النهاية بغيتهم . وأدهى من ذلك وأمر أن هذا القائد كان شاباً لا يقيم للشيوخ وزناً فأدى به نزق الشباب إلى التورط فى أمور دفعت به إلى الردى على غير رغبة من سيده . فقد اتفق أن أساء الغازى الظن بعد أن رأى مصير أريارق . فاستجمع أمره وكف عن

الشراب ٣٣٣ وأخذ يغذو ويرفح كاليائن وكان إذا تكلم في الخلوة مع أحد يظهر
البأس ويبيك ، فكان الوشاة يجعلون الواحد عشرة ويلفقون الأكاذيب وينهونها
إلى السلطان ، حتى فاض الإناء وضاف صدر السلطان ، ولكنه مع كل ذلك كان
يستشعر الصبر الجميل . وبلغ من حيلة الممويدين أن كانت لحسن مهران امرأة
تجربة جد حصيفة تقيم بنيسابور وكانت تلك المرأة ابنة لأبي الفضل البستي توفي
عنهما زوجها ولم تقبل الاقتران بأحد ممن كانوا يتقدمون لخطبتها من أعيان
نيسابور وتبنت هذه السيدة وصيفة تشرف على أمور الحرم في قصر الغازي
هنالك ومن ثم كانت تتردد على القصر وكان لها خط جميل فكانت تكتب
الفارسية بكل جودة ، فأعزوا إلى أناس غير معروفين لينخدعوها باسم النصيحة
وليقلوا لها : يا للغازي من مسكين ، إن السلطان سيأمر بالقبض عليه قريباً ،
وسوف يكون ذلك ليلة كذا . فأبلغت تلك المرأة الخبر للوصيفة المذكورة ،
وأنهت الوصيفة هذا الكلام من جهتها إلى الغازي وأخافته كثيراً ، وقالت له :
فاسادرن إلى تدبير أمرك مادمت طليقاً حتى لا تؤخذ على غرة كما أخذ أريارق .
فقلق الغازي قلقاً شديداً وقال للوصيفة : استقدمي هذه السيدة لئرى ما هو
الأفضل وسأقوم بحتمها إذا مرت هذه الحادثة بسلام . فاستدعتها الوصيفة
فأجابت بأنها تخشى الحضور ولكنها ستكتب إليها بما يكون وحيث أنك
تستطيعين القراءة فستدليينه للغازي . فقالت الوصيفة : حسناً جداً . وأرسلت
السيدة رسائل ووضعت فيها كل ما سمعته . لقد كان لأصحاب محمود مهارة عظيمة
في هذا الأمر وإلا فكيف كانوا يستطيعون الوصول إلى هذه المرأة . وهكذا
تتخذ أحكام القضاء .

وعند صلاة العصر من يوم الإثنين التاسع من ربيع الأول لسنة اثنين
وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) قالوا لهذه المرأة ، سوف يلقي القبض غداً على
الغازي عند حضوره إلى البلاط . وأحكموا هذا التدبير وذكروا لها علامات .

فكتبت المرأة من فورها رفعة ترحمت فيها الأمر وأبلغتها الوصيفة للغازى فميز من الغيظ لأن أشخاصا آخرين كانوا قد أخافوه أيضا ، فأمر في الحال أن تذبح نعال الخيول سرا ولم يُطلع على ذلك كتخذه سعيد الصراف أو أحدا من الآخرين ، وصادف ذلك صلاة العشاء فتظاهر الغازى بأن السلطان أمره بالذهاب إلى مكان ما في هذه الليلة حتى لا يتسرب الخبر إلى الخارج ٢٣٣ وفجوا الخزانة وأعطى ما خف حمله من الجواهر والذهب والفضة والملابس للغلان فحملوها ثم ركب بعد صلاة العشاء . وأركبوا هذه الوصيفة مع أربع آخر من الجوارى ، ومكث الغازى واقفا حتى ركب الغلمان جميعا وحملوا البغال الهوية والهيجان السريعة وتم كل ذلك في قصر أرسلان جاذب في جهة من باخ شديدة البعد عن قصر السلطان وأسرع في المسير حتى بلغ مفترق الطريق بين خراسان وما وراء النهر ثم وقف هنالك متحيرا وهو يقول : صوب أى جهة أسير لأنقاذ حياتى ؟ . فأجابه قومه وغلماؤه : إلى حيث ترى . فإذا جدوا فى طلبك قاتلناهم حتى الموت . فقال : الأولى أن نسير شطر جيحون ونعبره فصبح آمنين إذ ان خراسان بعيدة . فقالوا لك الأمر . ثم عطف العنان نحو قرية سياه كرد وتابع سيره مسرعا فباع جيحون ولما يبق غير ربح من الليل فركب سفينة من الموضع المعروف برباط ذى القرنين وعبر النهر إلى الجانب الآخر بسلام إزاء ترمذ ، وكان النهر هادئا ، ولكنه بعد أن وقف على الضفة التصوى ندم وقال : مسد أخطأت صنعا إذ لجأت إلى بلاد الأعداء وستسوء سمعى لأنى فى بلد عدو لدود للدولة الحمودية كعلى تكين وقد كان الأولى بنا أن نذهب إلى خراسان . ثم قفل راجعا إلى الضفة الدنيا وقد أشرف الصباح فأدى فريضة الصبح وقصد أن يعطف العنان إلى قلعة كالف ليتخذ الطريق إلى آموى ويلوذ بخوارز مشاه ليشفع له فتصاح حاله ، وفجأة نظر وإذا بفوج من عسكر السلطان يتقدمون فى حملة وأمامهم المبارزون الأشداء والفرسان الأقوياء ، فقد نبي الخبر إلى السلطان مسعود

في نصف الليل بخروج الغازي وفراره إلى قرية سياه كرد فخرج السلطان في الحال وأمر أن يسير الجند من جهات أربع ، فاشتدت حيرة الغازي . وفي اليوم التالي عند حضورنا إلى البلاط سمعنا إشاعات وأقاويل كثيرة . والرجال المجهزون يسرون تباعا وقلب السلطان جد مشتغل وفي خلال ذلك نادى عبدوس وأعطاه خاتمه وكتب أماناً بخطه وقال له اذهب وبلغه إن حسادك قد نالوا مآربهم وإن الفرصة لا تزال مواتية لعودتك فارجع حتى لا ينالوا مرادهم وسيظل شأنك لدينا كما كان ، وأقسم الإيمان بالمغاطة على هذا . فذهب عبدوس مسرعاً وقابله وكان المحموديون هم الذين أرسلوا تلك الحملة لمنازلة الغازي أو قتله إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وأخذت أفواج الجند ترى وكان الغازي قد همّ بعبور النهر طلباً للنجاة واسكن الريح كان شديداً وكان جيحون هائجاً بحيث لم تستطع السفينه حراكاً ، وقصد الجند قتله واضطر في النهاية إلى النزال وكان بطلا مغواراً ، وأبلى ٢٣٤ غلبانه بلاء حسناً وحمى وطيس القتال ، ولما كانت الأفواج السلطانية تصل تباعاً إلى الميدان فقد ضعف أمله في النجاة وشوهد درعه مملوء بالسهم وأصيبت ركبته بسهم قوى أدى إلى خذلانه بحيث أشرف على الهلاك . وهنا وصل عبدوس فأوقف القتال ولام الجند قائلاً لما ذا بادرتم إلى القتال ولم تؤمروا ، كان ينبغي أن تقفوا أمامه حتى تصل أوامر أخرى . فأجابوا : لقد اضطررنا إلى القتال لأننا شاهدناه يريد عبور الماء ولما لم يتمكن من ذلك أراد أن يلوذ بالفرار شطر آموي فلجأنا إلى إيقافه حتى لا يغضب علينا السلطان ، والآن وقد حضرت فقد كففنا عن القتال لنرى ما يكون . فسار عبدوس إلى الغازي وكان واقفاً على ربوة يائساً مهموماً وخاطبه قائلاً : يا أيها السهسالار أي شيطان حاد بك عن الصواب فعرضك لشماتة الأعداء . فارتمى الغازي على الأرض باكياً وهو يقول : هكذا حكم القضاء إنهم أخافوني . فقال عبدوس : طيب نفساً فإن

الفرصة لم تفت ، وأعطاه منك الأمان والخاتم وأبلغه رسالة السلطان وأيمانه ،
فترجل الغازي وقبّل الأرض وكان الجند وغلبانه وقوفاً إلى الجانبين فطمأنه
عبدوس ثم نزع الغازي سلاحه ووصل آنذاك فيل عليه مهد ، فأركبوه فيه
وطمأنوا رجاله وغلبانه أيضاً . وأرسل عبدوس درع الغازي وعليه السهام إلى
الحضرة ذا كراما جرى مع رسل مسرعين ، فوصل الدرع إلى البلاط عند
منتصف الليل . وبعد أن شاهد السلطان الدرع وسمع رسالة عبدوس اطمأن
وهذا باله ، وكان الخواجة أحمد وكافة الأعيان حضورا في القصر حتى ذلك
الوقت فأذن لهم السلطان بالانصراف ودخل الحرم في التو وتناول شيئا من
الطعام . ووصل عبدوس وقت السحر بالجيش ومعه الغازي وغلبانه وجنده جميعا ،
فأخبروا السلطان بذلك ، فخرج واختل وقتا بعبدوس ، ثم رجع يبلغ الغازي عطف
السلطان وقال له : إن الأوامر تقضى بإنزالك في القصر المحمدى تجاه الحديقة
السلطانية وأن تستريح هنالك حتى يتقرر غذا ما ينبغي . ومن ثم ذهبوا بالغازي
وأنزلوه هنالك وأحضروا أبا القاسم الكمال في الحال لينزع السهم من ركبته
ويداويه فهدأت آلامه ، وجاءوا ٢٣٥ له بغذاء من المطبخ الخاص ، وكانت
التبليغات المطمئنة تصله من السلطان تباعا ، فتناول اليسير من الطعام ونام ،
وأنزلوا الغلمان والجند عن خيولهم وأسكنوهم في الوثائق وقدموا لهم الطعام
فاستراحوا وكانوا قد أوقفوا ألفاً من الرجال على يمين القصر وشماله دون
أن يشعر الغازي ، ثم عاد عبدوس بعد أن أراح الجوارى اللأى كن برفقة
الغازي . ولما طلع النهار أذن السلطان وجاء الأعيان إلى الحضرة ، فخاطبهم بقوله :
إن الغازي رجل مخلص وهو بمن يعول عليهم ولم يأت حتى الآن أي جريرة
غير أنهم أخافوه وسنأمر بالتحقيق لمعرفة من سبب له هذا الخوف فيلقون
جزاءهم . فقال الأستاذ الرئيس والأعيان : نعم ، هذا ما ينبغي . وأبلغ عبدوس

هذا الحديث للغازي مع أحد رجاله فسرّ بذلك سرورا بالغا . وبعد انصراف الجمع أرسل السلطان ثلاثة من أطباء الخاصة هم أبا الحسن العقيلي ويعقوب دانيال وأبا العلاء إلى الغازي ليقولوا له : لا تشغلن خاطرك . فقد دبروا هذا لك فإننا سنتحقق من الأسباب التي أدت إلى هذه الحال ثم نأمر بما يلزم ، ولا يشوبن خاطرك شيء فإننا أنزلناك في حقيقة أخينا هذه لتكون قريبا منا وليستطيع أطباؤنا إسعافك ومداواتك فيزول هذا العارض ثم نأمر بما ينبغي بعد ذلك . فما أن سمع الغازي هذا الكلام حتى نهض من فراشه جالسا ، إذ لم يكن يستطيع الوقوف ، وقبل الأرض وبكى وأكثر من الدعاء للسلطان ثم قال : لقد موّهوا عليّ الحقيقة فورطوني في هذا المأزق ، ولكن يخطيء العبيد ويصفح الأسباد ، وليس للعبد مجال إلى الاعتذار ويقيني أن السلطان يفعل الجدير بجلال شأنه . فماد أبو الحسن وذكر للسلطان كل ماجرى . ولما بلغت هذه الأحاديث أصحاب محمود اعترأهم غم شديد وأخذوا في تدبير الحيل من جديد حتى لا تستطيع الفريسة الإفلات من براثنهم . ولما عرف كتحدا الغازي وأتباعه الآخرون بما جرى من الأمور خرجوا من مكائهم وذهبوا إليه . ولن أطيل في الحديث أكثر من هذا فقد أبلغ الخصوم حال الغازي إلى حيث أخذ يرداد استنياه السلطان منه يوما بعد يوم ، إذ كانوا ينهون إلى السلطان أحاديث مخالفة كان يؤيدها ذلك الشطط الذي صدر عن الغازي لأنه أيقن أن الأساس أضحي غير ثابت فاخترى بعبدوس وقال له : إن هذا اللئيم ان يفيدنا في شيء فقد أساء إلى سمعته بما أقدم عليه ، وفضلا عن ذلك فإن أصحاب أيدينا سوف يأسون منا ، وليس من العقل ٢٣٦ أن نضحى بالناس جميعاً من أجل رجل واحد فاذهب إلى الغازي وقل له إن مصالحك تقضي بأن تقيم في غزته بعيداً عنا مدة حتى ينسى الناس تدريجياً هذه السمعة السيئة التي لحقت بك ويتلافى الأمر ، وبعد أن تباهه هذا ينبغي أن تعمل على فصل قومه عنه عدا المخدرتين اللتين يجب تركهما له ، وابعث بالرجال الذين يمكن استيفاء مال منهم إلى البلاط ، كما يجب

إحضار سعيد الصراف وإخباره بضرورة الحضور إلى الدركاه لمهمة يقوم بها ، وأحضر كافة غلمانه إلى قصرنا لبيحثوا معهم بشأن الأموال التي كانت لديهم وليحملوها إلى الخزائن ثم يحتفظوا بعد ذلك بمن يليق منهم للخدمة بالسراى ونرى رأينا فيمن لا يليق لذلك ، وانتبه حتى لا يخفى عليك شيء من ممتلكات هذا الرجل سواء منها الناطق أو الصامت ، وبعد الفراغ من كل هذا أوعز إلى فريق من الرجال ليراقبوا الغازى ولا يدعون أحدا يقترب منه دون عليك ، حتى نأمر بعد ذلك بما ينبغى من رأى . فذهب عبدوس وبلغ رسالة السلطان ولما سمعها الغازى قبل الأرض وانتحب باكيا وقال : إن صلاح العبيد فيما يأمر به أسيادهم ، وإن للعبد حقوقا فى الخدمة فجدير أن يأمر السلطان بإقامتى فى موضع أكون فيه آمنا على نفسى ، لأن الأعداء يقصدون حياتى ، حتى إذا رضى السلطان عنى يوما وأراد أن يقيمنى سائسا للدواب يحدنى حيا ويمنّ على بهاتين المخدرتين وبكساء وغذاء لا غنى عنهما ، وأنت أيها السيد فلتعاهدنى على أن تطلب العون لى من الله فإنى أراك مهتما بشأنى . وكان يبكى أثناء قوله هذا . فقال عبدوس : إن الأمر خير مما تظن ، فلا تسيء ظنا . فأجاب الغازى : إنى لست طفلا وإنى لعلى يقين بأنى لن أقابل الخواجة بعد اليوم . فمد عبدوس إليه يده وضمن له الوفاء وضمه إليه واحتضنه ، ثم عاد وخرج فجلس على تلك الصفة الكبرى وأتم كل ما كان السلطان قد أوعز به بحيث لم يبق شيء من الأمر عند صلاة العصر . وعاد إلى ٢٣٧ السلطان بعد أن عهد إلى الرجال بمراقبة الغازى وذكر له كل ما جرى وعرض عليه المحاضر وتجمعت أموال طائلة من الصامت والناطق ، وجيء بالغلمان إلى الوثائق وأخذت الحيلة لحفظ الأموال . وقيل لقد أخذ منهم كل ما كان الغازى قد أعطاه لهم ، ثم أدناهم السلطان منه وأرسل الممتازين منهم إلى الوثاق ووزع الباقين على الحجاب ورجال البلاط .

وبعد أن انتهى الأمر على هذه الصورة قال السلطان لعبدوس : يجب أن

يرسل الغازى إلى غزنة . فسأل عبدوس : على أى نحو يأمر مولانا ؟ وذكر
للسلطان مقالة الغازى بربكاه وإمساكه بيده . فتأثر السلطان وقال لعبدوس :
هذا الرجل برىء وإن الله تعالى يحفظ عباده بقدرته ، فينبغى أن لا يقصده أحد
بسوء وقد سلمناه إليك ، فاعتن بأمره . فقال عبدوس : على أى نحو يأمر مولانا
فقال السلطان : أوعز إليهم أن يجهزوا عشرة من الإبل وأن يهبطوا حملا وهو ارج
وثلاثة بغال وملابس كثيرة للغازى وكذلك للجوارى وثلاثة من الطباخين
وألف دينار وعشرين ألف درهم لنفقاتهم ، ومرثم ليكتبوا إلى أبى الكوتوال
رسالة موقعة ليعد للغازى ومن معه مكانا يسكن فيه الغازى ومن معه بالقلعة ،
ولكن ينبغى إبقاؤهم مقبدين على سبيل الاحتياط ، كما يجب شراء ثلاثة غلمان
من الهنود لخدمة الغازى وقضاء حوائجه ، وبعد أن يتم كل ذلك إبعث بهم سرا
فى نصف الليل بحيث لا يعرفون شيئا على أن يكون معهم ثلثمائة فارس ومئتان
من الرجالة عليهم قائد وكلهم من الهنود ، وابعث أنت معتمداً من لدنك ليكون
فى الطريق مع الغازى وليسهر على راحته وعليه أن لا يدع أحدا يطلب منه شيئا
حتى يبلغ قلعة غزنة بسلام ، وعليهم أن يأتوا بجواب الرسالة بخط أبى على
الكوتوال . فجهز عبدوس كل ذلك وساروا بالغازى وكان ذلك آخر العهد به
إذ لم ير بعد ذلك وسأذكر عام وفاته وقصة ذلك فى موضع آخر .

٢٣٨ هذا وقد انتهى حديث هذين القائدين العظيمين وكان حديثاً طويلاً ولكن
حيث أن القاعدة والقانون يحتمان شرح القصة بتمامها فقد راعيت الأصول ،
إذ كانا رجلين عظيمين وهذا الكلام وإن كان قد طال فإنه لا يخلو من النكت
والنوادير . والآن إذ انتهى مصير القائدين ، فقد انتهى جميع هذا وصار أثرا
بعد عين ، وإن مرّ الزمان ودوران الفلك يحدثان بأمر الله عز ذكره الكثير
من الأمور كما سيجدون الكثير من أمثالها بعد أيضاً ، والعاقلة من لا يغتر بنعمة
أو متعة يحصل عاها ويكون على حذر دائم خشية زوالها لأنها تسلب منه بمنتهى

القسوة ودون محاباة ؛ فينبغي بذل الجهد لاستطاع الأحرار ونشر بذور الخير
للدنيا وللآخرة لتبقى السمعة الطيبة تذكرا لهم ، ولا يُقصر الأمر على أن يأكل
المرء وحده ويلبس وحده ، فإن أحدا لم يتيسر له الذكر الجبل بذلك . وقد كان
من قديم الزمان رجل يدعى الزبرقان بن بدر كان ذا مال كثير وكان من
عاداته أن يأكل وحده ويلبس وحده ولا يصل خيره لغيره فقال في حقه
الخطيئة الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

قرأت أن ندماء الزبرقان بعد أن قرأوا عليه قصيدة الخطيئة قالوا : هذا
هجاء قبيح قاله في حقك الخطيئة فجاء الزبرقان إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
وشكا له متظلما قائلا : أنصفني . فأمر عمر بإحضار الخطيئة وقال هذا : إنني
لا أرى في هذا الشعر هجاء وفحشا ، وقرض الشعر ودقائقه بما لا يدخل في أعمال
أمير المؤمنين فليأمر بإحضار حسان بن ثابت وليقسم عليه بأن يقول ما يعرفه
عن هذا الشعر حقا . فأرسل عمر رجلا واستدعوا حسانا وكان قد كف بصره
فأجلسوه وقرئ عليه البيت فقال حسان : يا أمير المؤمنين ما هجا الخطيئة الزبرقان
ولكن سلح عليه . فابتسم عمر وأشار إليهم بالعودة وقد ظل هذا البيت متداولاً
رغم مضي أربعين سنة على قوله وقد كتبه بالعربية ليتعظ بنصه القراء ، فإن
السمعة الطيبة تعيش أبدا . وقد أجاد المتنبي في هذا البيت :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال

وله أني أردت الكتابة في أمثال هذه المعاني لطال بنا المقال وفي هذه العظة
٢٣٩ ما يكفي للعقلاء والأذكياء ، بيد أني أذكر ثلاثة أبيات لأبي الصاهية علقت
بذهني تمثل ما كان عليه هذان القائدان من شتى الأحوال ، فأردت ذكرها هنا
لما فيها من العبر :

أفنت عمرك إدارا وإقبالا تبغى البنين وتبغى الأهل والمالا
ألم تر الملك الأمسى^(١) حين مضى هل نال حتى من الدنيا كما نالا
إذا يُشد لقوم عقد ملكهم لا قوا زمانا لعقد الملك حلالا

وما أحسن ما قاله الرودكى فى هذا المعنى :

لقد مات سادة العالم جميعا ، وطأطأوا الرؤوس أمام جلال الموت ،
لقد وورى فى التراب كل أولئك الذين شادوا هذه القصور المنيعة ،
هل فازوا من آلاف النعم ومن العزّ فى النهاية بغير الكفن ؟ حقا لقد كانت
نعمتهم فيما ألبسوه وما أءطوه وما أكلوه .

انتهت هذه القصة وإن كان فيها بعض الطول فإن البديع غير مملول .

وبعد أن ارتاح قلب السلطان مسعود لما تم من أمر أريارق والغازي
وسوقهما إلى غزنة ، مال إلى الشراب والصيد فى جانب ترمذ كعادة أبيه السلطان
محمود رحمة الله عليه وتحرك ركابه من بلخ فى يوم الخميس التاسع عشر من
شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) وبمعيته أكثر الموالى
والحشم . وذهب أستاذى أبو نصر مشكان مع السلطان ، وقد كان يرى نفسه
مضطرا إلى ذلك ، خشية أن يستفيد من غيابه الوشاة فيدبرون له المكائد ،
وكنت أنا فى صحبته . وعندما وصلنا إلى ضفاف جيحون نزل السلطان وبادروا
إلى الشرب والطرب واستمروا فى ذلك أياما ثلاثة . وركب فى اليوم الرابع لصيد
الأسود وغيرها من الوحوش ، فقضى بيده على أربعة أسود ، إذ كان ٢٤٠
آية فى الشجاعة كما مرّ بنا فى عدة مواضع من هذا التاريخ . وكذلك وقع
فى أيديهم أنواع شتى من الصيد . وطلب السلطان أثناء الصيد الطعام

(١) المراد بالملك الأمسى هرون الرشيد، راجع الأغاني ج٤ ص ٨٩ والبيت الثالث غير مذكور).

فقدمت صناديق المأكولات المعدة للأسفار ، فطعموا وشربوا . وكان يسير رويدا رويدا وهو يأكل حتى وصل خيمته حيث قضى أغلب الليل ساهرا . وركب في اليوم التالي ميمما شطر شاطئ جيحون . فأحضروا له السفن وكانوا قد جهزوا القلعة بكافة أنواع الأسلحة . كما حضر جم غفير من الرّجاله والمقدمين للخدمة في العدوّة الأخرى من النهر . واستقل السلطان سفينة وركب الخدم والغلمان والندماء والمطربون السفن الأخرى . وخرجت السفن في النهر حتى جاورت القلعة . وكان كوتوالها آنذاك قتلغ غلام سبكتكين ، وكان رجلا وقورا مهابا فقبّل هو وجماعة المقدمين الأرض ونثروا الصدقات وسجد الرّجاله احتراماً . ونفخت الأبواق وضربت الطبول وتعالّت الهتافات من القلعة ، وسارت موائد الأكابر متتالية كعادة الفوم في غزنة ومن جملة ما كان عليها لحوم الصيد والأسماك والمقل والرقاق^(١) مما طاب للسلطان كثيرا فأكوا وأدبرت كؤوس الشراب بينهم وعلت أصوات المطربين من السفن وكان على الشاطئ أكثر من ثلثمائة شخص من مطربي ترمذ والنساء اللاتي يرقصن ويضربن الدفوف فأخذوا جميعا يرقصون ويلعبون وهذا المنظر الذي رأيته في ترمذ قل أن رأيته له نظيرا في مكان آخر . لقد كان احتفالا لم ير أحد مثله . ووصل في أثناء ذلك خمسة من الفرسان ، اثنان منهم من قبل الأمير يوسف بن ناصر الدين المقيم في قصدار ، كما مر بنا ، والثلاثة الآخرون من قبل الحاجب الجامة دار ويارق تغمش^(٢) يحملون خبر فتح مكران ومقتل عيسى معدان وقيام أخيه أبي العسكر بدلا منه ، واستتاب الأمر ٢٤١ في هذه الولاية . وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد . فأخبروا السلطان بذلك وبعثوا بزورق وجاءوا بحاملي

(١) نانهای یخه أو نانهای یخته ، كلمة تركية لا تزال تستعمل ونطاق على الحبز الدقيق الرفيع .

في — فياض حاشية ٣ .

(٢) انظر حاشية ٢ ص ٦٨ من هذا الكتاب .

البشائر إلى سفينته . فما أن وصلوا إليها حتى أدوا فروض الخدمة وقدموا الرسالة . فاستلمها أبو نصر مشكان وكان في مركب الندماء . ثم نهض على قدميه وأخذ يقرأ الرسالة بصوت عال فسر السلطان سرورا بالغا والتفت نحو الكوتوال والمقدمين وهو يقول : ما زالت مدينتكم هذه مباركة لدولتنا ، وقد زادها الله اليوم بركة أخرى لوصل هذا البأ السار وفتح قطر كبير . فقبل الجميع ، رجالا ونساء ، الأرض وتبعهم في ذلك أهل القلعة وهم على السطوح . وتعالى الأصوات دفعة واحدة بالسرور ثم التفت السلطان إلى رئيس ترمذ وعاملها وقال : لقد وضعت عن الرعية مائة ألف درهم من خراج هذه السنة فلتوضع عنهم بنسبة عادلة ، كما يجب أن يوزع على رجال القلعة خمسون ألف درهم من بيت المال وخمسون ألف درهم أخرى لهؤلاء المطربين والراقصات . فقالوا سمعا وطاعة . ونادى المنادى بأن السلطان قد تكرم بهذه الصلوات الثلاث فدعاه الجميع الخاص والعام ، ثم خاطب الكوتوال بقوله : إحضر على إثرنا ومعهك مقدمو القلعة كلهم إلى المعسكر لتمنع لكم الخلع والصلوات كالرسم المعتاد ، لأننا سنعود غدا إلى بامخ . وسارت السفن فوصلت إلى المعسكر قرب صلاة الظهر . وجلس السلطان للشراب . وحضر كوتوال ترمذ والمقدمين فأنزلهم كبير الحجاب بلكاتكين عنده في الخيمة . وأرسل وكيله طاهر كنده ليباغ أبا سهل الزوزنى العارض الذى كان مشغلا بالشراب في صحبة السلطان . وأمر السلطان أبا سهل قائلا له : « اذهب إلى الخباء وقل للقائمين والمشرفين على الخزان أن يعطوهم جميعا الخلع حسبما كانت تمنح لهم ثم يقدموهم لنا » . فخرج أبو سهل وجهاز كل ذلك . وارتدى الكوتوال والمقدمون الخلع ، وتقدموا . فأمر السلطان أن يجلس كوتوال القلعة قتلغ وأبو الحسن بانصر ، المعروفان بثروتهما الطائلة ؛ وأن يظل الباقيون وقوفا . ودارت كؤوس الشراب على الجميع فشربوا وأدوا التحية الواجبة فقال السلطان : « عودوا إلى أماكنكم ولتكونوا

أذكباء يقظين فإنكم موضع عنايتنا أبداً . فقالوا سمعاً وطاعة ، ثم قبلوا الأرض وخرجوا فركبوا السفن راجعين . وظل الأمير يشرب إلى منتصف الليل ، ثم استيقظ مبكراً في الصباح وضربوا الطبول وركبوا وساروا إلى أن نزلوا موضع سياه كرد . وبلغوا بلخ في يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر . واستهل السلطان بالسعد هلال جمادى الأولى ، ثم ارتحل من ٢٤٢ البستان ونزل في جوسق عبد الأعلى . وأمر بإنجاز ما يجب إنجازه من الأعمال ، لأنه عازم على الرحيل إلى غزنة بعد أسبوعين ، لأن الوقت قد حان . فقالوا سمعاً وطاعة . ونشطوا في القيام بالأعمال والله أعلم بالصواب .

ذكر قصة ولاية مكران

وما جرى فيها أيام السلطان محمود رضى الله عنه

بعد أن توفي معدان والى مكران وقع بين ولديه عيسى وأبي العسكر خلاف ، وتجاوز الأمر بينهما حد الكلام إلى حد الحسام ، ومال الجند والرعية إلى جانب عيسى فقر أخوه إلى سيستان وكنا وقتئذ بسومانات ، فأنزله السيد الخواجه أبو نصر الخوافي ، ذلك الرجل الشهم ، على الرحب والسعة في منزل لائق وأكرم وفادته . وكان قد حضر إلى سيستان في ذلك العام السيد الخواجه أبو الفرج على بن المظفر أدام الله عزه ، وهو الذي يشرف اليوم مع نوابه على شئون المملكة في دولة السلطان المعظم أبي شجاع فرخ زاد بن ناصر الدين أطل الله بقاءه ونصر أوليائه ، وإنه لعمري فريد زمانه وآية عصره في الفضل والعقل والعلم والأدب ، وقد توثقت هنالك بين الخواجه والدى وبينه صداقة وصحبة . فكان يقص علينا الكثير بما سمعه عنه . وهو اليوم صديق . وقد جاء أخوه الخواجه أبو نصر في هذه السنة نفسها إلى قائن ، وحضر كلاهما إلى غزنة

بحيث قاما بأعمال جليلة ، إلى أن بلغا هذه المنزلة ، فتوفي أبو نصر وهو يقوم
 بوظيفة العارض ، وكان رجلا عظيم الفضل جميل الصورة أديبا عاقلا ، وما يزال
 نجله النجيب على قيد الحياة . وهو يلي الآن منصب الإشراف على غزنة
 ونواحيها . وشرح أبو نصر الخوافي حال أبي العسكر ، فلما عدنا من غزو
 سومنات أرسل السلطان محمود خطابا كي يرسله معززا إلى الدرگاه . فأنعم عليه
 السلطان وأبقاه بها . واتصل الخبر بأخيه والي مكران فتوجس خيفة ،
 واستولى عليه القلق ، فأنفذ قاضي مكران ومعه الرئيس ونفر من الصالحاء
 وأعيان الرعية برسائل ووثائق إلى الدرگاه ، يبين فيها أنه ولي عهد أبيه وأن
 أخاه لو لم يسلك طريق الخلاف لكان قد نعم بكل شيء ويقول فيها للسلطان :
 « والآن إذا رأى مولانا ٢٤٣ أن تبقى هذه الولاية لي ، فليطلب كل ما يطلب ،
 كما فعل الأمير العظيم العادل مع أبيه ؛ وإن أرسلها فوراً مع خدمات النوروز
 والمهرجان ، كما أرسل للأخ كل ما يكفيه ويأمر به السلطان ، بحيث لا يبقى
 محتاجا . وليسلم السلطان معتمدى تحريرا بكل ما تتم عليه الشروط حتى
 أوقعها طائعا ، كما أنى ألتبس أن يوفد رسول من قبل السلطان بمنشور
 التولية وخلعتها إذا رأى مولانا ذلك فإنى أقمت الخطبة باسم سيدي ، ليشهد
 أزرى وتستقر هذه الناحية التى خطب فيها لمولاي » . فأجاب السلطان محمود
 رضى الله عنه ما تمسه ، واشترطوا ما كان ينبغى من شروط ثم أعادوا المكرانيين
 إلى حيث أتوا وأوفدوا حسن الإصفهاني الجمال برسالة ومعه منشور وخلعة
 فاخرة للغاية ليوصلها إليه ثم يعود بخراج مكران وقصدار . فاستقام بعد ذلك
 أمر مكران وعاد حسن الإصفهاني بأحمال مكران وقصدار ومعه رسول من
 مكران بمال وهدايا للسلطان وأعيان الدرگاه من الذهب واللؤلؤ والعنبر ، ومن
 كل ما تخرج تلك الديار . وقد تعهد والي مكران بأن يرسل كل سنة من الخراج

عشرة آلاف من الدنانير الهروية لأخيه فضلا عن الألبسة والطرائف . وقد وصل كل ذلك مع الرسول عن ستة واحدة بالفعل . وتم بذلك التراضى وغاد الرسل إلى مكران .

أما أبو العسكر فقد ظل بالحضرة يؤدي واجب الخدمة . وأمر السلطان محمود بأن يرتب له خمسة آلاف درهم في كل شهر ، وأن يمنح خلعتين كل عام . وما شاهدته قط في مجلس السلطان يتناول الشراب أو يلهو بالصولجان كعادة أبي طاهر السيمجورى ومن على شاكلتهم . إذ كان أبو العسكر هذا رجلا رزينا ضحكا . وكانوا قلما يدعونه إلى المائدة في الحفلات الكبرى التي كانت تقام بين الحين والحين . وكان يؤذن له بالعودة بعد أن ترتفع الموائد وكذلك كان يصحبنا في الأسفار .

وفي تلك السنة التي سرنا فيها إلى خراسان وامننا بنا المسير إلى الري ودام بنا السفر طويلا ، أخذ كل من يحلم من أمراء الأطراف والنواحي بمنام يستيقظ فيرى رأسه وقد طاحت وولايته وقد ضاعت . فإن السلطان كان يئن من الآنين من ضعف الشيخوخة وقد بلغت روحه التراقي .

وكان عيسى المكراني أحد أولئك الذين حلوا في منامهم وقد أمل السلطان محمود أبا العسكر بأن يمهده عند الوصول إلى غزنة بجيش عليه قائد عظيم ، ٢٤٤ حتى يطرد أخاه ويوليّه الولاية . ولكن بعد وصوله إلى غزنة لم تمهله الأيام ، وقعد عن العمل . كما أن الأمير محمد لم يتمكن من تنفيذ هذه الوصية إذ كانت أمامه مهمة كبرى ، ولكنه طيب خاطر أبي العسكر وخلع عليه ومناه بذلك ولم ينفذ شيئا ، فقد وقع ما وقع . ولما استتب الأمر للسلطان مسعود بهراة كما مر ذلك في المجلد الخامس من هذا التاريخ : أمر يارق تغمش ، المعروف بصاحب

جامه دار ، بقيادة فوج قوى من عساكره الخاصة ، ومن التراكمه من قبائل القزل والبوقه والكوكتاش الذين كانوا قد انضموا إلى الخدمة مستأمنين ، ليسبر بهم إلى سيستان ومنها إلى مكران ، وأرسل الأمير يوسف بجيش قوى إلى قصدار وقال : إنه مددكم ، فإذا ما احتجتم إلى إمدادات أمدكم بها ، وإن احتاج الأمر إلى الذهاب بنفسه ذهب أيضا . واسكه كان قد أسر إلى قائد هذا الجيش بأن يراقب الأمير يوسف ، إذ كان الغرض من إرساله إلى قصدار أن يكون بعيدا زمنا ما عن أعين الجند ، لأنهم كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى سبب سالار . وانتهى الأمر بالقبض عليه في ناحية باق^(١) عند « بل خمار تسكين » في هذه السنة . وذلك عند مجئنا إلى غزنة . وستأتى تلك القصة في الجزء السابع . أما المكراني فإنه ، بعد سماعه خبر هذه الحملة ومجيء أخيه ، أخذ يتأهب للحرب وأعد عشرين ألفا من الكيجيين^(٢) والريكيين^(٣) والمكرانيين ورجالا من كل صنف ومن كل ناحية مع ستة آلاف من الخبالة . ثم وصل الحاجب جامه دار أرض مسكران . وكان قائدا يقظا ذكيا للغاية مبارزا مقداما . وكان المقدمون والجيش الذى معه على أتم أهبة واستعداد . فجعلوا ألفين من الفرسان السلطانية والتركمان بين نخيل المكرانيين كميناً ، وقرعوا الطبول فبرز المكراني على فيل وتقدم بجيشه من فرسان ورجاله ومعهم عشرة من الفيلة المقاتلة ف وقعت حرب دارت بالدماء رحاها . وأبلى الفريقان بلاء حسنا ، وكادت الهزيمة أن تلحق بالجامه دار لولا أنه تقدم صارخا في جنده ، وآزره المبارزون والأعيان وأمدوه

(١) باق - ناحية قرب غرمة من أعمال زابلستان .

(٢) كيج اسم ناحية في بلوچستان وتعرف بهذا الاسم اليوم . وكانت معروفة عند الجغرافيين القدماء الذين يسمونها أحيانا بالتسمية الكاملة فيقولون « كيج مكران » . وهرت هذه الكلمة فصارت « كز » غنى - فياض حاشية ٢ .

(٣) ريك اسم ناحية واسم طائفة أيضا في بلوچستان . غنى - فياض حاشية ٣ .

وفتحوا السكين فدارت الدائرة على المكراني . فلاحقوا به في مضيق وهو يفر فقبضوه وأخذوا رأسه وقتلوا من جنده خلقاً كثيراً . واستمر النهب والسلب في المدينة ونواحيها ثلاثة أيام . ووقع كثير من الأموال والمواشي في يد الجند . ثم نصبوا أبا العسكر أميراً هنالك . فلما استقر به المقام وأذن الجميع لطاعته عاد الجاهل دار مع الجند كما سيأتي بعد ذلك . وبقيت مكران ٢٤٥ ونواحيها بيد أبي العسكر إلى أن توفاه الله كما سيأتي بيانه عند ذكر تاريخ الملوك في هذا الكتاب ، فليتغمدهم الله برحمته وليمتع السلطان الأعظم فرخ زاد بطول العمر والسعادة والشباب بمنه وكرمه .

ذكر خروج السلطان مسعود رضى الله عنه

من بلخ إلى غزنة

ذكرت في آخر المجلد السادس أن السلطان رجع من البستان إلى جوسق عبد الأعلى في غرة جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) . وأمر بإنجاز كل ما تأخر من الأعمال لأنه يزعم السفر إلى غزنة في نفس الأسبوع . فهدوا كل شيء ، ولما هم بالرحيل خاطب الخواجة أحمد حسن بقوله : يجب أن تمسك أسبوعاً ببلخ فهناك أصناف شتى من الناس بين عمال وقضاة وأصحاب شرطة متظلمين ظالوا ببلخ فامكث لتسمع أقوالهم وتصرفهم جميعاً وتلحق بنا بعد ذلك في بغلان فإننا سننقضى بسمنجان في عرض الطريق فترة في الفحص والشراب ، فقال : سمعاً وطاعة ، ولكن يجب أن يظل معى كاتب من كتاب ديوان الرسائل ليكتب ما قد يأمر به مولانا ، وخازن يعطى الخلعة لمن يستحقها إذا ما دعت الضرورة . فقال السلطان : حسناً فلتخبر أبا نصر مشكان ليرشح كاتباً ويعين خازناً من الخزنة ومعه الدراهم والدنانير والألبسة حتى يمثل

لما يأمر به الخواجة الذى عليه أن ينتهى من كل هذه المهام فى عشرة أيام ليأحق بنا بعدها فى بغلان . فرشحنى أنا ، أبا الفضل ، أستاذى أبو النصر للكتابة . وتسميت الخزانة باسم كاتب الخزانة أبى الحسن قريش . وكان أبو الحسن هذا من أكفأ الكتاب ، خدم السامانيين وعمل فى خزائهم ببخارى وقد جاء به أبو العباس الإسفرايينى الوزير معه ، وكان السلطان محمود يثق فيه كثيرا . وكان لأبى الحسن هذا مساعدان ، أحدهما على عبد الجليل بن عم أبى الحسن عبد الجليل . وقد توفوا جميعاً رحمهم الله . أما غرضى من ذكر أسماء هؤلاء الرجال فأمران : الأول ذكر نبذة عن أحوالهم لما كان يبنى وبينهم من الصحة والصداقة والعيش ٢٤٦ معهم ، والثانى الاطلاع على كيفية سبر الأعمال فى تلك الأيام لتتم بذلك لقراء هذا التاريخ التجربة والعبرة .

غادر السلطان مسعود ، رضى الله عنه ، بلخ يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى ، ونزل قرب المدينة ببستان الخواجة ميكائيل لأن الأمور لم تكن بعد قد مهدت كل التمهيد ، وقد قام الخواجة المظفر^(١) على ميكائيل بأمر الضيافة هالك كما تحدث بذلك الجميع . وقدم أعيان الدركاه النزل والهدايا الكثيرة والذهب والفضة . ثم ارتحل الأمير من ذلك الموضع تحفه السعادة والبهجة والهناء ، مستمتعاً بالشراب واللهو والصيد تستقبله بمنازل فى خلم وبه بيروز ونخجير^(٢) ضيافة بعد ضيافة ، كما استضافه بيدخشان أحمد على نوشتكين ، الذى كان ينولى الأعمال فيها . ونزل فى بغلان وتخارستان ضيفا على كبير الحجاب بلكاتكين . وكان الخواجة الوزير أحمد حسن يأذن بالمقابلة كل يوم فى قصره بحى على عبد

(١) يحتمل أن تكون « أبو المظفر » . غنى - فياض حاشية ١ .

(٢) أسما مكانين نزل بهما السلطان ضيفا على الأمراء ، ولم يرد ذكرهما فى كتب الجغرافية القديمة ولعلهما « بروان وبنجهر » اللذين ورد ذكرهما فى هذه الكتب ، وفى هذا الكتاب أيضا وهما اللذان على طريق بلخ - غرنة . غنى - فياض حاشية ٢ .

الأعلى، ويحاسب إلى وقت الظهيرة ليساشر الأعمال . وكنت أعمل مع كتابه فأكتب كل ما يأمر به وأدير الأعمال وكان يأمر بتوزيع الخلع والصلوات السلطانية . وكان الغرباء يغادرون المجلس بعد الفراغ من صلاة الظهر ، وكنت أدعى مع كتابه وأتباعه إلى المائدة فنا كل ثم نعود ، وجرى الحال على هذا المنوال أسبوعا كاملا تمت فيه جميع الأعمال وأصبحت في تلك الأيام خيرا كثيرا . ثم غادر بلخ ، ومع أنه كان معه أثناء السير في الطريق فيل ومحفة وبغل بالحامل فإن الحاجة كان يؤثر أن يحمل على تخت له نوافذ^(١) يحمله خمسة من الرجال وكان قد أتى من الهند إلى بلخ على هذا السجوالذي كان أكثر راحة ورفاهية من غيره من الوسائل ٢٤٧ . ولحقنا بالسلطان في بغلان ، حيث كان يستمتع بالشراب والصيد ، منتظرا قدوم الوزير الذي عرض عليه فور وصوله كل ما قام به من الأمور ، فسّر السلطان بذلك سرورا عظيما . وبعد يوم من إقامتهم ارتحلوا بالجيش من مضايق زبرقان وغور وند^(٢) . وأقاموا بعد خروجهم من تلك المضايق ثلاثة أيام في سهل حورانه مستمتعين بالشراب والقنص ولم يدر بخيال أحد مثل هذا الزمان ، فلقد كانت الدنيا أشبه بالعروس وكان السلطان العظيم يسير هائلا سعيدا ، رافع الرأس بلا منارع ، حتى وصل إلى مرحلة پروان ، ثم غادروها مبتهجين مسرورين إلى مرحلة باق^(٣) . وكان يستقبله كل يوم جمع آخر من أهل غزنة كما تقدم إليه أبو المظفر^(٤) رئيس غزنة ونائب أبيه — الحاجة على في پروان ، يحمل الكثير من أنواع المأكولات الطريفة

(١) الكلمة الفارسية دار وزنها وهي جمع دار وزين التي حرفت وأصبحت دار بزن وصال على النوافذ كما نستخدم بنفس المعنى الذي نستخدم فيه بمصر .

(٢) أسماء لأمكنة من بها موكب السلطان .

(٣) أنظر حاشية ١ من ٢٦٦ .

(٤) ذكر اسم المظفر من قبل . وهما المظفر الابن وهناك أبو المظفر الأب . غنى — فياض

حاشية ٣ .

اللطيفة . وجاء الآخرون تباعا في أثره ، حتى وصلنا إلى هنا ، أى فى بلق ، فشمعل
السلطان بعطفه المستقبليين كلا على قدر منزلته والله أعلم بالصواب .

ذكر القبض على الأمير أبى يعقوب

يوسف بن ناهر الدين سبكتكين العادل رحمة الله عليهم

كان القبض على هذا الأمير فى موضع بلق هذه ، وفى ذلك قصة طويلة
لامناس من ذكرها حتى يحاط خبرا بالأمر كله : كان الأمير يوسف رجلا
لا يحمل بين جوانحه حقدا ولا غلا ، ولم يرتكب إثما أو فسادا . وكان يعمل
على عهد أخيه السلطان محمود فى الخدمة بالحضرة مرتين فى اليوم ، على صورة
لم تترك له وقتا للاشتغال بغيرها من الأمور . وكان يجد فى أوقات فراغه من
الخدمة ما يتمتع به من اللهو والشراب ، هذا ولا يخفى مقدار ما يحصل عليه
المرء من التجارب إذا كان على هذه الحال من شباب وقوة وجدة ومال
أتاه عموا . فبعد أن نوى السلطان محمود ونامت تلك العين اليقظة ، قدم الأمير
محمد إلى غزنة واعتلى سرير الملك وأسند سبسالارية الجيش إلى عمه الأمير
يوسف ، وجرى ما جرى من الأمور التى ذكرتها سابقاً وهذه الفترة القصيرة
التي دامت فيها تلك الحكومة وظلت فيها هذه السبسالارية تشهد بمقدار ما يمكن
أن يكون من اليقظة لأمثالها . ثم انتهى الأمر باعتقال الأمير محمد بقلعة كوهتيز
بتكينا باد ، وبالرغم من أنهم دخلوا فى داعة ملك عظيم ونالوا لديه ٢٤٨ قربنى
عظيمه فإن الملوك سرعان ما تغض الطرف عن تلك القربنى ولا يعتمدون على
مثل هؤلاء . وأذكر أنى قرأت فى سيرة يعقوب بن الليث الصفار ، أنه قصد
نيسابور للقبض على أمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ، وكان
أعيان دولته يتقربون بالرسل المسرعين إلى يعقوب ويرسلون إليه الرسائل
بأنه ينبغى الإسراع ، إذ أن أميرهم لا عمل له سوى اللهو والمجون ، وأنه

من الحيف أن يضيع ثغر عظيم كخراسان هباء ، إلا أن ثلاثة من أكبر الشيوخ
علماً وخبرة وتجربة لم يلتفتوا إلى يعقوب ولم يتفربوا إليه بل آثروا البقاء في
الخدمة على باب محمد بن طاهر حتى وصل يعقوب بن الليث وألقى القبض على
محمد بن طاهر فقبضوا على هؤلاء الثلاثة ، وجاؤا بهم إلى حضرة يعقوب
فسألهم : « لماذا لم تتفربوا إلينا كما فعل أصحابكم ؟ » فقالوا : « أنت الآن ملك
عظيم ، وسوف تكون أعظم من هذا . فإن وعدتنا ألا تغضب بينا لك
الواقع » فقال : « ان أغضب ، فهاثوا ما عندكم » فقالوا : « هل رأنا الأمير قبل
اليوم قط ؟ » فقال : « كلا » فقالوا : « هل كانت لنا مع الأمير أو الأمير معنا في
أى وقت مضى مراسلة أو مكتوبة ؟ » فقال : « لم يحدث ذلك » . فقالوا :
« إنا شيوخ كبار وقد قضينا في خدمة آل طاهر أعواماً طويلة ولننا في
دولتهم إعزازاً وافراً ومراتب عديدة ، فهل كان من الإنصاف أن نكفر
بنعمتهم ونتفرب إلى خصومهم ولو كان دون ذلك ضرب الرقاب . تلك
هى أحوالنا وما كنا عليه ، ونحن الآن في يد الأمير وقد ذهب سيدنا فافعل
بنا أيها الأمير ما يرضى به الله سبحانه وتعالى وما يليق بمرؤتك وسؤددك » .
فقال يعقوب : « عودوا إلى بيوتكم آمنين وعلينا أن نحافظ على الأحرار أمثالكم
وأن نشيد من خدماتكم ألا فلتكونوا دائماً في حضرتنا » فعادوا إلى منازلهم
آمنين شاكرين . ثم أمر يعقوب بالقبض على أولئك القوم الذين تقربوا إليه
ومصادرة جميع أموالهم وطردهم ورفع منزلة هؤلاء الثلاثة ، ثم اعتمد
عليهم في أسباب الملك .

وغرضي من أمثال هذه الحكايات إنما هو أن لا يتسرع الطاعون في
النيل من السلطان العظيم مسعود وأن ينطقوا بالحق فإن طباع الملوك وأحوالهم
وعاداتهم لا تشبه الآخرين . وما يراه هؤلاء ، أى الملوك ، لا يتسنى رؤيته
لغيرهم . والسبب الذي دعا الأمير يوسف للعمل على تأييد الأمير محمد

إنما هو مراعاة لميل قاب الساطان محمود نحوه ، فأسخط ذلك الساطان مسعود .
وكان للأمير يوسف ابنتان بلغت أحدهما سن الرشد ولم تزل الأخرى صغيرة .
فأعطى الساطان محمود الابنة البالغة ٢٤٩ للأمير محمد وعقدوا له عايتها ، على أن
تبقى الصغرى للأمير مسعود كيلا تأخذه الغيرة من أخيه ولم يعقدوا النكاح ،
وهيا الساطان محمود من المعدات للعرس ما لا يذكر أحد له مثيلا . وتم ذلك
في قصر الأمير محمد أمام الميدان الصغير . وبعد أن زينت القصور ومهدت
الأسباب كلها ، ركب الساطان محمود وسار إلى هنالك وشمل الأمير محمد
بعطفه العظيم وأكرمه بخلعة ساطانية ووهبه شيئا كثيرا ثم عاد . وتركوا القصر
للعريس والحرار من النساء . ومن عجيب القضاء أن اعترت العروس الحمى ،
وجاءوا بالمهد وقت صلاة العشاء ، وكان نهر غزنة قد امتلأ بشريفات النساء
فأضاوا شموعا ومشاعل كثيرة حتى يذهبوا بالعروس ، فلقيت المسكينة التي
لم تر الدنيا حتفها وهي مزدانة غارقة في الذهب والجواهر والزينة . فذهبت
كل تلك الآمانى والآمال سدى ، ونقلوا الخبر حالا إلى الساطان محمود فاعتراه
غم شديد . ولكن ما الحيلة والقضاء مقدر ، فإن الله عز ذكره يقدر أمثال هذه
الأمور . حتى يعرف العبد عجزه . وفي اليوم التالى أمر الساطان بعقد قران
الأمير محمد على الابنة الأخرى التي كانت باسم الأمير مسعود ، فاغتم مسعود
لذلك كثيرا ولكنه لم يستطع التفوه بكلمة . وكانت تلك الابنة طفلة جد صغيرة .
فأحضروها إلى الدار وأبقوها حتى دار الزمان وتوفي الساطان محمود ، وانتهى
أمر تلك الفتاة إلى أن دخلت حرم الأمير محمد عند وصوله إلى غزنة وجلسه
على سرير الملك وقيل إنها كانت في ذلك الوقت تبلغ الرابعة عشرة من عمرها .
وفي الليلة التي زفت فيها الأمير محمد وانتقلت من حيننا (سرآسيا) إلى دار
الإمارة شاهدت احتفالا يفوق الوصف . وقد أرسلت هذه الفتاة إلى الأمير
محمد بالقلعة بعد اعتقاله حيث مكث مدة هنالك فاعتراها ضيق أدى إلى عودتها

وهي ما تزال الآن تقيم بغزنة . وكان قلب الساطان مسعود متحاملا من الجفاء الذي لقيه من عمه وسائره القضاء الغالب حتى سقط من الثريا إلى الثرى ونعوذ بالله من الإدبار . وعندما استتب الأمر بهراة للساطان مسعود ، كما مرّ ، أرسل الحاجب يارق تغمش الجاه دار إلى مكران بجيش كثيف ليضبط أمورهما وينصب أبا العسكر والياً عليها ، كما أرسل الأمير يوسف مع عشرة من المقدمين وكتيبة من الجيش إلى قصدار ، ليكون ظهيرا للجاه دار ، حتى تستقر أمور مكران سريعا . وكانت تلك حجة ليبعد بها يوسف مدة عن وجهه وعن أعين الجند ، ٢٥٠ فيظل في تلك المدينة كالمحدد الإقامة ، يراقبه فيها أولئك المقدمون ، وخذعوا سرا ، بإيعاز من السلطان ، حاجبه طغرل الذي كان يعزه كأحد أبنائه ؛ ففسدوا الدسائس ليكون عينا على سيده وينهى إلى السلطان كل ما يجري ، حتى ينال ثمرات هذه الخدمة بمنصب رفيع ، وانطلت الحيلة على هذا التركي الأبله ، ولم يعرف كيف تكون عاقبة الكفران بالنعمة ، وأخذ يرسل من قصدار السعاة إلى بلخ يذكر الغث والسمين من الأخبار ، ويبلغها سرا إلى عبدوس ، فيهنونها إلى السلطان . وأنّى ليوسف أن يعرف أن عشيق روحه وأنيس قلبه أمسى رقيباً ؟ فكان يبث شكواه لهذا الرقيب دائماً ولا سيما وقت الشراب . ويرسل الكلام إرسالا فيقول : « ما هذا الذي جنيناه على أنفسنا فسنذهب جميعا واحداً بعد الآخر ، هذا ولعمري جزاؤنا لأننا نكثنا العهد ، وجفونا الصديق » ، وكانوا يكتبون كل ذلك ويزيدون عليه فيزداد حقد السلطان عليه . وبلغت القحمة بطغرل أن كتب إلى السلطان يقول « إن يوسف أخذ يدبر ليلاقى بنفسه في تركستان وهو يكاتب الخائنين » فأوعز السلطان سرا بالكتابة إلى الأعيان الذين كانوا مع الأمير يوسف بتشديد الرقابة عليه ، حتى يصل موكبهم إلى غزنة وقال : إنا سندعوه إذا ما اعتزمنا السير من بلخ إلى غزنة . وينبغي أن لا يدعوه يسير إلى جهة أخرى إذا أراد ذلك ، وعليهم أن يأتوا به إلينا حينئذ مصفدا

في القيد ، وإذا اتجه في سيره شطر بست أو غزنة فينبغي ألا يحاط خبرا البتة بما أمرنا . فقام أولئك الأعيان بما عهد إليهم بكل دقة واحتيال . وكنا وقتئذ في بلخ حيث وصلت الجمّازة ثلاث أو أربع أو خمس مرات من قصدار وهم يحملون أنواع الفواكه من الأترج والرمّان وقصب السكر ، ويحملون معها الرسائل التي يبدى فيها الأمير يوسف فروض طاعته وخصومه للسلطان ، شارحا أحوال قصدار ومكران . وكان السلطان يجيبه بردود لطيفة مخاطبا إياه بالأمير الجليل العم أبي يعقوب يوسف بن ناصر الدين وكتب له « إننا سنغادر بلخ يوم كذا وقد استقر أمر مكران ، فينبغي أن ترحل سريعا عن قصدار وتسير إلى غزنة كي تصل إليها حين وصولنا ، فنقدر حقوقك كما ينبغي . فسار الأمير يوسف من قصدار ووصل غزنة قبل أن يصل إليها السلطان مسعود . فلما سمع بأن السلطان قد اتجه شطر غزنة من پروان ، خرج بكل بساطة وتواضع لاستقباله ومعه ابنه سليمان وشادمه طغرل الخائن وخمسون غلاما . وتحرك السلطان من موضع سناج ولما يبق غير رده من الليل ٢٥١ مستقلا المهد الذي كانت تحمله أنثى من الفيلة ، والمشاعل تضيء الطريق بينما هم يتسامرون ميممين شطر بلخ ، حيث كانوا قد نصبوا سرادقه السلطاني هناك . وقرب المدينة لاح ضوء مشعل من بعيد في تلك الصحراء من جهة غزنة ، فقال السلطان لعله عمى يوسف الذي دعونه فجاء يستقبلنا . ثم بعث باثنين من ثقائه للاستطلاع فسارعا نحو المشعل ووصلا ثم عادا أدراجهما مسرعين يقولان : « أطال الله حياة مولانا إنه الأمير يوسف » . ووصل الأمير يوسف بعد ساعة . فأوقف السلطان الفيل ، وترجل الأمير يوسف وقبل الأرض إجلالا . وترجل كبير الحجاب بلكاتكين وكافة الأعيان الذين كانوا برفقة السلطان ، وطابوا جواد الأمير يوسف ثم أركبوه بكل تجلة واحترام . وأبدى السلطان نحوه عظما بالغا جاوز حد الوصف . ثم ساروا واختصه وحده بالكلام حتى طلع النهار ونزلوا للصلاة . ثم امتطى السلطان

جوادا بدلا من الميل وساق ويوسف إلى يساره يتحدثان ، حتى وصلا إلى المعسكر . فالتفت السلطان لعبدوس وقال « لقد حضر عما متخففا فأوعز أن ينصبوا هنا قرب السرادق ستارا وخياما وأخبية وينزل العم فيها ليكون قريبا منا » فقال سأفعل . ودخل السلطان السرادق ، ونزل في الخركاه . وأجلسوا الأمير يوسف في القسطنطين ونصبوا له صفة وستارا ، فذهب هنالك ثم نصبوا خياما أخرى نزل فيها غلمانه وأتوا بالموائد فهدوها . وكنت أراقب من ديواني ما يجري ، فرأيت لا يمد يده إلى شيء من الطعام مستغرقا في الفكر إلى حد بعيد كأنه أحس بمكروه دبر له . فلما رفعت الموائد وتفرق الأعيان اختلى السلطان ودعا عبدوس وأبقاه طويلا . ثم خرج عبدوس من لدن السلطان وسار إلى الأمير يوسف واختليا وتحادثا طويلا . وكان عبدوس يروح ويغدو محدثا إياه معددا خياناته . وكان مصيره أن أوقفوا هنالك عدة عند صلاة الظهر ثلاثة من مقدمى الهنود مع خمسمائة فارس هندي في أتم سلاح ، وثلاثة من النقباء الهنود معهم ثلاثمائة من الرجال المختارين ، وأحضروا بغلة مسرجة أوقفوها ، فرأيت الأمير يوسف ينهض ، وكان ما يزال بقلنسوته وحنائه ومنطقته . فاحتضن ابنه وبكى ثم حل منطقته ورماها جانبا وهو يقول لعبدوس « إننى ، ٢٥٢ أستودع هذا الغلام الله أولا ثم إياك من بعد » وقال لطغرل « لتهاأ أيها الكافر بالنعمة . هل ربيتك لهذا ؟ وهل كنت أعزك أكثر من ابني لتدبر بخداعك لي هذه المكيدة ؟ فليكن جزاؤك ما تستحق » ثم ركب وسيق إلى قلعة سكاوند ولم أره بعد ذلك أبدا . وفي السنة التالية ، أى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة (١٠٣١ — ١٠٣٢) ، سمعنا ونحن في الطريق عند رجوعنا من بلخ أنه قضى نحبه في القلعة الداخلية رحمة الله عليه ، وقصة طغرل هذا قصيرة نوعا ما ولكنها طريفة ولذا وجب ذكرها . ثم أعود إلى سرد التاريخ .

ذكر قصة هذا الغلام طغرل العضدي

كان غلاما لا يرى مثله في ألف غلام منظرا وقواما ولونا وظرفا وكفاءة . وهو ممن بعثت به من التركستان السيدة خاتون أرسلان خصيصا إلى السلطان محمود . إذ كانت تلك السيدة قد اعتادت أن تهدي إليه في كل عام غلاما نادرا وجارية بكرا ممتازة . وكان السلطان يقابل هديتها بهدايا من الثياب المقصبة والأقمشة المزركشة وعقود اللؤلؤ والديباج الرومي البديع . وقد أعجب السلطان بطغرل هذا وجعله في زمرة سبعة أو ثمانية من غلمائه المكافئين بشرابه بعد مرتبة اياز . واتفق بعد عامين أن جلس السلطان للشراب يوما وسط الزهور والرياح في روضة فيروزي ، وقد نثروا هنالك مالا يحصى من نوع زهر « صديرك »^(١) . وكان هؤلاء السعاة يأتون بالتناوب اثنين اثنين بوجود يسطع منها نور الأقمار . وجاء طغرل هذا وعليه قباء لعل اللون مع زميل له عليه قباء فيروزي . وطفق القمران يقدمان كؤوس الشراب وكان طغرل واقفا وييده كأس من شراب ذي لون بديع وقد لعبت الخمر برأس الأمير يوسف فجمدت عينه عليه وعشقه ولم يستطع تحويل عينه عنه ، رغم كل ما بذله من الجهود . وكان السلطان محمود يخلطس إليه النظرات ويشاهد افتتاح أخيه وهيامه . ولكنه تغافل ثم خاطبه بعد ساعة قائلا « أي أخى لقد توفي أبوك عنك وأنت صغير وقد أوصى عند وفاته عبد الله الكاتب بقوله « قررت أن يرعى محمود ملك غزنة يوسف ، لأن اسماعيل لا يقوى على ذلك ، ٢٥٣ فقل لمحمود عن لسانى بأنى مهم بأمر يوسف ، وجعلته في عهدتك فينبغى أن تنشئه على خلقك وتعزه كابنك » وأنت تعلم مقدار ما بذلنا حتى الآن من العناية بشأنك وظننا أنك قد بلغت مراتب الأدب .

(١) أي الورد ذو لائحة ورقة . انظر فصل Legacy of Persia: Persian Gardens

ولسكنا نراك الآن على غير ما كنا نظن وإلا فماذا دعاك إلى اختلاس النظر في مجلس الشراب إلى غلماننا ؟ لقد رأيتك لا ترفع العين مرة عن وجه طغرل . فهل يعجبك أن ينظر أحد في مجلس الشراب إلى غلمانك ؟ والحق انى لو لم ارع حرمة روح أبى لعنفتك اليوم تعنيفا شديدا . انى لأصفح عنك هذه المرة وأهبك هذا الغلام ، فإن لنا كثيرا من أمثاله ، ولكن أحذر أن تبدر منك هذه الفعلة مرة أخرى . إنه لا يلعب مثل هذا اللعب بمحمود .

فتحير يوسف في أمره ونهض من مقامه فقبل الأرض وقال . « لقد ثبت الآن ولن أرتكب مثل هذا الخطأ مرة أخرى » ، فقال السلطان له : « فلتجلس » ، فجلس وانقطع ذلك الحديث . وامتد بهم المجلس وأخذ الشراب من يوسف مأخذه . فعاد إلى منزله فنادى السلطان محمود خادمه الخاص « صافى » المعهود إليه أمر هؤلاء الغلمان وقال له « ابعث بطغرل إلى أخى » فبعثوا به . وفرح الأمير يوسف بذلك فرحاً عظيماً ومنح الخدم مالا وفيراً ، كما تصدق كثيرا . ورفع هذا الغلام حتى صار حاجبا له بل أصبح أعز لديه من أبنائه . وعندما هاجم سواد الليل بياض نهاره وانكسفت شمس سعده ، تقدم الخطبة فتاة من أسرة رفيعة القدر ، وتكلف في عقده وزفافه تكاليف لم تكن الحاجة تدعو إليها ، مما لم يعجب جماعة من العقلاء . فصار جزاء ذلك السيد هو ما ذكرناه . وبعد وفاة سيده حصل على منزلة وكوفىء من السلطان مسعود ولكنه صار بمقوت لدى السلطان ولدى الآخرين وحالفه الإدبار ، ثم توفى ملوما محسورا في ريعان شبابه . وتلك عاقبة من يكفر بالنعمة ألا فليعصمنا الله تعالى وجميع المسلمين بعصمته ، ويوفقنا إلى الأصلح لنبلغ بسعة رحمته ومنه شكر آلائه ونعمى عباده المنعمين . أما غلمان الأمير يوسف رحمة الله عليه فقد تفرقوا بعد وفاته

أيدى سبا . ٢٥٤ ووقعت لكتخداه أبي سهل لكشن^(١) من بعد أحداث وأزمات وصودر عدة مرات . وكان رجلا بالغ الفضل ذا أناة عاقلا ليديا فأنتهى أمره إلى أن أستدوا إليه عمل ناحية بست إذ كان من أهلها وقد توفي وهو يعمل فيها . ولحقت بالخواجة إسماعيل متاعب عديدة فذاق كثيرا من المرارة والحلاوة . ولكنه حفظ حق هذه الأسرة بخدمة أولاد هذا الأمير وأوقف نفسه على خدمتهم وسقط ونهض في سبيلهم وازداد شهرة في عهد السلطان مودود رحمة الله عليه ، وبأشر الأعمال الشخصية للسلطان المذكور وأبدى كفاءة وأمانة حتى أصبح ، ولا جرم ، وجيها عنده كما يقوم اليوم بمباشرة الأموال والضياع الخاصة بالسلطان الحالى أبي شجاع فرخ زاد بن ناصر دين الله مع كثير من المهام وقد مرت عليه مدة وهو يقوم بأعمال هذه الأعمال دون أن يؤخذ عليه عيب أو تقصير . وكان من جملة خدم الأمير يوسف رجل يدعى آموى آثر بعد وفاة سيده أن يعتزل خدمة الخلق ويشغل بالحراب والصلاة والقرآن والعبادة واستمر على ذلك إلى اليوم . إلا أن ملوك هذه الأسرة طلبوا إليه عدة مرات أن يستأنف الخدمة فقبل قيادة المطوعة في غزنة ، سلمهم الله ، وأبدى في ذلكهمة فائقة ولكنه ما لبث أن وسط الشفعاء لمنمسا إعنائه ، فنجأ بنفسه . وكثيرا ما عزموا على إيفاده سفيرا ولكنه كان يتخلص منهم بلطف الحيل أيضا . وعادوا في سنة تسع وأربعين (١٠٥٧) فأجوا عليه إلحاحا بالغاً ليقبل منصب الإشراف على أوقاف غزنة لتزدهر ويعلو شأنها ولكنه احتال بشتى الحيل فانصرم حبل هذا الحديث . والرجل كل الرجل من يستطيع أن يعمل مثل هذا ، فيكسر بذلك عنق الحرص والنهم . وكل من يرع جانب الله في أعماله وأفعاله فسوف

(١) في النسخ « لكشن » وهذا خطأ . ولكنه من هو جد أبي سهل هذا وقد ذكر كثيرا في شعر فرخى . غنى - فياض حاشية ١ .

لا يضيع الله ، جلت عظمته . أجر عبده هذا . وكذلك مثل أبي القاسم حكيم^(١) ذلك الرجل اللطيف اللبيب الذى كان نديما للأمير يوسف فلم يقبل خدمة أحد ، فكان وفيا كريما فيما فعل . وهذان الرجلان يقيمان الآن بغزنة وهما من زمرة أصدقائى . وما كان عذرى إذا لم أقدر صداقة الجميع وأتحدث عنهم ، فإن ذلك لا يباين أصول التاريخ .

وبعد الفراغ من هذه القصة استأنف تاريخ السلطان مسعود رضى الله عنه ٢٥٥ بعد إلقاء القبض على الأمير يوسف وسوقه إلى قلعة سكاوند .

ارتحل موكب السلطان فى اليوم الثانى من بلى ، وتقدم إليه فى موضع باجگاه المقدم أبو على كوتوال وأبو الفاسم على نوكى صاحب البريد ، ولم يكن مسموحا لهنين الشخصين فى أى عهد بالتقدم للاستقبال إلى أبعد من هذا الموضع ، وأكرم السلطان كلا منهما بما يستحق ، وكان الكوتوال قد أتى معه بما لا يحصى من أصناف المأكولات والنقل التى كان بارعا فى انتقاها وتقديمها . فسر السلطان غاية السرور وأثنى عليهما وأعادهما إلى المدينة ، وأمر الكوتوال أن يبذل اهتمامه ويحشد الرجال فى أهبة تامة من ساحة الخلقانى حتى الجوسق حيث كانت أقواس النصر بمقامة الواحد تلو الآخر ، كي لا يحدث مكروه أو خلل . وفى اليوم النالى ، الخميس الثامن من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٢١) ، تقدم السلطان إلى حاضرة ملكه فى موكب عظيم حافل . فخرج أهل المدينة رجالا ونساء وأطفالا لاستقباله فى حماس وسرور . وكانوا قد نصبوا فى ساحة الخلقانى قبابا مزينة فى غاية الأبهة ، كان الشيوخ يقولون لهم لم يعهدوا مثلها ، ونثرت صدقات لا تحصى . وكان العبور بين أقواس النصر

(١) تذكر فى بعض النسخ خليك وفى أخرى خليك . غنى فياس - حاشية ٢ .

من الصعوبة بمكان ، مما حمل جمعاً كثيراً من الناس على السير من ناحية خشك رود وشابهار^(١) . ونزل السلطان باليمن والإقبال في الجوسق المعمور قبل الظهر . وكانت عمته الحرة الختلية ، رضى الله عنها ، قد أعدت كثيراً من أنواع المآكل اللذيذة وأرسلتها إليه على جارى عاداتها أيام السلطان محمود . فسر بذلك السلطان مسعود سرورا بالغاً . ولم يأذن عصر ذلك اليوم لأحد وخص ليلته لاستقبال حرائر النساء والسرارى السلطانية اللاتى حضرن لرؤيته . وفى هذا اليوم وفى ليله عم المدينة السرور والطرب والغناء . وطلق الأهلون ينجولون ويشربون ويقيمون الولائم والحفلات ٢٥٦ بصورة لا تخطر على بال . ثم أذن السلطان للاستقبال فى اليوم التالى : وجاس فى قاعة العرش مكان أبيه وجده رحمة الله عليهم أجمعين . فأخذ أهل المدينة يقدون إزيارته أفواجا ، ونثر الموالى والحشم والجنود والأهلون أموالا طائلة ترحيباً بملك عظيم يتربع على دست الملك فى ذلك اليوم . وأنشد الشعراء أشعارا كثيرة امتلأت بها الدواوين ، وقد ضربنا صنفجاً عن ذكرها كيلا يطول المقام . واستمر ازدحام الخلق حتى صلاة الظهر . ثم دخل السلطان السراى وعمد إلى الشراب دون أن يحضر الندماء ، ولم يأذن بالاستقبال عصر ذلك اليوم ولا فى اليوم الذى يليه ، ولكنه ركب مبهما شطرحديقة النصر (باغ فيروزی) فى حى بست زار ، ليزور ضريح والده رضى الله عنه ، حيث بكى هنالك وأمر بعشرين ألف درهم للقوم الذين يعملون به . وخاطب نبيه الفقيه ونصر بن خلف قاضى العسكر بقوله : « ينبغى أن تحشدوا الكثير من العمال حتى يتم هذا الرباط ، كما يجب مراقبة أوقاف هذا الضريح ليصرف ريعها فى طرقها وسبلها . وقد كان أبى يحب هذا البستان ولذلك أوصى بدفنه فيه ، وقد حرمتنا هذه البقعة على أنفسنا . ولا نأت هنا لغير الزيارة

(١) كان شابهار ميدانا خاصا لمرض الجند ، وقد تكرر فى هذا الكتاب . غنى بـ ٣ .

حرمة له » لذلك يجب اقتلاع ما يؤكل من الخضر والنبات ويجب أن لا تسمحوا لأحد بالمجيء إلى هنا للنزهة » فقالوا : « سماعاً وطاعة » وألسنة الحضور تلهج بالدعاء الكثير .

ثم خرج السلاطون من البستان ميمما طريق الصحراء يصحبه الموالي والحاشية حتى وصل إلى موضع أفغان شال حيث نزل لزيارة قبر الأمير العادل سبكتكين رضى الله عنه . وأمر لمن كان هناك من الناس بعشرة آلاف درهم . ثم آب إلى السراى المعروف بجوسق الدولة . وجلس الأعيان فى الدواوين وأخذوا بعد ذلك فى مباشرة أعمالهم . وفى يوم الثلاثاء لعشرين خلون من جمادى الآخر ذهب السلطان إلى الروضة المحمودية . حيث تناول الشراب وسرّ بالمكان فأمر أن تحمل الرحال والدواوين إليه فانتقل إليه رجال الحاشية جميعهم والغلمان والحرم ودواوين الوزارة والعرض والرسالة والوكالة وجلس الأكابر والأعيان ، وسارت الأمور سيرها المعتاد واغتبط رجال الجيش والأكابر والأعيان جميعاً ، وتعلقت قلوبهم بهذا السلطان العظيم ، الذى يسير فى الناس سيرا ٢٥٧ محمودا . ولو أنه استمر على ذلك المنوال لما تطرق خلل إلى أى باب . ولكن كان هنالك وزراء يعملون فى خفية بعيدا عن تناول الأستاذ الرئيس أحمد حسن . وكانوا لا يراعون صالح الملك فأقدموا من أجل تحقيق أطماعهم على أعمال الملوك وخاصة إذا كانوا شباناً فرهين . وكان أول عمل سببوا به قنوط الناس ويأسهم من هذا السلطان أن دبر أبو سهل الزوزنى والآخرى سرا وجوب استرجاع أموال البيعة والصلات التى منحها أخوه الأمير محمد ، وأن من الحيف أن يبذل من أجل أمر لم يتم أكثر من سبعين أو ثمانين ألف ألف درهم للأتراك والأعراب وأصناف الجند . وزينوا هذا الحديث للسلطان

وقالوا « إن المحمودين لخداعهم وريائهم لا يرغبون أن يسند السلطان هذه الأموال » فهم « لوثون وقد أخذوا الأموال فلا يرضيهم أن تؤخذ منهم ثانية. فالرأى أن يطالب إلى التائبين على الخزائن قوائم بالمصروفات التي انفقت وأن ترسل هذه القوائم إلى ديوان العرض ، وأحيل أنا ، أى أبو سهل ، مرتبات الجند بعضهم إلى بعض بطريقة التسبيب^(١) ، ويكتبون البراءات حتى تستوفي تلك الأموال ، وينبغي أن لا يصرف مال للرتبات من الخزانة لمدة عام حتى يستوفي كل ذلك المال بما كان قد أخذه الجنود والأعراب ، فقد استمروا فى أخذ الأموال أربعين عاماً وكلهم فى رفاهية من العيش ، وما العمل الذى قاموا به فيستحقون من أجله كل هذه الأموال الطائلة ؟ إنه يجب طردهم » . فقال السلطان « حسناً » واخلى بالأستاذ الرئيس وتكلم معه فى هذا الشأن ، فأجاب الوزير إن الرأى لمولانا فيما يأمر ، ولكن هل فكر السلطان فى هذا ملياً ؟ فقال السلطان : « نعم لقد فكرت فى ذلك ورأيت العمل به هوأبأ فإنه مال كثير » ، فقال الوزير « ليمهل العبد حتى يفكر أيضاً ويعرض كل ما يعن له ، لأن الجواب لا يستقيم على البديهة ، وعندئذ يأمر الرأى العالى بما يرى » فأجاب السلطان « حسناً » .

وعاد الوزير وظل معتكفاً طوال ذلك اليوم وليله يفكر فى هذا الأمر . فبدا له أن هذا العمل منكر ، فإنه لم يكن من أولئك الأكابر المحنكين الذين عركوا الزمان ثم تخفى على ضمائرهم النيرة مغبة هذه الأشياء . وفى اليوم التالى بعد أن أذن السلطان وانصرف القوم من حضرته اختلى بالوزير ٢٥٨ وسأله : مارأيك فى حديث أمس ؟ فأجاب : سأذهب إلى الإيوان ثم أطلعكم على

(١) التسبيب : أن يسبب رزى رجل على مال متعذر ليعين المسبب له العامل على استخراجها فيجعل وردا للعامل وإحرجا إلى المترق بالقلم . مفاتيح العلوم ، ٤١ .

الجواب . فقال السلطان : حسنا . وجلس الوزير في الإيوان واستدعى أبا نصر واختلى به وقال له : هل لك علم بما دبروا ؟ فقال كلا فقال الوزير : لقد حملوا السلطان على أن يسترد كل مأموحه وأعطاه أخوه الأمير محمد للجنود والسادة والشعراء وحتى ما أعطاه للطبالين والزمارين^(١) والمضحكين ، وقد فاتحني السلطان في هذا الأمر إلا أنني لا أرى هذا لائقا بأية حال . ولكني لم أجد رأيا في هذا الشأن فقد رأيته حريصاً على استرداد هذه الأموال فقالت سأفكر في ذلك ، وقضيت البارحة بلياتها أفكر في هذا الأمر ومهما أعملت النظر لم أر الإقدام على هذا العمل لائقا لأنه يؤدي إلى سوء سمعة فاحشة ، وسيضيع الكثير من هذا المال ، إذ ليس من الممكن استيفائه فما قولك في هذا الأمر ؟ فقال أبو نصر : إن الأسناد الرئيس هو سيد العبيد وأستاذهم جميعاً ، والصواب ليس في غير ما رآه وإني أقول ما قاله ولعمري فلم يصنع أحد هذا الصنيع ولم يقرأ أحد أو يسمع أبداً أنهم أقدموا على عمل كهذا ، نعم إن شيئاً كهذا لم نسمع به في أخبار ملوك الفرس لتقدم عهدهم عنا ، ولكننا لم نقرأ على أي حال عن ملوك المسلمين أن أحداً من الخلفاء أو أمراء خراسان أو العراق أقدم على استرداد هبات الصلوات والبيعة ويقيني أن هذا الكلام لن يجدي نفعا في هذه الأيام ، أما أنا أبو نصر فقد أعددت كل ما كان الأمير محمد قد وهبني إياه من الذهب والفضة والألبسة غير المخيطة والاقبية والعمائم وغيرها لأقدمها فوراً ، فقد كنت حقا أفكر في هذه الأيام وسأبعث بها اليوم توال إلى الخزانة قبل أن يأخذوها مني بالتسبيب^(٢) وتذهب حرمتي إذ الكلام في مثل هذه الأبواب لا يجدي وإعادة ما أخذته سهل يسير لأنه موجود ، كما أستطيع دفع عوضه فيما إذا كان قد تلف أما استرداد ما أخذه فارس بسيط أو أحد

(١) استخدم كلمة « دبدة » العربية .

(٢) انظر ٢٨٢ حاشية ١ من هذا الكتاب .

صغار الناس فأمره مضمّن يستأزم القليل والقال الكثير ويورث آلام الرأس وما أعرف إلى أين تصل الحال مع هذا الملك الرحيم الحليم الخجول ، فإنهم على ما يبدو لم يدعوه يستقر على حال واحد إذ هم يعملون دائماً لحمله على تغيير القواعد والأوضاع المرسومة . فقال الأستاذ الرئيس فلنذهب وتبلغه من قبلى فى هذا الباب مشافهة صريحة دون أى محاباة ، حتى إذا ظهرت مغبة هذا الأمر غداً وندم على صنيعه ٢٥٩ هذا لا يبقى له مجال للقول بأنه لم يكن أحد ينصحنى ويوضح لى مغبة مثل هذا العمل . فذهب أبو نصر وعرض مقالة الرئيس بصراحة محكمة قوية جازمة ولكنها ذهبت سدى لأن وزراء السوء كانوا قد أحكموا الخطة تماماً ، فكان جواب السلطان إن ما يراه الوزير حسن وإننا سننظر فيه ونأمر بما ينبغى . فرجع أبو نصر إلى الإيوان وشرح للوزير ما سمعه من مقالة السلطان وأضاف إلى ذلك قوله : إني لا أرى فائدة فى محاولتنا هذه . وعاد الوزير إلى ديوانه ، أما أستاذى أبو نصر فإنه أرسل سرا أحد معتمديه بعد أن رجع إلى منزله ليطلب من الخزانة سجلاً بكل ما كانوا قد منحوه إياه أيام ولاية الأمير محمد من الذهب والفضة والثياب والأقبية وشتى الطرائف ، فكتبوا له السجل وأرسلوه إليه فجمع كل ما جاء بالسجل وأرسله إلى الخزانة فى الحال وأخذ توقيع الخازن على النسخة كحجة عليه . وبلغ هذا الخبر السلطان فأعجبه وقال أبو سهل الزوزنى وغيره : يجدر بالآخرين أن يعملوا على هذا المنوال . وأجلسوا أبا منصور المستوفى وعمال الخزائن والمشرفين والكتاب فى هذين اليومين ليدونوا قوائم بالصلات والخلع التى وزعت إبان ولاية الأمير محمد على الأعيان وأركان الدولة والحاشية وأصناف الناس فتبين أنه مال كثير لا يحصى . واطلع السلطان عليها وسلمها لأبى سهل الزوزنى وقال له : سوف نذهب للصيد فى أرض زه^(١)

(١) اسم مكان كما يبدو من الحديث . غنى - فبأن حاشية ٢ .

حيث نمكث عشرين يوما فأوعز إليهم بعد سيرنا أن يكتبوا البراءات فيحيلوا هذه الجماعة على تلك وتلك على هذه حتى تسنو في الأموال بالمقاصة^(١)، ويحملوا بعد ذلك إلى الخزانة كل ما ينبغي حمله إليها . فقال : سمعا وطاعة . وذهب السلطان بعد صلاة الجمعة الموافق غرة رجب من هذه السنة للصيد في ناحية زه بعدة وأهبة تامة وبقي الأستاذ الرئيس والعارض وصاحب ديوان الرسائل بغزوة . وبعد مسير السلطان أخذت البراءات تترى على الناس وانتشر بينهم القبل والقال والإشاعات بشكل يفوق الحد وبلغ سوء السمعة إلى ما لا يمكن وصفه . وكان الأستاذ الرئيس يرد على من كان يذهب إليه شاكيا بقوله : إن هذا الأمر بيد السلطان والعارض وليس لي دخل فيه . وكان السلطان من جهته يجيب الندماء والحشم بأن هذا الأمر يعود إلى الوزير والعارض . فكان ٢٦٠ يظهر وكأنه لا يعرف شيئا مطلقا عما يجري . وقد اضطهدوا الناس وشددوا عليهم في تحصيل الأموال، وجمع في النهاية منهم مال كثير فيئست قلوب الناس دفعة واحدة ، فخدمت في نفوسهم كل تلك الميول والعواطف البالغة التي كانوا يبدونها ، ولاكت أفواه الناس أبا سهل وأيقنوا أن كل ذلك لم يصدر إلا عنه ولم يذكروا أحدا من رفاقه الذين شاركوه الإثم وساءت سمعته وندم على ذلك حين لا ينفع الندم . وقد جاء في الأمثال أن « قدر ثم اقطع ، ولكنه قطع أولا دون أن يقدر ثم خاط فبدا الثوب ضيقا والحذاء لا تستوعبه القدم .

ذكر السيل

كانت السماء تمطر رذاذا بين الصلاتين في يوم السبت التاسع من رجب ، بحيث بدا وجه الأرض مبالا ، وفي إبان ذلك أنزل جماعة من الرعاة قطعان

(١) المقاصة أن يحبس القابض له ما كان ناهضه واستلفه . وربما يقاس من رزقه بحق بيت المال قبله من خراج أو نحوه فيجعل ما استلفه أخراجا إليه ووردا له . مفاتيح العلوم ص ٤٣ .

الماشية من البقر وغيرها في مجرى نهر غزنة — الذى كان يجف عادة في ذلك الموسم — وكلما ألحوا عليهم ليخرجوا ماشيتهم من ذلك المجرى موضحين لهم أنه من المحال الوقوف في داريق السيل لم يأبهوا لشيء حتى اشتد المطر ، فخرجوا متكاسلين ميهمين شطر الجدر ان الموصلة إلى محلة قرية الحدادين فنجوا برهة ولكنهم أخطأوا بتريهم وكانوا قد ربطوا في العدو الأخرى من النهر بما يلي أفغان شال عدداً كبيراً من البغال السلطانية بين الأشجار ، وكانت مرابط تلك البغال تمتد إلى جدران الطواحين بتلك الناحية ، وكان المكفون بها في غفلة ، وكانت الحمير من ورائهم وهذا هو الخطأ الآخر إذ كانت في طريق السيل . وقد قال نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم : نعوذ بالله من الأخرسين الأحمين . وكان عليه الصلاة والسلام يقصد بقوله هذا النار والماء . ولم تكن قنطرة باميان هذه مبنية في تلك الأيام على هذه الشاكلة فقد كانت محكمة البناء مقامة على أعمدة قوية وعلى تلك الأعمدة يمتد بناء المعبر قصيرا نوعا ما وعلى جانبيه صفيين من الخوانيت كالخوانيت التي نراها الآن فلما تهدمت بفعل السيل ، شيد التاجر الطيب الذكر عبويه القنطرة الحالية الجميلة ذات الطابق الواحد بدلا منها فصارت مأثرة منه ، وإن مثل هذه الآثار تبقى ذكرى لبانيها . وقصارى القول أن تلك القنطرة تهدمت بعد ٢٦١ صلاة العصر بتأثير السيل على صورة لم يعهد مثاها أحد من الشيوخ الذى شاهدوا أمثال هذه النكبات ، إذ دهم السيل الناس فجأة فاقتلع الأشجار من جذورها ، ودفعها أمامه فنهض على أثر ذلك الرعاة وعمال الاصطبلات ونشطوا لجمع الحيوانات وسوقها إلى ركن أمين وأنى لهم أن يقدروا على ذلك وقد أخذ السيل يسوق الدواب والأشجار والغصون الماتفة بعضها ببعض ويدفعها أمامه صوب القنطرة فانسدت فتحاتها وارتفع سطح الماء حتى أغرق القنطرة ، واشتد طغيان السيل فمال إلى الصعود منتشرا ها هنا وهناك كجند اختل نظامها وارتفع مستوى النهر حتى وصل الماء إلى

الأسواق ومنها إلى الصيارف وأحدث أضراراً جساماً . ومن أفدح ما اتفق أن السيل اقتلع القنطرة بحوانيتها فوجد الماء طريقه إلا أنه أتى في تدفقه على الأربطة والفنادق وتهدمت الأسواق فأدمست أثراً بعد عين وبلغ الماء حتى أسفل سور القلعة فهدمت وصارت كما كانت عليه قديماً قبل أيام يعقوب بن الليث الصّفار ذلك لأن قلعة غزنة والموضع المعروف اليوم بشارستان من مآثر أخيه عمرو بن الليث الذي ولي الحكم بعده . وقد شرح كل هذه الأحداث الأسناد محمود الوراق في تاريخه الذي ألفه في سنة خمسين وأربعمائة^(١) (١٠٥٨) فإنه ذكر الحوادث منذ آلاف السنين حتى سنة أربعمائة وتسع (١٠١٨) وهي السنة التي بدأت التاريخ بها ، ومحمود هذا ثقة مقبول القول ولو أردت الثناء عليه لطال الكلام في ذلك وقد رأيت من مؤلفاته النادرة العشرة أو الخمسة عشر كتاباً في شتى الموضوعات ، فلما بلغ خبري أبناءه صاحوا في قائلين : نحن أبناءه لانوافق على أن تأخذ من كلام أيدينا أو تترك منه شيئاً بعد هذا فاضطرت للوقوف عند هذا الحد . وقد أضر هذا السيل الجارف بالناس ضرراً بليغاً لا يمكن وصفه . وفي اليوم التالي وقف الناس على جانبي النهر للمشاهدة وقد مال مستوى طغيانه إلى الهبوط قبيل صلاة الظهر ولم يكن من قنطرة هنالك ، ظل الناس يترددون بين جانبي النهر بكل صعوبة عدة أيام حتى أقيمت القناطر من جديد . وقد ذكر لي نفر من ثقات الزابليين أن الناس أخذوا حين انحسر السيل يلتقطون أشياء ثمينة من الذهب والفضة والملابس الغالية الممزقة بما قذفه السيل هنا وهناك . والله تعالى وحده يعلم ما حصل عليه الفقراء من هذا السيل من النعم .

(١) هكذا في نسخة أديب ، أما النسخ الثلاث الأخرى فقد ذكرت « في سنة ثلاثمائة وخمسين » . ورجح نفيسي نسخة أديب في هذا (ص ١١٣ حاشية ١) ، وأخذنا بهذا الرأي في الترجمة .

وعاد السلطان بعد ذلك من ساحة الصبد في جهة زه إلى البستان المعروف
بصد هزار ، ووافق ذلك يوم السبت السادس عشر من شهر رجب واستمر
مهما هنالك ياهو ويشرب سبعة أيام حتى وصلت جميع الحيوانات التي صاها ،
ومن ثم انتقل إلى الحديقة المحمودية . وكانت الرسائل قد وصلت إليه من الري
قبل ذلك بأيام تصف هدوء الأحوال وتقول « إن ابن كاكو وأمراء تلك
النواحي قد انصاعوا لحكمه وثبتوا على العهد لأنهم لم يروا ما يشجعهم على
تحقيق الأحلام التي كانت تحدثهم بها نفوسهم ، ولكن يجب أن يكون هنا
قائد عظيم ، فإن الري بلد كبير كما رأها مولانا ومن الممكن أن تحدث بعض
القلقل فيما بعد رغم انتظام الأمور فيها الآن » . فاختلى السلطان رضي الله عنه
بالاستاذ الرئيس أحمد حسن والأعيان وأركان الدولة من أرباب السيف والقلم
وتجادبوا أطراف الحديث في هذا الشأن . فقال السلطان : إن تلك الولاية
إقليم عظيم واسع يدر على الدولة مالا وفيرا فلا يمكن تركه وشأنه بأي حال
بعد أن استولينا عليه عنوة بحمد السيف ، ولم يبق هنالك ما قد يسبب قلقا من
الخصوم ، ولو أن الفرصة أتاحت لنا فثريثنا هنالك مدة أخرى لاستطعنا
الوصول إلى بغداد ، فإنه من اليسير أن يقال إنه لا يوجد في العراق من أقصاه
إلى أقصاه رجل عسكري كفء ، نعم هنالك شرازم من أصحاب السراويل
الفضفاضة^(١) ، ونحن الآن بحاجة إلى قائد شديد المراس ذكي ٢٦٣ الفؤاد وإلى
كتخدا بحكم التدبير فمن ترون جديرا بهذين المنصبين ؟ . فظل الجميع سكوئا
منتظرين ما يشير به الخواجة أحمد والتفت هذا إلى القوم قائلا : أجيئوا
السلطان . فأجابوا : من الأفضل أن يبدأ الوزير الحديث لنسمع منه ثم نبدي
رأينا بقدر ما نستطيع . فقال الخواجة :

(١) يقصد بهذا الوصف التعريضي بالديالمة .

«أطال الله حياة مولانا ، إن الرى والجبال بلاد واسعة ذات دخل عظيم ، وكانت على عهد بنى بويه مستقرا للبلوك العظام والوزراء الكبار كالصاحب إسماعيل بن عباد وغيره كما هو معروف ، وقد التهمت بلاد الرى خزائن آل سامان لتردد أبى على الصاغاني وأبيه عليها ، فقد كانوا يستحذون على الرى والجبال تارة ويستردها البويهيون تارة أخرى ، ودامت الحال على ذلك بين أخذ ورد حتى قضى على الصاغانيين وقطع دابرهم وانتهى أمرهم وانتقلت إمارة خراسان إلى يد أبى الحسن سيمجور ، وكان من المحنكين الدهاة إلا أنه كانت تنقصه الشجاعة ورباطة الجأش فتقدم وأبرم بين السامانيين والبويهيين وفنا خسرو عهدا ينص على أن يحملوا كل عام أربعة ألف ألف درهم من الرى إلى نيسابور لتوزع على الجند ، وأعمدت السيوف واستقام الصلح بينهم . واستمرت هذه المعاهدة مدة ثلاثين عاما حتى توفي أبو الحسن فاختلف شأن البويهيين والسامانيين معاً ، ومن ثم استولى السلطان محمود على خراسان وكان يحدثنى فى خلواته كثيرافى شأن الرى ويقول لى : ينبغى لنا أن نقصدهما . فكنت أجيبه بأن رأى ما يراه السلطان فإن ذلك الإقليم ليس بذات خطر والقائم على أمره امرأة فكان السلطان يضحك ويقول : ولو أن هذه المرأة كانت رجلا لاحتجنا إلى إبقاء جيش عظيم فى نيسابور . ولم يقصد السلطان الرى فى حياة تلك المرأة ، وبعد أن قصدها واستولى عليها دون عناء نصب مولانا عليها . وذلك الإقليم شديد البعد عنا وكان ظل السلطان الماضى شيئا أما اليوم فقد تغير الحال ، ويرى العبد أن الأفضل هو أن تبقى تلك النواحي بيد ابن كاكول لأنه رغم أنه أقرب لأن يكون عدوا فإن من المستطاع أخذ الحق منه فلا تبقى ثمة حاجة إلى ترك جيش كثيف وقائد كبير هنالك ، على أن تبرم معه معاهدة يسلم بموجبها المال كل عام ويكون القضاة وأصحاب البريد من قبل الحضرة العلية معه نوابا له .

فقال السلطان نعم إتنى فكرت فى هذا الأمر إلا أنى أراه لا يخلو من

عيب كبير ، وذلك أن هذا الرجل حينما كانت له إصفهان وحدها ٢٦٤ كان مجد الدولة والرازيون يلقون منه عنتا شديدا ، واليوم لو تركت له الرى فو قم وكاشان وجملة تلك النواحي قلن تمضى سنتان على سيره بالجنسى حتى يفتر ويدعى الشاهنشاهية ويجمع الناس حوله ، فلا بد والحالة هذه من أن نوفد إلى تلك الجهات قائدا عظيما بجيش كثيف يستأصل شره ، وإصفهان وحدها تكفيه على أن يحكمها باسمنا وليبق القائد والكتبخدا اللذان نبعثهما اليوم رابضين على رأسه وقلبه وتكون لنا الرى والجبال ، وعندئذ يرضح ابن كاكو راغما . فقال الأستاذ الرئيس : الحق فى هذا الباب ما يراه مولانا ولكن ما الرأى فى الجرجانيين وأبى كاليجار^(١) ؟ فأجاب السلطان : إن أبى كاليجار لا بأس به ولكن الأعمال فى جرجان وطبرستان سوف تنقد لأن هذا الصبى ابن منوچهر لم ينضج بعد للقيام بأعباء الحكم كما ينبغى وليست فيه همة الملوك فإذا ابتعد هذا الرجل عن تلك الولاية آل أمر الجبال وتلك النواحي إلى الفساد ودعت الحاجة إلى إيفاد قائد إليها . فقال الخواجة : فيلزم تعيين قائد كبير ومولانا يعزف القادة جميعا فليأمر بتعيين من يراه لائقا من بين الخدم سواء الباقمين الآن بالعمل أو من الخدم المعتقلين الذين يأملون أن يشملهم عطف السلطان ورحمته . فقال السلطان : لا يمكن الوثوق بأى حال من الأحوال بالمعتقلين ، لأن كلا منهم قد اعتقل لذنوب كبيرة . كما أنه لا يجوز الثقة بالمحدثين ، وأما هؤلاء الأعيان الذين يخدمون فى الحضرة فلكل منهم عمل كالحجابة الكبرى وقيادة غلبان السراى وغيرها فلا يجوز إبعادهم عن أعمالهم كيلا يحدث خلل فينبغى اختيار واحد من غير أولئك . فقال الأستاذ الرئيس : فماذا يرى مولانا فى على دايه ، فإنه رجل كفء عظيم وقد قام فى غيبة مولانا بتلك الخدمات التى لا تخفى ،

(١) كاليجار كلمة بهلوية معناها الحرب أو المعركة وقد ركب مع كلمة أب العربية .

غنى من قياض حاشية ١ .

أو أياز الذى يعد من خيرة القادة ، وقد صحب السلطان الماضى فى كل الأحوال . فقال السلطان : إن عليا كفاء وجدير بهذا المنصب ولكننا سنسد إليه منصبا كبيرا وسوف أخبر به الخواجة ، أما أياز فإنه نشأ فى العز والدلال وكان كالظل لو الدنا ولم يبتعد خطوة عن السراى . ولم يذق حلو الدهر ومره ولم يتدرب فهو لا يستطيع القيام بأعباء مثل هذا المنصب ويجب أن يبقى مدة لدينا بعيدا عن السراى حتى يمارس كل عمل ويختبر فى كل أمر فننظر فى شأنه ونأمر بما ينبغى له . فقال الخواجة : إن هذا ما كان يراه العبد ٢٦٥ وليس من شك أن مولانا قد فكر ودبر فالرأى العالى فوق جميع الآراء . فقال السلطان : إن قلبى يميل إلى تاش فراش فإنه من أصحاب أبى وقد كان فى الرى معنا ، وقد وضعناه هناك فى مقام كريم ولم يزل معروفا به فليذهب الآن ليقیم بنيسابور شهرين أو ثلاثة فى طريقه ليتم هنالك بعض الأمور والمهام التى سأفوض بها إلى الخواجة ومن ثم يزحف إلى الرى ، حتى إذا مارحلنا فى هذا الشتاء إلى بلخ نأمر بتعيين الكتخدا وصاحب البريد وغيرهما من يجب أن يعينوا حتى يذهبوا . فقال الخواجة : نعم الرأى مارآه واختاره مولانا إلا أن القوم الذين يقع عليهم الاختيار ينبغى أن يكونوا مجهزين بكل ما يقوى شأنهم من معدات وآلات . فقال السلطان : نعم سيكون ذلك وسنأمر بما يلزم .

وتفرق القوم وأمر السلطان أن يعدوا لتاش فراش خلعة فاخرة للغاية تشتمل على منطقة من ذهب وقبعة ذات ركشين وسرج ذهبى بألف مثقال وعشرين غلاماً ومائة ألف درهم وستة أقيال خول وثلاث إناثا وعشر بذلات خاصة وكوسات وراية . فجهزوا كل ما يستلزمه ذلك على أتم وجه فى بقية هذا الشهر . ثم أذن السلطان وأمر بعد أن انتهى الاستقبال أن يذهبوا بتاش فراش إلى خزانة الألبسة والبسوه الخلعة وتقدموا به غطاطبه السلطان بقوله : بورك لك ولينا إن هذه خلعة سبهيلا لارية العراق وإنك تعلم أن لنا خداما كثيرين

وإنما وقع اختيارنا عليك لتشريفك بهذا المنصب الجليل لأنك خدمتنا في الري وكنت قائداً ، فكلما ازددت إخلاصاً في خدمتنا أمرنا لك بإزيد المنزل والجاه والرعاية . فقَبِلَ تاش الأَرْض وقال : ما كان العبد مستحقاً هذه المرتبة وهذا الجاه وقد كان من أقل العبيد فتفضل علىّ مولاي بما يقتضيه جلاله ، وسأبذل قصارى جهدى طالباً التوفيق من الله عز وجل حتى أتمكن من تقديم خدمة تقع موقع الرضا والقبول . وقَبِلَ الأَرْض وآب إلى داره . ثم ذهب إليه أعيان الحضرة وأدوا حقه على أحسن ما يكون .

وبعد أسبوع اختلى السلطان بتاش فراش ٢٦٦ وحضر تلك الخلوة كل من الأستاذ الرئيس أحمد حسن والخواجة أبي نصر مشكان وأبي بهل الزوزنى وأعطى السلطان تاش الأوامر بشأن الري والجبال وقال له : ينبغي أن تمسك ثلاثة أشهر بنيسابور حتى تصل الجيوش المزمع إيفادها إلى هنالك ويدفع سوري صاحب الديوان مرتباتهم ثم تسير بعد ذلك بأهبة كاملة ، وقد أمرنا يغمر وبوقه وكوكتاش وقزل وكافة التركمانية بنيسابور أن ينضموا إليك وأن يكون الحاجب خمار تاش قائداً عليهم ، فينبغي أن تبذل غاية الجهد للقبض على هؤلاء المقدمين إذ قد اتضح لدينا أنهم يريدون فساداً وعليك بتطبيب خواطر التركان ، وتسليمهم إلى خمار تاش ثم تسير بعد ذلك إلى الري . فقال تاش : سمعاً وطاعة وانصرف . فقال الأستاذ الرئيس : أدام الله حياة مولانا السلطان لقد كان من الخطأ بادی الأمر أن يؤتى بهؤلاء التركان إلى عقر دارنا وقد تكلمنا كثيراً ، التونتاش وأرسلان جاذب وأنا والآخرين في تلك الأيام دون جدوى ، وإذا كان السلطان الماضي عنيدا مستبداً برأيه فارتكب ذلك الخطأ ونجم عن ذلك المفاسد العديدة فضربرهم وأجلوهم عن خراسان ، ولكن مولانا سمح لهم بالعودة ، والآن وقد أخلدوا إلى السكينة والتحقوا بالخدمة ، فمن الخير أن

يتعهدهم أحد الحجاب ولكن ليس من الحكمة القضاء على رؤسائهم لأن ذلك قد يؤدي إلى سوء ظنهم وانحرافهم . فقال السلطان : لقد التمس ذلك بعض المتقدمين منهم وسنفعله ليهدأ خاطرهم . فقال الخواجة : لقد كنت بعيداً عن مزاوله أمثال هذه الأمور عدة سنين ومولانا دون شك أعرف بها منى وما يراه الرأى العالى لا يتسنى للعبيد رؤيته والصواب ما يراه . ثم قام وانصرف وقد قال وهو فى طريقه إلى الديوان لأبى نصر مشكان وأبى سهل الزوزنى : إن هذا الرأى خطأ فاحش أما أنا فقد أبرأت ذمتى وأنتما شاهداى على ذلك . ومضى لشأنه .

وبعد أيام قال السلطان للأستاذ الرئيس : إن بلاد الهند لن يستقيم أمرها دون قائد فمن تراه جديراً بهذا المنصب ؟ . فقال الوزير : إن مولانا يعرف عبيده حق المعرفة وهو لا بد قد فكر فى العبد الذى يليق بهذه المهمة وإنها لعظيمة وخطيرة وحيث أن رجلاً كأريارق كان يقوم بهذا الأمر هنالك فمكن لمهابتنا وسطوتنا ٢٦٧ فيجب أن يحل محله من يكون بمنزلة وإن تكن الأمور تسير بهيبة السلطان ، وعلى كل يجب اختيار قائد محنك مارس الخدمات وعرف واجباتها . فقال السلطان : لقد عقدت النية على إسناد هذا المنصب إلى أحمد ينالتكين فإنه وإن لم يكن قد زاول الخدمة مع القادة فإنه كان خازناً لوالدنا ومرافقاً له فى كل أسفاره وقد تعرف على أحوال السلطان الماضى رحمه الله وعاداته . ففكر الوزير ملياً ، وكان مسنئاً من أحمد هذا لأنه كان قد أساء إليه إبان استجوابه واشترى متاعه بأبخس الأثمان وقد انتهى الأمر إلى حبس الخواجة ولم يعاقب أحمد ينالتكين حتى أمر الوزير بمحاسنته فى هذا العهد وتتبع أخطائه ودارت المناقشات حتى أخذوا منه مالا ، فأراد الوزير أن يضع باسمه على جراح قلبه إذ وجد أن السلطان راض عنه من جهة ومن جهة

أخرى فإنه كان على كره شديد لأبي الحسن قاضي شیراز ، لأن السلطان محمود كان قد صرح عدة مرات على جاری عاداته قائلا : حتام نتحمل دلال أحمد هذا ، أى الوزير ، أليس لدينا رجال آخرون جديرون بمنصب الوزارة ومن جملتهم قاضى شیراز . مع أن هذا القاضى لم يكن له عشر شأن ذلك الوزير العظيم ولكن الملوك يقولون ما يشاؤون ولا تفيد معهم الحجة بأى حال . فراق للوزير فى هذا المجلس أن يلتقى بعبء ثقيل كأحمد ينالتكين على عاتق قاضى شیراز ليقضى عليه ولذلك قال : أطال الله حياة السلطان ، لعمرى إن هذا الرأى سديد ولا يليق به غير أحمد ولكن ينبغى وضع الشروط معه وأخذ الإيمان عليه وحمله على أن يترك ولده هنا رهينة . فقال السلطان : نعم إن الأمر كذلك فليستدعه الخواجة ويقول ويعمل ما ينبغى فى هذا الباب . فذهب الخواجة إلى ديوان الوزارة واستدعوا أحمد فارتعد فرقا خشية أن تلحقه تبعة أخرى . ولكنه أتى فأجلسه الخواجة وخاطبه قائلا : تعلم أنك حوسبت بشأن الأموال التى كانت فى عهدتك منذ عدة سنين وقصدى من ذلك العمل بالإيمان المغلظة التى فى عنقى للسلطان والتى توجب على الأمانة فى خدمته فينبغى ٢٦٨ ألا تظن بى سوءاً فإنى لا أقصد إيذاءك أو الإساءة إليك فإن السلطان حين يرغب فى إنفاذ أمر يجب ألا يتأخر عبيد الدولة عن تقديم النصيح وإبداء الولاء . فقبل أحمد الأرض وقال : إن العبد لا يفكر فى أمر محال كهذا بأية حال وإن كل ما يختاره لى مولاي السلطان ويراه الأستاذ الرئيس صواباً فيه عين صلاحى ولست حديث العهد بالسلطان فقد قضيت فى خدمته سنين عديدة . فقال الوزير : لقد اختلى السلطان بى اليوم ودار الحديث فى شتى الأمور وكان أهمها ما يختص بالهند فقال : إن قاضى شیراز بدرّاعته الآن هنالك وهو لا يليق بالقيادة فينبغى إيفاد قائد عظيم مهاب للغزو ولاستيفاء الخراج بحيث يبقى القاضى لتدبير الأعمال وجباية الأموال بينما يذهب القائد للغزو وأخذ

الخراج وجلب الأفيال ولضرب جباة العصاة من الهنود . وعند ما سأله . إن مولانا يعرف العبيد كلهم فمن يراه أهلاً بهذا المنصب أجاب إن قلبي ميال ومتجه إلى تعيين أحمد ينالتكين ، وقد رأيت السلطان يحسن الظن بك وقد بينت من جانبي أيضاً ما كنت أعرفه من شهامتك وكفاءتك ، فأمرني أن أحضرك وأن أبلغك عطفه وثقته وأن أمهد لك الأمور حتى تسير إلى عملك فإذا تقول . فقبل أحمد الأرض ثم نهض وقال : إن العبد لا يستطيع شكر هذه النعمة ولا يرى نفسه حقيقاً بهذه الدرجة وإنني لعبد مطيع أقوم بكل خدمة وأبذل قصارى جهدي لإنجاحها فإذا تقرر هذا أرجو ألا أحرم من الشفقة والنصيحة . فطلب الخواجة خاطره وأثنى عليه وأعاده . ثم دعا مظفر حاكم النديم وحدثه بكل ما جرى وقال له : قل للسلطان أن يأمر أن يعبدوا لأحمد خلعة أنحر بكثير بما كانوا قد أعدوا لأريارق إبان قيادته لهندوستان وأن يكتب منشوره أبو نصر مشكان وأن يزدان بالتوقيع حتى إذا ما ارتدى الخلعة يؤخذ منه كل ما يجب من الأحكام ومن ثم يرحل مسرعاً ويصل إلى عمله ويبادر في الوقت المناسب إلى الغزو . فذهب المظفر وأبلغ الرسالة فأمر السلطان أن يعبدوا لأحمد الخلعة والطبل والعلم والكوس وما ينبغي لها مما يمنح للقادة . وأمر السلطان يوم الأحد الثاني من شعبان من تلك السنة أن يذهبوا بأحمد ينالتكين إلى خزنة الألبسة فألبسوه ٢٦٩ خلعة فاخرة للغاية وتقدم إلى الحضرة وقد تمنطق بحزام ذهبي بألف مثقال وقبعة ذات ركنين مصاغة هي الأخرى بألف مثقال . وأدى فروض الطاعة فعطف عليه السلطان ثم عاد إلى منزله بأبهة فائقة وأدى له الجميع ما يستحقه من الاحترام ، ثم جاء في الغد إلى الحضرة واختلى بالسلطان بالأستاذ الرئيس والخواجة أبي نصر صاحب ديوان الرسائل واستدعوا أحمد فأسمعه السلطان أوامره العالية بلفظه الكريم . ثم جاءوا إلى الإيوان وجلس هؤلاء الثلاثة مختلين وقد حرر المنشور وشروط الأجوبة وكلاهما مؤكداً بالتوقيع

فذهبوا بها مع أحمد وأتوا بصيغة القسم ، فأقسم بها كالعادة ووقع بخط يده عليها ثم سلمت إلى الدوات دار بعد عرضها على السلطان . وقال له الخواجة :

« إن ذاك الشيرازى الحقير المغرور يود أن يأتمر القادة بأمره وقد كانت له صلة مع رجل خامل كعبد الله قراتكين وما أن سمع باسم أريارق وأدرك أن رجلاً قوياً قد جاء حتى صمم على أن يرسل من قبله عاملاً أو مشرفاً فأرسل أباً الفتح الدامغانى وأباً الفرج الكرمانى ولكنهما لم يستطعا احتمال أريارق ، وأما ما حدث لأريارق فقد كان نتيجة استبداده برأيه ، أما أنت باعتبارك قائداً فينبغى أن تعمل حسب الشروط والأحكام ولا تتكلم البتة فى الأموال والأعمال كيلا يسمعوا قولاً لأحد فيك ، ولكن يجب أن تعمل بشروط القيادة إلى النهاية بحيث لا تقع يد ذاك الرجل على هفوة فى عملك فيستصغرن شأنك وسينهى إلينا أبو القاسم أبو الحكم صاحب البريد الأوامر السلطانية والأحكام الديوانية كما ينبغى أن تتجنبنا أنت وهو إزعاج المجلس العالى ، ولتكتبنا إلى ما ينبغى كتابته بصورة أكثر تفصيلاً حتى أرسل إليك التعليمات القاطعة ، ويقضى رأى العالى بإيفاد نفر من أعيان الديلم بصحبتك كأبى نصر طيفور وغيره ليظلوا بعبيدين عن الحضرة فإنهم قوم غرباء ، كما تقرر إرسال آخرين ممن يتعصبون لهم أمثال أبى نصر الباميانى وأخى زعيم بلخ وابن عم الرئيس وعدد من متمردي غلمان السراى ممن ظهرت خيانتهم ، هذا وقد وعدوهم بالحرية والصلوات ، فيجب أن تظهر لهم أنهم يستطيعون أن يكونوا من أجلة الفرسان حتى يظنوا أن لهم لديك الخطوة ٢٧٠ والمنزلة الرفيعة ولكن يجب ألا يستطيع أحد منهم عبور ماء چند راهه دون إذن من السلطان وبغير إجازتك وعلمك ويجب أن تصحبهم عند ذهابك للغزو وأن تأخذ الحيلة التامة كيلا يختلطوا بأفراد جند لاهور وألا تدعهم يمارسون اللهو والشراب ولعب الصولجان معهم وأن تقيم عليهم العيون والأرصاد ليحصوا حركاتهم

وسكناتهم ولتعلم أن ذلك من الواجبات التي لا تقبل الإهمال . وبعد أبو القاسم أبو الحكم آية في أمثال هذه الأمور وسنخبره وسنكتب إليه حتى يتفق معك على ما ينبغي عمله والقيام به . وقد انتهينا من تحرير جميع ما يقتضيه الأمر العالي من عقود وشروط وأحكام . وكل ما سمعته الآن هو سر تفضل به مولانا كما ينبغي أن يظل سرا ، وبعد أن تصل إلى مقر علمك ينبغي أن تشرح ما يستجد من الأحوال وما ينسب إلى كل شخص حتى تعمل حسب الأوامر التي تصلك .

فأجاب أحمد بن التكين : لقد اتضح لي كل ذلك وسأبذل قصارى الجهد كي لا يحدث خلل : وعاد . ثم أرسل الخواجة في أثره مشافهة مع حاجبه الخاص المدعو حسن بأن الأمر العالي يقضى ببقاء نجلك هنا وليس من شك في أنك ستصحب معك الحرار من أهللك والمخدرات من بناتك ، فهد لهذا الولد ليبقى هنا في دارك مع مؤدب ومشرف من لدنك فذلك أولى له وأفضل لأن مولانا السلطان آثر رعاية لك ألا يحشر هذا الولد في سراى الغلمان الخاصة ، وقد خجلت من التحدث إليك في هذا الأمر ، وليس هذا من قبيل الرهينة . ومع أن السلطان لم يأمر بشيء من ذلك فإنه لا يمكن التغاضي عن الشروط والرسوم المتبعة ، وليس لي بد من مراعاة مقتضيات مصالح الدولة دقيقها وعظيمها وما يهمك ويهم أمثالك من المصالح . فأجاب أحمد : سمعاً وطاعة وإن صلاحى اليوم وغدا إنما هو فيما يراه ويأمر به الأستاذ الرئيس . ومنع الحاجب منحة سخية وأعاده ، ورتب شئون ولده كما ينبغي ثم جهز ما يلزم لمنصب القيادة من زينة وعتاد وغلمان وغير ذلك بما كان قد رآه ومارسه لأنه كان آية في مثل هذه الأمور ، وبعد أن مهد كل الأعمال تقدم بطلب الإذن في الرحيل فأذن له .

وفي يوم السبت لحس بقين من شعبان ركب السلطان إلى وادى شابهان في موكب حافل على مهد يحمله فيل ثم وقف على منصة حيث تقدم إليه أحمد

يناتكين مرتديا حلة حمراء وأدى الخدمة وسار بعده ٢٧١ ركب عظيم . حافل بالعدد والمعدات النامة والمقدمين والديلمة وبقية الأفواج التي تقرر . أن تصحيه ، ومشى على أثره مائة وثلاثون ممن كان أعنتهم السلطان وسلمهم . إليه مع ثلاثة من مقدمي السراى ومعهم ثلاث رايات رسم عليها صوراً الأسود ومطارد^(١) باسم غلمان السراى ومن ورائهم كوس ولواء أحمد الحريرى الأحمر والعلم وخمسة وسبعون غلاما وكثير من النجائب والإبل السريعة . وقال السلطان لأحمد : سر باليمن والسرور وكن يقظا وقدر حق هذه النعمة وضع شخصنا نصب عينك واجعل خدمتك محمودة لتكن مستحقا لمزيد العناية . فأجاب : سأعمل بما تقتضيه العبودية . ثم قبل الأرض ، وأحضر وجوه جواد قائد الهند فامتطاه وسار . وكان آخر العهد ببقائه لأنهم أفسدوا الرجل فمال عن الطريق السوى وسوف أذكر ذلك فى موضعه .

وعاد السلطان إلى القصر المحمودى فى حى أفغان شال وقضى بقية شعبان متمتعاً بهنىة العيش والشراب ، كما يقول البحرى .

روى أنى إذ جل شعبان شهرا من سلاف الرقيق والسليبيلى

وحملت الأمتعة والآلات إلى الجوسنق واستعدوا لاستقبال شهر رمضان وصاموا يوم الإثنين غرة الشهر ، واتخذ السلطان مجلسه على الصفة الكبرى يوم الثلاثاء وتناول الإفطار مع الأعيان وكانت الموائد قد أعدت إعدادا بالغا ، وجلس الأميران سعيد ومودود كل بنوبته على الخوان يحف بهما الندماء والحجاب ، كما جلس الفرسان والقباء على سمانطين آخرين . وكان السلطان

(١) الطراد والمطارد الرمح القصير .

يفطر وحده في السراى ، وقد أمر أن تكتب قوائم بأسماء المسجونين في
سجون غزنة ونواحيها ومن في القلاع لتعرض عليه ، ويرى رأيه في كل شخص
منهم ، وأمر كذلك بتوزيع ألف ألف درهم على الفقراء والمحتاجين بغزنة
ونواحيها ، وسارت الكتب والرسائل إلى كافة البلدان لتخليق^(١) المساجد
 وإقامة المجالس ، ولم يأمر السلطان بشيء عن وجوه صرف مال الزكاة التي
كان والده رضى الله عنه يوزعها كل عام ، وليس لأحد أن يقول شيئاً في هذا
المعنى لأن السلاطين العظام يأمرهم بما يوافق رغباتهم ولا يحق لخدمهم
أن يعترضوا عليهم ، إذ السكوت أولى معهم وذلك لمن يريد
حفظ حياته .

وفي هذا الصيف طلب أبو القاسم على النوكى صاحب بريد غزنة إلى الخواجة
أبى نصر مشكان أن يوظف أبناءه بديوان الرسائل ، وقد شاهدت بينهما صداقة
جاوزت حد الأخوة ، فاستجاب أبو نصر لطلبه . وكان نجله الأكبر المظفر شهاب
حصيفاً يشغل منصباً في الديوان منذ عهد السلطان محمود وهو لا يزال في منصبه
وكان قد عهد إليه إذ ذاك بالإشراف على أعمال غلبان السراى بالإضافة إلى عمله
في الكتابة وبنفس مرتبه ، وكان إشرافه يسير بصورة سرية جداً فيبثه الغلبان
شكواهم وأسرارهم ويقوم هو بتلخيصها وعرضها على السلطان مباشرة دون
واسطة . وكان السلطان محمود يعتمد كثيراً على أبى القاسم في تلك الأسرار ،
وقد شاهدت المظفر بمنح صلات جليلة عدة مرات وكان صديقى للغاية لما كان
شاباً ناضجاً يكتب الخط الجيد ولكنه لا يجيد الإنشاء ، وقد توفى في ميعة الصبا
رحمة الله على الولد والوالد . ومهما يكن فقد تحدث أستاذى مع السلطان في شأن

(١) خلقه طينته بالخلق وهو ضرب من الطيب أعظم أجزاء الزعفران .

أولاد أبي القاسم ونال منه الإذن بتوظيفهم ، فأتى بأبي منصور وأبي بكر إلى ديوان الرسائل وبعث بهما إلى حضرة السلطان لأداء الخدمة وتقديم النشار ، وكان أبو منصور أديباً فاضلاً جميل الخط وقد أرسل بأمر من السلطان إلى لاهور مع الأمير مجدود كما سيأتي بيانه ، وكان في ابن منصور هذا حدة وغلظة وقد توفي في سن الشباب أيضاً رحمة الله عليه ، وكذلك كان أبو بكر أديباً فاضلاً حسن الخط وقد لبث مدة في خدمة الديوان ولكنه كان يميل بطبعه إلى المكر والدهاء فأصيب بمحنة تأتى قصتها في مكانها ولا مرد لقضاء الله عز ذكره ، فقد أبعد عن عمله بالديوان أولاً ثم عطف السلاطين عليه رعاية لسابق خدمات والده وأسندوا إليه عمل الإشراف بناحية كبرى (٢) حيث مضى عليه في الخدمة هناك زمن طويل وهو لم يزل هنالك حتى الآن ، سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) ، أما الخواجة أبو نصر فقد كان أصغر إخوته سناً ولكنه امتاز منهم بكونه شريف الأبوين ، والعرق نزاع ، فوالده أبو القاسم وأمه ينتهى نسبها إلى محمود الحاجب زعيم حجاب أبي الحسن سيمجور ، فلا جرم أن استكمل أسباب الفضل ، وقد ظل يعمل في ديوان الرسائل بحصافته وسداد رأيه وما لبث أن صار كاتباً ٢٧٣ حسن الخط بارعاً وبلغ منصب صاحب بريد غزنة وقد أوكلوا إليه خلال هذه المدة أعمالاً مختلفة كصاحب بريد الجيش وغير ذلك من الأعمال الهامة التي لو أردنا تعدادها لضاق بنا المقام ، وانتهى الأمر به إلى أن تصدر ديوان الرسائل في عهد السلطان العادل أبي شجاع فرخ زاد ناصر دين الله ، وقد اختير لأن الحاجة مست إلى أن يكون لهذه الحاضرة والمدينة العظمى رئيس يجمع بين الكفاءة وكرم المحتد ، ونال خلعة سنية وهو إلى الآن ، وأنا أكتب هذا التاريخ ، يزاوِل هذا العمل فضلاً عن البريد ، وهو من أصدقائي القدامى وإن أنا أطلت الكلام فخير بقراء هذا التاريخ أن يتحملوا بفضلكم

وكرمهم ما أثقل به عليهم ، إذ لم يكن بد من رعاية حق الصداقة ولا سيما إذا كانت قديمة العهد ، والله الموفق لإتمام ما في نيتي بفضلته .

وفي الثالث من رمضان قال السلطان لكبير الحجاب بلكاتكين : ينبغي أن ترسلوا قوما إلى ناحية خارمرغ لحشر الحيوان^(١) لأننا مزعمون على الصيد هنالك . فجاء الحاجب إلى ديواننا وأحضر أولاد نيازى قودقش المختصين بمثل هذا العمل فطلبوا السجل الخاص بهذه الأمور من ديواننا وكتبت الأوامر وسار الفرسان فجمعوا المشاة لإعداد حشر الصيد . وذهب السلطان في يوم السبت الثالث عشر من هذا الشهر إلى نواحي خروار وخارمرغ وكان صيداً ممتعاً جداً ثم رجع إلى غزنة في يوم الأحد لسبع بقين من هذا الشهر .

وفي يوم الإثنين ليومين بقيا من رمضان احتفل السلطان بعيد المهرجان وكانوا قد أحضروا من النثار والهدايا والطرف والدواب ما يفوق العدة والحصر وقد أرسل سوري صاحب الديوان مع وكيله بالبلاط أشياء لاتحصى لتقديمها ، كما أحضر نواب عظماء الأقاليم كخوارزمشاه التونتاش وأمير الصغانيين وأمير جرجان وولاية قصدار ومكران وغيرهم على يد وكلائهم أشياء كثيرة . وكان يوماً مشهوداً . واحتفلوا يوم الأربعاء بالعيد وقد أعدوا فيه عرضاً عسكرياً بأمر السلطان رضى الله عنه ، كان مماثلاً لما شاهدته في عهد أبيه السلطان الماضي رحمة الله ٢٧٤ عليه . واتفق أن كان رسل الأعيان وأكابر رجال العراق والتركستان بالحضرة أثناء العرض ، فلما احتفل السلطان بالعيد انتقل من الميدان إلى الصفة الكبرى وجلس إلى خوان غاية في الروعة والبهاء وكذلك أجلسوا الموالي والحاشية والأكابر ، وتقدم الشعراء ينشدون

(١) المقصود أن تمتد ساحة كبيرة على شكل دائرة واسعة يجمع فيها حيوانات الصيد من كل مكان فيأتي السلطان ويصطاد فيها .

أشعارهم وأخذ المطربون بعد ذلك في العزف والغناء ، ودار الشراب في كئوس كبيرة على هذه المائدة والمائدة الأخرى التي جلس إليها المقدمون والفرسان وشتى أصناف الجند . وغادر الجمع المائدة ثملين . وشرب السلطان بضعة أقداح على المائدة ثم قفل راجعاً إلى العرش الرئيسى الكبير القائم على الصفة ، وكانوا قد أعدوا حفلاً لم يشهد أحد مثله وحضره الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل والندماء وبادر المطربون من السراى ومن غيرها إلى الغناء ، وبلغ الفرح والسرور أقصاه بحيث يخيّل إلى الناظر ألا مكان للحزن في هذه البقعة ، فقد ولى الحزن الأدبار . وأمر السلطان للشعراء الغرباء بعشرين ألف درهم وأعطى للزینبی العلوی خمسين ألف درهم حملت إلى منزله على ظهر فيل وللعنصرى ألف دينار وللمطربين والمضحكين ثلاثين ألف درهم . وما أنشدوا من الأشعار مدرج كله بالدواوين ، ويطول بنا المقام لو أردنا ذكر ما نظمه الأساتذة في أوصاف المجاس والشراب وتهاى العيد ومدائح الملوك ؛ على أنى أذكر هنا قصيدة لطيفة للغاية سجلتها لأنها تحوى وفاة السلطان محمود وجلوس الأمين محمد وقبوم السلطان مسعود رضى الله عنه من إصفهان ، وقد تعرضت هذه القصيدة لذكر كل الأحوال . وكان سبب ذلك أنى عند وصولي لهذا الجزء من التاريخ اتصلت بناظمها الشاعر أبى حنيفة الإسكافى وما أكثر ما سمعت عن فضله وعلمه وأدبه . وبعد أن شاهدته اتضح لى معنى هذا البيت الذى قاله المتنبى :

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر

وقد قلت لى فى أثناء الكلام ولو أنك لم تدرك عهد السلاطين الماضين إلا أنهم لو اطلعوا على شعرك لما كانت صلاتك تقل عن صلات الشعراء الآخرين ، فينبغى أن تنظم الآن قصيدة تجدد فيها ذلك الماضى فيزدان بذلك التاريخ ، فأنشأ هذه القصيدة وأرسلها إلى . وإذا استطاع أن ينظم شعراً فى السلاطين الماضين بهذه الجودة فكيف به وماذا كان يبلغ شعره من

الإبداع إذا أقبل عليه سلطان وطلب منه شعراً ؟ واليوم والحمد لله لا يوجد في أى بقعة في العالم بلد كبلدنا من حيث العمران وكثرة السكان والأمن والرخاء . وسلطان عادل رحيم فليدم هذا السلطان وأهل هذا البلد ؛ إلا أن سوق الفضل والأدب فيه كاسدة وأرباب هذه الصناعة يعيشون في يؤس وحرمان .

وإذا ذكرت فصلاً طويلاً في مدح غزنة في بداية هذا التاريخ على عهد هذه الحضرة العلية دام عزها أرى فريضة أن أتحدث الآن عن يكون له فضل من أهل هذه المدينة ، ولا سيما رجل كإبي حنيفة أقل فضائله قرص الشعر وهو يزاوُلُ بتعليم الأدب والعلم دون أجر وراتب بل يعلم الناس العلم بالمجان وسوف أعتمد بعد هذا على فضله وأزوى كل ما يفيد تاريخنا هذا من شعره فأذكر الآن أثر ذلك هذه القصيدة التي رجوتها لنظمها للاطلاع عليها :

إذا فارس المرء عملاً والحظ حليفه ظهر التراب الماتم للناس في يده ذهباً
خالصاً ، ينظر الفلك بعين الإكبار إلى كل من لا يتذرع بحجة لمزاولة
عمل صغير ، الفارس الذي ليس له فارس يطوى به الطريق يقع أسيراً
للحظ الرائب ، لقد رفع الله قات قوسين ذلك الذي نظر بعين الاستخفاف
إلى وحشة الغار ، كتن عظيم ولا تأس على صغير الأمور فإن ورد الزمان
يخرج من الشوك مما بعد عام ، لا تحسبن أى أمر في الدارين أشرف من النبوة
فإن آثارها في الدنيا عظيمة ، إن السيادة حصن منيع يحكم الباب
لا ينسى لأخذ دخوله بغير السعى والاجتهاد ٢٧٦ ، إن في صورة كل شخص
دليل ما يستطيع القيام به ، كما تنعكس خصائص الوجوه على سطح المرآة ، تتجلى
قدرة المرء في إدارته والهيبة أفضل في اليوم الغائم ، إن الشراب والرقاد والرباب
والسكباب والسكرات والخبز طمست معالم ألف قصر وأحالتها أثراً بعد عين ،
إذا رأى محفل خسرو وشهد حربه يعلم أن نصره ومنتعته تتجاوز الحد والعذ ،
حين نرى قدر لنبي كنبينا أن يكون عظيم يصعب انقياد سلطان وصهيبت إليه ،

هو ذاك الذى دعا أخاك لذلك الخطأ وهو الذى سمر أخاك بعد ذلك بمئة مسمار،
عندما يظلم نهار المرء ويدبر لحظه يرى حسنة سيئات ، وما انتفع أحد من
الخداع والمكر أبداً ألم تقرأ كليله ودمنه عشر مرات ؟ ، وحين ارتأى رأى
العالى أن يعود من بلخ ويضع سن الفرجار فى مركز دائرة الملك ،
لم يكن قد بقى فى غزوة من الرجال والنساء حتى اثنين لم تشملهما خمر الشوق إليه
فى أى زمان ، فقد فتح سكان غزوة عيونهم وآذانهم تشوقاً على الطريق
لرؤية من طلعت كورد الربيع ، وبينما هم يتأملون إذ نثرت شمس الملوك
أشعة طلعتها من مهد الفلك ، ودخل إلى دار ملكه بجده وأبيه وبلغ مرامه
واتخذ من شكر الله شعاراً ، لم تقطر من أنف أحد قطرة دم بعد أن
دانت للسلطان الدنيا من أقصاها إلى أقصاها ، لقد عاد إلى موطنه وإن القطرة
لتصير لؤلؤة تعود ثمت إلى البحر ، لقد نهض هذا السلطان للطواف بالعالم
لا لتثله الفضة كسائر السلاطين ، هو رب الفلك فلا يزعم أحد أنه الفلك
فإن للفلك مداراً آخر ، أيها الموفق للسلطنة عش أطويلاً فإن شكر النعمة
يورث دوام خدمتك ، ٢٧٧ بعد أن صورك الله من التراب ، أصبح
الفلك الدوار عبداً من عبيد الأرض لك ، وأثار الهواء النقع فى الشهور
والأعوام أملاً فى أن يقبل الفلك تراب قدميك ، يقتنص سيفك الدرهم ، فكته
من رأس العدو واسجنه وأقم عليه سجاناً ، إذا لم تكن رأيت جبلاً
يستقر على لبنة فانظر إلى جوادك ترى ذلك عياناً ، ما نفع العجلة للشيخ إن
أراد الورع ، وما نفع التانى للشاب إن أصر على العصيان ، ليس أفراد
جيشك من البشر فهل هم جنود القضاء فإنه لا يمكن ردهم عن الأسوار ، إنا نعوذ
بالله أن يمثل بواحد منهم فيصبح الجيش كله حرصاً على الانتقام له بكعفر الطيار ،
إذ فى الوقت الذى يشتبك فيه الجنود بالرماح كما تشتبك أهداب الأجفان
عند النوم ، يخيل إليك من كثرة ركوع السيوف وسجودها أن القضاء قد تعمم

بالحديد، فر عقبان السماء من عقبان الأرض وتراكت الجثث حتى
 علت أسرجة الخيول، من حركة سنابك الخيل غطى الهواء نسيج من رقيق
 التراب ورددت الأقطار صدى صرخات الأبطال، فترى فريقاً وقد امتلأ حمية
 وحماساً للحرب والنظر والآخر وقد انقلب كله لساناً يطلب الأمان،
 وهكذا يؤيد حزمك جرأتك كما تحلو الراحة والطرب لشارب الخمر،
 بعد أن رأى الفلك إذعان العالم لك استقر ودان العالم لسلطانك؛ أضحي الذهب،
 والفضة مبتدلين في العالم بفضل جودك أفلا يكون مبتدلاً ذلك الشيء الذي يصبح
 كثيراً، أي مولاي لقد كان برهان الحق في يدك ولو أن الباطل انتصر يوماً فوا عجبا
 لا يتسنى لكل أحد القيام على شئون العالم ولو كان رجلاً ماهراً حنكته الأعوام،
 إن القمر لا يفيض علينا ما تفيضه الشمس ولو أن فائدة القمر أيضاً
 ليست قليلة ٢٧٨، إن الله تعالى يمنح المرء شرف النبوة وعز الإمارة ومحبة
 الرعية وطاعة الجند لمراقبة أصله وطيب محتده، لن تجد أستاذاً خيراً من
 أبيك في العالم فاصنع ما صنع أبوك في كل حال، إعمل على العدل لتتم الليل مرتاحاً
 آمناً من كل سوء. فإن الظالم يظل الليل ساهراً من شؤم ظلمه، وليس بعجيب أن
 يكون لأب واحد ابنان فإن الشجرة الواحدة يصنع من خشبها العنبر والمشقة،
 أهر الشعر وإن لم تر بدا من نظمها فقل أبذر الإحسان وأمع الشر، وتكلم
 بهذا فإنه كالدرا النظيم لفظاً وقل به فإنه كصورة الحسناء معنى، ليس بعزيز
 ذلك الذي تعزه فإن عزيزك سرعان ما يصبح ذليلاً، حقاً إن العزيز هو الذي
 يعزه الله وليست عزته بتأثير اقتران الكواكب، إن العزيز هو من قدر الله
 له الرفعة لا من تحبه أنت وتميل إليه، والكليم موسى قد ألقته أمه في اليم صغيراً
 خوفاً من فرعون اللثيم القاسى القاب، ألم ينقذه فرعون من اليم ويربيه
 إلى جواره مدة طويلة شفقة عليه، ومن يخلق الله ليكن له في العالم
 يكن مثله كمثل يوسف الذي رفعه من البئر إلى العرش، يضربون المثل قائلين
 إن من عظم رأسه زاد عناؤه والمثل صحيح فإن الثمل من الشراب والشراب من الثمل،

إن لم تصدق قولى فالأمر سهل إقرأ مديح السلطان وأت بمثله ، ملك العالم وسلطان الزمان مسعود الذى اعتربه دين أحمد المختار ، يتحدث عن المجد حديث الزاهد فى العفة وينكر الظلم نكران العاشق للمهجر ، لا يبدأ بالنظر إلى الشاكي حتى لتأخذ الشاكي هيئة فيعجز عن الإفصاح بشكواه ، وكذلك لا يفيد أحد من حربه فإن جلد الثعبان يجب أن يتناسب ورأسه ، إنه كالعقل الذى أوجد بالعلم الخزائن والجيوش وكالعدل الذى شاد من الحديد القصور والقلاع ٢٧٩ ، فإذا ما منحته أبوه ملك الرى فقد كان ذلك لداعى الشفقة لا للإيذاء . وحينما يخرج الأسد شبله من الأجمة فإنما يكون ذلك لتنشيطه لا لإيذائه ، وبعد أن أراد أن يبعده عنك إلى تلك البقعة من الأرض لم يمنحك فضة أو ذهباً ولا خيلاً ولا رجلاً ، ألا ترى أن الوالدين كليهما يمنحان العليل الضعيف من أبنائهم النصيب الأوفى من حبه ، لم يمنحاه بما يحتاجه من عون حتى يثبت بنفسه حسن استعداده أمام السلاطين ، إذا سودت الأم ثدييها عند فطام طفلها فاليس ذلك دليلاً على كرها له ، وتهذيب الأولاد يتم بتعنيف الآباء إياهم كما يعلو نور الشمعة ويزداد بقطف فتيلها ، بعد أن استقام العالم لمحمود أمير الدين امتد سلطانه من سومنات حتى ثغور البلغار ، استولى على العالم كفر يدون وقسمه فقد كان مثله ملكاً عظيم التوفيق فى أعماله ، ولما رأى حقارة ملك الدنيا وجه نشاطه إلى بناء دار القرار ، وكأنما قامت بفقده القيامة كما تأتى الساعة عندما يفقد القمر دورانه فى فلكه . وقد كان للسلطان مسعود كما كان لجده وأبيه سيوف فى تلك الأصقاع . فإن سياسة الملك اقتضت ما صنعه كما كانوا يشيرون إلى السهامدة بدل القمر ، كيف يمكن أن تكون الكعبة عاصمة ملك العالم بينما تسلب ربح الغفلة منها كل الاستار ، أدى ملك العالم النافلة وعقد من بعد الإزار لصلاة الفرض ، وأرسل إلى أخيه رسولاً يبلغه برفق ويبدى له ألف لطف ، يقول له إن دار الملك وطراز السكة وكسوة

الآفاق ليست إلا لنا ، ولم يفد النصح لأن مرآة سعادته كانت صدئة بتأثير
ثقات الحاسدين ، ألم يكتب الإسكندر ذكرى منه بأن الجواد والسيف والمرأة
لاتليق إلا بمن هو جدير بها ، فسرعان ما سارت ألوية الملك المنصور من
إصفهان نحو مقر الملك في أمان ٢٨٠ ، وأزال نور وجه الملك ظلام غبار الموكب
كما يزيل القمر ظلام الليل في الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، وقبل أن تسعد بقدمه
نيسابور جاءت أفواج الجنود تستقبله كأفواج البحار ، يقولون في الأمثال
إن الطبيب يحضر من تلقاء نفسه حينما يتماثل المريض إلى الشفاء ، فعندما قدم السلطان
إلى هراة قدمت إليه جيوش أبيه من كل حذب تسعى إليه كالنمل ، وجاءت قصيدتي
كالفرقان فتأمل فإن قدر العلم تعرفه القلوب والعيون ، إنى وإن رأيت من الزمان
العجائب إلا أننى لا أستطيع الكشف عما رأيت خوفاً من طى الطومار ، ولكثرة
ما شاهدت الألفاظ معى أبكار المعاني يثس القلب من دلالتها ونفر عنها ،
وبما أنى من غزوة ولم أزل شاباً لذلك لا أرى سوقاً لعلى ، يامولاي ، إن الشعر
الجيد كثوب لا تنفصل لحمته عن سداة إلى الأبد ، إنى أروى هذه العجائب
من حياتك كما يستخرج اللؤلؤ من عميق البحار ، وما دامت الصعوبات
تمر وتمضى فى العالم فلا تمضين وعش مائة عمر بالمسرات ، وما دام الفلك يجد
الشهور والأعوام فعش أنت على مر الزمان منعماً بالملك والسلطان ،
وما دام الورد ينبت فى الجبال بين الأحجار وما دامت الأمطار تقطر من السماء ،
عش ثابتاً كالجبل ضاحكاً كالورد واطو الأرض كالفلك وأمطر كالسحاب .

انتهيت من ذكر هذه القصيدة العصماء المحاكة كالديباج فكأن معانيها
العذبة يعانق بعضها بعضاً ، ولو أن الزمان الجائر أنصف هذا الأديب الفاضل
وتعهد ملكته الشعرية سلطان بالإحسان إليه كما حظى بذلك أساتذة العصر من
أمثال عنصرى وعسجدى وزينى وفرخى رحمة الله عليهم أجمعين لاستطاع أن
يفاق بكلامه الشعرة فالتين وأن يمرغ أيدي الكثيرين فى التراب فإن الله تفتح

باللهي ولعله يبلغ المراد ، فإنه مازال شابا وما ذلك على الله بعزيز . وقد انتهت
هذه القصة .

استقل السلطان مسعود رضى الله عنه فى يوم الأحد الخامس من شوال
مهديا على ٢٨١ فيل ميمما شطر مرج شابهار فى موكب حافل للغاية ، فيه الفيلة
والجنائب ومنها ثلاثون جوادا بالسروج المرصعة بالجواهر والفيروز واليشم
وطرائف أخرى ، فضلا عن ثلثمائة من الغلمان يرتدون حللا من الديباج الرومى
موشاة بالذهب والفضة وأقية صقلبية وخمسين أخرى من الجنائب بسروج
بالذهب ويمشى فى المقدمة غلمان السراى ، والكل يحمل السهام والأقواس ويبد
كل منهم عمود من الذهب والفضة وألف جندي دارع وثلاثة آلاف من
الرجالة السجزيين والغزنويين والهرويين والبلخيين والسرخسيين وجيش كشف
والأعيان والموالي وأمناء الدولة . وقدامتطيت أنا أبو الفضل جوادى للشاهدة ،
وأمر السلطان أن يوقفوا الفيل الذى يحمل المهد لينزل فى صفة هنالك ، وكان
قرب الفيل الخواجة الوزير أحمد حسن والعارض والخواجة أبو نصر مشكان ،
فنظر السلطان فى المظالم وطالبوا المحاضر واستمعوا إلى شكاوى المتظلمين ثم
صرفوهم ، واستدعى السلطان الندماء وأمر بالشراب والمطربين ودعا أولئك
الأعيان إلى الشراب ، ودارت صحاف الرقاق والقطايف بحيث وصلت إلى
أيدي أصحاب الحاجات ، وأخذوا يقدمون الشراب والمطربون يعزفون
ويغنون وكان يوما أغر محجلا شق فيه الفرحة والسرور طريقه إلى عمان السماء .

وتعالى قبل الضحى قرع الطبول والكوسات وارتفع نفير الأبواق إذ كان
تاش فراش يتجه اليوم صوب خراسان والعراق عن طريق بست ، وظهر أولا
الحاجب الجامة دار ريارق تغمش فى أهبة فائقة ومر برجاله وأدى التحية ثم

وقف ، وجاء على أثره ثلاثة من مقدمى الجيش المحمودى متمنطقين بالأحزمة الذهبية وسبعة آخرون بالمناطق الفضية فى استعداد تام يتلوهم خادم السلطان جوهر آيين وكان السلطان قد رفع شأنه وأحلّه مقاما عليا كما مر ، كذلك عدد من المقدمين وحجاب السلطان فكانت الخيول تمر والمقدمون يتقفون . وظهر بعد كل ذلك تاش فراش الاسپهسالار تحف به الألوية والكوسات وهو فى أتم أهبة واستعداد ، وكان فى صحبته مئة وخمسون من غلمانه فضلا عن مئة غلام كان السلطان قد أعتقهم وسلمهم إليه ، وترجل تاش وأدى التحية فأمر السلطان أن يركبوا فأحضروا له جواد سپهسالار العراق ، ٢٨٢ وناولوه ومن تعين معه من المقدمين كؤوس الشراب ودارت الأقداح ثلاث مرات أو أربع ، وتخطب السلطان تاش قائلا : انتبه فإن ما أسندناه إليك عمل خطير وأصغ إلى ما يشير به الكتبخدا الذى سيأحق بك فى كل ماله صلة بمصالح الدولة واكتب لنا فيما يعن لك حتى تصل إليك أوامرنا فى شأنه للعمل بها ، وقد رشحنا أحد الثقات للقيام بعمل البريد كي يحيطا خبرا بكل شيء : وينبغى أن تقيم من فى معيتك من الأعيان فى المقام الذى كانوا عليه على عهد أبينا ليطيعوك وينفذوا أوامرك فتستقر الأمور وتستقيم الأحوال ، وأمل أن يفتح الله تعالى على يدك أبواب العراق جميعها فأجاب تاش ومن معه : كلنا عبيد مطيعون وترجلوا ثم قبلوا الأرض . ففсал السلطان : سيروا باسم الله باليمن والإقبال. فركبوا وساروا شطر بُست وسوف يأتى فى التاريخ باب مفصل عما تم فى سپهسالاية تاش وعمادة العميدى أبى سهل الحمدوى وطاهر السكرخى وفيه كلام طويل حتى يُعلم ذلك .

عاد السلطان ونزل فى قصر الدولة حيث جلس للشراب واستمر على ذلك يومين ثم أذن فى اليوم الثانى وقال : ينبغى لإنجاز ما تأخر من المهام فإننا نزمع السير إلى كابل حتى نرحل من هنا حسبما يقتضيه رأينا. وتخطب

كبير الحاجب بالكاتكين بقوله : لقد أمرنا أن يسوقوا الفيلة ويأتوا بها إلى كابل
لنستعرضها ، فتمى يتم ذلك ؟ فأجاب بالكاتكين إن الفرسان مضوا لتنفيذ الأمر
منذ أيام وسوف يحضرون الفيلة كلها هذا الأسبوع إلى كابل . فقال السلطان :
حسنا . وانفض المجلس إلا أنه استبقى الخواجة الوزير والعارض وأبا نصر
مشكان والحاجين بالكاتكين وبكتغدى واختلى بهم وسألهم : إلى أى ناحية
نسير ؟ فأجاب الخواجة : ماذا يرى مولانا وماذا يريد ؟ فقال : إن قلبي
يميل إلى أن نسير غازين إلى أبعد ثغر من ثغور الهند إحياء لسنة أيدنا
وشكرا لله على ما أولانا من شتى النعم الجليلة التى نلناها دون عنا ، لننال
بعد الصيت وتقع هيبتنا فى نفوس الكفار ويعلموا أننا وقد مات والدنا
لن ندعم يغمضون الطرف ويهناون بعيش رغيد . فأجاب الخواجة : ٢٨٣
إن هذا رأى سديد وليس أفضل منه والصواب ما يراه الرأى العالى بيد
أن هنالك مسألة أرى لزاما على تبيانها الآن إن أمرتم بتبادل الرأى فيها ،
فالرجاء أن يعنى بها السلطان ويستمع إليها الحضور ليتبينوا صوابها أو خطأها
ويأمر مولانا بما هو الأفضل ، لقد أوفد مولانا قائدا عظيما فى أهبة تامة إلى
الهند ، وهناك جند مجهزون وطقق رجال ماوراء النهر يفدون تباعا ويحتمعون
مع السعداء ^(١) ليتم على يدهم غزو عظيم هذا العام ويكون ثواب ذلك لمولانا ،
كما سار قائد آخر صوب خراسان والرئى ويحتاج إلى مدة من الزمن لتستقر
على يده الأمور وتتوطد قدمه فى تلك الديار ، ولا يتم ذلك إلا بأن تستمر
إقامة السلطان بخراسان ، وعلى تكين كالحية المقطوعة الذنب فقد قضى على
أخيه وبقي وحيدا بغير معين ، وقد مهدت العهود والعقود والمواثيق مع
قدرخان وذهب الرسل إليه وما زالوا يفارصونه ولم ينتهوا معه إلى شىء كما
تدل على ذلك رسائلهم ، فإذا سارت الأولوية السلطانية إلى الهند أهملت هذه

(١) استخدم النص هذا اللفظ وذهب غنى — فياض إلى أن المقصد منه قد يكون «المطوعة» حاشية ١ .

الأمور جميعها ولعلها تتعقد ، هذا وعلى تكين قريب من بلخ وله رجال كثيرون وقد اتفق معه السلاجقة ، وهو وإن لم يزحف إلى بلخ وطخارستان فقد يسير إلى أرض ختلان وإمارة الصغانيين وترمز حيث يبعث فسادا هنالك فتزول الهيبة ، وأرى من الأصوب أن يسير السلطان إلى بلخ حيث يقضى هذا الشتاء فتكون هيبة وجوده سببا في إعادة الرسل ناجحين في إبرام العهود والعقود ، وأن يعين السلطان كتنخدا ليسير من بلخ على أر تاش ، فإن الأمور جميعها لن تستقيم هناك ما لم يصل الكتنخدا ، وكذلك ينتهى أمر على تكين صلحا أو حربا لأنهم غرورا به عندما قصد موكب السلطان إلى خراسان وكان الأمير محمد مايزال في مكانه وأرسل السلطان الرسول لتعطى له ختلان ، وبقي في قلبه ذلك الهوس . وقد وصل أيضا من بغداد خبر مرض الخليفة القادر بالله وهو يائس من نفسه وقد فوض الأمور لابنه القائم فإذا وصل نعيه فمن المستحسن أن يكون مولانا بخراسان ؛ ويجب أن يعين رسل للذهاب إلى جرجان أيضا على أن تؤخذ عليهم العهود ، وفضلا عن ذلك فإن لنا مصالح أخرى وكلها من الواجبات ؛ وبعد أن تنتهى هذه الأمور وتستقر الأحوال فلا مانع ٢٨٤ من الغزو فيما إذا عنيتم به في مكان بعيد ويكون ذلك في العام القادم مع فراغ البال ؛ والتفت الوزير وقال : وأتم أيها الحضور ما رأيكم فيما أقول وماذا تقولون . فأجاب الجميع : إن كل ما يراه الأستاذ الرئيس ويعرفه هو عين الحق والصواب وأنى لنا أن نرى ونعرف ما يراه ويعرفه فإن إخلاصه ونصحه معروفان لمولانا . فقال السلطان : إن الصواب هو ما قاله الأستاذ الرئيس ولا يجوز غير ذلك وهو أبونا وقد استقر رأى على هذا فسيروا وأعدوا العدة فإن الرحيل سيكون في هذا الأسبوع . فتفرق القوم وهم يثنون على الوزير قائلين : إن هذا الرجل نسيج وحده حقا . وارتحل السلطان من غزة في يوم الخميس من منتصف شوال متجها نحو كابل

حيث قضى ثلاثة أيام استعرض فيها الأفيال وكانت سبعين وستمائة وألف بين ذكر وأنثى فأعجب بها أيما إعجاب ، إذ كانت سمينة نشيطة ولا غرو فقد كان المقدم على سواس الفيلة رجلا كأبي النصر الحاجب وتحت إمرته أبناء قرقيان وجميع الحراس . فأثنى السلطان على أبي النصر هذا وشبهه بمطفئه البالغ وقال : لقد لقي هذا الرجل النبيل في هوانا مصائب لا تحصى ولحقته آلام شديدة من السلطان الماضي فقد ضرب في إحدى المرات ألف عصي ولكنه راعى جانبنا في استجوابه إذ ذاك فضحى في سبيلنا بجسمه وروحه حقاً ، وقد حان الوقت لتقدير حقه وإنه لمن الحيف أن يظل رجل له هذه الكفاءة والإخلاص وحضور البديهة في حسن الخطاب والجواب في حضرة الملوك زعيماً لسواس الأفيال . فقال الخواجة أحمد : إن لأبي نصر هذا الحق وحرى بمثل هذا الرجل البقاء إلى جانب سدة العرش لحل الأوامر والرسائل . فأمر السلطان أن يأخذوه إلى خزانة الألبسة ويألبسوه خلعة الحجابة التي كانت له فلبسها وتقدم نحو الحضرة بقباء أسود وقبعة ذات ركنين ومنطقة من ذهب ، وأدى مراسم الخدمة وعاد إلى خيمته وقدر حقه كما ينبغي جميع أعيان الدركاه ، وأخذ يزداد وجاهة بعد ذلك كل يوم حتى صار زعيماً للحجاب بما سأذكره في موضعه وهو ما يزال الآن في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) باقياً والله الحمد ، لبدم السلطان المعظم أبو شجاع فرخ زاد بن ناصر دين الله الذي رعاه وعرف سابق خدمته فهو اليوم يقود الجيوش وتم على يده أعمال خطيرة سأذكرها . وحينما يكون هذا الرجل في غزته يبدى نصابه وإذا وفد رسول يبين له مراسم الاستقبال وهو الحجة والمرجع في المشاكل الحمودية ، والمسعودية والمودودية وباسمه ٢٨٥ أيضاً كوتوالية قلعة غزنة التي تعد من المهام الجسيمة وينوب عنه في ذلك حاجبه قتلغ .

عمد السلطان إلى الشراب بعد فراغه من استعراض الفيلة وخاع على سأسه الأفيال بواسطة كبير الحجاب بلسكاتكين ؛ وانتقوا مئة فحل من الفيلة لتكون في موكب السلطان إلى بلخ وأعادوا بقيتها إلى مواضعها . ثم غادر السلطان كابل إلى پروان حيث قضى خمسة أيام يصطاد ويشرب حتى عبرت الأحمال والرحال والأفيال من مضيق پرغورك^(١) ثم ارتحل من پر وتناول الشراب بموضع چوكانى وسار من هناك إلى ولوالج حيث لبث يومين وسار منها إلى باخ فدخلها في يوم الإثنين السادس عشر من ذى القعدة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) ، وأقام أسبوعاً بجوسق عبد الأعلى ثم ذهب إلى الحديقة الكبرى حيث أتوا بالرجال وأنشئوا الدواوين هنالك حسبما أشار به السلطان وقد خطط الدهان والميادين والدواوين وغيرها ، وأقيمت وثائق الغلبان جميعها وحولوا النهر الكبير الذى كان بجري في الحديقة إلى نافورة مائية . وعند ما كانوا في غزنة دبر أبو سهل الزوزنى حيلة للإيقاع بخوارزمشاه ألنونتاش فدىس الدسائس وأثار الأطماع في مجلس السلطان بما أدى إلى أن يولى وجهه عنهم ، وقد أصاب أبا سهل الزوزنى أيضاً لهذا السبب نكبة في بلخ قامى آلامها مدة ، وليس هنا مجال للإشارة إليها وسوف أفرد لها مقامة كاملة لما تتضمنه من النوادر والعجائب الجديرة بالمعرفة وذلك بعد وصول هذا السلطان إلى باخ وإتمام عدة مشاغل هامة كانت أمامه وأخرى عرضت له بعد ذلك .

وفي يوم الثلاثاء لعشر بقين من هذا الشهر وصل نعى أمير المؤمنين القادر بالله ٢٨٦ أنار الله برهانه ومبايعة أمير المؤمنين أبى جعفر الإمام القائم بأمر الله أدام سلطانه الذى كان ولياً للعهد وإجلالسه على عرش الخلافة . وكان ذلك

(١) الظاهر أنه يقصد مضيق غورك الذى ورد ذكره في تاريخ الغنى حيث دارت معركة بين سبكتكين وجييال .

(٢) هى موضع من بدخشان قرب بلخ . ياقوت .

سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٦٠) وقد دان له وبايعه أعيان البيتين العظيمين من العلويين والعباسيين من بني هاشم وجميع أهل بغداد وسارت الرسل بالرسائل من أقصى البلاد إلى أقصاها لأخذ البيعة من الولاة والأعيان فيها ، وتوجه الفقيه أبو بكر محمد السليمانى الطوسى من أجل هذه المهمة إلى الحضرة السلطانية بخراسان ، وأدى هذا الخبر إلى استغراق السلطان مسعود فى التفكير ثم اختلى بالوزير وأستاذى أبى نصر وقال لهما : ماذا ينبغى عمله فى هذا الباب . فقال الأستاذ الرئيس : أطال الله حياة مولانا منعما بالملك والسؤدد وجعله وارثا للأعمار ، إن هذا الخبر ولو أنه لا يخلو من صحة إلا أن الأفضل إخفاؤه وأن تستمر الخطبة باسم القادر فإن الرسول سائر كما كتبوا فى أثر الخبر ، ولعله يصل قريبا فعندما يصل ويأخذ قسطا من الراحة يوثى به إلى الحضرة بما يليق بمقامه ليقدم رسائل التعزية والتهنئة ثم يعود ، وفى اليوم التالى يجلس مولانا ويقيم مراسم العزاء ثلاثة أيام ثم يذهب يوم الجمعة إلى مسجد الجمعة حيث تؤدى مراسم التهنئة بالخطبة للقائم وتوزع النشار . فقال الساطان : نعم إنه لكذلك . فأخفوا هذا الخبر ولم يعلنوه واحتفلوا يوم السبت العاشر من ذى الحجة بعيد الأضحى المبارك احتفالا كبيرا شاملا وأقاموا فيه الزينات من كل نوع .

وفى يوم الثلاثاء من منتصف ذى الحجة وصلت رسالة تنبئ بوصول السليمانى الرسول إلى موضع شابرقان ، وقد استقبله عمال السلطان وولاته ووكلأؤه من الرى حتى الموضع المذكور وقاموا بما ينبغى من الإعزاز والإكرام ، فدعى السلطان الخواجة على ميكائيل رحمة الله عليه وقال : سوف يأتى رسول فأعد العدة لاستقباله بموكب جليل يضم أشرف العلويين والقضاة والعلماء والفقهاء ويسير على أترك أعيان الدركاه وأصحاب الرتب واستقدم الرسول بكل ما ينبغى من الاحترام إلى المدينة . فأعد على لهذا الأمر عدة تفوق الوصف إذ كان رئيس الرؤساء وقد مرت به أمثال هذه الأمور ، كما مرت بتلك الأسرة

المباركة التي تتمنى دوامها بدوام السيد الأستاذ أبي عبد الله الحسين بن ميكائيل
أدام الله ٢٨٧ تأييده فنعم البقية هذا الصدر . ومهما يكن فقد سار الخواجة
على ميكائيل لاستقبال الرسول وفي أثره أبو علي الموكل بالضيافة مع أرباب
المناصب والأعيان بالخيل المطهمة والجنايب الكثيرة وحينما قرب الرسول
من المدينة استقبله ثلاثة من الحجاب وأبو الحسن الكرخي والمظفر حاكم
الليزان كانا يحسنان التكلم بالعربية مع عشرة من المقدمين وألف من الفرسان
وأدخلوا الرسول المدينة في حفاوة بالغة وكان ذلك في يوم السبت لثمان بقين
من ذي الحجة وأنزلوه داراً فخمة في حي سبدا فان وأحضروا في التوكثيرا من
من الأطعمة والمآكل الفاخرة والله أعلم بالصواب .

ذكر ورود الرسول من بغداد

وإعلان وفاة الخليفة القادر بالله رضى الله عنه
وإقامة رسم الخطبة للإمام القائم بأمر الله أطال الله بقاءه وأدام سموه وارتقاءه
وبعد أن أكرموا وفادة الرسول واستراح ثلاثة أيام قال السلطان للأستاذ
الرئيس : الآن وقد استراح الرسول ينبغي أن يقدم إلينا . فقال الخواجة :
نعم حان الوقت ولكن على أية صورة يأمر مولانا أن يكون ذلك . فقال
السلطان : نرى من المناسب أن نذهب لعدة أيام إلى جوسق عبد الأعلى حيث
المكان أرحب وأليق بمثل هذه الأمور وهناك قصران ويستطيع الغلمان وأهل
المناصب الوقوف حسب المراسيم ، ويمكننا هناك القيام بأداء مراسيم التهانى
والتعازى على نحو أتم وأكمل ، وبعد الفراغ من ذلك نعود ثانية إلى الحديقة .
فقال الخواجة : إنه لرأى حسن وينبغي العمل به . ثم عقدوا خلوة دعوا إليها
كبير الحجاب وقائد الغلمان والعارض وصاحب ديوان الرسائل فحضرها جميعاً ،

وأصدر السلطان ما ينبغي من الأوامر بشأن الرسول والرسالة والجند وأصحاب الرتب وغللمان السراى . ثم انصرفوا وركب السلطان عند صلاة العصر إلى جوسق عبد الأعلى حيث أحضروا الرجال كلها هالك واستقروا بالدواوين وتقرر أن يمثل الرسول فى الحضرة فى اليوم الأول من شهر المحرم أى ٢٨٨ فى رأس السنة الهجرية ، وسلم أسناذى أبو نصر مشكان البلاغ الذى تقضى به المراسيم لأبى على ، ثم أحضروا رسالة كانت قد كتبت فى معنى التعزية والتهنئة ووقعوا عليها وسوف ترد هذه الرسالة وكتاب البيعة فى ختام هذه القصة للوقوف عليهما . ولقد ظلمت أبحاث عن هذا الخطاب طويلا حتى وجدته فى هذه الأيام ، حيث بلغت بالتاريخ إلى هذا الحد ، لدى نجل أستاذى أبى نصر أدام الله سلامته ورحم والده ، ولو أنهم لم يتعمدوا إتلاف أوراقى ومذكراتى التى كنت قد جمعتها لا كتسى هذا التاريخ حلة أخرى ، حكم الله بينى وبين من فعل ذلك . وأعد كبير الحجاب وجماعة المقدمين جميع ما يلزم لإعداد الجند وغللمان السراى وأصحاب المراتب ، وكان الفراغ من هذا الأمر قبل أن يطلع شمس الخميس غرة المحرم سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة (١٠٣١) ، فلما تنفس الصبح وقف أربعة آلاف من غلمان السراى فى صفين من جهة القصر مقسمين إلى عدة كتائب ، ألفان منهم بقبعات ذات ركين ومناطق ثمينة ويبد كل غلام دبوس فضى ، وألفان آخران بقبعات ذات أربعة أشرطة وقد شد كل إلى وسطه المنطقة وكنانة الأسهم وجعبة الأقواس ، ويبد كل غلام قوس وثلاثة سهام وكلهم يرتدون أقبية من الديباج التسترى ، كما وقف ثلثمائة من خاصة الغلمان عند ممرات البهو مما يلي مجلس السلطان بألبسة أنحر وقبعات ذات ركين ومناطق ذهبية ودبايس من ذهب ، وكان عدد منهم يتمنطق بالأحزمة المرصعة بالجواهر ، وأقاموا خمسين أو ستين جنديا من المدعوين على

الباب وسط سراى الديلم حيث كان أصحاب الرتب وأكابر رجال القصر والولاة والحجاب بمناطقهم الذهبية وقبعاتهم ذات الركنين ، وقد وقف على باب القصر جماعة آخرون من أصحاب الرتب ، وأوقفوا عددا كبيرا من الفيلة واصطف الجنود بأسلحتهم فى صفين بلاماتهم وألبستهم الحريرية المختلفة الألوان ومعهم العماريات والرايات ليستعرضهم الرسول أثناء مروره بينهم ، ثم ذهب الموكل بالضياقة ومعه الجنائب وخلق كثير وأركبوا الرسول وجاءوا به . وتحالت أصوات الأبواق والطبول والكوسات كأنما نفخ فى الصور . ومروا بالرسول على هذا المشهد المبهب فأخذته الدهشة ٢٨٩ والعجب إذ رأى عرضاً لم يره طول حياته ، ثم دخل القصر وكان السلطان رضى الله عنه جالسا على السرير تجاه الصفة ، فسلم رسول الخليفة وهو مرتد السواد ورد عليه الأستاذ الرئيس أحمد حسن ولم يكن غيره جالسا فى حضرة السلطان ، أما الآخرون فكانوا جميعاً وقوفا ، فأخذ الحاجب أبو نصر بساعد الرسول وأجلسه فسادى السلطان الرسول قائلا : كيف تركت مولانا الخليفة . فأجاب الرسول : عظم الله أجر السلطان لوفاة أمير المؤمنين القادر بالله أنار برهانه إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن الخطب جدد عظيم ولكنه تعالى وهبنا راعيا أعظم ، أسكن الله الخليفة الماضى فسيح جناته وحفظ إمام الدين والدنيا أمير المؤمنين . ثم تسلم الأستاذ الرئيس فصلا بالعربية فى هذا المعنى وكان بليغا للغاية وطلب إلى الرسول أثناء ذلك الحديث أن يقدم الرسالة منهض وفى يده الرسالة فى خريطة سوداء وتقدم فوضعها أمام السلطان ثم عاد يجلس حيث كانوا قد أجلسوه ، فنادى السلطان أبا نصر فتقدم نحو السرير وتناول الرسالة ثم عاد ثانية ووقف إزاء السرير وفتح الخريطة وقرأ الرسالة . فلما انتهى من قراءتها قال له السلطان اقرأ ترجمتها ليطلع عليها الجميع . فتلا

ترجمتها بالفارسية فكانت بحيث أقر السامعون أن ليس لأحد غيره هذه القدرة . ثم صرفوا الرسول وأعادوه مكرماً إلى داره وبعد ذلك قصد السلطان المآثم . وفي اليوم التالي حين أذن للاستقبال كان مرتدياً عمامة وقباء أبيضين كما حضر الموالي والحشم جميعاً مرتدين البياض وجيء بالرسول ليشهد العزاء وعطلت الأسواق حدادا وأخذ الناس يفدون أفواجا واستمر العزاء ثلاثة أيام كانوا يحضرون الرسول فيها ويعيدونه وقت الضحى بعد أن ينهض السلطان . وعاد الناس بعد ثلاثة أيام إلى الأسواق وفتحوا أبواب الدواوين وقرعت الطبول والدفادب إيذاناً بانتهاء الحداد . واستدعى السلطان الخواجة على وقال له : أوعز ليقموا الأقواس من الدركاه حتى باب مسجد الجمعة وأعد كل ما يمكن لإعداده من أسباب الأبهة والجلال فالجمعة قربت وسوف نذهب بنفسنا إلى الجامع حتى يخطب لأمير المؤمنين . فقال : سمعاً وطاعة . وعاد ثم استدعى أعيان باخ وأوعز إليهم بما يجب فبادروا إلى العمل فزينوا المدينة من باب قصر عبد الأعلى حتى مسجد ٢٩٠ الجمعة في خلال أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس بصورة لا يذكر أحد يوماً يبلغ مثلها ، وامتدت الأقواس الكثيرة من الأسواق إلى حى عبد الأعلى ومنه حتى الدركاه وأحياء الوجهاء التي يقيمون بها ، فاشتغلوا بالزينة منذ ليلة الجمعة حتى الفجر ولم يبق عند طلوع النهار حاجة إلى مزيد من الزينات . وأذن السلطان للاستقبال يوم الجمعة . وبعد أن تفرق المجلس قال الخواجة على ميكائيل : أطال الله حياة السلطان . لقد تم كل ما أمرتم بإقامته من أقواس النصر والزينات فهل هناك أمر آخر ؟ فقال السلطان : ينبغي أن يوعز للرعية بأن يجلسوا هادئين صامتين فتكون كل جماعة في مكانها محافظة على ما أقامت من أقواس وزينات ويجب ألا يبدر من شخص شيء من حركة أو لعب حتى نمر فلا نسمع صوت أحد ، ولهم أن يكونوا أحراراً فيما يريدون عمله بعد مرورنا ، فإننا بعد الصلاة سوف

نذهب إلى الحديقة من الجانب الآخر للشارستان . فقال : سمعاً وطاعة ثم عاد فأصدر هذا الأمر وخرج الرجال المرتدون السواد وأخذوا الحجّة من الناس .

ركب السلطان قبيل الظهر وأمامه أربعة آلاف من الغلمان على تلك الزينة التي ذكرتها من قبل يوم تقديم الرسول وكان القائد يكتفدي من ورائه وفي أثره غلمان الخاصة وكانت راية السلطان وأصحاب الرتب والحجاب في المقدمة ومن ورائهم كبير الحجاب بالسكانكين ، وكان الأستاذ الرئيس يسير خلف السلطان مع الوجوه وأعيان الحضرة وخلفه الخواجة على ميكائيل والقضاة والفقهاء والعلماء وزعيم بلخ وأعيانها ومعهم رسول الخليفة يسير في الموكب عن يمين على ميكائيل ، ووصل موكب السلطان إلى المسجد على هذا الوضع المهيّب والسكوت الرهيب الذي لم يكن يقطعه سوى قرع المقارع وجلجلة أسلحة أرباب الرتب ، فلما دخل المسجد جالس تحت المنبر وكانوا قد كسوه كله بالدباج الموشى بالذهب وجلس الأستاذ الرئيس وأعيان الحضرة ، كما جالس في مكان أبعد على ميكائيل ورسول الخليفة . وقام الخطيب بقراءة الخطبة وإقامة الصلاة ، وبعد أن فرغوا واستراحوا حضر خزنة السلطان ٣٩١ ووضعوا تحت المنبر عشرة آلاف دينار في خمسة أكياس من الحرير نثارا للخليفة ، وأخذ النشار يترى بعد ذلك بما قدمه الأمراء وأنجال السلطان والأستاذ الرئيس وكبير الحجاب والآخرين من بعدهم ، وكانوا يضعون كل هدية وينادي المنادي باسم مهديها فتجمع من ذلك مقادير كبيرة من الذهب والفضة . وبعد الفراغ من كل ذلك نهض السلطان وعاد راكباً إلى الحديقة الكبرى من جهة الشارستان ومعه الغلمان والحاشية وأهل البلاط وصحبه الأستاذ الرئيس ، وحمل الخزنة وكتاب الخزانة والمستوفون النشار إلى الخزانة عن طريق السوق ، وركب الخواجة على ميكائيل وذهب بالرسول إلى السوق وأبدى أهل بلخ سروراً بالغاً ونثروا كثيراً من الدنانير والدراهم والطرائف المختلفة ، واستمر الحال كذلك حتى

المساء حين وصلوا إلى قصر عبد الأعلى ، ثم عاد عليّ من طريق آخر وسار بالرسول في ذلك الموكب إلى داره ، وكانوا قد أعدوا مأدبة فاخرة فأكلوا وقدم عليّ للرسول مالا طائلا لقاء « تعب الأسنان »^(١) مما صار له وقع حسن لدى السلطان .

وفي اليوم التالي أمر السلطان أن يذهب الخواجة أبو نصر مشكان إلى الأستاذ الرئيس ليتكلم معه بشأن إبرام العهد مع الخليفة وعودة الرسول ، فذهب أبو نصر إلى ديوان الوزارة حيث اختلوا هنالك ودعوا رسول الخليفة ودار بينهم حديث طويل حتى فرغوا من إقرار كل ما ينبغي وضعه ودونوا كل ذلك في نسخة يوقع عليها السلطان تتضمن أن يطلب الرسول إلى الخليفة بعد بلوغه بغداد إصدار عهد جديد يفوض فيه السلطان أمور خراسان وخوارزم ونيمروز وزاباستان وجملة الهند والسند وبلاد الصغانيين وختل وقباديان وترمز وقصدار ومكران ووالشتان وكيكانان وبلاد الري والجبال وولاية إصفهان بكاملها حتى غفّة حلوان وجرجان وطبرستان ، وأن لا يكتب الخليفة أيضاً خانات التركستان ولا يمنحهم أى لقب من الألقاب ، كما لا يجوز أن يرسل إليهم خائماً عن طريق هذه الأسيرة كما كان الحال عليه سابقاً بين السلطان الماضي والخليفة أمير المؤمنين القادر بالله ، وأن يعود هذا الرسول ، السليمانى ، نفسه خاصة بهذا العهد على أن يكون معه خلعة تدل على مدى حسن رأى أمير المؤمنين في السلطان فتكون لها ميزة أنه لم يحصل على مثله أحد من قبل ، ويصدر منشوراً للسير إلى كرمان عن طريق سيستان وإلى عمان عن طريق مكران للقضاء على القرامطة ، هذا وقد تجمع جيوش لاتحصى والحاجة ٢٩٢

(١) كانت هذه عادة متبعة آنذاك ولم تزل معروفة في إيران الآن حيث يطوفون للضييف مالا باسم مزد دندان أو دندان مزد مكافأة له على ما نجحت أسنانه من المنة أثناء الأكل .

ماسة إلى التوسع في الفتوح ولا بد للجيش من أن يوجه إلى عمل ، ولو لا احترامنا لمقام الخلافة لكنا قصدنا بغداد يقيناً كي يفتح بذلك طريق الحج فإن والدنا كان قد أبقانا في الرى لهذا القصد، ولو لم اضطر بعد وفاته للعودة إلى خراسان لكنت اليوم على أبواب مصر أو الشام ، وقد رزقنا بأنجال نجباء وسوف نرزق بغيرهم ولا بد من أن يقوموا بأعمال ، وإن لنا صداقة بآل بويه ونحن لا نريد إخراجهم بأي حال ولكن عليهم أن يكونوا أكثر يقظة وأن يبلغوا منزلة الخلافة إلى ما كانت عليه وأن يفتحوا طريق الحج ، لآنا قد أذنا للناس أن يستعدوا للحج هذا العام على أن يسيروا بإشراف أحد قوادنا ، وها نحن قد أتممنا الحجة بهذا الخطاب ، وإن لم يبذل جهد في هذا الباب فإننا سنجد في ذلك لأن الله تعالى سوف يحاسبنا بما لنا من الهيبة والعدة والعدد والجوش التي لا تحصى .

فقال الرسول إن هذا الكلام كله حق فينبغي تحرير مذكرة تكون حجة في يدي . فقالوا : حسنا . وأعادوه إلى مقامه . ثم أخبر أبو نصر السلطان بكل ما جرى فسر بذلك سرورا بالغا . وفي يوم الخميس الخامس عشر من شهر المحرم أحضروا قضاة بلخ وأعيانها وساداتها وقدموهم للحضرة بعد انتهاء الاستقبال وحضر على ميكائيل أيضا كما جاء الرسول يصحبه الموكل بالضيوف ، وكان الأستاذ الرئيس قد حضر الاجتماع هو والعارض وأبو نصر مشكان وكبير الحجاب بلكاتكين والحاجب بكتغدي ، وكان أستاذي قد ترجم صيغة البيعة إلى الفارسية ترجمة رائعة كالديباج ضمنت كل ما ينبغي ذكره من الشروط وعرضت على الرسول ، ثم قدمت إليه نسخة عربية ليراها ويطلع عليها وتلى النص بصوت جهوري سمعه جمهور الحاضرين فقال الرسول : عين الله على الشيخ إنها تطابق النسخة العربية تماما ، إنه لم يترك منها شيئا ولا أخبرن أمير المؤمنين (م ٢١ — البيهقي)

بكل ذلك أيضا أطال الله بقاءه . ثم قرأ أبو نصر النسخة العربية فقال السلطان :
نعم قد سمعت وتأكد لدى كل ما جاء فيها فأعطى النسخة الفارسية . فسلمها
أبو نصر له وأخذ السلطان مسعود في قراءتها . ولم أر أحدا من ملوك هذه
الأسرة يستطيع قراءة الفارسية وكتابتها كهذا السلطان . فقرأ صيغة العهد أولا
دفعة واحدة دون توقف ، ثم قدموا له المحبرة الخاصة ٢٩٣ فكتب تحتها بخط
يده بالفارسية والعربية جميع ما كانوا قد جاءوا به من بغداد وما ترجمه أستاذي ،
ثم أحضروا محبرة أخرى من ديوان الرسائل وسجل الأستاذ الرئيس وجملته
الحاضرين شهادتهم على هذا بخطهم ، إلا القائد بكتغدي الذي كتب شهادته عن
لسانه أبو نصر لأنه لم يكن يعرف الكتابة . وعاد الرسول ومن حضروا ذلك
المجلس من أهل بلخ وكذلك عاد الحجاب ، وبقي السلطان مع هؤلاء الثلاثة
فقال للأستاذ الرئيس . ينبغي أن يعاد الرسول . فأجاب : نعم لا بد من ذلك ،
وسيكتب أبو نصر الكتاب والتذكرة والرسائل ويعرضها على الرأي العالي
ويعطى الخلعة والصلة للرسول كما يسلم إليه كل ما سيرسل حسب الرسم لحضره
الخلافة حتى يذهب . فسأل السلطان وماذا ينبغي أن نرسل إلى الخليفة . فقال
أحمد (أي الوزير) كان الرسم السابق أن يرسلوا عشرين ألف منّ من النبلج
خاصة للخليفة وخمسة آلاف منّ منها للحاشية وكل ما جمع من النبلج في يوم
الخطبة وهو محفوظ في الخزانة العامة ، هذا إلى جانب ما يأمر به مولانا من
الألبسة والجواهر والعطور ؛ ومعلوم ما يعطى للرسول ، وأذكر أني قرأت
في أخبار عمرو بن الليث أنه بعدما توفي أخوه يعقوب في الأهواز ، وكان
الخليفة المعتمد على الله متحاملا عليه لسيره للحرب وانهمامه فيها ، فذهب
أحمد بن أبي الإصبع للسفارة لدى عمرو أخى يعقوب وقد وعدوا عمرو بالعودة
والبقاء بنيسابور حتى يصله منشور التولية والعهد واللواء هنالك ، فنقد عمرو
الرسول مائة ألف دينار في الحال وأعاده ، ولكن الرسول نفسه بعد أن عاد

إلى نيسابور وبصحبه خادمان وخادمتان والهدايا واللواء والعهد أنفق عمرو سبعمائة ألف درهم في هذا الشأن ، أما السليمانى هذا فقد جاء في سفارة ومهمة خطيرة فينبغى أن ينعم عليه بخلعة فاخرة وصلة بمائة ألف درهم وحينما يؤوب ومعه ما طلبنا إليه أن يعود به يمنح ما يأمر به مولانا وقتئذ . فقال السلطان : حسن جدا ، ثم أضاف إلى هداياه للخليفة أكثر مما كان قد اقترحه الأستاذ الرئيس فسجل مائة حلة من شتى الأنواع وكلها ثمينة بينها عشر منسوجة بالذهب وخمسون حقة من المسك ومائة شامة^(١) من الكافور ومائتا شارة مقصبة جيدة للغاية وخمسون سيفاً هندياً ثمينا وكأس من ذهب يزن ألف مثقال مملوء بالؤلؤ ثم عشر قطع من الياقوت وعشرون قطعة نفيسة جدا من لعل بدخشان وعشرة رؤوس من ٢٩٤ خيل خراسان الختلية بسروح وبراقع من ديباج وخمسة من غلمان الأتراك الممتازين ، ثم قال السلطان بعد الانتهاء من تسجيلها : يجب تهبة هذا كله : فقال الأستاذ الرئيس : حسنا . ثم قفل راجعا وجلس في إيوان ديوان الرسائل واستدعى القائمين على الخزانة وأصدر إليهم الأوامر وانصرفوا . وأعد عمال الخزائن كل ذلك فشاهده السلطان وأعجبه . وكتب أستاذى أبو نصر نسخة للرسالة بليغة للغاية ، فقد كان إمام زمانه حقا في الترسيل والإنشاء ، وقد حررتها أنا - أبو الفضل - إذ كانت الكتب ترسل لسدة الخلافة وخانات التركستان وملوك الأطراف كلها بخطى وكان لدى صور تلك الرسائل كلها ، لكنهم أتلفوها عمداً والأسف كل الأسف على أن ضاعت من تلك الرياض الرضوانية أعنى الرسائل ، فقد كانت تجعل من هذا التاريخ سجلاً فريداً على أنى لست يائساً من العثور عليها يوماً ما بفضل الله عز وجل لتدرج جميعاً وليطلع الناس على حال هذا الصدر العظيم وما ذلك على الله بعزيز . ودُرِّنت

(١) التمامات ما يتقدم من الروايع العلية . عن القاموس . غي - بيانر جاشية ٤ .

التذكرة وغرضها أبو نصر على الأستاذ الرئيس ثم قام بترجمتها ثم قرئت باللغتين العربية والفارسية على السلطان وصارت موضع إعجاب بالغ .

وجاءوا بالرسول في يوم السبت العشرين من محرم وألبسوه خلعة فاخرة مما يخلع على الفقهاء ، في نسيجها خمسمائة مثقال من الذهب كما منح بغلة ورأسين من الخيل ، وأعادوه ، ثم حملوا إليه في أثره كل ما كان من الهدايا باسم الخليفة ومعهما مائة ألف درهم صلة للرسول نفسه وعشرون حلة ثمينة ، كما أهدى الأستاذ الرئيس الرسول بغلة مسرجة عليها برقعها وخمسمائة دينار وعشر قطع من الألبسة . وبعث أستاذي أبو نصر جواب الرسالة إلى الرسول مع الموكل بالضيافة . وغادر الرسول مدينة باغ في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر المحرم وقد أرسلوا معه خمسة من السعاة على أن يعود ثلاثة منهم واحد بعد الآخر في أثناء الطريق حاملين كل ما يستجد من الأخبار وأن يعاد الآخرين من بغداد ليذكرا كل ما جرى ، كما دسوا بين الرجال والسواس رجلا من العميون يسير متكرا لينهى كل ما يرى قل أو كثر إلى الحضرة السلطانية على يد هؤلاء السعاة ، وكان السلطان مسعود آية في مثل ٢٩٥ هذه الأمور وسأذكر في عدة مواضع طرفا من أخباره في هذا الشأن . وأرسلت الرسائل بواسطة الأسكدارية^(١) إلى كافة الولايات التي في طريق الرسول ليستقبلوه بما يليق له ويحتفوا به كثيرا حتى يذهب راضيا .

أما وقد فرغت من سرد هذه القصة ، فسأكتب خطاب الخليفة وصورة العهد لا كون قد وفيت بوعدى .

(١) يستعمل النص الفارسي كلمة اسكدار ، وبمسيره : ازكو دارى ، أى من أين نعلمك وهو مدرج يكتب فيه عدد الحرائط والكتب الواردة والنافذة وأسماى أربابها . مفاتيح العلوم ص ٤٢

والكلمة في لغت فرس بمعنى ساعى البريد الذى يعبر دابته في كل منزل ليركب دابة أخرى مستريحة ، لغت فرس ص ١٢٦ . ولاحظ غنى — فياض أن الكلمة تستخدم في هذا الكلام على وجهين : ساعى البريد ، والخريطة نفمها ، حاشية ١ .

نسخة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أبي جعفر الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى ناصر دين الله الحافظ لعباد الله المستقيم من أعداء الله ظهير خليفة الله أبي سعيد ، مولى أمير المؤمنين ابن نظام الدين وكهف الاسلام والمسلمين يمين الدولة وأمين الملة أبي القاسم ولى أمير المؤمنين - التوقيع العالى : اعنضادى بالله - سلام عليك فإن أمير المؤمنين محمد (إليك) ٢٩٦ لله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

أما بعد ، أحسن الله حفظك وحياتك ، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة الجسيمة والمنحة الجليلة والموهبة النفيسة فيك وعندك ولا أخلاه منك والحمد لله القاهر بعظمته القادر بعزته الدائم القديم العزيز الرحيم الملك المتجبر المهيمن المتكبر ذى الآلاء والجبروت والبهاء والملكوت الحى الذى لا يموت ، فائق الأصباح وقابض الأرواح ، لا يعجزه معاصر ولا يوجد من قضائه مناص ، لا تدركه الأبصار ولا يتعاقب عليه الليل والنهار ، الجاعل لكل أجل كتابا ولكل عمل بابا ولكل مورد مصدرا ولكل حى أمدا مقدرا ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون المتفرد بالربوبية الحاكم لكل من خلقه من البقاء بمدة معلومة حتما منه على البرية وعدلا فى القضية لا يخرج عنه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا صفي لمصافاته ولا خليل لمناجاته قال الله عز وجل ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، وقال عز اسمه إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا ترجعون .

والحمد لله الذى اختار محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم من خير أنسرة اجتباها من أكرم أرومة واصطفاه من أفضل قریش حسبها وأكرمها نسباً وأشرفها

أصلا وأزكاها فرعا ، وبعثه سراجا منيرا ومبشرا ونذيرا وهاديا ومهديا ورسولا مرضيا داعيا إليه و دالا عليه وحجة بين يديه لينذر الدين ظالموا وبشرى للمحسنين ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله وعبدته حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وعظم .

والحمد لله الذى انتخب أمير المؤمنين من أهل تلك الملة التى علت غراسها ورست ٢٩٧ أساسها واستحكمت أرومتها وسخت جرثومتها وتزين أصلها وتصون فرعها ، واجتباها من بين الأمة التى يذكو زنادها ، واصطفاه من لباب الخلافة التى ينير شهابها ، وأوحده بالسجيا الجميلة ، وأفرده بالخلائق الزكية ، واختصه بالطرائق الرضية التى من أوجبها وأولاها وأحقها وأجراها التسليم لأمر الله تعالى وقضائه والرضاء بآسائه وضرائه ، فأوفى كل ما (هو) من ذلك القليل واتبعه وسلكه وقصد على منهاج سلفه الصالح وسلك طريقهم المنير الواضح وهو فى المنحة على ما يربط لسانه من الشكر ويقابل مولم الرزية بما أسبغ الله تعالى عليه من الصبر ويتلفى النازلة برضائه بقضائها على ما سخر له الذى جل ذراه ويقضى حق الشكر فى الحالين لخالقه ومولاه ويرتبط النعمة بما يقررها ويهينها والنازلة بالاحتساب الذى يعفيها ويرى أن الموهبة لديه فيها ما سبغة والحجة عليه باعتقاد المصلحة بهما معا بالغة فلا يعذر فى النعمة من ربه سبحانه وهو معترف فى العارفة بإحسانه راض فى النائمة بابتلائه لىكون للزيد من فضل الله حائزا ومن الثواب بالقدر المعلن فائزا ولا يفيد الفائدة من جميع الجهات ولا يعفيه العادة كيف انصرفت الحالات علما منه بأن الله سبحانه يندى النعم بفضله ويقضى فيها بعدله ويقدر الأشياء بحكمته ويدبر اختلافها بإرادته ويمضيها بمشيئته ويتفرد فى ملكه وخلقه ويصرف أحوالهم على حكمه ويوجب على كل منهم أن يكون لأوامره مسلما وبأحكامه راضيا مدعنا ، فسبحان من لا يحمد سواه على السراء والضراء وتبارك من لا يتهم (فى) قضاياه فى الشدة والرخاء ، وهو جل اسمه

يقول ونبلوكم بالشر والخير فتنه والينا ترجعون .

٢٩٨ ولما استبدّ الله تعالى بمشيئته من نقل الإمام التقى الطاهر الزكي القادر بالله ، صلى الله عليه حيا وميتا وقدس روحه باقيا وفانيا ، إلى محل إجلاله ودار كرامته عند شفائه على نهاية الأمد المعلوم وبلوغه غاية الأجل المحتوم والحقه بآبائه الخلفاء الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين أسوة ما حنمه الله تعالى على كل حي سواه ومخلوق فطره يداه وأحسن أمير المؤمنين انتقاله إلى دار القرار لعلمه بتعويض الله إياه مرافقة أنبيائه الأبرار وإعطائه ما أعد الله الكريم له من الراحة والكرامة والحلول في دار المقامة لكن لدغ الحرقه ومولم الفرقة أورثه استكانة ووجوما وكسبه تأسفا وهموما فوقف بين الأمر والنهي مسترجعا وسلم لمن له الخلق والأمر معظما ومرتبعا لا يغالب في أحكامه ولا يعارض في نقضه وإبرامه ، يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن فليجأ أمير المؤمنين عقب هذه القادمة التي أملت والهادمة التي أظلت إلى ما يريد الله منه وأوجه عليه واستكان واسترجع بعد أن ارتاع وتفجع وقال إنا لله وإنا إليه راجعون واحتسب وصبر ورضى وشكر بعد معالجة كل مغاق من الغمرات ومدافعة كل مولم من الملمات إذ كان رأى الإمام القادر بالله رضى الله عنه وقدس روحه نجما ثاقبا وحليه جبلا راسيا شديد الشكيمة في الدين وثيق العزيمة في إطاعة الله رب العالمين صلى الله عليه صلوة أسكنه بها في جنات النعيم ويهديه إلى صراط مستقيم . وله قدس روحه من جميل أفعاله وكريم أخلاقه ما يعلى درجته في الأئمة الصالحين وتفليح حجته في العالمين إنه لا يضيع أجر المحسنين ، ورأى أمير المؤمنين بفطرته الثاقبة وفكرته الصافية صرف الخاطر عن الجزع على هذه المصائب إلى ابتغاء الأجر عنه والثواب ووعمل الرغبة إلى الله تعالى في رد أمانته على مولاه وإنهاضه بما استكفاه ٢٩٩ يسأله أن يحظى الإمام الطاهر القادر بالله عليه صلوات الله ورضوانه وغفرانه بما قدمه من أفعال الخير المقربة إليه ويزلفه بما

سبق منها لديه حتى تتلقاه الملائكة بمبشرة بالغفران وموصلة إليه كراثم التحف والرضوان ، قال الله تبارك وتعالى فبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم .

وانتدب أمير المؤمنين للقيام بما وكله الله إليه ووجب عليه بالنص من الإمام الطاهر القادر بالله كرم الله مضجعه ونور مصرعه عليه ليرتب الصدع ويقيم السنن ويضم ما تشتت من الأمر ويجبر الوهن والخلل ويتلافى ما حدث من الزيغ والزلل ويقوم بحق الله في رعيته ويحفظ ما استحفظه إياه في أمر بريته فجلس مجلساً عاماً بحضرة أولياء الدعوة وزعائرها وأكابر الأسرة وجهاتها وأعيان القضاة والفقهاء والشهود والعلماء والأماثل والصالحاء فرغبوا إلى أمير المؤمنين في القيام بحق الله فيهم والتزموا ما أوجبه الله من الطاعة عليهم وأعطوا للصفق إيمانهم بالبيعة إصفاق رضى وانقياد وتبرك واستسعاد وقد أنار الله بصائرهم وأخلص ضمائرهم وأرشدهم إلى الهدى ودلهم على التمسك بالعروة الوثقى وكان الخطب بما يحل والنقض بما يخل فأصبح كل نازلة زائلة وكل عضلة جالية وكل متفرق مؤتلفاً وكل صلاح بادياً منكشفاً وأصدر أمير المؤمنين كتابه هذا وقد استقامت له الأمور وجرى على إزالته الندير وانتصب منصب آبائه الراشدين وقعد مقعد سلفه من الأئمة المهديين فصلوات الله عليهم أجمعين مستشعراً من قهر الله تعالى فيما يسر ويعان ويظهر ويطن موثراً رضاء فيما يحل ويعقد ويأتى ويقصد آخذاً بأمر الله فيما يقضى متقرباً إليه بما يزلف ويرضى طالباً ما عنده من الثواب خائفاً من سوء الحساب لا يؤثر تقرباً بقربته ولا يؤخر التعبد عن استحقاقه ولا يعمل فكراً ولا روية إلا في حياطة الحوزة والرعية إلى أن يقوم الحقوق ٣٠٠ ويرتق الفتوق ويؤمن السرب ويعذب الشرب ويطنى المتن ويخمد نارها ويهدم منارها ويعنى آثارها ويمزق أتباعها ويفرق

أشباعها ، ويسأل الله المعونة على ما ولاه وإرشاده فيما استرعاه جميع أموره وأنحائه ويوفقه للصواب في عزائمه وآرائه .

فامدد متعنى الله بك على بركة الله وحسن توفيقه إلى بيعة أمير المؤمنين يدك وليدد إليها كل من صحبك وسائر من يحويه مصرك فإنك شهاب دولته الذى لا يخمد ورأبدها الذى لا ينكد وحسامها الذى لا يركد ، واجر على أحمد طرائفك وأرشد خلائقك وأجمل سجاياك وأكرم مزايك فى رعاية ما سولناه لك وحياطته وحفظه وكلائته ، وكن للرعية أبارؤوفا وأما عطوفا فإن أمير المؤمنين قد استرعاك لسياستهم واستدعاك لإيالتهم وخذ على نفسك اليمين المنفذة إليك من أخذ هذا الكتاب واستوفها على جميع من لديك بمشهد أمين أمير المؤمنين محمد بن محمد السليمانى لتكون حجة الله وحجة أمير المؤمنين عليك وعليهم قائمة والوفاء بها واجبة لازمة ، واعلم أن محلك عند أمير المؤمنين محل الثقة الأمين لا المهم الظنين إذ كان فوض الأمر إليك واستظهر بك ولم يستظهر عليك علما منه بأنك تسلك فيها مسالك الخاصين وتكون من المفلاحين فإن السعادة بذلك مقترنة والبركة فيه مجتمعة والخير كل الخير عليك متوفر ولك فيه تام مستمر ، وقرّر عند الخاصة والعامة أن أمير المؤمنين لا يهمل مصلحتها ولا يخل برعايتها آخذاً فى ذلك بأمر الله رب العالمين حيث يقول وهو أصدق القائلين الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور .

وهذه مناجاة أمير المؤمنين إياك أحسن الله بك الامتناع وأدام عنك الرقاع فتلقها بالاحنان لها والاعظام لقدرها وقرر ما تضمنته على الكافة لينشر ذكرها فى الجمهور ويتكامل به الجذل والسرور ولتسكنوا إلى ما أباحه الله لهم من عطوفة أمير المؤمنين (٣٠١) عليهم ونظره بعين الرأفة إليهم ، وأقم الدعوة لأمر المؤمنين على

منابر ملكك مسماها ومفيداً ومفيداً، وبادر إلى أمير المؤمنين بالجواب من هذا الكتاب باختيارك ما منه فيه فإنه يتشوقه ويستدعيه ، وأطلعه بصواب أترك فيما نلته وسداد ما تريد وتمضيته واستقامتك على أحمد الشواكل في طاعته وأجمل الطرائق في متابعتة فإنه يتوكل في ذلك ويتطلبه ويرقبه ويتوقعه لإنشاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبركة عدد أمير المؤمنين بك وبالنعمة الجليلة والمنحة الجسيمة والموهبة النفيسة فيك وعندك ولا أخلاه منك وصلى الله على محمد وآله أجمعين وحسبنا الله وحده .

نسخة العهد

بايعت سيدنا ومولانا عبد الله بن عبد الله أبا جعفر الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين بيعة طوع واتباع ورضى واختيار واعتقاد وإضمار وإسرار بصدق من نيتي وإخلاص من طويتي وصحة من عقيدتي وثبات من عزيمتي طائعا غير مكره ومختارا غير مجبر بل مقرا بفضلته مدعنا بحقه معترفا ببركته معتمدا بحسن عائده عالما بما عنده من العلم بمصالح من في توكيد عهده من الخاصة والعامة ولم الشعث وأمر العواقب وسكون الدهماء وعز الأولياء وقع الملحدين ورغم أنف المعاندين على أن سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين عبد الله وخليفته مفترضة على طاعته ومناصحته الواجبة على الأمة إمامته وولايته اللازم لهم القيام لحقه والوفاء بعهده لا أشك في ذلك ولا أرتاب به ولا أداهن في أمره ولا أميل إلى غيره ، وعلى أني ولي أوليائه وعدو أعدائه من خاص وعام وقريب وبعيد وحاضر وغائب متمسك في بيعته بوفاء العهد وإبراء ذمة العقد سرّي في ذلك مثل علانيتي وضميري فيه مثل ظاهري ، وعلى أن إطاعتي هذه البيعة التي وقعت في نفسي وتوكيدي إياه الذي [لزم] في عنقي لسيدنا ومولانا القائم بأمر الله أمير المؤمنين بسلامة من نيتي واستقامة من عزيمتي

واستمرار من هوأى ورأى ٣٠٢ وعلى أن لا أسعى فى نقص شئى منها ولا أوول عليه فيها ولا أقصد مضرتة فى الرخاء والشدة ولا أدع النصح له فى كل حال دانية وقاصية ولا أخلى من موالاته فى كل الأمور النية ولا أغير شيئاً مما عقد على فى هذه البيعة ولا أرجع عنه ولا أتوب منه ولا أشوب نيتى وطويتى بضده ولا أخالفه فى وقت من الأوقات ولا على كل حال من الأحوال بما يفسده ، وعلى أيضا لكبابه وخدمه وحجابه وجميع حواشيه وأربابه مثل هذه البيعة فى التزام شروطها والوفاء بعمودها .

وأقسمت مع ذلك راضيا غير كاره وآمنا غير خائف يميناً يؤاخذنى الله بها يوم أعرض عليه ويطالبنى بدرك حقه يوم أقف بين يديه فقلت والله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الكبير المتعال الغالب المدرك القاهر المملك الذى نفذ عليه فى الأرضين والسموات وعلمه بما مضى كعلمه بما هو آت وحق أسماء الله الحسنى وآياته العليا وكلهاته التامات كلها وحق كل عهد وميثاق أخذ الله على جميع خلقه وحق القرآن العظيم ومن أنزل ونزل به وحق التورية والإنجيل والزبور والفرقان وبحق محمد النبى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وحق أهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتجبين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين عليهم السلام أجمعين وحق الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين أن بيعتى هذه التى عقدت بها لسانى ويدي بيعة طوع يطلع الله جل جلاله منى على تقلدها وعلى الوفاء برمته بما فيها وعلى الإخلاص فى نصرتها وموالاته أهلها أعرض ذلك بطيب البال لا إدهان ولا احتيال ولا عيب ولا مكر حتى ألقى الله موفيا بعهدى فيها ومؤدياً للأمانة فيما لزمنى منها غير مستريب ولا ناكث ولا متأول ولا حاث إذ كان الدين يبايعون ولالة الأمر يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجراً عظيماً ، وعلى أن هذه البيعة التى طوقها عنقى وبسطت بها يدي وأعطيت بها صفقتى

وما اشترط علىّ فيها من وفاء وموالاتة ونصح ومشايعة وطاعة وموافقة واجتهاد ومبالغة ٣٠٣ عهد الله إن عهده كان (عنه) مسئولا وما أخذ على أنبيائه ورسله عليهم السلام وعلى كل أحد من عباده من مؤكد موثيقه وعلى أن أتثبت بما أخذ على منها ولا أبدل وأطيع ولا أعصى وأخلص ولا أرتاب وأستقيم ولا أميل وأتمسك بما عاهدت الله عليه تمسك أهل الطاعة بطاعتهم وذوى الحق والوفاء بحقوقهم ووفائهم، فإن تكثرت هذه البيعة أو شيئا منها أو بدلت شرطا من شروطها أو نقضت رسماً من رسومها أو غيرت أمراً من أمورها مسراً أو معلناً أو محتملاً أو متأولاً أو مستعمياً عليها أو مكفراً عنها أو أدهنت أو أخليت فيما أعطيت من نفسى وفيما أخذت به من عهود الله وموآثيقه على أن أرغب عن السبل التى يعتصم بها من لا يحتقر الأمانة ولا يستحل الغدر والخيانة ويثبطه شئى عن العقود المعقودة فكفرت بالقرآن العظيم ومن أنزله ومن نزل به ومن أنزله عليه وبرئت من الله ورسوله والله ورسوله منى بريثان وما آمنت بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكل ما أملكه فى وقت تلفظى بهذه اليمين أو أملكه بقية عمرى من مال عين أو رزق أو جوهر أو أبنية أو ثياب أو فرش أو عرض أو عقار أو ضياع أو سائمة أو زرع أو ضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتادة مما يحل قدره أو يقل خطبه صدقة على المساكين فى وجوه سبيل الله رب العالمين محرم علىّ أن يرجع ذلك أو شئء منه إلى مالى وملكى بحيلة من الخيل أو وجه من الوجوه أو سبب من الأسباب أو تعريض من معاريض الإيمان وكل مملوك أملك من ذكر أو أنثى فى وقت تلفظى بهذه اليمين أو أملكه بقية عمرى أحراراً لوجه الله لا يرجع شئء من ولائهم وكل كراع أملكه من دابة أو بغل أو حمار أو جمل أو أملكه بقية عمرى طالق طلاقاً بائناً لا رجعة ولا تعمية زوجتها أو أتزوجها بقية عمرى طالق طالق طلاقاً بائناً لا رجعة ولا تعمية بمذهب من المذاهب التى يستعمل فيه الرخص فى مثل هذه الحال ومتى نقضت

شرطاً من شروط بيعتي هذه أو خالفت قاعدة من قواعدها أو استعميت عليها أو كفرت أو تأولت فيها أو ذكرت بلساني خلاف ما [هو] عقيدتي أو لم يوافق ظاهر قولي باطن عملي فعلي ٣٠٤ الحج إلى بيت الله الحرام العتيق ببطن مكة ثلاثين حجاً راجلاً لا فارساً فيها وإن لم أوف بهذه اليمين فلا تقبل الله مني صرفاً ولا عدلاً إلا بعد التزامي بشرائطها وخذلني الله يوم احتاج إلى نصرته ومعونته وأحالني الله إلى حول نفسي وقوتي ومنعني حوله وقوته وحرمني العافية في الدنيا والعفو في الآخرة . وهذه اليمين يميني والبيعة المسطورة فيها بيعتي حلفت بها من أولها إلى آخرها حلفاً معتقداً لوفائها وهي لازمة مطوقة في عنقي معقودة بعضها إلى بعض والنية في جميعها نية سيدنا عبد الله أبي جعفر الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه طويلاً وافيّاً للدنيا والدين وعمرهما كافياً للتصالح أجمعين ونصر راياته وأكرم خطابه وأعلى كلمته وكب أعداءه وأعز أحبائه وأشهد الله تعالى على نفسي بذلك وكفى به شهيداً^(١) .

ذكر أحوال الخواجة أبي سهل

محمد بن حسن الزوزني العارض ، والقبض عليه

سبق أن ذكرت في هذا المجلد أن أبا سهل الزوزني دبر قبل رحيلنا ، ٣١٦ أي حينما أراد السلطان مسعود رضي الله عنه السفر من غزة إلى بلخ مكيدة لخوارزمشاه ألتونشاش ودس دسياسة قوية للإيقاع به ، مكيدة وقع بسببها أبو سهل نفسه في محنة كبرى وسأشرح قصة هذه المكيدة وأوضح أسباب القبض عليه تفصيلاً .

سمعت من الخواجة أبي نصر أن أبا سهل الزوزني أوقع في روع السلطان

(١) أورد البيهقي بهذا الترجمة الفارسية للكتاب والبيعة ، ص ٣٠٤ إلى ٣١٦ .

أن خوارزمشاه ألتونتاش ميال إلى السوء وكان ينبغى القبض عليه في شارقان أما وقد ذهب فكأنما أفلت الصيد من الشباك ، وقد قضى على المردة العتاة كملى قريب وأريارق والغازى بينما ظل خوارزمشاه ألتونتاش حياً له الخزائن والأموال الوفيرة إلى جانب ملكه الواسع وجنده وعدته فلو قضى عليه وفوض الأمر في بلاده إلى معتمد من قبل السلطان لغنمت الدولة دولة عظيمة وخزانة عامرة وجندا كثيراً . فقال السلطان : وما الحيلة في ذلك إذ ينبغى أن يكون هنالك جيش وقائد عظيم للقيام بهذه الأعمال . فقال أبو سهل : هذا عمل يسير بشرط أن يظل الأمر سراً مكتوماً ، وذلك بأن يكتب السلطان بخط ٣١٧ يده خطاباً إلى الفائد منجوق أمير جيوش كجات وهو من الموالين للحضرة السلطانية في خوارزم والمتعطين لدم خوارزمشاه فبدر القبض عليه وقتله والسلطان هنالك قرابة الثلاثة آلاف فارس من الأتباع ومعلوم ما لخوارزمشاه من الأتباع فمن السهل القضاء عليه ، وعندما يرى منجوق أن الخطاب مكتوب بيد مولانا تقوى عزيزته ويقدم على هذا الأمر على أنه ينبغى ألا يطلع أحد غيره أو أحد الكتاب على ذلك . فقال السلطان : نعم الرأى وحيث أنك العارض فسجل اسم كل واحد من المقدمين . ففعل ذلك وكتب السلطان بخطه ماطفة وذكر فيها اسم كل مقدم والجهة التى هو فيها ، ولم يدر بخلد أبى سهل أن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يظل خافياً وأن خوارزمشاه سبغت منه إذ ليس ثمة أحد مثله يقظة وذكاء ، فلا يمكن القضاء عليه بهذه السهولة بل وقد يشور من أجله العالم . وبعد قضاء الله تعالى ينبغى أن نعلم أن خراسان ضاعت نتيجة مكائد أبى سهل ضد خوارزمشاه ، وأن الخواجة أحمد عبد الصمد وزير خوارزمشاه لم يكن يمثله أحد كفاية وحسن تدبير وسيأتى بيان كل ذلك في موضعه .

قال أستاذى أبونصر إن السلطان باح بهذا السر إلى عبدوس بعد إرسال هذه الماطفة ، فأسر عبدوس به في مجلس الشراب إلى كاتم سره أبى الفتح الحاتمي ،

وكان بين عبدوس وأبي سهل عداة شديدة فقال عبدوس إن أبا سهل سيقضى بدسائسه على هذه الدولة العظيمة ، وفي اليوم التالي قص أبو الفتح الحاتمي هذه الحكاية على صديقه محمد مسعدى وكبل خوارزمشاه في البلاط ونال على ذلك أجرا حسنا ، فكتب مسعدى هذا الخبر مفصلا في معية^(١) إلى الخواجة أحمد عبد الصمد وكانت رموز هذه المعية مصطاحجة بينهما ، وكان أبو سهل قد أحاط بالطرق المؤدية إلى خوارزم وكانوا يصادرون الرسائل ويحتاطون لما يمكن أن يقع ، فوقع في يدهم معية مسعدى ، فأرسل السلطان إلى الأستاذ الرئيس يقول : لماذا تركتم معتمد خوارزمشاه يكتب المعميات ينبغي أن تحتاطوا وتحققوا . فأحضروا مسعدى ، وكنت أنا ، أعني أبا نصر ، حاضرا أثناء ذلك فسأله عن المعية فقال : إني معتمد لرجل عظيم وهو ينبغي أجرا كبيرا ويهني صلات طيبة وقد أخذوا على الأيمان المغلظة أن أنهي إليهم فورا كل ما يكون في صالحهم ويعلم مولانا أنني لست ممن يعينون في الأرض فسادا كما يعرف الخواجة أبو نصر حقيقة أمرى وقد كتبت هذا المعية لأمر هام . فسأله : وما هو هذا الأمر الهام . فأجاب : هذا ما لا أستطيع البوح به . فقالوا لا بد من ذلك وإنا احتراماً لشأن سيدك ٣١٨ جعلنا التحقيق معك على هذا المنوال ، وإلا لكان يجرى على صورة أخرى . فقال فإن كان ولا بد من ذلك فينبغي أن أحصل على أمان من السلطان . فعرضوا الأمر على السلطان وأخذوا له الأمان فبين الواقعة بقوله : كنت قد سمعت كذا وكذا من أبي الفتح الحاتمي نقلا عن عبدوس . فلما عرف الخواجة بذلك استشاط غيظا والتفت إلى قائلا أترى ماذا يفعلون ؟ ثم سأل مسعدى وهل كتبت شيئا قبل هذا . فقال نعم قد كتبت وأرسلت هذا تأييدا لذلك . فقال الأستاذ الرئيس : إن هذا

(١) المعية من الكلام ما ممي معناه وخفي ، ما يطلق عليه اليوم كلمة الشفرة .

الرجل لأنه معتمد لدى البلاط ويتقاضى أجرا وراتبا ويمنح صلات ولأنه أقسم
أيمانا مغالطة يعتبر معذورا فيما فعل ، ولكن ينبغي أن يعنف أبو الفتح الحاتمي
على هذه الكذبة الشنعاء . ثم قال لي سرا أبلغ السلطان أن لا ييوح الآن بهذا
السر إلى عبدوس أو الزوزني لنرى ماذا سيكون بعد ذلك . وأوعزوا إلى
مسعدى كي يكتب معمة أخرى يقول فيها أن لا صحة لما جاء بكتابه الأول ويرسلها
مع ساع من قبله وأن يكتب لصاحب البريد بهذا المعنى أيضا ، إذ ليس لنا اليوم
طريق آخر غير هذا وسنعرف غدا بعد وصول الرسالة ما يجرى هنالك
وما يصنعون وماذا نرى ، وينبغي للسلطان أن لا يتمادى في هذا الحديث وأن
يجعل الحاتمي فدائ ، ولو أن هذا السر لن يظل خافيا وسوف يترتب عليه خلل
كبير . فذهبت للسلطان وأبلغت مقالة الأستاذ الرئيس فلما سمع ذلك ظل واجها
ولم ينبس ببنت شفة وجلست ثم إلتفت نحوي وقال : يجب العمل بما يؤول
إلى الصلاح في هذا الباب فإن أبا الفتح الحاتمي هو الذى اختلق هذا الكذب
والصلة بين أبي سهل وعبدوس سيئة وهذا الكلب قد حاك هذه الدسيئة ودبر
هذا المكر . فعدتُ وذكرت كل ما جرى للخواجة فأخذ هذا يطمئن مسعدى
وكتب معمتين بالمعنى الذى حررت خلاصته بيدي جاء فيهما إن ما كتبه سابقا
لم يكن إلا عن كذب اختلقه أبو الفتح لتعكير صفاء المودة بين العاهلين وقد
عنف أبو الفتح لما ارتكبه . وأرسل الكتابين أحدهما بيد قاصد والآخر مع أحد
فرسان السلطان ، وصرفوا مسعدى وضربوا أبا الفتح خمسمائة عصى وعزلوه
عن منصب الإشراف فى بلخ الذى كان قد أسند إليه ، ثم اختلى بى الأستاذ
الرئيس بعد ذهاب مسعدى وقال لي ٣١٩ « رأيت ما فعلوا ؛ لقد أثاروا الدنيا
وإنه البون تاش لا الغول البرى ^(١) وإن لديه داهية كأحمد عبد الصمد فكيف

(١) ديوسبا ، وى نسخة أخرى ديوسياه ، وقد يحتمل أن يكون هذا اللفظ مما يستخدم

للتحقيق فى ذلك الوقت . غنى - فياض ٣١٩ .

يجوز هذا ؟ لقد خسرنا التوتناش ، إلا أنه تركى عاقل وقد أشرف على سن الشيخوخة ولن يرضى لنفسه بسوء السمعة في هذه السن ولولا هذا لأثار شراً عظيماً عليا ، والأعجب من كل هذا هو أنى كما ترى بعيد كل البعد عن أمثال هذه الأمور ، ولكن التوتناش سيعتقد أن كل هذا بتدبير منى فاذهب إلى السلطان وقل له إن فلانا يقول لقد جرت أمور دون سابق علمى بها فإذا رأى السلطان أطاع العبد عايبها كي يتخذ ما ينبغى لتداركها . فذهبت وبلغت وكان السلطان محتداً للغاية فقال : لم يقع فى هذا الباب شيء يثير القلق إلا أن أبا سهل كان يقول لنا فقط إن التوتناش أفلت دون ثمن من يدنا فى شبورقان فصرخت فى وجهه وذهب عبدوس وتبادل والحاتمى الأحاديث الحلوّة المرة وقال إن أبا سهل لم يكف عن دس الدسائس فاتخذ الحاتمى هذه التقولات بضاعة رائجة لنفسه فلاقى جزاءه . فقلت : هذا قول سيد أطال الله حياة مولانا ، ومن الممكن تلافى ما وقع إذا لم يكن هنالك شيء آخر . وعدت فذكرت للخواجة ما جرى فقال : يا أبا نصر إن هناك شيئاً آخر وقد جرى فى السر وهم يخفونه عنا وسوف ترى ما يخرج من طياته . ثم رجعت . وبعد ذلك ، وكنت جالساً حين صلاة العصر فى مجلس السلطان ، إذا بهم يأتون بحقيبة بريد خوارزم مغلقة محتومة وكان حارس الديوان يعرف أن كل حقيبة تصل على هذه الصورة لابد أن تحتوى على أمر هام ، فجاء بها وتسلمتها وفتحها فوجدتها كتاب صاحب البريد أخى أبى الفتح الحاتمى فسلمتها للسلطان فأخذها ٣٢٠ وقرأها فبهت ، وأيقنت بوقوع أمر خطير ، ولكنى لم أقل شيئاً واستأذنت فى الذهاب فقال لا تبرح ، فجلست وأشار فأنصرف الندماء والحجاب وانتهى الإذن ولم يبق أحد هنالك ، فرمى إلى الكتاب وقال : اقرأ فقراته وإذا فيه أن خوارز مشاه أذن اليوم (الجمعة) البوالى والحشم بالحضور إلى مجلسه فحضروا وكان منجوق قائد كجاتان نشوان فلم يجلس فى مكانه الخاص به وإنما

تجاوزته فضحك خوارزمشاه وقال له لعل القائد أفرط في الليلة الماضية ونام متأخراً ، فأجاب القائد غاضباً : إن نعمتك قد فاضت على فعمدت إلى اللهو والشراب وسيقضى على هذا الضلال ، فالحبز أولاً ومن بعده الشراب ومن يكن في نعيم يعكف على الشراب . فضحك خوارزمشاه وقال لا يتحدثني بحديث السكرى . فقال منجوق نعم إن الشبعان يعد الجائع سكراناً ويحسبه سفيهاً ونحن المذنبون باضطبارنا على هذا الحال . فصاح في وجهه تاش ماهروى سبب سالار خوارزمشاه قائلاً أتعرف معنى ما تقول ؟ إن سيداً عظيماً يمازحك ويضحك معك وأنت تتجاوز حدك ولولا حرمة هذا المجلس العالى لكان الجواب على هذا بحد السيف . فصرخ فيه القائد ومد يده إلى سيفه ^(١) فتعلق به الغلمان والحجاب وأخذوا يتدافعون وهو يتمادى في سقط القول ويقاومهم وكان خوارزمشاه في أثناء ذلك ينساديهم قائلاً دعوه واركوه . وبينما هم على هذه الحال إذ أصاب صدر منجوق وخصيته عدة رفسات فحملوه إلى المنزل حيث توفي حين صلاة الظهر وأسلم روحه للحضرة العلية ، فليدم ملك العالم . ثم إن خوارزمشاه دعانى وقال لى إنك صاحب البريد وقد شهدت ما جرى فلتكتبين حقيقة ما وقع كيلا يصل خلافها إلى المجلس العالى . فشرحت ذلك ليتفضل الرأى العالى بالاطلاع عليه زاده الله علواً إن شاء الله تعالى . وكان مع الكتاب رقعة تفيد أنه بعد ما حدثت للقائد منجوق هذه الواقعة اتخذت الاحتياطات اللازمة للمحافظة على داره وأمتعته خوف الضياع والتفريط وأتوا بكتابته ونجلاه إلى الديوان حيث اعتقلوهما حتى يتقرر ما ينبغي بإذن الله تعالى .

فلما فرغت من قراءة الرسالة قال لى السلطان ما رأيك وماذا يمكن أن ٣٢١ يكون . فأجبتة : أطال الله حياة السلطان إني لا أستطيع التكهن بالغيب ولكنى بقدر علمى أرى أن خوارزمشاه رجل عاقل عظيم ذا أناة وليس لأحد جرأة

(١) قرا جولى . بمعنى السيف وكذلك قرا جوى .

على إثارة مثل هذا الهياج في حضرته حتى يؤول الأمر إلى قتل رجل مثل القائد خطأ فلا بد أن يكون هناك سر خاف وراء هذه الواقعة على كل حال وصاحب البريد لا يستطيع عادة أن يكتب خبراً دون إرادتهم وإملائهم ولكن قد أخذت عليه الإيمان ليكتب كل ما يجري سرا بأية طريقة يستطيع فعله لا يمكن التثبت من حقيقة الحال إلا بعد وصول رسالته السرية . فقال السلطان : حتى متى أخفي عنك يا أبا نصر الحقائق ، إن أبا سهل هو الذي أوقعنا في هذه الورطة فصدرت بخطاً رسالة فيها كذا وكذا فلعلمهم قتلوا القائد بعد أن وصلت رسالة الوكيل وتذرعوا بهذه الظواهر ، أما قلبي فليس مرجعه إلى قتل القائد ، وإنما أخشى أن تكون الرقعة التي كتبها بخطي قد وقعت في أيديهم ، ويطول بنا الأمر ، لأن اعتقال نجل القائد وكاتبه له مغزى عميق ولعل تلك الملقطة وجدت فعلاً بيد الكاتب ، فما رأى في ذلك والتدبير ؟ فقلت إن الأستاذ الرئيس هو الذي يستطيع مداواة هذا الداء ، ولا يمكن القطع في أمثاله من الأمور دون حضوره . فقال : إذا ينبغي كتمان حديث الليلة حتى يحضر الأستاذ الرئيس غداً . فانصرفت راجعاً أفكر فيما وقع وأنا شديد الأسف والحزن ليقيني بأننا قد خسرنا خوارزمشاه تماماً ، وبت ساهراً أفكر طول ليلي ، وفي اليوم التالي بعد أن فض الاستقبال اختلى السلطان بالأستاذ الرئيس وطلب الرسائل فقدمتها فأعطاها للخوارجة فلما قرأها قال : لقد صادف القائد المسكين شراً كان من الممكن درؤه . فقال السلطان : إن عندنا أشياء أخرى لا يعرفها الأستاذ الرئيس وقد أطلعت عليها أبا نصر ليلة أمس فإن أبا سهل هو الذي أوقعنا في هذه الورطة حتى أرسل إلى القائد كتاب بخطنا ، وإن ما أخشاه الآن أن تكون الرسالة قد وقعت بيد النونتاش . فقال الأستاذ الرئيس : إنه من الممكن أن تكون الرسالة لدى ذاك الكاتب . فينبغي والحالة هذه إسقاط اسم خوارزمشاه من سجل الموالين ويا ليت الأمر يقف عندهما لحد ولا ينجم عنه فساد آخر ولكني أعتقد أن

ذلك لن يكون ، فإن هذا التركي شيخ على جانب من العقل والساد . ولعلمهم
تعمدوا إدخال السلطان في هذا المأزق ٣٢٢ ، ولم يكن ينبغي وبين خوارزمشاه صفاء
في يوم من الأيام فسيقتقد على كل حال أن ما جرى لم يكن إلا بندبر مني ؛ هذا
ولم يحسن أبو سهل صنعا ، فجحد نعمة السلطان ولم يعرف حقه بإقدامه على هذا
التدبير الخاطيء وأنا لا أعلم السر في إخفاء هذا الأمر عني إذ لو كنت عالما به
لكنت وجه الخطأ والصواب فيه . فقال السلطان : لقد كان ما كان فما الحيلة
الآن . فأجاب الأستاذ الرئيس : أرى من المناسب الآن أن يكتب جواب
لصاحب البريد دون أن يظهر أكثرنا لمقتل القائد ، وأن لا نكتب البتة شيئا
لخوارزمشاه حتى نرى ما يكون وينبغي ألا ننسى أن القائد ارتكب شططا
وتجاوز حده فجاء قهضاء الله موافقا لما جرى فلقى حتفه ، ويجب أن نرعى حقه
ونرى هل يردون ما خلفه لنجله أم لا ، وعلى أي حال فإن رسالة صاحب
البريد ستصل في هذه الأيام سرا ، لو أنه استطاع إرسالها ولم يحولوا دون
إمكان وصولها وسيشرح الأحوال بالتفصيل وسنتخذ تدابير أخرى على ضوء
ما نقرأه في تلك الرسالة ، وحيث أن أخا أبي الفتح الخاتمي هذا صاحب البريد
هناك ، فليس ببعيد أن يكون أبو الفتح قد فعل هذا من أجل أخيه . فقال
السلطان : إنه كذلك فإن أبا الفتح هذا كان يكتب إلينا إبان وجوده في ديوان
أبي نصر بواسطة أبيه الذي كان في ديوان خليفة هراة عن جميع ما كان يجري
من شئون والدنا . فقلت أنا أي أبو نصر : وآأسفاه على أن أسمع هذا الكلام
في مثل هذا اليوم . فقال السلطان : وماذا كنت تفعل إن عرفت ذلك آنذاك .
فقلت : كنت أوعز بسلخ قفاه وطرده من الديوان فإن الكاتب الخائن لا يعتمد
عليه . ثم قمنا وانصرفنا عائدين . وأحضر السلطان أبا سهل العارض وعنفه وأهانته
وقال له إلى متى أحتمل وزر أخطائك ، لا أمرن بضرب عنقك إن تكلمت بعد
هذا في حضرتي فيما لا يختص بعمل العرض ؛ واستدعي كذلك عبدوس ولامه

بأقصى الكلام وقال له لقد بحث بسرنا الذى كلهناك فيه وإنكم لستم جديرين بالصحبة ، ولسوف تلقون جزاء ما اقترعتم من خيانه .

٣٢٣ واشتد قلق السلطان بعد هذه الواقعة ولم يكن يتحدث بعد ذلك فيما ينبغى التحدث فيه إلا مع الأستاذ الرئيس ومعنى . وقضى على نفوذ هؤلاء الجماعة إذ قد أصبح مؤكداً أن كل ما يقولونه ويسمونه خطأ محض .

وكنت يوماً فى منزلى فأخبرونى أن سائحاً بالباب يقول إن لدى خبراً هاماً ، فوقع فى قلبى فوراً أنه لابد آت من خوارزم وقلت أدخلوه فدخل وطلب الخلوة ، ثم شق العصا التى كانت بيده وأخرج منها وريقة صغيرة من أبى عبد الله الحائى نائب البريد يخاطبني بها وأعطانيها ، وكان مكتوباً بها : لقد دبرت الحيل وأعطيت السائح هذا مالا وضمنت له مالا يصله من الحضرة حتى خاطر بنفسه وسافر وهو إن وصل سالماً إلى الحضرة العلية سيبلغكم برسائلى الشفوية وهو رجل نبيه وقد شهد عياناً الأحوال هنا فينبغى الاستماع إليه واعتماد أقواله إن شاء الله . فقلت وما هى المشافهات . فقال إنه يقول إن كل ما كتبت إليه من قبل من أنهم رفسوا القائد عدة رفسات فى قلبه وخصبته أثناء الشجار فى سراى خوارزمشاه بما أدى إلى موته إنما كان وفق ما كتبه لى كنتخذه أحمد عبد الصمد وقد أعطونى لقاء ذلك مالا وألبسة ولو أنى كتبت غير ذلك لخاطرت بحياتى ، والحقيقة أن القائد قبل مقتله بيوم عقد اجتماعاً كبيراً دعا إليه أتباعه من مشاغبي بكات وجغرات وأخذ يشكو من خوارزمشاه علناً ويذكره بالسوء إلى أن قال إن أمور الدنيا لا تبقى على حال واحد وإن التوتوناش وأحمد لا يرعيان مصالحهم ومصالح أبنائهم وغلبانهم ولا بد لهذه الحال من مآل وواضح أنى وهؤلاء الرجال الأحرار لا نستطيع الصبر على المكروه أكثر من هذا . فنقلوا ذلك الخبر إلى خوارزمشاه فقال للقائد غداة ذلك اليوم فى مجلسه : أ كنت البارحة وليلتها مستضيفاً ؟ فقال نعم . فقال ألم تجد لهما ونقلاً للضيافة حتى نهشت لحمي ولحم

كتخدای . فأجابه القائد بإجابات كانت أدهى وأمر . فضحك خوارزمشاه والتفت إلى أحمد . ولما انصرف القائد قال خوارزمشاه لأحمد أما رأيت كيف يلعب غرور الحضرة في رأس القائد . فقال أحمد نعم ينبغي أن يطرد من هنا . وعاد إلى داره . وكان الرسم المتبع أن يعود أحمد في أيام الجمعة قبل ميعاد عودته في سائر الأيام ويذهب الجميع للسلام عليه وكنتُ حاضراً هنالك فجاء القائد ٣٢٤ وأخذ يكلم أحمد معاتباً وقد قال في أثناء ذلك ما هذا الكلام الذي كان يخاطبني به اليوم خوارزمشاه ؟ فأجاب أحمد إن سيدي كريم حلیم ولو أنه تكلم بالسيف والعصى لما كان لك ولا لأمثالك جرأة على أن تحتسوا ثمالة وتتجاوزوا في الكلام حدكم . فرد القائد بإجابة مهينة وبسط يده في وجه أحمد فقال أحمد إنما أتت هذه النخوة من قبل الحضرة وكان الأولى إخفاؤها مدة حتى تصلك الخوارزمشاهية . فقال القائد ولكن لن تدوم لك الخوارزمشاهية . ثم نهض لينصرف فقال أحمد لا يفوتكم هذا المكاب . فقال القائد إنك لن تستطيع عليّ أمراً . فصفق أحمد بيده وقال أعطوه . فظهر على الفور مائتا رجل كانوا قد أعدوهم وكان القائد قد وصل إلى وسط السراي فأعملوا فيه السيوف والخناجر والمعاول وقضوا عليه ثم ربطوا رجله بحبل وداروا به في طرقات المدينة وهدموا قصره واعتقلوا نجله وكاتبه وحملوني على أن أكتب رسالة من نسخة أعدوها كما قرئت في وقتها . وغداة ذلك اليوم طلبوا من كاتبه رسالة قالوا إنها جاءت من الحضرة فأنكر أن القائد أعطاه شيئاً ففتشوا دار القائد وأوراقه فلم يجدوا الرسالة فشددوا على الكاتب حتى أقر واعترف وأعطاهم الرسالة فأخذوها ولم يبرزوها وقالوا إنهم أخفوها بحبث لم يطلع عليها أحد ولم يأذن خوارزمشاه للاستقبال بمجاسه ثلاثة أيام ، إذ كان مختلياً بأحمد . وفي اليوم الرابع وكان يوم جمعة ، أذن خوارزمشاه للناس كسائر الأيام بل كان مجلسه أكثر أهبة وجلالا من ذي قبل وخطبوا وقت الصلاة الخطبة المعتادة ولم يبدوا

شيئاً يدل على العصيان . هذا ولم يوقفوني على شيء إلا ما كان له شأن رسمي وأخذوا في شراء الغلمان والدواب أكثر من المعتاد وسيكون ما أكتبه بعد الآن بإيعازهم وموافقاً لرغباتهم فينبغي أن لا يعتمد عليه ، وهذا ما أجباني إلى الاستفادة في عملي من السياح والسعاة المتسكرين وإن حياتي لفي خطر والله ولي الكفاية .

فنسخت هذه الرسالة الشفوية وحماتها إلى الدركاه فقرأها السلطان وتولته حيرة شديدة وقال ينبغي ختم هذه الرسالة حتى يأتي الأستاذ الرئيس غداً ففعلت ذلك . وفي اليوم التالي اختلى السلطان بالأستاذ الرئيس وبى بعد أن ٣٢٥ انفض الاستقبال فلما طالع الأستاذ الرئيس رسالة البريد وقرأ التقرير قال : أطل الله حياة مولانا هذه هي عاقبة الإقدام على أمر دون روية ، ينبغي أن نقطع الأمل من ألتونتاش فإننا لن نفقد منه شيئاً ، وليته لا يقدم على فساد بالاتحاد مع على تكين ، فإنهما قريبان من بعضهما ، فيبذر بذلك شراً مستطيراً ، فقلت : لا أعتقد أنه يفعل ذلك ، لأنه يرفعى حق السلطان الماضي ويعلم يقيناً أن نفسه خبيثة حملت مولانا إلى الطريق المعوج . فقال السلطان ماذا أفعل وقد أخذوا خطي حجة على ، وإن احتجاجوا على به فكيف أتصل به . فقال الأستاذ الرئيس لقد وقع ما وقع وثمت شيء واحد لو عملنا به لأمكن تهدئة الحال إلى حد ما ولهذا الشيء عوض ولو أن قلب السلطان سيتألم نوعاً إلا أن ألتونتاش وثرغ خوارزم العظيم ليس لكليهما عوض . فقال السلطان وما ذلك الشيء ، إني لحريص على تلافي ما حدث وإن اقتضى الأمر التضحية بنجل عزيز كي أنهى الأمر ولا يطول . فأجاب الأستاذ الرئيس إن هذا العبد لا يقول إلا ما تتطلبه مصلحة مولانا ، فينبغي أن لا يظن أن ما يقوله صادر عن تعصب لنفسه وأهله لا يحتمل أن يرى أحد عبداً للدركاه العالي في منزلة عالية . فقال السلطان حقاً لا يظن بالحواجة هذا ولن يكون ذلك أبداً . فقال : إن أباً سهل هو مصدر كل هذا

الفساد والتونناش ممتعض منه وهو يعلم أن هذه الرفعة ولو أنها مكتوبة بخط السلطان فما هي إلا من دسائس أبي سهل أجراها على يد السلطان وبحث بها ، فينبغي أن يكون هو فداء لهذا الأمر بأن يأمر بإقالته لأنه أقدم على أمرين ضارين ندم عليهما السلطان ويحتاج الأمر لتلافي عواقبهما إلى زمن طويل ، فأولهما أنه أشار باسترجاع صلات الأمير محمد أخى مولانا والآخر أنه تسبب في أن يسيء التونناش الظن بالحضرة ولو أنه عوقب لثبتت هذه الجريمة عليه ، ومن الممكن أن يكتب السلطان رسالة تزيل الشك عن نفس التونناش ولكنه سوف لا يأتي إلى الحضرة أبداً إلا أنه لن ينجد مع عدو ولن يثير فساداً ، هذا ويستطيع العبد أن يكتب رسالة أيضاً وأن يحمل المرأة تجاهه حتى يعلم أنه ما كان لي في هذا الأمر ناقة ولا جمل فيصغى إلى نصحي ويعمل بما أقول . فقال السلطان نعم الرأي سأمر غداً باعتقاله وعلى الخواجة أن يأخذ الخيطة عليه وعلى أتباعه كي لا يفلت من اليد ٣٢٦ ولا يضيع شيء . قال سأفعل ذلك . وإنصرفنا فقال لي الأستاذ الرئيس ونحن في الطريق لقد أدرك السلطان الآن أن القطيع تباعد ولكن لا بأس مع هذا حتى يبتعد القطيع أكثر من هذا .

وفي اليوم التالي بعد انتهاء المجلس سار الخواجة إلى ديوانه وسار أبو سهل إلى ديوان العرض بينما جلست مختلياً بديوان الرسائل وأرسلت الكتب بسرعة إلى مرو وزوزن ونيسابور وغور وهرارة وبادغيس وغزنة بشأن القبض على رجال أبي سهل ومصادرة أمواله ، وبعد أن ساروا بالرسائل وصل أمر السلطان إلى الأستاذ الرئيس على لسان أبي الحسن الكدياني النديم^(١) يقول : هل أرسلت الرسائل التي تكلمنا بشأنها مع الخواجة ليلة أمس وهل سار الفرسان المسرعون ، فليتخذ الخواجة ما ينبغى بشأن هذا الرجل . فاستدعى الأستاذ الرئيس أبا سهل

(١) جاءت هكذا * ولعل الكوراني نسبة إلى قرية من أعمال اسفرايين بخراسان غنى - فياض حاشية ١

ونواب ديوان العرضى وطالب منهم الحسابات والقوائم الخاصة بالجيش ، ثم اخلى بهم واشتغلوا بالأمر بينما أمر سرا ليركب صاحب النوبة ويذهب إلى دار أبي سهل مع المشرفين وثقات الخواجة فذهبوا وصادروا سراى أبي سهل كما صادروا واعتقلوا قومه ومن كان من أتباعه في بلخ ثم أباغوا الخواجة كل ما صنعوا فعاد من الديوان وأمر أن يساق أبو سهل إلى قهندز^(١) فأركبه حاجب النوبة بغلة وبعث به في حراسة جم غفير من الفرسان والرجالة إلى قهندز وكان قد حضر إليه في عرض الطريق خادمان وستون غلاما فساقوهم إلى السراى ثم ساروا به إلى قهندز وسجنوه ، ولاقى بهذا جزاء ما قدمت يداه . ومن ثم أطلعوا السلطان على كل ما جرى بشأنه وفي اليوم التالى اختلى السلطان بالأستاذ الرئيس بعد انتهاء الاستقبال ثم دعوى وقال السلطان : لقد انتهينا من حديث أبي سهل وكان الخير في ذلك لأن هذا الرجل لم يترك لنا مجالاً للسير بما تقتضيه مصلحة الملك فإذا ينبغي عمله الآن؟ فقال الأستاذ الرئيس : إن الصواب في أن يوعز إلى مسعدى ليكتب في التو رسالة إلى خوارزمشاه كما هي العادة في مثل هذه الأحوال بأن يكتب وكيل البلاط ويشرح ما جرى ويقول حيث أنه قد تأكد لدى مجلس السلطان العالى ٣٢٧ أن أبا سهل قد ارتكب خيانة وأثار فسادا في الملك حتى أدى الأمر إلى دس الدسائس في حق شيخ عظيم كخوارزمشاه ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يكيد له وللآخرين وذلك منذ أن التحق بالبلاط إلى أن أقصى عنه ملوما محمورا فقد صحت نية السلطان على كف يده عن العمل بديوان العرض واعتقاله لأمن الملك وخدامه من دسائسه وشروره ، ثم يوعز العبد (الوزير) إليه سرا ليكتب بالمعنى رسالة يقول فيها : إنما فعل السلطان كل هذا ، بعد أن تأكد لديه أن أبا سهل كتب رقعة وأخذ يتحين الفرص إلى أن وجد السلطان في مجلس

(١) هذا الاسم باق إلى اليوم. قهندز بلخ ، وهي ناحية شرقي بلخ وغربي بدخشان ويسمونها العامة قندوس . غنى - فياض حاشية ٣ .

الشراب وقد أخذت الخمر منه مأخذا فحمله على كتابة تلك الرقعة ومن ثم أرسلها إلى خوارزم ولما كان الغد وانتبه السلطان لما حدث وطلب تلك الرقعة قال أبو سهل وحلف برأس السلطان وبجياته بأنه فكر في ذلك أيضاً وتبين خطأه فمزقها وإذ تفرر لدى السلطان بعد ذلك كذب أبي سهل فقد أمر بعقابه . وبعد أن يرسل هذا الخطاب بأسبوع يكتب أبو نصر رسالة أخرى يشرح فيها هذا الأمر ليسترضيه بها ، ويكتب العبد (الوزير) أيضاً من جانبه ، كما ينبغي إيفاد معتمد من لدن الدركاه العالي من ذوى الرأى وأرباب الفصاحة والحجى إلى خوارزم فيوصل الرسائل ويبلغ المشافهات ويحيط خبرا بكل شئ ثم يعود راجعاً بالتالى ، ولو أن كل هذه التداير ظاهر اصطناعها ولا تنطلى على أولئك الدهاة المحنكين إذ سيعرفون أنها كحلوى الآفروشة^(١) ولكنها على كل حال ستترك مكانا للجمالة فيهدأ ذلك التركى ، هذا وينبغي أن يشمل السلطان برعايته ابنه ستى أيضاً فيمنحه الحجابة ويصله بخمسة آلاف دينار حتى يفرغ قلب ذلك الشيخ . فقال السلطان : أجل كل هذا صحيح ويجب العمل به ، ليعلم الأستاذ الرئيس أننا لن نقطع بعد هذا فى سياسة الملك أو أمر المال أو الشؤون العامة أمرا دون مشورته ورأيه . فقَبِلَ الوزير الأرض وبكى وقال : ينبغي أن يتعين لدى مولانا أن هؤلاء الثلاثة ٣٢٨ أو الأربعة الشيوخ الباقين هم خير من ألف شاب فليبقهم الله عز وجل تأييدا لدولة السلطان ولا يسوغ التفريط فى حقهم . فأدناه السلطان وضمه إلى صدره وأثنى عليه كثيرا كما شملنى بعطفه أيضاً . ثم عدنا واستدعى بعد ذلك مسعدى واختلى به ثم دونتُ النسخة اللازمة فكتب ما ينبغي كتابته من ظاهر ومعنى واختار الأستاذ الرئيس أبا القاسم الدامغانى بعد ذلك بأسبوع لينذهب إلى خوارزم ، وكان أبو القاسم هذا شيخا فاضلا أرييا فصيحاً ،

(١) آفروشه اسم حلوى تصنع من العجين .

وكتب الأستاذ الرئيس باسمه كتاباً لطيفاً يخاطب فيه خوارزمشاه وقد استنسخت
في مجلس الحضرة نسخة منه .

صورة الخطاب الذي كتبه شهاب الدولة

السلطان أبو سعيد مسعود رضى الله عنه لألنونتاش خوارزمشاه

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى العم الفاضل الحاجب خوارزمشاه أدام الله
تأييده الذى هو اليوم لنا بمنزلة الوالد وهو أعظم ركن يستند إليه الملك وقد
أظهر في كل آونة صدقه وثباته وتقواه وأبدى ما في ضميره دون رياء أو وجل
بما قام به إبان وفاة والدنا السلطان الماضى رحمة الله عليه ، كما أبدى ما رآه لازماً
من النصيح والإرشاد للجفاخين في غزوة مما لا ينبغي نسيانه أبداً ، وكذلك قدومه
بعد إلى الدركاه بقباب خال من الرياء والنفاق وتقديمه النصيح لصالح الدولة
وتأييدها مما يستحق أن يدون تاريخاً في بابه ، وإن شخصاً ينطوى على مثل هذا
الولاء ويعترف بأنه يدين للدولة بكل ما يملك من جلد ولحم وعظم لخلق بأن
يكون على مثل هذا الوفاء مراعيًا لحق نعمة سلاطانه الماضى وسلاطانه الحالى كما
ينبغي مجتهداً في أداء بقية حقوق مواليه ويمكن أن يقال إنه فاز بأوفى نصيب من
السعادة في الدنيا والآخرة وإنه لجدير بقولهم عاش سعيداً ومات حميداً فليعش
دائماً ولا تسمع أذن عن فقدّه يوماً . وحيث أنه أبدى من جانبه الصدق
والاتحاد والنصرة والاعتقاد الراسخ ولم يجد من قبلنا تقديراً يحق لشخصه
بل لقد ظهر من المتسوقين الهازين والدساسين وقصار النظر وغير المجربين من
الشبان أمور غير لائقة أدت إلى خجلنا ولوم أنفسنا لحسن رأينا الذى كنا نراه ٣٢٩
دائماً المصالحه وكنا واثقين أنه بحصافته وحسن رأيه سينظر إلى الأصل ولا يعاب بالفرع ،
فألنونتاش هو ذلك الفذ الصادق المخلص ولو أنهم كانوا قد أسمعوه شيئاً أو أرادوا أن
يسمعوه أو يظهروه على شيء بالمعينة كي يقلقوا به فالأولى أن يضع شخص السلطان

الماضى تجاه قايه وبصره ويأمل تلك النعم والأفضال والجاه والمنزلة ولا يلتفت إلى ما يصوره الحاسدون والمسدون ، فله من العقل والمعرفة والبصيرة والروية ما لا يستطيعون معه سهولة زحزحته عن آرائه^(١) وإنا لنسأل الله عز وجل التوفيق للنظام بحقوقه وأن نملأ في كما يندغى ما قد يكون مسّ جاهه من وهن أو عاق بقاءه من كراهية ، وهو سبحانه ولى ذلك والمتفضل والموفق بمنه وسعة رحمه . وإنا بعد أن نهضنا من الرى لضبط حاضرة ملك والدنا وبلغنا دامغان إلحق بنا أبو سهل الزوزنى ، وكان قد خدمنا فى وقت ما وأصابته فى ولائنا محنة كبرى وظل بفلاة غزاة ، فترامى لنا كأخلص العبيد وأشفقهم إذ ذاك ولم يكن وقتئذ فى حضرتهما أحد من شيوخ الدولة ليؤدى خدمة أو يدبر أمرا ، وكما زمعين السير لأمر خطير ، وإذ كان حينئذ مقدّما على الآخرين فكان ولا بد أن يتكلم فى كل باب وكنا نزيّن ما يقول بموافقتنا فعلت لذلك منزلته وعاق الناس عليه آمالهم كما هى العادة وانقاد إليه نفر آخرون كطاهر وعبدوس وغيرهما ، وطال فى تلك المسكاة حتى بلغنا هراة واعتقلوا أخانا فى مكان ما والتحق جميع الموالى والخدم وكافة الجند بخدمتنا ، وأخذ هذا الرجل يدبر الأمور على حين كان أصحاب أيدينا متخاذلين مبعدين حتى بلغ الحال به إلى أن أخذ يبدى ترفعا ، ونحن بعد أن ازددنا معرفة بسير الأعمال وتأملنا بدايتها ونهايتها وفهمنا هذا الرجل وعجمنا عوده اسنصوبنا أن نأمر فيحضرنا أبا القاسم أحمد بن الحسن أدام الله تأييده من الهند ٣٣٠ وقطعنا يد تلك المحنة الطويلة التى كان يعانينا وزينا الوزارة بكفاءته ، وأقننا أبا سهل هذا على عمل العرض حتى يشتغل بأمر واحد ويستريح مجلسا من دلالة وخيالاته ، ولكنه سدّ طريق الرشده على نفسه ولم يفارقه ذلك الغرور الذى كان مستوليا عليه وتمادى

(١) المرجة الحرفية لهذا الجبر لا يستطيعون معه الإسراع إلى حمل حجره ضيقا فى

في دلاله وخيالاته حتى دميت قلوب أعيان حضرتنا من فماله وأخذوا يستعفون الواحد بعد الآخر من تلك الأعمال التي كانت في عهدتهم والتي لم تكن تستقيم إلا بهم ولم يكن ثمة من يقوم بها وقطعوا الأمل منا ومن أعمالنا وأخل ذلك بشئون الملك . وفضلاً عن ذلك فقد كان يتناول على أرباب السيف ويحيك الدسائس لهم ، ومن ذلك ما كان منه في حق الحاجب حتى بلبل خاطره وأغرى به الفائد منجوق وجعله وسيلة ، وحمّلنا على تغبير حسن رأينا في الحاجب الذي هو لنا بمنزلة الأب والعم . فلما جاوز حده وثبتت لديها خياناته الكبرى أمرنا بكف يده عن أعمال العرض فسجنوه في مكان ما وصادروا جميع ممتلكاته حتى يرتجف سائر المتهورين ويكون عبرة لهم ، وليس من شك في أن ثقات الحاجب قد أنهموا له ذلك ويدينوا وجوهه ، وقد أمرنا الآن والحالة هذه برعاية ولدنا ومعتمدنا « ستي » نجل الحاجب ووصاناه بإنعامات شاملة ونال الحجابة أيضاً وإنه لعزیز علينا كأحد أبنائنا ، ومن كان أليق منه بهذا العمل ، فإنه نجل والد له الأصالة والكفاءة ، وكل هذا جد قابل بالنسبة إلى حقوق الحاجب ، وإذا كانت صلاتنا الواجبة لم تصل من مجلسنا حتى الآن إلى الحاجب فسوف تصله تبعاً كي يزول كل ما دبره ذلك الأرعن من النفرة وسوء الظن . هذا وقد أوفد الأستاذ الرئيس بأمرنا معتمداً وكتب هذه المعاني وخمّله المشافهات حسبما سمع فينبغي على الحاجب أن يعتمد عليه وأن يصير قابله أكثر صفاء بما كان وأن يعيد المعتمد سريعاً وأن يذكر مطعناً ما يريد فإن كل ما يطلبه سيتم موافقاً ٣٣١ لرغباته بإذن الله .

حررت هذه الرسالة وذهب معتمد ديوان الوزارة فأبلغها وعاد ، وساد الجو هدوء ظاهر ولم يحدث وقتئذ فساد خطير . أما خوارزمشاه فقد كان

يتلوى كندا إلى أن سار جيش بأمر السلطان فصدر إليه الأمر بأن يسير مع جيش خوارزم إلى جيحون وانضمت إليه الجند ، وتوجه لقتال على تكين ودارت بينهما معركة في موضع دبوسى^(١) انهارت على أثرها قوة على تكين وقتل من جنده جمع كثير وأصيب خوارزمشاه بسهم ولقى حنقه في الليلة التالية . وعقد الخواجة أحمد عبد الصمد رحمه الله ذلك الرجل العالم السكف الناصح الصلح ليلاً مع على تكين قبل أن يذيع خبر موت خوارزمشاه ، وقد تقبل على تكين هذا الصلح شاكراً وانسحب أحمد عبد الصمد في اليوم التالي بذلك الجيش والخزائن وغلبان السراى مستخدماً ما يمكن من لطائف الحيل حتى جاء بهم سالمين إلى خوارزم . رحمة الله عليهم أجمعين وسأذكر تفصيل ذلك في موضعه

وقد سمعت ، أنا أبو الفضل وصفا أقرب إلى الحقيقة لمقبل القائد منجوق من الخواجة أحمد عبد الصمد وذلك في السنة التي وصل فيها الأمير مودود إلى دينور^(٢) فتأمر لمقتل أبيه السلطان الشهيد ثم قفل راجعاً إلى غزنة حيث تربع على سرير الملك وفوض الوزارة إلى الخواجة أحمد عبد الصمد ولكنه لم يشهد الوزارة إلا أياماً قليلة رحمة الله عليه .

وأذكر أنى كنت جالساً يوماً عندهذا الوزير إذ كنت قد ذهبت لإبلاغ رسالة ، وكان أبو سهل الزوزنى لم يصل بعد من بست فسألنى متى يعود الخواجة أبو سهل . فأجبتته بأنه لم يصل خبر ٣٣٢ من بست ولكنه ينبغي أن يصل خلال عشرة أيام فقال وهل يفوض إليه السلطان ديوان الرسائل فقلت ومن أليق به منه وقد كان

(١) دبوسى بلدة صغيرة من أعمال الصمد فيما وراء النهر .

(٢) جاء في حاشية يـ أن هذا الاسم لا محل له هنا قطعاً فإن دينور في حدود كرمانشاه ولا مناسبة لها أو صلاه بهذه القصة وتقول لعلها تكون برشور (بشاور) المربة من البنجاب وكان فيها مقتل السلطان مسعود .

يشغل هذا المنصب على عهد الساطان الشهيد رضى الله عنه . وتسلسلت الأحاديث إلى أن انتهينا إلى حديث خوارزم وقصد القائد منجوق وكنت أشرح له شتى الأحوال بالتفصيل لأنها كانت تدور حولى فقال : إن ما قائله صحيح وقد وقع فعلا بيد أن هناك نقطة تليق بالمعرفة لم يصل إليها عليك . ففأت إذا شاء مولانا فليمن على بشرحها فإن فيها للعبد فائدة ، ولما كنت مزجماً تدوين هذا التاريخ فلذلك جمعت فيه كل نكتة أينما وجدت ، وسألته عن كيفية مقتل الزائد منجوق فقال : فى أول يوم فوض إلى خوارزمشاه منصب الكنخدائية تفرر الرسم على أن أذهب كل يوم إلى حضرة حيث أمكث معه وحدى ساعة أو ساعتين فإذا نادى بأن يؤذن بالدخول دخل الآخرون عليه ، وكان يختل بي سواء كان لديه أمر هام أو لم يكن وكان يسألنى ماذا فعلت البارحة وماذا أكلت وكيف كان يومك فإنى عملت كذا وكذا ، فكنت أقول لنفسى ما هذا الهوس العجيب الذى يدعو له للاختلاء بى ، حتى اتفق أن كما يوما فى هراة وقد حدث فى تلك الليلة أمر هام إذ وصل كتاب الخوارزمشاه من السلطان الماضى فدبرنا الأمر فى تلك الخلوة ولم يعرف بها أحد فقال لى : إننى أعقد الخلوة كل يوم لمثل هذا اليوم ، فقلت لنفسى أجل لقد كنت فى خطأ كبير فإن الحق مع خوارزمشاه وكانت الأمور فى خوارزم تسير على هذا المنوال . فلما وصلت معبأة مسعدى اختل بى خوارزمشاه طويلا فى اليوم التالى وانقطع أمله فى الساطان ثم أجهش بالبكاء وهو يقول لتكن اللعنة على هؤلاء اللئام فقد قضا بمكائدهم على رجل منقطع النظر كعلى قريب وأتوا على آخري كالغازى وأريارق كما هموا بالقضاء على شبورقان إلا أن الله تبارك وتعالى حفظنى والآن يتشبثون بهذه الحيل وقد خفى عليهم أن رجلا كالقائد لا يستطيع القبض على وإذا فرضنا أنه قضى على فكيف يمكن المحافظة على إيالة للسلطان بهذه السعة من يد الخصوم . وليكنهم لو أقدموا على ألف مكيدة كهذه فإنى لن أسى إلى سمعتى الطيبة لاسيما

وقد طعنت في السن وأتوقع الموت بين ساعة وأخرى . فقلت إن الأمر كذلك بيد أننا يجب أن نبدي شيئاً من القوة بحيث تقع بها الهيبة هنا ويعرفون في الحضرة أن خوارزمشاه لا ينام وأن الأيدي لن يمكنها أن تمتد إليه في سرعة ويسر . فقال : وقد ظهر الغرور في القائد فيجب القبض عليه . فقلت : بل يجب فعل ما هو أعظم من ذلك وهو قطع ذلك الرأس الذي ملأه ٣٣٣ ملك كسحود غروراً وزين له أن يحل محل خوارزمشاه وإلا وقع من جراء ذلك شر مستطير . فقال : ولكن هذا أمر جد قبيح وغير لائق . فقلت : فليأذن لي مولاي بأخذ الأمر على عاتقي وحدي . فقال : وقد أذنت لك . وكان هذا الحديث في خلوة يوم الخميس وكانت رسالة بخط السلطان قد وصلت إلى القائد وأثارت في رأسه غروراً كبيراً فأقام تلك المأدبة الكبيرة في يوم الخميس المذكور وأقدم بذلك على أمر خطير ، وجاء يوم الجمعة لتحية خوارزمشاه وكان ثملاً فأخفش في القول ونادى مهدداً فاحتمله خوارزمشاه مع أن تاش ماهروي سب سلالار خوارزمشاه سبه وشتمه ، فذهبت إلى داري وأعددت له العدة وعندما حضر لدى كما كانت العادة بأن يجتمع الزملاء عندي يوم الجمعة وجدت في رأسه غروراً لم يكن أشد منه فبادرته بالشتم والإهانة أن لماذا لم يراع حد الأدب مع خوارزمشاه وأخشت في القول فضاق صدره وتميز غيظاً وبدأ يهدر بالسب والشتم صارخاً فهصفقت إيدائي فخرج رجال كوجان دفعة واحدة وقطعوه إرباً إرباً . واتصل خبره بخوارزمشاه حينما سمع صوت الغوغاء في المدينة فقد ربطوا رجله بحبل وأخذوا يسحبونه ، ثم أحضرت نائب البريد وأعطيته الدراهم والألبسة حتى كتبت الواقعة على الصورة التي قرأتها آنذاك ، ثم استدعاني خوارزمشاه وسألني قائلاً : ما هذا الذي جرى يا أحمد فقلت : أمر جاء في محله . فقال : فإذا تقول للحضرة السلطانية . فقلت لقد دبرت ذلك ، وذكرت له ما كتبت . فقال : احمرى إنك لرجل رشيد . فقلت : لا يكون ملك الخوارزمشاهية

ملكاً إلا بأمثال هذه التدابير . فكان لذلك أثره العظيم .

وحيث أن حديث هذا السجين أى أبى سهل الزوزنى قد انتهى فقد وجب على أن أسرد قصة الحبس .

حكاية

قرأت أنه بعد أن ترك بزرجمهر الحكيم دين زرادشت لاعتقاده بأنه لا يخلو من خلل واعتنق ديانة المسيح عليه السلام ، خاطب إخوته قائلا : « إني قرأت أنه سيظهر في آخر الزمان نبي اسمه محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فإذا سعدت فإنى أكون أول من يؤمن به وإلا فإنى أدعوا الله أن أكون يوم الحشر مع ٣٣٤ أمته ، فأوصوا أبناءكم بذلك لتسعدوا بالجنة » . وأبلغوا هذا الخبر كسرى أنوشروان فكتب إلى عامله أن أرسل بزرجمهر للدركاء مقيداً بالأغلال الثقيلة بعد قراءة هذا الكتاب ، وصدع العامل بما أمر وأرسله . وذاع الخبر في فارس بأن بزرجمهر سيوفد غدا . فلما أقبل التف حوله العلماء ، وقالوا : لقد كان لنا من عليك نصيب وما بخلت علينا بشيء منه حتى بلغنا مرتبة العلماء ، لقد كنت نجمنا اللامع ترشدنا إلى سواء السبيل ، وكنت نميرنا الفياض تروى غلتنا ، وكنت روضتنا الفيحاء تطعمنا من الثمار شتى الألوان ، ولقد حاق عليك غضب الملك وسوف تساق إليه ، وإنك لست من الحكماء الذين يعدلون عن الصراط المستقيم فزودنا من حكمتك بحكمة نذكرك بها . قال : « أوصيكم أن تؤمنوا بالله الواحد وأن تطيعوه ، واعلموا أنه يطلع على أعمالكم شرها وخيرها ، وهو يعلم ما تخفون في أنفسكم ، وحياتكم منوطة بأمره ، وإليه ترجعون ، وأن الحشر والقيامة والسؤال والجواب والثواب والعقاب حق ، فقولوا خيرا واعملوا صالحا وأحسنوا فإن الله تعالى ما خلقكم إلا للخير ، فأياكم والتردى في الشر ، واجتنبوا صحبة الأشرار ، فإن عمر الشر قصير ، وعايكم بالصلاح . وأحسنوا عيونكم وآذانكم وأيديكم وفروجكم من الشر » (٢٣٢ — البيهقي)

الحرام والعبث وأموال الناس . واعلموا أن الموت دار الحياة . إليها مرجعكم
مهما طال بكم أمد الأعمار . واستشعروا الحياء فإن الحياء شعار الأبرار ، وتخلفوا
بالصدق فإن الصدق ينير الوجوه ؛ والناس يحبون الصادقين والصادق لا يهلك .
واحدروا الكذب فإن الكذوب لا يصدق ولو قال صدقا . والحسد يأكل
الجسم والحسود قلق أبدا لأنه في حرب دائمة مع الله تعالى ، ويموت الحسود
بحسده قبل بلوغ أجله . ولا راحة للحريص لأنه يطلب شيئا لم يقدر له .
وابتعدوا عن النساء فإنهن يستنفدن النعمة ويخربن البيوت . ومن أراد أن تبقى
زوجه عفيفة فلا يحو من حول نساء الآخرين . ولا تعين أحدا فإن أحدا لا يخلو
من عيب . وأجهل الناس من لا يرى عيب نفسه ، والخلق الحسن خير ٣٣٥
هبات الله عز وجل . وتجنبوا سوء الخلق فإنها غل ثقیل على القاب والقسم ،
وسوء الخلق في هم مقيم دائم والناس منه في ضيق ، وصاحب الخلق الحسن
محمود في الدنيا والآخرة . وعظموا من هو أكبر منكم سسا وراعوا حرمة
ولا تعصوه . ولا تعولوا على الآمال فتصرفكم عن الأعمال . إن الذين بنوا
المدن والقرى والعمائر وشقوا الترع والقنوات وتحملوا هموم الدنيا تركوها
وراءهم ظهريا وقضوا ودرس ما شادوا . إن فيما قلت الكفاية وإنى لعلى يقين
من أن لقاءنا يوم القيامة . فلما أتوا بيزرجهر إلى باب كسرى أمر بإدخاله إلى
الحضرة مصفدا في قيوده وأغلاله . فلما مثل بين يديه قال كسرى : « يا بيزرجهر
ماذا تبقى من النعم والمراتب لم تله بلطف رعائتنا . لقد نلت الوزارة وكان
تدبير ملكنا منوطا برأيك فلماذا ارتددت عن دين آبائك . وإذا كنت حكيم
زمانك فلم دعوت الناس إلى أن الملك والجيش والرعية ليسوا على الحق .
أكنت تفصد من هذا إثارة الناس على وخروج الخاصة والعامة عن طاعتي
فلا قتلنك قتلة لم يقتل بمثلها آثم ، فإن ذنبك جد عظيم ، أو أن تتوب وترجع
إلى دين آبائك وأجدادك فأعفو عنك ، فإنه عزيز على قتل حكيم مثلك وليس

كذلك أحد . قال بزرجمهر : « أطال الله حياة الملك . لقد اعتقد الناس بأن حكيم الزمان . وإذا خرجت من الظلمات إلى النور فإنى لن أعود إلى الظلام ، فأكون جاهلاً سفيهاً . » فقال كسرى : « سأمر بضرب عنقك » . فقال الحكيم : « إن القاضى الذى سأذهب إليه هو عدل ، لا يحتاج إلى الشهود ولسوف يفتص منك ويحرملك من رحمته » . فتميز كسرى من الغيظ وقال : « نعم » ، زجوه فى السجن مرة أخرى حتى نرى رأينا فيه » . فساقوه . فلهاهدأت ثورة كسرى قال : « حرام قتل رجل مثل هذا » . وأمر أن يلقوه فى حجرة شديدة الظلام كأنها القبر ، وبأن يقيدوه بقيد ثقيل ، وبأن يلبسوه جبة صوف خشنة . وجعلوا له كل يوم رغيفين من شعير وحفنة من ملح وكوزا من الماء . ووكل به ٣٣٦ حراساً يعدون أنفاسه ، ثم ينهونها إليه . وقضى بزرجمهر سنتين على هذا الوضع حتى إذا كان ذات يوم خيم الصمت على سجنه ، فأبلغوا الأمر كسرى ، فقلق عليه وأمر بفتح السجن ، وأتوا بأقاربه وأصحابه ليتحدثوا إليه لعله يجيب . وخرجوا به إلى النور فأراه قوى الجسم مشرق الوجه . فقالوا أيها الحكيم إنا وجدناك بهذه العباءة الخشنة والقيد الثقيل والمكان الضيق المظلم فكيف أشرق وجهك وازداد جسمك قوة .

قال بزرجمهر : لقد أعددت لنفسى داء قوامه ستة تراكيب ، كنت أتناول كل يوم بُلغة منه فبقيت كما ترون . قالوا : أيها الحكيم هل لك أن تعلمنا طريقة إعداد هذا الدواء حتى إذا وقع لأحد منا أو من أصدقائنا حاجة إليه أفدنا منه . قال : أولاً آمنت بأن كل ما يقدره الله تعالى فهو كائن . وثانياً أسلمت لقضاء ربي . وثالثاً تدثرت بالصبر فلم يس للبهنة دواء مثله . ورابعاً أيقنت أنى سأكون فريسة الضيق والهم إذا لم أصطبر . وخامساً شكرت الله حين قدرت أن جزاء من كان مثلى هو شر من جزائى . وسادساً لم أقنت من رحمة الله فإنه مفرج الكروب والغمرات تنجلي . وأبلغوا كسرى بما كان ، فقال فى نفسه كيف

يسوغ قتل حكيم مثله . وأخيرا أمر بقتله والتشيل به . فدخل بزرجمهر الجسة وسبق كسرى إلى النار . وأنا على يقين من أن كل من يقرأ هذه القصة لن يلومنى على ذكرها ، إذ هي لا تخلو من فائدة ، وإن التاريخ ليزدان بمثل هذا القصص . والآن أعود إلى ذكر التاريخ بعون الله تعالى .

فلما فرغوا من إقالة أبي سهل الوزنى ، اختلى السلطان مسعود رضى الله عنه بالوزير أحمد حسن ليرى رأيه فيمن يصلح ليدب إليه عمل ديوان العرض . فقال الوزير إن أبا سهل الحمدوى هو خير من يصلح لهذا الأمر . فأجاب السلطان إننا قد عهدنا إليه بالإشراف على المملكة وذلك أتم ، وليس له نظير فيه فلا بد من اختيار غيره . فأجاب الوزير بأن مولانا أدري بالآخرين ، فمن ٣٣٧ يختار . فقال السلطان : إنى أفضل أبا الفتح الرازى ، وكان قد عمل مدة مع الوزير ، فقال هذا : نعم إنه جميل الطلعة وكفء وكريم ولكن به عيبا واجدا هو أنه كسول ضعيف الرأى ، وهذا العمل بحاجة إلى خير أريب . فقال السلطان : إن من التلاميذ من يكونون خامل الرأى ضعفاء ، فإذا ما أصبحوا أساتذة وولوا المناصب الرفيعة تغير سلوكهم ، فينبغى تنصيبه وتشجيعه على هذا العمل . فقال الوزير : سمعاً وطاعة .

فلما عاد استدعى أبا الفتح الرازى واختلى به وقال له : إن الحديث جرى عنك اليوم ، ووقع اختيار السلطان عليك لتكون رئيساً لديوان العرض ، وإنى أعلم منذ أمد طويل أنك كنت ترغب فى بلوغ هذا المنصب ، دون إذن ومشورتى . فرأيت هذا عجبا ، ولكن يجب أن تعلم أن مثل هذه الأمور لا تخفى على رجل مثلى ، ومهما يكن من شئ فأنا الذى زينت للسلطان تعيينك ، وكان الأولى بك أن تخبرنى بما كنت تصبو إليه ، والآن هذا خير ، وقد صيفحت عما كان منك ،

فكن مقداما وانهض بأعباء منصبك ، ولست أرى حكمة في إنقاص عدد الجند وعدتهم لتوفير المال ، لأن هذا يخل بشئون الدولة والناس . ولكنك إذا استرجعت تلك الأموال التي استحوذ عليها أبو القاسم كثير وأعوانه وأعدتها إلى بيت المال فستكون قد أديت خدمة جليلة . قال : « إننى منذ عشرين عاما كنت مستوفيا للسلطان . وقد عركنى وعرف ضدقى ، وكنت أرى الخيانات تترى ، ولكننى على أمل إحياء مآثرة فى عهد وزارتك ، سعى لهذا التوفير وعرضته على مجلسكم العالى ، فإذا رأيت الصفح عنى فى أمر لم أعرضه على السلطان حتى الآن ، فإن هذا الخطأ لن يتكرر » . قال : عفوت عنك فعد فإن هذا المنصب قد تقرر لك .

وفى اليوم التالى ، السبت ، ذهبوا بأبى الفتح إلى خزانة الألبسة وألبسوه خلعة رئيس ديوان العرض . وتمنطق بالمنطقة ذات السبعمائة مثقال . وتقدم وقبل الأرض ، ثم عاد إلى الديوان حيث أدى له أعيان الدولة ورؤساء الجند أحسن فروض الطاعة . وفى اليوم التالى توجه إلى البلاط وأخذ فى تدبير الأمور . وكان رجلا قديرا كفء . وظل مستقيما طوال حياة الرئيس أحمد حسن فلما مات ٣٣٨ خلا له الجو وبسط يده بالتوفير على حساب الجند ، ونتج عن هذا خلل كبير ، سنذكر أمره فى موضعه . وفى هذا الوقت وصلت رقاع من عيون السلطان فى بخارا تقول إن على تكين لن يهدأ له بال ، وهو يطلق لسانه ، ويعد الجيوش ، وإنه حاق من أمرين : أحدهما أن السلطان الماضى (محمود) احتفى بقدر خان ، فأدى هذا إلى ضياع هيبة إمارته فى تركستان . والثانى أن السلطان كان قد أمله قبل استقرار الأمر له ، إذا أمدة بالجيوش مع أخذ أولاده ، بأن ينعم عليه بالإمارة . فلما استقامت له الأمور بغير تحريك أو كرب ، واستقر له الملك ، وأصبح لا منازع له فى الدولة ، ففكر فى أن ينتهز الفرصة ويبادر بالعدوان . فوجب قطع دابره ما دام السلطان فى بلخ . ولما وقفت

السلطان على جليلة الأمر استدعى إليه الأستاذ الرئيس أحمد حسن وأبا نصر مشكان واختلى بهما وتشاور معهما وتبادلوا شتى الآراء . قال السلطان : إن على تكين خصم لدود ، وإنه ليطمع في المحال ، والأصلح أن تستأصل شأفته من بلاد ما وراء النهر ، فإذا حضر صهرنا بغرا تكين بن قدرخان فسوف يكون خليفتنا ، وسنبعث إليه بأختنا ليتزوجها ، ويكون بذلك صهرنا وخليفتنا في تلك البلاد ، ونقضى على شر هذا المتربص بالعصيان . وإذا لم يأت بغرا تكين فسنعز إلى خوارزمشاه ألتوتناش أن يتوجه إلى ما وراء النهر بجيش قوى ، لأن خوارزم هادئة فهناك أمير واحد لا منازع له ، هو المستحق للعرش وفيها جيش كامل . قال الوزير : إن ما وراء النهر ولاية كبيرة ، وكان السامانيون أمراء خراسان قد اختاروا قاعدة حكمهم فيها ، فإذا انضمت إلينا فذاك فتح مبين ، أما على تكين فهو منافق محتال قد مضى عليه ثلاثون عاما هناك ، وإذا رأى السلطان اختيار خوارزمشاه فمن الخير إيفاد رسول بكتاب إليه ، ثم يتحدث معه شفاها أيضا في هذا الأمر ، فإذا ما طل بسبب ما في نفسه من قصة منجوق القائد ، فإن عليه أن يزيل ما في نفسه ، إذ دون التوصل بسطوته لن يمكن استئصال شأفته على تكين ، وإذا نهض بالأمر فينبغي أن نكون على يقين من أن هذا الجرح قد اندمل ، وأن ليس في نفسه شيء من قصة منجوق القائد . فقال السلطان : هذا رأى شديد ٣٣٩ فمن يكون الرسول . فقال : الخواجة أبو النصر : نرسل أميرك البيهقي صاحب برید بلخ ، فإذا كنا نريد أن يقوم خوارزمشاه بالأمر فإن علينا أن نرسل عبدوس كتحدا العسكر . فقال السلطان : لا يليق غير هذا . وفي التو استدعى عبدوس وديج أستاذي كتباً غاية في البلاغة ، ومعها هدايا فاخرة لخوارزمشاه منها فيلة بين ذكر وأنثى ، وهدايا أخرى للوزير أحمد عبد الصمد ولبقية خاصة خوارزمشاه وأولياته وحشمه . وسار عبدوس من بلخ إلى حيث خوارزمشاه . أما خوارزمشاه فقد توجه إلى على تكين وقتل .

وفي تلك المدة قام السلطان مسعود بعدة مهام عظيمة سنأتى على ذكرها ليتم بذلك التاريخ الصحيح .

ذهب السلطان يوم الجمعة ثانى ربيع الأول للصيـد فى ناحية منجوقيان ، وهناك كان الاستقبال رائعا ، وكان بها كل ما لذ وطاب من أنواع النعمة وألوان الزينة . وأمر السلطان بإقامة خيام الخدم فى مكان بعيد ، ثم أخذ فى الشراب والطرب ، وعاد إلى البستان فى أواخر ربيع الأول . وفى غرة ربيع الثانى جاء بعض الرسل من قبل عبدوس ينبئون بأن الأمور سائرة حسب المراد . وارتدى التوتاش الخلعة واستعد للزحف . وكان السلطان قد أمر طاهر الكاتب بالذهاب إلى الرى ليكون كبتخدا الجند الذين كانوا تحت السهسالا رتاش فراش . ثم عين معه الخازن وصاحب البريد بعد أن أعادوا له الخلعة . وعهد بالخزانة إلى أبى الحسن الكرخى النديم . وبالبريد إلى أبى الحسن الحبشى ، وأسند القيادة إلى كوهر آئين الخازندار . كما اختير يارق تغمش الحاجب لخزانة الملابس المحمودية وعين آخرون من الحجاب والضباط فى قم وكاشان والجبال وتلك النواحي . وفى الثلاثاء السادس من ربيع الثانى إرتدوا الخلع التى كانت قد أعدت لهم ، ثم مثلوا ٣٤٠ فى الحضرة فشملمهم السلطان بعطفه . ثم أمروا بالسير يوم الخميس الثامن من هذا الشهر . وفى هذا اليوم نفسه وصل الخبر بنعى أنو شروان بن منوچهر فى جرجان ، وقيل إن موته كان بسبب المؤامرة التى كانت بين خاله أبى كاليجار وبين كبير حجاب منوچهر لقتله بالسم . ولم يكن هذا الطفل قد بلغ الحلم . ليستطيع منازعة بكاليجار الملك . كما أن الرسائل التى جاءت إلى غزنة كانت تشير إلى أنه لم يبق من سلالة مرداوىز وآل وشمكير أبناء ذكور يمكن إستناد الملك لهم . ولو أن السلطان استعمل بكاليجار الذى كان يدير البلاد أيام منوچهر لكان ذلك من الحكمة . فاستصوب السلطان هذا رأى . وكان الموكب العالى يريد المسير إلى بلخ فى المهرجان فوجب إيفاد الرسل ليتم ما يجب

إنجازه هناك. ولما وصل إلى بلخ كان قد بلغها أبو المحاسن رئيس جرجان وطبرستان وأبو محمد البسطامي والشریف أبو البركات المحتشم الديلمي وشيرج لیلی. واستدعوا إلى الحضرة، ثم جلس الأستاذ الرئيس في الديوان، واستقر الرأي على إرسال مرسوم الإمارة لبالكاليجار هلی أن يبعث ابنته من جرجان. وحرر أستاذی منشور بالكاليجار، وأعدت له خلعة فاخرة، وسلمت للرسول الذين خلعوا عليهم. وكان طاهر الحاجب قد كلف بتحصيل الضرائب المتأخرة بعهدهم، والتي تستحق الآن، ويارسالها إلى نيسابور إلى سوری صاحب الديوان، حتى ترسل مع برید نيسابور إلى حضرة السلطان.

وفي الثامن عشر من هذا الشهر جاء نعی والدۃ أبي نصر مشكان وكانت سيدة عاقلة. وقد سمعت من أستاذی: قالت لی والدتی یا بنی إن السلطان إذا استوزر أحدا فإنه يعاديه بعد أسبوع رغم حبه إياه إذ يتصوره شريكا له في الملك. والملك لا يتم بالشريك. وجلس أبو نصر للوزراء، وأدوا له ما عليهم، وقد حضر الأستاذ الرئيس معزيا، وأدار طرفه نحو هذه الحديقة التي كانت تشبه اللجنة لكثرة ما فيها من الياسين المنور والرياض والورود والزرجس والسرو الباسق، فقال لأبي نصر ما كان بودنا أن نأتي لمشاهدة هذه الحديقة الغناء معزين، بل كنا نأمل زيارتها كما نجتمع في حديقة غزنة أيام السلطان محمود. وأتوا بحصانه ٣٤١ قرب الرواق المعد للمعزين فركب، وقبل أبو نصر ركابه وقال له أطل الله حياة مولانا، إن الفخر الذي أولانيه بتجشمه هذا الغناء لا أنساه أبدا، وستنال هذه الحديقة إن شاء ذلك الشرف الذي حازته حديقة غزنة. ومع أن السلطان كان أوفد أبا الحسن العقيلي ليعزيه بلسانه، فإنه عندما مثل في الحضرة يوم الأربعاء، عزاه بنطقة السامي.

قصة حديقة غزنة ومجيء الأستاذ الرئيس

والآن سأذكر قصة حديقة غزنة ومجيء الأستاذ الرئيس ، لأوضح منزلة أستاذي بأن يحضر وزير عظيم كأحمد حسن للتعزية في وفاة والدته . سمعت أستاذي يقول إن السلطان الراحل محمود جلس يوما للشراب في غزنة ، وكانوا قد أحضروا ورودا كثيرة وجاءوا بما كان في حديقة اليانعة من الزهور المتنوعة ذات المائة ورقة . وقد أرسلتها ليلا إلى مجلس السلطان وسرت إلى الحاضرة على الأثر ، وحضر الأستاذ الرئيس والموالي والحشم ، وكان السلطان في مجلس الشراب ، واستبقى الوزير وإياد عنده واستمتعنا كثيرا . وقال الوزير في ضحى اليوم التالي أطال الله حياة مولانا ، لقد جرت العادة بشرب الساتكين^(١) في موسم الورد ، لأن الورد ضيف لا يقيم أكثر من أربعين يوما ، ولا سيما مثل هذه الورد التي لا يوجد خير منها نضارة وأريجا . فقال السلطان إن أبا نصر قد أرسلها من بستانه . فقال الخواجة إن هذا البستان جدير بالرؤية . فقال السلطان أتبحث عن مضيف . فقال بلي ، فالتفت السلطان إلى وقال : ماذا تقول ؟ فقلت أطال الله حياة مولانا إن الثعالب لا تجزؤ على اضطياذ الأيول خشية الأسود الكاسرة فإن هذا عزيز عليها . فقال السلطان : « فإن أذن الأسد ، فقلت حينئذ تفعل . قال السلطان : لقد أذنت فلهوا . فامثل السيدان وأحضر الساتكين ، وتمتعوا ما أرادوا وانتهى المجلس . وبعد أسبوع استأذن أستاذي السلطان فأذن له ، وجاء الوزير أحمد إلى البستان ، وقد أعد أحسن إعداد . وعند صلاة العصر أرسل السلطان أبا الحسن العقيلي إلى هناك برسالة شفوية ، وقال إنه يجب إبقاء أبي الحسن وقد أوعزنا بإعداد الصبوح غدا فالبستان أجل

(١) نوع عن النبيذ .

في الصباح . وقد سعد السيدان بهذا العطف . وفي الغداة استمتعوا كثيراً وانفض الجميع قرب صلاة العصر .

وفي يوم الثلاثاء عشرين من هذا الشهر وصل كتاب عبدوس مع فرسان ٣٤٢ مسرعين يقول فيه : إن خوارزمشاه توجه من خوارزم شطرجيخون ، وأعادني إلى الحضرة حسب المراد ، وفي اليوم التالي ركب السلطان وذهب إلى الصحراء ، واستعرض القواد والجيش التي جهزت للالتحاق بجيش التونتاش ، واستمر استعراض الفرسان بعدتهم وجحافل المشاة حتى صلاة العصر . وقيل إنهم كانوا خمسة عشر ألفاً . وبعد أن انتهى مرور العسكر ، نادى السلطان هذين القائدين بكتكين چوكانى ويرى قائد الاصطبلات المسعودية والقواد الآخرين ، وخاطبهم بقوله : كونوا عقلاء يقظين وامنعوا الجند من التعدي على الناس سواء في بلادكم أو في غيرها من بلاد الأعداء حتى لا يقع ظلم على أحد ، وحين تلتحقون بجيش التونتاش أدوا واجبكم خير أداء ، واثمروا بأمره ولا تخالفوه في شيء . فقالوا جميعاً سماعاً وطاعة وترجلوا وقبلوا الأرض ثم ساروا . وعين أميرك البيهقي صاحب البريد في مثل منصبه مع هذا الجيش ، فاستقدمه مختلياً به مع الوزير وأبى نصر مشكان وتكلم معه في كل شيء وقد أدى فروض الطاعة ثم سار في طريقه . وفي يوم الإثنين غرة جمادى الأولى من هذا العام ذهبوا بعلى دايه إلى ديوان الألبسة والبسوه خلعة إمارة الجيش ، فإن الأستاذ الرئيس كان قد ذكر عنه أن ليس أوجه منه في الرجال والشيوخ ، وذلك إلى ما عنده من السلاح والخدم والحشم . والبسوه من تلك الخلع التي كانت مخصصة لأمثاله حسب الرسم القديم ، ثم عاد وأدوا حقه خير أداء . وفي اليوم التالي توجه نحو خراسان ومعه أربعة آلاف من فرسان السلطان

على أن يكونوا جميعاً مطيعين لأوامر تاش فراش السهسالار وطاهر الكاتب ، وأن يعسكروا في طوس ليكونوا مددا للجيش الزاحف كما أوعز إليه أن يقوى عزائم أصحابه ، وأن يتخذ الخيطة لكي لا تكون فتنة في خراسان ، ثم وصلت معماة من رسائل أميرك يقول فيها : « إن خوارزمشاه عندما شاهد جيش السلطان استولى عليه الذعر لأنه حسبته من تعبئة على تكين فأعد عدته واسترجع السفن من وسط جيحون لكن كتنخذه أحمد عبد الصمد أزال مافي قلبه من الملح ، وقوى عزيمته ، ومع هذا كله فإن خوارزمشاه يبدو مذهولا ، وقد ذهبت إليه مرات لأهدى من روعه . ولعل العاقبة تكون خيرا إذ أن المصير ٣٤٣ يبدو الآن مظلماً . فقال الوزير : « إن خوارزمشاه لم يتراجع ، وقد ذهب ، وإن هذا الأمر سينتهي ولا يكون منه أى خلل » . وكانوا قد أقاموا على طريق بلخ مراقباً للبريد لمنع تسرب الأخبار إليها . وكل يوم يصل البريد ، ووصل أحد الساعة وقت الضحى ، ومعه رسالة مغلقة مختومة فيها أن على تكين قد عرف أن خوارزمشاه قد عبر جيحون ، فسلم مدينة بخارا إلى غزاة ما وراء النهر ، وحمل معه الخزائن وما خف حمله إلى دبوسى ليحارب عندها . وأمر مائة وخمسين غلاما كان قد اختارهم بأن يحموا قلعتهم . فلما سمع خوارزمشاه ذلك اختار عشرة من السرهنگية مع خيولهم ليسرعوا إلى بخارا ، واشتغل هو بالتعبئة ، واستولى على الطرق من يمين وشمال ، لكي لا يحدث خلل من الكمين ، ولما بلغ بخارا هربت شحنة على تكين إلى دبوسى ، وقدم غزاة ما وراء النهر وأهل بخارا الطاعة ، وأظهروا الخضوع للدولة العلية وقالوا : إنا كنا نأمل منذ زمن بعيد أن نكون من رعايا السلطان الأعظم ملك الإسلام شهاب الدولة أدام الله سلطانه ، فتلطف معهم خوارزمشاه وأمر باقتحام القلعة فاستولوا

عليها، وأسروا سبعين من خيرة الغلمان، فسيّروهم إلى الحضرة العلية، ونهبوا القلعة واستولوا على كثير من الغنائم والدواب. وفي اليوم الثاني قصد خوارزمشاه دبوسى، وجاء الجواسيس يخبرون بأن على تكين قد أعد جيشا عظيما من معه ومن التركمان والسلاجقة والحشوية^(١) وأن الحرب ستكون في دبوسى لأنها تتصل بصغانيان، وهى مكان مكين به أنهار جارية وأشجار غناء وأن النصر سيكون حليف الدولة العلية. وقد أمر السلطان بإقامة مصطبة على الجانب الآخر من البستان تطل على القلعة الخضراء، فكانت مصطبة كثيرة الارتفاع وإسعة وتشرف على الحديقة من جهة أخرى. وأمامها الحوض الكبير والساحة التى تستوعب الجيش فى صفين متواجهين. وكانوا قد بدءوا بإقامة المصطبة منذ مدة وتمت فى ذلك الوقت، وقد أوعزوا إلى الخواجة عبد الله الحسينى بن على ميكائيل لينظمها على خير ٣٤٤ وجه، لأن السلطان فى الثلاثاء الثامن عشر من جمادى الأولى سوف يجلس على هذه المصطبة الجديدة. وقد أذن السلطان بالاستقبال فى هذا اليوم، ونثر من الأموال مالا يحده العد. ثم قام من الحفل وامتنطى جواده إلى الميدان الذى كان يلى المصطبة، ليشاهد لعب الصولجان ورعى المطارد، ونصب خوان عظيم فى هذه المصطبة، رसर السلطان من الميدان إلى الحمام ومنه إلى الخوان، وقد دعى الأعيان والعظماء إليه. وأكلوا ودار الشراب عليهم وقاموا وهم سكارى. ومال السلطان إلى النوم، وكانوا قد أحضروا هناك الزهور المختلفة، وقد أمروا بالانصراف. أجد فإن مجلس الشراب سوف يقام، وجاء أستاذى من البستان إلى الديوان. وجاء ساع من قبل البيهقى برسالة مغلقة محتومة ففتحتها أستاذى وتغير وجهه. وكان الرسم المعمول به حين تصل رسالة، أن يكتب أبو نصر رقعة ويعطيها لأهل

(١) جنود قليل سلاحهم.

الديوان لتوصيلها إلى الخادم الخاص . أما إذا كانت الرسالة مهمة فإنه كان يعطينها . ولكنه حمل هذه الرسالة بنفسه وذهب بها إلى آغا جى الأمين الخاص ، ونقل آغا جى الخبر فاستدعاه السلطان فدخل وأمر بعودة المطربين وأرسل في طلب الأستاذ الرئيس . ثم خرج السلطان من القصر ، واختلى بهم حتى صلاة العصر . ثم عاد الوزير وجلس أستاذى في الديوان ونادانى وشرعت في نسخ الرسائل وكانت لأميرك البيهقى . وكانت تقول :

رسالة أميرك البيهقى :

« إنه حين وصل التونتاش إلى دبوسى ظهرت طليعة جيش على تكين ، فأمر التونتاش أن تدق الطبول وأن ينفخ في الأبواق ، ثم سار في تعبئة تامة ، وأقام معسكرا قويا تجاه جيش العدو ، ويشرف على نهر عظيم يعززه حصن أمين ، ووصل المدد إلى كل من الطليعتين . ثم عادت الطليعتان بين صلاتى العصر والمغرب ، بعد أن استقر الجيشان في موضعيهما . فوقف خوارزمشاه على رهوة ودعا كافة القادة والأعيان وخاطبهم بقوله : غدا تقع الحرب بيننا ، على كل حال عودوا إلى أماكنكم وراقبوا الأوضاع الليلة ٣٤ بدقة ، فإذا حدث أمر فلا تجزعوا ولا تتفرقوا ، فإني قد أخذت الحيلة للكيد ولإعداد الطليعة وللحرب ، بحيث إذا ظهر العدو يكون أمام الأمر الواقع . وصحب أميرك البيهقى وتناول معه الطعام ، وأمر باستدعاء كتخداه وخاصة . ولما فرغ من الأكل اختلى مع أحمد وتاش السهسالار وجماعة من السرهنسكية المحموديين وقال : إن على تكين هذا عدو مبين ، لزم الهدوء خشية بطش السلطان الماضى ، وقد غرروا به ، ولوساروا على الطريق السوى لما فسد هذا الرجل ، ولما حدثته نفسه بالعصيان ، وإذا كتب العيون إلى السلطان بأنه رجل غير مستقيم ، فأرسل إلى حاجبه عبدوس يأمرني بهذا فلم يكن لي من الطاعة بد ، لأن الوشاة كانوا قد شوهوا صورتي في نظره ،

والكلمة الآن للسيف ، وغدا ستكون الحرب الطاحنة . وأنا لست بمن يولون
ظهرهم في المعركة ، فإذا كان الأمر على غير ما أرجو ، فإنى لن أعود إلى خوارزم .
وإذا قتلت فذاك خير لأنى أقتل فى طاعة مولاي ، ولكن ينبغى أن تحفظ
سابقى فى الخدمة لأولادى من بعدى . فأجاب الحاضرون : سيكون الخير
والنصر إن شاء الله تعالى . ثم أمر بأن تزحف الطلائع من أربع جهات وتمت
كل الاحتياطات اللازمة من القائد الأعظم ، وتلقوها بالطاعة ، وعاد القوم إلى
مواضعهم وشن العدو الهجوم مرات عليهم ووقعت أحداث انتهت بهزيمة العدو
فانقلب بخفى حنين . فلما أشرق الصبح وقف خوارزمشاه على ربوة ومعه
السالارية والمقدمون والجيش معاً كما ينبغى ، وقال : « أيها الأحرار عندما
يطلع النهار سوف يقابلنا خصم لدود ما كره له جيش متحد ، سيقاتلونكم
مستميتين ، وها قد جئنا لسلب أموالهم واجتثاث أرواحهم ، فكونوا ٣٤٦
يقظين فطنين ، وسددوا أنظاركم إلى رايتى التى معى فى قلب الجيش فإذا تراخيتم
والعياذ بالله اختلت أموركم . إن نهر جيحون العظيم أمامكم ، والشقة بعيدة بينكم
وبين المفر فى خوارزم ، والحق أنى إن أولى ظهري فرارا ، ولو تركتمونى
وحيدا ، فبأى وجه تقابلون السلطان بعد ذلك ، وقد أعذر من أنذر » . قالوا :
« لقد أنصفنا خوارزمشاه وسنقاتل حتى نموت » . ثم وقف خوارزمشاه فى
القلب . وعين فى الجناح بما يلى القلب أقوى رجال الجيش حتى يستطيع أن يمد
الميمنة أو الميسرة بالأمداد عند الحاجة .

وأمر بكتكين الحوكانى ويبرى الآخور سالار ليكونا على الميمنة بجيش
عظيم القوة ، وجعل سالاره تاش على الميسرة مع ثلثة من الجيش السلطانى
وعبأوا ساقتين قويتين للطرفين . وأمر بخمسة من القادة العظماء ، مع المبارزين ،
أن يشطروا نصفين كل من يفر من المعركة . وأخذ يوجه إلى الطليعة أكثر
الفرسان خبرة ، فلما طلع النهار دقوا الكوس ونفخوا الأبواق وعلت الأصوات ،

وسار خوارزمشاه بالحشد فلما سار على شاطئ النهر فرسخا ، بلغوا موضعا من النهر يتيسر فيه عبوره سيرا على الأقدام مع قليل من الحذر ، وحينئذ عاد من الطليعة بعض الفرسان مسرعين يقولون إن على تكين قد عبر النهر واتخذ له موضعا في صحراء واسعة ، من ناحية النهر والأشجار الكثيرة ، ومن ناحية أخرى امتدت الجيوش إلى مسافات شاسعة ، فإن ربحي الحرب لا بد دائرة هنا ، ويقال إنه أعد المحاكم في ثلاثة مواضع تتصل بمؤن الجيش وبساقته ، كما أعد الجند ليخرجوا من شاطئ النهر من جهة ، ويناوشوا من الخلف . ومع أن خوارزمشاه كان قد عين كتخداه مع المعدات الحربية فإنه سير ألف فارس مع ألف راجل ليقابلوا تلك الجماعة . وأسرع النقباء إلى أحمد الكتخدا وأوقف ساقه الجيش وأرسل الرسائل إلى المقدمين الذين كانوا في صف بجانب النهر يبلغهم بما عليه الحال . ثم سار بالجند والتقى الجيشان ، وقد اصطحب أميرك ليراقب الحالة وليكون شاهدا عيان له . ووقفامعا على ربوة ، وكان على تكين بدوره فوق ربوة تحت شارة حمراء محفوفة بالمظلات . وبدأ الجيشان القتال وجرت حرب قال خوارزمشاه عنها انه لا يذكر لها ٣٤٧ مثيلا في حياته . ففي صلاة الظهر ضربت ميمنة على تكين ميسرة خوارزمشاه ضربة ماحقة فألحقت الهزيمة بخوارزمشاه . فصاح خوارزمشاه في جنده ، وأرسل لهم الأمداد من القلب ، لكنه لم يستطع السيطرة على الموقف وولى رجال الميسرة الأدبار ، ولم يبق الا قائده تاش ماهروى مع مائتي فارس ، فألقوا أنفسهم في النهر وهلكوا جميعا ، فأرسل خوارزمشاه ميمنته على ميسرة على تكين ، فثبنوا وأبدى العدو جرأة شديدة ، بحيث قتل كثير من الجانبين وأنهكت قواهم . وتراجع جند الميمنة ، في حين كان بككتين الحوكانى الحاجب ويبرى الآخو رسالار ومعهما خمسمائة فارس يواصلون المناوشة ، فتوجه العدو نحوهم بعدد كثيف من الجند وكان الخطر محققا بهم الى حد أن خشي هلاكهم جميعا ، فزحف خوارزمشاه

مع جند القلب نحو على تكين ولحق به بكتكين ويبرى يتبعهم الفرسان الذين كانوا قد ولوا هاريين، واقتحم على تكين الميدان مع قلب جيشه وميسرته؛ وأخذ خوارزمشاه الرمح وتقدم الصفوف، فلما أبصر الجيشان شارته التحما كأنهما جبل من حديد. وقتل كثيرون من الجانبين حتى عز على الفرسان التجوال. وثبت الجيشان لهذه الحرب التي لا هوادة فيها حتى المساء. ثم تراجع كل الى موضعه دون أن تقف المعركة. ولو لم يتخذ خوارزمشاه هذه الخطة لهلك هذا الجيش العظيم. وقد أصيب خوارزمشاه بسهم في نفس الجزء من قدمه اليسرى التي كان قد أصابه بها حجر من حصن في الهند. فتأمل هذه الشهامة اذ يشتمل هذا الألم ويحققه والحرب دائرة رحاها ويأمر غلامه أن ينزع السهم وأن يضمم الجرح. وحين بلغ المعسكر رأى الجند لا يندو عليهم أى اضطراب فشجع من يئس منهم وأعادهم الى مراكزهم. هذا وكان كتحذاه أحمد ومن كان تحت امرته قد اتخذوا الأهبة حتى لا يصيبهم أذى من مكان الأعداء، فرحب بهم خوارزمشاه أيما ترحيب. ولم يعرف أحد أنه أصيب. وقد استدعى المقدمين ونزل عن جواده وأخذ يلوم نفرا منهم، لكنه صفح عن كل من تقدم اليه بعذر منهم، وأمرهم بالعودة الى مراكزهم على أن يعودوا بمحززين في الصباح الباكر، ليتم القضاء على العدو، لأنه مشرف على الهزيمة، «ولو لم يأت الليل لثم النصر لنا». فقالوا سماع وطاعة. واستبقاني خوارزمشاه، أحمد وأنا^(١) وقال كان هذا الجيش قارب اليوم الهلاك لو لم أثبت وأبذل روحي، ولكنى أصابني سهم في الموضع الذي أصبت فيه بحجر ورغم هذا فإني سائر للميدان غدا. فقال أحمد: «لا يصح أن يذهب للقتال جريح، ولعله من الخير أن يهدأ القتال فترة حتى نرى ما يصنع العدو، لأنى قد سيرت الجواسيس وسيعودون إلينا

(١) أمير الهمفي

في جوف الليل . ثم عين خوارزمشاه الطلائع من بين من أخذوا قسطاً من الراحة ، وعدت إلى مكاني . وجاءني رسول وقت السحر يدعوني أن أسارع إليه ، فذهبت فقال لي : « لم أنم البارحة أبداً لما من هذا الجرح ، ومنذ ساعة وصل الجواسيس يقولون : إن على تكين قد تحطم جيشه وهو في حيرة من أمره ، إذ أن رجاله قد اعتراهم نقص بالغ وإنه يفكر في أن يبعث الرسل ليتفاوضوا في الصالح . ولا أرى بداً مع ما أنا عليه من هذا الحال إلا أن تركب ونسير ، وقد قال أحمد لنرى ماذا يقول الخواجة أميرك » . قلت : ينبغي دعوة الأعيان والجيش ، وأن نبين أننا سنذهب للحرب ليتأهب الجميع ومن ثم نبعث رسولا ليخرج عليهم من الطليعة ، ويقول إن العدو سوف لا يتقدم للحرب ، وأنه سيبعث إلينا رسولا ليكون اليوم راحة لخوارزمشاه ، ثم ننظر ما سيكون . قال خوارزمشاه هذا رأى سليم ، ودعى الأعيان والمقدمين ، فرأوا خوارزمشاه ثم عادوا ووقف الفرسان ، ودقوا كوس الحرب ، وطلب خوارزمشاه حصانه وامتطاه في جهد ، فركض به فوق قضاء وقدر على الجانب الذي به الجرح وكسرت يده ، وذهبوا به إلى السراشق سرا بمضرب الخيام وأناموه على سريرته ، ووقع في غيبوبة ثم استدعى أحمد وأميرك وقال لقد أصبت بما ترون واشتغل اليوم بنفسى ، فاعملوا ما ترون صواباً لكي لا يشمت بنا الأعداء وحتى لا يشمت شمل هذا الجيش . فبكى أحمد وقال أرجو أن يكون الأمر خيراً بما يظن الأمير وسندبر الأمر . وذهب بأميرك إلى الجند ، وقال لهم اليوم تقع الحرب ٣٤٩ ويقال إن على تكين قد تحطم وأنه سيرسل إلينا رسولا فاجعلوا طلائع الجيش صفوفاً متلاصقة حتى تقابل جيش العدو ، فإذا تقدم محارباً نركب ونذكي نار الحرب ، أما إذا أرسل رسولا فسنرى رأينا فيه . فقالوا هذا رأى صائب ، وسيروا الطلائع ، وكانوا يدقون الكوس ويراقبون الوضع في حزم . وكان هذا الذئب العجوز الذي شاهد الموقعة بالأنس ، واطلع

على مرض مولاه ، قد أرسل ليلا رسولا لمقابلة كتحدا على تكين والتحدث إليه مبنياً : « أنكم قد بدأت بالعدوان وهذا مادعا السلطان إلى أن يبعث خوارزمشاه إلى هنا ، وكان من الواجب بعد ما اجتزنا النهر أن يرسل هؤلاء إلينا رسولا يقدم العذر عما كان من تطاوله وتجاوزه مما أغضب السلطان ، وذلك ليتدخل خوارزمشاه في الأمر ويكون له شفيعاً ، فتستقيم الأمور ولا تراق هذه الدماء ، ولا أقول هذا عن عجز ، فقد ذقت مرارة الشطط بالأمس ، ومولانا السلطان في بلخ الآن ، والجيش تترى فوجا بعد فوج ، ونحن الكتخدائية ننفذ أوامر الملوك ، وفريضة علينا مراعاة المصلحة ، ولو أن خوارزمشاه لا يعرف شيئا عما قات لك ، ولو عرف لمسنى منه الضر ، ولكني لا أريد أن يراق مزيد من الدماء ، ولقد أبرأت ذمتي بما على من حق الإسلام والجوار . فاعملوا بما فيه صلاحكم » . فاعتنم على تكين وكتخداه هذه الرسالة ، وأرسلوا في تلك الليلة رجلا علويامن وجهاء سمرقند وحملاه رسالات وفي ضحى ذلك اليوم كان الجيش قد أخذ أهبة فجاء الرسول المذكور . وكان أحمد قد قص على خوارزمشاه كل ما فعله ، ومع أن خوارزمشاه كان مشغلا بالأمه ، وكان يعتزم التنحي تلك الليلة فإنه قال : « يا أحمد لقد انتهيت ولا يجوز أن يمس أبنائي الضر بأن يقول السلطان بأني قد تواطأت مع على تكين » . فأجاب أحمد : « لقد تجاوز الأمر هذه الدرجة ، والخير فيما دبرت لإتمام الصلح ، والسير من هنا سالمين شطر آموى ، ومن ثمة إلى الجانب الآخر منه . وعندئذ سأبين هذا الأمر ، إن للسلطان معتمدا مثل أميرك ٣٥٠ قد اتضحت له الأمور كالشمس الساطعة ، ولو لم نقدم على مثل ما كان لحدث حلال كبير ، فعليك يا مولاي خوارزمشاه أن تتحمل الألم صابرا ، ولو لساعة واحدة حتى يحضر الرسول » . فلبس خوارزمشاه حذاه وقلنسوته وجاء إلى الخيمة الكبيرة ، ووقف الغلبان وكوكبة كبيرة من الجيش والأعيان ، وتقدم الرسول

وقبل الأرض وأجلسوه بحيث يكون قريباً من خوارزمشاه ، وجرى الحديث عن الصلح : قال الرسول إن على تكين يقول بأن السلطان السابق كان يدعو ابنه وقد قدم لهذا السلطان الجيش والولد حين قصد أخاه وتوجه إلى غزنة فهل هذا جزاؤه . وخوارزمشاه هو اليوم كبير الدولة فهو يرجو هفوه عما حدث ليسير بموافقة السلطان إلى أموى ليقيم هناك مع الجيش ، وأن يشفع خوارزمشاه عند مولانا السلطان ليقبل عذره ، فتستقر الأحوال كما كانت في عهد السلطان السابق وذلك حقناً للدماء . فقال خوارزمشاه : أحسنت القول ، وإني عامل على إتمام هذا الأمر وقائم بهذا الصلح ، وقد انتهت الحرب وإنا ذاهبون صوب أموى ومقيمون هناك . فدعا له العلوى ثم أعادوه وأجلسوه بالخيمة . ثم استدعى خوارزمشاه بكتكين وپیری الآخور سالار وغيرهما من المقدمين وسألهم ماذا تقولون وماذا ترون . فقالوا : « إن مولانا السلطان قد أمرنا بأن نطيع خوارزمشاه ، وأن نعمل بأمره ولقد أصيب جناح من أجنحتنا بهزيمة منكرة ، ولو لم يثبت خوارزمشاه ويضحى بنفسه ، لحدث الخلل الذي لا يمكن تلافيه ، هذا وقد جرح خوارزمشاه وقتل جمع كبير » . فقال لهم : « لا تتحدثوا عن هذا الآن ، وأعدوا أنفسكم للتعبئة فرساناً ورجالة ، وأحزموا أمركم وثبتوا طلائعكم على الجوانب الأربعة ، فإنه لا يجوز الأمان من مكر العدو » . قالوا : « سمعاً وطاعة » . وقام خوارزمشاه وقد اشتد ضعفه بحيث أسهل ثلاث مرات . فدعا أحمد وقال له لقد دنت منيتي فعجل في إنهاء مهمة الرسول . فبكى أحمد وخرج من السرادق وجلس في الخيمة الكبرى وخلع على الرسول وأعطاه حلة فاخرة ، وأعادته وفي صحبته رجل جلد فصيح من رجاله ، واتفقوا على أنه حين يصل العلوى إلى على تكين فعليه أن يعيد رسولنا ، وأن يتراجع على تكين منزلاً بحيث يتحرك أمام رسولنا ، وسوف نحظر نحن منزلاً في هذه الليلة نحو أموى ٣٥١ وساقوا الجيش وأعدوا الطلائع

على الجوانب الأربعة . واشتد إسهال خوارزمشاه وضعفه فطلب كبير خدام الحضرة « شكر » وقال له أدع أحمد . فلما رأى أحمد قال له :

« إنى انتهيت ليس اليوم يوم جزع ولا يجوز البكاء ، فإن الموت نهاية كل حيّ ، فعليكم أيها الرجال أن تكونوا جميعاً ، وأن تعملوا على أن يبقى موتى سرا في هذه الليلة وغدها ، فإذا ذاع خبر موتى بعد مسيرة منزل فاعملوا ماترون ، فإن بلغ خبر موتى إلى أسماع على تكين قبل أن تعبروا جيحون والعياذ بالله ، فإنكم وهذا الجيش تلقون مالم تلقوا طول حياتكم ، وعلى أميرك ، بعد أن يبلغ الحضرة مع الجيش أن يخبر السلطان بما كان من أمرى إذ أننى بذلت أعز شيء وهو روحى فى رضاه ، وأملى أن يرعى حقوق خدمتى فى أولادى ، ليس لدى قدرة على الكلام أكثر من هذا وإنى الآن منصرف إلى إسلام الروح وتكرار الشهادة » . فبكى أحمد وشكر وخرجا وبادرا بضبط الأمور وتديرها . وحين اقتربت صلاة العصر لم يبق من أمل فى حياة خوارزمشاه ، فجاء أحمد إلى مخيمه الكبير ودعا النقباء ليبلغوا الجند أن الصلح قد تم وأن على تكين قد تراجع منزلاً شطر سمرقند ، وعند صلاة العشاء حضر رسوله إلى طليعتنا ، ثم أعاد الطليعة بحجة أن خوارزمشاه سيسير فانتظروا دق الكوس ، ويجب أن تسيروا بحيث تكون الميمنة والطليعة والساقة معبأة لأننا ، ولو كنا فى صالح ، إلا أننا لم نزل فى أرض العدو ولا يجوز الأمان من العدو . وكان المقدمون يتمنون ذلك . وهذه هى عاقبة كل الإنسان ، كما يقول الشاعر :

وإن امرئ قد سار سبعين حجة إلى منهل من ورده لقريب

والعاقل من اتخذ القناعة شعاره ، فالمرء يولد عارياً ويذهب عارياً . وقد جاء فى الحديث « من أصبح آمناً فى سربه ، معافى بدنه ، وعنده قوت يومه فكأنما حاز الدنيا بخلافها » . فليرزقنا الله تعالى التوفيق إلى الخير والسعادة

في الدنيا والآخرة . وكان من العسير تجهيز التابوت وغيره من غير أن يفشو خبر موت خوارزمشاه . وأعدوا مهد فيل وفي جوف الليل وسدوه فيه ، وأقاموا خادما لحراسته . وقالوا له إنه جريح لا يقوى على الوقوف ، وإنه ٣٥٢ في المهد بمدد للراحة والاستجمام . وقد سرى خبر موته بين الغلمان . وأمر شكر الخادم بأن تدق الكوس ، فسار الجيش بأسلحته وتعبئته ، ومشاعله تضيء ، حتى إذا دنت ساعة صلاة الصبح كانوا قد قطعوا سبعة فراسخ ، فنصبوا الخيام والخركايات والسرادق الكبير ، وأنزلوا خوارزمشاه من على الفيل وتسامع الناس بخبر موته . ثم إن أحمد وشكر الخادم دعيا بعض نفر من الخواص والطبيب وحاكم الجيش وكلفاهم بالقيام على غسله وإعداد التابوت . وأرسل أحمد النقباء ودعا أعيان الجيش ، برسالة من خوارزمشاه ، ليحضر كل منهم فوجا من جنده معه ، ففعلوا وجاءوا واصطف الجند وأدخلهم أحمد ثم اختلى معهم وأعاد عليهم ما عمل قبل موت خوارزمشاه من الكتابة والرسول والصلح حتى جاء هذا المكان . وقد علام الغم لموت خوارزمشاه وشكروا أحمد الذي قال إن علينا أن نسرع إلى آموى . ثم قال إن على تكفين قد غلب على أمره وتضعضعت قواه وهو بعيد اليوم عنا بعشرين فرسخا ، وسوف نبليخ آموى قبل أن يصله خبر موت خوارزمشاه ، وإن الغلمان الشجعان قد أحسوا بموت خوارزمشاه وإنى أشق عليكم حتى تسيطروا عليهم ، وسوف نركب حين صلاة العصر ونسير الليل كله بحيث نصل إلى النهر في وضح النهار ونجتهد في عبوره مسرعين . فأجابوا أن حسنا فعل وأنهم جميعا خاضعون لأمره وممثلون لكل ما يريد . فنادى أحمد شكرا الخادم وقال ناد قواد خوارزمشاه . فلما حضروا أجلسهم وأمكنهم استحووا فلم يجلسوا أمام أحمد فبذل الجهد لإقناعهم حتى جلسوا . ثم وجه إليهم الحديث قائلا : إنكم تعرفون مدى اجتهد خوارزمشاه كي يوصلكم إلى هذه الدرجة ، وقد توفي بالأمس وكل من عليها

فان ، والله يطيل عمر السلطان ، وإن له أولادا صالحين ، وقد أدى للدولة ٣٥٣ خدمات كثيرة ، وإن معتمدى السلطان . القادة وأميرك ، حين يبلغون البلاط ويرفعون الأمر للسلطان فإنه سيعين أحد أبناء خوارزمشاه مكانه ويرسله إلى خوارزم وعلى هذا قد عقدت الصلح مع على تكين ، وإنه بعيد منا ، وسوف نرحل حين صلاة العصر إلى أن نصل مسرعين إلى آموى . أما هؤلاء السادة ، خدام السلطان ، فسيتجهون إلى بلخ ، وأما نحن فإلى خوارزم . فإذا عاهدتموني وأقنعتهم غلبان القصر بالتزام الهدوء ، وبأننا سنوزع الصلات عند بلوغ آموى من خزائن خوارزمشاه ، إذا فعلتم ذلك ، فلن تسوء سمعتكم وسيدبقى ذكركم عاطرا ، فإنكم والعياذ بالله ، لو ثارت بينكم الفتنة ، والجللى أنكم كثيرون ، فإن الفرسان الستة آلاف والحاشية سبليون منكم الدمار في ساعة واحدة ، وإذا انضم بعضكم إلى على تكين فستذهب هيبتكم من نفسه ولا يقر لكم قرار . واقد كشفت لكم عن هذا السر حتى لا يحدثن أحد منكم نفسه بسوء ، وإن هؤلاء السادة الجالسين متفقون معى . ثم اتجه إلى القوم وقال وأنتم ماذا تقولون . فقالوا نحن عبيد مطيعون فأخذ عليهم أحمد القسم . ثم انصرفوا فقالوا للغلبان فثار هؤلاء وارتفع صياحهم وجروا إلى خيولهم وسلاحهم ، فركب هؤلاء المتقدمون ، وأمر أحمد بأن يركب الجيش كله . فلما رأى الغلبان ذلك تحدثوا لحظة مع المتقدمين . وجاء المتقدمون إلى أحمد فأخبروه أنهم اتخذوا قرارا ، وأنهم يريدون عهدا وميثاقا من الخواجة العميد بأن لا يؤذيهم ، وأن يعاملهم كما كانوا يعاملون أيام خوارزمشاه . فقال أحمد هذا حسن ، وسيكونون أحسن حالا بما كانوا أيام خوارزمشاه . وانصرفوا ثم عادوا ، وأقسم أحمد ولكنه قال إنهم يأخذون منكم الخيول الليلة وتركبون الجمال وسترد إليكم الخيول غدا ، وتتم رحلة هذه المرحلة على هذا النحو ، ففسكروا في هذا الأمر قليلا ثم رضوا أخيرا قائلين إننا خاضعون لما يأمر به الخواجة ، ولكن ليركب من كل وفاق

من عشرة غلمان فارس ويذهب مع القواد حتى تطمئن قلوبنا . فقال هذا صواب ، وعلى هذا النحو رجعوا ثم أكلوا واستقام أمرهم . وساروا طول الليل حتى إذا لاح الصبح نزلوا فأعطوا الخيول للغلمان . وعلى هذا النحو مشوا حتى عبروا جيحون وهناك بقى أميرك البيهقي . قال أحمد والآن وقد رجع هذا الجيش ٣٥٤ الكبير سالما فإني أريد السير إلى الدركاه بيلخ . وإذا بلغ هذا الخبر خوارزم فإنه يقضى على اضطراب كثير . وستقولون للسلطان ماجرى وسيأمر بإجراء اللازم نحو هذه الأسيرة القديمة ، فأثنوا جميعاً على الخواجة أحمد وشكروه وأمر الخواجة بأن يعيدوا الخيل للغلمان .

وكنت قد كتبت هذه الملاحظة مختصرة ، ففصلتها حتى يقف عليها السلطان إن شاء الله .

انتهت رسالة أميرك البيهقي .

وهذه الأقاويص ولو أنها بعيدة عن التاريخ ، فإن هذا قد جرى على ذكر أن فلانا السلطان قد بعث القائد فلانا للحرب ، وأن يوم كذا جرت المعركة أو تم الصلح وأن هذا غلب ذاك أو العكس وهكذا ، ولكنى أكتب ما أراه واجب التدوين . واختلى الوزير الكبير وأستاذى ، وقد نودى أبو الحسن عبد الله وعبد الجليل وكذلك كنت حاضرا وكتبت السكتب لأميرك البيهقي الذي يجب أن يحضر قبل الجيش . وقد كلف بكتكين ويبرى بالذهاب إلى كالف وزم^(١) ، وكف جيشنا عن الرعية ، وأمر محمد الأعرابي بأن يحجى حتى أموى

(١) كالف ، على وزن فاعل ، كانت قلعة على شاطئ جيحون . زم مدينته صغيرة في تلك الجهة . انظر عني — فياض حاشية ٢ .

ويقف عنده بجيش من الكرد والعرب ، ووجه كتابا إلى أمير صغانيان فيه شرح لهذه الأمور حتى يتصرف بحكمة ، فإن على تكين سوف يرسل له رسولا وستقبل شروطه حتى لا تتجدد الفتنة ، وبعث بكتاب إلى الخواجة أحمد عبد الصمد ، خاطبوه فيه بـلقب « شيخى ومعتدى » مع مجاملة خاصة ، وقال « إنا مقدرون ما بذله خوارزمشاه هذا الشيخ المخلص في خدمتنا حتى أنه ضحى بنفسه في سبيلنا ، وإنا حافظون له حقوقه في أبنائه المقيمين عندنا ، وهم أهل لخدمتنا ، وسنرسل رجلا لتدبير الأمر على أثر هذا حتى يقوم بما يجب » . وجاء كتاب إلى الخدم في خوارزم ، فيه ثناء على ما بذل خوارزمشاه من الجهد . وكان هذا الخطاب بخط السلطان وتوقيعه . ثم إنه جلس يوماً في القصر ، واستبق ٣٥٥ هارون بن خوارزمشاه ساعة في حضرته ، وهو رافعى من ناحية أمه . ثم أعلن في الناس أنه تقرر تنصيبه مكان أبيه في خوارزم . وكانت إمارة خراسان لرافع بن سيار قبل يعقوب بن الليث ، وكانت عاصمته بوشنگك ، فزوج خوارزمشاه أم هارون في ذلك الوقت حين كان في هراة أيام يمين الدولة وقبل أن يلى خوارزم . وعادوا بين صلاتي الظهر والعصر . وقد كتب منشور ولاية هارون إمارة خوارزم الأمير سعيد بن مسعود وسمى هرون في هذا المنشور خوارزمشاه ، ولقب « بخليفة الدار » . خوارزمشاه . ووقع السلطان المنشور وجاءت الكتب إلى أحمد عبد الصمد والحاشية كى يلى أحمد منصب الكتبخدا ، وخوطب هرون « بولدى ومعتدى » . وألبس هرون الخاكة يوم الخميس الثامن من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة (١٠٣٢) وكانت خلعتة نصف خاكة أبيه ، ثم إنه ذهب بعد ذلك إلى بيته بعد ما لقي من التكريم . وكان سقى ، أخو هرون ، أكثر قوة ويقظة منه ، وكان ينظر أن يولى السلطان ، فحزن ويئس لتخطيه ، ولكن السلطان طيب خاطره وقال له إنك جدير بما هو أكبر من ولاية خوارزم . فقبل الأرض وقال إن صلاح

الرعية فيما يراه السلطان ، وإن خدمة السلطان يوما واحدا أعز عندي من نعيم ولاية الدنيا . وفي يوم الجمعة جاء هرون إلى القبة ، وكان أبو نصر قد حرر نص القسم ثم عرضه خلف هرون أمام شهود من الأعيان والعظماء . ثم مثل أمام السلطان واستأذن في السفر فقال له السلطان : كن يقظا واجعلني نصب عينيك ، لتزداد منزلتك عندي ، وإن أحمد منك كأبيك فأطع أوامره ، وارع خدام أبيك واعرف لهم ماضيهم ولا تنس اصطناع عظمائنا . ولكنه نسي هذا الحق فحدث بعد ذلك ببضع سنين الفتنة في خراسان ، بسبب التركمان ، وانفتح طريق الشر لهذا الشاب الغر الذي ركب رأسه ٣٥٦ وسأذكر هذا في مكانه ، وكذلك سأذكر ما جرى من مختلف الأحداث إلى أن استدعى الخواجة أحمد عبدالصمد ، وأسندت إليه الوزارة ، وبعث ابنه مكانه ليعمل عند هرون . وهكذا أسند العمل للشابين فتنازعا ، واضطربت أمور هذه الولاية بحيث خرجت من أملاك دولة السلطان مسعود ، وسوف أعود لبيان ذلك مرة أخرى وأذكر حوادث عجيبة فيه إن شاء الله . وجاء أميرك البيهقي وشرح الأحوال ، وكانوا قد أوغروا صدر السلطان عليه ، فإن الأستاذ الرئيس كان يمقته بسبب غلامه أبي عبد الله الفارسي ، ذلك أن أميرك كان قد ذهب إلى بلخ للقبض على أبي عبد الله وصاحب البريد أيام محنة الرئيس . وكان الرئيس يتحين الفرص كل يوم ، ففى رحلته إلى بخارى كتب فى حقة تقارير استخدم فيها الحيل حتى فصل من منصب صاحب بريد بلخ ، فأسند إلى أبي القاسم حاتمك . ولكن السلطان طمأن أميرك وقال له : « سنعهد إليك بمنصب أكبر من هذا ، ذلك أنه لم يصدر منك خيانة نحونا » ولم يكن هناك من هو أكرم من السلطان وأشد حياء منه . وسأذكر أحواله بعد هذا الفصل . وإذ سارت الأمور على هذا النحو ، وكان الجوجارا فى بلخ ، رحل السلطان عنها لثمانية أيام بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة ، عن طريق دره كز لاهيا شارباً عائدا . وفى

الحادى عشر من جمادى الآخر استقر به المقام فى الجوسق المحمودى ، وهو سراى إمارة غزنة . ونزل فى منتصف هذا الشهر فى الحديقة المحمودية ، وأرسلت الخيول إلى المرعى وسيقت الإبل السلطانية حسب الرسم إلى صحراء رباط كرمان^(١) . والله أعلم بالصواب .

ذكر أخبار الرسل الذين أوفدوا من غزنة

إلى دار الخلافة وأحوالهم ثم عودتهم

بعد أن أعيد رسول القائم بالله أمير المؤمنين المدعو السليمانى من بلخ ٣٥٧ وكان السلطان قد أبدى إليه اهتمامه بقضية الحج وقطع الطريق إليه ، فطلب إليه بذل الجهد لإعادة فتحه ، وجاء الرد من دار الخلافة بأن الخليفة قد عهد إلى آل بويه فى تعمير طريق الحج ، وأنهم أصلحوا الأحواض فيه فلم يبق ثمة عائق ، وليعين أمير الحج من قبل الحضرة المسعودية فتسير قوافل الحاج آمنة من خراسان وما وراء النهر . وسرعان ما أصدرت الأوامر إلى خراسان للتأهب على عجل ، وكان الناس مشوقين إلى زيارة بيت الله الحرام . وقد اختار السلطان الخواجة على ميكائيل لإمارة الحج ، فعنى بترتيب الحج ترتيباً يفوق حد التصور . ذلك أنه كان على جانب عظيم من الاستعداد والغنى والمروءة . فاختار حسن البرمكى الفقيه رسولاً ، وقد سبق له العمل فى مثل هذه المهمة مرتين أو ثلاثاً ، وسافر إلى بغداد . وكتب أستاذى الرسائل إلى الخليفة ووزيره ، وكذلك إلى تاش فراش قائد العراق ، وإلى طاهر السكاكيب وإلى غيرهم . ويوم الأحد ، ثمان بقيت من هذا الشهر ، ارتدى على ميكائيل خلعة فاخرة كان من ضمنها المهد وعدة

(١) فى نسخة طكرمان (نقيسى ص ٤٢٩ حاشية ١٠) . ورجح غنى - فيانس أن تكون كرمان عند حدود غور (حاشية ٣) .

من ذهب وغاشية وخوطب بلقب « الخواجة » وكان هذا اللقب من أسمى الألقاب في ذلك الوقت وإن يكن اليوم قل شأنه وتنوسى العمل به وسأذكر قصة عن الغاشية جرت في نيسابور .

حكاية

كان للسامانيين وزير يلقب بالخواجة أبي المظفرى البرغشى وكان قد أحس بإدبار دولتهم فأخذ يدبر حيلة يهرب بها ، فمنح طبيباً سامانياً خمسة آلاف دينار وتعاهد معه على أن يعاونه على الهرب . وفى يوم كان الجليد يكسو البلد ، ركب حصانه وسار على الثلج ثم ألقي بنفسه على الأرض ، وأخذ يئن ، وتظاهر بالإغماء ، فحملوه إلى داره ووزعوا الصدقات التى لا تحصى ، وجاء الأمير السامانى يعوده فحياه الوزير بالإشارة ٣٥٨ ، وأحضر الطبيب العيدان والرباط والضماد وقال إن هذه الرجل قد كسرت . وكان السلطان يسأل الطبيب عنه كل يوم . فكان يقول إنه قد أصيب بصدمة قوية وكل يوم يقول شيئاً مختلفاً عن هذا الحادث حتى يئس الأمير وتعطلت الأعمال ، إلى أن اختار الأمير خلفاً له شاباً من ثقافته ، وكان غرور الوزارة قد استولى على هذا الشاب . وكان الأمير يأمل فى شفاء وزيره ولكن الطبيب كان يزيد من يأسه فى شفاء الوزير يوماً بعد يوم ، حتى قطع الأمير الأمل من شفائه ، وفى أثناء ذلك كله كان الوزير ينتهز كل فرصة ليبعث إلى جوزجان بكل ما خف وغلام من أمواله ، واشترى بها ضيعة عظيمة ، ثم أعد قائمة بكل ما يملك من صامت وناطق ودواب وعبيد ، وأحضر الفقهاء والأعيان وأقسم بأنه لا يملك شيئاً سوى الضيعة التى له فى جوزجان وما تحتويه هذه القائمة وأنه لم يودع أمانة عند أحد ، ثم بعث إلى الأمير بالقائمة والتس منه الإذن فى أن يذهب إلى ضيعته ، ذلك لأن الهواء فى المدينة لا يلائمه وليتقضى الوقت هناك فى الدعاء للأمير . وصح ذلك عند

الأمير فأذن له وأعفاه من الخدمة ومنحه الضياع الأميرية في جوزجان وأصدر
لأمير جوزجان أمراً حتى يقسم بإعزازة ، ثم أمر بمنحه وأتباعه الإبل
والدواب^(١) ، فسار واستقر به المقام هناك حتى دالت دولة السامانيين . فباع
ضياع جوزجان وسار إلى نيسابور في صحة تامة وقلب سعيد بل وفي رجل
سليمة ليقم بها .

وقد رأيت (أنا أبو الفضل) أبا المظفر هذا في نيسابور سنة أربعمائة
(١٠٠٩) وكان شيخاً طويل القامة مشرب الوجه بالحمرة ، أبيض الشعر
كالكافور ، وكان على جانب عظيم من المهابة ، يرتدى دراعة بيضاء من القماش
المرغزى الملحم ؛ وكان يركب جواداً فارعاً ، مزين الوجه باللجام ٣٥٩ وعليه
رباط للذيل وسرج من الحديد المطعم بالفضة البديعة وقد شد برباط إلى صدره
وذيله وقربوسه من الأديم الأبيض ، وكان ركابداره يحتضنه أثناء سيره ، وكان
لا يذهب للسلام على أحد ولا يستقبل أحداً ولا يختلط بأحد ، وكان يجالسه
ندماء ممن كانوا في سنه ، وكان له بستان في محمد آباد بما يلي المدينة ، يمضى جل
أوقاته به ؛ لكنه كان يحضر للعزاء في كباراء القوم . وقد رأيتته معزياً في مأتم
إسماعيل الديوانى ، وكنت في الخامسة عشرة من عمري إذ ذاك ، وكان ممن حضر
في هذا المأتم الخواجة الإمام أبو سهل الصعلوكى والقاضى الإمام أبو الهيثم
والقاضى صاعد وصاحب ديوان نيسابور ورئيس بوشنكك والشحنة بكتكين
حاجب أمير الجيوش ، وقد أجلسوه في الصدر وأبدوا له مزيد الإجلال ،
ولما هم بالانصراف طلبوا إليه حصان الأستاذ الرئيس . وقد مات عزيزاً
مكرماً . وكان السلطان محمود يدعوه « بالخواجة » ويخاطبه بهذا اللقب . وقد
طلب إليه عدة مرات أن يقبل الوزارة ولكنه كان يأبى ذلك .

(١) أنظر نفيسى ص ٢٤١ حيث أخذنا عن نسخته في هذه الجملة .

وكان في نيسابور رجل يقال له أبو القاسم الرازي ، كان يربي الجوارى
ويذهب بهم إلى الأمير نصر ويعود من خدمته بالصلوات . وكان قد أتى بعض
الجوارى يوماً فأعطاه الأمير نصر عمامة وأوصى به . فهناه أهل نيسابور ، وجاء
بخطاب قرىء في ديوان المظالم وسمعت من أبي أن القاضي أبا الهيثم قال له سرّاً
— وكان رجلاً كثير المزاح — أنعم يا أبا القاسم فإن صناعة القواد خير من
القضاء . واتفق أن كان أبو المظفر البرغشى عائداً من بستانه في محمد آباد فرأى
أبا القاسم الرازي راكباً حصاناً ثميناً عليه سرج غال مطعم بالذهب وعليه غاشية
فضفاضة مزدانة بالتصاوير ، فلما قابل أبو القاسم أبا المظفر البرغشى ترجل وقبّل
الأرض ، فقال له البرغشى بورك لك في خلعة القوادة . فقبّل الأرض ثانية .
وساق أبو المظفر فلما ابتعد قليلاً قال لركابداره إرم الغاشية تحت هذا ٣٦٠
الجدار فألقاها ، ولم يجرؤ على سؤاله عن السبب ، وبعد أسبوع أراد أبو المظفر
أن يركب ، فسأل الركابدار أحد ندمائه عما يأمر به في أمر الغاشية فجاء النديم
وسأله فقال : ضعوا الشال الدامغانى في القباء لتغطوا به السرج حين أترجل .
فكانوا يفعلون ذلك حتى مات . وقد تناول أصدقاءه القدامى الغاشية في مجلسه
فقال أبو المظفر : بعد أن صار أبو القاسم الرازي من أصحاب الغاشية أصبح من
المحال علينا أن نحملها . وفشا هذا الحديث في نيسابور وبلغ الخبر السلطان محمود
فغضب ولام أخاه ، وصدر الأمر المشدد من البلاط للأميرين محمد ومسعود
بشأن الغاشية والقربوس . واليوم كل من معه خمسون درهما ويستطيع أن
يشترى الغاشية فإنه يشتريها ويحملها الخدم أمامه .

قل أن يلتفت الملوك لمثل هذه الأمور وعلى المنهين والجواسيس مراعاة
ذلك وعليهم ألا يخفوا مثل هذه الأخبار ، ولكن كل ما يكتب على القرطاس
خير من القرطاس نفسه ولو ذهب سدى ، ولنعد إلى التاريخ .

بعد أن خلع السلطان مسعود على الخواجة على ميكائيل ذهب إلى بستان صد هزاره ثم أصبح منه ، ومر به على ميكائيل في أمة بالغة ، فترجل وقدم فروض الولاء ، وعين معه أستاذي منيها متكررا فكان يكتب الأخبار ويرسلها مع السعاة تباعا ويعطيهم أجورهم حتى لا يتعطل العمل ، وكانت معه جريدة وكان يسجل فيها المهمات ، وكان السلطان مسعود آية في هذا الباب ويؤثر عنه نكات كثيرة . وسار الخواجة على ميكائيل والحجاب إلى بلخ حتى يذهبوا إلى حاضرة الخلافة بغداد . وأقام السلطان أسبوعا في بستان صد هزاره ، وقد أمر بزخرفة وإعداد القصر المحمودي الزاوي القديم ، حتى يمتلئ فيه بعض الأمراء . فزينوا القصر بطرائف الأقمشة المذهبة وبالجواهر الكثيرة وزينت الحجرات بالنقوش المذهبة ، ووضع فيها العنبر والكافور والمسك ، وكانت الزخارف من الآبهة والجمال بحيث لم تكن تخطر على بال أحد . وأقيمت مأدبة في غرة رجب حضرها الموالي والحاشية جميعاً ، وركب السلطان يوم الخميس وذهب إلى القصر الأبيض ومعه سبعة من أبنائه مع المقدمين والحجاب والأقارب ولبت هنالك أسبوعا حتى تم الحتان ثم عاد ونزل في دار الإمارة . وفي الخامس عشر من هذا الشهر جاء السعاة من تركستان ، من قبل كل ٣٦١ من الخواجة أبي القاسم الحصري وأبي طاهر التباني يقولون لقد أقننا مدة طويلة في كاشغر وقد منعونا من مغادرتها . فأمر السلطان باستضافة السعاة ، وأن تمنح لهم الصلات حتى يستريحوا ، وكان في نيته السفر إلى هراة ، وقد نصبوا السراشق على الطريق إليها . وفي غرة ذي الحجة أخذ في صيد الأسود في رباط شيروبر^(١) وقتل عدة أسود بيده وتناول الشراب . وفي منتصف الشهر جاء إلى

(١) أصلها كلمة « شيرنر » التي سبق ذكرها في ص ١٣١ . انظر غني - فهاشي جاشية ١ .

هراة في أبهة تامة وموكب نغم رائع وكان يحب هذه المدينة كثيرا لأنه كان قد أمضى بها وقتاً طويلاً .

تاريخ سنة ٤٢٤ (١٠٣٢ - ١٠٣٣)

وأقبلت سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، وكان أول العام يوم الخميس ، وفي الطريق جاءت رسالة صاحب بريد الري تقول : « إن تاش فراش قد استطاع أن يسيطر على الموقف هنا في حزم تام ، وإن ابن كاكو وكل من بالأطراف قد أذعنوا بالطاعة ، وإن طاهر الكاتب يقوم بالكتبة خدائية على خير وجه ، وليس يخشى من أى خلل ، وإن ابن كوهرا آكين ، شهره نوش ، قد أخذت العزة بالإثم ، واستحوذ على قزوين التي كانت من أملاك أبيه ، فأوفد تاش فراش ، يارق تغمش خازن الألبسة جامه دار ، مع جماعة من القادة الماهرين وكوهرا آكين الخازن ونهار تاش وجماعة من فرسان التراكمة . فكفوه شر هذا المخدول . وقد صمم تاش على أن يجول في تلك الأنحاء لإقرار هيبة الدولة ، وقد شاعت أراجيف في العراق » .

وقد أجيب عن هذه الرسالة بالثناء وقيل له : « إنا قصدنا إلى هراة من بست ، وبعد أن نبليغها سنعين معتمدا يحمل الخلع لتاش وطاهر الكاتب والجماعة التي حاربت ابن كوهرا آكين ، شهره نوش ، وسنرسل الأوامر للسير إلى الري والجبال وهمدان » .

ولما بلغ السلطان هراة بعث هذه الخلع مع مسعود بن محمد بن الليث الذي كان شهماً عاقلاً ذا دهاء . والذي كان قد التحق بخدمة السلطان في هراة ، وصار من فحول الرجال ومات في شبابه . وقالوا له إن راية السلطان العالية ستقصد

نيسابور على الأثر بحيث يمضى السلطان هذا الشتاء ثم الربيع هناك ، وسار مسعود بالخاع . وفي العاشر ٢٦٢ من محرم أصيب الخواجة أحمد حسن بمرض عضال كانت فيه منيته ، وكان لا يقدر على الحضور إلى ديوان الوزارة ، وكان يتعقب بعض الناس ، وكانوا يلوكونه بالسنة حداد .

وكان قد أمر بفصل أبي القاسم كثير صاحب ديوان خراسان ، وأخذ يحاسبه حسابا عسيرا ونوى له شرا ، فأمر بإعداد العقابين والسوط والجلاد ، وأراد أن يضرب . فتوسل أبو القاسم بأستاذى مستغيثا . فكتب أستاذى إلى السلطان رقعة أيدها برسالة على لسان عبدوس : « بآنى لا أقول ألا يسأل أحد عن حسابات الديوان ، ثم إن عليه أن يرد ما فى ذمته من الأموال رغم أنفه ، ولكن الخدم الذين رفع السلطان الوالد درجاتهم لا يجوز إهلاكهم عمدا ، وإن هذا الوزير مريض مرضا شديدا ، وقد يئس من الحياة ، ويريد أن ينتقم من خصومه قبل موته ، وإن لأبى القاسم كثير سابقة الخدمة وقد أصبح من الوجوه فلو يرى مولاي السلطان فليتدارك أمره » . فلما وقف السلطان على هذا أمر قائلا : « اذهب أنت يا أبا نصر إلى الأستاذ الرئيس بحجة عيادته ثم يأتى عبدوس على أثرك ويبلغه سؤالى عنه ويعمل ما ينبغى فى هذا الشأن . فلما دخل أبو نصر دار الوزير وجد أبا القاسم كثير وقد أجلس على الصفة وهم يحاسبونه على الأموال ، وقد جيء بالمستخرج والعقابين والسوط وآلات التعذيب والجلاد ، وكانوا يبلغونه رسائل خشنة من الوزير . فقال أبو نصر للمستخرج وللآخرين كفوا عنه ساعة بقدر ما أرى الوزير . ثم دخل عنده فرآه فى صدر غرفة خالية مسندا ظهره وقد استغرق فى التفكير ، وكان يئن من المرض . فقال أبو نصر كيف حال سيدنا . فقال : أنا اليوم أحسن حالا ، ولكن صدرى يضيق كل ساعة بآبن كثير ، إنه سرق المال وانتوى نهبه ولا يدرى أنى سوف أخذه رغم أنفه قبل أن أموت ، وإنى أمر حتى يشدوه إلى العقابين وأن يضربوه

حتى يرد ما أخذ . فقال أبو نصر لماذا يضيق صدر سيدنا ، إن أبا القاسم لا يجرو
بأى حال على أخذ مال بيت المال ، ولو تأمر فإنى أقبله وأوقظه من
غفلته^(١) . فرد بأن هذا لا يجدى ٣٦٣ معه ، ولسوف يرى جزاءه . وبينما هما
فى هذا الحديث إذ دخل عبدوس فحيا وقال إن مولانا السلطان يسأل كيف
حال الوزير اليوم . فقَبَّل الوسادة وقال : الآن ، بركة السلطان أنا أحسن حالا ،
ولعلى أقوى فى يومين أو ثلاثة على المشول بين يديه . قال عبدوس إن السلطان
يقول : « إنا نسمع أن الأستاذ الرئيس قد أثقل كاهله بأعباء جسيمة ، وأنه
يضيق صدره ، وأنه فى ضجر من أعمال أبى القاسم كثير من ناحية المال ،
ولا يجرو أحد على أخذ مال بيت المال . فلا يحمل الوزير نفسه مشقة التفكير
فى هذا ، وليكتب بيانا بما يجب على أبى القاسم أدائه بما أخذ من الأموال وليعطيه
إلى عبدوس حتى يأتوا بأبى القاسم إلى الدركاه ويسترد منه المال فورا » . فأمر
المستوفين أن يكتبوا مذكرة وأعطيت لعبدوس وقال : ينبغى إرسال أبى القاسم
معه إلى الدركاه . فقال أبو نصر وعبدوس لو يأذن سيدنا فإنه يأتى مستأذنا منه .
فقال لا ولا كرامة . فقالا إنه شيخ وله حق الخدمة وتكلما كثيرا على هذا النحو
حتى أذن فجىء بأبى القاسم فحياه تحية طيبة ، فأجلسه وقال له لماذا لا تسلم مال
السلطان . فقال أطل الله حياة مولائى ، إنى مستعد لتقديم كل ما يقتضيه الحق
بما يرضى به مولائى . فقال رد ما سرقت وانزع فكرة الوزارة من رأسك
فلا يكون لأحد شأن عندك . فقال سمعا وطاعة إنى أسلم كل ما يقتضيه
الحق ولا تدور بخلقى فكرة الوزارة ولم تدر من قبل ، ولو جالت بخاطرى
لما كان الأستاذ الرئيس فى هذا المقام مع كل ما دبر ضده . فقال : أنت الذى
دبرت أم سواك ؟ فأدخل أبو القاسم يده فى رقبته حذائه ، واستخرج كتابا ،

(١) ايمتعلم هنا مثلا فارسيا ومعناه الحرفى انزع القطعة من أذنه : ينبه اذكوش وى بيرون كنم .

وأعطاه للخادم ليحمله إلى الوزير ، فأخذه هذا فقرأه ثم أخذ يعرّكه عرّكا بيده
ولما فرغ منه طواه وأخفى عنوانه ووضع أمامه ، ثم فكر مليا وبدأت عليه
إمارات الخجل . ثم قال لعبدوس عد حتى أمر الليلة بأن يثبتوا ما تبقى عليه ،
ويأتوا به معه غداً إلى الدركاه حتى يأمر السلطان بما يرى . فسلم عبدوس ٣٦٤
وخرج . ثم وقف خارج قصر الوزير حتى خرج أبو نصر ، فلما التقيا قال
عبدوس لأبي نصر لقد رأيت عجبا ، إن رجلا مقيدا ، أعدوا له العقابين ، وبلغت
روحه التراقي ، وتصل في حقه رسالة من السلطان على هذا النحو ، فيعطى الوزير
ورقة فيقرأها وتهدا فيه كل هذه الشأرة . فضحك أبو نصر وقال ياسيدي أنت
شاب : إنه سوف يطلق سراحه الآن ، وسيحضر أبو القاسم إلى دارى فتعال
أنت كذلك . وبعد صلاة المغرب جاء أبو القاسم لبيت أبي نصر وشكره وشكر
لعبدوس ، لما أحاطاه به من الرعاية ، ودعا للسلطان كثيرا لما منحه من العطف
السابع ، وطلب إليهما أن يتحدثا عنه إلى السلطان على خير صورة ، وأن يبين
له : « أنه لم يثبت بذمته شيء من مال بيت المال ، ولكنهم نسبوا إليه أخذ بعض
الزيادات ، وأن المستوفين خوفاً من الخواجة أحمد جمعوا ما أنفقه هو وأتباعه
على القوات من الماهيات ، فى الفترة التى كان فيها صاحب الديوان ، وجعلوها
دينا عليه وهوّلوا فى مقدارها ، وأن كل ما يملك فإنما هو بأمر السلطان ، وقد
قصدونى بالسوء لأنى لم أقر لهم بشيء » . فقال أبو نصر كل هذا سيقال للسلطان
وأكثر منه . ولكن حدثنا عن قصة الرسالة التى لان جانب الرجل بعد قراءتها ،
حتى يذكرها عبدوس للسلطان غداً . فقال إنها أمر من السلطان محمود بتوقيعه
بقتل الخواجة أحمد قصاصاً للدماء التى أريقَت بأمر منه ، وأنا قد خالفت أمر
سلطان عظيم كمحمود وأجبت بأن « ليس من شأنى هذا » حتى عاش الرجل
بفضلى ، ولو أردت إهلاكه لقتلوه فى الحال . فلما قرأ الرسالة علاه الخجل
 واعتذر لى كثيراً بعد انصرافكما . وذهب عبدوس وأعاد على مسامع السلطان

كل ما جرى . فقال السلطان ، كيف حال الوزير . فقال عبدوس إنه طريح الفراش وقد سألت الطبيب فقال إنه قد أشرف على الموت وإنه مصاب بثلاثة أمراض متضادة يصعب علاجها ولو نجا منها لكان أمراً عجيباً . فقال السلطان ينبغي أن تقول لأبي القاسم كثير ليسلم نفسه إليه ولا يبدى معه لجاجا وعناداً لئلا تشتد به العلة ، وإنا ذاهبون إلى نيسابور هذا الأسبوع ، ويجب أن يكون أبو القاسم هنا مع الوزير حتى تبين عاقبة مرضه . وعلى هذا النحو نجا أبو القاسم من الموت . وفي الثامن عشر من محرم سار السلطان من هراة قاصداً نيسابور . وبقي ٣٦٥ الوزير في هراة مع جملة العمال . ونزل السلطان في شادياخ غرة صفر . وكان ذلك اليوم قارس البرد ونزل ثلج كثيف ، وكان قد أمر بإعداد وثاقات الغلمان والدور حوله في نيسابور ، وأن ينزلوا سائر القوم بعيداً عنه . وفي المساء جاء ساعي هراة برسالة تقول إن الوزير أحمد حسن قد توفي بعد أسبوع من مسير السلطان ، بعد أن أساء كثيراً إلى العمال . ولما قرأ أستاذ الرسالة توجه نحو السلطان وعرضها على مسامحة قائلاً أبق الله سلطان العالم ، إن الأستاذ الرئيس أحمد قد لحق بربه . فقال السلطان يالأسف لقد كان أحمد وحيد عصره . وقل أن يوجد مثله . وتأسف كثيراً وتألم لفقده وقال لو كان يباع لما بخلت في شرائه بأى ثمن . فقال أبو نصر كفاه سعادة أن يموت والسلطان راض عنه . ثم جاء إلى الديوان وأخذ يتفكر ساعة أو ساعتين ، وقال قطعة في رثائه ضاعت مع أوراق أخرى ، وأذكر هذا البيت منها :

يا ناعياً بكسوف الشمس والقمر بشرت بالنقص والتسويد والكمد

يموت هذا الوزير ماتت المهابة والشهامة والديانة والكفاية والعظمة . ولا خلود في هذه الدنيا الفانية . وكلنا نسير في القافلة ، ونذهب واحداً بعد آخر . ولن يبق أحد فيها ، فعلياً إن نعيش حياة نذكر بالحمد بعدها ؛ وقد مات الحاجة

أبو نصر مشكان الذى نظم المراثية فى هراة كذلك مما سأذكره فى موضعه ، وقد أحسن ابن الرومى القول فى هذا المعنى شعر :

وتسلبنى الأيام كل وديعة ولا خير فى شئ يرد ويساب
كستنى رداء من شباب ومنطقاً فسوف الذى ما قد كستنى ينهب

وبقيت متعجباً من حرص الناس ومجادلاتهم مع كل هذا الوزر والوبال والحساب ٣٦٦ والتبعة ، فإن الدرويش الجائع فى محنته ومرضه لا يستطيع تمييزه من الغنى مع كل ما يرفل فيه من نعمة حين يتوسدان الثرى . والرجل هو الذى يبقى ذكره حياً بعد موته . قال رودكى :

« قصرت الحياة أو طالت أفليس المآل إلى الموت ، إن هذا الحبل سوف يطوى مهما كان طويلاً ، يستوى العيش فى شدة وعناء أو أن تظفر بأقل ما فيها أو أن تظفر بما بين الرى وطراز ، كل هذه كنفخة عفریت فى الريح كلها كالحلم ، لا حكم له إلا المجاز ، كل هؤلاء يوم الموت سواء ولا تستطيع أن تفرق بينهم » .

وبعد أن فرغ السلطان مسعود من الاستقبال اختلى بالأعيان وأركان الدولة والسپهسالار على دايه وكبير الحجاب بلكاتكين وأبى الفتح الرازى العارض ، وأبى سهل الحمدوى وأبى نصر مشكان ثم قال : « لقد مات الوزر أحمد ، كان شيخاً تفيض منه الحكمة والإجلال القديم وكما فارغى البال فى حياته ، ولا بد لنا من وزير فإن الأمور لا تسير بغير واسطة . فمن تعرفون ليقوم بهذه المهمة الكبرى ؟ قالوا إن السلطان يعرف عبيده ويعرف من يختار من بين من رفع السلطان الراحل (محمود) درجاتهم ، فإننا جميعاً نطيعه ونرعى حرمة و ليس لأحد الجرأة على أن يعترض على رأى السلطان الرفيع . قال اذهبوا إلى ديوان الكتاب واختلوا بأنفسكم وتدبروا الأمر . وجلسوا فى الإيوان الواقع وسط

البستان ، وهو معد لجلوس كتاب الرسائل . ثم إن السلطان دعا أبا نصر وقال إن والدي حين عزل أحمد كان قد ذكر أسماء عدة رجال قبل أن يقع اختياره على حسنك ، فاذكر أسماء هؤلاء . قال أبو نصر : منهم أبو الحسن السيارى الذى قال عنه السلطان محمود إنه رجل كفء ولكنه طويل وعمامته لا تروق لى ، وعمله رياسة الديوان وهو كفء أمين : وقال عن طاهر المستوفى إنه أجدرهم جميعاً ولكنه يميل إلى تعقيد الأمور وأنا عجول فسوف أنهره فيعزل العمل ؛ وأما أبو ٣٦٧ الحسن العقيلي فإن له شهرة وجاها وكفاية ، ولكنه جلف ولا يبالغ أوامر بدفة ، وقد تعودت على أن يتكلم الرجل بما أمر به دون محابة وأن يرد على بسرعة ؛ وأما أبو سهل الحمدوى فهو ممن رفعنا درجاتهم وقد تتلمذ طويلاً على أحمد حسن ، وهو شاب بعد ويجب أن يظل تلميذا فترة أخرى حتى يصير أكثر تهديبا ويليق حينئذ لأن يسند إليه عمل ذو خطر ، ثم إن عمل غزنه وحدودها عمل كبير للغاية ويجب أن يقوم به رجل يريحنا ؛ وأما حسنك فقد علت منزلته ، ولكنه لا يعرف الحساب والكتابة ، ولو أن نوابه يقومون بأعمال نيسابور على وجه حسن وهم يقومون بواجبهم استناداً إليه ؛ وأحمد عبد الصمد هو أجدرهم جميعاً ، ولم يكن لأتونتاش رجل مثله وخوارزم ثغر عظيم . هذا ما كان من أمر هؤلاء أطال الله حياة السلطان وقد أسند الوزارة أخيراً إلى حسنك وندم على ذلك والآن كلهم أحياء إلا حسنك . وإن لمولاي عبداً وخبداً ذوى كفاية . فقال السلطان يجب كتابة أسماء هؤلاء وعرضها على الأعيان . فكتب أبو نصر أسماءهم وذهب إلى القوم ، فقالوا إن كلا منهم أجدر من أخيه والسلطان أعرف بمن هو أجدر بالاعتماد عليه منهم . قال السلطان لأبي نصر إن أبا الحسن السيارى صاحب ديوان الرى والجبال وقد انتظمت هذه الولاية بفضلته ؛ وسيذهب أبو سهل الحمدوى إلى الرى فليس يفعل أبو طاهر الكاتب شيئاً غير الشراب

والرعونة ، وديوان الاستيفاء لا يستغنى عن طاهر المستوفى ، وكذلك لا غنى لمجلسنا عن أبي الحسن العقيلي ؛ وكما رأى السلطان الماضى فى آخر الأمر ، فإن قلبى يميل إلى أحمد عبد الصمد الذى استطاع أن يخلص جيشا كبيرا ويعبر به جيحون وخورزمشاه ميت ، ثم إنه يجيد الكتابة والحساب والمعاملات وهو رجل ذكى . فقال أبو نصر : هذا رأى صائب لقد كانت الوزارة أيام خالفاء بنى العباس وأيام السامانيين تسند إلى كتخدائية الأمراء وإلى الحجاب ، وكان كثير كتخدا أبي الحسن سيميجور وأبى القاسم حفيده ، وقد طلبه السامانيون أكثر من مرة من أبي الحسن ليسندوا ٣٦٨ إليه الوزارة ، فوسط أبو الحسن الشفعاء ليقولوا ليس له أحد غيره ، وأحوال خوارزم منتظمة اليوم ، وعبد الجبار ابن الخواجة أحمد عبد الصمد^(١) يستطيع القيام بأعمال أبيه إذا ولى هذا الوزارة . فأمر السلطان بإحضار الدواة وكتب ملطفة بيده إلى أحمد قال فيها : « إن لنا مع الخواجة مهمة خاصة بأعمال الدولة ، وقد أرسلت إليك هذا الفارس مسرعا ، وعليك حين تقرأ الرسالة التى كتبتها ييدى ، أن تأتى إلى الدركاه عن طريق نسا ، ولا تتريث فى خوارزم » .

وأعطى الملطفة لأبى نصر وقال : « اكتب شيئا بخطك وخاطبه بلقبه « شيخنى ومعتمدى » واذكر له أنه إذا ظن أنه قد يقع خلل فى خوارزم فى غيبته فلي نصب نائبا من قبله وليصحب معه ابنه عبد الجبار ليعود إلى خوارزم بعد أن ينعم بالخلة والعطف وبعد الأصول والقواعد المنبغة . ثم اكتب من عندك خطابا وصرح فيه بأنك دعيت لتفوض إليك الوزارة وأن السلطان أسرّ لى بذلك . وذلك حتى يكون مطمئن القلب » . وكتب أبو نصر رسالة السلطان

(١) فى غنى - فياض « أحمد حسن » وهو خطأ مطبعى واضح كما يدل سياق الكتاب . وانظر نقيضه ص ٤٤٣ .

كما ينبغي فقد كان أستاذ زمانه في ذلك الفن وكتب من ناحيته ملطفة على هذا النحو : أطل الله بقاء حياة الخواجة الأستاذ ولينعم طوال السنين بالعز والنعم ، فليعلم سيدي أن ضمير الزمان يحتوى التقادير ، وأن الله تعالى عالم بهذه الأسرار لأنه المقدر لها ، ثم إن ولي النعم السلطان الأعظم الذي اختار الصديق أبا نصر مشكان ليكون موضعاً لهذا السر ، وقد كتبت بنفسى رسالة السلطان بأمره العالى زاده الله علوا وقد أكدها بتوقيعه ، وبطيها ملطفة بخطه الشريف ، ورسالتى هذه كتبها بأمر منه فلماذا الإطالة . فليسرع السيد بالمجىء فإن صدر الوزارة مشتاق لمن يليق بأن يحل فيه ، وهو الخواجة الأستاذ فليسارع إلى هنا ، ولتقرّ به عيون الخدم « والله تعالى يمدّه ببقائه عزيزاً مديداً ويبلغه غاية همته ويبلغنى فيه ما تمنيت له بمنة » . ووقع هذه الكتب . واختير فارس من أمهر الفرسان فسلبت إليه ليذهب إلى خوارزم ٣٦٩ ويعود إلى نيسابور في عشرة أيام . وذهب فوراً .

وفي السابع من صفر جاءت رسالة من بست بالبريد بأن الفقيه أبا بكر الحصيرى الذى كان مريضاً هناك قد مات . ومن العجائب أن الصلة بين الأستاذ أحمد حسن وبين هذا الفقيه كانت سيئة دائماً ، وقد ماتا في وقتين متقاربين . وفي هذه الأثناء جاء الخبر بأن رسول القائم بأمر الله أبا بكر السليمانى بلغ الرى ، ومعه خادم من أقارب خدام الخليفة معه الهدايا ، وأما المهمات الأخرى فقد عهد بها إلى الرسول . فأمر السلطان بحسن استقبالهما وقد أقاما أسبوعاً واحتمى بهما احتفاءً بالغاً . ثم سارا إلى نيسابور مع توديع حافل ، وأمر السلطان أن يسارع من وكل إليهم أمر العناية بهما ، وأعدت العلوقة في رساتيق يهق ، وفي ثامن ربيع الآخر خرج فقهاء نيسابور وقضاةها والأعيان لاستقبالهما . وفي يوم الأربعاء ذهب أرباب المراتب والقائمون بالضيافة وكانوا قد زينوا الطريق من بوابة طريق الرى حتى مسجد الجمعة ، كما أنهم نثروا في الأسواق الكثير

من الدراهم والدنانير والسكر والطرائف ، وقد أنزلوهما في بستان أبي القاسم الخزاني ، وامتد الوقت حتى صلاة الظهر وحملوا إليهما كثيرا من المآكل الطيبة وقدموا لهما عشرة آلاف درهم لنفقة الحمام ، وكانوا كل يوم يتلطفون عليهما بشيء جديد . فلما مضى أسبوع على ذلك واستراحا أعدوا كوكبة من باب بستان شادياخ إلى باب سراي الرسول ، وقد ركب جميع الجند والأعيان والمقدمين ورفعوا الألوية ، وكان الرجال كثيرين وكانوا وقوفا بأسلحتهم أمام النمرسان وقد اصطف أصحاب المراتب صفين . وجلس السلطان رضى الله عنه في الصفة على السرير ، وكان القادة والحجاب يلبسون القلانس ذات الركنين ، وكان يوما مشهودا ، وكان الحاجب وعدة حكام والموكلون بالستار وحملة الدروع والجنائب وعشرون بغلا يحملون الخلع ، وذهب الموكل بالضيافة إلى دار الرسول في الصباح الباكر وحمل معه تلك الهدايا ، وقد أركبوا الرسول والخادم وحملوا خراج الخليفة في الصناديق على البغال : يتقدمهم الشاكرية يحملون الخزائن على رؤوسهم وثمانية ٣٧٠ خيول بالمقاود عليها سروج وعدد من الذهب وحمل أمام الرسول اللواء معقودا بيد فارس ، كما طوى المنشور والكتاب في الديباج الأسود وعهد به إلى فارس آخر ، ومن أمامهم الحجاب وأهل المراتب . وارتفعت أصوات الأبواق والطبول وعلا صوت النفير ، كأن القيامة قد قامت في هذه الصحراء التي تعج بالجند والفيلة الكثيرة . وأنزلوا الرسول وخادمه وقدموهما للسلطان ، وقد قبل الرسول يد السلطان وقبل الخادم الأرض ثم وقفوا . فقال السلطان كيف حال مولانا ولي النعمة أمير المؤمنين . فقال الرسول إنه لله الحمد متمتع بالصحة والسعادة ، والأمور كلها وفق المراد ، وهو راض عن السلطان الأعظم أطل الله بقاءه ، ذلك أنه أعظم أركان الخلافة وأخذ الحاجب أبو نصر بذراع الرسول ، وجاء به من وسط الصفة

إلى قرب السرير وأجلسه . وكان جالسا في هذه الصفة السهسلاار على دايه والعارض ، ولم يكن الوزير هنالك كما بينت . قال الرسول :

« أطال الله حياة السلطان ، حين بلغت حاضرة الخلافة وأكدت إطاعة وانقياد ومتابعة السلطان لمقام الخليفة ، وقدمت كل ما كان ينبغي من أداء مراسم التعزية لوفاة القادر بالله ، ثم تلوتها بالتهاني العظمى لتسم أمير المؤمنين القائم بأمر الله سرير الخلافة ، وكيف أن السلطان أقام العزاء وأدى واجب التهئة ، وعلى أي نحو جعل رسم الخطبة ، ثم كيف كانت شرائط السعة ، وقد أعادني الخليفة بالحفاوة والتكريم . وقد جلس أمير المؤمنين بما هو جدير به من الوقار على سرير الخلافة ، وأذن للناس إذنا عاما في ذلك الأسبوع ، وكان كل من يصل إلى سريره ويراه يسمع منه الشناء على السلطان ، إلى حد أن قال إن ناصر دين الله وحافظ بلاد الله والمنتقم من أعداء الله أبا سعيد مسعود هو اليوم أعظم أركاننا وأقواها . وكذلك فإنه في هذا المجلس نفسه أمر بأن يكتب منشور باسم السلطان يقول فيه إن كل الأملاك الموروثة والمكتسبة وما يستجد فتحه كلها له . وقرئ هذا المنشور على الملأ ، وجيء بالدواة فزين الكتاب بخطه الكريم وتوقيعه المبارك وبارك لكم بلسانه الشريف ، ثم أمر بختم المنشور ثم أعطى الخادم الداعي لكم مع كتاب ، وطلب اللواء فجيء به إليه فعقده بيده ، وأحضروا له الطوق والمنطقة والقلادة والتاج ، فسلها واحدة واحدة ودعا للسلطان ليبارك له الله ، وجيء له بالآلبسة المخيطة من كل صنف ، وتكلم كلاما يستحق ٣٧١ الشناء والفخر ، وكذلك تكلم عن الجياد الخاصة التي كانت واقفة هنالك ، ثم جيء إليه بالعمامة والسيف فخرى على لسانه الشريف قوله إن هذه العمامة التي لففناها بيدنا يجب أن تسلم لناصر الدين ، بهذه اللفة نفسها ، وأن يضعها على رأسه بعد التاج . ثم سل السيف وقال يجب أن يقضى بهذا على الزنادقة والقرامطة ، وأن يحافظ به على سنة والده يمين الدولة والدين ، وأن يستولى

بهذا السيف على ما في يد أعدائه من البلاد، وقد سلم إلى كل هذا في ذلك المجلس واليوم أقدمها للسلطان ليقضى فيها بما يرى .

فأشار السلطان إلى أبي نصر مشكان ليأخذ المنشور والكتاب . فخرج أبو نصر من الصف وقال للرسول بالعربية لينهض ويقدم ذلك المنشور المودع في الديباج الأسود للسلطان فوضعه على السرير ، وأخذه أبو نصر ثم انتحى ناحية وكان الرسول واقفا فقال للسلطان : لو تفضلتم فنزلم من على السرير لارتداه خلعة الخليفة . فقال افرشوا سجادة الصلاة ، وكانت بيد أحد الحراس ، ففرشها . واتجه السلطان ناحية القبلة ، ونفخ في الأبواق الذهبية التي كانت في وسط البستان واتصلت أصواتها بغيرها فعلا دويها جميعاً ، ودقت الطبول في الدركاه ، وأخذوا يهزون الأبواق ومرايا الفيلة كأن القيامة قد قامت (من شدة الأصوات والضجيج) ، وجرى بلكاتكين وسائر الحجاب فأمسكوا بذراع السلطان حتى نزل من على السرير وجلس في المصلى ، وطلب الرسول صناديق الخلع فجيء بها ، سبع فراجيات ^(١) ، واحدة منها من الديباج الأسود والباقي من كل صنف ، وألبسة بغدادية ثمينة . فقبلها السلطان وصلى ركعتين ثم اعتلى السرير ، وقدم إليه التاج المرصع بالجواهر والطوق والقلادة المرصعة فقبلها ووضعها على عينيه فوق السرير . وحمل الخادم العمامة الملفوفة فقبلها السلطان وخلع قلنسوته ولبس العمامة ، وحمل اللواء بيده اليمنى وشد السيف إلى الخائل وقبلها ، ثم وضعها بجانبه . وقرأ أبو نصر مشكان ٣٧٢ الكتاب وترجمه إلى الفارسية ثم قرأ المنشور ، وأخذوا ينثرون الذهب والفضة ، حتى صارت أرض الصفة وكأنها من الذهب ، وصارت الحديقة كالفضة من

(١) استخدمنا كلمة « فراجية » للتعبير عن الفارسية فرجى . وهي جبة فضفاضة بحلاة

بالفراء . وجاء في قاموس الألبسة أنها جبة العظماء وملأه النساء . مولانا نظام قارى ص ٢٠٢ .

كثرة ما نثروا من أكياس الفضة ، وأعيد الرسول وقدمت طرائف لاحصر لها . وبعد صلاة العصر بلغ الرسول داره بهذه الأبهة ، وامتد الشراب والطرب أياما متصلة وكانوا مشتغلين بالنهار بالأفراح والأعياد ، بما لم يخطر على بال أحد . وفي هذه الأثناء جاء النبا بأن ابن يغمر التركمان وغيره من أبناء المقدّمين التركمان الذين كان تاش فراش قد أمر سپهسالار العراق بقتلهم قد جاءوا أثناء مسيره إلى الري من بلخان كوه مع كثير من التركمان وغيرهم قاصدين أطراف المملكة ، ليثأروا لقتل أبيهم من المسلمين . فأمر السلطان رضى الله عنه السهسالار على دايه بأن يذهب إلى طوس وأن يذهب كبير الحجاب إلى سرخس وأن يبعثا الطليعة ليتعرفوا أحوال التركمانية ، وسار كبير الحجاب بلكاتكين من نيسابور مع غلمانه وفرسانه ، وسار السهسالار على دايه في اليوم التالى الأربعاء . وسيّرت الكتب إلى باكليجار مع المجمعين ليكون على يقظة وأهبة وليرسل جيشاً قوياً إلى دهستان ليقم في رباط ويحمى الطرق . وكذلك سيّرت الكتب إلى نسا وباوردكى يطيع الشحنة وأهل هذه النواحي وأمر السهسالار على والحاجب بلكاتكين . وأما الفارس المسرع الذى أوفد إلى خوارزم إلى الأستاذ أحمد عبد الصمد فقد جاء بالجواب وقال إنه أبقانى يومين ووهبنى حصاناً كريماً وعشرين كسوة وعشرين ألف درهم وقال إنى سأسافر بعدك بثلاثة أيام . وكانت إجابته على هذا الوجه يقول : « إن الأمر العالى قد بلغه وهو بخط الأستاذ أبى نصر مشكان وقد زينه توقيع السلطان ، وقد درج فيه ملطفة بخط السلطان الشريف وقد وضعتها على الرأس والعين ، وقد كتب أبو نصر ملطفة كذلك بأمر من السلطان وهمس إلى بكاهات كانت سبباً فى عظيم افتخارى ، فقد سمعت شيئاً لست له أهلاً ولا مر بخاطرى أبداً ولا أرانى به جديراً ، ولقد أعدت الفارس وسأفوض أعمالى هنا إلى أبى نصر البرغشى فإنه كفء وحميد السيرة ، وهرون كبير العقل وشديد الاتزان ، وإن شاء الله يظل

هكذا في غيبتي . وسأجىء بعبد الجبار معى عملا بأمر السلطان ٣٧٣ ليعود مزوداً بالنصائح الغالية ويسعد بالخدمة في الدركاه وسأسير من هنا بعد الفارس بثلاثة أيام حتى أبلغ الدركاه العالى بسرعة . وقد أجاب على أستاذى وكان يخاطبه بالمخاطبة المعتادة إلى الشيخ الجليل السيد أبى نصر بن مشكان من أحمد عبد الصمد صغيره ووضيعه . وساق الحديث معه فى تواضع جمة بما أثار تعجب أبى نصر فقال : « إن هذا الرجل العظيم الكامل قد عرفته ولكنى ما كنت أعلم أنه عظيم إلى هذا الحد » . وقد حمل الكتب إلى السلطان . ولما جاء الخبر بأن الخواجة عبد الصمد قد اقترب من نيسابور أمر السلطان بأن يخرج الجميع لاستقباله ، فتهيأوا جميعاً للخروج ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون حتى كان الخواجة قد جاء إلى الدركاه وفى صحبته ولده ، وكان ذلك يوم الأربعاء العاشر من جمادى الأولى ، فكان يسلم عليه كل وافد منهم وأذن السلطان بالاستقبال . وكانوا عرفوه بمجىء الخواجة فأمر بأن يمثل فى الحضرة . فجاء وقبل الأرض مرتين أو ثلاث ثم وقف فى ركن الصفة ، فأشار السلطان إلى بالسكاتكين ، فأشار هذا إلى كبير الحجاب وأمره كي يذهب بالأستاذ إلى الصفة وأجلسه بعيداً عن السرير ، ونثروا عليه ألف دينار ، أما هو فقد أخرج من كفه عقداً ، يقال إن قيمته ألف دينار ، فأخذه منه الحاجب بالسكاتكين فأعطاه إلى أبى نصر ليضعه أمام السلطان . فقال هذا لأحمد كيف تركت خوارزم وهرون والجند ؟ قال إنهم جميعاً بيمن السلطان كما يرام وليس هناك أى خلل . فقال السلطان لقد أتعبك السفر فيجب أن تستريح . فخيا السلطان وخرج وطلبوا له حصاناً مكنى باسمه فجهر على عجل ، وركبه وعاد إلى سراى أبى الفضل ميكائيل الذى أعد له ، أما ابنه فقد أنزل فى قصر مجاور . وأمر الوكيل بإرسال المال والنفقات على وجه التمام . وكان أحمد يفد على الدركاه كل يوم فيؤدى الخدمة ثم ينصرف . فلما مضت ثلاثة أيام أمر السلطان بإجلاسَه فى الإيوان (طارم) قرب الصفة وأخلى السلطان مجاسه كذلك وظلت المشافهة بينهما بواسطة أبى نصر مشكان وأبى الحسن العقيلي

وعبدوس حتى صلاة الظهر وجرى حديث طويل بشأن الوزارة . فكان أحمد يتمنع عن قبولها ويقول إني رجل غريب بين هؤلاء الناس ولا أعرف رسوم ٣٧٤ الوزارة ويرى أن الأجدر به أن يكون تلميذاً أو مساعداً . ويطول الحديث لو شرحت هذه القصة . وأخيراً استقر الرأي . وقبل الوزارة ، وقدموه إلى السلطان فلقى منه العطف والتقدير . ثم رجع كي يكتب عهد الوزارة ويضمنه شروطها . وطلب إليه حصانه بكنيته وتقرب منه الناس وحيوه بعد أن تقرر إسناد الوزارة إليه . وكتب عهد الوزارة وبعثه إلى أستاذه ، وقد أجابه السلطان بخطه مستجيباً إلى كل ما طالب واشترط ، وخلع عليه خاتمة فاخرة . وقد ألبسوه الخاتمة يوم الإثنين السادس من جمادى الأولى وكان منها منطقة تساوى ألف دينار ، وأخذ الحاجب بلكاتسكين بذراعه فأجلسه قرب السرير ، وقال له السلطان خلعة مباركة لنا وللوزير وللجنود والرعية . فوقف الوزير وحيثاً ، ووضع أمام السلطان عقداً من الجواهر قيمته خمسة آلاف دينار ، فأعطاه السلطان خاتماً من الفيروز عليه اسمه وقال هذا خاتم المملوك أعطيناه إلى الوزير وإني خليفتنا ، وعليه أن يمارس عمله في قوة ومضاء فإن الأمر له بعد أمرنا في كل ما يعود على الدولة بالخير والإقبال . فقال الوزير إني عبد مطيع وسأبذل غاية الجهد في الخدمة تقديراً لحق نعمة مولاي علي ثم قبل الأرض ورجع . وأعطى أحد خدمه خلعة برسم الحجاب وسار معه . ولما نزل بالسراى وفد عليه الموالي والحشم وأعيان الدولة مهئين وأهدوه كثيراً من الهدايا . وقد أعدت قائمة بالذهب والفضة وبكل ما جاءوا به إليه ، وأرسلت كلها للسلطان ، وكانت كثيرة حقاً . وأرسل على حدة كذلك كل ما أتى به من خوارزم مع ماهروي ابن تاش ، ولم ير مثل هذا الولد وأبيه أحد في الجمال ، وقد قتل تاش في حرب على تكين مع خوارزمشاه . وأعجب السلطان بهذه الهدايا كلها ، وجعل ابن تاش هذا من خاصته فلم يكن لديه أربعة أو ثلاثة مثله من بين الغلمان الذي كانوا أربعة

آلاف أو ثلاثة ، فظهر له حساد وعشاق من بين غلمان السراى . حتى إذا كانت ذات ليلة قصده أحد من كانوا معه فى الوثاق وكان يعشقه فدخل عليه فطعنه باهروى بدميه فقتله نعوذ بالله من قضاء السوء . فأمر السلطان بوجوب القصاص فقال قهرمان القصر أطل الله حياة السلطان ٣٧٥ ، من الحيف أن يوسد هذا الوجه الجميل الثرى . فقال السلطان لا بد من ضربه ألف عصا وخصيه ، فإذا مات فإن القصاص قد وقع وإذا عاش فترى ماذا ينبغى ، فعاش ودب فيه الشباب فى الخدمة وصار أجمل وأنضر مما كان ألف مرة . وأصبح حامل دواة السلطان ، وكانت عاقبة أمره أن اتهم فى إمارة عبد الرشيد بأنه أخذ البيعة للأمير مردانكاه رضى الله عنه الذى كان مسجوناً فى القاعة ، فقتل وآخرون مع هذا الأمير المسكين ، وقد ألقى به بين أنياب الفيل مع جماعة من الحجاب والأعيان والقادة وقد خرجوا بجثثهم من الميدان ثم ألقوها رحمة الله عليهم أجمعين . وجلس الوزير أحمد فى الديوان ، وقام بعمل الوزارة على خير وجه ، ووضع القواعد والظم ، فقد كان عظيم الكفاءة والجدارة والوقار ، وكان أديباً فاضلاً عارفاً بآداب المعاملة ، ولقد كان مع كثرة محامده آية فى الرجولة . وقد تمت على يديه أعمال كثيرة شهدت على ما كان لهذا الرجل من الفضل ، كأن هذين البيتين قد قيلاً فيه :

أتته الوزارة منقادة إليه تجر^(١) بأذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

وكان يجمع إلى فضله وسياسته الجرأة والشجاعة والإقدام ، فقد قاد الجند وشهد حروباً مشهورة فى عهد هذا السلطان المبارك . ولم يأخذ عليه طول أيام وزارته سوى أمر أو أمرين . والعصمة لله وحده ، أخذوا عليه أنه فى ابتداء

(١) إليه تجرد أذيالها .

وزارته خاطب عائناً السيدين على وعبد الرازق ولدى الوزير أحمد حسن بكلام جاف ، وذكر والدهم العظيم بشيء من الاستخفاف ، فانتقده الناس شريفهم ووضعهم لهذا السلوك . والأمر الثانى الذى عابوه عليه أنه فى آخر وزارة السلطان مودود تكلم بشأن ارتكبن الذى كان صاحب الفضل عليه مما أغضب هذا التركى فأساء به الظن . وصار الوزير ضحية ٣٧٦ هذه الكلمات . وسأذكر هذه القصة فى موضعها وهى من النوادر « وأين الرجال المذهبون » .

ويوم الجمعة العاشر من جمادى الأولى أمر السلطان بمنح الخلعة لابن الوزير ، عبد الجبار ، ثم أمر فوراً بمطالبة أبى كالىجار والى جرجان بمال الضمان ، ويجب أن تحضر ابنته التى كان السلطان قد عقد عليها قبل أن يرتحل عن نيسابور . وقد تقرر إيفاد عبد الجبار ابن الوزير رسولاً يصحبه أحد العلماء والخدم حسب الرسم . وقال السلطان للوزير إن هذه أول خدمة يكلف بها ولدك . وكتب أستاذى أبو نصر الكتب وقيد المشافهات ، وعين ، مع عبد الجبار ، أبو الحسن القطان العالم وهو من فحول تلاميذ القاضى الإمام صاعد ، كما عين معه كافور المعمرى الخادم من الثقات المحموديين . وأعد المهد والخدم والهدايا كما هو الرسم والعادة . وفى الثانى عشر من جمادى الأولى غادر عبد الجبار نيسابور قاصداً جرجان مع من معه .

فصل فى معنى الدنيا

اقرأ الآن فصلاً من فصول الدنيا الخداعة التى تعطى المرء الحلوى بيد والسم الزعاف باليد الأخرى ، تمتحن أناساً بالمحن وتلبس آخرين ثياب النعمة ، وذلك حتى يعرف أولو الألباب أن من المحال التعلق بنعيم الدنيا . والمتنبى يقول :
ومن صعب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذبا

وقد انتهيت من كتابة هذا الجزء من التاريخ إلى هنا ، وقد أسلم الأمير فرخ

زاد روحه العذبة الغالية إلى بارئها وقد غسلوه وحملوه في النابوت ، وبعد البساتين
الفيحاء والقصور الشاحخة التي ورثها عن آباءه وأجداده قنع بأربعة أذرع أو خمسة
من الأرض وهالوا عليه التراب .

يقول دقيقى في هذا المعنى : ٣٧٧

يا أسفا الأمير أبي نصر يا أسفا لم يسعد كثيرا بالشباب ولكن نوابغ
الرجال كالورد عمرهم قصير .

شعر (١)

أين كسرى كسرى الملوك أنو شروان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ روم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دجلة تجي إليه والخابور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ملك عنه فبابه مهجور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فالت به الصبا والديور

ولأبي طيب المعصبي :

يا دنيا إنما أنت حزن ولعب لأنك لا تدومى لأحد ولا تصاحبى أحدا .
أنت كالقمر في النظر إليك وأنت كالشمس في السمع ، ولكن في وقت القنص
أنت كالصقر ، أنت كالسم في المذاق ، وأنت كالعود في السماع ، وأنت كالريح
في الهبوب ، وأنت كالناس في الشق ، أنت كعود القمارى ، وكسك تبت أنت ،
كالعنبر المعجون ، اليماني والحجازي ، أنت في الظاهر كدار مملوءة بالقش الأذرى
وأنت في الباطن كالخنزير القدر ، الخنزير البرى ، تعطين واحدا النعيم وتمنحين

(١) من قصيدة لهدى بن زيد . أنظر تعليقات تميمي ص ٤٥٥ حاشية ٤ .

واحدًا الجحيم ، واحدًا في هبوط الانحدار ، وواحدًا ترفعين ، أنت كروض
مائيء بشقى النعم موصل لهذا ، مفتوح لذاك ، كلك محنة ، وكلك زخرف كلك مملوءة
بالمظاهر كدئب طراز ، موت الملك في الشطرنج بيدك يا دنيا ، لقد ولدك الدهر
للعبة الشطرنج . لم يضيق في الرزق على أولى الفطنة ؟ ولم ينعم الحق بفراغ البال ،
لم يقصر عمر الطاووس والدراج لم يطول عمر الثعبان والكر كس ؟ . يعمر مائة
ونيف سنة من لا قيمة له ولم يعمر أكثر من ثلاث وستين سنة نبيينا العربي ٣٧٨ ،
إذا لم تسر كل أعمالك عوجا فلم تدللين أسافل الناس ، يادنيا إنما أنت في غنى عن
هذا ، نحن العصاة ولكنك حريصة على دفعنا إلى العصيان .

إن مقدر الأعمار وخالق الليل والنهار العزيز الجبار مالك الملوك جل
جلاله وتقدسست أسماؤه قد قدر عمر هذا الأمير وحدد مدة ملكه . وقد حزن
الخاص والعام لوفاته في شبابه ولما شاع عنه من محامد الآثار وحسن
السيرة والعدل :

وإنما الناس حديث حسن فكأن حديثاً حسناً لمن وعى

فلم مات رفع الله بالسعادة والإقبال إلى الملك ابن الأ كاسرة وأفضل
الملوك السلطان المعظم ولي النعم أبا المظفر إبراهيم بن ناصر دين الله ، فزين
بجلوسه عرش أجداده ولقى الناس في عهده ما كان قد درس من سياسة محمود
ومسعود فليبقه الله دائماً موفقاً متمتعاً بالملك والشباب . ففي يوم الإثنين التاسع
عشر من صفر سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) ، وكنت قد وصلت
بالكتابة إلى هذا التاريخ ، زين السلطان المعظم أبو المظفر إبراهيم بن ناصر دين
الله ملكة هذا الإقليم الكبير وتكلم الزمان بأفصح لسان فقال :

« مات ملك طابت سيرته ، وولي العرش ملك من نسل الحور . وقد حزنت

الدنيا كلها لفقد من مات ، وسعدت الدنيا كلها لارتقاء العرش من ارتقاه .
فإذا كان المصباح قد ذهب ، فإن الشمع قد حل مكانه . « إن كل من افتقد السلطان
فرخ زاد قد ظفر بعهد السلطان إبراهيم » .

إن عظمة هذا السلطان أنه أضاء الدنيا بعد ظلمتها بشمس وضاء لها تسع عشرة
درجة ، ثم إنه حين ولي العرش ، قرّب إليه ، وفقاً لرسوم الملك ، الأولياء
والحشم وكافة الناس على حسب مقتضيات السياسة وحدود الملك وكان يبين
للناس وهو يتحدث إليهم معنى الملك . وكان أول ما عمل أن جلس للعزاء ٣٧٩
في أخيه ، وهو يعرف حقاً أن الراعى قد قام على هذا القطيع وأنه لم يخف
الذئاب والوحوش . ثم إنه بذل للجند ، الذين كانت قلوبهم شتى ، الهبات
السلطانية فقويت روحهم واتحدت قلوبهم . واستمع إلى شكاي المتظلمين وأهل
الحن وأقام العدل فيهم كأنه أنوشروان . وإذا قال أحد إن أس الإمارة العظمة
والرفعة ، ولو أتيت لسلطان موفق قادر فإنه يستطيع أن يتعهدا بحيث يتمكن
من الدين والدنيا جميعاً ، وإذا وقعت في يد سلطان عاجز فإنه ينوء بحملها
وينقلب الناس عليه ، فمعاذ الله أن يكون خريدة نعمة سلاطين هذه الأسرة
رجلا يطلق لسان السوء فيهم . ولكن الشيوخ المحنكين ، الذين ذاقوا من الدنيا
حلوها ومرها ، يقولون بدافع من الشفقة والعطف الشديد إن فلانا قد أصاب
وإن فلانا أخطأ ، وهذه سيرة الناس منذ آدم إلى يومنا هذا ، وجاء في الخبر :
أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له بئس الشيء الإمارة . فقال
عليه السلام : « نعم الشيء الإمارة إن أخذها بحقها وحلها وأين حقها وحلها » .
وقد أخذها السلطان المعظم بالحق والحل وسار فيها سيرة عظماء السلاطين .
وحديث آخر روى أنه حين مات كسرى پرويز بلغ النبأ النبي عليه السلام فقال :
من استخلفوا . قالوا ابنته بوران دخت قال عليه السلام : « لن يصلح قوم

أسندوا أمرهم إلى امرأة» وهذا أكبر دليل على وجوب إسناد الحكم إلى رجل شهم كفاء جدير بمنصبه ، ولو لم يكن كذلك لاستوى الرجل مع المرأة . وقد قال كعب الأحبار : مثل السلطان والرعية كمثل خيمة محكمة أقيمت بعمود واحد وشدت طنابها وأحكمت بأوتاد قوية ، وخيمة الإسلام هي الملك وعمودها الملك والطناب والأوتاد الرعية . فإذا أمعنت النظر تجد العمود هو الأصل والخيمة قائمة به ، فإذا تراخى وسقط فلا خيمة ولا طناب ولا أوتاد . وقد قال أنو شروان : « لا تقيموا في بلدة ليس فيها ملك قاهر وحاكم عادل ومطر ٣٨٠ دائم وطيب عالم وماء جار ، وإذا توفرت كل هذه الأشياء وافنقت المدينة الملك القاهر فإن هذه كلها لا تعتبر شيئاً ، فهذه الأمور تدور بالأمير كدوران الكرة على القطب والقطب هو الملك » . وقد ظهر ملك عادل رؤوف أدامه الله وأبقاه . وليس من العجيب أن تؤول السلطنة إلى سلطان عظيم من نسل محمود ومسعود ، فإن يعقوب بن الليث كان ابن صفار ، وإن أبا شجاع عضد الدولة والدين ابن الحسن بن بويه ، الذي كان ثاراً والتجأ إلى السامانيين ، قد ظفر من بين كل الديالمة بالملك ، بثقته بنفسه وهمته وبتقدير الله سجلت عظمته ، ثم خلفه ابنه عضد الدولة وكان أعلى همّة وأقوى نفساً من أبيه وآله ، وقام بتلك الأعمال التي ذكرها أبو إسحق الصابي في كتاب « تاجي » . وقد درس أهل السير أخبار أبي مسلم صاحب دعوة العباسيين وطاهر ذى اليمينين ونصر ابن أحمد الساماني . وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين في شأن طالوت « وزاده بسطة في العلم والجسم »^(١) ، وحيثما تتجه عناية الله جل جلاله يبرز كل الفضائل والسجايا ويخرج من الرماد جذوة نار تضيء ماحولها .

وحين قرأت هذا الكتاب ، التاجي ، طلبت من الفقيه أبي حنيفة الإسكافي

أن ينظم قصيدة في وفاة السلطان محمود وجلس السلطان محمد على التخت ، واستيلاء مسعود على الملك ، فأبدع أيما إبداع ، وقد خطر لي أنه قال هذه القصيدة العشاء بغير مطمع في صلة أو مشاهرة فكيف به لو أن ملكاً أقبل عليه . إن النأل حق ، وكل ما جال بخاطري جرى به يراعى . وحين ارتقى العرش مولاي السلطان المعظم إبراهيم كان قد رأى كتباً كثيرة بخط الفقيه أبي حنيفة فأعجب بخطه ولفظه وتحقق بذلك الفأل . فإنه حين ارتقى العرش سأل عن أبي حنيفة وطلب منه شعراً فنظم قصيدة وحظى بالصلة ، ثم طلب منه قصائد أخرى ، كما منح الصلوات للشعراء الذين لم يظفروا بشيء منذ ٣٨١ سبع سنين والذين لم يلتفت إليهم أحد أو ينظر إلى أحوالهم . وصار أبو حنيفة صاحب حظوة ، وقال قصائد غراء أخرى منها هذه القصيدة :

« مائة ألف حمد من رب العالمين هي سحاب الرحمة على إبراهيم ، شمس ملوك الأقاليم السبعة الذي ينتعش به الجلال القديم ، لقد أقبل مطر السخاء المقيم بعد بهجة روض الشناء ، وعند لب الفضل أخذ يشجو وهب نسيم الفخر من البستان ، ولو أن الدرة اليتيمة بقيت في الصدفة زمناً إثر دوران الفلك ، فالحمد لله والمنته إذ انجلت آخر الأمر تأسم الغمرات ، برز « جم »^(١) من سماء الفضيلة فتعثر الشيطان الرجيم وأصابه العرج ، وكشر الأسد عن أنيابه وفتح برائنه وهزات بقرة الفتنة ، ماذا يعمل سحر فرعون وقد صارت عصا الكايم ثعباناً ، وهل يصف عرش بلقيس من عرف مجد سليمان ، لا يعتمد الملك على التنجيم وقد عرف أن الأمر كله بيد ربه ، وإن حابه وقت الغضب يبعد الندم عن قلبه ، رأيته الحسن وزيره ، وخلقه الطيب نديمه ، فلا حاجة به إلى نديم ، أيها الملك ، يا كسرى ، مولاي : أحدثك بكلمة كالدر المنظوم ، إن الفتوحات ترى على

(١) إشارة إلى جمهد الملك الإيراني القديم .

لملك حين يقسم ظهر اللهو واللعب ، فاصبر على هوى قلبك ، إذا أردت سير
 لأمر حسب ما تريد ، إن المجال فسيح لكل ملك يبغى السلطة الكاملة ، وعليه
 أن يحفظ نفسه من الفتنة أسبوعين محافظته على الغنيمة من عدو ، لا يخرج
 لئلا من الماء نظيفاً ما لم يغمر تماماً في قاع البئر ، ومارس شطرنج السلطنة
 مع رجلين أو ثلاثة ، بعينين مختلفتين ، دون حاجة إلى تعليم ٣٨٢ ، لنرى ما يلعب
 الخصم وما يخبئه الزمن تحت بساطه ، خذ السيف وارك الكأس إذا سمعت أن
 الملك عقيم ، ولن تعجز عن فتح الأقاليم السبعة إذا أعملت السيف والقلم جميعاً ،
 لا « فلان » يجرؤ على الشطط ولا « بهمان » ولا تؤمل في أحد ولا تخشى
 حداً ، واعلم أن كل ما يصيبنا من خير أو شر فرده إلى الله الكريم ، ليكن
 رجل كالحية الرقطاء لا براقاً كالسمكة الجذابة ذات النقش ، ولكن الخير ألا
 كون حية وألا يكون سمكة ، كلاهما غير مبارك ، ورجل السوء أشد الناس
 تسة ولو أنه موقر عند الناس ، لو نظرت يامعان لوجدت عادة هؤلاء القوم
 كالرجل الظليم ، ومن مالت إلى الجحيم نفسه ، فلا صديق له من الناس ، ولا
 دد له من الله ، قصر القصص خير من الإضافة فيه ، المعدن لا يخرج منه الدر
 البحر لا يخرج منه الفضة . دع عنك حدة العفاريت وغضبهم فإن الشيطان
 صبح بها رجياً ، ما دامت قدود الحسنات ممشوقة كالألف وخصلات
 عرهن معقوسة كالجليم ، فليكن رأسك عالياً ووجهك مشرقاً وجزاء الحسود
 ذاب أليم ، ولتكن ساحتك مليئة بالعظماء كالركن الحطيم في موسم الحج ، وكن
 بكج جديك وبكج أهلك رحماً بالخاصة والعامة على حد سواء .

أيضاً له :

« مرحباً بذلك العارض الطاهر الفضى وبزلفيك الفاحمين الماتويين كحرف

الجيم ، لا أرى من أنخص قدمك حتى رأسك شيئاً ، ولو بقيت أمدحك أسبوعاً كاملاً ، إنك ترى تلك القائمة السروية البهيجة في الرؤيا ، وترى يد الطبيعة تعد باقة الورد على طبق الفضة ، ٣٨٣ مثل الحبيب الذي لا ينال قربك كصاحب الهمة الذي يرى من الفقر سوء العذاب ، وإنك كالقمر وكالسمكة ، وجهك وقوامك ، هل رأى أحد قمرًا ألطف من السمكة الناعمة ؟ يعيبون عليك اليتيم وبعد الدار ، أليس الورد بعيد المنال والدر الثمين أليس يتيماً ؟ لا عجب في أن زلفيك لا يستقران ، لقد أهاجهما در العارض الفضي ، لا تحرمني نعمة العقل ، أما يكفي قيد قدم الحكيم من أجلك وهو اليوم قتيل زلفيك ، كيف تخاف عيناك ، أو يبدو فيهما القلق ، لو لم يكونا كالزنجى الخائف من زلفيك هذين ، ما هذا الزلف كي يرعب عينيك ؟ ومن أنت حتى تعلم أحداً الخوف ؟ ولو سمعت اسم ملك الأقاليم السبعة فإنك لن تتجراً مرة أخرى ، هو كسرى إيران ، أمير العرب شاه العجم ، هو في كلمة واحدة ، إبراهيم سلطان العالم ، هو دائماً بكده وأبيه ، ذاكر شاكر ، هو أقوى منك منزلة عند الله العليم ، هو ملك عند الناس ، زاهد عند نفسه ، ملك هذا شأنه لا يسقم ملكه ، لا يقدم في دنياه على عمل قبل أن يعد له خير الرجال ؛ هو طالب وصابر وأمين على سر قلبه ، هو غالب وقادر ورحيم بعدوه المنهزم ، همته كالفلك وعطاؤه كالشهاب ، ولو كانت مطاعم الشيب والشبان كطمع الشيطان الرجيم ، قاسى صابراً ظلم الدنيا ثلاثة عشر عاماً ، دون أن يخطيء في قليل أو كثير ، ولو لبث رجل ثلاث عشرة سنة حبيس جنة الخلد ، فما أشبه هذا الخلد بالجحيم ، بقى الشاهنشاه في السجن ثلاث عشرة سنة لا نديم له ، من الدنيا ، غير الصبر ، اللهم احفظه من شر الناس ، كيف يقال في المثل « الملك عقيم » ، يا كسرى الزمان ، أيها الشاه الأمير ، يا مليكى العدل ، لماذا لا نصرح بفضلك ونشيد بذكرك ونكتفى بدق الطبل من تحت البساط ؟ ٣٨٤ استمع إلى النصيحة ؛ من كل ناصح ،

ولا تتركها ، خاصة إذا صدرت عن مثلي مخلصا عن قلب سليم ، أيها الملك العاقل
خذ الحكمة من أفواه المجانين ، فقد استقام خط الرجل بتحريف القلم ، أقم
سنة محمود بسيفك البتار ، لأن الكتب لا تحمل عدوك على أن يشوب لرشده ،
وإذا أردت بلوغ اسمك إلى الركن الحطيم ، فضع السيف على عاتقك ، ولا تسل
عن أمس وليله ، أظهر قوتك بادي ذي بدء ثم بين الحلم ، فليس حليما من
لا يصدر عن القدرة حليمه ، من من العرب أو الترك يخدم هذه الدولة وليس
المال أحب شيء إليه ؟ وسوف ينتظم عقد خراسان سريعا بفضل هؤلاء
الشيوخ والشبان جميعا ، إن ما نأتيه من سيرتك الطيبة لم يأت به كسرى
ولا غيره من الملوك ، ما العيب لو قال الرجل لا أعرف الكلام ؟ فقد استطاع
الكليم أن يجعل من العصا ثعباناً ، يجب ألا تسحب جندك من أمام العدو ،
ولو كان صفرا ، فالخير شطر الصفر نصفين ، لقد توارى الحاسد اليوم وسكت ،
وما كنت أعرف شيئا بالأمس عن دبلشيم ، أولى بمن لا أصل له ، ولا فضل
فيه ، السكوت كالعدو الخالي الوفاض ، فاشكر الله شكرا إذ أعطاك ملك
أجدادك دون تعب أحد ، هذا الملك لم يهيه لك أحد ، لا شيخ ولا شاب ،
ولا يمن السنين ولا يمن التقاويم ، إنما كله أتاك من ربك ، لله الأمر . وعلى
العبد التسليم . لقد كان السلطان الشهيد بسجية الطيبة أعظم السلاطين همة ، فعش
سعيدا طروبا ، ولتسقق الخمر حسناء ثغرها كاليم ، وليكن عدوك منهكا محطما
مقيد القدمين ، أمسى كسير الفؤاد ، أضناه الخنوع ، واعمر البلاد بالعدل
والإقبال ، ولا بارك الله من يخالفك .

وقد أتينا في هذا الكتاب بهاتين القصيدتين لما فيهما من العبر والمواعظ .
وينبغي للبلوك العظماء الأماجد أن يخاطبوا بمثل هذه العبارات الصريحة الرزينة
الناصحة حتى تسجل بأسمائهم ، كما أن الواجب يقتضى حث عظماء الملوك على
تشديد بناء المعالي ، فإنه وإن كان سلوك المعالي من طبائعهم ، فإن الكلام والحث

يؤديان إلى إثارتها في نفوسهم . والملوك ٣٨٥ ممن بلغوا أوج العز والجاه كانوا
من يدخرون النصائح ويسيرون على هديها ، وأقربهم إلينا سيف الدولة
أبو الحسن على ، فلننظر قول المتنبي فيه مادحا ، حين رأى فيه الشهامة والكفاية
والجد المحض ، فإن هذا القول سوف لا يدرس ما دامت اللغة العربية ، بل إنه
سيزداد بهاؤه يوماً بعد يوم ، وقد خلد اسم سيف الدولة به . قال المتنبي (١) :

خليلي إني لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد
له من كريم الطبع في الحرب منتض ومن عادة الإحسان والصفح غامد
ولما رأيت الناس دون محله تبينت أن الدهر للناس ناقد
أحقهم بالسيف من ضرب الطلي وبالأمر من هانت عليه الشدائد
وأشقى بلاد الله ما الروم أهلها بهذا وما فيها لمجدك جاحد
شنت بها الغارات حتى تركتها

وجفن الذي خلف الفرنجة ساهد
وتضحى الحصون المشمخرات في السدى وخيلك في أعناقهن قلائد
أخو غزوات ما تغب سيوفه رقابهم إلا وسيحان جامد
فلم يبق إلا من حماها من الظبا لمى شفيتها والشدى النواهد
تبكى عليهم البطاريق في الدجى ومن لدينا ملقيات كواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد
ومن شرف الإقدام أنك فيهم على القتل موموق كأنك شاكد
نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنت الدنيا بأنك خالد

(١) مطلع القصيدة :

عواذل ذات الحال في حواسد وإن ضجيج الخود منى لناجد

ص ٣٢٦ مطبعة بيروت شرح اليازجي سنة ١٨٨٢ .

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد
أحبك يا شمس الزمان وبدره وإن لآمني فيك السها والفراق
وذاك لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد

ولولم يكن سيف الدولة على هذا القدر من الفضل فأنى للفتى الجرأة ٣٨٦
فى أن يخاطبه بهذا المعنى ، فإن الملوك لا يتقبلون النقد ويضربون الأعناق من
أجله ، وسيعمل الملوك جلائل الأعمال وسيمدحهم الشعراء ، ما بقيت الدنيا .
ويجب أن نمنع النظر فى أسباب عز أسرة السلطان محمود الكبيرة هذه وفيما
يقوله العنصرى فى مدحه ، وقد ذكرت عدة قصائد غراء له فى هذا الكتاب .
وتدل الدلائل الواضحة على أن الآثار المحمودية ستتجدد على يد هذا
السلطان الكبير إبراهيم فتنتطق ألسنة فرسان النظم والنثر فى ميدان البلاغة
فيجولون ويصولون بأشعار تنسى الناس مآثر الشعراء السابقين . « والله
عز ذكره بفضله وقدرته ييسر ذلك ويسهله فإنه القادر عليه وما ذاك على
الله بعزيز » .

وقد ذكرت على أثر هذه الأشعار ما قاله الدقيقى حتى يعتبر القراء بمطالعتها
حين يبلغون هذا الفصل من الكتاب ثم أعود إلى سياق تاريخ عصر السلطان
الشهيد مسعود رحمة الله عليه فأبدأ بالكتابة فيه من حيث انتهيت إن شاء الله
عز وجل .

يقول الدقيقى :

« ترعى المملكة بأمرين الحرير والزعفران (السيف والذهب) أحدهما
الذهب المكتوب عليه اسم الملك والثانى الحديد المشرب بالماء ، اليماني ، إنه
لا يحصى عن المدد السماوى لكل من تحدثه نفسه بالملك ، ولا بد أن يكون
منطقيا ، سخيا ، وأن يكون فى قلبه الغضب والرحمة ، لأن الملك صيد لا يصيده

العقاب الطائر ولا الأسد الضاري ، إنما ييسره أمران : السيف الهندي والذهب ، والمملك يؤخذ بالسيف وتوثق بالدينار قدمه ، لا يعطى الفلك مُلكاً بالمجان ، إنما يعطه من له البخت والسيف والدينار والقامة ، ٣٨٧ العالية كالرمح والظهر الكياني (الملكي) ، ومن كان ذا عقل وجسارة ،

وقد سجلت هذه القصيدة أيضاً لما ظهر أخيراً من سيرة هذا السلطان العظيم ، وسنرى نحن الشيوخ ، إذا امتد بنا الأجل ، كثيراً من جلائل أعماله ، إذ حين نشاهد براعم الأشجار مزهرة نضرة ريانة نعرف ما ستكون عليه الثمار من النضج . وإنى ، أنا أبو الفضل ، آمل أن يمتد بي العمر في هذه الدنيا الخداعة الغادرة حتى أتم كتابة سيرة هذه الأسرة ، وسوف أتوقف حينما أبلغ في الكتابة عصر هذا الملك السعيد ، فأطرز هذه الديباجة الخسروانية باسمه الكريم بطراز من ذهب . « والله عز وجل ذكره ولى التوفيق فى النية والاعتقاد بمنه وفضله » .

بقية سنة أربع وعشرين وأربعمائة (١٠٣٣)

بدأت تاريخ هذه السنة فى الجلد السابع وتحدثت إلى أن أوفد السلطان الشهيد مسعود عبد الجبار ابن الوزير أحمد عبد الصمد فى سفارة إلى جرجان ومعه الخادم والمهد ، وذلك ليحضر كريمة باكاليجار من حرم أبيها إلى حرمه . ويوم كتبت هذه القصة جدت أمور فى بلاط هذا السلطان العظيم كما بينته وفرغت من بيانه ، والآن أعود إلى التاريخ .

وجاءت الكتب تترى من الرى بأن طاهر الكاتب (طاهر دبير) كتخدأ الرى ونواحيها قد انهمك فى اللهو والشراب والمجون ، وبلغ من تهتكه أنه أخذ ينثر الورد فى موسمهِ يوماً بصورة لم تصدر عن أى سلطان ، فقد كانت الدنانير

والدراهم مبثوثة بين أوراق الورد التي كانوا ينثرونها . وكان تاش والمقدمون بجانبه قد منحوا جميعاً منحة الأسنان . ولما عاد طاهر ثملاً مع غلمانته وخاصته خلع العذار ، وبلغ به السخف إلى حد أن أمر بإحضار أواني ٣٨٨ الشرب الذهبية والفضية ، وربطت بحبال من حرير وتمنطق بها كأنها منطقة ، ووضع على رأسه تاجاً نسج من الياس والورد الجورى ، وكان يدق الأرض بقدميه ، وكذلك كان ندماءه وغلمانته يدقون الأرض بأرجلهم راقصين ، وعلى رؤسهم الدبابيس . ثم ذاع حديث هذا المجلس فى الغداة . وخاض فيه أهل المدينة من غريب وقريب . ولو أن هذه الأخبار قد بلغت الأعداء فعرفوا أن الكتخدا المشرف على الأعمال والأموال والتدبير يعيش على هذا النحو من الفساد ، وأن السهيسالار تاش وغيره من الكبراء يقتدون به فى اللهو والطرب ، فأى هيبة تبقى للحكم . وإن يكون وراء ذلك إلا الأسف والقلق . ولم يكن بد من إبلاغ السلطان فإن من الخيانة إخفاء مثل هذه السيرة السيئة ، والرأى العالى لمولانا السلطان . وقد ضاق السلطان بهذا صدرأ حين عرض عليه ، ولم يعقب بشيء . ولكنه فى الغداة ، بعد انتهاء الاستقبال ، استبقى الوزير وأستاذى أبا نصر ، وأمر بإحضار الرسائل الممهورة ، وأخلى المجلس وأخذ يتحدث إليهما فى هذا الأمر . قال السلطان : إنى كنت أعرف طاهر دبىر فى رعونته وطيشه وكان من المحال أن أبعثه إلى الرى . فقال الوزير : لم يحدث للآن ما يوجب القلق ويجب أن يكتب إليه بلومه وتوبيخه على ما بدر منه ، وأخذ العهد منه بألا يشرب مدة سنة . فقال السلطان : فليكن ذلك وليكتب أبو نصر الرسالة ، ولكن يجب التفكير فى إعداد كتخدا آخر فمن ترونه أهلاً لذلك ؟ فقالوا لو رأى السلطان أن يعفو عنه فإنه لم يصدر عنه سوى زلة واحدة . فقال السلطان إنكم لا تعرفون أحوال تلك الديار وقد عرقها ، إنهم أناس يكرهون الخراسانيين ، فيجب أن تكون هيبتنا كاملة حتى يستتب الأمر ، ولو سرنا

على غير ذلك لا حتقروا شأننا وتنقلب كل هذه النظم رأساً على عقب . قال الوزير إن السلطان أعرف بأحوال خدّائه ، ينبغى أن ينصب هناك رجل مهيب ، وقد حضر أبو القاسم كثير من هراة وهو رجل مشهور بالفضل ، وكذلك فإن أبا سهل الحمدوى شهيم وكفاء ، وأبا سهل الزوزنى قد عانى الكثير من المتاعب وهو من خاصة خدم السلطان ومن أهل السمعة الحسنة ، وكذلك عبدوس فإنه قد نال الشهرة والجاه وهؤلاء هم أكثر خدام السلطان قوة ، والآن فليُنظر السلطان وليأمر بمن يرغب في تنصيبه . فقال السلطان إن أبا القاسم كثير لم ينجز ما عليه حتى ٣٨٩ الآن وينبغى أن يحاسب وفقاً لما طالبه به أحمد حسن ثم نأمر بما ينبغى في شأنه حين يفصل في حسابه . وأما أبو سهل الزوزنى فإنه ليس أهلاً لأى عمل كبر أو صغر إلا السعى بالنميّة والفساد وتخليط الأمور أما يكفى ما كان منه من الخيانات في حق خوارزمشاه وفي الأمور الأخرى ؟ وأما عبدوس فإنما نحن في حاجة إلى عمله عندنا ، ولكن أبا سهل الحمدوى أهل لهذا المنصب فإنه ذو شهامة وكفاية وحنكة وله في مهام الأمور سابقه . فقال الوزير نعم ما رآه مولاي فليس أجدر من أبي سهل الحمدوى . فنادى السلطان الخادم الموكل بالستار وأمر بأن ينادى أبا سهل الحمدوى ، فاداه فحضر وتقدم من السلطان وجلس . فقال السلطان لنا قد عجمنا عودك في كل ما عهدنا به إليك فوجدناك شهيماً وكفأً وأهلاً للاعتماد عليك ، وإن أعمال الرى وما والاها من أهم الأعمال ، ولا يتأتى من طاهر القيام بها ، وقص عليه أحواله ثم قال له إنا قد اخترناك بدلاً منه ، فانصرف وتأهب للمسير وسنأمر بما ينبغى . فقَبِلَ أبو سهل الأرض وقال : قد كنت أود أن أستمّر بالخدمة في البلاط ولكن لا رأى للخدم وإنما الأمر لمولاي ، فإن يأذن لى السلطان فإنى أجلس للتشاور مع الوزير وأبى نصر وأدلى إليهم بما أعرف في هذا الباب وأكتب شروط العهد ، وأطلب كل ما ينبغى ، فإنه حسب ما سمعت ، قد تأزمت الأحوال هناك ،

وذلك كي أسير على هدى . فقال السلطان : حسناً . واختلى ثلاثتهم وأعدوا الأمر على هذا النحو ، وطال الحديث بينهم كثيراً ، فقالوا وكتبوا كل ما ينبغي فيه القول والكتابة ثم انصرفوا . وكتب أبو سهل الحمدوى شروط العهد كاملة فى كل باب ، فإنه كان يجيد الكتابة ، وكان عظيم الكفاءة والتبصر . وعرض أبو نصر العهد ، فأجاب السلطان بخطه قائلاً أولاً ينبغي أن يكون لأبى سهل هناك جاه عريض ، وثانياً عليه أن يكون ذا مهابة وأبهة وتبصر تام . وكتب كل ما عن له ثم وقع العهد . وأعادوه إلى أبى سهل الحمدوى مع أكثر من أربعين رسالة موقع عليها من السلطان ، كنت (أبو الفضل) قد كتبها ، وكان أستاذى قد ٣٩٠ أملاها على . وأمر السلطان بأن تعد له خلعة بما يعد للوزراء ، إذ كان بها المنطقة (الكمر) والمهد وعشرة غلمان من فرسان الترك ومائة ألف درهم ومائة ثوب ، وأمر بأن يخاطب بالشيخ العميد . وامتعض الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد من مخاطبته بهذا اللقب ، واستدعانى وعتب على أستاذى ، وأبدى اليأس وكلفنى بمشافهة طويلة ، فجئت وبلغتها لأستاذى . وكان أبو نصر رجلاً مهنياً يزعى الحدود والآداب ، ويسلك مع الناس بكثير من التواضع والحسنى فقال : « إن الحقى هم الذين يجادلون فى هذه الأمور فإن السلطان إذا رفع سائس الخيل درجات وولاه الوزارة فلا مناص من الامتثال لأمره ، بغض النظر عمن نصّب ، خاملاً كان أم مذكوراً . وإنه لمن اللجاج الذى جاوز الحد أن يوجه هذا العتاب إلى رجل يحافظ على الحدود ولا يرضى مطلقاً أن يعتدى على مكانة الوزير وديوانه » . ثم قال لى : « قل للأستاذ الرئيس إنى قد عرفته منذ أمس طويل وعرفته وزيراً شهماً فاضلاً كاتباً كبير العقل ، ولو لم يتصف بهذه الفضائل لما بلغ هذه المرتبة السامية ، فإنه قد اختير من بين زمرة الفحول الذين كتبت أسماؤهم ، وهو يعرف أنهم جميعاً من العظماء ذوى الجاه ومن لهم فى خدمة السلاطين سابقة ، ولعله قد خفيت عليه آداب

خدمة السلاطين لأنه لم يشتغل بخدمتهم ولم يشاهد أخلاقهم وعاداتهم عن كذب ، ولم يكن متصلا بهم بل كانت صلته بأتباعهم ولا تقوان إنه قد قرأها في الكتب ، ففي مثل هذه الأحوال ، الكتب شيء والتجارب شيء آخر . ولا غرو أن هذا السلطان نادرة عصره ولا سيما في الكتابة وتوجيه أساليبها ، وفي منح الألقاب ، وقد قال منطق السامى إنه يجب أن يخاطب أبو سهل بالعميد فأنا أعظم شأننا من آل بويه وخدامنا أعظم منزلة من صاحب بن عباد ، والأستاذ الرئيس يعلم أن السلطان محق في هذا ، ولكن لو أنصف الوزير وذكر أن أبا سهل الحمدوى قد نال في شبابه عدة من ذهب لفرسه من سلطان عظيم كحمود ، وأنه قد نال منصب صاحب ديوان غزنة وأطراف المملكة ٣٩١ وهندوستان القريبة من غزنة ، وتتلذذ طويلا على وزير نابه كأحمد بن حسن ، وولى الوزارة أيام الأمير محمد ، إبان تربعه على العرش ، وارتدى خلعة الوزارة ، وكتب إليه خوارزمشاه التونتاش ذلك الكتاب الذى يعرف الوزير محتوياته وماذا كتب عن نفسه فيه ، والذى لم أقف أنا على ما فيه ، لو أنصف الوزير لذكر هذا كله ولما عدّ هذه المخاطبة بالعميد أمرا فى غير محله ، فينبغى الإنصاف ، وإذا كنت أنا صاحب ديوان الرسائل الذى تجرى المخاطبات بمعرفتى قد كتبت إليه بهذا اللقب فلا يعين أحد على ذلك ، فإنى قد كتبت ما يستحقه ، وإذا فليس من الإنصاف معاتبتى وخاصة بعد أن أمر بذلك مولاي السلطان ، وإن الوزير لم يزل حديث عهد بأمثال هذه الأمور ، ولعله يعرفنى بعد انقضاء مدة من الزمن ، ومع هذا كله فإنى لا أستخف بأمر الوزير فى هذه الأمور ولو يكتب فى هذا المعنى رقعة أو يبلغنى إياها شفاهها فإنى أؤديها للسلطان .

وقد حملت هذه الرسالة للوزير أحمد ففكر مليا ثم قال : « إن الخواجة أبا نصر على حق فى هذا الشأن ، وليس من الصواب عرض هذا الأمر على السلطان ، وكذلك لا يجوز أن يطلع أبو سهل على هذا الحديث كى لا يستاء منى . وآمل

أن لا يجرمني ويبخل عليّ أبو نصر بأمثال هذه النصائح فإن كل ما يقول « مقبول وموجب الشكر ». وعدت وذكرت ذلك لأستاذي وسرّ به كثيراً . وفي الغداة تحدثت مع الوزير في هذا ، ثم انقطع الحديث فيه . وفي الثلاثاء لست خلت من جمادى الثاني لبس أبو سهل الحدوى الخلعة بعد الاستقبال ، فدنا من السلطان وقبّل الأرض وقدم له عفداً من الجوهر ، وأجاسوه فقال السلطان « بورك فيك » وأعطاه خاتماً عاياه اسم الساطان . وقال : « هذا خاتم ملك العراق وضعناه في يدك فأنت خليفتنا في تلك الديار ، والأمر لك من بعد أمرنا في الجيش والرعية في كل ما يؤول لصالح البلاد والعباد ، فسر في عمالك بجنان ثابت » . فقال أبو سهل : سمعاً وطاعة وسوف أبذل قصارى الجهد ملتتمساً من الله التوفيق للوفاء بهذه الثقة الغالية ، ثم قبّل الأرض وانصرف إلى بيته حيث وافاه العظماء جميعاً وأدوا حق قدره . وفي الغداة جلس السلطان للاستقبال ٣٩٢ وبعد انتهاء الاستقبال اختلى بالوزير وأبي سهل وأبي نصر مشكان . فقال السلطان لأبي سهل : فكرنا بالأمس في أمر الري والجبّال فرأينا من الصواب أن نبعث معكم ولدنا الأمير سعيد بأبهة فائقة حتى يكون نائباً عنا وتكون كتخداه ؛ بحيث يكون الحل والعقد والخفض والرفع والأمر والنهي في يدك ويصغى ولدنا إلى نصحك فتكمل بذلك أسباب الهيبة . فقال أبو سهل : إن رأى مولانا أفضل الآراء ، وهو أعرف بأحوال تلك البلاد ، والأمر له ولو أذنتم لي فإني أرشده بمقدار علمي وتجاربي ، ويعمل بعد ذلك بأمركم السامى . فقال السلطان : لا بد من تبين الأمور له فإن نصحك إياه مقرر . فقال أبو سهل :

« أطل الله حياة السلطان ، إن الحالة في الري والجبّال اليوم على غير ما تركها مولاي ، فقد حدثت بها فتن ، ولم يحدث أثر لتحسن الأحوال على يد من أرسلوا هناك ، وإلا لما فكر مولاي في إيفادى ، والري والجبّال ملؤهما الأعداء ، وأهل تلك البلاد لا يحبون الخراسانيين ، وقد أنفقت جميع خزان

آل سامان على الرى إلى أن عقد معهم أبو الحسن سيمجور الصلح ، بين سادته وآل بويه ، ونامت الفتن وأغمدت السيوف بعض الوقت ، وابن كاكو الذى يملك اليوم ولاية إصفهان وهمدان وجزء من الجبال خصم مبين وماكر ، اجتمع له المال والجند والخداع والحيلة والمكر ، ولن تنتظم الأحوال فى الرى والجبال ما لم يلق ابن كاكو ضربة عقابا له على فعاله أو أن نحرمه من نعيم الملك ، أو أن يأتى صاعرا ويرسل ولده إلى الدرگاه ويصبح عبدا مطيعا للسلطان ويسلم الخزانة كل سنة ما تجمع لديه من الأموال ، وينظر إليه حكام الأطراف قيلزمون الطاعة بدورهم ؛ ثم كيف تستقيم الأمور وطاهر وتاش ومن معهم هناك قد انهمكوا فى الشراب واللذات وهم هن واجبهم غافلون ؛ ثم إنى متى بلغت الرى أمكث بها شهرا واحدا ، ثم أقصد إصفهان وابن كاكو ولن أشتغل بأمر الرى قبل أن أفرغ من أمر ابن كاكو ؛ ولا يجوز حين يكون الأمير سعيد معنى أن أتركه فى الرى ، فإنه لا يستطيع الاعتماد على الرازيين ، ٣٩٣ ولن يكون مناص من أن أصحبه معنى إلى إصفهان ، ولن أستطيع أن أغفل عنه لحظة ، فإذا سرت للقاء العدو فلست أدري أكون سلم أم حرب ، فإذا كان السلم فالصلح خير ، ولكن إذا كانت الحرب فإنى وكثيرين من عبيد السلطان سنستشهد فى خدمته وطاعته ، ولا أعرف ماذا سيكون من أمر الأمير ، وإسوف يكون أمامه فى هذا السفر القاصد حتى نيسابور ألف عدو ، فلو يرى السلطان أن يجعل باسم الأمير ولاية الرى والعراق ، وأن أذهب خليفة له هناك وأجعل الخطبة باسمه ، وأقيم فى الرى شهرا حتى يستقيم أمر العمال ، وأعد تاش والجند هناك وكذلك الجند الذين سيعينهم السلطان للسفر معنى ، بكامل الأهبة للقاء ابن كاكو ، وتستقر الأمور صلحا أو حربا ، ونعود إلى الرى هادئ البال ، ونطلع مولانا على ما يتم ، وحينئذ يسير الأمير على أساس

سليم ، ويجيء إلى الرى وليس من شيء يقلق خاطره . وقد بينت ما رأيت
والرأى للسلطان .

فقال السلطان للأستاذ الرئيس وأبى نصر ما رأيكما . فقال أحمد عبد الصمد
الرأى السليم ما قاله ولا يجوز غيره وينبغى المضى فيه . وقال أبو نصر : ولو أن
هذا الكلام ليس من صناعتى فإنى أشتم منه رائحة فتح إصفهان . فضحك
السلطان وقال : إنى رأيت ما رأى أبو سهل وهو عين الصواب ، وهناك جيش
قوى ويجب أن نزيد عليه ، وأن نختار العمال من رجال الدركاه . وقال
أبو سهل إنه رغم كثرة الجند هناك ، فإنه يجب أن أسير من هنا بجهاز بجيش
آخر ، حتى تكون لى هيبة فى نفوس الأصدقاء والأعداء ، وكذلك ليعرف
ابن كاكو وغيره أن جيشاً متصل الحلقات قد قام من خراسان فتأخذهم الهيبة .
فقال السلطان : حسناً ، وإنك تعرف أعيان الجند ومقدميهم فاكتب قائمة بأسمائهم
ورشح من تريد منهم حتى نعينهم معك . فطلب أبو سهل الدواة والورق فجاء
له بهما من ديوان الرسائل . وأخذ أبو سهل يكتب ، وطلب ابن أرسلان
الجادب ، وقال للسلطان إنه ذو شهرة حسنة ، وله شخصية قوية . فاستجاب له
السلطان . وطلب كذلك اثنين من كبار سرهنكية السراى مع مائتين من غلمانها
الشجعان المبارزين الذين كادت تطر شواربهم ، ٣٩٤ فأجيب إلى طلبه . فقال
أبو سهل : أطال الله حياة السلطان ، يلزمنى خمسة أفيال ذكور ممتازة وخمس
إناث من التى تدك الأسوار وتحطم الأبواب ، فلعلنا نلجأ إليها فى حصار المدن .
فاستجاب له السلطان . وطلب من العمال أبا الحسن السيارى وأبا سعد الفسانى
وعبد الرازق المستوفى وقبل السلطان طلبه .

وقال السلطان للوزير إذهب إلى الديوان وهىء ما يلزم من الجند والعمال

إلى أن تأمر بإعداد الغلمان والفيلة ، حتى يتمكن من السير إلى الرى فى غرة رجب ، فإننا على كل حال سنثرون إلى هراة فى الثالث أو الرابع من هذا الشهر ، عسى أن يهدأ بالناس من ناحية الرى والعراق .

وعادوا من حضرة السلطان وظل الوزير فى ذلك اليوم بالديوان حتى صلاة المغرب إلى أن استدعى المقدمين وأعطاهم ما يحتاجون إليه من نفقات ، وقال لهم استعدوا فإنكم سائرون إلى الرى مع أبى سهل . ثم إنهم عادوا وأخذوا يتهيأون لهذا الأمر . واستدعى السلطان أمين القصر وكاتب الغلمان واختار مائتين من الغلمان أكثرهم قد طر شاربته ، وكلهم ممتازون ومبارزون ومن المرة فى حمل السلاح ثم كتبت أسمائهم وقدموا للسلطان مع قائدين شجاعين واعتقهم جميعا وأمر لهم بالصلوات والنفقات وكرام الخيل وأعطى القائدين الخلع والألوية وأمرهما أن يذهبا إلى أبى سهل وأمر أن يختاروا الفيلة ويسوقوها إليه . وكان أبو سهل يستعد بحماس ويهيئ الكثير من العدد والآلات ويمهد للنخطة وكان له عشرون غلاما واشترى خمسين أو ستين غيرهم حتى يذهبوا إلى الرى معه .

وجاء عبد الجبار ابن الأستاذ الرئيس ومعه الوديفة (بنت باكليجار وعروس السلطان) ومال الضمان ، وقد ظفر بكل ما طلب من باكليجار وعقد معه عهدا وثيقا . وقد حظى برضاء السلطان الكامل فأمر بإدخال رسل جرجان بالنهار ، ثم ذهبوا ليلا بالمهود التى أعدت لزوجات عظماء نيسابور ، وزوجات كل من الرئيس والقضاة والفقهاء والأكابر والعمال لاستقبال مهد بنت باكليجار ، وكان على مسيرة نصف فرسخ من المدينة ، وأكرموا وفادة خدام وجماعة جرجان ، وكانت سراى وبيوت حسنك قد زينت كأنها درجات الفردوس

الأعلى ، وأمر السلطان بأن ينزل مهد العروس بها مع الجوارى والمرييات^(١) والمشرفين والنساء والخدم والخادمت . ورجع أكابر نيسابور ، وكانت هذه المدينة تلك الليلة . من كثرة ما أضىء ٣٩٥ فيها من الشموع والمشاعل ، كأنها في طالعة النهار ، وجلس خدام الحرم السلطاني على باب الحرم ، وقد عين كثير من الرجال لتناوب الخدمة في الدركاه مع حاجب يصحبه عدد غفير من الرجال . وأعدت حاجيات لا تحصى بأمر السلطان ، وأرسل جزء منها إلى سراى الحرم . وعند منتصف الليلة جاء إلى هناك أهل الحرم السلطاني جميعاً من شادياخ . وفي الغداة أمر السلطان بنقل الكثير من الذهب والفضة والطرائف هناك ، فكانت أبهة بالغة في الضيافة . وجيء بنساء كبراء نيسابور ونثرت النقود ثم أكلن وانصرفن . ولم ير أحد «الوديعة» الزوجة التي كانت في مهدها ، وبعد صلاة العشاء ركب السلطان من شادياخ ، ومعه جمع من حاشيته وثلاثمائة غلام من خاصته كلهم من الفرسان ، وثلاثمائة غلام رجالة وخمسة من حجاب السراى ، وجاء إلى جوسق حسنك ، حيث نزل في سراى الحرم مع عشرة من خاصة خدمه الذين يسمح لهم برؤية سيدات الحرم . وقد نزل هؤلاء الغلمان والخدم في الوثاقات - البيوت - التي شيدها الوزير حسنك حول الجوسق لغلمانه الذين كانوا بين خمسمائة غلام وستمائة . وطلعت شمس السلطان المشرقة على عروسه التي كانت كالقمر ، وكان لأهل جرجان من هذه الشمس مزيد من الفخار والشرف ، وتم الزفاف ببركة الله .

وليس لمن هم خارج الحرم السلطاني أن يتحدثوا في هذه الأمور سواء كان الحديث عما فات أو عما يجرى اليوم ، ويجدر بي ألا يجرى قلبي بما يجول

(١) الكلمة المستخدمة - دادا كان - وهى جمع دادة . وهى الخادمة بوجه عام ، وتطلق خاصة على الخادم السجوز التي تستخدم الأولاد منذ طفولتهم . برهان قاطع

بخطرى . وظل الأمير فى خلوته ومرحه فى اليوم التالى ، وفى اليوم الثالث ، وقت السحر ، سار إلى شادياخ وفى الضحى أذن بالاستقبال فوفد الأولياء والحشم مهئين ، ومثل فى حضرته أبو سهل الحمدوى ومن عين معه وقد ارتدوا ثياب السفر فسلخوا مودعين فتلطف السلطان معهم وجدد لهم عطفه وساروا نحو الرى ، وكان ذلك بعد صلاة الجمعة غرة رجب من سنة أربع وعشرين وأربعمائة . وفى الآونة التى كان فيها هذا الرجل التقدير فى الرى حدثت أمور ذات بال منها الحسن والقبيح ، فمن الناس من أطاعه ومنهم من اتبع هواه ، إلى أن عاد أبو سهل إلى نيسابور عند السلطان ثم وقعت واقعة دندانقان . وسأفرد لها بابا خاصا فى هذا الكتاب ، إذ أنهم كانوا فى عزلة عنا ، وقد ذهبوا إلى بلد ٣٩٦ قصى بحيث يتبين منه حقيقة هذه الأحوال كما سيكون الباب الخاص بخوارزم . وسأتناول باب خوارزم أولا فأذكر أن هرون بن خوارزمشاه ألتونتاش قد أعلن العصيان ، وأن عبد الجبار ابن الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد قد توارى ، فى هذين البابين عجائب ونوادر والآن نمضى فى ذكر ما كنا بصدده من التاريخ فنروى ما ينبغى منه . وفى اليوم الثانى من رجب منح الرسل والخدم ، الذين أوفدهم بكاليجار مع مهد ابنته ، خلعاً لائقة ، وسلبت إليهم خلعاً فاخرة بما يمنح للولاء باسم بكاليجار . وفى الغداة ، الأحد الثالث من رجب ساروا نحو جرجان ، وكانت ابنة بكاليجار قد أتت معها من جهازها بما لاحد له ولا وصف ويصعب بيانه تفصيلا . وقد سمعت (أبو الفضل) من سقى زرین المطربة ، وكانت مقربة من مسعود فبلغت منصب الحجابة فى الحرم وكان السلطان يعهد إليها بتبليغ ما يريد من الرسائل لأهل السراى فى كل باب ، تقول : « كان للعروس سرير كأنه البستان ، وكان ضمن جهازها ، فأرضيته كانت من نسيج الفضة المزخرفة ، وقد اجتمعت عليها ثلاث أشجار من الذهب ، أوراقها

من الفيروز والزمرد ، وثمارها من أنواع اليواقيت وقد لفت هذا السلطان فأمعن فيه النظر وأعجب به كثيرا ، ويحيط بهذه الأشجار الثلاث عشرون من آنية النرجس وأصناف الورود والرياحين كلها من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، ومن حول هذه الآنية الفضية طبق من الذهب مملوء بالعنبر ومشمومات الكافور . هذه واحدة مما في الجهاز تبين ما كان عليه بآقيه من البهاء .

وفي آخر جمادى الثاني هذا اعترت العلة السيد أبا الحسن العقيلي ، ٣٩٧ وظهر على ظهره شيء ، والعياذ بالله ، فبعث إليه السلطان الأطباء ، ولكن ماحيلة الطبيب مع القضاء . وقد مات رحمة الله عليه يوم الإثنين الرابع من رجب .

ذكر ما جد من النواذر والعجائب في نيسابور

في صيف هذا العام

جلس السلطان مسعود ذات يوم للاستقبال ، وكانت رسالة من صاحب بريد الري قد وصلت ، وفيها أن التركان لا يقر لهم قرار ، وأنهم أصبحوا قوماً آخرين بعد أن سمعوا قصة ابن يغمر الذي جاء بجيش من بلخان كوه إلى الصحراء ليأخذ بشار أبيه ومن قتل معه ، وأنهم على وشك أن يفسدوا في الأرض ، وأن السهيسالار تاش وطاهر اشتد قلقهما لهذا السبب ، وقد قالوا إنه يجب عرض الأمر على السلطان . وكنت (أبو الفضل) حاضرا ، فقد كانت النوبة علىّ وكان أستاذي أبو نصر غائبا . فصاح بي السلطان لأرسل رجلا لأبي نصر حتى يأتي . فسارعت بإرسال وكيل الباب . وجاء أبو نصر فورا وكان مضطربا . وقد اختلى معه السلطان إلى قرب الغروب . فلما خرج أسر لي بأن قل للسلطان إذا سأل عني

إلى ذهبت بالأوراق لأكتب ما يلزم . وبعد صلاة المغرب جاء وقال لي :
« أعلم يا أبا الفضل أنه قد أعدت خطة سينشأ عنها فساد عظيم » . وقد دعاني
السلطان بعد انصرافه وقال متى مشى أبو نصر ؟ قلت مشى قرب صلاة المغرب
وقد أخذ معه الورق . فقال : « أكتب له من عندك رقعة وقل له إن الرسالة التي
أمرت بكتابتها الليلة تُكتب مسودتها ولا تبيض حتى ندرس المسودة غدا
وتتشاور مع الوزير فيها ثم نأمر بما ينبغي » . وعدت وكتبت الرقعة لأستاذي
وبعثت بها إليه وفي الغداة بعد الاستقبال اختلى السلطان بالوزير وبأبي نصر إلى
قرب الظهر . ٣٩٨ ثم قاما وجلسا وحدهما على دكة كانت على حافة خمائل
البستان وتحدثا طويلا وبعدئذ سار أحمد عبد الصمد إلى ديوانه ، وجلس
أبو نصر على فراش أعد له على تلك الدكة بين الأشجار ، وقد استدعاني فذهبت
إليه فأعطاني مسودة كتاب لأبي طاهر دبير وقال يجب أن تكتب ملطفة صغيرة
وقد قيل لطاهر فيها : « إنا عزمنا على أن نرسل الأستاذ العميد أبا سهل الحمدوي
مع جيش قوى ومقدم مشهور وإنه سيأتي سريعا في أثر هذه الملقطة ، وإنا
سننتوجه نحو هراة في الخامس من رجب ، وحين نصل هناك سالمين ، سنقبض
على فرقة من التركمان هناك وننقل خيامهم وأمتعتهم إلى غزنة . فعليك يا طاهر
أن تدبر لهذا الأمر سرا فتلقى القبض عليهم بحجة أنك ستجهز استعراضا ،
وسيكون أبو سهل الحمدوي قد وصل فعليكم باتباع رأيه في هذا الشأن ، ولا تظن
أن هذا الأمر يسير ، وقد وقعنا هذه الملقطة الصغيرة لتأكدها . وقيل سرا
للفارس الذي يحملها أن يخفيها في بطانة سرجه أو في حذائه حسب ما يستصوب ،
وإن معه رسالة مطولة عليها توقيعنا خاصة بأعمال تلك الناحية على ورق كبير
ليظهر منها أنه قدم من أجلها ، ومعه كتاب آخر في موضوع الحجج في الرى والجبال » .
وقد حررت (أبو الفضل) هذه الملقطة الصغيرة والرسالة المطولة فقدمهما
أستاذي ووقعهما من السلطان ثم أعادهما . وجيء بفارس من المعتمدين وأعطاه

فرساً كريماً وألفي دينار صلة ثم سلمه المملطفة والرسالة ، وأمره أستاذي بما يتبع بشأن المملطفة الصغيرة وكيف يوصل الرسالة المطولة . وكتبت له خطاً بامفتوحاً . وسار الفارس ، كما سار أبو نصر إلى السلطان فأعاد على مسامحة ما عمل ، وقام السلطان فدخل سراي الحرم وأخذ ٣٩٩ يشرب وحده . ورجع أبو نصر إلى تلك الصفة بين الخنائل واختلى بي وقال . « أكتب إلى وكيل جوزجان وكروان رسالة مني لكي يعرض للبيع ، بمجرد قراءة هذه الرسالة ، عشرة آلاف من غنمي ، كباشاً ونعاجاً ، وأن يبيعها بسعر اليوم ويرسل ثمنها ذهباً وفضة إلى غزنة » . فكتبت الرسالة فذيلها بخطه ثم أودعت ظرفاً ووضعته في بريد جوزجان ، ثم وضعت الحلقة في كيس البريد وأغلق وأرسل . واسترسل أستاذي في تفكير عميق . وكنت أحدث نفسي بأن السلطان إذا كان قد أمر بالقبض على التركمان في الري فما معنى بيع غنم رباط كروان بسعر اليوم ؟ وقال لي أستاذي أراك قد استغرقت في التفكير في حديث التركمان والقبض عليهم ورسالتى لوكيلي لبيع الغنم ؟ فقلت . والله وحياة مولاي إني أفكر في هذا . فقال : « اعلم أن القبض على التركمان أمر مخالف للصواب لأن من المحال أن تقبض على ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف فارس ولم يأت كتاب للسلطان يبين الحيلة في القبض على التركمان ولكنه يسارع ويأمر بالقبض على نفر منهم في هراة وبأن تجلي خيامهم وأمتعتهم وبهذا يثيرون هؤلاء القوم الذين جاءوا مع رحالهم وتصل الأخبار إلى الري فيثيرون تركمانها ويحجيء ابن يغمر من بلكان كوه مع فرسان آخرين أقوياء فينضم التركمان بعضهم إلى بعض ويدخلون خراسان ويسلبون كل ما يجدون من الماشية ، لقد تنبأت بهذه الأمور فأمرت ببيع غنمي لأنها لو بيعت بأقل من ثمنها الأصلي فإني سأحصل من ثمنها على شيء ، ولا تنهب أموالى سدى ، فقد أخطأوا في ما دبروا . وقد تناولنا ، الوزير وأنا ، هذا الموضوع كثيراً ، وبيننا سوء العاقبة ولكن بلا جدوى ، فإن هذا السلطان على خلاف أبيه همة وقابا ، كان أبوه

رجلاً ذكياً بعيد النظر . كان إذا قال عن شيء بجانب الصواب إنى سأفعل هذا فإنه يقوله بجبروته وسلطته ، فإذا بين له أحد رجاله ما فى رأيه من الصواب والخطأ ، كان يغضب ويشور ويشتم ، ولكن كان حين يتدبر الأمر ثانية يعود إلى الصواب ، وطبع هذا السلطان (مسعود) شيء آخر ، فإنه مستقيد برأيه عن غير روية ، ولست أدري ماذا ستكون العاقبة .

قال هذا ثم مضى إلى بيته . وأما أنا فحدثت نفسى بأن هذا الرجل بعيد النظر حقاً ، ولعل ما يخشاه لا يحدث . وحقاً ثم حقاً إن ما تنبأ به قد وقع فإن تدبير القبض على التركمان فى الرى لم يكن صواباً ، وقد فزعوا كما سأبين ، وجاءوا من الرى إلى خراسان ، وجرى منهم من الفساد ما كان ، وأخذوا كثيراً من الماشية فى جوزجان . وبعد سنة من هذا كنت فى غزنة على مائدة أستاذى ، وكان عليها حمل سمين فقال لى ولأبى نصر طيفور الذى كان سيمسالار شاهنشاهيان (١) : كيف وجدتما الحمل ؟ قلت غاية فى السمن . فقال لقد أحضروه من جوزجان . فنظر كل منا لصاحبه فضحك وقال إن هذا الحمل اشترى من ثمن تلك الأغنام التى بيعت فى رباط كروان ، وأعاد القصة التى ذكرتها . وجرى كذلك حدث آخر فى ذلك الصيف ، جرى على أحمد ينالتكين سالار الهند فقد ظلموا رجلاً وحملوه على العصيان وكان من هذا فتنة فى خراسان وتقوية لشأن التركمان والسلاجقة وذلك بعد قضاء الله عز ذكره ، فإن لكل عمل سبباً . فقد كانت صلة الأستاذ الرئيس أحمد حسن بأحمد ينالتكين سيئة للسبب الذى ذكرته قبل هذا الباب ، فإنه مهّد لمصادرة أمواله حين كان الوزير يحاكم ، وكذلك كانت صلته بقاضى شيراز لأن السلطان محمود ذكر مراراً أن القاضى يليق للوزارة . وقد

(١) فى النص شاهنشاهان ، وذكر غنى - فى ماصحى ٣ إن اللفظ ورد فى نسخة أخرى شاهنشاه . وجاء ذكر هذا البلد فى ص ٣٩ من البيهقى باسم شاهنشاهيان .

ألقى أحمد حسن في روع يِنالتكّين حين أوفد كسالار للهندوستان أن لا يقيم وزناً للقاضي شيراز « لأنك سالار هندوستان بأمر السلطان وليس للقاضي سلطان عليك وليس له أن يحتال عليك ويخضعك لأمره ». وسار يِنالتكّين ثابت ٤٠١ الجنان فلم يقيم وزناً للقاضي ولم يسأله شيئاً في أمور السالارية . وكان يِنالتكّين رجلاً ذا شهامة وكانوا يسمونه « عطسة » السلطان محمود ، وقد بقي وفياً له . وقيل كثير في أمر والدته وولادته وصلتهما بالسلطان محمود ، وإن أمه كانت عشيقة للسلطان محمود . وعلم ذلك عند الله عز وجل .

وكان هذا الرجل يعرف أخلاق السلطان محمود معرفة تامة ، في جلسته وحديثه . فلما ذهب إلى هندوستان كان معه عدة غلمان متكبرين شجعان في كامل الآهة والآهة . وكان بينه وبين قاضي شيراز لجاج في أمر السالارية . قال له القاضي كان يجب إسنادها إلى عبد الله قراتكّين ، وأن يكون خاضعاً لأوامري . فقال يِنالتكّين : « لن أخضع لأمرك أبداً ، لقد عهد السلطان إلىّ بهذا العمل وقد كنت دائماً أكثر وجاهة وأوفر احتراماً من عبد الله وكان عليه وعلي آخري سواه أن يسيروا تحت لوائى » . وطال الحديث في هذا . واستدعى حشم لاهور والمطوعة يِنالتكّين فذهب ، كيداً منه للقاضي ، مع المطوعة وقصد مكاناً بعيداً . وأرسل القاضي القصاد يشكوه . وبلغ القصاد بست . وكنا نزمع السير إلى هراة ونيسابور فسأل السلطان الأستاذ الرئيس أحمد حسن عن الصواب في هذا ؟ فقال أحمد : « إن يِنالتكّين خير الجميع للسالارية ، ويجب إجابة القاضي بأن لك كتحداية الأموال (جباية الأموال) فما شأنك بالسالارية والجنند ؟ . وإن يِنالتكّين نفسه يعمل ما ينبغي وسيأخذ مال تكران من الخراج والرسوم ثم يذهب للغزو فينهال من ذلك مال وفير على الخزنة ، وما ينبغي وقوع نزاع « ما بين الباب والدار » . فاستحسن السلطان هذا الرأي ، وكتب الجواب على هذا النحو ، واشتدت عزيمة أحمد يِنالتكّين ، فإن الوزير كتب له

يقول : « لقد كتب قاضي شیراز كذا وكذا وأجيب بكذا وكذا » . وسار يئالتسكين مع المطوعة وجند ٤٠٢ لاهور وتسلم الخراج كاملاً من تسكران ثم رجع فعبّر نهر السکنج واتجه يساراً ، وانقض على مدينة يقال لها بنارس من ولاية السکنج لم تبلغها جيوش المسلمين من قبل ، وهى مدينة طولها فرسخان وعرضها كذلك وبها أنهار كثيرة ، ولم يستطع الجيش المسكت بها أكثر مما أقام ، ما بين صلاتى الصبح والعصر ، فقد أحرق به الخطر . وكذلك لم يكن فى وسع الجند أن ينهبوا أكثر مما نهبوا من أسواق البزازين والعطارين وتجار الجواهر . وقد أثرى الجند ، فقد ظفروا جميعاً بالذهب والفضة والعطر والجواهر وعادوا بعد أن نالوا منها ما يشتهون . وأوشك القاضي أن يحن حين سمع خبر هذا الغزو العظيم ، فأرسل القاصدين على عجل إلى نيسابور ، فجاءونا وبينوا الرسالة التى قال فيها : « إن يئالتسكين قد أخذ أموالاً طائلة من أموال تسكران كما جمع الخراج وأنه قد أخفى أكثر ما حصل عليه وأرسل أقله إلى الدرگاه العالى ، وقد بعثت معه خفية نفراً من ثقاتى فلم يكن يعرف من أمرهم شيئاً ، ومن هؤلاء المشرف وصاحب البريد ، وقد دونوا كل ما أخذ ، وأرسلت منه نسخة حتى يقف عليها الرأى العالى كيلا يقوى هذا الخائن على التلبيس . ثم إنه قد بعث سراً إلى تركستان عن طريق بنجهر ليشتروا له غلماناً من الترك ، وقد جرى له حتى الآن بأكثر من سبعين منهم وبقيتهم فى الطريق إليه . وقد جعل من التركمانية هنا أصدقاء له وأعداء للسلطان (١) ، ولا يعرف أحد ما يرمى إليه من ذلك ، فإنه يقول إنى ابن محمود . وعبيد السلطان قد أطلعوه على ما يجرى وله الرأى الأعلى » . وكان لرسالة القاضي وقع كبير فى نفس السلطان . وقد أمر أستاذى أبا نصر بأن يخفيها

(١) فى نص غنى - فياض : « وتركانانرا باخويشتن يارکرد وآزرده اند » ، وفى نص نفيسى (ص ٤٩٧) « وتركانانرا باخويشتن يارکرد واخذاونده آزرده اند » ، وقد اعتمدنا نص نسخة نفيسى .

حتى لا يقف أحد عليها . وتوالى مجيء المبشرين ومعهم كتب من ينالتكين قائد هندوستان ، ومن صاحب بريد الجند ، تنبىء بفتح بنارس المبين وبثراء الجند . وأن ينالتكين قد حصل منها على أموال طائلة ، كما أنه جمع خراج تسكران وحصل على عدد من الفيلة . ثم يقول إن هذه الكتب سطرت في اندريدى ، وإن الجند اتجهوا إلى لاهور عائدین على مهل . ويین ما جرى .

من عجائب تلك الفترة

صعد ستي بن التونتاش ذات يوم وهو ثمل ٤٠٣ إلى السطح للهو ، فشاء القضاء أن يسقط من عل ويموت وهكذا وسد هذا الشاب الثرى . وقد حزن السلطان لفقده فإنه كان أهلاً للجد وذا شهامة وكان حسن القدر وجيهاً فاضلاً ، ولكن عيبه أنه كان يسرف في الشراب حتى ذاق كأس الردى أثر كأسه . وأدهى من هذا كله أن كل هماز مشاء بنميم كتب إلى أخيه هرون ، أمير خوارزم ، بأن السلطان قد بعث قاتلاً غادراً ليلقى بأخيك من فوق السطح ويقتله ، وأنه سوف يدبر مصرع كل واحد من أبناء خوارزمشاه . وكان هرون نفسه سيء الظن بالأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد وبولده عبد الجبار لما بدا منه من التناول والتجاوز ، فلما قرأ كتب الوشاة ، وكان الشيطان قد وسوس له ، أخذه الغرور وأساء الظنون وأخذ يخالف عبد الجبار ويستخف به ويعترض على آرائه الصائبة ، وبلغ الأمر به إلى العصيان واضطر عبد الجبار إلى أن يتوارى خشية الموت ، وأصبحا عدوين . وسأبين ذلك في باب خوارزم من هذا التاريخ بحيث يعرف كل شيء في هذا الباب إن شاء الله .

ويوم الجمعة الرابع من جمادى الثاني قبل الصلاة ألبس السلطان الأستاذ الرئيس خلعة الرضا ، فإنه كان سيسير إلى طخارستان وبلغ بسبب ما كان من

ثورة نواحى ختلان لمجىء الكمخيين^(١) إليها وكذلك ليذهب إلى ولوالج وبنج
آب حيث ينضم إليه شحنة تلك النواحى ويسرون معه لهذا الأمر ويطردون
هؤلاء الخوارج . وقد أبدى السلطان عطفه ٤٠٤ على الوزير وتلطف معه
فى الحديث . ثم إن الوزير عاد إلى بيته حيث وافاه الأعيان فحيوه أحسن تحية . وسار
بعد الصلاة ومعه أربعة حجاب وعشرة بمرتبة سرهنك وألف فارس بعدة كاملة .
وعين الفقيه أبوبكر المبشر صاحب ديوان الرسائل ليكون معه كصاحب يريد
الجيش بأمر السلطان . ووجهت السكتب إلى جميع الأعيان ليستمعوا إلى أوامر
الوزير ، وأمر أبوبكر كذلك ليكتب للسلطان كل يوم بما يراه الوزير خيرا صالح
الملك . وسار الوزير عن طريق يزغوزك ، وسأذكر فيما بعد ماجرى من مجيد
الأعمال على يد هذا الرجل العظيم وفقا لشروط التاريخ . وفى اليوم التالى سار
السلطان إلى بستان صد هزاره على أن يقيم به أسبوعا وقد حماوا إليه جملة
الأحمال . وكانت السكتب تترى فى هذه الأثناء بأن « أحمد ينالتكين قد عاد
إلى لاهور مع التركمان ، وهناك التف حوله كثير من المقدمين وأصناف شتى
من الرجال من كل جنس ، وإذا لم يتدارك أمره على عجل فإن الخرق يتسع على
الرائق لأنه يزداد كل يوم شوكة وعزة » . وكان السلطان فى ذلك الوقت فى
بستان صد هزاره فاختلى بالسپهسالار والأعيان والحشم وسألهم عما يجب عمله
لإخماد فتنة هذا الخارج العاصى بحيث يهدأ بال السلطان من ناحيته ، فقال
السپهسالار : « إن ينالتكين هذا قد سبق له أن فر وزالت بذلك مهابته ،
وأى قائد يختار لحربه يستطيع أن يكفيننا أمره فى يسر فإن لنا فى لاهور جيشا
كبيرا ، ولو يأمرنى السلطان فإنى أذهب للقاءه فى أسبوع رغم حرارة الجو » .

(١) كمخيان أو كميحيان ، كتبناها فى الترجمة السكمخيين ، وذكرت فى مواضع عدة من
الكتاب . ولا يفرف مدلولها . غنى — فياض ص ٤٦٥ حاشية ١ .

فقال الساطان : « إن الأمور معقدة بحيث يستحيل توجيهك إليه ، فإن في خراسان فتنا شتى ، وكذلك الأمر في ختلان وتخارستان ، ولو أن الوزير قد ذهب لإخمادها وفيه الكفاية ، إلا أنه فريضة علينا بعد انقضاء المهرجان أن نسير إلى بلخ وستذهب أنت مع رايتنا . وسنرسل لينا لتكئين قائدا كفوا » .

فقال السهسالار : « الأمر لمولاي والسالارية والرؤساء حاضرون في المجلس العالي وهناك غيرهم منتظرون في الدركاه فأيهم يريد مولاي استدعاه ؟ » . فقال ٤٥٥ :

تلك الهندي : « أطال الله حياة السلطان ، أذهب أنا وأقوم بهذا الأمر تأدية مني لشكر رعايتكم لي ونعمكم علي . ومن ناحية أخرى فإني من الهندوستان والوقت شديد الحرارة وأنا أقدر على سلوك طرق تلك البلاد ، فلو يرى الرأي العالي أن يمنّ عليّ بأداء هذه الخدمة » . فامتدحه السلطان لسبقه في تقديم نفسه وسأل الحاضرين ماذا تقولون ؟ قالوا إن هند رجل مشهور ويليق لكل عمل وإن لديه السيف والعدة والرجال ، فإذا شرفه السلطان بأمره العالي فإنه يقدر على القيام بهذا الأمر . فقال السلطان عودوا إلى بيوتكم حتى نتدبر هذا الأمر .

فرجع القوم . وفي سراي الحرم قال السلطان لخاصته : « ليس لأحد من هؤلاء الأعيان ميل للتطوع لهذا العمل والحق أن أحدا منهم لم يبد رغبة صادقة إلا ذلك الهندي فإنه أدرك حرجي فتقدم » . وأرسل السلطان العراقي الكاتب سرا إلى تلك الهندي فطّيب خاطره برسالة قال له فيها : « ليس بخاف علينا ما قلته اليوم وما تريد القيام به ، ولم يرق حديثك عن هؤلاء الجماعة الذين كانوا عندنا وإنك الآن قد أنبتهم بتقديم نفسك ولا بد أن تثبت صدق عزمك لهم . وغدا نقيمك لهذا الأمر ونمدك بكل ما يمكن لك من مال لا يحصى ورجال وعدة كاملة حتى تقضى على ينالتكئين وتخمد الفتنة دون استعطافهم واستمالتهم . وستكون أعلى منهم ذكرا فإن هذه الجماعة لا يروق لها أن نرفع أحدا لنكون دائما في حاجة إليهم . وهم لا يقدرّون على شيء ، وسوف يضطربون لرفع منزلتك ، فعليك الآن بالثبات .

على ما أبديت حتى تذهب إلى ملاقة ينالتكين ، وإن ما جرى من الخطأ في حقلك كان بتدليسهم وقد فات مافات . فقبل تلك الأرض وقال : « لو لم يكن لي قدرة على إنجاز ما عرضت لما كانت لي الجرأة في هذا الجمع الكبير لأعلن تطوعي للقيام بهذا الأمر ، والآن سأطلب كل ما يجب وسأعد نسخة به حتى تعرض على السلطان ، وسأسرع في السير حتى يقضى على هذا المخدول . وعاد العراقي فقصر ما كان مع تلك وقال السلطان : حسن جدا ويجب كتابة نسخة بطلباته . وبذل العراقي في هذا جهده وعرض على السلطان النسخة المفصلة التي كان تلك قد كتبها . وقد أطلق السلطان يد تلك ومكنه ، بعد أن يجتاز ٤٠٦ يزغوزك أن يفعل ما يريد بشأن إسناد أي عمل إلى الهنود . وأوصى صاحب ديوان الرسائل على لسان العراقي بأن عليه أن يكتب منشور وكتب تلك . وكان من عادة أبي نصر أن يبالغ في أداء الواجب في مثل هذه الأحوال في كل ما كان يأمر به السلاطين ، حتى لا يؤخذ عليه شيء . وقد كتب كل ما ينبغي . وأثار هذا الحديث سخرية أعيان الدركاه ولكن « كانت رمية من غير رام » . وكان تلك سبب قتل رجل مثل أحمد ينالتكين كما سأذكر في موضعه . ولكني أبدأ بذكر أول شرط للتاريخ فأبين كيف كان تلك في بدء حياته وكيف انتهى إلى بلوغ هذه المرتبة ، فإن في ذكر هذه الأخبار فائدة .

ذكر حال تلك الهندي

كان تلك ابن حجام ، ولكنه كان حسن اللقاء جميل الطلعة فصيح اللسان ، وكان حسن الخط في الكتابتين الهندية والفارسية ، وقد أمضى كثيرا من حياته في كشمير حيث اشتغل بالتحصيل ، فعرف قليلا من المكر والخداع والسحر ، ومن كشمير جاء عند قاضي شيراز أبي الحسن فاحتفى به وكان كل من رآه من الكبراء يتعلق به ، وعمل في خدمة القاضي فحصل على بعض مال وعلت منزلته ،

وقد أمر القاضى بأن يعتنى بشأنه من جميع الوجوه . وقام بكثير من الحيل حتى حكوا عنه إلى الأستاذ الرئيس أحمد حسن رضى الله عنه . وقيل إنه يقدر على إحباط كيد القاضى ، وكانت الصلة بين الوزير والقاضى سيئة . فأرسل الوزير توقيعا سلطانيا مع ثلاثة من الفرسان لى يحضر تلك إلى الدركاه رغم أنف القاضى ، واستمع الوزير أحمد حسن إليه ، وعرف منه « من أن يؤكل الكتف » ، وتريث حتى يبلغ وقيعته إلى السلطان محمود بحيث لا يفهم أن الوزير ٤٠٧ هو صاحب هذا التدبير . فأمر السلطان وزيره أن يستمع إلى كلام تلك ، وأصبح القاضى فى بلاء عظيم فلما انقضت تلك الدسائس أصبح تلك من خاصة معتمدى الوزير ، وقد جعله كاتباً ومترجماً فيما يخص الهنود ، مثل بيريال فى ديواننا وكبر شأنه . وقد رأينه (أنا أبو الفضل) فى ديوان الوزير بمن لا يؤذن لهم بالجلوس ، فإنه كان يخرج بالرسائل وبما يراد ترجمته ثم يعود به بعد إنجازه ، وكان يقوم بعمله على خير وجه . فلما ابتلى الوزير بالمحنة التى ذكرتها من قبل ، وطلب السلطان محمود خدمه وكتابه حتى يأمر بتعيين من يليق للخدمة فى الدركاه ، أعجب بتلك . وقد أصبح هذا صديقا لبهرام الترجمان ، وكان تلك أصغر منه سناً وأفصح منه لساناً . وكان السلطان محمود يتمنى وجود مثل هذا الرجل فارتفع شأنه . وقد أدى تلك فى الخفاء خدمات جليلة للسلطان مسعود فقد أدخل فى طاعته جميع هنود كتور وبعض البيرونيين ، وقام بمثل هذه الأعمال الخطيرة مع سلطان عظيم كهمود . ولما وصل السلطان مسعود إلى بلخ من هراة ، وكان الملك قد استقر له ولم يكن سوندر سپهسالار الهنود فى منصبه ، عطف على تلك وأعطاه خلعة ذهبية وألبسه فى رقبة طوقاً مذهباً مرصعاً بالجواهر ، ومنحه الخيل . وذاع صيت الرجل وعمل لنفسه سرداقاً صغيراً ومظلة وكانوا يدقون له الطبل أثناء مسيره حسب الرسم عند عظماء الهنود .

وكانت له راية^(١) مع الطبول وهلم جرا إلى أن بلغ به الأمر أن كان يجلس بين الأعيان في الخلوة وأثناء تدير الأمور ، حتى تطوع كما قات لإنهاء قضية أحمد ينالتكين وقد تم . فعلى نجمه وارتفعت مرتبته « ولكل أمر سبب والرجال يتلاحقون » ، والعاقلة لا يستغرب هذه الأخبار فإن الرجل لا يولد وجيها والرجال ينضجون بمرور الزمن ولكن شرط ذلك أن يتركوا من بعدهم ذكرا جميلا . وكان تلك هذا رجلا جلدا ، حميد الخلق ، ولم يحط من شأنه طول حياته أنه ابن حجام . ولو اجتمع له مع هذه النفس القوية والعقل والهمة أرومة الأصل لكان أكثر سموا ، ففي اجتماع العظامية والعصامية خير كثير ، ٤٠٨ ولكن العظامى لا يقوم بشروى نقيير إذا أعوزه الفضل وأدب النفس والدرس ، وكان كل حديثه أن أبى كان كذا وكذا . وقد أحسن الشاعر حين قال :

ما قلت فى نسب لو قلت فى حسب لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد ذكرت أبياتا فى العصامية والعظامية لجرير والمتنبى فكتبها : شعر

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما
وصيرته ملكا هماما

وقول الآخر فى العظامى اللاحق :

إذا المرء عاش بعظم ميت فذاك العظم حى وهو ميت
تقول بنى لى الآباء بيتا فهدمت البناء فما بنيت
ومن يك بيته بيتا رفيعا ويهدمه فليس لذاك بيت

(١) التعبير الفارسي « علامت منجوق » ، ومنجوق هى الراية (Steingass) ، وفى لغت فرس ص ٢٤٩ . منجوق آلة وتطلق أيضاً على الشجرة الباسقة ،

وقد قرأت أن رجلا حامل الذكر وفد على يحيى بن خالد البرمكي ، وكان في مجلسه أناس من كل صنف ، كفاة وخاملون. فبدأ الرجل يتحدث فكأنه ينثر الجواهر ويفتح الصدف . وكان من الحاضرين جماعة من العظاميين قد ملثوا حسدا وضعنا فقالوا : أطال الله حياة الوزير ، أسفا على هذا الرجل ليته كان من أصل كريم . فضحك يحيى وقال « هو بنفسه أصل قوى » . ورفع مرتبة الرجل فأصبح من فحول زمانه . وفي أيامنا هذه جماعة من العظاميين لهم الخيول المطهمة بألجمة مذهبة ولهم الملابس الثمينة والفاشية والشارات ، وحين يتكلمون فكأنهم حمر غرزت في الثلوج سنا بكها ، ولا يتحدثون إلا بقواهم كان أبونا كذا وعمل أبونا كذا . والطريف أن أفاضل الناس من سعاية هؤلاء وبطرحهم في ضيق . والله ولي الكفاية . فلما أنجزت الكتب والأمر الخاصة بتلك أمر السلطان مسعود رضى الله ٤٠٩ عنه بأن تجهز له خلعة فاخرة تشمل الكوس والعلم . فارتدى الخلعة وتلطف السلطان في حديثه معه وأبدى عليه عطفًا كثيرًا . وفي الغداة عباً تلك جنده ونزل في باغ فيروزي . وركب السلطان ليستعرض جيش تلك الهندي . كان به كثير من الفرسان والرجالة كلهم في أهبة تامة . وكان فرسان القصر الذين اختيروا ليكونوا في جيشه فوجا في أحسن عدة ، ذلك لأن قاضي شیراز كان قد كتب إلى السلطان يقول إن هنا طبقة ممتازة من الرجال فينبغي أن يوفد لقيادتها قائد مشهور من قبل الدركاه ، وترجل تلك وقبيل الأرض ثم ركب ، وقد طلبوا له جواد قائد الهند . وارتحل يوم الثلاثاء منتصف جمادى الثاني .

ورجع السلطان حين صلاة العصر من هذا اليوم إلى جوسق الدولة في المدينة ، وفي الغداة سار إلى الجوسق الأبيض وأخذ يلهو ويلعب الصولجان

ويشرب ثلاثة أيام تباعا ، ثم جاء إلى بستان محمودى ، وأتوا بالامتعة هناك ، ولبت به حتى منتصف رجب ومنه قصد قلعة غزنة ، وكان السرهنكك أبو على الكوتوال قائما بالضيافة ، وقد بلغها فى الخميس الثالث والعشرين من رجب فأقام بها أربعة أيام كان يوما ضيف السرهنكك الكوتوال ، وفى اليوم التالى استضاف حاشيته ، وفى اليوم الثالث عقد المجلس الخاص . وقيل إنه أصدر الأوامر الخاصة بالخزائن لأنه أذفت ساعة الرحيل ، وشربوا مع الندماء والمطربين ، وفى غرة شعبان عاد إلى المدينة ونزل فى جوسق محمود القديم . وفى الثلاثاء الخامس من شعبان ، بعد انتهاء الاستقبال ، بكر السلطان بالشراب فى صفة القاعة مع الندماء .

وحضر هناك غلام يدعى « نوشتكين نوبى » وهو من غلمان السلطان محمود الذين جاء بهم بعد زيارته لقدرخان ، كان يساوى مائة ألف حسناء ، فإنه لم ير أكثر منه جلالا وجمالا ، وكان السلطان محمود قد أمر بأن يكون من بين خاصة غلمانه الأقربين ، فقد كان طفلا ، وبينما كان فى نية السلطان أن يجعله أعلى درجة من إياز ، فإنه فضلا عن جماله كان خفيف الحركة فى وقار ، إذ به يموت فى پوشنكك . ٤١٠ فلما مات السلطان محمود اختار نجله محمد نوشتكين هذا ، حين ارتقى العرش فى غزنة ، لى يكون ذواقا والموكل على شرابه ، وأعطاه مالا لا يحصى . فلما زال الملك عن محمد وآل إلى مسعود رفع منزلة نوشتكين إلى أن أسند إليه ولاية جوزجان . وكان الرسم أن يوفد خادم واحد مع الغلام الذى يصبح من الخاصة ، ولكن نوشتكين ، تميز بأن عين معه خادمان يتناوبان خدمته ليل نهار . وكان يقوم بجميع أعماله الخادم إقبال زرین دست ، فإنه كان أمين القصر . واتفق أن تشغف أبو نعيم النديم حبا بهذا التركى ، وكثيرا ما كان يجلس النظرات إليه فى مجالس الشراب ، وأدرك ذلك السلطان واهتم به ، واتفق فى ذلك اليوم أن كان بأبى نعيم خمار شراب الليل ، وكان

السلطان ثملاً كذلك فأعطى نوشتكين باقة من الشيبوى والسوسن ، وقال له قدمها لأبى نعيم فأعطاه نوشتكين إياها . فضغط أبو نعيم بإصبعه على يد نوشتكين . فقال ما هذه الوقاحة ؟ إنك تضغط بإصبع التهلك على يد غلام السلطان . وغضب السلطان لذلك غضباً شديداً . والله جل شأنه أعرف بما يجول بخاطر السلاطين ، لأن أفكار الملوك وخيالهم لا يستطيع أن يقف عليها أحد . قال السلطان لأبى نعيم ألم تأت إلينا كغلام ؟ فرد عليه أبو نعيم بجفاء ، وكان شديد الغلظة ، إذ قال متى رأى مولاي منى مثل هذا السلوك ؟ إذا كان السلطان قد مل صحبتي فليأتمس حجة أكثر حلاوة من هذه ! فاستشاط السلطان غيظاً وأمر بأن يجر من رجله ويحبس في الحجرة : وقال لإقبال إنى وهبت كل ما يملك هذا الكاب الخائن من صامت وناطق إلى نوشتكين . وذهب الجند فاستولوا على سرايه وصادروا ممتلكاته ، وبعد صلاة العصر من هذا اليوم جاء إقبال ومعه نوشتكين إلى ديواننا ، وأخذ الأوامر والمنشورات وتوقيعاً رسمياً كي يصادروا جميع أملاك أبى نعيم في سيستان والبلاد الأخرى ويسلبوها لرجال نوشتكين . ولبث أبو نعيم مغضوباً عليه مدة طويلة بحيث قبض نوشتكين ربيع تلك الضياع ، وتوسط أهل الخير وتشفعوا لأبى نعيم حتى رضى السلطان عنه وأمر بنقله من القلعة إلى بيته ، ثم استدعاه وخلع عليه ورضى عنه وأعاد إليه ضياعه وأعطاه صلة عشرة آلاف دينار حتى يستعيد ما أخذ منه من أسباب الترف والغلمان والدواب . وكنت أسمع بين آونة وأخرى أن السلطان كان يقول لأبى نعيم فى مجلس الشراب : أتحدق النظر فى نوشتكين ؟ وكان يجيب بآنى لم أفق بعد من النظرة الأولى فكيف أفكر فى نظرة أخرى . وكان السلطان يضحك . وما شاهد أحد ولا قرأ عن ملك أكثر منه كرماً ورحمة . رحمة الله (١١٤) عليه . ثم إنه أسند إلى نوشتكين هذا منصب صاحب الدواة (دوات دار) مع الوظيفتين اللتين كانتا له . وأصبح عظيم القدر ، بحيث أنه حين طر

شاربه وظهرت عليه معالم الرجولة ، انتهى إلى قيادة الجيوش ، فصار الناس
ينشدون أبيات الصابي الذي قال حين أوفد أمير العراق معز الدولة المدعو
تسكين حارس خزانة الملابس لتسلم القيادة :

طفل يرف الماء من وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمقعده خصره سيفاً ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده .

ثم إنه مرت على أبي نعيم ونوشتكين أحوال إلى أن انتهى أمرهما ، كما تمر
الأحداث المختلفة على الإنسان ، وستأتي بالتفصيل في مكانها وفي هذا القدر هنا
الكفاية . وفي يوم السبت السادس عشر من شعبان خرج السلطان للصيد في
مصطاد^(١) زه ، وكانوا قد حشروا الناس منذ أسبوع ليجمعوا الصيد ويسوقوه ،
وجاء إلى المصطاد كثير منه ، وكانت رحلة الصيد موفقة ، وعاد السلطان إلى
باغ محمودي . وقبل انقضاء شعبان بيومين جاء من نيسابور صاحب الديوان
أبو الفضل السورى المعز ، ثم مثل في الحضرة ، وقدم للسلطان ألف دينار
نيسابورى ثارا ، كما قدم عقدا من الجواهر الثمين وعاد السلطان من الحديفة
إلى جوسق والده القديم بالمدينة ، ويوم السبت غرة رمضان بدءوا الصيام .
وفي اليوم الثالث من رمضان قدموا للسلطان الهدايا التي كان قد أعدها صاحب
ديوان خراسان . وكانت تشتمل على خمسمائة حمل من الهدايا التي كنت قد
رأيت مثلها بين الهدايا التي جاء بها حسنك إلى السلطان محمود في العام الذي عاد
فيه من الحج بعد وصوله من نيسابور إلى بلخ . وقد احتوت هذه الهدايا على
كثير من الألبسة والطرف والآلات الذهب والفضة والغلمان والجواري ٤١٢

والمسك والكافور والعناب والآلء والأدوات المنقوشة والسجاد والمآزر وغيرها من النعم التي حوتها هذه الهدية السورية — نسبة إلى سوري — وقد أدهشت الحاضرين، فإنه كان قد جمع الطرائف في مدن خراسان وبغداد والرى والجبال وجرجان وطبرستان. وفضلا عن ذلك فإنه قد أرسل مع هديته من المأكولات والمشروبات ما يناسبها. وقد وضع النقود الذهبية في أكياس من الحرير الأحمر والأخضر ووضع النقود الفضية في أكياس صفراء فاقع لونها. وسمعت من أبي منصور المستوفى، وهو الثقة الأمين الذي لا يحد عن الحق في عمله قيد شعرة وصاحب النفس الكبيرة والرأى المبين، يقول: «إن السلطان أوعز بأن تقوم هذه الهدايا سرا، فكانت ألف ألف درهم مرات. فقال لي السلطان ياله من خادم طيب سوري هذا لو كان لنا مثله خادمان أو ثلاثة لحصلنا على فوائد عظيمة. قلت كذلك. وما كانت لي الجرأة أن أقول أولى بنا أن نسأل رعايا خراسان كم من العنت والإرهاق وقع عليهم، شريفهم ووضيعهم، حتى اكتملت هذه الهدية. وغدا يظهر اليوم الذي نشاهد فيه عاقبة هذه الأمور». والحقيقة هي ما قاله أبو منصور^(١)، فإن سوري كان رجلا مشهورا بالظلم، فإنه حين أطلقت يده في خراسان استأصل شأفة أعيانها ورؤسائها واستحوذ على أموال لا تحصى، وامتد ظلمه إلى الضعفاء، وكان يقاسم السلطان، يعطيه خمسة من كل عشرة دراهم يغتصبها. أما الأعيان فقد تقطعت بهم الأسباب فكتبوا الرسائل إلى ما وراء النهر وأوفدوا رسلهم شاكين لأمراء الترك كي يغروا التركمان بالغزنويين، وأما الضعفاء فإنهم بشوا الله آلامهم. ولم تجرؤ عيون السلطان على أن ينهوا إليه حقيقة ظلم سوري للناس، وكان السلطان، رضى الله عنه، لا يصغى إلى أحد بشأن سوري، إنما كان ينظر

(١) جاء في طبعة غنى — فياض، «أبو نصر» وصحتها أبو منصور، كما يقتضي السياق وكما جاء في نسخة نفيسي ص ٥٥٠.

السلطان إلى تلك الهدايا التي يقدمها له في إسراف ، إلى أن ضاعت خراسان بسبب ظلمه وعدوانه . وبعد حدوث هذه الهزيمة (هزيمة مسعود في دندانقان) جاء سوري معنا إلى غزنة ، وولى منصب صاحب الديوان فيها أيام الملك مودود ، فأراد أن يتابع سياسته في خراسان ، ولكنه لم يستطع فقد كفت يده ونحى عن العمل . وانتهى أمر هذا الرجل بأن جعل قائدا لقلعة غزنة كما سيأتي ذكره . رحمه الله عز وجل فإن أمره سيكون للحاكم الرحيم العادل ، ٤١٣ ولعل موازينه يوم الحساب تتعادل ، فإنه إلى جانب ظلمه ، كان رجلا كريما في الصدقات مؤديا للصلوات ، وله آثار طيبة في مدينة طوس . ومن جملة هذه الآثار الزيادات الكثيرة التي أدخلها على قبر علي بن موسى الرضا عليه السلام ، الذي بناه أبوبكر شهمر د ، الذي كان كتنخدا فائق الخادم الخاص ، ومنها بناؤه مغارة لهذا الضريح وشراؤه قرية عامرة ووقفها عليه . وبني في نيسابور مصلى لم يكن مثله أحد من الأمراء قبله ، وهذا الأثر باق إلى الآن . وكان بين محلة بلقباد وحيوة نهر صغير كان يفيض بشدة في الربيع ، فكان يصيب المسلمين بأضرار بالغة فأمر سوري بتشديد سد يصب من الحجارة والاجر ، ودرأ هذا الخطر . وقد أوقف على هذين الأثرين حتى لا يدرسا . وقد أمر بأعمال عظيمة في رباطى فراوه ونسا وهما باقيان . وهذه الأعمال كلها لا تنكر ولكنى أعتقد أن كل هذا ليس شيئا بجانب ظلم الضعفاء . وقد أحسن الشاعر حين قال :

كسارقة الرمان من كوم جارها تعود به المرضى وتطمع في الفضل^(١)

وليس حلالا سرقة الخبز من الجار والتصدق به على الجار الآخر ، ولا أجر على ذلك . وما أدري ماذا يغر هؤلاء المحدثين في هذه الدنيا ، إذ هم ينهضون ويجمعون حفنة من حطامها ، وفي سبيل هذا يريقون الدماء ويثيرون

(١) من شعر أبي عبد الله الأبيوردي . نفيسى ص ٥٠١ حاشية ٨ .

الحروب ثم يتركونها في يسر ويموتون بحسرتها . ليفتح علينا الله تعالى بمنه وكرمه . وفي أواخر أيام سوري ذهب أبو الفضل الجحى إلى نيسابور ، فقد أسند إليه فيها منصب صاحب البريد بأمر من السلطان مسعود رضى الله عنه . وقد ذكر ما كان من أمر هذا الفاضل في مواضع عدة من هذا الكتاب . وكان الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد يحله ويعظمه . وقد أوعز إليه أن ينهى إليه سرا وبغير محابة كل ما يصدر من سوري أو ما كان يصدر عنه . وقد تسبب سوري في قتله إذ أن كتاباته في حقه قد أثرت في قلب السلطان ، كما أنه كتب أكثر من ذلك إلى الوزير نفسه . أرسل ذات يوم بضعة أبيات للوزير وقد رأيتها ، وأكتب الآن ما بقى في الذاكرة منها ، وقد تحايل الوزير حتى يسمعها للسلطان وقد كتبها إليه وكان لها أثر فيه :

شعر ٤١٤

« أيها الأمير أنظر إلى خراسان فإن سوري يجمع بها المال والمال ،
 « لو بقيت يده المشؤومة ممتدة سيأتى إليك بالامر الجلل »
 « إن سوري ، في أى منصب يسند إليه ، كالراعى الشرير الذى يكوى ماشيته »
 وقد انتهى الامر إلى دخول الأعداء خراسان والاستيلاء عليها كما
 سيأتى ذكره .

وقد تذكرت بمناسبة هذا الحديث حكاية جد نادرة ومفيدة فأثرت
 تسجيلاها فإن في العالم كثيرا من أشباه ما عمل سوري ، حتى يستفيد منها القراء
 ولو أن الكلام قد يطول .

حكاية

قرأت في أخبار الخلفاء أنه حين علا شأن البرامكة ، وكان أمير المؤمنين

هرون الرشيد ينادى وزيره يحيى بن خالد البرمكى ياوالدى ، وخين رفع مرتبة ولديه الفضل وجعفر ، كما هو معروف وثابت فى الكتب ، خرج أحد العلويين واستولى على جرجان وطبرستان وكل جبال جيلان وقوى أمره ، فقلق هرون قلقاً شديداً ، لأنه كان قد قرأ فى الكتب أن أول خلل يقع فى الدولة العباسية يكون على يد علوى يخرج فى طبرستان ، فدعا يحيى بن خالد البرمكى واختلى به وتحدث إليه بما جرى ، وقال إن هذا الأمر ليس مما يستطيع قائد العمل على إزالته ، فإما أن أذهب بنفسى أو أن تذهب أنت أو أن يذهب أحد ولديك الفضل أو جعفر . فقال يحيى لا يجوز بأى حال أن يذهب أمير المؤمنين بنفسه لمواجهة كل من يخرج على الدولة ، ويجب على أن أبقى مع الخليفة لأدبر شؤون الرجال والمسال ، وأما ولداى الفضل وجعفر فهما طوع رأى أمير المؤمنين ليبادرا بأمره . فقال : ينبغى أن يذهب الفضل . وأن تُسند إليه إمارة خراسان والرى وجبال خوارزم وسيستان وما وراء النهر : على أن يقيم فى الرى ويرسل نوابه إلى المدن ، فيتولى أمر هذا الثأر ويكفيننا أمره ويأتى به ١٥٠٠ صلحاً أو حرباً . ويجب أن تعد له الأمور غدا بحيث يرتدى الخلعة ويذهب بعد غد إلى النهروان ويقيم بها حتى تلحق به الجيوش والمدد والعدة . فقال يحيى سمعاً وطاعة . ثم عاد وقام بكل ما يجب . وقال للفضل سرا : « يابنى إن الخليفة قد أسند إليك عملاً عظيماً ، وإن المرتبة العالية التى منّ عليك بها عظيمة فى هذه الدنيا ، ولكن تقابلها عقوبة قوية فى الآخرة ، إذ أن عليك أن تقضى على أحد أحفاد الرسول عليه السلام ، وليس بد من الطاعة ، فإن لنا أعداء كثيرين وقد اتهمونا بأنا علويون . فينبغى العمل بحيث لا يسىء أمير المؤمنين الظن بنا » . فقال الفضل : « لا تشغل قلبك فإنى سأقوم بالأمر حتى ينتهى صلحاً ، ولو كان فى ذلك إزهاق روحى » . وفى الغد حضر يحيى والفضل إلى الحضرة فعقد هرون الرشيد الرمح والراية لإمارة خراسان على الفضل ، وسلبها إليه مع المنشور (أمر

(التعيين) وألبسه الخلاء . ثم عاد بموكب عظيم إلى داره . وقد وفد عليه كل عظماء
 القصر وأدوا له التحية . وفي اليوم التالي سار إلى النهروان فأقام بها ثلاثة أيام
 حتى لحق به خمسون ألف فارس ، والقادة والمقدمون ، فسار وجاء الرى ونزل
 بها وأرسل الطليعة في عشرين ألف فارس على طريق دنهاوند في طبرستان ،
 وفرق باقى الجيش مع القادة في أنحاء خراسان . ثم أرسل الرسل إلى يحيى
 العلوى ، وتأنف معه حتى استجاب إلى الصلح ، على شرط أن يرسل إليه هرون
 الرشيد عهدا بخطه على النسخة التى يحرقها يحيى العلوى بنفسه . ورفع الفضل
 الأمر إلى الخليفة فقبله هرون الرشيد ، وسر بذلك كثيرا . فأرسل يحيى العلوى
 نسخة مع رسول من ثقاته ، وكتب عليها هرون بخطه وأشهد عليها القضاة
 العدول بعد أن حلف اليمين : وقد اطمأن يحيى إلى هذا وجاء إلى الفضل فاحتفى
 به وأكرمه ثم إنه سار إلى بغداد فرحب به هرون وأجزل له العطاء . وذهب
 الفضل إلى خراسان ومكث فيها سنتين وأجزل العطاء للزوار والشعراء . ثم
 طلب أن يعفى من منصبه فأجيب طلبه وعاد إلى بغداد ، وكافأه هرون لإخلاصه
 مكافأة جاوزت كل حد . وذكر قصة العلوى وما لها طويل وليس غرضى بيان
 ذلك ، بل هو أمر ٤١٦ آخر . جاء الفضل للرشيد بهدية حسب الرسم . ثم وقع
 اختيار هرون على على بن عيسى بن ماهان لإمارة خراسان ، واستشار فى ذلك
 يحيى البرمكى وطلب رأيه فقال يحيى إن علينا رجل جبار ظالم والرأى لأمير
 المؤمنين . وكانت أحوال البرامكة على وشك الانتكاس . فأرسل الرشيد على بن
 عيسى إغاظة ليحيى . وبسط على يده وأخذ ينهب الأموال ، ولم يكن لأحد جرأة هلى
 كشف أمره . وكانت العيون تكتب إلى يحيى فكان يتحين الفرص ويتدبر الحيل
 حتى يسمع الرشيد شيئا من هذا ، وأوعز إلى أحد المظلومين أن يعترض طريق هرون
 فجأة ولكن دون جدوى . حتى بلغ الأمر إلى حد أن أقسم الرشيد أن يرسل إلى على
 كل من يتظلم منه . فسكت يحيى والناس جميعا . فاستأصل على شأفة خراسان وما وراء

الثهر والرى والجبال وجر جان وطبرستان وكرمان وإصفهان وخوارزم ونيمروز
 وسيدستان وأحرقها ، وسك أموالا لاتعد ولا تحصى ، ثم جهز من تلك الأموال
 هدية للرشيد ، لم يقدم مثاها أحد من قبله . وبلغت هذه الهدية بغداد وعرض
 على الرشيد بيان بها ، فسر به كثيرا وتعجب منها . وكان الفضل بن الربيع الحاجب
 مستعدا للإيقاع بالبرامكة فأخذ يكشف عن تعصب آل برمك وعن شهامة علي
 ابن عيسى . فقال الرشيد ماذا يجب أن نعمل بشأن الهدية التي قدمت من
 خراسان ؟ فقال : فليجلس أمير المؤمنين في المنطرة وليجلس أو يوقف يحيى
 وأبناءه حتى تعرض الهدية وتنفطر قلوب آل برمك ، ويثبت عند الخاص والعام
 ما أقدم عليه هؤلاء من الخيانة فإن الفضل بن يحيى قدم الهدية من خراسان فما
 كانت توازي هدية يقدمها عامل من مدينة واحدة ، في حين أن علي بن عيسى
 يقدم كل هذا . فسر الرشيد كثيرا بهذا الرأي ، فإنه كان قد تحمل على آل برمك ٤١٧
 وعزم على إنهاء دولتهم . وفي اليوم التالي جاء إلى القلعة الخضراء بالميسدان
 وجلس وأجلس يحيى وولديه والفضل بن الربيع وجماعة آخرين ، ووقفت جماعة
 أخرى ، وأحضرت الهدايا إلى الميدان ، كانت تشتمل على ألف غلام تركي بيد
 كل منهم حلقتان ملونتان من الششتري والإصفهاني والسقلاطون والملمح من
 الديباج والديباج التركي والديداري وغير ذلك من الأنواع . ووقف الغلمان
 بهذه الحلل وعلى أثرهم جاءت ألف جارية تركية بيد كل واحدة كأس من ذهب
 يحتوي على الياسمين ، وملؤه المسك والكافور والعنبر وأصناف العطر وطرائف
 البلاد ، ثم مائة غلام هندي ، ومائة جارية هندية ، في غاية الجمال ، مرتدين
 ملابس ثمينة ، وكان بيد الغلمان السيوف الهندية من أجود الأنواع ، وكانت
 الجوارى تحمل الثياب الرقيقة في أسفاط أحلى من القصب ، وكان معهم خمسة
 أفيال منها أنثيين ، وكان على الفيلة سروج من الديباج ومرايا من الذهب
 والفضة ، والأنثيين منها كان عليهما مهدان من الذهب أحزمتهما وعدتهما

مرصعتان بالجواهر البدخشية والفيروز ؛ ثم خيول جيلانية ، ومائتا فرس من خراسان بسروج من الديباج ، وعشرون عقابا وعشرون شاهيناً ، وألف جمل ، منها مائتان بعدد وألجمة مغطاة بالحرير والديباج وكانت في غاية الجمال وثلاثمائة أخرى عليها المحامل والمهود ، منها عشرون عليها محامل مذهبة ، ومائتين وخمسمائة وثلاثمائة قطعة من البلور من شتى الأصناف ، ومائة زوج من الأبقار وعشرون عقداً من الجوهر الغالى القيمة ، وثلاثمائة ألف حبة من اللؤلؤ ، ومائتا قطعة من الصين الفغفغورى من الصحون والكؤوس وغيرها ، ثمالم يشاهد مثلها في قصر أى ملك ، وألفا قطعة أخرى من الصينى من الاوانى الكبيرة والكاسات الواسعة ، وزهریات صينية كبيرة وصغيرة ، وأنواع أخرى ، وثلاثمائة من الستائر الملكية ، ومائتان من سجاد القصور ، ومائتان من السرر . فلما عرضت هذه الأنواع من النعائم في مجلس الخلافة ارتفعت أصوات الجند بالتكبير ، ودقت الطبول ونفخت الأبواق ، بحيث لم يذكر أحد مثل هذا ولم يقرأ ولم يسمع بمثلها . والتفت هرون الرشيد إلى عين البرمكى وقال : « أين كانت هذه الأشياء أيام ابنك الفضل » . فقال يحيى : « أطال الله عمر أمير المؤمنين ، لقد كانت هذه الأشياء أيام ولاية ابنى الفضل في بيوت أهلها في مدن ٤١٨ العراق وخراسان » . فتضايق هرون الرشيد من هذا الجواب ضيقاً شديداً بحيث نفص عليه رؤية هذه الهدية وقطب حاجبيه وقام منصرفاً من الخضراء . وأخرجت هذه الأشياء من الميدان فأودعت الخزان والقصور والاصطبلات وحدادة الإبل . وجلس الخليفة ، وقد علاه الهم ، متأثراً من جواب يحيى ، فإن هرون الرشيد كان عاقلاً ، وقد أدرك المقصود من هذا الجواب . وبعد ما عاد يحيى إلى الدار قال له ولداه جعفر والفضل : « نحن عبيدك ولا يحق لنا أن نعترض على قول أيدينا ، إنا في قلق عظيم من هذا الجواب الذى أجبت به الخليفة وكان الأجدر بك أن يصدر الجواب عن الروية واللين » . فقال يحيى : « يا إبنى

إنا ذاهبون وأمرنا قد انتهى ، وأنتم بعد قضاء الله ، سبب هذه المحنة ، وعلى أن أقول الحق ما دمت حياً ، وعلى ألا ألبأ للبلق والرياء ، فإن التصنع والشعوذة لا يغيران من قضاء الله ، فقد قيل « إذا انتهت المدة كان الحتف في الحيلة » ، إن ما أجبت به سيدور الليلة في رأس هذا الرجل الجبار ، ولا شك أنه سيتكلم عنه غدا ، ويستوضح جلية الأمر ، وسأبلغكما بما سيقال ، فعودا ولا تقلقا .

فعادا حزنين فقد كانا شابين لا تجربة لهما . وكان أبوهما شيخ حنك الزمان ، فتناول طعامه هنيئاً مع ندمائه ، ثم دخل الحرم في غرفته الخاصة وأمر بإحضار العود والجوارى والشراب ، وبدأ يشرب وطلب كتاباً اسمه « لطائف حيل الكفاة » ، وأخذ يحقن الشراب في تريدة ، ويستمع إلى الغناء في هدوء ولين ومتعة ، ويصغى إلى الألحان والأغاني وهو يقرأ الكتاب ، حتى انقضى باقي اليوم ونصف من الليل ، ثم قال لنفسه ها قد فهمت . ونام وصباحاً مبكراً وسار إلى البلاط فلما انقضت الحضرة اختلى هرون به وقال : « يا والدي لقد واجهتني بالأمس بجواب غليظ فإلى أي شيء رميت » فقال يحيى : « أطال الله حياة أمير المؤمنين إن الحق مذاقه مر ، ولعل الناس فيما مضى كانوا يستحسنونه ٤١٩ »

واليوم تغير الحال ، وهذا هو شأن الدنيا الغرورة التي لا تدع الأحوال على منوال واحد . ولو أن الحساد قد غيروا رأي مولاي بالنسبة إلى ، وأشاهد بنفسى آثار التنكر والتغير ، فعلى ألا أخفي النصيح ما دمت في الخدمة وألا أ كفر بالنعمة . فقال هرون : « يا والدي لا تقل هذا ولا تتشامم ، فإن مقامك ومقام ولدك عندي لم يتغير ، ولا تضن بنصحك فإن كلامك يطيب لي ويسعدني حقاً كان أم باطلاً . وهذا الحديث الذي قلته بالأمس أثر في قلبي أيما أثر ، فعليك أن تشرحه شرحاً وافياً لنقطع فيه برأى » . فوقف يحيى وقبل الأرض ثم جلس وقال : « أطال الله عمر أمير المؤمنين ، أستطيع اليوم أن أشرح قليلاً من حديث الأمس ، وسيتضح أكثره في الغد » . فقال : حسناً . فقال يحيى :

« لقد أطلق أمير المؤمنين يد علي بن عيسى ليفعل ما يشاء . ولا يجرؤ العيون على كشف ما يجري ، فإنه قتل منهم رجلين كنت قد وكلت إليهما أمر التجسس عليه . إنه قد أفقر أهل خراسان واستأصل شأفة الأقوياء والعظماء ، واستحوذ على ضياعهم وأموالهم ، ووقع جيش أمير المؤمنين في الفاقة . وخراسان ثغر عظيم وعدو كالترك منه قريب . ولا يجوز الالتفات إلى الهدية التي أرسلها ، فإنه أرسل درهمين أو ثلاثة من كل عشرة دراهم سلبها ، بل يجب الالتفات إلى أن الخلل سوف يقع ساعة بعد ساعة ، وذلك الخطر لا يستطيع تلافيه ، فإن أهل خراسان حين يياسون من أمير المؤمنين فإنهم يتوسلون إلى الله تعالى ، ويشيرون فتنة كبرى ، ويستعينون بالأتراك ، وأخشى أن يصل الأمر إلى حد أن يضطر أمير المؤمنين إلى السفر بنفسه لتلافيتها ، ويضطر لإنفاق خمسين درهماً أو أكثر بإزاء كل درهم قدمه علي بن عيسى . وقد قلت ما عرفت وأسقطته من عنقي والأمر لأمر المؤمنين ، وغدا سأبين لأمر المؤمنين ظواهر ودلائل واضحة أخرى » . فقال هرون الرشيد : « حقاً ما قلت أيها الوالد جزاك الله خيراً ، وسنعمل ما ينبغي فعد إلى بيتك وبين غدا ما ذكرت اليوم » . فعاد يحيى قوى القلب ، وقص ما جرى على ولديه الفضل وجعفر فسرا بذلك ، وأرسل يحيى رسولا ودعا إليه عشرة رجال من أغنى تجار الجواهر في بغداد ، وقال لهم إن الخليفة يريد شراء ما يساوي قيمته ثلاثين ألف ألف درهم ، من أثنى ٤٢٠ الجواهر وأندرها . فقالوا حسنا جدا ، إن في وسعنا بركات دولة أمير المؤمنين وعدله نحن العشرة أن نهيم ما قيمته ثلاثون ألف ألف دينار من الجواهر أو أكثر لمن يريد . فقال يحيى بارك الله فيكم ، انصرفوا وعودوا غدا إلى القصر ومعكم الجواهر حتى تقدموا للخليفة ليأمر بما يراه . فانصرف التجار وعادوا في الغداة إلى القصر بأسفاط الجواهر ، واستأذن يحيى للخلوة مع الرشيد ، فأذن له ، وجيء بالتجار ومعهم الجواهر فعرضوها ، وأعجب الخليفة بها ، وسلم إليهم يحيى

صكا بسبعة وعشرين ألف ألف درهم ، وقد وقع عليه هرون الرشيد . وقال الرشيد انصرفوا لنقرر ما نرى . وعودوا غدا إلى يحيى ليخبركم بما نأمر به . فرجع تجار الجواهر بعد أن أقفلوا الأسفاط وختموها وأودعوها في الخزانة . قال هرون ليحيى ما هذا الذى عملت يا أبى ؟ قال أطال الله عمر أمير المؤمنين فلتحفظ الجواهر فى خزانتك وسأسترجع غدا الصك من التجار وأمزقه . ولن يجرؤوا على التحدث بما جرى ، فإذا جاءوا إلى مولاي متظلمين فليحولهم مولاي إلى لأجيهم . فقال هرون إنا على ذلك قادرون ، ولكن ماذا تكون حاجتنا يوم القيامة أمام الله عز وجل ، ولسوف يحلو الناس عن هذه المدينة ، الرعايا والغرباء ، وتسوء سمعتنا فى العالم كله . فقال يحيى : « هذا لعمري ما كان من أمر على بن عيسى فى خراسان ، وإذا كان أمير المؤمنين لم يرض أن يتظلم ويتوجع منه عشرة رجال فكيف يرضى أن يتوجع مائة ألف مسلم من وال واحد وأن يدعوا عليه بالسوء » . فقال هرون : « أحسنت يا والدى وقد أحسنت الإيضاح ، خذ أسفاط الجواهر وردها لأصحابها ، وأنا أعرف ما ينبغى عمله مع على بن عيسى الظالم » . ورجع يحيى . وفى الغداة جاء تجار الجواهر إلى يحيى ، فأمر بالأسفاط أن ترد لهم مقفولة بمهورة . وعدلوا عن البيع واسترد الصك . وقال ليس هذا المال جاهزا الآن ، وبعد أن تصل الأحمال من الشام ومصر سنشتري الجواهر . فدعوا له وعادوا . وبقي هذا الحديث فى قلب الرشيد ودأب على التفكير فيه ، وفى كيفية الإيقاع بعلى بن عيسى . إلا أن دولة (٤٢) آل برمك قد آذنت بالزوال ، كما هو معروف . وخرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، الذى كان والياً على بلاد ما وراء النهر من قبل على بن عيسى ، وانضم إليه كثيرون من وجوه مرو وكان معه كذلك جيش عظيم ، وانضم إليه طوائف عديدة من ما وراء النهر وتقدموا نحوه ، وانتشرت الفتنة فى خراسان كلها ، وقد هزم كثيرا من الجيوش التى كان قد أرسلها على بن عيسى ، الذى بلغ به

الأمر إلى طلب المعونة من هرون فأمدّه بجيش كبير على رأسه هرثمة بن الأعين وتواطأ معه سرا وأعطاه مرسوماً بالولاية كي يفاجيء عليّ بن عيسى بالقبض عليه ويقيده ، وينصف أهل خراسان منه ، ثم يرسله إلى بغداد ، وبعد ذلك يفرغ لأمر رافع بن الليث حتى ينتهي من أمره حرباً أو صلحاً . وسار هرثمة وقبض على عليّ بن عيسى فجأة ، وأخذ كل ما كان يملك ، ثم أرسله مقيداً إلى بغداد مع أحد خدم الرشيد . وضبط هرثمة الأحوال في خراسان بقدر ما استطاع وكان أمر رافع يعلو يوماً بعد يوم ، وهرثمة عاجز ، بما اضطر الرشيد ، وكان في آخر أيام حياته إلى أن يقود بجسده المحطم جيشاً كبيراً ، جعل على مقدمته ولده المأمون . وكان في طريقه يقول : « وا أسفا على آل برمك ، إني لأذكر اليوم ما قال يحيى ، ما استوزر الخلفاء مثل يحيى » . وكان آخر أمره أن ذهب المأمون إلى مرو وأقام بها وأرسل جيشاً إلى هرثمة في سمرقند ، وأما الرشيد فإنه حين باغ طوس ، قضى نحبه .

انتهت هذه الحكاية وإني أذكرها ومثيالاتها ولو أنها تطيل كتابي ، فإنها ذات فوائد والسلام .

وفي يوم الأحد العاشر من رمضان سنة خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) جاء سائح من خوارزم ، وكان معه رقعة صغيرة أخفاها في ركوته ، وهي من رسائل صاحب البريد ، كتبها في خمسة أسطر ، ثم أحال التفصيل على السائح الذي يجب سؤاله عن الأموال . قال السائح إن صاحب البريد يقول : « إن واجبي الذي يقتضي الكشف عن الأحوال قد أصبح يعرض حياتي إلى ٤٢٢ خطر الموت . وقد اختفى عبد الجبار بن الوزير ، فإنه كان يخشى على حياته ، وهم جادون في البحث عنه ، وإن يجدوه لأنه في مكان أمين . وقد أصبح هرون

جبارا في الأرض . وهو يعد جيشا ويكثر من شراء الغلمان والخيول وقصده مرو . وقد قبضوا على رجال الوزير الكبير ، وصادروا أموالهم ، ولكن الخطبة لا تزال على ما هي عليه فإنه لم يصرح بالعصيان ويقول « إن عبد الجبار يخاف من ظله ، وقد ولي فرارا بعد ما امتدت بالسوء يده » . وأما أنا ، صاحب البريد ، فقد استبقوني في مناصبي ، فأنا أعمل عندهم وكل ما أكتبه فلا يعبر إلا عن رغبتهم . ثم إن بايتكين الحاجب وآيتكين الموكل بالشراب وقلباق وهندوان ومعظم المقدمين المحموديين جديرون بالقيام بهذا الأمر ، ولكن ماذا بيدهم ، إنهم لا يقدرّون على مقابلة الفرسان . ولا بد من اتخاذ التدابير إذا كان يعينكم المحافظة على هذه الولاية فإن الشريفة تزايد يوما بعد يوم . وليعلم والسلام .

فلما وقف السلطان مسعود على هذا الحال قلق واختل مع أبي نصر مشكان وتحدث مليا معه . واستقر رأيه على أن يعاد السائح ومعه كتاب إلى المقدمين كي ينصحوا هرون ويثبوا عزمه عن العناد ، حتى لا يستشري الفساد فتدبر الأمور إلى أن تصل الراية العلية إلى خراسان . وتقرر أن يعلن السلطان عزمه على التوجه ناحية بست حتى يذهب منها إلى هراة . ووجه كتاب إلى الوزير أحمد عبد الصمد بهذا المعنى ليبدى ما يرى فيه ليعمل ما ينبغي عمله وليكتب بما يرى . وانفرد أبو نصر وكتب ملاحظة إلى خوارزم مختصرة للغاية وقد مهرها السلطان بتوقيعه ، ومنح السائح صلة كبيرة ، ثم توجه إلى خوارزم وكتب للوزير ما ينبغي أن يكتب في مثل هذه الأحوال . وسيأتي باب خاص لأخبار خوارزم أتناول فيه الموضوع بشكل أتم ، أما هنا فلا أفضل الكلام . وفي منتصف هذا الشهر جاءت الكتب من لاهور تنبئ بأن أحمد ينالتكين قد جاء ومعه ٤٢٣ خلق كثيرون ، وأن قاضي شيزار وصفوة القوم قد ساروا إلى قلعة مندككور وأن القتال مستمر وأن النواحي تنهب والفساد ينتشر . فاستغرق السلطان

فى الفكر ، فإن قلبه كان قلقاً من ثلاث نواح ، تراكة العراق وخوارزم ولاهور ، لهذه الأسباب التى قدمتها . وجاءت الكتب كذلك من نيسابور تقول إن أهل طوس وباورد سوف يقصدون نيسابور ، إذ أن سورى غائب ، وإن أحمد على نوشتكين الذى هرب من كرمان قد جاء إلى هنالك مع هذا الرجل الذى معه ليهيئ لهم وسائل الحرب . فأمر السلطان رضى الله عنه سورى بأن يذهب فوراً إلى نيسابور . فقال سمعاً وطاعة وفى اليوم الرابع من هذا الشهر أعطاه السلطان خلعة غاية فى الجمال والحسن .

وفى يوم الثلاثاء عيّدوا ، وأمر السلطان رضى الله عنه بأن يقيموا حفلاً رائعاً ، وبعد ذلك نُصب الخوان ، وأمر بأن يسمح بالشراب على المائدة للوالى والحاشية فسكروا ، وشرب السلطان مع الندماء ولم يبد عليه الطرب ، فقد كان شديد القلق بشتى الأفكار . وجاءت الكتب من لاهور ، وكانت مهمة جداً ، إذ جاء بها أحمد ينالتكين كاد يستولى على القلعة لولا أن جاءه الخبر بأن تلك الهندى قد جهز جيشاً عظيماً من شتى الأجناس وأنه متجه نحو هراة . وقد أوقع الخبر الذعر فى قلب هذا المخدول (أحمد ينالتكين) ووقعت الفرقة فى صفوف جيشه . ومع أن السلطان قد قرأ هذه الرسائل وهو فى مجلس الشراب فإنه أمر بتوجيه كتاب إلى تلك الهندى وبوضع الرسائل فى درج الساعى ، وأمر تلك بأن يتوجه فوراً إلى أحمد ينالتكين . ثم وقع الكتاب وكتب بخطه فى آخره كلمة قوية جداً كشأنه حين يكتب بأسلوبه السلطانى ، وفى هذا الوقت كان تلك يخاطب من ديواننا بكلمة « المعتمد » وأرسلت هذه الرسالة على عجل .

وفى يوم الخميس الثامن عشر من شوال جاء كتاب من كرديز يقول إن السهسالار غازى الذى كان معتقلاً هناك قد أدركته المنون . وقد سمعت أنهم ٢٤

كانوا قد اعتقلوه في القلعة وقيدوه قيداً خفيفاً ، وأن شخصاً قد جاء سراً إلى الكوتوال وقال له إن غازي قد أعد الحيلة وأنهم حملوا إليه مطواة حادة وأنه يحفر نفقا أثناء الليل ، وأنه يفرش على المدخل ما يخرج من التراب حتى لا يشعر أحد بشيء ، وأنه يغطي النفق أثناء النهار . وذهب إليه الكوتوال بفجأة بالليل ، ورأى التراب والمطواة والنفق ، ووجه إليه اللوم قائلاً لماذا فعلت هذا ؟ وقد بذل لك من العطف وكان لك من حسن المعاملة مالا يزيد عليه . فأجابه غازي بأنه لم يرتكب ذنباً ؛ وأن الحساد قد حملوا السلطان لإغارة صدره عليه ، وكان أمله أن يافت إليه نظره العالى ، فلما لم يجد عطفاً وطال حبسه أقدم على ما يقدم عليه المسجونون والعجزة ، ولو تخاص من السجن لتقدم بنفسه إلى السلطان الذي كان ولا بد عاطفاً عليه . فنقله الكوتوال إلى حجرة أخرى واحتاط له ، وأمر بأن يسد النفق بالطوب والطين . ثم إنه رفع الأمر للسلطان فجاءه الجواب بأن غازي بريء وأن الرعاية السلطانية ستشمله في الوقت المناسب ، ويجب أن يظل قلبه راضياً وأن يحافظ عليه بالحسنى . وقد سر غازي بهذه الكلمات ورق له قاب السلطان . ولكن الموت الذي لا منجى لإنسان من قضائه قد دهمه رحمة الله عليه ، كان قائداً فذاً .

ذكر رسل الحضرة الذين عادوا من تركستان

مع المهدي والوديعة ورسل الخان الذين صحبوهم

مضى قرابة أربع سنوات على سفر رسولينا الخواجة أبو القاسم الحصري النديم والقاضي أبي طاهر التباني إلى تركستان من بلخ ، لعقد الميثاق مع قدرخان ولطاب ابنته للسلطان مسعود ، ولطلب واحدة من بنات بغراتكين لابن السلطان الأكبر مودود ، وقد أبرموا الميثاق وعقدوا العقدين . وقد مات قدرخان وولي تركستان بغراتكين ابنه الأكبر وولي عهده ، وقد لقب ٤٢٥

بانتب أرسلان خان . ولهذا السبب امتدت الإقامة برسولينا فتأخرا ، وقد أريدت كتب من هنا بالتهنئة والتعزية على الرسم المتبع في هذه الأحوال . ولما استقر الأمر في تركستان ونصب عليها ملكها ، عاد الرسولان موفقين ، وبعث معهما أرسلان خان رسلا وجاءوا بالمهود . ولكن حدث أن حم القضاء في عروس نجل السلطان الأمير مودود ، فأحضروا شاه خاتون بنت قدرخان عروس السلطان مسعود ، ولما بلغوا پروان مات القاضي أبو طاهر التباني . وذكرت قصص عن وفاته . قال جماعة إنه أصيب بإسهال شديد ثم لقي حتفه على أثره ، وقال آخرون إنهم قدموا إليه دجاجا مسموما فأكل منه ومات ، ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل . وكما سيكشف يوم القيامة عن الأسرار يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأرى من الحق العظيم أن يقدم رجل على إراقة دماء المسلمين من أجل الجاه وحطام الدنيا ، والله عز ذكره يعصمنا وجميع المسلمين من الحرام والشر ومتابعة الهوى بمنه وسعة فضله .

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من شوال زينت مدينة غزنة بالزينة التي كانت عليها في السنة التي جاء فيها هذا السلطان من العراق عن طريق بلخ حيث توج بها . وقد نصبت الكثير من معالم الزينة والأفراج من مختلف الأصناف وكانت في جمالها تفوق الوصف . وكان أولها المهد الذي أحضر من تركستان ، وقد أمر السلطان بأن يرى الترك من المباحج ما لم يروا من قبل . ولما بلغ الرسل والمهد ناجية شجكا و^(١) كان عليهم أن يقيموا بها تنفيذاً للأمر الصادر إليهم ، وجاء الخواجة أبو القاسم النديم في الحال إلى البلاط ، وقابله السلطان وشمله

(١) باجكاه في صفحة ٢٧٩ (٢٥٥٠ من غنى - فياض) وجاءت هنا شجكاو وجاء في حاشية ي : شجكاو مكان علي منزلي من غزنة وسمى اليوم شش كاي . غنى - فياض حاشية ١ .

بعطفه ، فإنه كان قد لقي كثيراً من المصاعب ، وقد اختلى به فلم يكن معهما غير الخواجة أبي نصر مشكان : وقد استمرت هذه الجلسة الخاصة حتى قرب صلاة العصر ، ثم عاد أبو القاسم إلى البيت . وفي اليوم التالي ، يوم الإثنين لثمان بقين من شوال ، ذهب أهل المراتب ووالى الحرس والقائم بأمر السفراء ومعهم الجنائب فأحضروا رسل الخان ، وكانت المدينة كلها محلاة بالزيينات والزخرف ، فلما رأوا الرسل نثروا كثيراً في أفغان شال وفي ميدان ٤٢٦ رسوله (٩) وفي الأسواق ، ونثروا الدنانير والدراهم وكل شيء ينثر به في هذه المناسبات ، حتى كان الرسل في عجب بما يرون . ثم إنهم أنزلوهم وقدموا لهم مأكولات معدة . وبعد صلاة العصر ذهب كل نساء المحتشمين والخدم لاستقبال المهد ، وجاء هؤلاء من شجكاو ومعهم كوكبة عظيمة من الفرسان ، وقيل إن أحدا لم يرا مشهدا كهذا . وقد حكى إلى السيدة زرین وعندليب أن الجوسق زين زينة لم تحدث في عهد السلطان ولا أمر بمثلها . وفي هذا الوقت جرى بكل جواهر السلطنة وآلاتها . فلتكن هذه الدولة قائمة أبدا .

وظلت المدينة ترفل في الزينة بضعة أيام . وكان الأهالي في حبور ، وأتى الأعيان بشتى أنواع النشار ، وجرت مجالس الشراب حتى نهاية هذا الحفل . ثم إنه بعد مدة وجيزة رجع الرسل مكرمين إلى تركستان ، وكانوا مسرورين بعد أن قابلوا السلطان عدة مرات وأبرموا معه الموائيق ودعوا كثيراً إلى الولائم والشراب ولعب الصولجان . وكتبت في هذا الشأن كتب كثيرة باللغة الجودة وقد ألقت فيها رسالة لو ذكرت ما بها هنالطال الحديث . وإن هذا الكتاب نفسه سيطول ، وأنا أعرف أنى من الملحين في الإشادة بهذه الأسرة . وأعلم أنهم يعدوننى من المبالغين في مدح هذا البيت ، ولكنى أريد أن أؤدى حق هذه

الأسرة الكبيرة كاملاً ، وليس في يدى سوى هذا القلم ، لذلك بادرت بهذا القول .

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من شوال جاء الرسل مبشرين من نيسابور يكتب من أحمد على نوشتكين والشحنة تقول إن بين أهل نيسابور وأهل طوس خصاما قديما ، وإن سوى حين قصد الحضرة وذهب ، اغتم هؤلاء المخاذيل الفرصة فجاء كثير من المفسدين ليغيروا على نيسابور ، واتفق أن هزم أحمد على نوشتكين هناك في سيره من كرمان عن طريق تون ، ففجل من السلطان وأقام هناك . وقد وجه إليه كتاب ليعود إلى البلاط ، وقبل أن ٤٢٧ يذهب جاء هؤلاء المخاذيل إلى نيسابور ، وكان أحمد مبارزا ، واشتغل بقيادة الجند ، وله في الفروسية ولعب الصولجان والكرة بأنواعها دراية تامة ، فاستعد لمقابلة الطوسيين . وجاء خاق كثيرون من طريق بزخرو^(١) ويشقان^(٢) وخالنجوى^(٣) ، معظمهم رجالة وبغير نظام ، كان يقودهم تارودى^(٤) وهو من بقايا المدبرين من آل عبد الرازق ، وجاءوا في جلبة وشغب وضوضاء وكانوا يعدون ويتلفتون دون توقف ، حتى ليظن أن خانات نيسابور قد فتحت أبوابها وأن المدينة قد أضحت بغير حاكم يمنعها أو يذود عنها ، حتى أن قوافل المكوس تغزو وتنهب ثم تعود محملة بما غنمت . فلما وقف أحمد على نوشتكين الشجاع على هذا الأمر ورآهم في حالة فوضى ، قال لقومه إنى أرى هؤلاء

(١) بز بمعنى رقبة والمقصود مدخل خرو - وخرو اسم جهة جبلية بين طوس ونيسابور تعرف اليوم بهذا الاسم نفسه . غنى - فياض ٢ .
(٢) يرجح غنى - فياض أن صحة هذا الاسم يشقان . وهو اسم قرية من قرى نيسابور قرب خرو . وتسمى هذه القرية بوشنكان وفوشنجان كذلك . حاشية ٣ .
(٣) وتسمى اليوم كلنجو . غنى - فياض ٤ .
(٤) هكذا في النسخ كلها كما يقول غنى - فياض (٥) ونفيسى (ص ٥١٩) ويرجعون أن صحته باوردي .

يسمعون لحثفهم بأرجلهم ، فأطيعوا ولا تنسرعوا . فقالوا الأمر للساطان ونحن طائعون . ثم إنه تحدث للعامة والغوغاء الذين كانوا أكثر من عشرين ألفاً ، معهم أسلحة وعصى وحجارة : التفتوا وأنتم في أما كنكم ولا تتحركوا وأعينوني بصراخكم لأنه إذا تقدم منكم فوج ، خبط عشواء ، فإن الطوسيين ينتصرون عليه وتنكسر قلوب النيسابوريين إذا هزم جماعة من عامتنا . فقالوا سنعمل بما قلت واستعدوا وارتفع عويلهم وصراخهم كأن القيامة قد قامت . وكان لأحمد ثلاثمائة فارس مستخفون في الكمين تحت جدران القلاع . فقال لهم : « كونوا على استعداد واستمعوا إلى فحين يقترب الطوسيون فإني سأقابلهم ثم أناوشهم مناوشة قصيرة ثم أوليهم ظهري وأتراجع منهزماً حتى يصبح ٤٢٨ المدبرون أشد حرصاً على التوغل ، فلما منهم أنى قد وليت منهزماً ، وأنا أجرهم خافى رويداً رويداً حتى يعبروا كمينكم ، فحين يعبرون أرتد عليهم وأقاومهم ، فإذا حمى الوطيس وحين تسمعون النيسابوريين وطباهم وصياحهم انطلقوا من الكمين ، وحينئذ يكون النصر من الله عز وجل ، وإني أعلم أن سوف يكون النصر لنا بهذا التدبير المحكم الذى رسمت » . قالوا إنا هكذا فاعلون . وهاد أحمد من مكان الكمين ثم تراجع بعيداً حتى الصحراء الواقعة على حافة ميدان عبد الرازق ، فعباً رجالاته وفرسانه ، وأعد الميمنة والميسرة والقلب والجناحين والساقة ، وجعل على المقدمة خمسين فارساً على خيول مطهمة ، ثم أرسل الطليعة ، وارتفعت الأصوات بالتكبير وتلاوة القرآن ، وحدثت في المدينة هزاهز شديدة . وأقبل الطوسيون قبيل صلاة الظهر ، كانوا كثيرين كالنمل والجراد ، ومن جملتهم ثلثمائة فارس من كل جنس وما يقرب من ستة آلاف راجل بأسلحتهم ، جاءوا ودخلوا في سرعة ثم توقفوا . وفي هدوء تقدم أحمد ومعه أربعائة فارس وألفان من الرجالة ، وتجاوز المكان الذى أعد به الكمين ، واشتبكت مقدمة نجده بمقدمة جيش العدو ، وجرى بينهما قتال عنيف ، ثم التحم الجيشان وكانت معركة

شديدة انقلبت إلى مبارزة بالسيف بين الجند ، ومكثت المعركة بعض الوقت وقتل كثيرون من الطرفين ، وأما الجرحى فكانوا فوق الحد ؛ وكان المدد يصل إلى الطوسيين ، فأمر أحمد رجالاته ، وكان قد دبر الأمر معهم ، أن يتقدموا وأن يرتدوا رويدا رويدا ، فلما رأى الطوسيون ذلك ازدادوا شجاعة ، وتوغلوا متعقبين رجال أحمد ، وكان أحمد يحارب وهو يتراجع حتى أدرك أنه تجاوز مكان الكمين ، فثبت لهم أقوى مما كان ، وانضم إلى ساقته الفرسان الذين كانوا في فترة راحة ، والرجالة الذين كان أوقفهم ، وجمي وحيدس المعركة فأمر بأن تنفخ الأبواق وتدق الطبول دفعة واحدة وأن يصرخ العامة والغوغاء ، حتى لتحسب أن الدنيا قد تمزقت وخرج الفرسان المستريحون من المساكن ونفذوا في الأبواق وحوصر الطوسيون من أمام ومن خلف ، واختل نظامهم وارتفعت ضجة القتال ، واختلط بعضهم ببعض واحتاروا في أمرهم ثم انهزموا وأخذ ٤٢٩ يضرب المدر منهم رفاقه القادمين لنصرته ولم يتورع أحد عن ضرب أخيه . وتعقبهم النيسابوريون بقلوب قوية وقتلوا كثيرا منهم ، حتى تجاوز عددهم العد . وكانوا من شدة الهزيمة ومن خوف النيسابوريين ، الذين كانوا يخشون على أرواحهم منهم ، كانوا قد رموا بأنفسهم في الكروم والبساتين وألقوا أسلحتهم . وكان النيسابوريون يدخلون إليهم ويمسكون الرجال من لحاهم ويخرجونهم ويحزون رؤوسهم . وقد رأوا خمس أو ست نساء في بساتين بأقصى المدينة يسقن أمامهن ما يزيد عن عشرين طوسيا وكن يصفعنهم .

وسار أحمد على نوشتكين مع صفوة فرسانه في أثر هؤلاء المخاذيل حتى خالنجوى ، على ثلاثة فراسخ من نيسابور ، وقتل كثير منهم وأسر كثير . ثم عادوا إلى نيسابور منتصرين ومعهم الغنائم والدواب والسلاح الكثير وقت صلاة العشاء . وفي اليوم التالي أمر أحمد بنصب المشانق ، فساقوا إليها كثيرين من الطوسيين ، وقطعت رؤوسهم ووضعت في أسفل المشانق . وأطلقوا سراح

المستضعفين منهم وأصبح لأهل نيسابور هيبة عظيمة حتى أن معظم الطوسيين كانوا لا يجرؤون على النظر إليهم . وقد سر السلطان من هذا الذي عمله أحمد وبه أحى من صفحته ما قد لحقه من عار هزيمة كرمان .

ذكر أحوال كرمان وهزيمة الجيش الذى كان مقبلاً بها

ولا مفر من الاسترسال فى الحديث فنوضح أمر كرمان وأسباب الهزيمة فإن هذا من حق التاريخ عليها .

فى الوقت الذى جاء فيه السلطان مسعود من هراة إلى بلخ ، وكان قد أرسل جيشاً مع الحاجب الجاهل دار إلى مكران ، وسارت الأمور على ما يرام ، واستقر الأمر لأبى العسكر وضبطت أمور هذه الولاية واستراح الناس ، أنهى العيون الذين كانوا فى ولاية كرمان إلى السلطان ، أن الحاكم هناك هو أمير بغداد^(١) ، وأن أهل الفساد يفسدون فى الأرض ولا يخشون العدالة ، بحجة أنه مشغول بأمر نفسه وأنه عاجز . فحملت السلطان همته العالية ٤٣٠ على الاستيلاء على هذه الولاية ، فإنها متصلة بأقصى سيستان ، ثم من ناحية أخرى فإن الرى وإصفهان حتى همدان فى حوزة السلطان وبها حشم دولته ، واستشاروا الوزير الأستاذ الرئيس أحمد حسن فى الأمر فى مدينة بلخ ، وظلوا فى هذه المشاورات بضعة أيام حتى استقر رأى على إيفاد أحمد على نوشتكين ، على أن يكون والياً وقائداً وأن يكون أبو الفرج الفارسى كتنخدا للجيش

(١) لاحظ غنى - فياض (١) أن حاكم كرمان فى ذلك الوقت كان بكاليجار الديلى صاحب الأهواز . (وهو غير بكاليجار الجرحاني الذى تكرر الحديث عنه فى هذا الكتاب) ، وأن أمير بغداد كان جلال الدولة . وجاء فى حاشية ياب أن إمارة بغداد فى ذلك الوقت كانت فى الغالب بيد الديالة ولذلك ذكر أن بكاليجار كان أمير بغداد .

والأعمال والأموال ، وكتبت المنشورات وازدانت بتوقيع السلطان ، وأعطى
الوالى خلعة عظيمة ، كمرأ وعمامة من ذات الركنين وكوساً وراية وخمسة
أفيال ، وكل ما هو جدير بهذه المرتبة من الآلات ، كما أعطى الكتخدا عدة من
الذهب وسيفاً ذا خمائل . ولبس الوالى الخلعة ، وجرت الأمور على خير وجه ،
وأعد استعراض مهيب ، وأمر السلطان بأن تتلى عليه جريدة العرض ، فجاء
العارض ومعه أربعة آلاف فارس ، ألفان من الهند وألف من الترك وألف
بين كرد وعرب ، وخمسمائة راجل من كل صنف ، وكتبوا إلى عامل سيستان
ليجهز ألفين من الرجالة السجستانيين ومعهم ما يلزمهم ، على أن يزودهم أبو الفرج
من أموال كرمان . فلما تم هذا الأمر ركب السلطان وسار إلى الميدان ليستعرض
هذا الجيش مع مقدميه أصحاب الكمر المذهب ، وكان الجيش فى عدة كاملة ،
وأعطى السلطان أوامره الشفوية للوالى والكتخدا والمقدمين . ثم إنهم قدموا
التحية وانصرفوا واستولوا على كرمان وهرب من هناك جماعة الأوباش
واستقام الأمر للوالى والكتخدا واطمأنت الرعية ، وأخذوا فى إعطاء الأموال
وأرسل أمير بغداد رسولا معاتبا ، وكان صديقا للسلطان السابق ، وكان قد تألم
من الكتابة والتراسل فى هذا الحديث ، فجاء الجواب بأن هذه الولاية مرتبطة
بولايتنا من جانبين وهى مهمة وأهلها يستغيثون من المفسدين وفريضة علينا
أن نفرج كرب المسلمين ، ثم إن أمير المؤمنين بعث إلينا منشورا أن نستولى على
على مثل هذه الولاية التى لاسلطان عليها ولا حامى لها . وعاتب أمير بغداد
الخليفة على ذلك ويثس . وأجاب الخليفة بأن هذا الحديث ينبغى أن يوضع له
حد ، وأن بغداد والكوفة وأرض السواد ، وكلها تحت يدنا ، لم تر مثل ما هى
فيه من الأمن اليوم ، وأنت تعتب اليوم عما ٤٣١ يجرى فى كرمان . وانقطع
هذا الحديث ، ودب خلاف بين الطرفين وأصبح يُخشى من محاولة استرجاع
كرمان ، فإن جيوشنا كانت تتقوى فى ناحية همدان ، فكانوا يخشون أن تفلت

بغداد بدورها من أيديهم . ومضى الوقت ومضت على ذلك مدة واجتازت خراسان وخوارزم وكل جهة فترات من الهدوء ، وبدأ الفتور ، وعلا شأن التركمان ، وامتدت أيدي رجالنا في كرمان ، وارتكبوا المظالم ، حتى ضجعت الرعية هناك وطلبوا الغوث . وفي الخفاء انسل بضعة رجال وذهبوا إلى وزير أمير بغداد ابن ماقية ، وحملوا إليه أسماء أعيان كرمان واستغاثوا ، وقالوا : « إن جيش خراسان هذا غافل ورجاله يعيشون في الأرض فسادا . فينبغي إرسال فوج من الفرسان مع قائد كبير لتبادر الرعية بعونه ولتخلص من ظلم الخراسانيين ونطردهم من ديارنا » . فسار ابن ماقية^(١) ومعه حاجب بغداد ليفاجيء الخراسانيين ، ومعهم خمسة آلاف فارس وانضم إليهم في الطريق خمسة آلاف رجل من الثائرين ، وبلغوا كرمان على غرة من أهلها ، فدخلوها من جانبيين ووقعت معركة هائلة في نرماشير . وعاونهم الأهالي جميعا ضد جيش خراسان وبذل أحمد على نوشتكين أقصى ما في وسعه ، ولكن الهنود تخاذلوا وولوا منهزمين ، فانهارت الروح المعنوية في سائر الجند واضطر أحمد إلى الجلاء . وقد ذهب مع فوج من خاصته وخاصة جيش السلطان إلى نيسابور عن طريق قان ، وبلغ مكران فوج آخر ، ونزل الهنود في سيستان ومنها ساروا إلى غزنة . وكنت (أنا أبو الفضل) قد أتيت في حاشية السلطان في حديقة صد هزاره ، فرأيت مقدمي هؤلاء الهنود الذين كانوا قد بلغوها ، فأمر السلطان بإنزالهم في خان كبير كان به ديوان الرسائل ، وقد حمل إليهم أبو سعيد المشرف رسالة من السلطان شديدة اللهجة ، وبلغ الأمر إلى حد أنهم أخبروا بالاستغناء عنهم . فضرب مقدموهم الستة أنفسهم بالحراش فسالت الدماء في الخان ، فخرجت وأبا سعيد وآخرين منه ، وأبلغت السلطان الخبر فقال : كان عليهم أن يضربوا

(١) ذكر هذا الاسم في ابن الأثير « مافنه » وهو أبو منصور بهرام بن مافند الملقب

بالعادل . غنى - فباض ٢ .

هذه الحراب في كرمان ، وحرقهم كثيرا . ثم عفا عنهم . وبعد ذلك اضطربت الأمور وأصبح من العسير ٤٣٢ إرسال جيش آخر لكرمان ، وجاء أحمد علي نوشتكين وكان في غاية الخجل ، وقد انزوى ولم يمض زمان طويل حتى مات .

ذكرى خروج السلطان من غزنة

على جانب بست ومن بست إلى خراسان وجرجان

ولما حلّ موعد السفر وكانت الأحوال في خراسان وخوارزم والرى والجبال على ما ذكرنا ، عزم السلطان مسعود رضى الله عنه على أن يذهب إلى بست ، ومنها يسير إلى هراة عاصمة خراسان حيث يقرر ما يرى في هذه الأحوال . وقد خلع السلطان مسعود على الأمير سعيد ، وسلبه غزنة ، بحيث يقيم في القلعة بسرأى الساطنة ، وينظر في المظالم بها . وقد عهد إلى السرهنكك أبى على السكوتوال بأن يكون مع الأمير مشيرا ومديرا للأعمال . وأرسل السلطان أبناء الأمراء الآخرين مع أهل الحرم والخدم والوصيفات إلى قلعتى ناي وديرى ، وأعطى الأمير مودود خلعة حتى يصبح به . وأمر بكتابة رسائل لتلك ليجد في عمله وهو منهمك في معالجة أمر أحمد ينالتكين وقد طرده من لاهور . ثم يأمره بالنسبة للقاضى والحشم الذين أنزلوا من القلعة بأن يعاملهم معاملة أشد من ذى قبل ، وأن ينفذ هذه الأوامر بحيث يفرغ من هذه المهمة . وكتب إلى الوزير أحمد عبد الصمد يأمره بالانتظار في الدركاه إلى أن تصل إليها الراية العلية ، وذلك بعد الفراغ من عمله في ختلان وطخارستان . وبعد أن فرغ من هذه المهام سار السلطان رضى الله عنه من غزنة يوم السبت لثلاثة أيام بقيت من شوال ، وقد بلغ تكيناباد في السابع من ذى القعدة وبقي بها سبعة أيام ، وجلس مرة واحدة للشراب ، فقد كان قلقاً ومن هناك جاء إلى بست يوم الخميس السابع عشر من هذا الشهر ، ونزل في جوسق دشت لنكان ، وكانوا قد أقاموا به الحدائق

والعمائر والسرايات الصغيرة . وجاءت من خراسان رسائل هامة عن أحوال التركان ومجيئهم إلى حدود مرو وسرخس وبادغيس وباورد ، وما يجرى نتيجة لذلك من المفاسد الشديدة ، ومن عجز الوكلاء والشحنة عن مقاومتهم ومنعهم . وكان سوري قد كتب يقول : إذا ، والعياذ بالله ، لم يسارع السلطان بالذهاب إلى خراسان ، فإنه يخشى أن تخرج من حوزتنا ، فإن للتراكمة مدداً خفياً من على تسكين ، وإن هرون يغوى الناس في خوارزم ، ويقال إنه تواطأ سرّاً مع على تسكين على أن يجيء أولهما إلى مرو ، وأن يزحف ثانيهما على ترمذ وبلخ ، ثم يتقابلان . فلما بلغت هذه الأخبار سامع السلطان لم يهدأ له قرار .

ويوم الأربعاء ، نهاية هذا الشهر ، سافر من بست ، وفي طريقه جاء المبشرون يحملون رسالة تلك التي يقول فيها إنه قتل أحمد ينالتسكين العاصي المغرور وأسر ابنه وأن التراكمة الذين كانوا معه قد دخلوا في الطاعة . وقد سر السلطان بهذا الخبر سروراً بالغاً ، فقد رفع عن كاهله عبئاً ثقيلاً . وأمر بأن تدق الطبول وأن ينفخ في الأبواق وأن يعطى المبشرون خلعاً ، وطافوا بين جند الجيش وانهاى عليهم مال كثير . كانت الرسائل التي بعث بها تلك وقاضى شيراز والعيون تقول : « إن تلك بلغ لاهور وأسر جماعة من المسلمين من أصحاب أحمد ينالتسكين ، ثم أمر بقطع أياديهم اليمنى نخاف من كان يناصر ينالتسكين من من القوم لما رأوا من سياسته ، وطلبوا منه الأمان وانفضوا من حول أحمد واستقر نظام الأعمال والأموال . ثم إن تلك استعد مع رجاله الكثيرين ، وكان معظمهم هنوداً ، وتعقب أحمد ، وحدثت في الطريق معارك واشتباكات ، ورأى أحمد خذلان ربه له . وكان تلك يخدع جند عدوه ، فكانوا يتجمعون ، وحمل وطيس القتال وثبت فيه أحمد ، ولكن سرعان ما دارت عليه الدائرة وهزم ، وانفض التركان جملة من حوله وطلبوا الأمان وهرب أحمد مع خاصته وجماعة من أشد أتباعه إثمياً ، كانوا ثلاثمائة فارس . ولم يرجع تلك عن الجد

في أثره ، وكتب إلى الهنود العصاة من طائفة الجتان^(١) لكي يسدوا ٤٣٤ المنافذ على هذا المخدول ، وأن يتخذوا حيطتهم وقال لهم إن من يأتي به حياً أو يأتيني برأسه فله خمسمائة ألف درهم . ولهذا ضاقت الدنيا على أحمد بما رحبت ، وانفض الناس من حوله ، وكانت نهايته أن تعقبه الجتان والكفار من كل ملة حتى إذا بلغ نهرا ذات يوم ، وكان ممتطياً الفيل ، أراد أن يعبره فحمل عليه قرابة ثلاثة آلاف فارس من الجتان ، وكان قد بقي معه أقل من مائتي فارس ، فألحقوا به في اليم ولحقه الجتان من جهات عدة معظمهم يطمع فيما معه من المتاع والنعيم . فلما اقتربوا منه أراد أن يقتل ولده بيده ، فمنعه الجتان ، وكان ولده على الفيل فاخطفوه . وأعملوا في أحمد السهام والحرا ب والسيوف ، وقد قاوم كثيراً ، ولكنهم قتلوه وقطعوا رأسه . وأما رفاقه فكانوا بين قتيل وأسير ، واستولى الهنود على أموال كثيرة كانت معه . وأرسل كبيرهم ، فوراً ، وفداً إلى تلك ، الذي لم يكن بعيداً ، يبشره بما جرى . فسر تلك كثيراً . وتدخل جماعة بين الوفد وتلك ، وطال الحديث إلى أن اتفقوا على إرسال ولد أحمد ينال تكين مع رأس أبيه ، وتكلموا في موضوع الخمسمائة ألف درهم . فقال تلك إنكم قد حصلتم على مال أكثر من هذا ، بما أخذتم من أموال وأنكم إذا عدلتم عن المطالبة بهذا المال فإنكم تكونون قد أدبتم خدمة كبيرة ، وتحصلون على ثمرة هذا التصرف الحميد ، فغضوا النظر عن المطالبة بالمال كله ، وتبودلت الرسائل مرتين بين الفريقين وارتضوا آخر الأمر مائة ألف درهم . وقد أرسل تلك المبلغ ، فأحضر الجتان له رأس أحمد وولده . فعاد موقفاً إلى لاهور حتى يسوى بقية الأمور ، ثم يبادر بالسير إلى عاصمة الملك العالية بأسرع ما يمكن بإذن الله عز وجل .

وقد أحسن الساطان الجواب ، وعطف على تلك وصحبه ، وحمد لهم

(١) جتان أو جطان اسم طائفة من الهنود أغلبهم مسلمان . حاشية نسخة ط . غني - فياض

حاشية ١ ، نفيس من ٥٢٧ حاشية ٧

صنيعهم . وأعيد المبشرون ، وأمر تلك بأن يذهب إلى البلاط ومعه رأس أحد يالتكين وولده . وهذه هي عاقبة الخاتنين العصاة ، وهذه سنة الخاق منذ آدم عليه السلام ألا يخرج أحد على مولاه إلا وينتهي أمره ٤٣٥ بقطع رأسه . وإذ جاء هذا في الكتب فلا أطيل في ذكره . وقد أمر السلطان بتحرير كتب إلى الأعيان والعظماء في أطراف الممالك مع الرسل والمبشرين . فقد كان هذا فتحاً مبيناً .

وبلغ السلطان هراة يوم الخميس منتصف ذي الحجة . وفي يوم الأربعاء الواحد والعشرين من هذا الشهر سار من هراة إلى سرخس عن طريق پوشنك وهناك استعرض الجيش . وجيء بمظفر الطاهر مقيداً ، وكان عامل پوشنك وزعيمها . كان سوري صاحب ديوان خراسان قد دس له مستعيناً بأصدقاء له مثل أبي سهل الزوزني وآخرين ، حتى ينجح مكره ، فإن السلطان كان سهل أباً سهل برضائه العالي وعاد إلى البلاط نديماً . ويشاء القضاء الذي لا يرد أن يكون السلطان قدس الله روحه شديد الضيق حين كانوا يتحدثون عن مظفر الطاهر ، فإن الكتب كانت قد جاءت بحديث التركان ومفاسدهم ، فقال وهو ضيق الصدر : يجب تعليق مظفر هذا القواد من رجله . وكان حاجب السراي أبله اسمه خمارتكين ترك ، كان من رجال محمود ، قوى الجسم جريئاً ، فخرج وقص هذا الحديث ، واغتتم جماعة سوري وخصوم مظفر هذا الكلام وأسرعوا بتقديم ألف دينار لهذا الحاجب ، وبدون مراجعة السلطان في الحكم : أمر بأن يعاقب مظفر الطاهر على شجرة من أشجار حديقة القصر فعلقوه وأسلم الروح .

وكان الخواجة أبو نصر مشكان في الديوان فلما سمع هذا الحديث حزن ، ودعا أمير الحرس ومحتاج ولا مهم بشدة وعنفهم ، وقال ليس هذا بعمل هيئ ، فإن السلطان قد أصدر أمره وهو غاضب ، فكان لابد من التوقف في تنفيذه ، فإن الرجل لم يكن لصاً . قالوا . إن الحاجب قد خرج وأمر بهذا ، وقد أخطأنا

لأننا لم نعد السؤال ، والآن وقد حم القضاء فبماذا يأمر الخواجة ؟ فقال بماذا آثر ؟ إن هذا الخبر لا بد وأن يرفع للسلطان ولا أدري بماذا يأمر . فأنصرف الرجلان كالموتى من شدة الخوف . وهدأت ثورة السلطان ورغب في الأكل فنادى أبو نصر ، وتناول الحديث پوشنكك أثناء الطعام فقال السلطان : ٤٣٦ ما العذر الذى ساقه هذا الكلب الذى لا يقدر النعمة — يعنى مظفر — عن ظلمه فقراء هذه النواحي ؟ فقال أبو نصر متى يتكلم مظفر وكيف يستطيع أن يتكلم ، البقاء للسلطان . فقال الأمير بأى سبب وكيف مات ؟ فأوما أبو نصر إلى الحاجب بكتغدى فى ناحية جناح الغلمان ، فقال بكتغدى البقاء للسلطان . لقد علق مظفر فى جذع الشجرة كالآمر العالى . فقال السلطان ماذا تقول ؟ وهمرخ وكفت يده عن الطعام . فبادر السالار بالتوضيح . فتميز السلطان من الغيظ وقال : يا للحجب افترق أرواح الناس بهذا اليسر وخاصة من أمثال مظفر ؟ إنك كبير الحجاب ، وقد كنت بالباب فكيف ارتضيت هذا ولم تطلعنا على الأمر ؟ فقال : أطال الله حياة السلطان إننى سالار غلمان السراى ، وعملى جد ثميل ، ولا أتدخل فى غيره ، ولا أقول شيئاً عن أعمال الآخرين فى القصر . وقد سمعت فى ذلك الوقت عن هذا الرجل إنه قتل . فقام السلطان من على المائدة وهو فى غضب شديد وغسل يديه وطالب الحاجب بكتغدى وأجلسوه وقال : نادوا حاجب السراى هنا ، فنادوه ، وكان يرتعد هلعاً فقال له أيها الكلب كيف قتل هذا الرجل ؟ . فقال إن السلطان قد أمر بكذا وكذا فظننت أنه حقاً يريد ذلك . فقال اقبضوا عليه . فأمسكه الخدم . قال اخرجوه من الخيمة وأضربوه ألف عصا كما يضرب الخدم حتى يقر كيف تم هذا . فحملوه وأخذوا يضربونه فأقر ، وعرف السلطان حديث المال فسخط سخطاً شديداً على أبى سهل وسورى ونادى وإلى الحرس ومحتاج ، وقال السلطان : لماذا قتلتما مظفر . فقالا لقد جاء أمر السلطان على لسان حاجب السراى . فقال : لماذا لم تراجعا

في الأمر ؟ . قالوا : كان ينبغي أن يكون هذا ، وسوف نتبعه في المستقبل . فقال السلطان : لولا حديث حاجب القصر لأمرت بضرب عنقيكما . أما الآن فيضرب كل منكما ألف جلدة حتى يعود إليكما الصواب . وضربوهما .

سنة ست وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤)

كانت غرة سنة ست وعشرين وأربعمائة يوم السبت ، وقد جاء السلطان إلى سرخس في الرابع من محرم ونصب السرادق وخيمة عظيمة ٤٣٧ على شاطئ نهر كبير ، وكان في المعسكر جيش عديد . وفي يوم الأحد التاسع من هذا الشهر جاءت رسالة صاحب برید ری بموت أبي الحسن السيارى رحمة الله عليه وكان يشغل منصب حاجب الديوان ، وكان رجلا كفؤا قديرا . وقد أمر السلطان بإرسال كتاب إل سيستان ، وكان بها عزيز بو شحنة يقوم على استحثاث^(١) جباية المال ، ليذهب إلى الري ويقوم بوظيفة صاحب الديوان ، وأرسل كتابا بذلك إلى الخواجة أبي سهل الحمدوى عميد العراق . وفي هذه الأيام القليلة وصلت الأنباء السرية من خوارزم منبئة بأن هرون يعد العدة ليغزو مرو . فبعث السلطان بهذه الرسائل إلى الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد وجاء الرد من قبل الوزير ، فخرجت به خفية وقد جاء فيه . « إنه على الرغم من اشتغالي بأمر ختلان وطخارستان ، فإنني جعلت موضوع هرون المخذول في المكان الأول ، وإن الأمور سائرة على خير بما كنا نرجو بيمين الدولة العلية ، وقد أنفقت أموال طائلة لتدبير الأمر ، وقد اتفق على أنه ، يوم يسير هرون شطر مرو ، فإن هؤلاء الغلمان العشرة الذين بايعوا معتمدى ، سوف يغتالونه ، فإذا قتل تبددت أحلامه وتلاشى مقصده ، وحينئذ يخرج

(١) انظر ص ١٦٧ حاشية ١ من هذا الكتاب .

ولدى عبد الجبار من مخبئه ، مجهزا ، فيضبط الأمن في المدينة ويمكن للجيش بالسلح والمال ، فإن أغلبية الجند المحمودية والألتوتناشية قد بايعوني على هذا الأمر ، وقد قت بكل ما أستطيع وسوف نرى ما يكون وما قدره الله عز ذكره . وهؤلاء الغلمان العشرة هم أقرب الغلمان لهرون وقد بادروا مرات عدة بقتله ، ولم تكن الفرص مواتية ، لأنه مقيم في القصر وحوله حراسة شديدة ، ولم يركب أبداً للنزهة أو الصيد أو لعب الصولجان ؛ فإنه منكب أبداً على تهيئة العدة لغزو مرو ، ولن يصل هذا المدبر الجاحد إلى مراده إن شاء الله تعالى ؛ ولن ينجى شيئاً من عصيانه المشؤوم .

فلما أخرجت المعمى وحللت رمزه ثم سطرته في نسخة مقرأ فقرأه الخواجة أبو نصر وسر بما جاء فيه سروراً شديداً ثم توجه إلى البلاط . فلما انتهى المجلس السلطاني ، وكنت واقفاً ، دار الحديث عن أحمد ينالتكين وتناول كل من الحاضرين طرفاً من الحديث ٤٣٨ وتطرق الحديث كذلك إلى هرون وخوارزم ، وقال أبو النصر الحاجب إن هرون سوف يلقي مصير أحمد ، وإن خبره مرتقب بين ساعة وأخرى . فقال السلطان : الفأل حق ، هذا مصيره إن شاء الله . ثم أعطى أبو نصر ترجمة المعمى (يقصد نسخته التي لارموز فيها) إلى ترك صاحب الدواة ، فقرأها السلطان وكتب عليها ، وأعادوها إلى أبي نصر . واستمر الحديث ساعة أخرى . ثم قام السلطان وانصرف القوم . وعاد الخواجة أبو نصر إلى القصر وقرأ الرسالة مرة أخرى مع السلطان ، ولبثا مختليين حتى صلاة العشاء . وانصرف أبو نصر وسار إلى الخيمة وناداني ثم قال : « لقد سر السلطان أيما سرور بهذا المعمى ، وقال إن رأي أن نذهب إلى مرو ، فإذا انتهى أمر هرون نسير إلى نيسابور حتى نعيد النظام إلى الري والجلال بعد ما اضطرب الأمن فيهما ، وحتى يرسل أهل جرجان ما عليهم من المال . فقلت أطل الله عمر السلطان ، إذ انتهى أمر هرون ، وإنه لمنته إن شاء الله بغاية (م ٣٠ — البيهقي)

السرعة فإن أمارات ذلك واضحة ، وأما إذا تأخر فالرأى الراجح عندى هو أن يذهب السلطان إلى مرو فإن التراكمة منتشرون على حدود هذه الولاية ويركزون معظم قواتهم ناحية بلخ وطخارستان ، وذلك حتى يقطع دابرهم ، وحتى يقطع عليهم المدد ، فإن المنهين فى بخارى وسمرقند قد أنبثوا أن جماعة أخرى من المفسدين يستعدون لعبور جيحون ، وحين تقترب الراية العلية من بلخ وجيحون ، وتبقى فى مرو واسطة خراسان ، فإن هذا الخلل كله يزول . فقال السلطان هكذا نفعل . والآن نمكث أياما فى سرخس حتى نرى كيف تسير الأمور .

وكان أبو نصر ، فى مثل هذه الأمور ، أبعد الناس نظرا . رحم الله كل من مات بمنه وفضله وسعة جوده . وفى يوم الأحد منتصف محرم جاء إلى المعسكر السهسالار على عبد الله وقابل السلطان ، وقص عليه ماجرى من الأحوال التى أرسل من أجلها . ويوم الأربعاء السادس والعشرين من هذا الشهر أتت رسالة من بلخ تنبئ بقتل الحاجب بكتكين السهسالار . وكانت له كوتوالية ترمذ . وكان يشغل هذا المنصب أيام السلطان محمود فى روستاق نيسابور ، وقد أسر أبانصر طيفور سالار شاهنشاهانية وأحضره إلى غزنة . وفى أيام هذا الپادشاه قام بخدمات جليلة فى تكينا باد ، وقد ذكرت ٤٣٩ ذلك من قبل فى حديث الأمير محمد أخى السلطان مسعود . ويشاء القضاء فى هذا الوقت أن يأتى إلى حدود ترمذ فوج قوى من التراكمة : ويفسد فى قباديان فسادا عظيما ، ويسرق الماشية ويغير على البلاد ، فتعقبهم بكتكين الحاجب فى قوة كاملة فولوا منه فرارا إلى اندخود وسيلة^(١) ، فسارع بكتكين فى مطاردتهم حتى

(١) يقول غنى - فياض (١) أنه يجهل كثيرا أن يكون ميمنة أو ميمند المعروفة فى هذه الجهة .

لحق بهم عند حدود شبورقان واشتبك معهم في معركة من الضحى حتى المساء ، وكان القتال شديد الوطأة ، وقتل فيه كثيرون أغلبهم من التراكمة ، وانجلت المعركة عن هزيمة هؤلاء المخاذيل وفرارهم إلى الصحراء ، فتعقبهم بكتكين ، وقد نصحه خاصته فقالوا إن العدو قد هزم وطحنته الحرب فولى فرارا ، وإن من الخطأ تعقبه ، ولكنه لم ينتصح فإن أجله قد آذن بالانتهاء . فلما تعقبهم لقي جماعة من أقوى مبارزيهم فجرى بينهم قتال عنيف استمر فيه الفارون ، وقد لحق بكتكين فارس منهم ، كان يستحثهم على قتله ، فارتاع ، فكشف الدرع عن أسفل بطنه فرماه تركي بسهم أصابه فيه ، ولكنه ثبت وتحمل الألم وانتزع السهم بجهد كبير ، ولم يظهر لأحد أنه أصيب حتى اشتد به الألم فلم يستطع عليه صبرا فلما بلغ منزلا من الطريق أنزله رفاقه من على جواده في طريق سندس وأرقدوه وقضى نحبه ، ثم عاد الجيش إلى آمد حيث دفنوه ، وقد عاد السلاجقة بعد ثلاثة أيام من سماعهم هذه الحادثة . وقد اغتم السلطان حين سمع هذا الخبر ، فقد كان بكتكين قائدا فذا ونادى على الفور السهيسالار على ابن عبد الله وقص عليه ماجرى ، فقال على فلتكن أرواح العبيد جميعاً فداء للواجب ، ولكن بالرغم من أن الأستاذ الرئيس هناك فليس في طخارستان وجوزجان حتى شاطيء جيحون قائد ، ولا مناص من إرسال جيش قوى مع قائد إليها . فقال السلطان يجب أن يذهب إليها قائد وجيش ليقطع الطريق على الجمالة المفسدين ويؤدبهم ثم يسير إلى بلخ . فقال على سمعاً وطاعة فمضى أرحل ؟ قال بعد غد إذ يجب الإسراع في المسير بعد أن جاء هذا النبأ العظيم .

فقال على سمعاً وطاعة ، ثم قبل الأرض وعاد إلى بيته . ثم أعيد تعيين ٤٤ الرجال الذين كانوا معينين معه من قبل والذين حضروا هذا الأسبوع . وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر محرم مثل للخدمة وقابل الأمير ثم سار

إلى جوزجان وبأمر سلطاني عين الخواجه أبو نصر أبا سهل الهمداني الكاتب صاحباً للبريد في الجيش ، وسار مع السهيسالار . وقد قام على بهذا الواجب خير قيام ، فقد كان رجلاً شديداً الحذر ، وكان يقود الجيش بمهارة فائقة ، وحمل الجمالة على الطاعة وأبرم معهم صلحا ، ثم توجه إلى بلخ ، وعظمت هيبة الدولة . وفي اليوم التالي ، السبت ، بعث نوشتكين الخادم الخاص كتابا من مرو مع فارسين جاء فيه : « إن فوجا من التراكمة قد جاءوا من سرخس إلى هذه الناحية فجهزت من الجيش المنصور ، حين عرفت هذا الخبر ، جيشا من غلجاني ، وأسرعت إليهم فلقيتهم ، ودارت بيني وبينهم حرب طاحنة دامت من صلاة الظهر حتى أسدل الليل ستاره ، وانجالت عن هزيمتهم وفرارهم إلى صحراء نه كنبدان ، ولم يكن من الصواب تعقبهم ليلا في الصحراء ، فلما جاء الخبر في الغداة بأنهم أعدوا العدة ، عدت إليهم وفرضت النظام ، وأمرت بنصب رؤوس القتلى الذين قاربوا المائتين على العيدان لتكون عبرة للناس ثم إنني مرسل إلى حضرة السلطان أربعة وعشرين من مبارزيهم أسروا في الحرب ليأمر السلطان فيهم بما يتبع » . فأخذ السلطان في الشراب بعد وصول هذه البشري ، وأمر بالخلع وبالصلوات للبشرين بها ، ثم أعادوهما . ونفخوا الأبواق ودقوا الطبول وأخذوا في الشراب بعد صلاة العصر من ذلك اليوم . ثم أمر بإلقاء الأسرى للقبيلة أمام الخيمة الكبيرة . وكان يوما هائلا عرفه البعيد والقريب على السواء .

وفي يوم الثلاثاء الثامن من صفر جاء الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد خانما ظافرا ، فقد جرى على يديه حادث عظيم عند حدود ختلان وطخارستان ، وأقر الأمن في تلك النواحي واستقر بها النظام تماما ، وعملا بالأمر السلطاني سلهما إلى الحاجب الكبير بلكاتكين ، ثم عاد وقد استقبل استقبالاً جديراً به . فلما قابل السلطان شمله بعطفه أمام الناس ، ثم اختلى به فورا ، وكان صاحب ديوان الرسائل هناك فسمعت منه أن السلطان قال للوزير إن الأحوال في

طخارستان وختلان قد استقرت بجد الوزير وسعيه الجليل ، وإن شاء الله يقضى قريبا على هرون ، وقد جفل التراكمة وتقهقروا من باورد ونسا ، وألقوا بأنفسهم في فراوة^(١) ، وإن جيشا قويا يسير في أثرهم برياسة يبرى قائد الاصطبلات ، يعاونه عدد من الحجاب والمقدمين المشهورين ، ويعمل عبدوس كتخدا ومديرا لشئون هذا الجيش ، وإن سورى قد سار امثالاً للأمر من طريق استوا ومعه قدر الحجاب وشختا نيسابور وطوس ، وكانوا مجهزين لينضموا إلى هذا الجيش . ولم يكفوا عن تعقب أثر الأعداء حتى تواروا في بلخان كوه ، وكان سورى قد حمل معه العلف وكل ما يلزم من العدد لاجتياز الصحراء ، وقد استقر رأينا على أن نذهب إلى مرو وأن نبقى بها هذا الشتاء حتى تستقر الأمور بها استقرارا تاما . فما رأى الوزير في هذا الموضوع ؟ . فقال أحمد إن هذا عين الصواب ، فإن بهذا التدبير تعود خوارزم إلى حوزتنا ، ويقضى على التراكمة في خراسان ، ثم إنهم من ناحية أخرى لن يجرؤا على عبور جيحون . فقال السلطان : عودوا إلى بيوتكم ودعونا نعمل الفكر في هذه الأمور فإننا مقيمون هنا عدة أيام . فعادوا . وسار الوزير إلى خيمته فأقبل عليه العطاء والاعيان والحشم مسلمين .

وفي يوم الأحد الرابع عشر من صفر أحضر من الرى طاهر الكاتب ومعه جماعه وأبو المظفر الحبشى الذى كان صاحب البريد ، جاء بهم الفرسان غير مقيدين وأوقفوهم على باب الخيمة الكبير على البغال والركائب . ثم أطلعوا السلطان على الأمر فأمر باعتقالهم في خيمة الحرس فاعتقلوهم جميعا . وبعد صلاة العصر جلس السلطان للاستقبال ، فلما فرغ منه أخذ العراقى الكاتب يروح ويغدو بين السلطان والمعتقلين حاملا الرسائل الشفوية . وقد انتهى الأمر

(١) مدينة صغيرة بن نسا ودهستان وخوارزم ، وتسمى رباط فراوة ، غني - قياس ١ .

بضرب أبي المظفر ألف جلدة وهو مشدود إلى العقابين . وكان هذا الرجل كفاً وشهماً وكان صديقاً حميماً لصاحب ديوان الرسائل ، ولكن هذا لم يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة دفاعاً عن صديقه ، فإن السلطان كان شديد الخنق عليه . وضربوا بعده أربعة آلاف رجل من عمال طاهر وخدمه ، كلا منهم ألف جلدة ، ثم إنه أمر بأن يضرب طاهر أيضاً ولكن الحاضرين جميعاً تشفعوا له والتمسوا من السلطان أن يعفو عنه ويصفح عن ضربه ، فأخذوه إلى هندوستان واعتقلوه في قلعة كبرى ، وأما الآخرون فقد نقلوا إلى مدينة ٤٤٢ سرخس وأقاموا في سجنها . وقد عني أبو نصر بأمر أبي المظفر وأوصى برعايته وقد لبث حبساً سنة ، ثم انتهزوا الفرصة وسعوا حتى أفرج عنه . وقد فقد طاهر مكانته عند السلطان وساء حظه فظل مقصياً ومات عاطلاً « نعوذ بالله من انقلاب الحال » .

وفي يوم الأربعاء السابع عشر من صفر ، بعد الاستقبال ، اختلى السلطان بالوزير وبصاحب ديوان الرسائل وبالأولياء والحشم ، وكان الخواجة حسن ميكائيل حاضراً أيضاً ، وتشاوروا في موضوع السفر وما استقر عليه رأى السلطان من التوجه إلى مرو ، ثم انفض الجمع وهم على هذا القرار . وقد أعد الخواجة حسين الوكيل العدة لهذا السفر . وفي العشرين من هذا الشهر سافر سوري ليأمر بتجهيز المؤن بحيث لا يظهر عجز في أية ناحية منها حين تصل الراية العالية إلى هناك . وبعد ثلاثة أيام من سفره أمر السلطان بإقامة السراق في طريق مرو على مسيرة ثلاثة فراسخ من المعسكر ، وكان عيد سده^(١) قد اقترب ، فساقوا إلى الصحراء جمال السلطان وكل جمال الجيش

(١) ويسمى السدق في السكتب العربية ، ويسمى عند الفرس أبان روز أيضاً ، ويعمل في ليلة الحادى عشر من شهر بهمن ماه من شهور الفرس (يناير - فبراير) ، وسنتهم فيه لإيقاد النيران بسائر الأدهان والولوع بها حتى أنهم يلقون فيها سائر الحبوب . وقد ولعت الشعراء بوصف هذه الليلة . أنظر صبح الأعشى (الفلقشندي) ج ٢ ، ٤٢٢ - ٤٢٣ . والآثار الباقية (البيروني) ص ٢١٥ وما بعدها في أعياد الفرس .

وأخذوا في جمع حطب الطرفاء ليوم سده ، ثم بعد ذلك تحركوا ، وأحضروا عيدان الحطب وألقوها في صحراء بها نهر كبير مملوء بالثلج فتراكت وأصبحت كالقلعة وأقاموا عرائس من الخشب وملئوها بالطرفاء ثم جمعوا أكواما أخرى كثيرة ، وصارت كالجبل ارتفاعا ، وأتوا بكثير من المعدات والطيور وما يلزم ليلة هذا العيد من الحاجيات .

وسمعت من الخواجة أبي نصر أن الوزير الكبير قال لي ماذا تظن فيما يجري من التدبير للسير نحو مرو ؟ قلت ينبغي التريث في إبداء الرأي فإن الجيش لم يسر بعد ، قال ليس هذا من قبيل الظن فإن الأمر قد قطع فيه وذهب الوكيل لإعداد العدة . قلت من الممكن أن يعاد النظر بعودة الوكيل كما صدر أمر بسفره ، ومن الممكن أن تأتي نوبة العودة كما مرت نوبة الذهاب والوكيل يعود كما ذهب ، إذ أنه غير ممكن بأية حال أن نتأكد من أن السفر مؤكد مالم نسر مرحلتين على الأقل .

وحل عيد سده فجلس السلطان في الليلة الأولى في مخيم أعد له على شاطئ النهر ، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النار ، وبعد ذلك سمعت أن ضياء هذه ٤٤٣ النار كان يرى على بعد عشرة فراسخ تقريبا . وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط ، وأطلقت الوحوش التي أحاط بها الثلج تجرى وقد علقمت بها النار . ولم أر مثل هذا العيد بعد ذلك وقد انتهى بسرور .

ولم يجلس الأمير في الغداة للاستقبال . وفي اليوم الثالث ، بعد الاستقبال اختلى بالوزير والأعيان وأركان الدولة وقال : 'إني عازم على الذهاب إلى مرو وقد تدبرت الأمر الآن فوجدت نوشتكين الخادم الخاص يقيم هناك مع جيش كامل ، وأنه قد هزم التراكمة الذين ولوا منه فرارا ، وقد أرسلنا فوجا آخر من الفرسان حتى ينضم إلى جيشه فيستظهر بهم . وقد ذهب إلى نسا

جيش قوى عليه سورى وعبدوس . وتوجه السهسالار على إلى جوزجان وبلغ ، ويقوم في طخارستان الحاجب الكبير مع جيش ، وهذه الجيوش قريب بعضها من بعض ، وكذلك فإن على تكئين وغيره ممن قطعوا معنا العهود لن يجرؤوا على الإغارة علينا ، فالصواب الذى أرى هو أن نذهب إلى نيسابور حتى نكون قريبين من الرى وتستقر الأمور وتحل المشا كل التى أثرت ويخشى أهل جرجان بأسنا ويرسلوا إلينا مال الضمان عن سنتين . فقال الوزير : إن الصواب ما رآه السلطان . ولم ينطق أبو نصر ، ولم يكن للحجاب بكتغدى وسبائى وأبى النصر الجرأة على التدخل فى مثل هذا الكلام ، وخاصة بعد أن أجاب الوزير على هذا الوجه . وأمر السلطان بكتابة رسالة إلى حسين الوكيل حتى يعود ، وأمر بإعادة السراشق . فقالوا سمعاً وطاعة ، وعادوا ، وكتبت الرسالة وأعد لملها فارسان ، فركبا على وجه السرعة وانطلقا . فقال أبو نصر للوزير : هل رأى الوزير كيف أنهم لم يتركوا رأياً سديداً يسير فى مجراه ؟ قال : « رأيت ، وقد عرفت أن هذا كله حدث بتدبير من العراقى الكاتب ، وليس للكلام مجال اليوم أبداً . ومهما يكن فسندهب إلى نيسابور وسيقيم السلطان بها ، وحينئذ ، إذا كان هذا العراقى قد جعله يصمم على السير إلى جرجان وسارى (مازندران) ، لمصلحته الشخصية ، ليرى أهل هذه الولاية ما يرفل فيه من الخير وما ينعم به من القرب من السلطان ورأيت السلطان يعزم على السير فإنى ، بغير مبالاة ، سأبين له خطأ هذا السير وأبرئ ذمتى ، فإن العراقى مجنون ، وهو يتحدث بكل ما يبدو له ، وهذا السلطان يستمع إليه ، وقد صور له أن ليس بين رجاله من هو أخلص فى النصيح منه ، وإنى أرى أن خراسان والعراق سيفقدان نتيجة لأعماله . » وأعاد الفراشون السراشق وحملوه ناحية نيسابور .

ويوم الأحد ليومين بقيا ٤٤٤ من صفر ، ذهب السلطان من سرخس وبلغ نيسابور يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول ، ونزل فى شادياخ . وكانت

هذه السنة جفافاً . وقد حلّ الشتاء بهذه البلاد ، ومضى قرابة عشرين يوماً من شهر بهمن^(١) ، ولم ينزل الثلج بها إلا مرة واحدة ، ولم يزد ارتفاعه فيها عن أربعة أصابع . وكان الناس جميعاً في عجب من هذا . ونتيجة لهذا الجفاف ظهرت عجائب ونوادر سوف أتحدث عنها . في اليوم الثالث من بلوغ السلطان نيسابور اختلى بالوزير وأعيان الدولة . وكان أبو الحسن العراقي واقفاً قرب السرير ، وتناول الحديث موضوعات شتى . قال السلطان إنى لا أريد البقاء هنا أكثر من أسبوع فإن الأمور قد استقرت في خراسان وذهب التراكمة إلى جهنم والجيش يسير في أعقابهم ، وذلك حتى تبقى ذخيرة العلف في نيسابور للصيف حين نعود ، وسوف يأتي سوري إلى هنا ويتولى تنظيم الشؤون الأخرى ، ويقال إن عشرة أمان من القمح تباع بدرهم واحد ، في دهستان وأن خمسة عشر من الشعير تباع بدرهم ، فلنذهب إلى هناك حيث تعلق الدواب بالمجان ، ويقضى الجيش وقته في سعة من العيش وينجو من شدة البرد ، وسنكون قريبين من خوارزم وبلخان كوه ، وسيعرف عبدوس والجيش أحوالنا فتشتد عزائمهم ، كما يصل الخبر إلى الري والجلال بأننا قد تحركنا من نيسابور إلى هذه الناحية فيقوى عزم أبي سهل وتاش ومن هناك من الحشم ، ويميل إلى طاعتنا ابن كاكو وغيره من العصاة ، ويسير تاش إلى همدان حيث لامنازع ، ويرسل إلى البلاط كل ما اجتمع من الأموال والذهب والألبسة ، ويرسل أبو كاليجار مال مواضعة جرجان عن سنتين مع الهدايا ، كما يقوم بخدمات أخرى ، وإذا لم يستقم الأمر بهذا فإننا نذهب إلى تاستار ، فإذا وجدنا هنالك ضرورة ذهبنا إلى سارى وآمل حيث المسافة قريبة . ويقال إن سكان آمل ألف ألف رجل فلو أخذ من كل رجل دينار لتجمع منهم ألف ألف

(١) يقابل يناير وفبراير

دينار ، ولخصنا فضلا عن ذلك على الذهب والثياب ، ويسوى كل هذا في ثلاثة أشهر أو أربعة . وبعد النوروز^(١) بمدة حين نكون في نيسابور ، نقدر إذا شئنا البقاء بها في الصيف ويهيء سوري والرعية ما يلزم من العلف . على هذا استقر رأينا ، وإنا لا محالة مسافرون . فهاذا ترون في هذا وماذا تقولون . فالتفت الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد إلى الجاضرين وقال : « أنتم يارؤساء الجيش ماذا ٤٤٥ تقولون » قالوا : « نحن عبيد ، وإن مهمتنا الحرب والضرب بالسيف والإكثار من الولايات التابعة للسلطان ، ونحن نقدم كالأرقاء ، على كل ما يأمر السلطان ، وأرواحنا فداء له ، هذا هو رأينا ، أما ما ينبغي وما لا ينبغي أو ما يليق وما لا يليق ، فهذا من واجب الخواجة لأنه الوزير ، وليس من واجبنا » . فقال الوزير : « إن هندوستان تأثرة بالرغم من القضاء على أحمد ينالتكين والشقة بعيدة منها إلى غزنة ، وليس من الصواب أن نولى غزنة وهندوستان ظهورنا ، ومن ناحية أخرى فإنهم يرجفون بأن على تكين قد مات ، مقدما بقية حياته للسلطان ، وإني مصدق لهذا الخبر ، فقد سمعت عن المرض الذي ألم به ، وكان على تكين ذكيا فذا محنكا يعرف كيف يعمل المداراة مع الجانبين ، وكان يتخذ له عدة من التراكمه والسلاجقة ويكسبهم لجانبه بالقول الطيب والمال ، فقد كان يرى أنهم لو ابتعدوا عنه ضعف مركزه ، ولما مات انتقلت أمور هذه الولاية إلى ولدين ضعيفين ، وقد سمعت أن العلاقات ساءت بين السلاجقة من ناحية وبين هذين الولدين وقونش سبسالار على تكين من ناحية أخرى ، ويجب أن نسعى لكي تزداد هذه العلاقات سوءا . ولا يستطيع السلاجقة البقاء هناك وليست لهم القوة للذهاب إلى خوارزم ، إذ أنه كما تقرر وكما دبرت يجب أن يكون هرون قد زحف ولقى حتفه ، وأن تكون الفوضى قد شملت

(١) تبدأ به السنة الإيرانية ويوافق ٢١ مارس .

هذه النواحي ، وأن يكون شاه ملك قد ذهب إليها ، وهو عدو لدود
للسلاجقة الذين لن يكون لهم مأوى في غير خراسان ، وأخشى أن تلجئهم
الضرورة إليها وخاصة بعد ما سمعوا ، عما حصل عليه أتباعهم من المكانة من
أمثال بوقه ويغمر وكوكتاش وغيرهم ، فإذا ساءت الأمور والعياذ بالله على هذا
النحو ، والسلطان غائب فإن الأمر يطول أمده . والصواب هو ما فكر فيه
السلطان من الذهاب إلى مرو ، ولكن رأيه العالى عدل عنه . وقد أوضحت
ما أعرف قدر استطاعتي والرأى للسلطان . قال السلطان : « إن نوشتكين
الخادم الخاص مقيم في مرو مع جيش كامل ، وفي بلخ وطخارستان قائدان
عظيمان بجيشيهما فكيف يمكن اتراكمة رودبار غزو مرو واجتياز الصحراء ،
وآل التونتاش في شغل بأنفسهم ، وليس أصوب في رأينا من الذهاب إلى ٤٦٤
دهستان لنرى ماذا يكون من أمر خوارزم » . فقال الوزير : « على بركة الله » .
ثم قال السلطان للحاجب سباشى : « قل للجملالة ألا يسيروا بالجمال بعيدا .
فإننا راحلون في مدى خمسة أيام وسنبقى حاجبا هنا مع نواب سوري ؛ وحين
يجيء هذا فإنهما يعملان سويا لإعداد المؤن لحين عودتنا ؛ ثم إن الجيش
بجملته يسير مع رايثنا » . فقال الحاجب « سمعاً وطاعة » . وقال لأبى نصر
مشكان ينبغي أن تكتب كتباً للقائمين بالأمر في مرو وبلخ حتى يكونوا مستعدين
بقضين ، ليراقبوا بدقة حدود الصجراوات ومعارب جيحون ؛ فإننا قاصدون
إلى دهستان لنواجه خوارزم ونسا وبلخان كوه من هذا الجانب ، ولنطرد
التراكمة جملة من خراسان فتهدا نفوسنا . وقال الحاجب بكتغدى لرئيس غلبان
السراى أن يعنى بالغلبان فيستبقى مرضاهم هنا في قهندز وأن يذهب الأصحاء
مجهزين مع جند السلطان وكذلك خيول القيادة . وقاموا وساروا .

وقد سمعت الخواجة أبا نصر مشكان يقول :

« لقد ناداني السلطان بعد عودتنا وحدي واختلى بي ، وقال إنك لم تنطق بكلمة واحدة في هذه الأمور . قلت : أطال الله حياة السلطان لقد طال المجلس ، وتكلم كل بما يعرف ، وإن مهنتي الكتابة ولا أتدخل فيما خفى من الأمور . فقال نعم ولكنك محيط بمهام الدولة منذ زمن طويل ، ولست أجهل أن أبي ، في كل ما يفعل وفي كل ما يستشير وبعد أن يكون الجميع قد أبدوا آراءهم ، كان حين يرجع يعيد دراسة الموضوع معك ، فإن رأيك جلي وفيك من الإخلاص ما لا يتوفر في غيرك ، وكل قصدك هو صلاح الدولة . قلت : أطال الله حياة السلطان إنه إذا صح ما قالوه لمولاي عن أحوال دهستان وجرجان وطبرستان بشأن المأون والذهب والألبسة ولم يحدث خلل في خراسان فهذا خير عظيم وفائدة عظيمة . ولو حدث خلل نعوذ بالله ولم نحصل على ما قدروه ؛ فالخير والأولى أن نتدبر الأمر . ولست أقول أكثر من هذا ، خشيه أن يحدث لمولاي لبس بأنني أنحاز إلى أبي كاليبجار وأهل جرجان ، فقد صوروني في المجلس العالي على أني وكيل أولئك القوم ، ووالله لست كذلك ، وما كنت عليه وما سعت أبداً لغير ما فيه المصلحة ، ومن الممكن إصلاح حال أهل جرجان بالنصائح ٤٤٧ والرسل ، إذا لم يكن من غرض آخر في جرجان . فقال السلطان : هناك أغراض أخرى كما سمعت في عدة مجالس ، ولا مفر من الذهاب إليها . فقلت وفقكم الله يامولاي في هذا الغزو . ثم عدت . وكان الوزير منتظرا وكان قد سمع بأن السلطان قد اختلى بي . فلما عدت قال لي الوزير لقد طالت الجلسة فقصصت عليه ما جرى . فقال إن حيل هذا العراقي قد رسيخت في رأس السلطان وتمكنت منه ، وإنه يمكن لها ويزينها عنده كل يوم في سرخس وهنا في نيسابور ، وسترى ماذا سينجم عنها ، وسوف نرى ، ومع هذا كله فإني سأكتب إليه رقعة ، وأتحدث إليه في صراحة ، وهذه الرقعة يجب ألا يعرضها عليه أحد غيرك . قلت إني فاعل ، ولكنني أظن ألا جدوى من ذلك . فقال الوزير إني فاعل ما يجب عليّ ، حتى

إذا جاء الغد وندم على ما فعل ، وإنه والله سيندم ، وهو بالطمع في الحال والاستبداد بالرأى قد انزلق في هذا الأمر ، لا يقولن لم أجد رجلاً يبين لي خطأ هذا الغزو وضرره وسأشهدك على موقفي ، وإنى أعلم أنه سيفض من رسالتى غضباً شديداً وسيتهمنى ، فلا كن أكثر تهمة ، وسيسبى ، إنى أقبل هذا كله ولا أمنع عنه نصحى .

فقلت إن الوزير يقول قولاً كريماً يقتضيه الدين والاعتماد وحق النعمة . وذهبت إلى الديوان وكان قد أمر بكتب ترسل إلى مرو وبلخ وجهات أخرى . وفي الغداة حين انفض مجلس السلطان وعاد الوزير إليه ، قال السلطان لا تزال على الرأى بأن نذهب غداً . فقال الوزير مبارك ، حقق الله الآمال ، وقد كتبت في هذا الموضوع رقعة وحملت أبا نصر رسالة لينقلها إليكم إذا أمر السلطان . فمال حسناً . وعادوا وأعطى الرقعة لأبى نصر وكانت مقنعة للغاية وقد صرح فيها بأنه لا يتأتى للرعية أن تقول للبلوك يجب عمل كذا ، فإن الملوك العظماء يفعلون ما يريدون ويأمرون بما يرون ، ولكن الرسم والأصل أن الرجل إذا بلغ هذه المكانة التى لى من اعتماد السلطان عليه فإن عليه ألا يرضى بالنصيحة فى كل الأمور ، وقد جرى الحديث بالأمس عن هذا التوجه إلى دهستان وقرر الرأى العالى بالألا مندوحة من السفر ، وقال رجال السيف فى مجلس السلطان إنهم يصدعون بالأمر فى كل ما يرى ، وإن هذه ٤٤٨ هى الأصول عندهم ، ولكنهم أسروا إلى حين خرجوا بأن هذا السفر بجانب للصواب وأنهم من تأييده أبرياء . وإن ما يراه السلطان هو دائماً الصلاح والخير والطيب ، فإذا والعياذ بالله حدث اضطراب فلا يقوان الساطان لم يكن من رعتى من يبين لنا خطأ المسير . وإن الأمر للسلطان فى كل ما يرى وليس للرعية غير الامتثال . قال أبو نصر إن هذه الرسالة غاية فى الشدة والإقناع . فما هى الرسالة الشفوية ؟ قال عليك أن تتحدث إليه بعد أن تستمع إليه فإن البلاغ مطابق تماماً

لما سطرته على الورق . فذهب وأوصل الرقعة فقرأها السلطان ملياً مرتين . ثم قال وما الرسالة الشفوية ؟ فقال أبو نصر : إن الوزير يقول إنى إلزم حدود الأدب فى التوسع فى هذا الحديث ولكن لا حيلة لى وما دمت مكلفاً بالعمل فإنى أقول ما أعرف قدر على وأعرضه على السلطان ، وبغض النظر عن كل ما كتب فإن الغاية من هذا أن أقول أن ليس من الصواب التوجه إلى هذا الجانب وترك خراسان مع كثرة ما فيها من الفتنة والخوارج والنهازين ، والأمر للسلطان . فقال السلطان : إن ما يقوله الوزير ليس شيئاً . إن خراسان وطرقها مملوءة بالجند الذين حملوا تراكمة العراق على الفرار وطاردهم حتى بلخان كوه ، وإن الجيش يتعقبهم والمسافة معروفة بين دهستان وجرجان ، فإذا شئنا فإننا نستطيع العودة إلى نيسابور فى أسبوعين . فقال أبو نصر : إنه كذلك وإن الأمر للسلطان ولا محالة للعبيد من ذكر ما قالوا وخاصة بالنسبة للوزير . فقال السلطان كذلك .

وسار السلطان رضى الله عنه من نيسابور عن طريق إسفرايين كى يذهب إلى جرجان وكان ذلك يوم الأحد الثانى عشر من شهر ربيع الأول . وفى الطريق كان البرد والمطر شديدين حتى رأس ممر دينار سارى . وكان هذا السفر فى شهر اسفندارمذ^(١) . وكنت (أنا أبو الفضل) عند رأس هذا الممر ، مع ما ألبس من الملابس وقباء الفرو الأحمر ولباس المطر وغيرها مما يلبس فى هذه الأيام وكأنى ، وأنا على حصانى ، لا ألبس ٤٤ شيئاً ، وذلك من شدة البرد . فلما بلغنا ممر دينار^(٢) (دينار سارى) ودخلناه وكان ذلك بعد مسيرة فرسخين ، كان ما ارتديت من ملابس وبالا على ، فقد اجتزته إلى عالم مليء بالترجس

(١) شهر إيراني يقابل فبراير - مارس .

(٢) يعرف هذا الجبل اليوم باسم « دينا » .

والبنفسج وشتى الرياحين وكانت الأراضى يانعة الزرع وأشجارها متشابكة
لا حصر لها ، حتى يمكن القول بأن ليس فى الدنيا بقعة أنضر من جرجان
وطبرستان ؛ ولكنها موبوءة كما قال أبو الفضل بديع :

« جرجان وما أدراك ما جرجان ، أكلة من التين وموتة فى الحين ، والنجار
إذا رأى الخراسانى ، نحت التابوت على قدمه ، واسلف الحفار على لحده وعطارا
يعد الخنوط برسمه ^(١) . » وبلغ السلطان رضى الله عنه جرجان يوم الأحد السادس
والعشرين من ربيع الأول ، ومر بقبر قابوس وهو على الطريق ، ونزل فى
مكان على الجانب الآخر من المدينة اسمه محمد آباد على حافة نهر كبير ، وأثناء
اجتيازه المدينة إلى جانبها الآخر سرق أحد أبناء الموالى شاة ، فجاء صاحبها
يتظلم للسلطان ويشكو ، فأوقف هذا حصانه وقال للنقباء ، أريد أن تحضروا
هذا الغلام الآن . فأسرعوا وكان من قضاء الله ودينوا لأجل أن أحضروا هذا
الولد ، وكان من المرتزقة ومعه الشاة التى سرقها . فسأله السلطان أعندك نفقتك ؟
قال عندى كذا وكذا . فسأله لماذا سرقت الشاة من أهل ولايتنا ؟ وإذا انتهيت
اللحم فلماذا لم تشتريه بالدراهم فإنك قد أخذت أجرك ولست فقيرا ؟ فقال لقد
أخطأت فقال لا جرم سترى جزاء المجرمين . وأمر بشنقه على بوابة جرجان
وأعطى حصانه وعدته لصاحب الشاة ، وأطلقوا مناديا ينادى فى الناس هذا
جزاء من يظلم أحدا فى هذه البلاد . ومن أجل هذا استولت الرهبة على
الناس . وبهذا وأمثاله يسوس الراعى رعيته . فإن الملك إذا لم يجد بالعطاء
ولم يجر الأحكام كما ينبغى أن تجرى فسدت الأمور عليه وصار ملكه بددا .
والله أعلم .

* * *

الحكاية في معنى السياسة

من الأمير العادل سبكتكين رحمة الله عليه

٤٥٠ سمعت من الخواجة أبي نصر رحمة الله عليه قال قصّ عليّ خوارزمشاه التوتاش ذات يوم، وكان الحديث حول الملوك وسيرهم وسياستهم التي اتبعوها في وقتهم، والتي لو عدلوا عنها لما استقامت لهم الأمور، قال: لم أر رجلا قط كالسلطان العادل سبكتكين في السياسة والجود وحسن التدبير والمعرفة بجميع رسوم الملك. قال حدث حين ذهب إلى بست وأطاح بولاية بايتوزيان بالمكر والحيلة وصفت له، كان ذات يوم متأخرا في السرادق في مضرب الخيام بصحراء بست، وكنت وأصدقائي التسعة من غلماننا الذين لا يغيبون عن ناظره ساعة، ليل نهار، وكنا نتناوب الوقوف ببابه اثنين اثنين، وإذا بمظلم على باب السرادق قد أخذ ينتحب، وكانت النوبة لي، وكنت خارج مضارب الخيام مع صاحبي، وقد ارتديت الدرع وحملت السيف والقوس والحرية، فصاح السلطان فتوجهت إليه فقال أحضر هذا الشاكي الذي ين، فأدخلته عنده. فقال له ما شكواك؟ فقال إني رجل فقير ولا أملك غير نخلة واحدة، وقد ربطوا فيلا قرب نخلي، ويستولي الفيال على تمرى بالمجان، فليغثنى السلطان بالله. فركب السلطان على الفور، وكنا نحن الإثنين راكبين معه، وذهبنا والشاكي يتقدمنا، ومن المصادفات العجيبة أنا حين بلغنا النخيل وجدنا الفيال قد شد الفيل إلى هذه النخلة وكان يقطع التمر، وهو لا يدري أن السلطان واقف ويراه من بعيد، وكأن ملك الموت قد أتى ليقبض روح الفيال. قال لي السلطان بالتركية فك الوتر من القوس واصعد على الفيل ثم اطلع النخلة واصلب الفيال بوتر القوس. فذهبت وكان الرجل مشغلا بخطف التمر، فلما سمع حركتي التفت وكنت قد وصلت عنده ولما يتحرك، فقبضت عليه وشرعت أضع الوتر

في رقبتة وأخنقه فحاول الدفاع عن نفسه ، ولما كاد يرميني من على النخلة رآه السلطان ، فأسرع نحونا وصرخ في وجهه فلما سمع صوت السلطان غشى عليه ، وضعف فتمكنت من إنجاز مهمتي ، فأمر السلطان برسن وبشد الفيال به . ٤٥١ ثم إنه أعطى الشاكي ألف درهم واشترى منه النخلة . وحدثت من هنا رهبة عظيمة ، حتى أني ، طوال عهده ، لم أسمع ولم أر أن أحدا اجتراً على اغتصاب شيء آخر في أية جهة . وقد ذهبنا مرات عدة إلى بست وكان الفيال معلقا على تلك الشجرة ، وفي النهاية قطعوا الرسن وسقط جثمان الرجل . وبمثل هذه السياسية يستنب الأمان في البلاد . وقد ترك باكاليجار وجميع أهل جرجان بيوتهم المليئة بالنعمة ، وساروا في أهبة نحو ساري ، وصحبوا معهم أنوشروان ابن منوچهر مع الأعيان والمقدمين مثل شهرآكيم ومردآويز وغيرهما من الوجوه الذين كان باكاليجار قد تعاهد معهم . وفي اليوم التالي جاء السلطان مسعود ، ومعه كافة مقدمي العرب مع الفرسان جميعا ، وقيل إنهم أربعة آلاف ، وقد جاءوا إلى الدركاه فشملمهم السلطان برعايته وخلع على المقدمين فيهم ، وكان هؤلاء العرب عماد قوة الجرجانيين ، وقد لبثوا في الدركاه ، ولا تزال بقية منهم هنا ، وقيل إن باكاليجار انتهر هذه الفرصة للتخلص منهم لأنهم كانوا يتحكمون في شؤونه . واسندوا منصب صاحب ديوان جرجان لأبي سعيد الصراف الذي كان من قبل كتخدا السهسار غازي ، وقد ارتدى الخلعة وسار إلى البلد ، وأخذ في تسلم الأموال والبحث عن سرايات وأموال الفارين ، وكانوا يستولون على كل ما يجدون ، ولم يبعثوا إلى الخزانة إلا أقله ، وأكثره نهب ، كما هو الجاري في مثل هذه الأحوال . وجاء رسول من قبل باكاليجار ومنوچهر يقول إن سلطان العالم قد نزل في ملكه وأنهم عبيد مطيعون ، وإن السبب الذي حدا بهم إلى هذا هو استحيائهم لعدم قدرتهم على القيام بواجب الضيافة ، فأقاموا في ساري منتظرين القيام قدر طاقتهم بما يأمر به السلطان . فأجابهم (م ٣١ — يرق)

السلطان بأنا قد عزمنا على التوجه إلى استراباد والإقامة فيها لأن طقسها أكثر ملاءمة . وسنأمر بكل ما ينبغي هناك . وأعيد الرسول على هذا النحو .

وبعد انقضاء عشرة أيام ، وكنا نشرب ليل نهار ، اختلى السلطان مع الوزير ٤٥٢ وأعيان الدولة وقرر أن يربط الأمير مودود في هذا المعسكر ، مع أربعة آلاف فارس من كل صنف بمقدميهم على أن يكون مقدمهم الحاجب التونتاش ، على أن يمثل الجميع لأوامر الأمير ، وأن يذهب ألفان من هؤلاء العرب المستأمنة إلى دهستان ومعهم يبرى الموكل بالاصطبلات وثلاثة آلاف من فرسان السلطان ، نصفهم من الأتراك ونصفهم من الهنود ، وعليهم أيضا إطاعة أوامر مودود . وانتهت الخلوة ، وسار الجند إلى دهستان ، وزود السلطان ابنه بنصائح . وفي يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول سار من جرجان ؛ ومنها إلى استراباد منزلا في طريق يعرف بهشتادبل^(١) ، قيل إن به أحرشا لا تحدد ومياها جارية . ولم تجد السماء في تلك السنة بالمطر ، ولو أمطرت مرة واحدة لاضطر الأمير إلى العودة ، ذلك أن الأرض في تلك الأصقاع رخوة فضلا عن ضيقها وكثرة النهرات والقنوات بها ، فلو أصابها المطر مرة في أسبوع للزم انتظار الجيش بضعة أيام ، مهما كان قليلا ، حتى يتسنى له اجتيازها فأني لهذا الجيش العظيم الذي كان مع السلطان العبور ؟ ولكن الله قضى بوقوع تلك الفتن الكثيرة في خراسان فلطف في قضائه فخبس الأمطار عن تلك البقاع التي كانت دائمة المطر ، وذلك حتى يستطيع السلطان في يسر أن يقطع الطريق بهذا الجيش الكبير فيبلغ آمل كما سيجيء .

وفي الثالث عشر من شهر ربيع الثاني بلغ السلطان استراباد ، وكانوا قد نصبوا له خيمة كبيرة على ربوة تشرف على المدينة مما يلي طريق ساري ،

(١) منهاها ثمانين قنطرة .

وكانت الخيمة واسعة مرتفعة بحيث كان يشاهد منها سواد سارى . كان الموضع شديد البهجة وقد نصبت من تحته السراقات والدواوين . قال بوقى لأبى نصر ، وكان حارس الجند ، وهو رجل صاحب نكتة وكان طيب القلب ، يحبه السلطان وجميع أعيان الجند وكان يعزف على الطنبور : « إنه حينما فرّ تاش سيمسالار السامانيين من وجه أبى الحسن سيمجور جاء إلى جرجان ، وقد منحه آل بويه والصاحب إسماعيل بن عباد هذه الناحية ، فنصب خيمة كبيرة على هذه الربوة ، وكنت (أنا بوقى) شابا ، وكنت أقوم على حراسة الجند ، وقدمات تاش ، ودالت دولة السيمجوريين ، ومات السلطان محمود كذلك وها هو السلطان مسعود قد جاء فضربت له الخيمة هنا ، وأخاف أن يكون قد دنا أجلى » . فتطير ٥٣ المسكين هذا . ولكن تحقق ما كان يخشاه ، فإنه اعتل في الغداة ومات بالليل ودفن هناك . ومن عجب أن يموت هذا الرجل وهو فى الثالثة والتسعين من عمره على فراشه وقد سار آلاف الفراسخ جالها مع السلطان محمود فى الهند . وكان رجلا كاملا ، وقد رأيت يشترك فى ذلك القلاع وقد أثخن بالجراح من الحجارة وغيرها ، فركب الأهوال وبلغ ما يريد . وما تدرى نفس بأى أرض تموت . وقد أحسن أبو إسحق حين قال :

وربما يرقد ذو غرة أصبح فى اللحد ولم يسقم
يا واضع الميت فى قبره خاطبك القبر ولم تفهم

ونشط السلطان للشراب على هذه الربوة ثلاثة أيام أخرى ، منذ الصباح الباكر : وكان موسم الأترج والنارنج ، وكانت بساتين تلك البقعة مليئة بهما ، وكانت تراءى من عل ، فأمر أن يقطفوا كثيرا من الأترج والنارنج وغصونا بشمارها وصفوها حول الخيمة ، وزينت الربوة فمكأنها الفردوس ، ثم دعا الندماء وجاء المطربون وأخذوا يشرّبون ، والحق أنه كان يوماً طيباً وسعيداً .

وأمر السلطان أستاذى أبا نصر أن يقدم الرسائل التى وصلت وخلاصة ما فى الكتب . فلما فرغ من قراءتها أجلسه للشراب . وفى أثناء ذلك قال له السلطان إن بوقى قد مات . فقال أستاذى البقية فى حياة السلطان ليها بالملك والشباب وليهلك كل عبيده فى طاعته ورضاه فى ذلك خير لهم ، ولكن ليعلم مولاي أن بوقى قد ذهب ولست أعرف فى الجيش كله مثياله يستطيع أن يحل محله . ولكن السلطان لم يجبه بشيء وكان يدور بخذه أن أبا نصر يريد بقوله هذا أن يتناول الخدام الآخرين بأن كل من يموت من الخدم لا يخلفه أحد مثله . وكان كلام أبا نصر حقا ، فليس بعد بوقى أحد مثله . ويمكن القول أنهم لو فتشوا الدنيا لما عثروا على حارس للجند مثل بوقى ، ولكن مدار العمل هو البحث ، ولو أخذوا الأمر بخفة لظنوه يسيرا وما هو يسير . وقد بينت فى هذا الكتاب كيف كان السلطان محمود رحمة الله عليه يربى رجاله بحيث كان يحدهم عند الحاجة ، لا جرم أنه كان يستظهر برجاله ، وقد ذكرت هذه النقاط فى معنى رعاية الرعية ٤٥٤ عسى أن تفيد . ووصل هنا رسل آخرون من رجال باكاليجار وغيره ، وقد بعثوا معهم برسائل شفوية بأنهم عبيد مطيعون والطرق ضيقة لا تسمح بمسير الركاب العالى ، فليأمر السلطان بما يشاء ، فنحن مستعدون لتقديمه على قدر الطاقة ، ونزولا على فروض الطاعة . فأجيبوا بأن قصدنا أن نذهب إلى سارى كى نشاهد هذه النواحي ، وحين نصل هنالك نأمر بما ينبغى . وعاد الرسل . وتحرك ركب السلطان من استراباد يوم النوروز لثمانية أيام بقيت من ربيع الثانى وبلغ سارى يوم الخميس لثلاثة أيام بقيت من هذا الشهر . وفى الغداة ، الجمعة أرسل إلى قرية نوشتكين ولوالجى الحاجب^(١) ومعه فوج من الجيش ،

(١) هكذا ورد الاسم فى نسخة نفيسى ص ٥٥٢ وقد رجعناه على ما جاء فى نسخة غنى —
 فياض (نوشتكين وبوالجى ، ص ٤٥٤) وقد عدل غنى — فياض عما ذكره فى هذه الصفحة
 (ص ٤٨٨) ، كما أدرجنا الاسم كما أثبتناه وكما ذكره نفيسى فى فهرست أسامي الأشخاص
 ص ٧٢٤ .

وكان لهذه القرية حصن يقوم عليه شيخ من أعيان جرجان ، وذلك لفتح هذه القلعة ، وأوفد معه أبا الحسن دلشاد في منصب صاحب بريد الجيش ، وكان هذا أول منصب كلف به أبو الحسن . وكانت هذه القلعة قرية جدا من سارى . فساروا إليها وكانت خلوا من أدوات الحرب فاستولوا عليها في يوم واحد ، ومن أول حملة ، ثم سرعان ما عادوا . وحكى أبو الحسن لأبي نصر أن الجند هناك نهبوا كثيرا ، واستباحوا النساء ، ولم يستتب الأمر لأبي الحسن ، وجرى للخزينة ببعض المال ؛ وكان يعرف كل ما تم في الخفاء وقد ذكر ذلك في المجلس العالى وحاز القبول ، وتقرر لدى السلطان أن أبا الحسن رجل سديد جلد . وقد أتوا إلى الدرگاه بهذا الشيخ الذى كان قائما على الحصن مع عجوز وثلاث بنات ، وكانوا في حالة يرثى لها ، وقد ندم السلطان وأبدى عطفه على الشيخ وطلب منه الصفح ثم أعادوه . وليس لى بد من كشف هذه الحقائق لأنها تزيد العبرة ، ويسير التاريخ بها في الطريق السوى ، فليس من السائغ التخصير والتعريف والتقتير والتبذير في كتابته . وإذا كان نوشتكين ولو الجى قد أثم فقد لقي ٤٥٥ جزاء ما قدمت يداه .

ويوم الأحد غرة جمادى الأولى سار السلطان من سارى قاصدا آمل . وهذه الطرق التى حضرنا منها والآخرى التى سرنا بها كانت شديدة الضيق بحيث لم تكن تسع أكثر من فارسين أو ثلاثة وكانت تحف بها الآجام عن يمين وشمال وتتشابك إلى سفوح الجبال ، وكانت مياهها متدفقة بحيث يتعذر على الفيل العبور . وفي هذا الطريق رأينا قنطرة كبيرة من خشب ونهرا يبعث على العجب الشديد يشبه القوس الملتوى . وعانى الجيش الصعاب الجمة حتى عبر هذه القنطرة . ولم يكن ماء النهر عميقا ، ولكنه كان يغطى حتى الرقبة كل حيوان يعبره ، وهذا هو سر وعورة هذه الجهة . وقد نزلوا هنا لأنه مدخل المدينة . وكانت الحشائش قصيرة وطويلة نامية في ساحة واسعة يستطيع جيش كبير أن

يحل بها ، ووفد على السلطان ثلاثة رسل من قبل ناصر بن علي ومقدمي أمل ،
ويبتنوا أن ابن منوچهر وبا كاليجار وشهرآكيم وغيرهم حين سمعوا بقدوم
السلطان نحو أمل ؛ سارعوا إلى نائل وكجور ورويان على أن يتجمعوا بناتل
حيث الممرات الضيقة ليشتبكوا مع جند السلطان . وعزموا إذا عجزوا عن
البقاء هناك ، على أن يجتازوا عقبة كالار ، لأنهم خفاف ، ويهربوا إلى جيلان .
« وأن الداعي ناصر وبقية المقدمين والرعايا كلنا عبيد السلطان . وقد أقنأ هنا
في انتظار ما يأمر به . » فأجاب السلطان بأنا قد أسقطنا عنكم خراج أمل ، وعلى
الرعية أن تبقى في أماكنها لأننا لا شأن لنا معهم وإنما غايتنا الإمساك بالفارين .
وعاد الرسل بهذه الأخبار .

وحدث السلطان السير ، وبلغ أمل يوم الجمعة السادس من جمادى الأولى ،
ونخرج للقاءه أكثر من خمسمائة ألف رجل أو ستمائة ، جميلة وجوههم ٤٥٦
حسنة البستهم ، ولم أر بينهم أحدا بغير طيلسان شطوى أو تورى أو سترى
أو قطنى أو مما يصنع باليد ويسمى فوطة ، وقيل إن هذه هي عادتهم . وحدث
السلطان السير من مصلى المدينة مع فوح من خاصة غلبائه ومضى إلى حدودها ،
وعلى مسيرة نصف فرسخ من الجانب الآخر منها أقيمت خيمة فنزل بها وسار
السالار بكتغدى بالجيش مع غلبان السراى ، ودخل المدينة حيث جاءوا المعسكر
وعينوا الحرس " حتى لا يغتصب من أحد درهم واحد . ورفع الناس
أيديهم بالدعاء لأنهم رأوا جيشاً وعدة لم يروا مثلها من قبل . وكنت (أنا
أبو الفضل) قد دخلت المدينة قبل دخول الجيش ، فرأيت مدينة جميلة حقاً ،
كل حوانيتها مفتوحة وأهلها سعداء . وبعد هذا أروى ما وقع من الأحداث

(١) الكلمة الفارسية جنباشيان . وفسرها نفهسى ص ٥٥٥ بأنها من الفطى جان الفارسي
بمعنى السلاح وباش التركى بمعنى الرئيس .

التي قلبت فردوس آمل إلى جحيم . أذن السلطان في الغداة بالاستقبال ، وبعده
اختلى بالوزير وأعيان الدولة وقال : « إني سأقود بنفسى الحملة إلى ناتل » فقال
الوزير : « ينبغي ألا نقيم للجرجانيين هذا الوزن بحيث يذهب السلطان بنفسه
في أثرهم فهنا والله الحمد قادة عظام . » وقال الأعيان ماذا يبقى لنا من عمل إذا
تصدى السلطان بنفسه الغالية لتجشم هذا النصب ؟ فقال السلطان : « هذا ما أرى ،
وسيقم الوزير هنا مع الأحمال لتدبير الأمور وسيكون أبو نصر معه لتحرير
الرسائل والحاجب ليعد كل ما يلزم من احتياط في أى وجه ويسير معنا فوج
من الغلمان الأقوياء من ألف وخمسمائة غلام وثمانية آلاف فارس من شتى
الأصناف الممتازة وعشرة فيلة ومعدات فتح الحصون وخمسمائة جمل تحمل
الذخائر ، فارجعوا وأقيموا في أخبيتكم ، واستعدوا لهذه الأعمال فإني سأذهب
غدا في المساء مهما تكن الأحوال ، وسيجيئ بنا العراقي الكاتب ، ويبقى
الندماء هنا . » فرجع الحضور وأعدوا ما أمر به السلطان . وركب السلطان في
منتصف ليلة الأحد ثامن جمادى الأولى ، وسار على المقدمة ، ودقت الكوس ٤٥٧ ،
وسار هذا الفوج من غلمان السراى وعلى أثرهم بقية الجيش فوجا بعد فوج ،
وكلهم في أهبة كاملة . وبلغوا ناتل في الغداة حين صلاة الظهر ، ولما قطعوا منزلا
وجدوا الجرجانيين صامدين وهم على أهبة تامة ، وقد خفى عليهم أن السلطان
قد قدم إليهم بنفسه . وكانت حربا عوانا كما سأبين . وفي ضحى يوم الثلاثاء
لعشرة خلون من جمادى الأولى جاء ثلاثة من غلمان السراى بإشارة الفتح
ومعهم خاتم السلطان دليلا على صدق ما قالوا ، وقد أرسلهم السلطان من
ساحة الوغى بعد أن تم الفتح ، وكانوا مسرعين وقد سلموا الخاتم للحاجب
بكتغدى سالار غلمان السراى ، فأخذه وقبله ثم وقف ، وقبل الأرض ، وأمر
بقرع الطبول ونفخ الأبواق ، وارتفع دوى من المعسكر . وطاقوا بغلمان السراى
بالمدينة وقدر الأعيان الحاضرون كالوزير والحاجب أبى النصر هذه البشري

حق قدرها . وكتبوا للسلطان، شاكرين له هذا الفتح ، كتاباً من الوزير والحاجب والناس . وكتب أبو مشكان ، صاحب ديوان الرسائل ، كتاباً من أروغ ما كتب ، بحيث اعترف الوزير بذلك قائلاً لم أر قط في معنى الخاتم كتاباً بهذا المعنى ، وقد أدرج في كتابه هذا البيت للمتنبي :

ولله سر في علاك وإنما كلام العدى ضرب من الهذيان^(١)

وكانت عندي صورة من هذا الكتاب ولكنها ضاعت كما قلت في عدة مواضع من هذا التاريخ ؛ وقد عيّن القائد بكتغدي غلامين من غلمان السراى وغلامين من عنده لحمل هذه الرسالة وحين صلاة العشاء جاءت رسالة الفتح بخط العراقي وكانت من إملاء السلطان وجاء فيها :

« حين سرنا من آمل وقضينا الليل في السفر ، وقطعنا أحراشاً يصعب عبورها على المردة الشياطين ، بلغنا ناتل في النهار حين صلاة الظهر ، وكنا قد أسرنا الخطى بحيث كان الجيش يفد طوال الليل بعد وصولنا . فلما انتصف الليل كان الجند جميعاً قد وصلوا ، لأننا كنا قد قطعنا مرحلتين دفعة واحدة . وفي الغداة الإثنين جاء الجواسيس وقالوا إن الجرجانيين قد سيّروا أمتعتهم مع ابن منوچهر من مدينة ناتل ، وقد عسكروا في الناحية الأخرى من المدينة ونصبوا الخيام ، وتركوا أثقالهم والعاجزين من رجالهم مع أمتعتهم ، وقد جاء إلى هذا الجانب من المدينة باكليجار وشهراً كيم وفرسان كثيرون ورجالة مختارون مجربون مع جماعة من المقدمين والمبارزين ، وهناك قنطرة شديدة الضيق ، ٤٥٨

(١) وهذا هو البيت الثاني من القصيدة التي قالها المتنبي يذكر قيام شبيب العميلي على كافور وقتله بدمشق سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة والتي مطلعها :

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك الفمران

وليس من طريق للعبور غيرها ، قد استولوا عليها فهي أضيق ممز إلى ذلك السهل ، وسوف يقاتلون عند هذه القنطرة ؛ فالطريق واحد تحيط به الأحراش والمياه والغدران والأنهار ، وقد عقدوا النية على أنه لو حلت بهم الهزيمة فإن الفرسان يعودون من المضائق ، ويحمي القنطرة خمسون من خيرة محاربي الديلمة والجليين ويصابرون ويرابطون حتى يتحقق لديهم أن رجالهم قد تركوا معسكراتهم وانسحبوا إلى الداخل حيث المعقل الهائلة في الجانب الآخر وأصبحوا في مأمن من الأعداء . وبعد أن تحققت لدينا هذه الأحوال أعددنا العدة لهذا الأمر ، وأمرنا بكل ما يجب ولبسنا الجوشن وركبنا فيلة ووضعنا الأسلحة أمامنا في المهد ، وأمرنا بقرع كوسات الحرب ، وأحاط بفيلتنا الغلمان بين راكب وراجل ، وتقدمتنا جماعة قد ساقوا أمامهم فيلاً هو أكبر الفيلة وأقواها وأشهرها وأمهرها في الحرب ، وسرنا وفي أثرنا مالا يحصى من الفرسان والمشاة . فلما بلغنا هذا السهل لقينا عند هذه القنطرة كثيراً من الجرجانيين فرسانا ورجالة ، ودارت رحا حرب طاحنة ، وكان العسير فيها كثرة الجند ، فلم يكن في هذه المضائق مجال للتحرك ، ولا فرق بين مائة ألف فارس وراجل أو خمسمائة ألف منهم مادام المكان ضيقاً ولا يسمح بالحرب^(١) . ولو لم يكونوا بهذه الكثرة لما اجتروا على الثبات فإن فوجاً واحداً من جندنا كان يقدر على القضاء عليهم قضاء مبرماً . وقد حمل علينا ، حملة قوية عدد من فرسانهم ورجالتهم ، وكان قائدهم فارساً ملثماً ماهراً في أصول الكر والفر ، وبلغ الأمر بحيث وصل ضرب السنان إلى فيلتنا ومهدنا ، إلا أن غلمان سراينا أشبعوهم ضرباً . وقد دخلنا المعركة بنفسنا وقد أبلى العدو بلاءً حسناً ، وضربوا فيلنا الفحل الذي كان في المقدمة بالسهم والسنان فخرحوه

(١) أخذنا بشرح نفيسى المفهوم هذه الجملة . نفيسى ص ٨ • • • • • نأشية ١ .

وأفزعوه فانقلب من شدة الألم راجعا إلينا، فكان يجندل من يصادفه في طريقه؛ وزحف العدو على أثره صارخا، ولو أن هذا الفيل الفحل صادفنا لضرب بغير شك فيلتنا، ولنتجهم عن ذلك خطر عظيم لا يمكن تداركه، فإن الفيل الذكر إذا جرح في المعركة ٤٥٩ فانقلب راجعا لا يبقى على شيء؛ ولكن حسن الصدف أنه في انقلابه راجعا إلينا مال إلى اليسار على حافة السهل حيث نهير ضحل ألقى الفيال الجرى بالفيل فيه، فصرف الله بفضلته شره إلى هذا المنقلب وأنجانا والجيش منه. ثم إن رجالنا جميعا هجموا على العدو، وأظهر المبارزون من غلمان السراى والفرسان والرجالة قوة هائلة، وأقبل نحونا رجل من مقدمى الجرجانيين فصحننا من فوق الفيل، وضربناه على رأسه ورقبته بالعمود ضربة أسقطته من على جواده، وأسرع نحوه الغلمان ليجهزوا عليه فصرخ مستغيثا بنا يطلب الأمان وقال إنه شهرآكيم، فأمرنا بإزاله من على الجواد وأسره. فلما رآه أهل جرجان أسيرا ولوا فرارا، وكان رجالنا قد أشبعوهم قتلا وأسرا حتى باغوا القنطرة، وولى فرارا يمنة ويسرة كثير من رجالهم وألقوا بأنفسهم فى النهر فقتلوا وأغرقوا. أما القنطرة فكان الموقف عندها سيرا، واستعرت حولها حرب طاحنة. وانقض كل فريق على خصمه وهلك كثير من الجانبين، ولم أر فى حياتى حربا ضروسا كهذه، وقد احتفظ جند العدو بالقنطرة حتى قرب صلاة العصر ودافعوا عنها دفاعا مجيدا. ولم يكن للرجالة إليها من سبيل من أى جانب، وأخيرا تقدم أشد رجالتنا مراسا فى القتال ومعهم التروس والحراى والأقواس والعدة الكاملة، فأمطروا العدو سهاما حجبت الشمس ثم حملوا عليه حملة صادقة واستولوا على القنطرة. وقد مكثهم من ذلك أن خمسة من رجالة العدو الأقوياء أو ستة ممن يعدون من السرهنكية قد طلبوا الأمان فأمنوهم وتقدموا صفوفنا. وحين انهرم العدو عند القنطرة أسرع إليها رجال مقدمتنا ثم تبعناهم وقد رجع إلينا جماعة من الفرسان يقولون إن

الجرجانيين . نذروا شهراً كيّم أسيرا ولوا جميعاً منهزمين ، وقد قلبوا المعسكر والخيام وكل ما عندهم رأساً على عقب ليستولوا على قدور الطبخ . وقد نزلنا هناك إذ لم يكن موضع غير هذا يصلح للنزول به . وتعقب الفرسان ، الذين نالوا من الراحة قسماً ، العدو فأسروا عدداً من الرجال من كل صنف ، أما أعيان الجيش والمقدمون ومهرة الفرسان ٤٦٠ فكانوا قد لاذوا بالفرار . وكان الطريق شديد الضيق فاضطر مطاردهم إلى الكف عنهم ورجعوا . وقد شرحت ما جرى حتى يتقرر ما يكون عليه الأمر بعد . وقد عدنا من هناك إلى ناحية آمل لنصل إليها في سرعة . إن شاء الله عز وجل .

وبلغ السلطان مسعود رضى الله عنه آمل يوم السبت الثانى عشر من ربيع الأول سالماً ظافراً منصوراً ، وقد توقف في مكان ليقم فيه وأمر بنصب السرادق والخيمة الكبيرة ونزل هنالك باليمن والإقبال . وقد قال لصاحب ديوان الرسائل أبى نصر يجب أن ترسل لأطراف المملكة كتب الفتح الذى فتحنا على يد المبشرين . وكتبت الكتب وسار بها الفرسان وغلبن السراى . ويوم الجمعة أذن بالاستقبال ، وكان يوماً مشهوداً ، وقد تقدم للخدمة الشريف العلوى وأعيان المدينة . وقد قال السلطان لوزيره اجلس فى الخباء وأجلس العلوى وأعيان المدينة فإن لنا معهم حديثاً . فسار الوزير إلى الخباء وأجلس هؤلاء الناس ، ونشط السلطان للشراب وبدىء فى اللهو وجاء الندماء والمطربون وقد رجع أبو نصر لكثرة مالتى من المشقة فى توجيه كتب الفتح والمبشرين . وقد أقمت فى ديوان الرسائل فقد كانت النوبة لى ، فجاء الفراش ودعانى فذهبت ومعى الدواة والورق واقتربت من التخت فأشير لى بالجلوس فجلست ، وقال السلطان « أكتب ما يجب أن يحصل من آمل وطبرستان وما يجب أن يجنيه أبو سهل إسماعيل وهو ألف ألف دينار من الذهب النيسابورى ، وألف قطعة من الألبسة الرومية وغيرها ، وألف قطعة من المحفريات والسجاد ، وخمسة

آلاف كساء . فكتبت هذا ثم قت فقال خذ هذه النسخة إلى الوزير واذكر له رأينا حتى يقول لهؤلاء القوم ليدبروا ما طلبا ، ويسارعوا بإرساله كاملا حتى لا تضطر إلى أن نبعث اليهم مستخرججا ، وأن نمنح الجند براءات ليأخذوا الأموال بعنف . فأخذت النسخة للوزير وعرضتها عليه سرا وبلغته رسالة السلطان ، فضحك وقال لي : « ها أنت ترى أنهم ينهبون هذه البلاد ويحرقونها فتفسد سيرتنا ، ولن نحصل من هذه البلاد على ثلاثة آلاف درهم ، إن هذا إثم عظيم ، ولو قلبوا خراسان كلها رأسا ٤٦١ على عقب لما حصلوا على هذه الأموال وتلك الألبسة ، أما السلطان فمنهمك في الشراب ، وإنما دعاه إلى هذا القول ظنه أن لدى الناس ماله من النعم والأموال والخزائن » ثم إن الوزير التفت إلى الشريف العلوي وأعيان آمل وقال : « إعلموا أن الجرجانيين بعد أن شهروا سيوفهم في وجه سلطانهم وعصوه ، وبعد أن شتتوا ، فإنهم لن يروا هذه البلاد بأعينهم ، وسيعين هنا جاكم قوى ليضبط الأمن كهذا الذي ولي خوارزم ، وسوف تستريحون مما لقيتم من مشاق : فدعا له الأمليون كثيرا . ثم قال واعلموا أن السلطان أنفق كثيرا من المال حتى يسير جيشه إلى هنا ، وحتى يقضى على هؤلاء القوم الظالمين ، فيجب على أعيان هذه البلاد أن يقدموا نثارا لا تقا به . فقالوا سنبذل في الطاعة كل ما في طاقتنا ، فإن هذه البلاد فقيرة وأهلها معسرون ، وجرى الرسم منذ زمان على أن يكون نثارنا من آمل وطبرستان مائة ألف درهم وما يساوى هذا المقدار من المحفوزيات والأبسطة ، ولو طلب إلينا أكثر من هذا فإن الرعية تتكبد مشقة عظيمة فيماذا يأمر الأستاذ الرئيس الآن : فقال : لقد أمر السلطان بتحصيل ما تحتويه هذه النسخة من طلبات وقد أبلغني أبو الفضل رسالة قال فيها كذا وكذا . ثم إنه عرض عليهم النسخة وبين لهم الأوامر وقال : « إني سأيسر الأمر بأن أجعل ما كتب في

النسخة يجي من جوزجان وطبرستان وسارى وجميع النواحي حتى لا تجبي الأموال منكم وخدمكم بكيفية تثق عليكم ، ولما سمع أهل آمل هذا الحديث أسقط في أيديهم ، وحاروا في أمرهم ، وقالوا إنا لا نستطيع الإجابة على هذا الحديث على البديهة ، وليس لأحد طاقة على سداد هذا المال فإذا أذن لنا فإننا نرجع إلى الملاء ونقص عليهم الأمر .

فقال لى الوزير قل للسلطان ما سمعت : فذهبت وقلت له ، فأجاب قائلا : هذا حسن فليذهبوا اليوم إلى قومهم وليعودوا غدا مستعدين للدفع فإن هذا المال يجب أن يجي سريعا حتى لا يطول مكثنا هنا . فجئت وقلت ما سمعت . وعاد الأمليون وقد علاهم الهم ، وكذلك عاد الوزير . وفى الغداة أذن السلطان بالاستقبال ثم اختلى بعد فضه بالوزير وقال له ما رأيك فى هذا المال الذى تقررت جبايته من هؤلاء ؟ فقال الوزير أطال الله عمر مولاي إننى أزداد سرورا حين تعمم الخزانة بما يدفعه بلد ، ولكن هذا المال المطلوب منهم كثير وقد قابل الأمليون هذا الأمر بفتور بالأمس . فإذا يأمر مولاي ؟ قال إن ما جاء فى النسخة مقصور على آمل وحدها ، ولو قبلوا طواعية « فيها ونعم » وإذا لم يقبلوا فيجب إرسال أبى سهل إسماعيل إلى المدينة ليأخذ منهم المال قهرا وبنسبة ٤٦٢ أكبر مما قررنا . وعاد الوزير إلى الخباء ، وجمع أهل آمل ، وكانوا أقل مما كانوا بالأمس ، وحدثهم بمقالة السلطان . فقال العلوى والقاضى : « إنا عقدنا مجلسا بالأمس وتشاورنا فى هذا الأمر فعلا ضجيج الناس وتفرقوا ولم يبدوا استعدادهم لتقديم أى شئ ، وقد تبين لنا أن كثيرا من الناس قد هاجروا من المدينة بالأمس أما نحن فقد بقينا لأننا مطيعون ، ولم نرتكب إثما والأمر الآن بيد السلطان والأستاذ الرئيس ليأمر بما تقتضيه الأحوال . » وكان الوزير يعرف حقيقة ما يقولون . ولكن لم ير أمامه مجالا للتحدث مع السلطان . فدعا الوزير أبى سهل إسماعيل وسلم إليه هؤلاء الأعيان وأوفده إلى المدينة . فأقام

أبو سهل ديوانا وجمع الناس وكان من يقع في يده منهم يرشده عن الهاربين ، ولم يبق في المدينة مكان لا يعلو منه نواح الناس وعويلهم ، وكان الفرسان والرجالة يتجولون للقبض على الفارين وإعادتهم . ووزع أبو سهل إسماعيل البراءات على الجند ليحصلوا بها على رواتبهم من الناس ، فأضرموا النار في المدينة ، واستباحوا الحرمات ، وقبضوا على كل من يريدون ، فكان القيامة قد قامت . وكان الديوان مشغلا بتنفيذ أعماله الجائرة ، والسلطان لا يعرف شيئا مما يجري ، ولم يكن لأحد جرأة على أن يخبره به ويذكر الحق ، حتى استخرج الجند في أربعة أيام مائة وستين ألف دينار . وكانوا قد نهبوا من الناس ضعفى هذا المقدار ، وذلك غير ماسلبوا من المؤن . وكانت فضيحة كبرى أدت إلى أن يلجأ المتظلمون ، بعد سبعة أشهر أو ثمانية ، للسفر إلى بغداد ، يستصرخون الخليفة وقليل إنهم ذهبوا كذلك إلى مكة ، حرسها الله ، فإن أهل آمل ضعفاء ولكنهم بارعون في الكلام واللجاج ، وكان لهم الحق فيما يقولون .

هذه الآثام والأوزار كلها في عنق أبي الحسن العراقي والآخرين ولكن كان لزاما على السلطان أن يترى في مثل هذه الأعمال ، إنه لعزيز على أن يجري قلبى بمثل هذا النقد للسلطان ، ولكن ما حيلتى في ذلك والتاريخ لا يعرف المحاباة . ولو قرأ هذه الفصول من كانوا معنا في آمل ، وأرادوا الإنصاف ، لقالوا إن كل ما كتبت هو حق لا مرأ فيه . وكان السلطان رضى الله عنه منهمكا في الشراب واللهو ، ويوم الجمعة ٤٦٣ ليومين بقيامه من جمادى الأولى سار السلطان بالجند إلى ساحل بحر آبسكون (قزوین) حيث نصبت الخيام وأخذوا في الشراب وصيد السمك ، وشاهدوا سفنا كالعرائس تروح وتغدودون أن تصل إليها أيدي أحد ، فقد كان اتجاه كل منها واضحا إلى القرصة (المرفأ) التي تقصدها ، اللهم إني لم أر^(١)

(١) مكثا في طبعتي غنى - فياض ونفيسى (٥٦٣) .

هذه البلدة الصغيرة ، وقد حكاى كل هذا أبو الحسن دلشاد وكان قد ذهب إليها .
ورجع السلطان يوم الإثنين الثانى من جمادى الثانى إلى مسكر آمل ، وكان أكثر
أهلها قد هربوا وتواروا فى الأحراش . وفى تلك الأثناء كان قد ذهب رجل من
سقاة الحاجب بكتغدى ليحضر قليلا من الشاي من قرية على حافة تلك الأحراش ،
فهمّ بفتاة فيها فتنه أبوها وأخوها ، وكانا على حق فى هذا ، وحدثت معركة مع
هذا الساقى وأصحابه وضرب بالسوط . فعاد إلى بكتغدى وأخبره بالامر فنار
غضبه فركب فى اليوم التالى فيله دون استئذان السلطان ، وسار مع فوج من
غلمان السراى إلى هذه القرية والأحراش المحيطة بها . وكان قتل ونهب . وقد
قيل إن عددا من الزهاد والصالحين قتلوا وهم جلوس على سجاد الصلاة والمصاحف
فى حجورهم . وكان كل من يسمع هذا يلعن المجرمين . وبلغ الخبر السلطان
فاستشاط غيظاً ، وعاتب بكتغدى عتاباً شديداً ، لأنه كان قد ندم على كل ما جرى
فى هذه الناحية . وكان يلوم أبا الحسن لوما عنيفاً والخواخ أسفل^(١) . فبعد أن
رجعنا وقعت الطامة الكبرى . وفى هذا الأسبوع جاءت كتب مهمة من
دهستان ونسا وفراوة بأن أفراد التركان قد أخذوا يفتدون من السهول ،
ويقصدون دهستان للنهب والسلب . وكتب الأمير مودود يقول إنه أرسل
طلائع الفرسان إلى جهات أربع وأصدر الأوامر ليأتوا بالإبل والخيول من
مراعى ريکستان إلى أقرب مكان من جرجان ، وإنه جعل مع كل فارس
حصانين أو ثلاثة . فأجيب بأن يتخذ الحيلة التامة فإن الراية السلطانية قادمة
على الأثر .

ويوم الثلاثاء الثالث من جمادى الثانى وفد على السلطان رسول من قبل

(١) من أمثال الولدين ، يطلق على ما ينتظر من وخيم المواقب . أمثال المبدائي ص ٢٤١
طبعة مصر .

بكاليجار ، وكان قد أرسل ولده مع الرسول يعتذر عن الحرب التي جرت ويطلب العفو ، ويقول : « إن أحد أولادى فى خدمة مولاي فى غزوة وهو بعيد عني ، ولم يستطع الشفاعة لى ، وقد بعثت بأخيه للحضرة السلطانية ، وإنى لعلى يقين من أن مولاي سيعطف على حتى لا يسمت الأعداء فى هذه الأسيرة القديمة . » وقدموا الرسول والولد ، وأحسنوا وفادتهما . وسأل السلطان الوزير وأعيان الدولة رأيهم ، فقال الوزير : « الأصوب عندى أن يُخلع على الولد والرسول وأن يعادا بالحسنى فإن أمامنا مهام خطيرة ، حتى يتبين ما تؤول إليه الأحوال حينئذ يدبر أمر هذه النواحي حسب مشاهدتنا ولا نفقد هذا الرجل إلى النهاية » . فاستحسن السلطان هذا الرأى وأحسن رد كتاب بكاليجار وخلع على ابنه خلعة فاخرة ، وكذلك كانت خلعة الرسول ، وأعيدا عوداً كريماً .

ويوم الجمعة السادس من جمادى الثانى جاء كتاب من بلخ بوفاة على تكين وإقرار إسناد ملك هذه النواحي إلى ابنه الأكبر . فقلق السلطان لهذا لأن الأمر قد آل إلى شاب غير مجرب ، وكان يخشى تهوره ، فأمر بالكتابة إلى السهسالار على دايه فى هذا الشأن لينذهب إلى بلخ ويضبط الطرق وليأخذ الخيطة التامة حتى لا يحدث خلل . وكذلك كتب إلى ترمذ وإلى كوتوالها والقائدين أبى نصر وأبى الحسن ، وكان الكوتوال حينئذ يدعى قتلغ ، وهو من رجال السلطان الوالد محمود ، وكان يجمع بين اللين والحزم . وعين فارسان ، فسارا مع كتب التعزية والتهنئة إلى بخارى لابن على تكين حسب الرسم المعتاد ، وذلك لينذهبا فى سرعة ويأتيا بالأخبار الصحيحة ، وحتى إذا أراد هذا ٤٦٥ الشاب الغر أن يثير فسادا فى الأرض فإنه ينجل بما جاء بهذه الكتب . وقد خوطب « بالأمير الفاضل الولد » . ولكن هذه الرسالة لم تؤثر فى ابن الثعبان هذا

فقد أغتتم موت أبيه وبعد السلطان عن خراسان واضطراب الأحوال فيها فرصة سانحة لتحقيق أغراضه .

وكان هرون العاصي المخذول يستعد للسير إلى مرو مع جيش جرار ليستولى على خراسان فتحالف الشابان واتفقا على أن يأتي هرون إلى مرو ، وأن يغير أبناء على تكيين على صغانيان وترمز وينهبوها ، ومن هناك يسرون إلى اندخود عن طريق قباديان حيث ينضمون إلى هرون . فاجتاح أبناء على تكيين صغانيان ، وفر واليهما أبو القاسم الداماد ، ولجأ إلى الكمخين^(١) وبعد أن دمروا صغانيان جاءوا إلى ترمذ عن طريق دارزنكي ، وأخذوا يستهزئون بقلعتها فأرسلوا أوكار مع لواء وثلاثمائة فارس إلى باب القلعة ، وظنوا أن أوكار حين يصل إلى هناك ، تقع القلعة بيدهم فوراً صلحاً أو حرباً ، وحينئذ ينشرون راية الشجاعة من فوق القلعة ، والظن يخطيء ويصيب ، فقد غاب عنهم أنها عرين الأسود . وما أن بلغوا القلعة حتى فتح أولئك الأسود الأبواب وصاحوا بسم الله أدخلوها إن كنتم شجعاناً . وكان رجال على تكيين يظنون الأمر يسيراً وأنهم قد حضروا لأكل الفالودج وما كادوا يدخلونها حتى انقض عليهم فرسان القلعة وأمسكوا جمعاً منهم على الفور وأسروهم وولى الباقون فراراً إلى ابن على تكيين ولام الناس أوكار فأجابهم بقوله « إن القدر لا يزال في مكانه على الموقد وقد ذقنا طعمه فعلى من يشتهي أكلةً منه أن يذهب » فسيبوه ورموه بالتخثث ونفخوا الأبواق وسار قونش السهيسالار في المقدمة والباقون من ورائه وأحرق الجيش بالقلعة من كل جهة ونزلوا عند أسوارها . وسمعت من الأستاذ عبد الرحمن القوال ، ٤٦٦ هـ وكان ممن غادر صغانيان بعد نهبها والتجأ إلى ترمذ ، قال « إن رجال على تكيين حاربوا عدة

(١) ص ٤٢٨ .

مرات مع فرسان القلعة ، وهُزموا في المعارك كلها ، حتى خارت قواهم وكانت قلوبهم تمتلئ غيظاً من الشتائم التي كان يكيلها لهم السجزيات . وقد أراد أوكار الذي كان من عظمائهم ، وكان تحت إمرته ألف فارس ، أن يقتحم القلعة فتقدم وعليه درع فضفاض وكان راجلاً ، فقال أبو نصر وأبو الحسن خاف لصاحب العرادة نعطيك خمسين ديناراً وكسائين إذا رددت أوكار عن القلعة . فأعد حجراً من خمسة أمان أو ستة وتفحصه وفكر ثم سحب حبال العرادة فاندفع الحجر فأصاب وسط أوكار فمات لساعته . وفي تلك الأيام كان الحجر الذي يزن خمسة أمان إذا اندفع من العرادة وأصاب رأس رجل فإنه يصرعه . وحين سقط أوكار ارتفع ضجيج هائل من جيش العدو ، فقد كان رجلاً عظيماً جداً ، وقد اختطفه رجاله وحملوه وكان في موته قاصمة الظهر لرجال أبياء على تسكين . وأخذ الغوري ، صاحب العرادة ، الذهب والكسوة . وبلغ أبناء على تسكين أن هرون المخدول قد قتل ، وأن السهيسالار قد جاء خائباً خاسراً إلى بلخ ، فرجعوا من ترمذ وساروا إلى سمرقند عن طريق دره آهين^(١) .

وجاءت رسالة من أبي نصر البيهقي صاحب بريد الري وأخى أميرك البيهقي ، بعد وصول القاصد تفيد أن أبا المظفر الحبشي قد عزل من عمل البريد الذي عهد به إلى أبي نصر ، وكان هذا الرجل النبيل وكيل البلاط أيام السلطان محمود رضي الله عنه ، وقد عرض نفسه لمخاطر كثيرة وأدى خدمات جليلة ، وكان رجلاً شجاعاً وهو من أصدقائي القدامى ، وبعد أن فقدنا الري ذاق من الأيام حلوها ومرها كما سيأتي في هذا التصنيف . وهو مقيم اليوم هنا في غزنة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) ، في خدمة سلطان

(١) دره آهين ، در آهين ، در آهني .

العالم أبي المظفر إبراهيم بن الناصر لدين الله أطال الله بقاءه . وقد جاء في هذه الرسالة أن السهمسار تاش فراش قد أصيب بهزيمة من مقدمة ابن كاكو . وقد جاء في جواب هذه الرسالة « الأفضل اتخاذ الحيلة في الأمور وقد فرغنا من مهمتنا في جرجان وطبرستان ، والآن نعود من آمل إلى الري عن طريق دماوند ، إذ لسنا ٤٦٧ قاقين من ناحية خراسان . وقد كتبنا هذا حتى نوقع الرعب في قلوب أعداء تلك الديار ، فقد كان لنا في خراسان أعمال كثيرة هامة تنسينا الري وابن كاكو . »

وسأذكر نبذا نبذا ، وقليلًا قليلًا من أخبار الري وخوارزم ، فسيكون لهما بابان مفصلان كما بينت من قبل ، وفيما أذكره الآن الكفاية لمن يحفظ التاريخ من ناحية الأشهر والسنين .

وغادر السلطان آمل يوم الأحد الثاني والعشرين من جمادى الثاني بعد أن أقام بها سنة وأربعين يوما . وقد رأى في طريقه رجالة الدركاه يسيرون بجماعة من أهل آمل المقيدين فسأل من هؤلاء ؟ قالوا أهل آمل الذين لم يدفعوا الإتاوة . فقال أطلقوا سراحهم فلعنة الله على من دبر أمر مجيئنا إلى هنا ، وأمر أحد الحجاب أن يقوم بتنفيذ هذا الأمر حتى لا يؤخذ من أحد شيء ، وحتى يسرحوا جميعاً ، وكذلك فعلوا . وهطأت الأمطار مدرارا في الطريق ، وأصاب الناس والدواب عناء كثير . ويوم الأربعاء الثالث من رجب جاءت رسالة تقول إنهم قتلوا هرون بن خوارزمشاه آلتوت تاش ، وإن الجيش الذي كان يقصد مرو قد رجع إلى خوارزم . وقد سر السلطان سرورا بالغاً لهذا الخبر وأثنى كثيراً على الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد لأنه هو الذي دبر هذه الحيلة ، كما بينت قبل ذلك ، للإيقاع بكافر النعمة هذا . ونعم قول الشاعر معروف الباخي ، قال :

إن كافر النعمة كالسكافر بالدين ، فاجتهد واسع لقتل الكافر .

اللهم أهلك كل من ينكر المعروف ويكفر بالنعمة بحمد وآله . وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام « اتق شر من أحسنت إليه » وكلام صاحب الشريعة حق وصدق . وقال العلماء إنه يقصد من ذلك من لا أصل له فإن الرجل الشريف الأصل لا ينسى حق صاحب الجليل ولا المنعم عليه .

وبيان ذلك أن هرون بعد أن غادر خوارزم ثان هناك إثناعشر غلاما ٤٦٨ قد اتفقوا على اغتياله فأعملوا فيه السيوف والخناجر والدبابيس ، ومزقوا هذا الكافر بالنعمة إربا إربا في موضع يبعد عن المدينة أربعة فراسخ ، وثار الجيش وعاد أدراجه . وهذه الأقاويص نوارس سوف آتى بذكرها في باب أفرد لها كما وعدت . وفي هذا القدر هنا الكفاية . ويوم السبت السادس من رجب جاء نبأ بوفاة كبير الحجاب بلسكاتكين رحمة الله عليه . ولما بلغ السهم سالار على داية بلغ جاء كبير الحجاب ، نزولا على الأمر السلطاني ، إلى نيسابور ، وسار من نيسابور إلى جرجان ، وقد سلم إليه أكثر المستأمنة من عرب جرجان حتى يسير بهم إلى نيسابور وقد توفي بعد وصوله إلى هناك ، وما تدري نفس بأى أرض تموت . ويوم الإثنين الثامن من رجب بلغ السلطان جرجان ، وكان الهواء شديد الحرارة راصكا وخاصة هناك حيث يكون الجو عادة دافئا ، وقد دب الضعف في الدواب أكثر مما كانت عليه في آمل ، وكانت تأكل قش الأرض في الطريق . وقد سمعت من الخواجة أبي نصر مشكان رحمة الله عليه قال : « وكان الساطان نادما على مجيئه إلى آمل ، فقد رأى ماسينجهم عن ذلك ، وقد دعاني واختلي بي وجلسنا وحدنا قال أي خطأ ارتكبنا ! لعنة الله على هذا العريق . لم نفد شيئا ولم يفد

الجيش ، وقد سمعت أن الرعايا في تلك النواحي قد اضطهدوا . قلت « أطال الله حياة مولاي كان الوزير وغيره يقدمون نصائحهم ، ولم يكن في طاقتهم الاعتراض على رأى السلطان بأكثر مما قالوا ، فإن اعتراضهم قد يؤول إلى شيء آخر ، وإن ما جرى به لفظكم الشريف » ما فائدة مجيئنا إلى هذه النواحي ، حق ولكن إذا لم يقدم منه مولاي فقد كان فيه فائدة لآخرين . ولا يحسن إعادة القول في هذا ، فليس في التكرار فائدة إلا أن يشمت بنا الآخرون » فقال السلطان « إن حديثك حق كله لا هزل فيه ، وإنك ترعى مصالحنا ، فتحدث بصراحة بحقنا عليك » قلت « أطال الله حياة مولانا ، لقد أفاد با كاليجار فائدة عظمت ، فقد كان مستضعفاً لا يطاع من جنده ورعيته ، فتبض السلطان على الكبراء الذين كان با كاليجار منهم في خوف ، وجاء بهم مصنفين بالأغلال ، وكذلك قضى السلطان على مقدمي العرب وقبائلهم في هذه النواحي ، وكان نصيب با كاليجار منهم القلق والإفراط في إنفاق المال فأنجاه السلطان منهم ، وأما الرعية فقد عرفت لبأ كاليجار قدره بعد ما رأت شتى ضروب ظلم أبي سهل أسماعيل ، ولكن من اليسير ٤٦٩ أطال الله حياة مولاي ، تلافى كل هذا بقليل من العناية ، فإن با كاليجار رجل عاقل وعبد صادق وابنه يعود طائعاً خاضعاً برسالة واحدة ورسول ، وإننا نأمل ، بفضل الله عز وجل ، ألا يحدث خلل في خراسان في غيبة السلطان عنها ، فقال السلطان هو كذلك .

ورجعتُ ولكن حاشية السوء لم تقبل أن يعود با كاليجار طائعاً بعد ما كان من النفور ، وقالوا يجب أن يعين هناك عامل وشحنة ، وقد خفى عليهم أن راية السلطان حين تبعد عن هذه الديار سيعود إليها با كاليجار وسينضم إليه الرعايا الذين ذاقوا منا الذل والهوان . وعين أبو الحسن شيد الجليل رحمة الله عليه في منصب صاحب الديوان وكتبخداية الجيش ، وسير معه

فوج قوى من الجند ، ليقبوا هناك حين يتحرك الركب العالى إلى نيسابور .

ولما سارت الأحوال على هذا المنوال كانت الطامة الكبرى . فحين صلاة العصر من ذلك اليوم الذى بلغ فيه السلطان جرجان ، وكان مسروراً بحديث خوارزم وبقتل هرون المخدول ، وكان له أن يُسر ، فإن خطراً كبيراً قد زال بقتل هرون ، فأخذ فى الشراب وظل يشرب طول الليل ، ولم يجاس للاستقبال فى الغداة اتباعاً لرسم أبيه ، وكان القوم قد غادروا الدركاه جميعاً ، وبالرغم من حرارة الهواء فإنه قد عزم على البقاء فى جرجان أسبوعين ، وقد دعانى الأستاذ أبو نصر بعد صلاة الظهر وجلسنا للأكل وإذا بفارسين من رجال أبي الفضل السورى ، فارسين مسرعين من شياطين فرسان فراوى ، قد أقبلوا فتقدما وسلموا فقال لهما أبو نصر ماذا وراءكما ؟ قالوا : لقد جئنا من نيسابور فى يومين ونصف يوم ، وكنا بركب طول الطريق خيولاً مستريحة فكانت تسير مناقلة^(١) حتى أننا لم نسترح ليلاً أو نهاراً ، اللهم إلا بقدر ما نتناول طعامنا ، وبهذا أمرنا صاحب الديوان ولا ندرى سبب ذلك . فكفّ الأستاذ عن الطعام وأجلسهما للأكل وأخذ السكتب وفتح الخريطة وأخذ يقرأ ، فاضطرب اضطراباً شديداً وأخذ يهز رأسه . فعرفت (أنا أبو الفضل) أن حدثاً جليلاً قد وقع . ثم قال أسرجوا الخيل ، وغسل يديه وطلب الرداء . فوقفنا فقال لى اتبعنى إلى الدركاه . وجهز مكاناً للفارسين . وسرت إلى الدركاه وكان خالياً ، وقد شرب السلطان حتى الضحى ثم استسلم للنوم . فقال لى أبو نصر ، وكان وحده ٤٧٠ « إن التركان والسلاجقة مع جمع كبير من الرجال قد عبروا النهر وإنهم مروا عن طريق سهل ده كنبدان بجانب مرو وساروا إلى نسا وإنهم استشفعوا صاحب الديوان

(١) استعمال المؤنث هذا اللفظ . يقال فرس مناقل أى سريع نقل القوائم .

سورى إلى السلطان لتترك لهم نساء حتى يأتى أحد قادتهم الثلاثة إلى الدكاه ويقوم بالخدمة فيه ، ويصبح هؤلاء جيشا يوجهه السلطان حيث يشاء . يا أبا الفضل إن خراسان قد ضاعت ، إذهب إلى الأستاذ الرئيس وقل له هذا .

فذهبت إليه فوجدته قد صحا من نومه وكان يقرأ فى كتاب ، فلما رآنى قال خيرا ، قلت هو خير . قال أعرف ان السلاجقة قد دخلوا خراسان قلت نعم . وجلست وحكى ما كان فقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ثم قال هاهى نتيجة السفر إلى آمل ومشورة العراقى الكاتب ، أعدوا الخيول . فخرجت وأما هو فقد ركب إلى حيث وافاه أبو نصر الذى جاء من ديوانه واختلى به ، ولم يكن معهما أحد سوى فأعطاه أبو نصر رسالة سورى وقد كتب فيها إن عشرة آلاف فارس من السلاجقة واليناليين قد جاءوا إلى نسامن جانب مرو ، وإن التركان مع فوج آخر من الخوارزميين الذين كانوا هناك سيّهم السلاجقة أمامهم ولم يتيحوا لهم الركوب ولم يجيزوا ذلك .

يقول سورى : « وقد أرسلت للدركاه الخطاب الذى بعثوه إلى ليقف عليه السلطان » وهذا نص الكتاب :

« إلى حضرة الشيخ الرئيس الجليل السيد مولانا أبى الفضل سورى من العبيد بيغو وطفغرل وداود موالى أمير المؤمنين ، لقد استحال علينا الإقامة فى بخارى ، فى بلاد ماوراء النهر ، فقد كانت صلتنا بعلى تكين إبان حياته صلة بمحاملة وود وصداقة ، واليوم وقد مات وآل الأمر إلى ولديه وهما طفلان طائشان قد استولى عليهما وعلى الدولة والجيش والسياسة قونش قائم والدهما ، وقد عادانا حتى استحال علينا العيش هناك . وإن خوارزم مضطربة أحوالها بعد قتل هرون ، مما يجعل مسيرنا إليها متعذرا ، ولذلك جئنا نلوذ بسلطان العالم ولى النعم ليكرمنا الشيخ سورى ويكتب إلى الأستاذ الرئيس احمد عبد الصمد

ليكون ٤٧١ شفيحاً لنا عند السلطان فإنه يعرفنا وكنا بفضل وساطته نقيم كل شتاء في ولاية خوارزمشاه التوتاش رحمة الله عليه ، نحن ورجالنا وأنعامنا حتى الربيع ، لعل السلطان يقبلنا عبيداً له ، فيقوم أحدنا بالخدمة في الدركاه وينفذ الآخرين ما يأمر به السلطان من خدمات ، فنستريح في ظله الوارف ويمن علينا بولايتي نسا وفراوة ، وهما على حدود الصحراء ، حتى نستقر فيهما ويهدأ بالنا ، وإن ندع مفسداً يخرج على الدولة من باخان كوه ودهستان وحدود خوارزم وجوانب جيحون ، وسنطارد تركمان العراق وخوارزم . ولا ندرى ، إذا رفض السلطان ، والعياذ بالله ، التماسنا كيف تصير الأمور ، فليس لنا على وجه الأرض مكان نقيم به . ولم نجرؤ أن نكتب للسلطان شيئاً ، فإننا هبنا مجلسه العالي الوقور ، فكتبنا إلى الشيخ سوري ليقضى في الأمر بنفوذه التام إن شاء الله عز وجل .

فلما قرأ الوزير هذا الكتاب قال لأبي نصر : « يا أستاذ كنا نتعامل حتى الآن مع الرعاة ولعلك تعرف كم قاسينا منهم وكم نقاسى حتى الآن من بلاياهم . أما اليوم فإنهم قد أتوا إلينا أمراء من يلوين الولايات . لكم صرخت بأن لا وجه للذهاب إلى طبرستان وجرجان فلم يستمع مولاي إلى ، وإن رجلاً كعراقي لا يميز يميناه من يسراه قد دبر هذا في خداع وشعوذة . وما كان لنا في ذلك من فائدة ، فقد كان المسير خطأ وباطلاً . وإن ولاية هادئة كجرجان وطبرستان قد اضطربت الأحوال فيهما وذهبتا هباءً ، وخرج علينا أهلها وكانوا عبيداً طائعين ، وكذلك لن يخلص لنا بالكليجار بعد هذا ، واضطربت أحوال خراسان اضطراباً شديداً . فليجعل الله السلامة عاقبة لهذا التصرف . ومع هذا الخلل كله فإنهم يدعون أن الأمور تسير الآن على النهج السوي ، ولسوف يثيرون هؤلاء السلاجقة ، ومن اليسير التنبؤ بما سيكون حينئذ وإن هذا الأمر أهم من أن يتغافل عنه لحظة ويجب أن

يعرفه السلطان . فقال أبو نصر : إنه كان يشرب طول الليل حتى قرب الظهر ثم استغرق في النوم . فقال الوزير ليس هذا أوان النوم ، لابد له أن يعرف ثم قال إن أمرا جلالا قد وقع ولابد من أن يوقظوه .

وأرسلني (أنا أبو الفضل) إلى آغا جي الخادم الخاص فقلت له ٤٧٢ ما جرى ، فدخل إلى السراشق ووقف و تنحنح فسمعت صوت السلطان يقول ماذا ؟ فقال الخادم لقد جاء أبو الفضل يقول إن الأستاذ الرئيس وأبا نصر قد جاءا إلى الخباء ولا بد أن يريا مولاي فإن أمرا جلالا قد وقع . فقال خيرا . وقام ودعوت له ، وطلب السلطان رضى الله عنه الطست والماء فتوضأ ، وخرج من السراشق إلى الخيمة ، ودعاهما واختلى بهما وكنت (أبو الفضل) واقفا . فقرأ الرسائل ؛ فاستشيط غضبا وسب العراقى . فقال الأستاذ الرئيس إنها تقادير الله تسير ، وما العراقى وغيره إلا وسائلها . والخير أن يتفكر السلطان مليا قبل الإقدام على عمل . والآن وقد حدث ما حدث فلنبذل الجهد حتى لا يتسع الخرق على الراقى . فقال ماذا نعمل ؟ قال الوزير : لو يرى مولاي أن ندعو الحاجبين بكتغدى وأبا النصر ، إذ ليس هناك سب سلالار ، ويجىء الحاجب سباشى فإنه أوجههم مع من يرى السلطان مجيئهم معه من أهل السلاح والفرسان العرب حتى نتشاور فى هذا الأمر ويتضح الرأى . فقال : حسنا . ثم خرجا وذهب الخدم لدعوة المقدمين . وبدأ المدعوون يفدون حسب الرسم وجلس لاستقبالهم بعد صلاة العصر . فاستقبل الأستاذ الرئيس أحمد عبدالصمد والعارض أبا الفتح الرازى وصاحب ديوان الرسائل أبا نصر مشكان والحاجبين بكتغدى وأبا النصر وسباشى ، ودعى من بين الندماء ، أبو سهل الزوزنى الذى كان يدعو من حين إلى حين ويجلسه فى مثل هذه الخلوات . وتحدثوا فى هذا الباب شتى الأحاديث وتشاوروا . قال السلطان رضى الله عنه : « ليس هذا أمرا هينا لقد جاء عشرة آلاف فارس تركى مع كثير من القادة وأقاموا وسط

بلادنا ، ويقولون لم يبق لنا من مكان نأوى إليه ، والحق أنهم استضعفوا بلدنا ،
لن نملهم ليجدوا في بلادنا مستقرا يترعرعون فيه . أنظروا ماذا كان من هؤلاء
التراكمة من البلاء والإزعاج بعد أن جاء بهم أبي وأتاح لهم عبور النهر وأقامهم
في خراسان ، كانوا رعاة إبل وهم الآن كما يقول الوزير « طالبو إماراة »
فيجب ألا ندعهم يتنفسون في بلادنا ، والصواب أن نسير بأنفسنا لطردهم من
جرجان مع غلبان السراى وجند مختارين عن طريق سمنگان الواقع بين إسفرايين
٤٧٣ واستوا ، وأن نزحف إلى نسا زحفاً قويا حتى نستأصل شأفتهم .

فقال الوزير الصواب ما يراه السلطان . وكذلك قال العارض وصاحب
ديوان الرسائل وأبو سهل الزوزنى . فسأل الوزير الحاجبين ما رأيكما ؟ قالا :
« نحن رجال حرب نسير حسب ما نتاقى من أمر ، ونعمل سيوفنا حتى نهزم
الاعداء ، أما التدبير فمن عمل الوزير » فقال الوزير : « يجب أن نسأل عن
أحوال الطريق » فجئىء فوراً ببضعة رجال يعرفون هذا الطريق ، فذكروا أن
هناك ثلاثة طرق أحدها صحراوى من جانب دهستان وهو وعر لا ماء فيه
ولا علف ، والآخرا أشد منه وعورة وفيهما عقبات جمة . قال الوزير إني
أنصح بما أعرف والأمر لمولاى ، وإن أكثر خيول الفرسان الفرادى وبعض
خبول غلبان السراى قد أكل قش الأرض وقتاً طويلاً فى آمل وكانت تأكل
الحشائش حتى عدنا ، والطريق على ما وصفوا من هنا إلى نسا ، وعر ومتعب ،
فلو ذهب السلطان للقتال بنفسه وحث السير فإن الدواب ستتخلف والجند
الذين يصلون معه سيكونون قلة منهوكة القوى ، هذا والاعداء مستريحون
متأهبون ودوابهم قوية ، ولا بد من أن نفكر ملياً حتى لا تختل الأمور وتصبح
هباءً فإن تحرك السلطان بنفسه ليس هيناً ؛ ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء التركان
هادئون ، ولم يظهر منهم فساد ، وقد كتبوا إلى سورى على هذا النحو وأظهروا
طاعتهم ، ويدولون أن الأصوب أن نرد على سورى رداً جميلاً وأن نقول له

ليخبر الدهاقنة ألا يقلقوا فإنهم نزلوا في بيوتهم ، وإنهم في ولايتنا وفي أماننا وإنا قد قصدنا الرى فحين نبليغها نأمر بما يجب لإصلاح حالهم . فحتى ترسل هذه الرسالة ويسير السلطان باليمن إلى نيسابور وتستريح الدواب وتقوى يتضح بجلاء أمر هؤلاء الوافدين الجدد (السلاجقة) فإذا اقتضت الضرورة وكان من الصواب إخراجهم من خراسان توجه إليهم جيش قوى عليه قائد ٤٧٤ مشهود له بالقوة والمهارة وقضى عليهم ، فإن هيبتنا نزول لو ذهب إليهم السلطان بنفسه وخاصة إذا بدأ زحفه عليهم من هنا . لقد قلت ما بدا لي والرأى لمولاي . »

واتفق الحاضرون على صحة هذا الرأى واستقر الرأى على العودة إلى نيسابور خلال ثلاثة أيام . فأمر السلطان بدعوة أبي الحسن عبد الجليل إلى هذا المجلس فجاء وتلقى الأمر بالذهاب نحو مدينة جرجان مع خمسة من المقدمين والسرهنكية وحاجب وألف فارس وأن يكون هو كتحدا الجيش ليرى ماذا سيعمل با كاليجار في الأموال التي تعهد بدفعها ، وحينئذ نأمره بما ينبغي عمله . وقد تحدثوا زمناً في هذا ثم أخذوا أبا الحسن إلى خزانة الألبسة فارتدى الخلعة ، ثم جاء إلى الحضرة السلطانية مع المقدمين والحاجب وقد خلع عليهم أيضاً ، ثم رجعوا وبدأ سير الجيش من الدركاه وخرج من المدينة .

ويوم الأربعاء العاشر من رجب وصل الساعة المسرعون من خوارزم ينبئون بخبر وفاة عبد الجبار ابن الأستاذ الرئيس ومن معه . ذلك أن عبد الجبار كان قد أسرع بالخروج من مخبئه ساعة قتل هرون فامتطى فيلا وأقبل على ميدان سراى الإمارة وقد هرب خندان بن خوارزمشاه مع شكر الخادم وبعض الغلمان ، ومن سوء الصدف أن جاء شكر الخادم مع بضعة غلمان لعمل ما إلى الميدان ، فكانت مقابلة مفاجئة بينه وبين عبد الجبار ، وقد سبه عبد الجبار فأمر

شكر الغلمان يرميه بالسهم فطعنوه بالسهم والبليط وقتلوه وولدين له وابن عمه
وأكثر من أربعين رجلا من أتباعه . ورجع القتلة فأتوا بخندان وأقاموه
بالإمارة ، وسيأتي ذكر ذلك في باب خوارزم .

جلس الوزير في مأتم ولده ، وذهب لعزائه جميع الأعيان والعظماء ورأيت
من قوته أنه لم يذرف دمعة واحدة . وقد كان هذا الرجل نسيج وحده في كل
نواحي العظمة ، لقد رأوه في هذه المصيبة صابرا وأعجبوا به . وحقا كان الشاعر
قصده في قوله :

يبكى علينا ولا نبكى على أحد لنحن أغاظ أكبادا من الإبل

وأوفد إليه السلطان الفقيه عبد الملك الطوسي النديم برسالة العزاء ، وكان
هذا الفقيه حلو الحديث عاقلا ، فلما بلغ عزاء السلطان للوزير نهض هذا ٤٧٥
وقبل الأرض ثم جلس وقال : « إني وأولادي وكل من أعول فداء شعرة
واحدة من مولاي فإن سعادة الخلق في أن يموتوا في رضا السلطان . وقد خلق
الناس سواسية ولا ينال أحدهم حسن الذكر عفوا » .

وهذا التجلد أشبه ما يكون بما كان من عمرو بن الليث وسأذكر ما قرأت
في هذا الشأن والله أعلم بالصواب .

حكاية عمرو بن الليث أمير خراسان

وما كان من صبره حين نعى ابنه إليه

رجع عمرو بن الليث في إحدى السنين من كرمان إلى سيستان ، وكان ابنه
محمد الذي يسمى في العسكر شابا صالحا ، وقد نضج وأصبح أهلا للعمل وشاء
القبض أن يصاب هذا الولد بالقولنج في صحراء كرمان على مسيرة خمسة منازل

من مدينة سيستان ، ولم يكن بمكانا أن يقيم عمرو هناك فبقى ابنه مع الأطباء والمعتدين وكاتب ومائة مجز . وقد قال لزعيم المجمزين يجب أن يفد على مجز في أثر الآخر ، وكان الكاتب يكتب كيف حال المريض وماذا أكل وماذا قال وهل نام أو لم ينم حتى يقف عمرو على كل أحوال ولده إلى أن يرى ما قدره الله عز ذكره . ودخل عمرو البلد ونزل في سراي الحرم وخلا إلى ربه على حصير للصلاة خشنة ، وظل هكذا نهاره وليله وكان ينام على الأرض بغير وسادة ، والمجمنون يفدون دواماً عشرين أو ثلاثين مرة كل يوم ، وكانوا يقرءون عليه ما يكتبه الكاتب فكان يجزع ويبكى ويسرف في الصدقات ، وأمضى على هذا النحو سبعة أيام يصوم النهار ويفطر على خبز جاف ويأكل الخبز بغير أدام ، كان في رعب شديد . وفي اليوم الثامن ، وقت السحر ، جاء زعيم المجمزين بغير كتاب فإن الولد كان قد مات ، ولم يقو الكاتب على نعيه ، فأرسله وحده لعل الأمير يدرك ما جرى .

فلما دخل على عمرو ، قبل الأرض ولم يكن معه كتاب . فقال عمرو أقضى الولد ؟ فقال كبير المجمزين : « مد الله في عمر مولاي » فقال عمرو « الحمد لله عز وجل إنه فعل ما أراد ويفعل ما يريد ، انصرف واكتم هذا الخبر » . ثم إنه قام وذهب إلى الحمام حيث صفف شعره واغتسل ثم خرج واستراح ثم ٤٧٦ نام . وبعد الصلاة أمر باستدعاء الوكيل ، فجاء وأمره قائلاً : « اذهب وأقم وليمة حافلة للغد فيها ثلاثة آلاف حمل وما يلزمها ، وفيها الشراب وعدته والمطربون » . فعاد الوكيل وأعد كل شيء . ثم قال عمرو للحاجب : « غدا استقبال عام فأعلم الجيش والرعية شريفهم ووضعهم » . وبكر بالاستقبال في الغداة ، وكانت الموائد الكثيرة قد صفت ، وبعد انقضاء الاستقبال جلس الناس إلى الموائد وبدأوا يشربون والمطربون يغنون ، فلما أشرفوا على الفراغ أتجه عمرو إلى خاصته وأوليائه وحشمه وقال : « اعلوا أن الموت حق ، وأنا لبثنا سبعة أيام

بلياليها في قلق على ولدنا محمد لم ننم خلالها ولم نشرب ولم يكن لنا من قرار ،
 كنا نرجو ألا يموت وشاء حكم الله عز وجل أن يتوفاه ، ولو كانت الحياة تباع
 لا شتريناه بأعز ما نملك ، ولكن أبا لابن آدم هذا . وبعد أن توفي ، ومن مات
 فات ، فالجزع والبكاء ضرب من الجنون وهو من عادة النساء . عودوا إلى
 بيوتكم وكونوا على سحيتم وعيشوا سعداء فإن الحزن لا يليق بالسلطين .
 فدعاه الحاضرون وعادوا . وبمثل هذه النواذر تشتد عزمات الرجال ، وتقوى
 قلوب الضعفاء من الناس .

وسار السلطان مسعود من جرجان يوم الخميس الحادى عشر من شهر رجب
 وبلغ نيسابور يوم الإثنين ثمان بقين من هذا الشهر ، ونزل في حديقة
 شادياخ . ويوم الأحد ليومين بقيا من هذا الشهر توفي أحمد على نوشتكين في
 نيسابور رحمة الله عليه ، ولكل أجل كتاب ، وبموته درست الفروسية ولعب
 الصولجان والرمى بالقرص وهذه الرياضات كلها . وحين جاء السلطان إلى
 المدينة تحمس في تهيئة الجيش حتى يوفده إلى نسا ، وكان التركمان يتربصون
 هادئين ليروا ماذا سيحدث . وكانت كتب المهنيين تقول إنه منذ غادرنا جرجان
 حتى أتينا نيسابور لم يحدث منهم خيانة أو غدر ، وإن أكثر أمتعتهم كان قد نهبا
 شاه مالك وإن قلوبهم حزينة من أجلها ، وقد أتوا معهم بما بقى لهم و قد حملوه
 إلى حافة ٤٧٧ الصحراء ، وهم محتاطون لحمايته احتياطا كبيرا ليلا ونهارا . وهم
 يعملون للحرب وللصلح على السواء ، وقد جنحوا إلى السلم قليلا بعد جواب
 سورى إليهم ولكنهم وجلون ، وإن السلاجقة واليناليين يمتطون جيادهم من
 الصباح الباكر إلى قبيل الظهر ويظلون يرقبون الطرق فوق الربا وهم يدبرون
 الخطة خفية لأنهم في خوف شديد منذ سمعوا أن السلطان قد اتجه ناحية
 نيسابور .

وقد عرض أبو نصر هذه الرسائل ، فكف السلطان عن الشراب ، وظل يفكر مليا وملء قلبه الندم على هذه الرحلة إلى طبرستان فلم يكن من ورائها شيء سوى سوء السمعة . ولم يبق للعراقي جرأة على أن يتكلم في حضرته في أمور السلطنة .

والطريف حقاً أن السلطان قد أساء الظن بالاستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد مع ما أدى من جليل الخدمات ومع ما دبر من خطط سديدة أدت قتل المخذول هرون ، ذلك أنه قد قر في نفس السلطان أن سبب عصيان هرون هو عبد الجبار ابن الاستاذ الرئيس ؛ كما صوروا له أن للوزير حديثاً مع الأعداء أراد منه التمهيد لمجيء السلاجقة إلى خراسان . وسمعت الخواجة أبا نصر رحمة الله عليه ، في خلوة كان معي فيها أبو منصور طيفور ، يقول :

« إن الله عز وجل يعلم أن هذا الوزير صادق وناصح وأنه برىء من مثل هذه التهم ولكن الملوك كثيراً ما يأخذون بالظن ، ولا يستطيع أحد أن يسبر غورهم ويتبين ما في ضمائرهم وأنا (أبو نصر) أكثر علماً بأحوالهم بحكم اتصالي بهم منذ كنت شاباً إلى يومنا هذا . وكأن القضاء أراد أن يكون هذا السلطان سئء الظن بالوزير ، رغم أنه خبره مرات عدة وكلفه بخطر الأمور . وقد رأينا أنه أمره على جيش جرار ليسير إلى بلخ وطخارستان وختلان ووضع عليه خفية عينا ، قائداً كبيراً . وكان الوزير يعرف هذا كله من السلطان ويتغاضى عنه ولا يبخل بنصحه . والآن وقد وقعت حادثة السلاجقة والسلطان في غم وقلق من هذا ويعمل على إيفاد الجند إلى نسا ، فقد دعا إلى خلوة لنظر هذه المهمة ، وجرى الحديث شتى ، وكان يسخر من كل ما يعرضه الوزير . فلما عدنا اختلى بي الوزير وقال : « ألا ترى ما يجري معي ؟ ياسبحان الله العظيم ، ٤٧٨ يقتل ولدي مثل عبد الجبار مع كثيرين من خلاني ويستشهدون في سبيل

خوارزم ، ومع هذا كله فإن السلطان لم يتأكد من أنى كنت بريئاً براءة تامة بما جرى فى خوارزم ، ولست أملك فى كل وقت يسىء بى الظن فيه أو يتخيل الخيالات عنى ولداً ورجالا كثيرين لأضحى بهم حتى يعلم أو لا يعلم أنى برىء ، وأطرف من ذلك كله أن يظن أنى أميل إلى السلاجقة حتى إذا ما كبر شأنهم فوَضُوا إلى الوزارة من بعد أن كانوا يقبلون يدى ومهما يكن فأنا اليوم وزير سلطان كمسعود بن محمود وأرانى أعظم منزلة من أن أكون وزيراً لجماعة كانوا يوماً ما خدماً لى . وكيف يطاوعنى قلبى وكيف تعمل جوارحى وكيف أبدى الرأى والتدبير وتفكير السلطان فى على هذا النحو ؟ ، قلت : « أطال الله حياة مولاي ليس الأمر كما تظن ولا يجوز أن تشغل خاطرك بهذا ، لأن المرء لا يستطيع القيام بهذه المهام إذا كان مريض القلب سىء الظن . » فقال : « يا خواجه أتجاملنى ؟ لست طفلاً صغيراً ، ألم تسمعه اليوم يطعن فى كثير مما قلت ، وقد كنت أرى هذا منذ زمن بعيد ، لكنى كنت أتغافل عنه ، ولكن الأمر قد تجاوز الحد اليوم . » قلت أياذن لى الوزير أن أفضى بهذا للسلطان ؟ قال : لا جدوى فى هذا ؟ فقد أفسدوا قلبه على ولكن إذا حانت فرصة للتحديث وأخلصت النصيح مما هو جدير بك ، فلتبين له حقيقة ما تعرف عنى ، فإن هذامن الخير وإنك تؤدى به عملاً مجيداً . » قلت : هذا حسن . وحدث أن خلوت بالسلطان وجرى الحديث عن بلخ وأبناء على تكين وخوارزم والسلاجقة . قلت : « أطال الله حياة السلطان لا يجوز أن يترك مولاي المهمات حتى تتراكم أو أن يستهين بها فإن هذا يثير القلق ولا بد من الكف إلى حين عن الطرب ، ولا بد من مواصلة العمل واستشارة الوزير . » فقال : « ماذا تقول ؟ كل هذا نجم عن تصرف الوزير فإنه ليس مخلصاً لنا . » ثم وقف ٤٧٩ وأخذ يسرد عتاباً على الأستاذ الرئيس قائلاً لقد حدث فى خوارزم كذا

وكذا ، وإن ولده عمل كذا وكذا ، وآخر الأمر جاء بالسلاجقة . قلت : ٤٧٩
أطال الله حياة السلطان ، لقد تكلم الوزير طويلاً معي بالأمس ، وأبدى بأساً
لأحد له ، فقلت له هل تأذن لي أن أبلغ هذا الكلام إلى السلطان ، فقال إذا
جرى حديث فمن الخير أن نتحدث به من تلقاء نفسك . فالآن إذا أذن لي
مولاي شرح ذلك . قال حسناً . فوقفت وذكرت كل ما قال الوزير .
ففكر ملياً ثم قال إنه يقول صدقاً فإن بيته وماله وولده وأهله كلهم راحوا
ضحية خوارزم ، وقد دبر تدابير صادقة أدت إلى القضاء على ذلك المغرور
هرون . قلت : « مادام السلطان يعلم أن الأمر كذلك وهذا الرجل وزيره ، وقد
أدى الخدمات التي كلف بها على خير وجه ، وبذل الروح والمال ، فأية فائدة
في إساءة الظن به واتهامه ؟ فإن إثم ذلك يعود على أعمال مولاي ، فكيف
يستطيع الوزير الذي أسى به الظن أن يعمل في صدق ؟ إنه يظن أن كل
ما يفكر فيه ويعزم على التفوه به سوف يستمع إليه على وجه آخر ، فلهذا
يتجنب إبداء الرأي الصائب ويذكر ما يوافق ظاهر الحال ، وبذلك تضيع
الاستقامة في الرأي . » فقال السلطان رضى الله عنه : « إنه كما قلت ، ولم تبد
لنا حتى الآن خيانة من هذا الرجل ولكنهم أوغروا صدورنا عليه ولا يزالون
يفعلون » قلت : « إن أمام مولاي اليوم مهام كثيرة ، فإذا رأى فليستمل قلبه
إليه ولينهر كل من يتحدث عنه بغير حق ، حتى يطيب خاطره ويرضى قلبه
ولا تتعقد مصالح مولاي بل تسير الأمور على خير وجه » . قال فما التدبير في
هذا الأمر ، قلت إذا رأى مولاي فليستدعه ويخل معه ويطيب خاطره . فقال
إنا نخجل من ذلك . فليغفر الله لهذا السلطان العظيم إذ لم يكن أكرم منه وأحلم .
قلت فماذا يرى مولاي ؟ قال تذهب إليه عند صلاة العصر برسالة منا ، وتقول
كل ما تراه لازماً ومؤدياً إلى استمالته ، وسوف نتحدث إليه غداً بحيث نزيل
(م ٣٣ — يهـ) .

كل ما في قلبه من سوء الظن ، وعليك أن ترانا بعد حديثك إليه ٤٨٠
 التروى إلينا ما جرى . فقلت إذا رأى مولاي فليبعث معى عبدوس أو رجلا من
 المقربين فليس الشفع كالوتر . قال أعرف ما تفكر فيه ولسنا بحاجة إلى مشرف
 عليك وإن ولاءك وإخلاصك لا شك فيهما . وأثنى على كثير حتى خجلت
 ثم حييت وانصرفت . وحين صلاة العصر ذهبت إلى الوزير وذكرت له كل
 ما كان بينى وبين السلطان وبلغته الرسالة التي كانت كلها عطف وتكريم . فلما
 انتهيت من الحديث وقف الوزير ثم قبل الأرض ثم جلس وبكى ، وقال لن
 أنسى ما حييت حق سيادة هذا السلطان ولن أبخل بخدمتي ونصحتي وشفقتي
 ما دمت حيا بعد هذه الدرجة الرفيعة التي من بها على ، ولكنى أتوقع ألا يستمع
 إلى حسد الحاسدين والبنامين ، وإذا أخطأت فليذهبني إلى خطي ويعفني بنفسه
 ولا يدخر ضغنا على في قلبه ، فإنه لو يسىء بى الظن يضطرب خاطري وأعجز
 عن العمل ويعود ذلك بالضرر على أعمال السلطنة ، وكيف أقوى على إبداء
 الرأى فى المهمات وهذا حالى . قلت فليطب خاطر الأستاذ الرئيس وليبدأ بالا
 ولو حدث بعد هذا نفاق فليؤاخذ عنه أبا نصر ، وطيبت خاطره . وعدت ورويت
 كل ما جرى للسلطان . ثم قلت لو رأى مولاي فليتبفضل على الوزير غدا بإبداء
 العطف عليه ، فإن لكلمات مولاي أثرا آخر . قال سأفعل كذلك . وفى الغداة
 اختلى بالوزير بعد الاستقبال وانصرف الناس ، وقد دعانى معه وقال له قولا
 كريما بحيث أزال كل شك من نفسه . وكان هذا الحديث فريضة لحل هذه
 المشكلات فإن الأمور لا تستقيم بغير وزير^(١) . فقلنا له إنه كذلك ودعونا
 له لرعايته مصالح الملك .

(١) هذه نهاية كلام أبي نصر مع أبي الفضل وأبي نصر طيفور . وجملة « فقلنا له .. » هي
 من كلام أبي الفضل وأبي نصر طيفور .

وحين صدق عزم السلطان مسعود رضى الله عنه على إرسال جيش قوى ٤٨١ مع سالار عظيم إلى نسا ، اختلى مع الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل وأبى سهل الزوزنى النديم ، والحجاب بكتغدى وأبى النصر وسباشى ، وذهب رسول فدعا الأعيان والسرهنكية والحاجب وأصحاب الولايات من أمثال الحاجب نوشتكين ولوالجى ويبرى الموكل بالاصطبلات وغيرهم فلما اكتمل الجمع قال السلطان : لقد أقننا عدة أيام ، وتنفس الجند الصعداء ، واستراحت الدواب ، وكتب المنهين فى نسا وباورد تقول إن السلاجقة قد أخذوا إلى السكينة ، وإنهم فى خشية منا ، ولم يؤذوا الناس ، ولكننا نفكر دائما فيما نرى من وجود عشرة آلاف فارس تركى بيننا فيماذا تشيرون ؟ فأخذ ينظر بعضهم إلى بعض وقال الوزير : « تكلموا فإن السلطان يسألكم ، ومن أجل هذا دعاكم ، والوضع كما ذكر مولاي ، إما أن نظهر خراسان منهم ويلقى بهم إلى الجانب الآخر من النهر (جيحون) وإما أن يحضروا فوجا فوجا لخدمة السلطان ويظهروا الطاعة ، وأن يرسلوا مقدميهم رهينة إلى الدركاه العالى » قال بكتغدى : معروف أن السلطان الماضى استقدم باختياره فوجا من التركمان إلى خراسان ، وقد رأينا ما ظهر منهم من الفساد منذ قدومهم حتى الآن . وقد ولد مجيئهم الأمل فى نفوس الآخرين من بنى جلدتهم ، والعدو لا يصبح صديقا أبدا ، ولا بد من أعمال السيف فيهم كما قال أرسلان الجاذب ولم يستمع إلى كلامه أحد حتى كان ما كان ، وكذلك قال بقية الأعيان . وتقرر إيفاد جيش مع سالار محنك إلى نسا . فقال السلطان ومن يكون هذا السالار ؟ فقالوا لويأذن مولانا فإننا نجلس ، نحن العبيد ، فى الخارج مع الوزير وتبادل الرأى ونخبر مولانا . فقال حسنا ، ورجعوا ، وكان أبو نصر مشكان يروح ويغدو بين الجماعة والسلطان ، وطال الكلام إلى أن تقرر إيفاد عشرة قواد من مقدمى الحشم وعلى رأسهم الحاجب بكتغدى والكتخدا الخواجه حسين على ميكائيل وخمسة عشر ألف

فارس من كل صنف في أهبة تامة وألفين من غلمان السراى . فقال بكتغدى :
« إني عبد مطيع ولكن قد قيل إن القدر لا ينضج إذا كثر الشركاء »^(١) ، وقد
رشحوا الرياسة هذا الجيش عددا من القادة المشهورين وفيهم جماعة من أصحاب
محمود وعدد من الشبان الذين لا تجربة لهم والذين رفع السلطان مراتبهم ، ٤٨٢
وينبغي أن يكون القائد الأعلى واحدا ، وأنا رجل قد بلغت من الكبر عتيا
ووهن عظمى وضعف بصرى ، ولا يجوز النقص في القيادة ، فإنه يؤدي إلى
خلل عظيم ، فيؤاخذنى به السلطان » . فأجاب السلطان رضى الله عنه : « ليس
بين هؤلاء القادة من يجرؤ على التوانى في تنفيذ أمرى » . ولم يرق للقوم ذهاب
بكتغدى وقالوا إن الحقيقة كما يقول هذا الشيخ ، ينبغي ألا يتعقد هذا الأمر .
فقال السلطان « لا بد أن يذهب بكتغدى » . فاستقر الرأى عليه وعاد القوم
حتى يستعد من كان عليهم أن يذهبوا معه . فأمر الوزير لأبى نصر قال : « إني
شديد الكراهية لذهاب هذا الجيش ولا أجرؤ على الكلام فإنهم يؤولونه تأويلا
آخر » . فقال أبو نصر ولماذا ؟ قال إن الطالع سىء جدا — وكان متبحرا في علم
النجوم — . فقال أبو نصر وأنا كاره كذلك ، إني لا أعلم بالنجوم ، لكنى
أعرف أن جماعة من الغرباء نزحوا إلى هذه الديار وهم يظهرون الطاعة فقبول
طاعتهم أولى من إهاجتهم وإثارة ظنون السوء فيهم ، أما والسلطان والقيادة
يرون هذا فلا حيلة لنا إلا السكوت وسنرى ماذا قدر الله تعالى . فقال الوزير
أرى لزاما على أن أبين الحق فإذا لم يصغ إليه أكون قد أبرأت ذمتى . وعرض
رأيه على السلطان ولكن بلا جدوى ، فإن القضاء قضى ولا يمكن التغلب على
القضاء . وفى الغداة ركب السلطان ووقف فى الوادى أمام حديقة شادياخ
وعدوا أفراد الجيش بضربات السياط وقد أقر الجميع بأن هذا الجيش كاف

(١) ديك بهنبازان بسيار بجوش نيايد .

لتركستان كلها ، وأن ألفين من غلبان السراى ، تكفى لضبط العالم . وقد أثنى السلطان كثيراً على قائد غلبان السراى الحاجب بكتغدى وأبدى عطفه عليه ، وقال لجميع الأعيان والمقدمين إن هذا الرجل هو قائدكم وهو خليفتنا فأطيعوه جميعاً فإن أوامره كأنها أوامرنا . فقبلوا جميعاً الأرض وقالوا سماعاً وطاعة . وكانت الموائد قد صفت ، وقد أجلسوا عليها كافة الأعيان والمقدمين والموالى والحشم . وبعد الفراغ من الطعام ٤٨٣ خلعوا على الحاجب بكتغدى والمقدمين الآخرين الذين عينوا لهذه الحرب . ثم مثلوا بين يدى السلطان وادوا التحية ورجعوا . وفى الغداة ، الخميس التاسع من شعبان سار هذا الجيش صوب نسا فى أهبة كاملة ، وقد رافقهم الخواجه حسين على ميكائيل ، ومعه الألبسة والذهب الكثير ليبدل الصلوات إلى كل من يراه قد أحسن يوم الوغى ، لكل حسب بلائه ، واختيرت الفيلة التى تصاحبهم ، حتى إذا استقل القائد الفيل يوم المعركة يركب حسين فيلاً كذلك ليرى ما يدور .

ويوم الجمعة العاشر من هذا الشهر أمر السلطان بتفويض الخطبة فى نيسابور إلى الأستاذ أبى عثمان اسمعيل عبد الرحمن الصابونى رحمة الله ، وكان هذا الرجل آية عصره فى كافة الفضائل وخاصة فى مجالس الوعظ والخطابة ، وقد أقر الجميع بأن الفصحاء جميعاً قد بايعوه ، وفى هذا اليوم خطب خطبة جامعة مانعة . وتأثر القاضى أبو العلاء صاعد تغمده الله برحمته لإحلال أبى عثمان محله وأبلغ السلطان أن تغيير القواعد المتبعة ليس بمستحب . فأجيب بأننا رأينا هذا فينبغى ألا يضيق به صدرك .

وحين صلاة العصر من يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان جاءت رسالة من المنهى الذى كان يصاحب الجيش المنصور يقول فيها إن التركمان قد منوا بهزيمة من أول معركة دارت مع مقدمة الجيش بحيث لم يكن ثمة حاجة

للقلب والميمنة والميسرة وقطعت رؤوس سبعائة أو ثمانمائة منهم فوراً ، وأسروا
كثيرون وغنموا منهم كثيراً . فذهب الفراشون على الفور بالبشرى إلى بيوت
الأعيان فبشروهم ونالوا من خيرهم كثيراً ؛ وأمر السلطان بنفخ الأبواق وقرع
الطبول إيذاناً بوصول المبشرين ، وطلب إحضار المطربين والندماء وبدأوا في
اللهو والطرب . واستمر السلطان يشرب حتى الصباح وامتد وقت اللهو ، لأنه
كان قد كف عن الشراب عدة أيام ، وكان رمضان قد اقترب ، واقتدى به الأعيان
فكان كل يلهو في داره . ووقت السحر جاء النبا بأن جيش السلطان قد مضى ٤٨٤
بهزيمة منكرة ، وأن كل ما لدى الجيش من آلات وعدد قد وقع غنيمة في يد
العدو ، وأن غلمان القائد بكتغدى قد أنزلوه من على الفيل وأجلسوه على حصان
وساروا به مسرعين . أما الخواجه على حسين ميكائيل فقد أسر لأنه كان قد امتطى
الفيل ولم يستطع الحصول على حصان ، وتفرق الجيش في تفقره أيدي سبا .
وحين جاء هذا النبا أسرع كاتب النوبة بإطلاع أبي نصر عليه ، وكانت دار
أبي نصر في محمد آباد قرب شادياخ ، فلم يكذب يقرأ الرسالة حتى ذهب إلى الدركاه
وكانت رسالة موجزة للغاية ، وقد بدت عليه الحيرة والهم ، فسأل عن السلطان
ف قيل له إنه آوى إلى النوم في السحر ولا يمكن إيقاظه بأية حال حتى قبيل الظهر .
فكتب رقعة للوزير ذكر فيها الخبر ، وجاء الوزير وأخذ الموالى والأعيان
والكبراء يتوافدون حسب العادة في مثل هذه الأحوال . وقد وجدت
(أنا أبو الفضل) حين بلغت الدركاه الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل
وأبا سهل الزوزنى وسورى صاحب ديوان خراسان والحاجب سباشى والحاجب
أبا النصر ، وقد جلسوا مختلين عند مدخل البستان وأصدوا الباب عليهم
وكانوا يتبادلون العزاء فيما جرى ، ويقولون إنهم في حيرة من السبب الذى
أدى إلى تلك الهزيمة .

وفي الضحى كتبوا رقعة للسلطان وذكروا له وقوع تلك الكارثة وأرفقوا

معها رسالة المنهى فأخذها الخادم وسلبها للسلطان وجاء بالجواب يقول يجب ألا يعودوا لأن الأخبار سوف ترد تباعا فقد رتب الفرسان في الطريق ليزودونا بالأخبار، وبعد الصلاة سيؤذن بالاستقبال، للتحديث في هذا الشأن. ثم أعيد قورم آخرون وظل من ذكرت أسماؤهم وحدهم في الدركاه، وقرب صلاة الظهر جاء رسولان فراويان من رسل سوري ومن مهرة فرسانه، وكنا قد عادا من المعركة بعدتهما وقد حثا السير حتى جاءا بأسرع وقت، فحى بهما فستلا عن سبب إرسال الرسالة الأولى بأن التراكمة قد قتلوا وغلبوا وعما كان في الرسالة الثانية من انقلاب الأمر وغلبة العدو. فقالا لقد كان هذا الأمر بأمر الله، ولم يخطر على بال أحد، فإن الأعداء كانوا خائفين وبغير سلاح ولا ذخيرة ولا وسيلة وما كانت حربهم لنا لتؤدي إلى انهزام جيش عظيم كجيشنا بهذه السهولة فينقلب رأسا على عقب، ولو أطاع رجالنا أوامر بكتغدى القائد لما حلت بنا هذه الهزيمة، ولكن رجالنا لم يطيعوا أوامره، وعمل كل ٤٨٥ منهم بهواه، فإن القادة كانوا عديدين. وحين ساروا من هنا كانوا يراعون الحزم والحيلة ولا يتحركون في أى منزل إلا بالنظام التام، فكان القلب والميمنة والميسرة والجناحان وذخيرة الإحتياط والساقة والمقدمة كانت كلها تسير في نظام تام، وحين واجهوا خركاهات العدو رأوها خالية إلا من القليلين وعدد الدواب وعدة رعاة؛ فقال القائد بكتغدى انتبهوا وحافظوا على النظام فإن الأعداء رابضون في حافة الصحراء وقد أعدوا المكامن وذلك حتى لا يحدث إضطراب في صفوفنا، ولا تحركوا ساكنا حتى تذهب طليعتنا ونعرف جلية الأمر. ولكن رجالنا لم يذعنوا لأمره، فإنهم بعد تحرك الطليعة انقضوا على هذه الخركاهات والخيام والدواب الهزيلة وقتلوا كثيرا من التركمان من شتى الأصناف، وهذا هو الخبر الأول الذى يقول إن التراكمة قد غلبوا، فلما رأى القائد الحال على هذا النحو، وأن الزمام قد أفلت من يده، اضطر إلى أن يسير بالقلب فاختلط

الحابل بالنابل بين جندنا ، واختل نظام التعبئة ، وخاصة حين بلغوا تلك القرية التي كانت فيها مكامن العدو ، وحيث كان متأهباً للحرب فتقدم ، وكان الخواجه حسين يمتطيا الفيل ، ودارت رحى حرب شعواء ، أعمل فيها العدو الحيل وأبلى بلاء حسناً ، ولم يحدث ما كان يتوقع جندنا من أن العدو سيولى فراراً من أول حملة ، وكان اليوم شديد القيظ واشتعلت الرمضاء وجفت شفاة الجند والدواب من العطش ، وكان من ورائنا ماء ، فأشار نفر من القادة الأعزاء بأن يتراجع الجيش رويدارويدا بالكر والفر حتى يصل إلى الماء وفاتهم أن ذلك التراجع هو أشبه بالهزيمة ، ولم يستطع صغار الجند أن يفهموا السبب فيه ، فولوا مدبرين بغير أمر القائد . أما الأعداء فإنهم حين رأوا ذلك ظنوا أن جيشنا قد هزم فخرجوا من مكامنهم ، وجدوا في الحرب ، وحرار القائد بكتغدى في أمره ؛ كيف يستطيع السيطرة على الموقف ، جسم ضعيف ، مبتور الساق واليد ، يركب أنثى الفيل ، وجيشه قد ركب رأسه . أما الأعداء فقد اقتحموا المعركة في قوة واستفحل أمرهم فلما أهدق الأعداء بالفيل . أنزل الغلمان بكتغدى من عليه وحملوه وهم يجادلون عنه وإلا لوقع أسيراً . وأى ماء وأى منزل هناك ! لم يستطع أحد أن ينجى أحداً ، كان لكل منهم شأن يغنيه ، واستولى أعداؤنا على ما كان لنا من المال الكثير ووافر العدد وأسباب القتال ، وتفرق جندنا ٤٨٦ أيدي سبا ؛ وكنا هناك صديقين ؛ وقد أمنا بعد عودة التركان من تعقب رجالنا ؛ وسرنا طول الليل ؛ وها قد جئنا ولم يصل أحد قبلنا ؛ وقد ذكرنا ما حدث فعلاً وكان صاحب ديوان الرسائل قد عيننا وثمانية من أصدقائنا مع هذا الجيش لنقل الأخبار ، ولسنا ندرى ماذا كان من أمر أصحابنا وأين رسابهم المطاف ، وإذا قيل لكم خلاف هذا فلا تستمعوا إليه فليس لنا من عمل مع الجيش سوى الوقوف على الأخبار ، وإنه لمن المؤسف أن ينهار جيش بهذه العظمة والعدة بسبب اختلاف رؤسائه ولكنه قضاء الله .

فلما سمع الأعيان والمقدمون هذا القول حزنوا حزنا شديدا لفقد جيش كبير كهذا بهذه السهولة . وقد أملى على الأستاذ أبو نصر ما سمع فكتبته ، وقد جلس السلطان بعد الصلاة لاستقبال الأعيان فجلسوا وظلت هذه الخلوة حتى صلاة المغرب . وقد قرأ السلطان الخبر ودار الحديث طويلا ثم إن الوزير قال يطيب خاطر مولاه : « هذه مشيئة الله وهذا هو حال الدنيا وكثيرا ما هزمت الجيوش الجرارة والله يحفظ السلطان ليتدارك بحكمته كل شيء » . وقال العارض إن سبب هذه الهزيمة ، بعد قضاء الله عز وجل تخاذل قادة الجيش . وتحدث كل على هذا النحو ، تارة في لطف وتارة في خشونة . فلما عادوا قال الوزير لأبي نصر لقد كنت شديد الصمت ولم تتكلم فلما تكلمت انطلق حجر المنجانيق إلى بيت من زجاج . فقال : « ما حيلتى فإني رجل صريح اللهجة ولا أغالب غضبي ، ثم إن هذا السلطان لم يستمع إلى حديثي وأنا أخبره بما قلت حتى وقعت كارثة بهذه الجسامة ، إن تذهب مرارة هذا من نفسي ما حيت ، ولم أعود أن أرى مهزلة كهذه في هذه الدولة الكبيرة ، ولذا فإني أقول لمولاي الأستاذ الرئيس وللآخرين إنهم كانوا يطيبون خاطر السلطان مراعاة لشعوره حتى لا يخرج على حرجه ، فكنت أهرأسي بالموافقة وأقول نعم ، ولم يكن من ذلك بد ، وقد ألح على السلطان وبالع في إلحاحه ماذا تقول يا أبا نصر ، والكم ٤٨٧ عمات ولكم قلت الحق ولكم بذلت النصيح عسى أن يرجع عن استبداده ويحسن الاستماع لما فيه صالح الأمور » . فقالوا جميعا لأبي نصر جزاك الله خيرا لقد أحسنت القول وإنك لتقول الحق ، ثم انصرفوا .

وقد سألت الأستاذ أبا نصر ماذا كان الحديث الذي دار والذي أربع الناس على هذا النحو ؟ قال : « كانوا يخادعون السلطان ويهونون عليه ما وقع من مصيبة كما هو الرسم في مثل هذا الموقف وأما أنا فلم أنبس ببنت شفة ، وكنت أتميز غيظا ، وكان السلطان ينكر على ذلك فقلت أطال الله حياة مولاي

إنه ولو أن الحرب ليست صناعتى ومع أنى لم أتكلم وقت تسيير الجيش ولا الآن وقد وقعت الواقعة ، ولكن إلحاح السلطان علىّ يحملنى على التكلم ، فإن الصمت بعد هذا إساءة للأدب ، إن قلبى يا مولائى ملىء بالزحير ويا ليتنى مت قبل هذا فلم أر ما نحن فيه اليوم . قال السلطان يجب أن نتحدث فى صراحة فإننا لا نشك فى صدق نواياك . قلت أطال الله عمر مولائى ينبغى أن تتصد قليلا فى اللهو والطرب وأن تشرف بنفسك على الجيش وأن تطرح التوفير الذى يقترحه العارض ظنا منه بأنه يؤدى خدمة للسلطان ، وأن تستميل الجند وأن تراعى جانب الناس فإن السلطان الماضى حصل على الأموال الكثيرة بمعونة الأكفاء من الرجال ، وإذا لم يراع جانب الشعب والعياذ بالله فإنه يشور ويستحوذ على الأموال ، ويخشى حينئذ من حدوث شتى الفتن ، وإبنى على يقين أن مولائى لا يرضى بهذا الحديث لأن الحق مر ، ولكن لا بد من قوله ، والمخلصون لا يمسون عن إبداء النصيح بأية حال . فقال السلطان « إن الأمر لكما تقول وإن إخلاصك لا شك فيه عندنا ، ودار الحديث فى كل شىء وتقرر إيفاد رسول فقد كان لزاما إيفاده من قبل لمنع مثل هذا الحرج وإبنى لا أستطيع استجلاء حقيقة هذا الأمر ولست أدري ماذا تكون العاقبة والله ولى الكفاية بمنه » .

ويوم السبت لسته أيام بقين من شعبان جاءت رسالة من غزنة ب وفاة أبى القاسم على النوكى رحمة الله عليه ، وهو والد الخواجه أبى نصر مشرف ٤٨٨ المملكة اليوم فى عهد السلطان المعظم إبراهيم بن ناصر دين الله مسعود رضى الله عنهم ، وكان السلطان قد فوض فى هاتين السنتين إدارة البريد التى كان يرأسها أبو القاسم إلى حسين بن عبد الله الكاتب كما فوض منصب الإشراف على غزنة

لأبي القاسم بدله ، لا نتيجة لخيانة بدت ولكن لأن حسيننا طلب عمل البريد ، وكان ابن صاحب ديوان الرسائل في عهد السلطان محمود رضى الله عنه ، وقد شغل منصب الوزارة في هراة لهذا السلطان أيام حياة أبيه (حين كان السلطان مسعود أميرا) ولذلك استحيا مسعود من عدم الاستجابة إليه ، وفوض إليه منصب صاحب البريد كما جعل الإشراف وهو أكثر أهمية لأبي القاسم .

ولم أربدا من بيان هذه الأمور وفاء منى بحق عظماء وشيوخ هذه الأسرة الكبيرة ، وعملا بما لهم على من حق الصداقة .

ثم إن المهزمين من رجالنا أخذوا يفدون عن كل طريق ، وقد امتلأت قلوبهم حسرة وهم في خجل بما جرى ، فأمر السلطان بالعطف عليهم وحمل ما كان على أنه قضاء وقدر . وقد عاتب مقدميهم عتابا شديدا لمخالفتهم أوامر السالارية فاعتذروا عن ذلك ، وسمعت من نوشتكين ولوالجى الحاجب أنه كان يقول في حضرة الخواجه أبي نصر إنه قد زيد له وحده ألف ألف درهم مرتين ، وجاء السالار بكتغدى كذلك وقابل السلطان في الحال ، وتحدث إليه وقال لو أن المقدمين لم يعصوا الأوامر لاستطعت أن أهزم تركستان كلها بهذا الجيش . فقال السلطان رضى الله عنه لقد ثبت لنا من هذا أن خدماتك ونصائحك لا شك فيها ، وأقبل غلبان السراى مهزمين محطمين وكان معظمهم من الفرسان .

وكانت هذه أول هزيمة جدية وقعت على هذا السلطان ، وتوالت الهزائم بعدها وهنا على وهن حتى لقي الشهادة وترك هذه الدنيا الخداعة بآلامها وظلمها ، كما سآبين في محله إن شاء الله عز وجل . وكيف يغالب القضاء إذا

حلّ ، فقد قدر في الغيب أن يصل السلاجقة إلى هذا الحال ، يفعل الله ما يشاء ،
ويحكم ما يريد .

وتقوم الدولة دائماً على الاتفاقات السعيدة ولا بد من قراءة الكتب
ونوادر السمر والأخبار ، فإن العجائب والنوادر كثيرة ، وكذلك كانت ، وذلك
حتى لا ترى الافتراءات على هذا السلطان الطيب قلبه وتصفه بالعجز . ٤٨٩
ولو أنه كان شديد الاستبداد وأخطأ كثيراً في تدبير ملكه ولكن هذا كله
كان بقضاء الله ، فإن أحداً من الخلق لا يريد شراً بنفسه . وبعد هذه الواقعة
كان لا يتحدث إلا عنها ، وكان يضيق بأبي فتح الرازي العارض ويراعى
جانب الجند وينظر شئونهم ، وخاصة من كان قد حارب منهم ، فقد كان
أكثرهم قد فقد عدته ودابته .

وأقبل شهر رمضان وبدءوا الصوم ، وجاءت الكتب من هؤلاء المهين
الذين كانوا يختفون في نساء ، قالوا فيها : إن كثيراً من الآلات والنعيم والدواب
والذهب والفضة والألبسة والسلاح والعدد قد وقع في يد التركان حتى أنهم
تخبروا في أمرها وكأنهم لا يصدقون أن هذا كله قد حدث . وحين أمّنوا عقدوا
بجلسا ، وجلس الأعيان والمقدمون والشيوخ في خرگاه وأخذوا يتشاورون .
وقالوا إننا قد ظفرنا بهذا كله دون تفكير أو تمهيد ، وإن من المحال الوقوف
عند هذا الحد ، ولسنا نحن الذين غلبنا هذا الجيش العظيم ، ولم يتجاوز الأمر
أننا حافظنا على أنفسنا وأنهم لم يحسنوا تدبير أمرهم . وقد أراد الله سبحانه
وتعالى وقوع هذا حتى لا نذهب هباء دفعة واحدة ، فغنمنا بغير قصد كل هذه
الآلات وكنا فقراء فأصبحنا بفضل الله أغنياء ، والسلطان مسعود ملك
عظيم وليس له في بلاد المسلمين نظير ، وقد خلت الهزيمة بجيشه لسوء التدبير
وضعف القيادة ولكن له جندا وقادة كثيرين فعلينا أن لا نغتر بنصرنا ، وعلينا

أن نوفد إليه رسولا يتحدث إليه عن ولائنا له ويلتمس العذر ويبين أن رأينا هو دائماً ما كنا عليه من قبل . وإنه لم يكن لنا من حيلة سوى المقاومة حين قصد الجند بيوتنا ومتاعنا . ولنرى ماسيكون جوابه حتى نستطيع أن نتبين طريقنا بعد ذلك .

فلما وقف السلطان على هذه الكتب هدأ روعه بعض الشيء وحدث الوزير عما يرى فيها في خلوة . ولكن الوزير قال له ، بعد أن سمع رأيه ، أن ليس هذا بتدبير صالح ، أن ننتظر حتى نرى ما يفعلون . فليس بجائز أبداً أن نتحدث إليهم بغير السيف ، وقد كان من الخطأ إرسال الجند إليهم ، وشاهدني على هذا أبو نصر فإني كنت حدثته به ، ولكن إذ كان مولاي ضيق الصدر ، ٤٩٠ وكان كل رجل يتحدث عن غير رؤية ، فلم يكن بد من السكوت حتى نرى ما يجرد من الأمر .

وعلى أثر هذه الكتب أقبل رسول السلاجقة على حضرة السلطان ، وهو شيخ من علماء بخارى كان حسن الحديث وقد تقدم برسالة إلى الأستاذ الرئيس تعرب عن ندم السلاجقة ، وهي تتم عن تواضع شديد ، وقد استطردت تقول : « وقد أخطأنا في اختيار سوري للوساطة والشفاعة عند السلطان فإنه متهور ولا يرعى المصلحة في عواقب الأمور وانتهى الأمر إلى أن سير السلطان إلينا جيشاً ، ومعاذ الله ما كنا نجروء على امتشاق الحسام في وجه الجيش المنصور ، لولا أنهم انقضوا على دورنا كما تنقض الذئب على الحملان ، واعتدوا على نساءنا وأطفالنا ، مع أننا كنا حاصلين على الأمان ، فلم نجد بداً من أن ندافع عن أنفسنا ، والنفوس عزيزة ، وإننا نؤكد ما ذكرنا أول الأمر ، وكل ما حدث لم يكن إلا من قبيل عين حاسدة أصابت الجيش المنصور على الرغم منا . ولما كان الأستاذ الرئيس سابقة معرفتنا في خوارزم ، أثناء حكم خوارزمشاه

التوناش ، وله بنا صلة أكل الخبز والمالح معاً فخير به أن يتفضل بالوساطة والشفاعة لنا عند السلطان ، فيستعطف قلبه ليحنو علينا ، ويقبل أعتذارنا ، ويعيد رسولنا موقفاً مكرماً لتطمئن بذلك قلوبنا ، وأفضل من هذا أن يوفد الأستاذ الرئيس إلينا أحد ثقاته مع هذا الرسول ليسمع أقوالنا ويتأكد من عبوديتنا وإخلاصنا وبأننا لا نبغى غير السلم .

وقرأ الأستاذ الرئيس الرسالة ، واستمع إلى ما أدلى به رسول السلاجقة ، الذى زاد على ما جاء بها ، ثم أمر الوزير باستضافة الرسول . وذهب إلى السلطان فاختم به وقصّ عليه ما جرى ، ثم أقبل الأعيان . لم يكره السلطان توسل السلاجقة إليه ، وتقرر إيفاد القاضى أبى نصر الصينى مع الفقيه البخارى هذا (رسول السلاجقة) كي يستمع عن كذب إلى ما يقول أعيان التركان ، حتى إذا ثبت لديه أنهم لا يضمرون شراً وأنهم يسلكون الطريق المستقيم يطلب إليهم أن يوفدوا معه الرسل ، فيبدأ الحديث فى وضوح وجلالة وتوضيح الأمور فى نصابها وتطمئن القلوب . وعادوا جميعاً من حضرة السلطان وهم على هذا رأى .

ثم اختلى الوزير وصاحب ديوان الرسائل وكانا يريان أنهما قد بذلا جهداً كبيراً فى استعطاف قلب السلطان حتى قبل اعتذار السلاجقة وأن الفقيه البخارى رسول هؤلاء هو من ٤٩١ أكبر ثقاتهم فينبغى أن يعاد بالحسن حتى تصلح الأحوال التى ساءت .

ولا بدلى من ذكر شيء عن الصينى هذا تكملة للتاريخ فقد كان من دهاة الرجال ، وكان يجمع إلى قليل من الفضل ، حسن التدبير والحيلة والمكر . وكان أبوه مؤدباً للسلطان محمود أيام طفولته وقد حفظه القرآن . وكان

السلطان العادل رحمه الله يأتى به فى الصلاة ، ثم نغم عليه لسوء خلقه ، فذهب إلى تركستان ونزل فى أوزكند حيث آواه الإيلىك رحمه الله . ولما عرف السلطان محمود ذلك اختاره سرا لينهى إليه أخبار تلك النواحي ، فأفاد منه كثيرا ، ولهذين السبيين تهيأت لآبى نصر الصينى منزلة قوية . وفى أواخر عهد السلطان الماضى فوض إليه منصب الإشراف على البلاط فقام بعمله على خير وجه ، وقد أبقاه السلطان مسعود فى منصبه فى أوائل عهده ، ولكنه عاد فغضب عليه لكثرة وساطاته وتدخله فيما لا يعنيه ، فأسند عمله فى الديوان إلى أبى سعيد المشرف ، ونصبه زعيما على طالقان ومرو ، فأرسل ولده نائبا عنه فى تلك الجهات ، أما هو فكان يصاحبنا فى كل الأسفار وانتهى أمره بأن بعثه أبو سهل الزوزنى معتقلا إلى إحدى قلاع الهند فى عهد السلطان مودود ، ذلك لأن الزوزنى كان يبغضه فدبر له من المكائد ما أدى لإبعاده وسجنه إلى أن مات هناك . وكثرت أحاديث الناس عن هذا الموت ؛ فذكروا الفقاع والشراب والكباب والخصى المشوية ، والله تعالى أعلم بالحقيقة . ولم يبق من هذه الأسيرة أحد وسوف تقوم القيامة ويقوم الحساب الحق ويجرى القضاء العادل وستظهر فضائح كثيرة كانت تحت الأرض ؛ فليمن الله سبحانه وتعالى علينا بالصالح ، بمحمد وآله أجمعين .

مهما يكن فإن السلطان مسعود قد منح القاضى الصينى فاخر الصلوات واستقبله قبل الرحلة وتحدث إليه بشأن سفارته بحضور الوزير وصاحب ديوان الرسائل . ثم عاد وأخذ يستعد للسفر . وكذلك قدمت للفقهاء البخارى الصلوات ، ودعاه الوزير وتكلم معه عما يجب عن الرسالة التى جاء بها .

وسار الرسولان من نيسابور يوم الخميس الثانى من رمضان وقد لبث أبو نصر الصينى ٤٩٢ مدة هناك ، وعاد القاصدون الذين كانوا قد صحبوه يحملون الكتب التى تحوى ما دار بين الفريقين من أحاديث . وصدرت

الاجوبة عما يجب البت فيه . وعاد الصينى إلى نيسابور يوم الأربعاء لعشرة بقين من شوال ، يصحبه ثلاثة رسل من قبل مقدمى التركان ، أحدهم عن بيغو والثانى عن طغرل والثالث عن داود ، ومعهم الفقيه البخارى . وفى غداة وصولهم ذهبوا إلى ديوان الوزارة وطال الكلام هناك حتى صلاة العصر ، وكانت المفاوضات تروح وتغدو بينهم وبين السلطان ثم استقر رأى فى النهاية على أن تعطى هؤلاء المقدمين الثلاثة ولايات نسا وفراوه ودهستان ، وعلى أن يرسل لكل منهم خلعة ومنشور ولواء . وتقرر أن يذهب أبو نصر الصينى ليسلمهم إياها بنفسه ، وأن يأخذ عليهم الميثاق بالوفاء بالعهد مع السلطان ، وعلى أن يقتصروا على هذه الولايات الثلاث ، ثم إنه بعد أن يصل السلطان بلخ ويطمثنوا إلى عطفه ، يأتى أحد هؤلاء الثلاثة إلى الدركاه ليكون فى خدمة السلطان . وقد أكرم الموكل بالضيافة وفادة هؤلاء الرسل ، وكتب أستاذى نسخ المنشورات . ثم حررتها ، وقد كتبت دهستان باسم داود ونسا باسم طغرل وفراوه باسم بيغو ، ثم وقعها السلطان ووجهت إليهم رسائل منه ، خوطبوا فيها بـ « الدهقان » . وأعدت لهم ثلاث خلع كما هو الرسم فى خلع الولاية ، تشتمل الواحدة على قلنسوة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة برسمنا وجواد وسرج وكمر من ذهب برسم التركان وثلاثين ثوبا غير مخيطة لكل واحد منهم .

وجيء بالرسل فى الغداة ، وأمروا لهم بالصلاة . ويوم الجمعة ، ثمان بقين من شوال ، غادر الصينى وهؤلاء الرسل نيسابور إلى نسا . وهذا بال السلطان قليلا وأخذ فى الشراب والطرب لأنه لم يشرب منذ أمد طويل .

وفى هذا الأسبوع جاءت رسائل من السهيسالار على عبد الله وأبى القاسم . حاتمك صاحب بريد بلخ تقول إن أبناء على تكين حين علموا أن السالار بكتغدى وجيوشنا قد عادوا منهزمين من نسا ، عزموا على معاودة الكرة .

والإغارة على نواحي صغانيان وترمز ، وكانوا قد ابتعدوا ثلاثة منازل عن ٤٩٣
سمرقند حين بلغهم أن أبا القاسم والى صغانيان قد عبأ رجالا كثيرين في كمنج^(١)
وأن الكمنجيين والسپهسالار على قد جاءوا إلى بلخ مع جيش عظيم وأن هذا
قد عزم على عبور جيحون ، فعادوا وأفسدوا هذا التدبير .

وقد أجيب على هذه الرسائل بأن أمر التركمان السلاجقة الذين كانوا في نسا
قد استقر ، وأنهم دانوا لنا بالولاء ، واعترفوا بأن ما حدث من تقهقر بكتغدى
لم يكن بفضل شجاعتهم ، وأنهم قد أثبتوا بالولاية عندما كسبوا حسن رأينا فيهم ،
وأنهم قد هدهوا وأن واحدا من مقدميهم سيأتى للخدمة في الدركاه . وقد أقننا
في نيسابور فترة إلى أن يصل رسولنا ، وقد اقترب المهرجان ، وسنأتى إلى بلخ
عن طريق هراة كي نمضى الشتاء بها ، وحينئذ نرد على هذا التهور الذى
وقع فيه أبناء على تكين .

وصادف عيد المهرجان يوم الجمعة سادس عشر ذى القعدة ، فجلس السلطان
رضى الله عنه صباحاً للمعايدة ولكنه لم يشرب ، وقدمت الهدايا والتحف
بمناسبة العيد على خير وجه .

وعاد الهينى من عند السلاجقة واختلى بالوزير وبصاحب ديوان الرسائل
وقال لهما : « لا يجوز خداع السلطان فقد وجدت القوم فى رحلتى هذه على غاية
من الغرور والخيلاء ، وكانوا كأنهم نفخ فيهم روح العصيان ، ومع أنهم عقدوا
الميثاق إلا أنى لا أثق بما عاهدوني عليه ، فقد سمعت أنهم كانوا يسخرون منا إذا
خلوا إلى أنفسهم ويدوسون الفلنسوات ذوات الركين بأقدامهم ، فينبغى

(١) جاء فى نسخة غنى — فياض (حاشية ٣) أن هذه الكلمة تكررت ، وأنه جاء فى حاشية
يب : كمنج أصلها كمنجت وهى من رسائل صغانيان :

ألا يسير السلطان إلى هراة حتى لا تحدث فتنة ولعمري لقد أبرأت ذمتي بما قلت .

فقال الوزير إنك تريد المستحيل فإنهم قد حملوا سرادق السلطان إلى الخارج وهو عازم على الرحيل غدا ، ولكن الواجب يقتضينا أن نبين هذه الأمور . فإذا كان مصمما على السفر فليأمر بإبقاء جيش كبير هنا على سبيل الحيلة .

وأوفد الوزير الأستاذ أبا نصر ليحدث السلطان في هذا فقابله وأفضى بالأمر إليه ، فأجابه السلطان بلا ، وبأننا سوف نأمر بتأديب هؤلاء إذا بغوا في الأرض فسادا ، لأننا لا نود المقام هنا أكثر من هذا ، وقد أصبح أمر العلف عسيرا للغاية ، ويجب أن يبقى قدر الحاجب مع ألف فارس وآخرين في نيسابور ، وأن يبقى معه سوري صاحب الديوان ومعه كثير من الرجال ، وفي سرخس جيش كامل وكذلك في قاين وسوف نحشد فوجاً قوياً في هراة . ويجب ٤٩٤ أن ينبه على الجميع ليكونوا على استعداد لتنفيذ أوامر صاحب الديوان حتى يلحقوا به فوراً إذا دعت الحاجة . وسنوالى في بلخ قراءة أخبار المنهين ونأمر بما ينبغي ، لاسيما والمسافة ليست بعيدة ، وعلى الوزير إتمام أمرنا اليوم فإننا غدا راحلون لا محالة .

فعاد أبو نصر وأخبر الوزير بما سمعه ، فقاموا بما عليهم . وغادر السلطان رضى الله عنه نيسابور يوم الأحد التاسع عشر من ذى القعدة ، بلغ هراة في نهاية هذا الشهر . ثم سار منها يوم الأحد لست خلت من ذى الحجة ميمما شطربون وبغ^(١) وبادغيس ، وكان طوال الطريق ثملا مسروراً يقتضى جل

(١) بون مدينه قديمه بين هراة وبغشور ، وبغ هي بغشور وينسب اليها بغوى على خلاف الفياس . غنى - فياض حاشية ٤ ونفيسى ص ٦٠٠ هامش ٨ .

وقته في الشراب واللهم والقنص . وتقدم إليه في مرو الرود ، السالار تلك الهندي ، فأدى فروض الطاعة وكان قد عاد مظفرا من حرب أحمد ينالتيكين العاهي المغرور ، وكان معه جيش تام الأهبة عليه كثير من المقدمين ومعه الراية والمظلة وفي صحبته تمك الهندي ، وكان معه رجل آخر اسمه تلك أيضاً ؛ وقد شمله السلطان بعطفه وتلطف معه وأحاطه برعايته ، كما أسبغ عطفه على مقدمي الهنود . ووقف السلطان على ربوة هناك لاستعراض الجيش الهندي ، فسار الجند أمامه فرساناً ورجالة في هدوء وهم في أهبة كاملة ، وقد سار في العرض خمسة وخمسون من الفيلة التي أخذوها خراجاً من مكران ، وقد أعجب السلطان بهذا الجيش أيما إعجاب . وقال للأستاذ أبي نصر عندما بلغ حدود جوزجان إن مسعود بن محمد الليث قد صار شاباً وقد أدى خدمات جليلة في الري ، ولما آسنه فيه من الثقة بعد ما قام به من الأعمال التي كلف بها ، يجب أن يعمل بديوان الرسائل . فقال أبو نصر سمعاً وطاعة وإنه جدير بهذه الرعاية ، ومن ثم أحقوه بالديوان .

سنة سبع وعشرين وأربع مائة

١٠٣٥ — ١٠٣٦

كانت غرة محرم يوم الأحد وقد بلغ السلطان بلغ يوم الأربعاء رابع محرم من هذا العام وكان يوافق اليوم الأول من شهر آذار^(١) ، فنزل في جوسق عبد الأعلى . وانتقل ٩٥ يوم الإثنين ، لتسع خلون من هذا الشهر إلى الحديقة الكبرى حيث نقلوا منازل الخدم والدواوين وكانوا قد نسقوها أحسن تنسيق

فبدأ مكانها رحبا فسيحا بهيجا . وقد اتفق أن وفد والى صغانيان على باخ يوم بلغها السلطان فاستقبلوه استقبالا حافلا وأنزلوه في مكان يليق به وأعدوا له الضيافة على خير وجه مما يجاوز حد الوصف ، وفي الغداة جاء إلى الحضرة فقابلته السلطان ، وشمله بعطفه ورعايته ثم عاد إلى الجوسق الذي أعد لنزوله ، وكان أبو على الموكل بالضيافة يذهب لمقابلته عدة مرات كل يوم ويقدم له كل مرة تحفة وهدية بأمر السلطان .

وقدمت الهدايا الكثيرة التي جاء بها والى صغانيان للسلطان وفيها الخيول الثينة وغلان الترك والصقور والفهود وشتى التحف التي عرفت بها تلك البلاد ، فأعجب السلطان بها . وفي الخميس التاسع من محرم أقيمت مأدبة فاخرة ، وأعدت الجنايب وجرى بالوالى وقد لعبوا الصولجان . ثم دعوه إلى المائدة ودارت كؤوس الشراب وانتهى اليوم في مرح وسرور . وفي الأربعاء منتصف المحرم خلع عليه خلعة جليلة مما يخلع على الولاة ، وقد أضافوا إلى خاعته أشياء كثيرة لأن هذا السيد النبيل كان مهرا ، لأنه تزوج من حرة من هذه الأسرة السكرية . وهذا الوالى لم يزل حتى الآن سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩ - ١٠٦٠) حيا يرزق لكنه قد انحط شأنه ، لأنه لم يحسن تدبير أمره وقد تغلب عليه الأستاذ الرئيس على ميكائيل في صغانيان . وفيما ذكرناه الكفاية .

وبعد أن لبس والى صغانيان الخلعة قدموه للسلطان فأدى فروض الولاء ، وأسبغ عليه السلطان عطفه ، وقال له لقد احتمل الأمير متاعب جمّة من هؤلاء الأغرار أبناء على تكين ، فلما بلغنا ذلك أوفدنا إليه السهسالار مع الجيوش وجئنا إلى هنا لتلافي هذه الأحوال ، فينبغي أن تعود بالتوفيق إلى بلادك وأن تجمع رجالك من حولك حتى يأتي قائد عظيم مع جيش كبير من قبلنا ، فيعبر جيحون ويتعاون معك على القضاء على هذه الشرذمة المنهزة الباغية . فأجاب

الوالى : سأفعل . وأدى فروض الطاعة والولاء مرة أخرى ثم انصرف . وقد أجلسوه فى إيوان بالحديقة ، وحضر إليه الوزير وصاحب ديوان الرسائل وجددا معه عهد السلطان وحلفاء يميناً جديدة ثم رجعا . أما هو فركب بعد صلاة العصر ميمماً شطر صغانيان ويوم الأحد ٩٦٤ لأربعة أيام بقيت من المحرم ذهب السلطان للصيد إلى دره كز ، يصحبه الخاصة والمطربون والدماء . وفى الأحد ، الثالث من صفر ، جاء إلى الحديقة الكبرى . وفى الغداة جاء رسول من قبل أبناء على تكين اسمه موسى تكين ولقبه أوكا وبصحبه فقيه من سمرقند ، فأنزلها الموكل بالضيافة فى مكان لائق بالمدينة ، وبعد أن استراحا ثلاثة أيام قدما للسلطان ، فلم يتحدث إليهما لأنه كان ناقماً على من أرسلوهما . وسألهما الوزير كيف خلفتما الأمراء ؟ فلم يستطع أوكا الكلام وبادر الفقيه قائلاً ، وكان فصيحاً ، لقد أوفدنا إلى الحضرة لتقديم الاعتذار وحقيق بالسلطان أن يتنازل بالقبول ، لأن أمراءنا لا يزالون فى ريعان الشباب وقد افتتنوا بمكر الماكرين . فأجاب الأستاذ الرئيس بأن الأعمال بالنيات . ثم ذهبا إلى الإيوان واختلى السلطان بالوزير وبصاحب ديوان الرسائل للتشاور فى هذا الشأن . قال الوزير أطال الله حياة مولانا إن خراسان والرى وجرجان وطبرستان كلها ثائرة ، وقد استدعيت أبا الحسن عبد الجليل مع جيشه من جرجان ، وأبرمت شبه موافق مع الجرجانيين ، وكان من الصواب أن يعود أبو الحسن بحجة ما ، وأما أبناء على تكين هؤلاء . فإنهم نصف أعداء والأولى أن نجاملهم حتى لا يصبحوا أعداء حقاً ، وأرى من الأصح قبول اعتذارهم ، وإقرار عهد معهم ، كما كان الحال مع والدهم . فقال السلطان حسناً ، إذ ذهب إلى الإيوان وأنجز هذا العمل . وجلس الأستاذ الرئيس والأستاذ أبو نصر فى الإيوان وأمعنا النظر فى كتاب أبناء على تكين ، وكان منطويًا على كثير من عبارات التواضع والاعتذار ، لا سيما عن واقعة ترمذ وحديث الصغانيين ويقول الكتاب

إن ما وقع كان عن خطأ ، وإن من غرر بنا قد لقي جزاءه ، فإذا رأى السلطان الأعظم فليغفر لنا ما مضى ليتجدد بذلك الود الموروث .

وجرت الأحاديث على هذا النحو ، ثم ذهب أبو نصر إلى السلطان وأحاطه خبراً بذلك كله ، وعاد بالاجوبة الطيبة المحببة إليهم . وأعاد الموكل بالضيوف الرسولين . وعين الوزير مسعودي^(١) للسفارة ، وأعدوا له كل ما ينبغي وكتبت الرسالة والمشافهات . وأعطى الرسولان الخلع والصلوات ، وذهبوا جميعاً . وتم الصلح وأبرمت العهود والمواثيق لتهدئة الأحوال ، وأشركوا إلى صغانيان في العهد كيلا يراد بسوء .

وفي يوم الأحد العاشر من صفر ، خلع على الوزير خلعة فاخرة . وفي هذا اليوم ٤٩٧ أسند إلى الحاجب سباشي منصب كبير الحجاب وخلع عليه خاغة كاملة من العلم واللواء والطبل والكوس والألبسة وحقائب وخرايط الفضة وغيره مما يختص بهذا المنصب . وعاد الرجلان العظيمان إلى داريهما وقدمتا لهما على أثر ذلك الكثير من الهدايا .

وفي اليوم التالي خلعوا على « تلك » خلعة سالارية جيش الهدى وكانت فاخرة للغاية ، فحين مثل في حضرة السلطان لأداء فروض الولاء أمر السلطان الخازن أن يأتي له بطوق مرصع كان قد أعد من قبل ، فأتوا به فأخذه السلطان وأدنى منه تلك وطوق به عنقه بيده الكريمة . ثم تحدث إليه في عطف سابغ جزاء الخدمات التي أداها للقضاء على أحمد ينالكين ، ثم انصرف .

ويوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الأول ، أقيمت مأدبة عظيمة مدت فيها سبع موائد في الصفة الكبرى ، كما أعدت موائد أخرى في جميع نخائل الحديقة الكبرى ، وأجلسوا كافة العظماء والموالي والحشم على تلك الموائد ،

(١) أبا محمد مسعودي .

ودار الشراب وطال الأانس والاستمتاع ، ثم عاد الجميع ثملين من المأدبة .
وذهب السلطان من الحديقة إلى المصطبة حيث جلس للشراب . وانتهى اليوم
حافلا بالسرور . وخلعوا على أبي الحسن الكاتب العراقي ، يوم الثلاثاء العشرين
من هذا الشهر خلعة وكرا من الذهب ليلي سالارية الكرد والعرب كما خلعوا
على أخيه أبي سعيد ليكون نائبا عنه وليخلفه في رئاسة هذا الفوج وليذهب
به إلى خراسان إلى أن ياحق به أخوه .

ويوم الأحد الخامس والعشرين من هذا الشهر جاءت رسالة من غزنة
بنعى أبي المظفر بن الخواجة على ميكائيل رحمة الله عليه ، وكان قديراً في عمله
أثناء نيابته عن أبيه .

وفي هذه الأثناء كانت الرسل والسعاة تتوافد من قبل سوري صاحب
ديوان خراسان وأصحاب البريد ، تفيد بأن السلاجقة التركان وتركمان العراق
الذي انضموا إليهم قد أخذوا في إثارة الفتن ، وأنهم يرسلون رجالهم إلى كافة
النواحي ، ويخيفون الناس ويسلبون كل ما يجدون ، وأنهم متمادون في الفساد
كما جاءت رسالة من بست تفيد بأن جماعة منهم قد جاءوا إلى فراوه وزيركان
ونهبوا كثيراً من الأنعام ، وكذلك وصات رسائل من جوزجان وسرخس
هذا المعنى ، وقد جاء فيها أنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم وإلا ٤٩٨
ضاعت خراسان .

فاختلى السلطان رضي الله عنه مع الوزير وأركان الدولة وخاصته ومواليه المشورة ،
واستقر الرأي على أن يسير سبائى كبير الحجاب على رأس عشرة آلاف فارس
 وخمسة آلاف راجل إلى خراسان ، وأن يربط أخو أبي الحسن العراقي مع جيش
العرب والكرد كله في هراة إلى أن ياحق به أخوه أبو الحسن ، على أن يمثلوا
جميعاً لأوامر كبير الحجاب ويعملوا حسب ما تشير به الظروف والأحوال ،

وكلف سوري صاحب ديوان خراسان بإعداد نفقات الجند حتى لا يعوزهم شيء ، ويتسنى بذلك تطهير أرض خراسان من التركمان في أقرب وقت .

وخرج السلطان يوم الإثنين الرابع عشر من شهر ربيع الآخر إلى الصحراء ، فوقف على ربوة بأبهة فائقة ، وكان في حضرته ولده الأمير مودود ، والأستاذ الرئيس وجميع أركان الدولة ، وكان الفرسان والرجالة مجهزين في كامل أهبتهم ، ووقفت الفيلة المختارة السكرى وعليها السروج والعماريات والمهود ، ووقف الجند المعينون للسير إلى خراسان أفواجا متباعدة . وظهر كبير الحجاب سباشي في زينة بالغة بما أثار إعجاب السلطان ، وكذلك كان أبو الحسن العراقي وسائر المقدمين ، وانتهى الاستعراض بعد صلاة الظهر .

وفي ليلة الغد سار أخو العراقي على رأس جيش الكرد والعرب ، وبعد ثلاثة أيام زحف سباشي بجيشه ، وقد أسندت الكتخدائية وعمل البريد لأبي سعيد الصراف الذي سار وراء الحاجب بعد أن تلقى أوامر السلطان . وقد أشاروا بأنه ينبغي لهذا الجيش العظيم عارض من الثقة في شئونه ، على أن يوكل إليه نفقات الجيش وأرزاق جنده ، وأن يكون له الحل والعقد والإثبات والإسقاط ، وذلك حتى يسير أمر الجيش في خراسان إذ ليس في الوسع الرجوع إلى السلطان في كل وقت وهم هناك ، فوقع الاختيار على أبي سهل أحمد على ، فأرسله أستاذه الخواجة أبو الفتح الرازي العارض إلى الحضرة ، وأثنى عليه الوزير كثيراً ، وأمر السلطان بأن تكتب له الأوامر السلطانية ، وكتبته ، أنا أبو الفضل ، منشوره ، وارتفعت منزلته في هذه الخدمة . وبعد أن حلت تلك النكبة بكبير الحجاب في خراسان تهيأت لهذا الرجل منزلة عظيمة وجمع أموالاً طائلة وسيأتى ذكر ذلك فيما بعد . لكنه وقع في أسر التركمان وأذاقوه سوء العذاب ، وصودرت أمواله وأخيراً نال حربه ولحق بالحضرة ، وهو

لا يزال حيا وأنا ٤٩٩ أكتب هذا التاريخ ، وهو الآن من أقوى أركان ديوان العرض ولكنه لم يرق عن مرتبة النيابة (لم يبلغ رئاسة الديوان) ولذلك فهو مستريح هادى البال ويمضى حياته على الهامش لا يسأل إذا عزل عارض وولى غيره . والعاقلة من يسير سيرته ، وقد سار ولحق بكبير الحجاب ورحلوا جميعا إلى خراسان .

ركب السلطان يوم الخميس التاسع من جمادى الأولى للصيد فى مرو الرود ، وفى الإثنين الثالث عشر من هذا الشهر جاء إلى الحديقة الكبرى ، ثم عاد يوم الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخر إلى جوسق عبد الأعلى . وفى الغداة سار لصيد الأسود فى ترمذ وقضى فى صيده الموفق سبعة أيام ، ثم عاد إلى الجوسق . وغادر بلخ يوم السبت غرة رجب قاصدا حاضرة ملكه غزنة ، فبلغها يوم الجمعة الحادى والعشرين من هذا الشهر ، ونزل سالما سعيدا فى الجوسق المحمودى القديم فى أفغان شال ، وكان الجوسق المسعودى قد تم إعداده فسار إليه فى ضحى أحد الأيام فتفقدته ، واطلع على كل مرافقه ، وعين منازل الموظفين وأوثقة (بيوت) غلمان السراى ، ودواوين الوزير والعارض وصاحب ديوان الرسائل والوكيل . ثم آب إلى الجوسق المحمودى القديم ، وسارع الرجال إلى إنجاز العمل وأخذ كل منهم يعد مكانه وانهمك الفراشون فى فرش السجاد وتعليق الستائر ، ولم ير أحد مثل هذا الجوسق فى أى بلد ولم يشيد ملك مثله . وقد تم تشييده بمعرفة السلطان الذى رسم تخطيطه وأتم هندسته بيديه الكريمتين ، فقد كان رضى الله عنه آية فى مثل هذه الأمور وخاصة الهندسة . وقد استغرق بناء هذا الجوسق أربع سنوات . وعلاوة على ما أنفق عليه من الأموال فإن عمال السخرة الذين اشتركوا فى البناء كانوا أضعاف المأجورين . وقد سمعت عبد الملك النقاش

المهندس يقول فى مجلس السرهنكك أبى على الكوتوال : لقد سحبت نفقات هذا الجوسق ألف ألف درهم سبع مرات . فقال أبو على لى علمت أنهم سخرؤا للعمل به عمالا لو دفعت أجورهم لبلغت ضعفى هذا المبلغ ، وقد أشرفت على هذا كله . ولا يزال هذا ٥٠٠ الجوسق اليوم فيها رغم ما أصابه من خلل ، تشهد بذلك أبنيته وبساتينه . وقد ظلوا يزيدون فى مبانيه عشرين عاما ، ولكن خلاا قد أصاب بعض أبنيته .

عاش هذا السلطان العظيم وعاشت مبانيه وآثاره سعيدة بساكنيها ، بحق محمد وآله .

وانتقل السلطان رضى الله عنه يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر رجب إلى هذا القصر الجديد وأقام به . ويوم الإثنين التاسع من شعبان احتفل بختان بعض الأمراء الأنجال وكان يوما مشهودا ، وامتد الحفل والشراب سبعة أيام بلياليها ، وكان السلطان يتنزه فى هذا القصر ورياضه ويشرب طروبا بهذه الأفراح مبهجا بعيد « كلوخ انداز »^(١) ، فإن شهر رمضان كان قد قرب . ثم أخذوا يستعدون لهذا الشهر وبدأ الصيام يوم الإثنين .

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان وصلت أخبار سرية جد خطيرة من خوارزم ، تفيد بأن هذه النواحي قد رضخت لحكم اسمعيل خندان ، ابن خوارزمشاه آلتونتاش ، وأنهم قبضوا على من اشترك فى اغتيال أخيه من الغلمان وقتلوهم جميعاً على الفور ، وكذلك قتلوا كل من ينتمى إلى الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد كما قتلوا ولده أيضاً ، وأنهم جعلوا الخطبة باسمى أمير المؤمنين وخندان ، وأن الأمور هناك بيد شكر الخادم . وأنهم سدوا جميع الطرق ، وأن الرسل تترى بين خندان والتركمان .

(١) عيد كان يحتفل به قبل حلول شهر رمضان .

واغتم الساطان من هذه الأنباء وأمر باعتقال رشيد أخى خندان فى غزنة ، وأوصى رجاله بالآلا يتعرضوا بسوء لبنات خوارزمشاه . ويوم الأربعاء احتفل بالعيد احتفالاً رائعاً ، وأجلسوا الموالى والحشم على الموائد وطرب الجميع وشربوا . وفى الأحد الخامس من شوال سار السلطان فى خاصة عسكره إلى زه متصيداً وكان يصحبه الندماء والمطربون ، وصادوا كثيراً ثم رجعوا بصيدهم إلى غزنة ، حيث قدموا كثيراً منه إلى العظماء والأعيان . ويوم الأحد التاسع عشر من هذا الشهر ، انتقل الساطان إلى حديقة صدهزاره .

وفى الأحد التالى ، السادس والعشرين ، سار أبو الحسن العراقى الكاتب قائد الكرد والعرب إلى هراة عن طريق غور ، وهو فى أتم أهبة وقد سبقه إلى خراسان الحاجب سباشى مع جيشه .

٥٠١ وكذلك كانت بلاد الجبل قد ثارت لهذا السبب^(١) . وفى السبت ثالث ذى القعدة لبس الأمير مجدود نجل السلطان خلعة إمارة الهند الفاخرة ، ليسير إلى لوهور . كانت الخلعة من العظمة مما يليق بالأمرء لاسيما إذا كان ابن ساطان عظيم كمسعود . وقد جعلوا فى خدمته ثلاثة من الحجاب بشعار السواد الخاص بالحجابة ، كما صحبه من ديواننا أبو نصر بن أبى القاسم على النوكى ليكون كاتباً له ، وسعد سليمان^(٢) لأعمال الاستيفاء والسرهنك محمد لأعمال الحل والعقد . وكان مع هذا الأمير الطبل والعلم والكوس والفيل والمهد . وفى الغداة حضر الأمير لمقابلة والده ، رضى الله عنهما ، بكامل أهبته فى باغ فيروزي ، فأدى

(١) يرجع غنى — فياض أن جملة قد سقطت هنا وهى الجملة التى تبين السبب . غنى — فياض حاشية ١ .

(٢) الظاهر أنه والد الشاعر مسعود . غنى — فياض حاشية ٣ .

فروض الولاء والتحية ، فاحتضنه أبوه وقبله ثم ودّعه وصرّفه . وبعثوا في أثره برشيد ، ابن خوارزمشاه ، مقيدا ليسجن في لوهور .

وفي الخميس ، ثامن ذي القعدة ، جاءت رسالة من الرى مع ثلاثة من الفرسان ، تبشر بأنهم أعادوا الدولة بن كاكو على يد الجيش المنصور ، وباستتباب الأمن في نواحي الجبال ، وأن فرسان التركمان الذين كان قد استمالهم إليه من خراسان ، وأغدق عليهم الأموال ، قد أقبلوا راجعين من حيث أتوا عن طريق طبرستان .

فسرّ السلطان بهذه البشريات ، ودقت الطبول ونفخ في الأبواق ، وخاج على المبشرين ، وأعيدوا بعد ما أغدق عليهم النعم . وكتبت الأجوبة شاكرة لعميد العراق أبي سهل الحمدوى والسپهسالار تاش ، وجاء في هذه الكتب أن راية السلطان ستسير إلى بستان ومنها إلى هراة لتدبير الأحوال بها . ورجع المبشرون ، ولا أتناول هذه الحروب بالحديث تجنباً للإطالة . وسأفرد باباً خاصاً لكل ماجرى في الرى والجبال منذ سار الحمدوى حتى رجع منها إلى نيسابور ، وضاعت من يدنا تلك البلاد .

وقد وافق عيد المهرجان يوم السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة ، فجلس السلطان رضى الله عنه للاحتفال في البهو المقابل للجوسق الجديد ، فإن العرش الذهبى والتاج وقاعة العرش لم تكن قد تمت بعد ، وكان الصاغة يجدون في إنجازها . وقد تمت بعد فترة مديدة ، وسأذكرها في موضعها إن شاء الله .

وتقدم الأمراء الأنجال والموالى والحشم بالهدايا ٥٠٢ والنثار ثم عادوا . وقد أجلسوهم حسب مراتبهم ، كل في مكانه ، إلى يمين ويسار ذلك البهو الكبير .

وجاءت هدايا كثيرة منها ما هو من قبل والى صغانيان ثم هدايا باكاليجار والى جرجان ، لأن السلطان بعد أن عاد أبو الحسن عبد الجليل من جرجان ، واضطربت أحوال خراسان رأى من الأصالح أن يتودد إلى باكاليجار ليستميله إليه ثانية ، فجاء من لدنه رسول ، وسار إليه من الحضرة رسول ، وعقدت معه عهود جديدة ، ورغم أن هذا الرجل كان شديد التألم والحسرة من الضربات والمتاعب التى أصابته من السلطان ، فإنه أخذ إلى السكينة وهدأت نفسه فلم يصدر عنه شر أو فساد . وأمضى السلطان طول الوقت فى النظر فى شؤون والى مكران وسورى صاحب ديوان خراسان وبقية عمال البلاد ، ثم قام وذهب إلى السراى الصغيرة الخاصة به حيث أبدل ثيابه وسار إلى البيت الشتوى ، إلى القبة ، الواقع إلى يسار بهو الاستقبال . ولم ير أحد بيتين ، أولهما : الواقع ناحية اليمين ، شتوى ، وثانيهما ، الواقع ناحية الشمال ، صيفى ، كهذين البيتين ، روعة وبهاء ، وهما باقيان للآن شاهدى عدل على قولى . أبقاهما الله ، فليذهب لرؤيتهما من يشاء . وقد زينوا هذين القصرين بأبهى الزينات كما وضعوا فيهما تنورا يصعد إليه الفراشون بالسلام ليلقوا فيه بالخطب ، ولا يزال هذا التنور قائما ، ثم يشعلون النار فيه . وقد أتى غلمان الموكل بالمائدة وفى أيديهم الأسياخ وقد علق بها الدجاج والخصى والبيض المسلووق وكل ما يلزم الملوك فى عيد المهرجان من المحمرات ، واجتمع أعيان الدولة فى المجلس وجلس الندماء كذلك وبادروا جميعا إلى اللهو والطرب ، وكانوا يتناولون الطعام على طريقة الاستلات^(١) ، ودارت أقذاح الشراب بكثرة ، كما عزفت القيثارة ٥٠٣ وآلات الطرب وأخذ المطربون فى الغناء ، فكان يوما عظيما يليق بملك كهذا . بيد أن الوزير لم يتناول شرابا ، وانصرف بعد دورين منه ، وظل السلطان فى المجلس

(١) استلات القصة مسجها بيده ، وفى الصبح السلاتة ما يؤخذ بالإصبع من جوانب

القصة لتغلف .

حتى صلاة الظهر إلى أن عاد الندماء الذين لم يكونوا ملحقين بالبلاط ، ثم مضى إلى بهو النواب القريب من الحديقة . وكانوا قد أعدوا به مجلسا سلطانيا حضره خاصة الندماء والمطربين ، وظل السلطان به حتى صلاة العصر ثم عاد .

وكان اليوم التالي لعيد المهرجان يوافق يوم الإثنين التاسع من ذى الحجة ، وفي غدائه احتفلوا بعيد النحر ، وجاء السلطان في ذلك اليوم إلى القلعة الخضراء المطلة على الميدان إزاء مرج شابهار ، وأدى صلاة العيد ثم نحرت الأضحيان ، ونزل السلطان من الخضراء وجلس في البهو الكبير حيث أعدت المائدة ، وأجلس إليها الموالي والكبراء والحشم ، ودارت عليهم كؤوس الشراب ثم انصرفوا عائدين .

وفي الغداة أذن السلطان بالاستقبال ، ثم اختلى بالوزير وأركان الدولة ، وبعد تبادل الرأي طويلا تقرر أن يسير السلطان إلى جانب بست على أن يكون الوزير بصحبته ، حتى إذا دعت الحاجة سارت الرايات السلطانية صوب هرة وإلا فيسكتني بإرسال الوزير . وقد أمر السلطان نجله الأمير مودود والسيهسالار على عبد الله بالسير على رأس رجاله ومعهما جيش قوى إلى بلخ ، وبأن يربطوا هناك حتى تشحن خراسان بالعظماء والحشم . وعادوا جميعاً وأعدوا العدة . وفي الغداة امتطى السلطان الفيل ووقف مع خاصته في مرج شابهار حيث جاء ولده العزيز مع السيهسار بجيشهما الجرار ، وسارا للعرض أمام السلطان . وبعد أن أديا مراسم النحية ومعهما المقدمون ، استأذنا وسارا إلى بلخ ، وكان قد خلع عليهما قبل سيرهما . وعاد السلطان بالسعادة إلى الجوسق ، وارتدى الأمير سعيد الخلعة الفاخرة التي كانت قد أعدت له ، فتقدم إلى أبيه الذي شمله بحبه وعطفه وأمره بالإقامة في غزنة ، وبالنزول في جوسق الخواجة الكبير أبي العباسي الإسفراييني بقرية آهنكران . وخلعوا على السرهنكك أبي على الكوتوال

في القلعة ، وكلفه السلطان أن يكون مقدما للأمير مودود ولأعمال غزنة ٥٠٤ هـ وفي هذه السنة عين السلطان الفقيه نوح نديما لنجمله الأمير ، وهذا الرجل لا تخفى وجاهته على أحد اليوم ، وهو من أصدقائي ، وقد ذكرت هذا عنه هنا ، لأعبد ذكره في موضعه من هذا التاريخ . وكذلك عين السلطان الخواجه محمد بن منصور مشكان رحمة الله عليه لمنادمة نجمله أيضا . وكان السلطان يرفع من قدر ولده كل يوم ، ويوسع عليه من النعم والخدم والغلمان والجواري وما ينبغي له من العظمة والهيبة ، وكان يبدو أن هذا الأمير أحب إليه من أخوته . ولكن الأب أراد شيئا وأراد الله شيئا آخر . ذلك أن هذا الأمير قضى نحبه وهو في زهرة الشباب كما سأل في موضعه ، وتولى الملك من بعد مسعود ولده مودود ونال ما كان يتمناه من هذا الشبل ، وقد ماتوا جميعا رحمة الله عليهم وليحيا السلطان الأعظم إبراهيم بحق محمد وآله أجمعين . وبعد أن فرغ السلطان مسعود من هذه الأعمال نصبوا سرادقه على طريق بست ، وغادر غزنة يوم الخميس الثالث عشر من ذي الحجة ، ونزل يوم الأربعاء السادس والعشرين من هذا الشهر في تكين آباد حيث أمضى سبعة أيام في اللهو والشراب ، ثم سار في اتجاه بست والله أعلم .

تاريخ سنة ثمان وعشرين وأربعمائة

١٠٣٦ — ١٠٣٧

كانت غرة محرم يوم الإثنين . نزل السلطان رضى الله عنه يوم الخميس الرابع من محرم في جوسق دشت لنكان على مسيرة فرسخ من بست . وقرب صلاة الظهر أحاط الجند كلهم بالساحة لحشر الصيد فنجمع بها عدد كبير منه لأن حيوانات الصيد في هذه النواحي وافرة لا تحصى . وبعد أن ضاقت به الساحة اندفع الصيد كله إلى داخل الحديقة أمام القصر ، وكانت الحيوانات أكثر من

خمسمائة أو ستمائة وكانوا قد اصطادوا كثيرا منها في الصحراء بواسطة الفهود والكلاب . وانتهى يوم حافل بالصيد .

وأذكر أنى قرأت أن السلطان محمود رحمة الله أمضى يوما فى الصيد فى هذا المكان نفسه من بست ، حيث صاد حمار وحش فقيدوه بالحبال ، وأمر محمود بأن يوسم باسمه ، فوسموه وأطلقوه لأن أصحاب سير الملوك كانوا قد ذكروا له أن بهرام كوركان قد فعل مثل هذا .

وفى يوم الجمعة التاسع عشر من شهر محرم جىء برسولين من قبل السلاجقة إلى ه.ه المعسكر حيث عوملا بالحسنى ، وكان أحدهما فقيها من أهل بخارا يمتاز بحلو الحديث ، وكان الثانى تركمانيا يمت إلى السلاجقة بصلة القرابة . وفى اليوم التالى جلس السلطان فى أبهة تامة للاستقبال وقدموا له الرسولين ، فأدىا مراسم الطاعة ، ثم ذهبوا بهما إلى ديوان الوزير حيث ذهب رئيس ديوان الرسائل الخواجه أبو نصر مشكان وعقدت خلوة هناك . وكان مع الرسولين رسالة إلى الوزير أحمد عبد الصمد جاء فيها إن المشافهة تفصلها وهى تقول :

« إننا إلى الآن لم نتجاوز حدنا بشىء ، ولكن فى خراسان — كما لا يخفى — تركان آخرون وهم لا يزالون يقدون عليها لأن طريق جيحون وبلخان كوه مفتوحين أمامهم ، وهذه الولاية التى منحها إيانا السلطان قد أخذت تضيق علينا وأصبحت لا تكفى لسكنى من معنا من الناس ، وكان يرجى أن يتوسط الأستاذ الرئيس لنا عند السلطان ، كي يمنحنا بعض المدن الصغيرة ، مثل مرو وسرخس وباورد ، على أن يكون صاحب البريد والقضاة وصاحب الديوان فيها من قبل السلطان ، فيجبوا الأموال ويصرفوا أرزاقنا ونكون نحن جند السلطان ، فنظمر أرض خراسان من المفسدين ، ونؤدى ما يوكل إلينا من خدمات فى العراق ، أو فى أية ناحية أخرى ، طائعين ، ونقدم على أخطر الأعمال بأمره ،

ومن الجائز أن يربط الحاجب سباشى بجيشه فى نيسابور وهراة ، ولكن إذا قصدنا بسوء فسنضطر إلى الدفاع عن أنفسنا فتزول الهيبة من بيتنا ، هذا هو ملتئمتنا والأمر للسلطان .

فذهب أبو نصر وأخبر السلطان بما قالوا ، فقال له : « اصر فوا الرسولين ولتحضر أنت والوزير لتتداول فى هذا الأمر » . فحضر الوزير وأبو نصر لدى السلطان فوجداه يتميز عظيمًا ، وقال للوزير :

« لقد تجاوز هؤلاء القوم الحد فى تعديهم وتحكمهم ، فقد دمروا خراسان من جهة ، بينما يتحايلون بالمكر وزخرف القول من ناحية أخرى ، فيجب صرف هذين الرسولين بعد إفهامهما بأن الحكم بيتنا وبينهم سيكون السيف ، وأن الجيوش قد سirt للقتال ، وأنا سترحل من بست إلى هراة . .

فقال الوزير : « مادام هؤلاء القوم يتكلمون بهذا الأسلوب فمن الخير أن ٥٠٦ يبقى حجاب الهيبة مسدلاً بيتنا ، وأرى أن نجيبهم إجابة تجمع بين الشدة واللين ، حفظاً للجمالة ، وإذا رأى السلطان فإنى أذهب بعد ذلك إلى هراة ، ويأتى كبير الحجاب مع كافة الجند هناك ، ونقضى بذلك عليهم صلحاً أو حرباً ، على أن يكون السلطان قريباً منا ، فإذا دعت الحاجة سار إلينا » .

فقال السلطان :

« نعم هذا رأى ، أجل ينبغى إعادة الرسولين على هذا الوجه ، وعلى الحاجة أبى نصر أن يكتب ما ينبغى حتى يوقظهم من غفلتهم ، فلا يحلمون بعد ذلك ، وأن يقول لك يا أحمد إنه يجب أن تحضر بنفسك لإقرار هذا الأمر » .

فعادا واستمرا في مفاوضات يومين أو ثلاثة مع الرسولين ، حتى وافقنا على رأيهما ، ومن ثم سلماهما جواب الرسالة والمشافهة . ومنح الرسولان الخلع وأعيدا إلى خراسان يوم الخميس لخمس بقين من المحرم .

ويوم الثلاثاء أول صفر وصل تقرير من صاحب بريد هراة وبادغيس وغرجستان يقول : إن داود التركمانى يقصد السير إلى غزنة على رأس أربعة آلاف من خيرة الفرسان عن طريق رباط رزن وغور وسياه كوه وهذا ما اتصل بهلى والله اعلم بالصواب .

فاشتد قلق السلطان لهذا الخبر واستدعى الوزير ، وقال له :

« لا يمكن أن تكون طو لاء القومية صادقة ، وكيف يمكن أن يكون العدو صديقا ؟ وما دام الأمر كذلك فعليك بالسير على رأس جيش قوى إلى هراة ، وعلينا أن نسير نحن إلى غزنة ، فإنه لا يمكن أن نترك الدار خلوا بأية حال . »

فقال الوزير : « سمعا وطاعة ولكنى لا اعتقد صحة هذا الخبر فقد انقضت مدة طويلة على المهرجان ، ولا يستطيع الطير نفسه العبور إلى غزنة عن طريق رباط رزن فى مثل هذا الوقت . » فقال السلطان : « ما هذا المحال الذى تقول ، إن هذا العدو لا يعوقه الثلج والجليد فقم واستعد للسير إلى هراة لأنى ذاهب بعد غد إلى غزنة على كل حال . »

فعاد الوزير ، وكان الجماعة قد اجتمعوا هناك وانتحوا ناحية ، وبعثوا بأنصر للسلطان ليقول له : إن الأولى بالسلطان أن يترى بموضعه قليلا حتى يصل خبر آخر ، ولو صدق والعياذ بالله هذا الخبر . فذهب أبو نصر وأبلغ رأيهم للسلطان فقال : « حسنا سنبقى هنا ثلاثة أيام إلا أنه ينبغى ٥٧هـ أن يأتوا بالإبل

وخيل العبيد إلى هنا من سه بنج » فقالوا نعم الرأي . وذهب قوم لإعادة الخيل والجمال ، وشاعت أراجيف بين الجند في المعسكر ، وأخذ الذين كانوا قد ادخروا العلف يبيعونه بثمن بخس ، وقال لي أستاذي أبو نصر : « احتفظ بما عندك من العلف واشتر ما يقع لك منه ، فمن المستحيل صحة هذا الخبر ، ولا يصدق العقل والقلب بأية حال ، فقد قيل لا تصدقن من الأخبار ما لا يستقيم فيه الرأي ، وإن مولانا هذا كله فضل وشجاعة ، إلا أن استبداده العظيم قد أخفى كل فضله » . وكان قوله حقا . فقد وصلت رسالة أخرى يوم السبت الخامس من صفر تكذب ذاك الخبر ، وكانت الحقيقة أن مائة وخمسين فارسا قد عبروا الحدود في تلك الأنحاء ، فزعموا أن هؤلاء مقدمة جيش داود ، وقد أشاعوا هذا الخبر كي لا يجرؤ أحد على تعقبهم . فبدأ روع السلطان بهذه الرسالة وعدل عن السير إلى غزنة كما هدأت النفوس جميعا .

وفي يوم الإثنين السابع من صفر تحرك موكب السلطان ليلا إلى شاطئ نهر هيرمند ومعه الصقور والفهود والحشم والندماء والمطربون ، وقد حملوا معهم شتى المآكل والشراب ، ووقع لهم صيد كثير لأنهم استمروا في الصيد حتى الضحى ، ثم نزلوا على ضفاف النهر حيث كانت مضارب الخيام والمظلات فطعموا وشربوا وطاب لهم اللهو والطرب . وحدث قضاء وقدر ، أن أمر السلطان بعد الصلاة بإحضار السفن فجاءوا بعشر منها ، وأعدوا أكبرها لركوبه وفرشوها ونصبوا شراعها ، فركب ومعه نديمان وأحمد بن يعدون الشراب وساقيان وغلام وسلاحدار . أما الندماء والمطربون والفراشون وغيرهم من شتى الطبقات فقد استقلوا السفن الأخرى ، ولم يكن أحد يعرف ما يخفي القدر ، حتى رأوا فجأة ماء النهر وقد طغى على سفينة السلطان فأمتلأت به وأشرفت على الفرق ، وعلا الصراخ والحويل . ونهض السلطان يطلب النجاة بنفسه ، ومن حسن الحظ كانت السفن الأخرى قريبة منه ، فوئب منها سبعة رجال أو ثمانية

وأمسكوا بالسلطان وأنقذوه وحملوه إلى سفينة أخرى ، وكانت قواه قد خارت وجرحت قدمه اليمنى وتمزق جزء من جلده ولحمه ، وكان قد أشرف على الغرق لولا ما شمله الله به من العناية ، بعد إظهار قدرته . وبذلك زال ما كانوا فيه ٥٠٨ من سرور بالغ ومتعة عظيمة « وأى نعيم لا يكدره الدهر » . وبعد نقل السلطان إلى السفينة الأخرى أقلت السفن حتى بلغت الشاطئ ، ونزل السلطان الذى نجا من الموت فى خيمة ، حيث أبدل ملابسه وكان مبللا مرهقا . وركب ميمما نحو القصر . وكانت الإشاعات قد سرت بين الجند فى المعسكرات فأنارت قلقاً شديداً بينهم . وسارع الوزير والأعيان للقاء السلطان ، فلما رأوه فى صحة وعافية تعالت أصوات الجند والرعية بالشكر والدعاء ووزعوا من الصدقات ما لا يحصى . وأمر السلطان أن يكتبوا فى اليوم الثانى إلى غزنة وسائر أنحاء المملكة بتفصيل هذا الحادث وببشرى السلامة ، كما أمر بتوزيع ألف ألف درهم بغزنة ، وألفى ألف درهم فى البلاد الأخرى على المستحقين والفقراء شكراً لله على نجاته . وكتبت هذه الرسائل ووقعها السلطان ، ثم سار بها المبشرون . ويوم الخميس أصيب السلطان بحمى شديدة وراح فى غيبوبة ، فامتنع عن الاستقبال واحتجب عن الناس ، إلا عن أطبائه ونفر من القائمين على خدمته من الرجال والنساء ، فقلق الجميع لمرضه لتفكيرهم فى مصيره .

ويوم الأربعاء السابع عشر من شهر صفر وفد رسول من قبل على تسكين يدعى البتكين وبصحبه عبد الله الفارسى خطيب بخارى ، فتقدم لاستقبالهما الموكل بالضيافة ومعه الجنائب وأرباب الرتب وأنزلهما بالمعسكر مكرمين معززين حيث ضيفوهما على الرحب والسعة ، وأباغوا السلطان عنهما فبعث إلى الوزير على لسان أبى العلاء الطيب يقول « إنا وإن كانت هذه العلة قد أقعدتنا إلا أنه لا مفر من التجلد ، وسنستقبل غدا استقبالا عاما حتى يرانا الجند جميعاً ، فيجب

استدعاء الرسولين حتى يرياني ثم يعادان بعد هذا التدبير . فقال الوزير : نعم ما يقول مولاي ، فإن القلوب قلقة عليه وسيكون لتحمل ذاته هذا التعب أثر نافع .

وفي الغداة تربع السلطان على العرش في القاعة الكبرى ، وحضر الموالي وأركان الدولة ٥٠٩ والوزير إلى الحضرة ، وقد علت وجوههم آيات البشر والسرور ، ولهجت ألسنتهم بالدعاء له ووزعت الصدقات الكثيرة ، وقدم الرسولان فأديا مراسم الاحترام ثم أجلسا . فقال لهما السلطان كيف تركتما أخانا إيلك خان ؟ قالوا لقد تركناه ببركة حياة السلطان الأعظم محاطا بكل متعة وراحة وما دامت رعاية الجانب العالي في ازدياد فإنه يزداد يوما بعد يوم عزا ومجدا وسؤدا ، ولقد أرسلنا ، نحن العبيد ، لتقوية أواصر الألفة والمودة . ثم أعادهما الموكل بالضيافة إلى ديوان الوزارة . واختلى السلطان بالوزير أحمد عبد الصمد وأبي الفتح الرازي العارض وأبي نصر مشكان والحاجبين بكتغدي وأبي النصر . وكانت منزلة أبي النصر قد علت حتى أصبح يصرف أمور البلاط جميعها نيابة عن كبير الحجاب سباشي الذي كان قد طلب ذلك من السلطان إبان ذهابه من بلخ إلى خراسان فأجيب إلى طلبه . وقال السلطان ينبغي الاستماع إلى قول هذين الرسولين كما يجب إعادتهما خلال هذا الأسبوع ، ويجب ألا يتصل بهما أحد من غير إذنتنا ، وينبغي ألا يطلع من معهما على شيء ، وأنا لا أستطيع الجلوس أكثر من هذا ، فادعوا أبا العلاء الطبيب وخذوه معكم حتى يكون الواسطة بيننا وبينكم ، وحتى ينتهي كل شيء اليوم . فقالوا : سمعنا وطاعة وإذا كان السلطان قد شق على نفسه بهذا الاستقبال إلا أن ذلك تقتضيه المصلحة . فقال السلطان نعم إنه كذلك .

وانصرف الجميع وقام السلطان عائدا إلى فراشه . وجاء أبو العلاء إلى

ديوان الوزارة ، وتسلم أستاذى الرسائل والمشافهات وقرأها ،
وقد جاء فيها :

« إننا لا ندرى كيف نعتذر عما صدر منا من السهو ، مع تلك الرعاية التى
أفاضها السلطان علينا ، وإذ بلغت صلتنا بالسلطان إلى هذا الحد من الألفة
والصداقة ، فإن لنا مقاصد ثلاثة حفزتنا إلى إيفاد هذين الرسولين وسوف
نكون قد حصلنا على كل ما نبغى حين تبرم اليهود بين الطرفين وتجاب هذه
المقاصد الثلاثة . وأولها أن يرفع السلطان قدرنا بتزويج أحدنا إحدى كريمات
الأسرة . والثانى أن يكرمنا بتزويج أحد أبنائه من إحدى بناتنا ، حتى تنقطع
كل المطامع التى تستهدف إليها بلاد السلطان . والثالث أن تتوثق بيننا وبين
أرسلان خان صاحب تركستان وأميرها اليهود والمواثيق بواسطة السلطان ،
٥١٠ ليثبت لديه أن لا خلاف بيننا ، وأن البيوت قد أصبحت بيتنا واحدا ،
فتنقطع بذلك كل أسباب الخصام والعداء . وهذا ما دعانا إلى إيفاد هذين
الرسولين بالرسائل والمشافهات . والمتوقع من همة السلطان العالية أن يجيبنا إلى
هذه المقاصد ، وأن يصحب رسل الحضرة العلية رسولينا ، حتى نقوم نحن
أيضا بما يطلب منا ، فإن جيوشنا سوف تعبر النهر وتتحد مع جيوش السلطان
وتعمل على إخماد الفتنة ، بعد أن نجاب إلى هذه المقاصد . ولسوف نرعى
أوامر السلطان فى هذا الأمر ونفى بكل ما تقتضيه الوحدة فى كل باب ،
بإذن الله عز وجل . »

وكتب أستاذى بخطيده هذه الرسائل كما دون المشافهات وسلمها لأبى العلاء
ليذهب بها إلى السلطان وقد عاد هذا بعد ساعة أو ساعتين يقول : إن السلطان
قد استحسناها . فأعادوا الرسولين إلى منزل الضيافة وانصرف أبو العلاء .
ثم عاد ثانية وقال للوزير وأبى نصر : يسألكما السلطان ماذا يعمل فى هذا الأمر

وما الصواب فيه ؟ فأجابا : « بأن هذا الشاب لا يطلب شططا ومن المفيد أن يجاب إلى ما طلب ، وذلك أننا سنأمن جانبه ، فلا تكون قلاقل ولا فتن ، ثم إن لديه عددا كبيرا من الجند يحتمل أن نحتاج إليهم ، هذا ما تبين لنا والأمر لمولانا . فذهب أبو العلاء ثم عاد يقول إن السلطان يرى أن ما يقولانه حق وينبغي أن يجاب الرجل إلى مقاصده الثلاثة ، وأن تكتب أجوبة رسائله وأن يعين رسول ليصحب رسوله . فكتبت أسماء بعض الرجال ليختار السلطان واحدا منهم ، ثم قدمت إليه الأسماء بواسطة أبي العلاء ، فاختار عبد السلام ، رئيس ديوان بلخ ، وكان من الندماء وله سابقة في السفارة . »

وعاد الخواجة أبو نصر وسلوه الرسائل والمشافهات ، وتقرر أن تخطب إحدى أخوات أيلك للأمير سعيد نبجل السلطان ، وأن تزف إحدى بنات الأمير نصر السهسalar إلى أيلك . وعلى هذا النحو ذهب الرسولان ظافرين بالأمان . وكان ذلك يوم الثلاثاء الموافق ثلاثة وعشرين من شهر صفر .

وقبل شفاء السلطان وصلت رسائل من قبل أبي سهل الحمدوى عميد العراق جاء فيها ٥١١ : « إن ابن كاكو قد يئس وأدرك أنه لا يقوى على استخدام العنف فأقبل معتذرا وإنه يلتمس أن يفوض إليه أمر إصفهان ولا أستطيع (أبو سهل الحمدوى) أن أقطع في هذا الالتماس بغير أمر من السلطان ، ولذلك فقد استبقيت رسوله ، كما بعثت إليكم أيضا الرسائل التي كتبها محمد أيوب وزير الخليفة يستشفع لهذا الرجل عند الحضرة السلطانية وعندي ، لكي يتقرر مصيره ، وإني في انتظار أوامركم السامية في هذا الأمر لأعمل حسب ما ترون . »

فلخص أبو نصر بخطه ما جاء في تلك الرسائل ، عملا بما اعتاد عليه بعد حادثة السلطان ، فكان يرسل إلى القصر ، على يدي ، ملخصات ما يقرأ من رسائل ، وكان يتخذ الحيلة بحيث لا يدون ما يثير الحزن والقلق في نفس

السلطان، وكنت أسلمها لآغا جى الخادم، وأعود بالاجوبة شيئا فشيئا، ولم أر السلطان مطلقا في تلك الفترة. ولما كانت خلاصة الرسائل في هذه المرة تتضمن البشرى فقد أقبل آغا جى بعد ساعة يقول إن السلطان يدعوكم يا أبا الفضل. فدخلت إلى حجرة مظلمة قد أسدلت على نوافذها ستائر من الكتان المبلل وعليها كثير من الغصون الخضراء ووضعت بها طاسات واسعة مملوءة بالثلج، وشاهدت السلطان جالسا على سرير وعليه قميص توزى وعلى عنقه مخنقة عليها عقدان من الكافور. ورأيت أبا العلاء الطبيب جالسا تحت السرير. قال السلطان:

« بلغ أبا نصر بآنى اليوم فى صحة وعافية، وسأجلس فى مدى يومين للاستقبال، فإن العلة والحمى قد زالتا تماما. وليكتب لأبى سهل بالمرافقة على ما يطلب ابن كاكو، بعد أن تتم كل الشروط. وليأخذ عليه عهدا بأنا قد أمنا إليه هذه المرة رعاية منا لشفاعة وزير الخليفة، ولو أقدم على نكث العهد بعد هذا فلسوف نستأصل شأفة أسرته، كما ينبغى أن يرد على كتاب وزير الخليفة حسب الرسم وبخير ما يكتب فى هذا الباب، ولتعديا أبا الفضل إلينا بالجواب الذى سيكتب لأبى سهل حتى نوقعه لأن لنا معك عملا آخر ».

وأخبرت أبا نصر بما كان، فسرّ كثيرا وسجد لله عز وجل شكرا على سلامة السلطان ثم كتب الرسالة وحملتها إلى آغا جى وأتيح لى أن أزور مولانا مرة ثانية. فقرأ الرسالة وطلب دواة ووقعها، وألقى بها إلى، وقال:

« ابعثوا فارسين مشهورين ليسر عا مع فارس أبى سهل وليعودا بالجواب، وليكتب لإجابة كتاب صاحب بريد الرى » بأنه قد صحت عزيمتنا على السير من بست ٥١٢ إلى هراة ونيسابور حتى نكون أقرب إليكم، وحتى تنتهى المهام التى هى نصب أعينكم على أسرع وجه وبأحسن صورة، كما ينبغى أن تكتب

رسالة بهذا إلى صاحب الديوان سوري ، وأن ترسل على يد هؤلاء الفرسان ، ويجب أن يوعز له بأن يجهز المؤن لجيشنا في نيسابور ومراحل طريق الري ، فإن العلة التي اعترتنا قد زالت وستتحرك راياتنا بأسرع وقت حتى نتلافى ما وقع في خراسان من الاضطراب ، وعد إلى يا أبا الفضل بعد أن ترسل الكتب حتى أبعثك برسالة لأبي نصر .

فقلت سمعا وطاعة . وعدت بالرسالة الموقعة ، وقصصت ما جرى على أبي نصر ، فأخذ هذا الكاتب القدير رحمة الله عليه يكتب بهمة عظيمة ، حتى أتم الرسائل قبيل صلاة الظهر ، وأوفد الفرسان والساعي ثم كتب رقعة للسلطان ، شرح فيها كل ما عمل وسلمها إلى فحملتها ، وأذن لي بالدخول فقدمتها للسلطان ، فقرأها وقال حسنا ثم قال لا عاجي الخادم : « أحضر الكيسين » وقال لي : « خذهما ، إن في كل منهما ألف مثقال من قطع الذهب ، وقل لأبي نصر هذا من الذهب الذي جاء به والدنا رحمة الله عليه من الهند ، وقد جمعه من تماثيل الذهب التي أمر بكسرها وإذابتها ، وهذا الذهب من أحل الأموال ، ولذلك فإننا نطلب إحضاره في جميع أسفارنا لتكون منه صدقاتنا حلالاً لا شبهة فيه ، وقد سمعنا أن أبا الحسن البولاني وولده أبا بكر في فاقة شديدة وليس لهما إلا ضيعة صغيرة ، وهما لا يقبلان من أحد شيئاً ، فيجب أن يعطى كيس من الذهب للوالد وآخر للولد ليشتريا ضيعة صغيرة من المال الحلال ، وليعيشا عيشاً رغداً ، ونكون بذلك قد أدينا بعض الشكر على نعمة السلامة .

فحملت الكيسين وسلمتهما لأبي نصر وذكرت له الأمر فدعا للسلطان وقال : « نعم ما أمر به مولانا فقد سمعت أن أبا الحسن وولده يحتاجان أحيانا عشرة دراهم . وانصرف إلى داره وحملوا الكيسين معه ، ثم دعا بعد الصلاة القاضي أبا الحسن وابنه فحضرا ، وأبلغ أبو نصر مقالة السلطان إلى القاضي

فدعا له كثيرا ثم قال : « إني نخور بهذه الصلة وأقبلها ثم أردوها لأنني لست في حاجة إليها ، فإن القيامة قريبة ولا أستطيع أن أؤدى يومئذ عنها حسابا ، ولست أتظاهر بالعفة ولكن ما دمت أملك من القليل ما أنا قانع به فقيم وزر هذا الذهب ووباله ؟ » فقال أبو نصر : « يا سبحان الله ألا يقبل القاضى هذا الذهب الذى أتى ٥١٣ به السلطان محمود عن طريق الجهاد بالسيف من معابد الوثنية وتحطيم الأصنام وإذابتها وإن أمير المؤمنين يحل أخذه » فقال القاضى « أمد الله فى حياة سيدنا إن حال أمير المؤمنين يختلف عن حالى ، لأنه ولى أمر المسلمين ، وقد رافقتم السلطان محمود فى الغزوات ولم أكن معهم ، ولا أدري إذا كانت هذه الغزوات قد تمت وفق سنة المصطفى عليه السلام أم أنها كانت مخالفة للسنة ، ومهما يكن من شئ فإنى لن أقبل هذا المال ، ولن أتحمّل تبعه اقتنائه » . قال أبو نصر : « إن كنت لا تقبله لنفسك فاعط لمريدك والمستحقين والفقراء » . فقال القاضى : « إني لا أعرف فى بست أحدا يستحق . أن يأخذ الذهب ، ثم ماذا أصابنى إذ يأخذ الذهب غيرى وأقدم أنا حسابه يوم القيامة » . فقال أبو نصر لابن القاضى : « خذ أنت نصيبك من الذهب » . فقال : « أطل الله حياة السيد المميد إني ابن الأب الذى أجاب هذا الجواب » . وقد أخذت العلم عنه ؛ ولو أنى رأيت يوما واحدا طول حياتى وعرفت سلوكه لوجب على اتباعه ، فكيف بى وقد صحبته أعواما ، فضلا عن أنى أخشى ما يخشاه هو من الحساب والإمهال والسؤال يوم القيامة ، وما عندى من حطام الدنيا حلال وفيه كفايتى ، ولست فى حاجة معه إلى مزيد » . فقال أبو نصر : « لله دركنا من رجلين عظيمين » . وبكى ثم صرفهما ، وظل طول يومه يردد حديثهما متفكرا . وفى الغداة كتب للسلطان كل ماجرى ، وأعاد إليه الذهب ، فبقى هذا فى عجب من أمر الرجلين . وسمعت غير مرة أنه كان كلما صادف أحدا من المتصوفة أو رجلا ذا شارب كث ، قد نصب شرك الرياء أو ارتدى ،

ثوباً خلقاً وقلبه أشد من ثوبه سواداً ، كان يضحك ويقول لأبي نصر :
لله در البولانيين .

وتحضرني قصة نادرة قرأتها في سير الخلفاء من بني العباس آثرت .
ذكرها هنا .

حكاية أمير المؤمنين مع ابن السماك

وابن عبد العزيز الزاهدين

ذهب هارون الرشيد في إحدى السنوات إلى مكة حرسها الله تعالى ، فلما
أتم مناسك الحج ، سمع عن رطلين من كبار الزهاد . أحدهما يقال له ابن السماك .
والثاني ابن عبد العزيز العمري ، لم يقصدا سلطاناً قط . فقال هارون للفضل
الربيع : يا عباس ، وهكذا ٥١٤ كان يناديه ، أود أن أرى هذين الزاهدين .
الذين لا يسهان للسلطين ، وأن استمع إلى حديثهما وأن أطلع على حالهما .
وسيرتهما في السر والعلن فما السبيل إلى ذلك ؟ فقال الفضل ، فليأمر أمير
المؤمنين بما يرى حتى أمهد له زيارتهما . فقال هارون أريد أن نذهب إليهما
متنكرين لنرى كيف يعيشان ، فما أيسر معرفة المناققين بشيء من حطام الدنيا .
فقال الفضل أصبت يا أمير المؤمنين فيماذا تأمر ؟ فقال له إذهب وأحضر حمارين
من الحمر المصرية ، وكيسين في كل منها ألف دينار ذهب ، والبس بما يلبس .
التجار ، ثم عد إلى بعد صلاة العشاء ، لأقول لك ما يكون بعد ذلك .

وانصرف الفضل ثم أعد هذا كله ، ورجع إلى هارون بعد الصلاة ، فوجده
قد ارتدى زي التجار أيضاً فقام وركب الحمار وركب الربيع الحمار الثاني ، وأعطى
الذهب إلى رجل كان يعرف منزلي الزاهدين ، فتقدمهما مع اثنين من خاصة
الركابدارية ، وساروا جميعاً متنكرين لا يعرفهم أحد ، ولم يكن معهم شئ ولا

مشعل . فبلغوا أولا باب بيت العمرى فطرقوه عدة مرات حتى سمعوا صوتا يسأل من بالباب ، فقالوا افتح الباب فإن هنا من يريد لقاء الزاهد فى الخفاء . ففتحت الباب جارية قليلة البهاء ، فدخل هرون والفضل والدليل فوجدوا العمرى قائما يصلى على حصير خلقة ووجدوا مسرجة على قعر جرة ، فجلس هرون والفضل فترة حتى فرغ الرجل من الصلاة وسلم ، فالتفت إليهما وقال : من أنتم وما شأنكما . قال الفضل : هذا أمير المؤمنين جاء متبركا بلقائك . فقال الزاهد جزاك الله خيرا ، ولماذا شق على نفسه ، وكان الأولى أن يطلبنى فأذهب إليه . فإنى أطيعه وأخضع لأمره ، وإنه خليفة رسول الله وطاعته فريضة على المسلمين جميعا . فقال الفضل : لقد آثر الخليفة أن يسعى إليك بنفسه . فقال الزاهد : زاده الله تعالى عظمة وجلالا كما عرف حرمة عبده . فقال هرون : عظامنا وقل قولا نستمع إليه ونعمل به : فقال الزاهد : أيها الرجل إنك أمّرت على خاق الله عز وجل ، وقد ولاك الله أعظم قسط من أرضه كي تخلص نفسك من نار جهنم بإقامة العدل بين الناس ، وانظر إلى المرأة لترى فيها وجهك الجميل هذا فتعلم أن من الظلم إحراقه فى النار ، والتفت ولا تفعلن ما يغضب الله جل جلاله . فبكى هرون وقال « زدنى نصيحا » . فقال يا أمير المؤمنين تذكر أنك مررت فى ٥١ طريقك من بغداد إلى مكة بكثير من القبور التى إليهما معاد الناس جميعا فاذهب واعمل للآخرة فالبقاء فى هذه الدنيا قليل . فازداد هرون بكاء . فقال الفضل : كفاك يا عمرى إلى متى هذه الغلظة ، ألا تعرف مع من تتكلم . فصمت الزاهد وأشار هرون ليضعوا الكيس أمامه وقال « أردنا أن نوسع عليك بهذا » . فقال العمرى : صاحب العيال لا يفلح أبدا ، إن لى أربع بنات ولو لا تفكيرى فيهن لما قبلت هذا المال فإنى فى غنى عنه . فنهض هرون وشيعه العمرى إلى الباب حتى ركب ومضى . فقال هرون للفضل فى الطريق « لقد وجدت العمرى فصيح

اللسان ولكنه راغب في الدنيا ، ألا ما أشد إغراء هذه الدراهم والدنانير ، والعظيم حقا من يستطيع أن يهملها . فلنذهب الآن لنرى ابن السماك .

وساروا حتى بلغوا باب دار ابن السماك ، فطرقوه مرات حتى سمعوا صوتا يقول من بالباب ؟ قالوا نريد ابن السماك . فذهب صاحب الصوت ، وبعد فترة عاد يقول ماذا تريدون منه ؟ . قالوا افتح الباب فإن لنا معه شأنا هاما . ففتحت الباب جارية . فدخلوا ولبثوا جالسين فترة على الأرض في الظلام ، وكانت الأرض عارية ، فنادى الفضل الجارية التي فتحت الباب لتأتى بسراج فلما جاءت قالت لا أذكر أنى وجدت عند هذا الرجل سراجا منذ اشترانى . وأضيئت الدار فقال الفضل للجارية وأين الشيخ ؟ قالت إنه فوق هذا السطح ، فصعدوا إليه فأروه يبكى في الصلاة ويتلو هذه الآية « أفحسبتم أنما خلقناكم عباءة وكان يرددها كثيرا . فلما أحس بنور السراج سلم ، ولما سمع أصوات القوم تلفت فقال السلام عليكم ، فرد عليه هرون والفضل التحية بمثلها ، فسألهم ابن السماك ما الذى جاء بكم فى هذا الوقت ومن أنتم ؟ قال الفضل هذا أمير المؤمنين جاء ليزورك وكان مشوقا إلى رؤياك . فقال ٥١٦ كان عليه أن يستأذننى قبل بجيئته ثم يأتى بعد أن آذن له لأنه لا يجوز صرف الناس عن شئونهم . قال الفضل . نعم كان ذلك واجبا ولكن هكذا كان ، إنه خليفة رسول الله عليه السلام وطاعته فرض على كافة المسلمين وأنت منهم والله تعالى يقول « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . فأجاب ابن السماك : هل يسلك هذا الخليفة مسلك الشيخين ، أريد بهما أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، حتى أتعد أوامره كأوامر الرسول ؟ قال نعم إنه كذلك . قال إنى أتعجب من هذا الجواب . فلست أجد أثرا لسيرته فى بلد مثل مكة ، وهى بلد الحرم ، فكيف يكون الحال فى سائر البلدان . فلبث الفضل صامتا . فالتفت هرون إلى ابن السماك وقال له . عظمى موعظة فقد جئت من أجل هذا ، جئت لأستمع قولك ولتزيدنى قوة .

فقال اخش الله عز وجل يا أمير المؤمنين وإنه واحد لا شريك له ، غنى عن كل أحد واعلم أنك ستحشر يوم القيامة أمامه ، وأن حالك لن يخلو من اثنتين . فإما أن تذهب إلى الجنة وإما أن تلقى في جهنم ولا دار غير هاتين . فبكى هرون بكاء مراحى ابتل وجهه وصدره . فقال الفضل أتدرى ماذا تقول أيها الشيخ ؟ هل من شك فى أن أمير المؤمنين لا يذهب إلا إلى الجنة ؟ فلم يجبه ابن السماك ولم يعبأ به والتفت نحو هرون وقال : يا أمير المؤمنين هذا الفضل يصحبك الليلة ولن يكون معك غدا فى يوم القيامة ولن يتكلم عنك كلمة وإذا تكلم فإن يستمع إليه ، فانظر إلى شخصك وارق بنفسك . فتحير الفضل وبكى هرون حتى خافوا أن يغشى عليه ، فقال اسقونى ماء . فنهض ابن السماك وجاء بكوز ماء وقدمه إلى هرون . فلما هم بالشرب قال له : أيها الخليفة إني أستحلفك بحرمة قرابتك من الرسول عليه السلام أن تقول بكم تشتري هذا الماء إذا منعوك شربه ؟ قال هرون : أشتريه بنصف ملكى ، قال اشربه هنيئاً ، وبعد أن شرب قال له إذا انحبس هذا الماء الذى شربته فى جسدك فكم تعطى لانطلاقه ؟ قال : نصف ملكى . فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين إن الملك الذى يساوى ثمنه شربة ماء لا يجدر بالرجل أن يغتر به ، وإذ قمت بأمر خلافة رسول الله فاعدل بين الناس وأحسن إليهم . فقال هرون سمعاً وطاعة . وأشار فقدموا إليه الكيس ، وقال ٥١٧ الفضل أيها الشيخ لقد سمع أمير المؤمنين بضيق ذات يدك وأمر لك الليلة بهذه الصلة الحلال فاقبلها . فتبسم ابن السماك وقال « سبحان الله العظيم ، إني أنصح أمير المؤمنين أن يصون نفسه من جهنم فيأتى ليوغنى فيها . هيهات هيهات ، أبعادوا هذه النار من أمانى لئلا نحترق الآن ، نحن والبيت وأهل هذه المحلة . ثم قام فخرج إلى السطح ، وجاءت الجارية تعدو وتقول انصرفوا ياسادة فإنكم قد آذيتم الشيخ المسكين إيذاء شديداً هذه الليلة . فقام هرون والفضل وحمل الدليل الكيس وركبوا وانصرفوا .

وكان هرون يردد في الطريق قوله « هذا لعمرى هو الرجل الحق »
وكثيرا ما كان يذكر حديث ابن السماك بعد هذا . وإني أقص هذه الحكاية
للقرءاء لتنفعهم وتؤثر في قلوبهم . والآن نعود إلى ذكر التاريخ .

وجلس السلطان مسعود في يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول (١٠٣٦)
للاستقبال ، فإنه كان قد شفى تماما . وأذن للناس إذنا عاما ، فتقدم الحشم والموالي
ورعايا بست إلى الحضرة ، ونثروا المال كثيرا ، ودعاه الناس ، وجاءوا إلى
الدركاه بكثير من القرابين فذبحوها ووزعوها مع الخبز على الفقراء . وكانت
بهجة لا يذكر أحد أنه رأى مثلها .

ويوم الإثنين الثاني عشر من هذا الشهر جاءت رسالة من مرو تنعى
نوشتكين خاصة الذي كان شحنة لتلك النواحي وقد جاء في الرسالة أنه ذكر
قبيل وفاته أن السلطان محمود لم يعتقه وأن أملاكه جميعا ملك للسلطان ، فينبغي
إعلام السلطان بذلك حتى إذا رأى أن يعتقه فعل ، فيهبه أملاكه ويقرر صحة
ما أوقفه منها ، وإن كل ما عنده من الغلمان والتحف والأدوات والضياع ملك
للسلطان أيضا ، هذا وغلبانه مستعدون لكل عمل وإنه قد تعب في إعدادهم
كثيرا فيجب ألا يتفرقوا وألا يهمل شأنهم وأن مقدمهم اسمه خمارتكين
المقرىء^(١) وقد رباه بنفسه ، وهو ناصح أمين جدير بأن يعتمد عليه ، فينبغي ،
وإنه لمن الخير ، أن يبقى زعيما للغلمان . فاعتق السلطان نوشتكين خاصة وأجاز
أوقافه . وحررت الأجوبة على تلك الرسائل ، وطبوا خواطر الغلمان .
واحتفظوا بخمارتكين مقدما عليهم ، وقد أمروا بالبقاء في أماكنهم ٥١٨

(١) قرآن خوان .

« حتى يصرف لهم العامل نفقاتهم وأرزاقهم ، وعلى كل منهم أن يؤدي ما كان يقوم به من الأعمال إلى أن ندعوهم ونهبهم إلى أحد أبنائنا ونسلمهم إليه » . وتأكدت هذه الرسائل بالتوقيعات فحماها اثنان من فرسان البريد .

وفي الخميس الثاني والعشرين من هذا الشهر وصلت رسائل من خراسان تفيد بأن التركمان قد انتشروا في حدود تلك البلاد ونهبوا مدينة تون ، وأن أبا الحسن العراقي أمير الكرد والعرب عاكف في هراة على الشراب ليلاً ونهاراً ، وأن العامل أبا طلحة الشيباني قد ضج منه ، وكذلك بقية الأعيان والثقات قد ضاقوا بسلوكة ذرعا ، وأنه قد بعث أحد غلمانه على رأس فوج من الكرد والعرب لمطاردة التركمان دون أن يتبصر بالعواقب ، ف وقعت الكارثة وقتل وأسر كثير من الناس . فضاق السلطان بهذه الأخبار صدرا ، ودعا الوزير ودار الحديث بينهما في كل ما يحتمل ، وفي النهاية قال السلطان لوزيره : « يجب أن تسير إلى هراة وأن ترابط بها حتى يلحق بك الحاجب سباشي وكافة جند خراسان ، فتنظر في شئونهم جميعاً وتوزع عليهم أرزاقهم ، حتى يسيروا مجهزين نحو التراكمة ويحلوهم تماماً عن أرض خراسان وذلك بحمد السيف ، فإنه لا ترجى منهم الاستقامة ، وكانت جميع عهودهم حتى اليوم خداعاً وكذباً ، فقد أبادوا النسل والحرث حيثما حلوا ورحلوا ، وهذا العراقي الغادر يجب أن تكف يده عن قيادة الكرد والعرب ، وعليك أن تجعل عليهم قائدين مجريين من أنفسهم ، وأن تسلم أمر الفرقة إلى الحاجب ، وأن تبعث بالعراقي إلى الحضرة . حتى يلقي جزاءه ، فقد ضاعت خراسان والعراق ضحية له ولأخيه ، واكتب إلينا الرسائل تباعاً بعد أن تبلغ مقر عملك وتشاهد الأحوال ، حتى يصلك منا ما يجب من الأوامر » . فأجاب الوزير « سمعاً وطاعة » وانصرف ، ثم إنه جلس مع أبي نصر فتحدثا ملياً في هذه الأمور .

وفي الغداة كتبت المواضعة ، وجرى بها إلى الدركاه ، فعرضها أبو نصر على السلطان في خلوة وكتب أجوبتها في المجلس حسب ما رأى السلطان ، ثم أكدها بتوقيعه . وخلع يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الثاني خلعة فاخرة للغاية على الأستاذ الرئيس ، وكان من جملتها فيلان ذكر وأنثى ، والبغل والمهد والصقر وكثير من غلمان الترك . ثم تقدم الوزير ٥١٩ من السلطان فأسبغ عليه العطف حتى قال : « إن الأستاذ الرئيس منا بمنزلة الوالد ، وهو يحمل عنا كل ما ينبغي علينا حمله من المناعب وإنا نلرجو أن يوفق إلى تهديئة أنفسنا بما نحن فيه ، وإن أوامره تلي أوامرنا » . فقال الوزير : إني عبد السلطان ولسوف أفندى أوامره بروحي ، ولسوف أبذل ما في طاقة البشر في هذا العمل . وعاد الوزير بموكب يحيطه العز والتكريم ، وقد احتفوا به حفاوة لا يذكر أحد أنه رأى مثلاً . وكان بينه وبين الخواجة أبي نصر في ذلك الوقت مودة تفوق الحد ، ولا عجب فقد عرفه الوزير حق المعرفة ، وكان أبو نصر نسيج وحده ، فطلب منه أن يرسل معه ثقة من كتاب الديوان ليكتب الرسائل السلطانية حسبما يشير به وليبين للسلطان ما يعمل أو يذهب إليه . فعين الفقيه أبو بكر المبشر الكاتب لهذا العمل ، وزوده أبو نصر بكل ما ينبغي له من الأوامر .

وفي الغداة سار الوزير إلى هراة في قوة وعدة وأبهة وكان معه ألف فارس . ثم سار السلطان رضى الله عنه يوم الخميس الخامس من شهر ربيع الثاني إلى يمين آباد وميمند طلباً للنزهة والصيد ، وقد استضافه الخواجة عبد الرازق بن حسن الميمندى في ميمند ، وأبدى من الخدمة في هذه الضيافة ما ينتظر من مثله ، وكان أنيقاً في كل أعماله كما كان نسيج وحده فقدم للسلطان ما يليق من

(١) العبارة هنا مبهمه . غنى - فياض حاشية ١ .

أهدى الوافرة باسم منحة الأسنان ، كما قدم وكلاؤه منحا كثيرة لمن كانوا بصحبة السلطان . وقد أقام هذا في تلك المباني السلطانية التي أقامها هناك الخواجة أحمد حسن الميمندى رحمة الله عليه . ثم عاد السلطان يوم الأربعاء رابع جمادى الأول إلى جوسق دشت لنكان .

وفي الغداة وصلت رسالة بنعى الخواجة ساتلش حاجب أرسلان ، وكان السلطان قد رفع منزلته وأسند إليه شحنة بادغيس بحكم أنه كان خازنا في دهد الأمير محمد وكان أول من ذهب من خراسان لاستقبال السلطان مسعود وقد صاحب معه عدداً من غلمان أرسلان كما بينت من قبل

ويوم الأحد ثامن هذا الشهر توفي أبو سعيد بن محمود طاهر الخازن ، في بيست رحمة الله عليه وكان كريماً نافعا وكان له عقل الشيخ ، وكان الخواجة أبو نصر يجالسه كثيراً وكان يقول عنه : « إن هذا الشاب لا يبقى على هذه الحال إذا امتد به الأجل وهو لا ينقطع عن الشراب وأكثر ما يشرب الصبوح » ولم يعيش ، وقيل إنه مات لهذا ، فها هذا الحديث « إن الله جنوداً منها العسل » ، لقد مات بعد انتهاء أجله . والعجيب أنه في الأيام القليلة الأخيرة له وجه لأصحابه دعوة ، وأعد لهم مجلساً ٥٢٠ لطيفاً دعا إليه أبا نصر مع جماعة ، وكنت ضمن الحاضرين وقد دارت الكؤوس وكان هذا وداعه ، فبعد ذلك بثلاثة أيام مضى مضياً لا رجوع بعده . وخطر لنا هذا البيت :

فكم أتتنا الليالي وما أتت إلينا ورب يوم يعود ولم يعد علينا

وكان والده محمود طاهر ، أحد خازني السلطان محمود رضى الله عنه ، من ذوي المكانة والغنى ، وكان السلطان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً ، وقد توفي صغيراً

كذلك ، ورعى ذلك السلطان حق الميت الكريم ، فرعا ابنه النجيب فأصبح هذا الرجل وجيها في قومه ، واشتهر اسمه . وكان للسلطان مسعود في اصطناعه إياه رعاية أخرى ، فازدادت مكانته ، ولكن الزمن لم يمهله فقضى نحبه شابا . وكان قد صاهر أسرة كبيرة ، أسرة أبي النصر الزخودى ، الذى كان من أعظم قوم خوارزمشاه التوتاش ، كما كان من أصدقاء السلطان محمود ، وقد ترك ولدين بالغين ، وخالهم هو الخواجه مسعود الزخودى الذى شغل مرتين وظيفة العارض للسلطانين مودود وفرخ زادرمة الله عليهما ، وله آثار محمودية ، وقد لوحظ فيه همه الرجال وسخاء العطاء وأهل الجود . وإذا كان قد لقي في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) شدة في أوقات الأزمات ، وواجهته الصعاب ، فقد كان بعد العسر يسرا ، والماء يعود إلى مجرى النهر مرتين بعد النضوب ، والأيام دُول . والخير أن يحتفظ المرء بروحه العالى ، والمال يأتى ويذهب ، ويقول كل رجل يسمع عن محنة من هذه تصيب رجلا كريما إن هذه لا تعد محنة . وقد ذكرت هذا الفصل فها مكانه ، وقد اشتغلت بخدمة هذا السيد وشاركت في أعماله التى قرب ذكرها ، والتى كان السلطان مسعود رضى الله عنه يرفع منزلته من أجلها ، وسوف يستخدمه في مهمات الدولة ، ولقى من الأيام حلوها وسيرها وسيأتى كل هذا على التوالى بمشيئة الله تعالى .

وفي يوم السبت السابع عشر من جمادى الأولى عزل أبو الحسن العراقى الكاتب من سالارية الكرد والعرب ، وجاء إلى البلاط ، وقد صرفه الأستاذ الرئيس أحمد عبد الصمد بالحسنى ، ولكنهم وكلوا به خمسة فرسان ليراقوه ، ولم يتح له السلطان المثل بين يديه ، وأرسله إلى مسعود بن محمد بن الليث الكاتب حتى يتدبر أمر اعتقاله ، وكان كل من يذهب لزيارته يعود شديدا الحيرة وقد امتلأ قلبه أسفا . وأخيرا ، فإن أبانصر ، ٥٣١ رعاية منه لاشتغال هذا الرجل بالكتابة ، تحدث عنه السلطان متشفعا حتى استمال له قلبه ، فمثل

في الحضرة السلطانية وأدى التحية وأعيد إلى ديوان الرسائل ولسكنه كان كمن أريق ماء وجهه وأفل نجمه ، فلم يكن يجرؤ على التوسع في شيء من الكلام . وانتهى الأمر بموته كما سأذكر بعد ذلك .

وفي يوم الأحد الحادي والعشرين من هذا الشهر وصلت الرسائل من أبي سهل الحمدوي وصاحب بريد الري ، بأن حديث ابن كاكو كان رياءً وافتعالا وكسبا للوقت ، وأنه استمال الناس من الأطراف وتجمعوا حوله وكذلك انضم إليه ، لماله الوفير والخزائن وأصناف النعم ، جماعة من تراكمة قزل ويغمر وبلخان كوه الذين كانوا قد فروا من السلاجقة ، وأنه اتجه إلى غزو الري مستعدا ، ويخشى أن يعرف أن خراسان مضطربة نتيجة لقتل السلاجقة وأن المدد لا يستطيع أن يصل إلينا . هذا وسنبذل ما في طاقتنا من جهد إلى أن يفعل الله ما يريد .

فتحير السلطان كثيرا وأمر بكتابة الرد قائلا : « إن الوزير والحاجب الكبير والجيش في خراسان كافية لرد السلاجقة ، ثم إننا قاصدون خراسان كذلك ، فلتكن قلوبكم قوية وتقدموا للحرب كأرجال فإنكم بالجيش الذي معكم قادرين على ضبط العراق كله » . وسيرت هذه الرسالة مع عامل البريد والسماذ . وسأشرح هذه الأحوال في باب خاص عن الري ، وأما هنا ففي هذا القدر الكفاية .

ويوم الثلاثاء سلخ جمادى الآخرة جاءت الرسائل من الوزير وفيها : « إنى أخذت الأمور بالجد وإن عمال المدن الذين استدعيتهم يقدون على ، ويسلمون الأموال ، ووصل الحاجب الكبير والجيش إلى هراة . وإن أباسهل

علاء نائب العارض يستعرض الجيش بدقة أمامي ويوزع أجور الجند ، وحين
تنتهي تعبئة الجيش ويسير نحو الأعداء فإني سأعد التدبير الواجب وأواجههم به
وسأبذل أقصى الجهد ، وأملئ أن تتحقق الآمال بفضل الله عز ذكره ،
ويبدو لي أن الصواب أن يتوجه السلطان إلى هراة بعد انقضاء النوروز ، وأن
يقيم بها فصل الصيف ، فإن الأوضاع مهدت ، وليس من شيء يقلق البال غير ٥٢٢
موضوع العلف ، وذلك حتى أذهب إلى مرو ويسير الحاجب الكبير بالجيش
للملاقاة العدو ، فليكن السلطان مطمئناً من جميع الوجوه . وهذه الفتنة سوف
تخمد ، وكذلك سيستقيم الحال الذي اضطرب في الري والجلال ويطلب
خاطر السلطان .

فأجابه السلطان : « إن الوزير خايفتنا في خراسان وإن مرو والمدن
الأخرى كلها مملوءة بالجند ، فما حاجتنا الآن للتوجه إلى هراة ؟ إننا سنذهب إلى
غزنة ، فهذا هو الصواب ، ثم إن أبناء علي تكفين قد صلح حالهم ، ولا يقاتلنا
شيء من ناحية بلخ وتخارستان وإن ولدنا العزيز مودود والسپهسالار على هناك ،
فإذا مست الحاجة لمزيد من الجند فالتمس منها » .

ومضى الجواب على هذا النحو وقد سمعت من أبي نصر قال : « الخطأ
الحكيمة هي التي رسمها الوزير ولكن السلطان لم يستمع إليه ولا مفر من أنه
سيذهب إلى غزنة ، فقد هاجه إليها الشوق . وغزنة ليست مطمناً لأحد .
سبحان الله إن عليه أن يذهب إلى هراة وإلى مرو أو إلى نيسابور وعليه أن
يمضي سنة أو سنتين في خراسان عسى أن تهدأ هذه الفتنة الكبيرة . ولقد
عرضت عدة مرات ما كتبه إلى الوزير وما كتبه أيضاً في جراءة ولكن
لم يكن لهذا من فائدة ، وقد قدر الله سبحانه وتعالى للناس مصائرهم لا يحيدون
عنها » .

وفي الحادى عشر من شهر رجب سار السلطان من بست إلى غزنة فبلغها يوم الخميس السابع من شعبان ، ونزل فى الحديقة المحمودية (باغ محمودى) عازما أن يقيم مدة بها ، وقد أخذ فى السمر والشرب وكان منكبا على الشراب ولم يكف عنه لحظة .

وفي يوم الثلاثاء الثانى عشر من شعبان جاء ابن السلطان الأمير مودود رحمة الله عليه من بلخ إلى غزنة ، وكانوا قد كتبوا له من بست ليحجى فجاء فى هذا الوقت ولقى الحفاوة . ويوم الثلاثاء التاسع عشر من شعبان صعد السلطان إلى القلعة ، وقام بضيافته السرهنك أبو على الكوتوال . وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من هذا الشهر عاد السلطان إلى الجوسق المسعودى الجديد (كوشكى نومسعودى) ، وقبل أن يعود إلى الحديقة المحمودية وصل كتاب من الوزير يقول فيه : « إن أعمال الجيش قد أعدت وإن الجند توجهوا لملاقاة العدو فى بسالة ، وإن التراكمة حين علموا أن الأمر سيؤخذ بالجدانصرفوا إلى نسا و فراوه بحيث لم يبق منهم أحد على حدود جرجان و هراة وهذه للنواحي ، وإن الحاجب الكبير قد ذهب إلى مرو واتخذ معسكره خارج المدينة وأرسل شحنة ٥٢٣ إلى كل جهة وصدرت أنسب الأوامر ، ثم يسأل الوزير ماذا يجب عمله بعد ذلك ؟ فأرسل إليه الرد بأنه ما دامت الأمور تجري على هذا النحو فإن على الوزير أن يعود من غور إلى غزنة حتى نراه فيعرض علينا ما قصه فى كتابه ، ولتدبر الأمور على وجه أقوى .

وأقبل شهر رمضان وبدأ السلطان الصيام فى الجوسق الجديد ، وكان أبناؤه الأمراء سعيد ومودود وعبد الرازق رضى الله عنهم يقيمون فى البيت الكبير ويتناوب خدمتهم الحجاب والحشم والندماء ، وأما السلطان فكان يفطر فى قصر الحريم وحده . وفى يوم السبت منتصف رمضان جاء الوزير إلى غزنة

فقابل السلطان ومعه صاحب ديوان الرسائل في جلسة خاصة استمرت حتى صلاة الظهر ، وقد عرض الوزير كل ما جرى فكان لهذا وقع حسن على السلطان وأثنى على الوزير كثيراً ، ثم انصرف الوزير . وفي الغداة خلوا إلى بعضهم مرة أخرى ، وقد قال الوزير : « لو أن السلطان أتى إلى هراة لما بقي في خراسان كلها تركاني واحد ولم تمض مدة طويلة إلى الآن على بقائهم ، ومهما يكن فما دام كبير الحجاب والجيش في المدن فلن يحدث عن التراكمة شر ، ولكن قلبي مضطرب لما يجري في الري ولأبي سهل وذلك الجيش وما معه من أحمال الذهب والنياب وللخصم مثل ابن كاكو ، إذ إنه مالم يذهب السلطان إلى خراسان فليس من الممكن التنبؤ بمصير هؤلاء » .

فقال السلطان : « إنه ان يكون هناك اضطراب فهناك جيش كامل وقواد عظام وأبو سهل من ثقاتنا ولا يأبهون بأمر ابن كاكو أو الديلمة أو الكرد » . فإني قد رأيتهم واختبرتهم ورأيت هذه الأمور بعيني » .

فقال الوزير إن شاء الله يكون الخير والعافية بدولة السلطان .

وفي يوم الإثنين السابع عشر من رمضان جاء السهسالار على أيضاً من بلخ ومعه غلبانه وخاصته خفافاً ، وذلك إطاعة للأمر العالي الذي صدر إليه بأن يمنح الجند إجازة ، وأن تأتي الجريدة المعول عليها في تدبير كل شيء . وقد قابل السلطان فاحتفى به ثم انصرف إلى بيته .

ويوم الإثنين كان عيد الفطر ، وكان السلطان قد أمر قبل أسبوع بإعداد العدة لهذا اليوم فعبى الجيش على وجه أقر الشيوخ بأنهم لا يذكرون في أي وقت تعبئة على هذا النحو ، وكان الفرسان كثيرين في وادي شابهار ، وجلس

السلطان على صفة كبيرة في السراى الجديدة على تخت من الخشب ، فإن ٥٢٤ التخت الذهبي لم يكن قد صنع بعد ، وأخذ غلبان السراى يفدون على الميدان الجديد ويقفون ، حتى كان الميدان ووادى شاهبار كله كحديقة الأزهار. ثم ركب السلطان وجاء إلى القلعة الخضراء في الميدان ووادى شاهبار ، وصلى صلاة العيد ، ثم جلس إلى المائدة في قصر الربيع هذا الواقع على يمين الصفة ، وجلس على مائدته الأمراء والوزير والسيسالار وأمراء الديلم وعظماء البلاط ، وجلس الآخرون ، على موائد أخرى ، وأنشد الشعراء الشعر وتلاهم المطربون ، ودارت الكؤوس بحيث انصرفوا من على الموائد وهم سكارى . وركب السلطان وجاء إلى البيت الذهبي (خانه زرین) وصعد إلى السطح حيث أعدوا مجلساً طيباً للشراب .

وفي اليوم التالي لم يجلس للاستقبال ، وجلس في اليوم الثالث وجاء من مرو غلبان نوشتكين الخادم الخاص مع مقدم اسمه خمارتسكين وكتخدا نوشتكين واسمه محمودك الكاتب ونفر من رجال الحاشية وكلهم في أبهى حلة وأتم زينة ، وقد مثلوا أمام السلطان فأكرم وفادتهم وأمر بإنزال غلبان الحرم في مكان منعزل في الجوسق المحمودى القديم وبأن يعنى بأمرهم . وفي الغداة أمر بإحضارهم عنده وحدهم ، فحجز ثلاثين غلاماً من أفضلهم ، ومنح الآخرين لأبنائه الأربعة سعيد ومودود ومجدود وعبد الرازق ، وأمر بأن يكون لهذا الأخير ضعف ما لإخوته لأن لديهم الكثيرين من الغلبان وهو لا يملك منهم أحداً ، وكان يريد أن يمنحهم ولاية .

ثم إن السلطان ذهب في شوال إلى مصطاد زه (شكارزه) مع فوج من غلبان السراى والجند وصحبه الندماء والمطربون وجرى الصيد في ظروف مواتية ، وأقيم مجلس الأانس عند كمين الصيادين ودارت فيه كؤوس الشراب .

وقد حضرت رحلة الصيد هذه ، ولم يكن الخواجة أبو نصر حاضرا . وقد أتى الخواجة بكثير من الصيد إلى غزنة . وقد سحب السلطان في الرحلة أولياؤه وحشمه وأبنائه رضي الله عنهم أجمعين . وفي يوم الأربعاء الرابع والعشرين من هذا الشهر رجع السلطان ، إلى حديقة صد هزاره ، وفي الغداة أمر بإعادة النظر واستقصاء ما بقى من أموال وضياع نوشتكين الخادم الخاص بحضور الكتبخدا وكتابه محمودك وغيرهما من الوكلاء ، كما أمر بإبقاء الأموال ٥٢٥ الخاصة بمدفنه على ماهى عليه ، ووهب الأمير عبد الرازق ما كان لنوشتكين من أدوات السفر من الخيمة والخرگاه والخيل والجمال العديدة مع ثلاث قرى واحدة في زاوستان واثنين في پرشور ، وحفظوا كل ما بقى من خاصة أمواله ، وأعطيت سرايه إلى ابن السلطان مردانشاه مع كثير من الأبسطة وعدة قطع من الفضة . وكان نوشتكين قد ترك من بعده ما لا يعد ولا يحصى من أصناف النعم . وأمر السلطان بإعطاء ولاية مرو التي كانت لنوشتكين إلى سالار غلمان السراى الحاجب بكتغدى ، وكتب بذلك منشور . وأرسل السلطان كتبخداه أبا على الزوزنى إلى هناك .

وفي هذا الأسبوع فوَّتح السالار بكتغدى في أمر زواج ابنته بابن السلطان الأمير مردانشاه وكانت الرسالة على لسان أبي نصر مشكان . ورد بكتغدى موجزا بأنه لا طاقة له على هذا التشریف وأنى يكون له ذلك ؟ وذكر له أبو النصر كل ما ينبغى الكلام فيه ، واتفقا على أن يعين السلطان موعد العقد . وكان السالار بكتغدى يعرف ماذا ينبغى عمله وما يلزم لهذا فبدأ فوراً بتمهيد الأمور . وبعد هذا بسنة أقيم حفل عقد القران ولم أر له مثيلا في هذا القصر . لم يبق أحد ، سيد أو خادم ، وضيع أو شريف ، قائد أو حاجب ، زمار أو طبال ، إلا ونال صلة من السالار بكتغدى منها ما بين إثني عشر ألف وألف درهم (إلى خمسة آلاف أو

ثلاثة آلاف أو ألفين أو ألف) ، ومنها ما كان خمسمائة وثلاثمائة ومائة ، ولم تكن صلة أقل من مائة . وجيء بالأمير مرد انشاه إلى قصر السالار بكتغدى . حيث تمت مراسيم العقد ، ونثرت الدنانير والدراهم على الناس ، وألبس الأمير مرد انشاه قباء من الحرير الأسود الموشى باللؤلؤ وقلنسوة ذات أربعة أركان محلاة بالذهب ومرصعة بالجواهر وتمنطق بحزام مكلل بالجواهر . وأعطاه بكتغدى حصانا كريما غطيت حوافره بالذهب ، وعليه سرج منطى بالذهب ، ولجام مزين بالجواهر . وعشرة غلمان من الترك مع خيولهم وما ينبغي لهم من أدوات الخدمة الساطانية . وعشرة آلاف دينار ومائة ثوب فاخر من كل لون . فلما فرغوا من عقد القران أحضروا الأمير مراد نشاء عند السلطان ليراه وقصوا عليه ماجرى وما عمل ، ثم عاد الأمير إلى والدته . وكان الأمير مرد انشاه حدثا لا يتجاوز عمره الثالثة عشرة . وبعد انقضاء فترة زفت بنت القائد بكتغدى إلى الأمير ، وكان ذلك في أوائل سنة ثلاثين وأربعمائة (١٠٣٨ - ١٠٣٩) ، وكانت صغيرة ، وقد أجلسا معا ثم زفا في حفل لم يشاهد مثله أحد ، فإن السلطان قد أمر بإقامة حفل رائع لأنه كان يحب ابنه هذا كثيرا ٥٢٦ وكانت لأمه مكانة . وقد سمعت من أبي منصور المستوفى يقول إنه قضى عدة أيام مع جماعة من تلاميذه لكتابة قائمة بجهاز العروس ، كان ألف ألف درهم عشر مرات . وقد رأيت (أبو الفضل) قائمة الجهاز هذه بعد وفاة كل من السلطان مسعود والأمير مرد انشاه رضى الله عنهما ، فتسلكنى العجب إذ كيف يقدر رجل على إعداد هذا كله ، وإنى لذا كر بعض ما فيها : كان بها أربعة تيجان ذهبية مرصعة بالجواهر ، وعشرون طبقة من ذهب فيها فواكه من مختلف أنواع الجواهر ، وعشرون صندوقا للمغازل من ذهب مرصع بالجواهر ومكنسة من الذهب نظمت أليافها باللؤلؤ . كان هذا من جملة ما رأيت وقد ذكرت واحدا من ألف مما شاهدته ، ففي هذا ما يكفي لبيان ما كانت عليه سائر أدوات الجهاز .

ذكر ما كان من الجفوة بين السلطان مسعود رضى الله عنه وبغراخان، وإيفاد أبي صادق التبانى برسالة إلى كاشغرو طراز تركستان لإزالة هذه الجفوة بوساطة أرسلان خان

ذكرت فى تاريخ السلطان الماضى ، رضى الله عنه ، مجىء بغراخان ، أيام أبيه وكان لقبه حينئذ بغاتكين ، جاء إلى بلخ ليذهب منها إلى غزنة بحكم أنه صهر السلطان (داهاد) ، فقد كان سيتزوج من الحرة زينب ابنة السلطان محمود ، وذلك ليطلب معاونتنا له ليستولى على بخارى وسمرقند من على تكين ، كما كان يأمل منا . وأجيب بأنه : ينبغى أن تعود وتعمل على جمع الكلمة فإننا قاصدون سومات ، فحين نفرغ من أمرها وتكون قد استوليت على خانية تركستان فإننا ندبر أمر ما نطلب ، ، ثم ذكرت عودة بغاتكين من بلخ وفى نفسه شيء من الوحشة . وعودتنا بعد ذلك من الغزو ، واستيلاءه على الخانية ومجيئه لقتال على تكين حين قضى على أخيه طغان خان ، وإرسال الفقيه أبى بكر الحصيرى إلى مرو ، والحروب التى دارت والصلح الذى انتهت إليه ، فإن أرسلان خان ٥٢٧ لم يرد أن يكون أخوه بغراخان مجاورا لنا ، والياس الذى استولى على هذا من بعد ذلك ، بما جعلناه فى باب وحده من هذا التصنيف

ولم يتيسر بعد ذلك إرسال الحرة زينب فإن السلطان محمود مات ، واعتلى مسعود العرش ، وتوفى قدر خان بعد ذلك بسنة واحدة ، خلفه ولى عهده أرسلان خان على تركستان ؛ فمنح أخاه بغراخان ولاية طراز واسبيجاب ونواحها ومنحه هذا اللقب ، وكانت الصلة بينهما حسنة فى الظاهر سيئة فى الباطن وقد أوفد السلطان مسعود ، كما بينت من قبل ، كلا من أبى القاسم الحصيرى والقاضى أبى طاهر التبانى ، قريب هذا الإمام أبى صادق التبانى ، فى سفارة إلى أرسلان خان وبغراخان لتجديد العهد والميثاق ، فذهبا وبقيما فى تركستان

زمننا طويلا حتى استقامت الأحوال وعادا ظافرين ومعهما الخاتون بنت قدرخان ، التي كانت خطيبة السلطان مسعود ، وخاتون أخرى هي بنت أرسلان خان وكانت مخطوبة للأمير مودود ، وقد ماتت هذه في الطريق ، وكذلك مات القاضي التباني في پروان ، وجاء أبو القاسم الحصيري مع الخدم والمهد إلى غزنة حيث احتفل بزواج السلطان من عروسه . وقد بعث بغراخان مع رسولينا حاجبا مع أحد العلماء في سفارة إلينا ، طالبا إرسال الحرة زينب ، وكان لأرسلان خان كلام في هذا الشأن ، وعزموا على إيفاد العروس ولكن بلغ مسامع السلطان أن بغراخان يتحدث حديثا لا يليق في أمر الميراث المستحق لزينب بوصفها شقيقة السلطان ، فغضب غضبا شديدا ، وأعاد الرسول بخفي حنين مع وعود مسوالة وأجل لم يسم ، ثم بعث إلى أرسلان بكتاب يشكو فيه ، وتحدث إليه عن هذا الطمع الدنيء . وعاتب أرسلان خان أخاه على ذلك وكيف قال هذا العبث عن غير روية . فأغضب هذا بغراخان وثار وأفلت منه زمام نفسه وأصبح عدوا سافرا لأخيه ولجميعا . وبلغ الأمر إلى حد أنه حين دخل السلاجقة خراسان وهزموا بكتغدي وبلغ هذا الخبر تركسان قال المنهون إن بغراخان أظهر شماعة وفرح ، من جهة لأنه كان عدوا لنا ومن جهة أخرى لأن طغرل كان صديقه ومن صنائعه ، فأغرى السلاجقة سرا وقوى عزاءهم ٥٢٨ وقال يجب أن تحاربوا ، ووعدهم بأن يمدهم بما يحتاجون من رجال من الخانيين على شاكلة التركمان . وما أن علم السلطان بهذه الأخبار حتى علاه الهم فإنهم لم تكن أمرا هينا . وحدث بعد ذلك أن أمسكوا إسكافيا وهو يعبر آموى ، على نحو يثير الريبة ، فلما استجوبوه ظهر أنه جاسوس بغراخان ، وأنه قاصد إلى التركمان ومعه منه كتاب إليهم ، وقد خبأه ، فبعثوا به إلى الدركاه ، وقد اختلى به أستاذي أبو نصر واستجوبه فاعترف ، وأخرجت أدوات الإسكافية والمخراز من حقيبته ، وكانوا قد جوفوا الخشب وأخفوا به رسالة صغيرة ، ثم أحكموا

وضعها ، وملأوا الفراغ بنشارة الخشب ، ولوثوا قطعة الخشب بحيث يصعب تمييزها ، وقد اعترف الرجل بأن هذه التدابير من صنع بغراخان نفسه .

وقد أمر أبو نصر يا جلاس الرجل في مكان خفى . وأخذ الرسالة إلى السلطان ، وكانت ممهورة وهى موجهة إلى طغرل وداود وبيغو واليناليين ، وفيها إغراء لهم بنا وتهوين أمرنا في نظرهم ، ويقول لهم أصمدوا وربطوا حتى نرسل لكم أى عدد من الرجال تريدون . وقد غضب السلطان حين عرف هذا وأمر بكتابة رسالة إلى أرسلان خان يذهب بها فارس مسرع ، وقال ليس من الخير أن تجرى الأمور على هذا النحو وأن يرضى بها الخان . فقال أبو نصر « أطل الله حياة مولاي إن الترك لا يحبوننا أبدا ولقد سمعت السلطان محمود يقول : « إن الترك يتقربون منا بحكم الضرورة وإنهم كلها أوتوا القوة لا يبقون علينا ولا يجاملون » والصواب عندي أن نبعث هذا الجاسوس إلى الهند ليعمل في مهنته بلاهور وتودع هذه الرسائل ممهورة في حرز ، ثم نبعث رسولا إلى أرسلان خان وبغراخان بحيث نستعين في رقة بأرسلان خان لمنع هذه التدابير حتى لا يقدم بغراخان على تدبير شيء جديد . »

فقال السلطان هذا جد الصواب . ومهر الرسالة بخاتمه ثم حفظت ، وأعطى الجاسوس مائة دينار . وقال له أستاذى لقد حفظت لك حياتك فاذهب إلى لاهور واشتغل بتصليح الأحذية . وسيق الرجل إلى لاهور ثم إن السلطان والوزير وأبا نصر مشكان قدخلوا إلى أنفسهم وتفقوا على أن يكون الإمام أبو صادق التبانى صاحب هذه السفارة ، لأنه كان من أقارب أبي طاهر التبانى ، فناداه السلطان وأبدى عطفه عليه وقال له « قم بهذه السفارة ، بما يحقق المقصود منها ، وحين تعود سأعطيك قضاء نيسابور » . فاستعد أبو صادق وذهب من غزنة ومعه أمتعة تربو قيمتها على عشرة آلاف دينار ، وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع من ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (١٠٣٧) ، وظل يعاني أدام ٥٢٩

هذه المهمة ويجادل عنها ، حتى قال عنه بغراخان إنه يذكرنا بمناظرات وجدل أبي حنيفة ، وقد أقرّوا جميعاً أنهم لم يروا مثله أحداً في الصدق والأمانة . ونجح . بعد مفاوضات طويلة في إبرام العهد مع أرسلان خان وأخيه ، وأقنعهما بوجوب إيثار الود مع السلطان . ونقل المنهون هذه الأخبار ، وأطلع عليها السلطان . فقال مرات للأستاذ الرئيس ولأبي نصر : « لم يكن حب أبي لهذا الرجل خطأ » وعاد هذا الإمام وفي الطريق أمسكه والى جرم^(١) وأخذ كل ما معه فإن ولاية الجبال كانوا قد طغوا ، ولكنه استطاع بحيلته أن يفلت من هؤلاء اللصوص ، وكان يخشى على حياته منهم ، فسار إلى غزنة وبلغها في سنة ثلاثين وأربعمائة (١٠٣٨) قبل عزمنا على الارتحال منها بعشرة أيام تماماً ، ولقي من عطف السلطان ما يتجاوز حد الوصف ، وقد قال له : « إن كل ما اغتصبه منك اللصوص سيرد إليك بل وأكثر منه وهذا فوق ما وعدناك به من قضاء نيسابور » .

وذهب السلطان إلى الصيد ، قبل صلاة الجمعة ، الحادى عشر من ذى القعدة . وفي صحبته أستاذه والحاشية كلها وكان ذلك في صحراء رخا مرغ ، وكان اليوم موفقاً والصيد كثيراً ومن كل صنف ، وعاد السلطان إلى الجوسق الجديد يوم الأحد الحادى والعشرين من هذا الشهر . ويوم الأحد الرابع من ذى الحجة جالس السلطان للهريجان ، حتى جىء بالهدايا التى أعدت له من جميع أرجاء مملكته . وقد قدّم له مواليه وحاشيته هدايا جمّة وقال الشعراء الشعر وأنعم عليهم بالصلوات فقد كان هذا السلطان محباً للشعر ويجزل فيه العطاء . ولم أكتب ما أنشد من القصائد ، فإذا اعترض أحد بقوله لماذا ذكرت ما قيل من شعر فى السلطان محمود رضى الله عنه ولم تذكر ما قيل فى السلطان مسعود رضى الله عنه ؟ فجوابى

(١) مدينة من نواحى بدخشان .

أن هذه الأيام أكثر قربا منا ، ولو ذكرت هذه القصائد كلها لطال ذكرها ،
ومعروف على أي نمط ينظمون الشعر في الأعياد . وبعد أن استمع السلطان
للقصائد انصرف إلى الشراب واللهو وقضى يوما سعيدا . وكان السبت عيد
الأضحى فاحتفل به احتفالا رائعا وجرى استعراض للجيش من رجالة وخيالة
من كانوا في الدركاء وأقيمت الزينات التي تجاوزت الحد ، ذلك أن رسل
أرسلان خان وبغراخان ولشكرخان وإلى سكرخان (٤) ٥٣٠ كانوا قد وفدوا
على السلطان ، ومدت الموائد الكبيرة ودارت الكؤوس . وفي الغداة خلع
على الأمير مودود خلعة لا نظير لها فيها الكوس والأعلام والدببة ، وقد
منح ولاية بلخ وأعطى المنشور . ثم رجع إلى قصره حيث وفد عليه بأمر
السلطان جميع الكبراء والموالى والحشم ، وكان ينزل سراى أرسلان الجاذب ،
وقد أدوا له فروض الطاعة والولاء على أحسن وجه .

وفي اليوم الثالث من العيد استبقى السلطان ، بعد انقضاء الاستقبال كلا
من الوزير والسپهسالار والعارض وأستاذى والحاجبين بكتغدى وأبى النصر ،
وجرى الحديث في سفر السلطان وإلى أي ناحية يكون . فقالوا فليفضل
مولانا بأن يحدثنا برأيه ، فإن الصواب هو ما يراه وذلك حتى نقول ما نعرف .
فقال السلطان : « إني نذرت بعد المحنة التي عانيت في بست هذا العام بعد حادثة
الماء ، أنه إذا منّ الله على بالشفاء فإني أسير إلى الهند وأفتح قلعة هانسي لأنني
تراجعت عنها قبل بلوغ الغاية مضطرا لمرضى ، ولذلك يجب على أن أفى بنذري
فقد بقيت القصة في قلبي والسفر قريب ، ولذلك فقد عزمتم على أن أرسل
ولدى مودود إلى بلخ وأن يذهب معه الوزير والسپهسالار ومعهم جيش كامل
الآهبة ، وأن يذهب مباشى الحاجب إلى مرو مع جيش بحيث لا يجرؤ التركمان
على دخول البلاد ، ثم إن سورى في نيسابور مع فوج من الجند ، وفي طوس
وقرستان وهرارة والمدن الأخرى شحنات كاملة ، فلن تكون فتنة في خراسان .

فإذا حدث شيء فأنتم قريب بعضكم من بعض وفي وسعكم تدارك الأمر على عجل ، وقد هدا أبناء علي تكين باتفاقنا معهم ، وإن عبد السلام عندهم يعتقد المواثيق ، ولم يبق لابن كاكو من قوة ولا يخشى شيء من رجاله كما كتب أبو سهل الحمدوى ، والتمراكة لا يعتمدون على قوله فإن يكون هناك خلل . وإن أقوم بعمل آخر بعد الوفاء بنذرى وفتح قلعة هانسى ، ولكنى سأعود بحيث أبلغ نيسابور قبل النوروز . لقد عزمنا على هذا ، وإنا لا محالة فاعلون . فقولوا الآن ما يعن لكم ٥٣١ فى هذا دون محابة . فالتفت الوزير إلى الحضور وقال لهم ما رأيكم فيما يقول السلطان ؟ فقال السهيسالار : « إني وأضرابى من حملة السيف نعمل على تحقيق أوامر السلطان ونتجه إلى حيث يوجهنا » ونفتديه بأرواحنا ، وإنما يعرف الوزير ما فى هذه الأمور من المثالب والمزايا ، فإنها من مهام الملك ولا قدرة لنا على إدراك ما يعرف ويرى من قراءاته وبما سمع ، فهذه صناعة الوزراء وليست صناعتنا . والتفت إلى الحاجب وقال : « وأنت أتقول بما قلت ؟ قال أقول به . فقال الوزير للعارض وأبى نصر لقد ألقى على السهيسالار والحاجب تبعه هذا الأمر وتنصلا منه فما رأيكما ؟ وكان العارض رجلا قويا فقال : « معلوم أن صناعتى هى العرض ولا أستطيع أن أبتعد عن دائرتها وهى من الجسامة بحيث لا أستطيع أن أتوجه إلى غيرها . » وقال أبو نصر مشكان : « إن هذا العمل كما يبدو هو من اختصاص الأستاذ الرئيس ولا بد من التكلم بصراحة كما يأمر السلطان وسأقول كل ما أعرف وقسما بنعمة مولاي على فاني لن أداهن . » فقال الوزير : « إني لا أوافق مطلقا على سير السلطان للهند وإنما الصواب أن يذهب إلى بلخ ويقيم بها إلى أن يتيسر له التوجه إلى مرو حتى تعود خراسان إلينا ، وتضبط الأمور فى الرى . والجبال ، ويستطيع بهذا أن يننى بالنذر ، وإذا كان المقصود فتح هانسى فإن سالار الغزاة وجيش لاهور وحاجبا يعينه الدركاه يستطيعون القيام بهذا الفتح »

وبهذا يتحقق المراد في هانسي وتظل خراسان في أيدينا ، وإذا لم يتوجه السلطان إلى خراسان وظفر التركان لا بناحية بل بقرية منها فربوها كما هي عادتهم ، وأجروا بها المثلة والقتل والحرق فإن عشر غزوات من مثل هانسي لا تساوي شيئا بالنسبة لهذا ، فالذهاب إلى آمل والإياب منها قد سبب هذا البلاء ، وهذا الزحف إلى الهند أدهى وأمر ، هذا ما عندي قد بينته وأبرأت منه ذمتي والرأي للسلطان . فقال أستاذي : « وأنا على هذا الرأي أيضا وأضيف إليه أن السلطان لو يشاء يعين في السر رجالا ينبشون وسط الجند والرعية وضعيهم وشريفهم ليسألوا هل من الصواب أن يسير السلطان إلى الهند والحال في خراسان وخوارزم والري والجلال على هذا النحو من الاضطراب أم ليس هذا من الصواب في شيء ؟ وذلك ليقف مولاي على ٥٣٢ رأي الناس ، إني لعلى يقين من أنهم جميعا سيقولون إنه من خطال الرأي ، وإن العبيد يبالغون بقولهم إن السلطان قد أمر وإنه صاحب الأمر . »

فقال السلطان : « إني على ثقة من صداقتكم وإخلاص نصيحتكم ، وتوجهي إلى هانسي هو وفاء بالنذر الذي نذرت ، وسأوفيه بنفسى ولو حدث في خراسان اضطراب كثير فإنه يهون على لآني أكون قد وفيت بنذري وأرضيت الله عز وجل وهو سبحانه وتعالى يسدد خطانا . » فقال الوزير : « مادام الأمر كذلك فإننا سنبدل أقصى ما في جهدنا آملين ألا تكون فتنة في هذه الغيبة ، وعادوا ، وكذلك حيا بقية القوم وانصرفوا . ثم إن الوزير وصحبه بعد عودتهم جلسوا في خلوة وقالوا إن هذا السلطان مستبد استبدادا يفوق الحد ولا يمكن التصريح له بأكثر مما قلنا ، ومن المحال أن نتحدث مرة أخرى في هذا خروج على الأدب وسوف يقع ما قدره الله تعالى ، ثم تفرقوا . »

وفي يوم الخميس منتصف ذي الحجة ألبس السهمسار على الخلعة وكانت

غاية في الأبهة ، وجاء إلى الحضرة وقدم فروض الطاعة والولاء وقد أتى عليه السلطان وأسبغ عليه من عطفه وقال له إن اعتماد ولدنا ووزيرنا وجندنا قاصر عليك . وسيجيئ الوزير معك ويكون خليفة أوله تدير الأمور وأموال الجند . وأما قيادتهم والحرب ففي يديك ، فارح أوامرهم ، ويجب أن تتحد قواكم وقلوبكم وآراؤكم حتى لا تحدث فتنة في غيبتى . فقبل السهسالار الأرض وقال : « إن لي روحا واحدا أضحيه في سبيل أوامر مولاي ، ثم عاد . وفي يوم الأحد^(١) السابع عشر من هذا الشهر خلع على الوزير خلعة فاخرة للغاية كما هو الرسم بل وأكثر مما يفرضه الرسم ، فإنه كان يرعى خاطره في كل أمر وذلك لأنه قد تقرر أن يكون عليه مدار الأمور في غيبة السلطان . وحين مثل في الحضرة قال له : « بورك في الخلعة ، وإن اعتمادنا في رحلتنا هذه إلى الهند لمو بعد فضل الله تعالى على الوزير ، إنه نذر وسنوفى به ، وقد أودعناه أمر ولدنا والسهسالار وكافة الحشم الذين سيبقون هناك وعليهم جميعا امتثال أمره » : فقال الوزير : « إنى عبد مطيع وسأقوم بشروط العبودية » ، ثم عاد إلى بيته حيث أدرا له حقه من التكريم .

ويوم الإثنين التاسع عشر من ذى الحجة ركب السلطان وخرج مبكرا إلى ٥٣٣ باغ فيروزي حيث ركب ومر الجيش أمامه فوجا فوجا ، وبعد ذلك وقبيل صلاة الظهر ترجل الثلاثة الكبار ، ابن السلطان والوزير والسهسالار ، وقدموا فروض الولاء ثم ذهبوا ، وقد عين السلطان الأستاذ أبا نصر النوكي ، أستاذي ، ليكون مع الوزير قائما بوظيفة الإنهاء . ويوم الخميس لثمانية أيام بقين من ذى الحجة سار السلطان من غزنة عن طريق كابل قاصدا الهند ليغزو قلعة هانسي ، وقد أقام في كابل عشرة أيام .

(١) نسخة غنى — فياض تقول الثلاثاء ، ونسخة نفيسي تقول الأحد (٦٤٨ ولاحقة ٣) ، وأخذنا من نفيسي لهجته .

تاريخ سنة تسع وعشرين وأربعمائة

١٠٣٧ — ١٠٣٨

كانت غرة محرم يوم السبت . وقد غادر السلطان كابل يوم الخميس السادس من هذا الشهر . ويوم السبت الثامن منه جاءت الأنباء من خراسان والرى بوكانت هامة كلها ، ولكن السلطان لم يلتفت إليها ، وقال لأستاذى اكتب رسالة للوزير وضع في طيها هذه الكتب ليقف عليها ويتخذ الواجب في كل منها فليس لنا طاقة على التفكير فيها . ويوم الثلاثاء لخمسة أيام بقين من المحرم بلغ السلطان جيلم^(١) ونزل على شاطئ نهر قرب دينار كونه ، وقد أصيب بعلة فلبث هناك خمسة عشر يوما لم يستقبل إبانها أحدا وتاب عن الشراب وأمر بسكب ما في خزان الشراب في نهر جيلم ، وحطموا آلات الملاحى والطرب ، ولم يكن أحد يجرؤ على أن يصرح بالشراب لأنه كان قد عين العسكر^(٢) والمحتسبين لمراعاة منعه وشدد فيه . وأرسل أبا سعيد المشرف في مهمة إلى جنكى الهندى^(٣) فى قلعة ولم يقف أحد على هذا الأمر . وكنا لا نزال فى جيلم حين وصلت أنباء عن الراى^(٤) الأعظم وراى كشمير وكنا هناك حين علمنا نبأ وفاة راى كشمير . ويوم السبت الرابع عشر من صفر تحسنت صحة السلطان فسمح لهم

(١) جاء فى حاشية نسخة يب : جيلم نهر كبير بين يشاور ولاهور ويقطع ولاية كشمير وهو أحد انهار البنجاب الخمسة الكبيرة . غنى - فياض ص ٥٣٣ هامش ١ .

(٢) النص المطبوع ، غنى - فياض ٥٣٣ ونقيسى ٦٤٩ يذكر كلمة جنباشيان ، وقال غنى - فياض إن نسخة يب ذكرت جاووشان بدلا منها (هامش ٣) ، وقال نقيسى إن نسخة ط ذكرت جاووشان كذلك (هامش ٤) .

(٣) اعلمه يقصد جنكى الهندى الذى مر ذكره فى ص ١٥٢ . غنى - فياض ص ٥٣٣

هامش ٤ .

(٤) الراى الحاكم .

بالاستقبال وغادر جيلم يوم الثلاثاء السابع عشر من هذا الشهر . وفي الأربعاء التاسع من ربيع الأول بلغ قلعة هانسي ، وعسكر الجند عند سفح القلعة وحاصروها ، وجرت الحرب كل يوم وكانت حربا لم ير أشد هولا منها ، فإن جند القلعة دافعوا عنها دفاعا مجيدا ولم يقصروا ، وأبلى الجيش المنصور وخاصة فرقة غلمان السراى بلاء ٥٣٤ حسنا . وكانت القلعة كالعروس البكر والكنهم استطاعوا نقب جدارها في خمسة مواضع ، ثم هدم الجدار كله ، واستولوا على القلعة بالسيف يوم السبت لعشرة أيام بقين من شهر ربيع الأول وقتلوا البراهمة مع المقاتلة وسبوا نساءهم وأولادهم وأصاب الجيش ما كان لهم من الأمتعة . وهذه القلعة تسمى في الهند بالقلعة العذراء ، لأن أحدا لم يستطع فتحها في أى زمان ، وعاد من هناك يوم السبت لأربعة أيام بقين من هذا الشهر ، وبلغ غزنة يوم الأحد الثالث من جمادى الأولى وخرج من مضيق سكاوند ، وتراكم الثلج في الصحراء بحيث لم يعرف أحد مدها ، وكانوا قد كتبوا للكوتوال أبى على حق يبعث عمال السخرة ليزيلوا الثلج من الطريق ، وقد فعلوا ولو لم يزيلوا الثلج لما استطاع أحد المسير ، وقد بدا كأنه شارع يمتد من رباط محمد سلطان إلى المدينة ، وفي هذه الأيام الثلاثة التى قربنا من المدينة خلالها كانت الثلوج تهطل بغير انقطاع . وقد خرج لاستقبال السلطان على مسافة مزاين الأمير سعيد والكوتوال والرئيس وغيرهم . ونزل السلطان في الجوسق المحمودى القديم ، وأقام به أسبوعا وذلك إلى أن فرشوا الجوسق الجديد وزينوه فانتقل إليه . وعاد إلى غزنة وكذلك الأمتعة والأعزاء والأمراء الذين كانوا في قلاع سبيخ . وطوال خدمتى لهذه الأسيرة الكريمة لم أشاهد شتاء قارسا كشتاء هذا العام في غزنة . والآن قد ضعفت فقد أمضيت عشرين سنة هنا ، وأرجو أن تستعيد هذه المدينة مجددا القديم يمين السلطان المعظم إبراهيم بن ناصر دين الله خلد الله ساططه إن شاء الله . ويوم الثلاثاء لأربعة أيام بقين .

من جمادى الأولى جلس الأمير لاحتفال النوروز . وقد أذوا هذا اليوم حقه ،
وقدم الموالى الهدايا فبادلهم السلطان إياها اتباعا للرسم . ودار الشراب والطرب
فوق ما يتصور لأن السلطان لم يكن يتناوله منذ توبة جيلم حتى اليوم .

ويوم الثلاثاء الثالث من جمادى الثانى جاءت الكتب فى غاية من الخطورة
من خراسان والرى ، تقول إن التركان وفدوا خلال الشتاء إبان غيبة السلطان
وقد نهبوا طالقان وفرياب ، وألحقوا أضرارا بأماكن أخرى ، لأنه كان من
العسير على جيوش السلطان المنصورة أن تسير فى هذا الموسم . وقد نجم
عن غزو السلطان لقلعة هانسى خلل كثير لأحد له ، وقد حوصرت الرى نفسها .
وقد ندم السلطان ٥٣٥ رضى الله عنه على ذهابه إلى الهند ولكن لات حين
مناص ، ومن ذا الذى يغالب القدر . وأجاب السلطان بأنه لا بد من التجلد
فإن رايته العالية سوف تتحرك حين يتحسن الجو . ويوم السبت منتصف هذا
الشهر وفد على غزنة من بلخ الأمير مودود والسپهسالار على ، وبقى الوزير
هناك بأمر السلطان حيث اقنضت الضرورة بقاءه . ويوم الأربعاء الثالث
والعشرين من رجب ارتدى الأمير عبد الرازق خلعة إمارة پرشور . وقد أدى
مراسم الولاء ، وأعطى غلاماه السواد الذى كان شعار الحجابة ، وعهد إلى سهل
بن عبد الملك بالكتخدائية ومنح الخلعة ، وكان ذا كفاءة فائقة ، وهو من أبناء
خدم أحمد بن ميكائيل ، وكان مرؤوسا فترة طويلة لأبى سهل الحمدوى . وقد
سار هذا الأمير يوم الثلاثاء التاسع من هذا الشهر إلى پرشور فى أبهة عظيمة
ومعه مائتا غلام .

وفى اليوم الثانى جاء كتاب من نيسابور يقول إن أباسهل الحمدوى قد
بلغها فإنه لم يستطع البقاء فى الرى ، وذلك لأن تاش فراش قد قتل وقبضوا
على كثير من الأعيان وقد بقى محاصرا فى القلعة فترة طويلة حتى انتهز الفرصة

ولاذ بالفرار وقد استولى التركان على الري وسأذكر هذه الأحوال في باب خاص ، فقد قلت إنى سأفرد للري والجبال وما فيهما من نواذر وعجائب فصلا خاصا .

وحين بلغ أبو سهل الحمدوى نيسابور كان بها كبير الحجاب سباشى وكان التركان في مرو : وكان كل من الفريقين يستعد للحرب ويحذر كل منهما الآخر ، وكان السلطان يعتبر الحاجب مقصرا تقصيرا جسيما ، وكان على لسانه دائما « إنه لا يليق للقيام بمثل هذه المهمة بيد أنه معجب بإمارة خراسان ولا بد من استدعائه وإيفاد قائد آخر ليبادر بالحرب ، وكان هذا نتيجة إطلاعه على الرسائل التى كانت تصله تباعا من سعيد الصراف كتحدا الجيش وانهيه والتى يقول فيها إن الحاجب الذى لم يكن معتادا على الشراب قد انكب عليه منذ سنة ولا ينتفع عنه ويلهو مع الجوارى الترك الجميلات ويختلى بهن ، وهو ينتقل بالجند فى كل وقت ، ويحمل جماله التى تزيد على الألف الغلة من بلد تباع فيه السبعة أمان منها بدرهم إلى حيث يباع المن الواحد من الخبز بدرهم ثم يسوق إليه الجند ويقول إنى أحتاط فيبيع ثمة الغلة للجيش ويحصل على أرباح باهظة ومكذا تدخل جيبه . ٥٣٦ أموال الجند . وهذا لاشك يودى إلى ضيق صدر السلطان ، ولم يكن الأمر كذلك بل قيل إن سباشى يحتاط كل الحيلة بحيث لقيه التركان بسباشى الساحر وحين تجاوز استبطاء السلطان له وعتابه عليه الحد اضطر سباشى إلى المبادرة بالحرب كما سأذكر . والله سبحانه وتعالى لم يطاع أحدا على الغيب وكان القضاء قد حكم بضياح خراسان من يدنا ، وأن يبلغ شأن هؤلاء القوم المسكاة التى باخوها ، ولم يكن بد من فشل كل تدبير ، ومن المحال مغالبة القدر . ثم إن أبا سهل الموكل بالستار ، معتمد الحاجب سباشى ، جاء إلى غزوة عن طريق غور ليكث ثلاثة أيام ، وكان ذلك يوم الأربعاء الثانى عشر من شهر رجب ، وقد تسلم منه أستاذى رسالة فور وصوله وحملاها للسلطان فعرضها عليه ، وقد جاء

فيها: « لقد أوغروا صدر السلطان من كثرة ما افتروه على كذبا، ولقد امتثلت لأوامر السلطان حتى الآن امتثال الخادم الأمين وحين جاءني أمر مولاي بوجوب المبادرة بالحرب هممت بالزحف من نيسابور إلى سرخس للقتال ، ولكن أباسهل الحمدوي وسوري صاحب الديوان قالا ليس هذا الزحف من الصواب ويجب المحافظة على الذخيرة والإفادة من وجودها ، فإنه إذا ما آل الأمر إلى السيف فمن الممكن أن تنفذ ونحن لاندري مصير الآهـور . وهذا ما رآه القاضي صاعد وشيوخ نيسابور ، فخشيت الملامة فطلبت منهم محضرا ، فاجتمعوا ووقعوا على المحضر وإني مرسله لمولاي ليقف عاياه رأيه العالى وذلك فى انتظار الجواب ، الجواب القاطع فى أمر الحرب ، أشنها أو أتريث حتى أعمل بما يراه مولاي ، وها هو معتمدى ، أبو سهل ، قد أرسلته فى هذا الأمر وأوعزت إليه أن يسير إلى غزنة عن طريق غور فى خمسة عشر يوما ، وأن يمكث ثلاثة أيام ويعود إلى نيسابور فى خمسة عشر يوما ، وحين يعود ومعه أمر السلطان إلى فإنى سأقوم بالأمر إن شاء الله عزوجل ، وقد قرأ السلطان هذه الرسالة ووقف على ما فى المحضر فاستدعى أباسهل واختلى به من الضحى حتى صلاة الظهر ، وقد استدعى أستاذى ثم أعاد سؤال أبى سهل عن الأحوال فأعاد ذكر أحوال تركان السلاجقة على لسان سباشى ، وكيف أنهم « قسموا رجالهم إلى عشر أو ثلاثين فرقة ٥٣٧ وهم يعتبرون الصحراء بمثابة الأب والأم منهم كما هو حال المدن بالنسبة لنا ، وإنى سباشى لا أزال فى الحرب معهم حتى الآن ، وواليت إرسال الطلائع ومواصلة القتال ، وقد تعرفت بحقيقة أحوالهم وأساليبهم فى الحرب ، وقد حفظت الذخيرة ، ولم يستطيعوا تثبيت أقدامهم فى أى بلد فى خراسان حتى الآن ، وجباية الأموال جارية وعمال مولاي يزاولون أعمالهم . وأما حديث فارياب وطالقان عن القتل والغارة مرتين مرة فى الصيف .

ومرة في الشتاء فقد كانت مغافصة ، وكان العبد مشتغلا بمواجهة القسم الأعظم منهم ، وكانوا أفواجا غير منتظمة ، وقد أغاروا فجأة ولم أعرف الأمر إلا بعد أن انتهى كل شيء ، وليس من الممكن أن يصمد جيش السلطان بغير مدد يعينه فإن خطة هؤلاء الخوارج من طراز خاص ، والحق ما كتبته أبو سهل الحمدوى وسورى في المحضر بخطهما من أن حرب التعبئة هذه ليست من الصواب والرأى ما يرى السلطان وإنى منتظر جوابه وأنا على أهبة تامة ، ولو رأى السلطان ضرورة ضربهم ضربة قاضية والحملة عليهم حملة رحل واحد ، فليأمر بالكتابة إلى بخط أبي نصر مشكان مع توقيعه العالى ويثبت بخطه الكريم في نهاية الكتاب الأمر بوجوب المبادرة بالقتال إذ حين تصلنى هذه الرسالة لن أبقى يوما واحدا في نيسابور بل سأزحف فورا على سرخس ومرو وأبادر بالقتال ، فليس ثمة عذر والجيش على أتم الاستعداد ، أسلحته كاملة ونفقات الجند صرفت لهم نقدا .

فقال السلطان لأبي نصر ماذا ترى ؟ فقال : « ليس هذا من عملى ولا أفوه بكلمة عن الحرب وإن السپهسالار هنا فمن الخير استشارته ، ومن الصواب أيضاً الكتابة للوزير للوقوف على رأيه » . فقال السلطان ليس من المستطاع إبقاء أبي سهل هنا حتى تصل الرسالة للوزير في باخو حتى يعود الرسول بالجواب ، وسنتحدث غدا إلى السپهسالار وسنفكر مليا في الأمر اليوم والليلة . فقال أبو نصر : هذا ما ينبغى عمله .

ثم انصرف إلى منزله وهو منهمك في التفكير ، وقد قال لى : « إن أمراً جللا قد وقع ولست أدري ماذا ستكون عاقبته ، فقد كان أرسالان جاذب داهية ليس له نظير مع ما له من العدد والآلات والجند ، وأعداؤنا التراكمة لم يكونوا على ما هم عليه اليوم من القوة والشوكة ، ولا مرأى في أن الحرب معهم ٥٣٨

قد استمرت مدة طويلة وكانت معقدة ، ولو لم يذهب السلطان محمود بنفسه إلى پوشنك ، ولو لم يرسل الحاجب الغازي مع جيش بتلك الأبهة لما ظفروا بما كنا نريد . وأمر السلاجقة اليوم غير ما كان عليه بالأمس . وهم يغرون بالسلطان وقد افتضح أمرنا معهم مرة ، نتيجة قصة بكتغدي ، تلك الكارثة الخطيرة التي لم يكن لها من سبب إلا الاستبداد بالرأى ولو ، والعياذ بالله ، وقعت لهذا الحاجب هزيمة فإنه لا مفر من أن يذهب السلطان بنفسه وتزول هيبتنا حينئذ تماما ، وإنني أعرف ما ينبغي في هذا الأمر ولكني لا أجرؤ على التصريح به ، وسنرى ماذا يقضى به الله عز وجل . هذا ما آل إليه أمر الري والجبالي وما أدى إلى تشتيت هذا الجيش العظيم مع ما كان له من وسائل ، وهذه حالة خراسان ، وقد أحاط بنا الخطر من كل جانب ، والسلطان منغمس في اللهو والطرب ومستبد برأيه والوزير متهم وخائف والسالارية العظام قد قضى عليهم بلا جريرة وقد شئت خليفة العارض هذا سهل الجيش بما يديه من حرص على التوفير مما خدع به السلطان ، ولست أدري ما المصير وإنني أتميز غيظاً^(١) وباليئس مت قبل هذا فإني لا أتحمّل رؤية هذه المحنة .

يقول الخواجه أبو الفضل الكاتب مصنف هذا الكتاب إنه في ذلك الوقت الذي جاء فيه السلطان مسعود بن محمود رحمة الله عليهما إلى غزنة من الهند وأقام بها بضعة أيام أقبل عليه قائد الفرسان أبو سهل وقص عليه ما جرى ، وعرف السلطان كل شيء فأمر بحرب المصاف . وكان أبو سهل قد بلغ غزنة يوم السبت الحادي والعشرين من رجب ، فاستراح يوماً ثم إنه في الغداة ، بعد انفضاض الاستقبال ، اختلى السلطان مع السهسالار وأستاذي وأخذوا في

(١) خون جگر میخورم ای آشرب دم کبدی .

دراسة هذا الأمر حتى قرب الظهر ، ثم استقر الرأي على أن لا مندوحة من أن يبادر سباشى بهذه الحرب . وعاد السهسالار وطلب أبو نصر الدواة والكاغد وكتب هذه الرسالة أمام السلطان الذى طلب الدواة والقلم ووقعها ثم كتب بخطه فى أسفلها إنَّ على الحاجب الفاضل أن يعتمد على ما كتبه أبو نصر بأمرنا وفى مجلسنا وأن يبادر بقتال العدو حتى نرى ما يقدره الله لنا ، وإن رجاءنا فى الله عز وجل أن ينصرنا والسلام . ثم طلب السلطان أبا سهل وسلمه الرسالة وقال : « قل للحاجب أن يتخذ ما يجب من الحيلة وأن يتصرف بحكمة » . فقبل الأرض وخرج ، وقد أنعم عليه بخمسة آلاف درهم وخمسة أكسية وحصان غورى . وقد انصرف عن طريق غور .

ثم إن السلطان أمر بالكتابة للوزير فى هذا الشأن ، وأرسل الكتاب مع ٥٣٩ الساعى الذى جاء بالرد بعد أسبوعين وفيه : « إن الصلاح والصواب فيما يرام السلطان » . ولكن الوزير كتب إلى أستاذى كتابا تحدث إليه فيه بصراحة قائلا : « إنه بما لا حاجة إلى ذكره أنه لم يكن من الجائز التورط فى عمل عظيم كهذا إذ ليس من المستطاع التكهن بمصيره فالأولى أن نترك الحكم للمشاهدة بعد أن انطلق السهم من القوس ، ولعله يكون خيرا وبركة إن شاء الله تعالى » . وقد عرض أستاذى هذا الكتاب على السلطان .

ويوم الإثنين ، ليومين بقيا من رجب ، سار السلطان إلى الحديقة المحمودية على أن يمكث بها مدة وقد حملوا إليها الأمتعة اللازمة .

ويوم الإثنين السادس من شعبان توفى أبو الحسن العراقى الكاتب رحمة الله عليه . وقد قيل إن نساء قد دسسن له السم لأنه تزوج مطربة راقصة . وكان سىء الطبع ظنيماً ولا أعرف حقيقة سبب وفاته . وقد عدته فى الأسبوع الذى لقي

ختمه فيه فوجدته قد أشرف على الهلاك ولكنه كان حافظا لوعيه . وقد أوصى .
بنقل رفاتة إلى مشهد على بن موسى الرضا رضوان الله عليه في طوس ليدفن .
هناك ، وكان قد أعد العدة لذلك من قبل فأجرى الماء في قناة المشهد ،
وكانت قد جفت ، وأقام هناك خانا ، وأوقف على القناة والخان قرية .
قليلة الإيراد .

وقد ذهبت إلى طوس سنة إحدى وثلاثين (١٠٣٩ — ١٠٤٠) مع
السلطان ، قبل هزيمة دندانقان ، فسرت إلى نوقان وزرت قبر الرضا رضى الله
عنه ، فرأيت قبر العراقي هناك في المسجد الذى يقال له الآن مشهد ، وكان في
طاق ارتفاعه خمسة أذرع ، وقد زرتة وعجبت من حال هذه الدنيا الخداعة .
التي أعلت شأنه ثمان أو تسع سنوات ورفعته إلى السماء ، ثم سرعان ما سقطته .
كأس المنية فأصبح لاشيء .

وكان السلطان شديد الاهتمام بأخبار سبأشى في تلك الأيام ، وكان لا يتحدث .
عن شيء سواها ، وقد فوض الأمر لله ، وأمر بترتيب الفرسان على طريق غور
لينقلوا إليه أهم الأخبار . وكان قد تم إعداد السرير الذهبي والبساط ومجلس
القصر التي أمر السلطان بإعدادها من قبل ، والتي عمل فيها أكثر من ثلاث
سنوات ، وقيل إن السلطان قد أمر بوضعها في الصفة الكبيرة بالسراى فوضعت
بها ، وزين الجوسق ، وكل ٤٠ من رأى تلك الزينة في ذلك اليوم لم يعد يرق في
نظره ما يرى بعد ذلك . هذا ما أعرفه أما ما يعرفه الآخرون فلا علم لي به . كان
السرير كله من الذهب الإبريز ، وقد تدلت منه تماثيل وصور ، كما تتدلى غصون
الشجر ، وكانت مطعمة بكثير من الجواهر الغالية وقد أحيط بسياج مكل بأنواع
الجواهر ، وغطى السرير بالديباج الرومى ووضع عليه أربع وسادات محاكاة
بخيوط من ذهب ومحشاة بالحرير ، وسجادة ومسند للظهر وأربعة مساند ، إثنين .

بعن يمين واثنين عن شمال . وفي سقف الصفة علقت سلسلة ذهبية تصل إلى
قرب صفة التاج والسرير ، وقد شد إليها التاج . ونصبت على أعمدة ، مما يلي
السرير ، أربعة تماثيل من نحاس لرجال بسطوا أيديهم وكأنهم يحملون التاج ،
ولم يكن التاج يزعب رأس السلطان فإنه كان مشدودا إلى السلاسل والعمد ،
وكان السلطان يجلس تحته . وقد زينت هذه الصفة بالسجاجيد والديباج الرومي
والأبوقلون المحلى بالذهب ، وقد وضعوا بها ثلاثمائة كرسي مذهب ، طول
الواحد منها ذراع وعرضه أقل من ذراع ، وقد علق عليها مشمومات الكافور
ونافاة المسك والعود والعنبر ، وأمام السرير العلوى خمس عشرة قطعة من الياقوت
الرومانى والبدرخشى ومن الزمرد واللؤلؤ والفيروز . وأقاموا فى قصر الربيع خوانا
فى وسطه جوسق من الحلوى يرتفع حتى السقف ، وعليه حملان كثيرة . وانتقل
السلطان رضى الله عنه منه من الحديقة المحمودية إلى هذا الجوسق الجديد ،
وجلس فى هذه الصفة على السرير الذهبى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من
شعبان ، وكان التاج معلقاً فوق رأسه ، وقد ارتدى قباء من الديباج الأحمر
المطرز بالذهب الذى كان يخفى أكثر قماش القباء . وكان غلمان الخاصة حول السياج
فى أكسية سقلاطونية وبغدادية وإصفهانية وعلى رؤوسهم العمامات ذوات الغصنين
وقد شدوا خصورهم بأحزمة من الذهب ، وفى أيديهم المعاليق والأعمدة الذهبية .
وفى الصفة عشرة غلمان ، عن يمين وعن شمال ، على رؤوسهم عمام ذات أربع
ريشات وفى وسطهم أحزمة ثمينة كلها مرصعة بالجواهر ، وكذلك كانت حمائل
سيوفهم مرصعة . وفى وسط السراى صفان من الغلمان ، وقف صف منهما قرب
السور وكان على رؤوسهم عمام ذات أربع ريشات ، وفى أيديهم السهام والسيوف
والخناجر والأقواس ، والصف الثانى فى سراى الحرم ، على رؤوسهم عمام
ذات غصنين وقد تمنطقوا بأحزمة ثمينة من الفضة وفى أيديهم معاليق وعمد من
الفضة أيضاً . وغلمان هذين الصفيين يرتدون أقبية من الديباج الششتى .

وكان هناك عشرة خيول عليها عدد مرصعة بالجواهر وعشرون عدتها من الذهب الخالص . وكان لديهم خمسون مجنا ٥٤١ ديليا ، منها عشرة مرصعة بالجواهر . وكان أصحاب المراتب وقوفا . ووقف خارج السرادق كثير من عمال البلاط وحشد من الجند المسلمين .

وأذن بالاستقبال ، ومثل في حضرة السلطان أركان لدولة والموالي والحشم ونثروا مالا يحصى من الأموال . وقد أجلسوا على هذه الصفة الفسيحة كبار الموالى والعظماء ، وجلس السلطان حتى الضحى ، وكان جالسا فوق السرير إلى أن أقبل الندماء فأدوا التحية ونثروا الأموال . ثم قام السلطان وركب واتجه نحو الحديقة فبدل ملابسه وعاد راكبا إلى قصر الربيع حيث جلس إلى المائدة ، وقد دعى إليها العظماء وأركان الدولة وقد مدت موائد أخرى خارج القصر على هذا الجانب من السراى ، أجلس إليها المقدمون والفرسان وأصناف الجند ، وقد أخذوا جميعا فى الطعام ، وكان المطربون يغنون وجرى الشراب كالأنهار ، حتى ترك القوم الموائد وهم سكارى ، وقام السلطان مسرورا فركب ومضى إلى الحديقة وكانوا قد أعدوا بها مجلسا كثير الزينة . وقد أقبل عليه الندماء فظلوا يشربون حتى قرب صلاة العصر ثم انصرفوا .

كان السلطان أثناء هذا كله ضيق الصدر ، كان يفكر فى سبأشى والجيش ، وقد ورد كتاب من نيسابور يقول إنه حين جاء أبو سهل الموكل بالسندار دعا الحاجب الأعيان إلى مجلس . واختلى مع أبى سهل الحمدوى وسورى وعدة رجال . من كانوا هناك ، وقد عرض عليهم كتاب السلطان وقال لهم بهذا جاء الأمر فلم يبق للحديث مجال ، وإنى ذاهب على أية حال غدا لأنهى هذا الأمر ، فهذا ما قدر الله ، وأما أنتم فعليكم البقاء هنا لتودعوا ما يرد من الرى من المال والألبسة مكانا آمينا ، إذ ليس فى القدرة التنبؤ بما سيؤول إليه الأمر .

«ولأبأس من الاحتياط والحزم . قالوا سنفعل ما أمرت به ولو أنا كارهون . سيرك هذا للقتال ، ولكن لا مناص منه بعد صدور أمر السلطان . وحكمه الجازم .

وفي الغداة سار سباشي الحاجب في طريق نيسابور على جانب سرخس مع جيش كامل الأهبة كثير العدد والآلات . وبعد هذا جمع سوري مالدیه من مال نيسابور وماله ثم قال لأبي سهل الحمدي إن عليك أن تعد ما أحضرته من مال كذلك حتى يرسل إلى قلعة ميکالی في رستاق بست حتى لا تقع هذه الأموال في يد العدو إذا تغيرت ٥٤٢ الأحوال والعياذ بالله . فقال أبو سهل حسنا ما رأيت ويجب أن يظل هذا الأمر سرا . ثم إن هذين الرجلين قد أعدا كل ما عندهما من أموال وعينا فرسانا ممتازين وحملهم هذه المهمة السرية بحيث لا يشعر بهم أحد وأرسلهم في جوف الليل فبلغوا القلعة سالمين ، وسلموا ما معهم إلى كوتوالها . وبقي ثقة هذين الرجلين بالقلعة مع خمسين من الرجال ، وأما ما كان من أئقال نيسابور من الألبسة وفروش شادياخ والأسلحة وغيرها مما لم يكن في الوسع نقله إلى قلعة ميکالی فقد أمر سوري بإيداعه كله الخزان . وظل سوري وأبو سهل ينتظران وقد رتبا فرسانا على طريق سرخس لينقلوا إليهما في سرعة ما يجد من الأخبار .

وسمعت من أبي نصر أستاذي قال حين وصلت الرسائل بهذا عن أبي سهل «وسوري عرضتها على السلطان فقال : « لقد تسرعنا ولسنا ندرى مصير الحاجب والجيش مع هؤلاء الأعداء » . قلت « إن شاء الله لا يكون غير الخير واليمن » . ولم يذق السلطان الشراب آخر يوم من شعبان فقد كان مضطرب الفكر . وجاءت الكتب من سرخس ومرو تقول إن الأعداء حين سمعوا بأن الحاجب سار من نيسابور ليحاربهم جزعوا وقالوا هذا هو الأمر الواقع ونقلوا أمتعتهم

إلى وسط صحراء مرو مع فرسان من أكثر رجالهم جسارة . ثم إنهم أعدوا
هوجا من جيشهم ليتقدم نحو طللخاب سرخس ليحارب هناك ، وذلك حتى
يستطيع إذا هزم ، أن يكر راجعا فيحمل أثقاله ويتوجه ناحية الري ، فإنهم
يقدرّون أنه إذا استوصلت شأفتهم من خراسان فلن يجدوا لهم مأوى في غير
الري ونواحيها ، لأنها أقل تحصينا من أى مكان آخر .

ويوم الخميس بدأ السلطان رضى الله عنه الصيام وكان يفطر مع الندماء
والحاشية في شهر رمضان هذا ، وكان يجلس مرتين كل يوم للاستقبال فقد كان
يكثّر من الاستقبال جريا على عادة أبيه السلطان محمود رضى الله عنه ، ذلك أنه
كان قلقا ، وكان الموقف ٥٤٣ يوجب ذلك ، ولكن ما جدوى القلق والتأمل
مع القضاء إذا قضى ؟ .

ويوم الأربعاء ، رابع هذا الشهر ، ظل السلطان جالسا في البلاط حتى
صلاة الظهر ، على الصفة الكبيرة بالجوق الجديد ، وقد صرف الأمور التي
عرضت عليه ، ثم قام وسار إلى الخضراء . وبينما كان أستاذى يهيم بالخروج
ليعود إلى الديوان ، إذا بفارس من الفرسان المعينين على طريق غور يدخل
ومعه مدرج البريد ففقت الحلقات والاختام فإذا به رسالة بخط أبى الفتح الحاتمي
نائب بريد هراة ، فأخذه أستاذى وفتحها فإذا بخريطة مختومة ففضاها وقرأ من
الرسالة فصلا أو فصلين وطار صوابه ، ثم لفّت الرسالة وأمر بأن تعاد إلى
الخريطة وختمت بخاتم البريد . ثم دعا أبا منصور حارس الديوان وحمله رسالة
شفوية فذهب بها . وبدأ على أستاذى شديد الحزن وعميق التفكير ، وقد
أدرك جميع كتاب الديوان أن حادثا جلا قد وقع . وعاد أبو منصور حارس
الديوان بغير رسالة وقال إنه (السلطان) يدعوك . فسار أستاذى
وظل عند السلطان حتى صلاة العصر ، ثم رجع إلى الديوان وأعطاني رسالة

أبى الفتح الحاتمي نائب البريد قائلا : اختتمها وضعها في خزانة الحجج ، ثم عاد ومعه الكتاب . فقرأت هذه الرسالة فوجدت فيها :

« إن سبأشي قد وفد على هراة في هذا اليوم ، وكان معه عشرون غلاماً وقد أنزله أبو طلحة الشيباني العامل في مكان لائق وأكرم وفادته وقابله حين صلاة العصر ، وكنت في صحبته ومعنا أعيان هراة ، وكان كسير الخاطر وكانوا جميعاً يطيبون خاطره ويقولون هذا حال الدنيا مابقيت ، والبقاء للسلطان المعظم فإن الجند والعدد والآلات كثيرة ومن الممكن تلافي هذه الهزيمة والحمد لله أن الحاجب حتى يرزق ، فبكى وقال لا أعرف كيف أنظر إلى وجه السلطان ، لقد قامت حرب مع العدو ، لم أر أصعب منها ، وظلت المعركة من الصباح حتى صلاة العصر ، وحين أوشكنا على الانتصار تركني رفاقي اللثام حتى جرحته واضطرت إلى التراجع على هذا النحو الذي ترون . وعاد القوم ولكنه استبقاني وأبا طلحة واختلي بنا ، وقال إنهم خانوا السلطان وكذلك خانه ٥٤٤هـ . المنهون حين حدثوه عن الأعداء ففوتوا من شأنهم ، وكنت أعمل في صبر يؤدي إلى فرارهم ، ولكن المنهين ضللوا السلطان حتى أوغروا صدره عليّ ، فأمر أمرا جزما بوجوب حرب المصاف ، فلما لقيت الأعداء وجدتهم نخبة من المحاربين المعدّين وقد أراحوا أنفسهم من أثقالهم وجرت موقعة ليس أشد هولا منها حتى صلاة الظهر ، وقد بذل جندنا جهدهم ، ولم يكد الفتح يتم لنا حتى تسرب إلى نفوسهم الخور ولاذ كل منهم بعنق حمار أو امرأة وهرب وكنت قد صحت مائة ألف مرة بأن لا تصحبوا النساء فلم يسمعوا أمرى ، فلما رأى الأعداء حالنا على هذا النحو ازداد واجراً ، فأمرت بنصب خيمة في وسط ميدان المعركة ونزلت بها حتى يقتدوا بي ويبدلوا غاية الجهد فلا يقع خلل ، ولكنهم لم يفعلوا وتركوني وحيداً واتبعوا أهواءهم ، وإن الأعيان والمقدمين شهود على أني لم أقصر في واجبي ، ولو سئلوا لشهدوا بذلك ، وقد لبثت في الميدان حتى وقعت

الواقعة وأصابني سهم فاضطرت إلى الانسحاب وأتيت هنا بجوادين وعشرين غلاما ، واستولى العدو على كل ما كان لي وما كان لهؤلاء اللئام ، وذلك حسب ما سمعت من الفرسان الذين لحقوا بي ، وسأبقى هنا بضعة أيام حتى يلحق بي كل من يستطيع العودة ، ثم أذهب إلى الدركاه عن طريق غور فأشرح لمولاي الأمر شفها ، فإليك إيضاح كل ما سمعتموه مني .

ولم يأذن السلطان بالاستقبال في مساء ذلك اليوم ، ولم يخرج للإفطار ، وقيل إنه أفطر على شربة ماء ولم يأكل شيئا ، فإن الذي حدث لم يكن أمرا سهلا . ورأيت أستاذي فإذا به لم يأكل شيئا أيضا ، وكنت معه على المائدة . وفي اليوم التالي أذن السلطان بالاستقبال ، وبعد الفراغ منه اختلى بالسپهسالار والعارض وأبي نصر والحاجبين بكتفدي وأبي النصر ويين لهم الأمر ، وقرأ أستاذي عليهم رسالة نائب بريد هراة . فقال الحاضرون أطال الله حياة السلطان ، هذه حال الدنيا دائما ، وهذا أمر يمكن تلافيه ولعل من الخير إرسال أحد الثقة إلى الحاجب لطيب خاطره ومن معه من الجند ليسكون بلسا على قلوبهم . فقال السلطان هكذا نفعل ولا يزال أمامنا متسع من الوقت وسنأمر بما ينبغي في هذا الأمر . ولكن ما رأيكم فيما يعمل للملاقة الهزيمة ؟ قالوا لا نستطيع أن نقول شيئا قبل أن يصل الحاجب وإذا رأى السلطان يكتب للأستاذ الرئيس بما حدث ولو أن هذا الخبر قد بلغه ، وذلك حتى يكتب ما يراه الأصلىح ٥٤٥ في هذا الشأن . فقال السلطان هذا حسن . وأمر أستاذي يكتب للرئيس . وطيب القوم قلب السلطان ، وتحدث كل منهم إليه بهذا المعنى ، مظهرين الولاء ومقدمين أموالهم وأنفسهم ثم انهصرفوا . وكتبت للوزير رسالة مسببة وطلب إليه إبداء الرأي . وقبل^(١) هذه الواقعة لم يكن محظورا التحدث أمام السلطان عن ضعف

(١) في نسخة نفيسى ص ٦٦٣ « بس » وهو خطأ مطبعي وصحته ييش .

وحقارة التركمان ولكن بعد الواقعة لم يكن أحد يجرؤ على التحدث عنهم بغير الحق ، لأن السلطان صرخ في وجه واحد أو اثنين من رجاله ممن كانوا يتحدثون على هذا النحو وأنهم . وكان السلطان شديد الحزن والسكابة .

وفي الأيام الباقية من رمضان كان يصل كل يوم بل كل ساعة نبأ موحش ، حتى جاءت رسالة أبي المظفر الحجوى صاحب بريد نيسابور ، وكان فيها :

« إني تواريت ، وأنا الآن فى مخبأ ، وما أن بلغ نيسابور نبأ ما حل بالحاجب الكبير وجيشه حتى استعرض سوري المسجونين وأطاح برؤوس بعضهم وأطلق سراح آخرين ، ثم إنه ذهب مسرعاً مع أبى سهل الحمدوى إلى رستاق بست ، ولحق بهما كل من كان فى جيشنا من الجند ، وساروا ولا يعرف إلى أين يتجهون ، ولم يتيسر لى الذهاب معهم لأن سوري متعطش إلى دمي نفخت على حياتى واختبأت هنا فى مخبأ حصين وخفى ، وقد نصبت العيون فى كل مكان ليأتونى بالأخبار ، حتى أرى ماذا يجرى وإلى أى قرار تصير الأمور ، وسأرسل العيون كلما تيسر لى ذلك وأستطلع الأحوال وأكتب بكل ما هو مهم معية أرسلها للوزير ليعرض الأمر على رأى العالى . »

فلما قرأ السلطان هذه الرسالة علاه الغم ، وقال لأستاذى ماذا تقول وماذا يكون مصير أبى سهل وسورى وأين سيذهبان وماذا يكون مصير تلك الأموال ؟ فقال إن مولاي يعرف أن أباهما رجل عاقل وصائب الرأى ، وأن سوري رجل جريء وشهم ولا شك أنهما دبرا أمرهما أو أنهما سيدبرانه بحيث لا تصل إليهما يد أحد من الأعداء ، ولو تسنى لهما الأمر لألقيا بنفسيهما إلى الدركاه عن طريق صحراء طبيين من جانب بست ، فإنهما سارا إلى جانب رستاق بست . ولكن إذا حدث لهما مفاجأة فإنه لا يمكن معرفة المكان الذى ٥٤٦ يلجآن إليه ، ومهما يكن فإنهما لن يسلبا نفسيهما

إلى العدو فإتھما يعرفان ما يحل بهما حينذاك . فقال السلطان إنھما لن يستطيعا بأية حال أن يتجها ناحية الرى فھناك ابن كاكو والتركمان وجند كثيرون ، وكذلك لا يذهبان إلى جرجان فإن باكاليجار قد أفلت من یدنا كذلك ولست أدري مطلقا ماذا يكون مصيرھما ، يالھنى على ھذين الرجلين وعلى كل تلك الأموال والنعم إذا وقعت فى ید العدو . فقال أبو نصر لن تمتد يد أحد إلى تلك الأموال فإنھا محفوظة فى قلعة ميکالى ، وليس فى إمكان أحد اقتحام ھذه القلعة والكوتوال ھناك شيخ حازم ، وهو من أقدم خدم السلطان ويصون الأموال ، وإنه قوى بما لديه من المؤن والماء ، ولدى أبى سهل وسورى فرسان معینون على طريق سرخس حتى نيسابور فلا بد أن بلغت مسامعهم ھذه الحادثة فى ثلاثة أيام ، فعجلا بالسیر ، ولا بد أيضا أن الأعداء لم يذهبوا فورا إلى نيسابور على أثر الموقعة لأنهم فى حاجة إلى المقام فى دندانقان أسبوعا حتى يفرغوا من أعمالهم ثم يدبرون أمرهم ويبادرون بالعمل ، وإلى أن يبلغوا نيسابور سيكون أبو سهل وسورى قد طويا الأرض طيا . فقال السلطان يجب أن يكتب إليھما بما ترى مع السعاة . فقال أبو نصر لا جدوى من إرسال الساعى جزافا ما لم يتحقق مستقرھما ، ولا شك أنھما حين يستقران ويصبحان آمنين سيوفدان إلینا السعاة ، ويشرحان الأحوال ويستطلعان رأى السلطان ، ولكن الواجب إرسال قاصدين أو ثلاثة إلى قلعة ميکالى بكتب لتثبيت قلب الكوتوال ، ولا بد من أنه سيوفد من ناحيته قاصدا برسالة . فقال السلطان فلا بد من كتابة الرسالة حالا فھذا ضرورى . فجاء أستاذى إلى الديوان وكتب رسالة ووقعھا السلطان وأسرع بها قاصدان إلى قلعة ميکالى ، وقد قيل للكوتوال إنا أرسلنا رسالة الآن ومنسیر بعد المهرجان شطر خراسان ، ونبقى بها سنتين حتى يتسنى لنا تلافى كل ما حدث ، فعليك بالمحافظة على القلعة وبالحیطة وبالحدز .

ومصادف يوم الجمعة عيد الفطر ولكن السلطان لم يسمع شعرا ولم يتناول

شهر إيا لما كان فيه من خرج ، فقد كان يرد ، كل ساعة ، من خراسان خبر ينقض عليه كالصاعقة . ويوم الأحد ٥٤٧ هـ أمر السلطان بتعيين أبي سهل الهمداني الكاتب لاستقبال الحاجب والجيش وتهدئة روعهم بما حدث وبث الأمل الطيب في نفوسهم من ناحية السلطان بحيث يذهب عنهم الخجل والغم . وكتب أستاذي نسخة المثال ثم كتب وأكده السلطان بتوقيعه وقد سار الرسول حين صلاة العصر من ذلك اليوم .

وفي الغداة وصلت رسالة الوزير كاشفة عن شديد قلقه وحزنه لهذا الحادث العظيم الذي وقع وقد صرح بأنه « مهما يكن من أمر هذه النازلة فإن السلطان كاشفها ببركته وإقباله ، ولا بد من أن تسير الأمور على نحو آخر » . وأرسل كتاب أبي إسحق إبراهيم بن ايلك الذي كان قد كتبه إليه من ناحية أوركنج وقال « يجب إطلاع الرأي العالي عليه ، ويجب قبول تقرب هذا الرجل ولو أنه ابن عدو لنا ، فإنه رجل فاضل وذو رأي ، وقد أفلتت من حبال أبناء على تكين مع فوج من الفرسان ، وهو ذائع الشهرة فتسترضيه حتى لا تقوم فتنة في جانب آخر » . وكتب الوزير إلى أستاذي كتابا مسها كشف فيه عن كل ما يدور بخلدته وقال : « إن هذا الحادث قد وقع ، بعد مشيئة الله عز وجل ، بسبب السفر مرتين ، مرة إلى الهند وأخرى إلى طبرستان ، وما فات فات ، ولا ملافاة له ، وقد بلغ أمر الأعداء اليوم إلى حد أن لا يقدر عليهم أي سالار ، فقد هزموا قائدين عظيمين يقودان الجيوش الجرارة ، وغنموا كثيرا من النعم وقويت عزائمهم ، وإن تستقيم الأمور بغير حضور السلطان ، وعلى مولاي أن يغير سياسته وأن يكف عن اللهو ، وأن يستعرض الجيش بنفسه وألا يكل هذا إلى أحد ، وأن يطرح حديث التوفير هذا ، ويجب عرض هذا الكتاب عليه والتحدث إليه بكل ما ينبغي . وذلك إلى أن تتاح لي الفرصة للقاءه والتحدث إليه في هذه الأمور على وجه أكثر صراحة . . . »

وعرض أستاذى هذه الرسالة وقال ما يجب ، فقال السلطان إن الخواجة على حق فيما يقول ، وأنا منتصحون بنصحه وسنعمل به ، فاكتب إليه جوابا على هذا النحو واكتب من عندك كذلك ما يجب فى هذا المعنى ، وأما عن پورتكين بن إيلك فهو شريف وابن شريف ويحتاج اليوم إلى مثله ، فليكتب الخواجة رسالة إليه وليقل له إنه عرض علينا ٥٤٨ أمره وإن يبتنا مفتوح له فعليه أن يوفد إلينا رسولا برسالة لتعرف أغراضه ونأمر بما يجب له . وكتبت هذه الرسالة وأرسلت فى مدرج .

ويوم الأحد العاشر من شوال بلغ الحاجب سباشى غزنة ، وجاء إلى الدركاه مباشرة فأدى التحية وقد عطف عليه السلطان وطيب خاطره ، وكذلك شأن عدة مقدمين جاءوا معه ، ثم انصرفوا إلى بيوتهم ، وكان الرجال يصلون على أثرهم ويواسونهم ، وبعد أسبوع من وصول الحاجب اختلى به السلطان طويلا واستبان كل شيء ، وكان السلطان يستدعى كل رجل على حدة ويسأله عما جرى فى خراسان وعن الأعداء والحاجب والموقعة التى جرت حتى اتضح له كل شيء وضوح الشمس فى رابعة النهار . ولم يكن الطرف ملائما للعتاب فلم يتحدث السلطان بشيء منه مع أحد ، بل كان مجاملا متلطفا . وكتب إلى الوزير بكل ما جرى .

وسلخ شوال جاءت رسالة الوزير عن پورتكين قال فيها يجب توجيه كتاب إليه من المجلس العالى بأنا قد قررنا كل ما كتبه لأحمد وأن الدار داره ، وسنقصد بلخ بيد المهرجان فالآن يجب إيفاد رسول ليعين القصد من الجيـء إلى خراسان ويشرح كل ما يتصل بذلك للاطلاع عليه وليؤمر بكل ما يؤدى إلى صلاح حاله ومزيد جلاله . فقال السلطان لأبى نصر أكتب ما ينبغى فى هذا الشأن حسب الرسم بحيث لا يحدث ضرر إذا وقع الكتاب فى يد أبناء

على تكين . فكتب أستاذى نسخة الكتاب كما هو دأبه ، حسب ما يليق فى مثل هذه الأحوال ، وخاطبه « بالأمير الفاضل » وسماه « الأمير » ووضعت الرسالة فى درج الوزير .

ويوم الأربعاء الثالث من ذى القعدة جاءت من جرجان رسائل أبى سهل الحدوى وصاحب الديوان سورى مع قاصدين مسرعين كتبها فيها : إنه حين تخرج موقف الحاجب والجيش المنصور بلغهما الخبر بسرعة ، إذ أنهما كانا قد رتبا الفرسان على طريق سرخس ليأتوهما بالأخبار ، فغادرا نيسابور على الفور عن طريق بست وبلغا باب قلعة أميرى ، ليقيا بها ، ثم لم يستصوبا هذا الرأى فناديا الكوتوال ومعتمديه الذين ٥٤٩ كانوا عند باب القلعة ليحرسوا الأموال ، وقالاهم ما ينبغى أن يقال حتى يتخذوا الحيلة التامة للمحافظة على القلعة ، وأعطيا الكوتوال والرجالة أجور سنة ، ولما فرغا من هذا الأمر الهام تركا القلعة ليأتيا عن طريق ما إلى حضرة السلطان وقد استغرقا فى التفكير أما الأعداء فجاءت جموعهم تترى ، فازداد مركزهما خطرا لأن أمرهما قد عرف عند السلاجقة ، ولكن أدلاءهما كانوا مهرة فواصلوا السير معهم ليل نهار عن غير الطريق المألوف لإسفرايين حتى بلغا جرجان ، وكان بالكليجار فى أستر اباد فأطلعاه على الأمر فجاء فورا ، وقد قال إني عبد السلطان وإنهما أحسنا صنعا إذ لجآ إليه فإنه سيحافظ عليهما ما بقيت الروح فى جسده بحيث لا تصل إليهما يد أحد من الأعداء ، وقال إن جرجان بلد غير حصين وليس من الحكمة البقاء به ، ويجب السير إلى أستر اباد والمقام بها وذلك حتى « أدفع عنكما الأعداء إذا قصدوا اللحاق بكما » وأما أنتم فتسيران إلى أستر اباد فإن السير فى مضايقتها غير مستطاع للعدو ولا تمتد إليكما يد أحد ، فسارا وأما بالكليجار فقد أقام مع الجند فى جرجان مترقبا ما يحدث . وإنا نقيم فى

استراباد مع جند من كل صنف عدا الحاشية ، وإن با كاليجار كان يقوم
بنفقاتهم ولم يدخر وسعا في بذل كل ما يستطيع ، فلو رأى السلطان أن يسبغ
عليه من العطف ما يرضيه من جميع الوجوه ويعفيه من مال الضمان ويجعله
منحة له ، فإنه يلقى محنا من كل صنف وخاصة اليوم حين لجأ إليه خدام
السلطان وعبيده فالتزم بحمايتهم ، وأن يقال له إن السلطان سيرحل على الأثر ،
وليس هذا القول جزافا فمن المستحيل ترك خراسان لمثل هؤلاء القوم ، وذلك
حتى يقوى قلب هذا الرجل . فبعد أن تصفوا لنا خراسان تعود الرى والجبال
وتلك النواحي إلينا ، وكذلك حتى يفهم أن السلطان معنى بأمر عبيده وجنده
الذين هم بعيدون عنه ، وذلك حتى لا يحدث خلل .

فلما قرأ للسلطان هذه الرسالة سر سرورا عظيما ، فقد كان قلقا على هذين
الرجلين وعلى ما معهما من المال الكثير ، وجيء يقاصديهما أمامه فكانا يجيبان
على كل ما يسألان عنه وقالا : « إن التركان قد استولوا على منافذ الطرق على
سبيل الاحتياط ، ٥٥٠ وإنيهما تحايلا كثيرا حتى استطاعا المجيء عن غير
الطريق العادى » . وقد أعد لهما الموكل بالضيافة مكانا خفيا حتى لا يراها
أحد ، وأمر السلطان بكتابة إجابة الرسالة وقد حث فيها أبا سهل الحموى
وصاحب الديوان سورى على اتخاذ الحيلة ، وإذا قصد التركان استراباد
فعليهما بالسير إلى سارى فإذا قصدها فإلى طبرستان ، فإنهم لا يستطيعون
بلوغها عن طريق تلك المضائق ، وإن عليهما مداومة الكتابة وإرسال القاصدين
بانتظام الواحد في أثر الآخر كما هو الحال عند السلطان ، وليعلما أنا سنزحف
بعد المهرجان بجيش ، لم ير مثله من قبل ، إلى طخارستان وبلخ بحيث لا نتزعج
أبدا عن خراسان حتى تهدأ نار هذه الفتنة بها ، ويطلب السلطان منهما أن يظلا
رابطى الجأش فكم من ساعات عسرة مرت بالعالم وتلوفى خطرهما ، ويخبرهما

بأنه قد كتب لباكاليجار ما ينبغي أن يكتب له وأنه أرسل هذا الكتاب إليهما ليطلعا عليه ثم يوصلانه إليه .

ثم إنه كتب لباكاليجار في هذا الشأن كتاباً رقيقاً للغاية وقد قال فيه إن كل ما ينفعه فهو لحسابنا وكل ما يبذل من عون لمعتمدنا غير ضائع وهانحن قادمون ، وحين تبلغ خراسان ونقضى على الفتنة فيها فسوف نوفي له مقابل إحسانه بما لم يخطر له على بال ثم إن السلطان وقع هذا الكتاب وسار به الرسل يتبعهم آخرون يكتب هامة في هذه المعاني ، وكان ذلك يوم الخميس السابع من ذى القعدة .

رسالة الجمحي :

ووصلت رسالة من أبي المظفر الجمحي صاحب بريد نيسابور يقول فيها :
لأنه يكتب هذه الرسالة من مخبئه وقد استطاع أن يبعثها مع قاصد بشتى الحيل وقد بين فيها أنه بعد أن جاءت الأخبار بما حل بالحاجب سباشي أقبل إبراهيم ينال ، بعد اثني عشر يوماً على حدود نيسابور ومعه مائتا رجل وأبلغ إنذاراً مع رسول له « بأنه يمثل مقدمة جيش طغرل وداود ويغزو فإذا كنتم ستحاربون فإنه يعود ليخبرهم بالأمر وإذا كنتم مسلمين فاندخل المدينة وليغير الخطبة فإن جيشاً كبيراً يسير في أثره ، فأنزلوا الرسول في المدينة التي سرى فيها الإضطراب وأقبل الأعيان جميعاً إلى بيت القاضي صاعد وقالوا له إنك إمامنا ومرشدنا فما قولك في الإنذار الذي أنذرنا به ؟ فقال لهم وماذا ترون أنتم وعلى أي أمر عقدتم نواياكم ؟ فقالوا ان حال هذه المدينة لا يخفى عليك فإنها غير حصينة وأهلها ليسوا رجال حرب وقد هزم السلاجقة جيش الحاجب سباشي مع ضخامته وقوته هذه فأى خطر لنا بعد هذا ؟ هذا رأينا . فقال القاضي صاعد . حسنا ما رأيتم فإن الأهالي لا يقوون على قتال الجيوش وإن

لکم سلطاناً قویاً کمسعود ولا شک أنه سيجيء بنفسه أو سيرسل قائدا من عنده ليضبط الأمن في هذه الولاية إذا رأى الاحتفاظ بها . واليوم قد اشتعلت نار الفتنة وعلا هيبها ودخل المدينة جماعة قد غمسوا أيديهم في الدم وعزموا على نهبها ولا سبيل غير الإذعان لهم . فقال الإمام الموفق صاحب الحديث وقال معه جميع الأعيان هذا هو الصواب بحينه ولو فعلنا غير هذا فستكون المدينة لقمة سائغة للناهبين ، والسلطان بعيد منا ومن الميسر طلب المَعذرة عن هذا التصرف وإنه لعذر مقبول . قال القاضي صاعد : « حين زحفت جيوش ايلك من بخارا بقيادة سباشي تكين خرج أهل بلخ وقاتلوه إلى أن انتهى الأمر بقتل الناس ونهب المدينة وأما أهل نيسابور فكان موقفهم بالأمس كموقفهم اليوم فحين جاء السلطان محمود رحمة الله عليه من ملتان إلى غزنة مكث بها فترة وأعد الأمور وسار إلى خراسان ، ولما بلغ بلخ وجد سوق العشاق (بازار عاشقان) الذي كان قد أسر بإنشائه ، وقد اشتعلت النار فيه فلام أهل بلخ وقال لهم ماشان الرعية بالقتال ؟ لا جرم قد هلكت مدينتكم وأحرق من أملاكى بلد يغل على أموالا طائلة وإنى أحملكم غرامة هذه الخسارة ، ولكنى أعفو عنكم فانظروا واحذروا أن يتكرر هذا ، فإن كل ملك يتسلط عليكم ويلزمكم بالخراج ويؤمنكم عليكم أن تدفعوا له الخراج وتحافظوا على أنفسكم ، ولماذا لم تقلدوا أهل نيسابور والبلدان الأخرى فقد أذعنوا بالطاعة وكان صواباً ما فعلوا حتى لا تنهب بلادهم . ولماذا لم تلتفتوا إلى ما جرى في البلاد الأخرى التي لم يطلب منها شيء غير الخراج فقد احتسب كل ما أخذ العدو منهم من خراجنا . قالوا لقد تبنا ولن نخطيء مرة أخرى ، واليوم يحدث ما حدث بالأمس ، فقالوا جميعاً إنه كذلك . ثم نادوا رسول إبراهيم ينال وسلبوه إجابة رسالته : « بأنا رعية ولنا سلطان والرعية ليس من شأنها أن تحارب وللأمراء السلاجقة أن يدخلوا المدينة فإنها مفتوحة لهم ، فإذا كانت لازمة للسلطان فإنه سيأتى للبطلانية بها أو سيرسل قائدا لهذا الأمر

ولكن عليكم أن تعرفوا أن الناس قد خافوكم لما حدث منكم في بلاد أخرى من
النهب والمثلة والقتل وقطع الرقاب ، ولا بد من انتهاج سبيل آخر ، فإن هناك
آخرة غير هذه الدنيا وقد رأت نيسابور كثيراً مثلكم وسلاح أهل هذه البقعة
٥٥٢ هو دعاء القوامين منهم بالليل ، وإذا كان سلطاننا بعيداً عنا فإن الله وعبد
ملك الموت قريبان ، وانصرف الرسول . فلما اطلع إبراهيم ينال على الجواب
دخل المدينة وكان على مسيرة فرسخ منها ، وأرسل لأهلها رسولاً يقول لهم
نعم الرأي ما رأيتم وقد قلتم قولاً حكيماً وقد كتبت لطغرل فوراً وأطلعت
على الحال فإنه كبيرنا . وذلك حتى يجعل داود ريغو في سرخس ومرو ويجعل
الأعيان الآخرين ، وهم كثيرون ، في البلاد الأخرى وحتى يحضر هنا الساطان .
العادل طغرل مع خاصته ، فلتطب قلوبكم فإن ما حدث حتى الآن من النهب
والسلب قد صدر عن صغار الجند بالضرورة فإنهم كانوا في حرب ، ولليوم
شأن آخر ، وقد أصبحت الولاية لنا فلان يجرؤ أحد على الإخلال بالأمن
ولسوف أجيء غداً وأنزل في باغ خرمك لأتأكد من ذلك . فلما سمع أعيان
نيسابور هذا الكلام هدأ روعهم ، وتجول المنادون بالأسواق ونادوا به في
الناس حتى يهدأ العامة . ثم إنهم فرشوا باغ خرمك وأعدوا النزل والاستقبال .
وشهر عن ساعد الجد ، المناصرة التركمان ، أبو القاسم سالار بوزكان ، وهو
رجل من الكفاة الدهاة الذين غلبهم وحطمهم سوري . واجتمع الإمام الموفق
صاحب الحديث وسائر الأعيان وجاءوا لاستقبال إبراهيم ينال ، عدا القاضى
صاعدوا السيد زيد نقيب العلويين فإنهما لم يذهبا . وعلى بعد نصف فرسخ من المدينة
ظهر إبراهيم ينال مع أكثر من مائتى فارس وكان معه لواء وجنيتان وكان في
زينة ذابلة وبسيطة . فلما وصل المستقبلون إليه أوقف حصانه ، وكان شاباً
جميل الطلعة حلوا الحديث ، فطيب خواطرم جميعاً ، ثم ساق . وخرج لرؤيته
مالاً يحصى من الناس ، وكان الشيوخ المعمرين يكون خفية ، فإنهم لم يروا من

قبل أجدا غير رجال محمود ومسعود ، وكانوا يسخرون من هذه الزينة وتلك الكوكبة . ونزل إبراهيم ينال في باغ خرمك وجىء إليه بما أعدوه من المآكل الكثيرة والنزل ، وكانوا يذهبون لتحيته كل يوم . ويوم الجمعة أقبل إبراهيم على المسجد الجامع وكان مزدانا ، وقد أتى سالار بوزكان بثلاثة آلاف رجل أو أربعة مدججين بالسلاح ، فإنه كان يعاون إبراهيم ينال وكان له مكاتبات مع ٥٥٣ هؤلاء القوم حتى أصبحوا أصدقاءه ، وذلك نتيجة عدوان سوري ، فالحق أن خراسان قد ضاعت ضحية لسوري . وحاولوا كثيراً مع إسماعيل الصابوني ليعد الخطبة خفية ، فلما دعى باسم طغرل فيها علت ضجة عظيمة من الناس وخشيت الفتنة ، إلى أن أسكتوا الناس وأتموا الصلاة ثم عادوا . وبعد سبعة أيام من هذا اليوم أقبل الفرسان ومعهم كتب طغرل لسالار بوزكان والموفق ، وكان طغرل قد كتب لإبراهيم ينال يقول : إن أعيان نيسابور قد تصرفوا بحكمة فلا جرم أن يروا ماسيكون لهم وللرعايا جميعاً من الطيبات ، وقد أقمنا على الجيوش أخانا داود وعمنا بيغو ومعهم المقدمون ، وسنحضر نحن على المقدمة مع خاصتنا وذلك حتى لا يمس رعايا تلك البلاد سوء جزاء ما قدموا من الطاعة وحفظوا أنفسهم ، واطمأن الناس بما جاء في هذه الكتب ، وفرشوا باغ شادياخ حسنى . وبلغ طغرل نيسابور بعد ثلاثة أيام ، وخرج الأعيان جميعاً لاستقباله عدا القاضي صاعد . كان مع طغرل ثلاثة آلاف فارس أكثرهم مدرعون ، وكان له قوس بنشاب معلق في كتفه وفي وسطه ثلاثة سهام وكان مدججا بالسلاح ، ونزل في باغ شادياخ كما نزل بها مقدار ما تستوعبه من الجند ونزل الآخرون حول الحديقة ، وقد أعدوا لهم الكثير من المآكل التي حملت إلى هذا المكان ، وقدم الأكل والعلف للجيش كله ، وكان وهو سائر في الطريق يتحدث إلى الموفق وإلى سالار بوزكان وكان السالار قائماً بكل الأعمال ، وفي الغداة أقبل لتحيته القاضي صاعد ، بعد أن ألحوا عليه في المساء ، وكان معه أولاده وأحفاده .

ومريدوه وكوكبة كبيرة، وكذلك وفد للتحية نقيب العلويين مع جميع السادات
واسكن المجلس كان خلوا من البهجة وكان السلاجقة كأنهم جماعة من الغوغاء
لا نظام لهم، وكان من يريد التحدث لطغرل يتجراً عليه ويتحدث إليه .
وكان طغرل قد اعتلى سرير السلطان أمام الصفة، وقد أخذ بيد القاضي صاعد،
وكانوا قد وضعوا وسادة تحت السرير فأجلسه عليها . وقال القاضي : « أطل
الله حياة مولاي ، هذا سرير السلطان مسعود جلست عليه ، وفي الغيب أمور
كهنه ولا يدري أحد كيف تصير الأمور فالتفت واخش الله عز ذكره واعدل
بين الناس واستمع للظالمين والمساكين ولا تترك هذا الجيش يظلم الناس ٥٥٤
فإن الظلم شؤم ، ولقد أدبت حقتك بهذه الزيارة ولن آتى بعدها فإني مشغول
بالقراءة ولا أعدل عن العلم شيئاً ، وحين تفكر ملياً ستجد أن في هذه النصيحة
التي بذلتها لك الكفاية ، فقال طغرل « إني لا أريد أن أشق على القاضي
ليجىء بعد هذه المرة وليبعث إلى برسالة عما يلزم ولقد قبلت أن أعمل حسب
ماقلت ، إننا قوم جدد وغرباء ولا دراية لنا بشريعة العرب فلا يخلن القاضي
بنصائحه على . فقال القاضي سأفعل ثم انصرف ومعه الأعيان الذين صحبوه . وفي
الغداة ولي طغرل سالار بوزكان ولبس الخلعة وهي جبة ودراة ، وكان
قد أعدهما هو بنفسه ، وسرجا ذهبيا تركيا ، ثم عاد إلى بيته وأخذ في مباشرة
الولاية . وقد ارتاع الناس حين رأوه متشححا الدراعة السوداء وهو يعمل
بأمر طغرل .

ثم يقول الجحى في رسالته :

وأنا الآن في خدمة السيد زيد نقيب العلويين وهو صديق وفي وأنسيج وحده
ثم إني سأوالى إيفاد الرسل ، وسوف أوفق في هذا بفضل هذا العلوى «

ووقف السلطان على رسالة أبي المظفر الجمحي هذه فاضطرب اضطراباً شديداً ، ولم ينبس ببنت شفة . وفي الغداة قال سرا لأستاذي ألا ترى إلى أين بلغ أمر التركان ؟ فأجابه أطال الله حياة مولاي هذا حال الدنيا ما بقيت وإن الحق حق دائماً والباطل باطل والأمل معقود على حركة الركاب العالى لتحقيق المراد كله . فقال السلطان يجب أن يرد على رسالة الجمحي مع الشناء الجميل والشكر الجزيل ، وأن يكتب لنقيب العلويين حتى يعنى بشأن أبي المظفر الجمحي فلا تصل إليه يد أحد من الأعداء ، وإلى القاضي صاعد ، والأعيان الآخرين ، عدا الموفق ، وأن يصرح لهم « بأننا زاحفون مع خمسين ألف فارس ورجال وثلثمائة فيل وإن نعود إلى غزاة مهما تكن الظروف حتى نخلص خراسان ، وذلك حتى يسعدوا وحتى لا تميل قلوبهم كل الميل إلى السلاجقة » . فقال أستاذي سأكتب ثم جاء وجلس منفردا وكتب هذه الكتب وكتبت أنا الرسائل الصغيرة ووقعها السلطان ٥٥٥ ثم سار بها القاصد بعد أن منح صلة عظيمة .

وإني أذكر هذه الأخبار بهذا التفصيل لأنى كنت معتمداً في تلك الأيام ، ولم يكن أحد من الكتاب واقفاً على هذه الأحوال سوى أستاذي أبي نصر رحمه الله الذى كان يعد المسودة وكنت أقوم بنسخها . وكانت هذه هي القاعدة طوال حياة أبي نصر فيما يختص بكتب ملوك الأطراف والخليفة أطال الله بقاءه . وخانات تركستان وبكل ما هو هام من أعمال الديوان . ولست أذكر هذا مباهاة أو مبالغة إنما أقول ذلك حتى لا يتصور القراء أنى قلت لأتحدث عن نفسى ، إنما هو التاريخ الذى حملنى على ذلك والشاهد العدل على ما قلت هو ما لدى من التقاويم فكلها ناطق بهذه الأخبار ، ولكل من لا يعتقد فى صحة

«قولي أن يحضر أمام قاض عادل لتعرض عليه الحوليات فتكون شاهد صدق على قولي وبهذا يتضح الغامض والسلام .

ويوم الخميس ثامن ذى القعدة جاءت رسالة من الوزير يستطلع رأى السلطان هل يبقى فى بلخ وطخارستان أم يحىء إلى الحضرة فإنه قلق ويود أن يكون مع مولاه حتى يدلى برأيه فى هذه المهام والأمر المقلقة التى جدت . فأمر السلطان بأن يحجب عليه بأن زحفنا قريب وسيكون بعد المهرجان ، ويجب أن يحىء الوزير إلى ولوالج وأن يقيم بها ، وأن يأمر حتى يعدوا العلف لشهر ، وأن يعد لمدة عشرين يوما فى كل من راون وبروقان وبغلان ، بحيث لا يحدث نقص بأى وجه من الوجوه ، وأن يبقى معتمدا فى بلخ من قبله ليقوم على بقية العلف ، بحيث لا يكون عجز حين تصل جيوشنا . وكتبت الرسالة وأرسلت فى مدرج البريد .

ويوم الأربعاء التاسع من ذى الحجة جلس السلطان فى عيد المهرجان . وقدمت له هدايا كثيرة ، وكان ذلك يوم عرفات وكان السلطان صائما فلم يجرؤ أحد أن يلهو خفية أو جهازا . وفى الغداة احتفل بعيد الأضحى ، وأمر السلطان بإعداد حفل كان عظيما من ناحية ما أعد به من الموائد أو لما جرى فيه من حديث اشتباك الجند ، وكان السلطان لم يشرب منذ زمن بعيد . وقد جلس إلى المائدة بعد الصلاة والقربان وحىء بأركان الدولة ٥٥٦ والموالى والحشم وأجلسوهم على الموائد ، وأنشد الشعراء الشعر ، فإنه لم يستمع إليه فى عيد الفطر ، وعلى أثرهم أخذ المطربون فى الطرب والغناء ، ودارت كؤوس الشراب

فأصبحوا سكارى ، وقد أمر للشعراء بالصلات وكذلك المطربين^(١) . وقام من على المائدة بعد أن شرب سبعة كئوس وسار إلى قصر الحرم ، وانصرف الحاضرون ، وظل يشرب أسبوعا بعد ذلك ، وكان معظم شرابه مع الندماء ، وأمر المطربين بخمسين ألف درهم ، وقال أشبعونا طربا ولها فإنا سنزحف ولن يكون في خراسان طو أولعب حتى لا يذوق الأعداء النوم . فسمع محمد البرطى هذا — وكان أستاذا ماهرا في فنه وكانت له جرأة على السلطان — وقال حين يتوالى الفتح لمولاي ويجلس الندماء وينشدون الدوييت ويأتى المطربون فيعزفون على العود والبربط ، في هذا اليوم ما حكم الشراب ؟ فاستحسن السلطان هذا الكلام ، وأمر له بألف دينار علاوة على ماله . وبعد ذلك بأسبوع ركب السلطان من الصباح حتى الظهر حتى استعرض الجيش كله ثم صرف للجند أرزاقهم جملة واحدة .

وفي الثلاثاء خلع على الحاجب سباشى خلعة فاخرة وكذلك نال الخلع كثير من المقدمين الذين عادوا معه من خراسان . وفي الغداة ركب السلطان وجاء إلى صحراء شابهار وجلس على تلك الصفة ، واستعرض الجيش وكان جيشا كثيفا ، قبل إنه أكثر من خمسين ألف فارس وراجل ، كلهم مجهزون بالخيول القوية والسلاح التام ، وقال المحققون بل كانوا أربعين ألفا وقد ظل حتى ما بين الصلاتين إلى أن مر الجيش كله أمامه .

(١) في نسخة غفر - فياض ص ٥٥٦ (ومطر بانرا ترمود) أى ولم يأمر بها للمطربين . وجاء في هامش هذه الصفحة أن نسخة أخرى تقول : (ومطر بانرا نيز) أى وللمطربين كذلك . وأخذنا بهذا الأخير .

تاريخ سنة ثلاثين وأربعمائة

١٠٣٨ — ١٠٣٩

كانت غرة محرم يوم الأربعاء وفي الثاني منه ، الخميس ، حملوا السراشق وأقاموه على مرتفع خلف باغ فيروزي ، وأمر السلطان بأن يخلع على الأمير سعيد في هذا اليوم ، حتى يبقى في غزاة أمير عليها . وخلع على الحجاب والكتاب والندماء وأبي على الكوتوال وصاحب الديوان أبي سعيد سهل وصاحب البريد حسن عبد الله خلعا نفيسة . وقد ٥٥٧ تضمنت خلعة الأمير كل ما يليق بالإمارة ، وكذلك خلع الحجاب والكتاب والندماء .

وامتثالا لأمر السلطان ، بعثوا بالأمراء الآخرين مع سيدات الحرم إلى حصون ناي مسعودي وديري بعد صلاة العشاء . وسار السلطان رضى الله عنه من غزاة رابع محرم ونزل في السراشق الذي ضرب بباغ فيروزي ولبث به يومين حتى خرج الجند والناس جملة ، ثم ارتحل وجدّ في السير ، وفي استاخ جاءت رسالة من الوزير جاء فيها : إنه أمر ، امتثالا للأمر العالي ، بإعداد العلف في بلخ ، ولما قصد ولواج أبقى أبا الحسن هريرة خليفة له في بلخ حتى يكمل إنجاز ما بقي من العمل ، وأخذ العهد على أعيان الإقليم ليلذوا غاية الجهد لأن الراية العالية ستصل سريعا ، ولما بلغ خلم وصلته رسالة من بريد وخش تقول إن پورتكين يعد العدة ليأتى إلى پرکه من بين السكخيين وأنهم يقصدون هلبك ، وأن معه ، حسب ما قدروا ، ثلاثة آلاف فارس مدربين وقد تعدوا على الناس هنا ولو أن پورتكين يقول إن هذا الجيش يحى لخدمة السلطان ولكن الواقع هو كما بين ، وأنه (الوزير) بحكم ما قرأ في هذه الرسالة ، أقام هناك بضعة أيام ، وتوالت عليه رسائل أخرى من حدود خنلان تستغيث منه فهو ينهب كل مكان يخل

فيه جيشه هذا ، لذلك لم ير الوزير جواباً أن يسير إلى پرکة وغير خطة سيره ، وسار صوب بیروز ونخجیر حتی يبلغ بغلان ومن هناك ، عن طریق حشم کرد ؟ یذهب إلى ٥٥٨ ولواج . ثم يقول الوزير : « فإذا أسرع پورتکین بدخول ختلان وعبر آب بنج وكان يفكر فی أمرها ، فإني سأذهب إلى مضیق شنکوی (؟) وأسرع إلى خدمة الركاب العالی ، إذ ليس من وجهٍ للذهاب إلى طخارستان ، فإنه منذ جرت هذه الحادثة لكبير الحجاب فی سرخس اغتر كل لثیم بنفسه ، وقد أعد العلف فی ولواج وكتبت الكتب حتی يحتاطوا ، كما أن هناك العمال والشحنة أيضا ، ومع هذا كله فقد كتبت (الوزير) إلى پورتکین وأرسلت له رسولا وبيّنت له سوء ما جرى فی وخش وختلان ، وصارحته بأن السلطان قد ارتحل عن غزنة ، فإذا كنت تقصد الدخول فی طاعته فهذه الأحوال ليست من الطاعة فی شيء ، وأظن أنه حين تصله هذه الرسالة فإنه سيقیم حیث هو ، وقد بيّنت كل ما حدث حتی یلم به السلطان ، وإني أتوقع الجواب سريعا لأعمل حسب أمر مولاي إن شاء الله تعالى . »

وأغرق السلطان فی التفكير بعد قراءة هذه الرسالة ، وأمر بأن يكتب له هاتحن قد جئنا وسنصل عن طریق پزغوزك فيجب أن يأتي الخواجة إلى بغلان وأن يلحق بنامن هناك فی اند رآب بمنزل جوگانی . وأرسلت هذه الرسالة مع فرسان مسرعين . وسار السلطان على عجل وأقام يوما فی پروان ومر پزغوزك ، فلما بلغ جوگانی أقام بضعة أيام حتی تصل المؤن والأسلحة والفيلة والجنود . وجاء الوزير وقابل السلطان وطالت خلوتهما كثيرا ، وجرى الحديث فيها عن هذه الأمور . وقال له السلطان يجب أن نبدأ بپورتکین فإنه عدو وابن عدو ، ولم يكن له موضع بجانب أخيه عين الدولة ، وليس له من الجرأة ما يتيح له المرور بأطراف ولاية أبناء على تكین فهو يخشاهم ، وكذلك يخشى

والى صغانيان ، لهذا كله هو يتجه إلينا ، فإن بلادنا أضعف من غيرها ولذلك يلوذ بها كل من لا يجد له موطئ قدم . فقال الوزير سوف يتبين للسلطان ما يجب عمله فى هذا بعد أن يبلغ ولوالج .

وفى الغداة حث السلطان السير إلى ولوالج حيث نزل يوم الإثنين لعشرة بقين من محرم وهناك مكث قليلا ، ثم جاء إلى پروان وأخذ فى تدبير الأمر لإيقاع الرعب فى نفس پورتكين ، وقال لى ذاهب بنفسى للزحف . واستعدَّ للحملة عليه ، وكان پورتكين قد سمع بأخبار السلطان ، فعاد من آب بنج ، وقام فى العدو القصوى ، وكتب يحيب على رسالة الوزير بأنه ٥٥٩ حاضر للخدمة ، وأن ما حدث فى وخش وعند حدود هلبك كان بغير عليه .

فقال الوزير للسلطان لعل الصواب ألا يقوم السلطان بهذا الزحف ، وأن يقيم هنا فى پروان ريثما يأتى رسول پورتكين فتسمع قوله ، فإذا استقام^(١) تآديناه وأيدناه وعقدنا معه كل ما يجب من العهود والمواثيق ، ذلك أنه رجل جسور مجد شجاع ومعه فوج من الجند ، وحينئذ نوجهه لمقابلة التركان فى جيش كامل العدة حسن القيادة ، ثم إنه أعرف بأساليب الحرب معهم ، ويبقى السلطان فى بلخ معظما ، ويذهب السهاسالار مع جيش مجهز إلى مرو ، ويسير كبير الحجاب مع جيش آخر نحو هراة ونيسابور ، وينقض على الأعداء ويبطش بهم حتى يشتتهم وتلحقهم الهزيمة أو القتل أو الأسر ، فيهربون ويلجأون إلى ساحل جيحون ، وأسير أنا إلى خوارزم فأستعيدنها ، لأن بها حشم السلطان ، وحين يسمع الآلئون تاشيون عن مجيء السلطان إلى بلخ ، وذهابى من هناك إلى

(١) النص الفارسى « اكر راه بديه برد » ، وفى نفيسى ص ٦٨٠ ملحوظة . ا « راه بدم » (ياديه) بردن « يعنى الامتناع عن المسكر والحيلة والخداع » ، ثم السير فى الطريق المستقيم .

خوارزم ، فإنهم سيبنفرون من أبناء التوتناش ويعودون إلى طاعتنا وتصفوا
الأحوال في تلك الناحية .

فقال السلطان : « إن كل ما يقوله الوزير بجانب للصواب ، وسوف أقوم
بنفسي بهذه الأعمال ، ولهذا جئت ، لأن الجند كما أقول ، لا يؤدون واجبهم ،
ولكن حين أكون معهم يبذلون أرواحهم رخيصة أمامي أرادوا أولم يريدوا ،
وإن پورتكين لاكثر شرا من التركان ، فإنه قد انتهز الفرصة وزحف بجنده
بأكثر من نهب ختلان ، ولو تأخرنا قليلا لحرب تلك الواحي ، وسوف أتعبه
أولا حتى إذا فرغت من أمره اتجهت إلى الآخرين » .

فقال الوزير إن على الرعية أن يعرضوا على السلطان ما يروونه خيرا
أو ما يعرفون أنه الخير ، ولكن رأى السلطان هو الأصوب . وقال
السيهسالار وكبير الحجاب والسالارية الذين حضروا هذه الخلوة إن پورتكين
لص شريد فكيف نولي هذه الأهمية بحيث يطارده السلطان بنفسه ، وإذا
فما عملنا نحن ؟ قال الوزير حقا ما يقولون . فقال السلطان إذا نرسل ولدنا
مودود . فقال الوزير وهذا أيضا ليس من الصواب . واتفقوا آخر الأمر على
إيفاد السيهسالار ، وسجلوا في هذا المجلس أسماء عشرة آلاف فارس ثم انصرفوا
وأعدوا للأمر عدته ، وسار الجيش في الغداة ، است بقين ٥٦٠ من شهر محرم
إلى ختلان .

وسمعت من أستاذي أبي النصر قال : فلما فرغنا من المجلس الخاص
قال لي الوزير ألا ترى ما يسير عليه هذا السلطان من الاستبداد ؟ إنى أخاف
أن تضيق خراسان منا ، فإني لا أرى على الإقبال دليلا . فأجبت قائلا « إن
الحاجة كان غائبا عنا ردحا طويلا من الزمان ، وقد تغيرت أحوال السلطان
عما عرفته ، وكان لا يستطيع الإصغاء إلى النصيح ، وإن الله عز ذكره تقادير في

مثل هذه الأمور لا يستطيع الإنسان أن يكشف عنها ، وليس لنا من شيء غير الصمت والصبر ، ولكننا لحق نعمته علينا نرى لزاما أن نعرض عليه ما نعلم ، استمع إلينا أو أعرض عن حديثنا .

ولما سار السبب سارا مضى السلطان إلى حدود جزجانان .

شرح أحوال على القهندزي وأسرهم

كان في هذه النواحي رجل يسمى القهندزي ، توطن منذ مدة وكان له في السرقات والنهب والفساد جولات بها ، وقد انضم إليه جماعة من الأقوياء فكانوا يتربصون بالقوافل وينهبون القرى . وبلغ السلطان هذا ، فأراد أن يدفع شره ، ولكن كانت كل شحنة يوجهها إليه تعود خائبة ، فلما وصل السلطان إلى هنالك كان على القهندزي هذا قد استولى على مكان اسمه قهندز ، وهو قلعة حصينة أقام بها في غار على رأس جبل ، بحيث لا يمكن بأية حال الاستيلاء عليها عنوة ، وقد احتوى بالقلعة وأقام فيها كثيرين من اللصوص والعيارين بامتعتهم . وكان قد أفسد كثيرا وقطع الطرقات وقتل الناس في هذه الفترات التي كان فيها بخراسان ، واشتهر أمره ، فلما سمع أن الراية السلطانية تحركت وأنها بلغت پروان ، اختفى في هذا الغار وأخذ يقاوم ، فقد كان لديه علف متوفر كثير وعنده الماء الجاري والمروج على الربوة ، وكان هناك بئر واحد إلى الغار بحيث لا يستطيع الاستيلاء عليها قهرا وقد نزل السلطان رضى الله عنه على شاطئ نهر على هذا الطريق ، على مسيرة نصف فرسخ من هذا الغار . واجتمع للجيش كثير من العلف بحيث وقاه الحاجة فقد كان الوادي مملوء بالخضرة . وليس من حصر لحدود جوزجان التي كانت مروجها يانعة ورائحة . وقد تطوع لمحاربة هذا العيار نوشتكين نوبتي ، باعتباره أميرا لجوزجان ، ولو أنه كان

حدثا وكان يقيم بالسراى . فأجابه السلطان . إلى ما أراد فذهب مع غلباته
الأحداث الخمسين إلى ما يلي أسفل الغار ، وكان معه كذلك خمسمائة غلام من
غلمان السراى ، ورجال من مختلف الأجناس يبلغ عددهم ثلاثة آلاف أو
أربعة آلاف رجل ، منهم من جاء محارباً ٥٦١ ومنهم جاء متفرجاً .

تقدم نوشتكين واستمر يقاتل ، ولكن المحاصرين لم يتعبوا ، وكانوا
يدحرجون الحجارة على المهاجمين ، وكان غلام أستاذى ، پايتكين ، قد ذهب
معه سهام وقوس للمساعدة فى القتال . وپايتكين هذا حى يرزق وهو رجل
شجاع مناضل مبارز ، وله مقدرة على استعمال شتى أنواع الأسلحة بحيث
لا يضارعه أحد ، وخاصة فى لعب الصولجان . وهو اليوم فى سنة إحدى وخمسين
وأربعمائة (١٠٥٩) ، السنة التى أوصلت إليها التاريخ فى هذا الكتاب ، يعمل فى
خدمة السلطان الكبير أنى المظفر إبراهيم أنار الله برهانه ، وعمله أخص
الخدمات ، وهو الإشراف على الصولجان والسلاح والحرب ورمى السهام
والرياضات الأخرى . وقد شمله أستاذى برعايته وعطفه أخيراً حتى بلغ هذه
المنزلة الرفيعة .

وقد ألقى پايتكين هذا نفسه أمام نوشتكين نوبتى ، فقال نوشتكين أين
تذهب فإن الحجارة تلقى من هناك وكل حجر منها يقتل رجلاً ولو أنك أصبت
ببسوء فلن يخلص أحد من مؤاخذه الخواجة العميد أبى نصر . فقال پايتكين
سأ تقدم قليلاً وأتعرف الموقف وذهب وانهاالت الحجارة ولكنه حافظ على
نفسه ، ثم صاح قائلاً « لقد جئت رسولا فلا تضربوا وكفوا أيديكم » ، وسار
حتى أصبح تحت الغار فأنزلوا إليه حبلاً ورفعوه به . فرأى مكاناً مخيفاً منيعاً
فقال لنفسه ، لقد وقعت فى الشرك . وساروا به إلى على القهندزى ومر فى
طريقه على كثير من الرجال فرآهم مدججين بسلاح كامل . فسأله على : بأى شىء

جئت ؟ ولو رأيك أبو نصر يوما لما أجاز لك هذه المخاطرة ، إذ ليست هذه المشورة بما يصدر عن أبي علي . ومن هذا الطفل الذي أتيت معه ؟ فأجاب بأن هذا الطفل الذي جاء لمحاربتك هو أمير جوزجان وهو أحد غلمان السلطان الستة آلاف . وقد أوفدني برسالة إليك فإنه من المؤسف أن يصدر من رجل مثلك هلاك الناس والبلاد ، فتعال للسلم حتى أقدمك للسلطان وأخذ لك الخلعة والسرهنكية . فقال علي : لا بد من الأمان والاطمئنان . فترع پايتكين من إصبعه خاتما فسه من حجر اليشم وقال : « هذا خاتم السلطان أعطاه للأمير نوشتكين وأمره أن يرسله إليك » .

وكان أجل هذا الغرق دنا ، فانخدع بهذا الحديث ونهض يريد أن ينزل معه ، فتعلق به رجاله وأخافوه من الخديعة ، ولكنه لم يلتفت إليهم ، حتى إذا اقترب من باب الغار ندم على ما فعل وعاد . فأخذ پايتكين يشعوذ عليه ، وكان أجله قد حان ، وكانت جرأته على السفك قد طمست على عقله ، فعزم على أن ينزل من كمينه . وفي هذا الوقت كان عدد لا يحصى من رجال السلطان قد تجمعوا تحت الغار . وفتح الباب وكان پايتكين ممسكا عليا من كفه ، فنزل وكانت هذه نزاته الأخيرة فاستولى جنود السلطان على القلعة وأسر رجاله جميعاً . وبلغ السلطان الخبر وقال نوشتكين إنه هو الذي فعل هذا ، فزاد جأه وذاع صيته مع أن هذا كله من صنيع پايتكين الذي كان في ذلك الوقت شابا صغيرا واستطاع أن يفعل ما فعل . واليوم وقد رفع مرتبته السلطان الكبير أدام الله سلطانه وقربه منه ، فإنه إذا لقي مزيدا من الإقبال والإكرام فمن اليسير إدراك ما يقدر عليه . وها قد أدبت حق من رفعه أسـ تاذى وهو بمنزلة أخى . وذكرت فتح هذه القلعة إتماما للتاريخ .

أمر السلطان أن يسلم للحرس هذا المجرم الملعون الذي ارتكب الكثير

من الآثام وأزهق كثيرا من الأرواح بغير حق هو وأنصاره المجرمون الآخرون . فشنق مع سبعين ومائة من رجاله في يوم الأربعاء ، وقد تصببت المشانق بعيدا عنا في صدفين وكانت تبدأ من باب الغار ، ثم هدم الغار وخربت القلعة حتى لا يحتوى بها عيار .

وسار السلطان من هناك واتجه نحو بلخ ، وفي الطريق وصلت رسالة من السهسالار على : بأن پورتكين قد هرب ولجأ إلى الكمخين فبأى أمر تأمرون ؟ هل أتأثر من ختلان خطاه أم أبقى هناك أم أعود ؟ فأرسل إليه الجواب بوجوب مجيئه إلى بلخ حتى يتخذ ما يلزمه من تدبير .

وبلخ السلطان بلخ يوم الخميس الرابع عشر من صفر ونزل في الحديقة . وجاء كذلك السهسالار على بعدنا بأحد عشر يوما فقابل السلطان وقال : كان الصراب في تعقب أثر هذا العدو فإن رأسه ملئ بالفساد ، ثم بين للسلطان أن أهل ختلان قد ضاقوا بپورتكين وبجيشه ولكنهم يبالغون في الكلام عنه ، ويقولون إنه إذا أتيح للسلاجقة أن يستولوا على خراسان فإن هذا الرجل أولى بها منهم لأنه ابن ملك .

واختلى السلطان في اليوم التالي بالوزير والأعيان وقال : « لقد أصبح فريضة علينا أن نبدأ بموضوع پورتكين وأن نفرغ من أمره هذا الشتاء ٥٦٣ ثم نقصد السلاجقة حين يظهر الربيع » . فلم ينبس الوزير ببنت شفة . فقال السلطان : لا بد لك من الكلام . فأجاب : « إن أمر الحرب دقيق وإن على أرباب السيف وحدهم أن يتكلموا فيه . أما أنا فأتحاشى التحدث في مثل هذه الأمور ما استطعت ، فإن حديثي عنها لا يستسيغه السلطان » . فقال أستاذي « إن على الأستاذ الرئيس أن يشير إلى الحسن والقبيح فإن السلطان لو يصر على أمر ما فإنه — حين يعيد التفكير فيه — قد يستمع آخر الأمر لكلام الناصحين المخاضين » .

فَقَالَ الوزير: «إني لأستصوب بأية حال أن يسير جيش في هذا الوقت الذي لو ألقى فيه الماء على الأرض لجمد، إنما تساق الجيوش إما في وقت النوروز حين تخضر أوراق الشجر وإما حين تجمع الغلات، إن أماننا خطباً أعظم وتسيير الجيش لحرب يورتكين بعيد جداً عن الصواب، فأعتقد أن الأفضل توجيه كتاب إلى والي صغانيان وإلى أبناء على تكين الذين تعاهدوا معنا حتى يقتفوا أثر هذا الرجل ويطاردوا أتباعه، فنضرب عصفورين بحجر، وحتى إذا حلت الهزيمة فإنها تقع على أحد الفريقين ولا تقع على جيشنا، فقال الجميع هذا رأى صائب. وقال السلطان: إلى أن أفكر فيه ملياً. وانصرفوا.

وبعد ذلك قال السلطان إن الصواب هو أن نذهب لمحاربة هذا الرجل. وفي الثامن من شهر ربيع الأول أرسل كتاب إلى بكتكين صاحب الصولجان المحمودي وفيه أمر له بأن يقيم جسراً على جيحون لأن الركاب العالي سوف يتحرك على عجل.

وكان السلطان سبكتكين قد أسند قيادة قلعة ترمذ إلى بكتكين بعد قتله. وكان بكتكين مبارزاً وشهماً وقاد كثيراً من الجيوش كما ذكرت في عدة مواضع من هذا الكتاب. وجاء الرد: «بأن الجسر قد شد إلى مكانين وفي وسط الجزيرة، وأنه جسر قوى شديد الإحكام لأن الآلات والسفن اللازمة لإقامته كانت كلها موجودة سليمة منذ أوعز السلطان محمود بإقامته، وقد وكلت حراساً لحماية هذا الجسر من الجانبين ليلاً ونهاراً حتى لا يمتدح العدو ويتلفه». فلما جاءت هذه الرسالة أخذ السلطان في التحرك بالجيش، على أن يذهب بنفسه، ولم يجرؤ أحد على التكلم في هذا الأمر، فقد كان شديد الضجر من كثرة الأخبار المختلفة التي تلاحقت عليه كل يوم منبهة بحادث جديد.

وتكررت التصرفات التي لا تصدر عن روية مدة تسع سنوات بما كانت

تبدو نتائجها الآن . والأعجب من هذا كله أنه لا يقف عند جد في ٥٦٤
تاستبداده ، وكيف كان يستطيع التروى والتبصر وقضاء الله وقدره مخبأ له .
وقد قال الوزير عدة مرات لأستاذي :

أترى ماذا سيفعل ؟ إنه عازم على عبور جيحون في مثل هذا الوقت لكي
يطرد پورتكين لأنه جاء إلى ختلان ولأنه عبر نهر پچ آب ، وهذا العمل
لا يعرف عاقبته إلا الله ، وإن الأوهام والخواطر لعاجزة عن إدراكه .

فأجاب أبو نصر : « ليس لغير الصمت مجال ، فإن النصيحة التي تنقلب
همة ليس من الحكمة إبدائها » .

وكان رجال الحاشية جميعا يعرفون ذلك ، وكانوا يتحدثون في الخارج عن
مغبة هذه الأمور ، فوسطوا أبا سعيد المشرف كي يكتب للسلطان . ولكن بلا
جدوى . وكانوا حين يجتمعون بالسلطان يوافقون على رأيه فإنه كان يغضب
على من يخالفه .

وفي يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع الأول توفي أبو القاسم الكاتب
صاحب بريد باخ . وقد تحدثت في هذا الكتاب عن أحواله فلا محل لإعادة
الحديث . وفي الغداة أعاد السلطان عمل البريد إلى أميرك البيهقي ، وقد عاونه
أستاذي معونة صادقة ليؤول إليه هذا المصب ، وأزال ما كان بينه وبين الوزير
من سوء التفاهم ، حتى استقام له هذا الأمر ومنح خلعة قيمة .

ويوم السبت منتصف هذا الشهر جاء كتاب غزته ينبيء بوفاة الأمير سعيد
رحمة الله عليه . وكان السلطان في سراي الحرم وكان يشرب . فوضعوا الكتاب
ولم يجرءوا على أن ينقلوا إليه هذا النبأ وهو بين كؤوس الشراب . وفي الغداة ،
حين جلس على التخت ، وقبل أن يعدوا الأمر للاستقبال ، حمل خادم الرسالة

وأعطاه إياها ثم انصرف . فلما قرأ السلطان النبأ نزل من على التخت وأن أنة .
دوت في سراى الحرم . ثم أمر الخدم أن يسدلوا الستار الذى رفعوه أمام
التخت ونودى بأن لا استقبال اليوم . وعاد الغلمان وجاء الوزير والأولياء
والحشم إلى الإيوان ، وظلوا جالسين إلى قبيل الظهر عسى ٥٦٥ أن يخرج
السلطان للعزاء ، فأوفد إليهم رسولا بأن يعودوا إلى بيوتهم ، لأننا لن نجاس
للعزاء ، فانصرف القوم .

ولوفاة هذا الشاب قصة من النوادر لا محالة من ذكرها . كان هذا الأمير
أقرب أبنائه منه وأحبهم إليه ، وكان قد نصبه ولي عهده ، والله تعالى قد قدر
للأمير مودود ، أن يخلف أباه . فماذا يستطيع الوالد ؟ وقبل أن يصل خبر
موته جاءت الكتب بأنه مصاب بالجدرى ، وكان السلطان رضى الله عنه قلقا
وكان يقول : « لقد مرض هذا الولد بالجدرى من قبل وإصابته به مرة أخرى .
أمر عجيب » . ولم يكن الجدرى هو الذى سبب موته إنما هى علة أصابته
ولما يتمتع بزهرة شبابه ، فقد كان لا يستطيع أن يقترب من النساء وأن
يعاشرهن ، فلم يطلعوا على أمره طبيباً لى يعالجه العلاج الناجع ، فإنه لم يكن
عنينا ، وقد يصاب الشبان بأمثال هذه العلة . وظن النساء كما هو دأبهن أن
الأمير « مربوط » .

وجهرت عجوز كرديزية سماً واستخرجت منه ماء وألقت فى الماء شيئاً ثم
سقته لهذا الشاب العزيز فشربه وشلت منه سبعة أعضاء ، وغشى عليه أحد
عشر يوماً ثم قضى نحبه . وقد جزع السلطان لوفاة هذا الأمير جزعا شديداً
وأقام في سراى الحرم ، وكان هذا الموت المفاجئ أحد الحوادث السيئة التى
جعلت الناس لا يجرؤن على إخباره بأن عبور جيحون خطأ ، فإنه لم يستقبل
أحداً ، وفجأة امتطى جواده وسار إلى ترمذ .

وجاءت في هذين اليومين رسالة شغوية منه إلى الوزير يقول فيها : « إنه لابد من المسير ، وإن عليك أن تقيم والامير مودود في بلخ مع الجيش الذي أقماه هالك من غلمان السراى ومن الأصناف الأخرى ، وعلى الحاجب سباشى أن يذهب إلى دره كز ، وكان قد أقام ثمة الفرسان وغلمان السراى ومعهم أسلحتهم ، وكذلك فإن معه ألفين من الفرسان الترك والهنود عدا غلمانه وفرسانه ، وعلى الحاجب بكتغدى أن يبقى هناك على رأس الغلمان ، وعلى السهسالار أن يأتى معنا ومعهم رجال الجيش من المقدمين والقادة والحجاب الذين دونت أسماؤهم وينبغى أن يتم هذا العمل بدقة . » فقال الوزير سمعا وطاعة . وبقي في البلاط إلى قبيل صلاة العشاء حتى أعد الأمر ٥٦٦ على خير وجه . وسار السلطان من بلخ إلى ناحية ترمذ يوم الإثنين التاسع عشر من هذا الشهر ، وعبر الجسر ونزل في الوادى المحاذى لقلعة ترمذ . وكان أستاذى مع السلطان في هذه الرحلة ، وقد ذهبت معه وكان الجو باردا برودة لا يذكر أحد أنه شعر بمثلها في حياته .

ويوم الخميس لثمانية أيام بقيت من هذا الشهر رحل السلطان من ترمذ ، وبلغ صغانيان يوم الأحد آخر هذا الشهر ، ورحل من هناك يوم الأربعاء الثالث من ربيع الآخر ، وسار على طريق مضيق شونيان (سومان) حيث أخبروه بمسير پورتسكين ، وكان البرد هناك من نوع آخر ، ولم ينقطع هطول الثلج ، ولم ياق الجيش من مشاق الطريق مثل ما لقي في هذا السفر .

ويوم السبت التاسع من هذا الشهر جاء الفرسان المعينون على الطريق برسالة الوزير فتمتجها السلطان وكان فيها : « إن الأخبار قد جاءت بأن داود قد قصد جوزجان في جيش قوى حتى يأتى إلى جيحون عن طريق أندخود ، والظاهر أن قصده من هذا هو أن يخرب الجسر ، ويستولى على ضفاف النهر ، ويشير فسادا

كثيراً ، وإني أعرض هذا حتى يتدبر السلطان الأمر ، فإنه خطر عظيم ،
إذ أن في هدم الجسر والعياذ بالله ضياع هيبتنا . وقلق السلطان كثيراً ، وكان
يورتكين قد سار من سومان واستولى على المضيق ، فقد كان يعرف الأراضي
المحيطة به وكان له أدلاء ماهرون . فعاد السلطان من هناك بخفي حنين ، وكان ذلك
يوم الجمعة الثاني عشر من هذا الشهر ، وحث السير حتى بلغ آمد . وقد انتمز
يورتكين الفرصة ، فنهب بعض أمتعتنا وخطف كثيراً من جمالنا وخيولنا وساقها
إلى معسكره ، فكان لنا في هذا المهانة والقلق .

وباغ السلطان ترمذ يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر ،
وكان قائد القلعة بكتكين صاحب الصولجان (جوكاندار) يصحب السلطان
في هذه الرحلة ، وقد أتى بخدمات جليلة ، وكذلك فعل نوابه وقواده في القلعة
حيث اتخذوا الحيلة الكاملة ، فحمد لهم السلطان ذلك وأمر لهم بالخلع . وفي
الغداة كان في ترمذ ، ثم عبر الجسر يوم الأحد ليومين بقيا من هذا الشهر ، وبعد
ذلك جاء بلخ يوم الأربعاء الثاني من جمادى الآخرة .

وجاءت الكتب من نيسابور يوم الإثنين السابع من هذا الشهر تقول إن
داود قد جاء إلى نيسابور ليرى أخاه ، وإنه أقام بها أربعين يوماً في قصر شاديخ ، ٥٦٧
وقد منحه طغرل خمسمائة ألف درهم . وهذا المال وغيره من الأموال التي كانت
تحت تصرفهم كان قد جمعها السالار بوزكان ، ثم إنه عاد من نيسابور إلى سرخس
على أن يجيء إلى جوزجان .

وجلس السلطان للاحتفال بالنوروز يوم الأربعاء الثامن من جمادى
الآخرة . وفي يوم الجمعة العاشر من هذا الشهر جاءت الأنباء بأن داود قد باغ
طالقان مع جيش قوى كامل الأبهة . وفي يوم الخميس السادس عشر من هذا
الشهر وصل نبأ آخر يقول إنه دخل فارياب ، وإنه سيسرع منها إلى شهورقان ،

وإن السلاجقة يهبون ويقتلون حيثما حلوا . وفي ليل السبت الثامن عشر من هذا الشهر جاء عشرة فرسان من التراكمة بقصد السرقة قرب حديقة السلطان ، وقتلوا أربعة من الرجال الهنود ، ثم واصلوا السير إلى قرب قهندز — وبها تحفظ الفيلة — فأوفوا فيلا وقد نام طفل على ظهره فأسرع التراكمة وساقوا الفيل ، والطفل يغط في النوم ، حتى إذا قطعوا فرسخا بعيداً عن المدينة أيقظوا الطفل . وأمره بأن يسوق الفيل بأقصى سرعة « وإلا قتلناك » . فقال : سمعاً وطاعة . ثم ساق الفيل والفرسان على أثره يستحثونه وينخسونه بالرماح ، وقطعوا شوطاً طويلاً قبل نهاية النهار وأتوا بالفيل إلى شبورقان . فأمر داود بالصلوات للفرسان ، وأمر بأخذ الفيل إلى نيسابور . وترتب على ذلك أن ساءت سمعة رجالنا فقد قيل إن هؤلاء القوم من الغفلة بحيث يتمكن العدو من سرقة الفيل من معسكرهم . وعلم السلطان بالحادث في اليوم التالي ، فضاق به صدرا ، ولام الفيالة لوما شديدا ، وفرض عليهم غرامة مائة ألف درهم ثمنا للفيل ، وضرب جماعة من الفيالة الهنود .

وفي يوم الإثنين الموافق لعشرين من هذا الشهر طرق أبواب بلخ آلى التركاني حاجب داود ومعه ألفان من الفرسان ثم وقف بجنده في مكان منها يسمى « بندكافران » ونهب قرية من قراها ، ولما بلغ الخبر المدينة ضاق صدر السلطان فقد كان الفرسان في قرية دره كز ، وكان الحاجب الكبير على رأسهم فطلب السلطان عدة القتال ولبسها وركب مع غلمان الخاصة الذين توفرت لهم الخيول فحدث هرج ومرج في البلاط . وجاء الوزير والسپهسالار ، فقالا للسلطان : « أطل الله حياتك ماذا حدث ٥٦٨ حتى يكرر السلطان الأمر بطلب السلاح ؟ إنه لم يحدث شيء سوى أن رجلا جاء وكأنه من المقدمين فوجب إرسال رجل مثله لمقابلته ، فإذا كان أرفع من ذلك مرتبة فالواجب أن يرسل إلى لقائه السپهسالار » . فقال السلطان : « ما حيلتي ؟ إن هؤلاء الجند

الخائرة عزائمهم لا يقدرّون على شيء وقد أراقوا ماء وجهي — وكانت هذه أكبر شتائمهم — . وأخيرا أمر بأن يذهب الحاجب مع بعض الفرسان وصنوف أخرى من الجند . وسار السهسalar ، متنكرا بغير كوس أو علم على أثره . وعند صلاة العصر بدأت المناوشة وحمى وطيس القتال وقتل وجرح كثير من الفريقين ، وفي المساء رجع آلتى وجاء إلى علياباد . وقيل إنه أقام بها تلك الليلة ، وإنه أطلع داود على ماجرى فجاء من شبورقان . وفي يوم الخميس لسبعة أيام بقيت من الشهر ذاع الخبر بأن التعبئة والزحف قد أعدا في علياباد . فأمر السلطان بأن يستعد الجيش ، وجيء بالخيول من دره كز وعاد الحاجب سباشي مع الجيش . وسار السلطان رضى الله عنه من باخ يوم الخميس غرة رجب ، وحطت القافلة رحلها عند الجسر ، ثم جاءت الجيوش . وهناك أمر بالتعبئة ، وكنّت قد ذهبت معهم ، وسار السلطان من هناك مع جيش مجهز وثلاثين فيلا أكثرها ثمل . وفي يوم الإثنين الثامن من الشهر ظهر العدو في وادي علياباد من ناحية الصحراء ، ووقف السلطان على ربوة وكان يمتطي فيلة وبدأ الجيش القتال ، وكان كل رجل يقول عن داود : يا له من فارس مغوار ، لقد جاء وحييـدا بغير أخ ولا قوم ولا أعيان ليحارب بهذه القوة . واشتد أوار الحرب بينهم . ولأول مرة في حياتي شاهدت حرب الميدان ، وكان ظني قويا بأن جيشنا سيقضى على الأعداء قبل الضحى . فقد كان في جيشنا ستة آلاف غلام من غلمان السراي ، عدا الطبقات الأخرى من المقاتلة ، ولكن الواقع كان غير ما ظننت فقد بلغت الحرب أشدها ، وكان الاشتباك في الميدان بين جماعتين كل منهما أقل من خمسمائة فارس ، وظلت بقية الجيش كالمتفرجين ، وكلما تعب فوج اعتزل وحل محله فوج بمن أخذوا حظهم من الراحة . واستمر الحال على هذا النحو حتى صلاة الظهر . فضاق صدر السلطان وطلب حصانا فامتطاه مدججا بسلاحه وأرسل رجلا إلى بكتغدى ليأمره بألف من خيرة الفرسان المدرعين

الذين كان قد انتقام والتف جوله أصناف شتى . وحمل السلطان بنفسه في الميدان ثم وقف وحمل الغلمان على الأعداء حملة شعواء فولوا منهزمين ، وكان كل منهم يريد النجاة بنفسه وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم عشرون وتشتت الباقون وتفرقوا في الصحراء ورغب جند السلطان في تعقبهم فأرسل السلطان النقباء لينعومهم من مطاردتهم حتى لا يذهب أحد في أثر المنهزمين وقد قال : « إنها ٥٦٩ الصحراء ومن المحال ارتكاب المخاطر وكل قصدنا أن نقضى عليهم جملة واحدة ، وهؤلاء الذين جاءوا ذاقوا ضربتنا ، ولو أتى من العدو مدد على أثرهم فإن ينجو منهم أحد ، فقد ثبت ذلك بعد شهر من هذا الحادث إذ بين جواسيسنا وعيوننا أن الأعداء كانوا يقولون : « من المحال أن يقف أحد أمام صفوف هذا السلطان ولو تعقبنا أحد بعد أن ولينا منهزمين لما قامت لنا قائمة » . وجيء بالأسرى وسئلوا فقالوا إن داود جاء هنا دون إذن من طغرل وإنه قال « أنهض إليهم مرة أستكشف ما هم عليه » فامر السلطان بأن تصرف إليهم النفقات وأن يطلق سراحهم ونزل في عليا باد يوما واحدا ، ثم سار منها إلى بلخ في يوم السبت السابع عشر من رجب ولبث فيها حتى وصلت الإمدادات الإضافية من غزنة .

وجاء رسول بكتاب من پورتكين يعتذر عما بدر منه ، فرد عليه السلطان ردا جميلا فإن هذا الرجل ، بعد وفاة والي صغانيان في شبابه وبغير عقب ، ذهب مؤازرا الكمخيين في صغانيان ، وكان بينه وبين أبناء على تكين خلاف شديد . ولما كان أمام السلطان عمل جدير بالتفرغ له لم ير غير انتهاج سياسة الود معه ، نظراً لما هو فيه ، وذلك حتى يضرب بعضهم بعضاً وتغير « الكلاب على »^(١) البقر . فيشتغل كل منهم بعدوه ، ويتقى شرفتهما في ملكه إبان غيبته . ولكن الأمر

(١) هكذا كتبت باللغة العربية .

لم يتم على هذا النحو أخيراً وسأذكر فيما بعد كيف كان مآل الأمور ، فقد كان من العجائب والنوادر ما كان ستار الغيب قد أخفاه مما تقصر عن إدراكه الخواطر والأوهام .

وتحرك السلطان رضى الله عنه من بلخ ، على أن يذهب إلى سرخس ، وذلك فى يوم الثلاثاء نصف شعبان وكان معه جيش كامل الأهبة ، وقد أجمع الناس على أنه قادر على غلبة أهل تركستان أجمعين لو واجهوه . واستراح قليلا فى الطريق حتى تصل الجيوش التى أمر بتوجيهها إليه من كل فج . وبوم الأحد غرة رمضان بلغ طالقان حيث لبث يومين ثم رحل عنها ، وجهز التعبئة .

وجاءت العيون والجواسيس تنبئ بأن طغرل قد جاء من نيسابور إلى سرخس ، وأن داود ٥٧٠ كان بها ، وأن ييغو قد بلغها من مرو ، ويقال إن بها عشرين ألف فارس وإنهم قد عقدوا العزم على أن يواجهوا السلطان محاربين غير عابئين بالعواقب ، وإنهم سيحاربون فى تلخاب وفى قرية بازركان ، وإن طغرل واليناليين يقولون إن الرى والجبال وجرجان وحفنة من المرتزقة والديلم والكرد سيقابلوننا هناك ، والصواب أن نذهب ونغتحم الفرصة لأن تغور الروم ليس فيها مقاتلون ، وأن نترك خراسان وهذه النواحي مع هذا السلطان العظيم القوى صاحب الجيوش الجرارة والرعية العديدة . فقال داود : « ما أفدح ما وقعتم فيه من الخطأ . لو أنكم تزحزحتم عن خراسان فلن يقر لكم على الأرض قرار ، لغارات هذا السلطان علينا ولما سيثيره حولنا من الأعداء الأشداء ، فإن هذا السلطان سيغزونا وسيثير من كل جانب أعداء أشداء علينا ، وقد رأيت حرب الميدان فى عليا باد ، لقد كان له كل ما يريد من رجال وعتاد ولكن الأحمال الثقيلة ، وليس فى وسعهم أن يكونوا بعيدين عنها فبغيرها لا عيش لهم ، هى

سبب عجزهم لأنهم مضطرون إلى حماية أنفسهم وحماية متاعهم ، أما نحن نخفاف لا متاع لنا وقد حلت الهزيمة بيكتغدى وبسبب ثقل متاعهم ، ومتاعنا خلفنا على مسيرة ثلاثين فرسخا ونحن بهذا قانعون ، فينبغي أن نمضى فى الحرب كالرجال حتى نرى تقدير الله عز وعلا . فسر الجميع بهذا الرأي وأقروه .

وكان پورتكين يزداد بمضى الأيام قوة فى الحرب ، وكذلك كان جميع الفارين المشردين الذين كانوا معنا من قبل ، أمثال الأمير يوسف والحاجب على قريب والغازى وأريارق وغيرهم . وقال طغرل ويغو يجب ألا يحدث هؤلاء حدثا فى أى مكان فلعلهم أن يكونوا قد خدعوه بالمراسلات . فقال داؤد ليس من الصواب أن ندع هؤلاء وراءنا ، إنهم موتورون لقتل ملكهم ، وقد ألجأهم الضرورة إلى هنا ، وأما الزعماء منهم أمثال سليمان أرسلان بجاذب وقدر الحاجب وغيرهما فيجب أن نرسلهم فى مقدمة الجيش ونرى ما سيكون إذا كانوا قد أضربوا الغدر فإن جماعة منهم ستفرو وتضم إلى سلطانها وإذا استبسلوا فى الحرب فهذا خير لنا وذلك حتى نكون آمنين . فقالوا هذا هو الأصوب ، وقالوا لهؤلاء الفارين إن السلطان قد أتى وقد سمعنا أنهم يمدعوك وأنكم تريدون أن تولوا فرارا فى المعركة ، فإذا صح هذا فاذهبوا لأنكم إذا فررتم أثناء المعركة فإنه من الممكن أن يعيدوا الكرة عليكم فيصيبكم بلاء عظيم ، ويبطل حق ما بيننا من الخبز والملح . فقالوا جميعا إنهم ٥٧١ قتلوا ملكنا وقد لجأنا إليكم من الخوف والحاجة ، وستقاتلهم ما بقى فينا عرق ينبض ودليل ذلك ما نريد من أن ترسلونا فى طليعة جيشكم حتى يتبين ما يكون منا وأى نتيجة لمشاركتنا . فقال السلاجقة لم يبق شك فى نفوسنا ، وعينوا پورتكين فسار على رأس الطليعة ومعه ألف فارس وأغلبهم ممن فروا

(م ٤٠ — يتهى)

من جيش السلطان والتجأوا إلى السلاجقة ، وسار على أثره في مثل هذا العدد سليمان أرسلان جاذب .

محاربة السلاجقة في بيداء سرخس وهزيمتهم

فلما وقف السلطان على هذه الأمور أخذ يسير في التديير على وجه آخر وكان يتوقع أن يعود هؤلاء الغلمان إليه حين يرون رايته ، وكانوا قد خدعوه بهذا الزعم وقد دفعنا ثمن هذه الخدعة . ويوم الأربعاء الثامن عشر من رمضان ظهرت طلائع العدو قبيل الضحى ، كانوا ثلاثمائة فارس عند طلخ آب ونزلنا بقربهم وكانت الأمتعة تسير وراونا . وتوقف السلطان وكان ممتطيا الفيل ، حتى نصبوا الخيمة . ودنت طليعة العدو كذلك ، فأسرع من جانبنا جماعة نحوهم ، وكان اشتباكا قويا ، وجاء فرسانهم وذهب إليهم من جانبنا جماعة ، وضربت الخيام ونزل السلطان مع الجيش وانسحب الأعداء ، وفي تلك الليلة اتخذت الخيمة الكاملة حتى لا يحدث اضطراب في المعسكر . وفي الصباح الباكر دقوا الكوس وركب الجند وذهبوا للتعبئة . فلما ساروا فرسخين ظهر جيش كبير للعدو ، واشتبكت الطليعتان وكانت حربا عوانا ، وأظهر جند الفريقين حمية حتى ظهرت أمامهم قرية بازركان وفيها نهر يجرى وعيون متفجرة وصحراء ملؤها الرمل والحصى . وكان السلطان ممتطيا فيلة في القلب ، فتقدم حتى ارتقى مكانا ليس بالمرتفع كثيرا ، وأمر بنصب الخيمة الكبيرة هناك ، حتى ينزل الجيش على شاطئ الماء ، وأخذ العدو يزحف عليهم من أربع جهات وقامت معركة حامية الوطيس وأخرج الجيش حرجا شديدا ، إلى أن تمكن من النزول وأقاموا خياما لا تحصي وكان الخوف شديدا من احتمال وقوع خطر عظيم . ولكن العظاء ومقدمي الجيش قد بذلوا ٢٧٥ غاية الجهد حتى أمسكوا بالزمام . ومع هذا كله فإن العدو قد أخذ كثيرا

من الجمال كما قتل وجرح كثيرين منا ، وكانت قوى الحرب منبعثة من ناحية
الفارين من معسكرنا ، أولئك الذين أرادوا أن يثبتوا للسلاجقة أنهم ليسوا
كما زعموا على الصورة التي تصورها عنهم ، وأنهم مخلصون ، وذلك حتى
يأمنوا جانبهم ، وقد أمنوا فإن أحدا منهم لم ينحز إلى ناحيتنا . وكان
جواسيسنا قد كذبوا كثيرا في هذا الشأن ، وقد أغرتهم الرشوة ، وتبين
اليوم أن كل ما قالوه كان بهتانا وزورا . ولما نزل الجيش مع التعبئة كان
السلطان في القلب وكان على الميمنة السهسلاار على ، وعلى الميسرة الحاجب
الكبير سباشي ، وكان على الساقة أرتكين . وكذلك رجع الأعداء وأقاموا
معسكرهم قربنا على حافة مرج ونزلوا بحيث كان قرع طبول الجيشين مسموعا
من كل منهما . وكان معنا كثير من الرجال فحفروا الخنادق حول المعسكر ،
واتخذوا كل ما يمكن من الحيطة في هذا اليوم ، وقد كان السلطان رضى الله
عنه آية في تعبئة الجيوش ، وقد بذل أقصى ما يملك الرجل من الجهد ، ولكن
نجمه لم يتغير ، فقد أراد الله أمرا آخر وكان ما أراد . ولم يكن من
المستطاع المسير بحمل واحد خطوة واحدة في معسكرنا فكان كل جمال يحتفظ
بحمله أمام خيمته ، وعند صلاة العصر جاء فوج قوى من الأعداء ليحولوا
دون شرب جيشنا من هذا النهر . فبعث السلطان بدر الحاجب وأرتكين
مع خمسمائة غلام للقائم فأشبعوا العدو قتلا وتجرىحا . ولما اقترب الليل
انتشرت الطلائع الاحتياطية القوية من الجهات الأربع . وفي اليوم التالي جاء
من العدو فوج أكبر ونشبت الحرب في الجهات كلها . ولم يشترك السلطان
في المعركة لأن الوقت كان آخر شهر رمضان ، فأثر أن يحارب بنفسه بعد
العيد حتى لا يراق دم في هذا الشهر . ودامت الحرب سجالا في عدة
جهات كل يوم ، وكان لا بد من بذل جهد كبير لتوفير العلف للجمال .

وكان يستطاع المجيء بالغلف بواسطة ألف أو ألفين من القوسيات، ولكن الأعداء كانوا يطاردونهم يمنة ويسرة ويبيدون كل ما في وسعهم من الجلبة.

وكان موضوع الغلف شاقا، والسلطان قلق من أجله فاحتل لذلك أكثر من مرة بالوزير ٥٧٣هـ والأعيان وقال لهم: «إني لم أكن أعرف أن هؤلاء القوم على هذه الدرجة من القوة»، ولقد خدعوني في الحديث عنهم، ولم يذكروا الصدق كما كان الواجب، وكان ينبغي أن تبدأ بتدبير هذا الأمر، ولا بد من حرب المصاف بعد العيد، ثم نتخذ بعد ذلك منهم سلوكا آخر، واستمر الحال على هذا الوضع وظلت الحرب قائمة بقية شهر رمضان، فلما انتهى الشهر عيد الأمير وكان قد جاء من الأعداء أربعة آلاف أو خمسة ورموا علينا سهامنا كثيرة وقت اشتغالنا بالصلاة. فلما فرغنا من الصلاة كال لهم جنودنا ضربة قوية وقتلوا منهم مائتين وشفوا ما في قلوبهم من غل فقد أذاقوهم من القتال. وقد كافأ السلطان هؤلاء المقدمين الذين دافعوا عن الشرب وأمر لهم بصلات. وكانوا يستعدون طول الليل وفي الصباح دقوا الكوس وامتطى السلطان فيلة ومن حوله الجنائب من خمسين فارسا. وكان المقدمون قد وفدوا واتخذوا مواقعهم في الميمنة والميسرة والجناحين وعند مخازن الذخيرة والمقدمة والساقة. وصاح السلطان بالسپهسالار وأمره أن «إذهب إلى مكانك وكن حذرا وجاهد ما استطعت فإننا نريد أن نفرغ من هذا الأمر اليوم بعون الله تعالى». وأمر الحاجب الكبير أن «إذهب على رأس الميسرة وفكر مليا واصنع لأمرنا وارقب حركاتنا حين نكر على العدو إحمل أنت في دقة على ميمنته ويحمل السپهسالار على ميسرته وسأراقب المعركة وأرسل إليكم الإمداد من الجناحين حتى نرى كيف يتطور الحال. فقال الحاجب سمعاً وطاعة. وساق السپهسالار وكذلك سار سبائشي. ثم أمر السلطان أرتكين أن يكون على الساقة مع خمسمائة من أقوى فرسان السرائ وخمسمائة فارس.

هندى وقال : التفت حتى لا يحدث خلل فى الإمدادات والجيش الطريق جرانة دقيقة حتى إذا رأيت راجلا من جيشنا يفر من الصف فاشطره نصفين . فقال : سأفعل هذا وسار .

فلما فرغ السلطان من هذه الأمور ساق الفيلة وتحرك الجيش حتى اتظن أن الدنيا تحركت وأن الفلك حائرا من ضجيج الرجال وأصوات الكوس والأبواق والطبول . فلما قطع الجيش فرسخا فى الطريق ظهر العدو فى جيش قوى جدا بعدد وآلات كاملة . ثم نظمت التعبئة حسب رسم الملوك . واشتدت الحرب بشى الوسائل . وكنت وأمثالى من غير المحاربين لا نعرف أين نحن من الدنيا ولا كيف يكون المصير .

وهبت الريح عند صلاة الظهر وثار النقع ، حتى لم ير الناس بعضهم بعضا ، واختل ٥٧٤ نظام التعبئة بسبب هذه الريح العاصفة ، ووجدت نفسى بعيدا وراء فيلة القلب ، وقد ابتعد عنا بعض من كان معى من الغلمان والعبيد . وكان هلعنا عظيما إذ وجدنا أنفسنا فوق تل آخر ، وهنا وجدت أبا الفتح البستى وقد أنزله من على الحصان خمسة أوسنة من غلمانه وكان يبكى إذ لم يكن يقدر على امتطاء حصانه من ألم النقرس . فلما رأيتنى قال كيف الحال ؟ قلت : لا تقلق فكله خير وبركة وإن هذه العاصفة هت وزادت الحيرة . وبينما نحن نتكلم فى هذا إذ ظهرت مظلة السلطان وكان قد نزل من على الفيلة وركب الفرس وجاء متنكرا مع خمسمائة غلام من الخاصة كلهم مدرعون ، وكان مع السلطان حربة قصيرة وبقيت الراية السوداء فى القلب . فقلت : لآبى الفتح لقد جاء السلطان ولم يحدث شئ أبدا ، وإذا بخلف معروف ربيع معتمد كبير الحجاب سباشى وأميرك الختلى معتمد السهسالا ريجريان إلى حيث السلطان ويقولان : « لا يقلق السلطان فإن التعبئة كما هى وإن

الاعداء مقهورون ولم يصلوا أبدا إلى ما أرادوا. ولكن المقدمين الثلاثة فيهم ، طغرل وداود ويغو ، قد توجهوا إلى قلب جيشنا مع خيرة رجالهم وإن النبالين وغيرهم من المقدمين قد أصبحوا في مواجهتنا ، وكان السلطان يخشى وقوع خلل في القلب فقال لهما : « إني سأسلخ من القلب بسبب اتجاه هؤلاء الثلاثة نحونا ، وإن الكمين يعد حتى نحمل حملتنا ، فقولوا للجند أن يثبتوا ويتخذوا الحيلة جيدا فإن المعركة الفاصلة قادمة بقوة الله عز وجل » . فعادا مسرعين ، وسير السلطان النقباء ناحية القلب ليقولوا للجند : « اثبتوا فإن كثرة جيش العدو متجهة لكم وإني أعددت الكمين فاستمعوا إلى وأحملوا على ميسرة العدو حتى يشتبكوا معكم وأنا قادم على الأثر » . ثم أمر بكتغدي أن « ابعث إلى فورا ألف غلام شجاع من المدرعين » ، فأجاب ليطب السلطان ، بالا فإن العالم كله لا يستطيع أن يززع هذا القلب وقد جاء الأعداء وعجزوا وإن ميمنتنا وميسرتنا في أماكنهما .

وجاء الغلمان ومعهم ألفان من الفرسان المبارزين وألفان من الرجال السجستانيين ٥٧٥ والغزنويين والغوريين وأخذ السلطان رضي الله عنا الرمح وسار مع هذا الجيش الكبير المجهز وارتقى تلا آخر وترجل . وكنت معه ، ثم ابتعدت عن رفاقي فرأيت من بعد ثلاثة أعلام سود كانوا قد رفعوها على تل من الرمال فأثيت قبلها ، ورأيتها أعلام الثلاثة المقدمين السلاجقة ، وكانوا قد عرفوا أن السلطان قد اتجه إليهم من القلب . وكانت الصحراء فسيحة بين هذين التلين فأنزل السلطان الرجالة ومعهم الرماح الطويلة والدروع العريضة ، وبعث على أثرهم ثلاثمائة فارس . وسير الأعداء من الجانبين ألف فارس فلما بلغوا الصحراء أوقفهم رجالنا برماحهم ، وأبدى فرساننا قوة من ورائهم ، وحملهم وطيس القتال وإذا براية سوداء تقع من الربوة وكان يحملها ألفا فارس مدرعين وقالوا إنها كانت راية داود ، وقد تمهقر رجاله إلى الخلاء .

وسار السلطان بغاية السرعة وصاح : « هان أيها الأبناء » . فتقدم الغلمان مسرعين والسلطان واقف على التل ، ووقع جنود السكين على الأعداء وثار النقع ، وقد لبثت صامدا في مكاني لأرى ما يكون ، وكنت مع فارس يطلب النجاة وأنا أرمق من بعد مظلة السلطان الذي كان قد استولى عليه الهلع وامتلات الساحة بالضجة والصياح وعلت قعقة السيوف حتى كأن ألف ألف رجل يدقون بالمطارق وكنت أرى وميض السيوف من خلال النقع .

ومن الله علينا بالفتح وهزم الأخوة الثلاثة (طغرل وجغرى وداود) ومن معهم وتقهقروا حتى لم يبق من الأعداء أحد . وجاء السلطان وكان يركب الفيلة فتعقب العدو نصف فرسخ ، وقد أسرع وهذا الفارس حتى لقينا السلطان وجاء الحاجب الكبير والمقدمون وقبلوا الأرض ، وهنأوا بالفتح ، فسألهم السلطان « ماذا ينبغي بعد ذلك » قالوا تقام الخيام على الجانب الأيسر من نهر سموه على الجانب ونزل بها فرحين فلقد منى العدو بالهزيمة وأخذ درسا قاسيا وذلك حتى يذهب القائد الذي عينه السلطان ليتعقب المهزمين .

وقال أبو الحسن عبد الجليل : « حبذا لو ذهب السلطان في أثرهم فرسخين في هذه الفرصة السانحة متحملا في ذلك مشقة أخرى حتى نستأصل شأفتهم وهنالك ينزل السلطان » . ولكن السهسلاار صرخ في وجهه ، وكانت الصلة بينهما سيئة ، وقال : « أتتكلم حتى في الحرب لماذا لا تلزم حدك ؟ » . وكذلك تحدث إليه بقية المقدمين . ولم يستنكر السلطان حديثهم ٥٧٦ وأرتج على أبي الحسن . وتبين بعد ذلك أن الرأي الذي أبداه هذا المسكين هو الصواب . فلو أن السلطان تعقب السلاجقة لما استطاعوا أن يجمعوا شملهم .

ولكن ما يريد المخلوق لا يعلو على إرادة الخالق . فقد قدر أن يصل هؤلاء القوم إلى هذه المنزلة ، فكيف تكون الحيلة في دفع القضاء . وأرسلوا يبري قائد الاصطبلات مع جماعة من المتقدمين للملاحقة المهزمين ، فذهبوا منهوكة القوى مع جماعة من الفرسان على شاكلتهم ولم يقدرُوا على شيء ، وترثوا في مكان ما ، وحين صلاة العشاء قفلوا راجعين إلى معسكر السلطان وقالوا : « لقد ذهب الأعداء بعيدا ولم نجد أحدا من رجالهم فعدينا وقد انسحب العدو إلى الرمال والصحراء ، وليس معنا آلات السير بها ، وخشينا أن يلم بنا لذلك حادث » وكانوا قد اصطنعوا هذا العذر . وسأذكر فيما بعد ما كان . ولو أن السلطان لم ينزل حيث نزل ولا حق الأعداء لتبعه الجيش برمته ، ولكني قلت إن الله عز ذكره لم يشأ وقضى بما كان ولا مهرب من قضائه . وفي هذه الأثناء ناداني السلطان قائلاً : « أين أبو نصر مشكان ؟ » قلت : أطل الله حياة السلطان ، لقد كان مع أبي سهل الزوزني أمام فرقة الفيلة وكنت معهم فلما عصفت الرياح وثار النقع وجدتي وحيدا بعيدا عنهما ، ثم جئت إلى هنا ، وأعلمهما لجا إلى مكان أمين . فقال : « اذهب وقل لأبي نصر ليكتب كتاب الفتح » فقلت سمعا وطاعة . وانصرفت وأمر السلطان النقيبين وقال : « اذهبا مع أبي الفضل حتى المعسكر . فجاء النقيبان معي وقد سرنا طويلا حتى بلغنا المعسكر ، فوجدت أستاذي وأبا سهل الزوزني جالسين وقد ارتديا القباء والحذاء وخصائيهما مسرجين وكانا قد عرفا بأمر الفتح فدعواني وجلست وأبلغت رسالة السلطان . فقال أبو نصر « نعم ماتم » ، ثم سألتني عن الأحوال فقصصت عليه كل شيء ، فقال لأبي سهل « إن الصواب ما رأى أبو الحسن عبد الجليل ولكنهم لا يريدون ترك هذا السلطان ليسير في الأمور على الوجه الصحيح . » وجلس الاثنان ثم قاما لاستقبال السلطان . وقدا التهتهة بالفتح المبارك ٥٧٧ وأبديا ما لهما من الآراء ، ثم استأذنا وانصرفا ، ولما رجع

أستاذى أبدع فى تسيير كتاب الفتح ، ثم أعدت نسخه ، وعند صلاة العصر رفعه للسلطان فقرأه وسربه وقال له : « عليك أن تعرف أنا سنذهب غدا إلى سرخس وحين يبلغها سنكتب كتابا آخر ، وسيذهب به الرسل مبشرين » وفى الغداة ، الثالث من شوال ، نزل السلطان وجنده على ضفة نهر كأنه البحر اتساعا ، وظهرت هناك طلائع العدو ، ولكنهم لم يحاربوا ، واكتفوا بأن أرونا أنفسهم ثم انقلبوا راجعين ، ورأينا مدينة سرخس خرابا وقد جف ماؤها ، وكانت من قبل زاهرة عامرة . واستغرق السلطان فى الفكر بسبب ترائى طليعة العدو هنا ، وقال للأعيان : « أيمكن أن يوجد أناس أكثر صلفا من هؤلاء ؟ فقد كنا نحسب أنهم بعد ما آمنوا به من الهزيمة لن يثبوا أعتهم إلا عند جيحون وبلخان كوه » . فقالوا : « إنما يهزم السلاطين الأعداء بحيث لا تقوم لهم قائمة ، فإن السلطان الراحل (محمود) قد هزم الخانيين فلم ير فرد منهم بعد ذلك . وهؤلاء القوم فئة من الخارجين على السلطان فإذا فكروا فى العودة فسيلقون أكثر مما لقوا من الغلبة » .

وبعد صلاة العصر جاءت الأنباء بأن الأعداء قد عادوا ، وأنهم على مسيرة فرسخين ، وقد تجمعوا ، وهم يعملون على تحويل مجرى هذا النهر (الذى نقيم على شاطئه) ، وأنهم سيعاودون القتال . فضاقت صدور السلطان . وفى المساء أقبل الجواسيس والسعاة معهم الكتب من المنهين ، وفيها أن الأعداء قد لبثوا يتدبرون واتفقوا على : « أنه ليس من الصواب مواجهة السلطان فى المصاف » ، وأنه يجب المحافظة على تقاليدنا الحربية ونحن فارغوا البال من الأثقال والأمتعة . ولقد أصابتنا هذه الهزيمة ، ويجب ألا نتفرق حتى نقلقه فيكف عنا راضيا أو كارها ، وقد انقضى الشتاء وأقبل الصيف ونحن أهل بادية ولنا جلد على الجر والبرد ونقدر على الصبر ، أما

السلطان وجيشه . فلا طاقة لهم به ، وإلا كيف يستطيعون المقاومة مع هذه المتاعب ، إنهم لا بد سيتراجعون . »

فعرض أستاذى هذه الكتب على السلطان ، وكان شديد اليأس فخاف فى أمره ، وفى الغداة بعد أن فرغ من الاستقبال اختلى بالوزير والأعيان وأخبرهم بهذه الأنباء وقرأ عليهم الكتب . وسألهم السلطان ما رأى ؟ قالوا إنا نعمل بما يأمر به مولانا فيماذا يفكر السلطان ؟ قال ٥٧٨ إني أظن أن نبقى ها هنا ونعد آلات الصحراء ونشعل حربا أخرى ، مصافا ، فإذا هزموا فإننا لا نعود عن مطاردتهم حتى شاطئ جيحون . قال الوزير : « يجب أن نفكر فى طريقة خير من هذه ، فإن الظروف غير مواتية والمخاطرة من المحال . » وبينما هم يتحدثون على هذا النحو إذا بماء هذا النهر ينقطع جريانه ، وكان ذلك فى الضحى ، وقد هاجمت طليعتنا العدو فإنه أحاط بمعسكرنا الذى كان ضيقا وخيامه متشابكة بحيث لم يكن من سعة بين الميمنة والميسرة والقلب . ولم أر فى أى وقت معسكرا أقيم على هذا النحو . واتجه السلطان نحو هؤلاء الأعيان وقال : « بسم الله قوموا حتى نركب » . فقالوا « ليق السلطان فى مكانه فإنه قيل إن قادة الأعداء لم يحضروا ، ونحن العبيد سوف نذهب ونؤدى ما ينبغي أدائه ، وإذا احتجنا إلى مدد فإننا نطلبه » . وانصرفوا ثم اتجهوا نحو العدو متأهبين . ولبت الوزير وأستاذى فترة مع السلطان يطيبان خاطره ، ويدبران لإيقاف إرسال الكتب والمبشرين بالفتح حتى ينجلي الموقف ثم انصرفنا . وبعد عنا الماء الجارى واضطربنا إلى التعويل على ماء الآبار ، وكان لدينا كثير منها ، وكنا على مسافة قريبة من سرخس . ولم يستطيعوا جلب ما كان تبقى من الثايج لمطاردة العدو لهم وتضييقه عليهم . ودامت الحرب بشدة حتى صلاة العصر وجرح وقتل كثيرون من الفريقين ، وعاد جندنا وقد علاهم

الغم وقد ظهر النصر في كفة العدو ، واستحوذ على رجالنا الضعف. والخون
وانهارت عزائمهم . وأبلغ المنهون السريون الذين كانوا في صفوف الجيش
هذه الأخبار للسلطان ، وكذلك أرسل أعيان الجيش ومقدموه سرا بهذه
الأنباء للوزير على لسان معتمديه ، وشكوا تقاعس الجند الذين كانوا
لا يحركون ساكنا ، كما شكوا من قلة العلف والفقر وقالوا :

« إن العارض قتلنا بالحرص على التوفير ، وإنا نخاف أن تحدث فتنة هنا
إذا ما سرى القيل والقال بين الجند ، ومصير الأمور رجحان كفة العدو ، فلامناص
من اتخاذ الحيلة لتفادي ما قد يحدث من شر » .

وبعد صلاة المغرب ركب الوزير وجاء إلى البلاط وطلب المقابلة
الخاصة ، وبقى مع السلطان حتى صلاة العشاء : وقد ذكر له كل هذه الأمور
ثم انصرف وكان في الطريق يتحدث إلى أستاذه في هذه الأمور ، وقد عاد
إلى الخيام .

وفي الغداة عاد الأعداء أشد قوة وأقوى جرأة وأكثر عددا وأشد إقداما ،
واشتبكوا ٥٧٩ معنا في كل الجوانب ، وتخرج الموقف وعلت قعقة السيوف ،
والنفير في المعسكر . فركب السلطان متخفيا وسار إلى جانب المعسكر ليعاين
ما يحدث عنه القادة ، ثم رجع عند صلاة الظهر وأرسل الوزير رسالة قال فيها :
« إن ما قصه على الخراجة كأنه رآه بعينه » وعند صلاة العصر نادى أعيان
الجيش وقال ما السبب في أن الأمور تسير بتهاون شديد . قالوا « أطال الله عمر
السلطان ، إن الجو شديد القيظ والعلف شحيح ، وقد أشرفت الدواب على
التهلكة ، ولا بد من اتخاذ تدبير ناجع في حرب هؤلاء الناس » . ثم قالوا « إنه
أرسلنا رسالة للوزير وبيننا أعدائنا ، ولا شك في أنه أطاعكم عليها ، ولا بد كذلك

« أن المتهين المبشرين وسيط الجند قد عرفوا السلطان حقيقة الحال . » فقال الوزير :
« لقد تحدثت إلى السلطان في هذا وقد تفكرت فيه طوال ليلة أمس وقد خطر
بلى أمر لم أقله للسلطان وسوف أقوله له سراً » .

وعاد أعيان الجيش جميعاً وبقى السلطان والوزير وأستاذى . قال الوزير

أطال الله عمر السلطان وسير الأمور وفقاً لمراحده ، الحق أن جيشنا إذا اعتراه
التعب فإن جيش العدو يكون أشد تعباً ، والرأى عندى أن أرسل رسولا
ينصحهم من قلى ، ينصحهم وهم فى فزع من هذه الهزيمة التى لحقتهم ، ويقول
لهم إنه إذا عزمتم على القتال مرة أخرى فإنه لن يبقى منكم أحد ، والأجدر بكم
أن تقدموا المذرة وتظهروا الطاعة حتى أتوسط لدى السلطان ليقبل تقربكم
منه ، ولأبين له أن إقدامكم على الحرب كان حرصاً على الحياة ، وأتودد إليه حتى
يذهب إلى هراة وتبقوا أنتم فى هذه الحدود ، وتبادل الرسل حتى نضع قاعدة
ثابتة وذلك حتى تزول هذه الشكوك . وتستقر تلك الأحوال » . فقال السلطان
إن هذا الرأى يبدو سديداً ولكن الصديق والعدو سيعرفان أنه عن عجز .
فقال الوزير :

« إنه كذلك ، ولكنه أفضل وأسلم وسنعود بهذا الحال سالمين ، وقد خبر
السلطان قتالهم وعرف مصير الأمور ، وإذا كانت للسلطان نية لقتالهم فإنه يتوجه
إليهم من هراة متأهباً وبصيراً بعد المهرجان ، فإذا ساروا على شروطنا التى نراها
تستقر الأمور ، وإذا أبوا فالعياذ بالله يبلغ السيل الزبى : ولات حين مناص ،
فإذا أمعن السلطان النظر فى هذا وتدبره ملياً وأعمل فيه فكره المبارك لى يتخذ
قراراً فإنه سيعمل بهذا الرأى » .

٥٨٠ ورجع الوزير وأستاذى . ولما عاد أستاذى إلى خيمته نادانى وقال ألا ترى

إلى أى حد بلغت الأمور . ياليتنا مبتنا ولم نر هذه الفضائح . ثم سكت هنيهة وأعاد .
على كل ما جرى ورأى الوزير فى قرار السلطان وقال وهكذا يقول السلطان إن .
هذا عجز وهذا ظاهر ولكنها الضرورة تلجئنا إليه . ثم قال لى يا أبا الفضل إن .
الوزير رأى صوابا ، فاعل هذا التدبير يتم كما لا حتى نذهب إلى هراة مو فورى .
الكرامة ، فينبغى بذل قصارى الجهد حتى لا تكون فتنة تشغل البال ، فإننا سنلتا فى .
هذا العجز ، وإيهى الله عز وجل كل الخير . وما كدنا نفرغ من هذا الحديث .
حتى جاء فراش من قبل السلطان وقال إن السلطان يدعوك ، فقام أستاذى
وذهب . وعدت أنا إلى خيمتى شديد الحزن وطال ليلى حتى عاد أستاذى ونادانى
فذهبت عنده وبقيت معه وحدى قال : « كان السلطان فى الخركاه حين ذهبت .
إليه فأجلسنى وحدى وأخرج من كانوا معه وقال لى « إن الأمر يتعقد ويطول
كما ترى ، وقد عاد الأعداء المنهزمون فى صلف ، والآن قد قررنا وشاهدنا أن .
محاربة بكتغدى وسبأشى معهم كانت خطأ ، ولقد فات ما فات ، وإنما ينبغى .
أن نرسل لمقاتلتهم رجالا خفافا مثاهم : أقوياء ليس معهم أثقال حتى نقهرهم ، .
ولم نجد جزا با شافيا لدى كل من كلمناهم فى هذا الأمر ، فإن القائدين العظميين .
قد هزما وتضعضعا على يدهؤلاء الأعداء ، وهما يريان أن لا كاشف لهذا الأمر ،
وذلك حتى نعذرهما ، والوزير رجل من طراز آخر لا أفهم كنهه ، إنه يحيل .
وهذا يحيل إليه ؛ وقد تحيرنا فى هذا ، وأنت رجل لا تقول الأمر إلى السهيسالار
إلا الصدق ولا تبغى غير الخير ، فحدثنى عما ترى فى هذا الأمر بلا محاباة ،
فإننا قد اعتمدنا عليك دون سائر رجالنا كي تصارحنى بما ترى وتتضى على هذه
الحيرة فى نفسى ، وتبين ما فيه الخير » . فقلتُ (أنا أبو النصر) : أطل الله عمر
السلطان فليصارحنى مولاي بما فى ضميره ، ماذا يرى ، حتى أبين الصلاح
والصواب بقدر علمى ، ولا أجيب بشيء قبل أن أعرف رأى مولاي .

فقال السلطان « لقد استصوبت ما اقترحه الأستاذ الرئيس اليوم عند

حسلة العصر من إيفاد رسول ٥٨١ هـ لإتمام صلح مع هؤلاء الذئاب، على أن نذهب إلى هراة ونقضى بها هذا الصيف حتى يستريح الجيش وتأتى إلينا الأمداد التي نريدها من غزنة، من الخيل والجمال والأسلحة، ثم نسوس الأمور بشكل آخر بعد أن عرفنا نظام أعدائنا. وحين يقبل المهرجان سنقصد پوشنك و طوس ونيسابور فإذا تعرضوا لنا وثبتوا نحاربهم خفافاً ولا يكون لهم من الخطر ما كان، وإذا لم يثبتوا وتراجعوا فإننا نسير على أثرهم حتى باوردونسا، وسنعد هذا الأمر في هذا الشتاء حتى نظهر منهم خراسان بتوفيق الله .

فقلت هذه نظرة صائبة، ولكنى لا أظن أن الوزير أو أحد القادة، يستطيع أن يشير بأن يعود السلطان إلى هراة في حين أن حرباً قد قامت ولم يهزم فيها العدو تماماً لأنهم يخافون أن يلومهم السلطان غداً، حين يبلغ هراة بقوله « لقد تقاعستم عن القتال وحملتموني على العودة إلى هنا » وأنا كذلك لا أشير بهذا لأنه ليس من رأيي. ولكن هناك مشكلة يجب السؤال عنها. فقال السلطان: ماهي؟ قلت إنى أرى معسكرنا كلياً أقيم أتخذ له مكان صخرى أو أرض ملؤها الشوك، في حين أن العدو يقيم عسكره على أرض خضراء آن حصاد ثمارها وغللاتها، فيها الأنهار، فيتوفر لديهم الثلج والماء الجارى، أما نحن فعلىنا أن نشرب من ماء الآبار، فليس لدينا ثلج أو أنهار جارية، فجعلهم ترعى في المراعى الخصبة وفي مقدورهم أن يأتوها بعلف من الأماكن البعيدة، أما نحن فنلزم جمالنا أبواب خيامنا، فإنها لا تقدر على الرعى خارج المعسكر. فقال السلطان: سبب ذلك أنهم ليس معهم أثقال فهم يتحركون كما يريدون، أما نحن فمعنا أحمال ثقيلة تعوقنا رعايتها عن القيام بعمل آخر، ولهذا أرى لزوم تخليتنا عن الأحمال، وليس للأعداء خطر كبير فمن المستطاع أن نقضى عليهم. قلت: ومسألة أخرى ألا يستقيم التحدث فيها إلا بحضور الوزير والسپهسالار وكبير الحجاب وأعيان

الجيش ، فإذا رأى السلطان أن نعقد المجلس غداً حتى نتشاور في خطة محكمة ونقوم بتنفيذها . فقال حسناً قلت وهناك مسألة أخرى أطال الله حياة السلطان أخجل من ذكرها . فقال ٥٨٢ بل يجب أن تذكرها وتوضحها فإني أستمع إليك راضياً قلت أطال الله حياة السلطان ، إن ما يجري اليوم في خراسان من أمر السلاجقة من الفساد والقتل والمثلة واغتصاب المسلمات معروف وواضح ، ولم يحدث مثله في هذه المائة سنة الأخيرة ، ولم يذكر شيء منه في التاريخ ، ومع كل هذه الآثام فإنهم ينصرون في حروبهم ، فيألبا من قوم سوء سلط الله عز وعلا مثل هؤلاء الناس علينا ونصرهم ، وإن أمور الدنيا متوقفة على الملوك والشريعة ، والدولة والدين توأمان يسيران جنباً إلى جنب ولا يتباعدان ، فإذا كان الله عز وجل قد تخلى بعنايته عن السلطان حتى يغلب على أمره من أمثال هؤلاء القوم ، فهذا دليل على أنه تعالى غاضب عليه ، فيجب أن يتفكر السلطان كيف يرعى الأمانة التي أودعها الله لديه . فقال السلطان لست أعرف أن ظلماً أصاب أحداً أو أننا أقدمنا على شيء لم نراع فيه مرضاة الله . قلت : الحمد لله وإن ما جرى على لساني من سوء الأدب وما أقول فإنما أقوله عن شفقة كي يُنعم السلطان النظر فيما بينه وبين الله عز وجل : فإذا استوجب الأمر الاستغفار فليستغفر وليسرع به الليلة فيضرع إلى ربه ويمرغ وجهه في التراب إنابة وإبتهالاً ولينذر النذور وليبدي الندم على ما قد يكون بدر منه حتى يرى منذ الغد آثار مغفرة الله له ، فإن دعاء الملوك الصادر عن قلوب عامرة واعتقاد صحيح لا حاجب بينه وبين الله ، وأرجو أن لا يلومني السلطان على هذه الصراحة في التحدث إليه فإنه قد أذن لي بأن أتكلم .

فلما فرغت من كلامي قال سأفعل هكذا ، ولقد قبلت عذرك فقد تحدثت بأمر مني وأديت حق نعمتي ونعمة والدي عليك ، فأرجع إلينا وتحدث كما تشاء متى تحب ، وقدّم نصحك فإنك من المخلصين . فأديت التحية وانصرفت

وأملى أن يحزىنى الله خيرا على ما قلت وأنا لا أدري أَرْضَى به السلطان أم سخط عليه ، ولكنى أبرأت منه ذمتى .

فقلت (أنا أبو الفضل) لأستاذى حين قص علىّ هذا : أطال الله عمر مولاي الأستاذ ، لقد أديت واجبك وقت بحق نعمة السلطان والدولة عليك . ثم رجعت . وفى الغداة اجتمع ٥٨٣ المجلس فى حضرة السلطان ودار الحديث فى شتى المواضيع وتشاوروا فيها ثم أعادوا النظر فيما قاله الأعداء . وفيما أقدموا عليه . واستقر رأى على أن يوزن الوزير رسولاً ينصحهم حتى يتفرقوا ، وتدور المفاوضات بين الجماعتين ، ويعودوا إلى وضعهم الذى كانوا عليه أول الأمر ، حتى تهدأ الأمور ، ويقضى على أسباب الحرب والتنافر .

فلما عادوا من مجلس السلطان ، نادى الوزير الحاكم أبا نصر المطوعى الزوزنى وكان رجلا شجاعا فصيحاً وخدم زمنا طويلا محمدا العلوى ، وكان قائدا عظيما حقا وتمرس بالأعمال ، وبعد وفاة العلوى عرفه السلطان واطلع على جدارته وكفايته فعهد إليه بشئون العرب خيرها وشرها . وأعلمه الوزير بالأمر وزوده بالإرشادات وقال « يجب ألا تذكر أن السلطان مطلع على هذا الأمر ، ولكن لما كنتُ الوزير وقد نبط بى أمور المسلمين وعلىّ أن أتدبر أمور الأصدقاء والأعداء فلا مناص لى من التحدث فى هذا الأمر ، حتى تغمد السيوف ولا تراق الدماء بغير حق ، وحتى تأمن الرعية ، ولقد رأيت صنوف المشاق وهزمت وأهلكتم وقتلتم ، وجعلتم من هذا السلطان العظيم عدوا لكم ، وإنه غدا إن يرجع عن مطاردتكم حتى يقضى عليكم ، وإذا كنتم تظفرون فى هذه الصحراء بين آونة وأخرى بغنيمة ، فهذا لا يعول عليه ، ولو أنكم أذعنتم وأطعتم فإنى شفيح لكم بهذا .

عنده ، ومبين له أنه ما حدا بهم إلى هذه الحرب وذاك الجدل وما حملهم على هذا المركب الصعب وما دفعهم إلى هذا التشتت إلا خوفهم على حياتهم ونسائهم وأطفالهم ، فقد ضاقت بهم الدنيا على رحبها وليس لهم فيها قرار ، فلو أن السلطان شملهم برحمته وعطفه ، ومنحهم موعى وولاية ، فإنهم يؤدون واجب الطاعة ، وعندئذ يستريح عباد الله من هذه المشاحنات والحروب ، وسأفعل هكذا فأعين لهم موقعا ليسكنوه فيستريحوا ويعيشوا عيشا رغدا .

وتحدث إليه على هذا النحو من الحديث القوي الحماسي حينما ، الضعيف الفاتر حينما آخر ، وشدد في التذكير والإنذار والموعظة ثم أرسله . وسار الحاكم المطوعى نحو السلاجقة الجفابخين وشرح لهم بإسهاب رسالة الوزير الكبير وبين إليهم ما يعود عليهم بالخير منها ، وأقسم لهم أن السلطان لا يعرف من أمر وساطته شيئا ، ولكن الوزير الساهر على مصالحهم ومصالح سائر المسلمين هو الذى بعثه إليهم ، فبجلوه وأنزلوه مكانا لائقا وبعثوا إليه بالهدايا .

٥٨٤م ثم انفرد رؤسائهم وتشاوروا فى هذه الرسالة وعلى أى وجه يجيبون الوزير ، وقلبوا الموضوع على كل وجوهه ، ثم أخذوا يتدبرون واستقر رأيهم على أن انتهوا إلى ما انتهى إليه رأى الوزير السديد ، « فإن مسعود سلطان عظيم يملك من الجيوش والخزائن والولايات ما لا حده ، ولو أن الغلبة كانت لنا مرات عدة ، ورغم أننا هزمنا جنده عدة مرات وأخذنا بعض الولايات ، فإنه فى المرة الوحيدة التى قاد فيها الجند بنفسه أذاقنا شديدا نكايته ولو أنه تعقبنا لما سلم أحد منا أو من نساءنا وأطفالنا ، وكان من حسن حظنا أن عسكر بجنده ولم يأت على أثرنا ، وصالحنا حقا هو فيما يقوله الوزير . فلما اتفقوا على هذا رأى نادوا فى الغداة الحاكم المطوعى فأظهروا له ولاءهم للسلطان وأحاطوه بالرعاية ، وقالوا : « نحن على ما رأى الوزير الكبير وأن عليه الآن أن يبين عظمته ومكانته ، وأن يعنى بأمرنا عند السلطان ، فيكون شفيعنا إليه

(٤١ م — البيهقى)

حتى يذهب غضبه عنا ، فيمنحنا الولاية والأودية والمراعى انسكن فيها ونبقى في دولته قائمين على خدمته ، وبهذا يستريح أهل خراسان من النهب وشن الغارات . وعينوا جماعة من ثقاتهم مع الحاكم المطوعى وحملوهم رسالة مفصلة بما رأوا ، وأحسنوا وفادة المطوعى وأعادوه مع رسلهم ، فلما بلغوا المعسكر تقدمهم الحاكم المطوعى ودخل على الوزير وشرح له تفصيل ما جرى وقال له : إن السلاجقة وإن كانت رسالتهم على نحو يفيد الموافقة على رأى الوزير وفيها الناس رضا السلطان ، إلا أنه لن يصدق لهم قول ولن تنزع من رؤوسهم شهوة الحكم ، ولكنها ستهدأ إلى حين ، أما هم فلن يهدءوا ، ولقد عرضت على الوزير ما علمت حتى يعمل بما يراه صالحا . فلما وقف الوزير على هذه الأحوال أمر بمناداة رسول هذه الجماعة الجفاجين ، فجىء به فشكره ثم إن الرسول أدى التحية وأظهر الطاعة وذكر الأمر الذى كلف بأدائه . وبعد ذلك صحبوه إلى الخارج وأنزلوه في قصر الضيافة وأكرموا وفادته .

وذهب الوزير إلى الحضرة السلطانية ، فاختم بالسلطان وكان معه الخواجة أبو نصر ، فقص ما سمع من الحاكم المطوعى وذكر فحوى رسالة مبعوث السلاجقة . فلما تبين السلطان كل شيء قال ولو أن هذا الذى يجرى يظهر منه عجزنا ، إلا أنه كما يرى الوزير الكبير ٥٨٥ فيه المصلحة والوقت يقتضيه فليعمل به كما ينبغي . وعاد الوزير . ثم إنه فى الغداة دعا الرسول وكان معه الخواجة أبو النصر ، وتحدثوا عما يجب الحديث فيه وعملوا ما يجب عمله وبالجملة فقد قال الوزير للرسول : « إني شفعت لكم عند السلطان وأقنعتة بأن تقيموا الآن حيث أنتم ، على أن تسلم إليكم حين نذهب إلى هراة نسا وباورد وفراه وهذه الصحراوات والحدود ، على شرط ألا تؤذوا المسلمين وألا تتعرضوا لخيارهم أو أشرارهم وألا تصادروا أموالا أو تبغوا فتنة ، ثم عليكم أن تتركوا البقاع الثلاث التى أنتم بها الآن وأن تسيروا إلى البلاد التى عينت لإقامتكم ،

حتى نعود وتذهب إلى هراة ، وهناك توفدون رسلكم مرة أخرى لتأدية فروض
الطاعة للسلطان ، ولتكتب العمود والمواثيق التي لا تنقض ، ومن ثمة تأمن الرعية
وتستريح من الكر والفر والحرب والاضطراب . ، وعلى هذا النحو أبلغ
الوزير الرسالة ثم إنه أكرم وفادة رسول السلاجقة وأغدق عليه التشریف
والصلوات وأعاده معززا مكرما ، وعين الحاكم المطوعى ليصحبه ، فسارا سويا
حتى بلغا السلاجقة . وقد أثنى الرسول على الوزير كثيرا ودعاه له ، ثم إنهم
اختلفوا به . وكذلك أفضى الحاكم المطوعى برسالة الوزير فأظهروا له الولاء
وأحسنوا له القول . وفي التوظهر الهدوء ، ولو أنهم لم يهدوا أبدا ، فإن شهوة
الحكم وحب الحل والعقد والأمر والنهي والاستيلاء على البلاد قد تمكن من
رؤوسهم . وجاملوا المطوعى ، وتفقنوا في خدمته وناشدوه المَعذرة التي لاحد
لها ، وقالوا : « إنا نطيع أمر الوزير ، ولكن يجب أن يكونوا معنا صادقين ،
وَألا يغدر بنا غادر من أى مكان ، وألا يمسك أحد بنا ، وذلك حتى نستقر
ولا نضطر إلى امتشاق الحسام مرة أخرى ، وألا يرجعوا عما قالوا وقرروا ،
وأن يعملوا على مقتضاه ، وذلك حتى تأمن الرعية ويستريح الجيش من الجانبين
ولا تراق دماء بغير حق » .

ثم إن السلاجقة عملا بالقرار الخاص بإقامتهم ساروا إلى الولايات التي
سميت لهم . ولما قاموا ذاهبين إليها ، عاد الحاكم المطوعى ، وجاء إلى المعسكر
المنصور واختلى مع الوزير وقص عليه ماسمع وما رأى من أحوال الجفاخين
وحركاتهم وألفاظهم ٥٨٦ التي يتفوهون بها في سخريه ، وقال إنه لا يجوز
الاعتماد عليهم بأية حال ، وإنه لابد من إعداد العدة للقضاء عليهم أولاخراجهم
من البلاد ، ويجب ألا نخدع بكلماتهم الخداعة الغرارة ، فإنهم لن يصدقوا أبدا ،
ولن يخرج من رأسهم الأمل في الملك والحكم ، إلا بحمد السيف . وقد قبلوا
بهذا النوع من الصلح نتيجة لما رأوه من شدة تكاية السلطان على أعدائه في هذه

المعركة الواحدة التي قادها بنفسه ، وهم قد ذهبوا إلى البلاد التي حددت لهم ،
 ولكنهم لن يفرطوا في شيء مما يساعدهم من المكر والدغل وخداع الخدم ،
 وضبط الأمن في البلاد وزيادة عدد الجند ومناشدة أهل ما وراء النهر النصر ،
 وقد تعاهدوا معهم ، والعمل على ازدياد عددهم ، ثم هم لا يميلون إلى الصدق ،
 أبدا ، وهم يسرفون في القول إذا تحدث بعضهم إلى بعض ، وقد أيقنت أنهم
 مؤمنون « بأن هذا السلطان (مسعود) عاجز ، وبأن وزيره قد عمل على
 تهدئتنا بكفائته ، وبهذا أخذ الفتنة حتى تستريح جيوشه ، وأنهم يتأهبون وسوف
 يتعقبوننا وإن يهدأ لهم بال حتى يقضوا علينا أو يخرجونا من هذه الديار ، وقد
 توصلوا بالصلح لبلوغ ما ربهم هذا ولقد وافقناهم أيضا حتى نستريح قليلا من
 هذه الحروب ، وننظم أحوالنا ونجمع جندنا ونستعد ولا نغفل ونهيا للحرب
 ومبادرة العدو ، حتى إذا قصدونا فجأة ننقض عليهم ونواجههم فنضربهم حتى الموت ،
 فإما أن نظفر أو نهلك جميعا ، فإن السلطان الذي تتحرش به رجل جد عظيم »
 وتحدثوا على هذا الغرار طويلا ثم هدموا ، وقاموا وساروا ، فحين نبأغ هراة
 يرسلون إلينا رسلا معروفين ويبدون قدرتهم ، ولسوف يتقدمون متذرعين
 بالطاعة والخضوع ويطلبون ولايات أخرى بحجة « أننا قد زاد عددنا ولا يسعنا
 ما أعطيتموه لنا ، أوحين نعجز عن أداء الخراج ويقل الدخل فسنلجأ مضطرين
 للصادرة والمطاردة والاستيلاء على البلاد فلا تعيبونا حينئذ على ما الجأتنا إليه
 الضرورة » ، وفضلا عن ذلك فقد ذكر للوزير كل ما اتضح له . قال الوزير
 لقد عرفت آراءهم ووقفت عليها ، وإنى أعرف ما ينبغي عمله ، فإن السلطان إذا
 استمع لقولى وعمل برأى فإني أدبر الأمر بحيث لا يستطيعون تقديم رجل على
 أخرى حتى ٥٨٧ هـ أزيلهم جملة أو يجلوأ عن أرض خراسان ويعبروا النهر وتنقطع
 عنا فتنتهم بالتدبير الصائب والرأى المتين ، ولكنى أعرف أن الحاشية لا تترك
 هذا السلطان لسمع رأى ، وهم يعترضون على نصائحي له ولا يقتنعون بها .

«وسوف يرسلون الجند إلى الأطراف ويفسدون هذه الخطة المدبرة ويهيجون
«السلاجقة ويخيفونهم ، فيزداد هذا الأمر تعقيدا كل يوم ، وتزداد قوة التركان
«ويزداد عددهم ، ويسيرون إلى أبعد مما ساروا ، وتضيع منا خراسان والعراق
«جميعا ، وسوف نرى هزائهم أخرى إلى أن يتم حكم الله عز وجل ، ولعله يكون
«خيرا إن شاء الله . ولا تقل بما حدثتني به وما سمعت عن شيئا لأحد حتى
«نرى ما يكون .

ثم إن الوزير أعاد الرسول وسار إلى مجلس السلطان ، وأقبل الخواجة
«أبو نصر مشكان واختلوا وقتا طويلا ، وعرض الوزير كل ما سمع وما استوضح
«من الحاكم المطوعى بالشرح والتفصيل ، وبين ما فيه من الصلاح والفساد ، ومهما
«يكن فقد استقرت الأمور نوعا ما ، واتفق في هذا المجلس على أن تشد الرحال
«غدا نحو هراة ، ليقيموا بها حتى يخلص الجند من الضيق والقحط ، وتستريح
«وتسمن الأنعام ، ويستجلبوا ما يلزم من أهبة وعدة وخزائن وسلاح وجند
«من العاصمة غزنة ومن أطراف الولايات ، ويستعدوا ، فإذا ماتت الأهبة واستراح
«الجند وجاءت الإمدادات وغيرها ينظرون في أمر هؤلاء الصعاليك ، فإذا كانوا
«قد أخلدوا إلى السكينة وجاملوا يبقونهم على ما هم فيه فترة ولا يثيرونهم ، وسوف
«تنظم الخطة بعد رؤية الاستعدادات وجملة الجيش وأفواج الحشم . وأثنى السلطان
«كثيرا على الوزير وأيده وقال له إن الأمور قد هدأت إلى حين بفضل كفايتك ،
«ومنذ اليوم عليك أن تعمل بما يعزى وديا لخير على دولتنا ، فإننا لن نعترض على
«آرائك حتى تتدارك هذا الخلل بكفايتك ودرايتك وحسن تدبيرك . فأدى
«الوزير الخدمة وفروض الطاعة . وانصرفوا على هذا القرار . وفي الغداة عادت
«هذه المواكب وتلك الجيوش ، واتجهوا ناحية هراة وساروا رويدا رويدا ،
«حتى خرجوا من هذه الصحارى ونزلوا في الوادي واستراحوا ، ثم ساروا الهويانا
«حتى بلغوا هراة ونزلوا بها . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

ذكر وصول السلطان شهاب الدولة وقطب الملة:

أبي سعيد مسعود بن يمين الدولة وأمين الملة رضى الله عنهما إلى
مدينة هراة وإقامته بها وحديث ماجرى من الحوادث هناك إلى
إن سار لمطاردة التركمان وما جرى فى ذلك

فى ذى القعدة سنة ثلاثين وأربعمائة بلغ السلطان شهاب الدولة
وقطب الملة رضى الله عنه مركز العز بهراة ، ونزل هناك ، فاستراح بضعة
أيام مع الجند ، ثم دبر الأمر لإرسال الجند إلى الأطراف ، ولترتيب الطلائع
والأفواج ، حتى يحتشد الجيش على الحدود فتتوفر المؤن للجند والنبن والشعير
للأنعام ، وينال الجميع قسطا من الراحة . فأرسل أول الأمر كبير الحجاب إلى
پوشنكك مع جيش عرمرم ، وأمر بتجهيز الطلائع من هناك لتذهب إلى
خواجة — وهى ضاحية من ضواحي نيسابور — ، وأرسل الحاجب بدر إلى
بادغيس مع جيش قوى ، وعلى هذا النحو بحث لسكر ناحية فوجا قويا ، فذهبوا
وضبطوا الأمن فى جميع النواحي وبدأ العمال أعمالهم وجمعوا الأموال ،
وأما السلطان فقد انهمك فى اللهو والشراب ، ولم يسترح لحظة واحدة ، فكان
يأذن بالاستقبال ويواصل العمل . وأرسل كتابا لأبى على الكوتوال فى غزنة
طالباً منه عدة أشياء من آلات الحرب فى الصحراء والخيل والجمال والذهب
والألبة ليرسلها على عجل . وكتبت براءات بألف ألف دينار للجند ليقاضوها
من هراة ونواحيها ، بادغيس وكنج روستاق وكل مكان تصل إليه أيديهم ،
وبدءوا فى جمعها بالعنف بحجة أنهم « لماذا وافقوا التركمان ؟ » وتغيرت
الأحوال فإن عمر هذا السلطان كان قد بلغ أجمه ، ولم يجرؤ أحد على مفاتحته
فى هذا والنصح له . وكان أعيان هراة مثل أبى الحسن العلوى وغيره قد ولوا

فرارا ، وقد نصحوا أبا طاحه الشيباني العامل بأن يتواري ولكنه لم يفعل ، وأمر السلطان بضبطه فألقوا القبض عليه وسجنوه وصادروا كل أملاكه ثم سلخوا جلده ، فلما بلغ مبضع الحجام فخذه فاضت روحه رحمة الله عليه . وقد رأيته بعد أن ألقوا به على مزبلة بجوار الجوسق العدناني المشهور بسنكين وقد وكلوا به تكين السقلابي . وكان أبو طلحة هذا قد هرع لاستقبال التركمان بعد ٥٨٩هـ أن همزموا الحاجب سباشي ودخلوا هراة ، وأقام لهم مأدبة وقدم لهم الهدايا : وكان هذا سبب موته . وقبضوا على أبي الفتح الحاتمي نائب بريد هراة نيابة عن أستاذي أبي نصر ، وكان قد قابل السلاجقة أيضا ولم يتدخل أستاذي من أجله ، إذ لم يكن لهذا التدخل وجه في هذا الوقت ، وأجلسوه مع أبي على شاذان الطوسي كتخدا شحنة خراسان ، وأخذوهما إلى قلعة برکز على حدود پرشور حيث سجننا .

وجاءت الكتب تقول إن طغرل عاد إلى نيسابور ، وإن دواد أقام في سرخس ، وذهب اليناليون إلى نسا وبادرد . فقال الوزير لأستاذي كيف ترى الأمور ؟ لقد نسي السلطان ما مضى وانصرف إلى اللهو ، وأما حديث الرسول والأعداء وما اتفقنا عليه فكان شيئا منه لم يكن ، وهذا عندي شديد الخطورة لأن الأحوال بقيت على ما هي عليه بل زادت تعقيدا . فقال أستاذي لقد بلغ السيل الزبي ولات حين مناص ، والسكوت خير من كلام لن يحظى بالقبول لدى السلطان ، فإنه اليوم يستاء من كلامنا نحن الشيوخ ويريد أن يستمع لكلام هؤلاء الشبان الأغرار ، وهم لهذا يشوهون صور الشيوخ عنده ، وليس لنا من سبيل غير التزام الصمت . فقال الوزير إنه كذلك وحتى لو سألنا عن شيء من هذا الحديث فلنكن صامتين .

وأعد السلطان يوم السبت غرة ذي الحجة خمسة فرسان ليذهبوا إلى

جرجان وأمر بكتابة رسالة لأبي سهل الحمدوى وسورى وبا كاليجار على هذا النحو « لقد جئنا هراة فى عزة النصر والسعادة ونقيم هنا فترة إلى أن يصل ما طلبنا من غزاة من الجمال والمال والخيل والذخيرة وآلات الصحراء، ثم نتجه فى أهبة نحو طوس ونيسابور فإننا قد وقفنا على جملة عادات العدو وشعوذته وعرفنا أسرار نظمهم فى الحرب ولسوف نرسل عليهم رجالا خفافا مثلهم على أن نكون لهم ذخيرة، وذلك حتى نظهر الأرض من التركمان. ولقد أدى با كاليجار خدمة جليلة حقا كان لها وقع عظيم وستكون ثمرتها عندنا بما يفوق ما استحققه أى من خدام هذه الدولة، وقد بعثنا هذه الكتب لبقوى قلبه، وحين تصل مواكبنا إلى نيسابور تعالوا إلى ٥٩٠ البلاط بقلوب مطمئنة واستبقوا الفرسان عندهم حتى يجيئوا معكم، ووقع السلطان هذه الكتب وأمر الفرسان بأن يسيروا عن طريق بران فيسلكوا الطريق العادى والطرق الأخرى الوعة بحيث يوصلوا هذه الكتب إلى جرجان، فساروا.

وأقبل عيد الأضحى فأمر السلطان بالاحتفال به احتفالا عظيما يفوق حد الوصف، وكانت الأسلحة المتوفرة فى هراة لا توجد فى مدينة أخرى، فخرج يوم العيد إلى الميدان كثير من الفرسان والرجالة فى كامل أساحتهم، بحيث قال الشيوخ الثقة إنهم لا يذكرون أنهم رأوا مثل هذا فى أى وقت. واحتفل بالعيد، وصفت الموائد وقدم الشراب. وبعد العيد استعرض السلطان الجيش فى صحراء خداهان، وقد أقر كل من رأى هذا الاستعراض أنه لم ير فى أى وقت جيشا عظيما كهذا الجيش.

ودنا أجل أستاذى وجرت على لسانه فى هذه الأيام ألفاظ جارحة لا تعجب أهل العقل، منها أنه كان يوم الاستعراض هذا يمر على جبانة وكنت معه، فانتحى ناحية وفكر مليا ثم سار إلى المدينة حيث لحق به أبوسهل الزوزنى

فسارا معنا ، وكانت سراى أبى سهل على الطريق فاستضافه ، فقال أستاذى لا رغبة لى فى الشراب فإنى حزين « ولكن الزوزنى ألح عليه ولم يجد اعتذار أبى نصر فنزل آخر الأمر ونزلت معه ، قاصدين المأكولات ، وكان قد أعد الندماء والمطربين ، وكان أستاذى غارقا فى التفكير وقد تهيأ كل شيء على المائدة ، فقال أبو سهل إنك شديد الكسل ، لم يحدث شيء . فقال أستاذى إننى أفكر فى هذه الأحوال فإنى أرى الأمر قد أشكل بحيث لا تنصرف أفكارى عنه بآية حال ، وإنى خائف ، حتى لكأنى أرى أننا قد هزمنا فى الصحراء وتفرقنا ولكل منا شأن يغنيه ، وأصبحنا ولا خادم لنا ولا حميم ، وإنا هالكون وكأن علينا أن نرى من الهوان ما لم يره أحد ، واليوم وأنا عائد من الاستعراض مررت بالجبانة فرأيت مقبرتين نظيفتين مطليتين بالجنس ، فتمنيت فى الحال لو كنت قد مت كصاحبيهما وأنا عزيز ، حتى لا أضطر إلى معاناة الذل فإنى لا طاقة لى به . فضحك أبو سهل وقال هذه هى السودا المحترقة ، إشراب واطرب ودع الدنيا بخير .^(١) وجيء بالمأكل الطيب والشراب الرائق وجاء المطربون والندماء . وأكلنا ونعمنا وبادرنا إلى الطرب وانتهى اليوم نهاية ٥٩١ سعيدة حقا ، فقد استمتعنا إلى كثير من الأدب والغناء والفكاهات ، وعدنا ثملين . وبعد أربعين يوما من ذلك التاريخ مات أستاذى رضى الله عنه ، وسأذكر هذا بعد .

وسرنا من هراة وبعد سبعة أشهر وقعت الواقعة فى دندانتان مرو ، ولحققتنا هزائم كثيرة بعدها ، وقد قال لى أبو سهل عدة مرات ونحن فى الطريق : سبحان الله العظيم كم كان أبو نصر مشكان رجلا بصيرا ، كأنه كان يرى هذا اليوم الذى نحن فيه . وقد أشاعوا كل ما جرى على لسان أبى نصر فى هذا المجلس حتى

(١) هنا كلمة (بخور) وقد على عايبها غنى — فياض بقولهما كذا ، ويحتمل أن يكون محرفة أو أن كلمة سقطت من النص ، ص ٥٩٠ ملحوظة ٤ ورجعنا أنها بخير .

أوصلوه إلى مسامع السلطان ، وقالوا إذا بلغ الأعداء كلام كهذا صادر عن صاحب ديوان الرسائل وهو أعقل أركان الدولة فإنه يؤدي إلى الفتنة ويقوى عزائم الأعداء . لهذا أغضب عليه السلطان غضبا شديدا ولكنه كظم غيظه منه إلى أن مات .

وأذكر هنا قصة عن الأدب جرت في ذلك المجلس ولو أن كتاب التاريخ هذا سيصبح « كجامع صفاهان » من الإسهاب الذي يسير عليه فسأذكر إتماما للقصة أبياتا مما تبودل في مجلس ذلك اليوم ، ولم تكن هذه الأبيات عندي ، ولكني سأذكر كيف حصلت عليها : كان في هراة رجل اسمه القاضي منصور رحمة الله عليه ، كان يملك ناصية الفضل والعلم والكتابة والشعر والرسائل والفضائل ؛ يحب مجالس العشرة ، وينهج مسلك « خذ العيش ودع الطيش » وخذ حقلك من هذه الدنيا الخداعة ، كان له فلسفة أخرى ؛ وقد عاش عيشة طيبة وأكل هنيئا وكان ريحانة مجالس العظماء ، بحيث لم يكن يروق مجلس لا يكون فيه . وكان له صلة بأبي سهل الوزني بحكم رابطة الأدب التي تجمعهما ، فكانا معادئما ويشربان سويا ، وفي هذا اليوم كان القاضي منصور قد بكر بالخروج ، وأخذ يلمو ويشرب ، وعكف على الطرب وأخذ حظا وافرا من الشراب فأرسل أبو سهل قطعة الشعر إليه فكتب الجواب على ظهرها فورا . فأعاد أبو سهل الكتابة فرد القاضي أيضا ولم يحضروا وانقضى النهار ، وكنت متعطشا للحصول على هذه القطع حتى حصلت عليها . وكان سبب ذلك أن أحد الأفاضل ٥٩٢ من الأسرة السلطانية المنصورة يدعى مسعود كان يتردد على هذا القاضي ويعلق على كل ما يجري معه . ولما اختل أمر هراة جلا هذا الفقيه الحر عن بلده وسار رويدا رويدا إلى أرسلان خان بن قدرخان ، الذي كان ملكا على تركستان ، وبقي هناك أعواما على أحسن ما يكون ، فإنه كان فريد عصره في العلم

والوعظ والإرشاد ، ولما رأى أن أمر هذه المملكة سيؤول إلى الاضطراب .
لما وقع من التعصب والانقسام بين الأخوة والأقارب « وللعاقل شمة » .
استأذن ليحيى هنا ، فأذن له وجاء سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٦ —
١٠٤٧) فاستحوذ على قلوب الخاصة والعامة في هذا البلد بحلو حديثه ولقي
من الملك القبول والإعزاز والتقرب ، ولهذا صار وجهها يشار إليه . وهو
اليوم في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩ — ١٠٦٠) أكثر وجاهة
بفضل رعاية السلطان المعظم إبي المظفر إبراهيم أدام الله سلطانه ، وقد آل
حاله إلى هذا فإنه شاب ذو مروءة وجلال ، وإذ كانت لى به صداقة تامة
معتمدة ، وقد تبادلنا الملح والزاد والصحبة ، أتيت بذكره في هذا التاريخ رعاية
لمقتضى الصداقة .

« الآيات التي كتبها الشيخ أبو سهل الزوزنى »

أيها الصدر الذي دانت لعزته الرقاب
انتدب ترض الندامى هم على الدهر كتاب
وأسيغ غصة شرب ليس يكفيها الشراب
وأحضرن لطفاً بناد فيه للشوق التهاب
ودع العذر وزرنا أيها المحض اللباب
بينك المر عذاب وسجاياك عذاب
إنما أنت غناء وشراب وشباب
جودك الموجد بحر فضلك الوافي سحاب
إنما الدنيا ظلام ومعاليك شهاب

فأجابه القاضى على الفور :

أيها الصدر السعيد الماجد القرم اللـاب
وجهك الوجه المضىء رأيك رأى الصواب
عندك الدنيا جميعا وإليها لى مآب
ولقد أقعدنى السكر وأعيانى الجواب
فى ذرى من قد حوى من كل شىء يستطاب
ولو استطعت قسمت الجسم قسمين لطاب
غير أنى عاجز عنه وقلبي ذو التهاب
فبسطت العذر عنى فى أساطير الكتاب

فأجابه أبو سهل :

أيها الصدر تئن ليس لى عنك ذهاب
كل ما عندك نخر كل ما دونك عاب
وجهك البدر واكن بعد ما انجاب السحاب
قربك المحبوب روض صدك المكروه غاب
عودك المقبول عندى أبد الدهر يصاب
أنت إن أبت إلينا فسكا آب الشباب
أو كما كان على المحل من الغيث الضباب
بل كما ينتاش ميت حين وراه التراب

فكتب منصور بعد ما أدركه السكر :

نام رجلى منذ عبرت القنطرة فاقبلان إن شئت منى المَعْدرة

إن هذا الكأس شيء عجب كل من أغرق فيه أسكره .
هكذا كان هؤلاء الكبراء ، وقد مات ثلاثتهم رحمهم الله وإنا كذلك ،
ميتون ، اللهم اجعل عاقبتنا خيرا ، إن شاء الله عز وجل .

❦ ❦ ❦

وجلس السلطان رضى الله عنه لعيد المهرجان يوم الثلاثاء السابع والعشرين .
من ٥٩٤ ذى الحجة وجيء بكثير من الهدايا والنفار ، ولم يأمر بشيء للشعراء .
وغضب على مسعود^(١) الرازى ، وأمر بإبعاده إلى هندوستان ، وقد قيل إنه
نظم قصيدة تنطوى على نصائح للسلطان ومنها هذان البيتان :
« لقد كان أعداؤك نملا فصاروا ثعابيننا ، فبادر باستئصال شأفة النملة التى
صارت ثعبانا لا تتح لهم الفرصة أكثر من هذا ولا تصبر عليهم ، فإن الثعبان .
إذا امتد به الزمان يصير تنينا » .

وكان هذا المسكين قد أدى نصيحة جارية ، رغم أن القصيدة عدت من
الفضول . ولا يحق للشعراء هذا السلوك مع الملوك . وكذلك لم يأمر بصلات
للطربين فقد كانت السحابة التى تمطر الذهب قد وهنت وقل إمطارها ،
ودارت المناقشات بين الناس ، والأجل قد دنا وهذا هو حال الناس والدنيا ،
وهكذا انقضت أيام هذا المهرجان .

تاريخ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة

١٠٣٩ — ١٠٤٠

وفى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة التى بدأت بيوم الثلاثاء ، كان .

(١) مسعود سعد سامان — أنظر جواهر مقال (الترجمة العربية عزام — الخشاب ص ٥٢ ،
٥٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤) وحواشى القزوينى ص ١٣٥ و ١٤٢ — ١٥٠ من طبعة
جب التذكارية :

السلطان قد فرض على نفسه أن يخلو بالوزير وأركان الدولة والقادة ، قبل الإذن بالاستقبال حتى الضحى . وكان يتحدث معهم فيما كان أمامهم من الأمر ثم يعودون . ويستمر السلطان في العمل حتى الليل ولم يره أحد في أى وقت منهم كما في العمل كما كان في تلك الأيام .

كانت الكتب تترى من كل فج بأن الأعداء يعدون عدتهم وأنهم كانوا يمدون يورتكين بالعون من الرجال حتى اشتبك في عدة معارك مع أبناء على تكين وغلبهم ، وقد أشرف على انتزاع بلاد ما وراء النهر منهم ، وأن خندان بن التوتناش قد حالف هؤلاء الناس ، وقد كشفوا حدود جيحون من كل جهة ، وأخذ الناس يقدون طمعا في النهب من خراسان . وأذكر أنى قرأت في رسالة أنه رؤيت عجوز براء عرجاء عوراء وفي يدها معول في نهر آموى (جيحون) فسألوها لماذا حضرت ؟ فأجابت إنى سمعت أنهم يخرجون كنوز خراسان من تحت الأرض فجئت لأخذ نصيبى منها . وكان السلطان يستخر من هذه الأخبار . ولكن كم كان هذا الأمر أليما عند العارفين ببواطن الأمور . وبدأ يترى علينا ما طلبنا من غزاة من الاستعدادات ، وجاء الجنود بكثرة . وقد اختلى أبو الحسن عبد الجليل مع السلطان وقال :

« نحن ٥٩٥ العرب لدينا إبل وخيول كثيرة ، والسلطان في حاجة إلى المزيد منها للجيش الذى يعده ، وكل ما لدينا هو من نعمه ومن دولته ، فيجب إعداد سجل وأن يفرض على كل منا شئ منها . »

ولم يكن يقصد مصاحبة بل كان يريد أن يقيد شيئا باسم أستاذى أبي نصر ، إذ كان يعرف أنه سوف لا يقبل لسوء طبعه وشططه وأنه سينتقد أمر السلطان بما يزيد في حقه عليه . وقد وافق السلطان على هذا الذى أبداه أبو الحسن

عبد الجليل ، الذى أعد السجل وقيد فيه أسماء أعيان العرب جميعا ، ثم عرضه على السلطان .

وقال كل من طلب إليه شيء سمعا وطاعة ، والله عز اسمه يعرف ما تخفى صدورهم ، أما أبو نصر فقد استشاط غضبا وقال : « بلغ الحال بنا إلى الحاجة إلى حصان واحد وجمل ! لقد هان السجن والذل والفقر والموت على أبي نصر حين يقيد دابة باسمه رجل حامل كأبي الحسن » ثم بعث على لسان أبي العلاء الطبيب رسالة يقول فيها : « إني قد وهن العظم منى ، وإن ما لدى من قليل المال قد اكتسبته من عملي ، فإذا مست الحاجة إليه فليأمر السلطان بذهابي إلى إحدى القلاع لأقيم فيها » فأجابه أبو العلاء : ألا يعرف الأستاذ أنى صديقه القديم ؟ قال نعم . قال فهذه الرسالة ليست من الخير فى شيء ، فإن السلطان ليس كما عهدت ، وإنه يتلمس الحجة ضد كل رجل ، فلنعمل على تلافى ما نكره واعفى من أداء هذه الرسالة ، فإنى لا أحب أن أسمع عنك ما لا يابق بك . فكتب أستاذى رقعة شديدة اللهجة فصل فيها البيان عن كل ما لديه من صامت وناطق ، وكتب الحديث الذى طاب أن يذكره عنه أبو العلاء كتابة مفصلة ، ثم جاء إلى وثاق آغاجى ، ولم يكن قد أقدم على مثل هذا الصغار طيلة حياته ، فأظهر المزيد من العبودية والطاعة وسلبه الرقعة . فوعده آغاجى بإيصال الرسالة فى وقت ملائم . وعاد أستاذى إلى الديوان ، وأخذ يستعجل آغاجى فى تبليغ رسالته حتى اضطر لذلك فى وقت كان الأمير غاضبا فيه من الأخبار المؤلمة التى وصلت إليه . وبعد ذلك خرج آغاجى من عند السلطان ونادانى وقال : قل للأستاذ العميد أنى أباحت رسالته وأن السلطان قال « لقد عفوت » . قالها آغاجى بلطف حتى لا يكون الأستاذ قلقا ، ثم أعادلى الرقعة وقال لى سرا : لا تقل لأستاذك لى لا يحزن فإن السلطان قد ألقى رسالته واستشاط منها

غضبنا وقال « ليس الذنب ذنب أبي نصر ٥٩٦ إنما هو ذنبنا إذ صفحنا عنه حين أرادوا الواقعة به في ثلاثمائة ألف دينار^(١) . » وجئت إلى الديوان وقدمت له الرقعة وأخبرته بالحديث الأول الذي قاله آغا جى ، فأثنى على السلطان وهدأ روعه ثم عاد إلى بيته ودعاني واختلى بى بعد الغذاء وقال لى : إني متيقن أن هذا ليس كلام السلطان فبحق صحبتنا وما بيتنا من الخبز والملح قل لى إذا كان آغا جى قال لك قولاً آخر وأخذ عليك عهداً ألا تحدثنى عنه ، قل حتى أدبر شأنى . فرويت له رواية آغا جى . قال : « عرفت وهذا ما كنت أتوقع ، تعسا لهؤلاء الأذلاء الذين يخدمون الملوك ، فليس للملوك وفاء أو حرمة أو رحمة . ولقد وطدت النفس على كل بلاء ولن أقدم شيئاً بطلب رجل كأبى الحسن » . ثم عدت وبقى بعد ذلك حزينا كثيراً بيد أن السلطان كان يرمى حرمة ، وقد دعاه يوماً للشراب وشمله بعطفه ، فعاد إلى بيته قرير العين ، ودعا أبا منصور الطبيب ، وكنت حاضراً ، وكذلك وفد عليه جماعة من الأصدقاء والمطربين ، وجاء أبو سعيد البغلانى أيضاً ، وكان نائباً عن أستاذه فى بريد هراة وقد ذكر هذا فى أثناء الحديث « إن حديقتي على نصف فرسخ من المدينة لا تزال على بهجتها ، فليتفضل هولاى بالجىء إليها غدا » . فقال ، حسناً . وعاد أبو سعيد ليعد أسباب الضيافة وعدنا إلى بيوتنا ، وكانت نوبتى فى غداة ذلك اليوم فسرت إلى الديوان ، وقد ذهب أستاذه إلى البستان ، وأوعز إلى أبى الحسن دلشاد بالجىء هناك وكذلك أبى نصر طيفور وجماعة آخرين .

وعاد لصلاة المغرب لأنها كانت ليلة الجمعة . وفى اليوم التالى حضر إلى البلاط وبعد الاستقبال توجه للديوان وكان اليوم شديد البرودة ، فأوى إلى ركن فى صفة الحديقة العدنانية ، وكانت الريح عاصفة ، وقد لقي السلطان

(١) انظر القصة ص ٦٥ من هذا الكتاب.

وعرض عليه خمس رسائل أو ست ، ثم آب إلى الصفة وأمر بكتابة الأجوبة وخرج . وفجأة أصيب باللقوة والفالج والسكتة ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فأخبروا السلطان بمرضه فقال إنه لا يعافى ما لم أصحبه معى فى السفر . فقال أبو القاسم كثير وأبو سهل الوزنى ليس أبو نصر ممن يقدرّون على السفر وهم مرضى . فأمر السلطان أبا العلاء الطيب ليعوده ثم يشرح للسلطان حاله . وجاء أبو العلاء . وكان الرجل طريق الفراش ففحصه فحفا دقيقا وعاد يائسا ، وقال للسلطان أطال الله حياتك فإن أبا نصر قد راح ولا مفر من البحث عن أبي نصر آخر . فصرخ السلطان فى ألم وقال ماذا تقول ؟ فقال إنه كما قلت فقد ابتلى ٥٩٧ فى يوم واحد بل فى ساعة واحدة بثلاث علل لا استطاع النجاة من واحدة منها ، والأرواح فى خزانة الله تعالى فإذا بقيت روحه فإن نصف جسده سيظل مشلولا . فقال السلطان « أسفا على أبي نصر » ثم قام . وسار الأساتذة إلى حيث يرقد المريض فبكوه كثيرا وحزنوا عليه ووضعوه فى محفة على الفيل وقد حمله خمسة من الجمالين أو ستة وأعادوه إلى منزله وامتد أجله ذلك اليوم وليلته ومات فى اليوم التالى ، رحمة الله عليه . وقيل إنهم سقوه فى ذلك اليوم ، وهو فى الحديقة كمية كبيرة من شراب القرع (كدو) حين كان ضيفا على نائبه ، وكان قد أخذ من هذا النائب خمسة آلاف دينار . وقالوا فى شأن موته شتى الأقاويل ، ولا دخل لى فى هذا والله سبحانه وتعالى أعلم ، فإن الجميع قد قضوا وعندى أنى لا أقبل ملك الدنيا مع تحمل تبعة إيذاء الناس ، فكيف الأمر إذا تعلق بإراقة الدم . فلا مرأ فى أن الرجل إذا قضى فإنه لن يحمل معه شيئا من ماله الوفير وجاهه العريض ، وأى خير لم يمس هذا الرجل العظيم من الدولة والنعمة والجاه والمنزلة والعقل ونفاذ الرأى والعلم ؟ وقد تجرع النقص ثلاثين سنة كاملة ولم ينعم بشيء منها يوما واحدا . وآثاره وأخباره وأحواله ذكرتها فى مقامات محمودى^(١) وفى هذا الكتاب .

(١) اسم كتاب : مقامات محمودى .

والحقيقة المسلم بها هي أنه قد ختمت الكفاية والبلاغة والعقل به ، وهو
مصدق قول أبي القاسم الإسكافي الكاتب رحمه الله قال :

ألم تر ديوان الرسائل عطلت بفقدانه أقلامه ودفاته
وقد كنت عزيزا عليه وعملت معه تسع عشرة سنة وكنت عنده أعز
عليه من أولاده ، ورعاني فحصلت معه على الشهرة والمال والجاه والعز ، ولذا
وجب على أن أذكر بعض مناقبه وسجاياه بما وقفت عليه منه . وقد استطعت أن أذكر
واحدة من كل اثنتين منها كي أقوم بحق من الحقوق التي له عندي ، وقد انتهت
أيام هذا الرجل العظيم بعد فراغى من الخطبة . وكيف السبيل إلى اتمام هذا
التاريخ من غير أن يذكر فيه اسم أبي نصر ؟ فليكنه يراعى قليلا . وسأذكر من
نظم ونثر الكبراء ما قيل في أمثال هذا الرجل وفي مثل مصابه حتى تكون تسلية
لى وللقرءاء ثم أعود بعدها إلى التاريخ .

ولم تمر على لحظة بعد وفاته إلا وأذكر فيها كلماته الحكيمة كأنها كانت
تذكرنى ٥٩٨ بهذه الآيات التي قالها أبو المظفر القايى الكاتب فى رثاء
المتنبى : شعر .

لأرعى الله سرب هذا الزمان	إذ دهانا فى مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثانى المتنبى	أى ثان يرى لبكر الزمان
كان فى نفسه العلية فى عز	وفى كبرياء ذى سلطان
كان فى لفظه نبيا ولكن	ظهرت معجزاته فى المعانى

ولم أمر بباب بيته يوما من غير أن أذكر هذين البيتين اللذين قالهما أبو
العباس الضبى يوم مرياب سراى الصاحب بن عباد بعد وفاته وهذان هما :

أيها الباب لم علاك اككتاب أين ذاك الحجاب والحجاب

أَيْنَ مَنْ كَانَ يَفْزَعُ الدَّهْرَ مِنْهُ فَمَنْ الْآنَ فِي التَّرَابِ تَرَابِ

«وَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو نَوَاسٍ رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذْ قَالَ :

أَيُّ رَبٍّ وَجَّهَ فِي التَّرَابِ عَتِيقُ وَيَأْرَبُ حَسَنٌ فِي التَّرَابِ رَقِيقُ
وَيَأْرَبُ حَزْمٌ فِي التَّرَابِ وَنَجْدَةٌ وَيَأْرَبُ قَدْ فِي التَّرَابِ رَشِيقُ
أَلَا كُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقُ

وَقَالَ رُوْدَكِيُّ : ٥٩٩

« يَا مَنْ تَعِيشُ حَزِينًا وَجَدِيرٌ بِكَ أَنْ تَحْزَنَ ، وَأَنْ تَصُبَّ الدَّمْعَ سِرًّا فِي قَلْبِكَ
مَنْ أَجَلُ هَذَا أَيْنَ أَذْكَرُ اسْمِهِ ؟ إِنِّي أَخَافُ عَلَى حَظِي أَنْ تَغْمُرَهُ الْهَمُومُ
مَضَى مَا مَضَى وَأَتَى مَا أَتَى ، وَكَانَ مَا كَانَ فَفِيمَ الْحُزْنِ يَا جَاهِلٌ ؟
تَأْمَلُ أَنْ تَسِيرَ الدُّنْيَا بِاعْتِدَالٍ ، وَهَذِهِ الدُّنْيَا مَتَى سَارَتْ فِي اعْتِدَالٍ ؟
فِيمَ الرِّعْوَةِ ، إِنَّمَا لَا تَعْبَأُ بِهَا ، فِيمَ النُّوَاحِ ، إِنَّمَا لَا تَقِيمُ لَهُ وَزْنَ !
إِذْ هَبْ وَابْكِ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَتَى أَعَادَ الْبَكَاءُ الْأَمْوَاتَ ؟
يَكْثُرُ عَذَابُكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِقَدْرِ تَعَلُّقِكَ بِأَسْبَابِ الْعَذَابِ !
تَحْسِبُ بِلَاءَهَا مَوَاقِلًا بِمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ قَلْبُكَ
لَا يَبْدُو سَحَابٌ ، وَلَا يَبْدُو كَسُوفٌ ، خَسَفَ الْقَمَرُ وَأَظْلَمَ الْكُونُ
فَسَوَاءٌ أَمَرْتَ أَوْ لَمْ تَأْمُرْ إِنِّي أَخَافُ أَلَّا تَقْمَرَ نَفْسُكَ مَرَّةً وَاحِدَةً
فَتَهْزِمَ جَيْشَ الْغَمِّ عَنْ قَلْبِكَ ، أَوْلَى بِكَ إِذَا أَنْ تَأْتِيَ بِالشَّرَابِ وَتَحْتَسِي .
عِنْدَ الشَّدَائِدِ تَظْهَرُ فَضَائِلُ الرَّجُلِ وَعَظَمَتُهُ وَسُلْطَانُهُ . »

وَلَمْ يَكُنْ مَصَابِ هَذَا الرَّجُلِ الْكَبِيرِ بِهَذَا الْمَعْنَى بَلْ كَانَ كَمَا قِيلَ : « أَكْوَى
الْفُؤَادِ وَالْقُلُوبِ وَفَرَقَهَا وَجَرَحَ النُّفُوسَ وَالْأَكْبَادَ وَأَحْرَقَهَا ، وَأَغْصَصَ الصُّدُورَ
بِهِمْ أَصَابِيهَا ، وَأَقْدَى الْعَيُونَ عَلَى فَنَاجِئِهَا ، وَمَلَأَ الصُّدُورَ ارْتِيَاعًا ، وَقَسَمَ

الألباب شعاعاً ، وترك الحدود مجروحة والدموع مسفوحة مهدودة ، والطرق مسدودة ، وما أعظمه مفقودا . وأكرمه ملحودا ، وإنى لأنوح عليه نوح المناقب ، وأرثيه مع النجوم الشواقب ، وأثكله مع المعالي ٦٠٠ والمحاسن ، وأثنى عليه ثناء المساعي . والمآثر . لو كان حلول المنية بما يفدى بالأموال والأناصير بل الأسماع والأبصار لو وجد عند الأحرار من فدية ذلك الصدر ما يستخلص به مهجته ؛ هذا ولا مصيبة مع الإيمان ، ولا فجيحة مع القرآن ، وكفى بكتاب الله معزياً وبعموم الموت مسلياً ، وإن الله عز ذكره يخفف ثقل النوائب ، ويحدث السلو عند المصائب بذكر حكم الله في سيد المرسلين وخاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين . ورضى عن ذلك العميد الصدر الكامل وأرضاه وجعل الجنة مأواه ومثواه ، وغفر له ذنبه وخفف حسابه ، ونهنا عن نومة الغافين آمين آمين يارب العالمين .» وقد كلف السلطان كلا من أبي القاسم كثير وأبي سهل الزوزنى بالجلوس في مأتمه . وتقبل العزاء فيه . وقد جاء ومكثا ذلك اليوم كله في تجهيز جنازته وحمل نعشه إلى المدافن وصلى عليه خالق كثيرون . وقد حضر ذلك اليوم السهيسالار والحاجب الكبير ومعهما كثير من الوجهاء . ومن العجائب أنه كان في ذلك المكان الذي دفن فيه رباط بجواره قبران ، وكان أبو نصر قد قال « ياليت هذا الرباط يكون قبراً ثالثاً لي ..» وقد أعد له قبر فيه ، وهناك ظل جثمانه عشرين يوماً ، ثم نقل إلى رباط كان قد أعدّه في حديقته بحى لشكرى . ونقل الغلمان المدربون إلى سراى السلطان ووسمت الخيول والجمال والبغال بالوسم السلطاني . وقد ترك من بعده كذلك تلك الدواب التي كانوا قد طلبوها منه فاستشاط من هذا الطلب غيظاً ، تركها كلها في سهولة ومضى إلى ربه . وجاء أبو سعيد المشرف بأمر لنكى يجرّد الخزانة ، فظهر أن أبا نصر كان صادقاً في إقراره عملاً يملك . وقد حمل أبو سعيد بيان ثروته إلى السلطان ، وتبين أنه لا يوجد خيط

«واحد أكثر مما كان أبو نصر قد كتبه في بيانه . وقد أعجب السلطان بصدق هذا الرجل في الحياة وفي الملمات وأثنى عليه كثيرا ، وكان كلما ذكر اسمه توجع لفقده وترحم عليه وسب أبا الحسن عبد الجليل وكان يسميه كافر النعمة . وقد عهد السلطان بأعماله في ديوان الرسائل — في خلوة له — إلى الأستاذ أبي سهل الزوزني ، على أن أكون نائبه وخليفته . وقد قال السلطان في المجلس الذي اتخذ فيه هذا القرار إنه لو لم يكن أبو الفضل شابا صغيرا لأسندنا إليه هذا العمل . فإن أبا نصر ، قبل أن يذهب إلى ٦٠١ مجلس شرا به الأخير هذا ، حدثنا سرا . فقال : « لقد صرت شيخا كبيرا ، ودنت منيتي ، فإذا مت فاحتفظوا بأبي الفضل ، وقد ذكرني الوزير بالخير كذلك . فذهبت إليه بعد صلاة العصر ، وكان في الديوان فشكرت له صنيعه وقال « لا تشكرني ولكن اشكر لأستاذك الذي قال كذا وكذا قبل موته وقد ذكر السلطان هذا الكلام اليوم في الخلوة ، فدعوت للأحياء جميعا .

واستقر الأمر وجاء أبو سهل وجلس في ركن من الحديقة حتى جاء وقت لبس الخلعة ، وكانت فاخرة . وقد ذهب بخلعته إلى البيت ، ووفد عليه العظماء مهنيين ، فإنه كان عظيما حقا . وجلس في الديوان بخلعته يوم الأربعاء الحادي عشر من صفر ، وأخذ يباشر عمله . وكان بعيدا كل البعد عن هذه الأمور ، فبذلت غاية الجهد لأحفظ له هيئته ومكانته ، ولكني بعد أن أدركت ما ينطوي عليه من الشر والحق ، ورأيت أنه كان يعمل على مخالفة أبي نصر في كل أمر ، كتبت رقعة للسلطان أتمس فيها إعفائي من الكتابة وفقا للرسم المعروف وقلت فيها « قد كان أبو نصر عمادا لي ، فلما مات في سبيل السلطان ، تغيرت الأحوال وفقدت ما في قلبي من قوة ، وإن لي حق الخدمة القديمة ، وأخاف ألا يتفق سيرى مع أستاذي ، فإنه سيء الخلق ، وإن لدى مولاي أعمالا أخرى فإذا رأى السلطان فيني أقوم بعمل منها » . وسلبت هذه الرقعة لأعاجي فأوصلها

للسلطان ، ثم أعادها وأعلاها كتابة بخط السلطان يقول فيها إذا كان أبو نصر قد مات فإننا في مكانه وإنا نعرفك حق المعرفة فلماذا هذا اليأس ؟ فأعاد لي هذا الرد السلطاني الحياة والقوة . وكانت عظمة هذا السلطان وحسن رعايته لخدمته إلى درجة أنه قال للوزير وهو في خلوة معه « قل لأبي سهل إن أبا الفضل ليس تلميذك ، إنه كان كاتب أبي ومعتمده ، فلترع عشرته ، وإذا شكوته لي فإني لن أقبل شكايته » . فقال الوزير سمعاً وطاعة ، ثم قال له « إني عهدت إليك بأبي الفضل فارغ مصالحه » وقد أسر إلى الوزير بهذا الحديث ، وشد به عزمي ، فظل أمرى يسير بانتظام ، وأعزني أستاذي كثيراً ، وأحسن معاملتي ما بقي هذا السلطان حياً ، فلما مات تغيرت الأحوال ، وكنت فيها الجاني أحياناً فإن الرجل (السلطان) قد مضى وحلت الغمرات ، ووقعت في الشرك وأنا في شرح الشباب ، وكثرت السقطات فكنت أهوى ثم أتهض ، ورأيت كثيراً من الحلول ٦٠٢ وكثيراً من المرأى أيضاً ، ومضت على النحو عشرون سنة ، ولا أزال في تبعة ماحلته هذه السنون . لقد مضى كل شيء ، وكان أستاذي هذا رجلاً عظيماً ، ولست أجنب الحق في قولي . ولم يكن لي بد من كشف هذه الحقائق في التاريخ فإني كما أتحدث عن الأصدقاء والعظماء تحدثت عن نفسي أيضاً ، ثم عدت إلى العمل حتى لا يقال إن أبا الفضل قد سار سيرة الصولي وامتدح نفسه . ذلك أن الصولي صنف كتاباً في أخبار الخلفاء العباسيين وسماه « الأوراق » ، وقد بذل في كتابته جهداً كبيراً ، فإنه كان رجلاً فاضلاً ، وكان وحيد زمانه في الأدب والنحو واللغة ، وقلما يجود الزمان بمثله ، إلا أنه تهادى في امتداح نفسه ، والإشادة بشعره ، وذكر منه كثيراً حتى برم الناس بمسلكه وعابوه به ومن ذلك ما كان يكتبه في ذيل كل قصيدة فلما أنشدتها أبا الحسن علي بن الفرات الوزير قلت له : لو طلبت من البحترى الشاعر قصيدة على هذا الروي والوزن والقافية لعجز . فكان الوزير يضحك ويقول انه كذلك . وقد سخر منه

لذلك أبناء عصره وكذلك يسخر منه قراؤه اليوم . ولما وقفت : أنا أبو الفضل على هذا الخبر لم أر أتباع الصولى فأمّح نفسى . وقد ذكرت ذلك لكى لا يعيب على شيوخ عَهْدَى محمود ومسعود حين يقرءون كتابى والله يعصمنا من الخطايا والزلل بمنه وفضله .

قصة حرب السلطان مسعود مع السلاجقة فى مرو

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر صفر ، سار السلطان رضى الله عنه من هراة عن طريق پوشنك ، مع جيش جرار كامل العدة فيه فيلة القتال ورجالة كثيرون وأحمال خفيفة . وفى پوشنك أمر السلطان بالتعبئة ، وكان هو على القلب وعلى الميمنة السهسالار على ، وعلى الميسرة الحاجب الكبير سوباشى ، وسار فى المقدمة يبرى قائد الاصطبلات (آخور سالار) وبايتكين^(١) وأيد سنقر وأبو بكر الحاجب مع جماعة الكرد والعرب وخمسمائة من الفرسان ٦٠٣ وأمر السلطان بخلعة فاخرة لأرتكين حاجب السراى ، كما أمر لقائد الاصطبلات بالقلنسوة ذات الركنين ومنحه المنطقة ، وجعل الحاجب بكتغدى خليفة لينهى إلى غلبان السراى الأوامر التى يصدرها وكان فى جيشه كثير من الهنود منهم من يركب خيولا عليها وسم السلطان ، ومنهم الرجالة ، يقودهم قادة مشهورون ، وقد وزعوا على القلب والميمنة والميسرة والساقة ، كما أن فيه رجالة الدركاه وقد اعتلى معظمهم النجائب . وكان فى هذا الجيش خمسون من أحسن الفيلة . وأجمع كل من رأى هذا الجيش على أنه لم ير له من قبل مثيلا . ولقد ارتفع الضجيج فى كل مكان

(١) فى نسخة غنى وفاض « باتكين إيدو سنقر » على أنه اسم واحد ص ٦٠٣ السطر ١
وفى نسخة نقيصى بايتكين وإيدو سنقر . وقد أشار نقيصى فى الهامش إلى أن النسخة جاء فيها
اروسنقر . ص ٧٢٣ سطر ٤ .

لمحركة هذا الجيش العظيم . وكان طغرل في نيسابور ، فلما بلغ السلطان سراى
سنجد ، على ملتقى طريق نيسابور وطوس ، عزم على التوجه إلى طوس
حتى يخذع طغرل فيبقى مطمئنا ويتأخر طويلا في نيسابور ، حتى يستطيع
السلطان أن يبحث السير عن طريق نوق ، إلى أستوا ، ويقطع عليه خط
الرجعة بحيث لا يستطيع السير إلى نسا ، وإذا عجز عن المسير في هذا الطريق
فسوف يسهل أسره فيما إذا سلك طريق هراة وسرخس . وعلى هذا العزم
سار ناحية طابران طوس ، ولبت هناك يومين في سعد آباد حتى وصل الجيش
بأكمله ، فتوجه إلى عين شيرخان . وقد شرب مسهلا فلما فرغ منه نام نوما
خفيفا ، وعند صلاة العصر طلب أنثى فيل فركبها . ثم أمر الوزير بالسير بعد
صلاة العشاء ومعه الرجال والأمتعة والطلب والعلم والحاجب بكتغدى وغلبلان
السراى على أن يلحق بهم الجيش . أمر بهذا ثم ساق فيلته مسرعا كأنه
يجرى مطاردا عدوه ، وكان معه ألف من غلبلان السراى وألفا فارس من كل
صنف وألفان من الرجال المسلحين الذين ٦٠٤ يركبون النجائب . وقبل أن
يتحرك أخذ الجيش بدوره يتحرك دون أن تصدر إليه أوامر بذلك ، وتعذر
على الوزير ضبطه ، رغم ما بذل من جهد ، مما حمله على أن يأمر بالمسير ، وكان
ذلك بعد صلاة المغرب فحملوا أمتعتهم وساروا .

وكان عند طغرل فرسان ممتازون ، فلما سمع أن السلطان اتجه إلى ناحية
طوس تأكد أنه سيقطع عليه الطريق ، فانسحب مسرعا إلى أون . ومن
العجائب التي أدت إلى إنقاذ طغرل من هذا المأزق أن السلطان كان قد تناول
قليلًا من الأفيون ولم ينام جيدا فنام بعد صلاة العشاء نوما عميقا ، وهو على
الفيلة ، فلما رأى الفيلة ذلك لم يجرءوا على الإسراع في سوق الفيلة وساقوا
على مهل ، وظل السلطان يغط في نومه حتى السحر . وضاعت الفرصة ،

إذ لو لم ينم حتى ذلك الوقت ، لكانت له الغلبة على طغرل . وقد كنت مع السلطان ، وسرنا مسرعين بعد السحر ، فبلغنا نوق في الصباح ، ونزلنا بها ، فصلى الصبح ثم دقت الكوس النحاسية التي كانت على النجائب وحث السلطان فيلته مسرعا ، وأسرع كذلك بدر الحاجب مع فوج الكرد والعرب وأرتكبن الحاجب مع خمسمائة من غلمان السراى . فلما بلغوا خوجان^(١) قصبة أستوا ، كان طغرل قد غادرها في الصباح ، فقد سمع أصوات قرع الكوس فخرج عن طريق العقبة ، وكان السلاجقة قد اضطروا إلى ترك كثير من أمتعتهم الثقيلة في عدة أماكن من شدة ما أسرعوا . ووصل السلطان على أثرهم ، وكان ذلك في يوم السبت الخامس من ربيع الأول ، فنزل حانقا ضيق الصدر ، لفوات هذه الفرصة ، وأخفش في السباب لرجاله ، ولم أشاهده في مثل هذه الحال من الغضب من قبل . وأمر بأن يسير في أثرهم تكتين الديلى فورا ، وهو فارس قوى الشكيمة كان رئيسا لغلمان الوثاق ، وأن يسير معه خمسمائة من غلمان السراى بمن أخذوا قسطنطين من الراحة وخمسمائة من الفرسان وغيرهم . فساروا وهم يطمعون في بلوغ شيء مما يرغبون ، ولكنهم عادوا بعد صلاة المغرب ، وقد حملوا معهم كثيرا من الأمتعة والأقمشة قائلين « إن طغرل قد ولى مسرعا وكان له في الطريق خيول معدة فركبها وسار فلم يره أحد ولكننا صادفنا كتيبة قالوا إنها تحت إمرة سليمان أرسلان جاذب وقدرخان الحاجب وكان الطريق شديد الضيق والرئيسان يعرفان طريقا آخر فتسلقوا الجبل بأهبتهم ٦٠٥ التامة وقد وجدنا جماعة يبدو أنهم ليسوا من التراكمة » .

وعسكر السلطان هنا يومين كي يستريح الجند ، ولحق بنا هنا أبو سهل

() هي قوجان اليوم .

الحدوى وسورى ومعهما حاجب خزانة الملابس (جامه دار) وجوهر آيين الخازن (خزينه دار) وغيرهما من المقدمين ومعهم خمسمائة فارس . وقد أمرهم السلطان بالسير إلى نيسابور وإقرار الأمن فيها . وقد وردت إلينا رسالة أبى المظفر الجمحى ، صاحب البريد ، يفيد أنه خرج من مخبئه وأن العلويين متفقون معه ، أما الأعيان فقد ثاروا وأفسدوا فى الأرض ، فينبغى استتباب الأمن وإعداد العلف اللازم بمقدار ما يكفى لمؤونتنا بقية الشتاء الذى سنمضيه هنالك .

فذهبوا وزحف السلطان مسرعا إلى باورد ، وأمر الوزير الفرسان الذين عينوا فى هذا الزحف بالسير على أثره وكان مع السلطان فى زحفه جريدة من الخيالة المسرعين ، فوجد أن طريق بيرهى قد سدوه . وأما طغرل فإنه حين بلغ باورد وجد داود واليناليين مع جميع جند التراكمة وجلة الإمدادات ، فقالوا لنسرع إلى الوادى لتبقى فيه ونسبر غور العدو ، فإن السلطان قد جاء هذه المرة أكثر أهبة مما عهدنا . وبينما هم فى هذا الحديث إذا بالحراس (الديدبانات) المعينين فوق الجبل يجرى بعضهم إلى بعض ويقولون إن السلطان قد جاء وأبلغ الخبر إلى طغرل وداود وغيرهما من المقدمين فدفعوا إمداداتهم أمامهم ، وساروا . فلما قطعنا التلال وبلغنا وادى باورد ، وكان بين بلوغنا الوادى ومغادرتهم إياه وقت قليل ، فكان من الممكن أن نلحق بهم لو أننا سرنا مسرعين ، ولكن القدر محتوم والأمر لا تسير إلا بإرادة الله ، فشئنا أن يقع فى أسرنا ولد أحد الموالى ، فجاء به الحاجب إلى السلطان ، فسأله عن خبر التراكمة فقال : « منذ أيام حمل على وميكائيل إمداداتهم إلى صحراء نسا وفراوة وكذلك سار الأعيان والمقدمون ومعهم جيش كبير العدد عظيم الأهبة على حافة الوادى على بعد عشرة فراسخ من الطريق ، وكان

لى حصان أعرج فبقيت ، فتحير السلطان رضى الله ٦٠٦ عنه ، ودخل بعض الفرسان من طليعة مقدمتنا وقالوا له إن ابن المولى يكذب . فإنهم ساروا بالإمدادات فى الضحى وقد شاهدنا ما أثارته من النقع . فقال السهسالار على والآخرى « إن الجيش هو الذى أثار هذا النقع وهم ليسوا من الغفلة بحيث يجعلون إمداداتهم قريبة منهم إلى هذا الحد . وبهذا أضعفوا خطة السلطان ، فسار طويلا ، وكان اليوم شديد الحرارة ، حتى نزل على حدود باورد . ولو أنه حث السير نحو عدوه أو أرسل جيشا يتعقبه ، لوقعوا جميعا فى قبضته ، فقد أقبل الجواسيس ليلا وقالوا إن التراكمة قد ذهلوا ويئسوا من الحياة ، وكانت أحماهم قريبة جدا منهم ، ولو أن السلطان دهمهم هناك ، لثم له نصر مبين . ولما كانوا خائفين فقد ساقوا الأحمال أمامهم حتى يباغوا ناحية نسا لأن قلوبهم كانت قد ملئت رعبا ، ولو أن السلطان بلغ فراوة لما استطاعوا أمامه ثباتا ، إذ كانوا فى أشد الحاجة إلى العلف وكانوا يقولون أننا سندبى العدو بتقدمنا فإذا تعقبونا وحل الشتاء استولى عليهم الضجر ورجعوا من حيث أتوا ، فإذا ما جاء الربيع نعود للقائهم متخفين من الأحمال .

فلما وقف السلطان على هذه الأخبار ، أقام فى باورد ، ودعا الأعيان وتشاور معهم ، وكان أبو سهل الزوزنى ، أستاذ ديوان النكت ، مقيما هناك فقص عليهم ما ذكره الجواسيس من قبل . وقلبوا الرأى على جميع الاحتمالات . وقال الوزير : « إن الرأى السلطانى هو الرأى الأعلى ، وإن الشقة من هنا ليست بعيدة ، ويبدو لى أن الخير فى أن نذهب إلى نسا ، حيث نقيم بضعة أيام ويتيسر لنا العلف ، فهناك يزداد فزع العدو ، ويوغل فى الهروب ، ويصل الخبر إلى خوارزم فيكون له أثر طيب ، ويعرف القاضى والدانى أن السلطان قد نزل بخراسان وأنه لن يغادرها إلا بعد أن يجتث الفتنة من

أصولها . فقال السلطان هذا عين الصواب . وفي الغداة تحرك الراكب وسار إلى نسا واهتزت تلك النواحي بحركة الجيش ، وانسحب العدو من فراوة إلى الصحراء ، وحمل أسفله إلى جانب بلخان كوه ، ولو أن السلطان قصدهم لثم له كثير مما ينبغي . وبعد ذلك بفترة طويلة تبين أن الأعداء كانوا من الفزع إلى حد أن طغرل لبث مستعدا للحرب أياما فلم يخلع حذاه ولم ينزع عنه الزرد وكان يتوسد درعه حين ينام . وإذا كان حال قائد هذه الجماعة على هذا النحو فمن اليسير معرفة حال الآخرين . وأقام السلطان في نسا بضعة أيام ، ونصبت مجالس الشراب . فقد كان المقام طيبا ٦٠٧ وبعث الجيش السلطاني رسالة سرية من خوارزم يظهر فيها التفاني في الولاء وقد كتبنا ردا عليه توقيع السلطان . قال لي الوزير : « هذا كله خداع فإنهم يعرفون أننا لا نقدر على حربهم لأن القحط قد ألم بهذه البلاد ، ولا يستطيع الجيش أن يقيم طويلا هنا حتى يحين ميعاد سيره إلى خوارزم ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لأن أعداءنا في خراسان على مقربة منا وقد تقدمنا لقتالهم ، هذا والخوارزمية يرون تضليلنا بأقاويلهم الجوفاء فيجب أن يكون ردنا عليهم قويا حتى إذا ما كانوا يضمرون الفتنة أرتج عليهم فيفزعون ويذهلون »

فلما سار الأعداء إلى الصحراء ، ولم يجدوا بها علفا تعقدت الأمور عليهم ، وارتفع صوت الجند شاكين من القحط وعاد السلطان من نسا عن طريق باورد واستوا ، وسار إلى نيسابور فخرج لاستقباله عند قصبة استوا التي تسمى خوجان القضاة والعلماء والفقهاء وأبناء القاضي صاعد ، الذي لم يستطع الحضور لضعف صحته ، وكان ذلك يوم الخميس منتصف شهر ربيع الثاني . وبلغ السلطان نيسابور فنزل في حديقة شادياخ في السابع والعشرين من

هذا الشهر . وأمر سوري بتجديد وإصلاح تخت السلطان مسعود الذي كان .
طغرل قد جلس عليه ، وفرش الصفة الذي كانوا قد قطعوه ووزعوه على
الفقراء كما أمر بترميم الاصطبلات التي كانوا قد هدموها . وكان لهذا وقع حسن .
في نفس السلطان ، فأثنى عليه ، وقد بذل جهدا كبيرا حتى استطاع أن يهيء
علف عشرين يوما . ولم تكن نيسابور هذه المرة كعهدى بها ، فقد كانت
خرابا كلها ، ولم يبق من مظاهر العمران فيها إلا القليل ، فصار المن من
الخبز بثلاثة دراهم ؛ وأخذ أصحاب البيوت ينزعون سقوفها ويبيعونها .
وكانوا يموتون جوعا مع عائلاتهم وأبنائهم ، وتدهورت قيمة الضياع ، وهبط
سعر الدرهم فأصبح دانقا .

وقد سار الإمام الموفق المحدث مع طغرل . وبعد أسبوع بعث السلطان بدرا
الحاجب إلى ضواحي بست والتونتاش الحاجب إلى ضواحي بيهق وكبير الحاجب
إلى خواف ، وباخرز واسفند ، والسپهسالار إلى طوس ، وملا الأطراف كلها
بالرجال . ثم أخذ السلطان ٦٠٨ في الشراب واللهو ، وكان الطقس شديدا .
البرودة ، وبلغت الحالة أشدها ، ولا يذكر أحد قحطا كهذا حاق بنيسابور ،
وهلك خلق كثير من الجند والرعية . ورأيت كثيرا من العجائب في
تلك الأيام ، فلا محالة من ذكرها ، إذ في كل منها تبصرة للعقلاء بهذه
الدنيا الخداعة .

كان في نيسابور قرية تسمى محمد آباد تابعة لشاد ياخ ، وكانت أراضيها
غالية الثمن فكان الجفت وار ، الذي يسمى في نيسابور وإصفهان وكرمان
جريبا ، من الأرض الغير مزروعة يباع بألف درهم ، فإن كان عامرا بالشجر
والزروع يبيع بثلاثة آلاف درهم ، وكان لأستاذى أبي نصر قصر بهذه القرية ،
أحسن بناؤه وأحيط بالحدائق من جهات ثلاث ، فأراد في تلك السنة التي

«رجعنا فيها من طبرستان وأقمنا خلالها في نيسابور ، أن يشتري قطعة أخرى من الأرض ليبنى عليها قصرا تحيط به حديقة؛ فاشترى الأرض بعشرة آلاف درهم من ممالك ثلاث ، وكتبوا القبالة وأشهدوا الشهود ، وكنت حاضرا عند دفع الثمن ، فقال أستاذي يجب أن تقبلوا الثمن قسما بالفضة وقسما بالذهب ، وعارض البائعون لأنهم يشترطون أن يكون الثمن ذهبا ، فأطرق أستاذي قليلا ثم أخذ القبالة ومزقها قائلا « لا حاجة لي بالأرض » فندم الملاك واعتذروا فقال « لن اشتري » وانصرف القوم. ثم قال لي « ما هذا الهوس الذي أصاب عقلي حتى فكرت في شراء الأرض . إذا كانت الدنيا كما أرى فإن الذي يعيش سوف يرى كيف يكون الحال وسوف يرى أن جفت وار الأرض يباع بعشرة دراهم » فعدت وأنا أقول لنفسى إن هذا كله من تصورات الأستاذ المتشائمة .

وفي هذا العام جئنا إلى نيسابور ، ونزل أبو سهل الزوزنى في قصر أستاذي هذا ، وذهبت لزيارته ذات يوم فوجدت عنده جماعة من الدهاقنة ، كانوا يبيعون ثلاثين جفت وار من الأرض القريبة من هذا القصر لكي يشيدوا باسمه هنالك قصرا وحديقة ، وكانوا يطلبون ثمننا للجفت وار الواحد مائتي درهم . فكان يعارضهم ثم اشترى في آخر الأمر ونقدم الثمن . فابتسمت ، ورآني ، وكان رجلا سيء الظن ، يخلق من الحبة قبة ، فقال لي بعد انصراف البائعين : « لقد تعبت في هذه الصفقة حتى أنهيتها » ثم التمت العودة فقال . « إنك كنت تبسم ساعة دفع الثمن فماذا أضحكك ؟ » فقصصت عليه ما كان من أمر أستاذي أبي نصر ورغبته في شراء الأرض . ففكر مليا ثم قال : واحسرتاه ملوت أبي نصر ، لقد كان حكيما ثاقب الرأي ، ولو حدثتني بهذا الحديث ٦٠٩ من قبل لما اشتريت هذه الأرض . أما وقد اشتريت الآن ودفعت الذهب «فقيح منى أن أعدل عن الشراء» .

هذا وبعد ما حل بنا في دندانقان عرفت أن الأمر في قرية محمد آباد هذه صار بحيث يباع الجفت واره من الأرض بمن واحد من القمح ولا يجد من يشتريه . ولننظر إلى ما قبل سنة من هذا الحادث حين كان الجفت واره من الأرض يباع بألف درهم ثم بعد ذلك بمائتين وبعد ذلك بمن واحد من القمح ولا يجد من يشتريه ، فإن علينا أن نعتبر دائما بمثل هذه الأحوال . ورأيت مرارا بغدادية مجردة ومخرطة ، اشترت الواحدة منها بدينار ، كانت تباع بثلاثة دراهم . وبعد عودتنا إلى نيسابور بلغ ثمن المن من الخبر ثلاثة عشر درهما ، ومات أكثر أهل المدينة ونواحيها . وبلغ أمر العلف من الصعوبة بحيث رأيت السلطان جالسا ذات يوم — وكانت على النوبة في الديوان — ومعه الوزير وصاحب ديوان الرسائل وقد ظلوا مجتمعين حتى الظهر إلى أن أتموا جمع علف خمسة أيام ، إذ أعوز الغلمان الخبز واللحم ، ولم تجد الدواب التبن والشعير . وقد فرغنا من إعداد العلف بعد صلاة الظهر ، وكان السلطان ضاحكا ، وهذا الحديث من الطرائف التي حدثت ، إذ جاء ساعي بريد غزنة في تلك الساعة ، فقدموه للسلطان وكان يحمل رسالة من أبي علي قائد قلعة غزنة فقرأها السلطان والتفت إلى ندمائه وقال : « إن قائد القلعة يقول في كتابه إن أكثر من عشرين ألف قفيز من الغلة قد أودعت المخازن ويسأل أيديعها أم يبقيا ؟ إن لنا في غزنة غلالا وافرة ونحن هنا في ضيق شديد ، فتعجب الندماء . وحدثت بعد ذلك وحتى وفاة هذا السلطان رضى الله عنه عجائب كثيرة وسأذكر أندرها في مكانه حتى يتأكد القراء أن هذه الدنيا الغرورة لا تساوى شروى نقيير . وأما العلف فكانوا يأخذون الجمال حتى دامغان ويجلبونه من هناك . ولم يتحرش بنا التراكم فقد كانوا في شغل بالبحث عن أقواتهم ، إذ أن هذا القحط قد ألم بالبلاد كلها .

ولم يكن السلطان على وفاق مع أبي سهل الحمدوى ، وقد حزن لذلك وحر

في أمره وكان ٦١٠ الوزير يوافق بينهما سرا، ووسط أبو سهل مسعود بن الليث، ودامت الوساطة عدة أيام، حتى تقرر أن يقدم أبو سهل للسلطان خمسين ألف دينار. فكتب تعهدا بذلك، وأرسل المال إلى الخزانة حين جمعه. وقد أمر السلطان له بخلعة فاخرة، ودخل الحضرة وجلس بين الندماء، ثم إنه أمر بعد ذلك بأيام بأن يذهب إلى غزنة وأن يستعفى من عمله في نيسابور، وأن يخرج ما كان قد أخفاه في قلعة ميكائيل، وأن يسير عن طريق رستاق بست إلى سيستان، ومن هناك يذهب إلى بست. وقد أعد له الرحلة قائد قلعة غزنة فعين مقدما^(١) ومعه مائتا فارس مجهزين ليصحبوه في سفره. وساروا من نيسابور، وقد أرسل كتاب إلى بدر الحاجب ليخرج في توديعهم وتشجيعهم إلى الحدود، ففعل. وبلغوا غزنة سالمين ومعهم أموالهم وأنجأهم الله من البلاء الذي امتحنوا به وقد عهد السلطان إلى أبي الحسن عبد الجليل برياسة نيسابور على نفس الخط والطراز الذي منحه السلطان محمود لحسنك حين ولاه، إذ منحه خلعة فاخرة وطيلسانا ودراعة. وقد جاء أبو الحسن إلى البلاط مقدما فروض الطاعة ثم خرج، وقد طلبوا له حصان الأستاذ الكبير رئيس نيسابور فركبه إلى بيته وقد أحيط بغاية الرعاية ووفد عليه أعيان نيسابور وقادتها فلم يحسن استقبالهم وكشف لهم عن رعونته قائلا: إني اليوم بمنزلة الوزير حسنك. فأخذوا يسلقونه بالسنة حداد، فشتان بين هذا العصر وعصر حسنك.

وفي هذا الوقت جاءت الكتب تترى من الخليفة أطال الله بقاءه إلى السلطان، وكلها عطف عليه، يطلب إليه فيها ألا يتحرك من خراسان حتى تخمد الفتنة التي أشعل نارها التراكم، فإذا فرغ من القضاء عليها فإن عليه أن يسير

(١) الكلمة المذكورة في النص « ميتة » — غنى — فياض س ٦١٠ ونقيس س ٧٤١ —
وذكر في نسخة غنى — فياض أنها قد تكون « مقدمى ».

نحو الرى والجبال حتى يطرد الغاصب منها . وقد أرسلت الإجابة إلى الخليفة كما يلي : « تلقيت الأمر العالى بالسمع والطاعة وكانت عزيمتى معقودة عليه ، وسأبذل المزيد من الجهد بعد أن تلقيت أمر الخليفة » .

وكان سلطان بغداد قد كتب لمسعود أيضا متقربا منه فقد كان يتهيب حركته . وقد رد عليه مسعود ردا جميلا ، وبعث إلى با كاليجار والى جرجان وطبرستان خلة قيمة مع رسول يحمل إليه خطابا ملؤه الود والعطف ، أما أسدى من خدمات حظيت بالقبول أيام كان هناك أبو سهل الحمدوى وسورى .

وأمر السلطان بإعادة أبى الحسن الكرجى نديماً له ، وكان خازن ٦١١ العراق ، وقد عاد مع هؤلاء القوم وخلع عليه ، وكان قد أصبح شيخا كبيرا فلم يكن هو أبى الحسن الذى رأته من قبل . وتغيرت الأيام والناس وكل شىء .

وفى يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الثانى جلس السلطان لاحتفال النوروز وقدمت إليه هدايا كثيرة ، وأقاموا زينات بهيجة واستمتع للشعراء ، فقد كان مسرورا فى أيام الشتاء هذه وخالى البال وكانت الفترة خلوا من الحوادث ، وأمر بالصلات للحاضرين وللمطربين أيضا . وشفعوا للشاعر مسعود ، فأمر له السلطان بصلة ثلاثمائة دينار مع كتاب منه وبألف دينار شهريا يتقاضاها من معاملات جيلم ، وقال يجب أن يظل مقبلا هناك . ثم أخذ السلطان فى إعداد العدة للسير بعد النوروز ، وأتموا ما كانوا بدءوا فيه قبل ذلك . وقال لصاحب الديوان سورى استعد حتى تجىء معنا فلا تمكث فى نيسابور وليكن أخوك نائبا عنك هنا . فأجاب سورى أن « سمعا وطاعة ولقد كنت عازما على ألا أبتعد

عن ركاب مولاي لحظة لما قد ألم بي في هذه الأيام ، . وأقام أخاه نائبا عنه واستعد للسفر . وقال السلطان كذلك بأنه لا بد أن يأخذ سورى معه فإذا هدأت الأحوال في خراسان أمكن إعادته إليها ، وإذا سارت الأمور فيها على نحو آخر لا يقع هذا الرجل في أيدي الأعداء ، لكيلا يثير الدنيا على . وقيل إن أباسهل الحمدوى هو الذي ألقى هذا في روع السلطان . وقد أمر السلطان بخلعة لأبي المظفر الجحى ، وأسند إليه منصب ديوان البريد . كما خلع على العلويين ونقيبهم وقد سلمها لأبي المظفر . ورأى القاضى صاعد السلطان مرة واحدة في هذه الأيام ، ولكن ولديه كانا في خدمته دوما . وفي هذا الوقت جاء القاضى مودعا وداعيا وناصحا وقد خلع السلطان على ولديه وعادوا معززين إلى دارهم .

وسار السلطان من نيسابور إلى ناحية طوس ، يوم السبت ، ليومين بقيا من جمادى الثانى ، عاشر أيام النوروز ، وقد سلك طريق المضيق الأحمر^(١) ونزل في الوادى عند مفترق طريق سرخس ونسا وباورد واستوا ونيسابور . وبعث بجانب من الجيش مجازا مع المتقدمين الكفاة بقيادة القادة المشهورين ليكونوا في الطليعة . وكذلك تحرك الأعداء وزحفوا إلى سرخس مع ٦١٢ كثير من الرجال المدربين ، وأرسلوا طلائعهم لمواجهة جيشنا . وكان الفريقان على أتم يقظة ؛ فكانت الحرب . وضرب السلطان خيمته على تل وقد نزل بتعبئة كاملة ، وأخذ في الشراب ولم يقدر بنفسه معظم الجيش لمقابلة الأعداء ، فقد كان ينتظر موسم الحصاد . وبلغ ارتفاع الأسعار إلى حد أن بيع المن من الخبز بثلاثة عشر درهما وكان نادرا ، أما الشعير فلم يره أحد بعينه . وقد خربوا طوس ونواحيها ، وسلبوا الغلة حتى بمن معهم من واحد منها . وأشعل سورى

(١) يقول غنى وفياض يحتمل كثيرا أن يكون القرية الحمراء (ده سرخ) ص ٦١١ حاشية ٣ .

النار في هذه النواحي ، وهلك كثير من الناس والدواب من شدة القحط ،
فقد كان واضحا عدم استمرار الحياة طويلا بالعيش على الحشائش . وبلغ الأمر
إلى حد أنه كان يخشى أن يثور الجيش من القحط ، وأن يفلت الزمام . فأطلعوا
السلطان على الأمر ، وصارحوه بأن الأمر سيفلت من أيديهم ، وأنه لا بد من
الحركة ، فإن لم يدبر الأمر على عجل فلا شك أنه يبلغ إلى حيث لا استطاع
تلافيه . فسار السلطان من هناك صوب سرخس ، وكان ذلك يوم السبت
التاسع عشر من شعبان . وقد هلك في الطريق إلى سرخس من قلة العلف ومن
الجوع ما لا يحصى من الدواب ، مما أحزن الناس وغمهم . وبلغنا سرخس في
آخر يوم من شعبان ، وكانت المدينة خرابا وليس بها ماء ولا سنبلة واحدة من
الغلة ، وقد هجرها الناس جميعا ، وكأنما الوديان والجبال قد أحرقت وليس فيها
عود من الحشائش ، وحر الناس في أمرهم ، وأخذوا يذهبون إلى الأمكنة
البعيدة ويأتون بالحشائش الجافة الفاسدة ، مما كان يرمى عادة في تلك
الصحراء ، فكانوا يأتون بها ويرشونها بالماء ويقدمونها للبهائم فتأكل منها
مرة أو مرتين ثم تزور عنها ولا تلتفت إليها ، حتى تموت جوعا . وكان المشاة
أسوأ حالا .

وكان السلطان شديد الحيرة من هذه الأحوال ، فدعا إلى مجلس ضم
الوزير وأبا سهل وأركان الدولة وقادة الجيش ، وتحدثوا في تدبير هذا
الأمر . ولو أن الحال استمر على هذا النحو لما بقي ثمة آدمى ولا دابة .
وقال السلطان إن الأعداء ، ولو أنهم قد اجتمعوا ، فإني على يقين من أن هذا
القحط قد ألم بهم أيضا . قالوا أطال الله عمر السلطان ليس الأمر هكذا في مرو
فالناس هناك في سعة ، وأدهى من هذا كله أن غلتهم قد آن حصادها وهم بها
يبنعمون وسوف تكون دوابهم مستريحة وسمينة ونشطة حين نصل إليهم ،

وإننا لن نجد في هذا الطريق ما يسد الرمي ، فالصواب عندنا أن يذهب.
السلطان إلى هراة فإن العلف متوفر هناك في بادغيس ، فتمكث ٦١٣ هنالك
أياماً ثم نقصد الأعداء على استعداد . فقال السلطان محال ما تقولون ، إن
أذهب لغير مرو ، لأن الأعداء فيها ، وليكن ما يكون ، لأنني لا أستطيع أن
آتي كل يوم للحرب . فقالوا إن الأمر للسلطان وما علينا إلا الطاعة حيثما
يذهب . وعادوا من حضرته يأسين ، فجلسوا مختلين ، وبعثوا برسائل على
لسان أبي الحسن عبد الجليل ومسعود بن الليث أن ليس من الصواب
الذهاب إلى مرو ، فإن السنة قحط ، ويقال أن ليس في الطريق ماء
ولا علف ، وإن الجند يتضجرون في هذا الطريق ولا ينبغي أن تحدث
فتنة — والعياذ بالله — يصعب تلافيها . فذهبا وأديا هذه الرسالة فغضب
السلطان غضبا شديدا ، وأنبهما وشتهمما وقال « إنكم جميعا قوادون وقد
اتفقتم بعضكم مع بعض ولا تريدون إنجاز ما نحن فيه ، حتى أبقى في هذا الهم
مقيما ، وأنتم لا همّ لكم سوى التفسكير في السرقات ، ولسوف آخذكم إلى
مكان فألقى بكم في بئر فأهلككم وأستريح منكم ومن خياناتكم ، وتستريحون
منا كذلك ولا يكلمني ثانية أحد في هذا الشأن وإلا ضربت عنقه » . فعادا ،
وقد اعترتهما الدهشة ، إلى القوم وجلسا صامتين . فقال القادة بماذا أجاب ؟
فأخذ أبو الفتح بن الليث يتكلم مداريا ، فقال أبو الحسن لا تسمعوا له ،
فإن السلطان لم يقل هذا ، ومن المحال أن يخدعوا السادة من أمثالكم في مثل
هذا الوقت الخطير ، إن السلطان قال كذا وكذا . فخدق الوزير في السهيسالار
وقال كبير الحجاب لهذا لم يبق للكلام مجال وإن الأمر للسلطان ونحن عبيده
وخيرنا فيما يريد لنا ثم قاموا وانصرفوا وأبلغوا هذا للسلطان . وأخذوا على
السهيسالار أموراً عدة وكذلك على علي داية مما أثار عليهما قلب السلطان .
من ذلك أنه حين كنا في طوس جاء كتاب من التوتاش يقول فيه إن الأعداء

يشددون الضغط في الناحية التي أقيم بها ، وإنني في حاجة إلى معين . فأجيب
أن « كن رابط الجأش فقد أمرنا السهيسالار أن يلحق بك » . ووجه السلطان
إلى السهيسالار كتابا يأمره فيه أن « أدرك ألتونتاش » ، فقال هذا ما الفائدة
من الكوس والطبل والديبدة وقد كلفت بأن أكون تابعا لألتونتاش ؟
وأمر بتحطيمها ثم إحراقها . وأبلغوا السلطان هذا الخبر . واضطر إلى أن
يبعث إليه مسعود بن الليث لكي يسترضيه ، فذهب إليه ولكنه ٦١٤ لم
يستطع إرضاءه ، فدعاه السلطان وطيب خاطره بنفسه . هكذا سارت
الأحوال ، ووقعت الملمات ، وكان السلطان ناقما على القادة ، وهم منه
يأئسون ، فكانوا يعودون من حضرته وقد امتلأت قلوبهم حسرة . حتى
جاءت الطامة الكبرى .

ولما دخل السلطان رضى الله عنه سراى الحرم وجلس وحده في
سراجه ، أخذ يلوم الوزير بوقادة الجيش أمام الخدم : وقال إنهم لا يريدون
أن يتم لي القضاء على السلاجقة حتى أستريح من هذا النصب والغم . وقد
جرى منهم هذا اليوم ، ومهما يكن فإني ذاهب إلى مرو غدا ، وقال له الخدم
ينبغي ألا يستشيرهم مولانا ، وإنما يجب أن يكون كل أمر برأيه وتديره .
وسمع الوزير بهذا الخبر فقال لأبي سهل الزوزنى : « آه ، ما حيلتنا وقد آل
الامر الآن لتدبير الخدم ؟ إن من هؤلاء الخدم رجلا اسمه إقبال زرین دست
كان يدعى الذكاء ، ولست أقول إنه ليس ذكيا وما كرا وواسع العلم ،
ولكن أنى له التجربة في مثل هذه الأمور الخطيرة » ؟ فقال أبو سهل :
« مهما يكن فإن على الأستاذ الرئيس أن يراجع المصلحة وألا يلقى سلاحه
«ألا ينخل بنصيحة » . قال وإنني أرى هذا أيضا . ثم عاد إلى خيمته وأرسل
رسولا ونادى ألتونتاش . فجاء واختل معه . وقال الوزير : « لقد دعوتك

من بين المقدمين جميعاً لأنك رجل مخلص غير منافق تقول ما فيه المصلحة .
والحق غن نية صادقة ، وإنى والسيسالار وكبير الحجاب قد عجزنا مع
مولانا السلطان فإنه لا يستمع إلى قولنا ونصحنا إليه ، بل إنه يتهمنا ومصيبتنا
الآن هي عزمه على التوجه إلى مرو ، وأنا لا أستطيع أن أرى كل هؤلاء
الفرسان يتضوزون جوعاً ويفقدون دوابهم ، وغللمان السراى كلهم من
أصحاب النجائب ، والحاجب بكتغدى يصيح قائلاً إن هؤلاء الغلمان
لن يشتركوا في الحرب ، فإنهم يقولون ما ذنبهم ليقبوا جوعاً ، فكثيراً
ما طلبوا القمح والشعير فلم يحصلوا عليهما ، وهم لم يسيروا مع سلطان
على هذا الوجه ، وظاهر مقدار ما يحمّلون في هذه الحال ، وبقيّة الهنود
رجالة وجياع فما رأيك في تدبير هذا الأمر ؟ » فقال : أطال الله
حياة الأستاذ الرئيس ، إنى رجل ٦١٥ تركى صميم أقول الحق ولا أبالي ،
إنى أرى أن هذا الجيش لن يحارب وسوف يتخلى عنا ، فإنه جيش
عاجز وجائع ، وأخاف أن تضطرب الأمور إذا أقبل العدو فلا يمكن
تلافيتها . قال الوزير أنى وسعك أن تحدث السلطان بهذا ؟ قال
ألتوتاش « وكيف لا أستطيع ، لقد كنت نقيب فرسان السلطان محمود
وقد أبقانى فى الرى مع هذا السلطان (مسعود) ، وهناك رفعتنى إلى
منصب كبير وأغدق على النعم الكثيرة ، وأنا اليوم فى مرتبة السالار ،
(القائد) فلماذا أمسك عن إبداء هذه النصيحة ؟ » قال الوزير : « إذن
فاطلب الخلوة معه بعد الصلاة وحدثه فى هذا ، فإذا استمع إلى نصحك
تكون قد أدت مكرمة كبرى لهذه الدولة ولنا جميعاً ، وإذا لم يستمع
إليك تكون قد أدت واجبك وقدمت للسلطان ما ينبغى له عليك » . فقال
إنى فاعل ثم انصرف .

ثم دعاني (أبا الفضل) الوزير وحملي رسالة إلى أبي سهل يحكي فيها ما جرى ويقول إن هذا آخر ما أستطيع من المحاولات لإقناع السلطان حتى نرى ماسيكون ، وإن هذا التركي (ألتونتاش) ما كان ليقبل أداء هذه الرسالة لولا سلامة قلبه واستقامته . فسرت إلى أبي سهل وأبلغته رسالة الوزير فقال لقد قام هذا الرجل الأمين بواجبه ولننظر ما سيكون . ثم إن الوزير أرسل بعض ثقاته إلى كل من السهيسالار وكبير الحجاب بكتغدي وذكر لهما ما فعل فآثنوا عليه جميعا . وأقبلوا إلى الدركاه بين الصلاتين ، فقد كانوا جميعاً جزعين مما هم فيه ، وكان السلطان في خيمته ، فحثوا ألتونتاش حتى ذهب إلى الخدم والتس المقابلة قائلاً إن حديثه مع السلطان فريضة لشدة أهميته . فأذن له . ودخل فصرح بكل شيء في جرأة تامة . فقال له السلطان لقد خدعوك حتى تتكلم بما قلت بهذه السذاجة وإلا فأني لك القدرة على مثل هذا الحديث ؟ فاذهب فإننا سنغفوا عنك لأنك رجل مستقيم ساذج وحذار من هذا التهور مرة أخرى . وعاد ألتونتاش واسراً إلى هؤلاء العظماء بما جرى . فقالوا له لقد أديت واجبك فاحفظ سرنا هذا الحديث ولا تبج به . ثم رجع الوزير . وكان أبو سهل مهتماً بالامر فأرسلني إليه مستفسراً . فذهبت إلى الوزير وقلت إن أبا سهل يسأل عما جرى . فقال قل لأبي سهل إن السلطان قد أجاب ألتونتاش بكذ وكذا ، وإن أمراً جللاً يوشك أن يقع ولا مرد لقضاء الله ، فمثل هذا السلطان كمثل عمرو بن الليث إذ قال له وزيره أن سر من نيسابور إلى بلخ واحتفظ بمكانتك وابعث الجيش فإن تحطم وهزم فإنك قادر على تلافي الهزيمة مادمت حياً ، ولكن ٩١٦ إذا ذهبت بنفسك وهُزمت فلن تستطيع البقاء في الدنيا . فقال لوزيره «يا أستاذ إن الصواب والحق فيما رأيت وقلت ، وكان الواجب اتباع طريقك ولكن كأن في الأمر شيئاً وكأن القضاء المحتوم قد طوق بالرسن عنقي وأخذ يقودني » . وكانت العاقبة ما قرأت . هذا السلطان على تلك الشاكلة لا يجدي النصيح معه نفعاً .

ولقد وطدنا العزم على استقبال النوائب كلها ، وكذلك فإنك لن تستطيع أن تفكر في شيء خيراً مما نفكر نحن فيه . فذهبت وأبلغت الرسالة فيثس أبو سهل ، وكان من المتشائمين .

وكان السلطان صائماً فلم يجلس للاستقبال بعد صلاة العصر وقد بعث إلينا يأمرنا بأن « عودوا إلى بيوتكم ثم استعدوا فإننا سائرون غداً إلى مرو فرجع القوم وقد استولى اليأس على قلوبهم . وأعدوا عدتهم . »

وفي اليوم التالي ، الجمعة ثاني رمضان ، دقت الكوس وركب السلطان وسلك طريق مرو فسار الجند وراهه ، متخاذلين ، كأنهم حقاً يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى . وكان اليوم شديد القيظ ، والمؤن قليلة والعاف لا وجود له ، والدواب هزيلة ، والناس صيام . وقد مر السلطان في الطريق على كثيرين يحرون جيادهم ويبيكون فامتلاً قلبه حسرة وقال « ما أسوأ حال هذا الجيش . » وأمر لهم بآلاف الدنانير . وكانوا جميعاً يأملون في أنه قد يعود من حيث أتى ، ولكن قضاء الله كان أشد غلبة . وتحدث السلطان بهذا بعد صلاة العصر . ثم قال إن هذا التعب وتلك المشقة تتحملها حتى مرو . وفي اليوم التالي واصل السير . والطريف أن الماء أيضاً أعوزنا في هذا الطريق ، ولا يذكر أحد منا جفافاً على هذا النحو ، فإن الأنهار الكبيرة التي بلغناها كانت كلها جافة . وبلغ بنا الأمر في اليوم الثالث من السير من سرخس إلى الحاجة إلى حفر الآبار بغية الشرب ، وقد حفروا آباراً كثيرة فكان منها العذب ومنها الملح الأجاج . وأشعلوا النار في تلك الأدغال وهبت الريح وعلا الدخان فأصاب أحمال الجند التي فوق ظهورهم فاسودت . وأمثال هذا النصب لم تكن قليلة في هذا السفر .

وفي يوم الأربعاء ، السابع من شهر رمضان ، حين سرنا في الضحى بدا لنا ألف فارس من التركمان ، وقد قيل إنهم يناديون ، ومعهم خمسمائة فارس بمن فروا

«من رجالنا ، قالوا يرأسهم پورتكین . وقد أهدقوا بنا وحمى وطيس الحرب ،
فاستولوا على كثير من إبلنا وأبلوا بلاء حسنا ، ٦١٧ وذهب رجالنا للقائهم
فدحروهم حتى حملوهم على الابتعاد ، ثم تعقبونا خطوة خطوة إلى مكان نزولنا
وقد أفاق السلطان قليلا من غفلته في هذا اليوم ، حين لمس قوة الأعداء واتضح
لنا جميعا أنه نادم على ما فرط منه . وبعد صلاة العصر ، حين أذن بالاستقبال
جاء الوزير والسپهسالار والأعيان ، فتحدث في هذا الأمر وقال : أياكون
أسوأ من هذا ؟ يهاجمنا أقل من ألفين من الأعداء وينهبون الجبال بغير اكتراث
وجيش هذا العدد والعدة لا يقوى على ردهم ؟ فقال السپهسالار وكبير الحجاب
« أطال الله حياة السلطان لقد انقض الأعداء علينا اليوم فجأة فإذا جاءوا غدا
فإنهم سيرون دفاعا من لون جديد . قالوا هذا ثم قاموا ، فناداهم السلطان
مرة أخرى واختلى بالوزير وبأبي سهل الزوزنى وتحدثوا طويلا حتى قرب
المغرب ، ثم تفرقوا وقد دعاني أبوسهل واختلى بي وقال لي : « ما أسعد أبونصر
مشكان الذي مات في عز ولم ير هذا اليوم ولم يسمع ما فيه من فتنة . لقد طالما
نصحوا هذا السلطان بغير جدوى ، ولقد ذاق اليوم ضربة خفيفة أيقظته فندم
على ما كان منه ولكن ما جدوى الندم بعد الوقوع في الشرك ؟ . »

ثم تحدث أعيان الجيش والمقدمون ، في خلوة العصر هذه ، صراحة في
الموقف وقالوا إن الفرسان قد بدا عليهم الوهن من شدة ما قاسوا من الآلام
وهم يائسون جائعون ، وليس على القادة والمقدمين أكثر من بذل أرواحهم في
سبيل السلطان ، ولكن الجلى أن عددهم محدود والحرب لا تتأني إلا بالفرسان
وقد تعذر علاج هذه الحال . ولم تنغير لهجتهم هذا ، رغم مبالغة السلطان في
الحديث إليهم حتى ضاق صدره فقال وكيف ندير هذا ؟ قالوا السلطان أدرى
منا . ثم إن الوزير قال « لا يمكن العودة بأية حال لأننا بلغنا مرحلة يعتبر التراجع
فيها هزيمة ، ولم يقع بعد اشتباك مع العدو ، ولم يتبين العدو قوتنا حتى يستطيع
الكلام على ضوء الواقع . ومن رأي أن يكون القتال أول شيء نفكر فيه ،

فإن المسافة بيننا وبين العدو قريبة ، وحين نبلغ مرو ستقع المدينة والغلات في أيدينا وسيلجأ العدو إلى حافة الصحراء ، ونظفربما نريد ، ولا بد من اتخاذ الحيلة التامة في المرحلتين الباقيتين ، فوافق الجميع على رأى الوزير وقاموا وهم بمجموع ٣١٨٠ على تلافي كل نقص في الجيش . واستحسن الأستاذ الرئيس هذا الرأى ولكننا كنا في هلع شديد ونخاف أن يتردد بجندنا علينا ، ونعوذ بالله ، فإن الحاجب بكتغدى قد حدث السلطان إجمالا بأن الغلمان كانوا يتحدثون فيما بينهم اليوم قائلين : « حتى متى نستطيع امتطاء الإبل ، إنا إذا وقعت الواقعة غدا سنأخذ الخيول العربية لأننا لا نقدر على الحرب ونحن على النجائب . ولم يجب السلطان ولكنه فقد رشده حقا .

وبينما نحن في هذا الحديث ، إذا بساع يصل وهو يحمل إلينا رسائل العيون ، وقد جاءها : « إنه حين جاءت الأنباء بأن السلطان قد سار من سرخس ارتعدت فرائص هؤلاء الناس (السلاجقة) ، فجمع طغرل الأعيان وتحدثوا طويلا في شتى الاحتمالات ، وأخيرا قالوا لطغرل إنك كبيرنا وإنا لفاعلون ما تراه صوابا . فقال لهم : « الصواب عندى أن نسوق أمتعتنا أمانا ، وأن نسير إلى دهستان ونستولى على جرجان وتلك النواحي ، فإن الأعراب هناك قليلو العدد وتعوزهم أسباب القتال ، فإذا لم نستطع البقاء هناك ، سرنا إلى الرى فتصبح هى والجبال وإصفهان لنا ، ولن يتعقبنا السلطان لأننا قد جلونا عن بلاده ، ولا يزال الفرار خيرا لنا من التظاهر بالعظمة ، فإن السلطان رجل عظيم ولديه جيش كامل العدد والآلات ، ويملك بلادا واسعة ويعرف أسرار الحرب عندنا ، ولن يتركنا وشأننا ، وكذا يعرف مدى ما عانينا من المتاعب فى هذا الشتاء . فقالوا جميعا : هذا هو خير الآراء وينبغى أن نعمل به . ولم ينطق داود بكلمة ، فقالوا له : ماذا ترى ؟ . فقال : « إن ما قلتم وقررتم ليس شيئا ، وقد كان الأولى ألا نبدا بما كان ، وألا نتحرش بمثل هذا السلطان ، أما وقد خاصمناه اليوم وغضب

منا، ودارت بيننا الحرب ، وخربنا عدة ولايات من بلاده ، قلا مفر من المقاومة حتى الرمق الأخير ، فإننا إن قهرناه صارت الدنيا كلها لنا ، وإن غلبنا فلن يفوتنا هذا الفرار ، لأننا نعلم إلى أى حد سوف يتعقبوننا أثناء فرارنا ، لكن أمتعتنا يجب أن تكون بعيدة عنا أينما نكون ، فإن الفارس المتخفف يصبح أكثر جرأة . واعلموا أنا لو انسحبنا دون قتال ، فإن هذا السلطان سيحسب ٦١٩ أنا قد خشيناه وولينا هارين ، فيتعقبنا ويشير علينا جميع الولاة برسائله ، فينقلب الصديق عدوا لنا ، وهذا القحط الذى ألم بنا ويلىم اليوم بنا . قد ألم بهم أيضا ولا يزال يضيق الخناق عليهم ، كما اتضح لنا من صحيح الأنباء . وقد مضت علينا أيام ونحن ننعى بالعلف وإن دوابنا ورجالنا قد استراحوا ، أمهم فلا يزالون يفدون من الصحراء . فالانسحاب أمامهم عجز . ويجب الانخاف « فقال بيغر وطغرل واليناليون وجميع المقدمين إن هذا هو رأى الأقوم . ثم بعثوا بأحماهم مع ألفين من فرسانهم الأصغر سنأ الذين كانت خيولهم هزيلة . وتقول الرسالة بعدهذا : ثم إتهم استعرضوا بقية الجيش . وكان ستة عشر ألف فارس ، وسيختارون منه الطليعة بقيادة اليناليين وپورتكين . فينبغى الحيلة التامة فهذه هى حقيقة ما يجرى . »

فركب أبو سهل على الفور وسار إلى الدركاه ، وكنت بصحبته ، وقد قرأ السلطان هذه الرسالة فبدأ روعه قليلا ، ثم قال لأبي سهل : إن أمامنا عملا خطيرا ، وكان الخير أن نسير إلى هراة وأن نصالح هؤلاء الناس ، والآن وقد فات الأوان فلننتظر تقادير الله تعالى فإنها طامة كبرى ، ستة عشر ألف فارس مدربون فى مقابل رجالنا المتخاذلين المتقاعسين . فقال أبو سهل لن يكون إلا خيرا ، ولا بد من بذل غاية الجهد حتى نصل إلى مرو فهناك نستطيع أن نتلافى كل هذه الأحوال صلحا أو حربا . قال إنه كذلك . وسار الخدم ودعوا

الوزير والسيسالار وكبير الحجاب والأعيان وقرئت عليهم هذه الرسالة فقويت عزائمهم : وقالوا إن الأعداء قد ألقى في قلوبهم الرعب .

وقال الوزير : يتراءى لى أن هذا من تدبير داود . والمهم أننا قد زایلنا وقت العصر فينبغى أن نواصل السير حتى نلقى بأنفسنا في مروقيل أن يحدث خلل ، فهناك نستطيع أن ندبر لتلافيه ، إذ أن حال الأعداء هو ما كتبه العيون . فقالوا جميعا إنه كذلك . وعادوا وأخذوا في إعداد العدة طول الليل ، وأخذ القادة ينصحون الفرسان ويمنونهم . ودعا الساطان أرتكين الحاجب الذى كان خليفة لبكتغدى مع مقدمى القصور والغلمان الذين هم أكثر شجاعة وقال لهم ما ينبغى من التنبيه حتى يكونوا يقظين . ومن سوء الصدف أنه لم يدع ٦٢٠ بكتغدى فغضب ، لأنه كان بمثابة أمير الغلمان ، وكانوا يمثلون لأوامره . وكان كل ما يجرى من الأعمال مخالفا لصالح الدولة ، فإن القضاء كان قد دبر أمره ، وإذا أراد الله شيئا هيا أسبابه .

وفى اليوم التالى الخميس الثامن من رمضان ، ركب السلطان فى عدة كاملة وسار . ولم نسر أكثر من فرسخ إلا وظهر أمامنا الأعداء . كانوا فى جمع كثيف ينثالون علينا من حافة الصحراء عن يمين وشمال ، فاشتبكوا بنا واشتدت المعركة ، وكانوا حين يهجمون من كل جانب يقابلهم جيشنا بدفاع اليأس المتخاذل ، وكنا نحارب مضطرين ، بما زاد فى جرأة خصومنا . وهكذا كنا نسير فى كروفر . وكم من مرة رأيت غلمان السلطان ينضمون إلى الفارين ، وكانوا يتراجعون مع الغلمان الذين يمتطون النجائب ويتحدثون . وكان الحاجب بكتغدى يسير ممتطيا فيلا مع غلمانه لأنه لم يكن فى حالة يستطيع معها ركوب دابة غير الفيل ، وقد ضعفت عينه ويده ورجله ، وكانوا كلما سأله عن تدبير أمر الغلمان أو توجيه فوج منهم إلى مكان ما ، كان يجيب قائلا

« علم ذلك عند أرتكين فإن السلطان قد خوله هذا الأمر كما خوله للمقدمين » .
وأنا لا أرى شيئاً ، وقد عجزت عن العمل فإذا تريدون مني . « وكان الغلمان
يتقاعسون عن واجباتهم . هذا هو حال الغلمان ، وأما الفرسان فكانوا
كالمتفرجين لا يحركون ساكناً والعدو يزداد قوة ساعة بعد أخرى بقدر
ما يزداد رجالنا فتوراً . وكان الأعيان والمقدمون يبذلون أقصى الجهد مع
السلطان ، والسلطان رضى الله عنه يهجم على العدو هجمات شديدة ، وأصبح
واضحاً لديه وضوح الشمس في رابعة النهار أنهم سيخذلونه ، والعجيب أنه لم
تحدث فتنة في هذا اليوم إذ لم يبق لدينا شيء . فإن العدو قد نهب كثيراً من
الجمال والأقشعة ، ودامت الحرب حتى وقت الصلاة ، وكنا قد قطعنا مرحلة في
الطريق ، وكانت المسافة بيننا وبين المياه ثلاثة فراسخ . ونزلنا على شاطئ
النهر في غير ترتيب مخدولين والجند جميعهم يائسون إذ تأكد لديهم أن سوف
يقع حادث جلل . وبدأ الهجاة خفية يتأهبون ويعدون الدواب القوية من
الجنائب ويفكرون في الأمتعة والنقود ، وأخذ كل يودع صاحبه ، وكأن
القيامة قد قامت . واستولى اليأس على السلطان ٦٣١ ولم يكن له إلا أن يتجلد
فأذن للاستقبال عند صلاة العصر ، ودعا الأعيان واختلى بهم وتحدثوا
طويلاً ، وقالوا « إن أمامنا مرحلتين لنبلغ مرو ، وعلينا مواصلة الحيلة حتى
ينتهي هذا اليوم . فإذا بلغنا مرو يمكن تلافي كل شيء ، أما الفرسان فإنهم لم
يفعلوا اليوم شيئاً وكذلك الهنود وهم يثبطون عزائم باقي الجند ، وحيثما يهجم
عشرة من التراكمة على خمسمائة منهم يولون منهم فراراً ، ولسنا ندري ما ألم
بهم وجعلهم يولون هاربين مع أنهم هم الذين حاربوا في خوارزم ، وكان
على غلمان السراي أن يبذلوا غاية الجهد فإنهم قلب الجيش لكنهم لم يفعلوا مع
ذلك شيئاً » . فسأل السلطان بكتغدي : لماذا لا يبدي الغلمان بأسهم ؟ فقال :
« معظمهم بلا خيول ومن لديه خيل نخيله ضعيفة من قلة الشعير ومع هذا كله

«فإنهم لم يقصروا اليوم ولقد عركت آذانهم حتى يجذوا ويجهدوا قدر طاقتهم غدا». ودار حديث منمق على هذا النحو. وعادوا. واختلى السلطان بأبي سهل الوزني والوزير وقال لقد بلغ السيل الزبا فما الرأي؟ فقال الوزير: كان الأولى ألا تأتي وكانوا يتقولون وكنت أصرخ، وهذا أبو سهل شاهد عدل على ما أقول، واليوم ليس من المصلحة في شيء أن نعود وقد اقتربنا من مرو، ويجب استدعاء بكتغدي فإن أبا الحسن عبد الجليل كان قد تجادل معه في غلظة في هراة حتى أبكاه، ولم يتدارك الأمر بإرضائه. ثم إن قصة أرتكين قد أطارت صواب بكتغدي، وهو تركي عظيم الشأن رغم أنه قد بلغ من الكبر عتيا، ولو أنه قال للغلمان اقتلوا أنفسكم لفعلوا؛ فإذا كان راضى النفس فإن الغلمان يقومون بما يأمرهم به ولا يكون للأعداء خطر، ويجب كذلك تعنيف قائد الهنود. فذهب رجل ودعا بكتغدي وحده فجاء، واسترضاه السلطان وقال له: «إنك منا بمنزلة العم وإن ما جرى في غزنة مع رجالك ولم يتدارك أمره سيكون تداركه في حضرتنا حين نكون هناك، وسترى بماذا سنأمر ويجب ألا تقيم وزنا لأبي الحسن عبد الجليل فهو ليس كفا لك حتى تشتكى منه، وقد لقي جزاءه وسيرى أكثر منه، وأنت الذى طلبت أن يكون أرتكين حاجبا لك لينوب عنك ٦٢٢ فإذا لم يعجبك سيره فإننا ننحيه». فقبل بكتغدي الأرض وقال: «من أنا حتى يرفعنى السلطان إلى هذه المنزلة ويتحدث إلى على هذا النحو؟ إن معاملة السلطان لى كانت دائما عطفًا ورفقا، وإن الكوتوال هو الآن أمير غزنة ولا يروق له أن يرى أحدا غيره هنالك فيعود الأمر إلى السلطان في القصاص منه لتجاوزد على؛ وإنى كذلك لست عاجزا عن الانتقام منه بنفسى منستعينا بدولة السلطان. ثم من هو أبو الحسن الكاتب؟ لولا حرمة مجلس السلطان لرأى جزاءه، وإنه لغار على أن أعتب عليه. وأما أرتكين فهو كبير

العقل ويليق بالعمل ولا يستساغ أن يحل غيره محله . أما تهاون الغلمان في واجبهم فلأنهم لا خيل لهم فلو رأى السلطان فليأمر بأن يعطوا مائتين من الخيول العربية الممتازة القوية حتى تسير الأمور على وجهها الصحيح . فقال السلطان هذا حسن يجب أن يعطوا الخيل الليلة . وكذلك نودى على قادة الهنود وعنفوا ، فقالوا إنا نخجل أن نقول للسلطان إن رجالنا جائعون وإن خيولنا هزيلة فإن أربعة أيام قد مضت ولم يجد أحدنا الدقيق والشعير : ومع هذا كله فإننا سنقاتل بأرواحنا ولن نقصر في أداء واجبنا ، وسنقول لهم جميعا الليلة ما يجب . ثم انصرفوا . وبعد أن انصرم قليل من الليل دعانى أبو سهل ، وكان شديد الحزن والحيرة وقص على كل هذه الأحوال ، ثم نادى الغلمان وقال حملوا النجائب الليلة النقود وملابس النوم ، إنه لم يحدث شيء ولكن لا بأس من الحيلة ، وقد أعدوا كل شيء أمامه على النجائب فلما فرغ من هذا قال لى لى لى شديد الخوف من هذه الأحوال . فقلت سوف يكون الخير والبركة إن شاء الله . ثم رجعت إلى خيمتى وأخذت الحيلة على هذا النحو . وكان السلطان رضى الله عنه ساهرا معظم الليل ، كان يعد العدة ويعطى الغلمان الخيول ويأمر بما يتبع في أمر الخزانة وفي غيرها وكذلك كان يفعل القواد والمقدمون .

وصلوا صلاة الصبح ثم دقت الكوس وارتحلوا ، وكنت أرى السلطان وقد أحاط به خمسون أو ستون جمازة من الجنائب وثلاثمائة من الغلمان المدججين بالسلاح وإثنا عشر فيلا بالهود ، وكلهم على أتم أهبة .

وسرنا هذا اليوم نصف فرسخ ، ثم علا ضجيج العدو ، وحملوا علينا ٦٢٣ من كل جانب ، ودارت رحى الحرب على أشدها ، ولم تظهر فى أية جهة راية لطغرل أو ييغو أو داود ، فقد قيل إنهم فى الساقة ، وقد جعلوا فى مقدمتهم المحاربين الممتازين ، وهم من ورائهم مستعدون ، حتى إذا لحقتهم الهزيمة ولوا

الأدبار إلى حيث أمتعتهم . وكان اليوم رهيبا بحيث لم يستطع أحد من رجالنا أن يتقدم خطوة ، ومع ذلك فقد أبلوا بلاء حسنا إلى أن بلغنا حصن دندانقان في رابعة النهار . هناك وقف السلطان على ربوة وطلب ماء ووقف الآخرون كذلك ، وتجمع الأعداء بدورهم واصطفوا وكان يبدو عليهم الملل . وأطل كثير من الناس من جدار الحصن . وكانوا يدلون بآنية الماء فكان الجند يأخذونها ويشربون ، فقد كانوا عطشى وفي أسى . وكانت الأنهار الواسعة جافة كلها ، ولم يكن بها قطرة ماء . وقال السلطان أسألوا عن حوض ماء الدواب . فقالوا إن في القلعة خمس آبار تكفي لسقاية الجيش كما أن بخارج القلعة أربع آبار ألقى الأعداء فيها الجيف وردهوها وفي وسعنا أن نعدها في ساعة واحدة . ومن هنا حتى حوض المياه الذي حدثوا السلطان عنه خمسة فراسخ ، ولا يوجد ماء في مكان آخر . وقالوا للسلطان ينبغي أن نزل هنا فقد انجزنا اليوم عملا مشمرا وكان الزمام بأيدينا . فقال : ما هذا الكلام كيف يكفي الجيش الكبير سبع آبار أو ثمان فلنذهب رأسا إلى موضع الحوض . وكيف نزل هنا ؟ . فقد قدر علينا أن تقع الواقعة ، فما أن ذهبنا إلا ووقعت واختل النظام حينها سار السلطان . فإن غلبان السراى قد نزلوا من على الجبال وأخذوا يستولون على الخيل من كانوا يستضعفونه من العرب بحجة أنهم سوف يحاربون ، فاستولوا على كثير من الخيل ، ولما امتطوها اتفقوا مع الفرسان الذين كانوا قد استولوا ليلا على الخيول العربية والختلية ، وبجأة انضم ثلاثمائة وسبعون غلاما من أصحاب شارات الأسد إلى التركان وأقبل الفارون من غلباننا أيام پورتكين وتماسكوا جميعا وأخذوا ينادون مستنهضين بعضهم بعضا « يا صاح »^(١) ، وحملوا حملة شعواء على جيش السلطان وأختلط الحابل بالنابل ، واختل النظام من كل جانب

(١) يار يار . وهو بدء كان معروف لدى الفرسان والعيارين .

وولى رجالنا جميعا الأدبار . أما السلطان ٦٢٤ فقد بقى مع الأستاذ عبد الرازق أحمد حسن وأبى سهل وأبى النصر وأبى الحسن وغلبنهم . وكنت أنا وأبو الحسن دلشاد قد وقعنا صدقة هنالك فرأينا القيامة فى هذه الدنيا . وكان بكتغدى والغلبان يحثون السير فى حافة الصحراء على الإبل ، وكان الهنود ، منهزمين ، يسرون فى ناحية أخرى ولم ير أحد الكرد والعرب وانعزل الفرسان إلى جانب آخر ، واختل نظام الميمنة والميسرة ، وكان كل رجل يقول نفسى نفسى ، وانقض الأعداء على أمتعتنا فكانوا ينهبون وقد واصلوا هجماتهم الشعواء ، والسلطان واقف ، فحملوا عليه فقاومهم بشدة ، وكان بيده حربة مسمومة يقتضى بها على من يضربه فلا هو ينجو ولا دابته ، وكم من مرة اقترب منه مبارزو الأعداء فكانوا يصرخون فيشبعهم تقتيلا ويتقهقرون ، ولو أن ألف فارس قد عاونوا السلطان فى ذلك اليوم معاونة صادقة لكانت له الغلبة ، ولكن أحدا لم يعنه . ورأيت الأمير مودود رضى الله عنه قد وضع وجهه على قربوس السرج والسيف مصلت فى يده ، وظل يجرى بحصانه ويصيح فى الجند أيها الانذال ليأت إلى جماعة من الفرسان . فلم يستجب أحد لندائه وعاد يائسا إلى أبيه . وقد أبلى الغلبان العرب أحسن البلاء مع السلطان ، وخاصة حاجب من رجال الأستاذ عبد الرازق ؛ كان غلاما فارعا القامة وقد اشتبك مع تركانى فضربه برمح فى عنقه وألقاه أرضا ، فانقض عليه آخرون ونزعوا منه حصانه وسلاحه وأسلم الغلام الروح ، وانكسرت قلوب من حوله . وبرز التركان والغلبان الأشداء وأوشك أمر خطير أن يقع (بقتل السلطان) فقال عبد الرازق وأبو النصر وغيرهما أطال الله حياة السلطان لا وجه للمقاومة أكثر من هذا ولا مفر من المسير . وقال الحاجب الجاهل

دار (صاحب ديوان الألبسة) بالتركية إن السلطان قد يقع الآن في يد العدو إذا لم يبادر بالسبر وقد انفجرت مرارة هذا الحاجب حزنا حين بلغوا مرو الرود .

وقد جد السلطان في السير ميمما شطر حوض الماء ، وظهر له نهر جاف وكان كل من على الضفة الأخرى لهذا النهر قد وقع أسيرا ، ونجا من كان على هذه الضفة من البلاء . وقد عبر بي (أبي الفضل) النهر خادما خاصا مع عشرة غلمان بأعجوبة ، ثم فروا وراحوا ، وبقيت وحدي . فخرت مع ٦٢٥ الآخرين حتى بلغت شاطئ الحوض فوجدت السلطان قد نزل هناك . وقد اتجه إلى هذا المكان الأعيان والمقدمون وأخذ الآخرون يفدون عليه وقد خيل إلى أنه قد يلبث هنا ويلم شعث الجيش . ولكن الأمر كان قد جاوز هذا الحد ، فإنهم كانوا يستعدون للرحيل وكانوا يرفعون الرايات وييقونها مرفوعة حتى يستترشد بها من تخلف من الأعيان ، ودام هذا الحال حتى صلاة الظهر فقد ظهرت أفواج التركمان الذين ظنوا أن السلطان قد يبقى هناك حتى يعيد الكرة عليهم . فركب السلطان مع أخيه وابنه وجميع الأعيان وغيرهم من وجوه القوم ، وجسد في السير بحيث تخلف كثيرون في الطريق ، ويم شطر القلعة وأخذ معه رجلين يدلانه على الطريق . وجاء التركمان في أثره وكان فوج منهم يرفعون الناس حتى يتمكن الفوج الآخر من نهب الأمتعة ، وحين غروب الشمس بلغ السلطان ماء جاريا ، كان بحيرة كبيرة ، وقد وصلت هناك حين صلاة المغرب وكانوا قد أعدوا النجائب للسلطان ، وصمم على أن يسير على جمل لأنه كان قد ترك في هذه المرحلة الواحدة ستة عشر حصانا لعجزها عن السير . وكان

يسير خلفه تركبته الحاجب ، وكان يجمع الخيول الثمينة المتخلفة ، ولمّا
بلغت هذا المكان وجدت فوجا من الرجال فذهبت إليهم ، فرأيت الوزير
والعارض أبا الفتح الرازي وأبا سهل إسماعيل ، وكانوا يعدون النجائب
فلما رأوني قالوا هان كيف نجوت ؟ فذكرت لهم ما لقيت من المشاق
والأهوال ، فقالوا تعال حتى نذهب جميعا . فقلت إني جئت متعب ، وحينئذ
صرخ رجل قائلا إن السلطان قد مشى ، فساروا على أثره وسرت على
أثرهم ولم أر السلطان طيلة سبعة أيام قبل إقامته في غرجستان . وسأذكر
ذلك بالتفصيل .

ينبغي أن يمتد العمر بالرجل وأن تمضي عليه الأيام حتى يستطيع
مشاهدة ما شاهدت . ظللت أسير في الطريق حتى الليل ، فرأيت فيلتيْن ليس
عليهما مهد ، كائنا تسيران على مهل ، وكان الفيل يعرفني فسألته لماذا
تأخرت ، فقال إن السلطان قد عدى الجزى ، وجعل لنا دليلا وها نحن
نسير . فقلت من كان مع السلطان من الأعيان والوجوه قال : أخوه
الأمير عبد الرشيد وابنه الأمير مودود وعبد الرازق أحمد حسن والحاجب
أبو النصر ٦٢٦ وأبو سهل الزوزني وأبو الحسن عبد الجليل وقائد الغزاة
عبد الله قراتكين ومن خلفهم كبير الحجاب وكثير من غلمان السراي
هشتين ومن ورائهم يكتعدى مع غلمانهم . وسرت مع هذا الفيل ، وكانت
أفواج من الناس تصل متفرقة . وقد مررت في الطريق وكان مليئا بما
ألقي فيه من الدروع والجواشن واللامم والأثقال . وفي السحر أسرع
الفيلتان فتأخرت عنهما ثم استرحت ، وكنت أرى من بعيد نار المعسكر ،

وفي رائعة النهار بلغت قلعة برکرد^(١) وكان التراكمة قد تخلفوا هناك ، ولقيت صعبا جمة لكي أعبر نهر برکرد ، ووجدت السلطان قد اتجه شطر مرو فبقيت هناك مع جماعة من الأصدقاء ، وقد واجهنا كثيرا من البلايا والمحن ، وبلغت قصبة غرجستان راجلا مع نفر من الأصدقاء . وكان السلطان حين بلغها يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان أقام يومين . ريثما يبلغها من قصدها من الرجال .

وقد ذهبت إلى أبي سهل الزوزني فوجدته في المدينة يعد العدة للسفر ، فسألني في لهفة عن حالي . وقد وصل جماعة من رجالي وكانوا كلهم راجلين ، فاشترى طعاما وأكلنا معه . ثم جئنا إلى المعسكر فلم أجد به غير ثلاث خيام صغيرة ، واحدة للسلطان ، والثانية للأمير مودود ، والثالثة لأحمد عبد الصمد أما الآخرون فكانت لهم مظلات من الكرباس ، وأما نحن فكاننا في حرج شديد . وبعد صلاة العصر رحلنا وكنا قرابة سبعين رجلا ، وسلكنا طريق غور ، وارتحل السلطان على أثرنا في منتصف الليل فبلغنا في الصباح منزلا وجدت به أبا الحسن دلشاد ، وكان راكبا فرسا ، وقد أتيت كذلك بفرس اشتريته نسيئة ، واجتمعنا مع الأصدقاء . وقد قال لي مسعود الليث إن السلطان سأل مرارا كيف حال أبي الفضل وكان خائفا عليك . فذهبت لحضرة السلطان وقت صلاة العصر وكنت أنتعل حذاء ضيق الساق وقباء ممزقا ، فقبلت الأرض فضحك وقال كيف حالك ، إن مظهرك لطيف ،

(١) في بعض النسخ « حصار كرد » وهذه الكلمة ليست واردة في كتب تهويم البلدان . وذكرت في كتاب « حدود عالم » ص ٨٥ برکرد ، وفي جغرافية بارتولد « بركدیز » وفي معجم ياقوت برونجر .

فقلت إني ببركة السلطان قد نجوت من الهلاك وإن لدى من نعم السلطان ملابس كثيرة .

وارتحلنا من هناك وبلغنا غور وتزلنا في منزل بها . وكانت أفواج أخرى تفقد ٦٢٧ علينا حاملة ما جد من الأخبار . وهناك رأيت من أصدقائي رجلا سجزيا شجاعا فسألته عن كل شيء وقد قال « إنه يوم سفر السلطان ويوم اشتد ساعد الأعداء وأخذوا في النهب ، رأيت أبا الحسن الكرجي ملقى تحت شجرة يثن من جراحه ، فاقتربت منه فعرفني وبكى ، فقلت ماذا بك ، قال لقد جاء التركمان ورأوا المتاع والجواد فصاحوا بي أن ترجل ، فشرعت في النزول ثم ابتعدت عن الجواد فظنوا أني أعاندهم لأنني أسير ببطء لشيخوختي فطعنوني بالرمح في ظهري ثم أخرجوه من بطني وأخذوا الحصان ، وقد تحاملت على نفسي حتى بلغت هذه الشجرة وقد أوشكت على الموت ، هذا هو حالي فحدث به من يسأل عني من الإخوان والأصدقاء ، ثم طلب ماء وبعد صعوبات جمة جئت إليه يسكوز فيه قليل منه فشرب ثم اعترته غيوبة فتركت بقية الماء بجانبه ومضيت ولم أعرف ما كان من أمره بعد ذلك ، وعلمت أنه مات في تلك الليلة . ورأيت بين الصلاتين رايات تتقدم قيل إنها لطنغرل ويغنو وداود . ورأيت ابن كاكو مقيدا على جمل ورأيتهم وقد أنزلوه وفكوا قيده ثم أركبوه جملا من جمال الأستاذ عبد الصمد التي استولوا عليها وأخذوه إلى طغرل ثم مضيت ولا أعرف كيف سارت الأمور بعد ذلك » .

وقد قصصت على السلطان ما سمعت ، وكان السلطان يسرع في الارتحال من منزل إلى منزل وإذا بثلاثة من السعاة من عيوننا لدى الأعداء يصلون في وقت واحد ، ومعهم الرسائل التي حملها أبو سهل الزوزني إلى السلطان فقرأها وقال له يجب إخفاء هذه الرسائل فلا يطلع عليها أحد . فقال سمعا وطاعة

وأحضرها إلى وأعطاها فقرأتها وختمتها وولتها إلى حارس الديوان .

وقد جاء في هذه الرسائل ما جرى من عجب النوار في هذه الواقعة، فإن السلاجقة كانوا يحاربون بلا وعى، وكانوا قد أبعدوا عنهم أحماهم ستة عشر منزلا، إذ كانوا يعدون العدة للفرار، وكانوا يرسلون كل من عندهم من الفرسان لمواجة جيش السلطان، وهم يتوقعون أن جيشه سيردهم على أعقابهم مغلوبين هازبين، ولكن الأحوال أدت إلى أن يتفرق غلمان السراى من تلقاء أنفسهم حتى بلغ الأمر من الخطورة ما بلغ. وأعجب العجب أن قد وقع في يد السلاجقة أحد أولاد الفقهاء وكان يعرف علم النجوم وتتلذ على المنجمين وقد صبح عندهم كثير من تنبؤاته، فتنبأ لهم بأنهم يقيمون في مرو وأكد لهم أنهم إذا لم يصلوا إلى إمارة خراسان ٦٢٨ فلهم أن يقتلوه وكان يقول لهم يوم الجمعة حين وقعت هذه الواقعة أن رأبطوا ساعة أخرى حتى الظهر، وتحققت لهم نبوءته. ففي تلك الساعة جاء الفرسان من غلمان السلطان ووقعت الواقعة وتم لهم ما تنبأ به وتراجع جيش السلطان، فنزل المقدمون الثلاثة عن خيولهم وسجدوا لابن الفقيه وأعطوه فورا بضعة آلاف من الدنانير، واتسعت آفاق آمالهم وساروا إلى حيث جرت المعركة فأقاموا خيمة ووضعوا بها التخت فجلس عليه طغرل، وجاء الأعيان جميعا وسلبوا عليه مهنتين. بإمارة خراسان وجرى بفرا مرز بن كاكو فأحسن طغرل لقاءه، وقال له لقد لقيت من المصاعب ما لقيت نطب نفسا فإن لكم إصفهان والرى. واستمر النهب حتى صلاة المغرب وكانوا يفرقون كل شيء على أتباعهم، وأثرى المنجم من الصامت والناطق، وجمعوا الأوراق وأدوات ديوان الرسائل، وكان أكثرها قد فقد، وقد وجدوا بضع نسخ وعدة كتب وفرحوا لعثورهم عليها، ثم كتبوا الرسائل لخانات تركستان وأولاد على تسكين وامين الدولة وجميع أعيان تركستان ينبؤهم بالفتح. وبعثوا مع المبعشرين

علامات ديوان الرسائل (دواة خانها) وبألوية الجيش ١٠ وأما هؤلاء الغلبان الجفافة الذين خانوا العهد ، فقد أحسنوا إليهم كثيرا ، ومنحواهم إمارة الولايات والسرادات وكل شيء . وأثرى السلاجقة أنفسهم فقد نهبوا مالا يحصى ، ولم يكن أحد يجرؤ على التحدث عنهم ، وكان الترك يقولون « إنا فعلنا هذا » ، ثم إنهم أمروا بأن يساق المشاة المنهزمون من كل جنس صوب وادي آموى حتى يراهم الناس في بخارى وفي تلك النواحي . وثبت أن موقعة دندانقان انتهت بهزيمة حاسمة . وأن السلاجقة قد غنموا مالا جصرا له من الذهب والفضة والملابس والدواب ، وقد اتفقوا على أن يذهب طغرل إلى نيسابور مع ألف فارس ، وأن يستقر بيغو في مرو مع اليناليين . وأن يسير داود مع معظم الجند إلى بلخ حتى يستولى عليها وعلى طخارستان . وقد بينا ما جرى حتى هذا الوقت ، وبعد ذلك نذكر ما يحدث من حوادث التاريخ ويجب أن يكون السعاة الآن أكثر اتصالا بنا .

ولما اقترب السلطان من قرية أبي الحسن خلف جاء المقدمون للتحية ، ٦٢٩ وأصاحوا كثيرا من الأدوات ، من الخيمة والحركاء ومن كل مالا غنى عنه وأقام هناك يومين حتى يستطيع الرجال إصلاح أحوالهم ، على قدر الطاقة ، وقد أحسن الغوريون لقاءنا وقدموا الهدايا وبدأ السلطان بهادىء الروح ، وقد أمضى هناك العيد وكان عيداً حزيناً . وعند صلاة العصر كنت في الخدمة فقال لى السلطان ماذا ينبغى أن يكتب لخانات تركستان في هذا الباب . فقلت بماذا يأمر مولانا؟ قال لقد كتب أبو الحسن عبد الجليل ومسعود الليث في هذا الشأن نسختين ألم تقرأهما؟ قلت لم أرهما وكلاهما يجيد الكتابة . فضحك السلطان وقال للوكل بالدواة (دواة دار) أحضر النسختين ، فأحضرهما وتأملت فيهما ، والحق أنهما قد راعيا جانب مولانا السلطان وأثريا عليه ثم سطرا عدة سطور

معمأة ، وكان عيبيهما أنهما كتبنا إنا كنا نزع الرحيل إلى غزنة ، ولذلك تركنا
الأمته والدواب والغدة في دندانقان . وكان هذان الفاضلان يسخران من أبي
سهل لأنهما كانا طامعين في منصب رياسة ديوان الرسائل ، وكانا يتتبعان عثراته ،
وكلما حدث أمر تصعب الكتابة عنه ويتكلم السلطان فيه ، كانا يقولان لابد من
التحدث مع أبي سهل حتى يكتب في هذا الأمر ، فقد كانا يعلمان أنه قليل الخبرة
في هذا الفن . وكان على أن أعمل في ثبات وكنت كذلك . وقد قرأت النسختين
وقلت حسنا ، فقال السلطان رضى الله عنه ، ولم يكن له نظير بهذه الدنيا في
معرفة دقائق الأمور ، ينبغي أن تكون خيرا من هذا لأن هذه معاذير وخانات
تركستان ممن لا يخفى عليهم أمثال هذه الأحوال . قلت أطل الله حياة السلطان
إذا كنا سنحتاج إلى الخانات فلا بد من الكتابة على وجه آخر لطلب العدة
والمعونة . فقال نحن لا محالة محتاجون وسنرسل لهم رسولا بالرسائل والمشافهات
حين نصل إلى غزنة ، أما الآن فيجب الكتابة اليهم بما حدث مع أحد فرسان
البريد . قلت وإذا لابد من أن نصدقهم الخبر حتى لا يعيبنونا ، فإن رسل الأعداء
سيبشرونهم ومعهم الشارات والأعلام كرسم التريكان قبل أن يصل رسولنا
بالنبا . فقال السلطان إنه كذلك ، أكتب نسخة ثم أحضرها لأراها ، فرجعت
وكتبت الرسالة هذه الليلة . ٦٣٠ وفي الغداة وفي منزل آخر . وقبل أن أبلغ
منزل الشاكرية ، مثلت في الحضرة واستلم الداو تدار الرسالة وقرأها . وقال
السلطان حقاً لقد كنت أريد هذا ، اقرأ فقرأت جهازاً وكان أستاذ الديوان حاضراً
وكذلك جملة الندماء وأبو الحسن عبد الجليل ، وكانوا جلوساً كلهم : أما أبو
الفتح الليث وأنا فكنا واقفين ، ولما فرغت من القراءة قال السلطان هذا
ما كنت أريد . واستحسن الحاضرون الرسالة متابعه لقوله رغم أنها لم تحز
رضا رجلين من الحضور . وقد أثبت هذه الرسالة هنا كما أثبت كتابات أخرى

كثيرة ، وإني متقبل كل ما يقول القراء ، فإن قصدى أن أؤدى واجبى . وتحدثت بهذا الحديث قبلها للعالم .

نص الكتاب إلى أرسلان خان

« بسم الله الرحمن الرحيم . أطال الله بقاء الخان الأجل الجيم ، هذا كتاب منى إليه برباط كروان على سبع مراحل من غزوة ، والله عز ذكره فى جميع الأحوال محمود ، والصلاة على النبى المصطفى محمد وآله الطيبين ، وبعد فإنه لا يخفى على الخان أن الله تقادير كالسيف البتار الذى لا يستطيع إدراك سيره ومضائه ، ولا يستطيع تدارك ما يأتى به القدر ، وهذا هو سر عجز الإنسان فى كل وقت عن معرفة ما تلد حبالى اللبلى ، والعاقل من يستسلم لأمر الله وقضائه ولا يعتمد على ماله من الحول والطول والعدة ، فيسلم أمره لربه ويعرف أن ما يصيبه من خير أو شر إنما هو بإذنه ، وأن منه النصر وأنه ينصر ويعز من يشاء ، فإنه لو أنكر التوكل لحظة وسلك طريق التكبر والبطر يقع فيما لا يمر بخاطر ومالا تصل إليه الأوهام ويسقط عاجزا . وإنا نطلب إلى الله تعالى ، فى رغبة صادقة ونية خالصة واعتقاد تام ، أن يعيننا ويأخذ بيدنا فى السراء والضراء والشدة والرخاء ، وألا يتخلى عنا ساعة بل لحظة ، وأن يلممنا بتقدير النعم وإدراك الشدائد ، لنشكره ونصبر ولنستمسك بعروته الوثقى فإن النعمة تزداد بالشكر والثواب يحصل بالصبر إنه سبحانه خير موفق ومعين .

إن الخان قد اطاع على كل مامر بنا منذ قرابة سنتين ، حين رفعنا علمنا على خراسان ، مما ٦٣١ نحب وبما نكره ، من اليسير والعسير ، وقد حفظ الخان العهد معنا فى الشدة والرخاء ، فإن شرط الود الخالص بين الأصدقاء هو أن لا يخفى بينهم شىء صغر أو كبر . وقد بعثنا آخر كتاب مع فارس شبيه بالرسول من طوس على سبع مراحل من نيسابور ، وبيننا فيه أننا أقمنا هناك مع الجند ، فهناك الشغور

بجوانب سرخس وبارود ونسا ومرو وهراة حتى نرى ما يقتضيه الموقف وماذا سيعمل هؤلاء الأدعياء الذين وقعوا على أطراف الوديان ، وبعد سفر الرسول أقمنا ستة أيام ثم اقتضى الأمر أن نسير إلى جانب سرخس فلما بلغناها غرة رمضان وجدناها خرابا بلقعا بحيث كانت الذرة من الحشائش مثلا تشتري بدينار ولكنها لا توجد وبلغ الغلاء إلى درجة أن الشيوخ الكبار كانوا يقولون إنهم لا يذكرون غلاء فاحشا كهذا في المائة سنة الماضية ، كان المن من الدقيق يباع بعشرة دراهم إذا وجد ، ولم يكن أحد يرى الشعير والتبن مما آذى الفرسان والجند كثيرا بحيث تعرض رجال خاصتنا مع ما لهم من وافر الدواب والعدة لمصائب لا تحصى ، وهذا يبين إلى أى مدى من الضيق كان حال أتباعنا وصغار الناس عندنا . وقد باخ الأمر إلى حد أنه كانه في كل وقت وفي كل مناسبة لجأج وخصومات بين فرق الجند والسرانيين بشأن القوت والعلف والدواب ، وكان هذا اللجأج يتعدى حدود القول إلى السيف ، وأكد لي ثقاتي الذين أستشيرهم في مهام الأمور ، تصريحاً وتلميحاً ، بأن الصواب أن نسير إلى هراة فإن العلف هناك وفير ، وهى قريبة إلى كل ناحية ، هى واسطة خراسان ، وكان الخير فيما قالوا ولكننا عاندنا وأصررنا ولأن الموقف كان لا يزال حرجا مع الأدعياء فقد رأينا أن نذهب إلى مرو حتى ينجلي الموقف ، ولأن القضاء كان يسوقنا وكان لابد لنا من معاناة ما وقع ، فقد سرنا إلى مرو وكان القلوب شاهدة على أن السير إليها ليس من الصواب فى شيء . وكان الطريق غير ما كنا نتوقع من الافتقار إلى العلف والماء ومن شدة الحر وعورة المسالك ، وحدثت مشاحنات خطيرة بين فرق الجيش فى المراحل الثلاث أو الأربع التى قطعناها بشأن وقت القيام والعلف والدواب والغذاء وغيرها وكان ٦٣٢ الأعيان المقامون فى القلب والميمنة والميسرة وغيرها من المواضع يعملون على تهدئة هذه المشاحنات ، ولكن الأمر كان قد تجاوز الحد ، فلم تخمد الفتن .

وازدادت كل يوم بل كل ساعة ، حتى كان يوم كذا عند صلاة العصر حين ارتحلنا من مرحلة كذا قاصدين مرحلة كذا إذا بفوج من الأعداء يبرز على حافة الطريق فانقضوا علينا وأرادوا أن ينهبوا شيئاً من عندنا ، فردهم رجالنا ولم يمكنوهم من شيء ، وقد استمرت هذه المناوشات حتى صلاة المغرب ، وكان الجيش مستعداً للمغالبة والقتال ، ولكن الحرب لم تكن شديدة لأن الأعداء كانوا يتجنبون أن تصيبهم السنان ، فلم يحدث اشتباك ولو أخذ الجند الأمر على محمل الجد لطارد المبارزون الأعداء من كل جانب . وفي المساء نزلنا في محلة كذا ، ولم يكن في الجيش فتنة ، ولم يقتل كبير من القادة ، وكنا نعد العدة من الدراجة والظليعة حتى لانفاجأ في ظلام الليل ، وعلى هذا النحو سارت الأمور في الغداة حتى اقتربنا من مرو . وفي اليوم الثالث تحرك الجيش وهو أكثر استعداداً وأتم تعبئة على الرسم في مثل هذه الأحوال ، وقال لنا الأدلاء إن المياه الجارية على مسيرة فرسخ واحد من قلعة داندنقان ، فلما بلغنا هذه القلعة في رابعة النهار وجدنا الأعداء قد ردموا الآبار التي عند المدخل وجعلوها قبوراً ، حتى يستحيل النزول إلى مياهها . فصاح الرجال من قلعة داندنقان بأن بالقلعة خمس آبار تكفي لمد الجند بالماء ولو نزلنا بالقلعة فإن أهلها ينظفون الآبار الكائنة خارجها بحيث يصبح الماء متوفراً ولا يحدث أى خلل ، وكان اليوم شديد الحرارة وكان الصواب أن ننزل بالقلعة ، ولكن لم يكن من وقوع الفضاء مفر فسرنا من هنالك وابتعدنا ٦٣٣ أكثر من فرسخ فوجدنا أنهاراً جافة ، وأحواضاً صغيرة ناضبة ، وحار الأدلاء الذين ظنوا أن هناك ماء ، فإن أحداً لا يذكر أنه رأى هذه الأنهار جافة ، فلما افتقدنا الماء ولم نجده استولى الهلع على الجند واختل النظام وعدا علينا الأعداء من جميع الجهات عدواناً شديداً ، بحيث اقتضى الأمر أن نخرج بأنفسنا من القلب لتتقدم الجيش ، وحملنا على العدو حملة صادقة ، وكنا نحسب أن كراديس الميمنة والميسرة لم تزل في مواضعها ، ولم

تكن نعلم أن فوجا من غلمان السراى من ذوى النجائب قد ترجلوا وخطفوا الخيول من كل من قابلوه من الفرسان ليركبوها ويتقدموا للحرب ، وقد بلغ اللجاج فى الاستيلاء على الخيل وإنزال بعضهم بعضا عنها إلى القتال عليها والتخلي عن أماكنهم فى الصفوف ، واغتنم الأعداء هذه الفرصة ، وتخرج الموقف ، ولم يكن بد من ترك آلاتنا وأمتعنا فضاعت واشتغل الأعداء بها ، أما نحن فسرنا فرسنا حتى بلغنا حوض ماء كبير راكد ، وهناك جاء أولياؤنا وحشمتنا من الأخوة والأولاد والعظماء والخدم بسلام ، بحيث لم يصب أحد من الأكابر . وقد أشاروا علينا بوجوب المسير ، لأن تدارك ما كنا فيه مستحيل ، فاستصوبنا هذا رأى وسرنا حتى بلغنا قصبة غرجستان فى اليوم الثامن فأقنا بها يومين حتى وصل غلمان السراى وجملة الجند ، ولم يتأخر عن اللحاق بنا واحد من أصحاب الشهرة . وت خلف جماعة من الرجال وصغار القوم الخاملين وسرنا من غرجستان عن طريق رباط بزي وجبال هراة وجانب غور فزلنا فى قلعة أبى العباس أبى الحسن خلف وهو من عبيد الدولة ومن مقدمى الغور ومن هناك استرحنا ثلاثة أيام ومن هناك بلغنا هذا الرباط (رباط كروان) وهو على ستة فراسخ أو سبعة من غزنة ، ورأينا أن نكتب إلى الخان ولو أن كتابتنا ستعلق باله فإن ذلك أفضل من أن يسمعه من غيرنا ، فالذى لا شك فيه أن الأعداء سيبالغون فى روايتهم ويطنبون فى وصف الحادث ، فإن هذا الخلل الذى أصاب جيشنا كان مقدرا وقوعه ، وإذا كان فى العمر بقية فإننا نتلافى هذه المحنة ، بفضل الله تعالى وحسن صنيعه ٦٣٤ وتوفيقه ، والخان بما أوتى من حكمة العقل وهو فريد عصره فى التجارب ، يعرف أن هذا هو حال الدنيا ما وجد بها ملوك وجيوش تتحارب ، وقد لقي النبى محمد صلى الله عليه وسلم من كفار قريش يوم أحد ما لقينا من انكسار ولم يؤثر هذا فى نبوته ، وقد

تم له ما أراد بعد ذلك ، والحق حق أبدا ، وإذن نحن بحمد الله كالقطب في صدر ماسكنا ، والدنيا مقبلة علينا ، وأولادنا وأولياؤنا وحشمننا نصرهم الله كلهم . سالمون فإن تدارك هذه المحنة في سرعة قريب ، فلدينا من وفير الآلات والعدد مالا يحصى ، وخاصة إن لنا صديقا حليفا كالخان الذي تعهد بألا ييخل علينا بشيء من الجيش والرجال ، والذي إذا التمسنا منه أن يشق على نفسه فإنه لا يرضن علينا بجهد ، حتى يبعد عنا مانكبنا الدهر به ونستريح ؛ متعنا الله بصداقته وإخلاص قلبه بمنه وفضله . وإنا نرسل هذا الكتاب مع فارس سريع وحين نبأغ غزوة سالمين نوفد رسولا من المعتمدين في مجلسنا ، يحمل اليكم منا رسالة أكثر إيضاها نذكر فيها ما أغفلنا ذكره ونتحدث فيها بما يجب أن نقول . وإنا في انتظار رد هذه الرسالة بأسرع ما يمكن ، حتى نقف على رأى واعتقاد الخان فيما نحن فيه لتتجدد صداقتنا ولنرقل في حلة السعادة ، ويكون هذا عندنا من أعظم المواهب باذن الله عز وجل .

و حين عدنا إلى غزوة كان السلطان والناس جميعا في فزع من هول هذا الحادث ، ولم يكن لهذا السلطان العظيم رحمه الله بقية من عمر ، وقد أردت حين كتبت هذا الكتاب أن أجعل هذه الهزيمة في صورة أجلى بيان هذه المعاذير ، وكان من المناسب أن ينشد أحد الشعراء بعض أبيات من الشعر ، لتكون الرواية منظومة ومنثورة ، فلم أجدها من ٦٣٥ شعراء العصر الذين عاشوا في ظل هذه الدولة في هذه السنين العشرين غير الفقيه أبي حنيفة أيده الله ، وقد أنشد وأجاد وبعث بشعره إلينا « وكل خير عندنا من عنده » . وما بقى أمر أبي حنيفة الشاعر على هذه الحال وقد أخطأ فألى فقد لقي عطفًا كثيرا من السلطان أبي المظفر إبراهيم أطل الله بقاءة إذ أمده بالصلوات

لأغالية وفوجى إليه شغل إشراف ترنك ولا ينبغي الاستخفاف بترنك فإنها كانت أول ولاية لخوارزمشاه النونتاش والقصيدة هي :

« قصيدة »

إذا عدل السلطان (عن اللهم) في حفلات الرياض يستطيع في يسر أن
يقبض على أزمة الملك ، الملك كالوحش وأنا على يقين من أنه لا يأتلف مع
أى إنسان . العدل قيده ، فإذا ربطته به يصبح أليفا سهل القياد . من الذى
يقول لك لا تشرب الخمر ؟ إشررب وخذ نصيبك من طرب السكرى ،
واشرب اللبن ، ولكن لا تشرب بحيث لا تسلو الشراب ، كالرضيع لا يسلو
تدى أمه ، ماذا يعرف الملك عن الطعام والمنام ؟ علم هذا كله أطفال
المدارس . إذا كان الملك يقظا فى سياسته ، فإنه ينقل العدو مقيدا من البستان
إلى السجن ، العدو كالشعبان ، يجب اقتلاع أنيابه ، فلا تأمن له إذا شئت
سلامة أسنانك ، واحذر العدو حين يصبح صديقا ، واحذر الموبد بعد إسلامه .
الشكر عنوان كتاب النعمة ، والكتاب يقرأ من عنوانه ٦٣٦ . إذا ارتدى الملك
رداء الزهو ، يمزقة العدو حين يتمكن من جيبه ، ومن رأى ذل ركوب
الإبل والأقتاب لا يغره عز الفيلة والمهود . إن الرجل الجاد لا يهدأ : فإن
عجلة الزمان تدور بالأعمال . إن المأمون ، وهو من خلفاء المسلمين ، ذاك
الذى لم يشاهد العربى أو الدهقان خائفة مثله كان يرتدى جبة من الخنز وظل
يلبسها حتى رثت . وبليت فعجب الندماء من ذلك وسألوه عن سببه فقال لهم
يبقى من الملوك ، عربا وعجمًا ، ذكرهم لا الحرير والكتان . والملك الذى
يجلس على الخنز والحرير ، وينام عليهما يثقل عليه لبس القفطان ،
والملك الذى تأخذه بالدرع والحراب والرماح لا يستطيع تعويضه بماء
الحوض والريحان . إذا لم يحتفظ الملك بحب جنده فإنهم يصبحون فى ميدان

الوغي وكأنهم في الإيوان ، وإنه ليرى الهوان بمن أذلهم في الإيوان إذا كان لهم عمل في الميدان . ولو أن الجند يشد لمن عزمهم المال ، لكن يجب تشجيعهم أيضا بالطعام . راع الطبيب في صحتك يعن بك في مرضك ، علاجاً ودواء . وإذا أردت الإمان من شر الأقران ، فلا تعرض عن القرآن واتل آياته . الزهد مقيد بالدين ، والعلم بالطاعة ، والمجد بالجود ، والشعر بالديوان . يقوى الرجل بالجسم السليم ، والخلق بحسن السيرة ، والدين بالسريرة يقوى ، والملك بالسلطان مسعود ، أيها السلطان الفاضل ، يا أسد الميدان الذي عقدت السعادة معه عقداً أبدياً ، يا من يزدان دواماً بك الزمان زينة الروض الزاهر بالربيع ، إذا أراد ذكي أن يدعو إلى نبوة فإنه إن يجد خيراً من كفك برهانا على صدق دعوته . قوة الإسلام ونصرة الحق ٦٣٧ كلاهما في حاجة إلى النبوة وإلى حجة الإيمان . إن لك اليد الطولى واللسان الفصيح وكان لموسى بن عمران واحدة منهما . الحمد لله الذي رزقني نعمة لقائك ثانية في هذا الإيوان المبارك . وبعد أن بلغت دار ملكك سالماً فإننا لا نخاف إذ مات أي رجل ! يقال في المثل إنه لا ينقص قدر الرجل فقدان الذخيرة وقلة الأسباب مادام حياً ، وليس ما حدث في خراسان جديداً ، هكذا كان حالها منذ كانت خراسان . ملك ربك أوسع من ملكك أليس الخراب أعظم قسم في ملك ربك ، وإذا كان العدو قد انتزع منك بعض ملكك ألم تأخذ الجن من قبل تخت سليمان ؟ وإذا أصابك الضر من أعدائك ألم يصب المشتري من كيوان ؟ فإن المطر الذي هو رحمة الله على الأرض ، تسببه الصواعق ، وإذا أمعنت النظر تجد بلائنا منا ، كمثل الفأس مع الشجرة والمبرد مع الحديد ، أعد الكرة وجهز الخيل والسلاح لاسيما وقد ولى الشتاء وأقبل الربيع ، وإذا صفا قلبك للجيش والرعية أتاك من طريق واحد رستم^(١) ، فإنك سيد ملوك زمانك وأنت مختار ربك بينهم لهذه المكانة

(١) رستم بطل الفرس في تاريخهم القديم .

لقد ريعت الأسود والتماسيح والعقبان تحت الماء وفي جوف الصحراء من هذا
النبأ المحزن ، لن يعتمد أحد أتباعك عليك ويتمسك بك مالم تستضفه على دم
العدو الو اغتم لهذه الحال ملاك أو حزن عليها آدمى ما تعجب من هذا انسان ،
لن يشرب الورد ولن تضحك السماء مالم تأمر هما بذلك . أنت ملك إيران ،
هكذا كنت وستكون ، ولو أن الصعلوك اغتر بعصيانه ، لأن هذا الذى ذهب
يحارب الله عن جهالة رمى بالسهم الدامى وخذل ، وغرق فرعون فى النيل يوم
ذهب يسير خطوات فى أثرها مان . فثق بأن قاعدة ملك الناصرى واليمىنى هى أحكم
قواعد الدنيا وأقواها . ولسوف يذهب الأعداء مثخنين بالجراح من هول سيف
الظهيرى ٦٣٨ إذا لم يقو الجواد على حملك فإن الفيل يحملك كما حمل رسم المعروف ،
وإذا كان عبدك قد أساء فإنه لم يقصد الإساءة فإن سير الزمان رهن بالحاجة للخبز
والكساء ، فإذا قبلت عذر الزمان فهذا بك جدير فقد ندم الزمان على ما كان .
لك الجوهر الفرد فى بحر ملكك ، والآخرون يكدون بأرواحهم بحثا عن المرجان .
لك تاج الذهب والدولة العظيمة ، وأعداؤك يشقون فى طلب الخبز . الورد لا يضمن
عليك برائحة عندما يجب التحدث عن شوك أم غيلان . أولى بك ألا تشغل
قلبك عن العمل بعد أن ذاع هذا الحديث فى العالم كله . لا أقول الشعر بل أقول
كلما فيه من حكمة لقمان . وجلى أنى لم أذكر فى شعرى الخط والحال
والزاف ونجل العيون . لست أمدح السلطان طامعا فى شيء فإنه يعرف
أن جزائى غن مدحه محفوظ فى الدنيا وفى الآخرة . إن فى هذا الرأس
المستدير كالكرة شيئا من الهمة ولذا انحنى ظهري فى الشباب كالصولجان .
أيها السلطان زاد الله فى عمرك كل ما نقص فى زحفك من العتاد . لا أستطيع
أن أتفوه بمديح أحد غيرك فقد حييت بك وواجبى الظفر بالاسم الطيب فعش
سعيدا وانثر الذهب والفضة ، واحفظ الملك . وكن أنت الأمر الناهى ما أنارت

الشمس الفلك ، كما يلعب الكأس الذهبي في الحوض ، وليكن وجهك موردا
نضرا ، وليكن العدو قربانا لسيفك .

ولو أن الحديث يطول بهذا الشعر ، ولكن كلاما بهذه الصنعة وبهذا
المعنى هو كالتاج المرصع فوق الرؤوس ، وإنه لمن المؤسف أن يموت هذا
الرجل الفاضل وكان جديرا بطول العمر . وإنى إذ فرغت من هذا أعود إلى
ما كنت فيه من سرد التاريخ « والله المسهل بحوله وطوله » .

وقبل أن يرحل السلطان من رباط كروان جاء رجل من معتمدى أبي على
كو تو ال القلعة ٦٣٩ ومعه مظلتان وراية كلها سوداء ورماح قصيرة كلها في
أغلفة من الديباج الأسود مع مهدى فيل وبغل وآلات أخرى ، وهذه كلها
كانت قد فقدت ، وكذلك جاء بأثواب من القماش لم تمس وأشياء أخرى
أرسلها أبو على من تلقاء نفسه ؛ ولا شك أن هذا التصرف حاز رضا السلطان
وكذلك بعثت كل من أم السلطان وحرمة الختلية وعمات السلطان الأخريات .
وخالاته بمعتمدين من قبلهم يحملون أشياء كثيرة ؛ كما أرسل أهل رجال
الحاشية والجنود لنوهم من كل شيء ، فقد كانوا في حاجة ماسة ، وخرج أهل
غزنة للاستقبال وكان السلطان شديد الخجل ، ودخل جيشه في غزنة هذه
المرة لم يكن مشابها لدخول أى من السلاطين والجيوش إلى هذه المدينة من
قبل ، ولكن يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد . دخل السلطان غزنة يوم
السبت السابع من شوال ونزل في الجوسق ، وقد رفها عنه قائلين إن الدنيا
قلب وإن تلافى الهزائم يمكن ما دام السلطان حيا ، ولكن حقيقة الأمر
أن الهزيمة لم تكن خافية عليه ، فإنه كان يمر يوما في صحراء غور وفي ركابه

جماعة كأبي الحسن 'عبد الجليل' وقائد الغزاة عبد الله قراتكين وغيرهما ،
 وكان هذا السيدان يتحدثان دائماً مع السلطان ويواسيانه قائلين : إن هذه الواقعة
 قد فاتت وهي لم تكن بسبب قوة العدو ولكنه قضاء الله والظروف الأخرى
 التي لا تخفى ، وحين يبلغ السلطان عاصمة ملكه في سلام يمكن أن تأخذ الأمور
 لونا آخر ، وها هو عبد الله قراتكين يقول إذا أمر السلطان فإنه يذهب إلى
 الهند ويحضر عشرة آلاف من مغاوير الفرسان يستطيعون الاستيلاء على
 العالم ويأتي بفرسان آخرين مجهزين ثم يسير بهذا الجيش لقتال عدو عرفت حيله
 الحرية كي يعيد الأمر إلى نصابه ، وكان أبو الحسن والآخران يتحدثون
 على هذا النحو ، فالتفت السلطان إلى الأستاذ عبد الرازق وقال : « ما هذا
 الهذيان الذي يقولون لقد أحرزنا الملك في مرو وضاع منا الملك في مرو » ،
 وكلام السلاطين لا يؤخذ على محمل الخفة أو الصغار وخاصة هذا السلطان
 الذي كان نسيج وحده ؛ وقد أراد أن يرمز بقوله هذا إلى أن والده السلطان
 محمود ملك خراسان في مرو حين غلب السامانيين وفي مرو ضاعت خراسان
 منه . وهذه القصة من النوادر وما أعجب أحوال الدنيا فإن السلطان الراحل
 (محمود) قد جاء ليجعل أمر العراق والرى في عهدة الأمير مسعود رضى
 الله عنه ثم يرجع على أن يقيم مقامه على إمارة خراسان الأمير محمدا ، ولكن
 الله تعالى لم يرد ذلك وقضى بغيره .

وقد كتبت هذه القصة حتى يعلم كل فرد كيف كانت هذه الأحوال ،
 ليفيد منها القراء ويعرف المحققون أخبار التاريخ ولا بدلى من أن أبين كل
 ذلك في كتابي هذا .

قصة الأمير منصور بن نوح الساماني

قرأت في أخبار السامانيين أنه حين مات الأمير نوح بن منصور في
 بخارى أقيم على العرش ولده وولى عهده أبو الحارث منصور ، وقد اطمأن
 إليه الأولياء والحشم ، وكان شابا جميل الطلعة شجاعا فصيحاً ، ولكن كانت

به رعيوة الشباب إلى حد أن كانوا يخافونه جميعا، وكان جلوسه بعد أبيه في رجب
 سنة سبع وثمانين وثلاثمائة (٩٩٧)، فأدار الملك في مهارة وقوة سياسة، وجعل
 يكتوزن قائدا في نيسابور، خلافا لما كان يرام السلطان محمود حينما كان
 في بلخ وعارض في تفويض قيادة نيسابور إلى يكتوزن، وكان أمير خراسان
 يخطب ودهما معا ولكنه كان أكثر ميلا لبكتوزن، فلما وقف السلطان
 محمود على جلية الأمر أخذ في التأهب لقتال يكتوزن، بخاف هذا وشكا
 للأمير خراسان الذي سار من بخارا قاصدا مبرو ومعه جيوشه وفائق الخاصة؛
 وكانوا يريدون القضاء على هذا الخلاف بسلام، فظلوا في مرو عدة أيام،
 ثم عادوا إلى سرخس حيث استقبلهم بكتوزن بجيش كثيف، ولم ير من
 أمير خراسان ما كان يتوقعه لأنه كان أكثر ميلا إلى جانب السلطان محمود،
 فأسر إلى فائق بأن هذا الأمير حدث وهواه مع السلطان محمود مما زاد
 في قوته ولا بقاء لي ولا بقاء لك، فقال فائق إنه كما قلت وإن هذا الأمير
 مستخف بنا ولا يقدر حق الخدمة وإنه لشديد الميل إلى محمود ٦٤١
 وأخشى أن يسلمني وإياك إليه، كما سلم أبوه أبا علي سيمجور إلى سيكتكين
 ووالد السلطان محمود. وقد قال لي يوما «لماذا لقيت بالجليل ولا جلال فيك»،
 فقال بكتوزن الرأي أن نعزله عن الملك وأن تنصب بدله أحد أخوته.
 فقال فائق لقد أصبت فهذا هو الرأي السديد وأخذوا يعدان لهذا الأمر.
 وذات يوم ركب أبو الحارث من سراي رئيس سرخس التي كان قد نزل
 بها ثم سار إلى الصيد، وكان فائق وبكتوزن قد نزلا على حدود سرخس
 وضربا خيامهما هناك، فلما رجع من الصيد مع مائتين من الغلمان قال له
 بكتوزن: لعل الأمير يسره أن ينزل بخيمتي فيتناول شيئا وهناك حديث
 بشأن محمود. فقال حسنا ونزل، فانخدع لطيش شبابه وقلة تبصره، فنزل
 بخيمة بكتوزن: فإن القضاء كان قد حم، فلما اتخذ مكانه في الخيم سمع
 جلبة فأساء الظن وظهر عليه الخوف، لكنهم أحضروا القيد فورا وقيدوه،
 وكان هذا يوم الأربعاء الثاني عشر من صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة،

وبعد أسبوع سفلوا غنيته وحملوه إلى بخارى ، ولم تزد مدة حكمه عن تسعة عشر شهرا ، وبعد أن ارتكب بكتوزن وفائق هذه الفعلة الشنعاء زحفوا إلى مرو فواقاهم الأمير أبو الفوارس عبد الملك بن توح ، وكان حدثا فأجلسوه على العرش ، وجعلوا أمور الملك في يد سديد بن الليث فأخذ في تدبيرها ، ولكنه كان خائفا وجلال . ثم وفد أبو القاسم سيمجور مع جيش عظيم ولقى عطفًا وترحيبًا ، ولما بلغت هذه الأتباء السلطان محمود اشتد غضبه لما حدث للأمير أبي الحارث ، وقال « أقسم بالله لو رأيت بكتوزن لافقأن عينه نينه » ثم زحف من هراة وجاء مرو الرود مع جيش جرار ونزل ياراء هؤلاء القوم كالأسد الهائج ، ولما اشتد التقارب بين الجيشين واتخذ كل منهما حيطته سارت الرسل بينهما من الأركان والقضاة والأئمة والفقهاء وطالت المفاوضات حتى استقر الرأي على أن يكون بكتوزن سمسالار خراسان ويمنح ولاية نيسابور مع الولايات التي تتبع السمسالارية وأن تكون ولاية بلخ وهراة للسلطان محمود وتعاهد الفريقان على هذا واستقر الرأي بينهما ورضى السلطان محمود به وتصدق بكثير من المال لإبرام الصلح على هذا النحو دون إراقة دماء . وفي يوم السبت لأربعة أيام بقيت من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة (٩٩٨) أمر السلطان محمود بدق الكوس ٦٤٢ وجعل أخاه الأمير نصر على الساقة ، ثم سار بنفسه . وقال دارا بن قابوس للسديدين والحميديين وغيرهم من أصناف الجند : لقد كان غيبا فاحشا أن يفوتكم محمود فاذهبوا الآن واخطفوا ما استطعتم من أمتعة ، فسارع الناس لحرصهم على الذهب والثياب دون إذن أو رضا من قادتهم . وأخذوا في نهب أمتعة محمود وجيشه . فلما رأى الأمير نصر ذلك تقدم بشجاعة وحاربهم وبعث بالفرسان ليطلعوا أخاه السلطان على الأمر فعاد على الفور وحمل على المعتدين وهزمهم ودامت الاضطرابات يومين في المعسكر وكان الرجل لا يعرف أخاه في حومة الوغى واسترد السلطان وجيشه كل ما كان

بقى يد المعتدين ، وولى أمير خراسان الأديبار إلى بخارى مهزوما مدجورا .
وقال السلطان محمود : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، إن
هؤلاء القوم قد عقدوا معنا العهود والمواثيق ثم نقضوها فلم يرض الله بهذا
ونصرنا عليهم لأنهم غدروا بنجل مولاهم على هذا النحو ، فقد حرمهم الله من
توفيته وهداه وسلهم الملك والنعمة ومن بهما علينا . وتوفي فاتق في شعبان
هذه السنة وفر يكتوزن من وجه السلطان محمود إلى بخارى ، وجاء أبو القاسم
سيمجور لاجئا . وأغار من ناحية أخرى إيلك أبو الحسن نصر على من
أوزكند في غرة ذي القعدة من هذه السنة وجاء إلى بخارى يتظاهر بالطاعة
وتقديم العون . ثم إنهم قبضوا ذات يوم فجأة على يكتوزن مع كثير من المقدمين
وقيدوهم ، وتواري أمير خراسان لكنهم قبضوا عليه مع جميع أخوته وأقاربه
وساروا بهم في المحامل صوب أوزكند ، فدالت على هذا النحو دولة السامانيين ،
وظفر السلطان محمود بإمارة خراسان بسرعة لم يكن يتوقعها . وقد أتينا بهذه
الحكاية ليتبين منها مغزى حديث السلطان مسعود رضى الله عنه ولتكون
عبرة فإن في أمثال هذه القصة فوائد للناس .

* * *

ولما أدرك السلطان مسعود أن ليس في الحزن جدوى أقبل على اللهو
فأخذ يشرب ، ولكنه كان متكلفا . وأطلق سراح نوشتكين نوبتي ، ثم
خرج من السراي وجلس مع ابنة ٦٤٣ أرسلان جاذب ، ومن ثم بعث بنوشتكين
إلى بست مع جيش قوى من الفرسان والرجالة ليكون شحنة فيها وفوض
إليه أمر تلك النواحي ، كما أوفد مسعود بن محمد الليث رسولا إلى أرسلان
خان يحمل كتباً ومشافهات بشأن طلب المدد وتوثيق العهود ، فذهب من غزنة
عن طريق بنجهير يوم الاثنين الرابع والعشرين من شوال . ووصلت رقاع
محمدة من صاحب بريد بلخ أميرك البيهقي . فحلت رموزها وقد جاء فيها أن
داود جاء هناك على أبواب بلخ مع جيش جرار ظاناً أن المدينة ستسلم إليه في

يلسر. وكنت قد مهدت لكل شيء واستقدمت العيادين من الرقيق وقد تركت
نوالى ختلاق المدينة خالية ولجأ اليها لأنه لم يستطع المقام هناك. والآن وقد
انتهقنا جميعا والحرب قائمة والعدو يناوشنا كل يوم وقد بعث اليها وسنولا
لتسكني تسلمه المدينة ونذهب لنا، فأجبت بغلظة وأريته جد السيف فعاد بخفي
خمين، فلعن مولاي يرى أن يرسل اليها فوجا من الجيش مع قائد محنك من غزنة
حتى نجبا فقط على هتفهم المدينة فإن أخراسان كلها مرتبطة بها. ولو
أن الأعداء استخوذوا عليها لذهبنا إلى الأبد. فلانتهى السلطان مع
الوزير والعازض وأنى سهل الزوزنى وكبير الحجاب وعرض عليهم الرسالة
فقالوا له لقد أحسنوا صنعا بالمحافظة على تلك المدينة وأميرك هو الذي حماها
وعلم كل الأوقات التي حدثت في هذه الفترة ولا بد من إرسال المدد لبقى بلخ
في سوزنا فإن الأعداء لو استخوذوا عليها تصيح على أثرها ترمده
وقباديان وطبخارليتان. وقال الوزير: «إن ما كتبته أميرك البهقي ليس بخسنا
لأن ما حل بخراسان لن يتدارك إلا بذهاب السلطان نفسه إليها ولن تستقيم الأمور
بمحافظة شردمة من الجند على أسوار المدينة لأن العدو تضله إلا مدادات وفي بلخ كثير
من أهل الفساد والشر والفتنة وليس لأميرك أى مدد هذا ما أعرفه والرأى لمولانا»
فقال أبو سهل الزوزنى «إنى على رأى الوزير كذلك فإن أميرك يزعم أن أهل
بلخ يدينون له ٦٤٤ بالطاعة كما كانوا من قبل، ولو تقرر إرسال جيش إلى
هناك لوجب ألا يقل عدده عن ألفى فارس لأن عدده لو قل عن هذا لكان
كالماء المنسكب تبتلعه الأرض، هذا وقد ذهب الرسول إلى أرسلان خان
والرأى عندى التريث فى مثل هذه الأحوال لنرى ماذا يعمل الخان وعلينا
من ناحيتنا أن نعد العدة فإن شاء الخان معوتنا فسيفعلى فى إخلاص ويبعث
بالجيوش إلينا وحينئذ يسير السلطان من هنا وتتحد الجيوش ويتسق العمل
وإن لم يستمع الخان إلى طلبنا وما طلبنا ولم يرسل جيشا فحينئذ نعمل حسب
ما تقتضيه الظروف، أما إرسال جيش للمحافظة على بلخ فليس من الصواب
فى شيء» وقال السهيسالار وكبير الحجاب وسائر الأعيان «إنه لكذلك

ولكن لا بأس من إيفاد قائد مع قوة إلى طخارستان فإنها في حوزتنا ولو أنهم استطاعوا المحافظة على بلخ فهذا خير وإن لم يقدرُوا على ذلك فلا ضير ، ولو أننا لم نرسل إليهم جيشاً ليئس الخراسانيون كافة رغبة وجندا من هذه الدولة . « ثم استقر الرأي على الإسراع بإرسال التوتناش الحاجب مع ألف فارس من شتى الأصناف . فعادوا وأخذوا يعدون العدة في حماس لألتوتناش وجلس الوزير والعارض والسپهسالار وكبير الحجاب يسجلون أسماء الجند الممتازين ويدفعون مرتباتهم نقداً حتى أعد جيش قوى ، وكنا قد كتبنا لأميرك بالبريد من جهة ومن جهة أخرى مع قاصدين مسرعين أن سيفد إليك جيش قوى على رأسه قائد مشهور ، فكن رابط الجأش وليكن كذلك أهل المدينة وغيرهم وخذوا الحيلة التامة للمحافظة عليها فإن الجيش قادم على الأثر . وفي يوم الثلاثاء جاء السلطان إلى قلعة الخضراء المقابلة لميدان دشت شاهباز وجلس واستعرض هذا الجيش الذى كان مجهزاً بالعدد والآلات والخيول الممتازة ، وصعد ألتوتناش الحاجب مع المقدمين إلى الخضراء فقال السلطان « سيروا في شجاعة فإننا سنبعث على أثركم جيشاً آخر مع القادة ، ونحن على أثرهم حاضرون فلم يكن ما حصل عليه الأعداء نتيجة لشجاعتهم وبأسهم ، إنما كان نتيجة للخط ، وسوف يالحق بنا خان تركستان مع جند عديدين ، وسننهض نحن كذلك حتى نتلافى ما حدث ، فلتكن ٦٤٥ عزائمكم قوية ، وحين تصلون إلى بخلان دبروا أمركم لدخول المدينة على حين غفلة ، وخذوا الحيلة ثم سيروا للاستيلاء عليها ، وستقوى عزائم أهل المدينة والجيش المرابط بها إذا رأوكم وحينئذ تكونون جميعاً ؛ وإذا تعذر عليكم بلوغ بلخ فسيروا إلى ولوالج واضبطوا الأمن في طخارستان حتى تصلكم الأوامر الواجبة ، واستمعوا إلى أميرك البيهقى وأطيعوه » فقالوا « سمعاً وطاعة » ثم رحلوا .

وجلس الأمير للشراب . ودعاني الوزير وقال أبلغ عنى أباسهل وقل له أترى ماذا يجرى ؟ لقد جاء عدو كداود بجيش هائل وحاصر بلخ وها هو السلطان يستمع إلى قول ثلاثة أو أربعة من العجزة ويغتر بنصيحهم فيرسل

جيشا على جناح غراب البين وسوف نرى عاقبة هذا الشطط. فعدت وقلت
لقد أجاب بقوله « لقد جاوز هذا الأمر الحد ولا يمكن الإدلاء بأقوى مما
صرح به الأستاذ الرئيس ، وقد سمعت ما قلته تأييدا لهذا الرأي فلم يأبه به
ولسنا هنا في صحراء سرخس وقد أصبح تدير الوزارة بيد أبي الحسن عبد الجليل
فلنرى ماذا يكون . »

ويوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة صعد السلطان إلى القلعة واستضافه
قائدها . وكانوا قد أعدوا له مأدبة فاخرة وأجلسوا القوم كلهم على المائدة
وشربوا ، وغمر السلطان بعطفه السهيسالار والحاجب سباشى . وعادوا عند
صلاة الظهر ، وكانوا جميعا مسرورين . ونام السلطان فقد لبث هناك طويلا .
وفي اليوم التالى ، الأربعاء ، جلس للاستقبال فى القلعة ونظر فى المظالم ،
ثم كانت خلوة بعد ذلك استمرت إلى قبيل الظهر . قال السلطان : انصرفوا ،
فقد تم كل شئ يمين هذا اليوم . وخرج السهيسالار -- على داية -- فذهبوا
به إلى القصر الصغير ذى الدهليز الذى ينتهى إلى دار الإمارة ، وهناك ألقوه .
وحملوا الحاجب سباشى إلى سراى الخزانة الصغرى ، وحملوا بكتغدى إلى دار
كوتوال القلعة لينذهبوا من هناك إلى المائدة ، فإنهم كانوا قد دبروا هذا
بالأمس . وبعد أن تم هذا الأمر ذهب رجال القلعة ومعهم المقدمون والحجاب
فوراً ، حسب ما دبر بالليل ، واستولوا على قصور هؤلاء الثلاثة ، وكذلك ٦٤٦
قبضوا على كل من كان متصلا بهم ، بحيث لم يفلت منهم أحدهم وكان السلطان
قد دبر هذه المكيدة سراً وبالليل مع قائد القلعة وسورى وأبى الحسن عبد الجليل ،
ولم يطلع عليها أحدا غير هؤلاء . وكان الوزير وأبو سهل فى حضرة السلطان
وأنا والكتاب الآخرون فى مسجد الدهليز الذى كان يعقد فيه ديوان الرسائل
حين يقيم السلاطين فى القلعة ، فجاء فراش ودعانى ، فسرت إلى الحضرة
فوجدت سورى واقفا مع أبى الحسن عبد الجليل وأبى العلاء الطبيب . فقال لى
السلطان اذهب مع سورى إلى سباشى وعلى داية فإن هناك رسالة لهما فاصنع
إليها واستمع جوابيهما فقد جعلناك مشرفا لتقص علينا ما تسمع . وقال لأبى الحسن

يذهب مع أبي العلاء إلى بكتغدي وأبلغاه رسالتي وإن أبا العلاء مشرف .
نخرجنا وذهبنا هما إلى بكتغدي . وذهبنا نحن إلى هذين الرجلين فبدأنا بسباشي
وكان حارسه حسن عنده ، فلما رأى سوري اصفر وجهه الأحمر ولم يتكلم
معه بشيء ؛ أما أنا فقد رحب بي ؛ ثم جلست فالتفت إلى قائلا ما خطبكما ؟
قلت رسالة من السلطان يبلغها إليك وأنا مشرف أنقل الجواب . فحمد في
مكانه وفكر مليا ثم قال ما الرسالة ؟ وأبعد سوري حارسه فخرج فقبضوا
عليه . ثم إن سوري أخرج طومارا من كمه بخط أبي الحسن مكتوبا به خيانات
سباشي واحدة واحدة منذ أن أوفد لحرب التراكمة في خراسان حتى يوم
واقعة دندانقان؛ وقد جاء في آخره : « إنك قد أسلمتنا للعدو وتذرعت
بالمعاذير عن هزيمتك . » فاستمع سباشي إلى كل ما في الطومار وقال « كل هذا
من إملاء هذا الرجل ، يعني سوري ، قل لمولانا السلطان إنني أجبت
عن هذه التهم حين بلغت غزنة من هراة فأحسن السلطان الإصغاء إلى
وثبت لديه بطلان ما دبروه من التهم ؛ وجرى على لسانه الكريم أني عفوت
فقد كان اتهمك كذبا ولا يليق أن يعود السلطان لهذا ، وأما ما نسب إلى
من تهمة أني دبرت ماجرى في دندانقان ، فإن السلطان يعلم أني لم أغدر وأنني
قلت ينبغي ألا نذهب إلى مرو ، ولم يبق لي من حطام الدنيا شيء . ينتفع
به ، ولو كان في حبسي ٦٤٧ صلاح الأمور والقضاء على هؤلاء الأعداء فإن
أرواح مائة مثلي فداء لأمر السلطان ، ولا أني بريء فإني آمل ألا أمس بسوء ،
وأن ينشأ ولدي الوحيد في سراي السلطان حتى لا يشرد » ، ثم بكى فتأثرت
إليه كثيرا . ولكن سوري جادله جدالا عنيفا . وطال حبسه في هذه الحجرة
مدة كما سيأتي ذكره في موضعه من هذا الكتاب ، وذهبنا من هناك وقال لي
سوري في الطريق هل قصرت في أداء الرسالة ؟ قلت « كلا » قال « حتى
تروى كل شيء » ، قلت شكرا ، وسرنا إلى السهسالار على داية فرأيته قد
أسند ظهره إلى صندوق وارتدى قميصا ملوحا من الخزف لها رأني قال ما الأمر ؟
قلت « إن السلطان بعثنا برسالة إليك وهي بخط أبي الحسن عبد الجليل وأنا

مشرف أستمع إلى وابلك . قال اتلوها . فقرأ عليه سوري حوامارا آخر ؛ فلما انتهى من القراءة قال لي السهسلاار « لقد علمت ، هذه بعض ترهات وأراجيف افتراها أبو الحسن وآخرون ، وصاغوها كما يشتهون ، وقد تركوا الحقيقة جانبا وهم بذلك يطمعون في اغتصاب ما بيدي ، والأمر لكم . قل للسلطان إنني قد كبرت وقد تمتعت بحباتي وإن ما أقضيه من العمر بعد السلطان محمود حتى اليوم فمثل وسترى من خيانة أبي الحسن غدا ما سوف ترى . » ولقد ضاعرت خراسان بسوء تصرف سوري فلا تنجح له بجالا كبلا تضعيع غزاة ؛ فرجعت وقد قال لي سوري في الطريق دعك من حديثه عني ، فقلت إنني لا أطبق الخيانة قال : « إذا فلا نقل هذا للوزير فإنه يغضني وبشمت بي ويجب أن تخلو بالسلطان حين تنقل إليه ما سمعت . قلت سأفعل . وقابلت السلطان وقصصت عابسه إجابة الرجلين إلا ما يمس سوري وكذلك جاء أبو الحسن وأبو العلاء وقصصوا إجابة بكنغدي كما مر ؛ وقد أسلم ابنه وابنته للسلطان وقال « إنه سئم الحياة بعد فقد عينه وبده ورجله » .

ورجعنا ، الوزير وأبو سهل ونحن جميعا ، وكذلك هرف بقية الناس بحيث لم يبق في القلعة ديار من الرجال . وفي الغداة لم يأذن السلطان بالاستقبال ، وبعد صلاة العصر ٦٤٨ عاد من القلعة إلى الجوسق الجديد . ويوم الجمعة أذن بالحضرة وطال المكث بها فقد عرضوا عليه أعمال القادة المعتقلين ونقودهم وأمتعتهم ودوابهم . ولم يظفروا بشيء لدى سباشي فإنه كان قد نهب مرتين ؛ ولكنهم وجدوا كثيرا من أموال على دايه وبكنغدي ؛ وقرب صلاة العصر قام السلطان وذهبت إلى آغاجي وقلت له : عندي حديث أريد أن أسره للسلطان . فدعاني وتقصصت عليه حديث سوري وقلت « لقد أغفلت ذكر هذا الحديث في ذلك اليوم لأن سوري قال كذا وكذا » فقال السلطان « لقد عرفت وهذا حق ؛ إذا سألك سوري فقل له شيئا آخر » ؛ فرجعت وسألني سوري فهوأت عليه الحقيقة وقلت له : « إن السلطان يقول إن العاجزين يثرثرون ويبالغون بقول المحال » .

وفي يوم الأربعاء ، لأربعة أيام بقيت من ذى القعدة خلع على الحاجبين ، وعلى أرتكسين الحاجب خلعا فاخرة ، لبدر كبير الحجاب ولأرتكسين قائد الغلمان ثم عادوا إلى بيوتهم حيث احتفى بهم ، وكانوا كل يوم يفدون على البلاط في وقار وأبهة .

وفي هذا الأسبوع عتب السلطان ، شفاها وكتابة ، على أبي السهل الزوزنى لما كان من تصرفه مع أبي الفضل الكرنيكي قائلا : « إنك سبب عصيانه فإن صاحب البريد هناك نائبك وقد تواطأ معه وتحالفا فلم يكشف أحواله ؛ وإذا تقدم رجل ليكشف عن الحقيقة فإنه يخاطر بحياته ، ثم إن ، أبا الفضل وقع في قبضتنا ولكنك وأبا القاسم الحصري دافعتما عنه وخلصتماه . حتى يكون اليوم على صلة بالتراكمة ، وحين اضطربت خراسان خرج علينا وهو يقصد اليوم بست فعليك الآن أن تذهب هناك حيث نوشتكسين نوبتي مع جيش كامل لكي يعيد الأمر معه إلى نصابه ؛ صلحا أو حربا » فاضطرب أبو سهل واستغاث بالوزير ووسط الشفعاء وكان السلطان يزداد غضبا كلما زادت شفاعتهم كما هي عادة السلاطين . وأسر الوزير لأبي سهل : ليس هذا السلطان كعهدينا به ولست أدري ٦٤٩ ماذا سيقع ؛ فامثل للأمر ولا تمتنع وسر حتى لا يقع ما يسيء إلينا جميعا . » فخاف أبو سهل وامثل . وأنى له أن يعرف ما يخبئه له الغيب ؛ عسى أن تكرر هوا شيئا وهو خير لكم . ولو أنه ذهب إلى بست وتطلب الأمير محمد على هذا السلطان لكان أبو سهل أول رجل يذهب به إلى قلعة ماريكله ليشطره نصفين لما يكن له من حقد دفين . وحين استسلم وسافر جعلني خليفته واستصدر توقيعا جديدا من السلطان في هذا الشأن ، لأنه خشى أن ينتهر خصومه في الديوان فرصة غيبته . ليفسدوا فيه . وكتبت مواضعة في معنى الديوان والكتاب . أما هو فقد حرر الخطابات وأصدر الأوامر . ثم قابل السلطان في الصباح فأحسن لقاءه . وسار من غزنة يوم الخميس الثالث من ذى الحجة ونزل في بستان على حدود المدينة . نذهبت إليه وحررنا رسالة معمة ثم خييته ورجعت .

وأقبل عيد الأضحى وقد أصدر السلطان أمرا بالآل يقام أى احتفال فيما يخص الغلبان والرجالة والحشم ومائدة السلطان . ثم إنه جاء إلى القلعة الخضراء بالميدان فأدى صلاة العيد ، ونحرت الأضحيات . وكان عيداً هادئاً وبغير أبهة ، ولم تنصب فيه المائدة . وأمر الناس بالانصراف فرجعوا متشائمين . ومضت الأمور على هذا النحو فإن أجل السلطان قد دنا والناس لا تدرى .

وفى يوم الأحد ليومين بقيا من ذى الحجة جاء أحد سعاة البريد من دربند شكورد ، فنزعت حلقة الكيس وفضت أختامه الكثيرة ، ثم فتحت الرسالة وكنا على وشك صلاة الظهر ، فاخلى السلطان فى سراى الحرم ليرى الرسالة التى جاء بها هذا الساعى . والتى كتب فيها صاحب بريد دربند يقول « لقد حدث فى هذه الساعة أمر جال ، وكنت أود ألا أخبر السلطان لظنى أنه من الأراجيف فترثت حتى صلاة العصر عسى أن يأتى الأعوان بالأنباء الصحيحة . وبعد العصر حمل إلى الأعوان كتاباً معمى من أميرك البيهقى فبعثته ليعلم السلطان ما فيه » . وقد أخرجت هذا الكتاب وكان فيه : « فور وصول الخبر بأن ألتونتاش قد غادر غزنة كنت أرسل إليه كل يوم قاصداً أو اثنين لأطلعه على مايجد من أمور الأعداء ، ولأبين له كيف يجب أن يكون ٦٥٠ مسيره وما يجب عليه من الحيلة ، وكان يتصرف وفق ما يقرأ من رسائل ، ويسير فى حيلة واستعداد ، وبعد أن تجاوز بغلان وأصبح قاب قوسين من العدو ترك الحيلة وأطلق يده للنهب والسلب ، حتى جاءت الرعية تستغيث ، فأسرعوا إلى داود وأطلعوه على ما جرى وكان قد سمع أن القائد يأتى من غزنة ، وأى قائد ، فأخذ للأمر عذته . فلما تأكد من صحة كلام الرعية تذرع بهذه الحجة فوراً ، وعين حاجباً مع ستة آلاف فارس وعدداً من المقدمين وبعث بهم لملاقاة ألتونتاش ، وأمر بنصب المكامن فى عدة أماكن ، وتقدم بنفسه فى ألفى فارس واشتبك مع ألتونتاش فى معركة حامية ، ثم تظاهر بالراجع ليحرصوا على تعقبه ويعبروا المكامن المعدة لهم وحينئذ يخرج الكمائن منها ، ويعود داود فيحاصر رجالنا ويحصدهم حمداً . فلما وصلتني هذه الأنباء بعثت فوراً إلى ألتونتاش ،

وكتبت إليه أن يأخذ الحيلة عند الاقتراب من العدو ، ولكنهم لم يفعلوا ، وأدى ذلك إلى حدوث اضطراب شديد . ثم انقض عليهم العدو في بهمة الليل وقامت معركة عنيفة أبلى فيها بلاء حسناً ثم ولى الأدبار ، فنعق بوقه ، طمعا فيما قد تصل إليه أيديهم ، ولم يتدخل رجال القائد أو المقدمون لمنعهم ، وخرج الأعداء من مكانهم فقتلوا كثيرا وأسرُوا كثيرا . وقفل ألتوننتاش يجر أذياله إلى المدينة راجعا مع مائتين من الفرسان فأخذنا نواسيه ورجال الذين جاءوا معه ، حتى هدأ واستقر ولا ندرى ماذا كان ميسير الجيش . فوضعت رسالة دربند مع الملاحظة المعماة وقد حلت رموزها في خطاب وسميتها إلى آغاجي ، فحملها إلى سراي الحرم وغاب طويلا ثم عاد ، وقال لي إن السلطان يدعوك . فذهبت فقال لي « إن هذا الأمر يزداد كل يوم تعقيدا ، وما كنا نتوقع ذلك ، لقد أصبحت القلعة شركا وقع فيه أميرك ، وقد مرق شمله قبل بلخ ، ولم يفعل جيش من جيوشنا ٦٥١ شيئا ، خذ هذه الرسالة إلى الوزير ليوقف على ما فيها ، وقل له لقد كان الصواب ما رأى الوزير ولكنهم لم يتركونا وشأننا ، فقد حملنا على عدم الأخذ برأيه على داية وسباشي وبكتغدي ، وها هي خياتهم ظاهرة حتى لا يقول الوزير إنهم أبرياء . فسرت إلى الوزير وقرأ الرسائل واستمع إلى رسالة السلطان ثم قال لي « ستتصل إلينا أمثال هذه الأخبار في كل لحظة ، والمؤكد أن السلطان لن يعدل عن استبداده برأيه والسير في الخطأ ، والآب وقد حلت بنا هذه الكوارث ينبغي أن نكتب إلى أميرك لكي يحافظوا جيدا على بلخ ، وأن يطيخوا خاطر ألتوننتاش حتى لا يتفرق الناس من حوله ، وأن يعدوا العدة ليستطيعوا بلوغ ترمذ عند كوتوال القلعة بكتكين الجوكانى فإنه يخشى أن تروح بلخ وفيها كثير من المسلمين ، ضحية لرعونة أميرك وقيادته » . فعدت وقصصت على السلطان رأيه فقال « نعم يجب الكتابة للأميرك » فكتبنا الرسالة وأرسلت نسخا منها مع الساعى إلى الكوتوال بكتكين ومع الرسل أيضا وبعد هذا التاريخ يئس السلطان تماما من أمر غزنة وكانت منيته قد اقتربت وقلبه قد امتلا رعبا وطارت نفسه شعاعا .

تاريخ سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة

(١٠٤٠ - ١٠٤١)

كان يوم الجمعة غرة المحرم ، وقد اختلى السلطان ، بعد الحضرة ، مع الوزير والكوتوال وأبي سهل الحمدوى والعارض أبي الفتح الرازى وبدر كبير الحجاب وأرتككين القائد الجديد وخرج الموكل بالستار (پرده دار) فدعا ابن السلطان الأمير مودود ، وطلبت جريدة ديوان العارض فجئ بها ، وجاء الفراش وقال لى أحضر الدواة والقرطاس (الكاغد) فذهبت . وأجلسنى فقد كانوا ، بعد أبى سهل يجلسون فى مجلس المظالم ، وكان السلطان ينظر إلى نظرة أخرى . ثم أمر العارض بالقراءة وبدأ يذكر أسماء المقدمين وخاطبنى السلطان والعارض لأكتب أسماء الفوجين كل منهما فى موضع خاص ، حتى تكون أكثرية الغلمان فى جانب هيبان . ولما فرغنا من ذلك أحضر كاتب السراى فجاء بجريدة الغلمان وكان يذكر الأسماء وكنت أقيدها وأجعل كل ممتاز منهم لهيبان وقد أختار أجدرهم وأجملهم وجهاً ٦٥٢ فلما فرغنا من هذا كله التفت السلطان إلى الوزير وقال : « لقد دارت على ألتونتاش الدوائر ، ولجأ بمن معه من الفرسان إلى بلخ ، أما الجيش الذى كان معه فإنه وإن كان قد منى بالهزيمة وذهبت أمتعته بددا ، فإنه سوف يرجع إلينا بلا ريب لنجهزهم بالعدد ، وسوف نعين ولدنا مودود ليذهب إلى هيبان ويقيم عنده مع هؤلاء الجند الذين دونت أسماءهم ، وسينذهب بدر الحاجب معه وكذلك أرتككين والغلمان ، وأما أنت يا أحمد فستكون أميناً له ومشرفاً على شئونه ، وذلك إلى أن تعود تلك الجيوش من بلخ إلينا ونستعرضها ويقوم النائب العارض بصرف نفقاتهم ، ونكون قد أعددنا جنوداً آخرين لنرسلهم على أثركم ، وحينئذ تكونون على مقدمتنا ، ونأتى نحن على أثركم مجهزين ، ونضع حداً لهذا الذى حدث بأقصى مالدينا من الجهد والجدة حتى يتم الله أمراً كان مقضياً ، فعودوا وأعدوا لأنفسكم العدة ، وسوف نصدر لكم من الأوامر ما ينبغى أثناء إقامتكم هناك » فقالوا سمعاً وطاعة ثم انصرفوا .

وذهب الوزير الى الديوان وحده حيث دعاني وقال ما هذه الخطة التي
أخذ يسير عليها الآن . قلت لا أستطيع أن أتكهن بمصير الأحوال ولا به
يتطوى عليه قلبه من تدبير ، ولكن أرى أن أحوال هذا السلطان ستأخذ لونا
آخر إلى أن تصل الرسالة الى أميرك عن حادثة التونتاش ، وسوف يتسرب
اليأس إلى نفسه . فقال إذا كان الأمر كذلك فلا نحل لأن أقول أذهب أولا
أذهب ، ولكن عليك إبلاغ رسالتى . فقلت سمعا وطاعة ، قال : أخبره أن
أحمد يقول إن السلطان قد أمره بأن يصحب الأمير نجلة إلى هيبان ومعهما
الأعيان والمقدمون وأن الجيوش الأخرى ستأتى على أثرنا وهذا أمر مبهم ،
وأنا لا أعرف ماذا يجب عمله ، فإذا سمح السلطان فإنى أكتب منهاجا وأطلب
كل ما تستوجه هذه الرحلة ، فإنها أكثر دقة من سائر الأسفار ، لأن ابن
السلطان وهؤلاء الأعيان سيكونون على المقدمة ، ويبدو أن السلطان سيسير
امن بعدنا باليمن والإقبال والأمر له وعلينا الطاعة ، وإننا باذلون غاية الجهد حتى ٦٥٣
آخر رمق في حياتنا في كل ما يأمرنا بعمله ، ولكن ليس من المتوقع أن يخفى
السلطان عنى ما فى قلبه وأنا وزيره ، لأن هذا يسىء إلى كرامتى ، فإذا سمح
السلطان فليصارحنى بالعرض الذى يريد ، حتى أعد الأمور وفق ما أسمع منه
وأؤدى واجبى حسبما ينبغى حتى يعمل الأمير مودود ومقدمو الجند على تنفيذ
ما يأمر به السلطان ، ولا تكون فتنة ، ومن الخير أن يصدر إلينا أمر سلطانى
ليرسل إلى بلخ وطخارستان بأسرع ما يمكن ، ولا يجوز مطلقا أن يكون هذا
الأمر بكتاب يخفى على نصح بل يجب أن أعرف به قبل مسيرى ، ثم إن السلطان
قد عهد إلى الأمير مودود بمهمة كبرى هى خلافة السلطان ، وسوف يلى قيادة
الجيش اليوم ، فينبغى أن نزيد عدته من الغلمان ومن كل شىء عما يكون لغيره
من القادة ، وهو لا محالة محتاج إلى كتحدا يتولى شئونه الخاصة ، وأبلغ السلطان
أن هذا واجب على لا يبين له ما ينبغى لصالح الأمير مودود . »
وسرت وبلغت هذه الرسالة ففكر السلطان مليا ثم قال اذهب وادع
الوزير فذهبت ودعوته وأقبل الوزير فاستقبله آغاجى وأدخله ، وكان السلطان

في القصر العالي وقد دخل وطال مكثه ، ثم جاء آغا جي ودعاني مع الدواة والقرطاس فثلت بين يدي السلطان فقال لي « إذهب إلى بيت الوزير واخل إليه ليقول لك كل ماقلت وما أمرت به حتى يكتب المنهاج الذي عليك إحضاره بعد صلاة العصر لتكتب الرسائل ولا تتحدثن بشيء عما تعملان أو عما تسمع منه . قلت سمعا وطاعة وخرجت مع الوزير إلى داره فأكلنا واسترحنا ، وحين انفرد بنفسه دعاني فجلست ، قال : « إعلم أن السلطان شديد الخوف من هؤلاء الأعداء وقد حاولت عبثا أن أحمله على التجديد ، ولكن يبدو أن الله قد قضى أمره وأنا غير قادرين على شيء بعد ذلك ، وقد قر في نفسه أن داود لا محالة قاصد غزنة بعد أن هزم ألتون تاش وتسكمت كثيرا مبينا أنه ليس من المعقول أن يقصد داود أبدا آخر ولما يفرغ من أمر بلخ ، وخاصة غزنة ، ولكن كلامي ضاع سدى ، فقد قال إنني أعلم مالا تعلمون ، ولا بد من التأهب والإسراع نحو پراون وهيبان ٦٥٤ وفي تقديرى أنه سيذهب إلى الهند بمجرد بلوغى هيبان ، ولكنه أخفى ذلك على وهو يتظاهر بأنه سيبطل وقتا في غزنة ، ثم يأتى بنا ، ومن المحال استقصاء الأمور أكثر من هذا . وقد أمر بتسجيل التعليمات لكي تعرضها عليه ، ثم تكتب الجواب فيوقعه وتسلمه إلى ، وقد قرر أن يكون كمنخدا ولده الأمير دودود صهرنا أبو الفتح مسعود فهو أجدر الناس بهذا المنصب » .

فقلت للوزير هذا اختيار جد موفق ، وسيقوم إن شاء الله بعمله على خير وجه . قال إنى أخشى هذه الأحوال . ثم أخذ يكتب المنهاج بنفسه ، ومكث وقتا طويلا حتى فرغ من تدوينه ، وكان مولاي الوزير آية في مثل هذه الشؤون ، وقل من لهم مثل قدرته فيها ، فقد كان أكفأ وأكتب أهل زمانه . فذكر الأعمال التي عليه أن يؤديها للأمير ، وكيف يجب أن يرعى الأمير حرمة ، وذكر فصلا في معنى غلبان السراى وقائدهم ، وفصلا في معنى كبير الحجاب وغيره من المقدمين . وفصلا في السير بالجيش والنزول به وتسليم أخبار العدو وفصلا في نفقات الجند وإثبات وإسقاط نائب ديوان العرض . فسرت إلى

البلاط وأخبرت السلطان بواسطة الخادم بأنى أحضرت المنهاج فدعاني وأمر
بأن لا يؤذن لأحد فى الدخول عليه . وأخذ المنهاج وقرأه بإمعان ثم قال على أى
وجه ستكتب الرسائل فى هذه الموضوعات ؟ لا شك أنك أدرى بطريقة أبى
نصر مشكان فى الكتابة فيها . فقلت إنى أعرف وإذا رأى السلطان فإنى
أكتب المنهاج ومولاي يوقعه بخطه الكريم ، فقال اجلس واكتب هنا .
فأخذت المنهاج وكتبت الرسائل فى موضوع فصوله ، وقرأته على السلطان
فاستحسنه وأمر بتغيير بعض النقاط فأجريت التعديل حسبما قال ، فأقرأها ثم
كتبت تحت فصول هذا المنهاج ووقع السلطان وكتب فى ذيلها بخطه : « إن
على الوزير الفاضل أدام الله تأييده أن يعتمد هذه المسائل التى كتبت بأمر
منا والتى أيدناها ٦٥٥ بتوقيعنا وعليه أن يبذل كفايته ونصحه فى كل من هذه
الأبواب ليكون جديراً بثنائنا واعتمادنا عليه . إن شاء الله » . ثم أعطانى
المنهاج وأمرنى أن أضع الرموز المعماة لنكتب بها الرسائل الهامة
المتبادلة بين السلطان والوزير . ثم قال : « قل له أن يدعو الليلة إلى داره أباً
الفتح مسعود وأن يبلغه عطفنا ويؤمله خيراً منا ويحضره غداً إلينا ليرانا
ولنفوض إليه كتحداية ولدنا ثم يعود إلى بيته بالخلعة » . قلت « سمعاً وطاعة »
ثم ذهبت إلى الوزير وأعطيته منهاجه ، وأبلغته رسالة السلطان فسر سروراً
عظيماً . وقال لقد أتعبتك اليوم وأنت تعمل من أجلى فقلت إنى خادمك ولست
الأمريستقيم بمسعى . ثم هممت بالانصراف فقال لى اجلس لقد نسيت
حديث « المعمى » فقلت لم أنسه ، وقد أردت أن أعده غداً لأن السلطان كان
قد اعتراه الملل . فقال . دعنى أقدم لك درساً ، اجتهد ألا تؤجل عمل اليوم
إلى غد فإن كل يوم يأتى ومعه أعماله وقد قيل ان تأجيل عمل اليوم إلى غدهو
من الكسل . قلت إن لقاء مولاي ومجلسه متعة وفائدة فأخذ القلم وكتب معى
رموز المعمى وكانت دقيقة ، ثم تناول كتاباً من على المائدة وكتب على ظهره
المعمى وأعطانى منه نسخة بخطه ، وخاطب غلاماً بالتركية فأحضر كيسابه ذهب
زفضة وكسوة ووضعها أمامى ، فقبلت الأرض وقلت فليعفى مولاي من هذا
فقال لقد مارست الكتابة ومن المحال أن يعمل الكتاب حسبة . فقلت إن ما يأمرك به
(م ٤٦ — البهقى)

بالوزير مطاع . ورجعت . هذا وقد منح خادمي خمسة آلاف درهم وخمسة أثواب .
وفي اليوم التالي جاء الوزير إلى السلطان ومعه أبو الفتح مسعود وهو شاب
شباب جميل الوجه والمنظر، ولكن لم يحنكه الدهر ولم يذقه حلوه ومره . ولا غنى
للشباب من أن تعجم أعوادهم الأيام والحوادث .

حكاية جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ٦٥٦

قرأت في أخبار الخلفاء أن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى كان وحيد زمانه
في آداب السياسة والفضل والأدب والعقل والاعتداد بالنفس والكفاية ، إلى
حد أنه كان يلقب إبان وزارة أبيه بالوزير الثاني ، إذ كان يتولى أكثر أعماله .
وإذا أتى يوم كان جالساً للظالم يعد القضايا ويكتب التوجيهات عليها ، كما كان
الرئيس المعتاد فوق على قرابة ألف مظلة بأن يتخذ في شأن فلان كذا وكذا ،
وهكذا . وكانت آخر مظلة سطرت على طومار يحوى أكثر من مائة سطر
الخط مقرمط ، وجاء الخادم ليجمع الأوراق حتى لا يرهق نفسه أكثر من ذلك
الكتب جعفر على هذه القضية ينظر فيها ويفعل في بابها ما يفعل في أمثالها .
ولما خرج جعفر أخذت القضايا إلى مجلس القضاء والوزارة ومجلس الأحكام
والأوقاف والندور والخراج فدرسوها وتعجبوا من توجيهاته وهنأوا والده
يحيى به فقال لهم «إن أبا أحمد ، يعنى جعفر ، واحد زمانه في كل شيء من الأدب
إلا أنه محتاج إلى محنة تهذهبه » . وكان السيد أبو الفتح مسعود من هذا الطراز
من الشباب ، فقد جرى به من البيت والمدرسة إلى حضرة الملوك ، ولا جرم أنه
رأى من الزمان ما رأى وجرب ما جرب كما سأبين في مكانه من هذا الكتاب .
وهو اليوم في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (١٠٥٩) قابع في بيته بأمر مولاي السلطان
المعظم أبي المظفر إبراهيم أطال الله بقاءه ونصر أوليائه ، إلى أن يؤذن له بالعودة
إلى البلاط . وقد قيل لا بد للدولة من الإقبال والإدبار حتى تستقيم ، والدولة
التي تسير أمورها دائماً وفق المراد ولا تتعرض لمكروه يسقط سلطانها دفعة
أواحده . نعوذ بالله من الإدبار وتقلب الأحوال .

١٠١ . وقد أذن السلطان مسعود رضى الله عنه بالاستقبال ، وأقبل الوزير
والأعيان . فلما جلسوا جاءوا بالسيد أبى الفتح مسعود أمام السلطان فأدى
بفروض الطاعة وبقي واقفا ، فقال السلطان لقد اخترنا لك خدائية ولدنا الأمير
مودود نسكن حكيما وامثله لا وأمر الوزير . فقال مسعود سمعا وطاعة ، وقبل
الأمر مضى ورجع ، وقد احتفوا به حفاوة بالغة تم عاد إلى داره حيث مكث ساعة
ثم خرج إلى قصر الأمير مودود فأحضروا له كل ما جهزوه من أجله ، وقد
شمله الأمير مودود بعطفه ، ومن هناك سار إلى منزل صهره الوزير فغمره
٨٥٦ بعطف كبير تم عاد إلى داره .

وفي يوم الأحد العاشر من محرم خلع على الأمير مودود والوزير وبدن
كبير الحجاب وأرتكبن القائد وآخرين خلعا فاخرة لا يذكر أحد أنه رأى
بمثليها يوما ما ، ولا خلع على أحد بمثلها . وقد جاء هؤلاء إلى البلاط فأدوا
بفروض الطاعة والولاء وانصرفوا . وقد خصوا الأمير بفيلين ذكر وأنثى
وطبل ودبابة وكثير مما يلزم هذا كله ، وكذلك أعطى الآخرون . وتم إعداد
كل شيء .

وفي يوم الثلاثاء الثانى عشر من هذا الشهر ركب السلطان رضى الله عنه
لنزل فى باغ فيروزي وأعتلى خضراء ميدان زرين . هذا وقد تغيرت أحوال
ذلك الميدان والبناء اليوم وقد كانا حينذاك فى أتم بهجة ورواء . وأمر بإقامة
اجتماع حافل قدمت فيه الهريسة ، ودعى الأمير والوزير ، وجلسا ، وأخذوا
يلستعرضون الجيش فمرت أولا كوكبة الأمير مودود والمظلة والألوية الكبيرة
ومائتا جندي من غلمان السراى بالجواشن والمطارد وكثير من الجنائب
والنجائب والرجالة ، ومائة وسبعون غلاما بكامل العدة وخيلهم مزودة فى
كوكبة كاملة ، ومن ورائه أرتكبن الحاجب وغلمانه وكانوا أكثر من ثمانين ،
وفى أثرهم خمسون فوجا من غلمان السراى يتقدمهم عشرون من الشترهنكية فى
حلل بهيجة مع الجنائب والنجائب الكثيرة ، وخلفهم سرهنكية فى حلل زاهية
وهكذا حتى انتهى العرض ، وكان ذلك قرب صلاة الظهر ، فأمر السلطان بأن

يدعى للبائدة ولده مودود والوزير وكبير الحجاب والمقدمون ، ثم جلس وتناولوا
غداءهم وحيوه تحية الوداع ثم ساروا ، وكان آخر العهد بقاء هذا السلطان
رحمة الله عليه .

وقال السلطان لعبد الرازق بعد سفرهم ماذا تقول في كأس من شراب
البيليا . فقال : في يوم كهذا ، السلطان سعيد والأمير والوزير والأعيان قد
ساروا كما يريد ومع كل هذه الهريسة التي أكلناها كيف يمنع الشراب ؟ فقال
٦٥٨ السلطان يجب أن نذهب إلى الخلاء في بساطة وأن نشرب في باغ فيروزي .
فجئ بالشراب فورا من الميدان إلى البستان ووضعت الكؤوس وخمسون من
القناني الكبيرة في وسط السراشق ودارت الكؤوس . وقال السلطان فلنراع
العدل ولنشرب جميعا معاً حتى لا يظلم أحد . فشرب كل واحد نصف من ،
وأخذت الخمر بالبايهم ، وعلا غناء المطربين . وشرب أبو الحسن خمسة أقداح ،
وألقي درعه في السادس ، وفقد رشده في السابع ، وبدأ يتقايأ في الثامن ، فأخرجه
الفراشون . وتدل رأس أبي العلاء الطيب في الخامس ، فحملوه . وشرب خليل
داود عشرة كؤوس وشرب سيايروز تسعة ، وحملوا إلى حى الديالة . كما شرب
أبو نعيم اثني عشر كأساً ثم هرب ، وسقط داود الميمندى ثملاً . وسكر المطربون
والمضحكون جميعاً ثم هربوا . وبقى السلطان والأستاذ عبد الرازق ، وقد شرب
الأستاذ ثمانية عشر كأساً ثم استأذن في الانصراف وهو يقول للسلطان : « كفى
فإني لو شربت أكثر من هذا فقد أسيء الأدب وأفقد الرشده » . فضحك السلطان
وأذن له بالانصراف فقام وانصرف في أدب جم . واستأنف السلطان بعد
ذلك الشراب وقد شرب سبعة وعشرين كأساً ، كل كأس نصف من ، ثم قام
وطلب الماء والطشت وسجادة الصلاة وغسل فيه وتوضأ ثم صلى الظهر والعصر
وكأنه لم يشرب شيئاً . وقد رأيت أنا أبو الفضل هذا كله بعيني ، وبعد ذلك
ركب السلطان القيل وسار إلى الجوسق .

ويوم الخميس التاسع عشر من محرم سار السكوتوال أبو علي في جيش كبير

من غزنة إلى ناحية خلع ، فإن أهلها كانوا قد أفسدوا فيها في غيبة السلطان ، وذلك كي يصلح حالهم ، صلحا أو حربا . وكان السلطان بعد ذهاب الوزير يرجع في كل أمر إلى أبي سهل الحمدوى ؛ ولكن أبا سهل كان يكره هذا الإيثار كرها شديدا ويحاول أن يتعد وأن يراعى مقام الوزير وحرمة ، وكان يظهر لى بعد كل خلوة وتدير مع السلطان كراهته لما يعمل ، وقد شاركته تلك المهام . وبلغ يأس السلطان وضعف رأيه إلى درجة أنه قال ذات يوم في خلوة له مع أبي سهل : « كنت واقفا : يجب أن نعطي ولاية بلخ و طخارستان إلى پورتكين حتى ٦٥٩ يجيء بعسكر وحشم ما وراء النهر ويحارب التراكمة » . فقال أبو سهل ينبغي أخذ رأى الوزير في هذا . فقال السلطان : « لا تحل أمرا عليه فإنه رجل معروفة مآربه » ثم أمرنى أن أكتب فى هذا المجلس المنشور والكتب ووقعها وقال : « اعطها إلى فارس يبلغها » . فقلت سمعا وطاعة . وحينئذ قال أبو سهل : « لعل الصواب أن يذهب الفارس إلى الوزير فيبرم الأمر بنفسه وليرسله هو » . فقال حسنا . ثم كتب للوزير « بأن السلطان يريد السير على هذا النهج الآخرق والوزير أأدرى بما يؤمر به » . وقال لى « إني أريد أن أثبت للوزير أنى برى بما يدبر فى هذه الخلوات من آراء سقيمة » . فكتبت المعنى للوزير وبينت فيه الأحوال . وحملاها فارس إلى الوزير ، فاستبقى الوزير الفارس والمنشور والكتاب ، فقد عرف أن هذا خطل . ثم كتب إلى مع أحد السعاة .

ويوم الاثنين غرة صفر جاء الأمير إزديار من نغر^(١) إلى غزنة فقابل السلطان ثم غاد . وفى المساء جىء بالأمير محمد ، أخى السلطان ، من قلعة نغر فى صحبة هذا النجل الأمير ، وحمل إلى قلعة غزنة ووكل به سنكوى أمير الحرس . ونزل أبناؤه الأربعة الذين كانوا برفقته ، أحمد وعبد الرحمن وعمر وعثمان ، ليلا فى القلعة الخضراء بباغ فيروزى . وفى اليوم التالى نشط السلطان للشراب من الصباح الباكر . وفى رابعة النهار دعانى وقال لى « إذهب سرا إلى أبناء أخى

(١) مدينة بيلاد السند بنها وبين غزنة ستة أيام . عنى وفياض ص ٦٥٩ ملحوظة ٥ .

محمد واستحلفهم بأغلظ الأيمان بأن يخلصوا في خدمتي وألا يعصوني ، وكن شديد الحيلة ، فإذا فرغت من هذا فطيب خواطيرهم من ناحيتي ومن ليلسوا الخلع ، ثم ارجع إلى حتى ينزلهم ابن سنكوى في السراى التى أعدت لهم فى الشارستان . فذهبت إلى باغ فيروزي ، وطلعت الخضرء التى نزلوا بها ، وكان كل منهم مرتديا قميصا خلقا ، وكانوا جميعا حيارى ذاهلين . فبلغت الرسالة ٣٦٠ . نفروا على الأرض سجدا من شدة الفرح . وحررت صورة القسم وكان « يمين البيعة » فأقسموا واحدا واحدا ووقع كل منهم على البيعة . ثم جرى بالخلع ، من أقبية السقلاطون الثمينة وعمائم القصب والأحذية الحمراء ، فدخلوا البيت وارتدوها . ثم خرجوا وركبوا خيولا كريمة مزدانة ألجمتها بالذهب وساروا . وحضرت لدى السلطان وقصصت ما كان فقال أكتب إلى أخى فقل له بأنا أمرنا بكذا وكذا بخصوص أبناء أخينا وأنا قد أقمناهم لخدمتنا وسيكونون فى وعائتنا حتى ينشئوا على طباعتنا وسنزوجهم من بناتنا ، ليعلم ذلك . وأمر بأن يخاطب أخوه « بالأمير الجليل الأخ » . فكتبت الرسالة ووقعها وأعطاها لابن سنكوى وقال « أرسلها إلى أهلك » وقد فعل هذا حتى لا يعلم أحد أن أخاه محمدا فى قلعة غزنة .

وفى الغداة مثل فى حضرة السلطان أبناء أخيه هؤلاء وعلى رؤوسهم العمائم ، فقدموا فروض الطاعة والولاء ، وأرسلهم السلطان إلى خزانة الألبسة (جامه خانه) ليلبسوهم الخلع وكانت أقبية مذهبة وعمائم من ذات الأربعة أركان مذهبة وأركبوهم خيولا كريمة ، وأمر لكل منهم بصلة ألف دينار وعشرين ثوبا ، ثم عادوا إلى تلك السراى . وعين لهم وكيلا وراثيا ، وكانوا يذهبون للخدمة مرتين فى اليوم ، صباحا ومساء ؛ وخطبت الحرة كؤهر لأحمد فعلا حتى يحين وقت الخطبة للآخرين وتم عقد النكاح .

وبعد ذلك أرسل المعتمدين سرا ليحملوا كل ما فى خزانة غزنة من الذهب والدرهم والألبسة والجواهر وغيرها ، وأخذوا يستعدون . وأرسل إلى الحراس

العمات والأخوات والوالدة والبنات أن تأهبن للرحيل معى لهندوستان فلم يبق ما يقلق البال في غزنة . وسواء أردن أو لم يردن فقد أخذن في الاستعداد جميعا . وقد طلبوا من الحرة الختلية عمه السلطان ، ومن والدته أيضا أن يدليا برأيهما في هذا الشأن فأجابتا . ثم قيل لهما فليبق كل من يريد أن يقع في يد العدو في غزنة . ولم يكن أحد ليجرؤ على الاعتراض بعد هذا . وبدأ السلطان يوزع الجمال ، وقد اختلى معظم اليوم لترتيب هذا مع أبي منصور المستوفي ، وكانت الحاجة ماسة الى جمال كثيرة ولم يكن لديهم الا القليل منها . وكان الأولياء والحشم يسألونني لكثرة ما رأوا من الخزائن ما هذا ؟ ولم يكن لأحد جرأة أن يدلى على الكلام وذات يوم قال أبو سهل الحمدوى وأبو القاسم كثير « يجب أن يدلى الوزير برأيه في مثل هذه الرحلة حتى يعمل السلطان برأى وكيله » . وقلت « إنه يعرف ذلك ولكنه لا يستطيع إبداء رأيه قبل أن يفتحه السلطان » . فاتفق في الغداة أن أمر بكتابة رسالة للوزير : « بأنا قد عزمنا على التوجه الى هندوستان وأن نمضى هذا الشتاء في ويهند ومرمناره وپرشور وكينرى وتلك النواحي فيجب أن تظلوا أتم هناك حتى نرحل ونبلغ پرشور ويصل كتابنا إليكم ، وحينئذ سيروا الى طخارستان وابقوا بها في الشتاء ، وإذا تيسر لكم الذهاب الى بلخ فتوجهوا إليها حتى لا تتحقق جميع أهداف الأعداء .

وقد كتبت هذه الرسالة وأرسلت . وبينت بجلاء في المعنى « أن هذا السلطان قد ذهل من أمر لم يقع ولن يثنى العنان حتى يبلغ لاهور ، وقد بعث بالكتب سرا ليعدوا له العدة ، ويبدو أنه لن يلبث في لاهور . هذا ولم يبق أحد من الحرم في غزنة ، وليس بها شيء من الخزائن ، وقد أسقط في أيدي هؤلاء الأولياء والحشم المقيمين هنا ، وهم جميعا في حيرة من أمرهم ، وكلهم معلق أملهم على الوزير فالغوث الغوث ليتدارك سريعا هذا التصرف الأخرق وليكتب له بصراحة فإنه على بضعة منازل منا ، ويستطيع أن يوضح الرأي لعله يرجع عن تفكيره السقيم » . وقلت لكبار رجال القصر إنى كتبت للوزير كذا وكذا ، وبعثت اليه برسالة معممة فيها كذا وكذا ، فقالوا حسنا فعلت وسيبعث

هذا الشيخ المجرب برسالة مقنعة إن شاء الله فيوقظ هذا السلطان من غفلته . وجاء جواب هذه الرسالة وكانت حاوية على نصائح سديدة حقا في غير متكلف ، كما يكتب الند لنده ولم يترك الوزير شيئا إلا ذكره وتكلم بصراحة تامة قائلا : « إذا كان السلطان يريد الرحيل من غزنة لأن الأعداء سيحاربون عند حدود بلخ ، فإنهم لن يجرؤوا على دخول المدينة ، لأن أهلها أقوياء ويستطيعون الخروج من مدينتهم ومقاتلة العدو . فلو يأمر السلطان فإن الجيش مستعد لأن يذهب للحر الأعداء وطردهم بعيدا عن بلخ ، فما الحاجة إذا لأن يترك بلاده ويذهب إلى هندوستان ؟ الأولى أن يمكث مولانا هذا الشتاء في غزنة فلا يوجد ثمة عجز بحمد الله . وليعلم مولاي علم اليقين أنه لو يذهب إلى هندوستان ، ومعه ٦٦٢ الحرم والخزائن وتنتشر هذه الأنباء وتبلغ أسماع الصديق والعدو ، فإن هيبة هذه الدولة العظيمة تزول ويزداد طمع الناس فيها . ثم إنه لا يجوز الاعتماد على الهنود وليس من الحكمة نقل الحرم وكل هذه الخزائن والأموال إلى بلادهم ، لأننا لم نكن يوما محسنين إليهم . وفضلا عن ذلك فما هذه الثقة في الغلبان بأن يكشف لهم ما للسلطان من الخزائن في الصحراء ؟ هذا وإن السلطان لا يزال يعمل مستبدا برأيه ، وقد رأى عاقبة ذلك ، ويأسف الجميع لهذه السياسة . ولو أصر السلطان على مغادرة البلاد فإن الرعية تنكسر قلوبها . ألا أنى قد بلغت وأدبت ما على من حق النعمة لمولاي وأبرأت ذمتي ، والرأي رأي السلطان » .

فلما قرأ السلطان هذا الكتاب قال لي فورا ، إن هذا الرجل قد خرف ولا يدري ما يقول ، أكتب إليه : « إن الصواب مارأينا ، وإن ما عرضه علينا إنما كان لو فاته لنا ، فلينتظر أوامرنا لنأمر بما ينبغي ، فإننا نرى مالا ترون » . فسكتبت الجواب وعرف به الجميع فاعتراهم اليأس والقنوط وأخذوا يعدون الغدة للرحيل . وعاد أبو علي الكوتوال من خلع ومهد لهذا السفر ، وقد قابل السلطان يوم الإثنين غرة ربيع الأول فأسبغ عليه عطفه ثم انصرف . وفي اليوم التالي اختلى السلطان به وحده وامتد مجلسهما حتى صلاة الظهر . وسمعت أنه سلم إليه المدينة والقلعة وتلك النواحي وقال له : « إنا عائدون في الربيع » .

فعليك بالحيلة التامة حتى لا تكون فتنة في المدينة ، فإن ولدنا مودود والوزير قد خرجا منها مع جيش عظيم ، وسنرى ماذا يكون من أمر العدو هذا الشتاء وسوف يكون لنا معه شأن آخر في الربيع ، فقد كان هذا الشتاء سيء الطالع كما قال المنجمون فقال الكوتوال : « لعل الأصبوب إبقاء الحرم والخزان ٦٦٣ في قلاع محكمة فهذا خير من حملها في صحراء الهند » . فأجاب بأن الأصباح أن تكون كلها معنا . فقال الكوتوال ليجعل الله عز و علا سفر السلطان مقترنا باليمن والخير والسعادة . ورجع . وحين صلاة العصر ذهب أعيان الجند إلى الكوتوال وجلسوا معه وطال مجلسهم ولكن بلا جدوى . ولله في خلقه شؤون خفية . وقالوا سنرى غدا بآخر سهم في جعبتنا لنرى ما سيكون . فقال اعملوا ماترون مع أنى واثق بعدم جدوى هذه المحاولة ، بل وأرى أنه سيزداد ضجرا وفي الغداة بعد الاستقبال اختلى السلطان بأبي منصور المستوفى لأن الحاجة كانت تستدعى عددا من الإبل حتى يستطيع الرحيل ولم يكن عنده ما يسد الحاجة منها فزدد ضجر السلطان . وأقبل هؤلاء الأعيان على القصر وقالوا العبد الجليل ابن الخواجة عبد الرازق عليك أن تبلغه رسالتنا ثم تكلم عن نفسك ، فقال لا طاقة لي بسماع ما أكره .

ورجع وجلس هؤلاء عند الباب الحديدى للقصر وبعثوا إلى يقولون إننا كلاما مع السلطان فأبلغه على الفور . فذهبت وكان السلطان مختليا بأبي منصور المستوفى في قصر المشتى ، فبلغته الرسالة فقال : « إني أعلم أنهم قد لعب برؤوسهم الخبال ، استمع مقالته ثم تعال وقل لى ما يريدون » . فرجعت إليهم وقلت : « الرائد لا يكذب أهله ، لقد قال قبل أن يستمع إلى رسالتكم إنهم جماعة لعب برؤوسهم الخبال » . فقالوا « فليكن ، أما نحن فزريد أن نبرى ذمتنا ، ثم وقفوا . وأبلغوني مشافهة طويلة على نسق ماجاء في كتاب الوزير وأكثر صراحة منها . فقلت لا أجرؤ على أداء التفاصيل على هذا النحو ، فالأصبوب أن أكتب مشافهتكم فإنه لا محالة سيقرا الكتابة كلها . قالوا نعم ما تقول . فأخذت القلم

وكتبت بدقة ما قالوا ، وكانوا يعاونوني ، ثم ذيلوا الرسالة بخطوطهم ، وأقروا
أنها رسالتهم ٦٦٤ .

وتقدمت بها فأخذها السلطان وقرأها مرتين متتملاً ثم قال : « إذا جاء
الأعداء هنا فإن أبا القاسم كثير سيعطيهم ما عنده من الذهب ويصبح
عارضاً ، وكذلك لدى أبي سهل الحمدوى من الذهب ما يحصل به على منصب
الوزارة ، وهذا حال طاهر وأبي الحسن ، إن الأصلح لى هو ما أعمل ، فذهب
وأقفل باب هذا الحديث . » فعدت إليهم وذكرت ما سمعت فصاروا جميعاً
يأثسين حيارى . وقال الكوتوال ماذا قال عنى ؟ قلت إنه والله لم يذكر
وقاموا وهم يقولون « إنا أدينا ما علينا ولم يبق لنا حديث هنا ، وقفوا راجعين .
ثم غادر السلطان غزنة بعد هذه الرسالة بأربعة أيام . »

اتمنى هذا المجلد ودونت التاريخ إلى هنا . وتركت ذكر رحيل
هذا السلطان رضى الله عنه إلى هندوستان إلى أن أذكره فى المجلد العاشر
فأبدأ بكتابة بايين عن خوارزم والجبال حتى اليوم كما هو شرط التاريخ وبعد
الفراغ من ذلك أعود إلى ذكر الحوادث فأذكر رحيل هذا السلطان إلى
هندوستان حتى نهاية حياته إن شاء الله عز وجل .

وقد بلغت فى آخر المجلد التاسع من الحديث عن عصر السلطان مسعود
إلى عزمه على الرحيل إلى هندوستان ، وقد قضى أربعة أيام تمهيداً للرحيل ،
وبهذا ختمت المجلد . وقلت إنى سأبدأ هذا المجلد العاشر بذكر بايين عن خوارزم
والرى ، كما أنى سأذكر وجود أبى سهل الحمدوى والقوم هنالك
وعودتهم وضياع البلاد من يدنا ، وقصة خوارزم والتوناش وخروج تلك
الولاية من قبضتنا نهائياً ، حتى يستقيم السياق . وبعد الفراغ من هذا كله
سأعود إلى سيرة هذا السلطان وأذكر ما كان فى هذه الأيام الأربعة حتى آخر
يوم من حياته التى دنت .

والآن أبدأ هذين البابين فإن في كل منهما عجائب ونوادر كثيرة ، وسوف يتضح للعقلاء الذين يتأملون هذه القصص ، أنه مالم تصاحب عناية الله بالناس ، فإن أمورهم لا تستقيم مهما كان عددهم وآلاتهم وحشمتهم ، ومهما بذلوا من الجهد والجد ، فإلى أى شىء كان يفتقر السلطان مسعود مما ينبغى للملوك ، وقد كان لديه الحشم والخدم وأعيان الدولة وأرباب السيف والقلم والجيوش ٦٦٥ والفيلة الجرارة والدواب الكثيرة والخزائن العامرة ، ولكن حين قدر الله أن يقضى أيام ملكه فى الحسرة والآلم ، وأن تضيع منه خراسان والرى والجبال وخوارزم ، لم يكن فى طوقه غير الصبر والاستسلام . فليس القضاء مما يستطيع الرجل أن يصارعه . وهذا السلطان رحمه الله لم يقصر ولو أنه كان مستبدأ برأيه ، لقد جد ليلاً ونهاراً ، ولكنه لم يوفق ، فإن الله تعالى كان قدر فى الأزل أن يفرط فى خراسان كما ذكرت . وكذلك الحال فى خوارزم والرى والجبال كما سأبين والله أعلم بالصواب .

ذكر خوارزم

خوارزم ولاية تشبه المملكة ، وهى ثمانون فى ثمانين ، بها مساجد كثيرة ، وكانت دائماً حاضرة للملوك العظام المستقلين ، فقد جاء فى سير ملوك الفرس ، أن أحد أقارب بهرام كورأتى إلى هذا الإقليم ، وكان قائداً لملك الفرس فاستولى عليه وهم يؤيدون صدق هذه الرواية . ولما جاءت دولة العرب أدامها الله ، وأبطلت رسوم الفرس ، وعلا شأنها بسيد الأولين والآخرين محمد المصطفى عليه السلام ، كانت خوارزم مستقلة . فقد أثبت التاريخ أن خوارزم كان يحكمها دائماً ملك مستقل ، ولم تكن هذه الولاية جزءاً من خراسان ككتلان ، وصغانيان . وفى أيام المعاذيين والطاهريين حين تطرق بعض الضعف إلى الخلافة العباسية ظلت خوارزم على ما كانت عليه . والمأمونيون الذين انتهت دولتهم فى عهد السلطان محمود المبارك رضى الله عنه شهود عدول على ذلك .

وحيث أن أحوال هذه الولاية كانت على نحو ما ذكرت فقد رأيت لزماً

أن أقدم خطبة في افتتاح الحديث عنها وأن أتحدث بعض الحديث في أخبارها
وما يروى عنها مما يستسيغه العقلاء .

خطبة

إعلم أن الناس سموا بهذه التسمية لما لهم من القلوب والقلب يقوى ويضعف
٦٦٦ نتيجة لما يسمع وما يرى ، فلو لم يروى ويسمع جيداً لما استطاع أن يسعد
أو يشقى في هذه الدنيا . فيجب أن نعلم أن العين والأذنين هي للقلب
كالجواسيس والعيون يوصلون له ما يرون ويسمعون . والقلب يفيد بما تنقل
إليه العين والأذن ، ثم يعرض القلب ما يتصل به من العلم على العقل الذى هو
الحكم العدل ليميز الحق من الباطل فيتقبل السمين ويرفض الغث . وهذا هو
حرص الناس على سماع أو مشاهدة ما لم يعرفوا أو يسمعوا عنه من أحوال
وأخبار الزمان ، ما كان منها قد مضى أو ما هو آت . ومن العسير الاطلاع على
ما مضى من الأخبار التى يحصل عليها بالرحلة وتحمل المتاعب ، والتحرى عن
الأحوال والأخبار أو بمطالعة الكتب الصحيحة ، والتأكد من الأخبار
الموثوقة من بين سطورها . أما المستقبل فطريق معرفته مقفل لأنه أمر لم يأت
أوانه فهو غيب محض ولو عرف الناس ما سيصيبهم من خير أو شر لما أصابهم
ما يسيئهم . ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل . ومع ذلك فإن العقلاء شمروا عن
ساعد الجد فى التحقيق عما يمكن التنبؤ به من أمور الغد ، وهم لا يزالون يحومون
حوله ويتحدثون فى جد بأنهم لو تبصروا فيه لعرفوا شيئاً منه . وأخبار الماضى
قسماً ليس لهما ثالث . فإما أن تسمعها من رجل أو تقرأها فى كتاب .
ويشترط فى السماع أن يكون المتحدث ثقة صادقاً ويشهد على صحة قوله العقل
ويؤيده كلام الله تعالى ، فقد قيل لا تصدقن من الأخبار ما لا يستقيم فيه
الرأى . وكذلك يكون حكم الكتاب فتكون الأخبار التى به على صورة لا يردها
العقل ويؤمن بها السامع ويستمع إليها العقلاء ويتقبلونها .

أما العامة فأكثرهم يميل إلى قبول الباطل المستحيل ، كأخبار العفاريت

والجن وغول الصحراء والجبل والبحر ، كأن يأتي أحد الحمقى ويجتمع حوله . خاق فيقول لهم بأنى رأيت فى البحر الفلانى جزيرة ، فنزلت بها مع خمسمائة من المسافرين ، وأعددتنا الخبز ووضعنا القدور فلما حما وطيس النار وأثرت الحرارة فى الأرض تحولت من مكانها ، فنظرنا فإذا بها سمكة . ورأيت فى جبل كذا وكذا . ورأيت عجوزاً ساحرة أحالت رجلاً إلى صورة حمار ثم جاءت عجوز أخرى فدهنت أذنه بدهن فارتد رجلاً ، وأشبه ذلك من الخرافات التى تمهد النوم للحمقى . وأما الذين يطلبون الصدق من القول ليتأكدوا ٦٦٧ منه فهم العقلاء ولكنهم قليلون ، وهم يقبلون الحق ويرفضون الباطل .

قال أبو الفتح البستى ونعم ما قال :

إن العقول لها موازين بها تلقى رشاد الأمر وهى تجارب

ولمى إذ عزمت على تدوين هذا التاريخ التزمت فى تدوينه هذا الرسم ، فهو إما عن مشاهدتى أو عن استماعى لشقة . وأذكر أنى رأيت منذ أمد بعيد كتاباً بخط الأستاذ أبى ریحان وهو نسيج وحده فى الأدب والفضل والهندسة والفلسفة ولم يكتب جزافاً وقد أطلت فى هذا الكتاب أكثر منه ، ليتقرر إلى أى حد احتاط لصحة ما أقول ، ولو أن الجماعة الذين أتحدث عنهم قد ذهب أكثرهم ولم يبق إلا القليل منهم . وقد صدق أبو تمام حين قال :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها وكأنها وكأنهم أحلام

وليس لى بد من إتمام هذا الكتاب إحياء لأولئك العظماء ليكون ذكرى من بعدى ، يتصفحهم الناس فتثبت لديهم مدى عظمة هذه الأسرة أدامها الله .

هذا وقد رأيت من الأصوب الابتداء بذكر المأمونيين فى تاريخ ملوك خوارزم . كما أن عندى ملاحظات من أبى ریحان تشير إلى الأسباب التى أدت إلى زوال دولتهم ، وكيف استولت عليها الدولة المموردية ، ومتى سار السلطان الفقيده محمود إلى تلك البلاد ، وكيف دانت له ، وإقامته الحاجب التونتاش . كما عليها ، وعودته بعد ذلك ، وكيف سارت الأمور فيها إلى أن تمرد

سهر بن التوتناش وسلك طريق الخيانة ، وانقرضت أسرة التوتناش في خوارزم ، فإن في هذه الأخبار عجائب ونوادر كثيرة تفيد القراء والمستمعين وتوقظهم .

وأسأل الله التوفيق لإنجاز هذا التأليف إنه سبحانه وتعالى خير موزن ومعين .

حكاية خوارزم شاه أبو العباس ٦٦٨

يقول أبو ريحان في مسامرة خوارزم^(١) « كان خوارزمشاه أبو العباس المأمون نأب المأمون رحمة الله عليه آخر أمراء هذه الأسرة التي انقرضت بوفاته وانتهت دولة المأمونيين . وقد كان رجلاً فاضلاً شهماً نشيطاً بعيد النظر في التدبير يتحلى بالأخلاق الفاضلة إلا أنه لم يخل كذلك من مساوئ . وأقرر هذا حتى يعرف أني لأحابي فقد قيل : « إنما الحكم في أمثال هذه الأمور على الأغلب الأكثر ، فالأفضل من إذا عدت فضائله استخفت في خلال مناقبه . مساويه ، وإذا عدت محامده تلاشت فيما بينها مثالبه » . وأكبر فضائل الأمير أبي العباس عفة لسانه وإمساكه عن الشتم والفحش والخرافات ، فإني أنا أبو ريحان ، وقد خدمته سبع سنين ، لم أسمع لفظاً نائياً جرى على لسانه ، وكان أقصى ما يقول وهو في شدة الغيظ يا كلب . وكان بينه وبين السلطان محمود صداقة متينة وكان بينهما عهد . وقد تزوج أخت الأمير سبكتكين السيدة كالجي فأقامت في ستره ، واتصلت بينه وبين محمود المسكّنات والملاحظات والمهاداة . وكان أبو العباس يراعى جانب السلطان محمود في كل شيء ، ويبدى له من التواضع ما لا حد له ، إلى درجة أنه كان حين يجلس للشراب يدعو صفوة الأولياء والحشم والندماء وأبناء الأمراء الذين كانوا في البلاط من السامانيين وغيرهم ، وكان يأمرهم بدعوة الرسل الذين جاءوا من الأطراف ، وكانوا يدعونهم

(١) يشير إلى كتاب « المسامرة في أخبار خوارزم » لأبي ريحان البيروني (مقدمة الآثار الباقية) .

بما يليق بمكانتهم ويجلسونهم ، فكان إذا أمسك بالقدح الثالث يقف ويشربه
في نخب ذكرى السلطان محمود ثم يجلس . وكان الحاضرون جميعاً يقفون ثم
يشير إليهم واحداً واحداً فيقبلون الأرض ويقفون حتى يشربوا الكأس
جميعاً ثم يشير إليهم بالجلوس ويحيي الخادم وفي أثره يوثى بصلات المغنين ،
لكل واحد منهم حصان قيم وكسوة وكيس به عشرة آلاف درهم . وكذلك
كان يرعى جانب السلطان محمود إلى حد أن أمير المؤمنين القادر بالله رحمه ٦٦٩
الله عليه كان قد أرسل إليه خليفة مع الجهد واللواء ولقب عين الدولة وزين
المللة بواسطة حسين سالار الحجاب وخشي خوارزمشاه أن يغضب السلطان
محمود ويستقصي الأمر ويقول كيف ينال من الخليفة خليفة ويحصل منه على
هذا التكريم والإجلال بغير وساطتي وشفاعتي ، وعلى هذا فقد أرسلني ، بحاملة
منه لمحمود ، لاستقبال الرسول عند منتصف الطريق ، فتسلمت سرّاً هذه الخلع
وجئت بها إلى خوارزم وأعطيها إليه ، فأمر بكتمان خبرها ، فلم يعلن أمرها
طوال فترة اتصال الود بينهما . وبعد ذلك ، وحين آوان زوال هذه الدولة ،
ظهرت تلك الفعال . وكان من الأمر ما كان .

وكان خوارزمشاه حليماً إلى حد أنه كان ذات يوم يشرب وهو يستمع إلى
عزف العود ، وكان يرعى الآداب كثيراً فإنه كان رجلاً واسع الفضل أديباً
كبيراً ، وكنت في حضرته ومعى رجل اسمه صخرى ، كان رجلاً فاضلاً وأديباً
يحسن الرواية والترسل ، ولكنه كان قليل الحياء ، إذ رغم ما أوتيته من الفضل
لم يكن لديه أدب النفس ، وقد قيل إن أدب النفس خير من أدب الدرس .
كان صخرى هذا يمسك الكأس ويريد أن يحتسى منها حين سهلت خيول النوبة
التي كانت على باب السرائى ، وأطلق أحدها ريحاً قوياً فقال خوارزمشاه
بمازحاً : في شارب الشراب ، فألقى صخرى ، لرعونته وسوء أدبه ، بالكأس .
نخفت وظننت أنه سيأمر بضرب عنقه ، ولكنه لم يفعل بل ضحك وتغاضى
عما فرط من الرجل كما يفعل الحكيم الكريم .

وسمعت أنا ، أبو الفضل ، حين كنت بنيسابور من الخواجة أبي منصور
الشعالي مؤلف كتاب « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » وغيره كثير ، وكان

قد رحل إلى خوارزم وعمل نديما لخوارزمشاه فترة ، وألف باسمه كتباً كثيرة سمعته يقول كنا ذات يوم في مجلس الشراب نتحدث في الأدب فخرى الحديث عن ، نظر فقال خوارزمشاه « همتي كتاب أنظر فيه وحييب أنظر إليه وكريم أنظر له » وحكى أبو ريحان أن خوارزمشاه ركب ذات يوم وكان ثملاً فاقترب من حجرتي وأمر بمناداتي فتمهلتي فأسرع بحمصانه حتى باب حجرة ٦٧٠ نوبتي ، وأراد أن يترجل ، فقبلت الأرض وأقسمت أغلظ الإيمان حتى لا يدخل فقال : « العلم من أشرف الولايات يأتيه كل الوري ولا يأتي »

ثم قال : « لولا الرسوم الدنياوية لما استدعيتك فالعلم يعلو ولا يعلى » ولعله قد طالع أخبار المعتضد أمير المؤمنين إذ قرأت فيها أن المعتضد كان يوماً في البستان وكان يمسك بيده ثابت بن قرة ويسير معه ، وفجأة سحب يده فسأله ثابت لماذا سحبت يدك يا أمير المؤمنين فقال « كانت يدي فوق يدك والعلم يعلو ولا يعلى » والله أعلم بالصواب .

ذكر سبب انقطاع الملك عن ذلك البيت وانتقاله إلى الحاجب

ألتونتناش رحمة الله عليهم

كانت الصلة بين السلطان محمود وأبي العباس خوارزمشاه تبدو في الظاهر على خير ما يرام ، وكانت الصداقة والعهود مؤكدة ، ثم رغب السلطان محمود في أن يكون بينه وبين الخانين صداقة وعهد ، بعد حرب أوزكند ، وذهب القادة لهذا الأمر ، فأحب أن يذهب رسول من قبل خوارزمشاه مع رسله حتى يكون على بينة مما يجري ساعة عقد الميثاق مع الخانين . فلم يرق هذا الطلب لخوارزمشاه وأبي أن يشترك فيه ، فأجاب على لسان رسوله قائلاً : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ثم قال إني واحد من خاصة السلطان ولا صلة لي بالخانين فلا أبعث لهم الرسول بأية حال » فتلقى منه السلطان محمود هذا الجواب

على غير ما كان يتوقع من جهة ومن جهة أخرى داخل قلبه البغض لخورزمشاه ، فأساء به الظن ، وقال للوزير أحمد حسن يبدو أن هذا الرجل ليس مخلصاً لنا حتى أنه يخبئنا على هذا النحو . فقال الوزير سأعرض عليه أمراً ليتأكد إذا كان معنا أو علينا . فقال السلطان ماذا ستفعل . فأطلعه على نيته فاستحسنها السلطان . ثم أسر الوزير لرسول خوارزمشاه قائلاً « ماهذه التصورات الباطلة التي يسير عليها أميرك وما هذه الخيالات التي تتراءى له بشأن إيصاله إلى الخانيين » ، ٦٧١ وظل يحدثه على هذا النحو إلى أن قال له : « وأنه يجلب على نفسه التهمة على غير أساس في أمر سلطاننا بعيد عنه كل البعد ، فإذا أراد أن يخلص من هذا القيل والقال ويقضى على مطامع الطامعين في ولايته فلماذا لا يجعل الخطبة باسم السلطان حتى يستريح من هذا كله . والحق أني أتحدث إليك ناصحاً من تلقاء نفسي لأنني عنه التهمة وليس للسلطان علم بما أقول ولم يأمرني به » .

ذكر ما جرى في باب الخطبة وما ظهر من الفساد والبلايا لأجلها

قال أبو ربحان : فلما جاء إلينا هذا الرسول من كابل ، فقد كان السلطان محمود في ذلك العام بالهندوستان ، وروى هذا الحديث ، ناداني خوارزمشاه واختلي بي وقص على ما قاله الوزير أحمد حسن في هذا الأمر فقلت له . إنس هذا الحديث ، « أعرض عن العواء ولا تسمعهما فما كل خطاب محوج إلى جواب » واغتم قول الوزير إنه متبرع بهذا القول ، وإنه يسديه نصيحة منه ، وإن سلطاناه لا يدري عنه شيئاً ، واكتم هذا الحديث ولا تفص به لأحد ، لأن في الإفشاء به شراً عظيماً . فقال خوارزمشاه : « ما هذا الذي تقول ، إن هذا كلام لا يقال بغير أمر السلطان وليس محمود ممن يلعب معهم بمثل هذا ، وأخشى إذا لم أجعل الخطبة باسمه طوعاً أن يحماني عليها كرها ، والصواب أن نبعث سفيراً على عجل يحدث إلى الوزير في هذا الأمر ، على نحو يحملهم على أن يطلبوا منا الخطبة بأنفسهم فتكون منة منا ، ولا يجوز أن نقهر على هذا » فقلت الأمر للأمير . وكان هناك رجل اسمه يعقوب الجندی ، كان شريفاً طامعاً ملتوى

القصد ، وكان قد سفر أيام السامانيين وأرسل إلى بخارى ، فطلب سرّاً من خوارزمشاه أن يجعله سفيره ، فعينه لهذا وحاول أبو سهل وغيره عبثاً منع هذا التعيين فإن القضاء قضى ، وخفى على الأمير حال هذا الرجل الماكر وبعثه . فلما بلغ غزنة تظاهر بأن أمر الخطبة وغيره سيتم بواسطته وأخذ يبالغ ويمن وكان محمود والوزير لا يقيمان لكلامه هذا وزنا ، فلما يئس من ٦٧٢ نجاح مسعاه أقام في غزنة وكتب رقعة لخوارزمشاه بلمجة خوارزم وأسرف في الكلام والنيمة بين السلطان محمود وخوارزمشاه ، فأضرم نار الفتنة بينهما . ومن النوادر والعجائب أن تقع هذه الرقعة في يد السلطان محمود ، بعد ذلك بثلاث سنوات ، وكان قد استولى على خوارزم ، وأعيد النظر في الوثائق وفي ديوان الرسائل ، فأمر بترجمتها ، فلما تليت عليه استشاط غيظاً ، وأمر بتعليق الجندی على المشنقة وبقتله رجماً بالحجارة : « فأين الراجح إذا كان رأس المال خسران^(١) » ، فإن الحيلة واجبة على الكتاب في كل ما تسطر أقلامهم لأن القول يمكن العدول عنه وأما المسطور فلا رجعة فيه . وكتب الوزير لخوارزمشاه وأسدى له النصائح ، وأرهبه ، لأن القلم يؤثر إذا أزره السيف . وكان الوزير يتخذ من السلطان محمود ظهيرا . فلما وقف خوارزمشاه على جلية الأمر اشتد خوفه من سطوة محمود ، الذي كان قد أوقع الفزع في قلوب ملوك عصره ، وعز عليه النوم ، فدعا إليه أعيان جيشه مع مقدمى الرعية وبين لهم ما ينوى عمله في أمر الخطبة فإنه يخاف على نفسه وعلى أهل بلاده إذا لم يخطب لمحمود ؛ فتصايحوا جميعاً وقالوا لا نرضى بهذا على أية صورة ، وخرجوا من عنده فنشروا الأعلام وامتشقوا السيوف وسبوا خوارزمشاه سباً مقنعاً ، ولكنه استطاع أن يهدئهم بعد جهد كبير ، ذلك أنه قال لهم إنا نمتحنكم في هذه القضية لتعرف حقيقة نواياكم وما تنطوى عليه قلوبكم . واختلى بي خوارزمشاه وقال لقد رأيت ما جرى فمن يكون هؤلاء حتى يتناولوا على أميرهم ؟ قلت « لقد

بينت للأمير أن ليس من الصواب الدخول في هذا الأمر فلم يقبل ، والآن وقد حدث هذا ، فلا مفر من تلافيه حتى لا يراق ماء وجهنا ، وقد كان الأولى أن نفاجئهم بهذه الخطبة بغير استشارتهم ، فإذا سمعوها لا يجرؤ أحد على التحدث عنها ، والآن وقد بدا عجزك فسوف تفقد صداقة محمود ، ولا يمكن التغاضي عما حدث . قال الأمير : راجع هؤلاء القوم رجلا رجلا لترى ما يمكن عمله . فذهبت وأنت عريكة زعمائهم بحديث الذهب والفضة ، فعدلوا عن الغصيان وجاءوا إلى البلاط فرغوا وجوههم في تراب عتبة الباب وبكوا ٦٧٣ وقالوا إنا أخطأنا . فناداني خوارزمشاه واختلى بي وقال إن هذا الأمر لن يستقيم . قلت إنه لكذلك . قال فما الحل . قلت إن السلطان محمود قد أصبح عدوا لنا وأخاف أن ينتهي الأمر إلى السيف . قال حينئذ ماذا يكون من مثل جيشنا هذا ؟ قلت لست أدري فإن العدو شديد البأس قوى الشكيمة لديه الوافر من الآلات والعدد وعنده جنود من كل صنف ، ولو أن جيشه هزم مائة مرة لعاد من هزائمه أقوى منا ، ولو هزمنا مرة واحدة والعياذ بالله لتغير حالنا . فضجر الأمير ضجرا شديدا من قولي حتى أني لمست كراهيته لي « وتذكيري إياه معتاد البتة » . قلت : هناك شيء آخر أهم من كل ما سبق أذكره لو أذن الأمير . قال قل ، قلت إن خانات تركستان ساهطون على الأمير وهم أصدقاء للسلطان محمود ومن الصعب التغلب على خصم واحد ، فإذا اتحد الخصمان فإن أمر مقاومة يطول ، فلا بد من استمالة الخانيين فإنهم اليوم مشغولون بحرب على حدود أوزكند ، وعلينا بذل الجهد لإقرار الصلح بين الخان والإيلك بواسطة الأمير ، فإنهم سيقدرون هذا كثيرا ويقبلون الصلح ، ويفيد الأمير بذلك فائدة عظيمة ، وإذا تصالحوا فإنهم لن يثيروا خصومة أبدا . قال : « أرجىء هذا حتى أتفكر فيه » فقد أراد أن يظهر بأنه وحده صاحب هذه الفكرة . ثم إنه صمم على هذا الرأي وجد فيه ، وبعث الرسل مع الهدايا الغالية حتى يتم الصلح بين المتقاتلين على يديه ، فاصطلحوا ، وحفظوا له هذا الجليل ، فقد كان حديثه أطيب أثرا في تهدئة الحرب من حديث السلطان محمود .

وأوفدوا إليه الرسل وقالوا له إن هذا الصلح من بركات اهتمامه وشفقته .
وعقدوا معه العهد وتبادلوا وإياه الصلات . فلما بلغ هذا الخبر السلطان محمود
أعمل فيه أخيه وأساء الظن بكل من خوارزمشاه وخانات تركستان ، وسار
حتى بلغ بلخ ، وبعث برسلة معاتباً الخان والإيلك عما جرى . وأجاباه : « بأنا
كنا نعرف أن خوارزمشاه صديق السلطان وصهره ، ونعرف أن السلطان
كان راضياً عنه إلى حد أنه حين أرسل إلينا رسلة وأبرم العهد معنا ، طلب من
خوارزمشاه أن يعين رسولا من قبله ليشهد ما يكون بيننا وبين رسله ، فلم
يستجب لذلك ولم يوفد رسولا ، وإذا كان السلطان غاضباً عليه اليوم فالواجب
ألا يعتب علينا . والخير أن نتوسط حتى تعود الألفة بينكما إلى ما كانت عليه .
ولم يكن لدى السلطان محمود ما يجيب به على هذا الحديث فقد كان حديثاً ٦٧٤
مسكناً ، فظل صامتا وأساء الظن بالخانيين . ومن ناحية أخرى أوفد الخان
رسولا إلى خوارزمشاه سرا ليقص عليه ما جرى فأجاباه « بأن الصواب هو
أن ترسل عدة أفواج من الفرسان المسرعين إلى خراسان وعليهم ثلاثة من
المقدمين المتسكرين ، ونبعث معهم بجماعات غير معروفة حتى ينبشوا في خراسان
ويقع محمود ، رغم أنه رجل صديد خفيف الحركة ، في حيرة إذ أنه لا يعرف
أى فوج يقابل ، فكلما قصد جماعة واتجه إليها برزت له جماعة من جهة أخرى
فيظل حائراً . ولكن لا بد من أخذ الموائيق على الأفواج ممن أرسلهم ومن
توفدوهم كيلا يزعمجوا الرعية بعد تلك الغارات وكى يهدؤوا روع الناس
حتى يطمئنوا إلينا . وهذه هي الخطة الواجبة لأننا لا نستطيع ملاقات جيوشه
الجرارة » .

وتدبر الخان والإيلك الأمر فلم يجدوا من الصواب اتباع هذه السياسة وأجابا
بأن خوارزمشاه يرمى من هذا العرض إلى أن يبقى وبلاده في أمان وبيننا
وبين السلطان محمود عهد وميثاق ، ولا نستطيع أبدا أن ننكث بعهدهنا ، فإذا
أراد خوارزمشاه فإننا نتوسط للساح ونصلح ما فسد بينه وبين السلطان محمود .
فهمان خوارزمشاه حسنا .

كان السلطان محمود يقيم في هذا الشتاء في بلخ ، فاطلع على ما جرى إذ كانت
الأمم عيون يعدون على الناس أنفاسهم ويرفعونها إليه ، فكانت شديد القلق
والاضطراب . فلما استقر الرأي على وساطة الخان والإيلك اطمأن وهذا ،
وجاءت إليه رسلهما يحملون كتباً في هذا الأمر ، وأدوا رسائلهم . فأجابهم بما
ينبغي أن يجيب به من أنه لم يكن أكثر من القلق وقد زال هذا كله بوساطتهم
وحدثهم . وعاد الرسل . ثم إن السلطان محموداً أرسل رسولا إلى خوارزمشاه
« لينخبره بحقيقة ما تقضى به العهود والمواثيق التي كانت بيننا ومدى حقنا عليه
وأنه راعى جانبنا في أمر الخطبة لأنه عرف ما سيكون عليه مآل أمره إذا
تجنبها ، ولكن قومه ولا أقول حاشيته لم ينصاعوا وليس للرعية حق في أن
يقولوا للسلطان إفعل أو لا تفعل ، فذلك دليل على عجزه وعلى أنه ليس حراً
في شئون ملكه ، وإنا قد أقمنا مدة طويلة في بلخ وعبأنا مائة ألف فارس وراجل
٦٧٥٠ وخمسمائة فيل لعلاج هذا الأمر ولنؤدب هؤلاء القوم العصاة الذين
يعترضون على أمر ملكهم ليعودوا إلى الصراط المستقيم وكذلك لنرفع من
شأن الأمير الذي هو أخونا وصهرنا ونفهمه كيف تكون الإمارة فإن الأمير
الضعيف لا يجدي نفعا ، والآن يجب أن يكون أماننا عذر واضح حتى نعود
إلى غزنة ، فلا مفر من اختيار أحد أمور ثلاثة إما أن تقرأ الخطبة باسمنا طوعاً
أو كرها وإما أن ترسل إلينا النشار والهدايا العظيمة التي تلبق بنا على أننا سنعيدها
سراً إليكم إذ ليس لنا حاجة إلى مزيد من المال فإن أرض قلاعنا لتزيد من ثقل
ما تحمل من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وإما أن ترسل إلينا أعيان
يلادك وأمتها وفقهاءها حتى يقدموا المعاذير ويطلبوا الصفح وذلك حتى نستطيع
العودة بهذه الآف العديدة من الجند » . فارتعدت فرائص خوارزمشاه من
هذه الرسالة ولم ير بدا من إطاعة أمر السلطان بعد هذه الحجة القوية فتقدم إليه
بالمجاملة والمداراة ، وقرر أن تكون الخطبة باسم السلطان محمود في نسا و فراوة
فقد كانتا في حوزته حينذاك وفي سائر البلاد كذلك عدا خوارزم وكركانج ،
كما أرسل للسلطان ثمانين ألف دينار وثلاثة آلاف حصان مع مشايخ هذه البلاد

وقضاتها وأعيانها وذلك حتى تستقر الأمور وتبقى المجاملة بينه وبين السلطان قائمة وتحمد الفتنة بينهما والله أعلم .

تسلط الأشرار

كان لخوارزمشاه جيش قوى يتكون من ألف فارس على رأسهم كبير الحجاب البتكين البخارى وقد انطوت قلوبهم جميعاً على الغدر والمكر ، فلما سمعوا بهذا الحديث رأوا لأنفسهم فيه حجة بالغة ، فصاحوا بأن ليس لمحمود سلطان علينا ، وتحركوا بخيولهم الألف وقد صرح الشر فقتلوا وزير هذا الأمير وشيوخه الذين نصحوه ودفعوا عنه هذا الحرج العظيم ، وهرب بقية رجال الأمير وتواروا عن الأنظار لأنهم كانوا يعرفون نوايا هؤلاء الأوباش . ثم قصد الأوغاد دار الإمارة فحاصروها وفر خوارزمشاه من فوق القصر فأشعلوا النار فيه ، ثم لحقوا به وقتلوه . وكان ذلك يوم الأربعاء منتصف شوال سنة سبع وأربعمائة (١٠١٦-١٠١٧) ، وكان عمر هذا الأمير المنكود اثنين وثلاثين عاماً . ثم جاء الثوار في الحال بابن أخيه أبي الحرث محمد بن علي بن مأمون وأجلسوه على العرش ، وكان في السابعة عشرة من عمره ، واستولى البتكين على شؤون الملك وكان وزيره أحمد طغان . وقد نحى هذا الطفل جانباً ، فإنه لم يكن يعرف من أمور الدنيا شيئاً ، فكانوا يفعلون باسمه ما يريدون من القتل وسلب الأموال ونهب البيوت ، ويشيعون بكل قواهم الضغائن والخصومات بينه وبين الناس ، وخلا لهم الجو أربعة أشهر ، فدرست على أيديهم قاعدة ملك تلك البلاد وجرى على المسلمين من الجور ما لم يعانون مثله في بلاد الكفار . فلما وقف السلطان محمود على كل هذا قال للأستاذ الوزير أحمد حسن لم يبق ثمة عذر وقد غنمنا خوارزم فلا بد لنا من المطالبة بهذا الدم الذي أريق فنقتل من قتل صهرنا بدمه ونطلب ميراثه . فقال الوزير « الأمر كما يقول السلطان فإننا لو قصرنا في هذا الأمر فإن الله لا يرضى بتقصيرنا ويسألنا عنه يوم القيامة » ، ونحن والله الحمد نملك كل شيء ، والجيش تام الأهبة كامل العدة ، والجنود

بفضل الله الأكبر مستريحون إذ قضوا شتاء في غير مشقة ، وسنحصل على ما نريد في أسرع وقت ، ولكن الصواب أن نرسل أولا رسولا ليلقى الرعب في قلوب هؤلاء الناس لهذا الذي اجترأوا عليه ، ويبين لهم إنه إذا أردتم ألا نطالب بالثأر ، وأن نبقى هذه الأسيرة على العرش ، فعليكم أن ترسلوا الجانين إلى بلاطنا ، وأن تكون الخطبة باسمنا ، فإنهم سوف يغتنمون هذا العرض ويسلبون نفرا من المشاعبين ويقولون ها هم الذين قتلوه ، ويتظاهروا برسولنا بالرضا عن هذا ويأتى بالتراب والملح وذلك حتى يقع في روعهم أن الأمر استتب ، فحينئذ يقول لهم الرسول من تلقاء نفسه : الأصلح لكم أن تعيدوا السيدة أخت السلطان بكامل الإجلال لتكون شفيعة لكم عنده ، فسوف يقبلون هذا خوفا مما قدمت أيديهم ، أما نحن فنعد العدة لهم خفية ، فإذا جاءت الكتب بأن السيدة قد بلغت آموى سالمة نشعل الفتيل ونرفع النقاب ونصرح بما لا نستطيع أن نقوله اليوم لوجود السيدة هنالك ، فنقول إن هذه الفتنة قد أشعلها المقدمون من أمثال البتكتين وغيره فإذا أردتم ألا ننزوا بلادكم فعليكم بالإسراع في تسليمهم حتى لا تتعرض لكم . فقال السلطان نعم هذا ما يجب عمله وعين الرسول وسلوه هذه الأوامر ، وأطلعوه على الخيل وسار وأرسل الوزير سرآ ، رسولا إلى ختلان وقباديان وترمد ، فدبروا الأمور وأعدوا السفن وجمعوا العائف عند آموى . ووصل الرسول إلى خوارزم وأفصى بسفارته وأعمل لطائف الحيل حتى أوقع القوم في الشرك^(١) فأعد الجماعة العدة اللازمة برجل السيدة على أحسن وجه خفية غضب السلطان . فوصلت مع التوديع اللائق بها . ثم أمسكوا بستة رجال وقالوا هؤلاء هم الذين أراقوا دم الأمير وألقوا بهم في السجن وقالوا حين يعود رسولنا ويتم الاتفاق بيننا ، يرسل هؤلاء إلى بلاط السلطان ؛ وعينوا رسولا من قبائلهم حتى يذهب مع رسول السلطان ، وضمنوا أنهم إذا عدل السلطان عن قصد خوارزم وزال الغل عن قلبه وأبرم معهم العهد والميثاق ، فإنهم يقدمون له مائتي ألف دينار

(١) المثل الفارسي يقول قوم راخوال مرو كرد . ومعناه أدخل القوم في الشوال

وأربعة آلاف فرس . فلما اطلع السلطان على الكتاب سار إلى غزة ، وأقبل الرسل كذلك وشرحوا له الأمر فأصدر أوامره ثم طلب إرسال البتكين والمقدمين الآخرين حتى يتم القصاص . فتبين لهم حينئذ أنهم خدعوا . وأخذوا يستعدون لخوض المعركة وجمعوا من الرجال خمسين ألفا من خيرة الفرسان ، وتعاهدوا على أن يقاتلوا حتى الموت ، فإن جيش السلطان يأتي ليشأ من الجميع ، وقالوا فلنتضافر ولبسند كل منا أخاه فنبذل كل ما في طاقة البشر من جهد . وكان السلطان قد أمر بالكتابة إلى كل من الخان والإيالك عن مقتل خوارزمشاه ، وأن ترسل الكتب على يد فرسان مسرعين ، وأن يبين فيها سوء ما جرى واستنكاره ، وأن يذكر فيها صراحة بأنه سيطالب بالثأر لصهره وسيستولى على خوارزم ، حتى تنتهي مناعبه ومتاعبهما بذلك . ورغم أن الخان والإيالك لم يعجبهما هذا الأمر ، ورغم علمهما بأنه حين يستولى على خوارزم سيكون كالشوكة القوية في قلبيهما ، فإنهما كتبا إليه أن الصواب ما رأى السلطان ، وأن ما سيعمله واجب تقتضيه المروءة والسياسة والدين ، حتى لا يجرؤ أحد من الرعية بعد هذا على إراقة دم الملوك . ولما كانت الاستعدادات قد تمت كلها توجه السلطان إلى خوارزم ، رغم حرارة الجو ، وقد سار في حطة عن طريق آموى . وبدأت في المقدمة التي يرأسها محمد الأعرابي اضطرابات ٦٧٨ شديدة فسارع السلطان بإخمادها ، وفي اليوم التالي قابل السلطان العصاة قتلة الأمير فرأى جيشا عظيما يمكن السيطرة على الدنيا بمثله ، ويستطيع أن يهزم كثيرا من الأعداء ولكن سخط الله تعالى عليهم كان قد أذهلهم ، وكان دم الملك القليل قد هد عزائمهم ، فهاجموا قلب جيش السلطان بشدة ، وما لبثوا أن هزموا بحيث ارتطم بعضهم ببعض . وهذه القصة طويلة مشهورة فلن أطيل الحديث فيها ، وأعود إلى كتابة التاريخ حتى لا أبتعد عن الغاية من الكتابة . وفي هذا القدر الكفاية .

وللعنصرى قصيدة عصماء في هذا الباب ، فيجب التأمل فيها حتى تتضح الغاية التي قيلت فيها وهذا هو مطلعها :

« هكذا تخذ الآثار بسيف الملوك ، وهذا هو عمل العظام حينما يقدمون على أمر ، لا تقرأ التاريخ بل انظر إلى سيف السلطان ، فإن سيفه أصدق إنباء من الكتب . »

وليس أجل منها فصيحة . فقد جمع فيها كل ما يمكن من المهارة وروعة التعبير . وكان هذا مقتضى الحال ، حال الفتح وحال الممدوح . وبعد إلحاق الهزيمة بجيش الأعداء تعقبهم المبارزون المسرعون وعلى رأسهم السهسالار الأمير نصر رحمة الله عليه فلحقوا بالمنهزمين ، وأسروا منهم كثيرين ، وانتهى الأمر بالقبض على البتكين البخاري وخمار تاش الشرابي وشادتكين الخاني ، الذين كانوا رؤوس هذه الفتنة والمدبرين لها ، وعلى عدد من شركائهم في القتل وأحضروهم جميعاً حاسري الرؤوس أمام السلطان . وقد سر بهذا كثيراً وأمر باعتقالهم والتحفظ عليهم . جاء السلطان إلى خوارزم واستولى عليها وجمعوا الخزائن وقبضوا على الأمير الجديد مع جميع أفراد الأسرة المأمونية ومن إليهم . ولما فرغوا من هذا ، أمر بنصب ثلاث مشانق ، وألقي الرؤساء الثلاثة تحت أقدام الفيلة فقتلهم ، ثم وضعوهم على أنيابها ليطاف بهم في المدينة ونودي « هذا جزاء كل من يقتل أميره » . ثم علقوا الجثث بالمشانق وقد شدت إليها بالخيال ووصلوا بين رؤوس المشانق ببناء من الآجر والجص كأنها جسور ثلاثة وكتبوا أسماءهم عليها . وقدوا كثيراً من القتلة نصفيين ، ٦٧٩ وقطعوا من كثيرين منهم أيديهم وأرجلهم ، وحصلت بهذا هيبة عظيمة . ثم فوض السلطان أمر هذه البلاد إلى ألتوتاش وأبقى معه أرسالن جاذب مدة حتى تستقر أحوال تلك الناحية تماماً ، وعزم على العودة سريعاً بعد أن أحضروا له فرس خوارزمشاه . وهكذا عاد السلطان رضى الله عنه مظفراً منصوراً إلى غزنة . وكان قطار الأسرى ممتداً من بلخ حتى لاهور وملتان وقد حمل المأمونيون إلى القلاع ليعتقلوا بها . وبعد عودة السلطان جمع أبو إسحق حمو أبي العباس كثيراً من الرجال وجاء فجأة إلى خوارزم ليستولى عليها ، ودارت حرب طاحنة وهزم أبو إسحق وفر وشرد معظم رجاله ، وأمر أرسالن

جاذب ياجراء مقتلة عظيمة منهم ، مما ذكر الناس بأيام الحجاج ، وترتب على هذا ضبط تلك النواحي فخلدت إلى الهدوء ، ولم يبق ثمة حاجة للتنكيل . ورجع أرسلان جاذب . وبقى ألتونناش هناك ، وكان رجلاً كفئاً ذا رأى وتدبير كما جاء مرات في هذا التاريخ عن آثاره وأخباره . وها هنا مثل يدل على شهامته لم أشر إليه من قبل فرأيت لزوماً ذكره هنا . سمعت الأستاذ أحمد عبد الصمد يقول « بعد أن عاد السلطان محمود من خوارزم ، وكانت الأمور قد استقرت ، كان هناك ألف من فرسان السلطان مع مقدميهم مثل قلباق وغيره عدا الغلمان ، فقال لي ألتونناش ينبغي أن توضع قاعدة قوية تجعل الأوامر على نسق واحد ، فلا يجرؤ أحد على أن يتذرع بحجة إقامته في البلاد ويشور غاضباً ، فهذا الجيش يلزمه كل عام أموال طائلة لنفقاته وهدايا فاخرة من السلطان للأعوان ، وهؤلاء الناس يعتقدون أن هذه البلاد طعم لهم ، فاعتصموا بها غير محرم عليهم ، ولو سار الأمر على هذا النحو لاصبح متعذراً علينا أن نعمل فقلت إنه كذلك ولا يمكن غير هذا . فوضعنا ، ألتونناش وأنا ، قاعدة محكمة . وكانت الهيئة تزداد يوماً بعد يوم ، واستقام تدريجاً أمر كل من كان يدعى القوة والياس . وركبت ذات يوم لأذهب إلى الديوان فتقدم نحوي وكيل البلاطناش وقال ٦٨٠ إن الغلمان يركبون ويحملون النجائب وإن ألتونناش يلبس لامته ولا أدرى ما الخبر ؟ فتعجرت كثيراً وأمعنت في التفكير ولم أستطع الحدس بالسبب الذي دعاه إلى هذا . فسارعت بالسير إليه فلما قربت منه وجدته واقفاً يشد منطوقه . قلت ماذا ؟ قال إني سائر للقتال ، قلت ليس هناك ما يدل على مجيء عدو . فقال : ألا تعلم أن غلمان وسواس قبايق قد ساروا لينهبوا رحل السلطان وفي ذلك فساد عظيم ، وإذا ما خرج على أهل داري فليس لي من سبيل لمقاتلة أعدائي . فتلاطفت معه كثيراً حتى يجلس وجاء قبايق وقبل الأرض واعتذر كثيراً وقال إني تبت إليك ولن يحدث شيء مثل هذا بعد الآن . وهدأت الأحوال وانتهى . هذا الحديث ولم يحدث شيء كهذا طول حياته . والرجل كل الرجل من عرف من أين تؤكل الكتف . وبعد أن توفي في قلعة دبوسى أثر عودته من بخارى .

كما بينت ، أعادوا هرون من بلخ للمرة الثانية ثم استدعوا بعد ذلك أحمد .
عبد الصمد إلى نيسابور وقلدوه الوزارة ، وعاد ابنه عبد الجبار من سفارة .
جرجان وخلعوا عليه خلعة كتخدائية خوارزم ، فسار إليها فطغى هنالك .
وتجبر اعتزازاً بمقام أبيه الوزير ، وكف يد هرون ورجاله عن التصرف في أي
شيء (١) فضاقت هرون صدرها بذلك ونفذ صبره وأحاط به قرناء السوء والناموس .
وأخذوا في الدس ، وانتهى بهم الأمر إلى أن صوروا له أن أخاه ستي قد مات
في غزاة نتيجة لإلقائه من فوق السطح ، وأن خراسان تلوثت بالتراكمة قبل
أن تطأ أقدام السلاجقة أرضها ، كما أن منجما تنبأ لهرون بأنه سيكون حاكماً
لخراسان فأخذته العزة بذلك ، وبدأ يحتقر أوامر عبد الجبار ، وينتقد أعماله ،
وكانوا ينقدون أقواله في مجلس المظالم حتى بلغ الأمر بهرون إلى أن صرخ يوماً
في وجه عبد الجبار في مجلس المظالم وأهانته ، ولذا عاد إلى داره يتميز غيظاً .
وتوسط الناس لإصلاح ذات بينهما فكان بينهما صلح غادر . وكان عبد الجبار
يضيق بحاله ولم يستطع أبوه إغاثة ، لأن السلطان مسعود لم يكن يصغى لكلام
عن هرون ، ولم يكن على صفاء مع الوزير ، فقد كان هرون صلة بالسلطان
بحيث لم يكن لأحد جرأة على أن يكتب شيئاً في ذمه ، وقد خدع صاحب
البريد حتى يكتب للسلطان وفق هواه ، وهكذا ظل أمره خافياً حتى جهز
أكثر من ألفي غلام وأعد لنفسه المظلة والراية السوداء (٢) واتخذ لنفسه ٦٨١
جبروت الملوك . ولبت عبد الجبار عاطلاً . واثال قوم هرون من كل فج
واتصلت رساله بعلى تكمين وغيره من الأمراء وسلك طريق العصيان ، واتحد
معه التراكمه والسلاجقة ، حتى صار الرسم على أن يأتوا كل سنة من نوربخارى
إلى أندر غاز ويقيموا بها مدة . وانتهى الأمر إلى التفكير في القبض على
عبد الجبار ، وكان لهذا عيون على هرون فدبر أمر هروبه وتوارى عن
الأنظار واستحال العثور عليه . ففي منتصف ليل الأربعاء غرة رجب سنة

(١) المثل المارسي دست هرون وفومش حشك برجوب يسيب وهذا المثل غير .

مستعمل الآن .

(٢) كدليل على استقلاله بالأمر .

خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) خرج من بيته متنكراً مع خادم أمين بحيث لم يعرفه أحد ، ودلف إلى منزل إبي سعيد السهلي ، وكان قد تواطأ معه ، فأخفاه أبو سعيد في سرداب ، وكانوا قد أعدوه في الشهر الماضي سرّاً بحيث لم يعلم به أحد . وفي اليوم التالي قالوا لهرون إن عبد الجبار هرب بالأمس ، فاستشاط غضباً وأرسل الفرسان على جميع المنافذ فعادوا بخفي حنين . ونادى المنادى في المدينة أنه إذا عثر عليه في دار فإن صاحبها سيقتل . وأخذوا في البحث عنه فلم يجدوا له أثراً . واتهم أبو سعيد بسا قتل من أنه أخفى عبد الجبار تحت الأرض فاستولوا على بيته وضياعه وأمواله واستأصلوا شأقه كل من له صلة به . وعلم السلطان مسعود بهذا الأمر فضاق ذرعاً . والطريف أنه كان يعتب على وزيره ويقول له إن خوارزم قد ذهبت ضحية ابنك ، ولم نجد الوزير غير الإخلاء إلى الصمت ، وقد أحاطه بشقي ألوان الخرج فلم يجرؤ على الكلام . وبعد ذلك بفترة قصيرة اتضح للسلطان أن هرون سوف يشق عليه عصي الطاعة . وجاء كتاب من أحد الجواسيس بأن هرون أسند الوزارة لأبي نصر البرغشي يوم الخميس ليومين بقيا من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) ، وعلى أثره جاء كتاب آخر يوم الجمعة الثالث والعشرين من رمضان بأن الخطبة غيرت وأن هرون قد أمر بالآي ذكر فيها اسم السلطان وبأن يذكر اسمه هو . وأخذ عيوننا يعملون هناك . كما وصل بعض سعاة الوزير أحمد وبينوا له كل ما عمله هرون ، فوقع السلطان مسعود في حيرة شديدة ، لأنه لم يستطع ضبط الأمن في خوارزم في الوقت الذي ٦٨٢ اضطربت فيه أحوال خراسان . واختلى بالوزير وأبي نصر مشكان . ووجهت إلى الخاشية بخوارزم كتب رصينة عليها توقيع السلطان ، وفيها تحريض لهم على خلع هرون ، ولكنها لم تغن من الأمر شيئاً .

وجاء طغرل وداود والبناليون والسلاجقة مع جيش كبير وخر كاهات وإبل وخیل وخراف لا تحصى إلى حدود خوارزم ، لمساعدة هرون الذي منحهم مراتع وأما كن خاصة في رباط ماشه وشراف خان ، وأرسل لهم العلف والهدايا

والصلوات الكثيرة ، وقال لهم ينبغي أن تستريحوا فإنني قاصد خراسان ، وسوف أحارب ، فعليكم أن تحكموا إعداد المعدات هنا عند سيرى ، وأن تسيروا مع مقدمة جيشي . فأقاموا هنالك آمنين . فلما مات على تكين وقعت النفرة بينهم وبين أولاده ولم يستطيعوا الإقامة في نور بخارى وتلك النواحي ، وكان بين هؤلاء السلاجقة وشاه ملك نزاع قديم وضغائن قوية وثأر ، وكان لشاه ملك جواسيس ، فلما عرف أنهم أقاموا هناك سار في جيش قوى من ولايته ، جنده ، ودهم هؤلاء التراكمة على حين غفلة وقت السحر ، وكان ذلك في ذي الحجة سنة خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) بعد ثلاثة أيام من عيد الأضحى وأجرى فيهم مقتلة عظيمة قتل فيها سبعة آلاف أو ثمانية منهم ، واستولى على كثير من الخيل وسبي جمعا غفيرا من النساء والأطفال ، وفر من بقي منهم من معابر خوارزم فعبهروا جيحون على الجليد إذ كان الوقت شتاء ، وساروا إلى رباط نمك ، وكانت خيولهم عارية من السروج . ويقابل رباط نمك قرية كبيرة كثيرة العدد سمع رجالها خبر هؤلاء الفارين فحمل شبابهم السلاح وقالوا فلنذهب لنقتلهم حتى نخلص المسلمين منهم . وكان بين هؤلاء القوم شيخ في التسعين من عمره مقبول القول مهيب فقال لهم : أيها الشباب لا تقتلوا مغلوبا آوى إليكم فإنهم أنفسهم مقتولون إذ لم يبق معهم امرأة ولا ولد ولا رجل ولا دابة . فتوقف الشباب ولم يسيروا إلى قتل السلاجقة . وما أعجب الدنيا ودولها وتقلب أحوالها . فكيف يقدمون على قتلهم وقد قدر لهم أن يكونوا يوما بهذه المنزلة في سعة الملك والهيبة والدولة والعدد والسلطان . إن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ولما بلغ هرون هذا الخبر اغتم غما شديدا ولكنه تجلد ولم يظهر الكراهية ، وأرسل للسلاجقة رسولا يقول لهم لموا شعثكم وأتوا برجال آخرين فإني ٦٨٣ . ما زلت مقبلا على العهد الذي قطعته معكم . فبدأ بهذه الرسالة روعهم . وعادوا من رباط نمك إلى موضع أحوالهم فوجدوا أن أكثر ما كان لهم من أولادهم .

وعددهم ودوابهم قد ذهب ولم يبق إلا القليل ، فبدءوا في تجهيز أنفسهم ، وعاد بعضهم إلى هناك .

ثم بعث هرون من ناحية أخرى رسولا إلى شاه ملك وعاتبه بشتى ألوان العتاب قائلا : « إنك قدمت وأهلك قوما من موالى وهم جيشى ، ومهما يكن فإنهم ، إذا كانوا قد بدموك بالعدوان ، فقد أذقتهم جزاء ما عملوا ، والآن يجب أن تقابلنى حتى تتعاهد ، فتكون لى وأكون لك ، ولنجتهد فى أن نزيل ما بينك وبين السلاجقة من جفاء ، فإنى عازم على أمر جلل هو الاستيلاء على خراسان » . فأجابه شاه ملك : « لقد أحسنت كثيرا وسوف أكون على هذا الجانب من جيحون فتعال أنت كذلك وانزل على ذلك الجانب حتى تتناوب الرسل وتتفق على ما يجب وحين نبرم الميثاق أجبىء حتى منتصف النهر فى زورق وكذلك تجبىء حتى نتقابل وأعطيك فوجا قويا من رجالى يعاونك فى المعركة التى ستخوض غمارها ومن ثم أعود إلى جنس ، ولكن اشترط ألا تفاوضنى فى الصلح مع السلاجقة ، فإن بينى وبينهم ثارا وسييفا وسوف أمضى فى قتلهم حتى يفعل الله ما يريد » . هدا روع هرون لهذا الجواب واستعد للمقابلة ومعه جيش كثيف قرابة ثلاثين ألف فارس وراجل وكثير من الغلمان وكوكبة كبيرة حوله . وقد بقى ثلاثة أيام من ذى الحجة سنة خمس وعشرين وأربعمائة (١٠٣٤) ، ونزل على ضفة النهر قبالة شاه ملك فلما رأى هذا ما معه من الجيش الكثيف والعدد العديد أخذه الرعب وقال لثقاته : « إن مهمتنا قد انتهت وقهرنا أعداءنا ، والصواب أن نسالم مسالمة الذئب ^(١) وأن نعود إلى ديارنا آمنين فلا نتورط فى خطأ وإنه لفضل عظيم أن يفصل جيحون بين بلدينا » . فقالوا هذا ما يجب عمله . وأخذ الرسل يغدون ويروحون من الجانبين ، وأعد العهد ، وجاء الأميران وسط جيحون حيث تقابلا ثم رجعا مسرعين . وفجأة ، دون أن يعرف هرون ، انسحب شاه ملك وأخذ طريقه إلى ولايته جند ، حاثا

(١) المثل الفارسى كركك آشقى كرهى

السير اليهما . وبلغ الخبر هرون فقال : « إن هذا الرجل هو العدو الأكبر ٦٨٤
جاء إلى خوارزم وقتل السلاجقة وقابلنا وتعاهدنا ، وهو لا يستطيع المجيء من
جند إلى هنا إلا في الشتاء حين يغطي الثلج هذا الوادي ، ولاني متجه إلى خراسان
ولدي مهمة كبرى ، فحين أسير من هنا فإن قلبي لن يشتغل بما ورأى » . فقالوا إنه
كذلك ، وكذلك عاد هرون وجاء خوارزم وأخذ يستعد بجند . وأقبل عليه
الناس من كل فوج من بكات وجغراق وجنجاخ بجيش جرار ، وأعان السلاجقة
بالدواب والسلاح حتى تشتد عزائمهم ، وأمر بأن يقيموا منتظرين في درغان ،
(دره خان) وهي في حدود خوارزم ، حتى إذا قطع خمسة منازل أو ستة
من خوارزم سار منهم أربعة آلاف فارس حتى يكونوا مقدمة له إلى مرو ،
ويسير هو على أثرهم .

وكانت هذه الأخبار تصل السلطان مسعود رضى الله عنه بواسطة المنهين
والجواسيس ، فكان يختلئ مع الوزير وأبى نصر مشكان ويتدبرون الأمر .
قال الوزير أحمد عبد الصمد : « أطال الله عمر السلطان ، لم يدرب خاطر أحد أن
يحدث مثل هذا على يد ذلك المنكود وقد نشأ أبناء التونتاش جميعا على الخيانة
وهذا المخذول الماكر قد فاقهم جميعا ، ولكن التوفيق لم يصاحب قط عبدا
يتنسكب الطريق السوى ويخرج على مولاه ، ولسوف يرى السلطان ما يحل بهذا
الخائن ، وقد دبرت مكيدة وبعثت بكتاب معممى إلى أبى سعيد السهلى الذى
يختبئ ولدى فى داره ، ليزيل المال بقدر ما يستطيع لإغراء جماعة بقتل هذا
الخائن الغادر ، فجدوا فى الأمر وأجابوا بأنهم أغروا بالمال ثمانية من أقرب
الغلمان إلى هرون كالسلاحدار وحامل المظلة ، وحامل العلم^(١) ، واتفقت كلمتهم
على أنهم قد يستطيعون اغتياله فى الطريق يوم يسير من المدينة لأن اغتياله فى

(١) سلاحدار ، جنردار ، علمدار .

دأخلها غير مستطاع لما أعده له شكر الخادم من الحيلة التامة ، فلنضرع إلى الله أن يكلل هذا التدبير بالنجاح فإن هذا الكلب إذا قتل تتغير الأوضاع ويتفرق ذلك الجيش ولا يتجمع بعد ذلك أبداً . فقال السلطان : « هذا تدبير ثاقب ورأى صائب ويجب أن نمد يد العون والتشجيع لهذا الذئب العجوز ، أبي سعيد السهلي ، حتى يقضى على هرون في أشهر أربعة أو خمسة » ٦٨٥ . ولما فرغ هرون من إعداد جيشه واقتربت ساعة الرحيل ، حملوا سرادقه المشؤوم وغيره من الأدوات وأقاموه على مسيرة ثلاثة فراسخ من المدينة . ثم ركب على طالع النحس وغادر المدينة يوم الأحد الثاني من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وأربعمائة (١٠٣٥) وسار في عدة تامة للغاية ، لكي يستولى على خراسان . ولكن كان القضاء يسخر منه فإنه سيلقى حتفه بعد يومين . وكان غلمان السراى الآخرون قد بايعوا هؤلاء الغلمان الثانية . فلما وصل الرجل قرب السرادق صعد على ربوة ، بينما كان شكر الخادم يعمل على إنزال غلمان السراى ، وكان على بُعد منه كثير من الرجال الأقوياء ؛ فأعمل الغلمان في هرون السيوف والحراب والدبابيس وألقوه أرضاً ثم ولوا مدبرين ومعهم كوكبة من الغلمان ، ولما يلفظ أنفاسه الأخيرة . وظل شكر الخادم كالمذهول حتى حملوا هرون وصاحوا بأنه على قيد الحياة ، فوضعوه في المهد على الفيل . ورجعوا به إلى المدينة . وحدث هرج ومرج ، واشتغل كل بأمر نفسه كي ينجو بها إلى المدينة ، وغلب القوى الضعيف ونهت الأموال واختل النظام . وفسد الأمر جميعه . وحملوا هرون إلى المدينة وتعقب الفرسان القتلة . وظل هرون ثلاثة أيام يصارع الموت ، وفي يوم الخميس أسلم الروح رحمة الله عليه . وقد كان رجلاً صالحاً ولكنه أخطأ خطأ كبيراً حين جلس على عرش السلطان . وأنى للعصفور أن يتمنى عش الصفور . تلك هى سنة الخلق منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، فكل عبد يخرج على مولاه يفقد حياته العزيزة ، ولو هبت الريح لعونه مرة فسرعان ما تتخلى عنه تاركة إياه وتنساه ؛ ولا بد من تأمل التاريخ لمعرفة الأمثلة الكثيرة على هذا مما يقع فى كل آونة وفى كل دولة . وينبغى .

كذلك تذكر حال طغرل المغرور المخذول الذي قصد هذه الأسيرة الغزنوية وجلس على عرش السلاطين محمود ومسعود ومودود وكيف كان مصيره ، ومادا فعل السرهنك قاتل طغرل ، معه ومع أتباعه ؟ اللهم اجعل لنا خير العاقبة . ولما ذاع في المدينة خبر وفاة هرون صرحت الفتنة ، فركب شكر الخادم جاعلا أمامه أخا هرون إسماعيل الملقب بخندان (الضاحك) مع جملة ٦٨٦ غلمان الأمير المقتول وخرجوا من المدينة وكان ذلك يوم الجمعة عشرين^(١) من جمادى الآخرة واضطرب البلد وتسرع عبد الجبار فإن منيته كانت قد دنت ذلك أنه حين خرج خندان وشكر الخادم ظهر عبد الجبار من مخبئه وقصد إلى سراى الإمارة ، وكان السهل يقول له إن وقت الخروج والركوب لم يحن بعد فتريث حتى يبتعد خندان وشكر ثلاث مراحل وكذلك الألتونتاشيون^(٢) وحتى تصلك إمدادات السلطان فإن المدينة منقسمة ومضطربة . ولكن عبد الجبار لم يستمع للنصح وساق الفيل وتجمع حوله الغوغاء ، وهم كما قيل في المثل ، « إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا » وجاء إلى الميدان ووقف ودقوا الطبول ونفخوا الأبواق ، وخرج رجاله من مخابئهم ، وعلا الصياح وثار الفتنة ثورة عنيفة . وعاد شكر من حدود المدينة مسرعا ومعه خمسمائة غلام مجهزين والتقى بعبد الجبار . ولو أن هذا عامله بالحسنى لهدأ . ولكنه لم يفعل بل قال له قولا فاحشا . (٣) فقال شكر لغلمانه اضربوا . وطارت السهام من يمين وشمال نحو الفيل فاخترقت جسده عبد الجبار فصار كالغربال من كثرة الثقوب ، ولم يجرؤ أحد على إغاثته ، وسقط من على الفيل وأسلم الروح ، فشدوا بالرسن رجله ، وطاف به

(١) قال تهل دلا ، يوم الأحد الثاني من جمادى الآخرة ولوصح هذا فلا بد أن يكون هذا التاريخ الحادى والعشرين وأن يكون السبت (٢٧) الثامن والعشرون وحاصله أنه يقول للأحد التاسم بعد هذا . ماحوظة غنى - فماس ، ص ٦٨٦ .

(٢) في نسخة غنى — فماس « وهمجس التوتاسيان ساند » ، ص ٦٨٦ سطره ، وكلمة بيايد رائدة في نسخته كلسكتا ، أنبار نسخة هادى ص ٨٣٤ سطر ١٨ .

١

(٣) النص الفارسى يذكر الكلمة الى قدومه بها : اى فلان دلا تو .

(م ٤٨ — سهقى)

الأشرار والغوغاء وهم يتصايحون واشتد ازر إسماعيل خندان وآل التونتاش .
أما أنصار عبد الجبار فقد قتلوا ودحروا واختفوا . وأرسلوا إلى إسماعيل رسلا
منشرين بما حدث « فعذ عوداً حميداً وادخل المدينة » . فسر إسماعيل بهذا سروراً
عظيماً وأكثر من الصلوات ووفى بالنذور ونثر الصدقات ودخل المدينة في ضحى
يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، وقد استقبله شكر الخادم
والغلمان وأهل المدينة فدخلها وأقام في القصر ، وضبط أمور المدينة وعين
الوكلاء . وقضوا ذلك اليوم حتى منتصف الليل في هذا الأمر ، ثم إنهم اتفقوا
مع إسماعيل على ما يجب عمله ، وقطعوا معه العهود وقدموا له أموال البيعة . وفي
اليوم التالي الأحد التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين
وأربعمائة (١٠٣٥) جلس إسماعيل على العرش ، وأذن بالاستقبال في الحضرة ،
وجاء جميع الجند والأعيان واعترفوا بإمارته وقدموا التحية وقاموا بالشار ٦٨٧
ثم عادوا . وقد استقر له الأمر وهدأ باله . ولما بلغ الخبر السلطان مسعود توجه
لعزاه وزيره لما حل به وبأهله من عظيم المصاب . وقد أجاب الوزير قائلاً :
« أظال الله حياة السلطان سعيداً ، لمثل هذا الأمر أعد العبيد وأبناء البيوت ،
وهو أن يموتوا في سبيل سلاطينهم ، مافات مات فلندبر لما هو آت ، قال فماذا
ينبغي مع هذا الصعلوك الذي نصبوه ؟ قال الوزير « علينا أن نوفد رسولا
دون أن يعلم به جند آلتونتاش وأن يكون معه كتب عليها التوقيع السلطاني
لا لتكن الحاجب وغيره من المقدمين المحموديين لكي يسدوا النصيح إلى هذا
الطفل إذا أمكن ذلك ، وأنا بدورى سأكتب بما يلزم لأبى سعيد السهلى وأبى
القاسم الإسكافى لنرى ما يقدرون عليه » . فقال السلطان حسناً ، ثم عاد إلى
قصره وعين الرسول وكتبت الرسائل أثناء النهار وسار بها . ثم عاد بعد ذلك
وأطلعهم على أن أمور الملك قد آلت إلى شكر الخادم ، وأن هذا الطفل يلهو
بالشراب والصيد ولا يذكره أحد ، وقد كتب البتكين والآخرين الرسائل

«فقدّموا تخضوعهم وطلبوا المَعذرة، وقالوا إن الأمر لن يستقيم في هذه الناحية
بغير السيف والسياسة الصارمة، فإن الأصول فيها قد قلبت. رأساً على عقب،
وقضى هرون على كل قاعدة. فيئس السلطان من أمر خوارزم، فأمامه مهمات
جسام في خراسان والري وهندوستان، كما بينت من قبل في هذا الكتاب. ولما
سارت أحوال خوارزم وهرون على هذا النحو اشتد اليأس بالسلاجقة فإنهم
لا يقدرّون على السير إلى بخارى فإن على تكين كان قد مات، وولي أولاده الملك
من بعده، ثم إنهم مشردون بلا مأوى؛ وهم كذلك لا يستطيعون الإقامة في
خوارزم خوفاً من شاه ملك. فاستعدوا للرحيل من خوارزم إلى خراسان كي
يقيموا فيها آمنين. وأعدوا لذلك الرجال، ثم ساروا فجأة فعبروا جيحون،
وكان من عبر النهر منهم ذلك اليوم تسعمائة فارس، ثم انضم إليهم بعد ذلك
خلق كثيرون، ونهبوا مدينة آموى، ثم عبروا النهر ونزلوا على جانب مرو وנסا
في الوقت الذي كنا قد عدنا فيه من آمل وطبرستان وبلغنا فيه جرجان، وقد
مر ذكر ذلك في التاريخ بالتفصيل. وهذه هي فائدة «باب خوارزم» الذي
وضعته فإن فيه أصل هذه الحوادث وكيف كان سير السلاجقة من خوارزم
وحجبتهم إلى خراسان وكيف علا شأنهم. وأوفد شاه ملك رسولاً إلى إسماعيل
في خوارزم ومعه رسالة جاء فيها: «إن هرون قد شد من عزائم السلاجقة ٦٨٨
الذين هم أعدائي وقد هزمتهم وأفنت رجالهم وتركهم معدمين مشردين بلا
مأوى، ثم إني (هرون) قد كفر بالنعمة وأراد أن يقصد السلطان مسعود
وبلاده، على أن يكون السلاجقة في مقدمة جيشه، فلم يرض الله بهذا وأنزل
به ما أنزل. واليوم يذهب السلاجقة إلى خراسان. وإذا كان لنا مع هرون
عهد فإن هرون قد مات والسيف اليوم يحكم بيني وبينكم، وإني لقادم فأعدوا
عدتكم فسوف أستولى على خوارزم وأقضي عليكم أيها الجاحدون للنعمة.
وحين أفرغ من أمركم سأسير إلى خراسان فأشرد السلاجقة أعدائي جميعاً.

سأفعل هذا خدمة للسلطان وتلبية لإرادته وإني على ثقة من أن هذا السلطان لن ييخل على بهذه الولاية بعد أن أكون قد قدمت خدمة كهذه واستأصلت شأقة العدو من بلاده .

وكان الوزير أحمد عبد الصمد قد قوى الكبرياء والصفاء في رأس شاه ملك ليقضى على شكر الخادم وإسماعيل خندان . وهكذا ثار لولده ولمن قتل معه ، رغم أن شاه ملك نفسه راح ضحية لهذه الغاية كما سيحدث في حكم السلطان مودود رحمة الله عليه . وأدرك إسماعيل وشكر أن هذا السهم إنما أصابهم من جعبة أحمد عبد الصمد ، وأنه هو الذي مهد لهذا الجو ، فأعاد رسول شاه ملك مع إجابات صارمة ، ملؤها الوعد وقال « إنا مستعدون للقائك فنقدم إذا شئت ، هذا والذنب ذنب هرون الذي أقام لك وز فامع عظمة الجيش الذي كان له وأنت ضعيف ولم يأمر أتباعه السلاجقة بأن يدمروك تدميرا حتى لا تتراءى لك اليوم هذه الأحلام » .

وبعد فترة قبضوا على أبي نصر البرغشي ، وأسندوا الوزارة إلى أبي القاسم الإسكافي ، غرة محرم سنة ثمان وعشرين وأربع مائة (٢٥ أكتوبر ١٠٣٦) ، واحتجوا على عزل البرغشي بأن هواه كان مع السلطان مسعود ، وأن أحمد عبد الصمد كان يمدد ويمد شاه ملك بالرأى السديد وبالرسل والكتب السلطانية إلى أن صارت الأمور بحيث أنه حين علا شأن السلاجقة وهزموا بكتندي والحاجب سباشي ، اختلى السلطان بالوزير وقال له لقد تجاوز اعتداء السلاجقة كل حد ، ٦٨٩ وقد وجب منح شاه ملك ولاية خوارزم ، حتى يقضى على أطماع الطامعين . ويطرد هؤلاء الجاحدين ويمسك بالزملم في خوارزم ، فإننا بهذا يزول قلقنا من ناحية الخوارزمية والسلاجقة جميعا . فقال الوزير هذا رأى سديد حقا . وكتب المنشور باسم شاه ملك وأرسلت معه خلعة غالية . وعين لهذا حسن التبانى وهو من أمهر المعتمدين في البلاط وقد سفر مرات من قبل ، وهو عجزوز .

ماكر حسن الرأي ، فذهب مع عدد من الفرسان بالخلعة والمنشور والتعليمات .
الجازمة .

واستغرق تبادل الرسل فترة من الزمن بين شاه ملك والخوازميه وطال
بينهما الحديث ، حتى احتج شاه ملك بقوله إن السلطان مسعود هو السلطان حقا
بأمر أمير المؤمنين ؛ وقد أعطاني هذه الولاية فعليكم تسليمها لي . فأجاب
الخوازميه بأنهم لا يعترفون بأحد وأن الولاية ولا يتهم ولا يتخلون عنها إلا
بالسيف « فتعالوا إلينا لنرى ماذا قدر الله ولئن تكون الغلبة » . ونزل شاه
ملك إلى صحراء تدعى آسيب بجيش عظيم ، والتقى بجيش خصومه وبدأت الحرب
بينهما يوم الجمعة السادس من جمادى الآخرة سنة إثنيتين وثلاثين وأربعمائة
(١٠٤١) ودامت ثلاثة أيام بلياليها ، وكانت من الشدة بحيث دارت الطواحين
بما سال من دماء فيها ، وقتل كثير من الطرفين ؛ وكان حسن التبانى مع شاه ملك وقال
لي لقد شهدت معارك كثيرة مع السلطان محمود مثل معارك مرو وهراة مع
السيمجورية وطغرل في مرو والخانيين في دشت كرد وغيرها ، ولكنى لا أذكر
معركة أشد هولا من تلك التى كانت بين شاه ملك والخوازميه . وقد انتصر
شاه ملك آخر الأمر فقد هزمهم في اليوم الثالث ظهراً فانسحبوا مدحورين إلى
المدينة ، ولجأوا إلى القلعة ولو أنهم بادروا إلى حرب القلاع لتعقد الأمور لطالت
المعركة ، ولكنهم لم يفعلوا ، فإن غضب الله كان قد حل بهم . وبقي شاه ملك
خمسة عشر يوماً في الرباط الذى هزمهم عنده حتى دفن القتلى وبرىء الجرحى .
وكانت الرسل تترى بين الطرفين وقد سعى الخوازميه للصلح وبذوا المال ، فقال
شاه ملك إنى أريد الولاية فإنها من حقى بأمر خليفة أمير المؤمنين . واتفق أن
أقبل عليه جيش آخر بكامل العدة فتقوى به شاه ملك ، وعرف الخوازميه
٦٩٠ ذلك فارتعبت فرائبهم ، وتأهب شاه ملك لمعاودة القتال ، وكان
الخوازميه يؤملون أنه سوف يعود إلى بلاده بين لحظة وأخرى . ومن عجيب
ما اتفق وقوع حادثه أدت إلى إخافة إسماعيل وشكر والألتوتناشيه من جند
السلطان ، فأدت هذه الحادثة إلى انقسامهم وخيل لإسماعيل وشكر بأنهم سقيضون

عليهما ليسا نوهمما إلى شاه ملك ، وأن هذه خطة دبرها السلطان مسعود ووزيره أحمد عبدالصمد وقد آزرهما فيها رجال الحاشية . فهرب إسماعيل وشكر وخصته وآلاتوتاشية من خوارزم ليلجأوا إلى السلاجقة إذ كانوا حلفاءهم ، وكان ذلك يوم السبت الثاني والعشرين من رجب سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة (١٠٤١) . وقد بعث شاه ملك بجيش لتعقب إسماعيل يوم هرب ، فصار وراءه حتى الحدود ولم يجده ، وظل شاه ملك خارج المدينة عشرين يوما حتى أتم تدبير كل شيء ، وأمنت المدينة وعاد كل من أراد العودة طائعا آمنا . ولما تأكد شاه ملك أن الأمور قد استقرت دخل المدينة واعتلى أريكة الملك ، وكان ذلك يوم الخميس منتصف شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة (١٠٤١) ، وقد نثروا الصدقات وأقاموا الزينات وزالت الاضطرابات ، وجاء يوم الجمعة من غد ذلك اليوم إلى المسجد الجامع بموكب عظيم فيه كثير من الفرسان والرجالة ، وخطبوا باسم أمير المؤمنين والسلطان مسعود وباسمه بعدهما .

ومن العجائب التي ينبغي أن نقف عندها أنه في اليوم الذي خطب فيه للسلطان مسعود كان هذا قد اغتيل منذ فترة في قلعة كبرى ، وكان السلطان مودود قد جاء إلى دينور في شهر شعبان هذا ، الذي غير شاه ملك الخطبة فيه ، وحارب عمه وأسرته مع أبنائه ومن انضم إليه وقتلهم جميعا في تلك الأيام ، كما سأل بين ذلك عند الكلام عن بقية عهد السلطان الشهيد مسعود وعن عهد السلطان مودود رضى الله عنهما .

ولم يكن السلاجقة أوفياء لإسماعيل وشكر وآلاتوتاش فقد أكرموا وفادتهم أياما وما لبثوا أن قيدوهم . والله عز وجل يعرف سر ذلك ، وقد خذل الآلاتوتاشية ولحقهم —م النلة . وسأبين مصير شاه ملك والخوارزمية أيام السلطان مودود حتى وقوعه في قبضة السلاجقة ، نتيجة ولائه للدولة الغزنوية وكيف قضى عليه وكيف ٦٩١ وقع نساؤه وأبنائوه في أيدي البغاة . فهذه كلها من النوادر والعجائب .

انتهينا من باب خوارزم وفيه فوائد جمّة من كل جنس . ولو قيل إنه جدير
بأن يكون كتاب تاريخ وحده لما كان هذا القول بعيدا عن الصواب ، لأن فيه
عبرة لأولى الألباب . وبعد فراغى من هذا الباب بادرت بتدوين باب آخر
حتى أفي بما وعدت إن شاء الله تعالى .

(تم الكتاب)

كشاف

أكتفينا في هذا الكشاف بأعداد الآحاد بين كل عقدين . وعلامة = تدل على أن العلم الذي قبلها ذكر بالاسم الذي بعدها في موضع آخر من الكشاف .

آلى التركمانى — ٢٢٠ ٦٢١	(٦)
آموى (اسم رجل) — ٢٧٨	آدم — ١٠٠
آيتكين — ٤٤٨	آذر — ٤٠٠
(١)	آسفتكين (صحته آسفتكين) =
إبراهيم (السلطان الغزنوى ،	غازى — ٢٥١ ، ٩٤ ، ٩٢
أبو المنظر) — ٤٠١ ، ٤ ، ٦ ،	آغاجى — ٥٣ ، ٥٥٢ ، ٣٦٥ ، ١٨٠
٩ ، ٩٩ ، ٥٢٢ ، ٤٣ ، ٨٠ ، ٦١٣ ،	١٧ ، ٧١٤ ، ٦١ ، ٥٦ ، ٦٥٥
١٤ ، ٥١ ، ٧٠١ ، ٧٢٢	٢٠ ، ١٩
أبو إبراهيم بن أحمد ميكائيل — ٣٨	آلتوتاش خوارزمشاه — ٥٥
إبراهيم البيهقى — ١٦٦	٥٦ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨
إبراهيم الحصىرى — ٢٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠	٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩
أبو إبراهيم القانى — ١٦٦	٩٣ ، ٩٥ ، ١٤٦ ، ٢٣٥ ، ٥٣
إبراهيم بن المهدي — ١٧٨	٩٢ ، ٣٠١ ، ١٣ ، ٣٣ ، ٣٤
إبراهيم ينال — ٦٠٠ ، ١ ، ٢ ، ٣	٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢
أحمد بن أبى داود — ١٨٣ ، ٨٥	٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠
٨٦ ، ٨٨	٥١ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥
أحمد بن أبى الإصبع — ٣٢٢	٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١
أحمد بن أبى القاسم الهاشمى — ٢١٦	٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٤١٤
أحمد أرسلان — ٧٤ ، ٥	٢٠ ، ٨٠ ، ٥٠٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨
أحمد أرسلان (خازن السيمجورىين) ٢٢٣	٢٩ ، ٦٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٥٤ ، ٧٠٢
أحمد أبو عمر — ٢١٨ ، ١٩	٣٠ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
أحمد أبو ناصر المستوفى — ٢١٩	٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤
أحمد بن الأمير محمد — ٧٢٥ ، ٢٦	٤٥ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨
أبو أحمد تكللى — ٢٤٠	آلتوتاش (الحاجب) — ١٥
أحمد الجامة دار — ١٩٩	٤٨٢ ، ٦٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨
أحمد حسن الميمندى — ٦٤ ، ٧٧	٧٩ ، ٧١١ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩
٧٨ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ٦٣ ، ٦٨	آلتون تكين — ٢٤٧
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ٩٥	

٤٧، ٤٦، ٢٩، ٢٨، ٢٧، ٢٥، ٢٤، ٢٣
 ٥٨، ٥٦، ٥٤، ٥١، ٤٨
 أحمد علی نوشتکین — ٤٤٩، ٢٦٨
 ٥٩، ٥٨، ٥٦، ٥٥، ٥٢، ٥٣
 أحمد میکائیل — ٥٨١
 أحمد ینالتکین — ٢٦، ٢٥، ٤٢٤
 ٥٩، ٤٩، ٣٢، ٣٠، ٢٩، ٢٨
 ٢٤، ٥٣١، ٧٤، ٦٥، ٦١، ٦٠
 أحنف فیس — ١١١
 آرتکین (حاجب السرای) — ٦٢٧
 ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٦٥، ٦٣، ٢٨
 ٢٣، ١٨، ٧١٥
 آرد شیر — ٩٩
 أرساطاليس — ١٠٠
 أرسالان — ٥٢٦
 أرسالان جاذب — ١٤٦، ٩٤، ٦٨
 ٧٥، ٥١٥، ٩٢، ٢٥٣، ٤٧
 ٤٦، ٤٥، ٧٠٩، ٨٤
 ابن أرسالان حاذب — ٤١٧
 أرسالان خان — ٥٧١، ٤٥١، ٢١١
 ٦٩٧، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢
 ١٠، ٧٠٩
 أرسالان خان بن قدرخان — ٦٥٠
 أرسالان السمرقندی — ٢٢٣
 أرسالان غلام — ١٣٩
 أریارق — ٢٣٨، ٧٤، ١٥٧، ٧٤
 ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٩
 ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥
 ٦٢٥، ٣٥١، ٩٣، ٥٢، ٥١
 أبو اسحق ابراهيم بن ايلك =
 بورتکین — ٩٧، ٥٩٦

٥٥، ٥١، ٣٨، ٣٧، ١٢، ٢٠١
 ٥٨، ٣٥٧، ٨٨، ٦٨، ٦٧
 ٨٩، ٨٨، ٨٧، ٨٦، ٨٤، ٦١
 ٥٦، ٣١، ٢٥، ٢٤، ١٤، ٤١٢
 ٤٣، ٤٢، ٣٨، ٧٣٧، ٥٦٢
 أبو أحمد خليل — ١٣٤
 أحمد زکی — ٦
 أحمد السامانی — ١١٠
 أحمد الطشت دار — ٧٢
 أحمد طغان — ٤٧٢
 أحمد عبد الصمد (الوزير) — ٨٨
 ٥٠، ٤١، ٣٦، ٣٣٤، ١٦٣
 ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٥، ٦٣، ٥٨
 ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ٧٠
 ٩٦، ٩٥، ٩٠، ٨٩، ٧٧، ٧٦
 ٢٠، ١٧، ١٤، ١٣، ٤١٠، ٩٨
 ٦٤، ٥٩، ٤٨، ٣٩، ٢٧، ٢٢
 ١١، ٥، ٥٠٣، ٩٩، ٧٤، ٦٨
 ٤٩، ٤٨، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٣٨
 ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦١، ٦٠، ٥٠
 ٧٧، ٧٦، ٧٥، ٧٤، ٦٨، ٦٦
 ٩٤، ٩٣، ٨٥، ٨٤، ٧٩، ٧٨
 ١٠، ٩، ٨، ٦٠٦، ٩٧، ٩٦
 ١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ١٥، ١١
 ٣٧، ٣٦، ٣٥، ٣٤، ٢٨، ٢١
 ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٨
 ٦٧، ٦٤، ٦٢، ٦١، ٥٤، ٤٧، ٤٥
 ٧٨، ٧٧، ٧٦، ٧٥، ٧٢، ٧١
 ٩١، ٨٦، ٨٤، ٨٢، ٨١، ٧٩
 ١٥، ١٤، ١٢، ١١، ٧١٠، ٩٣
 ٢٢، ٢١، ٢٠، ١٩، ١٨، ١٧

٧٥٠، ٧٧، ٤٩٨، ٦١٧، ٧٠٩،
 ١٠، ١١، ١٦، ١٧، ١٩،
 أميرك السبامدار — ٢٤٦، ٤٧،
 أميرك (معتد علي) — ٢٤٠،
 أميرك الختلي — ٦٢٩،
 أوكا^(١) (موسى تكين) — ٥٣٣،
 أوكار — ٩٨، ٤٩٧،
 إياز — ٢٩١، ٨٣، ١،
 أيدوسنقر — ٦٦٣،
 أيزديار (الأمير) — ٧٢٥،
 إيلك (لقب) — ٥٢٧، ٤٩، ٥١،
 ٤٤، ٤١، ٤٠، ٧٣٩، ٦٠١،
 إيلينكو — ٢٤، ٢٢٢،
 (ب)
 بابك الخرمي — ١٨٤،
 بانكان — ١٠٠،
 باكاليجار — ٢٩٠، ٣٥٩، ٩٥،
 ٩٩، ١٨، ٤١٠، ٧٣، ٧٦، ٨١،
 ٨٤، ٨٦، ٨٨، ٩٦، ١٠٩٦، ٤٠١، ٤،
 ٧، ٤١، ٩٤، ٩٨، ٩٩، ٦٠٠،
 ٧٣، ٤٨،
 باوردی = تارودی — ٤٥٣،
 بايتكين (الحاجب) — ٤٤٨،
 بايتكين (نحاکم داور) — ١٧، ١٦، ١١٥،
 بايتكين (غلام أبي نصر مشكان) —
 ٦٣، ١٤، ٦١٣،

أبو اسحق الخوارزمي — ٧٤٥،
 أبو اسحق الصابي — ٤٠٣،
 أبو اسحق (الغزي) — ٤٨٣،
 الإسكافي = أبو حنيفة،
 الإسكندر — ٣٠٧، ١٠٠، ٩٩،
 أسماء بنت أبي بكر — ٦٠٥، ٢٠٣،
 إسماعيل خندان — ٥٤٠، ٧٥٣، ٣٩، ٥٣٨،
 ٥٨، ٥٧، ٥٦، ٥٥،
 إسماعيل (من رجال الأمير يوسف)
 — ٢٧٨،
 إسماعيل الديواني — ٣٨٠،
 إسماعيل الصابوني — ٦٠٣، ٥١٧،
 إسماعيل بن عباد (الصاحب) —
 ٢٨٩، ٢١،
 أشناس = أفشين — ١٤٦،
 أفشين — ٨٧، ٨٥، ٨٤، ١٤٦،
 ٨٩، ٨٨،
 إقبال زرين دست — ٦٧٧، ٣٥، ٤٣٤،
 ألبتكين (من رجال علي تكين) — ٥٤٨،
 ألبتكين البخاري — ٤٥٤، ٤٤٣، ٧٤٢،
 ألبتكين الغزنوي — ١٨٠، ٢١٧، ٩٨،
 ألبتكين الحاجب — ٥٤٧،
 أمير بجه (الأمير الطفل^(١)) — ١٣٩،
 أميرك البيهقي — ٣٦٢، ٢٢٥، ١٧٦،
 ٧٤، ٧٢، ٧٠، ٦٨، ٦٧، ٦٥،

(١) ترجنا أمير بجه بالأمير الطفل ويذهب غني — فباض إلى أنها اسم علم، ص ٧٠٩ من كشف الص المارسي لها.

(٢) أوكا لقب يلعب به الكبير في العقل — ديوان لغات الترك، تعليقات غني — فياض ص ٧٠٣.

بكتكين الجوكاني — ٦٦، ٢٦٢
٦٧، ٧١، ٧٥، ٦١٦، ٢٠٠
٧١٧
بكتكين (حاجب الامير نصر) — ٣٨٠
بكتكين (حاجب مسعود) — ٩، ٤
١٠، ٥٧، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣
٧٥، ٧٧، ٢٤٧، ٤٨
بكتكين (كوتوال ترمذ) — ٦٧، ٤٦٦
بكتكين مرغابي — ٢٢٣
بكتوزن — ٩، ٨، ٧٠٧
أبو بكر البولاني — ٥٥٣، ٥٤، ٥٥
أبو بكر الحصري = الحصري
أبو بكر الحاجب — ٦٣٣
أبو بكر شهرمد — ٣٤٨
أبو بكر الصديق — ٥٧، ٥، ٢٠٣
أبو بكر الكاتب — ٧١
أبو بكر المبشر — ٥٦١، ٤٢٨
أبو بكر بمشاد — ٤٧
أبو بكر النوكي — ٣٠٠
البلعمي — ١١، ١١٠
البلغار — ٣٠٦
بلكاتكين — ٧٣، ٧٠، ١٦٤، ٥١
٢٤٠، ٤٨، ٦٢، ٦٨، ٧٤
٣٠١، ١٠، ١٣، ١٩، ٢١، ٨٨
٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨
بهرام (الترجم) — ٤٣١
بهرام كور — ٧٣١، ٥٤٤، ١٣٢
بهرام النقيب — ٦٤

بايتوز — ٢١٨
البحري — ٦٦٢
بختيار (عز الدولة) — ٢٠٨
بدر الحاجب — ٤٦، ٦٢٧، ٥٦
٦٥، ٦٩، ٧٢، ٧١٥، ١٨
٢٤، ٢٣
بديع الزمان الهمداني — ٤٧٩
بشير فرنسيس — ١١٩
أبو البركات (الشريف) — ٣٦٠
بزر جمهر — ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٣٥٣
أبو بشر التباني — ٢١٤
بشارت (الحادم) — ١٢٧
بغاتكين — (صحته يغاتكين) =
بغراخان
بغراتكين — ٣٧، ٣٢، ٢١١
٤٥٠، ٣٥٨
بغراخان — ٧٣، ٧٢، ٥٧١، ٢١٤
٧٥٠، ٧٤
بغوي (النديم) — ٧٥، ٧٤
ابن بقيه الوزراء — ٢٠٨
بكتغندي — ٤١، ٢٤٠، ٨٣، ١
٤٨، ٢١٠، ٢١، ٤٦٣، ٧٢
٧٥، ٨٦، ٨٧، ١٥٠، ١٦
١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٨
٢٩، ٤٩، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧٠
٧٥، ٨٥، ٩٣، ٦٢٥، ٣٠، ٣٧
٦٣، ٦٤، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤
٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٧١٢
١٣، ١٤، ١٧، ٥٦

بوقة — ۹۲، ۲۶۶، ۶۸

بوقی باسبان — ۸۴، ۴۸۳

بیربال — ۴۳۱

بیغو — ۶۰۰، ۷۳، ۲۸، ۵۰۳

، ۸۷، ۸۳، ۳۰، ۲۵، ۲۴، ۳، ۲

۹۵، ۹۳

(ب)

بروین (کسری) — ۴۰۲

بوران دخت — ۴۰۲

بورتکین (ابن لیلک) — ۵۹۶

، ۱۵، ۱۱، ۱۰، ۹، ۶۰۸، ۹۷

، ۲۵، ۲۲، ۲۰، ۱۹، ۱۷، ۱۶

۷۲۵، ۸۱، ۵۴

بیری (آخور سالار) — ۳۶۲

، ۸۲، ۴۶۹، ۷۵، ۷۱، ۶۷، ۶۶

۶۳، ۶۳۲، ۵۱۵

(ت)

تارودی = باوردی — ۴۵۳

تانس (من السامانیین) — ۴۸۳، ۲۲۱

تاش فرانس — ۱۵۷، ۶۸، ۱۳، ۱۲

، ۵۹، ۱۱، ۹، ۳۰۸، ۹۱، ۲۵۱

، ۱۶، ۴۱۱، ۹۵، ۸۳، ۷۸، ۶۳

، ۸۱، ۵۴۰، ۹۹، ۷۳، ۲۱

تاش ماهروی — ۶۵، ۵۲، ۳۲۸

۷۴۶، ۹۷، ۶۷، ۶۶

ترك الدواتدار — ۲۶۵

تركجه (الحاجب) — ۶۹۱

تکین الجامه دار — ۴۶۳

تکین الیلمی — ۶۶۵

تکین السقلابی الرده دار — ۶۴۷

تلك — ۳۳، ۳۲، ۳۱، ۳۰، ۴۲۹

، ۳۴، ۵۳۱، ۶۱، ۶۰، ۵۹، ۴۹

أبو تمام — ۷۳۳

تمك — ۵۳۱

(ث)

ثابت بن قره — ۷۳۶

الشالی (أبو منصور) — ۷۳۵

(ج)

جاسوس (منجم فلك) — ۱۶۴

جالبنوس — ۱۰۸

جریر الشاعر — ۴۳۲

جعفر البرمکی — ۷، ۲۰۶، ۱۹۰

۷۲۲، ۴۵، ۴۳، ۴۴۰، ۸

الجحی (أبو المظفر) — ۵۹۴، ۴۲۹

۷۴، ۶۶، ۵، ۴، ۶۰۰

(ج)

جانبك (الحاجب) — ۱۳۹

جنکی (جکی) — ۱۷۵، ۸۴، ۶۴

۵۷۹

(ح)

حاجي سقا — ٢٤٨

الحجاج — ٢٠٢، ٤٠٤، ٦٠٥، ٧٤٦،

أبو الحرت محمد بن علي بن مأمون —

٤٥، ٧٤٢

أبو الحارث منصور — ٨٠٧، ٧٠٦،

الخرة الختلية = الختلية

الخرة كالجي = كالجي

حسان بن ثابت — ٢٥٩

حسن (حارس سباشي) — ٧١٣

حسن (ابن الأمير فريغون) — ١١٦

أبو الحسن أبو نصر — ٢٦٢

حسن البرمكي — ٣٧٨

الحسن بن سهل — ١٤٦، ٣٤

أبو الحسن البولاني — ٥٤، ٥٥٣،

٥٥ = أبو بكر البولاني

أبو الحسن بويه — ٤٠٣

أبو الحسن (ابن القاضي صاعد) —

٢٢٧

حسن التتاني — ٥٧، ٧٥٦

حسن (حاجب أحمد) — ٢٩٧

أبو الحسن الحبشي — ٣٥٩

أبو الحسن الخربلي — ٢٠١

أبو الحسن خلف — ٢١، ١١٩،

٧٠٠، ٢٤٩، ٢٤

أبو الحسن دلشاد — ٩٥، ٤٨٥،

٩٢، ٨٩، ٦٥٦

حسن الإصفهاني — ٢٦٤

أبو الحسن سرهنگ — ٩٨، ٤٩٥،

حسن سليمان — ٢٣، ١٨، ٢٤، ٣٩،

٤١، ٤٠

أبو الحسن السيارى — ٣٨٩،

٦٤، ٤١٧

أبو الحسن سيميجور — ١٢٦، ٢٢٤،

٨٩، ٣٠٠، ٩٠، ٤١٦، ٨٣،

أبو الحسن عبيد الجليل — ٢٤٩،

٣٧٥، ٥٠١، ٧، ٣٣، ٤١،

٦٣١، ٢٢، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٦١،

٧٢، ٧٦، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٩٥،

٩٦، ٧٠٦، ١٢، ١٣، ١٤،

أبو الحسن عبد الله — ٣٧٥

حسن عبد الله (صاحب بريد غزنة)

— ٦٠٨

أبو الحسن العراقي = العراقي

أبو الحسن العقيلي = العقيلي

أبو الحسن القطان — ٣٩٩

حسنك — ١، ٣٧، ٥٠، ٦٣،

٦٤، ١٥٥، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢،

٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨،

٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،

٢٦، ٣٨٩، ٤١٩، ٤٢٠، ٦٧٢،

أبو الحسن كثير — ٢٢٢

حسن (كتخدا محمد) — ٩٥، ٥٧،

أبو الحسن الكرجي — ١٤٠، ٥٠،

- ٢٢٦، ٤٤، ٣١٥، ٥٩، ٦٧٣،
٩٣
أبو الحسن الكودياني (النديم) —
٣٤٤
حسن (المحدث) — ١٤٢
حسن مهران — ٢٥٢
أبو الحسن نصر علي — ٧٠٩
أبو الحسن هريوه — ٦٠٨
حسين عبد الله (الكاتب) — ٥٢٢،
٢٣
حسين بن علي (الإمام) — ١٠، ٢٠٣، ١٩٦،
حسين بن مصعب — ٤٨، ١٤٧،
حسين (سالار الحجاب) — ٧٣٥
حسين ميكائيل — ٦٤، ٣١٥،
(حسن) — ١٧، ٥١٥، ٧٢، ٤٧٠،
٢٠٠، ١٨
الحصيري (أبو بكر) — ٤٨، ٤، ٢،
٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ١٧٠، ٨٣، ٤٩
٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١
٨٢، ٩١، ٢٢٦، ٥٧١
الخطيئة — ٢٥٩
أبو حنيفة (الإمام) — ٢٥، ٢١٣،
٥٧٤
أبو حنيفة الإسكافي (الشاعر) —
٧٠١، ٤، ٤٠٣، ٣، ٣٠٢
- (خ)
خاتون أرسلان — ٢٧٦
خان تركستان — ٤١، ٤٠، ٧٣٩،
٤٤
الختليه (الحرة) — ١٨، ١٢،
٢٧، ٧٠٥، ٢٨٠، ١٢٧، ٧٧
خسرو (القاضي) — ٢٤٩
الخضر (عليه السلام) = ٢١٨
خلف — ١١٧
ابن خلف — ٢٢٢
خلف معروف ربيع (مهتمد سباشي)
٦٢٩ —
خليفة العارض — ٥٨٥
خليل داود — ٧٢٤
خمارتاش — ٣٨٣، ٢٩٢، ٦٨، ١٣
خمارتاش الشراي — ٧٤٥
خمار تكين ترشك — ٤٦٢
خمار تكين المقرئ — ٨٦، ٥٥٩،
٦٩
خندان — ٦٥٤، ٣٨، ٨، ٥٠٧،
إسماعيل خندان
خوارزمشاه آلتوتاش = آلتوتاش
أبو الخير البلخي — ٩٦

(د)

دارا بن قابوس — ٧٠٨

دارا ملك الفرس — ١٩

داود بن يونس — ٢١٣

داود الساجوقى — ٧٣، ٤٧، ٤٦، ٥٢٨

٢١، ٢٠، ١٩، ٣، ٢، ٦٠٠

٣١، ٣٠، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢

٩٢، ٨٧، ٨٤، ٨٢، ٦٦، ٤٧

٤٨، ٢٠، ١٦، ١١، ٧٠٩، ٩٥

داود الميمندى — ٧٢٤

درميش بت — ٢٥، ٢٤، ١٢١

الدقيقى — ٩، ٤٠٠

أبو دلف — ٨٥، ١٨٤

ديلمحى المحتشم — ٣٦٠

(ذ)

ذو الرياستين — ٥٠، ٤٨، ١٤٧

ذو القلدين (على بن سعيد) — ١٤٨

٥٠

ذو اليمينين — ٤٩، ١٤٨

(ر)

رافع بن سيار — ٤٧، ٤٤٦، ٣٧٦

راقتغمش (يارق تغمش) — ٦٨

راى كشمير — ٥٧٩

الراى الاعظم — ٥٧٩

رستم — ٤، ٧٠٣

رشيد بن خوارزمشاه — ٤٠، ٥٣٩

الرضا (الامير) — ١٦، ٢١٥

٢٤، ٢٣

الرمادى (أبو جعفر) — ١٢٦

رودكى — ٦٥٩، ٢٦٠، ٥٩

الرومى (ابن) — ٣٦٥، ٥٩

أبوريحان — ٣٦، ٣٤، ٧٣٣

٣٩، ٣٨، ٣٧

ريحان الخادم — ٢٦، ١١٦

(ز)

زبرقان بن بدر — ٢٥٩

الزبير بن العوام — ٢٠٣

زرين المطربة (ستى) — ٥٢، ٤٢٠

زكى محمود — ٢١٣

زياد بن ابيه — ٢٠٣

زيد بن على — ١٠، ٢٠٩

زيد (السيد) — ٥، ٤، ٦٠٢

زينب (الحرة) — ٧٢، ٥٧١، ٢١١

زينبى (زينتى) — ٧، ٣٠٢، ١٣٧

(س)

سابور — ٤٠٠

ساقلبش (حاجب أرسلان) —

٥٦٢

سارغ الشرايدار — ١٥٨

سعيد (الأمير) — ٣٧٦ ، ٢٩٨ —
 ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٥١ ، ٥٤٢ ، ٤١٥
 ١٨ ، ١٧ ، ٦٠٨ ، ٨٠
 أبو سعيد (أخو العرقى) — ٥٣٥ ،
 ٧٩ ، ٣٦
 أبو سعيد البغلاني — ٦٥٦
 أبو سعيد بن محمود طاه — ٥٦٢
 أبو سعيد الخاص — ١٣٦
 أبو سعيد السكاتب — ٥٣ ، ٨ ، ٧
 أبو سعيد سهل — ٦٠٨ ، ٣٧ ، ١٣٦
 أبو سعيد السملى — ٥٤ ، ٥٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٧٤٨
 سعيد الصراف — ٢٣٨ ، ١٤٦ ، ٦٢
 ٨٢ ، ٥٣٦ ، ٤٨١ ، ٥٧ ، ٥٣
 أبو سعيد المشرف — ٥٢٧ ، ٤٥٨
 ٦٠ ، ٦١٧
 السفاح — ٢١٠
 سليمان (الفارسي) — ٣٠٣
 ابن سلمى — ٢٠٤
 سليمان أرسلان جاذب — ٦٢٥ ،
 ٦٥ ، ٢٦
 سليمان الحكيم — ٧٠٣
 سليمان يسر يوسف — ٢٧٤
 أبو سليمان داود بن يونس — ٢١٣
 سليمان (رسول الخليفة) — ٣٧٨ ،
 ٩٢ ، ٩١
 ابن السماك — ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥٥
 ٥٩ ، ٥٨

سالار بوزكان (أبو القاسم) —
 ٢٠ ، ٤٣ ، ٦٠٢
 سامي (أستاذ عيد الغفار البيهقي) —
 ١١٦
 سباشي (سوباشي) — ٧٥ ، ٤٧٢ —
 ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ١٨ ، ١٥ ، ٥٠٥
 ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٧٥ ، ٦٠ ، ٤٩ ، ٣٩
 ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٤ ، ٩٢ ، ٩٠ ، ٨٩
 ، ١٠ ، ٩ ، ٧ ، ٤ ، ٦٠٠ ، ٩٨
 ، ٣٧ ، ٣١ ، ٢٨ ، ٢٥ ، ٢٢ ، ١٩ ، ١١
 ، ٧٦ ، ٦٩ ، ٦٣ ، ٦٠ ، ٤٦ ، ٣٨
 ٥٦ ، ١٧ ، ١٢ ، ١١ ، ٧١٠ ، ٨١ ، ٧٨
 سباشي تكين — ٦٠١
 سبستي — ٥٣
 سبكتكين — ١٥ ، ١٠٢ ، ٩٨ —
 ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ٢١٥
 ، ٤٨٠ ، ٨١ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١
 ٣٤ ، ٧٠٧ ، ٦١٦
 ستي (ابن آلتونناش) — ٤٩ ، ٣٤٦ —
 ٧٤٧ ، ٤٢٧ ، ٧٦
 ستي (زرين المطربة) = زرين
 سيدد الليث — ٧٠٨
 السديدين — ٧٠٨
 سديف — ٢١٠
 سعد سلمان — ٥٢٩
 أبو سعد غسان — ٤١٧

أبو سهل الزوزني — ۲۴ ، ۲۶ ،

۲۷ ، ۳۸ ، ۳۹ ، ۴۴ ، ۴۶ ، ۴۹ ،

۵۰ ، ۵۳ ، ۵۶ ، ۶۴ ، ۶۵ ، ۷۱ ،

۹۶ ، ۱۳۳ ، ۱۵۷ ، ۵۸ ، ۵۹ ،

۶۰ ، ۶۱ ، ۶۲ ، ۶۳ ، ۶۴ ، ۶۹ ،

۸۹ ، ۹۰ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۹۴ ، ۹۵ ،

۹۶ ، ۹۷ ، ۹۸ ، ۲۰۱ ، ۶۲ ، ۸۲ ،

۹۲ ، ۹۳ ، ۳۱۳ ، ۳۳ ، ۳۴ ، ۳۵ ،

۲۶ ، ۴۳ ، ۴۴ ، ۴۵ ، ۴۸ ، ۵۶ ،

۴۱۲ ، ۶۲ ، ۵۰۵ ، ۱۵ ، ۱۸ ،

۲۷ ، ۲۳۲ ، ۴۸ ، ۴۹ ، ۵۰ ، ۵۱ ،

۵۲ ، ۵۷ ، ۶۰ ، ۶۱ ، ۶۲ ، ۶۹ ،

۷۰ ، ۷۷ ، ۷۹ ، ۸۰ ، ۸۱ ، ۸۳ ،

۸۶ ، ۸۷ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۹۳ ، ۹۶ ،

۷۱۰ ، ۱۱ ، ۱۲ ، ۱۴ ، ۱۵ ،

أبو سهل الصعلوكي — ۳۸۰

سهل بن عبد الملك — ۵۸۱

أبو سهل علاء (عارض هراة) —

۵۶۴

أبو سهل لكشن — ۲۷۸

أبو سهل الهمداني — ۷۳ ، ۴۶۸

۵۹۶

سيابروز — ۷۲۴

سيف الدولة الحمداني — ۴۰۸

(ش)

شادتكين الخاني — ۷۴۵

(م — ۴۹ يه)

سنگوی — ۱۷۵ ، ۷۲۵ ، ۲۶ ،

ابن سنگوی — ۷۲۶

سوری — ۲۹۲ ، ۳۰۱ ، ۶۰ ، ۴۳۶ ،

۳۷ ، ۳۸ ، ۳۹ ، ۴۹ ، ۵۳ ، ۶۰ ،

۶۲ ، ۶۳ ، ۶۹ ، ۷۰ ، ۷۲ ، ۷۳ ،

۷۴ ، ۷۵ ، ۵۰۲ ، ۳ ، ۶ ، ۱۱ ،

۱۸ ، ۱۹ ، ۲۵ ، ۳۰ ، ۳۵ ، ۳۶ ،

۴۱ ، ۵۳ ، ۷۵ ، ۸۲ ، ۸۴ ، ۹۰ ،

۹۵ ، ۹۸ ، ۹۹ ، ۶۰۲ ، ۳ ، ۴۸ ،

۶۹ ، ۷۳ ، ۷۴ ، ۷۱۲ ، ۱۳ ، ۱۴ ،

سوندر — ۴۳۱

أبو سهل — ۱۵۲

أبو سهل (من رجال خوارزمشاه) —

۷۳۸

أبو سهل أحمد علي — ۵۲۶

أبو سهل أسماعيل — ۴۹۱ ، ۹۳ ،

۹۴ ، ۵۰۱ ، ۶۹۱

أبر سهل (الموكل بالاستتار ، معتمد

سبأشي) — ۵۸۲ ، ۸۴ ، ۸۶

أبو سهل الحدودي — ۱۷ ، ۹۶ ،

۱۵۹ ، ۶۹ ، ۹۵ ، ۳۰۹ ، ۸۸ ، ۸۹ ،

۴۱۲ ، ۱۳ ، ۱۴ ، ۱۵ ، ۱۷ ، ۱۸ ،

۲۰ ، ۲۲ ، ۶۴ ، ۷۳ ، ۵۴۰ ، ۵۱ ،

۵۲ ، ۶۴ ، ۶۷ ، ۷۶ ، ۸۲ ، ۸۳ ،

۸۴ ، ۹۰ ، ۹۴ ، ۹۵ ، ۹۸ ،

۹۹ ، ۶۴۸ ، ۶۵ ، ۷۱ ، ۷۲ ،

۷۳ ، ۷۴ ، ۷۵ ، ۷۱۸ ، ۲۵ ،

۲۷ ، ۳۰

الصولی — ۶۶۲، ۶۳	شاه خاتون (أخت قدرخان) —
صهیب — ۳۰۳	۴۵۱
(ط)	شاه ملک — ۷۴۹، ۵۱۰، ۴۷۵
الطائع لله — ۲۰۸	۵۱، ۵۰
طارق بن عمرو — ۲۰۴	شکر (الخادم ^(۱)) — ۷۳، ۳۷۲
طلوت — ۴۰۳	۷۵۲، ۳۸، ۸، ۵۰۷
أبو طاهر التبتانی — ۲۱۲، ۸۵	شهر آکیم — ۸۸، ۸۶، ۴۸۱
(أبو طالب) ۲۷، ۲۵، ۱۴	۹۱، ۹۰
۲۹، ۲۸ (عبد الله بن أحمد)	شهره نوش — ۳۸۳
۳۱، ۳۲، ۳۸۲، ۴۵۰، ۵۱	الشیخین (أبو بکر وعمر) — ۵۵۷
۷۳، ۷۲، ۵۷۱	شیرج ایلی — ۳۶۰
طاهر الکاتب — ۲۲، ۲۰، ۱۲، ۷	شیروان الغوری — ۱۲۴، ۱۲
۲۳، ۲۴، ۲۶، ۴۹، ۵۴، ۵۶	(ص)
۵۷، ۶۵، ۹۶، ۱۵۱، ۵۲، ۵۳	الصابی (أبو اسحق) — ۴۳۶
۵۴، ۵۵، ۵۶، ۳۴۸، ۵۹، ۶۳	الصاحب بن عباد — ۸۳، ۴۱۴
۷۸، ۸۳، ۸۹، ۴۱۰، ۱۱، ۱۲	۶۵۸
۱۶، ۲۱، ۲۲، ۶۹، ۷۰	أبو صادق التبتانی — ۲۱۲، ۱۳۴
طاهر ذو الیمینین — ۱۴۷، ۳۳، ۲۹	۷۳، ۵۷۱، ۲۷، ۲۶، ۲۵
۴۸، ۴۹، ۴۰۳	صاعد (القاضي) — ۳۸، ۳۷، ۳۶
أبو طاهر السیمجوری — ۲۶۵	۴۲، ۴۳، ۴۷، ۲۱۳، ۳۸۰
طاهر الکرخی (لعله طاهر الکاتب)	۹۹، ۵۱۷، ۸۳، ۶۰۰، ۲، ۱
— ۳۰۹	۷۴، ۶۸، ۵، ۴، ۳
طاهر کنده (وکیل بلسکاتکین) —	صافی (الخادم) — ۲۷۷
۲۶۲	أبو صالح التبتانی — ۲۶، ۲۵، ۲۱۳
طغان خان — ۹۴	صخری (ندیم خوارزمشاه) — ۷۳۵

(۱) فرأها کاز بمرسکی، مقدمة دیوان منوجهری شکر بمعنی السکر .

أبو العباس مأمون بن مأمون —

٧٣٤

عبد الجبار بن أحمد عبد الطمد —

٣٩٠ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ٤١٠ ، ١٨ ،

٢٠ ، ٢٧ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٥ ، ٥٠٧ ،

١١ ، ٧٤٧ ، ٤٨

عبد الجليل (ابن الخواجة عبد الرازق)

— ٧٢٩

عبد الرحمن (ابن الأمير محمد) —

٧٢٥

عبد الرحمن القوال — ٥ ، ٧٠ ، ٧٤ ،

٧٦ ، ٤٩٧

عبد الرازق (الأمير) — ٦٨ ، ٥٦٦ ،

٦٩ ، ٨١

عبد الرازق (المستوفى) — ٤١٧

عبد الرازق الميمندى — ٦٣ ، ١٥٨ ،

٦٧ ، ٩٨ ، ٣٩٩ ، ٥٦١ ، ٦٨٩ ،

٩١ ، ٧٠٦ ، ٢٤

عبد السلام (رئيس ديوان بلخ) —

٥٥١ ، ٧٦

عبد الرشيد (الأمير) — ١١٤ ،

٣٩٨ ، ٦٩١

عبد العزيز بن نوح الساماني — ٢١٤ ،

١٥

عبد العزيز العلوى — ٨٠ ، ١٦ ،

١٧

طغرل — ٥٠٣ ، ٢٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

٦٠٠ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٧ ، ٦٤ ، ٦٥ ،

٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ،

٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٧٤٨ ، ٥٧ ،

طغرل (حاجب يوسف) — ٦٩ ،

٢٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

أبو طليحة الشيباني — ٥٦٠ ، ٩٢ ،

٦٤٧

طويس — ٢٢٣

أبو طيب المصعبى — ١١٠ ، ١١ ،

٤٠٠

(ظ)

الظهرى (ابراهيم بن مسعود) —

٧٠٤

(ع)

عائشة — ٢٠٥

أبو العباس الإسفرايينى — ١٥٣ ، ٦ ،

٢١٣ ، ٦٨ ، ٥٤٢ ،

أبو العباس أبو الحسن خلف —

٧٠٠

أبو العباس السفاح — ٢١٠

أبو العباس (قاضى بلخ) — ٢٢٦

أبو العباس التبانى — ٢١٢ ، ١٣ ،

أبو العباس الضبي — ٦٥٨

عبدوس — ٥٧ ، ٦٠ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ،
٩٧ ، ١٥٨ ، ٦٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٢٣٩ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ،
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٥ ، ٣٣٤ ، ٣٥ ،
٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ،
٦٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١٢٤ ،
٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٥١٤

عبويه — ٢٨٦
عبيد الله الإسفراييني — ١٥٣ ، ٥٤
عبيد الله بن زياد — ٢٠٣
العتابي — ٥٩
أبو العتاهية — ٢٥٩
عثمان (ابن الأمير محمد) — ٧٢٥
العراقي الكاتب (أبو الحسن) — ٥٦ ،
٩٦ ، ١٥٢ ، ٥٥ ، ٤٢٩ ، ٣٠ ،
٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٤ ،
٥٠٠ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١١ ، ٣٥ ، ٣٦ ،
٣٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٨٦

عن الدولة الديلمي — ٢٠٨
عزيز بوشحنة — ٤٦٤
ابن عبد العزيز العمري (الزاهد) —
٥٥٥

عسجدى — ٣٠٧
أبو العسكر (أبو العساكر) — ٥٧ ،
٦٨ ، ٢٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
٦٧ ، ٤٥٦

عبد الغفار فاخر — ١١٣ ، ١٥ ،
١٦ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ،
٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٣٧ ،
عبد الملك بن نوح (أبو الفوارس) —
٧٠٨

عبد الملك الطوسي (الفقيه) — ٥٠٨
عبد الملك مروان — ٢٠٢ ، ٥
عبد المستوفى — ٢١٨

عبد الملك النقاش — ٥٣٧
أبو عبد الله أحمد بن أبي داود =
أحمد بن أبي داود
أبو عبد الله الحسين بن علي ميكائيل =
حسين ميكائيل

عبد الله الفارسي (الخطيب) — ٥٤٨
أبو عبد الله الفارسي — ١٦٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
٣٧٧ ، ٧٩

أبو عبد الله الخاتمي — ٣٤٠
عبد الله الكاتب — ٢٢٥ ، ٧٦
عبد الله بن الزبير — ٢٠٢ ، ٣ ، ٤ ،
٥ ، ٦

عبد الله بن طاهر — ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
عبد الله قرآنكين — ٢٩٦ ، ٤٢٥ ،
٦٩١ ، ٧٠٦

عبد الله (كتبخدا بكتغدي) —
٢٤٠ ، ٥٦٩

عبد الوهاب عزام — ٦٥٣

أبو علي الصغاني — ٢٨٩
أبو علي (صاحب أبي علي سيمجور)
— ٢٢٢

علي داية (علي عبد الله السهمي) —
— (١٠١، ٥١، ٥٣، ٨٣، ١٤٦،
٢٤٠، ٤٧، ٩٠، ٩١، ٣٦٢،
٨٨، ٩٣، ٩٥، ٤٦٦، ٦٧، ٦٨،
٧٢، ٩٦، ٥٠٠، ٤٢، ٢٨، ٦٥،
٦٧، ٦٨، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨،
٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٩٣، ٦١٠،
١١، ١٢، ١٥، ١٩، ٢١، ٢٢،
٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٧، ٣٨، ٦٠،
٦٣، ٦٧، ٦٩، ٧٦، ٧٧، ٧٨،
٧٩، ٨١، ٨٤، ٧١٣، ١٣،
١٤، ١٧

علي رايض — ٩٥، ١٩١، ٦٤
أبو علي (الموكل بضيافة الرسل) —

٣٢٧، ٣١٥، ١٧، ٣٢
أبو علي الزوزني (يقال إنه كنية
عبد الله كتخدا بكثدي) — ٥٦٩
علي سعيد — ٥٠، ١٤٩
أبو علي سيمجور — ٢١٥، ٢٠، ٢١،
٢٢، ٢٣، ٢٤، ٧٠٧، ٨

أبو علي شادان — ٦٤٧
علي الطيقاني — ٢٢٦
علي عبد الجليل = أبو الحسن عبد الجليل
٢٦٨

عُضد الدولة الديلمي — ٤٠٣، ٢٠٨
العقيلي = أبو الحسن العقيلي
علاء الدولة كاكو (أبو جعفر) —
١٤، ١٦، ٢٦، ٨٤، ٢٣٥، ٨٨،
٨٩، ٣٨٣، ٤١٦، ١٧، ٧٣، ٩٩،
٥٤٠، ٥١، ٥٢، ٦٤، ٦٧، ٧٦،
٩٥، ٦٩٣

أبو العلاء الطيب — ٢٥٦، ٦٥
٥٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٦٥٥،
٥٧، ٧١٢، ١٣، ١٤، ٢٤

العلوي الآملي — ٩٣، ٦٢، ٤٩١
علوي الزينبي — ١٣٧
أبو علي اسحق — ٦٣

علي بن أحمد (أبو الحسن) — ٢١٥
علي بن الفرات — ٦٦٢
علي بن موسى الرضا (الإمام) — ١٤٨،
٤٩، ٤٣٨، ٥٨٧

أبو علي بن نوشتكين — ٢٢٣
علي تكين — ٢٥٣، ٩٣، ٩١، ٦٧،
٣١٠، ٤٣، ١١، ٥٠، ٥٧، ٥٨،
٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠،
٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٩٧،
٤٦٠، ٧٢، ٧٤، ٩٦، ٩٧، ٩٨،
٥٠٣، ٤٨، ٧١، ٧٦، ٩٦، ٩٨،
٦٥٤، ٩٤، ٧٤٧، ٤٩، ٥٥
أولاد علي تكين — ٢٨، ٥١٢،
٣٢، ٣٣، ٩، ٦٠، ١٦، ٢٣، ٧٥٥

عنصري — ٧٤٤ ، ٤٠٦ ، ٧ ، ٣٠٢
عيسى (النبي) — ٣٥٣
عيسى المكراني — ٦٨١ ، ٥٧
٦٣ ، ٢٦١
عين الدولة (أخو بورتكين) —
٩٤ ، ٦٠٩

(غ)

غازي (آسغشكين) — ٣٥ ، ٢٦
٥٨ ، ٥٣ ، ٥١ ، ٤٤ ، ٣٧ ، ٣٦
٨٢ ، ٦٨ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠
٧٤ ، ٥١ ، ٥٠ ، ١٤٧ ، ٩٤ ، ٩٢
٤٤ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٢٣٨
٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥
٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣
٦٢٥ ، ٥٨٥ ، ٨١ ، ٤٥٠ ، ٣٥١

(ف)

فائق — ٧٠٧ ، ٤٣٨ ، ٢٢ ، ٢١٥
٩ ، ٨
أبو الفتح البستي (معاصر لحوادث
الكتاب) — ٦٢٩ ، ٧٩ ، ١٧٧
أبو الفتح البستي (١) (الشاعر) —

علي بن عيسى بن ماهان — ٢٩ ،
٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٢ ، ٤٤١
علي قريب — ١٠ ، ٨ ، ٧ ، ٥ ، ١
٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ١٧ ، ١٣ ، ١٢
٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣
٨٣ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩
٦٢٥ ، ٣٥١ ، ١٧ ، ٩٧ ، ٩٦
علي قهندزي — ١٧ ، ١٣ ، ٦١٢
أبو علي السكوتوال — ٧٤ ، ١٧ ، ٦
٧٩ ، ٥٨ ، ٢٤٩ ، ٩٧ ، ٨٤ ، ٨٣
٧٢ ، ٧١ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ٥٦٦
٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٤ ، ١٨ ، ٧٠٥٠٠
علي ميكائيل — ٢٢٥ ، ١٧١ ، ١٧
٢١ ، ١٩ ، ١٨ ، ٣١٤ ، ٦٨

٨٢ ، ٧٨

علي بن أحمد الميمندي — ١٩٩
علي (من السلاجقة) — ٦٦٦
عمر (ابن الأمير محمد) — ٧٢٥
عمر الخطاب (أمير المؤمنين) — ٢٥٩
٥٥٧
عمر و بن الليث — ٣٢٢ ، ٨٧ ، ٢٢١
٩ ، ٥٠٨ ، ٢٣
عندليب — ٤٥٢

أبو الفضل بن سهل — ١٤٧ ، ٤٨ «

٤٩

أبو الفضل البيهقي — ١ ، ٢٧ ، ٩٧ «

٩٨ ، ١٤٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٧٤ ، ٧٥ «

٧٩ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ٢٠٦ ، ٨ ، ١٤ «

٢٥ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ٣٠٨ ، ٢٣ «

٨٠ ، ٤١٠ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢١ «

٣١ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٥٠٢ «

٥ ، ١٨ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ «

٦٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٣ «

٦٠٦ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٠ «

٥٥ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٩ «

٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٧١١ «

١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ «

١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ «

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٥٩

الفضل بن الربيع — ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ «

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٤٢ ، ٥٥٥ «

٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

أبو الفضل الكرنكي — ٧١٥

فلك المعالي (منوجهر) = منوجهر

فناخسرو — ٢٠٨ ، ٨٩

فور (ملك الهند) — ٩٩ ، ١٠٠

فيروز الوزيري — ١٤١ ، ٢٤٩

(ق .)

القائم بأمر الله — ٣١١ ، ١٣ ، ٢٥ «

٣٠ ، ٣٣ ، ٧٨ ، ١٩١

٢٢٣ ، ٧٣٣

أبو الفتح الحاشمي — ١٥٣ ، ٥٤ «

٣٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ «

٥٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٦٤٧

أبو الفتح الدامغاني — ٢٩٦

أبو الفتح الرازي — ٩٦ ، ٣٥٦ «

٨٨ ، ٥٠٥ ، ٢٤ ، ٣٦ ، ٤٩ «

٦٩١ ، ٧١٠ ، ١١ ، ١٨

أبو الفتح مسعود — ٧٢٠ ، ٢١ «

٢٣ ، ٢٢

فقي العسكر = محمد بن عمرو بن الليث

نحر الدولة — ٢١ ، ٢٢٤

فرخي — ٣٠٧

أبو الفرج عالي بن المظفر — ٢٦٣

أبو الفرج الفارسي — ٤٥٦

أبو الفرج الكرمانى — ٢٩٦

فرخ زاد (السلطان الغزنوى) —

١١٤ ، ١٩ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٨٩ «

٢١٦ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٣٠٠ ، ١٢ «

٩٩ ، ٤٠٠ ، ٢ ، ٥٦٣

فرعون — ٣٠٥ ، ٧٠٤

فريدون — ٣٠٦

فريغون (الامير) — ١١٦ ، ٢١٥

الفضل البرمكى — ٤٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ «

٤٣ ، ٤٥

أبو الفضل البستي — ٢٥٢

أبو الفضل بن أحمد ميكائيل — ٣٨ «

٣٩٦

أبو القاسم كثير — ۱، ۹۶، ۱۶۶،
 ۷۰، ۹۵، ۹۶، ۲۲۲، ۴۳، ۳۵۷،
 ۸۴، ۸۵، ۸۶، ۹۰، ۴۱۲، ۶۵۷،
 ۶۰، ۷۲۷، ۳۰
 أبو القاسم السكحال — ۲۵۵
 أبو القاسم (النيسابوري ؟) —
 ۱۵۲
 أبو القاسم (والي صغانيان) —
 ۴۹۷، ۵۲۹
 أبو القاسم (صاحب بريد بلخ) —
 ۶۱۷
 قاضي شيراز (أبو الحسن) — ۲۹۴
 ۹۵، ۴۲۴، ۲۵، ۲۶، ۳۰، ۳۱،
 ۳۳، ۴۸، ۵۹، ۶۰
 قتيلغ — ۴۹۶، ۶۱۶
 قتيلغ (تمكين بهشتی) — ۱۲۸، ۲۹،
 ۳۰
 قتيلغ (الغلام ، حاجب أبي نصر) —
 ۳۱۲
 قيلغ (السبكتكيني) — ۲۶۱، ۶۲
 قراتكين (الغلام) — ۱۱۶
 قرقدان — ۳۱۲
 قدر الحاجب — ۴۶۹، ۵۳۰، ۶۲۵،
 ۶۵
 قدر خان — ۷۸، ۸۵، ۹۳، ۱۹۳،
 ۲۱۱، ۱۴، ۲۶، ۲۷، ۲۸، ۳۷،
 ۳۱۰، ۵۷، ۵۸، ۴۳۴، ۵۰،
 ۵۱، ۵۷۱، ۲

قابوس — ۴۷۹
 القادر بالله — ۱۷، ۴۲، ۱۹۲،
 ۳۱۱، ۱۳، ۱۷، ۲۰، ۲۷، ۲۸،
 ۹۳
 أبو القاسم الإسكافي (خوارزم) —
 ۷۵۴، ۵۶
 أبو القاسم الإسكافي (كاتب
 السامانيين) — ۶۵۸
 أبو القاسم (البيهقي ؟ الرازي ؟) —
 ۳۸۱
 القاسم بن عيسى (أبو دلف) — ۱۸۴،
 ۸۵، ۸۶، ۸۷، ۸۹
 أبو القاسم أبو الحكم — ۲۹۶، ۹۷
 أبو القاسم حاتمك — ۳۷۷، ۵۲۸
 أبو القاسم حريش — ۷۸
 أبو القاسم الحصري — ۸۵، ۱۷۱،
 ۸۱، ۸۲، ۲۱۲، ۲۸، ۳۵،
 ۳۸۲، ۴۵۰، ۵۱، ۵۷۱، ۷۲،
 ۷۱۵
 أبو القاسم الخزاني — ۳۹۲
 أبو القاسم خليك (حكيمك) — ۲۷۹
 أبو القاسم الدامغانی — ۳۴۶
 أبو القاسم الرازي — ۳۸۱
 أبو القاسم الرجال — ۶۷
 أبو القاسم سيميجور — ۷۰۹
 أبو القاسم علي النوكي — ۲۷۹، ۹۹،
 ۳۰۰، ۵۲۲، ۲۳، ۳۹

٥٣، ٢٥، ٣٠٣، ٢٨٦، ٨٨، ١٥

٤٠، ٤٠٢

ابن ماقية — ٤٥٨

مأمون خوارزمشاه = أبو العباس

المأمون (الخليفة) — ٢٨، ٢٩،

٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ١٤٨، ٤٩٠،

٧٨، ٤٤٧، ٧٠٢

مانك علي ميمون — ١٣٤، ٣٥،

٢١٣، ٢٧

المتنبى — ١١٦، ٢٥٩، ٣٠٢، ٤٠٨،

٩، ٣٢، ٨٨، ٦٥٨

مجد الدولة — ٢٩٠

مجدود (الأمير) — ٣٠٠، ٥٣٩،

٦٨

محتاج (أمير الحرس) — ٢٤٧،

٤٨، ٤٦٢، ٦٣

أبو المحاسن (رئيس جرجان) —

٣٦٠

محسن (ابن علي قريب) — ٥٣، ٧٩،

محمد الأعرابي — ٣٧٥، ٧٤٤

محمد العلوي (لعله الأعرابي (١)) —

٦٤٠

قزل — ٦٨، ٢٦٦، ٩٢، ٥٦٤

قلباق — ٧٤٦

قشاجاندار — ١٣٢

قونش — ٤٧٤، ٩٧

(ك)

كافور المعمرى — ٣٩٩

ابن كاكو (فرامرز) — ٦٩٣، ٩٤

كالجى (اخت سبكتكين) — ٧٣٤

كثير (جد أبي القاسم) — ٣٩٠

كر كيس عواد — ١١٩

كعب الأحبار — ٤٠٣

الكليم (موسى) — ٢٢٠، ٣٠٥،

٧٠٣

(ك)

كوهر (بنت السلطان مسعود)

٧٢٦

كوهر آئين (الموكل بالخزانة)

١٤٣، ٣٠٩، ٥٩، ٨٣، ٦٦٦

كوهر آكين — ٣٨٣

(م)

محمد صلى الله عليه وسلم — ١٠١، ٨

محمد أيوب (وزير الخليفة) —

٥٢، ٥٥١

محمد البربطي — ٦٠٧

أبو محمد البسطامي — ٣٦٠

محمد بن أبي بكر السليمانى — ٣١٤،

٢٣، ٢٠

محمد بن طاهر بن عبدالله — ٧١، ٢٧٠

محمد القزويني — ٦٥٣

محمد بن علي بن مأمون (الخوارزمي)

= أبو الحرث

محمد بن عمرو بن الليث = فتي العسكر

— ٩، ٥٠٨

محمد بن محمود (السلطان) — ٣، ١

١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٥، ٤

٧٠، ٥٦، ٥٢، ٥٠، ١٧، ١٦

٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١

٢٠، ١٦، ١١٥، ٩٥، ٨١، ٨٠

١٣، ٢١١، ٥٣، ٤٣، ٣٩، ٣٨

٧٠، ٦٥، ٤٢، ٣٦، ٣٥، ٣٣

٤٠، ٤٨١، ١١، ٣٠، ٢، ٨٣، ٨١

٢٦، ٢٥، ١٥، ٧٠، ٦، ٣٤، ١٤

محمد (ابن الحاجب طغان) — ٢٢٣

أبو محمد الدرخاري — ١٥٢

محمد (الأمين) — ٣٣، ٢٩، ٢٨

٤٨، ١٤٧

محمد زفر — ٢١٣

محمد (سرهنگ) — ٥٣٩

محمد شادتكين — ٢٢٣

أبو محمد علي (العلوي) — ٣٧

أبو محمد العلوي (السيد) — ٤٧،

٦٤٠

أبو محمد القايي — ٦٧، ١٦٦

محمد منصور مشكان — ٥٤٣

أبو محمد ميكائيل — ٦٣

أبو محمد الهاشمي — ٤٣

محمود بك (كتخدأ علي تكين) —

٣٧٠

محمود (السلطان) — ١١، ٦، ١

١٤، ١٧، ٢١، ٢٦، ٢٧، ٤٢،

٥١، ٥٢، ٦٦، ٦٨، ٧٤، ٧٨

٧٩، ٨٦، ٨٧، ٩٠، ٩٣، ٩٤

٩٦، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٦٠

١٧، ١٨، ٢٥، ٣٠، ٣٥، ٣٦

٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٧، ٥٣، ٦٦، ٧٩

٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٩٨، ٢٠٢

١١، ١٣، ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤

٢٥، ٣٨، ٤١، ٤٦، ٤٧، ٦٠، ٦٤، ٦٣

٦٨، ٧٠، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٨٩، ٩٩

١، ٢، ٣٠، ٥١، ٥٧، ٦٠، ٧١

٨٠، ٨١، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٩٤

٤، ٩، ١٠، ١٤، ٢٤، ٢٦، ٣١

٣٤، ٣٦، ٨٣، ٨٤، ٨٩، ١٢، ٥١

١٥، ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٤٤، ٥٣

٥٤، ٥٩، ٦٢، ٦٣، ٧١، ٧٣

أبو المظفر بن أحمد بن أبي القاسم
 الهاشمي — ١٦
 مظفر الحاكم — ٩ ، ٥٠ ، ٢٩٥ ،
 ٣١٥
 أبو المظفر الحبشي — ٢٥٩ ، ٤٦٩ ،
 ٩٨ ، ٧٠
 مظفر طاهر — ٤٦٢ ، ٦٣
 أبو المظفر القايي — ٦٥٨
 مظفر علي ميكائيل — ٢٦٨ ، ٥٣٥ ، ٦٩
 مظفر النديم — مظفر الحاكم
 مظفر النوكي — ٢٩٩
 المعتصم (الخليفة) — ١٨٢ ، ٨٣ ،
 ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٤
 المعتضد — ٧٣٦
 معدان (والي مكران) — ٢٦٣
 معد لدار — ١٣٦
 معز الدولة الديلمي — ٤٣٦
 ابن المقفع — ١٠٩
 منجوق (القائد) — ٣٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
 ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١
 ٥٨ ، ٥٣
 منكيتراك — ٢ ، ٤٨ ، ٥٤ ،
 ٥٦ ، ٥٨ ، ٨٣ ، ٩٧
 منصور بن نوح الساماني — ٧٠٦
 أبو منصور (كاتب التوتاش) — ٨٧
 أبو منصور (حارس الديوان) — ١٧٤ ،
 ٥٩١

٧٤ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٦٠١ ، ٣ ، ١٦ ،
 ٣٣ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٧٠٤ ، ٦ ،
 ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٤ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٤ ،
 ٣٦ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٧
 محمود (حاجب سيمجور) — ٣٠٠
 محمود طاهر — ٥٦٢
 محمود الكاتب — ٥٦٨ ، ٦٩
 محمود الوراق — ٢٨٧
 مختار أبو سعد (القاضي) — ٣٨
 مردانشاه — ٣٩٨ ، ٥٦٩ ، ٧٠
 مرد آويز — ٤٨١
 مسعودي — ٦١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٣٣٥ ،
 ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٣٤
 مسعود (السلطان) — في جل
 الصفحات
 مسعود (صهر أحمد عبد الصمد) =
 أبو الفتح مسعود
 مسعود الرازي (الشاعر) — ٦٥٣ ، ٧٣
 مسعود زخودي — ٥٦٣
 مسعود (من أسرة السلطان) — ٦٥٠
 مسعود محمد الليث — ٣٨٣ ، ٦٧٢ ،
 ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٧٠٩
 أبو مسلم الخراساني — ٥٩ ، ٤٠٣
 مصعب بن الزبير — ٢٠٢ ، ٣
 أبو مطيع السجزي — ١٣٤
 أبو المظفر البرغشي — ٣٨٩ ، ٨٠ ،
 ٨١

٢٨٠، ٩٧
 نصر بن أحمد الساماني — ١١٠، ١١٠
 ٤٥، ٧٠٨، ٤٠٣
 أبو نصر الباميانى — ٢٩٦
 نصر بن سبكتكين — ٢٣٣، ١٣٦
 ٣٨١
 أبو نصر المستوفى — ٤٣٧، ٣٤٩
 أبو نصر (أخو أبي الفرج عالى) —
 ٦٤، ٢٦٣
 أبو نصر البرغشى — ٧٤٨، ٣٩٥
 ٥٦
 أبو نصر البستى — ١٦٧
 أبو نصر البهيقى — ٤٩٨
 أبو نصر (الحاجب) — ١٧، ٣١٢
 ٥٠٥، ٨٧، ٧٢، ٤٦٥، ٩٢
 ٩٣، ٧٦، ٧٥، ٥١، ١٨، ١٥
 نصر خلف — ٢٨٠، ١٩٥
 أبو نصر الخوافى — ٦٤، ٢٦٢
 أبو نصر زخودى — ٥٦٣
 أبو نصر (حارس الديوان) =
 أبو منصور
 أبو نصر (السرهنك) — ٩٨، ٤٩٦
 نصر بن سيار — ٢١٠
 نصر (أخو السلطان محمود) — ٧٠٨
 أبو نصر الصينى — ٢٩ : ٥٢٦
 أبو نصر (طبيب الأمير محمد) — ٧٢
 ٥١١

أبو منصور الطيب — ٦٥٦
 منصور القاضي — ٥٢، ٦٥٠
 أبو منصور المستوفى — ٤٣٧، ٢٨٤
 ٢٩، ٧٢٧، ٥٧٠
 أبو منصور النوكى — ٣٠٠
 منوچهر قابوس (أبو منصور) —
 ٣٥٩، ٢٢٥، ١٤٥ : ١٤٢
 مودود (الأمير) — ٢٣٢، ١١٤
 ٥٠٠، ٤٣٨، ٩٩، ٣٥٠، ٩٨، ٧٨
 ٤٢، ٥٣٦، ٩٥، ٨٢، ٥٩، ٥١
 ٧٢، ٦٨، ٦٦، ٦٥، ٦٣، ٤٣
 ٨٩، ١٩، ١٨، ٦١١، ٨١، ٧٥
 ٢٩، ٢٤، ٢٣، ٢١ : ٧١٨، ٩٢ :
 ٥٨، ٥٦، ٥٣
 مؤذن (معتمد عبدوس) — ٩٦
 موسى تكين — ٥٣٣
 موفق (الإمام) — ٣، ٢، ٦٠١
 ٦٩، ٥
 ميكائيل — ٩٩، ١٨٩
 ميكائيل البراز — ١٣٥
 ميكائيل (من التركمة) — ٦٦٦
 (ن)
 ناصر خسرو — ٩٤
 ناصر على — ٤٨٦
 ناصرى (النديم) — ٧٥، ٧٤ (البغوي)
 الناصرى (مسعود) — ٧٠٤
 نبيه (الفقيه) — ١٩٥، ٥١، ١٠، ٩

٥١،٤٨،٧٢١،٨١،٧٠،٦٩،٦٢
 أبو نصر المطوعى — ٦٤٠،٤٣،٤٥
 أبو نصر النوكى — ٢٢١،٣٠٠
 ٧٨،٣٩،٢٣،٥٢٢
 أبو نعيم (النديم) — ٤٣٤،٣٦
 ٧٢٤
 أبو نواس — ٦٥٩
 نوح بن منصور الساماني — ٧٠٦
 نوح (الفقيه) — ٥٤٣
 نوشتكين ولوالجى — ٨٥،٤٨٤
 ٢٣،٥١٥
 نوشتكين خاصة — ١٢٧،٢٩
 ٦٨،٥٥٩،٧٥،٧١،٤٦٨
 نوشتكين نوبتى — ٤٣٤،٢٦
 ١٥،٧٠٩،١٤،٦١٢
 نوشروان (كسرى) ٣٥٣،٥٦،٤٠٠
 ٣،٢
 نوشروان بن منوچهر — ٤٨١،٣٥٩
 ٨٨،٨٦
 نيازى قودقش — ٣٠١
 (و)
 والدة السلطان — ١١٧،٧٧،١٨
 ٧٢٧
 أبو الوزير — ٢٠٧
 (ه)
 هامان — ٧٠٤

أبو نصر طيفور — ٢٩٦،٤٢٤
 ٦٥٦
 أبو نصر محمود (الحاجب) — ٢٢١
 ٤٩،٥٠٥
 أبو نصر مشكان — ٥٠،٢٦،١
 ٧٧،٦٦،٦٥،٦٢،٦١،٥٤
 ٩٥،٨٩،٨٧،٨٦،٨٥،٧٨
 ٥٩،٥٧،٥٣،١٥١،٩٧،٩٦
 ٨٢،٨٠،٧٥،٧٣،٦٩،٦٣
 ١٢،٢٠١،٩٦،٩٣،٩٢،٩٠
 ٦٠،٥١،٥٠،٤٦،٤٣،٣٧
 ٩٣،٩٢،٨٣،٦٨،٦٧،٦٢
 ٣٣،٢٤،٢٣،١٦،٣١٠،٩٩
 ٦٠،٥٨،٤٦،٤٠،٣٩،٣٥
 ٩٧،٩٤،٩١،٨٤،٧٧،٦٢
 ٢٣،٢١،١٧،١٥،٤١١،٩٩
 ٦٦،٦٥،٦٣،٦٢،٤٨،٢٦
 ٧٨،٧٧،٧٥،٧٢،٧٠،٦٨
 ٩١،٨٨،٨٧،٨٥،٨٣،٨٠
 ١٦،١٤،١١،٥،٢،٥٠٠
 ٣٠،٢٩،٢٦،٢٣،٢١،١٨
 ٤٩،٤٧،٤٤،٣٤،٣٣،٣١
 ٦٩،٦٥،٦٣،٦٠،٥٥،٥٠
 ٨٤،٨٢،٧٩،٧٧،٧٣،٧٢
 ٦٠٥،٩٧،٩٤،٩١،٩٠،٨٦
 ٤٢،٣٣،١٩،١٤،١٣،١١
 ٦٠،٥٨،٥٤،٥٠،٤٧،٤٥

يحيى الخشاب — ٦٥٣
 يحيى العلوى — ٤٤١
 يعقوب (أبو يوسف) — ٢١٣
 يعقوب الجندى — ٣٨، ٧٣٧
 يعقوب دانيال — ٢٥٦
 يعقوب الليث — ٨٧، ٧١، ٢٧٠
 ٤٠٣، ٧٦، ٣٢٢
 يغمر التركمانى — ٥٦٤، ٤٧٥، ٢٩٢
 ابن يغمر — ٢٣، ٤٢١، ٣٩٥
 ينالتى كين السبمجورى — ٢٢٣
 اليمىنى = محمود الغزنوى — ٧٠٤
 يوسف بن سبكتكىن — ٥٥، ١٧، ١
 ٢٣٣، ١٦، ١١٥، ٦٩، ٦٨
 ٦٢٥، ٧٩ : ٧١، ٦٦، ٦١، ٣٥

هزون الرشيد — ٧، ٢٠٦، ٢٨
 ٥٨ : ٥٥٥، ٤٧ : ٤٤٠، ١٣
 هرون بن آلتونتش — ٧٧، ٣٧٦
 ٤٨، ٤٧، ٢٧، ٤٢٠، ٩٦، ٩٥
 : ٩٧، ٧٤، ٦٩، ٦٥، ٦٤، ٦٠
 : ٤٧، ٣٤، ١١، ٧، ٢، ٥٠٠
 ٥٥، ٥٣
 هرثمة بن الاعين — ٤٤٧، ٤٧، ٣٣، ٢٩

(ى)

يارق طغمش — ٦٥، ٢٦١، ٦٨
 ٣٠٨، ٧٣، ٦٧، ٦٦
 يحيى ابن مكي — ٤٠، ٤٣٣، ٢٠٦
 ٧٢٢، ٤٧

٢ - كشف البلدان والأمكنة

أسيب - ٧٥٧
 (أصفهان - ١١، ١٢، ١٥، ١٦،
 ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٦، ٤٧، ٨٢،
 ٨٤، ٢٢٨، ٣٥، ٣٦، ٤٤، ٥٠،
 ٣٠٢، ٤١٦، ١٧، ٤٢، ٥٦،
 ٩٤، ٨٢، ٦٦٩، ٥٥١)
 أفغانستان - ١٣٥، ٢
 أفغانستان - ٩٨، ٨٦، ٢٨١
 ٥٣٧، ٤٥٢
 أندخود - ٦١٩، ٩٧، ٤٦٦، ٨٦
 أندراب - ٦٠٩
 أندغاز - ٧٤٧
 أندربیدی - ٤٢٧
 أوركنج - ٥٩٦
 أوزكند - ٤٠، ٧٠٩
 أون - ٦٦٤
 أهواز - ٣٢٢، ٥١
 إيران - ٧٠٤، ٦٨
 (ب)
 باب بستيان - ٢١٣
 باب الصف - ٢٠٤
 باجگاه (صحتها شجكاو) - ٤٥١، ٢٧٩

آب بنج (بنج، فنج) - ٦٠٩،
 ١٧، ١٠
 آبسكون - ٤٩٤، ٩٤
 آمل (في طبرستان) - ٨٢، ٤٧٣
 ٩٩، ٩٥، ٩١، ٨٨، ٨٦، ٨٥
 ٦، ٣، ٥٠٠
 آموی - ٧١، ٣٧٠، ٥٤، ٢٥٣
 ٤٧٣، ٦٩٥، ٥٧٢، ٧٥، ٧٤، ٧٣
 ٤٥، ٤٤
 آهنكران - ٥٤٢
 أدرسكن - ١٣١ (أدرسكر،
 أدرسكر)
 أردن - ٢٠٤
 أسبيج - ٥٧١
 أستاخ - ٦٠٨
 أسترياد - ٨٤، ٨٣، ٤٧٣، ١٤٢
 ٩٩، ٥٩٨
 أسروشنه - ١٨٦
 أستوا - ٦٥، ٦٦٤، ٥٠٦، ٤٦٩
 ٧٤، ٦٨
 إسفرايين - ٩٨، ٥٠٦، ٤٧٨
 إسفزار - ١٣١، ٥٤
 إسفند - ٦٦٩

برکرد (قلعة) — ۶۹۲	باخرر — ۶۶۹
بزی (رباط) — ۷۰۰	بادغیس — ۶۰، ۳۴۴، ۸۵، ۴۶
برکز — ۱۱۹	۷۶، ۶۴۶، ۶۲، ۴۶، ۵۳۰
بریان (بزیان) — ۱۱۹	بازار عاشقان — ۶۰۱، ۹۸، ۱۷۱
بروقان — ۶۰۶	بازرگان — ۲۶، ۶۲۴
بزخرو ۴۵۳	باشان — ۱۱۹
بزغورك — ۶۰۹، ۳۰، ۴۲۸، ۳۱۳	باغ فیروزی — ۸۰، ۲۷۶، ۱۳
= غورك	۲۶، ۷۲۳، ۶۰۸، ۷۸، ۵۳۹، ۴۳۳
بست — ۶۹، ۶۸، ۱۰، ۹، ۵	باغ خرمك — ۳، ۶۰۲
۵۷، ۳۱، ۱۸، ۱۵، ۱۱۴، ۷۱	باغ شادیاخ حسنی — ۶۰۳
۸۳، ۳۰۸، ۷۸، ۷۴، ۲۱۸، ۹۱	باغ صد هزار — ۳۸۲، ۲۸۸
۸۰، ۶۰، ۵۹، ۴۸، ۴۲۵، ۹۱	۵۸، ۴۲۸
۴۵، ۴۴، ۴۳، ۴۲، ۴۰، ۵۳۵	باغ عدنانی — ۶۵۶، ۴۷
۷۵، ۶۶، ۶۲، ۵۹، ۵۴، ۵۲	باع محمودی — ۳۷۸، ۸۸، ۲۸۱
۱۵، ۷۰۹، ۶۷۲، ۹۸، ۹۴، ۹۰	۳۶، ۴۳۴
بستان صد هزاره = صد هزاره	باغ وزیر — ۱۱۹
بست زار — ۲۸۰	باغ میکائیل — ۲۶۸، ۱۷۱
بستیان (باب) — ۲۱۳	باقلان — ۲۷
بشاور — ۵۷۹	باورد — ۶۹، ۴۶۰، ۳۹۵، ۴۶
بصره — ۲۰۲	۶۶، ۴۷، ۴۳، ۶۳۸، ۴۴، ۵۱۵
بعلبك — ۹۶	۸۹، ۷۴، ۶۸
بغ — ۵۳۰	بخاری — ۲۳، ۱۶، ۲۱۵، ۱۱۱
بغداد — ۲۹، ۲۸، ۲۱، ۸، ۱	۶۸، ۳۵۷، ۶۳، ۴۶۶، ۹۶
۱۱۴، ۸۲، ۸۰، ۵۱، ۴۲، ۳۳	۹، ۷۰۶، ۹۵، ۶۰۱، ۴۸، ۵۰۳
۸۸، ۳۶، ۲۰۸، ۹۹، ۹۸، ۹۴	۵۵، ۴۶، ۳۸
۸۲، ۷۸، ۲۴، ۲۲، ۲۱، ۳۱۱	بدخشان — ۲۶۸
۵۶، ۴۷، ۴۵، ۴۲، ۴۱، ۴۳۷	بران — ۶۴۸
۹۴، ۵۸، ۵۷	برتر (حصن) — ۱۲۰

بنارس — ۲۷، ۴۲۶	بغلان — ۲۶، ۲۶۸، ۶۹، ۶۰۶
بند کافران — ۶۲۱	۱۷، ۷۱۱، ۹
به بیروز — ۲۶۸	بلا ساغون — ۹۴
بهو النواب — ۵۴۲	بلخ — ۶۴، ۶۲، ۵۷، ۲۶، ۱۲، ۹، ۶
بون — ۵۳۰	۶۵، ۶۶، ۶۹، ۷۰، ۷۳، ۷۵، ۷۸
بیلاب (بستان) — ۱۳۰	۸۴، ۸۵، ۸۶، ۹۱، ۹۲، ۹۳، ۹۴
بیرهی — ۶۶۶	۹۷، ۹۸، ۱۱۴، ۱۳۵، ۴۶، ۵۱، ۵۴
بیق — ۴۲، ۳۹۱، ۶۶۹	۵۵، ۵۸، ۶۷، ۹۱، ۹۳، ۹۸، ۲۱۵
(ب)	۲۳، ۲۴، ۲۵، ۲۶، ۲۸، ۳۷، ۴۴
بار — ۱۱۹	۴۹، ۵۳، ۶۰، ۶۳، ۶۷، ۶۸، ۶۹
برشور — ۵۶۹، ۸۱، ۷۲۷	۷۳، ۷۴، ۷۵، ۹۶، ۱۱۰، ۱۳۱، ۱۴۱، ۱۸
برکه — ۶۰۸، ۹	۲۱، ۲۴، ۲۵، ۲۷، ۳۰، ۳۳، ۷۰
بروان — ۲۱۲، ۶۹، ۷۴، ۳۱۳	۷۴، ۷۵، ۷۷، ۷۸، ۸۲، ۴۲۷
۴۵۱، ۵۷۲، ۶۰۹، ۱۰، ۱۲	۲۹، ۳۱، ۳۶، ۵۰، ۵۱، ۵۶
۷۱۸	۶۰، ۶۶، ۶۷، ۶۸، ۷۵، ۷۷، ۹۸
بز — ۳۱۳	۵۰۰، ۱۱، ۱۲، ۲۸، ۳۲، ۳۷، ۴۲
بزغوزک = بزغوزک	۴۹، ۵۱، ۶۵، ۶۷، ۷۱، ۷۵، ۷۶
بزخرو — ۴۵۳	۸۱، ۸۴، ۹۷، ۹۹، ۱۰۱، ۱۰۸، ۱۰۵
بشتقان — ۴۵۳ (بشتقان)	۱۷، ۱۹، ۲۰، ۲۴، ۲۵، ۷۰، ۷۱، ۱۱
بنجیر — ۴۲۶، ۷۰۹	۱۷، ۲۰، ۲۵، ۲۸، ۴۱، ۴۵
بوشنک — ۴۶، ۱۴۸، ۲۲۱، ۳۷۶	۴۷
۴۳۴، ۶۲، ۶۳، ۵۸۵، ۶۸۳	بلخان کوه — ۶۸، ۳۹۵، ۴۲۱
۶۳، ۴۶	۲۳، ۶۹، ۷۳، ۷۵، ۷۸، ۵۰۴
بیروز — ۲۶۸، ۶۰۹	۴۴، ۶۴، ۶۳۳، ۶۸
(ت)	بلق — ۲۶۶، ۶۹، ۷۰، ۷۹
تاستار — ۴۷۳	بلقباد — ۴۳۸
تبان — ۸۵، ۲۱۲، ۲۵، ۲۶	بلوچستان — ۶۹
(م — ۵۰ بیق)	

الجبّال — ٨٢، ٦٨، ٤٧، ١٧، ١٢، ١١

٨٣، ٥٩، ٣٢، ٠، ٩١، ٢٨٩، ١٨٤، ٨٤

٤٢، ٤٠، ٣٧، ٢٢، ١٦، ٤١٥، ٨٩

٧٧، ٧٦، ٦٥، ٤٠، ٥٢٩، ٦٥، ٥٩

٨٢، ٧٣، ٦٢٤، ٩٩، ٨٥، ٨٢

٣١، ٧٣٠

جامع صفاهان^(١) — ٦٥٠

جرجان — ٢١٥، ١٧٠، ٩٠، ١٧، ٦

٩٩، ٢٠، ٣١١، ٣٥، ٢١، ٢٠

٥٩، ٤٢، ٤٠، ٣٧، ٢٠، ٤١٨

٨٢، ٨١، ٧٩، ٧٨، ٧٦، ٧٣

٤، ٢، ٥٠٠، ٩٥، ٩٢، ٨٣

٩٥، ٦٦، ٤١، ٣٣١٠، ٧، ٦

٨٢، ٧٣، ٤٨، ٦٢٤، ٩٨

٥٥، ٧٤٧

جرجانج — ٩٠

جرم — ٥٧٤

جرمق (رباط) — ٦

جروس — ١٢٠

جفرات — ٣٤١

جقراق — ٧٥١

جند — ٥١، ٥٠، ٧٤٩

جنجاخ (خفجاخ) — ٧٥١

جنكل إياز — ٧٥

تخارستان — طخارستان

ترکستان — ٩٣، ٨٦، ٥٧، ٦٨، ٦٦

٣٠١، ٧٦، ٧٣، ٢٧، ٢١٦، ١٣٥

٥١، ٥٠، ٤٢٦، ٨٢، ٥٧، ٢٠

٧٢، ٧١، ٥٠، ٥٢٧، ٦٦، ٥٢

٩٦، ٩٥، ٩٤، ٥٠، ٢٤، ٦٠٥

٧٤٠

ترمذ — ٣١١، ٦١، ٦٠، ٢٥٢، ٩٤

٥٢٩، ٩٧، ٩٦، ٦٦، ٤٦٠، ٢٠

٧١٠، ٢٠، ١٩، ٦١٨، ٣٧، ٣٣

٤٣، ١٧

تكران — ٢٧، ٢٦، ٤٢٥

تکیناباد — ٤٦، ١٢، ١٠، ٩٠، ٦، ٥٠، ٢

٢٧٠، ٩٧، ٨٣، ٧٠، ٥٣، ٥٠، ٤٨

٥٤٣، ٤٥٩

ترنك — ٧٠٢

تور (قلعة) — ١٢٥

تمور — ١٢١

تلبل — ٤

تولك (قولك) — ١٢٦

تون — ٥٦٠

(ج)

(١) رجح أديب ، وبطلق على نسخته يب ، أنه جامع سفیان . وبقول غني — فياض ص ٧٠٥
إن هذا الرأي يؤيده ماجاء في ثمار القلوب للثعالی حيث يقول : يضرب المثل بجامع سفیان الثوری
في الفقه للشيء الجامع لكل شيء كما يضرب بسفينة نوح .

٣٢، ٢٩، ٥٠، ٤٠، ٧٥، ٦٩، ٦٧

١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ٦١٠، ٤٤

٥٥، ٥٠، ٧٤٩، ٥٤، ٣٤، ٣٣

جیلان — ٨٦، ٤٤٠

جیل — ٦٧٣، ٨١، ٨٠، ٥٧٩

(ج)

جاشت خواران — ١٣٩

جشت — ١١٩

جند راهه — ٢٩٦

جوسقانی — ٦٠٩، ٣١٣

(ح)

الحجاز — ٤٠٠، ٢٠٢

الحديقة، البستان = باغ

الحديقة العدنانية — ٦٥٦، ٤٧

الحديقة الحمودية — ٥٨٦، ٣٧٨

حشم كرد — ٦٠٩

الحضر — ٤٠٠

حلوان — ٣٢٠، ٢٣٦، ٨٤، ٨٢

حصص — ٢٠٤

حورانة — ٢٦٩

حيوة (نيسابور) — ٤٣٨

حي سيمكران — ١٥٥

حي لشكري — ٦٦٠

(خ)

خابور — ٤٠٠

خار مرغ — ٣٠١

جوزجان — (جوزجانان) — ٣، ١

٨٠، ٧٣، ٥٧، ١٣، ١٢، ٨

٢١٥، ٢٠، ١١٦، ٩٥، ٨٦

٤٢٣، ٨٠، ٧٩، ٣٣، ١٧، ١٦

٥٣١، ٧٢، ٦٨، ٦٧، ٣٤، ٢٤

٢٠، ١٩، ١٤، ٦١٢، ٣٥

جوسق (قصر وحى وباب) عیدالاعلیٰ —

٦٩، ٦٧، ٢٦٣، ٦٥، ١٥٧، ٩٧

٢٠، ١٨، ١٦، ١٥، ٣١٣

٣٧، ٥٣١

جوسق دشت لنکان — ٤٥٩

٦٢، ٥٤٣

جوسق الدولة — ٤٣٣

جوسق سبید (القصر الابيض) —

٤٣٣، ٣٨٢

جوسق الشاه (دار الإمارة) —

٣٨٢، ٢٧٢

الجوسق العدناني — ٦٤٧ = سنکین

الجوسق المبارك — ٤٧

الجوسق الحمودی (سرای إمارة

غزة) — ٣٧٨

الجوسق الحمودی القديم — ٣٨٢

٨٠، ٣٨، ٥٣٧، ٢٦، ٤٣٤

الجوسق المسعودی — ٣٨، ٥٣٧

٩١، ٨٩، ٨٨، ٨٧، ٨٠، ٧٤، ٦٦

جیمجون — ٥٣، ٢٦، ١٧، ٢١٦

٦٧، ٦٦، ٣٦٢، ٦١، ٦٠، ٥٤

٤٦٦، ٧٥، ٧٣، ٧٢، ٧٠

۵۵، ۵۲، ۵۱، ۴۹ : ۴۷، ۴۱	خاکستر — ۲۱۷
خرو — ۴۵۳	خالنجوی — ۵۵، ۴۵۳
خروار — ۳۰۱	خانه زرین — ۵۶۸
خشک رود — ۲۸۰	ختلان — ۳۱۱، ۲۲۷، ۹۶، ۹۴
خنه جاق = جنجاق	۶۸، ۶۴، ۵۹، ۲۹، ۴۲۸، ۲۰
خلج — ۲۸، ۷۲۵، ۲۲۱	۶۹، ۱۵، ۱۱، ۹، ۶۰۸، ۵۱۱
خلیم — ۶۰۸، ۲۱۸	۱۷، ۴۳، ۳۱، ۷۱۰
خاقانی — ۲۷۹	ختن — ۱۳۱
خوابی — ۱۱۸	خداهان — ۶۴۸
خواجه — ۶۴۶	خراسان — ۱۵، ۱۴، ۱۳، ۳، ۱
خوارزم — ۸۷ : ۸۵، ۶۱، ۱۹	۱۷ : ۴۷، ۳۷، ۳۵، ۲۸، ۱۹
۳۷، ۳۵، ۳۳۴، ۲۲۳، ۹۱	۵۰، ۲۵۰، ۱۱۴، ۸۲، ۸۱، ۶۸
۴۱، ۷۴، ۶۶، ۶۲، ۵۸، ۵۱	۳۸، ۲۱۲، ۱۵، ۱۶، ۲۲ : ۲۴
۸۹ : ۹۵، ۹۱ : ۹۷، ۴۰، ۴۲۰، ۴۰	۳۳، ۳۵، ۳۶، ۵۰، ۵۳، ۳۵۸
۴۲، ۴۷، ۴۹ : ۵۸، ۶۰ : ۶۴	۶۲، ۶۳، ۷۸، ۸۴، ۴۱۷، ۲۴، ۲۹
۶۵، ۶۹، ۷۳، ۷۵ : ۹۲، ۹۹	۳۶ : ۴۸، ۵۸ : ۶۰، ۶۲، ۶۶
۵۰۰، ۲ : ۴، ۷، ۸، ۱۲، ۱۳	۶۹، ۷۲، ۷۳، ۷۵، ۷۶، ۷۸
۲۵، ۳۸، ۷۷، ۶۱۱، ۶۷، ۶۸	۸۲، ۸۲، ۹۷، ۹۹، ۱، ۵۰۳، ۴۳
۷۵، ۷۳۰، ۳۱، ۳۳، ۳۴، ۳۶	۶، ۷، ۸، ۱۱، ۱۵، ۳۳، ۳۵، ۳۶
۳۹، ۴۲ : ۵۱، ۵۵، ۵۶	۳۹، ۴۹، ۴۳، ۴۴ : ۴۶، ۴۹
۵۹، ۵۸	۶۰، ۶۲، ۶۴، ۶۵، ۶۷، ۷۲
خوار الری = خوار ورامین — ۲۴	۷۵ : ۷۷، ۷۹، ۸۱ : ۸۳، ۸۵
خوار ورامین = خوار الری — ۲۴	۹۱، ۹۵، ۹۶، ۹۷، ۹۹، ۶۰۰
خواف — ۶۶۹	۱، ۳، ۵، ۱۱، ۲۴، ۳۸، ۳۹
خوجان — ۶۸، ۶۶۵	۴۲، ۴۴، ۴۵، ۴۷، ۵۴، ۶۷
خیسار — ۳۶، ۱۱۹	۶۸، ۷۲، ۷۶، ۹۴، ۹۷، ۹۸
	۳ : ۷، ۶ : ۱۰، ۱۳ : ۱۵، ۳۱

دیری — ۶۰۸ ، ۴۵۹
 دینا = دینار
 دینار = دینا (دینار ساری) — ۴۷۸
 دینار کونه — ۵۷۹
 دینور — ۷۵۸ ، ۳۵۰
 دیه آهنک ران (قرية الحدادين) —
 ۵۴۲ ، ۲۸۶
 دیه بازر کافان = بازر کان

(ر)

رباط الکندی — ۲۴۹
 رباط بزی — ۷۰۰
 رباط ذو القرنین — ۲۵۳
 رباط رزن — ۵۴۶
 رباط کروان — ۵ ، ۷۰۰ ، ۶۹۷
 رباط ماشه — ۷۴۸
 رباط محمد سلطان — ۵۸۰
 رباط نمک — ۷۴۹
 رخا مرغ — ۵۷۴
 رزن — ۵۴۶
 رزان — ۱۲۰
 رسوله — ۴۵۲
 روان — ۶۰۶
 رودبار — ۴۷۵
 روضه ، حدیقه ، بستان = باغ
 رویان — ۴۸۶

(د)

دثار الإمارة = جوسق شاه — ۲۷۲
 دار زنگی — ۴۹۷
 دامغان — ۱۵۹ ، ۳۵ ، ۲۵ ، ۲۴ ،
 ۳۴۸
 داور — ۶۹
 دبوسی — ۷۴۶ ، ۶۴ ، ۶۳ ، ۳۵۰
 دجلة — ۴۰۰
 در رود — ۲۲۲
 درغان (دره خان) — ۷۵۱
 دره آهنین (۱) — ۴۹۸
 دره سرخ — ۶۷۴
 دره کز — ۲۲ ، ۲۱ ، ۶۱۹ ، ۵۳۳
 دسکرة — ۷۴
 دشت شاهرار — ۷۱۱
 دشت جوکان = دشت لنکان —
 ۱۵۷
 دمباوند (دنباوند) — ۴۹۹ ، ۴۴۱
 دمشق — ۲۰۴
 دندانتان — ۹۵ ، ۵۸۷ ، ۳۸ ، ۴۲۰
 ۷۱۳ ، ۹۹ ، ۹۶ ، ۹۵ ، ۸۸ ، ۶۷۱
 دهستان — ۴۷۳ ، ۳۹۵ ، ۱۴۲ ،
 ۷۵۰ : ۷۸ ، ۸۲ ، ۹۵ ، ۶ ، ۵۰۴
 ۶۸۲ ، ۲۸۰
 ده کنبیدان — ۵۰۲
 دولاب — ۱۴۱

(س)

ساری — ۴۷۳ ، ۷۸ ، ۸۱ ، ۸۲ ،

، ۸۴ ، ۸۵ ، ۹۳ ، ۹۹ ،

سبد باقان — ۳۱۵

سبیلخ — ۵۸۰

ستاج — ۲۷۴ (استاخ ؟)

ستار آباد = استر آباد

سجستان = سیستان

سر آسیا — ۲۷۲

سرای سنجند — ۶۶۴

سرخس — ۲۶ ، ۴۶ ، ۱۵۴ ، ۲۱۷ ،

، ۳۹۵ ، ۴۶۰ ، ۶۲ ، ۶۴ ، ۶۶ ،

، ۶۸ ، ۷۲ ، ۷۶ ، ۵۳۰ ، ۳۵ ، ۴۴ ،

، ۵۸۳ ، ۸۴ ، ۹۰ ، ۹۱ ، ۹۵ ، ۹۸ ،

، ۶۰۲ ، ۹۰ ، ۲۰ ، ۲۴ ، ۳۳ ، ۳۴ ،

، ۴۷ ، ۶۴ ، ۷۴ ، ۷۵ ، ۸۰ ، ۸۲ ،

، ۹۸ ، ۷۰۷ ، ۱۲

سعد آباد — ۶۶۴

سکاوند — ۱۴۲ ، ۲۷۵ ، ۵۸۰ ،

سکان — ۵۷۵

سمرقند — ۷۹ ، ۲۱۴ ، ۳۳ ، ۳۷۲ ،

، ۴۴۷ ، ۶۶ ، ۹۸ ، ۵۲۹ ، ۷۱ ،

سمندکان — ۶۲ ، ۱۴۶ ، ۵۰۶ ،

السند — ۴ ، ۶ ، ۱۹ ، ۶۹ ، ۳۲۰ ،

۷۲۵

سندس — ۴۶۷

الری — ۱ ، ۱۱ ، ۱۵ : ۲۲ ، ۲۰ :

، ۲۴ ، ۲۶ ، ۲۹ ، ۳۷ ، ۴۹ : ۴۱ ،

، ۴۷ ، ۶۸ ، ۸۰ ، ۸۲ ، ۸۴ ، ۹۰ ،

، ۹۶ ، ۱۳۸ : ۴۱ ، ۷۶ ، ۲۲۷ ، ۳۵ ،

، ۸۸ ، ۸۹ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۳۸۳ ، ۸۹ ،

، ۹۵ ، ۴۱۰ ، ۴۱ ، ۱۵ ، ۱۶ ، ۱۸ ، ۲۰ :

، ۲۴ ، ۳۷ ، ۴۰ : ۴۲ ، ۵۶ ، ۵۹ ،

، ۶۴ ، ۶۵ ، ۷۲ ، ۷۳ ، ۷۴ ، ۹۹ ،

، ۵۰۷ ، ۳۱ ، ۳۳ ، ۴۰ ، ۵۲ ، ۵۳ ،

، ۶۴ ، ۶۵ ، ۶۷ ، ۷۷ ، ۷۹ ، ۸۱ ،

، ۸۲ ، ۸۵ ، ۸۹ ، ۹۱ ، ۹۵ ، ۹۹ ،

، ۶۲۴ ، ۷۳ ، ۷۸ ، ۸۲ ، ۹۴ ، ۷۰۶ ،

، ۳۰ ، ۳۱ ، ۵۵

ریکستان — ۴۹۵

(ز)

زابل (غزنة) — ۲۸۷

زابستان (زاواستان) — ۶۹ ،

، ۲۱۹ ، ۳۲۰ ، ۵۶۹

زم — ۲۷۵

زوزن — ۲۴۴

زیرقان — ۲۶۹

زیرکان — ۱۳۱ ، ۵۳۵

(ز)

زه — ۲۸۴ ، ۸۸ ، ۴۳۶ ، ۵۳۹ ، ۶۸ ،

سنگین = الجوسق العدناتی

سه پنج — ۵۴۷

سوق الصرافین — ۲۸۷

سومناث — ۲۲۷ ، ۶۳ ، ۶۴ ،

۲۰۶ ، ۵۷۱

سباه کرد — ۲۵۳ ، ۵۴ ، ۶۳ ،

۵۴۶

سیحون — ۹۴

سیستان (سجستان) — ۵۱ ، ۶۸ ، ۷۱ ،

۱۱۷ ، ۲۲۱ ، ۶۳ ، ۶۶ ، ۳۲۰ ، ۴۳۵ ،

۴۰ ، ۴۲ ، ۵۶ ، ۵۸ ، ۶۴ ، ۵۰۸ ، ۹ ،

۶۷۲

سیله — ۴۶۶

سیمکران — ۱۵۵

(ش)

شاهار — ۲۸۰ ، ۹۷ ، ۳۰۸ ، ۵۴۲ ،

۶۷ ، ۶۸ ، ۶۰۷

شادی آباد — ۶

شادیاخ — ۳۶ ، ۴۵ ، ۵۷ ، ۹۵ ،

۱۵۷ ، ۳۸۷ ، ۹۲ ، ۱۹ ، ۲۰ ، ۷۲ ،

۵۱۰ ، ۱۶ ، ۱۸ ، ۹۰ ، ۶۲۰ ، ۶۸ ، ۶۹ ،

شارستان — ۲۸۷ ، ۳۱۹

الشام — ۹۶ ، ۱۹۴ ، ۲۰۲ ، ۳۲۱ ،

شجکاوند — ۴۵۱ ، ۵۲

شبورقان — ۹۷ ، ۲۱۷ ، ۳۱۴ ،

۳۴ ، ۳۷ ، ۵۱ ، ۶۷ ، ۶۲۰ ،

۲۲ ، ۲۱

شراه خان — ۷۴۸

شکورد — ۷۱۶ ،

شنکوی — ۶۰۹

شونیان (شومان) — ۶۱۹ ، ۲۰ ،

شیرخان — ۶۶۴

شیرنر — ۱۳۱ ، ۳۸۲

شیر و بز (شیربز) — ۳۸۲

شیراز — ۴۲۵ ، ۲۶ ، ۸۸ ،

(ص)

صدهزاره (صدهزار ، بستان) — ۲۸۸ ،

۳۸۲ ، ۴۲۸ ، ۵۸ ،

صغانیان — ۹۴ ، ۳۱۱ ، ۲۰ ، ۶۴ ،

۷۶ ، ۴۹۷ ، ۵۲۹ ، ۳۲ ، ۳۳ ،

۴۴ ، ۴۱ ،

الصفاء — ۲۰۴

سکبان — ۵۷۵

(ط)

طبران طوس — ۶۶۴

طارم — ۱۵ ، ۱۷ ، ۴۷ ، ۱۹۲ ،

۲۳۵ ، ۳۹۶ ،

طالقان — ۲۱۸ ، ۵۲۷ ، ۸۱ ،

۸۳ ، ۶۲۰ ، ۲۴ ،

طایقان (قرية من قری بلخ) —

۲۲۶

طبرستان — ۱۷ ، ۱۴۱ ، ۴۲ ، ۳۲۰ ،

علاء (حى) — ١٨٢

علياء باد (بلخ) — ٦٣٢ ، ٣٠

٢٤

علياء باد (الرى) — ١٤١

عمان — ٣٢٠

(غ)

غرجستان — ١٢٤ ، ٥٤٦ ، ٦٣٨

٧٠٠ ، ٩٢ ، ٩١

غزنة — ١ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١١

١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٤٨ ، ٥٣

٥٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤

٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦

٩١ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٧ ، ١٩

٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨

٥٠ ، ٦٧ ، ٩٣ ، ٢١٣ ، ١٩ ، ٢٤

٢٧ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٦٠

٦١ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣

٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ٣١١ ، ١٣

٣٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ٤١٤

٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٥١ ، ٥٢

٥٨ ، ٥٩ ، ٧٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٥٢٢

٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٨

٨٠ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٦٠١ ، ٨٠٥

٩ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨

٧١ ، ٧٢ ، ٨٦ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٧٠١ ، ٥

٤٣٧ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٧٦ ، ٧٩ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ٥٠٤ ، ١١

٣٣ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ٦٧٠ ، ٧٣

٧٥٥

طبس — ٥٤٠

طبرسين — ٥٩٤

طخارستان (تخارستان) — ٦

٦٩ ، ٩٤ ، ١٥٤ ، ٢٦٨ ، ٣١١

٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩

٧٢ ، ٧٥ ، ٥١١ ، ٦٥ ، ٩٦

٦٠٦ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٧١٠ ، ١١ ، ١٩

٢٧ ، ٢٥

طراز — ٥٧١

طالخاب — ٥٩١ ، ٦٢٤ ، ٢٦

طوس — ٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٣ ، ٢٦

٢٨ ، ٣٦٣ ، ٩٥ ، ٤٣٨ ، ٤٧

٦٩ ، ٥٧٥ ، ٨٧ ، ٦٣٨ ، ٤٨

٦٤ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩٧

(ع)

عباد (محلة) — ١٧١

العراق — ٧١ ، ٨١ ، ١٣٩ ، ٥٣

٥٧ ، ٢٠٢ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٨٨

٩١ ، ٢٠١ ، ٨ ، ٩ ، ٨٣ ، ٩٥

٤١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٥١

٧٢ ، ٥٤٤ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٦٤٥

٧٠٦

العقبة — ٦٦٥

قلعة أمیری — ۵۹۸
 قلعة دبوسی = دبوسی
 قلعة شادیاخ — ۶۲۰
 قلعة غزنة — ۳۱۲، ۵۸، ۲۲۳
 ۶۷۲، ۴۲۴، ۴۸
 قلعة کالنجر = کالنجر
 قلعة کړک — ۹۷، ۹۶
 قلعة کوهتیز = کوهتیز
 قلعة کیری — ۷۵۸، ۴۷۰، ۳۰۰
 قلعة ماریکلة — ۷۱۵
 قلعة میکائیل — ۶۷۲، ۹۵، ۵۹۰
 قلعة مندیشی = مندیشی
 قلعة نای مسعودی = نای مسعودی
 قلعة نندنه — ۱۵۸
 قم — ۳۵۹، ۲۹۰
 قندهار — ۶۹، ۲
 قنسرین — ۲۰۴
 قولک (صحتها تولک) — ۱۲۶
 قهستان — ۵۷۵، ۱۵۵
 قهندز بخاری — ۳۶۳، ۲۲۳
 قهندز بلخ — ۶۲۱، ۳۴۵، ۲۴۹
 قهندز جوزجان — ۱۵، ۶۱۲
 فیهقان (کیکانان) — ۳۲۰، ۱۳۱

(ک)

کابل، ۳۰۹، ۱۳، ۵۷۹، ۷۲۷

۲۸: ۲۵، ۲۰، ۱۷: ۳، ۱۰، ۹
 ۴۷، ۴۵، ۴۴، ۴۱، ۳۸، ۳۰
 غور — ۲۱، ۱۷، ۱۱۵، ۷۰
 ۶۹، ۴۹، ۲۲۸، ۲۶، ۲۵، ۲۳
 ۹۱، ۸۷، ۸۶، ۸۲، ۵۴۶، ۳۴۴
 ۵، ۷، ۰، ۹۳، ۶۹۲، ۹۳
 غورک = ارغوزک — ۳۱۳

(ف)

فاریاب — ۶۲۰، ۸۳، ۵۸۱، ۸۶
 فراوه — ۵۰۴، ۹۵، ۶۹، ۴۳۸
 ۶۸، ۶۶، ۶۴۲، ۶۶، ۲۸
 ۷۴۳

فراه — ۱۳۱

فلسطين — ۲۰۴

(ق)

قاشان — ۳۵۹، ۲۹۰
 قاین — ۵۳۰، ۴۸۵
 قبادیان — ۴۹۷، ۴۶۶، ۳۲۰، ۹۴
 ۴۳، ۷۱۰
 قزل — ۵۶۴، ۹۲، ۲۶۶، ۶۸
 قزوين — ۳۸۳، ۱۴۱
 قصدار — ۶۴، ۲۶۱، ۶۹، ۶۸
 ۲۰، ۳۰۱، ۷۴، ۷۳، ۶۶
 قصر محمدی — ۷۲، ۲۵۵
 القلعة العذراء = هانسی

کنج روستاق — ٤٦ ، ٤٧ ، ٨٥ ،
٦٤٦ ، ٨٦
الکوفة — ٢٠٢ ، ٤٥٧
کوکتاش — ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ٢٦٦
٤٧٥
کوهتیز (قلعة) — ٢ ، ٣ ، ٧ ، ٨ ،
١١ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٠
٢٧٠ ، ٨٣
کیکانان = قیقان

(ك)

کردیز — ١٣٦ ، ٢٢٤ ، ٢٥١ ،
٤٤٩
کیری = قلعة کیری

(ل)

لاهور — ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٤٢٦ ، ٢٧٠
٢٨ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١
٥٣٩ ، ٤٠ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٩ ،
٤٥ ، ٧٢٧
لشکری (ح) = حى لشکری

(م)

مارآباد — ١٢٥

کاروان^(١) — ٦٢٢
کاشان = قاشان
کاتخ — ٩٤ ، ٢١٤ ، ٢٨ ، ٣٧ ،
٥٧١ ، ٣٨٢
کالف — ٢٥٣ ، ٣٧٥
کالنجر (قلعة) — ٦٤ ، ١٩٧
کتور — ٤٣١
کجات (کجاتان) — ٣٧ ، ٣٢٤ ،
٧٥١ ، ٤١
کجا جیان — ٢٢٤
کرد = کتر — ٧٥٧
کچور — ٨٨ ، ٤٨٦
کشیر — ٦٤ ، ٤٣٠ ، ٥٧٩
کړک — ٩٦ ، ٩٧
کروان (کرنان) — ٢٧٨ ، ٤٢٣ ،
٥٠٧٠٠ ، ٦٩٧ ، ٢٤
کرمان — ٥١ ، ٧١ ، ٩٠ ، ٢٢١ ،
٢٤ ، ٣٢٠ ، ٤٤٢ ، ٤٩ ، ٥٦ :
٦٦٩ ، ٥٠٨ ، ٥٩
کرمانشاهان — ٢٣٦
کرنان = کروان
الکعبة — ٣٠٦ ، ٢٠٤
کنج — ٥٢٨
کلار (کلار) — ٤٨٦
کنج — ٤٢٦

(١) ذکرنا فی السطر العاشر من صفحة ٦٢٢ « وحطت العاقلة رحلها عند الجسر » ، والترجمة الصحيحة « وتزل السلطان عند جسر کاروان »

مشهد الرضا — ٤٣٨
 مصر — ٨٠ ، ٢١
 مكران — ٧١ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٥٨ ، ٥٧
 ٢٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٣٠١
 ٤١ ، ٥٣١ ، ٥٨ ، ٤٥٦ ، ٢٠
 مكة — ٥٧ ، ٥٥٥ ، ٤٩٤ ، ٥ ، ٢٠٢ ، ٧١
 منجوقيان — ٣٥٩ (ميخواران)
 مند كسكور — ٤٤٨
 منديش (قلعة) — ٧٠ ، ١٢
 ٧٥ ، ٧٣
 الموصل — ١٩٤
 مولتان — ٩٧ ، ٩٠ ، ٧٤ ، ٦٣
 ٧٤٥ ، ٦٠١ ، ٢٣٤ ، ١٣١
 مهراس — ٢١٠
 ميخواران — ٣٥٩ ، ٢٤٠ ، ١٧٢
 (منجوقيان)
 الميدان الصغير (غزنة) — ٢٧٢
 ميدان زرين — ٧٢٣
 ميدان عبد الرازق (نيسابور) —
 ٤٥٤
 ميمند — ٥٦١

(ن)

نای مسعود (قلعة) — ٦٠٨ ، ٤٥٩
 نخجير — ٦٠٩ ، ٤٢٦ ، ٢٦٨
 ند (١) — ٢٦٩

داريکاة — ٧١٥
 ماشه (رباط) — ٧٤٨
 ماوراء النهر — ٥٣ ، ٢٢٦ ، ١٩٣
 ٤٠ ، ٤٣٧ ، ٧٨ ، ٦٢ ، ٥٨ ، ٣١٠
 ٥٤ ، ٦٤٤ ، ٥٠٣ ، ٤٦ ، ٤٢
 ٧٢٥
 محمد آباد (نيسابور) — ٨١ ، ٣٨٠
 ٧١ ، ٦٦٩
 محمد آباد (قرب شانياخ) — ٥١٨
 محمد آباد (جرجان) — ٤٧٩
 المدائن — ١٢٥
 مدرسة باب بستيان — ٢١٣
 مدينة السلام — ٧٩
 مدينة الرسول — ٤٩ ، ١٤٨
 من مناره (؟) — ٧٢٧
 مرو الرود — ٥٣١ ، ٢١٧ ، ٩٥
 ٧٠٨ ، ٣٧
 مرو — ١٤٨ ، ٨٦ ، ٣٣ ، ٢٩ ، ٣٨
 ٤٩ ، ٢٢١ ، ٣٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٧
 ٤٨ ، ٤٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١
 ٤٤ ، ٢٧ ، ٥٠٣ ، ٩٩ ، ٩٧ ، ٧٥
 ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١
 ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٦٠٢ ، ١٠٠
 ٢٤ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢
 ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩
 ٧٠٦ ، ٨ ، ١٣ ، ٥١٠ ، ٥٥٠ ، ٥٧
 المروة — ٢٠٤ ، ٢٥

(١) ذهب غنى — فئاص إلى فراء معور وند بدلا من فور، وند . صفحة ٢٤٧ من النص الفارسي لها

نرما شیر — ۴۸

نسا — ۹۵، ۳۹۰، ۲۸، ۲۲۶، ۴۶
 ، ۹۵، ۷۵، ۷۱، ۶۹، ۴۳۸
 ، ۱۵، ۱۱، ۱۰، ۶، ۴ : ۵۰۲
 ، ۶۳۸، ۶۶، ۲۹، ۲۸، ۲۴، ۱۷
 ، ۷۴، ۶۸ : ۶۶، ۶۴، ۴۷، ۴۲
 ۵۵، ۷۴۲

تیسایور — ۲۶، ۱۸، ۱۷، ۱۱، ۲
 ، ۵۳، ۴۷، ۴۵، ۴۲، ۳۷، ۳۶
 ، ۹۲، ۸۳، ۸۲، ۶۸، ۶۷، ۵۷
 ، ۹۲، ۵۷، ۵۱، ۳۸، ۱۱۳، ۹۹
 ، ۲۲، ۲۱، ۱۸ : ۱۵، ۱۳، ۲۰۲
 ، ۳۲۲، ۹۲، ۹۱، ۸۹، ۲۷ : ۲۵
 ، ۸۴، ۸۱، ۸۰، ۶۰، ۴۴، ۲۳
 : ۱۸، ۴۱۶، ۹۶، ۹۱، ۸۹، ۸۷
 ، ۳۹، ۳۸، ۳۶، ۲۶، ۲۵، ۲۰
 ، ۶۹، ۶۶، ۶۵، ۴۵۸، ۵۳، ۴۹
 ، ۵۰۰، ۷۸، ۷۶، ۷۴، ۷۳، ۷۲
 ، ۳۰، ۲۸، ۵۲۷، ۱۰، ۷، ۲
 ، ۷۳، ۶۵، ۵۳، ۵۲، ۴۵، ۴۰
 ، ۸۹، ۸۳، ۸۲، ۸۱، ۷۶، ۷۵
 ، ۳ : ۱، ۶۰۰، ۹۵، ۹۴، ۹۰
 ، ۴۶، ۳۸، ۲۴، ۲۱، ۲۰، ۱۰
 ، ۷۹، ۷۴ : ۶۸، ۶۶، ۶۴، ۴۸
 ۴۷، ۳۵، ۸، ۷۰۷، ۹۷، ۹۵

نغر — ۷۲۵

نندنه (قلعة) — ۱۵۸

نور بخاری — ۹، ۷۴۷

نوق — ۶۵، ۶۶۴

نوقان — ۵۸۷

نهر غزته — ۲۸۶

نهر وان — ۴۱، ۴۴۰

نه کنبدان — ۴۶۸

نیمروز — ۴۲۲، ۳۲۰، ۱۹

(۵)

هائسی (القلعة العذراء) ۷۸ : ۵۷۵

۸۱، ۸۰

هراه (هری، هریو) — ۵، ۴، ۲

، ۲۴، ۲۳، ۱۸، ۱۷، ۱۲ : ۸

، ۶۷، ۵۴ : ۵۰، ۴۷، ۴۶، ۲۶

، ۸۳، ۷۸، ۷۵، ۷۲، ۷۰، ۶۸

، ۱۱۳، ۹۶، ۹۱ : ۸۹، ۸۶، ۸۵

، ۳۰ : ۲۴، ۲۱، ۱۹، ۱۸، ۱۶

، ۵۷، ۱۵۱، ۴۲، ۳۶، ۳۵، ۳۳

، ۲۲۰، ۱۶۰، ۲۱۵، ۹۸، ۹۱، ۶۳

، ۸۳، ۳۸۲، ۷۶، ۳۴، ۳۳، ۲۱

، ۲۵، ۲۳، ۲۲، ۱۸، ۴۱۲، ۸۸، ۸۷

، ۳۰، ۵۲۹، ۶۲، ۵۹، ۴۸، ۳۱

، ۶۰، ۵۲، ۴۶، ۴۵، ۴۰، ۳۹

، ۹۳ : ۹۱، ۷۵، ۶۷ : ۶۴، ۶۱

، ۶۲، ۵۰ : ۴۲، ۳۸ : ۳۶، ۶۱۰

، ۷۰۰، ۹۸۳، ۸۳، ۷۶، ۶۴

۵۷، ۱۳، ۸

۳۔ کشف اسماء الأسر والجماعات

الرافعيون — ٣٧٦
الروم — ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٠ ، ٦٢٤
الزبليون — ٢٨٧
السامانيون — ١١٠ ، ٢٦ ، ٩٩ ، ٢١٦
١٨ ، ٦٨ ، ٨٩ ، ٣٥٨ ، ٧٩ ، ٩٠
٤٠٣ ، ١٦ ، ٨٢ ، ٧٠٦ ، ٣٤
٣٨
السلاجقة — ٤٢٤ ، ٥٠٢ ، ٤ : ١٠ ،
١٣ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٥٨٣ ، ٤٤٤
٨٥ ، ٩٨ ، ٦٠١ ، ٥ ، ١٥ ، ٢١
٢٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣
٩٤ ، ٩٥ ، ٧٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨
السيمجوريون — ٢٢٣ ، ٤١٦
٨٣ ، ٧٥٧
الشاهنشاهية -- ٣٩
الصغانيون — ٩٤ ، ٣١١ ، ٣٠ ، ٦٤
٧٦ ، ٤٩٧ ، ٥٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣
٢٤ ، ٤١ ، ٦١٠ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٣
٧٣١
الطاهريون — ٧٣١
العباسيون — ١٤٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٣
٣٩ ، ٤٠ ، ٦٦٢ ، ٧٣١
آل عبد الرازق — ٤٥٣

بنو الأصفر — ٤٠٠
بنو أمية — ١٠٠٥٠٣
البايتون — ٤٨٠٠٢١٨
البرامكة — ٤١٠٤٣٩٠٢٠٧
٤٦٠٤٢
البراهمة — ٥٨٠
آل بويه — ٣٩ : ٤١٠٢٠٨٠٨٩
٣٢١٠٧٨٠٤١٤٠١٦٠٨٣
التبانيون — ٢٥٠٢١٢
الزركان — ٦٨٠٢٩٢٠٣٨٣٠٤٢١
٢٢٠٢٣٠٢٤٠٢٦٠٢٨٠٣٧
٤٩٠٥٨٠٦٠٠٦٢٠٦٦ : ٦٩
٧١٠٧٣٠٧٤٠٧٥٠٧٨٠٩٥
٥٠٢٠٣٠٦٠١٠٠١٥٠١٧
١٩٠٢٠٠٢٤٠٢٦٠٢٩٠٣٥
٢٦٠٤٠٠٤٤٠٦٧١٠٧٤٧
٧٤٩
الحميديون — ٧٠٨
الخانيون — ٦٦٠٥٧٢٠٦٣٣
٣٦٠٧٣٧٠٣٩٠٤٠٠٥٧
الخوارزمية — ٦٦٨٠٧٥٦٠٥٧
٥٨
الديالة — ٨٠١٩٠٢٠٠٤٠٣
٥٦٧٠٦٢٤

المأمونيون — ٧٣١ ، ٢٣ ، ٣٤ ،	العلويون — ١٤٨ ، ٤٤٠ ، ٤١
٤٥ ، ٣٥	العلويون (قبيلة في نيسابور) —
المعاذيون — ٧٣١	٦٧٤ ، ٦٦٦
الميكائيليون (ميكاليون) (١) — ٣٨ ، ٣٩	الغزاة (المطوعة) — ٤٢٥ ، ٢٦
بني هاشم — ٣١٤	القرامطة — ٢١ ، ٣٢١ ، ٩٣
اليزابون — ٥٠٢ ، ١٠ ، ٧٢ ، ٦٢٤ ، ٣٠ ،	قريش — ٣٢٥
٧٤٨ ، ٩٥ ، ٨٣ ، ٨٠ ، ٧٧ ، ٦٦ ، ٤٧	الكيميجيون — ٤٢٨ ، ٩٧ ، ٥٢٩ ،
	٢٣ ، ١٥ ، ٦٠٨

٤ — كشف المصطلحات التاريخية التي وردت بالكتاب

إشراف دركاه : الإشراف على
الدركاه .

إقطاع : أن يقطع السلطان رجلا
أرضا فتصير له رقبتها ، وتسمى
تلك الأرضون قطائع واحدها
قطيعة (مفاتيح العلوم ص ١٢٦) .

(ب)

البراءة : حجة يبذلها الجهمبذ أي
الخازن للثودي بما يؤديه إليه
(مفاتيح العلوم ص ٣٧ ، ٣٨) .
ويعطى الجندا أحيانا براءات لتحصيل
مال السلطان عنوة .
برده دار : الموكل بالاستار

(١)

آخور سالار : الموكل بالاصطبلات
أستاذ : بمعنى الرئيس وتستعمل مع
كلمة شاكر بمعنى النائب أو التلميذ
أسكدار : وتفسيره ازكو داري
أي من أين تمسك . وهو مدرج
يكتب فيه عدد الخرائط والكتب
الواردة والنافذة وأساى أربابها .
(مفاتيح العلوم ٤٢) وهو مدرج
يكتب فيه جوامع الكتب المنفذة
للختم (مفاتيح ص ٥٠) . وفي
« لغت فرس » هو ساعى البريد الذى
يغير دابته كل منزل والذى يتمنطق
بحزام حتى لا يتعب (ص ١٢٦) .

(١) أسيرة فارسية قديمة يرجع نسبها إلى بهرام كور الملك الساساني . وقد مدحهم البحترى
وأبو بكر الخوارزمي وعبرهما . وكان ابن دريد من حاشية واحد منهم وباسمه جعل كتابه جمهرة
اللغة وباسمه أيضا قال مقصوده وتحدث البيهقي هنا كثيرا عن علي ميكائيل ووصفه بأنه رئيس الرؤساء
وامتدحه وامندح أسرته .
وتحدث عنهم نفيسى تفصيلا في حواشيه الجزء ٣ ص ٩٦٩ وما بعدها .

الجزاز : الجمل السريع الذى يحمل
البريد ويقصد به الساعى المسرع
جنباشى : الحرس . فسرهما نفيسى
بأنهما من جان الفارسية بمعنى السلاح أو
الحرية وباش التركية بمعنى الرئيس
وخففت إلى جنباش (ص ٥٥٥)

(ح)

حاجى سقا : الساقى
الحره : لقب السيدة أو الأميرة . وبه
نودى نساء الأشراف والعظماء
تميزا لهم عن الجوارى فى القصور ،
وكانت هذه الكلمة متداولة فى
العصرين الأموى والعباسى (كتاب
التاج ص ١٤٢ ، نشر أحمد زكى باشا)

(خ)

خاصة خادم : الخادم الخاص
خر كاه (خركاهات) الخيمة
أو مضرب الخيام واستعملناه كما هو ،
لوروده هذا المعنى فى الكتب
العربية
خزانة الحجج : الخزانة التى تودع
بها الأوراق الرسمية الهامة .
خزينه دار : الموكل بالخزانة .
خريطه أنظر اشكدار

بيستكانى : مرتبات الجند التى تدفع
لهم أربع مرات فى السنة وهذا هو
رسم ديوان خراسان (مفاتيح
العلوم ص ٤٢) .
وتعرف الكلمة فى العربية بالعشرينية
والعلماء نقدون عشرين مثقالا (غنى
فيماض ٥٩ حاشية ١)

(ت)

التسبيب : أن يسبب رزق رجل
على مال متعذر ليعين المسبب له
العامل على استخراجيه فيجعل ورداً
للعامل وإخراجا إلى المرتزق بالقلم
(مفاتيح العلوم ص ٤١) .
التوقيع العظيم : كتاب من السلطان .

(ج)

جامه خانه : ديوان أو خزانة الألبسة
جامه دار : الموكل بالألبسة
جانددار = سلاحدار .
الجريدة : خيل لا رجالة فيها .
والجريدة من دفاتر ديوان الجيش الجريدة
السوداء وهى تكسر لقيادة قيادة
فى كل سنة بأسماء الرجال وأسمائهم
وأجناسهم وحلهم ومبالغ أرزاقهم
وقبوضهم ومائر أحوالهم وهو
الأصل الذى يرجع إليه فى هذا
الديوان فى كل شيء (مفاتيح ص ٣٨)

خليفة الدار: لقب يطاق على كبار ولاية
الاقاليم ، وقد لقب به هرون بن
التونش بعد وفاة أبيه وإقامته
مكانه في خوارزم .

خليفة المدينة : صاحب الشرطة فيها
خواجة : لقب من أسمى الألقاب
في ذلك الوقت وإن يكن اليوم
قل شأنه وتنوسى العمل به .
وقد أطلقه السلطان محمود على أبي
المظفر البرغشى الذى كان وزيراً
للسامانيين والذى عرض محمود عليه
الوزارة عدة مرات فأبى
(ص ٢٨٠ هنا) .

خواجه بزرك : الخواجة
الكبير وترجمناه بالاستاذ الرئيس
أحياناً .
خوانسار : الموكل بالمائدة .

(د)

داماد : الصهر . واستعملناه أحياناً
كما هو حين يدل على لقب .
الداق : أربعة طساسيج والدينار
أربعة وعشرون طسوجا والطسوج
ثلث ثمن مثقال (مفاتيح العلوم
ص ٤١) ويقرر بارتولد أن الجنيه
يساوى دينارين وأن الدينار
عشرون درهما (تاريخ الحضارة

الإسلامية الترجمة العربية لحزوة طاهر
ص ٤٤)
الدبير : الكاتب .

دبيرنوبت : كاتب النوبة .
دبيرى : الكتابة .

الدراجة والطليعة : فرق الحراسة
والاستطلاع .

دركاه : البلاط واستعملناها
أحياناً كما هى لشيوعها فى الكتب
العربية .

دندان مزد : هبة يمنحها الداعي
بعد الوليمة للدعوى مقابل ما تحمّلته
أسنانهم من المشقة فى الأكل .

دهقان : الوالى وأطلق فى هذا
الكتاب على السلاجقة الثلاثة الكبار
حين ولاهم مسعود بعض ولاياته
واستعملناه كما هو لشيوعه فى
فى الكتب العربية وأصله فى الفارسية
بمعنى رئيس القرية .

دوات خانه : ديوان التحرير .
دوات دار : الموكل بالدواة .
ديدبان : الحارس .

ديوان نان : حارس الديوان .

ديوان عرض : ديوان الجنود ،
العرض .

(م ٥١ — يهـ)

ديو سوار : الفسارس الذى يتشج
بزي الحرب (تعليقات نفيسى ص
١٠٢٦) .

دينار هريوه : الدينار الهروى ،
نسبة إلى هراة ويقال إنه يطلق على
الذهب الخالص (برهان قاطع) .

(ر)

الرائج من المال : ما سهل استخراج
رسولدار : الموكل بالضيافة أو
بضيافة الرسل .

ركابدار (ركابدارية) : القسام على
الركائب واستعملناه كما هو .

ركابدار خاص : القسام على ركائب
السلطان .

(ز)

زراد خانه : مكان تعد فيه الأسلحة
وأدوات الحرب .

الزعيم : يفيد أحيانا معنى الوالى ،
وأحيانا معنى كبير القوم . ووردت
بالمعنى الأول فى صفحة ٥٢٧ .

الزيادة : أن يزداد للجندى ، إذا
تعلقت به ، فى جاريه شيء معلوم
(مفاتيح ص ٤٢) .

(س)

ساربان : الجمال وهكذا ترجمناها ،
واستعملت كماهى فى الكتب العربية
(الشاهنامه العربية لعبد الوهاب
عزام) .

سالار : القائد واستعملناها أحيانا
بلفظها لشيوعه فى الكتب العربية .

سالار حاجبان : سالار الحجاب .
سباهدار : قائد دون السباهسالار .
سباهسالار : القائد الأعلى أو المقدم
(تاريخ ابن الاثير ، ج ٩ ، ص ٤٣٢
طبعة مصر) .

سراى : تطلق على القصر وعلى
البيت عامة . (سراى عمر الزاهد
الفقير) .

سرهنگ : ضابط كبير وهى
شائعة فى الكتب العربية .

سلاحدار : الموكل بالسلاح
سروثاقان : رئيس غلمان السراى
سوار سالار : قائد الفرسان .

(ش)

الشاذروان : أساس يوثق حوالى
القناطر ونحوها (مفاتيح ص ٤٦) .

شاكرد : التلميذ وتستخدم بمعنى

المرؤوس أو النائب .

شرابدار : الموكل بالشراب .

شارستان : إقليم مزدحم بالمـدن
أو قصر تحوطه الحداثق أو الضاحية
أو المدينة الحصينة واستعملت كما هي .

(ط)

طشتدار . الموكل بالطشت .

(ع)

العارض : رئيس ديوان الجند
ويوكل إليه نفقات الجيش وأرزاق
جنده ، وله الحل والعقد والإثبات
والإسقاط (ص ٥٣٦) .

(غ)

غازبان : (الغزاة) انظر المطوعة .
الغاشية : كسوة توضع على السرج
لتغطيته حين يترجل الراكب ،
وكانت امتيازاً يمنح للعظماء . وقال
البيهقي (ص ٣٨١) وكل من معه
خمسون درهما اليوم يستطيع أن
يشترى الغاشية ويحملها الخدم
أمامه .

(ف)

فراجية : جبة فضفاضة محلاة بالفراء
وهي جبة العظماء وملائة النساء

(قاموس الالبسة ، مولانا نظام

قارى ص ٢٠٢) .

فيل وار : تطلق على أكبر وزن في
ذلك الوقت وهو ألف ألف من
الدراهم التي يبلغ عيار كل عشرة
منها تسعة دراهم ونصف من خالص
الفضة (البيهقي ص ١٣٧) .

(ق)

القاصد : العين والرسول والساعي .
قهرمان : ناظر القصر .
قهنذر : معرب كهن دز أى قلعة عتيقة
(الشاهنامه العربية . عزام) .

(ك)

كارداران : الموظفون
الكاغد : الورق

كتخددا : الموكل بالشؤون الخاصة
لمن يلحق به ، ويكون له الحل والعقد
والخفض والرفع والأمر والنهي
(البيهقي ص ٤١٥) .

كوئوال : قائد القلعة واستعملناها
كما هي . وكوت بالهندي القلعة
(برهان قاطع) والكلمة تركية
الأصل ومعناها في الجغتائية حارس
القلعة أو قائدها .

كهريز : قناة يجري فيها الماء تحت
الأرض وعربها الخوارزمي بالكظائم
واستعملناها كما هي لذيوعها في

الكتب العربية (مفاتيح ص ٤٦)
الكوس : الطبل الكبير (الشاهنامه
عزام)

(ك)

كشادنامه : الكتاب المفتوح
الذي يسلم للأمور متضمناً الأوامر
التي يكلف بها حتى لا يعترضه أحد ،
ومن أمثاله ما جاء في صفحة ١٢٨ .

(م)

المرزبان : صاحب الثغر ويطلق على
الحاكم (عزام ، الشاهنامه) .
المستأكل : الذين يأكلون أموال
الضعفاء .

المستحث : جابي الخراج (غنى —
فياض حاشية ٤ ص ٥٧ هنا
ص ١٦٧)

المستخرج : من يستخرج مال الدولة
بالقوة من اغتصبه ، وقد يستخدم
العقابين والسوط وآلات التعذيب
والجلاد (ص ٣٨٤) ، وهدد
السلطان أعيان آمل بالمستخرج
(ص ٤٩٢) .

المستوفى : يتبع ديوان الاستيفاء
وهو ديوان المحاسبة والمستوفى
المحاسب وكان محمود الغزنوي يستخدم

الشدة في المحاسبة ، كالضرب بالسياط
وقطع الأيدي والأرجل والتعذيب
(ص ١٣٦) .

المشرف : يعينه السلطان جاسوساً
على رسول له لينقل إليه ما يحرى
أثناء أداء الرسالة .

مشرف المملكة : المكلف بالإشراف
العام ، والإشراف أكثر أهمية
من عمل صاحب البريد (ص ٥٢٣)
المطوعة : أو الغزاة (غازيان) وهم جماعة
يجمعون لقتال الكفار ويكويون
جيشاً عليه سalar خاص هو سalar
غازيان أو سalar غازي . وكان
هذا النظام منبعا أيام الغزنويين
في فتح الهند (غنى - فياض نقلا عن
بارتولد) .

المعماة : المعنى من الكلام ما عفى
معناه وخفي ويطلق عليه اليوم كلمة
« الشفرة » ، وكان لكل معماة رموز
يصطلح عليها حتى لا تعرف إلا لمن
يهمهم الأمر (ص ٣٣٥ ، ٧٢١) .
معدلدار : المحاسب .

المقاصة : أن يحبس القابض لماله
ما كان تلمظه^(١) واستلفه وربما
يقاص من رزقه بحق بيت المال قبله

(١). التلميط أن يطلق لطائفة من المرتزقين ببعض أرزاقهم قبل أن يستحقوا (مفاتيح ص ٤٣) .

من خراج أو نحوه فيجعل ما استلفه
إخراجا إليه وورداً له (مفاتيح
ص ٤٣) .

المقدم : القائد وتأتى بمعنى المرشد
أو الرئيس .

الملطفة : تطلق على السكيب القصيرة
وتكون في الأمور العاجلة على الأكثر
(غنى - فياض ص ٣ حاشية ٤)
المنشور : ما كان غير مختوم من كتب
السلطان (القاموس) .

منهمى : الجاسوس أو العيون
مهمتر سراى : أمين القصر

محفوريات : محفورة بلدة بشط الروم
ينسج بها البسط . واستخدمها البيهقي
بمعنى البساط المحمورى .

(ن)

الشار : ما يقدم من المال كهدية في
المناسبات العامة .

نيم ترك : نوع من الخيام الصغيرة
(حاشية لأديب ، ص ٢٣ هنا) .

(و)

الوثاق : بمعنى الحجره ويقول

عباس إقبال (في إيران امروز السنة
٢ العدد ١٠) إنها تحريف كلمة أتاى .
وتطابق الكلمة في هذا الكتاب على
عنابر الغلمان المتصلة بالسراى ،
ويسمون الوثاقين أى خاصة الخدم
(غنى ، فياض ص ٥٨ (١)) .

الوثاق باشى : رئيس عنبر من عنابر
الغلمان أو رئيس الغلمان (سياستنامه
ص ١٢٩ من طبعة إقبال والحاشية
٢ من هذه الصفحة)

الورق . الدرهم المسكوك .

الوضع : اصطلاح إدارى معناه أن
يعلق على اسم الرجل فيوضع عن
الجريدة (مفاتيح ٤٣) .

وكيل در : وكيل البلاط ، وهو
الموظف الذى يوفده حكام الأقاليم
إلى بلاط السلطان لينهى إليهم ما يعينهم
بما يجرى فيه ، ويراقب مصالحهم عند
السلطان .

(هـ)

هدية الحمام : ما يمنح للضيف نظير
نفقات الحمام .

٥ - كشف الكتب التي ذكرت في كتاب البيهقي

٦٥٧	كتاب مقامات محمودى	٦٦٢	أوراق الصولى
٢١٣	مختصر صاعد	٢٨٧	تاريخ محمود الوراق
٨٣٤	مسامرة خوارزم	٢٥	تاريخ اليميني
٤٤٤	لطائف حيل الكفاة	٦٥٠	جامع سفيان (كتب صفاهان)
١٢٦	كتاب الالفية	٤٠٣ ، ٢٠٨	كتاب التاجى

٦ - كشف المواضيع

٣٧	شفاعة القاضي صاعد للميكائيليين	٢	كتاب أركان الدولة المحمودية إلى الأمير مسعود
٣٩	إثارة الفتنة فى الرى والقضاء عليها	١١	ذكر ماجرى من الأمير مسعود بعد وفاة والده
٤٢	وصول رسول الخليفة القادر بالله بالمنشور	١٥	شفاعة الخليفة لىكون علاء الدولة أبو جعفر ابن كاكو نائباً لمسعود فى إصفهان
٥٠	ذكر ماجرى بعد مجيء العسكر من تكيينا بادلى هراة	١٥	كتاب مسعود رداً على شفاعة الخليفة
٥١	حديث على قريب كبير الحجاب	١٥	منشور الخليفة لمسعود بالتعازى والتهانى
٥٥	نصيحة خوارز مشاه التونتاش اعتقال على قريب وأخيه منكيتراك	١٧	حديث مسعود مع أعيان الرى
٥٨	شكوك التونتاش	١٩	كلام خطيب الرى لمسعود
٦١	اختلال أمر حسنك	٢٠	لقاء أنى سهل الزوزنى مسعود فى دامغان
٦٣	اطلاق سراح الخواجة الكبير أحمد حسن الميمندى واختياره وزيراً	٢٤	وصية هرون الرشيد إلى الفضل ابن سهل وصفح المأمون عن زلة الفضل
٦٤	نصيحة أبي نصر مشكان لمسعود	٢٨	
٦٦	مسعود يطلب العون من على تكين		
٦٨	استمالة التركان والاستعانة بهم		

١٨٩	شنق حسنك	١٨٩	ذكر بقية أحوال الأمير محمد بعد القبض عليه إلى أن رحل إلى قلعة مندیش ٧٠
٢٠٢	قصة عبد الله بن الزبير	٨٧	رسالة مسعود إلى قدر خان الإيقاع بالتونتاش وسفره إلى خوارزم ٨٦
٢٠٨	صليب ابن بقية الوزراء	٩٠	رسالة مسعود إلى التونتاش ٩٣
٢١١	ذكر إنفاذ الرسل إلى قدر خان ٢١١	٩٨	رد التونتاش على رسالة مسعود ابتداء تاريخ السلطان مسعود ٩٩
	قصة الأمير العادل سبكتكين مع سيده ٢١٦	١٠٢	فصل بقلم البيهقي فصل آخر له ١٠٢
	حكاية الأمير سبكتكين مع أنثى الغزال ٢١٨		المقامة في معنى ولاية العهد للخواجة عبد الغفار ١١٥
٢٢٠	حكاية النبي موسى مع الحمل ٢٢٠		الغرور وخضوعها لمحمود ومسعود ١١٨
٢٢٠	بقية قصة التبانیه نسخة الكتاب والمشافهتين مع الرسولين أبي طاهر وأبي قاسم الحصري ٢٢٨		عبث مسعود إبان ولاية العهد في هراة ١٢٦
	المشافهة الأولى ٢٣٠		ممارسة مسعود للرياضة والصيد خاصة ١٣١
	المشافهة الثانية ٢٣٣		قصة مانك مع مسعود ١٣٤
٢٣٨	ذكر القبض على أربارق ٢٣٨		قصة أبي سعيد سهل مع سلوك السلطان محمود مع الأمير مسعود ١٣٨
٢٥١	ذكر القبض على الغازي ٢٥١		نسخة العهد ١٤٤
٢٦٣	ذكر قصة ولاية مكران ٢٦٣		حكاية الفضل بن سهل مع حسين مصعب ١٤٧
	ذكر خروج السلطان مسعود من بلخ إلى غزنة ٢٦٧		تاريخ سنة ٤٢٢ ١٥٧
	ذكر القبض على الأمير يوسف ٢٧٠		قصة الأفشين ونجاة أبي دلف من شره ١٨٣
٢٧٦	ذكر قصة الغلام طغرل العضدي ٢٧٦		
٢٨٥	ذكر سيل غزنة ٢٨٥		
	اختيار أحمد ينالتكين قائدا للهند ٢٩٣		
	ذكر ورود الرسول من بغداد وإعلان وفاة القادر بالله وإقامة رسم الخطبة		

بقية سنة ٤٢٤ هـ ثم سنة ٤٢٥ هـ ٤١٠	٣١٥	للقائم بأمر الله
تعيين أبي سهل الحمدوى كخداوى ٤١٠	٣٢٥	خطاب الخليفة
ومنحه لقب الشيخ العميد وامتعاض ٤١٠	٣٣٠	صورة العهد
أحمد عبد الصمد من هذا اللقب ٤١٢	٣٣٣	أحوال أبي سهل والقبض عليه
إرسال الأمير سعيد إلى الرى ٤١٥	٣٣٦	دسيسة أبي سهل لالتوتاتش
والجبال نائباً عن والده مع أبي ٤١٥		رسالة أبي الفتح الحاتمي عن مقتل
سهل الحمدوى ٤١٥	٣٤١	منجوق
استقبال عروس السلطان بنت ٤١٨	٣٤٧	كتاب السلطان لالتوتاتش
بأكاليجار ٤١٨	٣٥٣	حكاية بزرجهر
ذكر ماجد من النوادر والعجائب ٤٢١	٣٥٦	اختيار أبي الفتح الرازى عارضاً
في نيسابور في صيف هذا العام ٤٢١		قصة حديقة غزنة ومجيء الاستاذ
أمر السلطان باعقال النركان ٤٢٢	٣٦١	الرئيس
في الرى ٤٢٢	٣٦٥	رسالة أميرك البيهقي
من عجائب تلك الفترة ٤٢٧		ذكر أخبار الرسل الذين أوفدوا
ذكر حال تلك الهندي ٤٣٠		من غزنة إلى دار الخلافة
حكاية هرون الرشيد ويحيى ٤٣٩	٣٧٨	وأحوالهم ثم عودتهم
البرمكي وهدية علي بن عيسى ٤٥٠	٣٧٩	حكاية الخواجة أبي المظفر البرغشى
ذكر رسل الحضرة الذين عادوا ٤٥٠	٣٨٣	تاريخ سنة ٤٢٤ هـ
من تركستان ٤٥٠		مرض الخواجة أحمد حسن
ذكر أحوال كرمان وهزيمة ٤٥٦	٣٨٤	الميمندى ومحاكمة أبي القاسم كثير
الجيش الذى كان مقبلاً بها ٤٥٩	٣٨٧	وفاة الوزير أحمد حسن الميمندى
ذكر خروج السلطان من غزنة ٤٦٤		اختيار أحمد عبد الصمد وزيراً
تاريخ سنة ٤٢٦ هـ ٤٧٢	٣٩٠	للسلطان
عيد سدة (السند) ٤٧٢	٣٩٣	رسالة الخليفة للسلطان
الحكاية في معنى السياسة ٤٨٠	٣٩٤	السلطان يرتدى خلعة الخليفة
	٣٩٩	فصل في معنى الدنيا

التركان يعبرون النهر ويكتبون إلى	ذكر ما كان من الجفوة بين السلطان
سورى ٥٠٢	وبغراخان ٥٧١
مقتل عبد الجبار بن أحمد	تاريخ سنة ٤٢٩ ٥٧٩
عبد الصمد ٥٠٧	فتح قلعة هانسي ٥٨٠
حكاية عمرو بن الليث حين نعي	الكتب تنبيء بأن التركان نهبوا طالقان
إليه ابنه ٥٠٨	وفارياب ٥٨١
السلطان يقرر إرسال جيش إلى نسا	سباشى يستصدر رأماً خاصاً يبدء
برياسة بكتغدى ومعه عشرة قواد ٥١٥	الحرب مع التركمان ٥٨٤
هزيمة جيش السلطان ٥١٨	وصف السرير الذهبي والبساط
إقبال رسول السلاجقة على	ومجلس القصر في الجوسق الجديد ٥٨٧
حضرة السلطان ٥٢٥	رسالة أبي الفتح الحاتمي وهزيمة
تاريخ سنة ٤٢٧ ٥٣١	سباشى ٥٩٢
الجوسق المسعودى ٥٣٧	رسالة أنى المظفر الجمحي ٥٩٤
تاريخ سنة ٤٢٨ ٥٤٣	رسالة الوزير ٥٩٦
السلاجقة يشكون من ضيق البلاد	رسالة أبي سهل الحمدوى وسورى ٥٩٨
التي منحت لهم ويطلبون جديداً ٥٤٤	رسالة من أبي المظفر الجمحي ٦٠٠
الماء يطغى على سفينة السلطان	تاريخ سنة ٤٣٠ ٦٠٨
وهو يلهو ، وملازمة أبي	شرح أحوال القهندزى ٦١٢
العلاء له (١) ٥٤٧	السلطان يهزم السلاجقة في وادى
حكاية هرون الرشيد مع ابن السماك (٢)	عليا باد ٦٢٢
وعبد العزيز (٣) الزاهدين ٥٥٥	محاربة السلاجقة في بيداء سرخس

(١) هو أبو العلاء الطيب وكان مشهوراً في عصره وكان يصحب ملوك البويهيين في السفر والحضر . تاريخ الحكماء للقفطى ، طبعة ليبسك ص ١٣٢٠ .

(٢) أبو العباس بن السماك تولى في الكوفة سنة ١٨٣ طبقات الصوفية للشعرانى ص ٦٠ .

(٣) عبد الله بن عبد العزيز العمري تولى بالمدينة سنة ١٨٤ طبقات الصوفية للشعرانى ص ٦٤ .

قصة الأمير منصور بن نوح	٦٢٦	وهزيمة
الساماني	٦٣٤	عودة السلاجقة
القبض على سبأشي وبكتغدي وعلى		إيفاد أبي نصر المطوعى للسلاجقة
داية	٦٤٠	برسالة من الوزير أحمد عبد الصمد
تاريخ سنة ٤٣٢		ذكر وصول السلطان مسعود إلى
حكاية جعفر بن يحيى البرمكي	٦٤٦	هراة
ذكر خوارزم	٦٥٣	تاريخ سنة ٤٣١
خطبة		موت أبي نصر مشكان وتولية
حكاية خوارزم شاه أبي العباس	٦٥٧	أبي سهل الزوزني مكانه
ذكر سبب انقطاع الملك عن ذلك		قصة حرب السلطان مسعود مع
البيت وانتقاله إلى الحاجب التوناش	٦٦٣	السلاجقة في مرو (دندانقان)
ذكر ماجرى في باب الخطبة		نص الكتاب إلى أرسلان خان
تسلط الأشرار	٦٩٧	



الكشاف:

١ — الأشخاص	٦٧٠
٢ — البلدان والأمكنة	٧٨٣
٣ — الأسر والجماعات	٧٩٨
٤ — المصطلحات التاريخية	٧٩٩
٥ — الكتب	٨٠٩
٦ — المواضيع	٨٠٩

تصويب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
المهمة	الهمة	٦٤	٩
من	من	٧٩	٥
إذ	إذا	٨١	١٧
إذا	إذ	٩٤	١٦
نثار	نثارا	١٢٠	٢
ورجاله	ورجاله	١٢٠	١
مقدم	مقدمة	١٢٠	٢
بلا بست	بلاد بست	١١٥	٤
رجلين	رجلان	١٢١	١١
هزات	هراة	١٢٩	٤
نوشتكين	نوشتكين	١٢٩	٦
المجزة	المجزة	١٣٥	٣
أقدامه	إقدامه	١٤١	١٣
محمود	مسعود	١٥٠	٥
الرحام	الزحام	١٥٤	١٠
الصيوح	الصبوح	١٧١	١٢
الحمدوني	الحمدوي	١٩٥	٤
معاقه	معقله	٢٢٣	٨
وعلى	على	٢٤١	١٠
زبرقان	زيرقان	٢٦٩	١٢
ابن منصور	أبي منصور	٣٠٠	٤
لم	ثم	٣٠٦	١١
إخراجهم	إخراجهم	٣٢١	٦
حقه	حقه	٣٧٧	١٧

الخطأ	الصواب	الصفحة	السمار
مردانكاه	مردانشاه	٣٩٨	٩
المعصي	المصعب	٤٠٠	١٣
بلـكان	بلخان	٤٢٣	١٨
فيها	فيها	٤١٣	١٠
هند	تلك	٤٢٩	١١
يغر	يغري	٤٣٨	٢٠
سك	سلب	٤٤٢	٢
عين	يحي	٤٤٣	١٣
عليها	علينا	٤٥٦	٦
ترك	ترشك	٤٦٢	١٥
لـ	لـ	٤٦٤	١٠
عل	على	٤٦٨	١٩
بايتوزيان	البايتوزيين	٤٨٠	٥
فوح	فوج	٤٨٦	١٤
قزل	قزل	٤٨٦	١٥
نصائحهم	نصائحهم	٥٠١	٢
الدكاه	الدركاه	٥٠٣	١
أ	أني	٥١٠	٣
وغيرها	وغيرها	٥٢٤	١٢
منه	(تشطب)	٥٨٨	١١
عدو	عدو	٥٩٦	١٢
لـ	لـ	٥٩٦	١٤
دراة	دراة	٦٠٤	١٥
البرطى	البربطى	٦٠٧	٦
ختلان	ختلان	٦٠٨	١٩
بـج	بـج	٦١٧	٥

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
آمد	ترمد	٦٢٠	٥
محطات القافلة رحلها عند الجسر	ونزل عند جسر كاروان	٦٢٢	١٠
المرتزقة	المستأكة	٦٢٤	١٤
يضاف إلى السبب سائر	إلى آخر السطر ١٦	٦٢٧	١٦ ، ١٧
فراه	فراوه	٦٤٢	١٩
إن	أن	٦٤٦	٤
أتباع	اتباع	٦٦٣	٢
حلس	جاس	٦٦٩	٢
لمواحدة	لمواجهة	٦٩٤	٥
المقلب	الملقب	٧٥٣	٥
وابك	جوابك	٤١٧	١
حو مارا	طو مارا	٤١٧	١
وحيث	وحيث	٧٧٢	٤

هذا وقد وضعنا أرقام الصفحات الفارسية من طبعة غنى — فياض في أماكنها من الترجمة وقد وقع فيها بعض الخطأ :

ففي الصفحات ٥١ ، ٣٨٤ ، ٦٢٦ ، ٧٢٣ ، تصحح أرقام النص الفارسي إلى ٥٤ ، ٣٦٢ ، ٥٧٢ ، ٧٥٧

وتوضح صفحات النص الفارسي ١٨ ، ١٩٢ ، ٣٤٨ ، ٤٠٠ ، ٤٤١ ، ٤٦٤ ، ٥٨٨ ، ٥٩٣ ، في الصفحات العربية ١٨ ، ٢٠٥ ، ٣٦٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦٩ ، ٤٩٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٢ ، وذلك في الأسطر ٦ ، ٣ ، ٣ ، ١ ، ٢ ، ١٥ ، ١ ، ١ .

وأما فيما يتعلق بالأحرف الفارسية الخاصة بهذه اللغة فلم تتمكن من ضبطها كلها وهي لا تخفى على القارئ المتخصص .